@ketab_n
Follow Me
29.1.2016

دوستويفسكي

الشياطين

المجلد الأول



ترجمة: د. سامي الدروبي

دوستويفسكي

الشياطين

ترجمة: د. سامي الدروبي

المجلد الأول



دوستويفسكي

الشياطين

المجلد الأول

الكتاب: الشياطين/ المجلد الأول
المؤلف: دوستويفسكي
ترجمة: د. سامي الدروبي
عدد الصفحات: 520 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-886-52-8
رقم الناشر: 14/439-61

الطبعة الأولى: 2014

الناشر:

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340
بريد إلكتروني: beirut@dar-altanweer.com
مصر: القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225
فاكس: 0020227738932
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

ضللنا الطريق فما عسانا فاعلين؟
الشيطان يجرنا هنا وهناك
ويديرنا إلى كل الجهات

ما عددهم وإلى أين يسيرون مسرعين؟
ماذا تعني أغنيات الحداد هذه التي يرددونها؟
أهم يدفنون أحداً من أهلهم؟
أم أنهم يزوِّجون ساحرة؟

أ . بوشكين

"وكان هناك قطيع من الخنازير يرعى في الجبل، فتضرَّعت الشياطين إلى يسوع أن تدخل في الخنازير. فأذن لها. فخرجت من ذلك الإنسان ودخلت في الخنازير. فاندفع القطيع من أعلى الجرف إلى البحيرة وغرق فيها. فلما رأى رعاة القطيع ما حدث هربوا ونشروا النبأ في المدينة وفي القرى. فخرج الناس ليروا ما جرى، فلما وصلوا إلى قرب يسوع وجدوا الإنسان الذي كانت الشياطين قد خرجت منه، وجدوه لابساً ثيابه، مالكاً عقله، جالساً عند قدمي يسوع. وروى لهم شهود الحادث كيف خلّص المجنون."

(إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني، 32)

الجزء الأول

الفصل الأول

بمثابة مدخل: بضعة تفاصيل عن حياة المحترم المبجل ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي

حين أشرع في سرد قصة الأحداث الأخيرة الغريبة التي وقعت في مدينتنا ـ في هذه المدينة التي لم تتميز بشيء يوماً ـ فإنني أجدني مضطراً أن أتقهقر قليلاً إلى الوراء، أي أن أبدأ بذكر بعض التفاصيل عن حياة ذلك الرجل الموهوب المحترم المبجل ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي[1]. إن هذه التفاصيل لن تكون إلّا مدخلاً إلى القصة التي ننوي أن نرويها. أما القصة نفسها فتأتي بعد ذلك.

يجب أن أقول بصراحة أن ستيفان تروفيموفيتش قد مثل بيننا على الدوام دوراً خاصاً، دوراً "مدنياً" بمعنى من المعاني، وكان مولعاً بهذا الدور أشد الولع، شغوفاً به أقوى الشغف، حتى ليخيّل إليّ أنه ما كان يستطيع أن يعيش من دون أن يمثّله. ليس معنى هذا أنني أشبّهه بممثل على مسرح. معاذ الله! لا سيما وأنني أنا نفسي أحترمه. ولعل الأمر لا يعدو أن يكون عنده أمر عادة، أو قل أمر ميل ثابت نبيل، كان يحمله منذ الطفولة، بأن يحلم لنفسه ـ متلذذاً

---

(1) ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي: إن هذا الاسم العلم مشتق من الكلمة الروسية المجردة فرخوفنستفو، ومعناها التفوق. وهو يمكن أن يدل على أن هذه الشخصية، كأكثر الأساتذة الروس، تنحدر من أرومة من رجال الدين. غير أن له معنى أعمق كما تبين ذلك ملاحظة وردت في إحدى مسودات الرواية، حيث يقول دوستويفسكي: "إن فرخوفنسكي يظل طوال الرواية ينافس ابنه على التفوق" (فرخوفنستفو).

ـ بوضـع مدني جميل. فهكذا كان يصر أشـدّ الإصرار على أن يحتفظ لنفسـه بحالة إنسـان "مضطهد" أو إنسـان "منفي" بمعنى من المعانـي. إن في هاتين الكلمتيـن الصغيرتين جمالاً كلاسـيكياً قد فتن لبّه مـرة إلى الأبد، وكان يرفع قدره في نظر نفسـه شـيئاً بعد شـيء، خلال سـنين بلغت من الكثرة أنه نصبه أخيراً على نوع من قاعدة تمثال عالية ترضي غروره كثيراً.

فـي روايـة إنكليزية سـاخرة يرجع عهدهـا إلى القرن الماضـي، أنّ رجلاً اسـمه جوليفر عـاد من بلاد الليلوبسـيين التـي لا يزيد طول البشـر فيها على بوصتيـن، وكان قد بلـغ من التعوّد على أن يعدّ نفسـه بينهـم عملاقاً ضخماً، حتـى أنه أثناء سـيره في شـوارع لنـدن كان يصيح علـى غير إرادة منـه، مهيباً بالمـارة والعربات أن تزيح عن طريقه مخافة أن يدوسـها، فهو ما يزال يتخيل نفسـه عملاقـاً ومـا يزال يتصـور النـاس أقزامـاً. وكان النـاس يضحكون منه سـاخرين، وكانوا يشـتمونه ويسـبّونه، وكان الحوذيون الغـلاظ يمضون إلى حد لسع العملاق بضربات من سياطهم. ولكن هل كان هذا عدلاً؟ الحق أن ستيفان تروفيموفيتش كان قد وصل إلى هذا الحد تقريباً، وإن يكن في صورة أكثـر بـراءة وأقل ضرراً وأذى، إذا جاز اسـتعمال هذا التعبيـر، لأنه كان رجلاً ممتازاً، والحق يقال.

أغلـب ظني أنه كان في النهاية قد نُسـي في مكان ما، وأنه غاب عن ذاكرة جميع الناس. ولكننا لا نستطيع أن نقول أنه كان رجلاً مجهولاً تماماً في جميع الأزمان. فما لا يمكن أن يجحده أحد أنه كان هو أيضاً في وقت من الأوقات أحد نجوم الحياة العامة من أبناء جيلنا الماضي، وأن عدداً من المسـرفين في التعجـل قد قرنوا اسـمه خلال فتـرة من الوقت ـ وإن تكن فتـرة قصيرة جداً ـ بأسماء رجال مثل تشـاديف[1] وبيلنسكي وخرانوفسكي وهرتسن الذي كان

(1) بطرس تشاديف (1857ـ 1793): ضابط سابق من ضباط فرسان الحرس، وكاتب سياسي، و فيلسوف اعتنق الكاثوليكية. ألف باللغة الفرنسية أربع "رسائل فلسفية"، يظهر فيها تعصبه الشديد للغرب، و يحكم حكماً قاسياً على روسيا التي يرى أنها في أعقاب انقسام الكنيسة قد انشقت عن الغرب، ثم لم تحمل إلى التراث الإنساني

يخطو أولى خطواته في الخارج حينذاك. غير أن نشاط ستيفان تروفيموفيتش مـا كاد يبدأ حتـى انتهى، في أعقـاب "إعصار من الظـروف" إن صح التعبير. وقـد تبيـن فيما بعد أنه لم يكـن ثمة "إعصار" ولا كان ثمـة "ظروف" في هذه الحالـة التي تعنينا على الأقل. ولم أعلم إلّا الآن، منذ بضعة أيام، أن سـتيفان تروفيموفيتـش لم يكـن يعيش في مقاطعتنا منفياً، كمـا كان يظن الناس عندنا عامـة، بـل ولا كان مراقبـاً في يوم من الأيام. لقد دهشـت أكبر الدهشـة حين عرفت هذه الحقيقة، ولكنني عرفتها من مصدر لا يتطرق الشـك إلى صدقه. فانظر إذن إلى قوة الخيال ما أكبرها! لقد ظل هو نفسه، طوال حياته، يعتقد أن هناك أوساطاً لم تنقطع عن التخوّف منه يوماً، وأن جميع خطاه كانت معروفة معـدودة، وأن كل واحد من الحكام الثلاثة الذين تعاقبو على مقاطعتنا خلال السـنوات العشـرين الأخيـرة كانوا يحملون عنـه منذ وصولهـم فكرة خاصة

المشترك أي فكرة. و الرسالة الأولى من تلك الرسائل الأربع قد ترجمت إلى اللغة الروسية و نشرت دون علمه. فعل ذلك الأستاذ نادجدين إذ نشر الرسالة في مجلته "التلسكوب" سنة 1836، فكانت فضيحة. و قد منعت مجلة التلسكوب ونفي محررها إلى برم، كما أعلن رسمياً أن كاتب الرسالة مجنون، وصار يزوره طبيب في كل أسبوع.. ولكن ذلك لم يمنعه من التألق بأحاديثه الكاوية في صالونات موسكو، حيث كان أنصار الغرب يقدّسونه تقديساً.

أمَّا بيلنسكي الذي يورد المؤلف اسمه بعده فهو فساريون بيلنسكي (1848ـ 1811) الناقد الأدبي الشهير الذي كان في أول الأمر من أنصار النزعة الغربية اللبرالية، ثم صار في أواخر سني حياته إلى الاشتراكية.

وأمَّا خرانوفسكي الذي يرد اسمه بعد ذلك فهو تيموتي خرانوفسكي (1855ـ 1813) أستاذ التاريخ العام بجامعة موسكو. وقد حصل علومه في ألمانيا، وكان من أنصار النزعة الغربية المعتدلين. وكان لمحاضراته عن تاريخ أوروبا في القرون الوسطى دوي كبير في الأربعينيات من القرن التاسع عشر.

وأمَّا الكسندر هرتسن ((1870ـ 1812فهو الابن الشرعي والوريث لمليونير اسمه إيفان باكوفليف، وهو كاتب لامع من دعاة النزعة الغربية. وقد بدأ بالفيلسوف الألماني هيجل، شأنه في ذلك شأن بيلنسكي، ثم صار إلى اشتراكية ثورية. وهاجر منذ سنة 1860 ، وأنشأ في لندن مجلة معارضة اسمها "الناقوس" نفذت إلى روسيا بل وصلت حتى إلى مكتب ألكسندر الثاني، وكان لها في العقول تأثير كبير.

قلقة يوحي بها إليهم من أعلى، ويوحي بها إليهم منذ تعيينهم قبل كل شيء آخر. فلو حاول أحد حينذاك أن يقنع المحترم جداً، ستيفان تروفيموفيتش، بالأدلة القاطعة، أن له أن يطمئن وأن في وسعه ألا يخشى شيئاً، لكان يغضبه حتماً. على أن ستيفان تروفيموفيتش كان من خيرة الناس ذكاء وموهبة، حتى لنستطيع أن نعده بمعنى من المعاني رجلاً من رجال العلم، وإن يكن، من ناحية العلم...، لم ينتج شيئاً ذا بال، أو لم ينتج شيئاً البتة. ولكن هذا أمر يقع كثيراً لرجال العلم عندنا في روسيا.

لقد عاد من الخارج ولمع نجمه مدرّساً بالجامعة حوالي سنة 1840، ولم يتسع وقته لأكثر من إلقاء بضع محاضرات. وكانت هذه المحاضرات عن العرب فيما يبدو. واستطاع أيضاً أن يناقش رسالة لامعة عن الأهمية الحضارية والتجارية التي بدأت تحظى بها بين عامَيْ 1413 و 1428، مدينة هاناو الألمانية الصغيرة[1]، وكذلك عن الأسباب الخاصة الغامضة التي منعت تلك المدينة من اكتساب تلك الأهمية بعد ذلك. وكان من شأن تلك الرسالة أن طعنت أنصار السلافية حينذاك ببراعة وحذق، فأوغرت صدورهم عليه، وأصبح له من بينهم أعداء كثيرون عتاة. وبعد ذلك ـ وكان قد فقد كرسيّه في الجامعة ـ نشر (على سبيل الانتقام إن صح التعبير، ولكي يرى الناس فداحة الخسارة بفقده). نشر في مجلة جديدة تقدمية كانت تترجم ديكنز وتدعو إلى جورج صاند، بداية دراسة عميقة جداً، كان موضوعها فيما يبدو هو أسباب النبل الخارق الذي يمتاز به فرسان لا أدري أي عصر من العصور، أو كان موضوعها شيئاً من هذا القبيل. لكنه على كل حال قد برهن في تلك الدراسة

(1) "مدينة هاناو الألمانية الصغيرة": تقع على نهر الماين، وهي مدينة ليس لها أي شأن. وهنا في الواقع إشارة إلى رسالة الدكتوراه التي كتبها خرانوفسكي عن مدن القرون الوسطى "فولن"، و"يومسبورج"، و"فينيتا" ((1840، والتي جرح فيها شعور أنصار السلافية. ويحسن أن نشير هنا عابرين إلى أن الرسالة الأولى التي يقدمها صاحبها إلى الجامعة في روسيا لا تخوله إلا لقب "مرشح". ولكي يصبح أستاذاً فوق العادة يجب أن يقدم رسالة "أستاذية". ولكي يصبح أستاذاً عادياً يجب يقدم رسالة "دكتور". وكانت المناقشة العلنية لهذه الرسائل تعد في روسيا على الدوام حدثاً هاماً.

على فكرة رفيعة غاية الرفعة، نبيلة أقصى النبل. وقد قيل فيما بعد إن تتمة هذه الدراسة قد منع نشرها فوراً، بل وإن المجلة التقدمية قد لقيت متاعب كثيرة لأنها نشرت نصفها الأول. جائز جداً أن يقع هذا، فأي شيء كان يستحيل حدوثه في ذلك الزمان؟ ولكن الأرجح، في الحالة التي تعنينا الآن، أن هذا لم يحدث، وأن الكاتب نفسه قد تقاعس عن إتمام دراسته كسلاً. أما دروسه عن العرب فقد أوقفها لأن شخصاً لا ندري من هو (لا شك أنه أحد أعدائه الرجعيين)[1] قد قبض، لا ندري كيف، على رسالة كانت موجهة إلى واحد من الناس وفيها عرض لبعض "الظروف"، فكان من جراء ذلك أن أحد الأشخاص طلب منه بعض الإيضاحات. لا أدري إن كان هذا صحيحاً. ولكن قيل أيضاً إن جمعية كبيرة قد اكتشفت ببطرسبرج في ذلك الوقت نفسه، وهي جمعية تناهض الطبيعة وتناهض الدولة، بلغ عدد أعضائها ثلاثة عشر عضواً، وأوشكت أن تزعزع البناء، حتى أنها كانت تنوي أن تترجم فورييه نفسه. وبمصادفة تشبه العمد، ألقي القبض في موسكو، في ذلك الوقت نفسه، على قصيدة كان ستيفان تروفيموفيتش قد نظمها قبل ذلك بعشر سنين، في مدينة برلين، أيام شبابه الأول[2] ألقي القبض عليها بينما كانت تنتقل منسوخة، من

---

(1) حين اعتقال أعضاء حلقة بتراشفسكي، في الثالث من شهر نيسان (أبريل) سنة 1849 عثروا لدى سرجي دورروف رسالة من الشاعر آ. بلشتايف يتكلم فيها عن خرانوفسكي ممجداً معظماً. وقد أمر الجنرال حاكم موسكو يومذاك بأن يُراقَبَ مراقبة سرية.

(2) في كانون الأول (ديسمبر) 1849 اتهم خرانوفسكي بأنه يعادي الدين في محاضراته، واضطر أن يقدم إيضاحات للسلطات المختصة بموسكو.

والكلام على الجمعية التي يبلغ عدد أعضائها ثلاثة عشر إنما هو إشارة دعاية إلى حلقة بتراشفسكي التي كانت تدين بالاشتراكية، والتي انتمى إليها دوستويفسكي من 1846 إلى 1849.

أمّا ما يرد بعد ذلك من كلام عن قصيدة لستيفان تروفيموفتش فإن دوستويفسكي حين يشرح هذه القصيدة يجعل منها محاكاة للقصيدة الرومانسية التي نظمها فلاديمير بتشيرين بعنوان "انتصار الموت"، سنة 1834، إن كاتب القصيدة هو أستاذ في فقه اللغة (1807ـ 1885) غربي النزعة، درس ببرلين، وترك كرسيه الجامعي بموسكو مهاجراً إلى إنجلترا حيث صار كاهناً كاثوليكياً. إننا نرى في هذه القصيدة أغاني رياح ونجوماً ولهباً. والموت يظهر فيها فتى جميلاً جمالاً لا مثيل له، ممتطياً صهوة جواد أبيض، تهتف له الشعوب في مختلف الكواكب صائحة باللغة الفرنسية "عاش الموت"، "عاش الموت". وهذه القصيدة المحتدمة الحارة قد ضمنها هرتسن سنة 1861 الديوان الذي أسماه "الأدب السري الروسي في القرن التاسع عشر". وإليكم مقطعاً من تلك القصيدة:

يـد إلـى يد، بين اثنين مـن الهواة وأحد الطـلاب. إنني أحتفظ بهـذه القصيدة في درج منضدتي: أهدانيها سـتيفان تروفيموفيتش بنفسه منذ سنة واحدة وقد نسـخها بخط يـده، وزينها بإهداء منـه، وجلّدها بجلد أحمـر جميل. إن هذه القصيدة لا تخلو من شعر، بل ولا تخلو من بعض الموهبة. هي غريبة، ولكن كثيـراً ما كان الشـعراء ينظمون علـى هذا النحو في ذلـك الأوان (أو قل على وجه أدقّ بين سـنة 1830 وسـنة 1840). صعب عليّ أن أحدّثكم عن موضوع القصيدة، لأنني في حقيقة الأمر لا أفهم منها شيئاً. إنها نوع من الرمز مصبوب في قالب غنائي درامي يذكّر بالجزء الثاني من فاوست. يرفع الستار عن جوقة من النسـاء تعقبهـا جوقة من الرجال ثم جوقة من عناصـر الطبيعة لا أدري ما هـي، وتأتي أخيـراً جوقة أرواح لم تعش بعد ولكنها تشـعر برغبة قوية في أن تـذوق الوجود. وهذه الجوقات كلها تغني شـيئاً مبهماً شـديد الإبهام هو في أكثر الأحيان نوع من اللعن لكنه لعن يُقال بلهجة لا سـبيل إلى مغالبة ما تثيره من ضحك، وفجأة يتغير المشهد ليحل محله ما يسميه المؤلف "عيد الحياة"، وفيه تشـترك الحشرات نفسها بأغنيات. وتظهر سلحفاة، فتنطق بعبارة لاتينية مـن تراتيل الصـلاة، ويظهر كذلك، إذا صدقت ذاكرتـي، معدن من المعادن، أي شيء لا حياة فيه، فيأخذ ينشد هو أيضاً. وهؤلاء جميعاً لا يزيدون على أن يغنوا، فإذا اتفق لهم أحياناً أن يتكلموا، فإنما هم يتكلمون ليتشاجروا، دون أن يكون ثمة ما قد يبعث على المشـاجرة، ولكـن بلهجة من أكثر اللهجات أبّهة وفخامـة بطبيعة الحال. ثم يتغير الديكور مرة أخرى. فالمكان الآن متوحِّش. وهذا شاب متحضر يسـير وحيداً بين الصخور، يقطف الأعشاب وهذه جنية تسأله لماذا يأكل هذه الأعشاب، فيجيبها بقوله إنه لشعوره بفرط ما يتدفق فيه من قوى حيوية ينشـد النسـيان، وأنه يجد ضالته في مصّ هذه النباتات، لكن

ما أجمل أن يبغض المرء وطنه.
أن ينظر إلى دماره نهماً،
أن يتنبأ من خلال خراب بلده
بحلول يوم التغير الكوني الشامل.

رغبته الأساسية هي أن يفقد عقله بأقصى سرعة (رغبة نافلة). ويدخل بعد ذلك، على حصان أسود، فتى لا سبيل إلى وصف جماله، ووراءه جمهور كبير من الناس ينتمون إلى جميع القوميات! إن هذا الفتى يجسد الموت الذي ترنو إليه جميع الشعوب! ثم يظهر فجأة، في الفصل الأخير، برج بابل، وقد أخذ رجال أشداء يكملون بناءه وهم ينشدون نشيد الأمل الجديد. فإذا تم البناء حتى القمة رأينا المالك ـ ولنسمّه صاحب الأولمب ـ يهرب هروباً مزرياً. فإذا بالإنسانية التي أصبحت منذئذٍ تعرف ما تريد، تحتل مكانها، ثم إذا بها تبدأ عصراً جديداً وتكوّن لنفسها في الوقت ذاته نظرة جديدة إلى الكون.

تلك هي القصيدة التي عُدّت حينئذٍ خطرة. وقد اقترحت على ستيفان تروفيموفيتش، في العام الماضي، أن ينشرها لأنها في أيامنا هذه خالية خلوّاً مطلقاً من كل خطر. فرفض اقتراحي باستياء واضح. ذلك أن القول بأن قصيدته لا تشتمل على أي خطر، لم يرضه، وهذا هو السبب الذي أعتقد أنه جفاني من أجله بعد ذلك طوال شهرين. ولكن حدث في نحو ذلك الوقت الذي اقترحت عليه فيه نشر قصيدته أن نُشرت القصيدة في ديوان شعر ثوري صدر "هناك"، أي في الخارج، وذلك على غير علم من ستيفان تروفيموفيتش طبعاً. فأفزعه هذا النبأ في أول الأمر. فإذا هو يهرع إلى الحاكم، ثم إذا هو يكتب إلى بطرسبرج رسالة تبريرية رفيعة جداً، قرأها لي مرتين، لكنه لم يرسلها لأنه لم يعرف إلى من يرسلها. الخلاصة أنه عاش خلال شهر كامل في حالة من يتوجّس خيفة من شر يهمّ أن يحيق به، لكنني واثق أنه كان يشعر في قرارة نفسه بكثير م الزهو. ولما حصل ستيفان تروفيموفيتش على نسخة من الديوان أصبح لا يفارقها إلّا في الليل مكرهاً حين يريد أن ينام. وكان يخبّئها في النهار تحت الفراش ولا يسمح لخادمة بأن ترتب سريره. وكان يصطنع هيئة التعالي والكبر، على توقعه في كل يوم أن تصل إليه برقية لا أدري ما هي. ولكن ما من برقية وصلت. وعندئذ صالحني، وهذا دليل على طيب قلبه الحنون، وعلى أنه لا يحمل حقداً ولا يضمر ضغينة.

2

لست أدّعي أنه لم يلقَ أية متاعب، ولم تعترضه أية مصاعب. ولكنني اليوم مقتنع اقتناعاً تاماً بأنه كان في وسعه أن يثابر على إلقاء محاضراته عن العرب ما شاء أن يثابر، مكتفياً بتقديم الإيضاحات اللازمة. غير أنه تشدّد وأسرف في التشدّد، وتعجل تعجلاً كبيراً فعقد عزمه على أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن حياته الجامعية قد حطّمها "إعصار الظروف" إلى الأبد. وإذا كان علينا أن نذكر الحقيقة كلها فيجب أن نقول إن السبب الذي دفعه إلى تغيير مهنته فعلاً هو أن فرفارا بتروفنا ستافروجين، وهي زوجة جنرال وامرأة واسعة الثراء جداً، قد عرضت عليه في الماضي أن يتولى تثقيف ابنها الوحيد وأن يشرف على تنشئته الفكرية، بصفته عالم من علماء التربية وبصفته صديقاً، (ناهيك عن المكافأة المالية الكبيرة التي سينالها دون أن تجيء هي على ذكرها)، ثم عادت تجدّد عرضها في ذلك الحين، لقد قدّمت إليه عرضها أول مرة وهو ما يزال في برلين، بعد فقده زوجته الأولى. كانت زوجته تلك فتاة طائشة اللب جامحة الطبع من مقاطعتنا، تزوجها في أيام شبابه الأول المندفع. ويظهر أنه لقي مع هذه الإنسانة، الفاتنة والحق يقال، كثيراً من الحزن والعذاب، لأنه لم يستطع أن يفي بحاجاتها من جهة، ولأسباب أخرى يتحرّج المرء من ذكرها من جهة أخرى. وقد توفيت في باريس بعد أن عاشت السنين الثلاثة الأخيرة منفصلة عنه، وتركت له طفلاً في الخامسة من عمره هو "ثمرة الحب الأول الفرح الذي لم تكن قد كدّرته سحابة"، على حد التعبير الذي أفلت يوماً أمامي من ستيفان تروفيموفيتش في لحظة حزن. وسرعان ما أرسل الطفل إلى روسيا، فكفلت تربيته نساء تمتّ إليه بقرابة بعيدة، فعاش الطفل في مكان ناء بأعماق الريف. وقد رفض ستيفان تروفيموفيتش العرض الذي قدمته فرفارا بتروفنا. وما هي سنة أو بعض سنة إذا بصاحبنا يتزوج مرة أخرى بألمانية من برلين، وهو زواج لم يكن يبدو أن ثمة ما يدعو إليه أو يقضي به.

وهناك أسـباب أخرى دفعته إلى رفض وظيفة المربّي: لقد كان يغريه الصيت الـذي كان يحظى به أسـتاذ شـهير من أسـاتذة العصر، وكان لا بـد له أن يطير إلى ذلك الكرسـي الذي طالمـا رنا إليه بصره، وأن يجـرّب هو أيضاً جناحي النسـر اللذين يملكهمـا. أما الآن وقد احترق الجناحـان، فإن من الطبيعي أن يتذكـر صاحبنا ذلك العرض الذي تردد فـي قبوله من قبل. واختطف الموت زوجته الثانية فجأة ـ بعد زواج لم يدم أكثر من سـنة واحدة ـ فترتب كل شـيء علـى الوجه الأكمل. يجب أن أقول بصراحـة أن هذا الحل إنما يرجع إلى ما كانـت تحمله فرفارا بتروفنا لصاحبنا من مودة خالصة وصداقة ثمينة، صداقة كلاسـيكية إن صـح التعبير، فارتمى سـتيفان تروفيموفيتش فـي أحضان هذه الصداقـة، وتحـدد بذلك وضعـه مدة تزيد على عشـرين عامـاً. قلت "ارتمى فـي الأحضان" ولكن أرجـو أن يحمي الله القارئ من سـوء الظن فلا يحمّل قولـي مـا لا يحتمل. إن كلمة الأحضـان هذه يجب أن تُفهـم بمعنى أخلاقي تماماً فالصلة التي ربطت بين هذين الشخصين الممتازين قد ظلت على أروع جانب من الرهافة والنعومة.

وهناك سبب آخر دعا ستيفان تروفيموفيتش إلى قبول منصب المربّي. إن الميـراث الصغير جداً الذي خلّفته زوجته الأولى يقع على مقربة من الأطيان الواسـعة المجـاورة لمدينـة سكفورشـنيكي، التي كانت أسـرة سـتافروجين تملكهـا في مقاطعتنا. هذا إلى أنه سيسـتطيع في خلـوة مكتبه، حين لا يكون عليـه أن ينهض بأعبائه الجامعية الضخمـة، أن ينقطع للعلم وأن يمهر الأدب القومـي بدراسـات عميقـة. على أن هذه الدراسـات لـم تر النـور يوماً، لكن صاحبنا اسـتطاع في مقابل ذلك، خلال حياتـه كلها بعدئذ، أي خلال ما يزيد على عشرين عاماً أن ينتصب بقامته تجاه الوطن "لوماً مجسّداً" على حد تعبير ذلك الشاعر القومي الذي قال:

مثل لوم مجسَّد
تنتصب قامتك تجاه الوطن
لبراليّاً مثالياً

يجدر أن نقول إن الفرد الذي يتحدث عنه هذا الشاعر القومي ربما كان من حقه، إذا شاء، أن يقف تلك الوقفة خلال حياته كلها، رغم أنها وقفة مملة مضجرة. أما صاحبنا ستيفان تروفيموفيتش فإنه لا يعدو أن يكون بالقياس إلى أمثال أولئك الناس مقلِّداً ومحاكياً. لقد كانت الوقفة المنتصبة تتبعه. وما أكثر ما آثر عليها أن "يستلقي على جنبه". يجب أن نقول مع ذلك، إذا نحن شئنا الإنصاف، إن اللوم المجسد ظل موجوداً رغم الاستلقاء على الجنب، خاصة وأن مقاطعتنا كانت بحاجة إليه. ليتكم رأيتموه في النادي حين يلعب الورق! لقد كان وضعه كله يهتف: "هاتوا الورق!... صحيح أنني ألعب معكم... ولكن أية صلة تربطني بكم؟ من هو المذنب في هذا؟ من الذي هدّم حياتي الجامعية، وردّني إلى هذا الدرك حتى أصبحت لا أزيد على أن أكون واحداً من حلقة مقامرة؟ أهلك الله روسيا!". وفيما هو يشمخ بأنفه، تراه يقطع الورق في حماسة...

والحق أنه كان مفتوناً باللعب، وهذا هو السبب في كثير من المشاجرات المزعجة التي وقعت بينه وبين فرفارا بتروفنا، لا سيما في المدة الأخيرة. وكان مما يفاقم الأمر أن صاحبنا كان يخسر في اللعب دائماً. على أن لي عودة إلى هذا الموضوع. وحسبي الآن أن أذكر أن الرجل كان حسّاس الوجدان مرهف الضمير (أو قل على الأقل أنه كان يتفق له أن يكون كذلك في بعض الأحوال) ومن أجل هذا كان في كثير من الأحيان حزين النفس. وفي خلال الأعوام العشرين التي قضاها في صداقة فرفارا بتروفنا كان يتفق له دائماً، ثلاث مرات أو أربعة في العام، أن يصاب بنوبات من "الحزن الحضاري"، كما أسميناه فيما بيننا، أي بنوبات من الكآبة لا أكثر ولا أقل، غير أن المحترمة فرفارا بتروفنا كانت تحرص أشد الحرص على استعمال هذه اللفظة. وقد أصبح يصاب بعد ذلك بنوبات سببها "الشمبانيا"، غير أن فرفارا بتروفنا المرهفة الحس الرقيقة الشعور استطاعت دائماً أن تحميه من التردي في حمأة الميول الخسيسة. والحق أن هذا الرجل كان بحاجة إلى مربية من مربيات الأطفال، إذ كان يتفق له أحياناً أن يكون غريب الأطوار: فبينما هو مثلاً في ذروة حزنه الرفيع إذا هو

يأخذ يضحك على حين غرة ضحكاً مبتذلاً. وكان في بعض الساعات يطفق يتحدث عن نفسه بلهجة ساخرة. وفرفارا بتروفنا لا تفزع من شيء فزعها من السخر. إنها امرأة تعتنق مبادئ كلاسيكية، امرأة تحمي العلماء وترعى الأدباء، ولا تستلهم في سلوكها غير البواعث العليا والدوافع السامية. ولقد كان تأثير هذه السيدة الكبيرة في صديقها المسكين خلال عشرين سنة تأثيراً قوياً. ويحسن أن نتحدث عنها حديثاً خاصاً. وهذا ما أنا فاعله الآن.

3

ثمة صداقات غريبة: رب صديقين يوشك كل منهما أن يلتهم صاحبه في كل لحظة، ثم هما يقضيان حياتيهما كلها دون أن يطيقا الافتراق، حتى ليستحيل عليهما أن يهجر أحدهما الآخر. فإذا بدا لأحد منهما أن يقطع صلته بالآخر في ساعة نزوة، كان أول من يسقط مريضاً من شدة الحزن، حتى لقد يموت كمداً ولوعة. أعرف أن ستيفان تروفيموفيتش قد حدث له غير مرة، بعد مكاشفات خلوية مع فرفارا بتروفنا، أن وثب عن أريكته منذ أصبح وحيداً، وأخذ يضرب الجدار بقبضة يده.

لست أزخرف... حتى لقد بلغ من شدة الدق على هذا النحو في بعض الأحيان أن أسقط جير الجدار. رب سائل يسألني: كيف استطعت أن تعرف أمراً تفصيلياً كهذا الأمر، وهل شهدته بأم عينك؟ لقد طالما أخذ ستيفان تروفيموفيتش ينتحب فوق كتفي مرات كثيرة، حتى وهو يصوِّر لي العواطف التي تضطرم في قرارة نفسه أقوى تصوير! وما أكثر الأمور التي كان يعترف لي بها في تلك اللحظات! إليكم ما كان يحدث دائماً على وجه التقريب بعد هذه النوبات من الانتحاب: كان لا يأتي الغد إلّا وستيفان تروفيموفيتش مستعد لأن ينتحر معاقبة لنفسه على عقوقه وإنكاره للجميل، كان يرسل في طلبي على عجل، أو يهرع إلى بيتي بنفسه، لا لشيء إلّا ليخبرني بأن فرفارا بتروفنا "ملاك من ملائكة نبل الشرف ورهافة الشعور ورقة العاطفة، وأنه هو نقيض ذلك". وكان لا يكتفي بأن يسرّ إلي أنا بدخيلة نفسه، بل كان يبعث إليها

باعترافاته في رسائل يودعها غاية ما يطيقه من بلاغة. كان يعترف لها مثلاً بأنه بالأمس قد قصّ على أحد الناس أنها لا تحتفظ به إلّا حباً بالظهور، وأنها تنفس عليه علمه ومواهبه وتغار منها، وأنها تكرهه، وأنها إن كانت لا تُظهِرُ له هذا الكره، فما ذلك إلّا مخافة أن يتركها فيسيء بذلك إلى سمعتها كأديبة، ويضيف إلى ذلك أنه يحتقر نفسه، وأنه قرر أن ينتحر.. وأنه ينتظر منها كلمة أخيرة تحدد مصيره، وهلمّ جرّاً!... تستطيعون أن تتخيلوا بعد هذا مدى ما كانت تصل إليه الانفجارات العصبية لدى هذا الطفل الذي يفوق في براءته سائر من هم في الخمسين من العمر. لقد قرأت أنا نفسي، ذات يوم، رسالة من تلك الرسائل كتبها على إثر مشاجرة قامت بينه بين صاحبته لسبب تافه، وتفاقمت مع ذلك أشد التفاقم. لقد أرعبتني هذه الرسالة، فرجوته ألا يبعث بها إليها، فأجابني بما يشبه الهذيان قائلاً: "مستحيل... هذا أشرف... هذا واجبي... لسوف أموت إن لم أعترف لها بكل شيء، بكل شيء".

وبعث الرسالة.

إن الفرق بينه وبين فرفارا بتروفنا هو أنها لا يمكن أن تبعث رسالة كهذه الرسالة في يوم من الأيام. والحق أن صاحبنا كان يحب الكتابة كثيراً، ولقد كان يكتب إليها رسائل حتى حين كانا يقيمان في بيت واحد، وكان يكتب إليها رسالتين في اليوم الواحد حين تستبدّ به نوبات العصبية. وأنا أعلم علم اليقين أنها كانت تقرأ رسائله باهتمام كبير دائماً، حتى حين يصل إليها منه بريدان. فإذا انتهت من قراءة الرسائل نضّدتها في صندوق خاص بعد أن تذيّلها بالحواشي وتصنّفها. (كانت تنضّدها أيضاً في ذاكرتها)، ثم تدع صاحبها بلا جواب طوال يوم بكامله، ثم تلقاه بعد ذلك وكأن شيئاً لم يكن ولا حدث أمر من الأمور البتة. وشيئاً فشيئاً تكون قد بلغت من ترويضه أنه لا يجرؤ هو نفسه أن يذكر ما وقع بالأمس، ثم لا يزيد على أن يختلس النظر إلى عينيها. لكنها لا تكون قد نسيت شيئاً، بينما هو ينسى في بعض الأحيان كل شيء بسرعة كبيرة، يشجعه على ذلك ما يلاحظه فيها من فرط الهدوء، فإذا اتفق أن جاء بعض الأصدقاء في اليوم نفسه رأيته في كثير من الأحيان قد

أخـذ يضحك ويمزح كتلميذ مرح وهو يفرغ أقداح الشـمبانيا في جوفه دفعة واحدة. وما أمرّ النظرات التي كانت ترشـقه بها في مثل تلك اللحظات، دون أن يلقي إليها بالاً!

لكنه كان حين يتذكر فجأة على غير إرادة منه، بعد أسـبوع، أو بعد شـهر، أو حتـى بعد سـتة أشـهر، هذه العبـارات أو تلك مـن العبارات التـي ضمتها رسـالة من رسـائله، أو حين كان يتذكر رسـالة بكاملها من تلك الرسـائل في أدق تفاصيلهـا، كان يحمرّ وجهـه خجلاً، وسـرعان ما يسـتحيل ألمه عندئذ إلى عذاب شـديد، فإذا هو يصاب بنوبة إسـهال حاد. لقد كانت هذه النوبات العجيبة التي تشـبه مرض الكوليرين ترجع في بعض الأحوال إلى اضطراباته العصبية وتصوّر صفة غريبة من صفات بنيانه.

والحـق أن فرفـارا بتروفنا كانـت تكرهه في كثير جداً مـن الأحيان، ما في ذلـك من ريب. غير أن هناك شـيئاً ظل إلى النهاية لا يسـتطيع أن يدركه فيها، وهـو أنهـا كانت من طول صحبتها له قد انتهت إلى اعتباره ابنا لها هي خالقته بل هي مبدعته إن صحّ التعبير. لقد أصبح جزءاً منها، فإذا احتفظت به وعالته، فليـس يرجع ذلك إلى "غيرتها من مواهبه". وما كان أشـد ألمها من مثل هذه الافتراضات! حتى لقد كانت تشعر نحوه بحب عنيف يمازجه كره في جميع اللحظات، كما تخالطه غيرة ويخالطه احتقار. لقد سهرت عليه ودلّلته خلال عشـرين عاماً كما تسـهر الأم على طفلها وتدلّله. ولا شـك أنهـا أرقت ليالي طويلة حين كانت تُمَسُّ سمعته كشاعر وعالم ومواطن. إنها هي التي خلقته، وهـي أول من خلقـه. هذا ما كانت تعتقد به. لقـد كان عندها بمثابة حلم لها. لكنهـا كانـت في مقابل ذلك تطالبـه بأمور كثيرة، حتى لقـد كانت تقتضيه في بعض الأحيان أن يكون لها عبداً. وكانت حقودة إلى درجة لا نظير لها. وإني لأحرص في هذه المناسبة على أن أروي هاتين القصتين الصحيحتين:

4

فـي ذات يـوم، إبـان رواج أولى الشـائعات عـن تحرير الفلاحيـن، بينما

أصبحت روسيا كلها في نشوة وفرح على حين فجأة، وبينما كانت تتهيأ لأن تبعث بعثاً جديداً، زار فرفارا بتروفنا بارون من بطرسبرج، كان ماراً بمدينتنا، وهو رجل ذو علاقات رفيعة وله بالحكومة صلات وثيقة. لقد كانت فرفارا بتروفنا تحرص على مثل هذه الزيارات أشدّ الحرص، لأن علاقاتها بالمجتمع الراقي كانت منذ وفاة زوجها تهن مزيداً من الوهن يوماً بعد يوم، إلى أن انقطعت في النهاية انقطاعاً تاماً.

قضى البارون عندها ساعة واحتسى الشاي. ولم يكن معهما أحد إلّا ستيفان تروفيموفيتش الذي دعته فرفارا بتروفنا لتعرضه. وكان البارون قد سمع عنه، لكنه لم يكد يخاطبه أثناء تناول الشاي بكلمة. ولا شك أن ستيفان تروفيموفيتش كان يحسن التصرف أيما إحسان، ولقد كانت له آداب رفيعة. إنه على وضاعة محتدِّه قد أتيح له أن ينشأ منذ طفولته في منزل أسرة نبيلة بموسكو، فهو إذن قد تربّى تربية حسنة. وكان لذلك يتكلم اللغة الفرنسية كما يتكلمها باريسي. وكان على البارون إذن أن يدرك منذ النظرة الأولى نوع هؤلاء الناس الذين يحيطون بفرفارا بتروفنا حتى في عزلتها بالريف. غير أن شيئاً من هذا لم يحدث. فحين أعلن البارون أن الشائعات التي أخذت تروج عن الإصلاح الكبير صحيحة كل الصحة، لم يستطع ستيفان تروفيموفيتش أن يسيطر على نفسه فصاح يقول فجأة: "مرحى!" وأرفق الصيحة بحركة تعبِّر عن حماسته. ولقد أطلق صيحته هذه بصوت معتدل، حتى ليمكن أن نقول إنها لم تكن تخلو من رشاقة وأناقة، بل إن من الجائز أيضاً أن الحماسة كانت محسوبة وأن الحركة قد درست أمام المرآة قبل الشاي بنصف ساعة. ولكن أغلب الظن أن ستيفان تروفيموفيتش لم يوفق فيها. لذلك سمح البارون لنفسه بابتسامة خفيفة، وأسرع يدس مع ذلك جملة مهذبة مؤدّبة يعبّر فيها عن أن الانفعال القوي الذي تحسه القلوب الروسية إزاء الحدث الكبير أمر مفهوم جداً ومعقول جداً. ثم لم يلبث أن استأذن بالانصراف، ولم ينس حين ذهب أن يمد إلى ستيفان تروفيموفيتش إصبعين. فلما عادت فرفارا بتروفنا إلى الصالون لزمت الصمت بضع دقائق متظاهرة بأنها تبحث عن شيء على

المنضـدة، ثم التفتت نحو سـتيفان تروفيموفيتش فجأة ودمدمت تقول له من بين أسنانها، شاحبة الوجه متقدة العينين:

ـ لن أغفر لك هذا في يوم من الأيام!

ولقيتـه في الغداة فكأن شـيئاً لم يحدث، ثم لم تشـر إلـى هذا الحادث أية إشـارة. ولكنها تذكرته بعد ثلاثة عشـر عامـاً في لحظة أليمـة، وأخذته عليه، ممتقعـة اللون كما في المـرة الأولى تماماً. إن فرفارا بتروفنا لم تقل لصديقها هـذه الجملـة "لـن أغفر لك هـذا في يوم مـن الأيـام" إلّا مرتين فـي حياتها. فالحادث الذي وقع أثناء زيارة البارون كان هو المرة الثانية. أما المرة الأولى فقـد وقعت قبل زيارة البارون بمدة طويلة. وهي تبلغ من التميز ومن خطورة الشأن في حياة ستيفان تروفيموفيتش أنني أعزم أمري على أن أرويها.

كان ذلـك فـي ربيـع سـنة 1855، في شـهر أيار (مايـو)، بُعيـدَ أن عُلم في سكفورشـنيكي نبأ مـوت الليوتنـان جنرال سـتافروجين، العجـوز المتحلل الطائـش الذي توفـي من آثار اضطراب في المعدة أثنـاء ذهابه إلى القرم التي عُـيّـن في جيشـها العامل. لقد لبسـت فرفـارا بتروفنا ملابـس الحداد. ولكن حزنهـا لا يمكـن أن يكون عميقاً جداً، لأنه بسـبب فقـدان التوافق في الزواج بينهـا وبيـن زوجهـا كانت تعيـش منفصلةً عنه انفصـالاً تاماً منذ أربع سـنين، وتقـدم له ماهـو في حاجة إليه من نفقـة (كان الجنرال ينتمـي إلى أعلى طبقة نبيلـة)، وكانـت لـه علاقات كبيـرة، لكنـه كان لا يملـك إلّا خمسـمائة نفس ومرتَّب الوظيفة. أما الثروة كلها، وكذلك سكفورشـنيكي، فقد كانت لفرفارا بتروفنـا، وهي الابنة الوحيـدة لتاجر غني من تجار الخمـور). ومع ذلك فقد هزّها الحادث هزاً قوياً، فانزوت في عزلتها، ولم يتركها ستيفان تروفيموفتش طبعاً.

كان شـهر أيار (مايـو) فـي تمام ازدهـاره. الأماسـي جميلة رائعـة. أزهار الكـرز البـرّي قد بـدأت تتفتح براعمهـا. والصديقـان يمضيان إلـى الحديقة كل مسـاء عند هبـوط الليل، ويظلان جالسـين تحت قبة من أغصان الشـجر يفضي كل منهما إلى صاحبه بعواطفه وأفكاره. إنهما يعيشان لحظات شعرية

حقـاً. وكانـت فرفارا بتروفنا، بسـبب التغير الذي أصاب حياتهـا، تتكلم أكثر مما اعتادت أن تتكلم قبل ذلك. فهي تبدو منجذبة إلى قلب صاحبها انجذاباً قوياً. هكذا انقضت ليال كثيرة. وفجأة خطر ببال سـتيفان تروفيموفتش فكرة غريبة: تُرى أليست تطمع فيه هذه المرأة الحزينة التي لا يجد العزاء إلى نفسها سـبيلاً؟ ألا تنتظر منه أن يخطبها متى انتهت سـنة الحداد؟ فكرة عجيبة، لكن رهافة البنيان النفسي تشجّع في المرء أحياناً بعض الميل إلى مثل هذه الأفكار العجيبـة، فعلى قدر نمو النفس يكون الاستسـلام لجمـوح الخيال. وقد أخذ الرجل يتعمق في دراسة الأمر فوجد أن افتراضه جائز. فجعل يفكر: "صحيح أن الثـروة طائلـة، ولكن...!" . الواقع أن فرفـارا بتروفنا لم تكن على أي حظ من جمال: امرأة طويلة القامة، صفراء الوجه، بارزة العظام، يشـبه وجهها من فرط طوله أن يكون وجه حصان. وأصبح ستيفان تروفيموفيتش يزداد تردداً. وغزت رأسه الشكوك، حتى لقد هطلت دموعه مرتين من شدة حيرته (كانت دموعه سريعة الانسكاب). لكنه في المساء، أي تحت قبة الشجر، كان وجهه يعبـر، رغـم إرادته، عن النزوة إلى جانب شـيء من الكبـر والصلف. إن مثل هـذا التعبيـر يظهر ظهوراً غير متوقـع، وكلما كان المرء رفيعاً بـدا هذا التعبير في وجهه واضحاً.

وإذا كنـا لا نستطيع أن نقطـع بـرأي فـي مـا كان يعتلـج في قلـب فرفارا بتروفنـا فأغلـب الظـن أن قلبها لم ينبت فيه شـيء مما يسـوغ ظنون سـتيفان تروفيموفيتش. ثم إنها ما كان لها أن ترضى أن تسـتبدل باسمها ـ ستافروجين ـ اسـم سـتيفان تروفيموفيتش مهما يكن هذا الاسـم مجيداً. ولعل الأمر كله لا يعدو أن يكون عندها تسـلية صغيرة من تسـليات النسـاء، وثمرة حاجة لا شـعورية، طبيعية في المرأة في بعض الظـروف الخاصة. ومهما يكن من أمر فإني لا أسـتطيع أن أقطع برأي حاسـم. ولقد ظل قلب هذه المرأة مغلقاً حتى يومنا هذا. ولكن فلنتابع القصة.

أغلب الظن أن فرفارا بتروفنا لم تلبث أن أدركت معنى هذا التعبير الغريب الـذي يظهر في وجـه صاحبنا. فلقد أوتيت موهبة الحـدس وقوة الملاحظة،

في حين أن ستيفان تروفيموفتش كان في بعض الأحيان ساذجاً مسرفاً في السذاجة. ومع ذلك ظلت الأمسيات تنقضي على عادتها وظلت الأحاديث بين الصديقين تجري شعرية شائقة. وفي ذات مرة، عند هبوط الليل، بعد حديث من أكثر الأحاديث امتلاء بالحياة وتضمخاً بروح الشعر، افترق الصاحبان على مودة عند عتبة الجناح الذي يقيم فيه ستيفان تروفيموفيتش، بعد أن تصافحا بحرارة. لقد كان ستيفان تروفيموفيتش في مطلع كل صيف، يترك الدار الواسعة المريحة، ويستقر في هذا البيت الصغير الذي يكاد يثوي في قلب الحديقة.

دخل الرجل إلى بيته، وتناول سيجاراً في تردد مهموم واجم، ووقف أمام النافذة قبل أن يشعل السيجار. وقف متعباً ساكناً يحدق بنظره إلى الغمامات الصغيرة البيض، الخفيفة كندف الثلج، التي تحوم حول القمر الهادئ... وفيما هو كذلك إذا به يسمع على حين فجأة ضجة صغيرة، فيرتعش ويلتفت... كانت فرفارا بتروفنا التي تركها منذ أربع دقائق، واقفة هنالك أمامه. إن وجهها الشاحب قد ضرب إلى زرقة، وإن شفتيها المنقبضتين ترتعشان عند الزاويتين. وظلت المرأة تنظر إليه خلال عشر ثوان نظرة قاسية، دون أن تنبس بكلمة، ثم دمدمت تقول على عجل: "لن أغفر لك هذا في يوم من الأيام!".

حين قص علي ستيفان تروفيموفيتش هذه القصة بعد عشر سنين، بصوت خافت، وقد أغلق الأبواب، حلف أنه بلغ من الانشداه في تلك اللحظة أنه لم يسمع ولا رأى كيف اختفت فرفارا بتروفنا. ولأن فرفارا بتروفنا لم تشر إلى هذا الحادث مرة واحدة بعد ذلك، ولأن كل شيء قد جرى بعدئذ في مجراه الطبيعي، فقد ظل صاحبنا طوال حياته يعتقد أنه كان فريسة وهم من الأوهام التي تسبق المرض عادة، لا سيما وأنه في تلك الليلة قد مرض فعلاً، وظل مريضاً طوال خمسة عشر يوماً، وهذا ما قطع لقاءهما كل يوم في المساء تحت قبة الأشجار. ومع ذلك رغم رغبته في الاعتقاد بأن الأمر لا يعدو أن يكون وهماً، فقد ظل خلال حياته كلها، وفي كل يوم من الأيام، ينتظر تتمة

هـذا الحـادث أو ينتظر خاتمة هـذه المغامرة إن صح التعبير. كان لا يسـتطيع أن يصـدق أن القصة قـد انتهت! وإذا كان الأمر كذلك حقـاً، فلك أن تتصور النظرات الخاصة التي كان يلقيها على صديقته من حين إلى حين.

5

كانـت فرفارا بتروفنـا قد بلغت من الاهتمام بأمره أنهـا تخيلت له ملابس ظـل يرتديهـا طـوال حياته، وهي ملابـس أنيقة متميزة تشـتمل علـى ما يلي: ردنجوت أسـود طويـل الجانبين، مزرر حتـى العنق تقريباً ولكنه يناسـبه إلى أبعد حد، وقبّعة لينة واسـعة الحافـة (هي في الصيف قبعة من القش)، وربطة عنـق من حرير أبيـض، كبيرة العقـدة متوَّجة الطرفين، وعصـا ذات قبضة من فضة، هذا إلى شعر طويل متهدّل حتى الكتفين. إن شعره الكستنائي لم يبيض قليلاً إلّا في السـنين الأخيرة. وكان يحلق شـاربيه ولحيته. ويقال إنه كان في شـبابه فتى وسيماً إلى أبعد حدود الوسـامة. وفي رأيي أنه ظل يحتفظ بمظهر مهيب حتى شـيخوخته. وهل يعد المرء شيخاً وهو في الثالثة والخمسين من عمـره؟ على أن صاحبنـا كان، من قبيل التزيين البطولـي، لا يحاول أن يظهر بمظهر الشـباب، بل يسـتمد من تقدّمه في السن زهوّاً أيّ زهو. وكان بملابسه الغريبـة وقامتـه الطويلة النحيلة وشـعره المتهدل على كتفيه أشـبه ببطرك من البطاركة، أو قل كان أشبه بصورة الشاعر كوكولنيك[1] كما تراها منقوشة على طبعة مؤلفاته التي ظهرت بين عام 1830 وعام 1840.

وكان هذا الشـبه يبـرز بروزاً خاصاً حين كان صاحبنـا يجلس في الصيف علـى مقعد بالحديقة، في ظل أشـجار الليلك المزهرة، وقد أسـند يديه على عصـاه وإلـى جانبه كتـاب مفتوح، وغاب في أحلام شـعرية يوحـي بها منظر الشـمس الغاربـة. وعلـى ذكر الكتـب يجب أن ألفـت النظر إلـى أن صاحبنا

---

(1) نستور كوكولنيك (1809ـ1868): شاعر وكاتب خصب أصبح الآن منسياً، وقد ألف تراجيديات تاريخية تناصر الاتجاه الملكي.

قد انتهى بمضي الزمن إلى النفور من القراءة. غير أن ذلك لم يحدث إلّا في السنين الأخيرة من حياته. هذا إلى أنه كان يواظب على قراءة الصحف والمجلات التي كانت فرفارا بتروفنا تكثر من استحضارها. وكذلك لم ينقطع عن الاهتمام بانتصارات الأدب الروسي، ولكن دون أن يفقد شيئاً من رصانته. وقد شغف بدراسة سياستنا المعاصرة، الداخلية والخارجية، في وقت من الأوقات. لكنه لم يلبث أن عدل عن مشروعه هذا. وكذلك كان يتفق له حين يمضي إلى الحديقة أن يحمل كتاباً من كتب توكفيل[1] وإن كان يضع في جيبه مؤلفاً من مؤلفات بول دوكوك. على أن هذه تفاصيل لا قيمة لها.

وعلى ذكر صورة كوكولنيك أحب أن أشير مستطرداً إلى أن هذه الصورة قد وقعت لأول مرة بين يدي فرفارا بتروفنا حين كانت طالبة داخلية في "معهد البنات النبيلات بموسكو". فما إن رأتها حتى افتتنت بها، على عادة جميع الفتيات في المدارس الثانوية، اللواتي يعشقن أي شيء، ويعشقن أساتذتهن في الوقت نفسه، وأساتذة الخط والرسم خاصة. على أن هذا ليس أهم ما في الحكاية، فهو شيء لا يكاد يلفت النظر في فتاة صغيرة، وإنما أهم ما في الحكاية أن فرفارا بتروفنا ظلت وهي في الخمسين من عمرها تحتفظ بهذه الصورة بين أعز ما تحتفظ به من ذكرياتها الخاصة الحميمة. ولعل هذا هو السبب الوحيد في أنها فصّلت لستيفان تروفيموفيتش رداء شبيهاً برداء الشاعر كما يُرى في الصورة. على أن هذا أمر لا قيمة له أيضاً بطبيعة الحال.

وفي إبان السنين الأولى، أو قل في خلال الشطر الأول من إقامة صاحبنا عند فرفارا بتروفنا، كان ما يزال يفكر في تأليف كتاب لا أدري ما هو، فما من يوم إلّا وهو يتهيأ لمباشرة عمله جاداً. ولكن في خلال الشطر الثاني من إقامته هذه، هجر المشروع فيما يظهر. وكثيراً ما كنا نفاجئه يقول: "يلوح لي

---

(1) توكفيل (1805– 1859) : الصحفي الشهير والسياسي الفرنسي، مؤلف كتاب "النظام القديم" وكتاب "الثورة"، وقد كان مقروءاً في روسيا.
أمّا روايات بول دوكوك فقد كانت رائجة في روسيا رواجاً كبيراً.

دائماً أنني سأشرع في الكتابة، بعد أن جمعت المواد اللازمة... ولكنني أنظر فأرى أن لا سبيل إلى ذلك، ولا شيئ كما ينبغي".

وكان إذ يقول ذلك يخفض رأسه مرهقاً. ولا شك أن هذا الوضع كان ينبغي أن لا يزيده في نظرنا إلّا عظمة ومهابة، فهو شهيد من شهداء العلم. أما هو فكان يرغب في شيء آخر. لقد أفلت منه غير مرة قوله: "لقد نُسيت، ولا حاجة لأحد بي بعد الآن." غير أن هذا الشعور بالأسى العميق القوي إنما استبد به استبداداً خاصاً حوالي عام 1860. وأدركت فرفارا بتروفنا أخيراً أن الأمر في هذه المرة خطير. هذا إلى أنها كانت لا تستطيع أن تسلّم بأن صاحبها قد نسيه الناس وأصبحت حياته غير ذات جدوى. فمن أجل أن تسلّيه قليلاً، ومن أجل أن تعيد إلى شهرته شيئاً من النضارة في الوقت نفسه، ذهبت به إلى موسكو، المدينة التي لها فيها علاقات طيبة بعالم العلم والأدب. ولكن اتضح لها أن موسكو غير كافية البتة.

إنه لعصر عجيب ذلك العصر!... إن شيئاً جديداً يهم أن يولد، شيئاً لا شبه بينه وبين الهدوء القديم، شيئاً غريباً كل الغرابة، ولكن الناس يستنشقونه في كل مكان، حتى في أراضي سكفورشنيكي. إذ كانت أصداء منه قد وصلت إلينا. إننا نعرف الوقائع. لكن الوقائع تجر وراءها عدداً كبيراً من الأفكار الجديدة. كان هذا ينشر الحيرة والاضطراب في العقول. وكان يستحيل علينا أن ندرك المعنى الصحيح والدلالة الصادقة لهذه الأفكار. لذلك قامت في نفس فرفارا بتروفنا، بحكم طبيعتها النسوية، رغبة قوية في إدراك السر. فأخذت تقرأ جميع ما يأتون به إليها من الجرائد والمجلات، والنشرات الأجنبية الممنوعة في روسيا، وحتى الدعوات الثورية التي أخذت تنتشر حينذاك (كان هذا كله يرسل إليها) لكن ذلك لم يزد رأسها إلّا اضطراباً. وشرعت كذلك في كتابة رسائل. إلّا أن الأشخاص الذين تكتب إليهم لا يجيبون إلّا قليلاً، وكلما استمرت المراسلة أصبح فهمها أعسر. واتجهت إلى ستيفان تروفيموفيتش ترجوه أن "يعرض لها هذه الآراء عرضاً كاملاً" مرة واحدة. لكنها ظلت غير راضية عن شروحه صراحةً. كان رأي ستيفان

تروفيموفيتش في الحركة العامة القائمة متعالياً أشد التعالي. كان كل شيء يرتد عنده إلى هذا: أنه قد نُسي، وأن أحداً لا يذكره الآن. وأخيراً ذكره الناس هو أيضاً. ذكروه أول الأمر في المجلات الأجنبية التي عدّته شهيداً من شهداء المنفى. وسرعان ما أخذ الناس يتحدثون عنه في بطرسبرج أيضاً، كنجم كان في الماضي واحداً من طائفة من الكواكب الكبرى. حتى لقد شبّهه بعضهم برادشتشيف[1] دون أن يدرك أحد لماذا. وبعد فترة وجيزة أشيع أنه مات، وأعلن أحدهم أنه سيكتب نبذة عن حياته وأعماله. فانتعش ستيفان تروفيموفيتش مرة واحدة، واكتسى وجهه على حين فجأة أرفع معاني العظمة التي يعبّر عنها. واختفى من نفسه كل ما كان يعلن عنه من احتقار لمعاصريه، واشتعل في قلبه لهيب جديد: إنه يفكر الآن في الانضمام إلى الحركة وفي إظهار مدى ما يملكه من قوى. واستردت فرفارا بتروفنا ثقتها وأصبحت غارقة في عالم من المشاغل. لقد قرر الصديقان أن يذهبا إلى بطرسبرج فوراً، ليستطلعا الأمور، وليقضيا كل شيء بنفسيهما، ولينخرطا في الحركة الجديدة انخراطاً كاملاً إذا أمكن ذلك. وأعلنت أرملة الجنرال، فيما أعلنته، أنها مستعدة لإنشاء مجلة، ولأن تنذر لهذه المجلة ما تبقى من أيام حياتها. وحين لاحظ ستيفان تروفيموفيتش ما وصلت إليه الأمور أصبح يصطنع من مظاهر العلو والرفعة أكثر مما كان يصطنع منها قبل ذلك، حتى لقد أصبح يقف من فرفارا بتروفنا موقفاً يشبه أن يكون موقف من يحميها ويرعاها، وقد لاحظت هي ذلك وسجلته في ذاكرتها. ثم إن هناك باعثاً هاماً آخراً قد حثّها على مباشرة مشروعها، هو أنها كانت تريد تجديد علاقتها بالدوائر العليا من أوساط المجتمع. كان لا بد لها، أن تذكّر المجتمع الراقي بها ما وسعها ذلك، أو أن تحاول هذا في أقل تقدير.

أما الحجة الرسمية التي تذرعت بها للقيام بهذه الرحلة، فهي أنها تريد رؤية ابنها الوحيد الذي كان أيامئذ ينهي دراسته في ثانوية سان بطرسبرج.

---

(1) نيقولا رادشتشيف: مؤلف كتاب ثورتي عنوانه "رحلة من سان بطرسبرج إلى موسكو" ظهر الكتاب سنة 1790 .

6

قضـى الصديقان في بطرسـبرج فصل الشـتاء كلـه تقريباً. ومـا أتى صوم الفصـح فـي أثناء ذلـك إلّا وكان كل شـيء قد تبـدّد كفقاعة صابـون. ذهبت الأحـلام، وأصبـح الوضع المبهم أشـد إبهاماً بدلاً مـن أن يتضح. العلاقات بالطبقات العليا من المجتمع لم يمكن أن تنعقد، اللهم إلّا في حدود ضيقة كل الضيق وبمسـاع ذليلة. وقد جرحت من ذلك كبرياء فرفارا بتروفنا فانخرطت انخراطاً قوياً في الدعوة إلى الأفكار الجديدة، وراحت تهيء في بيتها أمسيات دعـت إليها عدداً من الأدباء الذين سـرعان ما قُدّمـت إليها طائفة كبيرة منهم، وأصبحـوا بعـد ذلك يفـدون من تلقاء أنفسـهم بلا دعـوة، ويصحب بعضهم بعضـاً. إنهـا لم تر قبـل الآن أدباء من هذا النـوع. لقد كانوا جميعـاً مغرورين إلى أبعد حدود الغرور، ولكن غرورهم كان يبلغ من الوضوح والظهور أنهم يوشـكون أن يعدوه واجباً. وكان بعضهـم (لا جميعهم) يمضون في هذا إلى حـد لمجيء سـكارى، وكأنهم يـرون في ذلـك فضيلة خاصة اكتشـفوها في الوقت المحدد. إن لهم طريقة عجيبة في الاختيال كالطواويس حين يذكرون مواهبهم، حتى لتسـتطيع أن تقرأ في وجه كل واحد منهم أنه قد اكتشـف سراً خطيـراً إلى أبعد حدود الخطورة. وكانوا يختصمون ويناقشـون ويتنافسـون. ولئـن كان يصعـب على المـرء أن يعرف ماذا أنتجوا في حياتهـم الأدبية، لقد كان بينهم نقاد، وروائيون، ومؤلفو مسـرحيات، وكتّاب سـاخرون، ومدبّجو مقالات. واستطاع ستيفان تروفيموفيتش أن ينفذ إلى القلب من هذه الحلقة، أي إلـى النقطـة التي تنطلق منها قيـادة الحركة، ومن أجل أن يسـتطيع مقاربة القادة اضطر إلى أن يجتاز عدداً لا نهاية له من درجات السلم. على أن هؤلاء القـادة قـد اسـتقبلوه في مودة وحـرارة، رغـم أن أحداً لـم يسـمع بـه من قبل، ولا عرف عنه إلّا أنه "يجسّد الفكرة". وقد عرف ستيفان تروفيموفيتش كيف يداورهم في براعة، حتى اسـتطاع أن يجتذبهم إلى بيت فرفارا بتروفنا مرتين، رغـم عظمتهم الأولمبيـة. وكان هؤلاء الناس رجالاً جادّيـن إلى أبعد حدود

الجد، وكانوا على جانب عظيم من التهذيب وسلامة السلوك. وكان يبدو أن الآخرين يخشونهم. ولكن كان واضحاً أنهم أناس لا يملكون من الوقت ما يبددونه سدى. وقد وفد إلى بيت فرفارا بتروفنا كذلك أديبان أو ثلاثة أدباء من ذوي الشهرة القديمة، وكانوا يومئذ في بطرسبرج، وكان لفرفارا بتروفنا بهم صلة من أحلى الصلات يرجع عهدها إلى زمن قديم. ولكن ما كان أشد دهشتها حين لاحظت أن هؤلاء الأدباء المشهورين كانوا، رغم ما يتصفون به من أصالة ومن مواهب لا سبيل إلى إنكارها "أهدأ من الماء، وأكثر تواضعاً من أعشاب الأرض"، وكان بعضهم يجد أن خير ما يفعله هون أن يتشبث بهذه العصبة الجديدة طالباً جودها وكرمها. وقد واتى الحظ ستيفان تروفيموفيتش بعض المواتاة في أول الأمر، فقد تعلقوا به، وأخذوا يظهرونه في الاجتماعات الأدبية. وحين صعد المنبر أول مرة، في حفلة أدبية اشترك فيها، استقبله الجمهور بتصفيق جنوني استمر خمس دقائق طوال. إنه بعد عشر سنين، ظل يتذكر تلك اللحظة وعيناه مخضلّتان بالدموع (لا عرفاناً بالجميل، بل من فرط حساسيته الفنية)، فقال لي (وحدي سراً): "أقسم لك أن أحداً من الحضور لم يكن قد سمع بي في حياته قبل ذلك".

وهذا اعتراف جدير بأن يلاحظ. فإذا صح أن صاحبنا قد أدرك وضعه هذا الإدارك الواضح، في تلك اللحظة نفسها، رغم شدة الانفعال التي كان يعانيها من فوق المنبر، فلقد كان إذنْ إلى جانب من رهافة الذكاء. لكن الواقع أنه لم يكن على قدر عظيم من الذكاء المرهف، فإنه بعد تسع سنين، كان لا يستطيع بعث تلك الذكرى إلّا ويشعر من ذلك بإهانة. لقد أجبروه على أن يوقع على اثنتين أو ثلاثاً من عرائض الاحتجاج الجماعية (على ماذا كان الاحتجاج؟ إنه هو نفسه لم يكن يدري)، فوقّع كل ما شاؤوا له أن يوقعه. وقد حُملت فرفارا بتروفنا أيضاً على توقيع عريضة من تلك العرائض احتجاجاً على "عمل من الأعمال الشائنة". ويجب أن نذكر من جهة أخرى أن أكثر هؤلاء "الناس الجدد" رغم ترددهم على فرفارا بتروفنا، كانوا يشعرون أن من واجبهم (لا ندري لماذا) أن ينظروا إليها نظرة احتقار وأن لا يكلفوا أنفسهم

عناء إخفاء سخرهم منها. وقد ذكر لي ستيفان تروفيموفيتش بعد ذلك، في ساعات مرارته، أن فرفارا بتروفنا إنما أخذت تغار منه ابتداء من تلك اللحظة. لقد أدركت، ولا شك، أنها لا تستطيع أن تعقد صلات بهؤلاء الناس. لكنها كانت تستقبلهم في نهم وشراهة، يدفعها إلى ذلك ما يتصف به أفراد جنسها من فرط حب الاطلاع ونفاد الصبر، بالإضافة إلى أنها كانت ما تنفك تتوقع حدوث حدث ما. وكانت فرفارا بتروفنا لا تتكلم في أثناء هذه الاجتماعات إلّا قليلاً، رغم أنها كانت قادرة على أن تتكلم كثيراً لو أرادت. لقد كانت تؤثر أن تصغي إلى كلامهم. وكانت الأحاديث تدور على إلغاء الرقابة، وعلى قواعد الإملاء، وعلى إحلال الألفباء اللاتينية محل الأحرف الروسية[1] وعلى ترحيل فلان أو فلان من الناس، وعلى آخر فضيحة حدثت، وعلى فائدة تقسيم روسيا إلى قوميات يضمها اتحاد فدرالي حر[2]، وعلى إلغاء الجيش والبحرية، وعلى إعادة قيام بولونيا حتى نهر دنيبر، وعلى الإصلاح الزراعي والبيانات الثورية، وعلى إلغاء حق الإرث، وعلى الأسرة والأولاد والكهنة، وعلى حقوق المرأة، وعلى بيت كرايفسكي[3] وما لم يغفره أحد لكرايفسكي، إلخ.. إلخ. ولئن ضم هذا الخليط من "الناس الجدد" أفراداً صالحين لقد ضم كذلك كثيراً من الرجال الصالحين، بل ومن الرجال اللطاف المحبين، على ما هناك من صفات خاصة تجعل الأمر مختلطاً مشتبهاً. أما "الصالحون" فقد كانوا أكثر استعصاء على الفهم من الطالحين الجفاة الغلاظ، ولكن المرء لا يعرف أي الفريقين كان يقود الآخر. وحين أُعلن أن فرفارا بتروفنا تفكر في إنشاء مجلة، هرع إليها عدد أكبر، لكنها لم

(1) في سنة 1862 كانت تُعقد في بطرسبرج اجتماعات تناقش مشكلات تربوية، منها تبسيط قواعد الإملاء. حتى لقد اقترح رجل يقال له كاوفسكي إحلال الألفباء اللاتينية محل الألفباء الروسية. وقد نشرت مجلة دوستويفسكي "الزمان". سنة 1862، مقالة عن هذه المشاجرة حول الإملاء.

(2) نشرت مجلة "روسيا الفتاة "سنة 1862 مقالة بقلم زايتشنفكي نداء تطالب فيه بتحويل روسيا إلى اتحاد جمهوري فدرالي لمقاطعات، وتطالب بإحلال ميليشيا وطنية محل الجيش، وباستقلال بولنده، وبإلغاء الحواجز وحق الإرث، وبالمساواة في الحقوق بين الرجال والنساء، إلخ..

(3) آندره كرايفسكي (1810-1889) . هو ناشر ورئيس تحرير مجلة "حوليات الوطن".

تلبث أن اتُّهمت بأنها رأسمالية، وبأنها مستغلة، وقد قُذف الاتهام في وجهها قذفاً. ولئن كانت هذه الاتهامات حادة عنيفة، لقد كانت كذلك مفاجئة. ففي أمسية من الأمسيات التي كانت تنعقد في بيت فرفارا بتروفنا، تناقش الجنرال العجوز إيفان إيفانوفتش دروزدوف مع شاب شهير من الشباب (والجنرال العجوز صديق قديم من أصدقاء المرحوم الجنرال ستافروجين وأحد رفاقه في الجيش، وهو شخصية من أكرم الشخصيات مقاماً ـ على طريقته الخاصة ـ يعرفه جميع الناس، ويتصف بالعناد والحنق، ويأكل كثيراً، ويخاف من الإلحاد خوفاً رهيباً). فما إن بدأت المناقشة بين الجنرال والشاب حتى قال له هذا: "لا بد أن تكون جنرالاً حتى تقول هذا الكلام" يريد بذلك أن يشير إلى أنه مامن شتيمة أقذع من وصف بأنه جنرال، فما كان من إيفان إيفانوفتش إلّا أن قال وقد استشاط غيظاً: نعم، أنا جنرال، بل أنا ليوتنان جنرال، وقد خدمت قيصري، أما أنت أيها الشاب فلست إلّا فتى غراً وملحداً" وتبعت ذلك جرصة كبيرة، وفي الغد أشارت الصحافة إلى الحادث، وشرع بعضهم في توقيع عريضة جماعية يحتجون فيها على "السلوك الشائن" الذي صدر عن فرفارا بتروفنا إذ رفضت أن تطرد الجنرال من بيتها فوراً. ونشرت إحدى المجلات المصورة صورة كاريكاتورية ساخرة تمثل فرفارا بتروفنا والجنرال وستيفان تروفيموفتش على أنهم ثلاثي رجعي. وقد نشرت الصورة الكاريكاتورية بضعة أبيات لشاعر شعبي نظمها خصيصاً لهذا الغرض. وأحب أن ألفت النظر في هذه المناسبة إلى أن كثيراً من الذين وصلوا إلى رتبة جنرال قد درجوا على هذه العادة المضحكة، عادة قولهم "لقد خدمت قيصري"... كأن قيصرهم ليس قيصرنا، نحن رعاياه البسطاء المخلصين، وكأنه قيصرهم الخاص الذي خُلق لهم وحدهم من دون غيرهم.

وأصبح من المستحيل طبعاً أن يبقى الصديقان في بطرسبرج، لا سيما وأن ستيفان تروفيموفيتش قد مني هو أيضاً بإخفاق حاسم، ذلك أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الكلام باسم الفن، فجلب له ذلك مزيداً من السخريات. وأراد في أثناء محاضرة أخيرة ألقاها أن يؤثر في مستمعيه بالضرب على وتر

الحقـوق المدنية، آملاً بهز قلوبهـم، معتمداً على ما يجب أن يوقظه "نفيه" في نفوسهم من احترام له، فأعلن صراحة أن كلمة "الوطن" كلمة باطلة سخيفة، وأيّـد الفكـرة القائلة بـأن للدين تأثيراً ضـاراً، ولكنه قال بصـوت عال ولهجة قاطعة إن حذاءين أقل قيمة بوشـكين، أقل كثيراً. فإذا بصيحات السخر تنهمر عليـه مـن كل جانب في غير رحمـة، حتى انفجر باكياً أمـام الناس من قبل أن ينزل على المنبر.

وقـد قادته فرفارا بتروفنا يومئذ إلـى البيت وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، فكان يدمدم كالمجنون قائلاً "لقد عاملوني كما تعامل طاقية عتيقة من القطن". وسـهرت عليه صديقته طوال الليل، وهي تسـقيه قطرات من الآس، وتردد على مسامعه حتى مطلع الفجر قولها: "إنك ما تزال مفيداً. ستعود إلى الظهور من جديد، وسيعرف الناس قدرك وقيمتك... في مكان آخر."

وفـي سـاعة مبكرة من صبـاح الغد جـاء إلى بيـت فرفارا بتروفنا خمسـة أدباء، ثلاثة منهم غرباء لم يسـبق لها أن رأتهم يوماً، فقالوا لها، وقد تجهمت وجوههم، إنهم قد درسـوا مسـألة المجلـة وانتهوا إلى قرار فـي هذا الصدد. والحـق أن فرفـارا بتروفنـا لـم تعهـد إلـى أحـد البتة بدراسـة مسـألة المجلة المذكـورة، ولا كلفـت أحـداً باتخاذ أي قرار بشـأنها. وإليكـم قرارهم الذي انتهو إليه:

إن عليها، وهي مؤسسـة المجلة، أن تتنـازل لزمرتهم عن المجلة وأموال المجلـة حـالاً، ثم أن تعود إلـى سكفورشـنيكي وأن لا تنسـى أن تأخذ معها سـتيفان تروفيموفتـش الذي أصبـح الآن "عتيقاً بالياً". ومـن قبيل اللطف في المعاملة وافقوا على الاعتراف لها بحقها في ملكية المجلة، وعلى أن يرسلوا إليها سـدس الأرباح في كل عام. وأجمل ما في الأمر كله أن أربعة من هؤلاء الخمسـة على الأقل كانوا لا يسعون إلى تحقيق غرض خاص أو منفعة معينة ولا يريدون إلى خدمة "القضية المشتركة".

قـال سـتيفان تروفيموفتـش، فيما بعـد، وهو يـروي القصة: "لقد سـافرنا ونحن فيما يشبه الخبل... كنت لا أستطيع أن أربط بين فكرتين ولا أزيد على

أن أتمتم مردداً مع ضجة القطار ـ مازلت أذكر هذا:

ليف كامبيك وفييك وفييك[1]

ليف كامبيك وفييك وفييك

وما لا أدري أيضاً، حتى وصلنا إلى موسكو. وهناك إنما ملكت أن أثوب إلى رشدي كأن في وسع المرء أن يجد في موسكو شيئاً آخر!

وكان يقول لنا أحياناً بلهجة الملهم: آه يا أصدقائي! إنكم لا تستطيعون أن تتخيلوا مدى الألم والحنق اللذين يغزوان نفوسكم حين تعبرون عن فكرة عظيمة قدّستموها طوال حياتكم، فإذا بأفراد جهلة يجرونها على أرض الشارع وسط أناس لا يقلون عنهم غباء وحماقة، ثم إذا أنتم ترونها فجأة في السوق وقد تغيرت سحنتها حتى لا تكاد تُعرف، وتمرغت في الوحل وتشوهت وتكسرت، وتغيرت أبعادها وفقدت انسجامها، كلعبة بين أيدي أطفال.... لا! لم يكن الأمر كذلك في عهدنا، ولا إلى هذا صبونا. لقد أصبحت أنكر كل شيء ولا أعرف شيئاً. يجب أن يعود زماننا فيرد إلى الطريق القويمة كل ما يترنح اليوم ويهتز. وإلا فما عسى يحدث؟

7

ما إن عادت فرفارا بتروفنا إلى بطرسبرج حتى صرفت صاحبها إلى خارج روسيا "ليستجم"، ولشعورها كذلك بأنهما في حاجة إلى فترة من الانفصال. ولقد سافر ستيفان تروفيموفتش في حماسة، وصاح يقول: "لسوف أُبعث هنالك بعثاً جديداً، لسوف أنقطع هنالك للعلم."

لكنه استأنف شكاواه الأبدية منذ الرسائل الأولى التي أرسلها من هناك. كتب إلى فرفارا بتروفنا يقول: "قلبي محطّم. أصبحت لا أستطيع أن أنسى شيئاً. كل ما أراه هنا في برلين يذكّرني بماضيّ القديم، باندفاعاتي الأولى

(1) "ليف كامبيك" ناشر جريدة رسول بطرسبرج من 1861 إلى 1862 أمّا "فيك" (العصر) فهي جريدة يومية كانت تصدر في ذلك الأوان نفسه. وهنا يسخر دوستويفسكي سخراً قائماً على التقفية كما كان ذلك رائجاً أيامذاك.

وآلامي الأولى. أين هي؟ أين هما الآن كلتاهما؟ أين أنتما يا ملاكيّ اللتين لم أكن جديراً بكما في يوم من الأيام؟ أين هو ابني، أين هو ابني الحبيب؟ وأين أنا، أين أنا نفسي، أين نفسي القديمة، الصلبة كالفولاذ، الصلدة كالصخر، إذا كان يستطيع رجل اسمه آندرييف، إذا كان يستطيع مهرّج أرثوذكسي ذو لحية "أن يحطم وجودي نصفين"، إلخ إلخ. أما ابنه فقد رآه مرتين في حياته لا أكثر، الأولى حين ولد، والثانية في الآونة الأخيرة، ببطرسبرج، حيث كان الفتى يتهيأ لدخول الجامعة. ولقد سبق أن قلت إن الصبي قد نشأته خالات له طوال حياته، على نفقة فرفارا بتروفنا، في مقاطعة "أو..." التي تبعد حوالي سبعمائة فرسخ عن سكفورشنيكي. وأما آندرييف فهو تاجر بسيط بمدينتنا، غريب الأطوار، مولع بالآثار، علّم نفسه بنفسه، وكان يميل إلى جمع الآثار الروسية القديمة، ويحلو له أحياناً أن يناقش ستيفان تروفيموفتش، في علم الآثار وخاصة في السياسة. إن هذا التاجر المحترم، ذا اللحية البيضاء، والنظارتين الكبيرتين اللتين لهما إطار من فضة، كان لا يزال مديناً لستيفان تروفيموفتش بمبلغ أربعمائة روبل، وذلك ثمن أشجار غابة قطعها من الأرض الصغيرة التي يملكها ستيفان. ورغم أن فرفارا بتروفنا قد زوّدت صديقها بمال كثير حين أرسلته إلى برلين، فقد كان ستيفان تروفيموفتش يأمل أن يسترد هذا الدين قبل سفره، ربما لنفقاته السرية، فلما استمهله آندرييف شهراً، كاد يبكي من فرط ألمه. ثم إنه كان من حق التاجر أن يطلب هذه المهلة، فإن الدفعات الأولى من المال، التي أخذها منه ستيفان تروفيموفتش قد سبقت الشراء ستة اشهر، وذلك في الأيام الأولى التي كان ستيفان تروفيموفتش يعاني فيها عسراً. قرأت فرفارا بتروفنا هذه الرسالة الأولى باهتمام واستطلاع، ووضعت خطاً أحمر تحت قول صاحبها: "أين هما الآن كلتاهما؟" ثمّ أرّخت الرسالة وأودعتها الصندوق. لا شك أنه يشير إلى امرأتيه الراحلتين. أما الرسالة الثانية فقد كان فيها أغنية أخرى: "إنني أعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم (دمدمت فرفارا بتروفنا تقول: يكفي إحدى عشرة): أنبش المكتبات، أفتش في النصوص، أدوّن ملاحظات، أقوم

بجولات، أزور الأساتذة. جدّدت صِلاتي بأسرة دونداسوف الرائعة. ما تزال إلى الآن فاتنة تلك الناديجدا ـ نيقولايفنا! إنها تبلّغك تحياتها. زوجها الشاب وأبناء أختها الثلاثة يقيمون في برلين. في المساء أتحدث مع هؤلاء الشباب حتى الفجر. سهرات أثينية[1] لكنها ليست أثينية إلاّ من ناحية رهافة الذوق وجمال الحديث. كل شيء فيها رفيع الطراز نبيل الأسلوب: موسيقى كثيرة، ألحان إسبانية، أحلام في بعث الإنسانية كلها، فكرة الجمال الأبدي، صورة العذراء في كنيسة سكستين، الضوء المنساب من خلال الظلمات. لكن الشمس نفسها لا تخلو من بقع! أواه يا صديقتي، يا صديقتي النبيلة الوفية! إنني لك، وبقلبي معك، معك وحدك دائماً، في كل بلد من البلاد، وحتى في "بلاد ماكار وعجولها" التي طالما تحدثنا عنها في بطرسبرج ونحن نرتعش قبل رحيلنا عن تلك المدينة ـ تذكرين ذلك ـ إن ذكرى هذا لتطوف الآن في خيالي فترتسم على شفتي ابتسامة. إنني ما كدت أجتاز الحدود حتى شعرت أنني بعدت عن الخطر... إحساس غريب جديد، شعرت به لأول مرة منذ سنين"، إلخ إلخ..

قالت فرفارا بتروفنا وهي تطوي الرسالة وتضعها في الصندوق مع الرسائل الأخرى:

ـ كلام فارغ... إذا كانت السهرات الأثينية تستمر حتى الفجر فإنه غير منقطع إلى كتبه اثنتي عشرة ساعة في اليوم. هل كان ثملاً حين كتب هذا الكلام؟ وهذه المرأة دونداسوف، كيف تجرؤ أن تبعث إليّ بتحياتها؟ على كل حال، فليسرَّ عن نفسه!...

أما قوله " في بلاد ماكار وعجولها" فقد حرص ستيفان تروفيموفتش على أن يترجم به إلى الفرنسية الأمثال والأقوال المأثورة الروسية مشوهة رغم أنه كان قادراً على أن يؤولها على نحو أحسن، لكنه يفعل ذلك تظرّفاً، وكان يجد فيه فكاهة جميلة.

(1) "سهرات أثينية" إشارة إلى المناقشات الفلسفية في حدائق أثينا عند هبوط المساء، وهي السهرات التي تكلم عنها أفلاطون.

علـى أن سـلوى سـتيفان تروفيموفتش لم تـدم طويلاً. فما هـي إلّا أربعة أشـهر، حتى فقد صبره وعاد مسرعاً إلى سكفورشـنيكي. إن رسائله الأخيرة التـي لم تكن إلّا ذوبانـاً عاطفياً تجاه صديقته الغائبة كانـت مبللة بدموع حقة يذرفها حزناً على فراقها. إن هناك بشراً لا يقلون عن الكلاب الصغيرة تمسّكاً بمسـاكنهم وحنينـاً إليها. لقـد التقى الصديقان في حماسـة وحـرارة. غير أن كل شـيء عـاد إلى مجـراه الطبيعـي بعد يومين، بل أصبح أشـدّ إمـلالاً. قال لي سـتيفان تروفيموفتش بعد خمسـة عشـر يوماً: "يا صديقي، لقد اكتشـفت شـيئاً... شـيئاً رهيباً بالنسـبة إلي... ما أنـا إلّا طفيلي... طفيلـي.. لا.. أكثر.. من.. ذلك.."

8

بعـد هـذا دخلنا فـي مرحلة من الركود دامت تسـع سـنوات، ولـم يحدث خلالها أي تبدّل تقريباً. كانت الانفجارات العصبية والدموع السخية تُستأنف على كتفي من حين إلى حين، لكنها لا تُفْسِد سعادتنا البتة.

إنه ليدهشـني أن ستيفان تروفيموفتش لـم يسـمن في أثناء هذه الفترة. كل مـا هنالك أن أنفه احمرّ، وأن حركاته اكتسبت مزيداً مـن اللطف والتحضر. وقـد تكونت من حوله، شـيئاً بعد شـيء، حلقة من الأصدقـاء، حلقة صغيرة والحق يقال. وكنا نعد فرفارا بتروفنا راعيتنا الجليلة، رغم أنها كانت لا تتصل بهذه الحلقة إلّا قليلاً. إنها بعد الدرس الذي تلقنته في بطرسبرج، قد استقرت في مدينتنا نهائياً، ففي الشـتاء تسكن قصرها، وفي الصيف تمضي إلى منزلها الريفي. ولـم تحظ طوال حياتها في مجتمعنا الريفي بما حظيت به من احترام ونفوذ في السـنين السـبع الأخيـرة، إلى أن عُـيّن الحاكـم الحالي. إن حاكمنا القديم، اللطيف، الوديع، إيفان أوسـيبوفتش الذي لا يُنسى، كان يمت بقرابة قريبـة إلى فرفارا بتروفنا التي أحاطتـه في الماضي بكثير من الرعاية وأغدقت عليـه كثيـراً من النعم. لقد كانت امـرأة الحاكم ترتعد فرقـاً متى تصورت أنها توشك أن تفقد رضا فرفارا بتروفنا عنها، وكان الاحترام الذي يشعر به الناس

في مجتمعنا الريفي نحو فرفارا بتروفنا يكاد يكون نوعاً من العبادة. وواضح أن ستيفان تروفيموفتش كان من ذلك في خير. لقد كان عضواً في النادي وكان يخسر في لعب الورق بوقار وجلال، واستطاع أن يحظى باعتبار الناس جميعاً، رغم أن كثيراً من الأفراد كانوا لا يعدّونه أكثر من "عالم" في أحسن تقدير. وحين سمحت له فرفارا بتروفنا فيما بعد، أن يقيم في منزل مستقل، تمتعنا بمزيد من الحرية، فكنا نجتمع عنده مرتين في الأسبوع، ونتسلى خاصة حين يغدق علينا الشمبانيا في غير قصد ولا اعتدال. وكان الخمر يأتي من دكان ذلك التاجر نفسه، آندرييف، وكان فرفارا بتروفنا هي التي تدفع فاتورة الحساب كل ستة أشهر، وكان يوم الدفع هو يوم المرض، دائماً على وجه التقريب.

إن أقدم أفراد حلقتنا الصغيرة رجل يقال له ليبوتين[1]، وهو موظف ريفي متقدم في السن قليلاً، يعتنق مبادئ الحرية، ويعدّه الناس في المدينة ملحداً. وكان قد تزوج للمرة الثانية من فتاة جميلة ذات بائنة كبيرة. وكان، إلى ذلك، أباً لثلاثة بنات بلغن سن الرشد، وكانت أسرته كلها تعيش سجينة البيت حياة منعزلة، وتخشاه خشية كبيرة. وكان بخيلاً إلى أبعد حدود البخل، فاستطاع بالتوفير من رواتبه، أن يملك بيتاً صغيراً وأن يجمع قدراً من المال. ولأنه كان قليل الانصياع والطاعة، فقد ظل في الدرجات الدنيا من سلّم الوظائف. وكان الناس في المدينة لا يحترمونه كثيراً وكانت أسر الطبقة الراقية لا تستقبله في بيوتها زد على ذلك أن ليبوتين كان شديد الغيبة والنميمة، وقد عوقب على ذلك عقاباً قاسياً غير مرة، عاقبه أولاً ضابط من الضباط، وعاقبه بعد ذلك رجل من أصحاب الأملاك ورب أسرة شريف. لكننا كنا نحب فكاهته اللاذعة وشغفه بالمعرفة وتندّره المر. أما فرفارا بتروفنا فكانت لا

(1) ليبوتين: تدل مسودات رواية الشياطين على أن دوستويفسكي قد استخدم في تصوير هذه الشخصية شخصية صديقه ألكسندر ميليوكوف (1817 ـ 1897) وهو مؤرخ أدب وعالم تربية عرفه في حلقة بتراشفسكي. لقد كان ميليوكوف من المعجبين باشتراكية فورييه وكان في الوقت نفسه طاغية في منزله.

تحبه قط، ومع ذلك كان يستطيع دائماً أن يحصل منها على حسن المعاملة وكرم الوفادة.

وكانت زوجة الجنرال لا تحب كذلك شاتوف[1] الذي لم يصبح عضواً من أعضاء الحلقة إلّا في السنة الأخيرة. إن شاتوف هذا طالب قديم طُرد من الجامعة على إثر إساءة مدرسية ارتكبها، وكان في طفولته تلميذ ستيفان تروفيموفتش. لقد ولد شاتوف قِنّا من أقنان فرفارا بتروفنا، لأب كان خادماً من خدمها هو المرحوم بافل فيدوروفتش، وهو مدين لها بنعم كثيرة، لكنها كانت لا تحبه لصلفه وكبريائه وإنكاره المعروف، ولا تستطيع أن تفغر له بحال من الأحوال أنه لم يأت إليها فور طرده من الجامعة، وأنه لم يجب عن الرسالة التي بعثت بها إليه عندئذ من أجل أن يأتي إليها، وآثر على ذلك أن يرزح تحت عبء العمل في تعليم الأطفال عند أسرة نكرة من أسر التجار "المثقفين"، وسافر مع هذه الأسرة إلى الخارج أقرب إلى الخادم منه إلى المعلّم. لقد كان شاتوف يحترق في ذلك الوقت شوقاً إلى زيارة البلاد الأجنبية. وقد صحبت الأطفال أيضاً مربية من المربيات هي آنسة روسية ذات طبع حاد، دخلت في خدمة تلك الأسرة قبل السفر بيوم واحد، ومما أغرى الأسرة في تشغيلها أن مطامعها متواضعة. وبعد شهرين طردها التاجر بسبب "أفكارها التحرّرية"، فتبعها شاتوف وتزوّجها بعد قليل بجنيف. وعاش الزواجان معاً ثلاثة أسابيع ثم افترقا افتراق شخصين حرين لا يربطهما شيء، ولكن أغلب الظن أن الفقر كان أحد أسباب هذا الانفصال أيضاً. وبعد ذلك ظل شاتوف يطوّف وحيداً خلال مدة طويلة في أوروبا، فلا يعلم إلّا الله كيف كان يدبّر رزقه. قيل إنه كان ينظف الأحذية في أركان الشوارع وقيل إنه عمل شيّالاً في أحد المرافئ. وأخيراً، منذ سنة، عاد إلى المدينة التي ولد فيها معنا، وأقام عند عمته العجوز التي دفنها بعد ذلك بشهر واحد. وكانت أخته داشا، التي نشّأتها فرفارا بتروفنا أيضاً تعيش بالقرب منها، وتحظى بحبها، وتتمتع في بيتها باعتبار

---

(1) شاتوف: اسم لعل المؤلف اشتقه من كلمة شاتات بمعنى اهتزاز أو تأرجح. فربما كان في هذا إشارة إلى ما تتصف به آراء هذه الشخصية من عدم الاستقرار.

واحترام. ولم يكن لشاتوف بأخته إلّا علاقات ضعيفة جداً. وكان شاتوف يبدو في حلقتنا متجهم الوجه صموتاً. غير أنه، حين يمس أحد معتقداته، من حين إلى حين، يندفع في غضب جارف مرضي، فيفقد سيطرته على لسانه. كان ستيفان تروفيموفتش يقول في بعض الأحيان مازحاً: "من أراد أن يناقش شاتوف، فعليه أن يوثقه أولاً". وكان ستيفان تروفيموفتش يحبه مع ذلك. كان شاتوف قد غير بعض معتقداته الاشتراكية القديمة أثناء إقامته في الخارج تغييراً جذرياً، حتى انزلق إلى نقيضها في تطرف شديد. إن شاتوف واحد من أولئك الروس المثاليين الذين متى أشرقت في نفوسهم فكرة قوية كبيرة، بُهِروا بها، وتسلطت عليهم تسلطاً تاماً قد يدوم في بعض الأحيان إلى الأبد، فلا يصلون يوماً إلى السيطرة على هذه الفكرة التي أصبحوا يعتنقونها اعتناقاً عنيفاً. فحياتهم كلها تنقضي بعد ذلك في ما يشبه التشنجات الكبرى تحت وطأة تلك الصخرة التي سقطت عليهم ذات يوم فحطمتهم نصف تحطيم.

وكان مظهر شاتوف يناسب معتقداته تماماً: فهو أخرق الحركات، صغير القد، كثّ الشعر، قصير القامة، عريض الكتفين، أشقر اللون، ذو حاجبين أبيضين ثخينين، وجبين مغضّن، وعينين مطرقتين في عناد، يبدو أن نظرتهما القلقة تخفي وراءها خجلاً مستتراً. وكان يبقى على رأسه دائماً خصلةً عصية من شعر تنتصب قائمة. أما عمره فقد يكون سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين عاماً. وقد قالت فرفارا بتروفنا ذات يوم، بعد أن تفرّست فيه: "أصبحت لا أستغرب أن امرأته هجرته". وكان شاتوف رغم فقره المدقع، يحاول أن يكون حسن الهندام. وفي هذه المرة أيضاً لم يشأ أن يستعين بفرفارا بتروفنا، بل عاش مما كان يرزقه به الله.

لقد اتفق له أن عمل عند بعض التجار. وعُيّن بعض الوقت موظفاً في محل تجاري، وأوشك أن يسافر على إحدى البواخر التجارية مساعد ممثل لهذا المحل التجاري، لولا أنه مرض قبل السفر بيوم واحد. إنه ليصعب على المرء أن يتصور مقدار البؤس الذي يستطيع شاتوف أن يتحمّله حتى دون أن يفكّر فيه. وحين أبلَّ من مرضه أرسلت إليه فرفارا بتروفنا مائة

روبل دون ذكر اسم المرسل، لكنه عرف الحقيقة مع ذلك، حتى إذا فكر في الأمر قرر الاحتفاظ بالمال ومضى إلى فرفارا بتروفنا يشكر لها صنيعها. وقد استقبلته استقبالاً حاراً، لكنه خيّب ظنها مرة أخرى. فإنه لم يمكث في بيتها إلّا خمس دقائق ظل خلالها صامتاً مطرقاً إلى الأرض وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة بلهاء، وفجأة نهض عن مقعده قبل أن تتم حديثها، بل في أهم لحظة من لحظات هذا الحديث، فحيّاها بخراقة شديدة، حتى لقد صدم من فرط خراقته منضدة صغيرة ثمينة مرصعة فانقلبت المنضدة على الأرض وتهشمت محدثةً ضجة قوية. وخرج من عندها وهو يوشك أن يكون ميتاً من شدّة الخجل. وقد أخذ عليه ليبوتين فيما بعد أنه لم يرفض المائة روبل في احتقار، وأنه رضي أن يأخذ هذا المبلغ من هذه الطاغية، سيدته القديمة. وأفدح من ذلك أنه ذهب إليها يشكرها.

كان شاتوف يقيم في ظاهر المدينة منعزلاً منزوياً، ويكره أن يزوره زائر ولو كان الزائر واحداً منا. وكان يحضر سهرات ستيفان تروفيموفتش باضطراد، ويستعير منه جرائد وكتباً.

وكان يشترك في هذه السهرات أيضاً شابٌّ من مدينتنا اسمه فرجنسكي[1] هو موظف في مؤسسة تجارية، يشبه شاتوف بعض الشبه وإن بدا نقيضه من جميع النواحي. ولكنه كان" رب أسرة". إنه شاب في الثلاثين من العمر، له وجه يثير في نفسك الشعور بالشفقة، وله طبع دمث إلى أبعد حدود الدماثة وهو على جانب كبير من الثقافة، لكنّها ثقافة من يعلّمون أنفسهم بأنفسهم. وكان فقيراً متزوجاً، وهو يزاول مهنته عائلاً خالته وأخت زوجته. كانت زوجته مأخوذة بالأفكار الحديثة كسائر هاته السيدات، لكن هذه الأفكار كانت تكتسي عندها طابعاً عامياً حتى ليصدق عليها ما قاله ستيفان تروفيموفتش ذات يوم: "فكرة أُلقيت في الشارع". إن الذخيرة الفكرية لدى هاته النساء مستعارة، فيكفي أن تروج في الأوساط التقدمية بالعاصمة

(1) فرجنسكي: اسم مشتق من الكلمة اللاتينية فيرجو/ فيرجينيس (العذراء)، ولا بد أن يدل على أن صاحب هذا الاسم ينتمي إلى فئة أبناء رجال الدين.

شائعة من الشائعات حتى تراهنّ مستعدات لطرح كل شيء من النافذة عند أول إيحاء. وكانت السيدة فرجنسكي تزاول في مدينتنا مهنة القابلة. وقد أقامت قبل زواجها زمناً طويلاً ببطرسبرج. أما فرجنسكي نفسه فهو رجل يمتاز ببراءة نادرة ونقاء غير شائع، وقلما أُتيح لي أن لقيت نفساً تفوق نفسه في الاندفاع النبيل. كان يقول لي وقد أشرقت نظراته: "لن أتخلى يوماً، لن أتخلى يوماً عن هذه الآمال المضيئة". وكان يتكلم بصوت خافت وبرقّة وعذوبة، حتى ليكاد يتمتم تمتمة، كأنه يفضي إليك بسرّ. وكان طويل القامة بعض الشيء، لكنه شديد النحول، ضيق المنكبين، قليل الشعر، يضرب لون شعره إلى حمرة. وكان يقبل في مذلة جميع السخريات التي يتفضل ستيفان تروفيموفتش فيوجهها إلى بعض آرائه. لكنه كان مع ذلك يعترض على ستيفان تروفيموفتش اعتراضات قوية جداً تفحمه وتسقط في يده. ومن الواجب أن نذكر مع ذلك أن ستيفان تروفيموفتش الذي يتصرف معنا جميعاً تصرف الأب مع أبنائه كان يعامله في مودّة ولطف. كان يخاطب فرجنسكي بقوله:

- أنت وأمثالك "فقس سابق لأوانه"، رغم أنك شخصياً مبرَّأ من ذلك الضيق العقلي الذي رأيته ببطرسبرج لدى أولئك التلاميذ. لكن هذا لا ينفي أنك من ذلك "الفقس السابق لأوانه". إن شاتوف يتمنى لو يكون من الفقس الذي يتم في حينه، لكنه فقس سابقاً لأوانه هو أيضاً.

فيقول له ليبوتين:

- وأنا؟

- أنت الوسط تماماً، الوسط الذي يعرف كيف يدبر أموره في جميع الظروف... بطريقته الخاصة.

فيغضب ليبوتين.

وقد شاع في المدينة - ويظهر أن الشائعة قائمة على أساس صحيح للأسف - أن زوجة فرجنسكي قد أعلنت له "استقالتها" ولمّا يمضِ على زواجهما حول كامل، قائلة إنها تؤثر عليه عليه لبيادكين. ولبيادكين هذا ليس من

مدينتنا. وقد اتضح بعد ذلك أنه من الأشخاص المشبوهين جداً، حتى إنه لم يكن ضابطاً متقاعداً كما كان يلقب نفسه بهذا اللقب كاذباً. كل ما كان يجيده هو أن يعقف شاربيه ويشرب الخمرة ويروي أسخف المغامرات التي يمكن أن يتصورها الخيال. وكان يرضيه أن يعيش عالة على الآخرين، فلم يتحرّج من أن يقيم فور وصوله عند أسرة فرجنسكي، آكلاً شارباً نائماً، ناظراً إلى رب الدار آخر الأمر نظرة احتقار. وقد ادّعى بعضهم أن فرجنسكي قال لامرأته حين أعلنت له "استقالتها": "يا عزيزتي، كنت لا أشعر نحوك إلّا بالحب، أما الآن فأنا أحترمك"(1) ولكن من المشكوك فيه أن يكون فرجنسكي قد نطق حقاً بهذه العبارة الرائعة التي تليق بأن تصدر عن روماني من الرومان القدماء. وقال آخرون: بل إنه حين "استقالت" امرأته أجهش باكياً منتحباً. وفي ذات مرة ـ حدث ذلك بعد "الاستقالة" بخمسة عشر يوماً ـ مضى الجميع في زيارة "عائلية" إلى منزل بعض الأصحاب في ضاحية من ضواحي المدينة لاحتساء الشاي، فكان فرجنسكي يُظهِرُ نوعاً من المرح العنيف، ويشارك في الرقص، ثم إذا هو ينقض على العملاق لبيادكين فجأة، وبدون أي تشاجر سابق، بينما كان هذا يرقص رقصة الكانكان منفرداً، فيمسك شعره بكلتا يديه، ويثنيه نصفين، ويأخذ يهزه هزاً قوياً، وهو يبكي ويصرخ صرخات حادة، فبلغ العملاق من شدة الخوف أنه لم يدافع عن نفسه. لا، ولا نطق بكلمة واحدة طوال هذا الاشتباك. لكن لبيادكين أظهر عند انتهائه كل ما يمكن أن يظهره سيد مهذب من غضب واستياء.

وقضى فرجنسكي الليل كله راكعاً عند قَدَمَيْ امرأته يضرع إليها أن تصفح عنه، لكنها لم تصفح، لأنه لم يقبل، رغم كل شيء، أن يعتذر إلى لبيادكين. وقد أخذوا عليه فيما بعد أن عقيدته فاترة وأن ذكاءه ضعيف، لأنه حين أراد أن يعتذر لامرأة ركع على ركبتيه. وقد اختفى ذلك "الضابط المتقاعد" بعد قليل، ولم يعد إلى مدينتنا إلّا في المدة الأخيرة تصحبه أخته، ومضى يلاحق

(1) محاكاة لرأي من آراء تشيرنشفسكي عن الحب الحر، وهي الآراء التي عرضها في كتابه "ما العمل؟".

عندئذ أهدافاً أخرى. وسـأعود إلى الحديث عنه في فرصة ثانية. لا غرابة إذن في أن "رب الأسـرة" المسـكين قد احتاج إلى صحبتنا ينشد لقلبه عزاء. على أنه لم يحدّثنا في يوم من الأيام عن شؤونه الخاصة. وفي مرة واحدة، بينما كنا عائديـن معاً من بيت سـتيفان تروفيموفتش، بدأ يتكلم عن حاله في غموض، لكنه لم يلبث أن صاح يقول في توهج وقد أمسك بيدي:

ـ ليـس لهـذا قيمة... هي حالة فردية لا أكثر... لن يضع هذا أي عقبة أمام "القضية المشتركة" لن يكون له أي قيمة؟

وكان نادينا الصغير يسـتقبل كذلك ضيوفاً طارئين، مثل اليهودي ليامشين والكابتـن كارتـوزوف. وفي وقت من الأوقـات أخذ يجيء إلـى نادينا رجل طيب عجوز يرغب في التثقف. وفي ذات يوم قاد إلينا ليبوتين كاهناً محكوماً عليـه بالترحيل، اسـمه سلوفزفسـكي، وقد اسـتقبلناه بعض الوقـت من قبيل التمسك بالمبدأ، ولهذا السبب نفسه كففنا عن استقباله فيما بعد...

9

سَرَت في المدينة، في وقت من الأوقات، شائعة تقول إن حلقتنا بؤرة فساد أخلاقـي وزندقة وإلحـاد. ثم إن هذه الشـائعة قد وجدت لدى سـكان المدينة شيئاً من التصديق دائماً. والحق أن الأمر كله كان لا يتعدى حدود ثرثرة ليبرالية ظريفة، ولا يحمل في طياته أي أذى أو خطر، على الطريقة الروسـية تماماً. إن "الليبرالية النبيلة الرفيعة"، أي الليبرالية التي لا ترمي إلى تحقيق أي هدف محدد أو غاية معينة شيء ليس ممكناً إلّا في روسيا. كان ستيفان تروفيموفتش، ككل رجل من رجال الفكر، يحتاج إلى سـامعين، وكان يشـعر عـدا ذلك بأنه يحقق بنشـر أفكاره واجباً أسـمى، كما أن الشـمبانيا أخيراً يطيب للمرء أن يشربها مع صحبة طيبة وأن يبادل أفراد هذه الصحبة أثناء ذلك بعض الملاحظات اللاذعة المعروفة، عن روسـيا وعن "الفكر الروسـي" وعن "الإله" عامـةً، وعن "الإله

الروسي" خاصةً[1]، وأن يكرر للمرة المائة بعض الحكايات الفاضحة التي ذاع نبؤها وانتشر خبرها في كل مكان. وكنا كذلك لا نهمل الحكايات والأقاويل التي تجري في المدينة، وكنا في بعض الأحيان نصدر في حقها أحكاماً تتصف بأرفع الأخلاقية. وكان لكبريات المشكلات الإنسانية نصيب من اهتمامنا أيضاً: فكنا نتناقش عن مستقبل أوربا والإنسانية، ونتنبأ بأن فرنسا ما إن يزول عهدها القيصري حتى تسقط إلى مستوى أمة من الدرجة الثانية. وكنا مقتنعين بأن ذلك سوف يحدث ببساطة، وفي أقصر مدة. أما البابا[2] فكنا قد حددنا له منذ زمن طويل دور أسقف بسيط في إيطاليا الموحدة، مقتنعين بأن هذه المسألة التي عمرها أكثر من ألف عام لم يبق لها من قيمة في عصرنا هذا الذي نعيش فيه، عصر الصناعة والسكك الحديدية. ولكن ألم يكن هذا هو موقف "اللبرالية النبيلة الرفيعة" الروسية دائماً وكان ستيفان تروفيموفتش يتكلم أحياناً عن الفن، فيفيض في الكلام ويجيد الحديث، ولكن كلامه كان يتصف أحياناً بأنه مجرد بعض التجريد. وكان يستحضر في بعض الأحيان أيضاً، بحنان واحترام، ولكن مع شيء من الحسد، ذكرى أصدقاء شبابه الذين كان لهم جميعاً شأن في إنماء ثقافتنا. حتى إذا مللنا مللاً شديداً وسئمنا سأماً مفرطاً قام ليامشين (وهو موظف بمصلحة البريد) الذي يجيد العزف على البيانو إجادة ممتازة، فأخذ يعزف مقلداً أصوات الخنزير، وهمهمات العاصفة، وأنّات المرأة أثناء المخاض، وصرخات الطفل الوليد، إلخ. ومن أجل هذا الغرض وحده إنما كان يدعى إلى حلقتنا على كل حال. فإذا أسرفنا في الشراب ـ وكان ذلك يحدث أحياناً، ولكن نادراً ـ استسلمنا للفرح والعربدة، حتى لقد اتفق لنا في ذات مساء أن أنشدنا نشيد المارسييز معاً، بمصاحبة عزف ليامشين. ولست أدري على كل حال هل وُفّقنا في الإنشاد كثيراً.

---

(1) "عن الإله الروسي خاصة": إشارة إلى قصيدة نقدية هجائية نظمها الأمير بطرس فيازمسكي (1878ـ 1792) وظهرت سنة 1828 بعنوان "الإله الروسي".

(2) بعد الحملة المهزومة التي قام بها غاريبالدي سنة 1862 كثُر الكلام على تجريد البابا من سلطته الزمنية.

أما اليوم العظيم[1]، يوم التاسع عشر من شباط (فبراير) فقد احتفلنا به في حماسة. ويا طالما سبق أن أفرغنا الكؤوس تكريماً لذلك اليوم على كل حال. ولكن هذا أمر قديم: ففي ذلك العهد لم يكن شاتوف ولا فرجنسكي قد أصبحا من حلقتنا، وكان ستيفان تروفيموفتش ما يزال يقيم في نفس المنزل الذي تقيم فيه فرفارا بتروفنا. وقبيل حلول ذلك اليوم العظيم كان ستيفان تروفيموفتش قد أخذ يدندن مغنياً، بصوت خافت، أبيات الشعر المعروفة جداً، ولكن على نحو غير صحيح، وهي أبيات لعل ناظمها سيد قديم لبرالي من مالكي الأطيان:

الفلاحون يتقدمون
حاملين فؤوسهم بأيديهم
إن أموراً هائلة تتهيأ

أو شيء من هذا القبيل. فإنني لا أتذكر النص تذكراً دقيقاً. وحين سمعت فرفارا بتروفنا صديقها يدندن مغنياً هذا الغناء صاحت تقول: "سخافات، كل هذا سخافات!"، وانصرفت غاضبة. لكن ليبوتين الذي حضر المشهد، قال لستيفان تروفيموفتش بلهجة ساخرة:

ـ لسوف تكون خسارة حقاً أن يسبب الأقنان القدامى، أثناء فرحتهم بعض الإزعاج للسادة المالكين.

قال ليبوتين ذلك وهو يرسم بإبهامه خطاً حول عنقه.

فأجابه ستيفان تروفيموفتش يقول ببساطة وطيبة:

ـ يا صديقي، صدقني إذا قلت لك إن هذا (وكرر حركة ليبوتين) لن يكون له أي نفع لا للمالكين، ولا لنا جميعاً بشكل عام. فرغم أن رؤوسنا هي نفسها التي تمنعنا من فهم ما يجري، فإننا إذا قطعت رؤوسنا لن نزداد فهماً.

أحب أن ألفت النظر في هذه المناسبة إلى أن عدداً منا كانوا يتصورون أن أموراً ستحدث يوم نشر البيان، ولا سيما أموراً من نوع الأمور التي أشار إليها

---

(1) هو يوم إلغاء الرق أو القنانة (19 شباط فبراير 1861).

ليبوتين في كلامه. فما أغرب أن يتصور هؤلاء الناس أنفسهم رجال سياسة، وأن يدّعوا أنهم يفهمون الشعب! وكان ستيفان تروفيموفتش يشارك في هذه المخاوف فيما يبدو. حتى إنه في عشية ذلك اليوم العظيم تقريباً طلب من فرفارا بتروفنا فجأة أن ترحّله إلى الخارج، وكان يشعر بقلق. ولكن اليوم العظيم حلَّ ومضى، واسترد ستيفان تروفيموفتش ابتسامته المتعالية بعد فترة قصيرة من الوقت. وألقى علينا في ذات مرة بضع ملاحظات وتأملات عن طبع الروس عامةً، وطبع الفلاحين خاصة. وختم كلامه بقوله:

ـ نحن أناس متعجّلون، تسرَّعنا كثيراً مع فلاحينا الطيبين، جعلناهم "موضة"، وانصبّ جزء كبير من أدبنا عليهم كانصبابه على كنز تم اكتشافه حديثاً، وظل متوفراً عليه خلال سنين. كنا نتوَّج بأكاليل الغار رؤوساً مقمّلة. وماذا أعطانا الفلاح الروسي منذ وُجد منذ قرابة ألف سنة؟ لقد أعطانا "الكامارنسكايا"[1] إن شاعراً روسياً مرموقاً لا يخلو من ذكاء وفكر قد هتف يقول متحمساً حين رأى راشيل[2] العظيمة أول مرة: "إنني لا أشتري راشيل بفلاح". ولكنني أنا أذهب أبعد من ذلك فأقول: "إنني لا أبيع راشيل بجميع الفلاحين الروس!". لقد آن لنا أن نرى الأشياء كما هي، وأن لا نمزج قطراننا بعطر "أزهار الإمبراطورة"[3].

فسرعان ما وافقه ليبوتين على رأيه، ولكنه لاحظ أنه في ذلك الزمان، كان لا بد، باسم الفكرة، من التمثيل والتظاهر وتمجيد الموجيك. وأضاف أن سيدات من المجتمع الراقي قد سكبن دموعاً غزاراً لدى قراءة "أنطون جوريميكا"[4] حتى أن بعضهن قد كتبن من باريس رسائل إلى وكلاء أملاكهن

---

(1) "الكارامنسكايا": رقصة روسية شعبية يصاحبها غناء فخر.

(2) راشيل العظيمة: إيليزا راشيل (1858ـ 1821) الممثلة الدرامية الشهيرة المولودة بروسيا. ولقد قامت بجولة في روسيا 1853ـ 1854 ولقيت نجاحاً كبيراً.

(3) "أزهار الامبراطورة": عطر كان على الموضة، وقد سمي كذلك تكريماً للامبراطورة أوجينيا.

(4) "أنطون جوريميكا": قصة كتبها ديمتري جريجوروفتش (1899ـ 1822)، صديق شباب دوستويفسكي كما نعلم. وقد نشرت القصة سنة 1847، وفيها يصف المؤلف بطريقة واقعية عاطفية في آن واحد آلام فقير.

طالبـات منهـن أن يُعامَـل الأقنان في المسـتقبل معاملة إنسـانية إلى أبعد حد ممكن.

ومع ذلك حدث بمصادفة تشبه أن تكون عمداً أن أحداثاً مؤسفة لم تلبث أن وقعت في مقاطعتنا، على مسـافة خمسة عشر فرسخاً من سكفورشنيكي، بعد الشائعات التي سرت عن أنطون بتروف[1] فأرسلت الحكومة إلى المكان فـي لحظـة الانفعـال الأول فصيلة مسـلحة. وسـرعان ما اسـتبد الاضطراب بسـتيفان تروفيموفتش، وبلغ هذا الاضطراب من القـوة أننا خفنا نحن أيضاً. فكان سـتيفان تروفيموفتش يصرخ قائلاً في نادينا أنه كان من الواجب إرسال فصيلة أكبر وأضخم، واستقدام تعزيزات من المقاطعة المجاورة برقياً. وهرع إلى الحاكم يؤكد له أنه لا شأن له في الأمر، وأنه غير ضالع فيه، ويتوسل إليه ألا يقحمـه فـي هذه القصـة، كما قد يغريه أن يفعل ذلك بسـبب ماضيه. حتى لقد اقترح على الحاكم أن ينقل تصريحه هذا إلى من يعنيهم الأمر ببطرسبرج. ومـن حسـن الحظ أن الأحداث انتهت بسـرعة ولم يكن لهـا عواقب. ولكن ستيفان تروفيموفتش قد أدهشني في تلك المناسبة أشد الدهشة.

بعـد ذلـك بنحو ثلاث سـنين أخذ النـاس يتحدثون في "الوعـي القومي" وفي "الرأي العام"، فكان سـتيفان تروفيموفيتـش يضحك كثيراً من هذا كله، ويقول لنا:

- يـا أصدقائي لو أن وعينا القومي قد "نشـأ" فعلاً، كما تؤكد الصحف في هذه الأيام، فإنه ما يزال على مقاعد المدرسـة، على مقاعد مدرسـة ألمانية[2]، يقـرأ كتابـاً ألمانياً ويلثـغ في تعلّم درسـه الأبدي باللغـة الألمانية أمـام معلّم ألماني يجعله يركع على ركبتيه عند الحاجة. وأنا من جهتي أؤيد هذا المعلّم

(1) "أنطون بتروف": فلاح من قرية بزدنا في إقليم قازان. زعيم عصيان قام به الفلاحون في تلك القرية. لقد كان الفلاحون مستائين من أن إصلاح 1861 لم يعطهم كل أراضي المالك. وقد أعدم بتروف رمياً بالرصاص سنة 1861.

(2) هي المدرسة الألمانية التي تأسست ببطرسبرج في القرن الثامن عشر، وكانت ما تزال تقدَّر تقديراً عظيماً حتى سنة 1918، وهو العام الذي ألغيت فيه.

الألماني، ولكن الأرجح هو أن لا شيء قد حدث، وأن لا جديد، وأن كل شيء يسير كما كان يسير من قبل، أي بتيسير الله. وفي رأيي أن هذا يكفي كل الكفاية روسيا "بلادنا المقدسة روسيا"[1]. ثم إن هذه الأقوال كلها عن الوحدة السلافية والوعي القومي[2] أقدم من أن تُعدَّ جديدة. ونستطيع أن نقول على وجه الإجمال إن فكرة "القومية" لم توجد يوماً في بلادنا إلّا اختراعاً من تلفيق سادة عاطلين عن العمل، من سادة موسكو خاصة. ولست أتكلم طبعاً عن عهد الأمير إيجور[3] الخلاصة أن مصدر هذا كله إنما هو فراغنا. وكذلك فإن كل ما هو لطيف ومحبّب عندنا إنما مرجعه إلى الفراغ، إلى ذلك الفراغ اللذيذ الذي نَعِمَ به المثقفون سادتنا أصحاب النزوات والبدوات! إنني ما برحت أكرر هذا منذ سنين. إننا لا نعرف أن نعيش من عملنا. ما بالهم يحدثون جميعاً كل هذه الجلبة الآن حول ما يسمونه "الرأي العام"، ومايزعمون أنه نشأ الآن وكأنه هبط علينا فجأة من السماء، هكذا، دفعة واحدة!... ألا تفهمون أن على المرء من أجل الحصول على رأي أن يعمل قبل كل شيء، أن يعمل هو نفسه، وأنه في حاجة إلى ممارسة، إلى تجربة؟ لا يستطيع أحد في يوم من الأيام أن يمتلك شيئاً دون أن يدفع شيئاً. ألا فلنشرع في العمل فيمكن أن يكون لنا رأي خاص بنا. ولكننا أناس لن نعمل أبداً، لذلك فإن الآخرين هم الذين سيكوّنون لنا رأياً، وهؤلاء الآخرون هم أوربا أيضاً ودائماً، هم الألمان أيضاً ودائماً، الألمان الذين يعلموننا منذ قرنين. يُضاف إلى ذلك أن روسيا لغز يبلغ من الضخامة أننا لن نتوصل يوماً إلى أن نحله وحدنا، بدون مساعدة الألمان، وبدون عملهم الدائب. إنني ما برحت، منذ عشرين عاماً، أقرع الجرس لأوقظ الناس وأهيب بهم إلى

---

(1) "بلادنا المقدسة روسيا" إن هذا القول: "بلادنا المقدسة روسيا" نجده في الأغاني الملحمية الروسية منذ عام 1861. وكان رائجاً في الأوساط المنادية بالسلافية في ذلك الأوان.

(2) كان دعاة الوحدة السلافية والوعي القومي يتكلمون حينها كثيراً عن يقظة القوميات السلافية في امبراطورية النمسا_ المجر وفي تركيا يحلمون بوحدة سلافية بقيادة روسيا المقدسة.

(3) "عهد الأمير إيجور: إيجور، ابن روريك، الأمير الأكبر لروسيا من سنة 1912 إلى سنة 1945

العمل. لقد ضحّيت بحياتي كلها في سبيل هذا النداء، وكنت ـ لجنوني!... ـ أظن أنني سأفلح. أما الآن فقد فقدت الإيمان والثقة، ولكنني ما زلت أقرع الجرس، وسأظل أفعل حتى النهاية إلى أن أوارى في التراب. سأظل أشد الحبل إلى أن يدق ناقوس موتي أنا!

وا أسفاه! كنا لا نزيد على أن نرد على هذه الكلمات بغير الموافقة والتأييد. كنا نصفّق لمعلّمنا، وكنا نصفّق له بحرارة شديدة! ومع ذلك، أيها السادة، ألا ترون أن هذه الثرثرة الروسية القديمة، الذكية هذا الذكاء، الفتانة هذه الفتنة، الليبرالية إلى هذه الدرجة ما تزال تترجّع في آذاننا إلى اليوم، وفي كثير من الأحيان؟

وكان معلّمنا يؤمن بالله.

فكان يقول في بعض الأحيان:

ـ لست أدري حقاً لماذا اشتهرت هنا بأنني ملحد. إنني أؤمن بالله. ولكن "يجب أن نفرّق": إنني أؤمن بالله إيماني بموجود لا يعي ذاته إلّا فيّ أنا. ليس في وسعي طبعاً أن يكون إيماني كإيمان خادمتي ناستاسيا، أو كإيمان سيد من السادة يؤمن كيفما اتفق له أن يؤمن، أو كإيمان صاحبنا اللطيف شاتوف. على أن شاتوف يجب ألا يُحسب، لأن شاتوف يجبر نفسه على الإيمان إجباراً، كما يفعل واحد من أنصار السلافية في موسكو. أما المسيحية، فإنني رغم كل ما أحمله لها من احترام، أنتمي إليها، فأنا لست مسيحياً. إنني أقرب إلى أن أكون وثنياً من الزمان القديم، على طراز جوته العظيم أو الإغريق القدماء. على الأقل لأن المسيحية لم تفهم المرأة، كما بينتْ ذلك جورج صاند[1] أروع بيان، في إحدى رواياتها العبقرية. أما عن العبادات، كالصوم

---

(1) في سنة 1847 كان بيلنسكي في الخارج فكتب إلى جوجول رسالة حامية مضطربة سنة 1847 بمناسبة نشر جوجول لمراسلاته. وفي تلك الرسالة يهاجم الناقد مسيحية جوجول مؤكداً أن الشعب الروسي هو بين الشعوب أكثرها إلحاداً.
أمّا الرواية التي بينت فيها جورج صاند أن المسيحية لم تفهم الدين فلعلها رواية "ليلى" التي نشرت سنة 1839 وعالجت فيها قضية المرأة.

والصلاة وما إلى ذلك، فإنني لا أفهم لماذا يتدخل الناس في ما لا يعنيهم؟ مهما يبذل الوشاة هنا من جهود، فلا أحب أن أصبح يسوعياً. في عام 1874، حين كان بيلنسكي في الخارج، كتب إلى جوجول رسالته الشهيرة التي يؤاخذه فيها على أنه يؤمن بذلك "الإله الذي لا أدري ما هو!". اسمعوا ما سأقوله لكم "سرّاً بيننا: إنني لا أستطيع أن أتخيل شيئاً أبعث على الضحك من تلك الدقيقة التي قرأ فيها جوجول "جوجول ذلك العهد" تلك العبارة، و... بقية الرسالة! ولكن كفانا مزاحاً. وما دمنا رغم كل شيء متفقين على جوهر المسألة، فسأقول: أولئك الرجال! أولئك كانوا يعرفون كيف يحبون شعبهم، كانوا يعرفون كيف يتألّمون من أجله، ويضحون بكل شيء في سبيله. ولكنهم كانوا في القوت نفسه، يعرفون كيف يقاومونه في بعض الشؤون إذا اقتضى الأمر ذلك، فلا يتملقونه ولا يخادعونه. ما كان بيلنسكي ليستطيع أن يبحث عن السلامة في الصيام عن الطعام، وفي إشعال الشموع!...

ولكن هنا كان يتدخل شاتوف:

ـ إن أولئك الرجال لم يحبوا الشعب في يوم من الأيام، ولا تألموا من أجله ولا ضحوا بشيء في سبيله، وإنما كانوا يتسلون بأخيلتهم...

بذلك كان يجمجم شاتوف مكفهرّ الوجه، مطرقاً إلى الأرض، مضطرباً على كرسيه. فكان ستيفان ترفيموفتش يزأر سائلاً:

ـ كانوا لا يحبون شعبهم؟ هم؟ آه... لشدّ ما كانوا يحبون روسيا!

فيعول شاتوف قائلاً بدوره وقد سطعت نظراته وحميت عيناه:

ـ لا، لا الشعب ولا روسيا. إن المرء لا يستطيع أن يحب ما لا يعرف. وأولئك كانوا لا يعرفون عن الشعب الروسي شيئاً البتة، ولا يفهمونه إطلاقاً. إنهم جميعاً، وأنت معهم، قد مرّوا بالشعب مروراً دون أن ينظروا إليه، ولا سيما بيلنسكي. إن رسالته إلى جوجول تبرهن على ذلك برهاناً كافياً. إنه يشبه تماماً ذلك "المستطلع"[1] الذي تحدّثنا عنه حكاية كريلوف، ذلك

---

(1) "المستطلع" حكاية شهيرة من الحكايات التي كتبها كريلوف عن الحيوانات. فالمستطلع يتحدث عن زيارة قام بها لمتحف التاريخ الطبيعي فأعجب بحشرات كثيرة، لكنه لم يلتفت إلى الفيل.

"المستطلع" الذي لم يلاحظ الفيل الموجود في المتحف، لأن عينيه كانتا منصرفتين انصرافاً تاماً إلى رؤية الحشرات الاجتماعية الآتية من فرنسا. ولم يذهب إلى أبعد من ذلك. ومع هذا فلعله كان أذكاكم جميعاً. فأنتم لا تجهلون الشعب فحسب، بل لا تشعرون نحو الشعب إلّا بأبشع الاحتقار والازدراء، لأن الشعب الوحيد في نظركم إنما كان هو الشعب الفرنسي، بل وشعب باريس وحدها، وكأنما يُخجلكم أن الشعب الروسي لا يشبه الباريسيين. تلك هي الحقيقة صافية خالصة. ومن لم يكن له شعب لم يكن له إله. فاعلموا أن جميع أولئك الذين أصبحوا لا يفهمون شعبهم، وأصبحوا على غير صلة به، يفقدون إيمان آبائهم بذلك المقدار نفسه، ويصبحون ملاحدة أو غير مكترثين بالدين. إن ما أقوله صحيح. إنه واقع يسهل البرهان عليه. ذلك هو السبب في أنكم جميعاً، في أننا جميعاً الآن ملاحدة أشرار أو أشقياء غير مكترثين بالدين، ذلك هو السبب في أننا لسنا الآن شيئاً على الإطلاق. هذا يصدق عليك أنت أيضاً يا ستيفان تروفيموفتش. إنني لا أستثنيك. بالعكس: لقد قصدتك أنت، فاعلم هذا.

كان من عادة شاتوف، حين يندفع في حديث طويل من هذا النوع، أن يتناول قبعته، وأن يهرع إلى الباب، مقتنعاً بأن كل شيء قد انتهى الآن، وأن علاقات الصداقة بستيفان تروفيموفتش قد انقطعت إلى الأبد. ولكن ستيفان تروفيموفتش عرف كيف يستوقفه في الوقت المناسب. فقال له بلهجة طيبة وهو يمد إليه يده:

- حسناً يا شاتوف! ما رأيك في أن نتصالح بعد أن تبادلنا هذه العبارات اللطيفة؟!...

وكان شاتوف امرءاً أخرق التصرف شديد الحياء، لا يحب الاندفاعات العاطفية، وهو خشن المظهر لكن له نفساً رقيقة مرهفة فيما أعتقد. لقد كان يتفق له في كثير من الأحيان أن يفقد حس القصد والاعتدال، ولكنه كان أول

أمّا قول دوستويفسكي "الحشرات الاجتماعية الآتية من فرنسا". فلعله ينصرف إلى أنبياء الاشتراكية الطوباويّة من أمثال فورييه وكبييه وغيرهما.

مــن يتألــم من ذلك ويـنـدم عليه. فها هــو ذا يرد على كلمـات المصالحة التي وجهها إليه سـتيفان تروفيموفتش ببضعة ألفاظ مبهمة غير متميزة جمجم بها جمجمة، ثم أخذ يرقص في مكانه كما يرقص دب، ثم إذا هو يبتســم ابتســامة خرقاء على حين فجأة، ويعيد قبعته، ويرجع إلى كرسـيه مطرقاً إلى الأرض. وجـيء عندئذ بخمـرة طبعاً، واقتـرح سـتيفان تروفيموفتش أن يشـربوا نخباً يناسـب الظرف، كأن يكون نخب ذكرى واحد من أولئك الذين لمع نجمهم في الماضي.

الفصل الثاني

الأمير هاري. عرض زواج

1

ما يزال يوجد في العالم شخص ترتبط به فرفارا بتروفنا ارتباطاً لا يقل عن ارتباطها بستيفان تروفيموفتش. ذلك هو ابنها الوحيد نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين. ومن أجل ابنها هذا إنما كانت فرفارا بتروفنا قد دعت ستيفان تروفيموفتش إلى الإقامة في سكفورشنيكي، ليشرف على تربيته. كان الولد يومئذ في نحو الثامنة من عمره. وكان أبوه الجنرال ستافروجين قد انفصل عن فرفارا بتروفنا من قبل، فكانت فرفارا بتروفنا وحدها تتولى أمر ابنها وتهتم بشؤونه. ويجب أن ننصف ستيفان تروفيموفتش فنقول أنه أفلح في اكتساب مودة تلميذه. وسرّه كله في هذا أنه كان هو نفسه طفلاً. لم أكن قد عرفته في ذلك الحين بعد. وكان في حاجة مطلقة إلى أن يكون له بقربه صديق. لذلك لم يتردد في أن يتخذ الصبي نيقولاي ستافروجين صديقاً له، منذ خرج الصبي من مرحلة طفولته الأولى. وكانا يحسان كلاهما أنهما متساويان تساوياً تاماً. وكثيراً ما اتفق لستيفان تروفيموفتش أن أيقظ في الليل صديقه الصغير، البالغ من عمره عشر سنين أو إحدى عشرة، لا لشيء إلّا أن يعبّر له عما يجيش في نفسه من مشاعر المرارة والحسرة، أو أن يكشف له عن سر عائلي ما، دون أن يدرك أن مثل هذا البوح لا محلّ له. فكان الطفلان يتعانقان ويبكيان. كان الولد يعرف مدى ما تحمله له أمه من حب، ولكن الأرجح أنه كان لا يحمل لها هذه العواطف نفسها. كانت لا تكلمه إلّا نادراً. ورغم أنها كانت

تدعه حراً، فلقد كان يؤلمه أن يشعر بنظراتها المنتبهة تلاحقه في كل مكان. ثم إنها في كل ما يتعلق بتعليم ابنها وتهذيب نفسه كانت تعتمد على ستيفان تروفيموفتش اعتماداً تاماً، لأنها كانت في ذلك الأوان تثق به ثقة مطلقة.

يجب أن نعتقد أن المربي قد شوّش أعصاب تلميذه في آخر الأمر فحين بلغ الولد السادسة عشرة وأُدخل المدرسة الثانوية كان مراهقاً شاحب اللون ضعيف الجسم "لسوف يكتسب في المستقبل قوة جسمية خارقة". ويجب أن نعتقد أيضاً أن الصديقين كانا يتعانقان ويبكيان في الليل لا بسبب حوادث عائلية فحسب. لقد استطاع ستيفان تروفيموفتش أن يمسّ من نفس الصبي أوتاراً خفية، وأن يوقظ فيه الإحساس المتنبئ الغامض بذلك الحزن المقدّس الذي متى ذاقته نفس من نفوس الصفوة أصبحت ترفض أن تستبدل به أية لذة من اللذات العادية (بل إن ثمة هواة يحبون هذا الحزن أكثر مما يحبون الرضا الكامل، إذا كان للرضا الكامل وجود). مهما يكن من أمر فقد أحسنوا حين فصلوا الربيب عن مربيه، ولو في وقت متأخر قليلاً.

في السنتين الأوليين من دراسته بالمدرسة الثانوية، جاء الفتى يقضي عطلته بالمنزل. وفي أثناء إقامة فرفارا بتروفنا وستيفان تروفيموفتش ببطرسبرج، شهد بعض السهرات الأدبية التي كانت تقيمها أمه فكان يقتصر على الإصغاء والملاحظة. كان قليل الكلام لطيفاً خجولاً على عهدنا به في الماضي. وكان ما يزال يلتزم تجاه ستيفان تروفيموفتش موقف الثقة والمحبة، ولكن على شيء من التحفظ مع ذلك. كان واضحاً أنه يتحاشى أن يخوض معه في الحديث عن أمور رفيعة، ويتجنب إثارة ذكرى الماضي. حتى إذا أنهى دراسته اختار المهنة العسكرية تلبية لرغبة أمه، وسرعان ما دخل ألمع كتيبة من كتائب فرسان الحرس. لكنه لم يأتِ لزيارة أمه في زيه العسكري، وأصبحت رسائله إليها قليلة نادرة. وكانت فرفارا بتروفنا ترسل إليه المال بسخاء، ليعيش في بحبوحة، رغم أن عائدات أملاكها قد بلغت من الهبوط بعد إلغاء الرق أنها أصبحت لا تقبض حتى نصف المبالغ التي كانت تقبضها من قبل. وإنما ينبغي أن نذكر أنها بفضل اقتصادها وتوفيرها كانت

قد ادخرت رأس مال كبير. وكانت تتابع بكثير من الاهتمام والشغف ما كان يحققه ابنها في المجتمع الراقي ببطرسبرج من نجاح تلو نجاح. فالضابط الشاب، الغني، المليء بالآمال والوعود، استطاع أن ينجح نجاحاً باهراً حيث أخفقت هي. فعقد صلات كانت هي قد انقطعت حتى عن أن تحلم بمثلها، وأصبح يُستقبل بترحيب شديد حيثما يذهب. ومع ذلك، سرعان ما أخذت تصل إلى مسامع فرفارا بتروفنا شائعات غريبة كل الغرابة: لقد أخذ الشاب يلهو لهواً مسعوراً على حين فجأة. ليس معنى ذلك أنه يقامر ويسكر وإنما هو على ما يقال يقوم بأعمال عنيفة ويرتكب أفعالاً وحشية: فمرة يدوس أناساً بحصانه، ومرة يهين سيدة من المجتمع الراقي كانت له بها علاقة، يهينها على مرأى ومسمع من الناس. إن هذه الحادثة الأخيرة تتصف بخسة ودناءة خاصة. وقيل أيضاً إنه يسلك سلوك امرء يهوى مشاجرة الناس، ويسعى إلى الاقتتال معهم، ويتلذذ بإهانتهم. إن هذه الأنباء تغرق فرفارا بتروفنا في قلق شديد وغم بالغ. وقد أكد لها ستيفان تروفيموفتش مع ذلك أن هذه الأمور ليست إلّا اندفاعات عارمة لطبيعة غنية المواهب جداً، وأن البحر سيهدأ حتماً وأن هذا كله، على وجه العموم، إنما يذكِّر بشباب الأمير هاري[1] الذي كان، كما يصوّره لنا شكسبير، يندفع اندفاعات مفرطة شتى في صحبة فالستاف وبوانس ومسز كوكلي. ففي هذه المرة لم تصرخ فرفارا بتروفنا قائلة لصديقها: "سخافات، هذه كلها سخافات!"، على عادتها في الآونة الأخيرة، وإنما أخذت أقواله مأخذ الجد، وطلبت منه شروحاً فيها مزيد من التفاصيل، وتولّت بنفسها قراءة القصة الخالدة بأكبر انتباه وأعظم اهتمام. ولكن شكسبير لم يدخل الهدوء والطمأنينة إلى قلبها، وكان من رأيها أن التشابه ليس قوياً إلى الحد الذي زعمه ستيفان تروفيموفتش. وانتظرت جواباً على الرسائل التي أرسلتها مستفسرة مستطلعة، انتظرت جواباً وهي على أحرّ من الجمر.

---

(1) يذكر بشباب الأمير هاري: في مسرحية شكسبير التاريخية "هنرى الرابع"، نقرأ أن ابن الملك، الأمير هاري، عاش حياة ماجنة في صحبة فالستاف. لكنه حين أصبح ملكا باسم هنري الخامس تكشف عن شخصية ملك عاقل حكيم نير.

ولـم تتأخر الأجوبة كثيـراً. وعُلم أن «الأمير هاري» قد أجـرى مبارزتين كان فيهمـا كلتيهما هو المخطئ كل الخطأ. ففـي الأولى قتل خصمه، وفي الثانية جُـرح خصمه جرحاً بليغاً. ومَثَلَ الشـاب سـتافروجين فـي أعقاب ذلك أمام المحكمة العسكرية، فحُكم عليه بتجريده من رتبته، وأُرسل جندياً بسيطاً إلى كتيبة مدفعية بعد أن رأف به القضاة رأفة كبيرة وتسامحوا معه تسامحاً خارقاً.

واسـتطاع سـنة 1863[1] أن يتميز وأن يلمع، فنال وسـاماً، ورُقّـي إلى رتبة صـف ضابـط، ثم لم تنقض إلّا فتـرة قصيرة جداً، حتـى رُدّت إليه رتبته وعاد ضابطاً. إن فرفارا بتروفنا، في أثناء تلك المدة، كتبت ما يقرب من مائة رسالة تتوسـل فيها لابنها وتتضرع من أجله. حتى أنها في تلك الظروف الاسـتثنائية قد عمدت إلى مساع فيها مَذَلّة.

مـا إن ردّت إلـى الشـاب رتبته فعـاد ضابطـاً حتى قـدّم اسـتقالته. ولكنه لـم يرجـع إلى سكفورشـنيكي، حتى لقد انقطـع عن الكتابة إلى أمـه انقطاعاً تامـاً. وعُلـم أخيراً بطرق ملتوية أنه عاد إلى بطرسـبرج، ولكنه أصبح لا يرتاد المجتمـع الـذي كان يختلف إليه من قبل. حتى لكأنـه كان يختفي فيما يبدو. وسـرعان ما اكتُشـف أنه يعيـش بين أناس عجيبـة أنواعهم، أناس هم سـقط الرعـاع وحثالة البشـر بمدينة بطرسـبرج، أناس هم خليط من فقراء أشـقياء، وموظفين بؤسـاء، وعسـكريين محالين علـى التقاعد، يتعاطون الاسـتجداء ويدمنـون الخمـرة. ويظهـر أنه كان يتردد إلى أسـرهم الشـقية، ويقضي أيامه ولياليـه فـي أكواخ مظلمة، وفي أماكن مشـبوهة لا يـدري إلّا الله ما هي، ولا يعتنـي بنفسـه أي اعتناء، وكأنـه يجد لذة في هذا النوع من المعيشـة. وكان لا يطلب من أمه مالاً. إن له أرضاً صغيرة ورثها عن أبيه، فلا بد أن هذه الأرض كانت تدر عليه بعض المال مهما يكن ضئيلاً، فهي مؤجرة لألماني أصله من ساكس.

واسـتطاعت فرفـارا بتروفنا أخيراً، بالتوسـلات والتضرعـات، أن تحمله

---

(1) "واستطاع سنة 1863 أن يتميز وأن يلمع": (هو الأمير هاري أيضاً)، ولعل الإشارة هنا إلى فترة قمع الثورة في بولنده.

على العودة إليها، فظهر الأمير هاري في مدينتنا. وحينذاك إنما استطعت أن أراه أول مرة، لأنني لم أكن قد لقيته قبل ذلك قط.

إنه شاب في الخامسة والعشرين من عمره، جميل إلى أقصى حدود الجمال، قد خطف منظره بصري منذ اللحظة الأولى والحق يقال. لقد كنت أتوقع أن أرى فتى رثّ الأسمال، قذر الهيئة، تفوح منه رائحة الخمرة، ويعبر وجهه عن التبذّل والفجور، فإذا أنا أرى سيداً من أرفع من لقيت في حياتي من السادة، حُسْنُ هندام وأناقة ملبس ومهابة مظهر ولطافة وضع ورقة آداب، فهو بهذا كله ينتمي إلى أرقى بيئة. ولم أكن الشخص الوحيد الذي دهش من ذلك، وإنما كانت الدهشة عامة شاملة في مدينتنا التي كانت مطلعة على سيرة السيد ستافروجين كلها اطلاعاً يبلغ من كثرة التفاصيل أن المرء يتساءل عن مصدرها ولا يفهم من أين أتت. وأغرب ما في الأمر أن نصف هذه المعلومات على الأقل قد ثبتت صحته.

سرعان ما جُنّت سيداتنا جميعاً بضيفنا الجديد، وانقسمن طائفتين: فأما الطائفة الأولى فهي تعبده عبادة، وأما الطائفة الثانية فهي تكرهه كرهاً قاتلاً. ولكنهن جميعاً قد جُنّ جنونهن. إن عدداً منهن كن يشعرن بانجذاب خاص قوي نحوه، لأنهن يتصورن أن نفسه تنطوي حتماً على سر حاسم من الأسرار العجيبة. وكان يحلو لبعضهن أن يرين فيه قاتلاً وقد اتفق أنه كان مثقفاً، حتى أنه يملك معارف واسعة. صحيح أنه لم يكن بحاجة إلى أشياء كثيرة حتى يبهرنا. ولكنه كان في الواقع قادراً على أن يتحدث في أخطر القضايا وأهم المسائل التي كانت تلهب العقول والنفوس في ذلك الأوان، وأن يتحدث عنها في كثير من سداد الرأي وسلامة الحس، وذلك أمر يستحق أكبر التقدير. هناك أمر عجيب: إن جميع الناس، منذ اليوم الأول تقريباً، قد رأوا أنه شاب عاقل جداً. إنه لا يكثر من الكلام، وهو أنيق الهندام بغير تكلُّف، وهو متواضع تواضعاً مدهشاً وهو في الوقت نفسه أكثر جرأة وأكثر ثقة بنفسه من أي واحد بيننا. كان المتأنقون المتطرفون ينظرون إليه نظرة غيرة وحسد، ويمّحون أمامه امّحاء كاملاً. وقد كان وجهه مما خطف

بصري أيضاً. إن شعره أسود، أسود سواداً يوشك أن يكون مفرطاً، وإن عينيه واضحتان مسرفتان في الوضوح والهدوء، وإن وجهه الناعم أبيض مسرف في النقاء والتورّد، أضف إلى ذلك أسناناً كأنها اللؤلؤ وشفتين كأنهما من مرجان. الخلاصة: رجل جميل جداً، لكن فيه مع ذلك شيئاً منفراً. كان يُقال إن وجهه يشبه قناعاً. أما ما كان يذكر عن قوته الجسمية الخارقة، فهو من الأمور المذهلة! وكانت قامته أطول من قامة وسط.

إن فرفارا بتروفنا تتأمله بزهو وفخر، ولكنهما زهو وفخر يخالطهما شيء من قلق. عاش بيننا قرابة ستة أشهر، حياة خالية، وادعة، أقرب إلى الجهامة، يرتاد المجتمع إذا اقتضى الأمر ذلك، ويراعي قواعد آدابنا الريفية مراعاة دقيقة صارمة. وكان الحاكم، وهو يمت إلى أبيه بقرابة بعيدة، يستقبله استقبال صديق حميم. ولكن ما إن انقضت بضعة أشهر حتى كشف الحيوان الكاسر عن مخالبه.

يجب أن أشير هنا، إلى أن حاكم مقاطعتنا، وهو ذلك الطيب العزيز، إيفان أوسيبوفتش، كان أشبه بامرأة عانس، ولكنه من أسرة ممتازة، وله علاقات رفيعة. وذلك ما يفسر بقاءه في منصبه تلك المدة الطويلة كلها رغم الإهمال الذي كان يعالج به شؤون الإدارة. إنه كريم مضياف، يصلح لأن يكون ماريشال الطبقة النبيلة في الزمان القديم أكثر مما يصلح لأن يكون حاكم مقاطعة في عهد يبلغ من الاضطراب ما بلغه ذلك العهد. كان يقال عندنا أن الذي يحكم المقاطعة ليس هو الحاكم، بل فرفارا بتروفنا. تلكم مزحة شريرة، ولكنها في الوقت نفسه ظالمة غير عادلة. ألا ما كان أكثر التفاهات التي كان الناس يطلقونها عن هذا الموضوع متندرين!... والحق أن الواقع كان نقيض ذلك تماماً: إن فرفارا بتروفنا، في خلال هذه السنين الأخيرة، قد انسحبت، عامدة، من جميع الشؤون التي تهم الناس (رغم الاحترام العظيم الذي لم ينقطع المجتمع كله عن محضها إياه)، وحبست نفسها حبساً تاماً في الحدود التي رسمتها لنشاطها بإرادتها. لقد تنازلت عن الأهداف العليا والغايات السامية التي كانت ترمي إليها من قبل، وانصرفت إلى إدارة أملاكها

فجأة، فما انقضت سنتان أو ثلاث سنين حتى كانت أراضيها تغل لها نفس ما كانت تغله تقريباً في عهد القنانة. لقد تركت تطلعاتها القديمة (الأسفار إلى بطرسبرج، إنشاء مجلة، إلخ)، وأخذت تجمع المال وتكنزه، وأصبحت بخيلة. حتى ستيفان تروفيموفتش، أُبعد وأُذن له بأن يشتري شقة في منزل آخر (وذلك أمر سعى إلى الحصول عليه متذرعاً بحجج شتى). وشيئاً فشيئاً، أخذ ستيفان تروفيموفتش يصفها بأنها امرأة عامية، أو يسميها مازحاً باسم "الصديقة العامية". ولكنه لم يسمح لنفسه طبعاً بمثل هذه الأمازيح إلّا مع كثير من الاحترام، وبعد أن ارتقب اللحظة المناسبة زمناً طويلاً.

وكنا ندرك نحن أبناء بيئته التي تحيط به ـ وكان ستيفان تروفيموفتش أكثرنا إحساساً بهذا ـ أن نيقولاي فسيفولودوفتش تتركز فيه كل آمال أمه، وأنه أصبح محلّ جميع تطلعاتها. إن تعلقها الشديد به يرجع عهده إلى فترة النجاحات التي حققها في المجتمع البطرسبرجي، فلما علمت بانحدار الفتى لم يزدها ذلك إلّا تعلقاً به. ومع ذلك كان واضحاً أن فرفارا بتروفنا تخاف ابنها وتتصرف أمامه تصرف عبد تقريباً. كان المرء يلاحظ أنها تخشى من جانبه شيئاً ما، شيئاً غامضاً غريباً سرياً لا تدركه هي نفسها. وكثيراً ما كانت تلقي على نيقولايس نظرات خاطفة، لكنها نافذة، كأنها تحاول سبر غوره لتعرف كيف تتصرف... وها هو ذا الأيّل الأشقر يظهر مخالبه.

2

فجأة، بدون سبب ظاهر، أباح أميرنا لنفسه أن يرتكب في حق عدة أشخاص وقاحات لا يصدقها العقل: إن الشيء الخاص الذي تتميز به هذه الوقاحات هي أنها وقاحات لا يتصورها الخيال حقاً، فهي لا تشبه الاستفزازات التي تجري عادة، ولا تمت إليها بصلة من الصلات. أصبح الشاب يرتكب في آن واحد أعمالاً صبيانية وأفعالاً دنيئة دون أي باعث أو دافع، لا يدري إلّا الشيطان لماذا! من ذلك أن واحداً من عمداء نادينا اسمه بافل بافلوفتش جاجانوف، وهو رجل مسنّ يُجْمِعُ الناس على تقديره، كان

قد اعتاد عادة بريئة وهي أن يقول في كل مناسبة بثقة واضحة: "لا، لن أسمح لأحـد بأن يجرني مـن طرف أنفي!" ففي ذات يوم، مـا كاد يقول هذه الجملة فـي نادينا بعد مناقشـة من المناقشـات أمـام جمع من الناس يـكادون ينتمون كلهم إلى الأرسـتقراطية المحلية، حتى وقف نيقولاي فسيفولودوفتش الذي كان منتحياً في ركن من الأركان، والذي لم يكن قد اشترك في المناقشة، فإذا هو يقترب فجأة من بافل بافلوفتش، فيمسـك طرف أنفه بإصبعيه إمساكاً قوياً ويجـره فيحمله على أن يمشـي وراءه خطوتين أو ثلاث خطوات في الصالة. إن الشاب لا يمكن أن يكون حاملاً أية عداوة للسيد جاجانوف. وكان يمكن أن يُظـن أن عملـه هذا عمل صبيانـي لا أكثر، عمل لا يغتفر طبعـاً، لولا أنهم أكّدوا فيما بعد أن نيقولاي فسـيفولودوفتش، فـي لحظة قيامه بهذه "العملية" كان حالـم الهيئة شارد الفكر "كأنما هو فقد عقله". ولكن هذا الأمر التفصيلي لـم يتذكـره أحـد ولـم يفكـر فيه أحـد إلّا بعد ذلك بمـدة طويلة. أمـا في تلك اللحظة نفسها فإن الحاضرين لم يحفظوا إلّا وضع نيقولاي فسيفولودوفتش بعد وقوع الحادث فوراً، حين أدرك ما فعله إدراكاً تاماً، فرأوا أنه لم يضطرب أي اضطـراب، بل ابتسـم مرحاً، في خبث، "دون أي نـدم". وأحاط الناس به وأخذوا يصرخون جميعاً. فكان نيقولاي فسيفولودوفتش يلتفت يمنة ويسرة دون أن يقـول شـيئاً، وكان يبدو عليه أنه يتأمل هـؤلاء الناس الذين يصرخون مسـتغرباً. وأخيـراً، شـرد فكـره من جديـد (أو هذا مـا حُكي فيمـا بعد، على الأقـل)، وقطب حاجبيه، واتجه نحو بافل بافلوفتش بخطى ثابتة وتمتم يقول له وهو ظاهر التململ:

ـ سـوف تعذرنـي حتمـاً... إنني لا أدري حقاً لماذا شبّت في نفسـي هذه الرغبة فجأة... لقد كان ذلك سخفاً مني...

قـال ذلـك بلهجة فيهـا إهمال واضح، فـكان ذلـك بمثابة إهانـة جديدة، وازداد اللغط. فهزّ نيقولاي فسيفولودوفتش منكبيه وانصرف.

ذلك كله كان غباء تاماً، وكان خسةً مقصودة متعمدة محسوبة (فيما بدا من أول نظرة) وكان إذن إهانة أراد الشاب أن يوجهها إلى مجتمعنا كله. على هذا

النحو إنما فهم جميع الناس الحادثة. فقرروا مجمعين أن يبدؤوا أولاً بشطب اسم السيد ستافروجين على الفور من قائمة أعضاء نادينا. ثم اتفقوا على أن يرفعوا شكوى باسم النادي إلى الحاكم راجين منه أن يستعمل سلطاته الإدارية (دون أن ينتظر مثول القضية أمام المحاكم) فيردّ إلى الصواب هذا المجنون الخطر، هذا "المشاجر" الهائج، ويصون بذلك شرفاء الناس من أي "عدوان غاشم يفسد عليهم صفو حياتهم"، واتفقوا على أن يضيفوا إلى ذلك قولهم، بسذاجة زائفة، إنهم يأملون أن "يوجد قانونٌ ما يعاقب حتى السيد ستافروجين"، وإنما اختاروا هذه العبارة ليخزوا الحاكم بالإلماح إلى فرفارا بتروفنا. ولكن شاءت المصادفة بما يشبه العمد أن يكون الحاكم غائباً عن المدينة في تلك الآونة: كان قد ذهب إلى قرية مجاورة ليمسك فوق جرن المعمودية ابن أرملة لطيفة كان زوجها قد مات عنها منذ مدة قصيرة وتركها في وضع شائن. وبانتظار عودته التي يعرفون أنها قريبة كرّموا الضحية أكبر التكريم واحتفوا بها أشد الاحتفاء، فجاءت المدينة كلها تزور الرجل المحترم بافل بافلوفتش، وتشد على يديه، وتعانقه وتقبله. حتى لقد اقترح بعضهم أن تقام له مأدبة يشارك في دفع نفقاتها مكتتبون، ثم لم يعدلوا عن هذه الفكرة إلّا بإلحاح منه، ولعلهم أدركوا أخيراً من جهة أخرى أن المسكين، مهما يكن من أمر، قد جُرّ من أنفه، فلا محل لأن تقام له حفلة باهرة.

كيف حدث هذا مع ذلك؟ كيف أمكن أن يحدث أمر كهذا؟ إن أعجب ما في القضية أن أحداً من مدينتنا كلها لم ينسب هذا الفعل الهمجي إلى الجنون. فيجب أن نعتقد إذن أنهم كانوا ميّالين إلى أن يعدّوا أمثال هذه الأفعال طبيعية من جانب نيقولاي فسيفولودوفتش. أما أنا فإنني إلى هذا اليوم أشعر بعجزي عن تفسير الواقعة رغم أن حادثة أخرى قد وقعت بعد قليل فبدا أنها توضح كل شيء، وهدّأت جميع النفوس. وأضيف إلى هذا أنني حين اتفق لي بعد ذلك بأربع سنين أن اسأل نيقولاي فسيفولودوفتش، محاذراً عن حادثة النادي، فقد سمعت منه هذا الجواب وهو يقطب حاجبيه: "نعم، لم تكن صحتي جيدة حينذاك". ولكن لا نستبقنّ الأمور.

وممـا خطـف انتباهـي أيضـاً أن كرهـاً إجماعيـاً قـد انصـبّ فجـأة على "المجنون"، على "المشاجر". لقد كانوا يصرون على أن يعدوا فعلته تحدياً مقصوداً متعمداً، وإهانة رشق بها المجتمع كله هادئاً من دون أن يتأثر. حقاً إن هذا الإنسان لم يظفر بأن يحمل أحداً على أن ينظر إليه نظرة حسنة. بالعكس: إن جميـع الناس قاموا عليـه وناصبوه العداء. وما هو السـبب أخيراً؟ إنه قبل ذلـك الحادث لم يكن قد شـاجر أحداً قط، ولا كان أحد منـا قد تلقّى منه أية إهانة، وكان يبدو دائماً مهذّباً تهذيب سـيد من السادة الذين نرى صورهـم في مجـلات "الموضـة" إذا أوتي أحد من هؤلاء السـادة أن ينطـق. إنني أفترض أنهم كانوا يكرهونه لزهوه وكبريائه. حتى سيدات من اللواتي عبدنه عبادة في البداية أصبحن الآن أكثر من الرجال سخطاً عليه وزعيقاً ضدّه.

وكانـت فرفارا بتروفنا مضطربة أشـد الاضطراب. وقد اعترفت لسـتيفان تروفيموفتـش فـي ما بعد أنها قد أوجسـت ذلـك كله منذ زمـن طويل، وأنها خلال الأشـهر السـتة الأخيرة كانت في كل يوم تتوقع حدوث شيء ما، شيء "من هذا النوع" بعينه. هذا اعتراف له شأنه من جانب أم.

حدّثـت الأم نفسـها قائلة وهـي ترتعش: "لقد بـدأ الأمـر...". وفي غداة وقـوع الحـادث حاولت أن تناقش ابنهـا بلباقة ولكن بثبـات. ورغم ما كانت تتصـف بـه من عزيمة، فلقـد كانت المرأة المسـكينة ترتجف من قمة رأسـها إلى أخمص قدميها. لم تكن قد نامت طوال الليل، ولما طلع الصباح جاءت تستشـير ستيفان تروفيموفتش، حتى لقد بكت عنده، هي التي لم يسبق لها أن بكت أمام أحد في يوم من الأيام. تمنت لو يقول لها نيقولاي أي شيء، تمنت لـو يقدم لها أي شـرح. ولكن نيقـولاي الذي ظل على عهدنا بـه أدباً وتهذيباً واحترامـاً فـي معاملته، أخذ يصغي إليها في البداية جـادّ الهيئة عابس الوجه، ثـم إذا هـو ينهض على حين فجـأة، فيقبّل يدها، ويخـرج دون أن يقول كلمة واحـدة. وفي ذلك المسـاء نفسـه انفجرت فضيحـة جديدة بما يشـبه العمد، وهي فضيحة إن تكن أقل خطورة من سـالفتها، فإنها فضيحة خارقة كالأولى سواء بسواء، جعلت الاستياء العارم يبلغ ذروته ويصل إلى تمامه.

إن صديقنا ليبوتين هو الذي تناولته الفضيحة في هذه المرة. لقد جاء إلى نيقولاي فسيفولودوفتش بعد الحديث الذي جرى بين الشاب وأمه فوراً، ورجاه ملحاً أن يشرّفه بحضور السهرة التي يقيمها في ذلك المساء نفسه بمناسبة عيد ميلاد زوجته. إن فرفارا بتروفنا كانت قد نظرت، مرتاعة مشمئزة، إلى العلاقات المبتذلة التي يعقدها ابنها مع بعض الناس، ولكنها كانت لا تجرؤ أن تفاتحه في هذا الأمر وأن تحدّثه فيه. كان الشاب قد تعرّف بأشخاص حقيرين من مجتمعنا، بل هبط إلى ما دون ذلك أيضاً... رغم أنه لقيه مراراً. وأدرك فسيفولودوفتش أن ليبوتين إنما يدعوه بسبب الفضيحة التي أثارها حادث النادي، وهي فضيحة لا بد أن ليبوتين قد سُرّ بها سروراً عظيماً وافتتن بها افتتاناً، من حيث هو رجل لبرالي، لاعتقاده بأن هذه المعاملة هي التي يجب أن يُعامل بها عمداء النادي، وبأن الشاب قد أحسن التصرف. انفجر نيقولاي فسيفولودوفتش ضاحكاً، ووعد بحضور الحفلة.

كان بيت ليبوتين يضم جمهوراً غفيراً، ولئن لم يكن الحضور من علية القوم، فقد كان جو الحفلة زاخراً بالحياة والنشاط. إن ليبوتين، المغرور الحسود، لا يستقبل إلّا مرتين في السنة، ولكنه حين يستقبل يعرف كيف يرتب الأمور وكيف يجيد تدبيرها. إن ستيفان تروفيموفتش، وهو أعلى المدعوين مقاماً، لم يستطع أن يحضر الحفلة لأنه كان مريضاً. وقُدّم الشاي وكانت المقبّلات كثيرة، والخمرة وافرة. وكانت قد حُجزت ثلاث موائد للمقامرين. وبانتظار موعد العشاء أخذ الشباب يرقصون على أنغام البيانو. وجاء نيقولاي فسيفولودوفتش إلى زوجة ليبوتين يدعوها إلى الرقص، وهي امرأة صغيرة بارعة الجمال شديدة الخوف من هذا الشاب، فبعد أن رقص معها رقصتين أو ثلاثاً على أنغام الفالس جلس إلى جانبها وأخذ يروي لها حكايات سلّتها كثيراً. وإذ لاحظ مدى جمالها أثناء ضَحِكها، أمسك بقامتها على حين فجأة، وأطبق بفمه كلّه على شفتيها فقبّلها قبلتين أو ثلاثاً على مرأى من جميع الناس. فما كان من المسكينة إلّا أن أُغمي عليها من شدّة ما أصابها من روع. فتناول نيقولاي فسيفولودوفتش قبعته واقترب من الزوج

خجلاً أشد الخجل، وسط الانفعال العام الذي أثارته فعلته في الجمهور، فتأمله لحظة، ثم فقد سيطرته على نفسه، فتمتم قائلاً له بسرعة: "لا تزعل!". وخرج.

أسرع ليبوتين يجري وراءه إلى حجرة المدخل، وساعده في ارتداء معطفه، وصحبه إلى أسفل السلّم وهو يشيّعه بتحيات كثيرة.

غير أن هذه الحكاية البريئة نسبياً قد كانت لها في الغداة تتمة مسلية رفعت قدر ليبوتين منذ ذلك الحين رفعاً عرف كيف يستفيد منه.

ففي الساعة العاشرة من الصباح جاءت أجافيا خادمة ليبوتين، وهي فتاة لبيبة في نحو الثلاثين من العمر، حمراء الوجه، جاءت إلى عند السيدة ستافروجين موفدة من مولاها الذي حمّلها رسالة إلى نيقولاي فسيفولودوفيتش يجب أن "تبلغه إياها شخصياً" وكان الشاب يشعر بصداع، لكنه استقبل الفتاة بحضور فرفارا بتروفنا التي اتفق أن كانت هناك.

ـ لقد أمرني سرجي فاسيلفتش (هذا هو اسم ليبوتين) أن أنقل إليك أولاً تحياته، وأن أستفسر بعد ذلك عن صحتك، وأن أسألك كيف نمت في الليلة البارحة وكيف حالك الآن بعد الذي جرى أمس.

كذلك قالت الفتاة. فابتسم نيقولاي فسيفولودفتش، وأجابها قائلاً:

ـ سلّمي على مولاك واشكريه. وقولي له على لساني يا أجافيا إنه أذكى رجل في المدينة.

فاستأنفت أجافيا كلامها بمزيد من الانطلاق قائلة:

ـ وقد أمرني مولاي أن أرد على كلامك هذا بأنه يعرف ذلك دون أن تقوله أنت، وأنه يتمنى لك مثل هذا القدر من الذكاء.

ـ هه! هه! ولكن كيف أمكنه أن يعرف ما قد أقوله لك؟

ـ لا أدري كيف، لكنني بعد أن خرجت وعبرت الشارع سمعته يركض ورائي دون قبعة، ويصرخ قائلاً لي: "إذا اتفق أن أجابك يا أجافيا: "قولي لمولاك أنه ليس في المدينة كلها رجل أذكى منه"، فلا يفوتنّك أن تجيبيه قائلة: "نحن نعرف هذا دون أن تقوله، ونتمنى لك مثل هذا القدر من الذكاء...".

3

وتمت مفاتحة الحاكم بالأمر أخيراً. فما إن عاد صاحبنا العزيز إيفان أوسيبوفيتش، حتى أُطلع على شكوى أعضاء النادي. وكان بديهياً أن من الواجب فعل شيء ما، غير أن إيفان أوسيبوفتش الرقيق شعر بحرج كبير وارتباك شديد. إن هذا الشيخ المضياف، الرقيق الحديث، كان هو أيضاً يخاف من قريبه الشاب بعض الخوف،كما يبدو. ومع ذلك قرر أن يدفعه إلى الاعتذار للنادي وللمُهان، شريطة أن يكون شكل الاعتذار مناسباً، بل وأن يكون الاعتذار مكتوباً إذا اقتضى الأمر ذلك. ثم قد يحضّه بعدئذ بلطف ورِقّة على السفر، والقيام برحلة، إلى إيطاليا مثلاً، لإغناء ثقافته، أو إلى أي بلد آخر في الخارج.

وفي الصالة التي استُقبل فيها نيقولاي فسيفولودوفتش (وكان نيقولاي في العادة يتجول حراً طليقاً في المنزل كله بصفته من الأقرباء)، كان هناك موظف شاب مؤدب جداً هو محل ثقة الحاكم، اسمه أليوشا تلياتنيكوف، إنه جالس أمام منضدة في أحد الأركان يفضّ رسائل. وفي الغرفة المجاورة، عند نافذة قريبة من الباب، كان كولونيلٌ ضخم الجسم قوي البنية، هو صديق لإيفان أوسيبوفتش ورفيق قديم من رفاقه، يقرأ جريدة "الصوت"[1] دون أن يلتفت أي التفات طبعاً إلى ما كان يجري في الصالة، حتى أنه كان مديراً ظهره إلى الباب.

أخذ إيفان أوسيبوفتش يتكلم بصوت خافت. حتى إذا قارب الموضوع قليلاً ارتبك بعض الارتباك وأخذ يلف ويدور في كلامه. إن وجه نيقولاي خال من البشاشة، لا يرى فيه المرء أثراً لعاطفة عائلية. وكان نيقولاي جالساً، شاحب اللون، خافض العينين، يصغي ويقطب حاجبيه كأنه يقاوم ألماً حاداً.

قال له الحاكم فيما قال:

---

(1) "الصوت": هي الجريدة اللبرالية التي كان يصدرها كرايفسكي في بطرسبرج من سنة 1863 إلى سنة 1883.

ـ إن قلبـك طيب نبيل يـا نيقولاي، وإنك رجل مثقـف، وقد ترددت على أرقى البيئات الاجتماعية، وحتى هنا كان سـلوكك إلى الآن سـلوكاً يسـتحق أن يُضـرب به المثل، فكنت فرحةً لأمك التي نقدّرها جميعاً ونحمل لها أكبر الإعزاز... ولكن ها أنت ذا الآن تطلع علينا بسلوك يحيّر العقل ويشكل خطراً على الناس كافة. إنني أكلمك كصديق لأسرتكم، وكقريب يحبك حباً صادقاً خالصـاً، فما ينبغي أن تسـوءك أقوالـي. قل لي: ما الذي دفعـك إلى ارتكاب أفعـال تبلغ هذا المبلغ مـن الهمجية، وتخالف الأصول والآداب الاجتماعية إلـى هذا الحد؟ ما معنى هذا الشـذوذ الذى يحمل المـرء على أن يفترض أن بك هذياناً.

كان نيقـولاي يصغـي إلـى كلام الحاكـم وقـد لاح فـي وجهـه الضجـر والتململ في آن واحد. ثم إذا بشـيء فيه مكر وسـخر يسـطع في نظرته على حين فجاة. قال للحاكم مظلم الهيئة:

ـ طيب... سأقول لك ما الذي يدفعني...

ثـم مال على إيفان أوسـيبوفتش بعـد أن ألقى نظرة حذر. فارتأى أليوشـا تلياتنيكـوف، الموظف المؤدب، أن يبتعد نحو النافذة بضع خطوات أخرى. وكان الكولونيل يتنحنح من وراء جريدته. ووثق الحاكم المسـكين واطمأن، فأسـرع يقـرّب من فم نيقولاي أذنـه. لقد كان على أحر من الجمر شـوقاً إلى سـماع كلام نيقولاي. وعندئذ إنما حدث شيء لا يصدقه خيال المرء، ولكنه ذو دلالة واضحة بليغة. لقد أحس الشيخ فجأة أن نيقولاي، بدلاً من أن يفضي إليه بسـر هام، قد قبض بأسـنانه على الجزء الأعلى من أذنه وأخذ يعضه عضاً قويـاً. وارتجف إيفان أوسـيبوفتش، وانقطع تنفسـه، ثم قـال في أنين بصوت مشوه:

ـ كفى مزاحاً يا نيقولاي!

إن أليوشـا والكولونيـل لا يفهمان حتى الأن ماذا يجـري، كان يبدو لهما من المكان الذي هما فيه أن الرجلين يتحدثان بصوت خافت. غير أن ما كان يلـوح في وجه الشـيخ من ألم شـديد قد أقلقهمـا. لذلك نظـر كل منهما إلى

صاحبه محملقاً، متسائلاً هل يجب أن يتدخل وفقاً لما تم الاتفاق عليه، أم يجب أن ينتظر قليلاً. ولعل نيقولاي قد لاحظ ترددهما فها هو ذا يعض بمزيد من القوة. وعاد الشيخ المسكين يئن قائلاً من جديد:

ـ نيقولاي.. نيقولاي.. كفى مزاحاً!

فلو انقضت دقيقة أخرى لمات الشيخ المسكين من الخوف حتماً. ولكن جلّاده رأف به وعفا عنه فأرخى أذنه. ولبث الحاكم تحت وطأة الذعر دقيقة كاملة لا يتحرك، ثم اعتراه ما يشبه أن يكون نوبة صرع. وبعد نصف ساعة كان نيقولاي قد اعتقل، واقتيد إلى هيئة الحرس، ووُضع فى زنزانة تحت مراقبة حارس. إن هذا الإجراء قوي شديد، ولكن حاكمنا الرقيق كان قد بلغ من شدة الغضب أنه قرر أن يتحمل تبعة هذا الإجراء أمام فرفارا بتروفنا. وما كان أشد دهشة الناس جميعاً حين أسرعت فرفارا غاضبة تطلب إيضاحات من إيفان أوسيبوفتش، فما كان من الحاكم إلّا أن رفض استقبالها! وقد صُعقت فرفارا بتروفنا من شدة الدهشة، ولم تصدّق عينيها، لكنها اضطرت أن ترجع إلى البيت حتى دون أن تنزل من مركبتها.

واتضح أخيراً كل شيء. ففي الساعة الثانية من الصباح أخذ السجين الذى بدا إلى ذلك الحين هادئاً حتى لقد نام، أخذ يُجن جنونه على حين فجأة: فهو يضرب الباب بقبضة يده ضربات مسعورة، وهو يخلع قضبان الباب الحديدي بقوة فوق قوة البشر، ويحطم الزجاج فتصاب يداه بجراح. فلما أسرع ضابط الحرس مع رجاله ففتحوا باب الزنزانة ليقبضوا على السجين ويوثقوه، وجدوه يعاني نوبة حُمّى حارذة شديدة. فنقلوه إلى أمه. واتضح عندئذ كل شيء. إن الأطباء الثلاثة بمدينتنا قد أجمع رأيهم على أن المريض ربما كان قبل انفجار النوبة بثلاثة أيام في حالة قريبة من الهذيان، فهو واع وقادر على أن يتصرف بحيلة ومكر، ولكنه كان منذ ذلك الوقت لا يسيطر على عقله ولا على إرادته، كما تدل على هذا الوقائع. وهكذا إذن يكون ليبوتين أول من أدرك الحقيقة. وقد ارتبك إيفان أوسيوفتش، الرقيق العاطفة، المرهف الشعور، فأصبح حائراً لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول.

إن مـن الأمـور الغريبة أنه هـو أيضاً كان يرى أن نيقولاي فسـيفولودوفتش لا يتورّع عن ارتكاب أشد الأعمال طيشاً وجنوناً ولو ملك عقله كاملاً. وخجل أعضاء النادي أيضاً. وأظهروا دهشـتهم مـن أنهم لم ينتبهوا إلى ما كان ينبغي لهم أن ينتبهوا إليه، وأنهم لم يفطنوا إلى ذلك التفسير الوحيد الذي يمكن أن يعلّل تلك الأفعال الشـاذة. ولئن أظهر بعضهم شـيئاً من شـك وريب، فإنهم سرعان ما انقادوا للاقتناع بأن ذلك هو التفسير.

لزم نيقولاي سـريره مدة شـهرين. وقد جيء له من موسـكو بطبيب شهير يشـارك فـي فحصه. وتوافـدت المدينـة كلها على فرفـارا بتروفنـا تقف إلى جانبها وتعرب لها عن احترامها، فغفرت للجميع وسـامحتهم. حتى إذا جاء الربيـع، وأبـلّ نيقولاي إبـلالاً تاماً، ورضـي دون أي اعتراض أن يسـافر إلى إيطاليـا كمـا طلبت منه أمـه، اقترحت عليه أمه أيضاً بأن يقـوم ببعض زيارات الوداع، وأن ينتهز فرصة هذه الزيارات فيعتذر لمن أساء إليهم. فوافق الشاب علـى ذلك راضياً. وعُلم في النـادي أن نيقولاي قد أجرى مع بافل بافلوفتش جاجانـوف حديثـاً لبقاً إلى أبعد حدود اللباقة أرضـى جاجانوف إرضاء تاماً. وكان نيقـولاي أثنـاء جولة الزيارات هذه، يبدو عليه كثير من الجد، بل ويبدو عليه أيضاً شـيء من الحزن. ويظهر أنه قد اسـتُقبل في كل مكان بأكبر المودة وأحـرِّ العاطفـة. ومـع ذلك كان النـاس ـ لا يدري المرء لمـاذا ـ يلوح عليهم شـيء مـن الضيق والانزعـاج ويلـوح عليهم أنهم سـعداء برحيله. أمـا إيفان أوسـيبوفتش فقـد ذرف بعض العبرات أثناء وداعـه، ولكنه لم يعزم أمره على أن يقبله. يجب أن نذكر أن عدداً منا قد ظلوا، رغم كل شيء، مقتنعين بأن هذا "الشقي" إنما ضحك على الناس، وأن حكاية المرض هذه ليست واضحة.

وقد ذهب ستافروجين إلى ليبوتين أيضاً. وسأله:

ـ قـل لي: كيف اسـتطعت أن تتنبأ سـلفاً بما سـأقوله عـن ذكائك فكلفت آجافيا بأن تجيبني؟

فأجابه ليبوتين ضاحكاً:

ـ الأمر بسيط جداً. أنا أيضاً أعدّك رجلاً ذكياً، فكنت أعرف جوابك سلفاً.

ـ تلك مع ذلك مصادفة عجيبة. ولكن اسمح لي: أكنت إذن تعدني رجلاً ذكياً لا مجنوناً حين أرسلت إليّ آجافيا؟

ـ نعم، كنت أعدّك من أذكى الناس وأعقلهم. ومع ذلك تظاهرتُ بالاعتقاد بأنك لم تكن تملك عقلاً كاملاً. وأنت نفسك، من جهة أخرى، قد فهمت فكرتي فوراً فبعثت إليّ مع آجافيا بشهادة ذكاء.

تمتم نيقولاي فسيفولودوفتش يقول مقطباً حاجبيه:

ـ مع ذلك أنت مخطئ قليلاً في هذه النقطة... فلقد كنت مريضاً... حقاً!

ثم صاح يقول:

ـ أتُراك تظن أنني يمكن أن أهجم على الناس هذا الهجوم وأنا في حالة سليمة؟

فصغّر ليبوتين عينيه ولم يعرف بماذا يجيب. واصفرّ نيقولاي فسيفولودوفتش قليلاً. أو هذا على الأقل ما لاح لصاحبنا ليبوتين.

وأردف ستافروجين يقول:

ـ طريقة تفكيرك مضحكة على كل حال. أنا أدرك طبعاً أنك إنما أرسلت إليّ آجافيا لتهينني.

ـ لم يكن في إمكاني أن أدعوك إلى مبارزة.

ـ آ... نعم... لقد سمعت عنك أن المبارزة ليست أقوى ما فيك!

قال ليبوتين وهو يصغّر جسمه كثيراً من جديد:

ـ ما حاجتنا إلى تقليد الفرنسيين؟

فسأله ستافروجين:

ـ أأنت من أنصار العادات القومية؟

فغطس ليبوتين في مقعده مزيداً من الغطس.

ورأى نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين في مكان بارز على المائدة كتاباً من تأليف كونسيدران[1] فجأة، فهتف يقول:

(1) "كونسيدران": هو فكتور كونسيدران (1893ـ 1808)، أحد مريدي فورييه، فيلسوف واقتصادي فرنسي.

ـ هاه! ماذا أرى؟ أتُراك من أتباع مذهب فورييه؟ لم لا، على كل حال!

ثم أضاف يقول ضاحكاً وهو ينقر الكتاب بإصبعه:

ـ ولكن أليس هذا ترجمة عن اللغة الفرنسية؟

فأجاب ليبوتين محتجاً قائلاً بشيء من الغضب:

ـ لا، ليس هذا ترجمة عن اللغة الفرنسية، بل هو ترجمة عن اللغة الشاملة، المشتركة بين جميع البشر، هو ترجمة عن لغة الجمهورية الاجتماعية الشاملة والانسجام الإنساني الكامل. ذلك هو هذا!

أجاب الشاب قائلاً وهو ما يزال يضحك:

ـ غريب! ولكن هذه اللغة لا وجود لها.

يتفق أحياناً أن يخطف انتباه المرء شيء تفصيلي تافه لا قيمة له يبقى في الذاكرة بعد ذلك زمناً طويلاً. هناك أمور كثيرة أخرى يمكن أن أقولها عن السيد ستافروجين. ولكنني أحرص الآن على أن أذكر، ولو لطرافة الواقعة، أن بين جميع الانطباعات التي خلّفتها في نفسه إقامته بمدينتنا كانت صورة هذا الموظف الريفي الصغير هي التي انحرفت في فكره أعمق من أية صورة أخرى. نعم صورة هذا الموظف الريفي الصغير، هذا الإنسان التافه، هذا المخلوق الذي يكاد يكون دنيئاً، هذا الطاغية في بيته، هذا الغيور القاسي البخيل، هذا المرابي الذي يقفل بالمفتاح على بقايا وجبات الطعام، وأعقاب الشموع، والذي كان في الوقت نفسه رسولاً يدعو إلى ما لا أدري من "انسجام اجتماعي شامل" وينتشي وجداً أمام اللوحة الرائعة التي ترتسم في خياله عن تعاونيات فورييه في المستقبل، مؤمناً بأنها ستتحقق قريباً في روسيا، في مقاطعتنا، كإيمانه بوجوده، وذلك في هذه المدينة التي اشترى لنفسه فيها بالتوفير والحرمان "منزلاً" وتزوج امرأة ثانية ذات بائنة كبيرة، هذه المدينة التي ربما كان لا يوجد حولها ولو على مسافة مائة فرسخ فرد واحد يشبه حتى من ناحية المظهر عضواً مقبولاً في تلك "الجمهورية الاجتماعية الشاملة"، ولا ليبوتين نفسه.

"لا يعلم إلّا الله كيف خلق هؤلاء الناس!". كذلك كان يقول ستافروجين

لنفسه مدهوشاً إذ يتذكر أحياناً ذلك النصير الغريب من أنصار فورييه.

4

دامت رحلة أميرنا أكثر من ثلاث سنين، حتى لقد كاد الناس أن ينسوه تقريباً في مدينتنا. ومع ذلك كنا نعرف من ستيفان تروفيموفتش أنه طاف أوروبا كلها، بل وأنه زار مصر والقدس، وأنه بعد ذلك مضى حتى جزيرة ايسلندة في بعثة علمية ألحق نفسه بها. وقد قيل أيضاً أنه خلال فصل من فصول الشتاء تابع محاضرات جامعة ألمانية.

ولم يكتب لأمه إلّا قليلاً، مرةً كل ستة أشهر، أو أقل من ذلك أيضاً. لكن فرفارا بتروفنا كان لا يبدو عليها أنها تضيق بذلك أو تتألم منه. لقد ارتضت هذا النوع من العلاقات التي قامت بينهما دون تذمر أو تململ. ولكن لا شك طبعاً في أنها خلال هذه السنين الثلاث لم تنقطع يوماً واحداً عن أن تفكر في ابنها نيقولاي، وعن أن تحلم بعودته، حزينة قلقة. على أنها كانت لا تبوح لأحد بما يعتلج في نفسها من مخاوف وما يراود خيالها من أحلام، حتى لقد ابتعدت بعض الابتعاد عن ستيفان تروفيموفتش. ولا شك في أنها كانت تبني بعض المشاريع، وكان يبدو أنها تزداد بخلاً، ولذلك أصبحت تظهر مزيداً من التبرم بالخسارات التي كان يمنى بها ستيفان تروفيموفتش في القمار.

وفى شهر نيسان من ذلك العام تلقت أخيراً رسالة من باريس بعثتها إليها صديقة طفولتها براسكوفيا إيفانوفنا دروزدوف، وهي أرملة جنرال. لقد كتبت هذه المرأة التي غابت عن عيني فرفارا بتروفنا غياباً تاماً منذ نحو ثماني سنين، كتبت تقول لها إن نيقولاي فسيفولودوفتش قد أصبح يتردد على منزلها كثيراً، وأن بينه وبين ليزا (ابنتها الوحيدة) صدا ١ قة كبيرة، حتى إنه ينتوي أن يصحبهم هذا الصيف إلى سويسرا، إلى فرنيه مونترو، مع أنه يستقبل استقبال الإبن في أسرة الكونت ك... (شخصية عظيمة الشأن جداً في بطرسبرج) الذي يقيم الآن بباريس.

إن الرسالة قصيرة تكشف عن غايتها كشفاً واضحاً، رغم اقتصارها على

الوقائع دون سـواها. لم تفكر فرفارا بتروفنا مدة طويلة، وسـرعان ما اتخذت قرارهـا، فمـا كاد ينتصـف شـهر نيسـان (ابريـل) حتى سـافرت إلـى باريس فسويسـرا مصطحبة ربيبتها داشـا (أخت شـاتوف). ورجعت في شـهر تموز (يوليه)، لكنها رجعت وحيدة، تاركة داشـا عند آل دروزدوف. وقالت فرفارا بتروفنا إن هاتين السيدتين ستأتيان إلينا في آخر شهر آب (أغسطس).

وكان لآل دروزدوف أرض في مقاطعتنا هم أيضاً. لكن ضرورات وظيفة الجنـرال إيفـان إيفانوفتـش (الصديق القديـم لفرفارا بتروننـا، ورفيق زوجها فـي السـلاح) كانت قد منعته دائماً من أن يعيش فـي أرضه الرائعة. فلما مات الجنـرال في السـنة الماضية، سـافرت أرملتـه الحزينة إلى الخـارج مع ابنتها منتويـةً، فيمـا كانت تنتويه مـن أمور أخرى أيضاً، أن تصيـب حظاً من العلاج بالعنب في فرنيه مونترو. وتعتزم أن تقيم في مقاطعتنا إقامة نهائية متى عادت إلى روسيا. وكانت براسكوفيا إيفانوفنا تملك أيضاً في المدينة منزلاً كبيراً لم يُسكن منذ زمن طويل فنوافذه ظلت مغلقة دائماً. إن آل دروزدوف أغنياء. إن براسـكوفيا إيفانوفنا كرفيقتها في المدرسة فرفارا بتروفنا، هي بنت تاجر كبير مـن تجار الخمـور في النظام القديم. وقد حملت إلـى زوجها مهراً كبيراً هي أيضاً. وضابط سـلاح الفرسـان توشـين الذي تزوجته زواجاً أول كان يملك هو نفسه ثروة لا بأس بها. وكان لا يخلو كذلك من مواهب. وحين مات ترك لابنته الوحيدة ليزا، التي كان عمرها عندئذ سـبع سـنين، ثروة ضخمة. والآن وقـد بلغـت ليزافتا نيقولايفنا من العمـر قرابة اثنين وعشـرين عاماً، يمكن أن تُقدَّر ثروتها الشـخصية بمائتي ألف روبل، ناهيك عن المال الذي سـترثه من أمها، لأن أمها لم تنجب من زوجها الثاني.

إن فرفـارا بتروفنـا تبـدو راضيـة جـداً عـن رحلتها. ففـي رأيهـا أنها، هي وبراسـكوفيا إيفانوفنـا، قـد انتهتا إلى اتفـاق. فما إن عـادت، حتى قصّت كل شـيء على سـتيفان تروفيموفتش، وأفاضـت في الكلام والبـوح، وذلك أمر كانت قد كفّت عنه منذ زمن طويل.

صاح ستيفان تروفيموفتش قائلاً وهو يصفق بأصابعه:

ـ مرحى! عظيم!

كان مسروراً أعظم السرور، مفتتناً أشد الافتتان، لا سيما وأنه أثناء غياب صديقته قد عاش حياة حزينةً جداً.

وكانت فرفارا بتروفنا، حين سافرت، قد ودعته وداعاً فاتراً، وحاذرت أن تخبر هذا "النَمَّام" عن مشاريعها، خشية ثرثراته طبعاً. يُضاف إلى ذلك أنها كانت غاضبة منه حانقة عليه حين علمت أنه خسر في القِمار مبلغاً ضخماً. ولكنها حتى قبل أن تغادر سويسرا أحسّت أن من واجبها أن تعوّض صديقها المهجور الذي كانت تعامله منذ مدة طويلة بكثير من الشدة والصرامة. وكان سفرها المفاجئ السرّي قد أثّر تأثيراً عميقاً في قلب ستيفان تروفيموفتش الوجل، لا سيما وأنه اتفق أن كان في تلك الآونة يعاني من مصاعب أخرى كثيرة. لقد كان عليه أن يواجه التزاماً مالياً قديماً كبيراً ما كان له أن يستطيع سداده بدون مساعدة فرفارا بتروفنا. زد على ذلك أن حاكمنا الطيب، إيفان أوسيبوفتش، قد ترك منصبه في شهر أيار (مايو) من تلك السنة نفسها، إذ اضطر إلى الاستقالة في ظروف مؤسفة. وقد تم استقرار الحاكم الجديد، آندره أنطونوفتش فون لمبكه كمبلـه أثناء غياب فرفارا بتروفنا. وكان من شأن هذا أن بدّل وضع فرفارا بتروفنا في بيئتا الريفية تبديلاً محسوساً جداً، وسرعان ما بدّل وضع ستيفان تروفيموفتش تبعاً لذلك، وهذا ما استطاع ستيفان تروفيموفتش أن يقتنع به من ملاحظة علامات مزعجة لكنها ذات بال. لذلك أخذ يراوده الخوف أثناء غياب فرفارا بتروفنا. ثم إنه قد علم من مصدر مطلع أن عدداً من سيداتنا قد قررن أن لا يرين فرفارا بتروفنا بعد الآن. وكان لا يُنتظر أن تصل امرأة الحاكم الجديد إلّا في مطلع الخريف، وكان يُقال إنها إن كانت متعجرفة جداً، فهي أرستقراطية حقيقية على الأقل، تختلف عن صاحبتنا "المسكينة فرفارا بتروفنا" اختلافاً كبيراً. لا أدري كيف كان جميع الناس يعلمون، بكثير من التفصيل، أن السيدة فون لمبكه وفرفارا بتروفنا كانتا قد التقتا في المجتمع سابقاً، وأنهما افترقتا متعاديتين، حتى إن ذكر اسم زوجة الحاكم كان يكفي وحده لأن يزعج فرفارا بتروفنا. وها هي

ذي فرفـارا بتروفنا تصل، فإذا بهيئتها المنتصـرة، وإذا بالإهمال الذي أظهرته حيـن علمـت بعـداوة هاتـه السـيدات، وإذا بـالازدراء الذي بـان عليها حين عرفت الشـائعات التـي هزت مجتمعنا، إذا بهذا كله ينعش شـجاعة سـتيفان تروفيموفتـش ويرد إليه صفاء مزاجه. وأراد أن يكسـب حظوة صديقته فأخذ يصف لها وصول الحاكم الجديد وصفاً ساخراً.

قال وهو يمط كلماته متغنجاً:

ـ لا شـك أنك تعلميـن، "يا صديقتـي العظيمة" (قالها بالفرنسـية)، كيف يكـون حاكمٌ روسـي على وجه العمـوم، وكيف يكون حاكمٌ روسـي حديث التعييـن علـى وجه الخصوص، ولكنني أشـك في أن تكوني قـد أتيح لك أن تعرفي بالتجرية ما هي "نشوة الحكم"!

ـ نشوة الحكم؟ ما نشوة الحكم هذه؟

ـ اسمعي... "أنت تعلمين أن الناس في بلادنا... الخلاصة" (بالفرنسية).. إذا وُضـع أحدهـم وراء شـباك قطع التذاكر فـي محطة من محطـات القطار، وكُلّـف بـأن يبيع تذاكر، لا يلبث التافه أن يعتقـد أن من حقه أن يصطنع وضع جوبيتـر "إظهاراً لسـلطته" (بالفرنسـية) إذا جئت تشـترين منه تذكرة سـفر، فكأنه يقول: "انتظري قليلاً.. سـوف ترين ما لي عليك من سـلطة". هذا نوع من نشـوة الحكم... "الخلاصة" (بالفرنسـية)... لقد قـرأت أن خادم إحدى كنائسـنا فـي الخـارج... "ولكنه أمر عجيـب جداً" (بالفرنسـية) قـد طرد... نعـم طرد طرداً... من الكنيسـة... أسـرة مرموقة جـداً... "سـيدات فاتنات" (بالفرنسـية) قبل بدء صلاة العيد الكبير... تعرفين... تلك الأناشـيد، وسـفر أيـوب... طَرَدَ الأسـرة بحجة وحيـدة هي أن "الأجانب الذين يتسـكعون في الكنائس الروسـية يحدثون فيها فوضى، وما عليهم على كل حال إلّا أن يأتوا فـي غير أوقـات الصلاة..." ذلك ما قاله، حتى إن إحدى السـيدات قد أغمي عليها. إن خادم الكنيسة هذا قد أصابته أيضاً "سكرة حكم"، "وأظهر سلطته" (بالفرنسية).

ـ أوجز إذا استطعت يا ستيفان تروفيموفتش.

ـ إن السيد فون لمبكه يزور الآن مقاطعته. بكلمة واحدة: إن هذا السيد آندره أنطونوفتش هو ألماني روسي، أرثوذكسي الديانة، لا أنكر أنه رجل جميل جداً، في نحو الأربعين من عمره...

ـ من قال لك إنه رجل جميل جداً؟ إن له عينين كعيني كبش.

ـ نعم، كعيني كبش، ولكنني أوافق سيداتنا على رأيهن...

ـ لننتقل إلى موضوع آخر يا ستيفان تروفيموفتش، أرجوك. بالمناسبة: أأنت تضع ربطة عنق حمراء منذ مدة طويلة؟

ـ اليوم... فقط...

ـ هل تتريض؟ هل تمشي كل يوم مسافة الفراسخ الستة التي أمرك بها الطبيب؟

ـ ليس دائما...

ـ قدّرتُ هذا. خمّنته وأنا بسويسرا.

قالت له ذلك صائحة غاضبة. وأردفت:

ـ طيب... لن تمشي بعد اليوم ستة فراسخ بل عشرة. إنك لم تشخْ فحسب، بل هرمت هرماً شديداً. لقد دُهشت حين رأيتك منذ قليل، رغم ربطة عنقك الحمراء. ما هذه الفكرة السخيفة التي راودتك: ربطة عنق حمراء؟ طيب... أكمل حديثك عن فون لمبكه إذا كان عندك شيء تقوله حقاً، ولكن اختم قصتك، أرجوك. إنني متعبة.

ـ "الخلاصة" (بالفرنسية) أنا إنما أردت أن أقول إنه واحد من حكامنا أولئك الذين يبدؤون في الأربعين من العمر. يعيشون قبل ذاك حياة بائسة خاملة، ثم إذا هم يصبحون على حين فجأة شخصيات مرموقة، بفضل زواج لم يكن في الحسبان، أو بأية وسيلة أخرى لم يكونوا يأملونها... لقد سافر الآن... ولكن يجب أن أقول لك إنهم أسرعوا يدسون في أذنه أنني أفسد الشبيبة وأنشر الإلحاد... لقد استطلع وسأل فوراً.

ـ ولكن هل هذا صحيح؟

ـ لقد اتخذت احتياطاتي. وحين نقلوا إليه أنك كنت أنت "تحكمين

المقاطعـة"، أبـاح لنفسـه أن يقول: "لن تجـري الأمور على ذلـك النحو بعد الآن".

ـ هل قال هذا حقاً؟

ـ نعـم، قال "لن تجري الأمور على ذلـك النحو بعد الآن"، وقد قال ذلك "بتلك العجرفة" (بالفرنسية)... أما زوجته جوليا ميخائيلوفنا فسوف نشرف برؤيتها هنا في آخر شهر آب (أغسطس). سوف تصل رأساً من بطرسبرج.

ـ خطأ. سوف تصل من الخارج. لقد التقينا هناك.

ـ "حقاً؟" (بالفرنسية).

ـ في باريس، وفي سويسرا. إنها قريبة آل دروزدوف.

ـ يالها من مصادفة خارقة! ويقال إنها طموحة، وإن لها علاقات قادرة...

ـ سـخافات! ليـس لهـا إلّا علاقـات صغيـرة لا تُذكـر. لقـد ظلـت حتى الخامسـة والأربعين من العمر عانساً لا تملك قرشاً. ثم اصطادت هذا السيد فـون لمبكـه، وهـي تريـد الآن أن تصنع منه شـخصية مرموقة، طبعـاً كلاهما دساس صاحب مكائد.

ـ ويظهر أنها أكبر منه بسنتين؟

ـ بـل بخمس سـنين. كانت أمها في موسـكو تكنس عتبـة منزلي بحافات ثوبها. كانت تسـتجدي أن أدعوها إلى حفـلات الرقص التي كنت أقيمها في أيام فسـيفولود نيقولايفتـش[1]. وكانت ابنتها هذه تقضـي ليالي بكاملها قابعةً فـي ركن مـن الأركان لا تجـد مَنْ يراقصهـا، مزدانة الجبين بقـرص فيروزي اللون، حتى إذا دقت السـاعة الثالثة من الصباح أخذتني بها شـفقة فأرسـلت إليها أول مَنْ يرقص معها. كان عمرها حينذاك خمسـة وعشرين عاماً، ولكن أهلها كانوا ما يزالون يلبسـونها فستاناً قصيراً كفتاة صغيرة، حتى أصبح المرء يستحي أن يستقبلهم.

ـ إني لأكاد أراه، ذلك القرص الذي كانت تزيّن به جبينها.

---

(1) هو الجنرال المتوفي ستافروجين، والد نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين.

ـ أقول لك إنني ما إن وصلت حتى وجدت نفسي في وسط مكيدة. لقد أطلعتك منذ لحظة على رسالة السيدة دروزدوف. هل يمكن أن يكون ثمة ما هو أوضح من هذا؟ ماذا اكتشفت؟ إن دروزدوف الحمقاء هذه ـ ولقد كانت حمقاء دائماً ـ قد نظرت إليّ كأنما لتسألني لماذا جئت. فتصور دهشتي! لقد نظرت فرأيت لمبكه تلك تدور حولنا، ومعها ذلك الشاب، ابن أخت الشيخ دروزدوف. لقد اتضح لي عندئذ كل شيء. أدركت الموقف في طرفة عين طبعاً، ولم تلبث براسكوفيا أن انحازت إلى جانبي من جديد. ولكن ما قولك في هذه المكيدة؟

ـ التي انتصرت عليها مع ذلك! أوه، إنك لبسمارك![1]

ـ دون أن أكون بسمارك، أستطيع أن أميّز الزيف والحماقة اللذين أصادفهما في طريقي. إن لمبكه هي الزيف، وإن براسكوفيا هي الحماقة. قلّ أن رأيت في حياتي امرأة تفوقها رخاوة، وهي عدا ذلك متورمة الساقين، ولكنها فوق كل شيء طيبة. فهل ثمة أغبى من إنسان أحمق طيب؟

أجاب ستيفان تروفيموفتش:

ـ الأحمق الشرير أغبى يا "صديقتي العزيزة" (بالفرنسية).

ـ قد تكون على حق. لا شك أنك تتذكر ليزا، هه؟

ـ "طفلة فاتنة" (بالفرنسية).

ـ ما هي الآن بطفلة، هي الآن امرأة، بل امرأة قوية الشخصية. إنها حارة الطبع كريمة النفس. إن ما يعجبني فيها هو أنها تقاوم أمها، تلك الحمقاء السر يعة التصديق. لقد قامت بينهما مشكلة كبيرة، بسبب ابن الأخت ذاك.

ـ ها... فعلاً... إنه لا يمت بأية قرابة إلى ليزافتا نيقولايفنا. أيكون طامعاً فيها؟

ـ اسمع! هو ضابط شاب، قليل الكلام، بل ومتواضع. إنني أحرص دائماً على أن أكون منصفة. أظن أنه هو نفسه ضد هذه المكيدة، وأنه لم

(1) كان أوتو فون بسمارك الذي سيصبح مستشار ألمانيا، سفيراً ببطرسبرج وباريس، وكان يعد دبلوماسياً بارعاً جداً.

يكن يطمع في شيء. إن السيدة لمبكة هي التي تدبر الحيلة كلها. لقد كان يحمل لنيقولاي تقديراً عظيماً. إن كل شيء متوقف على ليزا. وحين تركتهم كانت على صلات ممتازة بنيقولاي الذي وعدني بأن يجيء إليها حتماً في شهر تشرين الثاني (نوفمبر). وإذن فإن زوجة لمبكة وحدها تدبر الحيلة، أما براسكوفيا فهي عمياء لا أكثر. ألم تصرّح لي بأن الشبهات التي تراودني ليست إلّا هواجس خيالية؟ لقد أجبتها رأساً بأنها امرأة حمقاء. وأنا مستعدة لأن أكرر قولي هذا إلى أن ألفظ آخر أنفاسي. ولولا أن نيقولاي قد رجاني أن لا ألحّ الآن، لما كنت تركتهم قبل أن أزيح القناع عن وجه تلك المرأة المنافقة المرائية. إنها بواسطة نيقولاي تحاول أن تظفر بالحظوة لدى الكونت ك... إنها تريد استعداء الابن على أمه. ولكن ليزا إلى جانبنا. أما براسكوفيا فقد اتفقت معها أخيراً. أنت تعلم أن كارمازينوف قريبها، أليس كذلك؟

- كيف؟ قريب السيدة فون لمبكة؟

- نعم، قريبها، ولكنها قرابة بعيدة.

- كارمازينوف، الكاتب؟[1]

- نعم، الكاتب. لماذا يدهشك هذا؟ إنه يعد نفسه رجلاً عظيماً. إنه منتفخ غروراً. سيصلان معاً. وهي تحدث الآن من أجله جلبة كبيرة في الخارج. إنها تنوي أن تنظّم هنا شيئاً ما، تنوي أن تنظّم اجتماعات أدبية لا أدري ما هي! سيجيء شهراً واحداً. إنه يريد أن يبيع آخر قطعة من الأرض يملكها هنا. أوشكت أن ألقاه في سويسرا، ولم أكن أحرص على ذلك البتة. آمل على كل حال أن يتنازل فيتعرفني أنا على الأقل. كان في الماضي يكتب إليّ، وكان يزورني في البيت. أحب أن تعتني بملابسك اعتناء أكبر ياستيفان تروفيموفتش. إنك تزداد إهمالاً لمظهرك يوماً بعد يوم... آه... ما أشد ما تعذبني! ماذا تقرأ الآن؟

---

(1) "كارمازينوف الكاتب؟": هذه صورة كاريكاتورية للروائي الروسي الكبير تورجنيف. إن اسم كارمازينوف يذكر بالكاتب العاطفي كارامزين، ولكن من الجائز أن دوستويفسكي قد اشتقه من كلمة بولندية تعني الأرستقراطية. فيكون ذلك إشارة إلى العادات الأرستقراطية عند تورجنيف.

ـ أنا الآن... أنا الآن...

ـ أعرف. مازلتَ على عهدي بك: الأصدقاء، جلسات الشراب، النادى، اللعب بالورق، وتلك السمعة، سمعة الإلحاد! إن هذه التسمية لا تعجبني يا ستيفان تروفيموفتش. لا أحب أن تُعدّ ملحداً. لا، لا أحب هذا، ولا سيما الآن. وفي الماضي أيضاً كان ذلك لا يعجبني، فما هو في آخر الأمر إلّا ثرثرة. يجب عليّ أن أقول هذا أخيراً.

ـ "ولكن يا عزيزتي..." (بالفرنسية).

ـ اسمع يا ستيفان تروفيموفتش: في كل ما يتعلق بالمعارف العلمية، ما أنا إلّا جاهلة بالقياس إليك. ومع ذلك، فإنني عند عودتي إلى هنا، فكرت فيك كثيراً وانتهيت إلى اقتناع.

ـ ما هو هذا الاقتناع؟

ـ هو أننا، أنت وأنا، لسنا أذكى الناس فى هذا العالم. هناك من هم أذكى منا.

ـ هذا كلام صحيح. وهناك إذن من يرون رؤية أصدق، ويترتب على هذا أن من الممكن أن نخطئ. أهذا ما تريدين قوله؟ "ولكن يا صديقتي الطيبة" (بالفرنسية)، لنفترض أنني مخطىء. إنني مع ذلك أملك حرية الاعتقاد، وذلك حق عام مقدس. إن من حقى أن لا أكون متعصباً للدين وأن لا أكون متظاهراً بالتقوى إذا كان هذا لا يرضيني. ولكني أتعرض طبعاً في هذه الحالة للبغضاء يحملها لي عدد من الناس إلى الأبد. "ثم إن عدد الرهبان أكبر من عدد العقول" (بالفرنسية)... ولما كنت أوافق على هذا الرأي كل الموافقة...

ـ ماذا؟ ماذا قلت؟

ـ قلت: "إن عدد الرهبان أكبر من عدد العقول"، ولما كنت...

ـ ليس هذا القول قولك أنت حتماً. لا شك أنك اقتبسته...

ـ هو قول للفيلسوف باسكال.

ـ قدّرت ذلك... أنه ليس قولك أنت. لماذا لا تعبّر عن فكرك أبدا بهذه

الطريقـة، بطريقـة فيها هذه القـوة وهذا الإيجاز، بدلاً مـن الإطالة دائماً؟ هذا أفضل كثيراً مما كنت تقوله منذ قليل عن نشوة الحكم.

ـ "واللـه... ياعزيزتي..." (بالفرنسـية)... لماذا؟ أولاً، ربما لأنني لسـت باسـكال، على كل حال، "ثم" (بالفرنسـية) ثانياً، لأننا معشر الروس لا نجيد التعبير عن شيء بلغتنا... أو أننا لم نصل إلى هذا حتى الآن على الأقل...

ـ هـم... قـد لا يكـون هذا صحيحـاً كل الصحة. مهما يكن مـن أمر، فإنه ينبغـي لـك أن تدوّن هـذه التعابير علـى الأقـل، وأن تحفظها لتسـتعملها في المناسـبات. آه... سـتيفان تروفيموفتـش، كنت أتهيـأ لأن أكلمك بجد، بجد كبير...

ـ "صديقتي العزيزة، صديقتي العزيزة!" (بالفرنسية).

ـ الآن وأنـا أرى جميع هؤلاء الذين أسـماؤهم لمبكـه، وكارمازينوف... آه! يـا إلهي! ما أشـد إهمالك لنفسـك! إنك لتعذبنـي تعذيباً كبيراً يا سـتيفان تروفيموفتـش!... أود أن يحترمـك هـؤلاء الناس، لأنهم جميعاً لا يسـاوون خنصرك. فانظر إلى سـلوكك أنت! ما الذي سـوف يرونه؟ ما عسـاني أريهم فيك؟ إنك بدلاً من أن تكون قدوة للآخرين، وبدلاً من أن تلتزم وضعاً نبيلاً، تحيط نفسـك بجمع غفير من أوغاد، وتكتسب عادات سيئة، وتهمل نفسك، وتصبـح مدمناً على الخمرة والقمار، ولا تقرأ إلّا بول دوكوك، وتضيع وقتك فـي ثرثـرات. هل يجوز أن تعقد صلة صداقة برجـل وبش كصاحبك ليبوتين الذي لا تفارقه ولا يفارقك؟

ـ لماذا تقولين إنني لا أفارقه ولا يفارقني؟

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش محتجاً في خجل ووجل.

وتابعت فرفارا بتروفنا كلامها بلهجة قاسية قاطعة، فسألته:

ـ أين هو الآن؟

ـ إنـه... إنه يحترمك إلى أبعد حدود الاحترام، وقد سـافر إلى س....ك، لاستلام الميراث الذي آل إليه من أمه.

ـ يخيّل إليّ أنه لا يفعل شيئاً غير أن يرث. وشاتوف؟ أما يزال على حاله؟

ـ "سريع الاهتياج، لكنه طيب القلب" (بالفرنسية).

ـ إنني لا أطيق احتمال صاحبك شاتوف هذا. إنه شرير، وإنه ممتلىء غروراً بنفسه.

ـ كيف حال داريا بافلوفنا؟

ـ تقصد داشا؟ ما هذه الفكرة الغريبة التي واتتك؟

كذلك سألته فرفارا بتروفنا، وهي تنظر إليه متعجبة مستطلعة. وتابعت كلامها فقالت:

ـ هي بخير. لقد تركتها عند آل دروزدوف... سمعتُ حديثاً عن ابنك حين كنت في سويسرا، بشرٍّ لا بخير.

ـ "أوه، هذه حكاية سخيفة جداً. كنت أنتظر وصولك ياصديقتي الطيبة لأقص عليك..." (بالفرنسية).

ـ كفى ياستيفان تروفيموفتش، دعني وشأني هادئة البال. إنني متعبة مرهقة. سوف يتسع وقتنا للكلام على مهل كما نشاء، ولا سيما عن أمور مزعجة. إنك حين تضحك ترشق من فمك رذاذاً غزيراً من اللعاب. هذا وحده دليل شيخوخة وهرم. ثم إنك الآن تضحك ضحكاً غريباً جداً. ما أسوأ هذه العادات التى تأصلت فيك! إن كارمازينوف لن يأتى إليك! والناس يعبثون الآن بكل شيء ويبتهجون لكل شيء... لقد كشفت الآن عن نفسك كلها. هيا، كفى كفى! أنا متعبة. هلّا أشفقت على كائن إنساني آخر الأمر!

"أشفق ستيفان تروفيموفتش على كائن إنساني" آخر الأمر. ولكنه انصرف مضطرباً أشد الاضطراب.

5

كان صاحبنا قد اعتاد كثيراً من العادات السيئة فعلاً، ولا سيما في هذه الآونة الأخيرة. واضح أنه أصبح قليل الاكتراث، وأنه أخذ يهمل مظهره مزيداً من الإهمال يوماً بعد يوم. وهو الآن يشرب أكثر مما كان يشرب، وقد صار سخيّ الدموع يذرفها بسهولة، وصارت أعصابه تثور في كل مناسبة.

واكتسب وجهه سرعة في الحركة غريبة، حتى إنه ينتقل فوراً من التعبير عن أعظم الأبهة والفخامة إلى التعبير عن أتفه الهزل المسفّ المضحك، بل وإلى التعبير عن أبلغ الحماقة البلهاء. وقد غدا عاجزاً عن احتمال العزلة والوحدة، فلا بد له دائماً من أحد يجيء إليه فيسلّيه. وكان ينبغي أن تنتقل إليه النمائم والأقاويل، وأن تروى له الحكايات التي تشيع في المدينة، وكان يطالب دائماً بجديد. فإذا لم يأت إليه أحد، طفق يطوف من غرفة إلى غرفة حزيناً، واقترب من النافذة فى كل لحظة، وتنهد وزفر، وحرّك شفتيه حالم الهيئة شارد اللب، ثم إذا هو يكاد يبكي. وأصبحت تساوره هواجس ومخاوف مستمرة، فهو فى كل وقت يخشى وقوع حادث غير منتظر، وهو دائم الجفول والتخوّف كثير الاهتمام يما يراه فى النوم من أحلام.

قضى ستيفان تروفيموفتش النهار والليل حزيناً مكتئباً، ثم بعث يستدعيني. فلما جئت إليه وجدته مضطرباً أشد الاضطراب، وأخذ يتحدث طويلاً، ولكن حديثه مشوّش مبهم. إن فرفارا بتروفنا تعرف منذ مدة طويلة أنه لا يخفي عني شيئاً. وبدا لى فى النهاية أن ثمة شيئاً يقلقه ويبث فى نفسه الاضطراب، وأنه ربما كان هو نفسه لا يدرك هذا الشيء إدراكاً واضحاً، ولا يعيه وعياً كاملاً. وقد جرت العادة، حين نكون وحيدين فيفرغ من الإفضاء إليّ بهمومه وآلامه، أن نؤتى على الفور بزجاجة خمرة تسري عنا قليلاً. ولكن الخمرة في هذه المرة لم تكن موجودة، وكان واضحاً أنه يكبح رغبته فى طلب شيء منها.

إنه لا يفتأ يكرر شاكياً كطفل:

ـ ما الذى يغضبها دائماً؟ إن رجال العبقرية والتقدم في روسيا كانوا وما يزالون وسيظلون إلى الأبد" (بالفرنسية) مقامرين وسكّيرين... وأنا لست مقامراً ولا سكّيراً إلى هذا الحد... إنها تأخذ عليّ أنني لا أكتب شيئاً... يالها من فكرة غريبة!... لماذا أظل مضطجعاً؟ هي تقول لي: "عليك أن تكون قدوة، وأن تقف أمام الجميع صورة مجسدة للوم والرفض". فقل لي ـ وليكن

الكلام سـراً بيننا ـ ما عسـى يفعل رجل يجب أن يكون صورة مجسّـدة للوم والرفض، إلّا أن يبقى مضطجعاً؟ كيف لا تفهم هي هذا؟

وأدركت أخيراً سـبب هذا القلق الخاص الذى كان يعذبه في ذلك اليوم. إنه في أثناء تلك السـهرة قد اقترب من المرآة مراراً ليتأمل وجهه طويلاً. وفى النهاية التفت نحوي وقال فى كرب شديد:

ـ "يا عزيزي" (بالفرنسية) لقد سقطت...

الواقع أنه كان حتى ذلك الحين، حتى ذلك اليوم، محتفظاً باعتقاد جازم لا يتزعزع، رغم "وجهات النظر الجديدة" ورغم "الأفكار الجديدة" التي انتهت إليهـا فرفـارا بتروفنا، بأنه ما يزال يحظى من صديقتـه ياعتبار عظيم من حيث هو رجل وسـيم جميل، لا من حيث هو رجل منفيّ أو عالم شـهير فحسـب. إن هذا الاعتقاد المبهج المطمئن كان قد تأصّل فيه وترسّخ منذ عشرين عاماً، ولعله كان هو الاعتقاد الذى يصعب عليه أن يتنازل عنه أكثر مما يصعب عليه أن يتنازل عن أى اعتقاد آخر. ترى، هل وافاه في ذلك المسـاء إحسـاس يتنبأ بالمحنة الرهيبة التي كان يهيئها له مستقبل قريب؟

6

الآن أصل من قصتي إلى الجزء الذي هو بدايتها حقاً، وهو جزء مضحك بعض الشيء.

فى آخر شـهر آب (أغسـطس)، وصلـت السـيدتان دروزدوف أخيراً إلى مدينتنـا. فكان لوصولهما الـذي أعقبه بعد برهة وجيزة وصول قريبتهما امرأة الحاكـم التـي طالما انتظر وصولهـا، كان له دوي كبير. سـأعود فيما بعد إلى هذه الأحداث الطريفة جداً. أما الآن فأذكر فقط أن براسـكوفيا إيفانوفنا التي انتظرتها فرفارا بتروفنا بصبر فارغ قد حملت إلى فرفارا نبأ غريباً مشوشاً: هو أن نيقولاى ترك آل دروزدوف منذ شهر تموز (يوليه) وأنه وقد التقى على نهر الراين بالكونت ك وأسـرته قد تبعهم إلى بطرسبرج (ملاحظة: إن للكونت ك ثلاث بنات للزواج).

قالت براسكوفيا إيفانوفا:

ـ ولم أستطع أن أستخرج من ليزافتا شيئاً بسبب كبريائها وسوء مزاجها، لكنني رأيت بعينيّ أن شيئاً ما قد جرى بينها وبين نيقولاي فسيفولودوفتش. لا أدري ما هو هذا الشيء، ولكن يخيّل إليّ يا صديقتي العزيزة أن عليك أن تسألي عن هذا الأمر صاحبتك داريا بافلوفنا. في رأيي أن ليزا قد أحست بأنها أهينت. إني ليسرني أعظم السرور أن أرد إليك أثيرتك أخيراً، وأن أضعها بين يديك: فهأناذا أتخلص منها.

هذه الكلمات المليئة بالمرارة والضغن قد نطقتها براسكوفيا إيفانوفا بكثير من الغيظ والحنق. كان واضحاً أن "المرأة الرخوة" قد حضّرت هذه الكلمات منذ مدة طويلة متلذذةً بتأثيرها سلفاً. لكن فرفارا بتروفنا ليست امرأة يمكن التأثير فيها بجمل عاطفية وألغاز. فلم تلبث أن تكلمت بلهجة قاسية تطلب إيضاحات دقيقة كاملة، فخفضت براسكوفيا إيفانوفنا نبرة صوتها، وانتهت أخيراً إلى الإفضاء بمشاعرها والبوح بعواطفها بوحاً حميماً، حتى لقد بكت أثناء ذلك. إن هذه السيدة تشبه ستيفان تروفيموفتش، فهي سريعة الاهتياج لكنها عاطفية تشعر دائماً بالحاجة إلى "صداقة صادقة مخلصة"، وكان كل تأذيها من ابنتها ليزافتا نيقولايفنا أنها "لم تشأ أن تكون صديقةً" لأمها.

لم يخرج من جميع إفضاءاتها وإيضاحاتها إلّا شيء واحد جلي، هو أنه قد حدث خلاف فعلاً بين ليزا ونيقولاى. أما ما هو هذا الخلاف، فإن براسكوفيا إيفانوفنا لم تستطع أن تدركه حق إدراكه وأن تفهمه حق فهمه. وأما الاتهامات التي ألقتها على داريا بافلوفنا فإنها انتهت لا إلى العدول عنها فحسب، بل ألحت كذلك على فرفارا بتروفنا أن لا تكترث أي اكتراث بتلك الأقول التي خرجت من فمها في لحظة "غيظ". الخلاصة أن كلامها كله كان قليل الوضوح، بل كان فيه ما يشوِّش ويحيّر. هى ترى أن الخلاف ناشئ عن أن ليزا لها "طبع ساخر نزق شرس". ومن جهة أخرى فإن نيقولاي فسيفولودوفتش، لم يستطع لشدة كبريائه أن يحتمل تلك السخريات، فاصطنع لهجة ساخرة هو أيضاً، رغم الحب الشديد الذى يحمله لها. وأضافت براسكوفيا إيفانوفيا

تقـول: "وبعد قليل، تعرفنا بشـاب هو ابـن أخ صاحبك "الأسـتاذ" فيما أظن وهو يحمل نفس اسمه على كل حال...".

صححت فرفارا بتروفنا كلام صديقتها قائلة:

ـ بل هو ابنه لا ابن أخيه.

إن براسكوفيا إيفانوفنا لم تستطع في يوم من الأيام أن تحفظ اسم ستيفان تروفيموفتش، فكانت تسميه دائماً باسم "الأستاذ". قالت تسأل:

ـ هو ابنه؟ طيب. لا فرق. هو شـاب كسـائر الناس، شديد الحيوية منطلق السـلوك، ولكـن ليس له شـيء يميزه عن غيـره على وجه الإجمـال. إن ليزا هـي المذنبة في هذه المرة: فمن أجل أن تثير غيرة نيقولاي فسـيفولودوفتش لاطفت هذا الشـاب. إنني لا ألومها كثيراً، فهذا شـيء طبيعي في فتاة، بل هو شـيء محبب. ولكـن نيقولاي فسـيفولودوفتش، بدلاً من أن يغـار، عقد بينه وبيـن الشـاب صداقـة، ظاهـراً بمظهر من لا يكتـرث أو من لا يلاحظ شـيئاً. فاسـتعر حنق ليزا من ذلك طبعاً. وما لبث الشـاب أن سافر (كان على عَجَلة، لا أدري لماذا)، وأخذت ليزا تناكد نيقولاي فسـيفولودوفتش في كل مناسبة. حتـى إذا لاحظـت أن نيقولاي يتحدث مع داشـا أحيانـاً ازداد أوار غيظها. يا لهـا من حيـاة! إن الأطباء يحظرون عليّ أن تثور أعصابي. ثم إن تلك البحيرة التي طالما كالوا لها المديح قد أخذت تزعجني أخيراً: أوجاع أسـنان، وآلام رومـاتيـزم، ذلك كل ما جنيته منهـا. يظهر أن هذا من خصائص بحيرة جنيف. إنها تهيء لأوجاع الأسنان. وها هو ذا نيقولاي فسيفولودوفتش يتلقى رسالة من الكونتيسـة. فسرعان ما أعد عدته للسـفر، ثم بارحنا في ذلك اليوم نفسه. علـى أنهما افترقا صديقين. حتى أن ليزا أظهرت، وهي تصحبه إلى المحطة، كثيـراً من المرح فكانت تضحك طول الوقـت. لكن ذلك لم يكن إلّا تمثيلاً. فما إن سـافر حتـى أصبحت حالمة شـاردة الفكـر، وكفت عـن الإتيان على ذكره تماماً، بل لقد منعتني من أن أمس هذا الموضوع. وإني لأنصحك، أنت أيضـاً، يا عزيزتي فرفـارا بتروفنا، بأن لا تتعرضي لهذه المسـألة مع ليزا، وإلا فيمكـن أن تفسـدي كل شـيء. أما إذا التزمـت الصمت فإنها سـتكون البادئة

بالحديث معك فى الأمر، فتستطيعين عندئذ أن تعلمي ما لا تعلمين. فى رأيي أنهما سوف يتصالحان، على شرط أن يصل نيقولاي فسيفولودوفتش بأقصى سرعة، كما وعد.

ـ سأكتب إليه فوراً. إذا كان كل شيء قد جرى كما تصفين، فعلاً يعدو الأمر أن يكون شقاقاً طارئاً ليس بذي بال. تلك كلها سخافات! ثم إننى أعرف داريا جيداً. سخافات!

ـ فيما يتعلق بداشا أعترف أنني أخطأت. لم تجر بينهما إلّا أحاديث تافهة مبتذلة، وكانا يتكلمان دائما بصوت مرتفع. ولكن تلك المشكلات كلها كانت قد أثارت أعصابي. ثم إنني قد رأيت أن ليزا عادت تعاملها بمودة وصداقة، كما كانت تفعل من قبل.

في ذلك اليوم نفسه كتبت فرفارا بتروفنا إلى نيقولاي فسيفولودوفتش ضارعة إليه أن يرجع قبل الموعد الذي حدّده لرجوعه ولو بشهر واحد. وكان هناك شيء ما يزال مع ذلك غير واضح لها في تلك الحكاية. فكّرت في الأمر طول السهرة والليل. إن رأي راسكوفيا إيفانوفنا يبدو لها بسيطاً مسرفاً في البساطة، عاطفياً مسرفاً في العاطفية. قالت تحدّث نفسها: "إن براسكوفيا تميل دائماً إلى العاطفيات، حتى منذ كانت في المدرسة الداخلية. ليس نيقولاي بالرجل الذي تهزمه سخريات طفلة. فإذا كان قد حدث شقاق بينهما فعلاً، فلا بد أن يكون هناك سبب آخر غير هذا تماماً. ومهما يكن من أمر، فإن ذلك الضابط هو هنا، اصطحبنه معهن وأقام في منزلهن بصفته قريباً. ثم إن براسكوفيا قد كفت عن مهاجمة داريا بسرعة: لا شك أنها كتمت في نفسها أشياء لم ترد أن تقولها لي..".

ما إن طلع الصباح حتى كانت فرفارا بتروفنا قد وضعت خطة يجب أن تتيح لها أن تحلّ واحدة، على الأقل، من المسائل التي أوقعتها في تلك الحيرة كلها وتلك البلبلة كلها، وهي خطة غريبة، غير منتظرة ولا متوقعة. ترة ما الذي كان في قرارة قلبها حين تصورت هذه الخطة؟ ذلك امر يصعب على المرء أن يعرفه، ولست أتحمل عبء توضيح التناقضات التي تشتمل عليها

تلك الخطة. إنني، بصفتي قاصاً، أقتصر على عرض الوقائع كما حدثت، بأكبر صدق ممكن وأكبر دقة ممكنة، فإذا لاح إنها غير معقولة فليس الذنب في ذلك ذنبي. يجب أن اشهد مرة أخرى مع ذلك أن شكوك فرفارا بتروفنا فيما يتعلق بداشا كانت قد تبددت تبدداً تاماً في الصباح. والحق أنها لم تأخذها مأخذ الجد في وقت من الأوقات، لأنها كانت عظيمة الثقة بربيبتها. ثم إنها كان يستحيل عليها أن تصدّق أن ابنها نيقولاي يمكن أن يعشق... داريا. وفي الصباح، بينما كانت داريا تسكب الشاي، تاملتها فرفارا بتروفنا طويلاً بانتباه شديد، فقالت لنفسها ربما للمرة العشرين منذ البارحة، قالت لنفسها بثقة واطمئنان: "تلك كلها سخافات!".

كل ما هناك أنها لاحظت أن داشا تبدو متعبة قليلاً وأنها تبدو كذلك أكثر صمتاً وأكثر برودة مما كانت من قبل. وبعد الشاي جلستا تطرزان، على عادتهما. فطلبت فرفارا بتروفنا من داريا أن تحدّثها عن رحلتها في الخارج، عن الطبيعة، والمدن، والسكان وعاداتهم، والفنون، والصناعة، وعن كل ما لاحظته. ولم تلق عليها سؤالاً واحداً عن آل دروزدوف وعن الحياة التي عاشتها مع هاته السيدات. وكانت داشا جالسة أمام منضدة صغيرة للشغل تتحدث بصوتها المتساوي، الرتيب، الضعيف، الذي يجري على وتيرة واحدة، فإذا بالسيدة تقاطعها فجأة بعد نصف ساعة من كلامها سائلة إياها:

- داريا، أليس لديك أي شيء خاص تريدين أن تفضي به إليّ؟

فأجابت الفتاة بعد لحظة تفكير وهي ترفع نحو فرفارا بتروفنا عينيها الواضحتين:

- لا، لا شيء البتة!

- لا في فكرك، ولا في قلبك، ولا في ضميرك؟

فكررت داشا تقول بصوت أجش، ولكن بنوع من تصميم متجهّم:

- لا شيء.

كنت أقدّر هذا. اعلمي يا داريا أنني لن يراودني أي شك فيك أبداً. والآن، كوني هادئة وأصغي إليّ. اجلسي على هذا الكرسي أمامي. أريد أن

أراك كلك. نعم... هكذا... اسمعي. هل تريدين أن تتزوجي؟

فألقت عليها داشا نظرة طويلة مستفهمة، ولكنها نظرة ليس فيها استغراب كبير. قالت فرفارا بتروفنا:

ـ انتظري. اسكتي. هناك فرق في السن، بل فرق كبير جداً. لكنك أعلم الناس بأن هذا أمر لا قيمة له. أنت عاقلة. وما ينبغي أن يكون في حياتك خطأ. ثم إنه رجل جميل على كل حال. الخلاصة أنه ستيفان تروفيموفتش الذي كنت دائماً تقدّرينه حق قدره. ما رأيك؟

ألقت داشا نظرة فيها مزيد من الاستفهام. وبدت عليها الدهشة في هذه المرة، حتى لقد احمرّ وجهها.

قالت فرفارا بتروفنا:

ـ انتظري. اسكتي. لا تستعجلي. رغم أنك تملكين بعض المال ـ لأنني خصصتك في وصيتي بمبلغ ـ فما عسى تصيرين إليه بعد موتي، ولو ملكت ذلك المال؟ سوف تُخدعين فيُسرق مالك، فإذا أنت تضيعين. أما إذا تزوجت فإنك تصبحين زوجة رجل معروف. وانظري إلى الجانب الآخر من الموقف: لقد كفلت له حياته، ولكن ما الذي سيحدث له إذا أنا توفيت؟ أما إذا كنت أنت معه، فإنني أكون واثقة مطمئنة. انتظري. لم انته من كلامي: إنه خفيف، متقلب، أناني، ولعله قاسٍ، وإن له عادات عامية مبتذلة، ولكن يجب عليك أن تقدّريه، ولكن هناك من أهم أسوا منه. إنك لا تتصورين طبعاً أنني أريد التخلص منك وتسليمك لوغد من الأوغاد، هه؟ لكنك ستقدرينه خاصة لأنني أطلب منك ذلك هل تسمعينني؟ ما بالك تعنّدين؟

كذلك قالت بلهجة حانقة.

وكانت داشا صامتة تصغي إلى كلامها. وأردفت فرفارا بتروفنا تقول:

ـ انتظري أيضاً. إنه يشبه امرأة عجوزاً. ولكن هذا أفضل لك. إنه يثير الشفقة في النفس. إنه غير جدير حتى بأن تحبه امرأة. لكنه يستحق أن يُحبّ لأنه أعزل من كل سلاح، ويجب عليك ان تحبيه لانه أعزل من كل سلاح. هل تفهمينني؟ أليس ما اقوله صحيحاً؟ هل تفهمينني؟

هزت داشا رأسها بحركة تعني الموافقة على كلام محدّثها. فقالت فرفارا بتروفنا تصيح بصوت حاد حدة غريبة:

- كنت واثقة بهذا. لم اكن أتوقع منك شيئاً آخر. سوف يحبك، لأنه يجب عليه أن يحبك، يجب عليه أن يحبك. سيكون عليه أن يعبدك عبادة، بل إنه سيهيم بحبك دون ان تتدخل فكرة الواجب. إنني اعرفه حق معرفته. ثم إنني سأكون موجودة. لا تقلقي. سأكون موجودة دائماً. سوف يتشكى منك، وسوف يغتابك ويشي بك، وسوف يبوح بأسراره لأول قادم، سوف يئن ويتوجع بغير انقطاع، وسوف يبعث إليك برسائل من غرفة إلى أخرى، رسالتين في يوم واحد، ولكنه لن يستطيع أن يعيش بدونك، وذلك هو الشيء الأساسي. توصلي إلى جعله طيّعاً. فإذا لم تتوصلي إلى ذلك كنتِ حمقاء لا أكثر: سوف يزعم لك أنه سيشنق نفسه، سوف يهددك، ولكن لا تصدقي شيئاً من ذلك. ما هذا كله إلّا هذر وثرثرة! لا تصدقي ما يقول. ومع ذلك عليك أن تكوني مفتّحة العينين دائماً: فقد يشنق نفسه. يمكن أن يتوقع المرء كل شيء من أمثال هذا الإنسان. إنهم يشنقون أنفسهم لا لأنهم أقوياء، بل لأنهم ضعفاء مسرفون في الضعف. لذلك ينبغي لك أن لا تستفزيه إلى آخر الحدود أبداً. تلك أولى القواعد التي يجب على المرأة أن تراعيها في معاملة زوجها. تذكري أيضاً انه شاعر. اسمعي يا داشا! ما من سعادة أعظم من السعادة التي يشعر بها الإنسان حين يضحّي بنفسه. ثم إنك ستسعدينني سعادة كبيرة، وهذا هو الشيء الأساسي. لا تتخيلي أن حماقة قد أفلتت من لساني الآن: إنني أعي ما أقول، وأدركه حق إدراكه. أنا أنانية، فكوني أنت أيضاً أنانية. لكنني لا أجبرك البتة. كل شيء رهن بإرادتك. افعلي ما يستقر عليه رأيك. فماذا؟ ما بالك تصمتين؟ تكلمي!

قالت داشا بصوت ثابت:

- إذا كان لا بد حتماً من أن أتزوج، فأنا موافقة يا فرفارا بتروفنا. يستوي عندي...

سالتها فرفارا بتروفنا بلهجة قاسية وهي تلقي عليها نظرة فاحصة:

ـ إذا كان لا بد حتماً؟ إلى ماذا تلمّحين؟

صمتت داريا وهي تغرز إبرتها في نسيجها الذي تطرزه.

قالت فرفارا بتروفنا:

أنت ذكية، ولكن أفلتت منك الآن جملة سخيفة. صحيح أنني أحرص حرصاً مطلقاً على تزويجك. ولكن هذا لا يرجع إلى ضرورة، وإنما هو فكرة وافتني. ولن أزوّجك إلّا ستيفان تروفيموفتش.فلولا أن هناك ستيفان تروفيموفتش لما خطر ببالي أن ازوّجك أحداً، رغم أنك بلغت العشرين من العمر. هيه، ما رأيك؟

ـ سأفعل ما تشائين يا فرفارا بتروفنا.

ـ إذن توافقين. انتظري. اسكتي. لا تستعجلي. لم أنته بعد: لقد خصّصتك في وصيتي بخمسة عشر ألف روبل، لكنني ساعطيك المبلغ منذ الآن، بعد الزفاف فوراً. سوف تعطينه من هذا المبلغ ثمانية آلاف روبل. لا، لن تعطيه هو، بل تعطينني أنا. إنه مدين بثمانية آلاف روبل سوف أتولى سدادها عنه. ولكن يجب أن يعلم أنني أسدّدها من أموالك أنت. واحتفظي بالآلاف السبعة التي ستبقى لك. لا تعطه منها شيئاً البتة. ولا يخطر ببالك يوماً أن تسدّدي عنه ديناً. فلو فعلت ذلك ولو مرة واحدة لتقاطرت عليك المضايقات من كل جهة. على كل حال، سوف أكون موجودة. وسوف أكفل نفقات معيشتك، ألفاً ومائتي روبل في السنة، بل ألفاً وخمسمائة روبل، عدا النفقات الطارئة، وسأكفل المسكن والطعام، كما أفعل له الآن. ولكن ستدفعين أنت أجر الخادمة. سأدفع المعاش السنوي مرة واحدة، أضعه بين يديك أنت. ولكن كوني طيبة: أعطه شيئاً من حين إلى حين، واسمحي له أن يستقبل أصدقاءه مرة في الأسبوع. فإذا جاؤوا أكثر من ذلك، اطرديهم. سأكون موجودة على كل حال. وإذا مت فإن المعاش السنوي سيظل يُدفع لك إلى أن يموت، هل تفهمين؟ إلى أن يموت "هو". ذلك إن هذا المعاش ليس لك، بل له. أما أنت فبالإضافة إلى السبعة آلاف روبل التي ستأخذينها الآن والتي ستحافظين عليها إذا لم تكوني حمقاء، سوف أخصّك في وصيتي بثمانية آلاف روبل.

ولكن لا تنتظري مني شيئاً آخر. اعلمي هذا. هل توافقين؟ هلّا اجبتني اخيراً؟

ـ لقد أجبتك يا فرفارا بتروفنا.

ـ تذكري أنك حرة تماماً، تفعلين ما تشائين.

ـ ولكن اسمحي لي يا فرفارا بتروفنا: هل سبق أن كلّمك ستيفان تروفيموفتش في هذا الموضوع؟

ـ لا، لم يقل لي شيئاً، حتى أنه لا يعلم شيئاً، ولكن انتظري قليلاً. سوف يتكلم.

ونهضت فرفارا بتروفنا فجأة، ووضعت على كتفيها شالها الأسود. فاحمرّ وجه داشا من جديد وهي تتابعها بنظرة مستفهمة. والتفتت فرفارا بتروفنا نحو ربيبتها فجأة، وقد تخضّب وجهها بحمرة شديدة من فرط الغضب، وانقضّت عليها انقضاض الصقر تقول صائحة:

ـ أنت حمقاء! حمقاء وعقوق! ما هي الفكرة التي خطرت ببالك؟ أتصورين أنني يمكن أن أعرّضك لمهانة مهما تصغر؟ إلّا أنه هو الذي سيزحف على ركبتيه زحفاً طالباً يدك. يجب أن تعلمي أنني لا أرضى قط أن تُهاني. أم تراك تتخيلين أنه سيتزوجك من أجل الثمانية آلاف روبل، وأنني سأركض إليه الآن لأبيعه إياك؟ حمقاء! حمقاء! أنتنّ جميعاً حمقاوات عاقّات! ناوليني مظلتي!

وأسرعت إلى عند ستيفان تروفيموفتش سيراً على قدميها، سالكة الأرصفة الرطبة والجسور الخشبية المبتلة.

7

صدقت فرفارا بتروفنا: ما كان لها أن تطيق أن تُهان داريا أية إهانة، وهي في هذه اللحظة خاصة تعد نفسها المحسنة إليها المنعمة عليها. لذلك ثار في نفسها أنقى استياء وأنبل استياء حين لاحظت أثناء وضعها شالها على كتفيها نظرة قلق وريبة لدى الفتاة. إن فرفارا بتروفنا قد أحبت داشا دائماً أصدق الحب، ومن أجل هذا إنما وصفتها لها براسكوفيا إيفانوفنا حين

حدّثتها عنها بأنك "أثيرتها". كانت فرفارا بتروفنا قد استقر رأيها استقراراً حاسماً على أن طبع داريا لا يشبه في شيء طبع أخيها (إيفان شاتوف)، وعلى "أنها فتاة هادئة رقيقة عذبة قادرة على التضحية مخلصة، متواضعة إلى أقصى حدود التواضع، عاقلة حصيفة الرأي، زاخرة النفس بالشكر والامتنان خاصة". وقد جاء سلوك داشا حتى الآن مصدّقاً لما استقر عليه رأي فرفارا بتروفنا. لقد قالت فرفارا بتروفنا مرة حين كانت الفتاة في الثانية عشرة من عمرها: "لن يكون في حياة هذه الفتاة أخطاء". وإذا كانت هذه السيدة تتشبث تشبثاً عنيداً جارفاً بكل مشروع أو كل حلم أو كل رأي يفتنها فقد قرّرت على الفور أن تربي داشا كأنها ابنتها. فسرعان ما خصّتها برأس مال، واستقدمت لها مربية هي مس كريجز التي ظلت في البيت إلى أن بلغت الفتاة السنة السادسة عشرة من عمرها، ثم صُرفت الانكليزية مشكورة في ذات يوم على حين فجأة، لا يدري أحد لماذا! وأخذت فرفارا بتروفنا تكلّف بإعطاء دروس لربيبتها أساتذة من أساتذة المدارس الثانوية كان بينهم فرنسي أصيل. وهذا أيضاً صُرف بغتة بما يشبه الطرد. وقامت بإعطاء دروس للفتاة في العزف على البيانو أرملة فقيرة تنتمي إلى أسرة نبيلة، وتقيم بمدينتنا إقامة عابرة. غير أن الأستاذ الرئيسي الذي علّم الفتاة إنما هو ستيفان تروفيموفتش. والحق أنه هو أول من اكتشف داشا. فكان يُعنى بتعليم الفتاة حتى قبل أن تنتبه إليها فرفارا بتروفنا أي انتباه. أعود فأقول: إن الأطفال كانوا يحبون ستيفان تروفيموفتش حباً خاصاً. وقد عملت معه ليزافتا نيقولايفنا توشين منذ سنتها الثانية حتى سنتها الحادية عشرة (وكانت الدروس بالمجان طبعاً، فما كان له بحال من الأحوال أن يقبل أن يتقاضى من السيدة دروزدوف أي مكافأة). كان هو نفسه يعبد تلك الطفلة الفاتنة ويروي لها تاريخ الإنسانية في صورة قصص، ويحكي لها كيف نشأ الكون وتطوّرت الأرض. وكانت دروسه عن الإنسان البدائي والشعوب المتوحشة تخلب الألباب أكثر من الحكايات العربية نفسها. فكانت ليزا تفرح بأقاصيصه أشد الفرح. ولكنها متى خلت إلى نفسها في البيت شرعت تقلده تقليداً مضحكاً إلى أبعد حدود

الإضحـاك. وقد فاجأها ستيفان تروفيموفتش على هـذه الحال في ذات مرة علـى حين بغتة، فمـا كان منها إلّا أن ارتمت بين ذراعيه باكية. وقد أخذ يبكي هـو أيضـاً، ولكنه بكـى حنانـاً وحباً. فلما سـافرت ليـزا لم يبق له مـن تلميذ إلّا داشـا، حتـى إذا عُهد بتعليمها إلى أسـاتذة من المـدارس الثانوية قطع هو دروسـه، ثم انتهى اهتمامه بعد ذلك بالفتاة انتهاء تاماً. وانقضت السـنون فإذا هـو يلاحظ فجأة فـي ذات يوم ـ بينمـا كان على المائدة عند فرفـارا بتروفنا ـ ما تتمتع به الصبية من فتنة وقد بلغت السـابعة عشـرة. فأخذ يكلمها، ورضي كل الرضـا عـن أجوبتها، واقتـرح عليها أخيـراً أن يعطيها دروسـاً مفصّلة في تاريخ الأدب الروسـي، فشـكرت له فرفارا بتروفنا هذه الفكرة. أما داشـا فقد سُرّت أعظم السرور وافتتنت افتتاناً وأعدّ ستيفان تروفيموفتش دروسه بعناية خاصة جداً، وكان درسه الذي وقفه على أقدم عهد من العهود شائقاً إلى أبعد الحـدود. ولكن حين أبلغ سـتيفان تلميذته في نهاية الدرس انه سـيتناول في المـرة القادمة "حملة إيجور"[1]، نهضت فرفـارا بتروفنا فجأة وأعلنت أن هذا الـدرس هو الأخير. فصعّر سـتيفان تروفيموفتش وجهـه، لكنه لزم الصمت. واحمرّت داشـا احمراراً شـديداً. وقفت الأمور عند ذلـك الحد. لقد حدثت هذه القصة منذ ثلاث سنين تماماً.

كان سـتيفان تروفيموفتش المسـكين وحيداً، وكان لا يتوقع شيئاً. إنه كان غارقاً في أحلام كئيبة، ينظر من النافذة بين الفينة والفينة عسى أن يجيئه زائر. ولكـن ما مـن أحد يأتي. وكان يتسـاقط على الأرض في الخـارج رذاذ مطر، وكان البرد في بدايته، فكان ينبغي إشعال المدفأة. تنهد ستيفان تروفيموفتش. وإنـه لكذلـك إذا هو يـرى أمامه ما بثّ الرعب في نفسـه: إنها فرفـارا بتروفنا قد جاءته في مثل هذا الجو الماطر البارد، سـائرة على القدمين أيضاً!... بلغ

(1) "حملة إيجور": إن القصيدة الروسية التي يرجع عهدها إلى القرن الثاني عشر والتي تصور حملة الأمير إيجور دي سيفيريا على القومانيين سنة 1185 هي من أجمل القصائد الغنائية الوطنية الملحمية الروسية. وقد استخرج منها المؤلف الموسيقي بورودين موضوعاً للأوبرا التي وضعها بعنوان "الأمير إيجور". أمّا الجنرالة سـافروجين فكانت تعد هذا الأثر من آثار القرون الوسطى باعثاً على الملل والضجر.

ستيفان تروفيموفتش من الدهشة أنه نسي أن يبادر إلى تغيير ملبسه، فاستقبلها كما هو، بصديرته المعتادة، الوردية اللون، المبطنة بالقطن.

هتف يقول بصوت ضعيف وهو يتقدم للقائها:

ـ "صديقتي الطيبة!..." (بالفرنسية).

ـ أنت وحيد، يسعدني هذا. إنني أكره أصدقاءك. ما أكثر ما تدخّن! رباه! ما أفسد هذا الهواء! لم تشرب الشاي حتى الآن والساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. إنك تسعد بالفوضى ولا تجد لذة إلّا في القذارة. ما قطع الأوراق الممزقة هذه التي تتناثر على أرض الغرفة؟ ناستاسيا، ناستاسيا! ماذا تفعل خادمتك ناستساسيا؟ افتحي النوافذ، يا عزيزتي، والأبواب والطاقات، افتحي كل شيء إلى آخر مداه! وبانتظار أن تفعلي ذلك سننتقل إلى الصالون. لقد جئت لعمل. هلّا كنست قليلاً ولو مرة واحدة في حياتك يا عزيزي!

صرخت ناستاسيا تقول بصوت شاك غاضب في آن واحد:

ـ سيدي يوسّخ طوال الوقت!

ـ وظيفتك أن تكنّسي، ولو خمس عشرة في اليوم إذا لزم الأمر.

ثم أضافت تخاطب ستيفان تروفيموفتش وهي تدخل إلى الصالون:

ما أبشع صالونك. أغلق الباب جيداً فقد تتجسّس ناستاسيا علينا. يجب تغيير ورق الجدران هذا حتماً. لقد بعثت إليك بعامل مختص مع عيّنات، فلماذا لم تختر شيئاً؟ اجلس، وأصغ إلى كلامي. اجلس، أرجوك! إلى أين أنت ذاهب؟ إلى اين أنت تمضي؟

فصاح ستيفان تروفيموفتش يجيبها من الغرفة المجاورة:

ـ سوف... سوف أرجع حالاً.

وسرعان ما عاد بعد أن غير ملبسه وقال:

ـ ها أنذا رجعت.

قالت وهي تفحصه ساخرة:

ـ آ... غيّرت ملبسك! حقاً إن هذا الرداء يناسب طبيعة حديثنا أكثر. اجلس، تفضل اجلس.

وكان ستيفان تروفيموفتش قد ارتدى فوق صدرته ردنجوتاً.

شرحت له فرفارا بتروفنا القضية كلها دفعة واحدة، بلهجة قاطعة مقنعة. فأشارت إلى الثمانية آلاف روبل التي كان في حاجة مستعجلة إليها، وفصّلت القول في مسألة المهر أيضاً. فكان ستيفان تروفيموفتش يحملق بعينيه ويرتعش في داخله. كان يسمع ما تقوله سمعاً جيداً، ولكنه لا يفهمه فهماً واضحاً. وأراد أن يتكلم لكن صوته اختنق في حلقه. إنه لا يعرف إلّا شيئاً واحداً هو أن كل شيء سوف يتم على نحو ما تقول فرفارا بتروفنا، وأن الجدال والرفض جهد ضائع، وأنه سيتزوج لا محالة.

قال أخيراً: "ولكن يا صديقتي الطيبة" (بالفرنسية) أللمرة الثالثة وفي سنّي... ثم مع طفلة كهذه الطفلة؟ "إنها طفلة" (بالفرنسية).

- طفلة في العشرين من عمرها ولله الحمد. لا تجل بنظرك على هذا النحو. ما أنت فوق مسرح. أنت ذكي جداً وأنت عالم، لكنك لا تفهم من شؤون الحياة شيئاً. إنك في حاجة إلى خادمة تكون بقربك على الدوام. ما عسى تصير إليه بعد موتي؟ إنها هي التي ستكون خادمتك، وإنها لخادمة ممتازة. هي فتاة متواضعة، ثابتة، عاقلة. ثم إنني سوف أكون موجودة. لن أموت فوراً. إنها تحب ان تعيش حياة اسرة، وإنها في رقّتها كملاك. لقد وافتني هذه الفكرة الموفقة وأنا في سويسرا! هل تفهم حين أقول لك أنها في رقّتها كملاك؟

بهذا صاحت فرفارا بتروفنا غاضبة على حين فجأة. وتابعت كلامها تقول:

-إن بيتك تسوده القذارة والوساخة، فستأتيك هي بالترتيب والنظافة فإذا بمنزلك يلمع كمرآة... هيه! أتراك تتخيل أنني سأضرع إليك أن تقبل كنزاً كهذا وأنا أنحني لك إجلالاً، وأعدّد لك جميع المزايا والفوائد، وأفعل كما تفعل خاطبة؟ ألا إنك أنت الذي يجب أن تتوسل إليّ راكعاً على ركبتيك! يالك من رجل طائش جبان!

- لكنني عجوز...

- إن سنك ثلاثة وخمسون عاماً. ما ثلاثة وخمسون عاماً؟ ليست

الخمسون نهاية الحياة بل وسطها. وإنك رجل جميل. أنت نفسك تعرف هذا. وتعرف أيضاً أنها تقدّرك حق قدرك. ما عسى تصير هي إليه بعد موتي؟ لعلها تكون معك هادئة البال، وسوف أكون أنا هادئة البال قريرة العين. إن لك مركزاً، وإسماً، وقلباً محباً. سوف تستمر على قبض المعاش الذي أرى أن من واجبي أن أقدّمه إليك. قد تكون أنت منقذها، نعم، سوف تكون منقذها. وعلى كل حال، سوف يكون هذا شرفاً لها. سوف تتولى تهذيب طبعها، وإغناء قلبها، وتوجيه عقلها وفكرها. ما اكثر الذين يهلكون في هذا الزامن لأن أحداً لم يحسن توجيههم! وإلى ذلك الحين تكون قد فرغت من تاليف كتابك، وتذيع شهرتك ويتحدث عنك الناس من جديد.

تمتم ستيفان تروفيموفتش وقد أثّر فيه هذا المديح الذي تزجيه له فرفارا بتروفنا:

ـ نعم، لقد فكرت فعلاً في الشروع في تأليف كتابي "أقاصيص من تاريخ إسبانيا"[1].

ـ أرأيت؟ لقد جاء الأمر في حينه.

ـ ولكن... ما قولها هي؟ هل كلّمتها؟

ـ لا يقلقنّك هذا الأمر. ولا تسرف في الفضول. سوف يكون عليك طبعاً ان تطلب منها وأن تضرع إليها أن توليك هذا الشرف. هل فهمت؟ ولكن لا تقلق. سأكون موجودة. ثم إنك تحبها...

شعر ستيفان تروفيموفتش بدوار. أخذت الجدران تهتز حوله. إن خاطرة رهيبة قد ساورت فكره واستولت عليه فهو لا يستطيع السيطرة عليها والتحكم فيها.

قال بصوت مرتجف: "صديقتي العظيمة" (بالفرنسية)... إنني... إنني... ما كنت لأتخيّل أن تقرري أن تزوّجيني أخرى... أن تزوّجيني امرأة أخرى...

فأجابته فرفارا بتروفنا قائلة بصوت مسموع:

---

(1) هذه نقطة تقوي التشابه أو التوازي بين فرخوفنسكي وبين الأستاذ خرانوفسكي الذي نشر سنة 1854 بحثاً بعنوان: "الملحمة الإسبانية".

ـ ما أنت بفتاة يا ستيفان تروفيموفتش. الناس لا يزوّجون إلّا الفتيات. أما أنت فإنك تزوّج نفسك بنفسك.

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يثبت عليها نظرة زائغة: "نعم، استعملت كلمة بدلاً من كلمة أخرى... ولكن... سيان عندي..." (بالفرنسية).

قالت له باحتقار:

ـ أرى فعلاً أن الأمرين عندك سيّان.

ثم صاحت تقول مستنجدة على حين فجأة:

ـ رباه! لقد أغمي عليه! ناستاسيا، ناستاسيا! هاتي ماء!

لكنـه لم يكن بحاجة إلى ماء. فقد عاد إليـه وعيه. وتناولت فرفارا بتروفنا مظلتها وقالت:

ـ أرى أن ليس هذا أوان التحدّث إليك في كل هذا...

ـ نعم، نعم، إنني عاجز عن...

ـ لكنك ستكون في الغد قد ارتحت وفكرت. ابقَ في البيت. وإذا حدث شيء فابلغني ولو في الليل. ولكن لا تبعث إليّ برسائل، فالرسائل لن اقرأها. غداً، في مثل هذه الساعة تماماً سأجيء لأحصل على جوابك النهائي الذي أرجو أن يكون مرضياً. وافعل ما يجب حتى نكون وحيدين، وليكن البيت نظيفاً. انظر، انظر إلى هذه الوساخة كلها! ناستاسيا، ناستاسيا!

وجاءتـه في الغد، فوافق طبعاً. كان يستحيل عليه ألا يوافق. لقد كان ثمة ظرف خاص جداً.

8

إن الأرض التي كانت تسمى عندنا أملاك ستيفان تروفيموفتش (وهي تجاور سكفورشنيكي وتقدّر بنحو خمسين، "نفساً" كما كان يقال في الماضي) كانت في الواقع ملكاً لزوجته الأولى، وصارت إذن ملكاً لابنها بطرس ستيفانوفيتش فرخوفنسكي. أمّا ستيفان تروفيموفتش فقد أدارها كَوَصي على الابن، حتى إذا بلغ الابن رشده أناب عنه أباه في إدارتها بتوكيل

رسـمي. وكان هـذا الإجراء مفيداً للشـاب فهو يتلقى من أبيـه ألف روبل في السنة عـن أرض أصبحت منذ تحريـر الفلاحين لا تغل إلّا خمسـمائة روبل (وربمـا أقل من ذلك أيضاً). أمّـا كيف تم اتفاق كهذا، فذلك أمر لا يعلمه إلّا الله! على أنَّ الألف من الروبلات إنما كانت ترسـلها فرفارا بتروفنا كل سنة، دون أن يشـارك ستيفان تروفيموفيتش في دفع كوبك واحد. لقد كان يحتفظ بإيـرادات الأرض، حتـى لقـد انتهى به الأمر إلـى تخريبها تمامـاً: فقد أكراها لرجلٍ من رجال الصناعة وباع أخشـاب غابتهـا جزءاً بعد جزء، دون أن تعلم بذلك فرفارا بتروفنا، وكانت أخشـابها هذه هي التي تشكل قيمتها الأساسية. وكان في وسـعه أن يجني ثمن هذه الأخشـاب ثمانيـة آلاف روبل، ولكنه لم يحصـل فـي الواقع إلّا على خمسـة آلاف. غير أنه كان يتفق له أن يخسـر في النـادي مبالغ تبلغ من الضخامة أنه يخشـى أن يسـتعين في سـدادها بفرفارا بتروفنـا. فلمّـا علمت فرفـارا بتروفنا بالأمر أخيراً، صرّت بأسـنانها من شـدة الغضب. وهذا هو بطرس ستيفانوفتش يبلغ أباه أنه سيصل إلى مدينتنا ليتولى بنفسـه بيع أرضه، ويكلف أباه بأن يجد له مشـترياً في أقرب وقت ممكن. وإذ إن سـتيفان تروفيموفتـش رجل نبيـل كريم منزّه عـن المنفعة فقد شـعر طبعاً بحرج كبير وارتباك شديد تجاه "هذا الابن الغالي" (بالفرنسية) (لقد رآه آخر مرة قبل تسـع سـنوات في بطرسـبرج، حين كان الشـاب مايزال طالباً. كانت الأرض في البداية يمكن أن يقدَّر ثمنها بثلاثة عشر ألف روبل أو بأربعة عشر ألف. أمّا الآن فيصعب إيجاد مشـترٍ لها بخمسسـة آلاف. صحيح أن سـتيفان تروفيموفتش كان يملك كل الحق في بيع الغابة بحكم التوكيل الرسمي. كما أنه إذا أدخل في حسابه أن مبلغ الألف روبل الذي كان يُدفع لابنه كلَّ سنة في موعده كان مبلغاً ضخماً يفوق ما يسـتحقه الابن، فإن في إمكانه أن يعدَّ نفسه بـريء الذمـة تجاه ابنه. ولكـن سـتيفان تروفيموفتش رجل نبيـل الطبع عالي النفـس. لذلك خطـرت بباله فكرة بدت لـه جميلة جداً، وهـي أن يضع على المائدة أمام ابنه أكبر مبلغ يمكن أن يأمل المرء أن تباع به الأرض، أي خمسة عشـر ألف روبل، ثم دون أن يشـير أية إشـارة إلى المبالغ المرسلة حتى ذلك

الحين، يضم "هذا الابن الغالي" (بالفرنسية) إلى صدره ضماً قوياً، دامع العينين، وينهي بذلك كل حساب. حتى لقد شرع في وصف المشهد لفرفارا بتروفنا، ولكن بشيء من الحذر وبعبارات فيها تلميح جعلها تستشف منها أن عملاً كهذا العمل سوف يضفي طابعاً خاصاً على الصداقة التي تربطهما و"الفكرة" التي تجمع بينهما، وسوف يظهر الترفع عن المنفعة وعظمة النفس لدى "الآباء"، ولدى الجيل القديم عامة بالقياس إلى ما تتصف به الشبيبة المولعة بالاشتراكية من خفة وطيش. وقد قال لها أشياء أخرى كثيرة أيضاً، ولكن فرفارا بتروفنا أهملت الحديث وأشاحت عنه، ومع ذلك أعلنت له أخيراً بخشونة أنها مستعدة لأن تشتري الأرض وأنها ستدفع ثمنها الحد الأقصى الذي تستحقه، أي سبعة آلاف روبل أو ثمانية آلاف (والواقع أن من الممكن شراؤها بأربعة آلاف)، أمّا عن الثمانية آلاف التي أضاعها ببيع الأخشاب فإنها لم تنبس بكلمة واحدة.

حدث ذلك قبل مشروع الزواج بشهر. وقد ذُهل ستيفان تروفيموفتش من جواب صديقته وبقى مضطرباً اضطراباً شديداً. لقد كان من الممكن في الماضي أن يأمل أن لا يجيء الفتى (حين أقول "يؤمل" فإنني أستعمل كلمة يمكن أن يستعملها غريب، لأن ستيفان تروفيموفتش من حيث هو أب، ما كان له إلّا أن يرفض تصور مثل هذا الأمل مستاءً). ولقد كانت الشائعات التي تصل إلينا عن بتروشكا[1] عجيبة. فقيل إنه بعد أن أنهى دراسته (منذ ست سنين)، عاش ببطرسبرج حياة فراغ، ثم علمنا فجأةً أنه شارك في نشر نداء ثوري، وأن القضاء أخذ يلاحقه فوراً. ثم عرفنا أنه قد أقام في الخارج، في سويسرا، بجنيف، فأدركنا أنه هرب.

كان ستيفان تروفيموفتش يقول لنا في ذلك الوقت متحيراً أشد التحير:

- إنني لمستغرب حقاً. إن بتروشا "دماغ فقير" (بالفرنسية). صحيح أنه طيب، وشهم، وحساس جداً. وما كان أسعدني في بطرسبرج حين كنت

---

(1) "بتروشكا": تصغير اسم بطرس تحبباً وتدليلاً.

أقارنه بغيره من الشباب. ولكنه "دماغ فقير جداً مع ذلك!" (بالفرنسية). الحق أن مرد هذا كله إلى ذلك النقص في النضج، إلى تلك العاطفية نفسها. إن الشيء الذي يخلب ألبابهم في الاشتراكية إنما هو جانبها العاطفي، المثالي، وليس واقعيتها. إن الشيء الذي يغتنم فيها هو نوع من الروح الشعرية، نوع من الروح الدينية إن صح التعبير، وهم لا يعرفونها إلّا سماعاً. ولكن انظروا إلى المأزق الذي يضعني فيه. إن لي هنا أعداء، و "هناك" لي أعداء أكثر. ولسوف ينسبون أخطاءه إلى التأثير السيء الذي يحدثه أبوه فيه. رباه! أبتروشا يصبح زعيماً؟ في أي زمان نعيش؟

ولكن بتروشا لم يلبث أن أرسل عنوانه بسويسرا، حتى لا ينقطع إرسال معاشه إليه: إنه لم يهاجر تماماً. وهاهو ذا الآن يعود إلى بلاده، بعد إقامة أربع سنين في الخارج، ويبلغنا أنه واصل قريباً. إذن ليس هناك أي اتهام موجه إليه. حتى لكأن ثمة أحداً يهتم به ويحميه. إنه يكتب الآن من جنوب روسيا، حيث ذهب لشأن هام جداً لكنه خاص. هذا كله حسن. ولكن من أين يؤتى بالسبعة آلاف أو الثمانية آلاف روبل لإكمال المبلغ الذي كان ستيفان تروفيموفتش يريد أن يقدمه لابنه؟ إن شيئاً ما يلقى في نفس ستيفان تروفيموفتش أن بتروشا الحساس سوف يدافع عن مصالحه دفاعاً قوياً وسوف يطالب بالمبلغ مطالبةً عنيفة. قال لي ستيفان تروفيموفتش يوماً: "لقد لاحظت أن جميع هؤلاء الاشتراكيين المسعورين وهؤلاء الشيوعيين هم في الوقت نفسه أناس بخلاء، وأن نفوسهم نفوس رجال يحبون الكسب والربح، نفوس مالكين، فعلى قدر ما يُظهرون من التمسك بالاشتراكية يكونون نهمين شرهين. ما مصدر هذا؟ أيكون نتيجةً لعاطفيتهم أيضاً؟". لا أدري هذه الملاحظة صادقة أم هي غير صادقة لكنني أعرف أن بتروشكا كان قد علم ببيع أخشاب الغابة وعلى علم بأشياء أخرى أيضاً. وكان ستيفان تروفيموفتش يعلم أن ابنه عالم بالحال. ولقد اتفق لي أن قرأت رسائل بتروشا إلى أبيه. كان لا يكتب إليه إلّا نادراً، مرة في السنة، أو أقلَّ من ذلك أيضاً. ولكنه في الآونة الأخيرة، بعد أن أبلغ عن وصوله، بعث رسالتين متتاليتين، كانتا قصيرتين جافتين على عهدنا

به، وكانتا لا تشتملان إلّا على تعليمات. وكان الأب والابن يتخاطبان بصيغة المفـرد دون كلفـة، منـذ أن كانا ببطرسـبرج، وذلـك جرياً علـى "الموضة"، فكانت رسـائل بتروشـا أشـبه بالمكاتيب التي كان السـادة في الزمان القديم يبعثونها إلى أقنانهم المكلَّفين بإدارة أموالهم.

هـا هي ذي الثمانية آلاف روبل التي يجب أن تذلل كل مصاعب سـتيفان تروفيموفتـش وأن تحـل كل مشـكلاته، ها هـي تهبط عليه من السـماء فجأة بفضـل العـرض الذي قدمته فرفارا بتروفنا، حتى أن فرفـارا بتروفنا قد أفهمته بوضوح أن المبلغ لن يهبط من السماء إلّا على هذا الشرط. وقد قبل ستيفان تروفيموفتش عرضها طبعاً.

وقد أرسل يستدعيني بعد انصراف صديقته فوراً، وحرص على إيصاد بابه دون سـائر أصدقائه طـوال النهار. وبكى أمامي قليـلاً بطبيعة الحال، وأفاض فـي الـكلام و أجـاد، مرتبكاً مع ذلـك من حين الـي حين، وألقـى نكتة قائمة على الجناس مصادفة، فسُـرَّ بها سـروراً عظيماً، ثم وافته نوبة مغص خفيفة. الخلاصة أن كل شـيء جرى وفقاً للقواعد والأصول. وفي النهاية، استل من أحـد الأدراج صورة زوجتـه الألمانية الحبيبة التى توفيت منذ عشـرين عاماً، وأخـذ يخاطبهـا بلهجة شـاكية: "هل سـتغفرين لـي ؟". كان يبـدو على وجه العمـوم ضائعـاً كل الضياع. ومن أجل أن نسـرِّي عن نفسـينا شـربنا زجاجة خمـرة، ثم لم يلبث أن نام نوماً عميقاً. وفي صباح الغد، عقد ربطة عنقه عقداً فنيـاً، وعنـي بهندامه عناية كبيرة، متوقفـاً أمام المرآة مراراً ومـراراً. وقد عطَّر منديلـه، عطَّـره خفيةً، ولكنه مـا إن رأى فرفارا بتروفنا من النافذة حتى أسـرع يأخذ منديلاً آخر، وأخفى المنديل الأول تحت الوسادة.

قالت فرفارا بتروفنا محبذةً حين أعلن لها موافقته:

ـ عظيـم. إنـك بهـذا تتخذ قـراراً نبيـلاً. ذلك مـن جهة أولـى. ومن جهة ثانية تسـمع صـوت العقل الذي قلّمـا تكترث به حين يتصل الأمر بشـؤونك الشخصية.

ثم أضافت تقول وهي تنظر إلى عقدة ربطة عنقه البيضاء:

ـ على كل حال، لا داعي إلى السرعة. احفظ السر الآن، وسوف أصمت أنا أيضاً فلا أقول شيئاً. في القريب يحين عيد ميلادك، فأصطحبها معي. سوف تقيم حفلة شاي في المساء. ولكن أرجوك. لا خمر ولا مقبِّلات. على أنني سأتولى تدبير هذا كله بنفسي. ادعُ أصدقاءك. سنشترك أنا وأنت في اختيار من سندعوهم. وقبل الحفلة بيوم تُجري حديثاً بينك وبينها إذا لزم الأمر. وفي أثناء السهرة نلمح أنا وأنت إلى الزواج تلميحاً دون أن نعلنه إعلاناً رسمياً. وبعد ذلك، بعد خمسة عشر يوماً، نحتفل بالزفاف احتفالاً متواضعاً إلى أبعد حدٍ ممكن... فإذا انتهى الاحتفال كان في إمكانكما أن تسافرا معاً إلى مكان ما، إلى موسكو مثلاً. وقد أصحبكما... وإنما الشيء الأساسي الآن هو أن لا تقول لأحد شيئاً.

دهش ستيفان تروفيموفتش. وحاول أن يبيِّن لصديقه أنه لا يمكنه أن يتصرف على هذا النحو، فلا بد له من حديث مع خطيبته، ولكن فرفارا بتروفنا غضبت فجأة وقاطعته غاضبة تقول:

ـ ما حاجتك إلى التحدث معها؟ أولاً، من الممكن أن لا يتم الأمر...

فدمدم الخطيب يقول مذهولاً:

ـ كيف هذا؟

ـ نعم، سوف أرى. على أن كل شيء سيتم على نحو ما قلت لك. لا تقلق. سوف أهيء داشا. لا حاجة بك إلى التدخل في هذا. سيُقال وسيُفعل كل ما يجب أن يُقال وأن يُفعل. ليس هذا شأنك. لماذا تهتم بهذا الأمر؟ ما عسى يكون دورك فيه؟ لا تجيء إليَّ ولا تكتب. تظاهر بأنك لا تعرف شيئاً، أرجوك. وسأصمت أنا أيضاً.

هكذا رفضت فرفارا بتروفنا أن تفصح عما بنفسها، وخرجت مضطربة اضطراباً واضحاً. لكأن موافقة ستيفان تروفيموفتش بهذه السرعة الكبيرة قد شدهتها. وا أسفاه! لقد كان ستيفان تروفيموفتش لا يعرف الوضع الذي هو فيه، وما يزال لا يميز بعض جوانب المسألة. بالعكس: لقد لاحظتُ لديه نبرة جديدة فيها استعلاء واستخفاف. إنه يصطنع التكبّر. لقد هتف يقول لي ذات مرة وقد وقف أمامي رافعاً ذراعيه إلى السماء:

ـ يعجبني هذا. هل سمعت؟ سوف تفعل ما من شأنه أن يجعلني أرفض في آخر الأمر. إن من الممكن أن ينفد صبري أنا أيضاً... فأقول لا. "ابق في بيتك، ليس هذا شأنك". ولكن لماذا يجب أن أتزوج حتماً؟ ألأن هواها شاء ذلك لا أكثر؟ ولكنني رجل جاد، ويمكنني أن أرفض الخضوع لنزوات سخيفة تقوم في نفس امرأة شاذة! إن عليّ واجبات نحو ابني... نحو نفسي. إنني أضحي. ألا تفهم هي هذا؟ لعلني إنما وافقت لضجري من الحياة ولأن الأمور عندي سواء. لكنها ستثير حنقي في النهاية إلى حيث لا تستوي عندي الأمور، فأغضب وأرفض. " ثم إن المسألة مضحكة... (بالفرنسية) ما عسى يقولون في النادي؟ ما عسى يقول... ليبوتين؟ "من الممكن أن لا يتم الأمر".. ما رأيك. هذا ما ينقص.. ذلك.. ذلك.. أراني عاجزاً عن العثور عن الكلمة المناسبة.. "إنني كرجل محكوم عليه بالأشغال الشاقة، إنني أشبه برجل مثل بانديجيه[1] (بالفرنسية)... إنني رجل حُصر عند حائط!...

وفي الوقت نفسه ، من خلال جميع هذه الشكاوي، كان يلوح نوع من غرور يتصف بالنزوة وقلة الاكتراث. وشربنا في المساء زجاجة خمرة أخرى

---

(1) "بانديجيه": هو رجل حرفته النساء، أعار ملابسه للأمير لويس نابليون ليسهِّل له الهرب من سجنه سنة 1846، يريد فرخوفنسكي أن يقول إذ يشبه نفسه بانديجه إنه ليس إلاّ شخصاً لا قيمة له.

الفصل الثالث

خطايا الغير

1

انقضت ثمانية أيام، واتسعت القضية مزيداً من الاتساع. يجب أن أذكر عابراً أنني عرفت في أثناء هذا الأسبوع التعس لحظات أليمة جداً. لقد كان عليّ، بصفتي نجياً حميماً لستيفان تروفيموفتش، أن أقضي كل وقتي تقريبا بقرب هذا الخطيب الشقيّ الحزين. ورغم أننا لم نر أحداً طوال ذلك الأسبوع الذي قضيناه في وحدة تامة وعزلة كاملة، فإن الشيء الذي يعذّبه أكثر من أي شيء آخر هو الشعور بالخزي والعار حتى تجاهي أنا، حتى أنه كلما صارحني مزيداً من المصارحة أصبح يحقد عليّ بسبب ذلك مزيداً من الحقد. وكان من فرط وجله يتخيل أن المدينة كلها على علم بالموقف، فكان يخشى أن يظهر لا لأعضاء النادي فحسب، بل لأصدقائه الحميمن أيضاً. لذلك كان لا يحرج ليقوم بنزهته الصحية إلّا في المساء حين يخيم الظلام حالكاً.

انقضت ثمانية ايام وهو ما يزال يجهل أهو خطيب أم لا. لقد ظل الموقف غامضاً رغم كل ما فعل. لم يستطع أن يرى خطيبته، حتى لقد كان يتساءل: هل يجب عليه أن يعدّها خطيبته فعلاً؟ هل يجب أن يأخذ أقوال فرفارا بتروفنا مأخذ الجد؟ إن فرفارا بتروفنا مصرة على أن لا تستقبله، لا يدري أحد لماذا! وقد أجابت على إحدى الرسائل الأولى التي بعثها إليها (وقد كتب إليها عدداً كبيراً من الرسائل) أجابت ترجوه أن يجنّبها زياراته ورسائله إلى حين، لأنها

مشغولة جداً، وتقول له إن هنالك أشياء هامة كثيرة تريد أن تنقلها إليه، لكنها تنتظر للقيام بهذا دقيقة من فراغ، وإنها متى "حان الحين" (بالفرنسية) ستبلغه الموعد الذي تستطيع أن تستقبله فيه، أما الرسائل فإنها تنبه إلى أنها سوف تردّها إليه دون أن تفضّها، لأنها تعدّها "عبثاً صبيانياً محضاً". لقد قرأت أنا هذه البطاقة: فهو الذي أطلعني عليها.

ومع ذلك، كانت هذه الفظاعات كلها وكانت حالة الشك والبلبلة التي هو فيها، كان ذلك كله لا يُعد شيئاً مذكوراً بالقياس إلى الهم الأكبر الذي كان يعذّبه عذاباً رهيباً بلا رحمة ولا هوادة. فبسبب ذلك الهم الفظيع إنما نحل جسمه وتثبطت عزيمته وخارت قواه، ومع ذلك الهم إنما كان يأتي شعوره بالخزي والعار. لكنه كان لا يريد أن يبوح لي به مهما يكن من أمر، ويؤثر أن يكذب وأن يراوغ كصبي صغير إذا دعا الداعي. ومع ذلك كان يستدعيني كل يوم، عاجزاً عن البقاء ساعتين دون أن يراني، محتاجاً إلى حضوري كاحتياجه إلى الهواء أو الماء.

وكان هذا التصرف يؤذي شعوري بعض الإيذاء. وكنت قد اكتشفت سره الكبير منذ مدة طويلة طبعاً، ونفذت إلى دخيلة نفس ستيفان تروفيموفتش. كنت مقتنعاً أعمق الاقتناع حينذاك أن إزاحة النقاب عن ذلك السر، عن ذلك الهم الرئيسي الذي يعذّب صاحبنا، ليس يشرّفه، وكنت، وأنا في عنفوان شبابي في ذلك الوقت، أستاء من عامية عواطفه وبشاعة شكوكه وشبهاته. ولعلني كنت لحماستي، وربما لتعبي من دور النجي ذاك الذي كنت أقوم به، أبالغ في اتهامه وأغلو في إدانته. حتى لقد قسوت فدفعته إلى أن يعترف لي بكل شيء، وأدركت مع ذلك أن هناك أشياء يصعب الاعتراف بها. وكان هو أيضاً قد نفذ إلى دخيلتي، أي أنه أدرك أنني نفذت إلى دخيلته وأنني مستاء منه ناقم عليه، وكان حانقاً من أنني ناقم عليه وأنني نفذت إلى دخيلته. لعل غيظي كان أحمقاً مسكيناً، ولكن خلوة شخصين تسيء إلى الصداقة الحقيقية أحياناً وتنالها بأذى. ولقد كان يدرك بعض جوانب وضعه إدراكاً واضحاً، وكان يحكم عليها بكثير من رهافة الفكر حتى لا يكون الأمر أمر النقطة التي يرى

أنه مضطر أن يبقيها سراً لا يبوح به.

كان يقول لي في بعض الاحيان متكلماً عن فرفارا بتروفنا:

ـ آه... لشدّ ما تغيرت! لقد كانت تبدو في محادثاتنا شخصاً آخر تماماً!... تصور أنها كانت تجيد الحديث حينذاك! هل يمكن أن يصدق أحد أنها كانت لها أفكار، أفكار شخصية؟ لقد تغير الآن كل شيء. إنها تقول إن ذلك كله لم يكن إلّا ثرثرة أصبحت اليوم بالية. إنها تحتقر الماضي. ما هي الآن إلّا تاجرة، إلّا مديرة أعمال. لقد قست نفسها... وهي لا تنفك تغضب وتسخط بغير انقطاع...

سألته:

ـ ولكن ما الذي يغضبها ويسخطها الآن ما دمت قد قبلت مطالبها؟

فألقى علي نظرة ماكرة وقال:

ـ "يا صديقي العزيز" (بالفرنسية)، لو لم أقبل مطالبها لزعلت زعلاً شديداً، شد..يداً! أقل شدة مع ذلك منه الآن وقد قبلت.

وارتاح ستيفان تروفيموفتش لهذه الكلمة الموفقة التي اهتدى إليها، وشعر بتحسن في حالته النفسية، وأفرغنا في المساء زجاجة خمر أخرى. لكن مزاجه الحسن لم يدم طويلاً، فما جاء الغد حتى كان صاحبنا أشدّ تهجماً وانهياراً مما كان في أي وقت مضى.

والشيء الذي كان يضايقني أكثر مما يضايقني أي شيء آخر مع ذلك هو أنه لم يعزم على ما كان يجب أن يعزم أمره عليه، وهو أن يمضي يزور السيدة دروزدزف وابنتها اللتين وصلتا منذ مدة قصيرة وكانتا ترغبان من تلقاء نفسيهما، كما قيل لنا، في رؤية ستيفان تروفيموفتش. إنهما لا تبرحان تسألان عن أخباره، فكان هذا يفاقم عذابه. إنه يتكلم دائماً عن ليزافتا نيقولايفنا بحماسة تدهشني وتثير في نفسي الاستغراب. صحيح أنه كان لا يزال يرى فيها الطفلة التي طالما أحبها كل الحب. ولكنه كان يتصور ايضاً ـ لا أدري لماذا ـ أنه سيجد بقربها سكينة لنفسه وراحة من تباريح عذابه، بل وأنها سوف تساعده في تبديد شكوكه وحل مشكلاته. كان يتوقع أن يجد

في ليزافتا نيقولايفنا إنسانة خارقة. ورغم ذلك لم يستطع أن يعزم أمره على زيارتها، مع أنه كان ينتوي أن يفعل ذلك كل يوم. وكنت من جهتي أرغب أشد الرغبة في أن أقدِّم إليها وأن أُزكّى عندها، وكنت لا أستطيع أن أعوّل في ذلك إلّا على ستيفان تروفيموفتش. كنت أراها أحياناً كثيرة، في الشارع طبعاً، حين كانت تتنزه على الحصان مرتدية ملابس الفرسان (كانت تمتطي صهوة جواد رائع)، في صحبة ضابط شاب جميل يقال أنه قريبها، فهو ابن أخت الجنرال دروزدوف. كانت هذه اللقاءات تملأ نفسي بإحساس خارق، ولكن عماوتي لم تدم زمناً طويلاً، فسرعان ما أدركت بنفسي مدى ما يشتمل عليه حلمي من خيال. على أن هذا الحلم قد هزني هزاً عميقاً مهما تكن مدته قصيرة. فمن الممكن أن يدرك القارئ مدى ما كنت أشعر به من حنق على صديقي حين أراه يصر على حبس نفسه في البيت لا يخرج منه أبداً.

إن جميع أعضاء حلقتنا الصغيرة قد أُبلغوا منذ البداية أن ستيفان تروفيموفتش لن يستطيع أن يستقبل احداً، وأنه يرجوهم أن لا يزعجوه. وقد أصرّ رغم نصائحي على أن يضفي على هذا الإبلاغ شكلاً رسمياً. فطُفتُ على جميع الأصدقاء تنفيذاً لطلبه، شارحاً لكل واحد منهم أن فرفارا بتروفنا قد كلفت شيخنا (فكذلك كنا نلقب ستيفان تروفيموفتش فيما بينا) بعمل مستعجل جداً هو أن يرتب مراسلات لها قديمة تمتد على عدة سنين. لذلك أوصد باب بيته دون جميع الناس إلّا أنا الذي أقوم بمساعدته في هذا العمل. وكان ليبوتين هو الشخص الوحيد الذي لم يتسع وقتي لإبلاغه. فكنت أرجئ زيارتي له من يوم إلى يوم، لأنني كنت أخشى أن أذهب إليه في حقيقة الأمر. كنت أعرف سلفاً أنه لن يصدّق كلمة واحدة مما سوف أذكره له من إيضاحات وشروح، وأنه لن يلبث أن يتصور أن هذه الإيضاحات والشروح تخفي سراً من الأسرار. فما إن أخرج من عنده حتى يمضي يستطلع ويستعلم ويملأ المدينة بالنمائم والأقاويل والشائعات. وفيما كنت أحدّث نفسي بهذا الكلام ذات مرة، إذا أنا ألقاه في الشارع مصادفة. فأدركت أن أصدقاءنا الذين أبلغتهم الأمر كانوا قد أطلعوه عليه. شيء غريب: إنه لم يظهر أي رغبة في

الاطلاع، بل ولا سألني على ستيفان تروفيموفتش، ولكن حين أخذت أعتذر لـه عن تأخـري في إبلاغـه، قاطعنـي وغيّر مجـرى الحديث فـوراً. الحق أن هناك أشـياء كثيرة كان يريد أن يقصها علي، كان يبدو مهتاجاً اهتياجاً شـديداً، وقد سـرّه أعظم السـرور أن عثر على مسـتمع. أطلعني في البداية على أخبار المدينة فحدّثني عن وصول امرأة الحاكم، وعن "مشـاريعه الجديدة" ثم قال لي إنه تشـكّل في النادي حـزب معارضة، وأن الناس فـي كل مكان أصبحوا لا يتحدثـون إلّا عن الأفكار الجديدة التي تسـوء بعض الفئات كثيراً من جهة أخرى، وهلم جرّاً... ظل يتحدث طوال ربع ساعة، وبلغ من الإجادة والبراعة فـي الحديث أنني لـم أسـتطع أن أعزم أمري على مقاطعتـه. لقد كنت أكرهه. ولكـن يجب أن أعترف أنـه يملك موهبة حمل الآخرين علـى الإصغاء إليه، ولا سـيما حين يطلق العنان لغضبه. في رأيي هذا الرجل جاسـوس بطبيعته، بفطرتـه. إنه مطّلع دائماً على آخر الأنباء، وعلى جميع أسـرار مدينتنا، وعلى الحكايات الفاضحة خاصة. وكان الناس يدهشـون حين يرون مدى اهتمامه بأمـور لا تعنيـه في شـيء. لقد خيّـل إليّ دائماً أن السـمة الأساسـية في طبعه هي الحسـد. فلما رويت لستيفان تروفيموفتش في المساء أنني لقين ليبوتين، وقصصت عليه الحديث الذي جرى بيننا اضطرب اضطراباً شـديداً دُهشـت لـه، وألقى عليّ سـؤالاً غريباً. قـال: "ايعلم ليبوتيـن أم لا؟" فحاولت أن أبيّن لـه أن من المسـتحيل أن يعلـم ليبوتين بالأمـر، وأن أحداً لا يمكـن أن يكون قد حدّثه عن مشـروع فرفارا بتروفنا. ولكن سـتيفان تروفيموفتش لـم يصدّق. وختم كلامه قائلاً على نحو غير متوقع:

ـ قـد لا تصدّقنـي، ولكنني مقتنع بأنه ليس مطّلعـاً على "وضعنا" بجميع تفاصيلـه فحسـب، بل هو يعـرف أكثر من ذلك أيضاً، يعرف أشـياء لا نعرفها نحن بعد، لا أنا ولا أنت، وربما لن نعرفها في يوم من الأيام، او نعلم بها حين يكون الأوان قد فات، وحين تكون الجسور قد قُطعت.

لم أقل كلمة واحدة. رغم أن هذه الكلمات كانت زاخرة بالدلالة. وخلال الأيام الخمسـة التي أعقبت ذلك لـم يشـر ايّ إشـارة إلى لوشين. وكنت أرى

رؤيـة واضحـة أن سـتيفان تروفيموفتش نـادم كل الندم على أنـه انجرّف في الكلام فكشف لي عن شكوكه وشبهاته.

2

في ذات صباح، حوالي الساعة الحادية عشرة (كان ذلك بعد قبول ستيفان تروفيموفتـش عـرض فرفارا بتروفنا بسـبعة أيـام أو ثمانية)، بينمـا كنت على عادتي مسرعاً إلى بيت صديقي المسكين، وقعت لي حادثة صغيرة.

لقد لقيت كارمازينوف، "الكاتب الكبير"، كما كان يلقبه ليبوتين. كنت قد قـرأت كارمازينوف منذ طفولتي. إن الجيـل الماضي، وحتى الجيل الحاضر يعرفـان رواياتـه وقصصـه معرفـة جيدة. أمـا أنا فكنـت أجد فيهـا لذتي. لقد كانت فرحـة طفولتي ومراهقتي. ثم فترت حماسـتي بعض الفتور بعد ذلك. إن الروايـة المشـتملة علـى رأي، التي أخذ ينشـرها، تعجبني أقـل مما كانت تعجبني كتبه الأولى الزاخرة بالصدق والشعر. أما كتبه الاخيرة فقد أصبحت لا تهزّ في نفسي شيئاً البتة.

أسـتطيع أن أقـول بوجـه عام ـ مـع أنني لا أجـرؤ أن أفصح عـن رايي في موضوع حرج إلى هذه الدرجة ـ إن جميع هؤلاء الكتّاب الذين هم من كتّاب الطبقـة الثانية والذين يُعدّون أثناء حياتهم عباقرة تقريباً، يغيبون فجأة دون أن يتركـوا أثراً في الذاكرة حين يموتون. لا هذا فحسـب، بل إنهم كثيراً ما يرون أنفسـهم مهجورين منسـيين حتـى أثناء حياتهـم، متى جاء جيـل جديد فحلّ محـلّ الجيل الـذي صنع نجاحه. وهـذا يحدث في بلادنا علـى نحو مفاجئ عجيـب: فكأن الأمر أمر تغير في ديكور المسـرح. لكن الأمور لا تجري هذا المجرى بالنسـبة إلى كتّاب مثل بوشـكين أو جوجول أو موليير أو فولتر، أو سـائر أولئـك الرجال العظمـاء الذين قالـوا أقوالاً جديدة أصيلـة. ويجب أن نقول من جهة أخرى إن كتّاب الطبقة الثانية يسفون في أواخر أيامهم المجيدة إسـفافاً يدعو إلى الرثاء لهم والإشفاق عليهم، ويموتون وهم ما زالوا أحياء. وكثيراً ما يحدث لكاتب ظل الناس ينسبون إليه أفكاراً عميقة منذ مدة طويلة،

وظلوا يعتقدون أنه سيؤثر في المجتمع تأثيراً قوياً، أقول: كثيراً ما يتفق لمثل هذا الكاتب أن ينكشف أمره عن فقر وفراغ يبلغان من القوة أن أحداً لا يأسف بعد ذلك على أنه نضب بتلك السرعة الكبيرة. غير أن هؤلاء الشيوخ الشائبين لا يلاحظون ذلك، ويغضبون. إن غرورهم، ولا سيما في أواخر ايام حياتهم الأدبية يبلغ في بعض الأحيان أبعاداً تدعو إلى أشد الدهشة والاستغراب. فهم يعدّون أنفسهم آلهة على الأقل!

كان يروى عن كارمازينوف أنه يحرص على علاقاته بأصحاب المراكز العالية وبالمجتمع الأرستقراطي حرصاً أشد من حرصه على سلامة روحه. يقال إنه يستقبلك فاتحاً ذراعيه ويمدحك ويتملقك ويفتنك بلطفه وطيبته إذا كان بحاجة إليك أو إذا كان أحد قد أوصاه بك أخيراً. ولكنه ما إن يلتقي أول امير أو أول كونتيسة أو أول شخص يخشى رأيه فيه، حتى يرى أن من أقدس واجباته أن يظهر لك أعمق احتقار وأن يبعدك على الفور كإبعاد قشة أو ذبابة قبل أن يتسع وقتك للابتعاد من تلقاء نفسك. إنه يتصور جادّاً كل الجد أن ذلك برهان على أعظم الامتياز والرقي. وهو رغم قوة إرادته ورغم قدرته على السيطرة على نفسه ورغم اختلاطه بالناس ومعرفته بالبشر، يبلغ من الغرور وحب الظهور في نفسه أنه يستحيل عليه أن يخفي سرعة تأذيه ككاتب، حتى في البيئات التي لا تهتم بالأدب، فإذا اتفق مصادفة أن أظهر له أحد شيئاً من قلة الاكتراث، فإن غيظه يبلغ من الشدة أن يحتفظ بذكرى ذلك إلى الأبد ويبحث عن فرصة للانتقام.

كنت قد قرأت له، منذ عام، مقالة في إحدى المجلات، إنها مقالة تشتمل على ادّعاء وسذاجة في آن واحد، فهو يصطنع فيها مظهر الشاعر ومظهر عالم النفس معاً. كان يصف في هذه المقالة غرق باخرة قرب الساحل الإنكليزي. لقد شهد بنفسه جهود رجال الإنقاذ وموت عدد كبير من ركاب الباخرة غرقاً في الأمواج. ولكن تلك المقالة، وهي مقالة طويلة فيها كثير من الإسهاب والإفاضة، لم يكن لكتابتها من هدف إلّا حمل الناس على الإعجاب بكاتبها، فكأن كل سطر من سطورها يقول لهم: "انظروا إليّ. إليكم ما شعرت به في

تلك اللحظات. ما لكم ولذلك البحر الهائج وتلك الصخور وذلك المركب المحطّم؟ ألم ترسم لكم ريشتي لوحة رائعة؟ ما بالكم تنظرون إلى تلك المرأة الغريق التي تضم بذراعيها طفلاً ميتاً؟ احرى بكم أن تعجبوا بي أنا، أنا الذي لم أستطع احتمال رؤية ذلك المشهد فأشحت عنه. ها أنذا أدير له ظهري وقد استبد الرعب والهول بنفسي، فلا أقوى على إلقاء نظرة إلى وراء، وأغمض عيني... أليس هذا كله شائقاً؟"[1]. حين عبّرت عن انطباعي هذا لستيفان تروفيموفتش وافقني على رأيي.

لما انتشرت في المدينة شائعة وصول كارمازينوف قريباً، شعرت طبعاً بأقوى الرغبة في أن ألقاه وأن أتعرف إليه إذا أمكن ذلك. وكنت أعلم أنني أستطيع التوصل إلى ذلك بفضل ستيفان تروفيموفتش، لأنهما كانا في الماضي صديقين. وها أنذا أراني أمامه فجأة في مفرق طرق، فسرعان ما أتعرفه: كانوا قد دلوني عليه قبل ثلاثة أيام بينما كان ماراً في عربة مع زوجة حاكمنا.

إنه شيخ يتكلف العظمة (على أن عمره لا يزيد على خمسين سنة)، زاهي المحيّا، تحفّ بوجهه عقفات شعر شائبة تخرج من تحت قبعة عالية وتتلفّف حول أذنيه الصغيرتين المتوردتين. إن هذا الوجه الذي عني صاحبه بحلاقته لم يكن على جانب كبير من الجمال بشفتيه الطويلتين الرقيقتين اللتين تنمان عن الحيلة والمكر، وبأنفه البدين وعينيه الصغيرتين النافذتين الذكيتين. وكانت ملابسه تبدو مهترئة. إنه يرتدي نوعاً من معطف خاص ربما كان يرتديه الناس في هذا الفصل بسويسرا بشمال إيطاليا. ولكن جميع ملحقات زينته الصغيرة، كأزرار الأكمام، او الياقة المضافة، أو النظارة المعلقة بشريط أسود، كل ذلك كان كما يكون لدى أناس يعنون بحسن هندامهم أشدّ العناية. إني لعلى يقين من أنه ينتعل في الصيف جزمتين رقيقتين زاه لونهما مع أزرار

---

(1) بين يوري نيكولسكي في كتيب أصدره بعنوان "تورجنيف ودوستويفسكي" في صوفيا سنة 1921، أن دوستويفسكي يحاكي في هذه الصفحة تورجنيف الذي يلح خاصة على مشاعره الخاصة، والذي أشاح وجهه أثناء "تعذيب تروبمان"، توقية لأعصابه.

من عروق اللؤلؤ على جانبيهما.

حين صادفته كان واقفاً في ركن شارع ينظر في ما حوله بانتباه. فلما لاحظ أنني أتأمله بكثير من الاهتمام، سألني بصوت مترفق متكلف لكنه مع ذلك حاد كالصراخ:

ـ من فضلك، ما أقصر طريق للذهاب إلى "شارع الأبقار"؟

فهتفت أجيبه فجأة وقد انفعلت انفعالاً قوياً:

ـ "شارع الأبقار"؟ إنه قريب جداً من هنا. اسلك هذا الشارع مستقيماً حتى الشارع الثاني على اليسار.

ـ أشكرك كثيراً.

لعن الله تلك الدقيقة! أعتقد حقاً أنني كنت وجلاً، وأنني كنت أتأمله كالمتعبد. وسرعان ما لاحظ هو ذلك، وأدرك طبعاً أنني عرفته، وانني أعلم من هو، وأنني قرأت كتبه، وأنني أحترمه منذ طفولتي، وأنني أشعر أمامه بوجل شديد، وأنني أتأمّله بحب يبلغ العبادة. فابتسم، وحيّاني بحركة من رأسه، وسلك الشارع الذي دللته عليه.

لا ادري لماذا عدت أدراجي لأتبعه. لا أدري لماذا سرت إلى جانبه قرابة عشر خطوات. وها هو ذا يسألني بصوت حاد:

ـ هل في وسعك أن تدلني على أقرب محطة للعربات؟

ياله من صوت مزعج!

ـ محطة عربات؟ إن اقرب محطة للعربات توجد... قرب الكاتدرائية... والعربات موفورة دائماً في الميدان.

قلت له ذلك وأوشكت أن اسرع لآتيه بعربة. أظن أن هذا ما كان ينتظره مني. ولكنني ثبت إلى صوابي في تلك اللحظة نفسها فلم أتحرك. لكنه لاحظ حركتي التي لم أكد أهم بها، وظل ينظر إليّ مبتسماً ابتسامته السيئة تلك. وعندئذ إنما حدث شيء لن أنساه ما حييت.

لقد سقطت منه، على حين فجأة، حقيبة صغيرة كان يحملها بيده اليسرى. والحق أنها لم تكن حقيبة بمعنى الكلمة، فهي أقرب إلى أن تكون علبة أو قل

محفظة من نوع المحافظ التي كانت تحملها السيدات في الزمان القديم. على أنني لا أدري ماذا كانت تلك الحقيبة على وجه الدقة. ولكنني أعرف أنني أسرعت أهمّ أن أرفعها له عن الأرض فيما يبدو.

إنني على ثقة تامة بأنني لم أرفعها، ولكن لا يمكن للمرء أن لا يدرك معنى الحركة التي قمت بها، لقد استحال علي أن أخفي معنى هذه الحركة. فاحمرّ وجهي كأبله. وسرعان ما استمد ذلك الرجل الماكر من هذه الظروف كل ما كان يمكن أن يستمده منها. قال لي برقّة حين رأى أنني لن أنحني على الأرض لأرفع الحقيبة بنفسي:

ـ لا تزعج نفسك. سأرفعها أنا.

ولكنه رفع الحقيبة كما لو أنه يسبقني إلى ذلك سبقاً، وحيّاني مرة أخرى بإشارة من رأسه، وتابع طريقه وقد تركني مسحوقاً. الخلاصة: لكأنني رفعت له حقيبته فعلاً. ولبثت خمس دقائق أعدّ نفسي مجللاً بالخزي والعار إلى الأبد. لكنني حين وصلت إلى قرب بيت ستيفان تروفيموفتش انفجرت ضاحكاً. لقد بدا لي هذا اللقاء، على حين فجأة، باعثاً على أكبر الضحك، فسرعان ما قررت أن أتّخذ منه موضوع تسلية لصاحبنا، فأقصّ عليه المشهد كله مقلّداً تفاصيله، مسرّياً به عنه.

3

ما كان أشدّ دهشتي حين رأيت ستيفان تروفيموفتش في هذه المرة متغيراً كل التغير. صحيح أنه ما إن رآني حتى أسرع إليّ بنوع من النهم، وأخذ يصغي إليّ. ولكنه كان زائغ النظرة شارد الفكر بحيث كان واضحاً أنه لم يفهم ما كنت أقوله له. ومع ذلك فما كدت انطق باسم كارمازينوف حتى غضب فجأة، وصرخ يقول حانقاً:

ـ لا تكلّمني عنه، لا تنطق اسمه. خذ. انظر. اقرأ هذا.

قال ذلك وهو يفتح درجاً ويلقي على المائدة ثلاث قطع من ورق هي ثلاث رسائل من فرفارا بتروفنا كتبتها على عجل بالقلم الرصاص كيفما

اتفق. فأما الأولى فهي من أمس الأول، وأما الثانية فقد وصلت أمس، وأما الثالثة فقد جيء بها قبل وصولي بساعة. والرسائل الثلاث كلها تتكلم عن كارمازينوف. إنها خالية من أي قيمة وشأن، وهي تكشف عن القلق السخيف الطموح الذي تعانيه فرفارا بتروفنا خائفة أن لا يزورها كارمازينوف. وإليكم نص الرسالة الأولى (ولعل رسائل أخرى كانت قد سبقتها).

"إذا تنازل أخيراً فزارك اليوم فلا تقل عني كلمة واحدة، أرجوك. لا تُشر إليّ أية إشارة. لا تأتِ على ذكري. لاتذكّره بوجودي."

"فرفارا ستفروجين"

وتقول رسالة الأمس ما يلي:

"إذا صح عزمه أخيراً على أن يزورك هذا الصباح، فالأكرم في رأيي أن لا تستقبله. تلك هي وجهة نظري. لا أدري ما رأيك أنت".

"فرفارا ستفروجين"

وهذا نص الرسالة الأخيرة:

"أنا واثقة بأن بيتك مليء بالغبار والتراب الآن، وأن دخان التبغ يجعل الهواء فاسداً يستحيل استنشاقه. سوف أرسل إليك ماريا وفوما. فيُرتّب كل شيء بعد نصف ساعة. لا تزعجهما، اذهب إلى المطبخ إلى أن تنهيا عملهما. أبعث إليك بسجادة من بخارى، وبإناءين من الخزف الصيني. كنت أنتوي إهداء هذه الأشياء إليك منذ مدة طويلة. وأبعث إليك غدا لوحة تينييه[1] (إلى وقت محدود). أما الإناءان ففي وسعك أن تضعهما على النافذة، وأما لوحة تينييه فعلّقها على يمين صورة جوته. فهناك تبرز، لأن الضوء في هذا المكان يكون ساطعاً على الدوام في الصباح. فإذا جاءك أخيراً فأحسن استقباله وأكرم وفادته وعامله بتهذيب مرهف، ولكن حاول أن لا تتكلم إلّا في أمور تافهة، في موضوع علمي مثلاً، وتصرف تصرفاً عادياً فكأنكما

(1) "لوحة تينييه": كانت لوحات دانيل تينييه (1690ـ1610) مقدرة تقديراً عظيماً في ذلك في الأوان بروسيا، كسائر آثار المدرسة الفلمنكية على كل حال.

لـم تفترقا إلّا أمـس. لا تقل كلمة واحدة عني. قد أجـيء إليك لحظة في هذا المساء"

"فرفارا ستفروجين"

"حاشية: إذا لم يجئ اليوم، فلن يجيء أبداً"

أذهلتني قراءة هذه الرسائل: لم أستطع أن أفهم كيف يصير في حالة كهذه الحالة لأمور تافهة هذه التفاهة كلها. ولكن حين رفعت إليه نظرة مستفهمة، لاحظـت أنه انتهز فرصة انشـغالي بالقـراءة فأبدل ربطة عنقـه العادية البيضاء بربطة حمـراء. وكانت قبعته وعصـاه موضوعتين على المائـدة. وكانت يداه ترتجفان، وكان وجهه شديد الشحوب والاصفرار.

صاح يقول خارجاً عن طوره، ردّاً على نظرة الدهشة التي رآها في عيني:

- لا يهمنـي قلقهـا هـذا كله البتـة! "إنني لا أعبأ بـه إطلاقاً" (بالفرنسـية). تتجاسـر أن تضطـرب مـن أجـل كارمازينوف بينمـا لا ترد على رسـائلي أنا. هـذه رسـالة أعادتهـا إلـي دون أن تفضهـا. إليك الرسـالة. هي علـى المائدة تحـت هذا الكتاب، تحت كتـاب "الرجل الذي يضحـك".[1] ليس يعنيني أن تتعذب من أجل نيقو.. لنكا. "أنا لا أبالي بهذا كله، وأطالب بحريتي! ليذهب كارمازينوف إلى الشـيطان! لتذهب لمبكه إلى الشـيطان!" (بالفرنسـية). لقد خبـأت إنائيهـا فـي حجرة المدخـل، ودسّسـت لوحـة تينييه فـي الصندوق، وطالبت بأن تسـتقبلني فوراً. هل سمعت؟ طالبت باستقبالي مطالبة. أرسلت إليهـا مع ناستاسـيا ورقة صغيرة علـى عادتها هي، وكتبـت بالقلم الرصاص، ولـم أضـع الورقـة في ظرف. وأنـا الآن أنتظـر. أريـد أن تعلن داريـا بافلوفنا رغبتها بلسـانها هي، أمام السـماء، أو بحضورك على الأقل. "سوف تدعمني أنت، صديقاً وشـاهداً، أليس كذلك؟" (بالفرنسية). لا أريد أن أشعر بخجل، لا أريـد أكاذيب، لا أريد أسـراراً. لن أقبل أسـراراً في هـذه القضية! يجب أن

(1) "الرجل الذي يضحك": رواية فكتور هوجو التي ظهرت سنة 1869. وكان دوستويفسكي يحب روايات فكتور هوجو كثيراً.

يُعترف لي بكل شيء، بصراحة، ببساطة، بنبل... وعندئذ... عندئذ قد أدهش الجيل كله بشهامتي، بعظمة نفسي!... أأنا جرو يا سيد؟

بهذا السؤال ختم كلامه وهو يرشقني بنظرة تهديد، كأنني أنا الذي أعدّه جرواً.

ألححت عليه أن يشرب قليلاً من الماء. إنني لم أره في مثل هذه الحالة قبل ذلك قط. كان وهو يتكلم يركض من طرف من الغرفة إلى طرفها الآخر. ولكنه تسمّر أمامي فجأة على وضع فيه غطرسة، وقال وهو يشملني من القدمين إلى الرأس:

ـ هل تظن حقاً، هل تستطيع أن تفترض أنني، أنا ستيفان تروفيموفتش، لن أملك من القوة النفسية ما يمكّنني من أن أحمل كيسي، كيس التسول، وأن أضعه على كتفي، وأن أعبر الباب، منصرفاً إلى الأبد، إذا كان الشرف ومبدأ الحرية العظيم هما اللذان يقتضيان ضلك؟ ليست هذه أول مرة يحدث فيها لستيفان فرخوفنسكي أن يقاوم الطغيان بعزة النفس، ولو كان هذا الطغيان طغيان امرأة لا إحساس لها، أي أشد أنواع الطغيان والاستبداد إهانة وقسوة على وجه هذه الأرض. أظن أيها السيد أنك سمحت لنفسك منذ برهة أن تبتسم! آه... إنك لا تصدّق أنني قادر على أن أجد في نفسي قدراً كافياً من القوة الروحية لأمضي أيامي لدى تاجر من التجار معلّماً لأولاده، أو أهلك جوعاً تحت سياج من الأسيجة. أجبني، أجبني فوراً: أأنت تصدّق هذا أم لا تصدّقه؟

لزمت الصمت. حتى لقد تظاهرت بالتردد كأنني أخشى أن أجرح شعوره بجواب بالنفي مع عجزي عن أن أعزم أمري على أن أجيبه بنعم. لقد كان في وضعه الحانق الساخط شيء يؤذي كرامتي، لا من الناحية الشخصية، لا، لا... لكنني سأشرح شعوري فيما بعد.

اصفرّ وجهه. ثم قال بلهجة الصقيع تلك التي تسبق في العادة انفجاراً رهيباً:

ـ لعلك تعبت مني يا "جـ... فـ" (ذلك هو اسمي)، فأصبحت تريد أن لا تأتي إليّ.

فنهضت فجأة وقد انتابني ذعر شديد. ولكن في تلك اللحظة نفسها دخلت ناستاسيا، ومدّت إلى ستيفان تروفيموفتش، دون أن تقول كلمة واحدة، مدّت إليه ورقة هي رسالة مكتوبة بالقلم الرصاص. فألقى على الرسالة نظرة. ورشقها إلي من فوق المائدة: كانت الورقة لا تضم إلّا هذه الكلمات بخط فرفارا بتروفنا: "ابقَ في البيت".

تناول ستيفان تروفيموفتش عصاه وقبعته دون أن ينطق بحرف. وخرج من الغرفة مسرعاً، فتبعته آلياً. ودوت في الدهليز على حين فجأة اصوات وضجات. فتوقف ستيفان تروفيموفتش كأن صاعقة قد نزلت عليه. وقال هامساً وهو يمسك ذراعي:

ـ هذا ليبوتين. لقد هلكت.

وفي تلك اللحظة نفسها دخل ليبوتين الغرفة.

4

أما كيف يمكن أن "تهلكه" زيارة ليبوتين، فهذا ما أجهله. والحق أنني لم أقم وزناً كبيراً لهذه العبارة التي نسبتها إلى اضطراب أعصابه. غير أن رعبه كان غريباً، فآليت على نفسي أن ألاحظه عن كثب.

إن مجرد مظهر ليبوتين، حين دخل، كان يدل دلالة واضحة على أن من حقه فى هذه المرة أن يلج المنزل رغم جميع الأوامر. وكان في صحبته سيد لا أعرفه، لعله وصل إلى مدينتنا منذ مدة قصيرة.

رد ليبوتين على النظرة المبهوتة التي رآها في ستيفان تروفيموفتش بأن صاح على الفور قائلاً:

ـ جئتك بزائر، زائر فذ. أبحت لنفسي أن أعكّر عليك صفو عزلتك. السيد كيريلوف، مهندس مدني مرموق. وهو يعرف ابنك خاصة، ابنك المحترم جداً بطرس ستيفانوفتش. إنه يعرفه معرفة حميمة وهو مكلف بإبلاغك رسالة منه. لقد وصل منذ قليل.

قال الزائر يخاطب ليبوتين بلهجة جافة:

ـ أما فيما يتعلق بالرسـالة فأنت الذي أضفت هذا. ليس هناك أية رسـالة. لكنني أعرف فرخوفنسكي فعلاً. لقد تركته في مقاطعة س... منذ عشرة أيام.

مـد إليه سـتيفان تروفيموفتش يـده آلياً، وأومأ إلى مقعد يسـأله أن يجلس عليـه. ثم نظر إليّ، ونظـر إلى ليبوتين، وكأنما ثاب إلى رشـده فجأة، فإذا هو يسارع إلى الجلوس هو أيضاً، دون أن يلاحظ أنه مايزال حاملاً عصاه وقبعته بيده.

ـ ها... كنت تتأهب للخروج! ولكن قيل لي أن صحتك متوعكة من فرط العمل.

ـ نعم، إنني مريض قليلاً. وكنت أريد أن أخرج للنزهة... إنني...

وانقطـع سـتيفان تروفيموفتـش عـن الـكلام فجأة، وأسـرع يرمـي عصاه وقبعته، واحمرّ وجهه.

وكنت أراقب الزائر في أثناء ذلك. إنه شـاب في نحو السـابعة والعشـرين من العمر، حسن الهندام، أسمر، نحيل، ممشوق. وجهه شاحب أغبر، وعيناه سـوداوان كابيتان، وهو حالـم الهيئة ذاهل، كلامه موجز مقطّع، لا يهمه كثيراً أن يلتـزم قواعـد النحو، فهو يبدل ترتيـب الكلمات في الجملـة ترتيباً غريباً. ومتى كان عليه أن ينطق جملة طويلة بعض الطول، رأيته يرتبك.

لاحظ ليبوتين، بوضوح كامل، الاضطراب الشـديد الذي اعترى سـتيفان تروفيموفتـش، وكان واضحـاً أنه سُـرّ به سـروراً عظيمـاً، واغتبط لـه اغتباطاً كبيـراً. وقد جلس على كرسـي من قش جرّه إلى وسـط الغرفـة تقريباً ليكون علـى مسـافة واحدة مـن صاحب البيـن والزائـر. وكان هذان قد جلسـا على ديوانين يقابل أحدهما الآخر. إن عينيه النافذتين الثاقبتين تتحركان إلى جميع الجهات تفتشان كل ركن من الأركان بفضول شديد.

قال ستيفان تروفيموفتش بجهد شاق:

ـ منذ زمن طويل... لم أر بتروشا... هل لقيته في الخارج؟

ـ هنا وفي الخارج.

تدخل ليبوتين في الكلام فقال:

ـ إن أليكس نيلتش يعود الآن من الخارج بعد غياب دام أربع سنين. لقد سافر من أجل أن يعمّق اختصاصه الهندسي، وهو يعود آملاً ـ وهذا أمل في محله ـ أن يشارك في بناء الجسر الذي ننوي بناءه لسكتنا الحديدية. وقد عرف آل دروزدوف، ولا سيما ليزافتا نيقولايفنا، بواسطة بطرس ستيفانوفتش.

كان المهندس جالساً، متجهم الهيئة، يصغي بنوع من الضيق والتبرم والتململ. كان يبدو عليه أنه غاضب من شيء ما.

ـ وهو يعرف أيضاً نيقولاي فسيفولودوفتش.

قال ستيفان تروفيموفتش سائلاً:

ـ حقاً؟

ـ نعم أعرفه أيضاً.

ـ منذ زمن طويل... طويل جداً... لم أر بتروشا... وفي اعتقادي أنني لا أستحق كثيراً اسم الأب... "وهذه هي الكلمة" (بالفرنسية)... على أي حال تركته؟

أجاب كيريلوف متململاً وهو يرغب رغبةً واضحة في إنهاء الحديث:

ـ سوف يجيء بنفسه قريباً.

إن كيريلوف زعلان حتماً.

ـ آ... سيجيء قريباً! آه... أخيراً.. إنني منذ مدة طويلة جداً لم أر بتروشا.

كذلك كرر ستيفان تروفيموفتش عاجزاً عن الخروج من هذه الجملة. ثم أضاف يقول:

ـ إنني أنتظر ابني المسكين.. الذي أشعر نحوه.. نعم... أشعر نحوه بأنني آثم في حقه كثيراً. أقصد... حين تركته ببطرسبرج، كنت... الخلاصة: كنت أعده تافهاً لا قيمة له البتة... "شيء من هذا القبيل" (بالفرنسية). كان طفلاً عصبياً جداً، حساساً، خوّافاً. كان قبل أن ينام يصلي ساجداً أمام الأيقونة، ويرسم إشارة الصليب على وسادته، مخافة أن يموت فى الليل. "أذكر هذا" (بالفرنسية). لم يكن يملك أي إحساس بالجمال، بالروعة، لم تكن نفسه تضم أية بذرة لفكرة عظيمة ما... "كان كأبله صغير" (بالفرنسية). ولكن يخيل

إليّ أنني أرتبك وأخلط... معذرة... لقد فاجأتموني في اللحظة التي...

سأله المهندس مهتماً على حين فجأة:

ـ كان يرسم إشارة الصليب على وسادته حقاً؟

ـ نعم.

ـ أردت أن أستعلم أكمل.

نظر ستيفان تروفيموفتش إلى ليبوتين سائلاً. ثم قال:

ـ أشكر لك زيارتك كثيراً، ولكنني في هذه اللحظة لست في حالة يمكنني فيها أن... ولكن هل تأذن لي بمعرفة عنوانك؟

ـ شارع أبيفانيا، عمارة فيليبوف.

قلت على غير إرادة مني:

ـ آ... وهناك أيضاً يسكن شاتوف.

فهتف ليبوتين يقول:

ـ تماماً. في العمارة نفسها. شاتوف يشغل الطابق الصغير الأوسط. أما السيد كيريلوف فقد أقام تحت، عند الكابتن لبيادكين. إنه يعرف شاتوف أيضاً، ويعرف زوجته. عرفها في الخارج عن كثب.

صاح ستيفان تروفيموفتش يسأل منقاداً لعاطفته:

ـ كيف! (بالفرنسية)... إذن أنت تعرف شيئاً عن ذلك الزواج التعيس الذي وقع فيه "هذا الصديق المسكين" (بالفرنسية)! إنك أول واحد بين أصحابنا يعرف هذه المرأة شخصياً، فلو...

فقال المهندس جازماً قاطعاً وقد احمرّ احمراراً شديداً:

ـ ما هذه السخافة يا ليبوتين؟ لماذا تضخّم دائماً ما يقال لك؟ أنا لا أعرف زوجة شاتوف أبداً، لم أرها إلّا مرة واحدة، وقد رأيتها من بُعد لا من قرب. أما شاتوف فأعرفه. لماذا توشّي الكلام دائماً؟

واضطرب على ديوانه، وتناول قبعته، ثم ردّها إلى مكانها، حتى إذا عاد يجلس أخذ يحدّق إلى ستيفان تروفيوفتش بنوع من التحدي يسطع في عينيه السوداوين اللتين اشتعلتا فجأة. لم أستطع أن أفهم سبب حنقه.

أجاب ستيفان تروفيموفتش يقول بلهجة ذات دلالة:

- معذرة. لعل الأمر حساس جداً...

- بتاتـاً. ولكـن هـذا مخجل حقاً! إنني لـم أتجه بكلامي إليـك حين قلت "ما هذه السـخافة"؟ وإنما توجهت بكلامي إلى ليبوتين. لماذا يبالغ دائماً؟ إذا كنت ظننت أنك كنت المقصود بصيحتي، فمعذرة! إنني أعرف شـاتوف، ولكنني لا أعرف زوجته البتة... البتة!...

- فهمـت، فهمت. ولئـن ألححت، فلأنني أحب كثيـراً صديقنا، "صديقنا النزق" (بالفرنسية)، وقد اهتممت دائماً بـ... في رأيي أن هذا الرجل قد غيّر، بشيء من المباغتة والمفاجأة، أفكاره السابقة التي قد تكون فتية كثيراً ولكنها مع ذلك صادقة صحيحة. وهو ينطق الآن بأقوال شاذة عن "روسيا المقدسة" (بالفرنسـية)... أقـوال تبلغ من الغرابة أنني أصبحـت منذ مدة طويلة لا أعزو هـذا التغير في بنية جسـمه - هذا هـو التعبير الذيْ لا تعبير سـواه - إلى الأزمة التـي طرأت على حياتـه العائلية، أو قل الأزمة التي أصابـت زواجه التعيس. أنا الذي أعرف بلدي روسـيا كما أعرف أصابع يدي، والذي وهبت للشـعب الروسي حياتي كلها، أستطيع أن أؤكد لك أنه لا يعرف الشعب الروسي، وأنه عدا ذلك...

قال المهندس مقاطعاً وهو يتحرك على ديوانه من جديد:

- أنا أيضاً لا أعرف الشعب الروسي... ليس في وقتي متسع لدراسته...

فلم يحر ستيفان تروفيموفتش جواباً، وانقطعت سلسلة حديثه.

قال ليبوتين مقاطعاً:

- بلى! إنه يدرسـه، أؤكد لك أنه يدرس الشـعب الروسـي. حتى إنه يهيء مقالـة شـائقة جداً عـن تزايد عـدد الانتحارات في روسـيا، وبوجـه عام، عن الأسباب التي تسهل أو تقلل عدد الانتحارات. وقد وصل إلى نتائج باهرة.

احتد كيريلوف، وهمهم يقول غاضباً:

- ليس من حقكَ أن تقول هذا. أنا لا أهيّئ مقالة، ولا تخطر ببالي سـخافة من هذه السـخافات. وإنما أنا حدثتك في هـذا الموضوع عرضاً. ليس الأمر

أمر مقالة...أنا لا أنشر شيئاً... ليس من حقك أن تقول هذا الكلام.

سرّ ليبوتين سروراً كبيراً واضحاً كل الوضوح. وقال:

- معذرة. لعلني أخطأت حين أسميت عملك الأدبي مقالة. إنه يكتفي بجمع ملاحظات، ولا يمس جوهر المسألة، أعني جانبها الأخلاقي إن صح التعبير. حتى إنه ينكر الأخلاق إنكاراً تاماً، وهو من أنصار المبدأ الجديد القائل بالتدمير الشامل في سبيل تحقيق الانتصار الكامل للأفكار السليمة. إنه يطالب بقطع أكثر من مائة مليون رأس لإقامة النظام الصحيح في أوروبا، وهو في هذا يتجاوز ما طُلب في مؤتمر السلام الذي عُقد أخيراً[1]. إن ألكسي نيلتش قد مضى في هذا المضمار إلى أبعد مما مضى إليه أي إنسان آخر.

كان المهندس يصغي وهو يبتسم ابتسامة صفراء فيها احتقار. ولزمنا الصمت جميعاً خلال لحظات.

واستأنف كيريلوف كلامه أخيراً، فقال بشيء من الرصانة:

- هذا كله غباء يا ليبوتين. إذا كنت قد رويت لك بعض الأمور عرضاً فاستوليت عليها، فأنت حر في ما تفعل. ولكن ليس من حقك أن... لأنني لا أقول لأحد شيئاً في يوم من الأيام. إنني أحتقر الكلام... إذا كان للمرء اقتناعات، فالأمر يكون واضحاً. حماقة ما فعلت... أنا لا أناقش في مسائل هي عندي محلولة. إنني أكره المناقشة، ولا أجادل أبداً.

لم يستطع ستيفان تروفيموفتش إلّا أن يقول له:

- ولعلك تحسن بهذا صنعاً.

تابع المهندس كلامه يقول بنوع من الإصرار:

- إنني أعتذر أمامك، ولكنني لا أحقد على أحد هنا. أنا لم ألق إلّا قليلاً من الناس. خلال أربع سنين لم أتكلم، لم أتكلم إلّا قليلاً جداً. كنت أحاول

---

(1) "مؤتمر السلام..." هو مؤتمر "عصبة السلام والحرية" الذي عقد في جنيف سنة 1867 وحضره دوستويفسكي، فسمع خطب غاريبالدي وفكتور هوجو وهرتسن وباكونين. وإن أفكار باكونين الفوضوية هي التي يقصدها المؤلف هنا حين يذكر أن المؤتمر قد غيب آماله. لقد كتب دوستويفسكي إلى س. إيفانوفنا يقول لها في 11 تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1867: "بدؤوا بأن قالوا أنه لا بد من استئصال المسيحية للحصول على السلام في العالم. وفي رأيهم أنه متى انعدم كل شيء فإن السلام يولد".

أن لا أقابل أحداً... نعم... خلال أربع سنين. لست سريع التأذي، لكن عدم تحرّجه يزعجني.

وختم كلامه فجأة وهو يلقي علينا جميعاً نظرة واثقة، قائلاً:

ـ إذا كنت لا أعرض عليكم أفكاري وآرائي، فليس ذلك خوفاً من أن تشوا بي إلى الحكومة، أبداً. لا يذهبن بكم الظن إلى شيء من هذا، أرجوكم.

لم يجبه أحد منا عن هذه الكلمات. واكتفينا بأن تبادلنا نظرة سريعة. ليبوتين نفسه نسي أن يضحك ساخراً.

قال ستيفان تروفيموفتش بلهجة ثابتة وهو ينهض عن ديوانه:

ـ أنا آسف جداً أيها السادة، ولكنني أشعر بأنني مريض. معذرة. فهتف السيد كيريلوف يقول وهو يتناول قبعته:

ـ آ... معنى هذا أن علينا أن ننصرف. أحسنت إذ قلت لي هذا. فأنا كثير النسيان.

قال ذلك ونهض فاقترب من ستيفان تروفيموفتش ومدّ إليه يده بحركة طلقة. وأضاف يقول:

ـ يؤسفني أنك مريض، وأنني جئتك وأنت على هذه الحال...

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يصافحه هاشاً باشاً، على مهل بدون تعجل:

ـ أتمنى لك كل النجاح عندنا. إنني أفهم أن تنظر إلينا، نحن الروس الحقيقيين، بشيء من الدهشة، بعد أن عشت في الخارج مدة طويلة كما تقول، معتزلاً الناس، دون أن تفكر في روسيا. ومن الطبيعي جداً أن نحس نحن تجاهك هذا الإحساس نفسه. "ولكن ذلك سينقضي" (بالفرنسية). ليس هناك إلّا شيء واحد يضايقني: إنك تريد أن تساهم في بناء جسرنا، وتعلن في الوقت نفسه أنك من أنصار التدمير الشامل. فلن يعهدوا إليك ببناء جسرنا.

صاح كيريلوف يقول مشدوهاً:

ـ ماذا؟ ماذا قلت؟

وانفجر يطلق ضحكة مرحة صريحة على حين فجأة. لقد اتخذ وجهه

تعبيراً طفولياً رأيته مناسباً له أروع مناسبة. وكان ليبوتين يفرك يديه مفتتناً بمزحة ستيفان تروفيموفتش. أما انا فلم أنقطع عن التساؤل لماذا خاف ستيفان تروفيموفتش من ليبوتين ذلك الخوف كله، ولماذا صاح يقول حين رآه: "لقد هلكت".

5

كنا واقفين جميعاً على عتبة الباب. إنها اللحظة التي يتبادل فيها الزائرون والمودّعون كلمات سريعة فيها كل الملاطفة والتودّد قبل أن يفترقوا مسرورين.

وفجأة قال ليبوتين، بإهمال، وهو يهم أن يخرج:

ـ إذا كان اليوم متجهماً فلأنه تشاجر مع الكابتن لبيادكين بسبب أخت الكابتن. إن الكابتن لبيادكين يجلد بالسوط كل يوم، مساء وصباحاً، أخته الفاتنة المجنونة (ناجايكا). حتى لقد قرر ألكسي نيلتش أن ينتقل إلى جناح بقرب المنزل كي لا يشهد مناظر التعذيب هذه. هيا! إلى اللقاء!

صاح ستيفان تروفيموفتش يسأل كأنما تلقى هو نفسه جلدة سوط.

ـ أخته؟ مجنونة؟ يجلدها بسوط؟ أي أخت؟ أي لبيادكين؟

وعاد الرّعب يستولي عليه من جديد.

قال ليبوتين:

ـ لبيادكين؟ لبيادكين؟ كابتن محال على التقاعد. وكان في الماضي يقول إنه كابتن مساعد...

ـ ما شأني ورتبته؟ من هي أخته هذه؟ يا إلهي!... أتقول لبيادكين؟ ولكن لقد كان عندنا هنا في الماضي رجل يقال له لبيادكين، أليس كذلك؟

ـ هو ذاته. هو "صاحبنا" لبيادكين نفسه. هل تتذكر، عند فرجنسكي؟

ـ ولكن لبيادكين ذاك قد سرّب أوراقاً نقدية مزوّرة، أليس كذلك؟

ـ رجع. رجع منذ ثلاثة اسابيع، في ظروف خاصة جداً.

ـ ولكنه وغد حقير.

ـ وهل من المستحيل أن يوجد في مدينتنا وغد؟

قال ليبوتين ذلك مبتسماً، وكانت عيناه الصغيرتان الماكرتان كأنما تجسّان ستيفان تروفيموفتش.

ـ ليس هذا ما أردت أن أقوله، يا رب! فيما يتعلق بالأوغاد أنا متفق معك كل الاتفاق، متفق معك أنت. ولكن ماذا بعد؟ ماذا بعد؟ ماذا تريد أن تقول؟ لأن من المحقق أنك لم تتكلم عن لبيادكين بدون نية مبيتة؟

ـ أوه! ذلك كله لا قيمة له!... أغلب الظن أن هذا الكابتن لم يتركنا بسبب الأوراق النقدية المزورة، وإنما ليقبض على أخته التي يقال إنها كانت مختبئة في مكان ما. وقد اقتادها الآن إلى هنا. هذه هي القصّة كلها. ما لي أراك مرتاعاً هذا الارتياع كله يا ستيفان تروفيموفتش؟ على كل حال، انا لا أزيد الآن على أن أكرر ثرثراته وهو سكران. إنه يحفظ لسانه حين لا يشرب. هو إنسان شرس، وفاسد الذوق جداً، رغم أنه يصطنع مظهر عسكري راقٍ. أما أخته فهي مجنونة، وهي فوق هذا عرجاء. يظهر أن أحداً قد أغواها، وأن السيد لبيادكين يتقاضى من الرجل الذي أغواها مبلغاً من المال بانتظام منذ عدة سنين، تعويضاً عن الإساءة التي أُلحقت بشرفه العائلي. ذلك هو، على كل حال، ما يستخرجه المرء من ثرثرته. ولكنني أعتقد ان هذا الكلام كله ليس إلّا أقاويل سكّير. فهو لا يزيد على أن يتباهى. إن الشؤون التي من هذا النوع لا تكلف مبالغ باهظة إلى هذا الحد. ولكن لا شك في أن معه مالاً: فمنذ ستة أسابيع كان حافي القدمين، والآن أرى بعينيّ في يديه أوراقاً نقدية من فئة المائة روبل. إن الأخت تصاب كل يوم تقريباً بنوبات لا ادري ما هي. فهي تطلق صرخات حادة، فيجلدها بالسوط تأديباً، وهو يقول: يجب أن تُعلّم النساء الاحترام. إنني لا أفهم حقاً كيف يحتمل شاتوف هذا الأمر، فيبقى مقيماً في هذا المنزل. لقد ضاق ألكسي نيلتش ذرعاً بعد إقامته ثلاثة أيام فحسب، فانتقل إلى الجناح المجاور هرباً من الضجة. هو يعرفهم منذ كان ببطرسبرج.

قال ستيفان تروفيموفتش يسأل المهندس:

- هل صحيح هذا كله؟

فجمجم كيريلوف يقول غاضباً غضباً شديداً:

- أنت تثرثر كثيراً جداً يا ليبوتين.

صاح ستيفان تروفيموفتش يقول وقد أصبح عاجزاً عن السيطرة على نفسه:

- دائماً أسرار وألغاز! ما هذه الأسرار والألغاز كلها التي تنبجس من حولنا!

قطّب المهندس حاجبيه، واحمرّ وجهه، ورفع منكبيه، واتجه نحو الباب.

قال ليبوتين مضيفاً:

- حتى إن ليبوتين انتزع من بين يديه السوط، ثم حطّمه ورماه من النافذة. لقد تشاجرا تشاجراً قوياً لهذا السبب.

قال ليبوتين وهو يستدير فجأة:

- لماذا تروي هذه الأمور كلها يا ليبوتين؟ ما حاجتك إلى ذلك؟ لماذا؟

- ولماذا أكتم بالتواضع الهزات النبيلة التي قامت في نفسه؟ أقصد تواضعك أنت، لا تواضعي أنا.

- ما أغبى هذا كله! وما أقل جدواه وفائدته! إن لبيادكين غبي وحقير، ولا حيلة لنا في الأمر... بل إنه ضار! لماذا تهذر هذا الهذر كله؟ أنا ذاهب.

هتف ليبوتين يقول وهو يبتسم ابتسامة ساذجة:

- آه... خسارة! كنت أريد أن أسلّيك يا ستيفان تروفيموفتش، بأن أقصّ عليك حكاية أخرى صغيرة. حتى لقد كان هذا هدف زيارتي. ولكن أغلب الظن أنك سمعتها. فإلى المرة القادمة: إن ألكسي نيلتش مستعجل جداً. إلى اللقاء. تلك القصة الصغيرة تتعلق بفرفارا بتروفنا. لقد سلّتني كثيراً أمس. استدعتني خصيصاً. شيء يفطّس من الضحك! إلى اللقاء.

ولكن ستيفان تروفيموفتش لم يشأ عندئذ أن يدعه. فأمسك بكتفيه، وأداره، وأعاده إلى الغرفة، وأجلسه على كرسي. حتى لقد خاف ليبوتين قليلاً.

بدأ ليبوتين يتكلم فقال وهو يلقي على ستيفان تروفيموفتش نظرة محاذرة:

ـ لقد استدعتني ذات يوم، وسألتني أن "أُسرَّ إليها" برأيي في نيقولاي فسيفولودوفتش: أهو سليم العقل أم لا؟ أليس هذا مثيراً للدهشة؟

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول:

ـ أنت مجنون!

ثم إذا هو ينفجر قائلاً:

ـ أنت تعلم جيداً يا ليبوتين أنك لم تجئ إلّا لتقصّ عليّ قصة دنيئة من هذا النوع... أو أسوأ من ذلك...

سرعان ما تذكرت الشبهات القائمة في ذهن ستيفان تروفيموفتش، وهي أن ليبوتين يعرف من أمرنا أكثر مما نعرف، بل ويعرف أموراً لن نعرفها نحن في يوم من الأيام.

جمجم ليبوتين يقول مصطنعاً الرعب:

ـ رحماك يا ستيفان تروفيموفتش. ما هذا الذي تقول؟

ـ كفى! قل كل شيء. أرجوك ملحاً يا كيريلوف أن تعود فتشهد حديثنا. ارجوك! اجلس. والآن ابدأ يا ليبوتين، هيا، وبلا تمهيد!

ـ لو كنت أعلم أن الأمر سيفجؤك إلى هذا الحد، لما قلت شيئاً. لكنني كنت أتخيل أن فرفارا بتروفنا لا بد أن تكون قد أطلعتك على كل شيء.

ـ أنت تعلم تماماً أن لا شيء من هذا البتة. هيا ابدأ!

ـ ولكن اجلس أنت أيضاً، أرجوك. لو بقيت أنا جالساً وبقيت أنت تجري في الغرفة ثائر الأعصاب فسوف أرتبك...

سيطر ستيفان تروفيموفتش على نفسه وجلس برصانة على مقعد. وأطرق المهندس إلى الأرض عابس الوجه. وكان ليبوتين ينظر إليهما بتلذذ كبير.

ـ كيف أتكلم الآن؟ إنني أشعر باضطراب شديد...

6

أمس الأول زارني خادم من عند فرفارا بتروفنا وقال لي: "مولاتي تطلب

منك أن تجيء إليها غداً في الظهر" تخيل هذا! تركت جميع مشاغلي، وفي الظهر كنت أقرع بابها، أُدخلت إلى الصالون. وظهرت هي بعد دقيقة. فأجلستني، وجلست قبالتي. لم أصدّق عينيّ. أنت تعلم كيف كانت تعاملني دائماً. قالت لي: "إنك تتذكر أن نيقولاي فسيفولودوفتش قد ارتكب، منذ أربع سنين، بضعة أعمال غريبة أدهشت جميع الناس، إلى اليوم الذي اتضح فيه كل شيء. إن أحد تلك الأعمال قد تناولك أنت شخصياً. وما إن أبلّ نيقولاي فسيفولودوفتش من مرضه حتى ذهب ليزورك تلبية لرغبتي. وإني لأعلم من جهة أخرى أن أحاديث كثيرة كانت قد جرت بينكما من قبل. فقل لي إذن بصراحة، بصدق كامل، ماذا كان... (هنا اضطربت قليلاً)... ماذا كان رأيك عندئذ في نيقولاي فسيفولودوفتش؟... ماذا قام في ذهنك عندئذ عنه؟... وما رأيك فيه الآن؟...".

هنا اضطربت اضطراباً كاملاً، حتى لقد بلغت من الاضطراب أنها صمتت دقيقة كاملة واحمرّت، وانتابني أنا من ذلك رعب. ثم استأنفت كلامها فقالت بلهجة لا أصفها بأنها مؤثرة (فهذا الوصف لا يناسبها) وإنما أصفها بأنها ذات دلالة. قالت:

"أريد أن تفهمني جيداً، وألا يقوم بيننا أي سوء تفاهم. لقد استدعيتك لأنني أعدّك رجلاً حصيف الرأي ذكياً قادراً على أن ترى الأمور كما هي. وإنك لتدرك أيضاً أن أماً هي التي تتوجّه إليك وتعتمد عليك (انظر إلى هذه الملاطفات والمجاملات!). إن نيقولاي فسيفولودوفتش قد قاسى أثناء حياته من بعض المصائب، وعرفت حياته أنواعاً من الاضطرابات. فمن الجائز أن يكون هذا قد أثّر في حالته النفسية. أنا لا أتحدّث عن الجنون طبعاً. فالأمر لا يمكن أن يكون جنوناً (قالت ذلك بقوة وكبرياء). ولكن لعل فيه شيئاً من الشذوذ في الآراء والتفرّد في الأفكار، لعل له ميلاً غريباً إلى مواجهة الأمور من زاوية خاصة وإلى رؤية الأشياء رؤية فريدة. (هذه هي أقوال فرفارا بتروفنا بألفاظها، ولم يسعني إلّا أن أُدهش يا ستيفان تروفيموفتش من وضوح شروحها!).

وقد لاحظت فيه أنا نفسي اضطراباً مستمراً وميولاً غريبةً. ولكنني أمه، أما أنت فغريب عنه. لذلك أتوسل إليك (نعم، هذا بعينه هو ما قالته: "أتوسل إليك") أن تقول لي الحقيقة كلها دون أي تكلّف. وإذا وعدتني عدا ذلك بأن لا تنسى بأن حديثي إليك سر ما ينبغي أن تبوح به لأحد، كان في وسعك أن تكون على يقين من أنني سأكون مستعدة لأن أبرهن لك على امتناني وشكري متى سنحت المناسبة". فما رأيك؟

قال ستيفان تروفيموفتش مدمدماً:

- إني قد بلغت من الاندهاش أنني لا أصدّقك.

قال ليبوتين وكأنه لم يسمع جملة ستيفان تروفيموفتش:

- لا، ولكن لاحظ مدى الانفعال الذي لا بد أنه كان يهزّ نفسها ومدى التعلق الذي لا بد أنه كان يعذّبها حتى تتنازل فترضى أن توجه سؤالاً كهذا السؤال إلى رجل مثلي، وتتواضع فتقبل أن تطلب السرّ مني أنا. ما معنى هذا؟ أتراها تلقت أنباء جديدة عن نيقولاي فسيفولودوفتش؟

- لا أدري... لا أنباء... إنني لم أرها منذ بضعة أيام.

نطق ستيفان تروفيموفتش بذلك ثم جمجم يقول، وكان واضحاً أنه أصبح في تلك اللحظة عاجزاً عن ترتيب أفكاره:

- ولكنني ألفت نظرك يا ليبوتين... نعم... ألفت نظرك إلى أنها أفضت إليك بهذا سرّاً من الأسرار، ثم ها أنت ذا تقصّه علينا جميعاً...

- نعم، أفضت إليّ سرّاً من الأسرار! ولكن ألا فلينزل عليّ الله صاعقة في هذه اللحظة نفسها إذا كنت قد... أما ما قلته الآن هنا فلا قيمة له. لقد قلته بيننا، وليس ألكسي نيلتش غريباً.

- لا أشاركك رأيك. إن بيننا ثلاثة سيحفظون السر حتماً، لكنني أخشى الرابع وهو أنت. إنني لا أثق بك أية ثقة.

قال ليبوتين:

- ما هذا الذي تقوله؟ إنني أحرص من اي واحد آخر على كتمان السر، لانني وُعدت بأن أُكافأ إلى الأبد. ولكنني في هذه المناسبة أريد أن أشير

لـك إلى واقعة شـائقة إلـى أبعد حد، شـائقة مـن الناحية السـيكولوجية. في مسـاء أمس، وأنـا تحت تأثير الحديث الـذي جرى بيني وبين فرفـارا بتروفنا (تسـتطيع بسـهولة أن تتصور الانطباع الذي خلّفه ذلك الحديث في نفسي)، سـبرت غور ألكسـي نيلتش على نحو خفي قائلاً له: إنك قد عرفت نيقولاي فسيفولودوفتش في الخارج وفي بطرسبرج، فما رايك في ذكائه وفي قدراته؟ فأجابني ألكسي نيلتش بإيجاز: هو رجل مرهف الذكاء سديد الرأي. فسألته: ألم تلاحظ فيه مع ذلك شيئاً من ميل غريب شـاذ في أفكاره، ألم تلاحظ فيه نوعـاً مـن تفكير خـاص، أو قل علـى الجملة ضربـاً من جنـون؟ لقد كررت السؤال التي كانت فرفارا بتروفنا قد ألقته عليّ. فتصوّر! لقد شرد ذهن ألكسي نيلتـش لحظة وقطّـب حاجبيه كما يقطّبهما الآن تماماً، ثـم قال: نعم، لقد بدا لي غريب الأطوار أحياناً. فكّر في نفسه: إذا بدت بعض الأشياء غريبة عجيبة حتى لألكسي نيلتش، فما عسى أن يكون الأمر في الواقع؟

قال ستيفان تروفيموفتش يسأل كيريلوف:

ـ أهذا صحيح؟

فأجاب ألكسي نيلتش فجأة رافعاً رأسه وقد سطعت عيناه:

ـ أفضّـل أن لا أتكلـم في هذا. ليـس لك حق يا ليبوتيـن. لا يجوز لك أن تذكـر هـذه الحادثـة. إنني لـم أعبّر عن رأيـي كلّه ابـداً. لقد عرفـت نيقولاي فسـيفولودوفتش في بطرسـبرج، ولكن منذ زمن بعيد، ورغـم أنني التقيت به الآن من جديد، فإنني لا أعرفه إلّا قليلاً جداً. وإن كلامك كله يشـبه أن يكون نمائم.

رفـع ليبوتين ذراعيه إلى السـماء كأنما يستشـهدها علـى براءته التي طعن فيها صاحبه وقال:

ـ أنـا نمّـام؟ ولمـاذا لا أكـون جاسوسـاً كذلـك؟ سـهل عليـك أن تنتقـد الآخرين يا ألكسـي نيلتش بعد أن سـحبت يدك من الأمـر، وتنصّلت! لعلك لـن تصدّق ما سـأقوله لـك الآن يا سـتيفان تروفيموفتش، ولكن اسـمعه: إن الكابتـن لبيادكيـن ـ وأنـت تعلم أنـه غبي مثـل... لا أجرؤ أن أنطـق بالكلمة

ولكنـك تعرف المثل الروسـي[1] ـ اقـول إن الكابتن لبيادكيـن، رغم أنه يجلّ ذكاء نيقـولاي فسـيفولودوفتش، يرى أن هذا الشـاب قد اعتدى عليه وأسـاء إليـه. وهو يقـول: "هذا الرجـل يذهلني: إنه أفعـوان بـارع كل البراعة" (هذه ألفاظه نفسـها). وها أنا ذا أسـأله (وكنت ما أزال تحت تأثير لقائي مع فرفارا بتروفنـا، بعد حديثي مع نيقولاي نيلتش): "ما رأيك في صاحبك الذي تصفه بأنه أفعوان بارع كل البراعة، أليس مجنوناً؟"، فكأنني بهذا السـؤال قد لسعته بسـوط، فإذا هو يثـب قائلاً "نعم، نعم، ولكن ذلك لا يمكـن أن يؤثر.." "يؤثر فـي ماذا؟ هو لـم يكمل جملته. ثم غرق فـي نوع من أحلام كئيبة مظلمة حتى أن سـكره تبدّد أخيراً. كنا في الحانة عند فيليبوف. وبعد نصف ساعة، ضرب المائـدة بقبضـة يده فجـأة وهتف يقول: "نعـم، جائز جداً أنـه مجنون. ولكن ذلك لا يمكن أن يؤثر...". وصمت مرة أخرى فلم يكمل جملته. لست أنقل إليك طبعاً إلّا الشـيء الأساسـي مـن الحديث الذي جرى بيننـا. ولكن الأمر واضح وضوحاً تاماً: اسـأل مَنْ شـئت من الناس يجيبوك هذا الجواب نفسه، حتـى أولئك الذين لـم يسـبق ان خطرت لهم هـذه الفكرة على بال: "نعم، هو مجنون. إنه ذكي جداً، ولكن من الجائز أيضاً أن يكون مجنوناً".

كان ستيفان تروفيموفتش شارد الذهن يفكر في شيء ما تفكيراً عميقاً.

ـ وكيف علم لبيادكين؟

ـ عن هذا اسـأل أليكسـي نيلتش الذي وصفني منذ هنيهة بأنني جاسوس. أنا جاسـوس، ولكنني لا أعرف شـيئاً، أما ألكسي نيلتش فإنه يعرف كل شيء ويسكت.

أجاب المهندس قائلاً بتلك اللهجة الغاضبة نفسها:

ـ لا أعرف شـيئاً، أو لا أعرف شيئاً ذا بال. إن تسكر لبيادكين لتحمله على أن يثرثر. وقد جئت بي إلى هنا لأتكلم فانت إذن جاسوس.

ـ أنـا لـم أسـقه بعد، ثم إنـه هو وأسـراره كلها لا يسـاويان فـي رأيي ثمن

---

(1) يظهر أن الإشارة هنا إلى مثل روسي ترد فيه ألفاظ قاسية..

الشراب. لا أدري ما قيمة هذه الأسرار عندك، أما عندي أنا فليس لها أية قيمة. بالعكس: إنه هو الذي يبدّد المال الآن، بعد أن كان منذ اثني عشر يوماً يتضرّع إليّ أن أعطيه خمسين كوبكاً. إنه هو الذي يسقيني الآن شمبانيا. ولكنك تلهمني فكرة طيبة: سوف أسكره إذا احتاج الأمر، من أجل أن أعرف الحقيقة. ومن الجائز جداً أن أكتشف حينذاك... جميع أسرارك الصغيرة.

كذلك أجب ليبوتين فجأة بلهجة شرسة.

كان ستيفان تروفيموفتش يتأمل الخصمين متحيراً كل التحير. إنهما يفضحان نفسيهما، وأكثر من ذلك أنهما لا يحاولان حتى إخفاء ذلك. وسرعان ما خطر ببالي أن ليبوتين إنما جاء بكيريلوف هذا لا لشيء إلّا أن يستدرجه إلى حديث مع شخص ثالث فيحمله بذلك على الكلام، وتلك كانت طريقته المفضّلة.

وتابع ليبوتين كلامه في حنق:

ـ إن ألكسي نيلتش يعرف نيقولاي فسيفولودوفتش كل المعرفة، لكنه يخفي ذلك. أما الكابتن لبيادكين فإنني أجيب عن سؤالك بأنه عرف نيقولاي فسيفولودوفتش ببطرسبرج، قبلنا جميعاً بمدة طويلة، منذ خمس سنين أو ست، أثناء تلك الفترة الغامضة من حياة نيقولاي، إن جاز هذا التعبير، أي حين كان نيقولاي لا يخطر بباله أن يشرفنا بزيارته. يجب أن نعتقد ان أميرنا كان في ذلك الحين يحيط نفسه بأناس عجيبين. وفي ذلك الحين، فيما أظن، إنما انعقدت الصلة بينه وبين ألكسي نيلتش.

ـ حذار يا ليبوتين. إنني أنبهك إلى أن نيقولاي فسيفولودوفتش قادم إلى هنا قريباً، وهو رجل يعرف كيف يدافع عن نفسه.

ـ وما شأني أنا؟ إنني أول من يصيح قائلاً في كل مكان إنه من أرهف الناس ذكاء وأكثرهم ثقافة، حتى لقد طمأنت فرفارا بتروفنا تماماً من هذه الناحية، وأضفت أقول لها: "لكنني لا أستطيع أن أجيب بشيء عن طبعه"، ولبيادكين يرى هذا الرأي نفسه. لقد قال لي: "إن طبعه هو ما عانيت منه وكنت ضحيته". آه يا ستيفان تروفيموفتش! سهل عليك ان تتهمني بأنني نمّام وجاسوس بعد

أن استخرجت مني كل شيء بكثير من الاستطلاع والفضول. لقد استطاعت فرفارا بتروفنا أن تضع إصبعها على النقطة الحساسة فقالت: "إنني أتوجه إليك لأن الأمر يهمك شخصياً". نعم، أعتقد أن الأمر يهمني! لا داعي إلى البحث عن بواعث أخرى، ما دام قد أهانني إهانة شخصية اضطررت أن أبلعها أمام المجتمع كله. يبدو لي إذن أنني كنت أهتم لأسباب هامة جداً لا حباً بالنميمة والتقوّل. هو اليوم يصافحك، ثم إذا به في الغد، إذا استبدت به النزوة، يشكر لك حسن ضيافتك وكرمك بأن يصفعك على وجهك أمام مجتمع محترم. وما ذلك كله إلّا لأنه يشعر بسأم وضجر ولا يعرف ماذا يفعل بقواه. على أن الأمر الأساسي عند أمثال هؤلاء الناس إنما هو النساء. إنهم ديكة، يطير أحدهم من واحدة إلى أخرى بأجنحة صغيرة كأجنحة عشّاق الأساطير القديمة. سهل عليك يا ستيفان تروفيموفتش، وأنت عازب قاسي القلب، أن تدافع عن "معاليه" وان تصفني بأنني نمّام. ولكن إذا تزوجت امرأة شابة وجميلة ـ وذلك أمر قد يحدث طبعاً، لأنك ما تزال رجلاً ـ فمن الجائز أن توصد بابك بمزلاج في وجه أميرنا، وأن تقيم حول بيتك أسواراً. سأقول لك بصراحة: إن هذه الآنسة لبيادكين التي تُجلد بالسوط، لو لم تكن مجنونة وعرجاء لاعتقدت أنها كانت ضحية أهواء أميرنا وأن هذه هي الإهانة التي أُلحقت "بالشرف العائلي" للبيادكين، على حد تعبير الكابتن نفسه. صحيح أن الذوق المرهف لدى "معاليه" يتعارض مع هذا الافتراض ولكن... هه.. ما أظن أن هذا أمراً يمكن أن يصدّه! إن جميع الثمار تطيب له متى كان مهيّأ النفس لاقتطافها. أنت تقول إنني أُذيع نمائم كاذبة. فاعلم إذن أن المدينة كلها لا حديث لها الآن إلّا في هذا الموضوع. وأنا أكتفي بأن أسمع وأؤيد. أظن أن التأييد غير محظور!

ـ المدينة كلها تتحدّث في الموضوع؟ في أي موضوع؟

ـ الأصح أن الكابتن لبيادكين هو الذي يعلن ذلك جهاراً نهاراً حين يسكر. ولكن الأمرين واحد. فأي ذنب أرتكب أنا؟ أنا لا أتكلم في الموضوع إلّا بين أصدقاء. ألسنا هنا أصدقاء على كل حال؟

قال ليبوتين ذلك وهو ينظر إلينا ببراءة. وتابع كلامه يقول:

ـ إليـك الأمر: يظهر أن "معاليه" قد استودع بسويسرا آنسة محترمة هي يتيمة يشرّفني أنني أعرفها، استودعها ثلاثمائة روبل طالباً منها أن توصلها إلى الكابتن لبيادكين. ثم عرف لبيادكين بعد فترة من الوقت، عرف من شخص محترم هو أيضاً، جدير بالثقة إذن (ولن أسمّي هذا الشخص) أن المبلغ الذي أُرسل إليه ليس ثلامائة روبل بل ألف روبل. وها هو ذا لبيادكين يمضي يصرخ في كل مكان أنّ الفتاة التي اؤتمنت على المال لتوصله إليه قد سرقت منه سبعمائة روبل، بل ها هو ذا يريد أن يشكو الفتاة إلى الشرطة. وقد هدّدها بذلك على كل حال، واثار فضيحة في المدينة كلها.

صاح المهندس قائلاً وهو ينهض على حين فجأة:

ـ هذه دناءة منك، هذه دناءة!

ـ ولكنك أنت ذلك الشخص المحترم الجدير بالثقة الذي أبلغ لبيادكين، نقلاً عن نيقولاي فسيفولودوفتش أن المبلغ ألف روبل لا ثلاثمائة. إن الكابتن هو الذي قال ذلك في حالة سكر.

ـ هذا خطأ في الفهم... خطأ مؤسف محزن.. لقد وقع خطأ، فنشأ عن ذلك الخطأ أن... على كل حال، لا قيمة لهذا كله. وتلك دناءة منك!...

ـ هذا كله لا قيمة له فعلاً، وأنا حزين لتلك الشائعات كلها ولك أن تقول عن كلامي ما تشاء، أولاً أن فتاة محترمة قد أُقحمت في هذه القضية، وثانياً لأن هذه الفتاة مقتنعة بأن بينها وبين نيقولاي فسيفولودوفتش صلة حميمة. إن "معاليه" لن يتورّع طبعاً عن الإساءة إلى سمعة فتاة نبيلة، أو عن تلطيخ شرف زوجة رجل آخر، كما حدث لي أنا؟ وإذا وقع على رجل ذي نفس سمحة كريمة، فسيرتب أمره بحيث يجعل هذا الرجل يغطي باسمه المحترم خطايا غيره. ذلك بعينه هو ما حدث لي إنني أتكلم عن نفسي...

قال ستيفان تروفيموفتش وهو ينهض عن مقعده شاحباً كل الشحوب:

ـ حذار يا ليبوتين!

وصرخ المهندس يقول مضطرباً:

ـ لا تصدّقـه، لا تصدّقـه! إن أحداً قد أخطـأ، وليس لبيادكين إلّا سـكّيراً! سوف يتضح كل شيء... ولكنني لا أقدر الآن... هذه دناءة... كفى! كفى!...

وأسرع يخرج من الغرفة. فهتف ليبوتين يقول مدهوشاً:

ـ هيه! ماذا تفعل؟ انتظرني! سأصطحبك!

واندفع يركض وراء ألكسي نيلتش.

7

لبث ستيفان تروفيموفتش شارد الذهن لحظة، ثم نظر إليّ، ولكن دون أن يراني إن صح التعبير، ثم تناول قبعته وعصاه وخرج من الغرفة صامتاً. فتبعته كما تبعته منذ برهة. حتى إذا صار عند باب المدخل لاحظ وجودي فقال:

ـ آ.. نعم.. تستطيع أن تكون شاهداً... على "ما حدث" ستصحبني، أليس كذلك؟ (بالفرنسية).

ـ كيـف يا سـتيفان تروفيموفتش؟ أتذهب إلى هناك؟ هـلّا فكرت فيما قد ينجم عن ذلك؟

فتوقف عندئذ، وجمجم مبتسـماً ابتسامة زائغة تثير الشفقة، ابتسامة خزي وعـار، وكمـد ويأس، ولكن فيها مع ذلك نوعاً من حماسـة غريبة فيما تراءى لي. قال:

ـ لا أستطيع أن أتزوج لأغطي "خطايا الغير"...

كنـت أتوقع هـذه الكلمات. هـا هو ذا يفصح لـي أخيراً، بعد أسـبوع من التلميحـات، هـا هـو ذا يكشـف لي عـن فكرتـه الخفيـة التـي أخرجتني عن طوري، فهتفت أقول له:

ـ كيـف يمكـن أن تراودك فكرة تبلغ هذا المبلغ مـن القذارة... وتبلغ هذا المبلغ من الخسـة، أن تراودك انت يا ستيفان فرخوفنسكي، انت الذي تملك كل مـا تملكه مـن ذكاء واضح وقلب طيب! ولقد راودتـك هذه الفكرة حتى قبل زيارة ليبوتين! فكيف يحدث هذا؟ كيف؟

نظر إليّ دون أن ينطق بكلمة وتابع سـيره. ولكنني لم اشـأ أن أتركه. كنت

أريد أن أشهد أمام فرفارا بتروفنا بما جرى. وقد كان يمكن أن أغفر له، بسبب ضعفه الذي يشبه ضعف النساء، لو أن الفكرة التي ساورته قد جاءته من كلام ليبوتين، ولكن كان واضحاً الآن أنه فكر في الأمر قبل زيارة ليبوتين بكثير، فليبوتين لم يزد على أن ثبّت شكوكه وصبّ على النار زيتاً، إنه لم يتردّد عن الاشتباه في الفتاة منذ اليوم الأول، ولم ينسب القرارات المستبدة التي اتخذتها فرفارا بتروفنا إلّا إلى رغبتها في أن تغطي خطايا ابنها الحبيب نيقولاي بزواج محترم يتم بأقصى سرعة. وتمنيت لو يعاقب على هذه الفكرة.

بعد نحو مائة خطوة هتف ستيفان تروفيموفتش يقول وهو يتوقف على حين فجأة:

ـ اللهم يا كريم يا رحيم! أين لي من يهدّئ قلبي ويدخل السكينة إلى نفسي؟

قلت له وأنا أديره إلى الوراء:

ـ لنرجع إلى البيت وسأشرح لك كل شيء.

وهنا رنّ في مسمعنا صوت كالموسيقا، صوت فتيّ مرح ندي طري يقول:

ـ إنه هو! ستيفان تروفيموفتش؟ ألست هو؟

ـ لم نكن قد لاحظنا فتاة على صهوة جواد قد توقفت بالقرب منا. إنها ليزافتا نيقولايفنا مع صاحبها الوفي.

ونادت تقول بفرح:

ـ تعال، تعال، أسرع! عرفته رغم أنني لم أره منذ اثنتي عشرة سنة، وهو... ألم تعرفني حقاً؟

تناول ستيفان تروفيموفتش اليد التي مدّتها إليه الفتاة، وقبّلها باحترام. ونظر إلى الفتاة كالمتعبّد، عاجزاً عن النطق بكلمة واحدة.

قالت:

ـ نعم، عرفني، وهو سعيد. إنه مسرور برؤيتي أعظم السرور يا مافريكي نيقولايفتش. أتكون هنا منذ خمسة عشر يوماً ولا تزورنا؟ كيف هذا؟ كانت عمتي تؤكد لي أنك مريض، وأنه ما يجب إزعاجك. لكنني كنت أعلم أنها

تكـذب. وكنـت أتميّز غيظاً، وأشـتمك، ولكنني كنت أحـرص حرصاً مطلقاً علـى أن تكون أنـت البادئ، على أن تخطـو أنت الخطوة الأولـى. لذلك لم أرسل أحداً في طلبك.

ثم قالت وهي تنحني من على سرجها وتتأمله متفرّسة:

ـ ربـاه! إنه لم يتغير البتة. حتى ليكاد يكـون ذلك مضحكاً. ولكن غضوناً كثيرة توجد مع ذلك حول عينيه وعلى خدّيه، كم أن شـعره قد ابيضّ، غير أن عينيـه ما تزالان على عهدي بهما. وأنا، هل تغيّرت؟ قل لي.. هل تغيرت؟ ما لي أراك صامتاً لا تتكلم؟

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول بصوت كسّره الفرح:

ـ أنـت... لقـد هتفت منـذ لحظة قائـلاً: "أين لي من يهـدئ قلبي ويدخل السـكينة إلى نفسـي؟..." ثم إذا أنا أسـمع صوتك... إنني أعـدّ هذا معجزة، "وبدأت أؤمن" (بالفرنسية).

ـ "باللـه؟ باللـه العلي القديـر الرحيم؟" (بالفرنسـية). أرأيـت كيف أنني ما زلت أحفظ دروسـك عـن ظهر قلب. ليتك تعلم يـا مافريكي نيقولايفتش كـم كان يغرس في نفسـي الإيمان "بالله العلي القدير الرحيم!" (بالفرنسـية) هـل تتذكر أقاصيصـك عن كريسـتوف كولومبس واكتشـاف أمريكا، وكيف صرخـوا جميعـاً يقولـون: "أرض! أرض!"؟ تقـول خادمتي أليونـا فرولوفنا إنـي حلمت في الليلة التاليـة، فكنت أتكلم أثناء النـوم بصوت عال صارخة "أرض! أرض!". وهـل تذكـر كيـف كنـت تقـصّ علـيّ قصـة هاملت؟ ثم كنت تشـرح لي أيضاً كيف كانـوا ينقلون المهاجرين التعسـاء من أوروبا إلى أمريـكا. وكان كلامك غير صحيح. عرفت ذلك فيما بعد. ما كان أحلى كذبه يـا مافريكي نيقولايفتـش! كان كذبه أحسـن من الحقيقة! ما بالـك تتأمل في مافريكي نيقولايفتش هذا التأمل؟ هذا أحسـن إنسان وأوفى إنسان على وجه الأرض، ويجـب عليـك حتماً أن تحبه بقدر ما تحبني. "إنه يفعل كل ما أريد" (بالفرنسـية). ولكـن ها أنت إذن شـقي من جديد يا سـتيفان تروفيموفتش ما دمت قد سمعتك تصيح في الشارع: من لي بمن يهدّئ قلبي ويدخل السكينة إلى نفسي؟ أأنت شقي؟ قل!

ـ أنا الآن سعيد...

ـ عمتي هي التي تعذبك... هذه العمة السيئة، الظالمة، العزيزة مع ذلك! هل تذكر كيف ارتميت بين ذراعي في الحديقة، وكيف واسيتك فيما كنت تبكي؟ لا تتحرّج أمام مافريكي نيقولايفتش! إنه يعرف كل شيء عنك، كل شيء تماماً، منذ مدة طويلة. في وسعك أن تبكي على كتفه ما اشتهى قلبك البكاء، فيبقى واقفاً في مكانه لا يتحرك... ارفع قبعتك قليلاً، بل وانزعها تماماً لحظة وقرّب رأسك، وتطاول على رؤوس الأصابع، لاقبل جبينك كما قبلتك في آخر مرة يوم افترقنا. انظر إلى هذه الآنسة التي تنظر إلينا معجبة من النافذة! هيا! اقترب! أيضاً! رباه! ما اكثر ما ابيضّ شعره!

ومالت من على سرجها فقبّلت جبينه.

ـ والآن، عد إلى البيت! أنا اعرف أين تقيم، وسآتي إليك فوراً، بعد دقيقة. سأكون البادئة بزيارتك أيها العنيد، ثم يكون عليك بعد ذلك أن تأتي إلينا فتقضي عندنا نهاراً بكامله. هيا! استعد لاستقبالي!

ومضت تجري بحصانها بصحبة فارسها جرياً سريعاً. وعدنا إلى البيت.

جلس ستيفان تروفيموفتش على الديوان، وطفق يبكي وهتف يقول:

ـ "يا رب! يا رب! هذه أخيراً دقيقة من سعادة!" (بالفرنسية).

وبعد دقيقتين وصلت بارّة بوعدها، يصحبها مافريكي نيقولايفتش أيضاً.

قال ستيفان تروفيموفتش وهو ينهض لاستقبالها:

ـ "أنت والسعادة تصلان في آن واحد" (بالفرنسية).

قالت:

ـ هذه باقة أزهار لك، أتيتك بها من عند مدام شوفالييه. إن عندها أزهاراً طرية طوال الشتاء لأيام الأعياد وحفلات الميلاد. وهذا مافريكي نيقولايفتش. تعارفا، ارجوكما! خطر ببالي أن آتيك بقرص جاتوه بدلاً من باقة الأزهار، ولكن مافريكي نيقولايفتش يؤكد أن هذا ليس من "الموضة" في روسيا.

إن مافريكي نيقولايفتش، وهو كابتن في المدفعية، يجب أن يكون

فـي نحـو الثالثـة والثلاثين من العمر. رجـل فارع القامة وسـيم مهيب يوحي بالاحترام، في وجهه رصانة تكاد تبدو في النظرة الأولى قسوة. غير أن المرء سـرعان مـا يلاحظ، حين يعرفه، أنـه طيب القلب إلى أقصى حـد، وأنه رقيق الشـعور كل الرقـة. فهـو قليل الكلام، يبدو مسـيطراً على نفسـه، ولا يحاول أن يلتمـس صداقة أحـد. وقد قيل عنه فيما بعد أنه ليـس على جانب كبير من الذكاء، ولكن هذا القول ليس صحيحاً كل الصحة.

لـن أحـاول أن أصف جمـال ليزافتـا نيقولايفنا التـي كانـت المدينة كلها تتكلم عن جمالها، رغم احتجاج بعض سـيداتنا وبعض آنسـاتنا. إن بعضهن يكرهـن ليزافتـا نيقولايفنا منـذ الآن، ويأخذن عليها كبرياءها قبل كل شـيء: آل دروزدوف لمّا يزوروا أحداً بعدُ، تقريباً، فكان الناس في المدينة مسـتائين مـن ذلك، رغم أن هذا التأخر ليس له من سـبب غير سـوء صحة براسـكوفيا إيفانوفنـا. وكنّ يكرهنها أيضاً لأنها قريبة زوجة الحاكم، وكنّ يكرهنها أخيراً لأنهـا تقوم بنزهة على الحصان فـي كل يوم. لم يكن أحد عندنا يرتدي لباس الأمـازون بعد، فـكان طبيعياً أن يغتـاظ مجمتعنا حين يرى ليزافتـا نيقولايفنا تتنـزه على الحصـان، رغم أنها لـم تقـم بزيارات بعـد. وكان معروفاً مع ذلك أن هـذه النزهات إنما نصحهـا بها الأطباء، ولكن الناس كانوا يسـتغلون هذا لإبـداء ملاحظات لاذعـة حول صحّتهـا. والحق أن صحتها لـم تكن جيدة، حتى إن المرء يرى فيها منذ أول نظرة نوعاً من الاضطراب المَرَضي المستمر المتصل. وا حزناه! لقد كانت الصغيرة المسكينة تقاسي كثيراً، وقد اتضح كل شـيء فيما بعد. الآن، حين أسـتحضر ذكريات الماضي، لن أقول إنها جميلة جمـالاً رائعـاً كما بدت لي حينذاك. ولعلها لم تكن جميلـة البتة. إنها طويلة، نحيلـة، ولكنها مرنة قوية، وهي تخطف البصر بما في خطوط وجهها من قلة الاتساق. عيناها تعلوان نحو الصدغين مواربتين. وهي إلى ذلك هزيلة الجسم نائتة الوجنتين، شـاحبة اللون. غير أن في هذا الوجه كذلك شيئاً يخلب اللب ويأسـر القلب، وثمـة قوة عجيبة تنبع مـن عينيها الكحلاويـن، الحارّتين. إذا رآها المرء قال لنفسـه إنها قد اعتادت الفوز حتماً. فهي متكبرة، حتى إنها في

بعض الأحيان متغطرسة. لا أدرى هل كان في وسعها أن تكون طيبة، لكنني أعلم أنها كانت تريد ذلك كثيراً، وكانت تبذل جهوداً هائلة للتوصل إليه. لا شك أنها زاخرة بتطلعات كريمة وإرادات نبيلة، لكنها تحاول أن تهتدي إلى توازنها دون أن تظفر بذاك، وكان كل شيء فيها مضطرباً مشوَّشاً. لعلها كانت تسرف في القسوة على نفسها، ولكنها لا تجد القوة التي تمكنها من تحقيق هذه المطالب.

جلست على الديوان، وأجالت بصرها في الغرفة. ثم قالت:

ـ لماذا أحس دائماً بالحزن في مثل هذه اللحظات؟ اشرح لي هذا وأنت العالم! لقد تخيلت دائماً أنني سأسعد سعادة جنونية حين أراك ثانية فأتذكر كل شيء، ثم ها أنذا أحس أنني لست سعيدة البتة. وإني مع ذلك لأحبك. رباه! لقد علّق صورتي على الحائط. أعطني هذه الصورة! إنني أتذكر! كيف لا؟

إنها صورة ليزا وهي في الثانية عشرة من عمرها، هي صورة رائعة صغيرة مرسومة بالألوان المائية، أرسلها آل دروزدوف إلى ستيفان تروفيموفتش من بطرسبرج. ومنذ ذلك الحين لم تبارح الصورة حائط غرفته.

ـ هل ممكن أنني كنت جميلة هذا الجمال كله في طفولتي؟ أهذا وجهي حقاً؟

قالت ذلك ونهضت حاملة الصورة بيدها، ونظرت إلى نفسها في مرآة. ثم هتفت تقول وهي تمد الصورة إلى ستيفان تروفيموفتش:

ـ خذها. أسرع. ولا تعلقها الآن. علقها فيما بعد. لا أريد أن أراها.

وعادت تجلس على الديوان. ثم تابعت كلامها تقول:

ـ حياة تمضي، وأخرى تبدأ، ثم تمضي الثانية لتحل محلها ثالثة... وهكذا دواليك إلى غير نهاية. النهايات كلها تشبه أن تكون مقطوعة بمقص. هذا كلام معاد مكرر أقوله لك. ولكن ما أصدق ما يعبّر عنه!

ونظرت إلي مبتسمة. وكانت قد رشقتني قبل ذلك بنظرات خاطفة مراراً. ولكن ستيفان تروفيموفتش كان قد نسي، من شدة انفعاله، وعده بأن يقدمني إليها.

قالت:

ـ ولمـاذا تعلق صورتي تحت هذه الخناجر؟ ولمـاذا عندك هذه الخناجر والسيوف كلها؟

لا أدري لمـاذا كان سـتيفان تروفيموفتش قد علّق علـى الحائط خنجرين متصالبيـن عليهمـا سـيف شركسـي، فعـلاً. وحين ألقـت الفتاة هذا السـؤال اتجهت إلي بنظرة مباشرة حتى كدت أجيبها، ولكنني أمسكت. وانتبه ستيفان تروفيموفتش إلى الموقف أخيراً، فقدمني إليها.

قالت:

ـ أعـرف، أعرف.. أنا سـعيدة بمعرفتـك. ماما أيضاً سـمعت كثيراً عنك. تعـرّف إلى مافريكي نيقولايفتش. إنه رجـل ممتاز. لقد قامت في ذهني فكرة مضحكـة عنـك: أنت نجيّ سـتيفان تروفيموفتش ومسـتودع أسـراره، أليس كذلك؟

احمرّ وجهي. فاستدركت تقول:

ـ أوه! سـامحني، أرجـوك. ليسـت هـذه الكلمـة هـي التي كنـت أريد أن أسـتعملها. لا أقصـد: مضحكة، بـل... (واحمرّت واضطربـت).. على كل حال، هل يضيرك أن تكون رجلاً شهماً؟ هيّا يا مافريكي نيقولايفتش! لقد آن لنا أن ننصرف. بعد نصف ساعة يا ستيفان تروفيموفتش يجب أن تكون عندنا. يا إلهي! ما أكثر الأشـياء التي سـنتحدث فيها! سـأكون أنا نجيّتك ومسـتودع أسرارك الآن، وستحكي لي كل شيء. هل فهمت؟ كل شيء (بالفرنسية).

فما إن سمع ستيفان تروفيموفتش هذا الكلام حتى قام بحركة تقهقر على الفور. قالت:

ـ أوه! إن مافريكي نيقولايفتش يعلم كل شيء، فلا تتحرّج أمامه!

ـ ماذا يعلم؟

فصاحت تقول مذهولة:

ـ ولكن ماذا بك؟ آ... حقاً إذن إنهم يجعلون من الأمر سراً! كنت لا أريد أن أصدق. وهم يخفون داشا أيضاً. لقد منعتني عمتي من الدخول على داشا

منذ قليل، بحجة أن داشا تعاني من صداع.

ـ ولكن... ولكن كيف عرفت؟

ـ كما عرف جميع الناس!... ليس هذا بالأمر الصعب!

ـ ولكن هل جميع الناس...؟

ـ كيـف لا؟ ماما عرفته من أليونا فرولوفنا، خادمتي. لقد هرعت خادمتك ناستاسيا تحكي لها كل شيء. أنت الذي حكيت لناستاسيا، أليس كذلك؟ إن ناستاسيا تؤكد أنك أنت الذي قلت لها...

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة:

ـ أنـا... أنا... قلت لها ذات يوم.. ولكنني لمحت تلميحاً لا أكثر... كنت ثائر الأعصاب جداً وكنت مريضاً، ثم...

أخذت الفتاة تضحك.

ـ ثـم إن نجيّـك لم يكن عنـدك، فوجدت أمامك ناستاسـيا، فحكيت لها، وهـي تعرف جميـع نمّامات المدينة. ولكن أي ضير فـي أن يعلم الناس؟ بل إن من الأفضل أن يعلموا. لا تتأخر عن الحضور إلينا. إننا نتعشـى في سـاعة مبكرة.

ثم أضافت تسأله وهي تعود إلى الجلوس:

ـ ها.. نعم.. نسيت. قل لي: مَنْ هو شاتوف؟

ـ شاتوف؟ هو أخو داريا بافلوفنا...

فقاطعته تقول:

ـ أعـرف أنه أخوها. حقاً إنك تفقد الإنسـان صبـره! أنا أريد أن أعرف أي رجل هو؟

ـ "رجل سريع الغضب هو أحسن شرسٍ في الناس كافّة" (بالفرنسية).

ـ نعم سـمعت أنه غريب الأطوار قليلاً. يظهر أنه يعرف ثلاث لغات منها الانجليزية، ويستطيع أن يتولى القيام بأعمال أدبية. وأنا عندي عمل كثير أريد أن أعهد إليه به: إنني في حاجة إلى معاون بمعنى من المعاني، في حاجة إليه بأقصى سرعة ممكنة. هل تقدّر أنه يقبل؟ لقد نُصحتُ به...

ـ آ... طبعاً... حتماً! "وأنت بذلك تسدين صنيعاً حسناً" (بالفرنسية).

ـ ليس الأمر أمر "صنيع حسن" إنني أبحث عن أحد يعاونني.

قلت:

ـ إنني أعرف شاتوف معرفة جيدة، فإن شئت ذهبت إليه في هذا اليوم نفسه.

ـ قل له أن يجيئني غداً، في الظهر. عظيم! أشكرك. مافريكي نيقولا يفتش، أأنت مستعد؟

وانصرفا. وأسرعت أمضي إلى شاتوف على الفور طبعاً.

قال لي ستيفان تروفيموفتش وهو يدركني على درجات المدخل:

ـ ياصديقي، (بالفرنسية)... تعال إليّ حتماً في نحو الساعة العاشرة أو الحادية عشرة، حين أرجع. آه... أنا مذنب كثيراً في حقك!... وفي حق جميع الناس، نعم، في حق الناس كافة.

8

لم يكن شاتوف في البيت. وحين رجعت بعد ساعتين، لم يكن قد عاد. ورجعت مرةً ثالثة في نحو الساعة الثامنة آملاً أن أترك له رسالة إذا وجدت أنه ما يزال غائباً. وفي هذه المرة لم أجده أيضاً. وكان مسكنه مقفلاً بالمفتاح. إن شاتوف يعيش وحيداً، بلا خادم. خطر ببالي أن أقرع باب بيت الكابتن لبيادكين، لأسأل عن شاتوف. ولكن كل شيء في الطابق السفلي كان مغلقاً كذلك. وما من ضجة تُسمع من خلال الباب ولا من ضوء يتسرب من أي مكان. لكأن المنزل خال. وإذ تذكرت ما رواه لنا ليبوتين، شعرت بشيء من حب الاستطلاع والفضول. وقررت أخيراً أن أعود غداً في ساعة مبكرة. ولم تكن تراودني أوهام عن الأثر الذي يمكن أن تحدثه رسالتي: إن شاتوف، العنيد الخجول، قادر على أن لا يوليها أي انتباه، وأن لا يكترث بها البتة.

وفيما كنت أجتاز بوابة العمارة لاعناً إخفاقي، إذا بي أرى نفسي أمام كريلوف. كان عائداً إلى بيته، وقد عرفني قبل أن أعرفه. وجواباً عن أسئلته،

ذكرت له سبب مجيئي، وقلت إنني أود لو أترك لشاتوف رسالة. فقال لي:

ـ تعال معي. سأدبّر الأمر كله.

تذكرت أن كيريلوف، كما قال ليبوتين، كان قد انتقل من مسكنه في هذا الصباح إلى جناح من خشب يقع في فناء المنزل. لقد كانت تسكن في هذا الجناح، وهو أوسع مما يحتاج إليه، امرأة عجوز صماء تقوم على خدمة البيت. أظن أن هذه العجوز قريبةٌ للمالك، قد عهد إليها بحراسة العمارة ومضى يقيم بمنزل جديد ليفتح فيه مطعماً. إن غرف الجناح نظيفة، ولكن ورق جدرانها بدا لي وسخاً. وكانت الغرفة التي دخلناها تضم أثاثاً متنوعاً يحس من يراه أنه اشتُري من دكان لبيع الأثاث العتيق: فهناك مائدتان من موائد اللعب، ومنضدة من خشب الحور، ومائدة كبيرة من خشب أبيض لو وُضعت في كوخ أو في مطبخ لكانت في مكانها، وكراسي وكنبة ذات مسند من قش وعليها وسائد من جلد. ولمحت في ركن من الأركان أيقونة قديمة كانت المرأة العجوز قد أشعلت أمامها قبل دخولنا سراجاً صغيراً. وعلى جدارين من الغرفة عُلّقت صورتان كبيرتان مرسومتان بالزيت، لكن ألوانها قد بهتت على مرّ السنين: فأما الأولى فهي صورة للامبراطور نيقولا الأول، يدل مظهرها على أن تاريخها يرجع إلى بداية حكمه، وأما الثانية فهي تمثل لا أدري أي أسقف.

أشعل كيريلوف شمعة، وأخرج من حقيبته التي لم يكن قد فضّها بعد، ظرفاً وعوداً من شمع الأختام وختماً من كريستال. وقال لي:

ـ اختم رسالتك بالشمع، واكتب عليها الاسم.

فاعترضت قائلاً إن ذلك لا داعي له، ولكنه أصرّ. فلما انتهيت من عملي، تناولت قبعتي لأخرج، فقال لي:

ـ كنت أظن أنك قد تحتسي شيئاً من الشاي. فهل تريد؟ لقد اشتريت شاياً.

فلم أرفض. ولم تلبث العجوز أن جاءت بالشاي، أي بإبريق ضخم ممتلئ ماء بغلي، وإبريق صغير فيه شاي قوي جداً، وفنجانين كبيرين من

خزف مطلي عليه رسوم غليظة، وخبزٍ أبيض قُطّع قطعاً ووضع في صحن عميق.

قال:

ـ أحب الشاي ليلاً. كثيراً. أمشي وأشرب شاياً. حتى الفجر. في الخارج، ليس مناسباً أن يشرب المرء شاياً في الليل.

ـ ألا تنام إلّا في الفجر؟

ـ دائماً. منذ زمن طويل. آكل قليلاً. لا شيء إلّا الشاي. ليبوتين ماكر، لكنه نافذ الصبر.

أدهشني أنه يريد الكلام. وقررت أن أستغل الفرصة.

قلت:

ـ في هذا الصباح، حدث سوء تفاهم مؤلم.

فقطب حاجبيه. ثم قال:

ـ سخافات. سفاسف. ما هذا كله إلّا سفاسف، لأنّ ليبوتين سكير. أنا لم أقل شيئاً لليبوتين. أوضحت له أن ذلك كله ليس له أية قيمة. لكنه اخترع لا يدري إلّا الله ماذا... إن ليبوتين ذو خيال واسع، فهو يبني من الحبة قبة. أمس، كنت أثق به...

قلت ضاحكاً:

ـ واليوم تثق بي أنا.

ـ ولكنك مطلع على كل شيء منذ هذا الصباح. إن ليبوتين ضعيف، أو هو نافذ الصبر... أو خطر... أو حسود...

فجأتني هذه الكلمة الأخيرة. قلت:

ـ لقد ذكرت من العيوب عدداً كبيراً بحيث لا بد أن يَصْدق أحدها عليه.

ـ أو تصدق كلها دفعة واحدة.

ـ نعم، ربما كان هذا صحيحاً كذلك. إن ليبوتين خليط مشوش. هل كذب اليوم حين أكّد أنك تؤلف كتاباً؟

ـ لماذا يكون هذا كذباً؟

بذلك أجابني وهو يعبس من جديد ويخفض عينيه.

فاعتذرت له مؤكداً أنني لم أشأ أن أستدرجه إلى الكلام. فاحمرّ وجهه. وقال:

ـ لقد صدق. إنني أكذب. ولكن ليس لهذا من قيمة.

وصمتنا دقيقة. ثم إذا هو يبتسم تلك الابتسامة الطفولية نفسها التي سبق أن لاحظتها فيه.

ـ فيما يتعلق بالروس، تلك حكاية أخذها من الكتب. إنه هو الذي حدّثني في هذا الموضوع. ولكنه قد أساء الفهم على كل حال. أما أنا فإنني أبحث فقط في الأسباب التي تجعل الناس لا يجرؤون أن يقتلوا أنفسهم. وليس لهذا قيمة.

ـ لا يجرؤون؟ ما هذا الذي تقول؟ هل الانتحارات قليلة إلى هذا الحد من القلّة؟

ـ نعم، قليلة جداً.

ـ أهذا رأيك؟

لم يجب، بل نهض وأخذ يمشي في الغرفة طولاً وعرضاً، شارد الذهن. سألته:

ـ وما الذي يمنع الناس من قتل أنفسهم في رأيك؟

ـ فنظر إليّ ذاهلاً، كأنه يحاول أن يتذكر ما كنا نتكلم فيه. ثم أجاب بقوله:

ـ لا أدري بعدُ على وجه اليقين. غير أن هناك وهمين شائعين يمنعاننا من ذلك.. شيئين لا ثالث لهما، أحدهما صغير جداً، والثاني كبير جداً. ولكن الصغير كبير أيضاً.

ـ فما هو الصغير؟

ـ الألم.

ـ الألم؟ أهو هام إلى هذا الحد... في مثل هذه الحالة؟

ـ نعم، هام جداً. هناك فئتان من الناس: الذين ينتحرون بسبب عذاب كبير، أو ينتحرون غضباً، أو يكونون مجانين، أو ينتحرون لأي سبب آخر..

وهـؤلاء ينتحرون فجأة. وهم لا يخطر الألم ببالهـم كثيراً. ففي دقيقة واحدة ينتهي كل شيء. أما الذين يفكرون، فهؤلاء يحسبون حساب الألـم كثيراً.

ـ هل هناك أناس ينتحرون وهم يفكرون؟

ـ كثيرون. ولولا الأوهام الشائعة، لكانوا أكثر، ولكان عددهم كبيراً جداً، ولكانوا كل الناس.

ـ كل الناس؟ حقاً؟

لـم يجب بكلمة.

ـ ولكن أليس هناك وسيلة للانتحار بدون ألم؟

قال وهو يقف أمامي:

ـ تخيـل صخـرة في حجم عمـارة كبيرة. وتخيّـل أنها بارزة فـوق الطريق وأنك تحتها. هل تحس بألـم إذا هي سقطت على رأسك؟

ـ صخرة في حجم عمارة؟ سوف أخاف طبعاً.

ـ لا أتكلـم عـن خوفك، ولكن هل يمكن أن تشـعر بألـم إذا هي سـقطت على رأسك؟

ـ صخرة كالجبل، وزنها مليون طن؟ لن أحس بشيء طبعاً.

ـ ومع ذلك فإنك إذا وُجدت في هذا الموقف ستظل تخاف من أن يصيبك ألـم، ما بقيت تحت الصخرة. وأكبر العلماء، وأعظم دهاقنة العلم، سيخافون جميعـاً، جميعاً، سـيخافون خوفاً كبيراً مـن أن يتألموا. هـم يعلمون أنهم لن يتألموا، ولكنهم سيخافون من أن يتألموا.

ـ وما هو السبب الثاني؟ السبب الأكبر؟

ـ الحياة الآخرة؟

ـ أي العقاب؟

ـ العقاب ليس له شأن كبير. بل الحياة الآخرة. الحياة الآخرة فقط.

ـ أليس هناك ملحدون لا يؤمنون بالحياة الآخرة؟

لزم الصمت. قلت:

ـ لعلك تقضي في الأمر على أساس شعورك أنت؟

أجاب وقد احمرّ وجهه:

ـ كل إنسان لا يستطيع أن يحكم في الأمر إلّا على أساس شعوره. سوف تكون الحرية كاملة متى استوى عند الإنسان أن يعيش وأن يموت. تلك غاية كل شيء.

ـ هدف؟ ولكن من الممكن إذن أن أحداً لا يرغب في أن يعيش؟

ـ نعم.

كذلك أجاب بلهجة قاطعة. قلت:

ـ إن الإنسان يخاف الموت لأنه يحب الحياة. هكذا أفهم أنا الأمور. ذلك ما أرادته الطبيعة.

صاح يقول وقد التمعت عيناه:

ـ هذا جبن. وتلك هي الخدعة. الحياة ألم. الحياة رعب. الإنسان شقي. كل شيء الآن ليس إلّا عذاباً ورعباً. الإنسان يحب الآن الحياة لأنه يحب العذاب والرعب. ذلك ما حصل. الحياة ثمنها العذاب والرعب. تلك هي الخدعة. اليوم ليس الإنسان إنساناً بعد. سيجيء إنسان جديد، سعيد فخور. الإنسان الذي سيستوي عنده أن يعيش وأن يموت، سيكون هو الإنسان الجديد. الإنسان الذي سينتصر على الألم والرعب، سيكون هو نفسه الإله. أما الإله الآخر فلن يكون له وجود بعد ذلك.

ـ فهذا الإله موجود إذن في رأيك؟

ـ ليس موجوداً، ولكنه موجود. إن الصخرة ليس فيها ألم، ولكن الألم هو في الخوف من الصخرة. الإله هو عذاب الخوف من الموت. فالإنسان الذي سينتصر على الألم والخوف، سيكون هو نفسه الله. وسوف تبدأ عندئذ حياة جديدة. عندئذ سوف يظهر الإنسان الجديد. سيكون كل شيء جديداً... وسوف يقسمون التاريخ عندئذ إلى عهدين: عهد يمتد من الغوريللا إلى انعدام الإله، وعهد يمتد من انعدام الله...

ـ إلى الغوريللا؟

ـ إلى التحول الجسمي الذي يطرأ على الإنسان والأرض. سيصبح

الإنسـان إلهـاً، وسـيتبدل جسـمه. والكون سـيتحول، والأعمال سـتتحول، والعواطف والأفكار. ألا تعتقد أن الإنسان يتبدل عندئذ جسمه؟

ـ إذا استوى عند الإنسان أن يحيا وأن يموت، فسوف ينتحر جميع الناس، وربما كان هذا هو التبدل...

ـ ما لهذا من قيمة. سوف يُنحر الكِذب. إن الذي يريد الوصول إلى الحرية القصوى، عليه أن يملك الشـجاعة اللازمة للانتحار، والذي يملك الشجاعة اللازمـة للانتحار، فسـوف ينفذ إلى سـر الخدعة. ليس ثمـة حرية أعلى. كل شيء يثوي هنا، وليس وراء هذا شيء. من يجرؤ أن ينتحر فهو الله. كل إنسان يستطيع الآن أن يفكر أن ثمة إله، ولكن أحداً لم يفصل ذلك في يوم من الأيام حتى الآن.

ـ غير أن ملايين الناس قد انتحروا مع ذلك.

ـ ولكن لأسـباب أخرى دائماً. انتحروا دائماً برعب. لم ينتحروا أبداً لهذا السـبب. لم ينتحروا أبداً لينحروا الرعب. إن الذي سـيقتل نفسـه من أجل أن يقتل الرعب فقط، سيكون في تلك اللحظة نفسها إلهاً.

قلت:

ـ ولكن قد لا يملك الوقت اللازم لهذا.

فأجاب برفق وكبرياء هادئة، وبما يشبه أن يكون احتقاراً:

ـ لا ضير!

وأضاف بعد لحظة:

ـ يؤسفني أن يبدو عليك أنك تضحك.

ـ وأنـا يدهشـني أن أراك الآن هادئـاً هـذا الهدوء، بينما كنـت في الصباح غاضباً حانقاً.

قال وهو يبتسم:

ـ هذا الصباح؟ كان هذا الصباح مضحكاً جداً. أنا لا أحب أن أتشاجر.

ثم أضاف بأسىً وكآبة:

ـ ولا أضحك أبداً.

ـ نعم، ليست لياليك مرحة.

ونهضت وتناولت قبعتي لأنصرف.

فسألني وهو يبتسم ابتسامة فيها شيء من دهشة:

ـ أهذا ماتراه؟ لماذا ذلك؟... لا... لا أدري..

وأمسك عن الكلام مضطرباً متحيراً على حين فجأة. ثم أضاف:

ـ لا أدري كيف تجري أحوال الآخرين، وأشعر أنني لا أستطيع أن أكون كسائر الناس. جميع الناس يفكرون في شيء، ثم ينتقلون فوراً إلى التفكير في شيء آخر. أما أنا فلا أستطيع أن أفكر في غير هذا. أنا أفكر في شيء واحد طوال حياتي. طوال حياتي عذّبتني فكرة الله.

بهذا ختم كلامه فجأة باندفاعة صدق غريب.

ـ اسمح لي أن أسألك: لماذا لا تتكلم اللغة الروسية على نحو صحيح؟ أتراك نسيتها أثناء غيابك في الخارج خمس سنين؟

ـ هل لغتي غير سليمة؟ لا أدري! لا، لم أنس أثناء غيابي في الخارج! هكذا كنت أتكلم طول حياتي!...

ـ سؤال آخر قد يكون أكثر إحراجاً: إنني أصدقك حين تقول إنك لا تحب أن ترى الناس، وإنك لا تكلمهم إلّا قليلاً. فلماذا كلمتني أنا في هذا المساء مختاراً راضياً؟

ـ أنت؟ في هذا الصباح، كان وضعك حسناً جداً، وإنك... ما لهذا من قيمة على كل حال. إنك تشبه أخي كثيراً، كثيراً جداً، تشبهه شبهاً خارقاً. لقد مات منذ سبع سنين. هو أخي الأكبر. تشبهه كثيراً.

ـ لا بد أن تأثيره في تفكيرك كان كبيراً.

ـ لا، كان يتكلم قليلاً. كان لا يقول شيئاً. سأوصل رسالتك إلى شاتوف.

وشيعني حتى الباب الكبير، وهو يحمل فانوساً، وذلك ليغلق الباب. قلت لنفسي جازماً "إنه مجنون. هذا واضح لا ريب فيه".

وهذا لقاء آخر يفاجئني لحظة خروجي.

9

مـا إن اجتـزت الباب حتى أمسـكتني يدٌ قويـة من صـدري. وزأر صوت يسأل:

ـ من هنا؟ أصديق أم عدو! هيا اعترف!

خرج صوت حاد عرفت فيه صوت ليبوتين، صرخ يقول:

ـ هو من أصحابنا. إنه السـيد "جـ...ف"، شـاب تثقف ثقافة كلاسـيكية، واستُقبل في أرقى مجتمع.

ـ آ... هذا ما يعجبني... إذن تشـقف ثقافة كلاسيكية.. أنا الكابتن المتقاعد إجنـاس لبيادكيـن، في خدمة الناس جميعاً والأصدقـاء... إذا كانوا أوفياء... إذا كانوا أوفياء، هؤلاء الأوغاد!

إنه الكابتن لبيادكين، وهو رجل طويل القامة بدين الجسـم سـمين، أجعد الشـعر، أحمـر الوجـه، كان قـد بلـغ غاية السـكر، حتـى إنه لا يكاد يسـتطيع الوقوف، ولا يكاد يسـتطيع النطق إلّا في كثير من الغباء. وقد سبق أن أُتيحت لي فرصة رؤيته من بعيد.

وحيـن التفت الكابتن فلمح كيريلوف الذي كان لا يزال واقفاً هناك وبيده الفانوس، أعول يقول من جديد:

ـ آ... وهذا هو الآخر...

ورفع قبضة يده على المهندس، لكنه لم يلبث أن أنزلها قائلاً:

ـ إنني أعفو عنك، لأنك عالِم. إجناس لبيادكين، أثقف رجل بين...

في صدر إجناس
توقد الحب، تحطم القلب
وكان يتطوع الذراع، من حرب سيباستوبول
فعاد يبكي ذراعه

ودمدم يقول لي وهو يقرِّب مني وجهه المتورد من السكر: "أنا لم أكن في

سيباستوبول[1]، ولا قُطعت ذراعي. ولكن ما أجملها أشعاراً!

وتدخل ليبوتين يقول له:

ـ لا يتسع وقته، لا يتسع وقته. إنه عائد إلى بيته. سيقص غداً كل شيء على ليزافتا نيقولايفنا:

فصاح السكران من جديد قائلاً:

ـ ليزافتا...

ثم قال لي:

ـ اسمع. لا تتحرك. هذه أبيات أخرى من الشعر:

تعدو على حصانها كنجمة

بين صويحباتها الفارسات

ومن على فرسها الجميل

تبعث لي البسمة تلو البسمة

فتاتي الفاتنة النبيلة

وتابع كلامه:

ـ عنوان القصيدة "إلى الفارسة النجمة!". أليس هذا نشيداً جميلاً؟ هو نشيد جميل، إلّا أن تكون أنت حماراً. إن هؤلاء الأغبياء لا يفهمون شيئاً.

ثم صاح يقول وهو يتمسك بمعطفي رغم جميع ما أبذله من جهود لأفلت منه:

ـ قف! قل لها إنني فارس الشرف، أما داشا... أما تلك "الداشا" فسوف أمسكها بين إصبعين... ما هذه إلّا عبدة، وما ينبغي أن تسمح لنفسها بأن...

قال هذه الكلمات وسقط، لأنني استطعت أن أنتزع نفسي من بين يديه. وهربت يتبعني ليبوتين.

ـ سوف يُنهضه ألكسي نيلتش. هل تدري ماذا علمت منه الآن؟

كذاك قال بصوت لاهث. وتابع كلامه:

---

(1) الإشارة هنا إلى حصار سيباستوبول سنة 1854 وسنة 1855 من قبل الجيش الإنجليزي ـ الفرنسي ـ التركي.

ـ هل سمعت تلك الأبيات من الشعر؟ فاعلم أنه قد وضعها في ظرف وأنه سيرسلها غداً موقعة باسمه إلى ليزافتا نيقولايفنا؟ ما رأيك؟

ـ أراهن أنك أنت الذي دفعته إلى هذا.

ـ سوف تخسر الرهان. إنه مولّه حباً بها. وهل تعلم؟ لقد بدأ حبه هذا بكره. كان في البداية يكرهها كرهاً شديداً بسبب نزهاتها على الحصان، حتى لقد أوشك أن يشتمها في الشارع. بل إنه قد أهانها أمس الأول بينما كانت مارّة. من حسن الحظ أنها لم تسمعه. وها هو ذا اليوم يرسل إليها أشعاراً. هل تعلم أنه يريد أن يجازف بنفسه فيعرض عليها قلبه ويده؟ فعلاً! فعلاً!

صرخت أقول غاضباً:

ـ عجيب آمرك يا ليبوتين! إنك تدور دائماً حول أوباش من هذا النوع، فتحرّضهم وتوجّههم.

ـ إنك تبالغ يا سيد "جـ...ف"، أليس قلبك هو الذي يرجف خوفاً من تصور وجود منافسٍ لك؟ هه؟

هتفت أقول وأنا أتوقف فجأة:

ـ ماذا؟

ـ طيب. مادام الأمر كذلك، فإنني سأعاقبك فلا أحكي لك بعد اليوم شيئاً. ومع ذلك، لو عرفت ما قد أقصه عليك، لاحترقت شوقاً إلى سماعه! أعلم مؤقتاً أن هذا الغبي ليس الآن مجرد كابتن محال على التقاعد بل قد أصبح من مالكي الأطيان، بل ومن كبارهم، لأن نيقولاي فسيفولودوفتش باعه أرضه منذ قليل، وهي تقدّر في الحساب القديم بمائتي نفس. لست أكذب. ليَشهد الله أنني صادق. لقد عرفت هذه الحقيقة من مصدر موثوق تماماً. والآن حاول أن تدبّر أمرك بنفسك:

لن أقول بعد اليوم شيئاً. إلى اللقاء.

10

كان ستيفان تروفيموفتش ينتظرني وقد نفد صبره على نحو يكاد يكون

هستيرياً. كان قد رجع إلى البيت منذ ساعة. فوجدته في حالة غريبة حتى إنني ظللت، مدة خمس دقائق على الأقل، أظن أنه سكران. مسكين! إن زيارته لآل دروزدوف قد أجهزت عليه.

- "يا صديقي" (بالفرنسية)... ماذا أقول لك؟ لقد فقدت ترابط أفكاري تماماً... ليزا... مازلت أحب وأقدر هذه الملاك كما كنت أحبها وأقدرها في الماضي، نعم، كما كنت أحبها وأقدرها في الماضي. ولكن يخيّل إليّ أنهم كانوا لا ينتظرونني إلّا ليعلموا مني شيئاً ما، أي ببساطة - ليستدرجوني إلى الكلام، ثم... بارك الله فيك!... مع السلامة! نعم، هذه حقيقة الأمر!

صحت أقول نافذ الصبر:

- كيف! ألا تستحي؟

- ياصديقي، أنا الآن وحيد تماماً. "الخلاصة.. أمر مضحك" (بالفرنسية). تصوّر: هناك أيضاً كل شيء محشوٌ أسراراً! سرعان ما أخذن يمطرنني بوابل من الأسئلة عن حكايات الأنوف والآذان تلك، وكذلك عن أحداث سرية وقعت في بطرسبرج. ذلك أنهن في الواقع، لم يسمعن إلّا الآن عن الحوادث التي أثارها هنا نيقولاي منذ أربع سنين. قلن يسألنني: "كنت أنت حاضراً، فرأيت كل شيء، فهل صحيح أنه مجنون؟". من أين جاءتهن هذه الفكرة؟ حقاً إنني لا أفهم. لماذا تصرّ براسكوفيا هذه، لماذا تصر هذا الإصرار كله على أن يكون نيقولاي مجنوناً؟ إنها تحرص على ذلك، تحرص عليه حرصاً مطلقاً. وهذا المافريكي... ما اسمه؟... نعم... مافريكي نيقولايفتش... "إنه رجل شهم على كل حال" (بالفرنسية). أيكون هذا من مصلحته؟... ولكنها هي التي كانت البادئة في الكتابة من باريس إلى "هذه الصديقة المسكينة" (بالفرنسية). الخلاصة: إن براسكوفيا، كما تسميها "الصديقة المسكينة"، هي نموذج غريب من البشر، إنها كوروبوتشكا[1] الخالدة التي صوّرها

---

(1) "كوروبوتشكا" شخصية من شخصيات كتاب "النفوس الميتة" لجوجول، ومعنى الاسم "العلبة الصغيرة"، والشخصية هي شخصية مالكة بخيلة محدودة تؤمن بالخرافات وتتسلط عليها الأوهام.

جوجول، ولكنها كوروبوتشكا شريرة، كوروبوتشكا مشاجرة مقاتلة قد تضخمت تضخماً كبيراً.

ـ هي إذن برميل حقيقي؟ أهي مضخّمة إلى هذا الحد فعلاً؟

ـ طيب... لنسلم بأنها أصغر من كوروبوتشكا أيضاً. ما قيمة هذا! ولكن لا تقاطعني. إن رأسي يدور. الصلات بينهن سيئة جداً، باستثناء ليزا: فهذه ما تزال تكرر: "عمتي، عمتي...". ولكن ليزا ماكرة، وإن وراء ذلك لسراً خفياً. أسرار! أما مع العجوز فالشقاق قائم. هذه "العمة" المسكينة تسوم الجميع سوء العذاب حقاً... ثم هناك امرأة الحاكم أيضاً، والمجتمع المحلي الذي لا يبدي قدراً كبيراً من الاحترام، وهناك "قلة أدب" كارمازينوف، وهناك عدا ذلك أيضاً، تلك الآراء عن جنون نيقولاي، وهناك هذا الـ "ليبوتين"... أمر لا أفهمه" (بالفرنسية)... و... ويقال إنها تضع كمادات خل على رأسها. ثم هناك نحن، أنا وأنت، وشكاياتنا ورسائلنا. أواه! ما أكثر ما عذبتها! وفي فترة كهذه الفترة! "إنني عقوق" (بالفرنسية). تصور: لقد عدت إلى البيت فوجدت رسالةً منها، اقرأها، اقرأ! آه... ما كان أقل سماحتي وكرمي تجاهها!

مدّ إليّ الرسالة التي وصلته من فرفارا بتروفنا. يظهر أن فرفارا بتروفنا قد أحزنها أن قالت له: "ابق في بيتك" فها هي ذي تبعث إليه برسالة مهذبة رقيقة، وإن تكن موجزة وقاطعة: إنها تطلب من ستيفان تروفيموفتش أن يجيئها غداة غد، يوم الأحد، ظهراً، وتنصحه بأن يصطحب أحد أصدقائه (وقد ذكرت اسمي بين قوسين)، وتعد بأن تدعو من جهتها شاتوف بصفته أخ داريا بافلوفنا. "سوف يمكنك أن تحصل منها على جواب قطعي. هل يكفيك هذا؟ أهذا هو الإجراء الشكلي الذي كنت تحرص عليه ذلك الحرص كله؟".

ـ لاحظ هذه الجملة الغاضبة التي ترد في نهاية رسالتها عن "الإجراء الشكلي". مسكينة، مسكينة، صديقة عمري كله! إنني أعترف بأن القرار المباغت الذي يحدد مصيري قد سحقني سحقاً إن صح التعبير... كنت ما أزال أحتفظ ببعض الأمل. أعترف لك بذلك. أما الآن فقد انتهى كل شيء. أنا أعلم أنه قد انتهى كل شيء. "شيء فظيع!" (بالفرنسية). آه... ليت يوم

الأحـد هذا لا يحين أبـداً، ليت بالإمكان أن تجري الأمـور كما كانت تجري في الماضي: تظل أنت تجيء إلى هنا، وأظل أنا...

ـ إن الدنـاءات التـي يرويهـا ليبوتين والنمائـم الكاذبة التـي يلفّقها هي ما أدخل الاضطراب والبلبلة في نفسك.

ـ يـا صديقـي، لقد وضعت إصبعـك الآن، إصبعك الصديقـة، على نقطة أخرى موجعة أليمة. إن الأصابع الصديقة على وجه العموم قاسـية لا ترحـم، بـل قـد تنقصها اللباقة والكياسـة في بعض الأحيان. سـامحني. ولكن تصور أنـي كنت قد نسـيت هـذا كله تقريباً، كنت قد نسـيت كل هـذه الدناءات. أو قـل إننـي لم أنسـها، ولكنني لغباوتي كنـت أحاول طوال مدة بقائـي عند ليزا أن أكون سـعيداً، وكنت أقنع نفسي بأنني سعيد. والآن... آه... الآن أفكر في تلـك المـرأة التي بلغـت ذلك المبلغ كله مـن الكرم والتسـامح والصبر تجاه عيوبي الكريهة! الحق أنها ليسـت على قدر كبير من الصبر. ولكن هل يجوز لي أن أتشكّى من ذلك أنا السيء الطبع؟ أنا الذي أُشبه الطفل بكثرة النزوات وشـدة الأنانيـة ولكـن دون أن أملـك ما يملـك الطفل مـن براءة! إنهـا تُعنى بأمري وتسهر على شؤوني منذ عشرين عاماً كخادمة، هذه "العمة المسكينة" (بالفرنسـية) كمـا تطلق عليهـا ليزا هذا اللقـب بكثير من الخفة والرشـاقة... وها هو ذا الطفل، بعد عشـرين عاماً، يريد أن يتزوج. إنه يطالب بتزويجه. إنه يكتب الرسـالة تلو الرسـالة، بينما هي ترش رأسـها بالخل... وها هو ذا يبلغ هدفـه: ففي يوم الأحد سـأكون رجلاً متروجاً. مـا كان أغناني عن الإلحاح؟ لماذا كتبت تلك الرسائل كلها؟ نعم، نسيت أن أقول لك: إن ليزا تحب داريا إيفانوفنـا حـب العبـادة. أو هذا مـا تقوله على الأقـل. هي تقـول عنها: "هذه ملاك" (بالفرنسـية) ولكنها ملاك منطوٍ على نفسـه". لقد نصحتاني كلتاهما، حتى براسـكوفيا نصحتني... لا، لم تنصحني براسـكوفيا.. آه! ما أكثر ما في نفـس الـ "كوروبوتشـكا" من سـم! على كل حـال، إذا شـئنا الدقة، وجب أن نقول إن ليزا لم تنصحني أيضاً، وإنما قالت لي: "ما حاجتك إلى الزواج؟ إن لديك متعاً عقلية كافية!"، وضحكتْ. لقد غفرتُ لها هذا الضحك، لأن قلبها

هـي ليس هادئاً كذلـك. قالتا لي: ليس في وسـعك مع ذلك أن تسـتغني عن امرأة. إن سـن الأمراض والعجز قد اقتربت، فسوف تُعنى بأمرك وتسهر على علاجك. لم أنقطع عن أن أحدّث نفسـي بأن العناية الإلهية هي التي ترسـلها إلـيّ فـي مغرب حياتـي العاصفة، وأنها ستسـهر على العناية بـي كما يقال... وسوف تنفعني في مسكني على كل حال. انظر إلى هذه الفوضى! ما من شيء فـي مكانه! لقد أمرت في هذا الصبـاح بترتيب الغرفة. فانظر إلى هذا الكتاب الملقى على الأرض! لطالما اسـتاءت صديقتي المسـكينة، (بالفرنسـية) من الوساخة في بيتي... وا أسفاه! بعد الآن لن يدوي صوتها هنا! "عشرون عاماً" (بالفرنسية). و... هنّ أيضاً قد تلقّين، فيما أعتقد، رسائل لم يوقّعها مرسلوها. تخيل هذا! يؤكد الناس أن نيقولاي قد باع لبيادكين أرضه. "هذا إنسـان شـاذ عجيب!" (بالفرنسية). ثم ما لبيادكين؟ إن ليزا تصغي، وتصغي! آه... ما أكثر ما تصغي! لقد غفرت لها ضحكها. رأيت بأي وجه كانت تصغي. ومافريكي ذاك... لست أتمنى الآن أن أكون في مكانه.. "هو رجل طيب على كل حال" (بالفرنسية)، لكنه خجول قليلاً. مهما يكن من أمر، فليباركه الله...

وصمـت. إنـه الآن متعـب مرهـق حائر، وظل جالسـاً فـي مكانه خافض الـرأس مطرقاً بعينيه إلى الأرض. فانتهـزت فرصة صمته لأقصّ عليه زيارتي لعمـارة فيليبوف على نحو موجز، وعبّرت له باقتضاب وبخشـونة عن رأيي فـي أن أخـت لبيادكيـن (التـي لم أرها علـى كل حـال) من الجائـز أن تكون سـقطت ضحية بين يدي نيقولاي على نحو من الأنحاء في فترة عجيبة خفية مـن فتـرات حياته، كما قال ليبوتين، وأن من الممكـن جداً أن يكون لبيادكين يتلقـى مـالاً مـن نيقـولاي لهذا السـبب. ولا شـيء غير هـذا. أما الشـائعات المنتشرة عن داريا بافلوفنا، فما هي إلّا أقاويل كاذبة، ونمائم لفقها هذا الوغد الدنيء ليبوتين، فذلك ما يؤكده ألكسـي نيلتش بحماسـة وحرارة، ولا داعي إلى تكذيبه البتة.

كان ستيفان تروفيموفتش يصغي إليّ ذاهل الهيئة، كأن أقوالي لا تمت إليه بصلة من الصلات، وليس له بها علاقة. وذكرت أيضاً حديثي. مع كيريلوف،

واضفت قائلاً إن كيريلوف ربما كان مجنوناً. فقال ستيفان تروفيموفتش برخاوة، كأنما على مضض:

ـ ليس مجنوناً، ولكنه من أولئك الناس الذين لهم آراء محدودة. "يتصورون الطبيعة والمجتمع الإنساني على غير ما خلقهما الله، وعلى غير ما هما في الواقع" (بالفرنسية). إن بعض الناس يمدحونهم ويتملقونهم. ولكن ستيفان فرخوفنسكي لن يفعل ذلك! لقد رأيتهم ببطرسبرج في الماضي مع هذه "الصديقة العزيزة" (بالفرنسية) (آه... لشدّ ما كنت جارحاً في معاملتها!)، فلم تخفني شتائمهم، لا ولا مدائحهم. وسيبقى الأمر على هذا النحو دائماً. ولكن دعنا من هذا ولنتكلم في شيء آخر... أظن أنني ارتكبت حماقات فظيعة: تصور أنني بعثت أمس رسالة إلى داريا بافلوفنا. إنني لألعن نفسي الآن لأنني بعثت إليها تلك الرسالة.

ـ ماذا قلت في تلك الرسالة؟

ـ صدّق يا عزيزي أن نيتي كانت من أكرم النيّات. أبلغتها أنني كتبت رسالة إلى نيقولاي قبل خمسة أيام، بنية نبيله كل النبل كذلك.

صحت قائلاً في غضب:

ـ الآن فهمت. كيف يجوز لك أن تقرن بين اسميهما هكذا؟

ـ لا تحطّمني تحطيماً يا عزيزي، لا تصرخ في وجهي هذا الصراخ. إنني بدون ذلك مهشّم منذ الآن كما يُهشّم صرصور! ثم إني أعتقد أن تصوري كان نبيلاً كل النبل. لنتصور أن شيئاً ما قد حدث فعلاً في سويسرا.. بل وأنه لم يكن ثمة إلّا بداية.. أفلا يكون من واجبي أن أسأل قلبيهما قبل كل شيء.. وذلك حتى لا أتعرض لسد الطريق أمامهما إذا.. لقد كانت نيتي نبيلة.

ـ يا إلهي! ما أغبى هذا التصرف!

أسرع ستيفان تروفيموفتش يوافقني قائلاً:

ـ نعم، هو تصرف غبي. لم تقل كلمة أصدق من هذه الكلمة. "كان تصرفي غبياً، ولكن ما العمل؟ لقد فعلت وانتهى الأمر!" (بالفرنسية). سأتزوج رغم كل شيء، ولو كان عليّ أن أغطّي "خطايا الغير". ما كانت حاجتي إلى

الكتابة؟ أليس كذلك؟

ـ أتعود أيضاً إلى هذه الفكرة؟

ـ أوه! لن يخيفني صراخك. إن أمامك الآن ستيفان فرخوفنسكي آخر. إن ستيفان فرخوفنسكي الذي كنت تعرفه قد دُفن. "انتهى الأمر" (بالفرنسية). ولماذا تصرخ؟ لا لسبب سوى أن الذي سيتزوج وسيزدان رأسه بقرنين ليس أنت. هل ساءك هذا الكلام من جديد؟ يا صديقي المسكين، إنك لا تعرف المرأة. أما أنا فلم أفعل شيئاً غير دراسة المرأة. "إذا أردت أن تنتصر على العالم بكامله، فانتصر على نفسك". ذلك هو الشيء الوحيد الذي أحسن قوله شاتوف "أخو زوجتي، وهو رومانسي آخر من نوعك". يسرني أن أستمد منه هذه القاعدة الحكيمة. فها أنذا مستعد لأن أنتصر على نفسي فأتزوج. فما الذي سأصل إليه بدلا من أن أغزو العالم؟ يا عزيزي، إن الزواج موت روحي لكل نفس مستقلة ذات كبرياء. الزواج سوف يحللني ويفسدني، سوف يحرمني من القدرة والطاقة، سوف يحرمني من الهمة اللازمة لتحقيق مهمتي. سيكون لنا أولاد. وأكثر من ذلك أن هؤلاء الأولاد قد لا يكونون مني أنا. ماذا أقول؟ بل إنهم لن يكونوا مني حتماً. إن الرجل الحكيم لا يخشى أن ينظر إلى الحقيقة مواجهةً. لقد نصحني ليبوتين بأن أبني سدوداً لأحمي نفسي من نيقولاي. إن ليبوتين رجل أحمق. فالمرأة قادرة على أن تخادع حتى عين الله التي ترى كل شيء. حين خلق الله المرأة فقد كان يعرف حتماً ما ينبغي له أن يتوقعه. ولكنني على يقين من أن المرأة قد تدخلت هي نفسها في خلقها، فأجبرت الله على أن يخلقها كما هي الآن... بكل صفاتها وخصائصها. وإلا فمن ذا الذي يقبل أن يهيئ لنفسه متاعب كهذه المتاعب بغير ضرورة؟ أنا أعلم أن ناستاسيا ستغضبها مني هذه الآراء الجريئة... ولكن "انتهى الأمر" (بالفرنسية).

ما كان لستيفان تروفيموفتش أن يكون ستيفان تروفيموفتش نفسه لو أنه استطاع أن يقاوم إغراء هذا النوع من الأمازيح والألاعيب اللفظية التي كانت شائعة شيوعاً كبيراً بين أحرار التفكير في زمانه. غير أن ذلك لم يدم

مـدة طويلة. فقد اكتفى من تلـك الأمازيج والألاعيب اللفظية بما قال، ثم إذا هو يصرخ قائلاً وقد بلغ ذروة الكرب في هذه المرة:

ـ آه... ليت يوم الأحد لا يحين أبداً. لماذا يسـتحيل أن يوجد أسـبوعٌ بغير يـوم أحـد، ولو مرة واحـدة، "إذا كان ثمة معجزة"؟ (بالفرنسـية). لن يصعب علـى العنايـة الإلهية مع ذلك أن تلغي من التقويم يوم أحدٍ لتبرهن على قوتها للملاحدة، و"لينتهي الأمر"! آه... لكم أحببتها! عشرون عاماً! خلال عشرين عاماً! ولم تفهمني في يوم من الأيام!

ـ سألته مدهوشاً:

ـ ولكن عمّن تتكلم الآن؟ أنا أيضاً أصبحت لا أفهمك.

ـ "عشـرون عاماً" (بالفرنسية). ولم تفهمني مرةً واحدة! آه... ذلك قاس. أهـي تتصور حقاً أنني أتزوج عن خوف، حتـى لا أكون في عوز وفاقة؟ آه... هذا عار! عمتاه! عمتاه! أنا من أجلك إنما... ألا فلتعلم هذه العمة أنها المرأة الوحيدة التي أحببتها حب العبادة طوال حياتي! عشرون عاماً! يجب أن تعلم ذلك، وإلا فلن يتم شـيء، وسـوف يكون عليهم أن يستعملوا القوة ليجروني فيضعوا رأسي تحت "مايسمونه" (بالفرنسية) إكليل الزواج.

تلـك أول مرة أسـمع فيهـا هذا الاعتراف، وأسـمعه بألفـاظ فيها كل هذه القسـوة القاطعة. لا أكتمكم أنني قد استبدت بي رغبة في الضحك لا تقاوَم ولا تغالَب. لكنني أخطأت.

هتـف يقول فجأة وهو يضم يديـه إحداهما إلى الأخرى كمن فجأته فكرة جديدة:

ـ لم يبق لي الآن أحد غيره! هو أملي الوحيد. وحده يستطيع بعد اليوم أن ينقذني، ابني الصغير المسكين! ولكن... آه... لماذا تأخر؟ آه، يابني! حبيبتي بتروشـكا!... رغم أنني لا أستحق أن أُسـمّى أباً بل نمراً، فإنني... "اتركني يا صديقي" (بالفرنسـية). سوف أضطجع قليلاً لأسـتجمع أفكاري. أنا مكدود جـداً، جـداً!... ومن جهة أخرى يُخيّل إليّ أنه قد آن لك أنت أيضاً أن تمضي إلى النوم. أترى؟ لقد انتصف الليل...

الفصل الرابع

العرجاء

1

لم يكن شاتوف عنيداً في هذه المرة: لقد لبى الرجاء الذي أعربت له عنه في رسالتي، فجاء في ظهر الغد إلى عند ليزافتا نيقولايفنا. وصلنا في وقت واحد تقريباً. هذه زيارتي الأولى للسيدة دروزدوف وابنتها. كانت ليزافتا نيقولايفنا وابنتها ومافريكي نيقولايفتش جالسين في الصالون الكبير يتناقشون. كانت السيدة دروزدوف قد طلبت من ابنتها أن تعزف لها على البيانو لا أدري أي لحن من ألحان الفالس. ولكن حين أخذت ليزايفنا تعزف أعلنت الأم أن هذا اللحن ليس هو اللحن المطلوب. ولبساطته وسذاجته، تحيز مافريكي نيقولايفتش للفتاة، فأكد أن اللحن الذي عزفته هو بعينه الفالس الذي طلبته الأم. فاغتاظت براسكوفيا إيفانوفنا، وأخذت تبكي من شدة الغضب: كانت ساقاها متورمتين، وهي منذ بضعة أيام كثيرة النزوات والأخيلة، سريعة إلى المشاجرة، تختصم مع الجميع وإن تكن ليزا تخيفها دائماً.

سُرّوا برؤيتنا سروراً عظيماً. واحمرّت ليزا غبطة وابتهاجاً، وقالت لي "شكراً" (من أجل شاتوف طبعاً) ومضت نحوه تنظر إليه مستطلعة.

وقف شاتوف على العتبة وقد بدا عليه الارتباك، وظهرت في هيئته الخراقة. وشكرت له ليزا مجيئه، وقادته إلى قرب أمها.

ـ هو السيد شاتوف الذي حدّثتك عنه. وهذا هو السيد (جـ. ف) الصديق الحميم لستيفان تروفيموفتش، وصديقي أنا أيضاً. لقد تعرف مافريكي

نيقولا يفتش إليه أمس.
- أيهما أستاذ؟
- ما من أحد منهما أستاذ يا ماما.
- بلى. أنت نفسك قلت لي إن أستاذاً سيأتي إلينا اليوم.
ثم أضافت تقول وهي تشير إلى شاتوف مشمئزة الهيئة:
- لا شك أن الأستاذ هو هذا.
- لم أقل لك أبداً أن أستاذاً سيأتي إلينا اليوم. إن السيد (جـ..ف) موظف، والسيد شاتوف طالب سابق.
- طالب أو أستاذ... المهم أنه من الجامعة. إنك لا تسعين إلّا للمجادلة والمناقشة. إن الذي رأيناه في سويسرا كان له شارب ولحية صغيرة.
قالت ليزا:
- إن ابن ستيفان تروفيموفتش هو الذي تسميه ماما دائماً باسم الأستاذ.
ثم اقتادت شاتوف إلى الطرف الآخر من الصالون حيث جلسا عل كنبة.
ودمدمت تقول لشاتوف وهي ما تزال تتفرس فيه مستطلعةً، وتنظر خاصة إلى شعره المتناثر خصلاً:
- حين تتورم ساقاها تصبح دائماً على هذه الحال. إنها مريضة.
سألتني العجوز التي تركتني لها ليزا بغير رحمة أو رأفة:
- أأنت عسكري؟
- لا إنني أعمل في..
فتدخلت ليزا على الفور قائلة:
- إن السيد (جـ..ف) صديق حميم لستيفان تروفيموفتش.
- أأنت تعمل في خدمة ستيفان تروفيوفتش. هو أيضاً أستاذ. أليس كذلك؟
صاحت ليزا تقول غاضبة:
- أوه! ماما! إنك لا تحلمين ليلاً ولا نهاراً إلّا بأساتذة!
- يكفيني الذين أراهم وأنا يقظى في النهار. إنك لا تفكرين إلّا في معارضة أمك. هل كنتَ هنا، منذ أربع سنين، أثناء إقامة نيقولاي فسيفولودوفتش؟
فأجبت بأنني كنت هنا فعلاً.

ـ هل كان معك رجل إنجليزي.
ـ لا، لم يكن ثمة رجل إنجليزي.
أخذت ليزا تضحك. فقالت الأم:
ـ هيـه! أرأيت أنه لم يكن ثمـة رجل إنجليزي. لم يكن ذلك إذن إلّا كذباً. إن فرفارا بتروفنا وستيفان تروفيموفتش يكذبان. هم جميعاً يكذبون على كل حال.
ـ إن عمتي وسـتيفان تروفيموفتش قد وجدا شـيئاً من التشابه بين نيقولاي فسـيفولودوفتش والأمير هاري في مسرحية هنري الرابع التي ألفها شكسبير. وها هي ذي ماما تقول الآن إن حكاية وجود ذلك الانجليزي كذب.
إذا لـم يوجد هـاري هنا، فمعنى ذلك أنه لم يكن ثمة رجل إنجليزي، وأن نيقولاي فسيفولودوفتش كان وحده يؤلف مهازل.
وجدت ليزا أن من الضروري أن تشرح لشاتوف فقالت له:
ـ أؤكـد لـك أن مامـا تفعل هذا عامـدة. إنها تعرف من هو شكسـبير. وقد قرأت لها بنفسي الفصل الأول من مسرحية عطيل. ولكنها الآن مريضة جداً. ماما! اسمعي. دقّت الساعة الثانية عشرة. هذا وقت تجرعك الدواء.
ودخلت الخادمة تعلن:
ـ وصل الطبيب.
فنهضـت السـيدة العجوز، ونادت كلبهـا: "زيميركا، زيميـركا، أنت على الأقل ستأتي معي!".
ولكـن زيميركا، وهـو كلب هرم خبيـث، رفض أن يطيـع، واندسّ تحت الكنبة حيث كانت ليزا جالسة.
قالت السيدة تخاطب الكلب:
ـ ألا تريد أن تأتي؟ طيب! لست في حاجة إليك.
ثم التفتت إليّ وقالت:
ـ إلى اللقاء أيها السيد. إنني لا أعرف اسمك ولا اسم أبيك.
ـ أنطون لافرنتيفتش...

ـ لا قيمة لهذا عندي. إن ما يدخل من إحدى الأذنين يخرج من الأخرى. لا ترافقني يا مافريكي نيقولايفتش. أنا لم أناد إلّا زيميركا. الحمد لله على أنني ما زلت أستطيع أن أمشي وحيدة، وغداً سوف أمضي أتنزه.

وخرجت ساخطة أشد السخط.

قالت ليزا وهي تبتسم لمافريكي نيقولايفتش ابتسامةً فيها كثير من الصداقة، حتى لقد أشرق وجه الشاب سروراً بنظرة الفتاة إليه:

ـ يا أنطون لافرنتيفتش، تحدث قليلاً مع مافريكي نيقولايفتش، بانتظار أن نفرغ نحن من حديثنا. أؤكد لكما أنكما كلاكما ستجنيان خيراً من مزيد من التعارف بينكما.

لم يبق لي من حيلة: بقيت أتحدث مع الضابط.

2

ما كان أشدّ دهشتي حين تأكدت من أن الغرض الذي استدعت الفتاة من أجله شاتوف إنما يتعلق بالأدب فعلاً! كنت قد تخيلت، لا أدري لماذا، أنها كانت تهدف إلى غاية أخرى حين استدعته. فحين لاحظنا أنا ومافكريكي نيقولايفتش أنهما يتكلمان بصوت عال، ولا يخطر ببالهما أن يتخاطبا في السر، أخذنا نصغي إليهما، وسرعان ما اتجها هما إلينا يسألاننا النصح في أمر المشروع الذي تعرضه ليزافتا نيقولايفنا: كانت ليزافتا نيقولايفنا قد تخيلت إصدار كتاب ترى أنه مفيد جداً، لكنها في حاجة إلى معاون لافتقارها إلى الخبرة. وقد أدهشتني اللهجة الجادة التي أخذت تشرح بها خطتها لشاتوف. فقلت لنفسي: "هذه فتاة متطورة. لم تذهب إقامتها بسويسرا هدراً". وكان شاتوف يصغي إليها بانتباه، مطرقاً إلى الأرض، ليس يدهشه في ما يبدو أن يرى فتاة من المجتمع الراقي، فتاة لاهية غير مكترثة، تهتم بأمور يلوح للمرء في الوهلة الأولى أنها لاتناسبها كثيراً.

وإليكم المشروع الأدبي[1] الذي تفكر فيه ليزا: إن عدداً كبيراً من المجلات والجرائد يُطبع في روسيا، سواء في الأقاليم أوفي العواصم، وهذه المجلات والجرائد تطلع قـرّاءها على جميع الأحداث بانتظام، وتمضي السنة وتنكوم الجرائـد في الخزائن، أو تُرمى، أو تُمزّق، أو تصنع منها أكياس، أو تستخدم في تغليف أشـياء شـتى. إن بعض الأحداث التي روتهـا المجلات والجرائد يكـون قـد أثـار اهتمام النـاس إثـارة شـديدة، فاحتفظ النـاس بذكـراه، لكن السـنين تمر فينسـونه. وإن كثيراً من الأفراد يحبون بعد ذلك أن يتذكروا تلك الأحـداث، ولكن مـا أصعب البحث بيـن تلك الأكوام مـن الأوراق عن أمر معين في موضوع حادثة خاصة وقعت لا ندري أين ولا متى!... فإذا استطعنا أن نكثّف في كتاب واحد جميع الوقائع التي حدثت خلال سنة كاملة، مرتبين إياها على الأيام والأشهر وفقاً لخطة موضوعة وفكرة موجهة، مضيفين إليها فهرساً ودليلاً أبجدياً، فإن كتاباً من هذا النوع سوف يصوّر السمات الأساسية للحياة الروسـية خلال السـنة المنصرمة، ومع ذلك لا تكون هذه المعلومات قد اشتملت إلّا على جزء يسير من الوقائع.

ـ بهذا تُحلّين محل الجرائد والمجلات الكثيرة عدداً من الكتب الضخمة! ذلك كل شيء.

لكـن ليزافتا نيقولايفنا، رغم أنهـا لا تجيد التعبير عن أفكارها، دافعت عن مشـروعها بحـرارة مؤكّدة على علمهـا بالمصاعب التي سـتتعرض تنفيذ هذا المشـروع. قالت: ليس الأمر إلّا أمر كتاب واحد في مجلد واحد، ولن يكون ضخماً ضخامة كبيرة. وهبنا اضطررنا أن نجعله أسـمك، فإن من الواجب أن يكـون واضحـاً علـى كل حال: إن كل شـيء متوقف على الخطة المرسـومة، وعلـى طريقة عرض الوقائع. لن نسـتطيع طبعاً أن نجمع وننشـر كل الوقائع. فالقرارات والمراسـيم التي تصدرها الحكومـة، والقوانين والأنظمة المتعلقة

(1) كان دوستويفسكي قد خطر بباله يوماً أن يجمع في كتاب طائفة من الوقائع المختلفة تصور الحياة الروسية وتستمد من الجرائد.

بالإدارات المحلية، هذه كلها هامة جداً، ولكن لا يمكن أن يكون لها مكان في الكتاب الذي أريد إصداره. يجب علينا أن نقصر اختيارنا على أحداث تميز الحياة الرّوحية للشعب الروسي وتميّز شخصيته، في هذه المرحلة بعينها خاصة. لا شيء يجب إهماله: الطرائف، الحرائق، التبرعات العامة، الأعمال البطولية والإجرامية، الخطب، الفيضانات، إلخ، وربما بعض قرارات الحكومة، على شرط أن لا نختار إلّا الأحداث التي تصوّر العصر، نجمعها على نية محددة، ونخضعها لفكرة موجِّهة. فهذ الفكرة الموجهة ستلقي نوراً على المجموع، وتجعل منها كلاً مترابطاً. ثم إن هذا الكتاب، عدا قيمته الوثائقية، يجب أن يستهوي محبي القراءات الخفيفة أيضاً. سوف يكون نوعاً من لوحة كاملة تصوّر الحياة الروحية والأخلاقية في داخل روسيا خلال عام. "يجب أن يشتريه جميع الناس. يجب أن يوجد هذا الكتاب على كل مائدة. إنني أدرك أن كل شيء متوقف على المخطط، ومن أجل ذلك إنما أتوجه إليك وأستعين بك". كذلك قالت ليزا بحرارة. ورغم أن شروحها كانت غامضة وناقصة فقد بدأ شاتوف يفهم. فقال مدمدماً وهو ما يزال خافض الرأس:

ـ سيكون للكتاب إذن اتجاه ومَيْل. سيتم اختيار الوقائع والأحداث على أساس مَيْل معيّن.

ـ لا، أبداً. يجب أن لا ننظر إلى الأمور من خلال رأي معين. لا داعي إلى اتباع اتجاه محدّد. سيكون اتجاهنا الوحيد هو عدم التحيز.

قال شاتوف وهو يمط جسمه قليلاً:

ـ ولكن اتباع اتجاه معيّن ليس بالأمر السيء إلى هذا الحد. وإنه لمن المستحيل على كل حال أن يستغني المرء عن مَيْل معيّن استغناء تاماً ما دام يختار. إن اختيار الوقائع نفسه سيشير للقراء إلى الطريقة التي يجب عليهم أن يفهموها بها. ليست فكرتك رديئة.

قالت ليزا سعيدة كل السعادة:

ـ أتعتقد إذن أن مثل هذا الكتاب ممكن؟

ـ يجب أن أدرس المسألة وأن أفكر فيها. هذا عمل ضخم. يستحيل على المرء أن يرى جميع جوانبه فوراً. إننا تعوزنا الخبرة. وحتى بعد إصدار المجلد الأول، لن نكون قد علمنا أشياء كثيرة ولن تكون خبرتنا قد اكتملت. ربما بعد عدة تجارب من هذا النوع.. ولكن الفكرة شائقة هامة، وهي نافعة مفيدة.

ورفع عينيه أخيراً، كانتا تلمعان، وكان مفتوناً.

وسألها أخيراً بلهجة فيها خجل وحنان معاً:

ـ أأنت ابتكرت هذه الفكرة وحدك من تلقاء نفسك؟

أجابت ليزا مبتسمة تقول:

ليس ابتكار الفكرة أمراً صعباً. وإنما الصعب وضع المخطط. إن أموراً كثيرة تفوتني. أنا لست ذكية جداً، ولكنني لا ألاحق إلّا ما أراه رؤية واضحة.

ـ تقولين "لا ألاحق"؟

ـ لا شك أنني استعملت كلمة بدلاً من كلمة؟ أليس كذلك؟

هكذا أسرعت تسأله ليزا بحرارة. فأجابها بقوله:

ـ لا. الكلمة مناسبة. لم أشأ أن أقول شيئاً.

ـ حين كنت ما أزال في الخارج، أقنعت نفسي بأنني أستطيع أنا أيضاً أن أكون نافعة. إنني أملك مالاً، ولا أصنع به شيئاً. فلماذا لا أكون قادرة على أن أساهم أنا أيضاً في العمل العام؟ على أن الفكرة قد جائتني من تلقاء نفسها. لم أبحث عنها، لم أسعَ إليها. لكنني سعدت باكتشافها. ومع ذلك سرعان ما رأيت أنني لا أستطيع الاستغناء عن معاون لأنني لا أجيد القيام بعمل وحدي. طبعاً سيكون هذا المعاون شريكاً في إصدار الكتاب. إننا نقتسم إصدار الكتاب: فمنك المخطط والعمل، ومني الفكرة الأولى والمال. ألا تعتقد أن ريع الكتاب سيغطي نفقاته؟

ـ إذا أحسنّا الاهتداء إلى مخطط جيد فسوف يباع الكتاب.

ـ لاحظ أنني لا أفعل هذا بغية الحصول على فوائد. ولكنني أتمنى أن يروج الكتاب رواجاً كبيراً، وأن يعود علينا ببعض الربح.

ـ وأنا ما شأني في الأمر؟

ـ أنت المعاون الذي أدعوه إلى مشاركتي في إصدار الكتاب مناصفةً. أنت تضع المخطط.

ـ كيف عرفت أنني قادر على تخيل هذا المخطط؟

ـ حُدِّثت عنك. وهنا سمعت... إنني أعرف أنك ذكي جداً، و... أنك تعمل، وأنك تفكر كثيراً. كلمني عنك بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي في سويسرا...

كذلك أسرعت تضيف هذه الجملة الأخيرة. وتابعت كلامها تقول:

ـ إنه رجل ذكي جداً أليس كذلك؟

ـ شملها شاتوف بنظرة عجلى، وسرعان ما عاد يخفض عينيه.

قالت ليزا:

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش، هو أيضاً، حدّثني عنك كثيراً.

فاحمرّ وجه شاتوف فجأة.

قالت ليزا وهي تتناول عن الكرسي حزمة من الجرائد كانت قد أعدّتها ووضعتها هناك:

ـ إليك الجرائد على كل حال. لقد حاولت أن أتخيّر من بين الوقائع بعضها، فأشرت إليه ووضعت له أرقاماً... سوف ترى.

تناول شاتوف حزمة الجرائد.

ـ خذها معك، وادرسها في بيتك. أين تسكن؟

ـ عمارة فيليبوف، شارع إيبيفانيا.

ـ أعرف. وهنالك أيضاً إنما يسكن، فيما أظن، رجل يُدعى لبيادكين.

لبث شاتوف جالساً، خافض العينين، ممسكاً حزمة الجرائد بيده، صامتاً لا يجيب خلال دقيقة كاملة. ثم قال بصوت منخفض انخفاضاً غريباً حتى ليكاد يكون تمتمة:

ـ الأفضل أن تختاري لمثل هذه الأمور شخصاً آخر. أنا لن أنفعك.

فاحمرت ليزا احمراراً شديداً، ثم هتفت تقول:

ـ أي أمور تقصد؟ ثم نظرت إلى الضابط: يا مافريكي نيقولايفتش، جئني من فضلك بالرسالة التي وصلت منذ مدة قصيرة.

وتبعت الضابط إلى المائدة.

قالت مضطربة أشد الاضطراب وهي تلتفت نحوي فجأة وتفضّ الرسالة:

ـ انظر! هل رأيت في حياتك شيئاً كهذا؟ اقرأ الرسالة بصوت عال، أرجوك. إنني في حاجة إلى أن يسمعها السيد شاتوف أيضاً.

فقرأت الرسالة التالية مندهشاً أشد الاندهاش:

إلى الآنسة توشين الكاملة أعظم الكمال
إلى المحترمة جداً ليزافتا نيقولايفنا!
آه ما أروعها
ليزافتا توشين،
حين تعدو مع قريبها
على صهوة جوادها الكريم
فتلاعب الريح ضفائر شعرها.
أو حين تسجد في الكنيسة
فيتخضب وجهها بجمرة حلوة.
عندئذ أتطلع إلى أفراح الزواج المشروعة
وأتابع آثارها بآليا...

"نظمها جاهل أثناء مناقشة"

"سيدتي..

"أكثر من أي إنسان آخر، يؤسفني ويحزنني أنني لم أفقد ذراعاً في سيباستوبول، لأنني لم أكن في سيباستوبول في يوم من الأيام، وإنما قضيت مدة الحرب أعمل في مصلحة التموين الخسيسة، وذلك ما أعدّه صَغاراً. أنت إلهة من آلهة الأساطير القديمة، أما أنا فلست شيئاً، ولكنني أحس سلفاً باللانهاية. اعتبري هذا قصيدة، فهو ليس أكثر من ذلك. وما

الشعر في النهاية إلّا حماقة، لكنه يسوغ ما لو قيل نثراً لعُدّ وقاحة. هل يمكن أن تغضب الشمس من دويبة الماء إذا خاطبتها الدويبة بقصيدة من قرارة قطرة الماء التي يكتشف فيها المِجهَر عدداً كبيراً من هذه الدويبات؟ حتى نادي حماية الحيوانات[1] الكبيرة الذي أُنشئ ببطرسبرج، في المجتمع الراقي، رغم ما يشعر به من عطف على كلب أو حصان، وهو عطف في محله، إنما يحتقر دويبة الماء الرقيقة ولا يشير إليها أي إشارة، لأنها غاية في الصغر. أنا أيضاً في غاية الصغر. وفكرة الزواج يمكن أن تبدو سخيفة مضحكة. لكنني سأملك بعد قليل أرضاً تُقدّر في الحساب القديم بمائتي نفس[2]، وذلك بواسطة رجل كاره للبشر لا بد أنك تحتقرينه. إن في إمكاني أن أطلعك على أشياء كثيرة، بل إنني مستعد لأن أواجه احتمال النفي إلى سيبريا، لأنني أستند إلى وثائق. لا تحتقري ما أعرضه عليك. اعتبري رسالة دويبة الماء شعراً".

هتفت أقول مستاءً:

ـ هذه الرسالة قد كتبها وغد حقير سكّير. إنني أعرفه.

قالت ليزا متدفقةً في كلامها وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة:

ـ تلقيتها أمس. فسرعان ما أدركت أنها صادرة عن معتوه! لم أُظهر عليها ماما حتى الآن، حتى لا تضطرب مزيداً من الاضطراب. ولكن إذا تمادى، فإنني لا أدري ماذا أفعل. إن مافريكي نيقولايفتش يريد أن يمضي إليه فيؤدبه ويرده إلى الصواب.

ثم قالت لشاتوف:

ـ لما كنت أعدّك معاوني، وما دمت تقطن في نفس العمارة، فقد أردت أن أسألك عما ينبغي أن أتوقع منه.

فدمدم شاتوف يقول كمن يتكلم على مضض:

ـ سكّير ودنيء!

---

(1) تأسست جمعية لحماية الحيوانات سنة 1875 ببطرسبرج.

(2) قبل إصلاح 1861 كانت قيمة الأرض تقدر بعدد "النفوس" الأقنان.

ـ أهو غبي إلى هذا الحد؟
ـ لا يكون غبياً إذا لم يشرب فيسكر.
قلت ضاحكاً:
ـ أعرف جنرالاً كان ينظم أشعاراً كهذه تماماً.
وانبرى مافريكي نيقولايفتش الصموت دائماً فقال على حين فجأة:
ـ هذه الرسالة وحدها تدل على أنه يبيّت أمرًا.
سألت ليزا:
ـ سمعت أنه يعيش مع أخته، أهذا صحيح؟
ـ نعم.
ـ يظهر أنه يضطهدها ويسومها سوء العذاب. أهذا صحيح؟
مرة أخرى رفع شاتوف عينيه نحو ليزا، وقطب حاجبيه، وتقدم خطوة نحو الباب وهو يدمدم قائلاً:
ـ ذلك لا يعنيني!
صاحت ليزا تقول مضطربة كل الاضطراب:
ـ انتظر! إلى أين تذهب؟ ما يزال علينا أن نتفق على أمور كثيرة!
ـ على ماذا يجب أن نتفق؟ سأبلغك غداً بردّي...
ـ لم نتحدث حتى الآن عن الشيء الأساسي، عن المطبعة. صدّق أن مشروعي ليس مزاحاً. إنني أريد أن أعمل فيه جادةً.
كذلك ألحت ليزا وهي تضطرب مزيداً من الاضطراب. وتابعت كلامها تقول:
ـ إذا قررنا إصدار هذا الكتاب، فأين سنطبعه؟ ذلك أهم شيء. لن نمضي نقيم بموسكو خصيصاً لهذا الغرض. ومن جهة أخرى لا نستطيع أن نعتمد على المطبعة الموجودة هنا لإنجاز عمل من هذا النوع. لذلك قررت منذ مدة طويلة أن تكون لي مطبعة خاصة بي، تُسجّل باسمك طبعاً. أنا أعلم أن ماما لن تسمح لي بامتلاك المطبعة إلّا على شرط أن تُسجّل باسمك...
سألها شاتوف مربدّ الوجه:

ـ كيف عرفت أن في وسعي أن أتولى أمر مطبعة؟

ـ إن بطرس ستيفانوفتش هو الذي حدثني عنك في سويسرا، فأكد لي أنك قادر على إدارة مطبعة، لمعرفتك بالمهنة. حتى لقد أراد أن يحمّلني رسالةً إليك، لكنني نسيت.

تغير وجه شاتوف لدى سماع هذه الكلمات (أتذكر هذا الآن). ولبث صامتاً لحظة، ثم فتح الباب فجأة وخرج.

زعلت ليزا.

وسألتني: ـ هل يتصرف دائماً على هذا النحو؟

وبينما كنت أرفع كتفيّ جواباً على سؤالها، إذا هو يعود بغتة، فيتوجه نحو المائدة رأساً، فيضع عليها حزمة الجرائد التي كان قد حملها. وقال:

ـ لن أتعاون معك. لا يتسع وقتي...

فهتفت ليزا تقول بصوت متألم متضرع:

ـ ولكن لماذا؟ لماذا؟ يبدو عليك أنك زعلان!

فظهر عليه أن نبرة صوتها قد فاجأته، فتأملها ملياً بضع لحظات، كأنه يريد أن ينفذ إلى قرارة نفسها. ثم قال بصوت خافت:

ـ ليس هذا مهماً. لا أريد.

وخرج جازماً في هذه المرة.

بدا لي في تلك اللحظة أن ليزا قد تشوشت تشوشاً كبيراً تجاوز الحدود المعقولة.

وقال مافريكي نيقولايفتش: ـ إنه غريب الأطوار حقاً.

3

"غريب الأطوار" فعلاً. ولكن الأمر كله ليس واضحاً، ولا بد أن له أسباباً خبيئة. رفضت، بيني وبين نفسي، أن آخذ مشروع نشر الكتاب مأخذ الجد. ثم إن هناك تلك الرسالة الحمقاء التي يعرض فيها كاتبها، وذلك أمر واضح كل الوضوح، أن يشي بشخص ما بالاستناد إلى وثائق. ولم ينطق

أحـد بكلمة حول هـذا الموضوع، وجعلـوا يتكلمون في شـيء آخر. وهناك أخيـراً حكاية المطبعة، وانصرف شـاتوف على حين فجـأة مدفوعاً إلى ذلك بكلمـات معينـة قالتها ليزا بهذا الصدد. ذلك كلـه حملني على التفكير في أن أمراً أجهله كان قد حدث قبل وصولي، وأن وجودي إذن كان زائداً، وأن ذلك كلـه لا يعنيني علـى كل حال. ثم لقد آن أوان الانصـراف. وما يجوز أن تمتد زيارة أولى وقتاً أطول. فاقتربت من ليزا نيقولايفنا لأودّعها.

كانـت كأنها نسـيت وجودي، وهي ما تزال واقفة أمـام المائدة، غارقة في أفكارها، خافضة الرأس، محدّقة بعينها إلى السجادة.

دمدمت تقول بصوتها الذي ما يزال ودوداً:

ـ آ... أتنصـرف أيضـاً. انقـل تحيتـي إلـى سـتيفان تروفيموفتـش وقل له أن يجيئنـي فـي أقـرب وقـت ممكـن. يـا مافريكـي نيقولايفتـش، إن أنطون لافرونتيفتش ذاهب. اعذر ماما، فإنها لا تستطيع أن تجيء لتودعك.

وخرجت. فلما وصلت إلى أدنى السلم أدركني خادم وقال لي:

ـ السيدة ترجوك أن تعود.

ـ أهي السيدة أم ليزافتا نيقولايفنا؟

ـ ليزافتا نيقولايفنا.

فلما رجعت وجدت ليزا انتقلت من الصالون الكبير إلى صالة الاسـتقبال المجـاورة. وكان الباب الذي يفصل هذه الصالـة عن الصالون الذي بقي فيه مافريكي نيقولايفتش مغلقاً.

ابتسـمت لي ليزا وهـي مصطبغة الوجه بصفرة شـديدة. كانـت واقفة في وسـط الغرفـة على وضـع متـردد، وكان واضحـاً أنها تعانـي صراعـاً داخلياً عنيفـاً. وفجأة تناولت يـدي دون أن تقول كلمة واحدة، وقادتني نحو النافذة. ودمدمت تقول لي وهي تصوّب إليّ نظرة حارة آمرة نافذة الصبر، لا تقبل أي اعتراض:

ـ أريد أن أراها حالاً. أريد أن أراها بعينيّ، وأرجوك أن تساعدني في هذا.

سألتها مرتاعاً:

ـ مَنْ التي تريدين أن ترينها يا ليزافنا نيقولايفنا؟
ـ أخت لبيادكين، تلك العرجاء... أصحيح أنها تعرج؟
ذُهلت وشُدهت، وأسرعت أجيبها بصوت خافت أيضاً:
ـ لم أرها في حياتي، ولكن قيل لي إنها عرجاء، قيل لي هذا أمس.
ـ يجب أن أراها حتماً. هل يمكن أن يتم هذا اللقاء اليوم؟ هل تستطيع أن تدبّر ذلك؟
وشعرت نحوها بشفقة على حين فجأة. قلت:
ـ مستحيل. حتى إنني لا أعرف كيف أحتال على الأمر. سأرى شاتوف...
ـ إذا لم تتوصل إلى تدبير هذا اللقاء حتى الغد، فسأذهب أنا إلى عندها، سأذهب وحدي، لأن مافريكي نيقولايفتش يرفض أن يصحبني. أملي الوحيد فيك أنت. لا أستطيع أن أعتمد على أحد غيرك. لقد كلمتُ شاتوف بكثير من الحماقة والغباوة منذ قليل. إنني على يقين من أنك رجل شريف كل الشرف، وأنك ربما كنت مخلصاً لي. دبّر لي هذا اللقاء، أرجوك!
أحسست فجأة برغبة قوية كل القوة في مساعدتها. فقلت لها بعد لحظة من تأمل:
ـ إليك ما سوف أفعله: سأذهب بنفسي، وسأظفر برؤيتها حتماً، حتماً، لك عليّ عهد الشرف لأظفرنّ بذلك. ولكن اسمحي لي بأن أكاشف في شاتوف بالأمر.
ـ قل له إن هذه رغبتي، وإنني أصبحت لا أطيق الانتظار ولكن قل له أيضاً أنني لم أخدعه منذ قليل. فلعله انصرف لأنه صريح جداً، ولأنه تخيّل أنني أردت أن أخدعه. لا، لم أكذب. إنني عازمة فعلاً على إصدار ذلك الكتاب وعلى إنشاء مطبعة.
قلت ملحّاً بحرارة:
ـ نعم، إنه صريح وشريف.
ـ ولكن إذا لم يتم الأمر غداً فسوف أذهب إليها بنفسي مهما يحدث من أمر، سوف أذهب إليها ولو عرف بذلك جميع الناس.

قلت وقد استرديت هدوئي:

ـ لن أستطيع أن أجيئك غداً قبل الساعة الثالثة.

قالت وهي تبتسم:

ـ طيب. أنتظرك في الساعة الثالثة. لم يخطئ ظني إذن بالأمس حين قدّرت أنك مخلص لي.

وشدت على يدي بسرعة، وجرت تدرك مافريكي نيقولايفتش.

خرجت مرهقاً بثقل الوعد الذي قطعته على نفسي. لم أفهم ماحدث. رأيت امرأة قد بلغت ذروة الكمد والحزن، ولا تخشى أن تعرّض نفسها لسوء باعتمادها على رجل لا تكاد تعرفه. إن ابتسامتها الملاطفة، في لحظة تبلغ هذا المبلغ من الخطورة، واعترافها هي ذاتها بأنها لاحظت عواطفي، ذلك كله قد هزّ قلبي هزّة قوية. ولكنني لم أشعر نحوها إلّا بالشفقة. وأصبحت أسرارها في نظري مقدسة إن صح التعبير، فلو أراد أحد أن يفضي بها إليّ الآن لسددت أذنيّ رافضاً سماعها وكنت مع ذلك لا أدري حقاً كيف عسى أتصرف لأفي بوعدي. بل هناك ما هو أكثر من ذلك: كنت لا أعرف على وجه الدقة ما المطلوب مني. إن عليّ أن أهيء لقاءً، ولكن أي لقاء؟ وكيف أتصرَّف من أجل أن أجمعهما؟ كان أملي كله في شاتوف. ولكنني كنت على ثقة بأنه لن يساعدني البتة. ومع ذلك هرعت إليه.

4

لم يعُدْ إلى البيت إلّا في نحو الساعة الثامنة مساءً. وما كان أشد دهشتي حين رأيت عنده زوّاراً، هم ألكسي نيلتش وسيد لا أكاد أعرفه، رجل يقال له شيجالوف، هو أخو زوجة فرجنسكي.

إن شيجالوف هذا قد وفد إلى مدينتنا منذ قرابة شهرين، إذا لم يخطئ تقديري. لا أدري من أي بلد جاء. كان يقال إنه نشر مقالات في مجلة تقدمية ببطرسبرج. وقد قام فرجنسكي بتعريف أحدنا بالآخر في الشارع ذات يوم. لم أر في حياتي وجهاً كوجه هذا الرجل عبوساً وتجهماً بل وحداداً. لكأنه

يتوقع دمار العالم وخراب الكون لا في وقت قريب أو بعيد، وفقاً لنبوءات يمكن أن تتحقق ويمكن أن لا تتحقق، بل في وقت محدد معين، بعد غد مثلاً، في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين من المساء. لم نكد نتبادل كلمتين في ذلك اللقاء الأول، وإنما اكتفينا بأن نتصافح كما يتصافح شريكان في مؤامرة. وقد لفتت نظري فيه خاصةً أذناه الضخمتان ضخامة غير عادية، الطويلتان العريضتان السميكتان، المتباعدتان عن رأسه تباعداً غريباً. وكانت حركاته بطيئة خرقاء. إذا كان ليبوتين يتخيل أننا قد نتوصل يوماً إلى إنشاء تعاونية على طريقة فورييه في مقاطعتنا، فإن شيجالوف كان يحدد لك اليوم والساعة اللذين سيتحقق فيهما قيام هذه التعاونية. لقد أحدث شيجالوف في نفسي إحساساً يشتمل على شؤم. وفاجأني أن ألقاه عند شاتوف، لاسيما وأن شاتوف كان لا يحبّ الزيارات كثيراً.

لقد سمعتهم يتناقشون هم الثلاثة مناقشة حامية جداً منذ أن كنت أصعد السلّم. كان يبدو أنهم يتشاجرون. ولكن ما إن دخلت حتى صمتوا. كانوا يتشاجرون وهم واقفون، ولكنهم حين رأوني عادوا يجلسون، فكان عليّ أن أجلس أنا أيضاً. وران على الغرفة صمت أبله امتدّ ثلاث دقائق كاملة. وتظاهر شيجالوف بأنه لا يعرفني رغم أنه قد تعرّفني فعلاً، تظاهر بذلك لا بدافع عداوة، بل بدون أي سبب حتماً. أما ألكسي نيلتش فقد حياني وحييته من بعيد صامتَيْن، دون أن نتصافح، لا أدري لماذا! أخذ شيجالوف يرمقني بنظرة قاسية، مستاءة، مقتنعاً بأنني سأنهض وأنصرف. وقام شاتوف أخيراً، وقام بعده الآخران. وخرجا دون أن يودّعا. ولكن شيجالوف قال عند العتبة لشاتوف الذي كان يشيّعهما إلى الباب:

ـ تذكّر أن عليك حساباً لنا ستؤديه.

ـ أنا لا أبالي بهذا كله، وليس عليّ حساب أؤديه لأحد.

قال شاتوف ذلك وأغلق الباب وراءهما، وأحكم شدّ مزلاجه. ثم قال وهو ينظر إليّ ويبتسم ابتسامة تشبه أن تكون تكشيرة:

ـ يا للمعتوهين!...

كان يبدو غاضباً، وأدهشني منه أن يكون هو البادئ بالكلام. لقد عوّدني، حين كنت أجيء إليه (وذلك نادر جداً) أن أراه يجلس في ركن من الأركان عابساً، وأن يجيب عن أسئلتي على مضض، ثم لاينتعش ويتحمس إلّا بعد وقت، فإذا هو يتحدث عندئذ راضياً مسروراً. ولكنه حين يشيّعك مودّعاً ويفتح الباب، يسترد هيئة من ظفر أخيراً بالتخلص من عدو شخصي.

قلت: ـ لقد تناولت الشاي عند ألكسي نيلتش. أعتقد أن الإلحاد قد جعله مجنوناً.

فدمدم شاتوف يقول وهو يضع شمعة جديدة محل شمعة ذائبة:

ـ إن الإلحاد الروسي لم يتجاوز في يوم من الأيام حدود التلاعب اللفظي.

ـ لا، لا يبدو لي أن كيريلوف واحد من الذين يتلاعبون بالألفاظ. إنه عاجز حتى عن التعبير البسيط. فأنى له أن يقدر على أمازيح قوامها التلاعب بالألفاظ.

قال بهدوء:

ـ هؤلاء رجال من كرتون. تفكيرهم مستعبد. ذلك مصدر كل شيء.

وجلس على كرسي في ركن، باسطاً يديه فوق ركبتيه.

ثم قال بعد لحظة صمت:

ـ ثم إن في ذلك كله كرهاً وبغضاً. ألا إنهم ليصبحون تعساء تعاسةً رهيبة لو قُيّض لروسيا أن تتبدل فجأة وفقاً لما تقتضيه آراؤهم، فإذا هي تصبح بلداً غنياً مزدهراً يرفرف عليه الرخاء دفعةً واحدة. ذلك أنهم، إذا تحقق ذلك، لا يبقى ثمة من يكرهونه ويبغضونه، لا يبقى ثمة من يبصقون عليه، لا يبقى ثمة من يسخرون منه ويستهزئون به. إن مردّ ذلك كله إلى كره وبغض يشعرون بهما نحو روسيا، كره وبغض حيوانيين إن صح التعبير، يملآن شعاب نفوسهم ويشيعان في خلايا أجسامهم... ليس الأمر عندهم أمر إخفاء دموعهم وراء ابتسامة[1].

---

(1) الإشارة إلى جملة لجوجول يقول فيها إنه في نقده يضحك من خلال الدموع.

وختم كلامه بقوله صائحاً بحنق شديد:

ـ ما من جملة أكذب من هذه الجملة قيلت في يوم من الأيام!

قلت: ـ الله يعلم ما هذا الذي تقول!

وأخذت أضحك.

قال شاتوف مبتسماً هو أيضاً:

ـ أما أنت فلست إلّا "لبرالياً معتدلاً".

ثم استأنف كلامه:

ـ أظن أنني قد أفلتت مني كلمة سخيفة حين تكلمت عن "تفكيرهم المستعبد" لعلك ستقول: "أنت ابن عبد خادم، أما أنا فلم أكن خادماً في يوم من الأيام".

ـ ما خطر ببالي أن أقول كلاماً كهذا الكلام في لحظة من اللحظات... ما هذا الذي تقول؟!...

ـ لا تعتذر. لست خائفاً منك. أنا لم أكن في الماضي إلّا ابن خادم ولكنني اليوم خادم أنا أيضاً، مثلك تماماً. إن اللبرالي الروسي خادم قبل كل شيء، خادم يبحث عن أحذية يلمّعها.

ـ أية أحذية؟ ما معنى هذا المجاز؟

ـ مجاز؟... أرى أنك تضحك... لقد صدق ستيفان تروفيموفتش حين قال إنني مهشَّم تحت صخرة، ولكن ليس إلى حد الموت، وإنني أحاول عبثاً أن أنهض. إن تشبيهه هذا صحيح.

قلت ضاحكاً:

ـ ستيفان تروفيموفتش يقول إنك لا همّ لك إلّا الألمان. لقد أخذنا منهم شيئاً على كل حال.

ـ نعم، أخذنا خمسين كوبكا، ولكننا أعطيناهم مائة روبل من أموالنا.

ولبثنا صامتين دقيقة كاملة.

ـ في أمريكا إنما نشأ عنده هذا.

ـ من هو؟ ماذا نشأعنده؟

ـ كيريلوف. لقد قضينا معاً في أمريكا أربعة أشهر، راقدين جنباً إلى جنب في كوخ حقير.

ـ ماذا؟ كنتما في أمريكا؟ لم تذكر لي ذلك في يوم من الأيام.

ـ ما الداعي إلى ذكره؟ منذ سنتين، جازفنا بآخر ما نملك من قروش، فسافرنا ثلاثة أشخاص إلى الولايات المتحدة على سفينة مهاجرين[1] "لنتذوق حياة العامل الأمريكي، ولندرك بتجربة شخصية خاصة بنا حالة إنسان يوجد في ظروف اجتماعية شاقة قاسية". تلك كانت الغاية من رحلتنا.

صحت أقول وأنا أضحك:

ـ يا سلام! علام السفر إلى أمريكا لمعاناة تلك التجربة الشخصية؟ كان الأفضل لكم أن تذهبوا إلى ريفنا في فترة الحصاد.

ـ دخلنا هنالك عمّالاً لدى مستثمر. كان مجموع عدد الروس عنده ستة، منهم الطالب، ومنهم مالك الأطيان جاء من أراضيه، بل ومنهم الضابط، وكانت غاية الجميع هي تلك الغاية السامية نفسها. عملنا، وعرقنا، وتعبنا حتى كدنا نموت، وأخيراً انصرفنا أنا وكيريلوف مكدودين متعبين وقد عيل صبرنا وأصبحنا لا نستطيع احتمال المزيد. وقد خدعنا صاحب العمل حين دفع لنا أجرنا: فبدلاً من أن ينقدنا الثلاثين دولاراً المتفق عليها، أعطاني أنا ثمانية، وأعطى كيريلوف خمسة عشر. وقد حدث أن ضُربنا غير مرة. هكذا أصبحنا بدون عمل، فلبثنا راقدَيْن في كوخ حقير جنباً إلى جنب. كان هو يجتر أفكاره، وكنت أنا أجتر أفكاري.

ـ هل يعقل أن يكون صاحب العمل قد ضربكما؟ وفي أمريكا؟ إنني أتخيل الحنق الذي كان يستعر عندئذ في قلبيكما، وأتخيل كيف كنتما تلعنانه.

ـ لا، أبداً! بالعكس: لقد اتفق رأينا أنا وكيريلوف فوراً على أننا "معشر الروس لسنا إلّا أطفالاً صغاراً بالقياس إلى الأمريكان، وإن على المرء

---

(1) بين آ. دولينين في تعليقه على رسالتين من دوستويفسكي أن قصة شاتوف عن سفره إلى أمريكا تستمد بعض عناصرها من مقالة كتبها آ. أوجورودفيكوف وظهرت في مجلة الفجر سنة 1870، وفيها يتحدث الكاتب عن انطباعات رحلته إلى أمريكا.

أن يكـون قـد ولد بأمريـكا أو عاش فيها زمنـاً طويلاً حتى يرقى إلى مسـتوى الأمريكان". بل أقول لك أكثر من ذلك: حين كان يؤخذ منا دولار كامل ثمناً لشـيء لا يسـاوي قرشـاً، كنا ندفع الدولار راضين، بل وكنا ندفعه مسرورين مفتونين. كان كل شيء يفتننا: تحضير الأرواح، قانون لنتش[1]، المسدسات، المشـردون. وفي ذات يوم، أثناء سفر، دسّ أحدهم يده في جيبي، فاستل منه فرشـاة شـعرى، وأخذ يصفف شـعره. فلم نزد أنا وكيريلوف علـى أن تبادلنا نظرة: واستقر رأينا على أن الرجل قد أحسن صنعاً، وأن هذا قد أعجبنا كثيراً.

قلت: ـ الشـيء الغريب أن مثل هذه الأفكار تنتقل عندنا من نطاق النظرية إلى حيز العمل.

عاد شاتوف يكرر: ـ قلت لك: أناس من كرتون!

ـ ومع ذلك... أن يقطع المرء المحيط على سـفينة مهاجرين، مسافراً إلى بلد مجهول لا لشيء إلّا أن "يعاني تجربة شخصية"، إلخ، فإن في ذلك لشيئاً عظيماً بالفعل!... وكيف خرجتم بعد ذلك من المأزق؟

ـ كتبت إلى صديق لي بأوروبا فأرسل إليّ مائة روبل.

كان شـاتوف، وهو يتكلم، محدقاً إلـى الأرض في عناد، على عادته حتى حين يتحمس. ومع ذلك رفع رأسه في تلك اللحظة قائلاً:

ـ هل تريد أن تعرف اسم ذلك الصديق؟

ـ ما اسمه؟

ـ نيقولاي ستافروجين.

ونهض بغتة، واتجه نحو منضدة الكتابة المصنوعة من خشـب الزيزفون، وبـدا عليـه أنه يبحث عن شـيء ما. كان يُقـال في المدينـة ـ دون الدخول في تفاصيل واسـعة ـ أن امرأة شـاتوف قد كانت لها قبل سـنتين علاقة بنيقولاي سـتافروجين في باريس. فهذه العلاقة إنما قامت إذن أثناء فترة إقامة شـاتوف بأمريكا، وبعد أن تركت المرأة زوجها بجنيف.

---

(1) "قانون لنتش": من الإجراءات التي كانت معروفة في أمريكا، فالجمهور حين يقبض على مجرم يستطيع أن يحكم عليه بالإعدام وأن ينفذ الحكم فوراً.

قلت لنفسي: "إذا كان الأمر صحيحاً، فما الذي دفعه إلى ذكر اسم ستافروجين، وإلى الإفاضة في سرد هذه القصة؟".

قال وهو يلتف نحوي من جديد: ـ وحتى الآن لم أردّ إليه دينه.

ونظر إليّ محدقاً، ثم مضى يجلس ثانية في ركنه، وسألني على حين بغتة بصوت قد تغير تغيراً كاملاً:

ـ أنت إنما جئت لأمر من الأمور حتماً، فما الذى تريده؟ فشرعت أقصّ عليه القصة كلها فوراً، على حسب تسلسل الوقائع في الزمان، وأضفت إلى ذلك قولي إنني وقد هدأ الانفعال الأول قد أصبحت أشد ارتباكاً وحيرة: فأنا أدرك أن الأمر يهم ليزافتا نيقولايفنا كثيراً، وأنا عازم على مساعدتها عزماً أكيداً، ولكن البلية هي أنني لا أعرف كيف أتدبر المسألة، بل ولا أعي ما وعدتها به وعياً تاماً. وأكدت له أخيراً أن ليزافتا نيقولايفنا لم تشأ أن تخدعه، بل وأن فكرة الخديعة لم تخطر لها ببال قطّ، وأن كل ما في الأمر أنه قد وقع سوء تفاهم، وأنها آسفة أشدّ الأسف لانصرافك المباغت.

كان يصغي إليّ بانتباه. وقال:

ـ ربما كنت قد ارتكبت غلطة بالفعل، على عادتي... وإذا كانت لم تفهم سبب انصرافي فلعل في هذا خيراً لها...

ونهض، واقترب من الباب، وفتحه، وأخذ يصغي إلى ما قد يسمعه من أصوات في السلّم. ثم سألني:

ـ أأنت حريص على رؤية تلك الإنسانة بنفسك؟

ـ فهتفت أجيبه مسروراً مفتوناً:

ـ نعم، ولكن كيف يمكن تدبير الأمر؟

ـ مسألة بسيطة. فلنذهب إليها معاً مادامت وحيدة. حين يعود، فسيضربها إذا علم أننا جئنا إليها. إنني كثيراً ما ألقاها خفيةً. وفي هذا الصباح كلمت لبيادكين لأنه عاد يضربها.

ـ ماهذا الذي تقوله؟

ـ وشددته من شعره. وقد أراد أن يتعارك معي، لكنه تراجع. ووقفنا عند

ذلك الحد. لذلك أخشى إذا رجع ثملاً، أن يتذكر ما وقع فيأخذ يضربها انتقاماً.

5

كان باب بيت لبيادكين مغلقاً ولكنه ليس مقفلاً بالمفتاح، فدخلنا. إن المسكن يتألف من غرفتين صغيرتين حقيرتين قد اسودّت حيطانهما بالدخان، وبليت أوراق جدرانهما حتى لترى الورق المتسخ البالي يتدلى مزقاً بالفعل. في هذا المكان إنما كان فيليبوف قد أقام حانته خلال سنين قبل أن ينقلها إلى منزله الجديد. فلما انتقل أقفل جميع الغرف إلّا غرفتين اثنتين هما اللتان يسكنهما الآن لبيادكين وأخته. إن الأثاث يتألف من مقعد عتيق فقد مسنديه، ودككٍ وموائد من خشب أبيض، وفي الغرفة الثانية مع ذلك سرير يغطيه غطاء من قطن، فعلى ذلك السرير إنما تنام الآنسة لبيادكين. أما الكابتن فإنه حين يرجع إلى البيت في المساء يسقط على الأرض كتلةً واحدة دون أن يخلع ثيابه في أكثر الأحيان.

كل شيء هنا قذر رطب. في وسط الغرفة ترقد خرقة كبيرة مبللة، وإلى جانبها فردة حذاء مهترئة مثنية تسبح في تلك البركة نفسها من الماء. واضح أنه ما من أحد يعنى هنا بنظافة المسكن، والمدفأة لا تشعل في يوم من الأيام، وطبخ الطعام غير معروف البتة، حتى إن بيت لبيادكين ـ فيما قال شاتوف ـ ليس فيه سماوراً للشاي.

حين وصل الكابتن إلى مدينتنا كان في حالة عوز شديد وبؤس رهيب، فكان يقرع الأبواب مستجدياً هنا وهناك. ولكنه ما إن أخذ يتلقى مالاً حتى أخذ يشرب، وفقد صوابه تماماً، ولم يفكر في مسكنه طبعاً.

إن الآنسة لبيادكين التي حرصتُ على رؤيتها كل ذلك الحرص، هي الآن جالسة على دكة أمام مائدة في ركن من الغرفة الثانية. هادئة ساكنة صامتة. لم توجه إلينا الكلام حين دخلنا، بل إنها لم تقم بحركة واحدة. قال لي شاتوف إن باب المسكن لا يقفل بالمفتاح في يوم من الأيام، حتى إنه ظل في إحدى

الليالي مفتوحاً على وسعه كلها طول الوقت.

استطعت بفضل نور كابٍ تنشره شمعةٌ نحيلةٌ مغروسةٌ في شمعدان من حديد، أن أرى الآنسة لبيادكين. إنها نحيلة نحولاً مَرَضياً، ولعلها في الثلاثين من عمرها. وهي ترتدي فستاناً عتيقاً من نسيج قطني قاتم اللون، يكشف عن رقبتها الطويلة. شعرها الأسمر القليل مفتول عند قفا الرأس كبةً لا يزيد حجمها على حجم قبضة يد طفل في السنة الثانية من عمره.

نظرتْ إلينا مرحة الهيئة. وكان أمامها على المائدة، إلى جانب الشمعدان، مرآة صغيرة من المرايا التي يرى المرء مثيلاتها عند القرويين، ومجموعة قديمة من ورق اللعب، وكراسة أغانٍ مهترئة، ورغيف صغير من خبز أبيض كانت قد عضت منه لقمةً أو لقمتين.

كان واضحاً أن الآنسة لبيادكين تستعمل المساحيق وتصبغ شفتيها وتكحّل حاجبيها الدقيقين الطويلين القاتمين. وكانت ثلاثة أخاديد طويلة تغضّن جبينها الضيق العالي تغضيناً واضحاً رغم طلائه بالبياض. وكنت أعلم أنها تعرج، لكنها لم تنهض أثناء وجودنا. ولعل هذا الوجه الذي أصبح الآن ناحلاً هزيلاً قد كان في أيام صباه الأول حلواً جميلاً. وما تزال عيناها الشهباوان العذبتان اللطيفتان محتفظتين بجمالهما. إن نظرتهما الوادعة، التي تكاد تكون فرحة، تشتمل على تعبير صادق حالم. وقد فاجأني هذا الفرح الهادىء الذي يشعّ أيضاً من ابتسامتها، بعد كل ما عرفته عن قسوة أخيها في معاملتها وعن ضربات السوط التي كان يهوي بها عليها. ولم أشعر تجاهها بما يشعر به المرء حين يلقى أمثال هذه المخلوقات التعيسة من اشمئزاز أليم وجل، وإنما شعرت في الوهلة الأولى بإحساس غريب، يكاد يكون سروراً بالنظر إليها، وهذا الإحساس قد حلّت محلّه الشفقة بعد ذلك، ولم يحلّ محلّه الاشمئزاز قط.

قال لي شاتوف وهو يومئ إليها من الباب:

ـ أترى؟ إنها تظلّ جالسةً هذه الجلسة أياماً بكاملها، وحيدة لا تتحرك، فإما أن تسحب ورقاً من مجموعة أوراق اللعب التي أمامها، وإما أن تنظر

إلـى وجهها فـي المرآة. إن أخاها لا يأتيها حتى بطعـام. والمرأة العجوز التي تخـدم كيريلـوف هي التـي تحمل إليها بعـض الغذاء بين الحيـن والحين من باب الشـفقة والرحمة والإحسان. إنني لا أفهم كيف يتركها هكذا وحيدة مع شمعة.

قالت الآنسة لبيادكين بصوت ودود:

ـ يومك سعيد يا شاتوشكا[1].

ـ فقال لها شاتوف:

ـ لقد جئت بزائر يا ماريا تيموفئفنا!

ـ مرحبا بالزائر. بمن جئتني؟ يخيّل إليّ أنني لا أعرفه.

ونظرت إليّ طويلاً في ضوء الشـمعة، ثم التفتت نحو شـاتوف، ولـم تنظر إليّ بعد ذلك البتة، ولا اكترثت بي أي اكتراث، فكأنني غير موجود.

سـألت شـاتوف ضاحكةً، كاشـفةً عـن صفين من الأسـنان كأنهـا حبات اللؤلؤ جمالاً:

ـ لا شـك أنـك سـئمت التجول وحيداً فـي غرفتك طـولاً وعرضاً، أليس كذلك؟

ـ نعم، ولقد أردت كذلك أن أسلّم عليك.

قال شاتوف ذلك وقرّب دكة من المائدة وأجلسني إلى جانبه.

قالت الآنسة لبيادكين:

ـ إننـي ليسـرّني الحديـث كثيراً فـي جميع الأحيـان. ولكنـك تضحكني ياشاتوشـكا. لكأنـك راهب حقاً. منـذ متى لـم تصفف شَـعرك؟ اقترب مني، سأصفّف لك شعرك.

قالت ذلك وهي تستل من جيبها مشطاً صغيراً. وأضافت:

ـ أنا واثقة بأنك لـم تمشط شعرك منذ أن مشطته لك آخر مرة.

أجابها شاتوف ضاحكاً:

ـ ليس عندي مشط.

---

(1) "شاتوشكا" تصغير لاسم شاتوف من باب التودد والتدليل.

ـ حقاً؟ إذن سأعطيك مشطي. ليس هذا، بل مشطاً آخر. ذكّرني.

وأخذت تصفّف شعره وقد لاح في وجهها كل الجد والاهتمام، حتى لقد فرقته من جانب، وتقهقرت قليلاً إلى وراء لتمعن النظر إليه وتحسن الحكم عليه. ثم أعادت المشط إلى جيبها. وقالت لشاتوف:

ـ هل تعرف ماذا أريد أن أقول لك يا شاتوشكا؟ إنك قد تكون رجلاً عاقلاً ولكنك تشعر بضجر. إنني أنظر إليكم جميعاً فلا يسعني إلّا أن أُدهش: كيف يمكن أن يشعر الناس بالضجر. وليس الحزن هو الضجر. أما أنا فإنني مرحة.

ـ حتى حين يكون أخوك هنا؟

ـ أتقصد لبيادكين؟ إنه خادمي. ويستوي عندي وجوده وغيابه. إنني أصرخ قائلةً له: "لبيادكين، جئني بماء!" ـ "لبيادكين، ائتني بحذائيّ!" فيأتيني بهما. ولا أملك في بعض الأحيان أن أنهى نفسي عن الضحك، رغم أن ذلك من جانبي شر.

قال لي شاتوف، بصوت عالٍ أيضاً وبدون تحرّج:

ـ هذا ما يحدث فعلاً. إنها تعامله كما يعامل خادم، ولقد سمعتها بأذنيّ تصرخ قائلةً له: "لبيادكين، جئني بماء!". وكانت تضحك.

الفرق الوحيد هو أنه لا يجيئها بماء بل يضربها، ومع ذلك فهي لا تخاف منه البتة. وهي تصاب بنوبات عصبية، كل يوم تقريباً، نوبات تشوّش ذاكرتها، فإذا هي تنسى ما حدث منذ قليل، وتخلط بين الأيام وتخلط بين الساعات. هل تظن أنها تتذكر الآن كيف دخلنا عليها؟ لعلها تتذكر، ولكنها منذ الآن قد رتبت جميع الأمور على طريقتها الخاصة، ولا شك في أنها تحسبنا أشخاصاً آخرين، رغم أنها تذكر أنني "شاتوشكا". ولا يدهشنْك أنني أكلّمك بصوت عالٍ: إنها تنقطع فوراً عن الإصغاء إلى من لا يخاطبونها مباشرة، وتندفع عندئذ في أحلامها اندفاعاً مستميتاً. نعم، تندفع. هذه هي الكلمة. وتظل في مكانها مسترسلة في أحلامها ثماني ساعات كاملة دون أن تتحرك. هل ترى هذا الرغيف الصغير من الخبز الأبيض: لعلها لم تأكل منه إلّا لقمة واحدة منذ الصباح، ولعلها لن تنهيه إلّا في الغد. ها هي ذي الآن قد أخذت تسحب

من أوراق اللعب...

ـ نعم يا شاتوشكا، إنني أسحب من أوراق اللعب طوال الوقت، ولكن أوراق اللعب لا تنبئني بأي خير..

كذلك تدخلت فجأةً ماريا تيموفئفنا التي التقطت كلمتي "أوراق اللعب" عرضاً. ولعلها أيضاً قد سمعت كلاماً عن الخبز، فها هي ذي تمد يدها إلى الرغيف،فتتناوله دون أن تنظر فيه، وظلت ممسكة به في يدها بضع لحظات، ثم انصرفت بانتباهها إلى الحديث فأعادته إلى مكانه على المائدة بحركة آلية دون أن تذوقه. قالت:

ـ أوراق اللعب تقول لي شيئاً واحداً على الدوام: سفرة، رجل شرير، خيانة، مرض مميت، رسالة لا أدري ممن، نبأ غير متوقّع. تلك كلها أكاذيب فيما أظن. ما رأيك أنت يا شاتوشكا؟ إذا كان البشر يكذبون فلماذا لا تكذب أوراق اللعب أيضاً؟

قالت ذلك، وخلطت أوراق اللعب. ثم تابعت كلامها:

ـ ذلك ما كنت أقوله للأم براسكوفيا، وهي امرأة محترمة كانت تأتيني للسحب من أوراق اللعب في حجرتي مختبئة عن الأم الرئيسة. على أنها لم تكن الوحيدة في هذا. فهنّ هناك جميعاً يتنهدن، ويهززن رؤوسهن، ويناقشن. وكنت أنا أضحك وأقول لها: "من أين تريدين أن تصلك رسالة أيتها الأم براسكوفيا، أنت التي لم تتلقي رسالة واحدة منذ اثنتي عشرة سنة؟". كان صهرها وابنتها قد سافرا إلى تركيا، ولم يصل عنهما أي نبأ منذ اثني عشر عاماً. وفي مساء الغد، كنت أنا أتناول الشاي عند الأم الرئيسة (وهي من أسرة أمراء)، وكان هناك سيدة أخرى، سيدة مفرطة في الخيال كثيراً، وكان هناك راهب صغير من جبل آثوس، وهو في رأيي رجل طيب عبيط. فهل تتصور يا شاتوشكا، أن ذلك الراهب الصغير كان قد حمل من تركيا، في ذلك الصباح نفسه، إلى الأم براسكوفيا، رسالةً من ابنتها؟ نعم، هذا ماحدث! صَدَقَ إذن ورق اللعب: لقد تنبأ بنبأ غير متوقع. كنا هنالك نشرب الشاي حين قال راهب جبل آثوس للأم الرئيسة: "لا شك أن ديرك مبارك أيتها الأم الرئيسة

المقدسة، لأنه يضم بين جدرانه كنزاً ثميناً جداً. سألته الرئيسة: "أي كنز؟" فأجابها الراهب: "الأم ليزافتا المباركة". والأم ليزافتا هذه كانت تعيش في قفص بالجدار طوله سبع أقدام وعلوّه خمس... وهي هناك وراء القضبان الحديدية منذ ستة عشر عاماً، لا ترتدي في الشتاء ولا في الصيف إلّا قميصاً من القنب كانت تخزه أحياناً بإبر من القش. وهي صامتة دائماً. وهي لم تمشط شعرها ولا غسلت نفسها مرةً واحدة منذ ستة عشر عاماً. كانوا في الشتاء يعطونها جلد خروف. وفي كل يوم يمدّون إليها من خلال القضبان كسرة خبز وجرة ماء. وكان الحجاج يتأملونها متنهدين متعجبين، ويضعون لها قرشاً في طاسة. أجابت الأم الرئيسة: "ياله من كنز!" (لقد غضبت الأم الرئيسة، لأنها كانت تكره ليزافتا). وأضافت قولها: "إن ليزافتا لم تحبس نفسها إلّا بدافع الشر. ما ذلك منها إلّا عناد وتظاهر!". لم يعجبني هذا الكلام، لأنني كنت أفكر في أن أحبس نفسي أنا أيضاً. قلت: "في رأيي أن الله والطبيعة واحد..." فصاحوا جميعاً يقولون: "اسمعوا إلى هذا الكلام العجيب!...". وأخذت الرئيسة تضحك، وقالت للسيدة ما لا أدري بصوتٍ خافت، ثم نادتني إليها وكلمتني بلطف. أما السيدة فقد أعطتني شريطاً وردي اللون. هل تريد أن أريك الشريط؟ وطفق الراهب يعظني بخطبة طويلة، فكان رقيقاً كل الرقة، متواضعاً كل التواضع، ولا شك أنه كان ذكياً جداً، فلبثت أصغي إليه طول الوقت. وسألني: "هل فهمت؟" فأجبته قائلة: "لم أفهم شيئاً. ودعني وشأني". ومنذ ذلك الحين تركوني وشأني يا شاتوشكا. وفي ذلك الأوان تقريباً كانت هناك امرأة عجوز قد اعتكفت في ديرنا مكفّرة عن نبوءات زعمتها، فهمست تسألني وهي تخرج من الكنيسة: "وأم الرب، ما هي في رأيك؟". فأجبتها: إن أم الرب هي أمل النوع الإنساني. فقالت: "نعم، هذه هي الحقيقة. إن أم الرب هي أمنا جميعاً، هي الأرض المخضلة، وهذه الحقيقة تشتمل على فرح عظيم للنوع الإنساني. وكل عذاب أرضي، كل دمعة أرضية هي لنا فرح. وحين تبلل الأرض بدموعك إلى مسافة قدم في التراب، فلن يكون شيء بعدئذ إلّا فرحاً لك، ولن تعرف الألم بعدئذ في يوم من الأيام. كذلك قالت النبوءة".

حفظ قلبي هذا الكلام. ومنذ ذلك الحين، أصبحت إذا صليت وسجدت أقبّل الأرض، أقبلها وأبكي. وإليك ما سأقوله لك يا شاتوشكا: ليس في هذه الدموع أي بأس، حتى إذا كنت لا تتألم فإنها تتساقط من عينيك فرحاً، فرحاً فقط. تتساقط من تلقاء نفسها. الحق أقول لك. كنت أذهب أحياناً إلى ضفاف البحيرة: كان ديرنا في جهة، وفي الجهة الأخرى كان ينتصب جبلنا المدبب. كذلك كانوا يصفونه. كنت أصعد ذلك الجبل، وأتوجه نحو المشرق وأنكب على الأرض، فأظل أبكي وأبكي وأبكي، فإذا أنا لا أتذكر بعد ذلك شيئاً البتة، ولا أعرف شيئاً البتة. ثم أنهض، وألتفت إلى وراء، فأرى الشمس وهي تغرب كبيرة رائعة مجيدة. هل تحب أن تنظر إلى الشمس ياشاتوشكا؟ إنه لمنظر جميل جداً، وحزين جداً!... ثم ألتفت مرة أخرى نحو المشرق، فأرى ظل جبلنا يركض على البحيرة سريعاً كسهم، ضيقاً طويلاً، إلى أن يبلغ الجزيرة التي توجد في البحيرة، فتشطره هذه الجزيرة الحجرية شطرين اثنين. فما إن تشطره الجزيرة شطرين حتى تغيب الشمس وينطفىء كل شيء. فأشعر عندئذ بأنني حزينة كل الحزن، وإذا بالذاكرة تعود إليّ فجأة، فأخاف من الظلمة يا شاتوشكا. غير أن ما كنت أبكيه خاصة، إنما هو ابني...

سألها شاتوف وهو يلكزني بكوعه قليلاً بعد أن لم ينقطع عن الإصغاء إليها بانتباه:

ـ ولكن هل كان لك ولد حقاً؟

ـ كيف لا؟ لقد كان صغيراً جداً، وكان بلون الورد، وكانت له أصابع صغيرة. وحسرتي كلها ناشئة عن أنني لا أستطيع أن أتذكر أكان صبياً أم كان بنتاً. فتارة يبدو لي أنه كان صبياً، وتارة يبدو لي أنه كان بنتاً. وأنا ما إن ولدته حتى لففته بالدانتيللا والباتيسته التي عقدتها بأشرطة وردية اللون، وغطيته بالأزهار. ثم صليت لله وحملته وسرت به في الغابة دون تعميد. وكنت خائفة من الغابة، وكنت أرتعش رعباً. وكنت أبكي خاصة لأنني ولدته دون أن أعرف زوجي.

سألها شاتوف محاذراً:

ـ ربما كان لك زوج، أليس كذلك؟

ـ إنـك تضحكنى بتفكيرك يا شاتوشـكا. جائز أنـه كان لي زوج. ولكن ما فائدتي من هذا إذا كنت كمن لم يكن لها زوج في يوم من الأيام؟

ثم أردفت تقول وهي تبتسم ابتسامة ساخرة:

ـ هذه أحجية. هلّا حزرت!

ـ إلى أين أخذت ابنك؟

ـ إلى الغدير.

لكزني شاتوف بكوعه من جديد. ثم سألها:

ـ فماذا إذا لم يولد لك ولد يوماً، وكان هذا كله هذياناً لا أكثر، هه؟

قالت بلهجة تنم عن ذهول وتفكير، ولكن ليس فيها دهشة واستغراب:

ـ إنـك تلقي عليّ سـؤالاً صعبـاً. حقاً إن من الجائـز أن لا أكون قد ولدت ولداً في يوم من الأيام. وأظن على كل حال أنك لا تلقي هذا السـؤال إلّا من بـاب حب الاطـلاع. مهما يكن مـن أمر، فلن أكـف عن البكاء عليـه. أتراني رأيت حلماً؟

والتمعـت دموع سـخية فـي عينيها. ثم هتفت تسـأل شـاتوف فجأة وهي تضع يديها على كتفيه وتتأمله مشفقة عليه رحيمة به:

ـ شاتوشـكا، شاتوشـكا؟ هل صحيـح أن زوجتك تركتـك؟ لا تزعل! أنا أيضاً أحمل في قلبي حملاً ثقيلاً. هل تعلم يا شاتوشـكا أنني رأيت في منامي حلمـاً؟ رأيتـه يعود إليّ، و يومئ لي، ويناديني بقولـه: "قطتي الصغيرة، قطتي الصغيرة، تعالي بسرعة!". وقد فتنني قوله "قطتي الصغيرة" أكثر من أي شيء آخر. قلت في نفسي: إنه يحبني.

دمدم شاتوف يقول:

ـ قد يرجع في يوم من الأيام.

ـ لا ياشاتوشـكا، لـم يكـن ذلـك إلّا حلماً. إنـه لن يأتي أبـداً. أنت تعرف الأغنية:

ما بي حاجة إلى قصر[1].
حسبي هذه الحجرة
لأحيا وأنقذ روحي،
وأدعو الله لك.

آه ياشاتوشكا، يا عزيزي شاتوشكا، لماذا لا تسألني أبداً؟

ـ أعرف أنك لن تقولي شيئاً. لذلك لا أسألك.

قالت بحماسة وقوة:

ـ نعم، لن أقول شيئاً. لن أقول شيئاً ولو هدّدوني بقطع عنقي، لن أقول شيئاً ولو هددوني بإحراق جسمي. ومهما أذق من ألوان العذاب والألم، فسأظل صامتةً، فما يعرفون من الأمر شيئاً!

قال شاتوف وهو يخفض صوته، و يحني رأسه:

ـ أرأيت؟ إن لكل امرئ أسراره.

ـ ولكن لو ألححت في السؤال، فقد أقول لك.

وكررت تقول بحميّا:

ـ نعم، قد أقول لك. لماذا لا تسألني أن أقول لك؟ ألححْ ياشاتوشكا، اضرع إليّ، فقد أقول لك. اعمل ما من شأنه أن يجعلني أوافق على الكلام... شاتوشكا... شاتوشكا!.

لكن شاتوشكا ظل صامتاً. ومضت دقيقة دون أن ينطق أحد بكلمة. وكانت دموع بطيئة تجري على خدّي العرجاء المبرّجين بالمساحيق والأصباغ. وكانت يداها ما تزالان متكئتين على كتفي شاتوف، غير أنها قد انقطعت عن النظر إليه.

قال شاتوف:

ـ فيم يهمني هذا كله على كل حال. ثم إن الإلحاح قد يكون آثماً.

وقام فجأة. وقال لي:

ـ هيّا انهض.

---

(1) هذه أغنية دينية شعبية.

وردّ الدكة التي كنا جالسين عليها إلى حيث كانت، قائلاً:

ـ حين يعود، يجب أن لا تراوده شبهة فيعتقد أننا كنا هنا. وقد آن لنا نحن أن ننصرف.

هتفت ماريا تيموفئفنا تقول وهي تنفجر ضاحكة:

ـ آ... تقصد خادمي. أأنت خائف منه؟ طيب... وداعاً يا صديقيّ الطيبين. ولكن اسمعا ما سأقوله لكما. منذ قليل، حضر الرجل الذي يقال له نيلتش، حضر مع فيليبوف، مالك البيت، الذي له لحية كبيرة حمراء، وذلك في اللحظة التي هجم فيها عليّ خادمي. فما كان من مالك البيت إلّا أن قبض عليه وأخذ يجره في الغرفة، فكان الآخر يصرخ قائلاً: "أنا لا ذنب لي. أنا أتألم من ذنب غيري". فهل تصدق؟ لقد طفقنا جميعاً نضحك حتى لنكاد نتدحرج على الأرض من شدة الضحك.

ـ ماريا تيموفئفنا! ليس الأحمر الملتحي هو الذى انتزعه وأبعده عنك وجرّه من شعره منذ قليل. إنما أنا الذي فعلت ذلك. أما مالك البيت، فقد جاء إلى هنا أمس الأول ليلغط ويصخب. أرى أنك تخلطين بين الأمور.

ـ انتظر قليلاً. نعم. لقد خلطت بين الأمور... ربما كنت أنت، فعلاً... فيم المناقشة على كل حال؟

ثم قالت ضاحكة:

ـ ما الفرق عنده بين أن تجره أنت من شعره وبين أن يجره الآخر؟

قال شاتوف فجأة وهو يدفعني:

ـ لننصرف. لقد صرّ باب مدخل العمارة. سوف يضربها إذا وجدنا هنا.

وفعلاً، ما إن صرنا في أعلى السلّم حتى سمعنا صراخ سكران، وعاصفة من الشتائم.

أدخلني شاتوف غرفته، وأقفل بابها بالمفتاح.

ـ يجب أن تلبث هنا قليلاً، إذا أردت أن تتحاشى جرصة. هل تسمعه يصرخ كصراخ خنزير يُذبح. لعله تعثر بالعتبة. هذه القصة تتكرر كل مرة.

ولكن الجرصة حدثت رغم احتياطاتنا.

6

وقف شاتوف قرب الباب يصغي إلى ما يجري في السلّم. وإنه لكذلك إذا هو يقفز متراجعاً إلى وراء، ويدمدم قائلاً في حنق:

ـ هـا هو ذا يصل. قد لا نتخلص منـه الآن إلّا في منتصف الليل. وأخذت طرقات قوية تهوي بها على الباب قبضة شديدة. وزأر الكابتن يقول:

ـ شاتوف! شاتوف! افتح الباب! شاتوف، صديقي!

إنما جئت لأتمنى لك يوماً سعيداً[1]
ولأقول لك إن الشمس قد طلعت
وإن الغابات ترتعش ملتهبة
تحت أشعتها الحارة
وأريد أن أقول لك أيضاً إنني يقظان...
وإنني أتمنى أن يأخذك الشيطان...
نعم يقظان، يقظان يقظان
تحت الأغصان...

كما لو كنت تحت السياط، هأ هأ...

كل طائر ظمآن
ظمآن!... وأنا حيران
لا أدري أي شراب أحتسي...

علـى كل حـال، لعن الله هذا الفضولي الغبي! يا شـاتوف، هل تعرف كم في الحياة من جمال؟

قال لي شاتوف هامساً:

ـ لا تجب!

ـ أقـول لك افتح! هل تدرك أن في العالم شـيئاً أسـمى من ضربات قبضة اليد؟ إن في حياة الإنسـانية لحظات نبيلة. شاتوف، أنا أغفر لك!... شاتوف،

(1) هنا ينشد لبيادكن قصيدة جميلة (لكنه يشوهها) الشاعر الغنائي آتانازي شنشين، نشرت سنة 1843.

لتذهب المنشورات إلى الجحيم!... هه!

وساد صمت سُمع صوت لبيادكين بعده يُعول فجأة وقد عاد يخبط الباب بقبضة يده:

ـ هل تدري، يا حمار، أنني مولّه حبّاً؟ لقد اشـتريت رداء فراك. انظر إليه. فراك الحب. خمسة عشر روبلاً. إن غرام كابتن يكلف غالياً.

قال شاتوف:

ـ اذهب إلى الجحيم.

ـ عبـد! عبـد ذليل! وأختـك أيضاً ما هـي إلّا جارية... ما هـي إلّا لصـ... لصة!...

ـ وأنت، أنت قد بعت أختك!

ـ أنـت كاذب. أنـا أتألم ظلماً، أنـا أتألم نيابة عن غيـري، ويكفي أن أقول كلمة واحدة حتى... هل تدرك من هي؟

ـ هيه، من هي؟

كذلك سأله شاتوف وهو يقترب من الباب.

ـ أأنت قادر على أن تفهم هذا؟

ـ قل أولاً، ثم أفهم أنا بعد ذلك.

ـ لا أخاف أن أقول. أنا لا أخاف أبداً أن أتكلّم أمام الناس...

قال شاتوف ساخراً ضاحكاً وهو يشير لي أن أصغي:

ـ لا بل إنك لن تجرؤ حتماً.

ـ أتقول إنني لا أجرؤ؟

وساد صمت دام نصف دقيقة في أقل تقدير.

وأخيراً صاح الكابتن يقول وهو يتراجع نافخاً كفوهة سماور، متعثراً على كل درجة من درجات السلّم:

ـ سافل!

قال شاتوف:

ـ إنه ماكر جداً، ولن يفضح نفسه رغم أنه سكران.

سألته:

ـ ما معنى هذا كله؟

فهزّ شاتوف منكبيه، وفتح الباب، وأخذ يصيخ بسمعه إلى جهة السلّم. ولبث يصغي مدة طويلة، حتى لقد هبط بضع درجات. وأخيراً عاد.

ـ لا يُسمع شيء. إنه لم يضربها. لا بد أنه نام كتلةً واحدة. آن لك أن تنصرف.

ـ اسمع يا شاتوف! ما الذي يجب أن أستخلصه من هذا كله؟

فأجاب شاتوف بلهجة مكدودة مشمئزة:

ـ استخلص ما شئت.

وجلس إلى مكتبه.

انصرفت. إن فكرة غير معقولة تستولي على فكري مزيداً من الاستيلاء شيئاً بعد شيء. وفكرت في الغد قلقاً خائفاً.

7

ذلك "الغد"، أعني يوم الأحد الذي سيتقرر فيه مصير ستيفان تروفيموفتش قراراً محتوماً لا رادّ له، هو من أهم الأيام التي يجب أن تسجلها قصتي. إنه يوم مفاجآت أتاح لنا أن نحل بعض الألغاز، ولكنه ألقى علينا ألغازاً جديدة، إنه يوم قدّم لنا إيضاحات تثير الدهشة والاستغراب، ولكنه زاد البلبلة العامة وفاقم الاضطراب الشامل...

يذكر القارئ أنه كان يجب عليّ في الصباح، تلبية لطلب فرفارا بتروفنا، أن أصحب ستيفان تروفيموفتش في زيارته لصديقته، وأن أكون في الساعة الثالثة بعد الظهر عند ليزافتا نيقولايفنا لأقول لها... لا أدري ماذا، ولأساعدها لا أدري كيف!

ولكن الأمور جرت مجرى ما كان لأحد أن يتنبأ به. الخلاصة أن ذلك اليوم كان حافلاً بالمصادفات الخارقة والأحداث العجيبة.

ولأبدأ من البداية: حين ذهبنا أنا وستيفان تروفيموفتش إلى فرفارا

بتروفنا في الظهر تماماً، كما طلبت منا ذلك، لم نجدها في بيتها: لم تكن قد رجعت من الصلاة بعد. كان صديقي المسكين في حالة نفسية خاصة من شأنها أن تجعل غيابها هذا ينزل عليه نزول الصاعقة، فإذا هو يضطرب أشد الاضطراب، ويتهاوى على مقعد في الصالون.. وقد جئته بكأس من الماء، ولكنه رفض تناول الكأس بإباء، رغم أنه كان شديد شحوب الوجه، وكانت يداه ترتعشان. يجب أن أشير، عابراً، إلى أن ثيابه كانت في هذه المرة أنيقة إلى أبعد حدود الأناقة: قميص من الباتيسته البيضاء المطرزة (يكاد يكون قميص حفلة رقص)، ورباط عنق أبيض، وقبعة جديدة من الكستور، وقفازان جديدان بلون العاج، وشيء من العطر إلى ذلك كله.

وما كدنا نستقر في مكاننا حتى جاء الخادم يُدخل علينا شاتوف. كان واضحاً أنه هو أيضاً قد تلقى دعوة رسمية. وقد همّ ستيفان تروفيموفتش أن ينهض ليصافحه، ولكن شاتوف بعد أن تفرس فينا ملياً، مضى يجلس في أحد الأركان حتى دون أن يحيينا بانحناءة من رأسه. فرشقني ستيفان تروفيموفتش مرة أخرى بنظرة مروّعة.

انقضت بضع دقائق على هذه الحال في صمت كامل. وأخذ ستيفان تروفيموفتش يكلمني بصوت خافت، لكنني لم أستطع أن أفهم من كلامه شيئاً... وكان على كل حال قد بلغ من الاضطراب أنه لم يتمكن من إتمام الكلام فصمت. وعاد الخادم كأنما ليرتّب المائدة، لكنني أظن أنه إنما عاد ليرى ماذا كنا نفعل.

سأله شاتوف بصوت قوي:

ـ ألكسي إيجورتش، هل خرجت داريا بافلوفنا معها؟

فأجاب الخادم يقول بلهجة فخمة وهو يشد على كل كلمة من كلماته:

ـ إن فرفارا بتروفنا قد مضت بالعربة إلى الكاتدرائية وحدها. أما داريا بافلوفنا فقد بقيت في غرفتها، لأنها مريضة قليلاً.

رشقني صاحبي المسكين مرةً أخرى بنظرة قلقة، حتى اضطررت أن أشيح وجهي عنه. وفجأةً سمعنا أصوات جري عربة قرب بوابة المدخل، ثم

قامت في المنزل ضجة أدركنا منها أن فرفارا بتروفنا قد عادت. فنهضنا نحن الثلاثة بسرعة، غير أن مفاجأة جديدة كانت تنتظرنا: إن ربّة الدار لم تكن عائدة وحدها، وإنما كان يرافقها عدد من الأشخاص كما تدل على ذلك أصوات وقع الأقدام على الأرض. ذلك كله كان أمراً عجيباً، لأنها التي حددت بنفسها ساعة لقائنا. وكانت الخطوات مسرعة، فكأن القادمين يركضون ركضاً. لا يمكن أن تكون فرفارا بتروفنا هي القادمة... وفجأةً رأينا فرفارا بتروفنا تقتحم الصالون اقتحاماً إن صح التعبير، وهي تلهث لهاثاً شديداً، وقد استبد بها انفعال خارق. وكانت تتبعها، على مسافة منها، ليزافتا نيقولايفنا التي تتقدم في سيرها هادئة، وتمسك بيدها ماريا تيموفئفنا لبيادكين. لو قد رأيت هذا المشهد في حلم أثناء النوم، لما صدّقته لحظة واحدة.

ومن أجل أن أوضّح هذا الظهور المثير للدهشة يجب أن أعود قليلاً إلى وراء، وأن أروي المغامرة الخارقة التي وقعت لفرفارا بتروفنا عند خروجها من الكنيسة.

في ذلك اليوم، كانت المدينة كلها تقريباً ـ أعني المجتمع الراقي ـ قد ذهبت إلى الكاتدرائية. فقد عُلم أن امرأة الحاكم ستحضر الصلاة في ذلك اليوم، لأول مرة منذ وصولها إلى مدينتنا. وينبغي أن أذكر في هذه المناسبة أن الشائعات التي سَرَت في المدينة كانت تنسب إلى امرأة الحاكم أنها لا تؤمن بالدين، وأنها تتبنى الآراء الجديدة. وكانت سيداتنا جميعاً من جهة أخرى تعلم أن امرأة الحاكم سترتدي أجمل ملابسها وأنها ستظهر في أبهى حلة وأعظم أناقة. لذلك لبسن جميعاً في هذه المرة أفخر الثياب، وعُنين بهندامهن وزينتهن أشد العناية. فرفارا بتروفنا وحدها كانت ترتدي ملابس سوداء، على عهدنا بها منذ أربع سنين. وقد مضت تحتل مكانها المألوف المعتاد في الصف الأول، على اليسار، وجاء خادم مرافق حسن الهندام فوضع أمامها وسادة من المخمل للسجود. الخلاصة أن كل الأمور جرت كما تجري في العادة. ومع ذلك لوحظ أنها كانت طوال القداس تصلي بحرارة خارقة. وقد أُكّد فيما بعد، حين تم تذكّر جميع التفاصيل، أن عينيها

كانت ملأى بالدموع. حتى إذا انتهت الصلاة أخذ أسقفنا، الأب بولس، يلقي موعظة فخمة. ودامت خطبته في هذه المرة مدة طويلة.

ولم يكن قد أنهى خطبته حين نزلت سيدةٌ من عربة قرب الكاتدرائية. إنها عربة من عربات الأجرة القديمة التي يقال لها درويكي، والتي لا تستطيع النساء أن يجلسن فيها إلّا على جانب، متشبثات بحزام الحوذي، مهتزات في كل لحظة اهتزاز عشبة في مهب الريح. إن المرء ما يزال يرى عدداً من عربات الدرويكي هذه في مدينتنا. وإذا كانت مركبات كثيرة وأعداد من الدرك مرابطة أمام الباب، فقد وقفت العربة في ركن من الميدان. وحين نزلت السيدة من العربة ووضعت قدميها على الأرض مدّت إلى الحوذي أربعة كوبكات من فضة. فلما رأته يصمِّر وجهه قالت له:

ـ المبلغ قليل يا فانيا[1]، أليس كذلك؟

ثم أضافت تقول شاكية:

ـ هذا كل ما أملك.

فقال لها الحوذي وهو يرفع منكبيه ويتأملها تأمّلَ من يقول لها: "إنه لإثم أن يؤلمك الإنسان":

ـ طيب.. طيب.. عليك بركة الله!..

ثم دس كيسه الجلدي تحت ثوبه، وانصرف تشيّعه مزحات الحوذيين الذين كانوا هناك. وشقت المرأة طريقاً لها نحو أبواب الكنيسة بين العربات والخدم المرافقين الذين ينتظرون خروج أسيادهم، شقت طريقها مشيّعة هي أيضاً بالتعليقات، مثيرةً بمرورها فضول الجميع. والحق أن الظهور المفاجئ لامرأة من هذا النوع في الشارع وسط الجمهور كان فيه غرابة تثير الدهشة. كانت نحيلة نحولاً مَرَضياً، وكانت تعرج. وكانت مثقلة الوجه بالمساحيق والأصباغ، وعارية العنق، لا ترتدي خماراً ولا معطفاً، ولا يسترها من الملابس إلّا ثوب عتيق قاتم اللون، مع أن ذلك اليوم من شهر أيلول

(1) "فانيا" تصغير اسم إيفان. وهو لقب يلقب به الحوذيون. وكانوا يلقبون أيضاً بلقب فانكا.

(سبتمبر) كان بارداً رغم الشمس، وكانت رياحه شديدة. ولم يكن على رأسها قبعة. وفي شعرها المعقوف عند القفا كبةً صغيرة، قد غُرست وردة من ورق، كالتي تزيّن بها تماثيل الشمع التي تمثّل الكروبيين في عيد الشعانين. وكنت قد لاحظت بالأمس عند ماريا تيموفيئفنا، تحت الأيقونات، واحداً من تلك التماثيل المتوّجة بالورود. وأغرب ما في الأمر أن السيدة رغم أنها كانت خافضة العينين تواضعاً، فإنها لم تنقطع عن التبسم تبسماً مرحاً ماكراً. ولو أنها تأخرت قليلاً لكان من الجائز أن لا يُسمح لها بالدخول، ولكنها استطاعت أن تلج الكاتدرائية وأفلحت في أن تتسلل إلى الأمام شيئاً بعد شيء دون أن يشعر بها أحد.

ورغم أن الأب بولس واصل إلقاء خطبته، وأن الجمهور الذي كان يملأ الكنيسة كان يصغي إليه بانتباه وتركيز وصمت، فإن عدداً من الأشخاص قد ألقوا على المرأة المجهولة نظرات استطلاع مختلسة مدهوشة. وجثت المرأة على ركبتيها وسجدت حتى لامس وجهها المخضّب الأرض. ولبثت على هذا الوضع مدة طويلة تبكي بكاءً غزيراً فيما يظهر. ولكنها حين نهضت، عادت إلى حالها الأولى بسرعة، واستردت مرحها. وجالت ببصرها على وجوه المحيطين بها وعلى جدران الكاتدرائية، مسرورة سروراً واضحاً، متفرّسةً بانتباه خاص في بعض تلك السيدات، رافعةً جسمها على رؤوس أصابع قدميها في بعض الأحيان لترى رؤية أوضح، وفي مرة أو مرتين انطلقت منها ضحكة صغيرة غريبة حادة. وانتهت الخطبة في أثناء ذلك، وقدّم الأسقف الصليب للمصلين فتقدمت منه زوجة الحاكم أول المتقدمين، لكنها توقفت حين أصبحت على مسافة خطوتين، مُظهرةً بذلك أنها تريد أن تتنازل عن المكانة الأولى لفرفارا بتروفنا التي كانت من جهتها قد مشت نحو الصليب قُدُماً لا تلوي على شيء، كأن ليس أمامها أحد. وكان واضحاً أن هذا الاحترام الشديد من جانب زوجة الحاكم كان يخفي وراءه نية السخرية. فهذا ما فهمه الجميع، وهذا ما فهمته فرفارا بتروفنا مثل سائر الناس حتماً، ولكنها تظاهرت بأنها لم تلاحظ أحداً، فقبّلت الصليب بوقار ثابت ومهابة

رصينة، ثم اتجهت بعد ذلك رأساً نحو باب الكنيسة لتخرج. وكان خادمها المرافق يفسح لها ممراً أمامها، رغم أن جميع الناس كانوا يتقهقرون سلفاً من أجل أن تستطيع المرور في سهولة ويسر. ولكن جمعاً من الناس قد سدّوا طريقها لحظةً عند باب الخروج، تحت سقيفة المدخل. فتوقفت فإذا بإنسانة عجيبة هي المرأة المزدانة بوردة الورق تشق طريقاً بين الجمهور على حين فجأة، وتجثو على ركبتيها أمام فرفارا بتروفنا. فنظرت إليها فرفارا بترونا التي يصعب أن تضطرب، ولا سيما على مرأى من الناس، نظرت إليها بهيئة وقورة رصينة مهيبة.

أسارع فأذكر هنا، بأكبر إيجاز ممكن، أن فرفارا بتروفنا إن تكن قد أصبحت في هذه السنين الأخيرة حريصة بل وبخيلة قليلاً، فلقد كان يتفق لها في بعض الأحيان أن تكون مبسوطة الكف، ولا سيما في أعمال البر والإحسان. لقد كانت عضوةً في جمعية للبر والإحسان بالعاصمة. وفي إبان المجاعة الكبرى الأخيرة[1]. أرسلت إلى اللجنة المركزية لإغاثة الجياع خمسمائة روبل، وذلك أمر تحدّث عنه الناس كثيراً في مدينتنا. كما إنها في الآونة الأخيرة، حتى قبل تعيين الحاكم الجديد، قد فكرت في مشروع تأسيس لجنة من السيدات تتولى مساعدة الحوامل الفقيرات بالمدينة والأقاليم. ولقد كان يؤخذ عليها كثيراً أنها شديدة الطموح، ولكن الحماسة التي اشتهرت بها فرفارا بتروفنا، وكذلك دأبها وصبرها ومثابرتها قد أوشكت أن تذلل جميع المصاعب وأن تتغلب على جميع العوائق. وكادت اللجنة أن تتشكل، حتى أن المشروع قد اتسع مزيداً من الاتساع في نفس صاحبته الزاخرة بالحماسة، فكانت تحلم بأن يشمل روسيا كلها. ولكن تغير الحاكم أنهى جميع هذه المشروعات: فزوجة الحاكم الجديد، قد أبدت في أوساط المجتمع الراقي ملاحظات لاذعة فيما يظهر، والأنكى من ذلك أن تلك الملاحظات كانت صائبة سديدة، إذ وضعت تشكيل لجنة من هذا النوع بأنه مشروع غير عملي، وسرعان ما نقل الناس هذه الملاحظات لفرفارا بتروفنا موسّعةً مضخّمة. إن

(1) عرفت بعض مناطق روسيا بعض المجاعات أثناء 1867

الله وحده يعرف قرارة القلوب، ولكنني أظن أن فرفارا بتروفنا قد سرّها أن تقف تحت سقيفة مدخل الكاتدرائية، فهي تعلم أن امرأة الحاكم التي تتبعها جميع السيدات ستمر فوراً فقالت لنفسها: "ألا فلترَ بعينيها أنني لا أعبأ بما قد تقوله عن برّي وإحساني اللذين تزعم أنهما لا غناء فيهما وأنهما يشتملان على طموح كبير. وهذا درس لكم جميعاً!".

نظرت فرفارا بتروفنا بانتباه إلى المرأة الراكعة أمامها وسألتها:

ـ ماذا يا عزيزتي؟ ماذا تريدين؟

فتأملتها المرأة الراكعة بنظرة فيها اضطراب وخشية وعبادة في آن واحد، ثم أخذت تضحك فجأة ضحكتها الصغيرة الحادة تلك نفسها.

ألحت فرفارا بتروفنا سائلةً وهي تجيل من حولها نظرة صارمة مستفهمة:

ـ ماذا تريد؟ من هي؟

فلم يجبها أحد.

ـ أأنت بائسة؟ هل أنت بحاجة إلى مساعدة؟

ـ بحاجة... لقد جئت...

كذلك دمدمت "المسكينة" بصوت يقطّعه الانفعال. وتابعت تقول:

ـ لقد جئت لأقبّل يدك.

وأخذت تضحك. وبنظرة ساذجة بريئة، بنظرة من نظرات الأطفال الذين يلاطفونك لينالوا حظوتك، همّت أن تتناول يد فرفارا بتروفنا، لكنها وقد اعتراها ما يشبه الخوف تقهقرت فجأة إلى وراء.

قالت فرفارا بتروفنا وهي تبتسم ابتسامة شفقة:

ـ ألم تجيئي إلّا من أجل هذا؟

ولكنها سرعان ما استلت من محفظة نقودها ورقة بعشرة روبلات ومدّتها إلى المرأة المجهولة. فتناولت المرأة المجهولة الورقة. كان يبدو على فرفارا بتروفنا اهتمام شديد بالمرأة الشابة، وكان واضحاً أنها لا تعدّها متسولة عادية.

قال صوت في الجمهور:

ـ هل رأيت؟ لقد أعطتها عشرة روبلات!

تمتمت "المسكينة" تقول وهي تشد بأصابع يدها اليسرى على طرف ورقة العشرة روبلات التي كانت تهزّها الريح:

ـ يدك، أرجوك!

فقطبت فرفارا بتروفنا حاجبيها قليلاً، ومدت يدها بوقار ورصانة بل وبما يشبه القسوة في قسمات وجهها. فقبّلت المرأة المجهولة اليد باحترام وإجلال. وسطع في نظرتها الملأى بالعرفان نوعٌ من نشوة.

وفي تلك اللحظة نفسها إنما ظهرت زوجة الحاكم تحت باب الكاتدرائية، تتبعها جمهرة من السيدات وكبار الموظفين. فاضطرت أن تتوقف. وفعل الآخرون مثلما فعلت.

ـ أترتجفين؟ هل تشعرين ببرد؟

كذلك سألت فرفارا بتروفنا فجأة، ثم نضت عنها معطفها الذي تناوله الخادم المرافق طائراً، ونزعت عن كتفيها شالاً أسوداً غالي الثمن، وتولت بنفسها خلعه على العنق العاري، عنق المرأة المجهولة التي ما تزال راكعة.

ـ انهضي، انهضي، أرجوك!

نهضت المرأة الشابة.

ـ أين تعيشين؟ هل يعقل أن لا يعرف أحد أين تعيش؟

وأجالت فرفارا بتروفنا بصرها على من حولها مرة أخرى نافدة الصبر. ولكن الوجوه التي رأتها الآن غير الوجوه التي رأتها منذ قليل: إنها محاطة الآن بأشخاص تعرفهم، وأناس من المجتمع الراقي كانوا يرقبون المشهد، فبعضهم يرقبه باستغراب قاس، وبعضهم يرقبه باستطلاع خبيث وفضول ماكر، ويأمل أن تقع فضيحة، حتى أن بعضهم قد أخذ يضحك ساخراً منذ ذلك الحين.

وأخيراً وُجد رجل شهم يجيب عن سؤال فرفارا بتروفنا، قال واحد من تجارنا المعتبرين، واسمه آندرييف:

ـ أظن أن اسمها لبيادكين.

كان الرجل ذا نظارتين، وكان أبيض اللحية، وكان يرتدي ثياباً على الطراز الروسي، وله قبعة أسطوانية كان يمسكها في تلك اللحظة بيده.

وأضاف يقول:

ـ إنها تسكن في عمارة فيليبوف، شارع إيبيفانيا.

ـ لبيادكين؟ في عمارة فيليبوف... سمعت عن شيء من هذا فعلاً... شكراً يا نيكون سيمونتش. ولكن من هو لبيادكين هذا!

ـ رجل يسمي نفسه كابتن. هو امرؤ مريب! أظن أن هذه المرأة أخته.

وأضاف آندرييف يقول خافضاً صوته، ناظراً إلى فرفارا بتروفنا بهيئة ذات دلالة:

ـ لعلها خادعت رقابته وخرجت.

قالت فرفارا بتروفنا:

ـ فهمت. شكراً يا نيكون سيميونتش.

ثم قالت تسأل المرأة المسكينة:

ـ أأنت السيدة لبيادكين يا عزيزتي؟

ـ لا، لست السيدة لبيادكين.

ـ إذن أخوك هو لبيادكين؟

ـ نعم، أخي هو لبيادكين.

ـ إليك ما سأفعله يا عزيزتي: سوف آخذك إلى بيتي، ومن هناك يوصلونك إلى مسكنك. هل تريدين أن تجيئي معي؟

ـ نعم نعم، أريد أريد!

كذلك هتفت الآنسة لبيادكين وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى ضارعة.

وفجأة دوّى صوت ليزافتا نيقولايفنا يقول:

ـ عمتي، عمتي، خذيني معك!

كانت ليزافتا نيقولايفنا قد جاءت إلى القداس مع زوجة الحاكم، بينما كانت براسكوفيا إيفانوفنا تقوم، تنفيذاً لأمر الطبيب، بنزهة في العربة

مصطحبة مافريكي نيقولا يفتش لتتسلى. تركت ليزا امرأة الحاكم بغتةً وهرعت نحو فرفارا بتروفنا.

بدأت فرفارا بتروفنا تكلمها فقالت وهي تصطنع غاية الأبهة والجلال:

ـ إنك لتعلمين يا عزيزتي إنني يسعدني دائماً أن أراك... ولكن ما عسى أمك قائلة...

ولكن فرفارا بتروفنا توقفت عن الكلام مضطربة أشد الاضطراب حين لاحظت ما تعانيه ليزا من بلبلة وتشوش وقلق. قالت ليزا ملحّةً وهي تقبل فرفارا بتروفنا:

ـ عمتي، عمتي، يجب أن أذهب معك.

وهنا تدخلت امرأة الحاكم فقالت باللغة الفرنسية في دهشة ملحوظة:

ـ ولكن ماذا دهاك يا ليزا؟ (بالفرنسية).

ـ معذرةً يا ابنة العم العزيزة، إنني ذاهبة مع عمتي.

كذلك قالت ليزا لابنة العم العزيزة المندهشة اندهاشاً أليماً، وهي تقبلها على عجل. وأضافت:

ـ وقولي لماما أيضاً أن تدركني فوراً في بيت عمتي. وهي عازمة على ذلك عزماً أكيداً على كل حال. ذكرت لي هذا هي نفسها، لكنني نسيت أن ابلغك. سامحيني. لا تزعلي "يا جوليا، يا ابنة العم العزيزة" (بالفرنسية)... عمتي أنا مستعدة!

كذلك قالت ليزا متدفقة في كلامها. ثم دمدمت تقول هامسةً في أذن فرفارا بتروفنا وقد استبد بها حزن شديد:

ـ إذا لم تأخذيني معك، فلأركضنّ وراء عربتك صائحة!

من حسن الحظ أيضاً أن أحداً لم يسمع ما قالت. وقد تقهقرت فرفارا بتروفنا خطوةً إلى وراء، وألقت نظرة ثابتة نافذة قوية على الفتاة التي طاش صوابها. وكان من شأن هذه النظرة أن قررت كل شيء: لقد عزمت فرفارا بتروفنا على أن تصطحب ليزا.

وأفلت من لسانها قولها:

ـ يجب أن نضع حداً لهذا كله. طيب. سآخذك معي راضيةً مسرورة يا ليزا، على شرط أن توافق جوليا ميخائيلوفنا طبعاً.

وقد أضافت فرفارا بتروفنا هذه الجملة الأخيرة وهي تلتفت نحو امرأة الحاكم بهيئة صريحة وقورة.

فتمتمت جوليا ميخائيلوفنا وقد أصبحت متوددة لطيفة على حين فجأة:

ـ آ... طبعاً، حتماً، لا أريد أن أحرمها من هذه المسرة، لا سيما وأنني أنا نفسي أعرف الرأس الصغير الخيالي المستبد الذي تحمله فوق كتفيها.

قالت امرأة الحاكم ذلك وابتسمت ابتسامة عذبة.

فأجابت فرفارا بتروفنا وهي تحييها تحيةً فيها تودد وإجلال:

ـ أشكرك كثيراً.

وتابعت جوليا ميخائيلوفنا كلامها تقول مفتتنةً حتى لقد احمرّ وجهها سروراً وانفعالاً:

ـ ومما يزيد مسّرتي أن ما يحض ليزا على مصاحبتك هو أنها أولاً تريد أن تسعد بلقائك وأنها ثانياً مدفوعة بعاطفة رائعة كل الروعة، سامية كل السمو إن صح التعبير، وهي عاطفة الشفقة... و... عند مدخل الكنيسة...

قالت جوليا ميخائيلوفنا ذلك ونظرت إلى "المرأة المسكينة".

فأجابت فرفارا بتروفنا مؤيدةً كلام جوليا ميخائيلوفنا بكرم وسخاء:

ـ هذه أقوال تشرّف قائلها...

فانبرت جوليا ميخائيلوفنا تمد إليها يدها بحماسة، فسرَّ فرفارا بتروفنا أن تمس تلك اليد بأصابعها. وكان الأثر العام رائعاً، فالوجوه تشرق بهجةً، وكان بعضهم يبتسمون، لكن ابتسامتهم كاذبة تصطنع الرقة والعذوبة اصطناعاً.

الخلاصة أن المدينة كلها قد أدركت إدراكاً واضحاً أن جوليا ميخائيلوفنا ليست هي التي ازدرت فرفارا بتروفنا حتى الآن، مهملةً زيارتها، وأن الحقيقة هي نقيض ذلك، ففرفارا بتروفنا هي التي "جفت جوليا ميخائيلوفنا، فلولا ذلك لهرعت جوليا ميخائيلوفنا إلى السيدة ستافروجين سيراً على الأقدام إذا وثقت فقط بأنها ستستقبلها". وسرعان ما علت مكانة فرفارا بتروفنا علواً

كبيراً، وازدادت مهابتها وسطوتها.

قالت فرفارا بتروفنا وهي تشير للآنسة لبيادكين إلى العربة التي وقفت في تلك اللحظة أمام الكاتدرائية:

ـ اركبي يا عزيزتي.

فهرعت المسكينة نحو المركبة فرحةً، وبينما ساعدها الخادم المرافق على الركوب. هتفت فرفارا بتروفنا تقول وقد بدا عليها الذعر واصفر وجهها اصفراراً شديداً:

ـ ماذا؟ أتعرجين؟ (وقد لوحظ ارتياعها، غير أن أحداً له يفهم سببه).

وانطلقت المركبة. إن منزل فرفارا بتروفنا قريب جداً من الكاتدرائية. وقد روت لي ليزا فيما بعد أن الآنسة لبيادكين، خلال الدقائق الثلاث التي استغرقها قطع الطريق، كانت تضحك ضحكها الهستيري بغير توقف، بينما لبثت فرفارا بتروفنا ساكنة جامدة "كالغارقة في نوم مغناطيسي" على حد تعبير ليزا.

الفصل الخامس

الأفعوان البارع

1

شدّت فرفارا بتروفنا حبل جرس صغير وتهاوت على كرسي قرب النافذة. وقالت لماريا تيموفيئفنا وهي تشير إلى كرسي في وسط الغرفة بقرب مائدة كبيرة مستديرة:

ـ اجلسي هنا يا عزيزتي. ياستيفان تروفيموفتش، ما معنى هذا؟ انظر إلى هذه المرأة! نعم، انظر إليها، ما معنى هذا؟

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول متلعثماً:

ـ أنا... أنا...

ولكن خادماً دخل في تلك اللحظة.

ـ هات فنجان قهوة، فوراً، بأقصى سرعة، ولا تفكوا الخيل.

هتف ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية بصوت محتضر:

ـ ولكن، يا صديقتي العظيمة العزيزة، ما أشد هذا القلق! (بالفرنسية).

فصاحت ماريا تيموفيئفنا تقول وهي تصفق يديها وتتهيأ مفتونةً لشهود حديث باللغة الفرنسية:

ـ آ... تتكلمون بالفرنسية! تتكلمون بالفرنسية!

فتأملتها فرفارا بتروفنا بما يشبه الرعب.

ولزمنا الصمت ننتظر ما سيحدث. لم يرفع شاتوف رأسه. أما ستيفان تروفيموفتش فكان يبدو منقلب النفس رأساً على عقب كأنه يشعر أنه هو

المذنب في هذا كله. وكانت قطرات من عرق تتلألأ على صدغيه.

ألقيت نظرة على ليزا. كانت جالسةً في ركن إلى جانب شاتوف تقريباً. وكانت تنقّل نظرتها الفاحصة المتفرسة من فرفارا بتروفنا إلى العرجاء، ومن العرجاء إلى فرفارا بتروفنا. وكانت ابتسامة تقلّص شفتيها، لكنها ابتسامة خبيثة. لاحظت ذلك فرفارا بتروفنا. وكانت ماريا تيموفيئفنا أثناء ذلك تبدو مفتونة: إنها تنظر بمسرة واضحة ودون أي ارتباك إلى صالون فرفارا بتروفنا الجميل، وأثاثه الفاخر، وسجاده النفيس، ولوحاته المعلقة بالجدران، ونقوشه التي تزين السقف، والتمثال البرونزي الذي يمثل المصلوب منتصباً في ركن من الأركان، والمصباح الخزفي، ودفاتر الصور، والتحف الموضوعة على المائدة.

وهتفت تقول فجأة:

ـ كيف؟ أأنت أيضاً هنا يا شاتوشكا! تصور أنني رأيتك منذ مدة ولكنني قلت لنفسي: لا، ليس هو، أنّى له أن يكون هنا؟

وضحكتا في فرح.

قالت فرفارا بتروفنا تسأل شاتوف وهي تلتفت إليه بقوة:

ـ أتعرف هذه المرأة؟

فجمجم شاتوف يقول وهو يتحرك مضطرباً على مقعده:

ـ نعم، أعرفها.

ـ ماذا تعرف عنها؟ أسرع في الإجابة قليلاً، أرجوك.

ـ ماذا أقول لك؟

قال شاتوف ذلك وابتسم ابتسامة غامضة لا تتناسب كثيراً مع الموقف. وتابع كلامه فقال:

ـ إنك لترين بنفسك...

ـ ماذا أرى؟ ولكن هلّا قلت شيئاً...

ـ إنها تقيم في نفس العمارة التي أقيم فيها... مع أخيها... الضابط...

ـ وماذا أيضاً؟

تردد شاتوف. ثم دمدم يقول متلعثماً:

ـ لا حاجة إلى الكلام.

وعاد إلى صمته الكامل وقد احمرّ وجهه احمراراً شديداً من الجهد الذي بذله. قالت فرفارا بتروفنا مستاءةً:

ـ طبعاً لا يمكن أن يتوقع المرء منك غير هذا.

لقد كانت ترى رؤية واضحة أننا جميعاً نعلم شيئاً ما، لكننا نوجس خوفاً ونحاول أن نتحاشى أسئلتها، أي أن ثمة سراً...

ودخل الخادم وقدّم إليها، على صينية صغيرة من فضة، فنجان القهوة الذي كانت قد أمرت به، ولكنها أومأت إليه فاتجه نحو ماريا تيموفيئفنا.

قالت فرفارا بتروفنا لماريا تيموفيئفنا:

ـ منذ قليل كنت تشعرين ببرد يا عزيزتي، فاشربي هذه القهوة بسرعة، فتدفئي.

فقالت ماريا تيموفيئفنا وهى تتناول القهوة:

ـ "شكراً" (بالفرنسية).

وانفجرت تضحك فجأة، إذ تصورت أنها قالت للخادم "شكراً" بالفرنسية. لكنها، وقد التقت نظرتها بنظرة قاسية تسطع في عيني فرفارا بتروفنا، خافت ووضعت الفنجان على المائدة.

ثم تمتمت تقول بشيء من المرح:

ـ أتراك زعلت يا عمتي؟

فإذا بفرفارا بتروفنا تصبح مستهجنة:

ـ ماذا؟

وإذا هي ترتعش وتقوم عن كرسيها متابعة كلامها فتقول:

ـ أنا لست عمتك؟ ماذا تعنين بهذا الكلام؟

ودُهشت ماريا تيموفيئفنا من هذا الغضب المفاجئ، فتقهقرت إلى وراء، وأخذت ترتعش كأن بها حمى. وقالت متلعثمة وهي تنظر إلى فرفارا بتروفنا محملقة:

ـ كنت... كنت أظن أن عليّ أن أناديك هكذا. فهكذا تناديك ليزا.

ـ ما هذا الذي تقولينه أيضاً؟ من هي ليزا هذه التي تتحدثين عنها؟

فأشارت ماريا تيموفيئفنا إلى ليزا بإصبعها قائلة:

ـ هي هذه الآنسة؟

ـ كيف؟ أتسمينها ليزا أيضاً؟

ـ أنت نفسك سميتها هكذا منذ قليل.

كذلك قالت ماريا تيموفيئفنا متجرئةً قليلاً، وتابعت كلامها تقول ضاحكة كأنها تفكر في شيء آخر:

ـ رأيت في منامي آنسة جميلة شبيهة بها كل الشبه.

فكّرت فرفارا بتروفنا لحظة، وهدأت قليلاً، حتى لقد تبسمت تبسماً خفيفاً حين سمعت كلمات ماريا تيموفيئفنا الأخيرة. وحين لاحظت ماريا هذه الابتسامة، اقتربت منها خجلة وجلة وهي تعرج. وقالت وهي تنزع عن كتفيها الشال الأسود الذي كانت فرفارا بتروفنا قد لفعتها به:

ـ خذيه، نسيت أن أرده إليك، اغفري لي قلة أدبي.

ـ بل ردّيه إلى كتفيك فوراً، واحتفظي به لنفسك. هيّا اجلسي، واشربي قهوتك، ورجائي إليك يا عزيزتي أن لا تخافي مني. هدئي روعك. لقد بدأت أفهمك.

سمح ستيفان تروفيموفتش لنفسه أن يتدخل فقال يخاطب فرفارا بتروفنا بالفرنسية:

ـ "صديقتي العزيزة"...

فما كان من فرفارا بتروفنا إلّا أن قالت متململة:

ـ آه... ستيفان تروفيموفتش، إن الموقف معقد تعقيداً كافياً دون أن تزيده بكلامك أنت تعقيداً.. شدّ حبل هذا الجرس الموجود بقربك، أرجوك.

وساد صمت.

كانت تجيل علينا جميعاً نظرة حانقة مرتابة. ودخلت آجاشا، خادمتها الأثيرة. فقالت لها فرفارا بتروفنا:

ـ هاتي لي الشــال ذا المربعات، الذي اشتريته من جنيف. ماذا تعمل داريا بافلوفنا؟

ـ إنها متوعكة الصحة يا سيدت.

ـ اصعـدي إليهـا واطلبي منها أن تجيء. وأضيفي إلـى ذلك أنني أرجوها ملحةً أن تجيء ولو كانت مريضة.

وفي تلك اللحظة نفسها سمعنا أصوات وقع أقدام غير مألوفة، فما هي إلّا هنيهة حتى ظهرت في عتبة الباب، على حين فجأة، براسكوفيا إيفانوفنا لاهثة الأنفاس زائغة الهيئة، يسندها مافريكي نيقولايفتش.

صرخت براسكوفيا إيفانوفنا تقول بصوت حاد، معبّرة بهذا الصراخ، على عـادة الأشـخاص الضعاف المهتاجين، عن كل الغضـب الذي كان قد تراكم فيها:

ـ آه... ربـاه! لقـد نفـد صبري! ليزا، أنـت مجنونة! انظـري كيف تعاملين أمك! يا فرفارا بتروفنا، لقد جئت لآخذ ابنتي.

فألقـت عليها فرفـارا بتروفنـا نظرة من تحـت، وأنهضت جسـمها قليلاً، وقالت وهي تحاول بجهد كبير أن تخفي امتعاضها:

ـ نهارك سـعيد يا براسـكوفيا إيفانوفنا. اجلسـي، أرجوك. كنت أعلم أنك لا بد آتية.

2

ليس في هذا الاستقبال شيء كان يمكن أن لا تتوقعه براسكوفيا إيفانوفنا. إن فرفارا بتروفنا تعامل رفيقة مدرستها هذه معاملته تشتمل دائماً على استبداد وطغيـان يختفيـان تحت سـتارة الصداقة، بـل لقد كانت تعاملها بما يشـبه أن يكون ازدراء. غير أن ذلك اليوم كان يبدو استثناءً من القاعدة مع ذلك.

لقد سـبق أن ذكـرت عرضاً أن القطيعة بين السـيدتين أصبحت شـبه تامة منـذ بضعـة أيام. ومع ذلك فإن أسـباب هذه القطيعة كانت ما تزال سـراً خفياً فـي نظر فرفـارا بتروفا، فكان ذلك يؤلـم فرفارا بتروفنا إيلامـاً خاصاً. غير أن

براسكوفيا إيفانوفنا تتخذ الآن إزاءها وضعاً فيه تعال عجيب وغطرسة. وكان طبيعياً أن يصيب هذا فرفارا بتروفنا بجراح بليغة عميقة. زد على ذلك أن شائعات غريبة كانت قد أخذت تصل إلى مسامعها، وهي شائعات غامضة جداً، كانت تحنقها لهذا السبب إلى أبعد حدود الحنق. إن من طبيعة فرفارا بتروفنا أنها مستقيمة ذات كبرياء، بل وأنها تميل إلى النزال والقتال. وهي لا تكره شيئاً كما تكره الاتهامات الملتوية والغمزات الخفية، وتفضّل أن تكون الحرب سافرة صريحة. إنّ هاتين السيدتين لم تلتقيا منذ خمسة أيام، أي منذ آخر زيارة قامت بها فرفارا بتروفنا لهذه "السيدة دروزدوف"، وهي زيارة عادت منها فرفارا بتروفنا مضطربة أشد الاضطراب، حانقة أكبر الحنق. وفي وسعي أن أقول غير خائف من الخطأ أن براسكوفيا إيفانوفنا حين دخلت الآن كانت مقتنعة بأن فرفارا بتروفنا لا بد أن تخاف منها. كان ذلك واضحاً في تعبير وجهها. ولكن فرفارا بتروفنا ما إن يحملها باعث من البواعث على افتراض أن من الممكن أن تُظنّ مُذلّة حتى يركبها عفريت العجب ويستولي عليها شيطان العجرفة.

وكانت براسكوفيا ايفانوفنا، ككثير من الأشخاص الضعاف الذين يتحملون سوء المعاملة مدة طويلة دون أي احتجاج، تعمد إلى الهجوم العنيف متى أتيحت لها فرصة الهجوم العنيف. هذا إلى أنها مريضة، وقد جعلها المرض أكثر اهتياجاً وأشد تأذياً بطبيعة الحال. ويجب أن أضيف إلى ذلك أخيراً أن وجودنا نحن في الصالون لا يمكن أن يحرج هاتين الصديقتين إذا وجب أن تنشب بينهما مشاجرة: فهما تعدّاننا جزءاً من الأسرة، وتعدّانا كذلك أدنى مستوى وأهون شأناً. وقد خطرت ببالي هذه الفكرة وأنا أشعر بغير قليل من القلق. وحين سمع ستيفان تروفيموفتش صوت براسكوفيا إيفانوفنا الحاد الصارخ، ولم يكن قد جلس منذ وصول فرفارا بتروفنا، تهاوى على كرسيه خائر القوى، وحاول أن يقع بصره على نظرتي وقد بدا في وجهه كمد شديد. وتحرك شاتوف مضطرباً على كرسيه، وجمجم ينطق بضع كلمات من بين أسنانه. فخيّل إليّ أنه يهمّ أن ينهض وينصرف. وهمّت

ليـزا أيضـاً أن تنهـض، ولكنها سـرعان ما عـادت تجلس حتـى دون أن تولي صرخـات أمها ما توجبه الظروف من انتبـاه واهتمام. ولـم يكن ذلك ثمرة من ثمرات "عناد رأسها" قط، وإنما كان نتيجة فكرة استولت على نفسها استيلاء كاملاً، واستغرقت نفسها استغراقاً واضحاً. إنها تنظر إلى أمام كالذاهلة، حتى لقد انقطعت عن الاهتمام بماريا تيموفيئفنا.

3

هتفت براسكوفيا إيفانوفنا تقول وهي تستقر بمعاونة مافريكي نيقولا يفتش على مقعد قرب المائدة:

ـ آه... أخيراً أجلس!

ثم أضافت تقول بصوت محطّم:

ـ لولا آلام شديدة في ساقيّ لما جلست عندك يا عزيزتي.

فرفعـت فرفارا بتروفنا رأسـها قليلاً، وضغطت بأصابـع يدها اليمنى على صدغها الذي كان واضحاً أنها تحس بأوجاع فيه، وقالت:

ـ لماذا يا براسـكوفيا إيفانوفنا؟ لماذا ترفضيـن الجلوس عندي؟ لقد كان المرحـوم زوجك يحمل لي دائماً أكبر الصداقة، وطالما لعبنا معاً، أنا وأنت، لعبة العروسة، أيام كنا صبيتين صغيرتين في المدرسة الداخلية!

حركت براسكوفيا إيفانوفنا يدها بإشارة تململ وقالت:

ـ هذا ما كنت أتوقعه. كلما انتويت أن تأخذي عليّ المآخذ، اسـتحضرت ذكرياتنـا فـي المدرسـة الداخليـة. هذا أسـلوبك وهذه خطتك. فـي رأيي أن مـا تقولينـه هنا ليـس إلّا جملاً منمّقـة. اعلمي أننـي أكرههـا وأحتقرها، هذه المدرسة الداخلية التي تجيئين على ذكرها!

ـ يبـدو لي أنك معتكرة المزاج. كيف حال سـاقيك؟ ها... إليك القهوة.. اشربيها.. أرجوك.. وكفّي عن الغضب!

ـ إنك تعاملينني كما يُعامَـل طفل صغير. لا أريد قهوتك.

قالت براسـكوفيا إيفانوفنا ذلك، وأبعدت بإشـارة حانقة سـاخطة الخادم

الـذي جـاء يقـدم لهـا فنجاناً مـن القهـوة. وما مـن أحد شـرب قهـوة إلّا أنا ومافريكـي نيقولايفتش. وقد أخذ سـتيفان تروفيموفتـش فنجاناً، ولكنه تركه على المائدة دون أن يرشـف منه رشـفة واحدة. أما ماريا تيموفيئفنا فقد ودّت لـو تأخذ فنجاناً ثانياً حتى لقد مدّت يدها إلى الصينية، لكنها فكّرت في الأمر فأسرعت ترفض بوقار، راضيةً عن حركتها هذه رضىً واضحاً.

ابتسمت فرفارا بتروفنا ابتسامة مقهورة، وقالت:

ـ لا بد أنك تخيلت شيئاً من الأشياء يا عزيزتي براسكوفيا إيفانوفنا، وأنك إنما دخلت إلى هنا ممتلئة بما ذهب إليه خيالك. لقد عشـت دائماً في وسـط أخيلتـك وأوهامك. إنـك تغضبين إذا أنا جئت على ذكر مدرسـتنا الداخلية، ولكـن هـل تتذكرين أنـك حين عدت من إجـازة الصيف زعمـت لتلميذات الصف كله أن الضابط في سلاح الفرسان، شابكيلين، قد خطبك من أهلك؟ إن السـيدة ليفيبور قد أقنعتك فوراً بأنك تكذبين، والحق أنك لـم تكذبي، إنما أنـت تخيلت هذه القصة تخيلاً من باب التسـلية. فقولي لنا: ماذا هناك الآن؟ ماذا تخيلت أيضاً؟ ممّ أنت مستاءة!

ـ وأنت أيضاً وقعت في غرام القس الذي كان يعلّمنا الدين. ذلك أنت، ما دمت حقودة إلى هذا الحد. هأ هأ هأ!...

وانطلقت تضحك ضحكة مُـرةً تحولت إلى نوبة سعال شديد.

قالت فرفارا بتروفنا وهي تلقي عليها نظرة زاخرة بالبغض:

ـ آ... إذن لـم تنسي حكاية القس...

وانكفأ لون وجهها حتى صار ضارباً إلى خضرة. فإذا ببراسكوفيا إيفانوفنا تنهض فجأة متجهمة الوجه وتقول:

ـ لسـت الآن في حالة نفسـية تسـاعدني علـى الضحك يـا عزيزتي. لماذا أقحمـت ابنتي في فضائحك على مرأى ومسـمع مـن المدينة كلها؟ من أجل أن أعرف هذا إنما جئت.

فمـا إن سـمعت فرفـارا بتروفنـا هـذا الكلام حتـى صاحت تقـول بلهجة التهديد: ـ فضائحي؟

فإذا بليزافتا نيقولايفنا تتدخل فتقول مخاطبةً أمّها:

ـ أنا أيضاً أطلب منك أن تلتزمي الاعتدال والحقّ يا أماه.

ـ ماذا تقولين؟

كذلك سألت الأم وهي تستعد لأن تنفجر صائحة منتحبة، لكنها وقد رأت ما يسطع في عينى ابنتها من نظرات ملتهبة مستعرة، أمسكت على حين فجأة. فقالت ليزا وقد احمرّت احمراراً شديداً:

ـ كيف يمكنك أن تتحدثي عن فضائح يا ماما؟ لقد جئت بمحض إرادتي، واستأذنت جوليا ميخائيلوفنا، لأنني أردت أن أعرف قصة هذه المسكينة وأن أساعدها.

قالت براسكوفيا إيفانوفنا تكرر جملة ابنتها وهي تضحك ضحكة خبيثة:

ـ "قصة هذه المسكينة!" ما شأنك أنت وهذه القصص يا عزيزتي؟

والتفتت نحو فرفارا بتروفنا ساخطة سخطاً شديداً، وقالت لها:

ـ يا عزيزتي! لقد ضقنا ذرعاً بطغيانك واستبدادك! يقال هنا، خطأ أو صواباً، أنك تسيّرين المدينة كلها بإشارة من إصبعك أو غمزة من عينك، ولكن آن الأوان لأن ينتهي هذا كله. لن يحدث شيء من هذا بعد اليوم!

كانت فرفارا بتروفنا منتصبة الجذع كسهم يهمّ أن ينطلق من القوس. وألقت على براسكوفيا إيفانوفنا نظرة ثابتة طويلة قاسية، ثم قالت لها أخيراً بهدوء مخيف:

ـ احمدي الله يا براسكوفيا على أنه ليس هنا إلّا أصدقاء. لقد نطقت بأقوال كثيرة لا داعي إليها.

ـ أنا لا أخشى رأي الناس. ولكنك أنت التي ترتعشين خوفاً من الناس، تحت ستار من الكبرياء الباطلة والزهو الكاذب. فإذا كان هؤلاء أصدقاء، فذلك من حسن حظك.

ـ أتراك أصبحت أكثر ذكاء في خلال هذه الأيام الثمانية؟

ـ لا، ليس الأمر هذا. كل ما هنالك أن الحقيقة قد تكشفت ساطعة باهرة في هذا الأسبوع.

- أيـة حقيقة؟ اسـمعي يـا براسـكوفيا إيفانوفنـا، لا تحنقيني، اشـرحي ما بنفسك فوراً. ما هي تلك الحقيقة؟ ماذا قصدت من ذلك الكلام؟

- الحقيقة هي هذه! إنها موجودة أمامك!

كذلك هتفت براسـكوفيا إيفانوفنا، مشـيرةً بإصبعها إلـى ماريا تيموفيئفنا عازمةً ذلك العزم المسـتميت الذي لا يحفـل بالعواقب، راغبة في أمر واحد لا ثانـي له، هو أن تضـرب ضربة قوية. وكانت ماريـا تيموفيئفنا تتفـرس فيها باهتمـام يسـلّيها، فلما رأت إصبع الزائـرة تمتد نحوها مشـيرةً إليها، انطلقت ضحكة فرحة، وطفقت تتقلقل على كرسيها مرحة.

هتفت فرفارا بتروفنا تقول:

- يا يسوع المسيح، لقد أصبحوا جميعاً مجانين!

واصفـرّ وجهها اصفراراً شـديداً، وتهالكت في مقعدهـا. حتى لقد بلغت من الاصفرار أننا خفنا خوفاً كبيراً، وكان سـتيفان تروفيموفتش أول من هرع نحوهـا. واقتربـت أنا منهـا. ونهضت ليزا أيضـاً، ولكنها سـرعان ما توقفت. على أن براسـكوفيا إيفانوفنا كانت أشـد ارتياعاً علـى الإطلاق، فقد انطلقت مـن صدرها صرخـة، ونهضت من مكانها في مشـقة وعنـاء، وقالت بصوت دامع له أنين:

- فرفارا بتروفنا، عزيزتي الغالية، اغفري لي حماقتي وشرّي. ولكن هاتوا لها قليلاً من الماء.

- لا تئني يا براسـكوفيا إيفانوفنا، أرجوك! وابتعدوا أيها السادة، رحماكم! لست في حاجة إلى ماء يا براسكوفيا إيفانوفنا!

أضافت فرفارا بتروفنا هذه الجملة الأخيرة بصوت ثابت وإن يكن أجش. وكانت شفتاها قد ذهب عنهما لونهما تماماً.

استأنفت براسكوفيا إيفانوفنا كلامها فقالت وقد هدأت قليلاً:

- فرفـارا بتروفنا، صديقتي. لقد أفلتت مني كلمات حمقاء حقاً، لكنني قد أخرجتني عن طوريَ رسـائل غير مذيلة بأسـماء مرسـليها، قصفني بها أوغاد لا أدري مـن هـم. كان عليهـم أن يرسـلوها إليك أنت، فهـي تتناولك، أما أن

يرسلوها إليّ فهذا ما أحنقني، إن لي بنتاً يا فرفارا بتروفنا، وأنا مسؤولة عنها.

كانت فرفارا بتروفنا تصغي إليها بانتباه محملقةً. وفي تلك اللحظة فُتح باب صغير بغير ضجة، ودخلت داريا بافلوفنا الغرفة. ولكنها سرعان ما توقفت ونظرت إلينا جميعاً وقد فجأها مارأت في وجوهنا من اضطراب. جائز أنها لم تلاحظ في الوهلة الأولى ماريا تيموفيئفنا التي لم ينبهها أحد إلى حضورها. وكان ستيفان تروفيموفتش أول من رأى دخول داريا الصامت. فقام بحركة من يده، واحمرّ وجهه، وقال معلناً لا يدري أحد لماذا: "داريا بافلوفنا"، فإذا بالأنظار جميعها تتجه إلى الفتاة دفعةً واحدة.

هتفت ماريا تيموفيئفنا تقول:

ـ ماذا؟ أهذه هي داريا بافلوفنا؟ إن أختك لا تشبهك ياشاتوشكا. كيف يجوز لخادمي أن يصف فتاة جميلة هذا الجمال بأنها عبدة، وأن يلقبها داشكا؟

وفي أثناء ذلك كانت داريا بافلوفنا قد اقتربت من فرفارا بتروفنا. لكنها وقد أدهشتها صيحة ماريا تيموفيئفنا التفتت فجأة، وتوقفت، وألقت على العرجاء نظرة ثابتة طويلة.

قالت فرفارا بتروفنا بهدوء فيه تهديد:

ـ اجلسي. اقتربي مزيداً من الاقتراب. نعم هكذا. تستطيعين أن تري هذه المرأة وأنت جالسة. هل تعرفينها؟

أجابت داشا بصوت رقيق عذب:

ـ لم أرها قبل اليوم.

ثم أضافت بعد لحظة صمت:

ـ لا بد أنها الأخت العرجاء لرجل يسمى لبيادكين.

هتفت ماريا تيموفيئفنا تقول وهي في ذروة الافتتان:

ـ أنا أيضاً يا عزيزتي أراك اليوم أول مرة، رغم شوقي إلى معرفتك منذ مدة طويلة، لأن كل حركة من حركاتك تدل على تربية ممتازة. أما عن خادمي وشتائمه، فهل يُعقل أن تسرق منه مالاً فتاةٌ لها ما لك من روعة الفتنة وحسن النشأة والتربية؟ ذلك أنك فاتنة، نعم فاتنة. أنا أقول لك ذلك.

بهذا ختمت العرجاء كلامها بحماسة وهي تحرك يديها أمام داريا بافلوفنا.

قالت فرفارا بتروفنا لداريا تسألها بوقار وكبرياء:

ـ هل تفهمين شيئاً من هذا الكلام كله؟

ـ نعم، أفهم كل شيء.

ـ فما حكاية المال المسروق؟

ـ لعلها تقصد المال الذي تكفلت في سويسرا، تلبيةً لطلب نيقولاي فسيفولودوفتش، أن أحمله إلى السيد لبيادكين، أخيها.

ساد صمت.

ـ هل نيقولاي فسيفولودوفتش هو الذي كلفك بحمل ذلك المال؟

ـ كان يرغب كثيراً في إيصال مبلغ ثلاثمائة روبل إلى السيد لبيادكين. وإذ كان لا يعرف عنوانه، وكان كل ما يعرفه أنه سيجيء إلى هنا، فقد عهد إليّ بالمبلغ لأسلّمه للبيادكين عند وصوله إلى مدينتنا.

ـ وما ذلك المال المفقود؟ ماذا تعني تلك الكلمات التي قالتها هذه المرأة منذ برهة؟

ـ لا أدري. ولكن بلغتني شائعة تقول إن السيد لبيادكين أخذ يزعم في كل مكان أنني لم أوصل إليه المبلغ كاملاً، ولم أفهم معنى أقواله. لقد أُعطيت ثلاثمائة روبل، فأرسلتها إليه.

كانت داريا بافلوفنا قد استردت هدوءها كاملاً. ويجب أن أقول من جهة أخرى أنه كان صعباً على وجه العموم أن تُباغَت هذه الفتاة وأن تُحمل على الاضطراب مهما تكن العاطفة التي تعتمل في قرارة نفسها. لقد أجابت عن جميع الأسئلة بدقة ووضوح، دون تعجّل، بصوت رقيق متساوٍ، من غير أن يبقى أي أثر من انفعالها الأول، وبدون أي ارتباك يمكن أن يحمل أحداً على أن يظن فيها الإحساس بارتكاب ذنب.

ولم تحوّل فرفارا بتروفنا بصرها لحظة واحدة عنها أثناء هذا الاستجواب. وها هي ذي تفكر لحظة ثم تعلن بلهجة جازمة، موجهةً كلامها إلينا جميعاً رغم أنها لم تنظر إلّا إلى داشا:

ـ ما دام نيقولاي فسيفولودوفتش لم يستعن بي أنا، وإنما رأى من الخير أن يعهد إليك أنت بهذه المهمة، فلا شك أن هناك أسباباً تدعوه إلى ذلك. وعندي أنني لا يجوز لي أن أبحث عن هذه الأسباب ما دامت تُخفى عني. ولكن ثقي أن مجرد اشتراكك في هذه المسألة يطمئنني عن تلك الأسباب، يا داريا. ولكنك يا بنيّتي، لجهلك بالناس، ورغم كل طهارة نيّاتك، يمكن أن تقومي بعمل يعوزه التبصر بالعواقب، ولقد قمت بهذا العمل فعلاً إذ اتصلت بوغد دنيء. والشائعات التي أذاعها في الناس تبرهن لك على ذلك برهاناً واضحاً. لكنني سأسأل عنه، وما دام واجب الدفاع عنك يقع على عاتقي أنا، فسوف أعرف كيف أحميك. والآن يجب أن نضع حداً لهذا كله.

تدخلت ماريا تيموفيئفنا فقالت بحماسة وحرارة وهي تتحرك على كرسيّها:

ـ أفضل شيء نفعله حين يأتي هو أن نرسله إلى المطبخ، فيلعب هناك بالورق مع الخدم بينما نشرب نحن هنا قهوتنا. في وسعنا على كل حال أن نرسل إليه فنجاناً، ولكنني أكرهه كرهاً عميقاً.

بهذا ختمت ماريا تيموفيئفنا كلامها وهي تهز رأسها بحركة ذات دلالة.

ردّدت فرفارا بتروفنا بعد أن أصغت إلى ماريا تيموفيئفنا بانتباه:

ـ نعم، يجب أن ننتهي من هذا كله! ستيفان تروفيموفتش، إقرع الجرس، من فضلك.

قرع ستيفان تروفيموفتش الجرس، ثم إذا هو يتقدم فجأة وقد احمرّ وجهه احمراراً شديداً، ودمدم يقول متلعثماً متأتئاً، بنوع من الحمى:

ـ لو أنني... لو كنت... لو قد سمعت هذه القصة الدنيئة، بل هذه الوشاية الكاذبة... لاستأت استياء شديداً فـ... "الخلاصة هي أنه رجل ضائع يشبه أن يكون سجيناً هارباً..." (بالفرنسية).

وأمسك ستيفان تروفيموفتش عن الكلام فجأة. لقد نظرت إليه فرفارا بتروفنا مغضّنة جفنيها. ودخل ألكسي إيجورتش، بأبهة على عادته. فقالت فرفارا بتروفنا:

ـ فلتُهيّـأ العربة. وأنت يا ألكسي إيجورتش استعدّ لإيصال الآنسة لبيادكين إلى بيتها. ستدلك هي على المكان الذي تسكنه.

ـ إن السـيد لبيادكين ينتظرها منذ بعض الوقت تحت. وقد ألحّ عليّ كثيراً أن أبلغ عن حضوره.

فتدخـل مافريكـي نيقولايفتش الـذي كان حتى ذلك الحيـن يلتزم صمتاً كاملاً لا يتزعزع، تدخل يقول منتبهاً إلى سوء دخول لبيادكين:

ـ مسـتحيل. اسـمحي لي أن أقول لك إن هذا الشخص لا يمكن استقباله في مجتمع. هذا... هذا إنسان غير معقول يا فرفارا بتروفنا.

قالت فرفارا بتروفنا تأمر ألكسي إيجورتش:

ـ فلينتظر.

وسرعان ما خرج ألكسي إيجورتش.

تمتم ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية:

ـ "هـذا رجل منحط. حتى إنني أعتقد أنه سـجين هـارب أو رجل من هذا القبيل" (بالفرنسية).

ولكنه احمرّ وأمسك عن الكلام من جديد.

قالت براسكوفيا إيفانوفنا بلهجة مشمئزة وهي تنهض عن مقعدها:

ـ ليزا، آن لنا أن ننصرف.

كان يبـدو عليهـا أنها نادمة على أن وصفت نفسـها بالحماقة أثناء انفعالها منـذ برهة. لقد اسـتردت هيئة التعالـي والاحتقار أثناء اسـتجواب داريا. غير أن الشــيء الذي خطف انتباهي أكثر من كل ما عداه هو ما كان يعبّر عنه وجه ليزافتـا نيقولايفنـا: إنها منذ دخول داريا بافلوفنا سـطع فـي عينيها لهيب كره واضح وازدراء صارخ يعلن عن نفسه سافراً.

قالت فرفارا بتروفنا بذلك الهدوء الشديد نفسه:

ـ انتظري دقيقة، من فضلك يا براسـكوفيا إيفانوفنا. اجلسي. إنني أريد أن أقول كل شـيء، وأنت تشـعرين بآلام في سـاقيك، فاجلسـي، أرجوك. نعم، هكـذا، شـكراً. منذ قليل، اسـتبد بـي الانفعـال فاندفعت فأفلتت من لسـاني

كلمـات حانقـة. فمعذرة. لقـد تصرفت تصرفـاً أحمقاً، وأنـا أول من يعترف بذلـك، لأننـي أحب العدل والإنصاف في كل شـيء. ولا بـد أنك كنت أنت خارجة عن طورك حتماً، منذ برهة، حين ألمحتِ إلى رسائل بعثها مرسلوها دون أن يذكروا أسماءهم. إن كل رسالة من هذا النوع لا تستحق إلّا الاحتقار، لمجرد أنها غير مذيلة بتوقيع صاحبها. فإذا كنت لا ترين هذا الرأي، فهذا من سـوء حظـك، ومهما يكن مـن أمر فإنني لو كنـت في مكانك لمـا التفت إلى هذه الدناءات، ولأبيتُ أن أوسّـخ بها نفسـي. ولكن ما دمت قد بدأت، فإنني مضطرة أن أذكر لك أنني أنا أيضاً قد تلقيت منذ ستة أيام رسالة فظة مضحكة لا تحمل اسـم مرسـلها. لا أدري من هو ذلك الوغد الحقيـر الذي ينبئني في تلـك الرسـالة أن نيقولاي فسـيفولودوفتش قـد أصبح مجنونـاً، وأن عليّ أن أحـذر امـرأة عرجاء "سـتلعب في حياتـي دوراً خطيراً" هذا هـو التعبير الذي اسـتعمله كاتب الرسـالة أتذكره الآن كلمة كلمة. فلمـا فكرت، وكنت أعرف أن نيقولاي فسـيفولودوفتش له أعداء كثيرون، اسـتدعيت شخصاً من هنا هو واحد من أعدائه المتسـترين المتخفيـن الحاقدين الحقيرين، فلم تنقض على حديثي معه لحظة حتى أدركت من هو كاتب تلك الرسالة. فإذا كنتِ "بسببي أنا" تُطارَدين أو تُقصفين، على حد تعبيرك، برسائل غفلٍ من أسماء مرسليها، فإنني ليؤسـفني طبعاً أن أكون أنا سبب ذلك، رغم براءتي. ذلك كل ما أردت أن أقوله لك شارحة معتذرة. إنني أرى أنك متعبة مرهقة وأنك مضطربة أشد الاضطـراب. ولكنني من جهة أخرى عازمة عزمـاً قاطعاً على "إدخال" ذلك الرجل المشـبوه المريب الذي استعمل مافريكي نيقولايفتش في حقه ألفاظاً غير مناسبة، إذ قال إنه لا يمكن استقباله. إن ليزا خاصةً لن يكون لها شأن هنا. تعالي إليّ يا ليزا، يا بنيّتي، لأقبّـلك مرة أخرى.

اجتـازت ليـزا الغرفة، ووقفت أمام فرفـارا بتروفنا صامتـة. فقبّـلتها هذه، وأمسـكت يديهـا، وردّتها قليلاً إلى وراء لتراها رؤيـة أكمل، وتأملتها بعاطفة وانفعال. ثم رسمت على الفتاة إشارة الصليب، وقبّـلتها من جديد.

ـ هيـا، مع السـلامة يا ليزا (وأوشـكت أن تخالط صوتها دمـوع). اعلمي

أنني لن أكف عن حبك يوماً، مهما يخبئ لك القدر. كان الله معك. إنني أبارك إرادته دائماً...

وأرادت فرفارا بتروفنا أن تضيف شيئاً آخر، لكنها ثابت إلى نفسها وأمسكت عن الكلام. وسارت ليزا راجعة إلى مكانها وهي ما تزال صامتةً وكأنها في حلم، فلما وصلت إلى أمام أمها توقفت فجأة وقالت لها بصوت رقيق لكنه يشف عن إرادة صلبة وعزم من حديد:

ـ لن أنصرف يا ماما، سأبقى الآن عند عمتي.

فقالت براسكوفيا إيفانوفنا في أنين وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى بحركة خوف وقلق:

ـ ما هذا أيضاً يا رب؟

لكن ليزا لم تجبها. حتى لقد بدا عليها أنها لم تسمعها. وعادت تجلس في ركنها وهي ما تزال تائهة النظرة في الفراغ.

وأشرق في وجه فرفارا بتروفنا تعبير عن العجب والانتصار. وقالت تخاطب مافريكي نيقولايفتش:

ـ مافريكي نيقولايفتش، أريد أن أسألك خدمةً هامة: أرجوك أن تذهب إلى تحت فتلقي نظرة على ذلك الرجل، فإن رأيت أن هناك أي إمكان "لإدخاله"، فجئ به إلى هنا.

فأطاع مافريكي نيقولايفتش وخرج. وما هي إلّا دقيقة حتى رجع مع السيد لبيادكين.

4

سبق أن تكلمت عن مظهر هذا الشخص: رجل طويل القامة ضخم الجسم، في نحو الأربعين من العمر، مجعد الشعر، أحمر الوجه متورّمه، ترتجف خداه الرخوتان عند كل حركة من رأسه، وعيناه الصغيرتان المحتقنتان لا تخلوان من معنى الدهاء والمكر. وله شاربان ولحيتان في العارضين. وتبرز تفاحة آدم في عنقه سمينة بشعة المنظر. والشيء الذي

خطـف انتباهـي فيه أكثر من كل ما عداه هو أنه كان في هذه المرة يرتدي رداء "فـراك"، وقميصـاً نظيفاً. "إن هناك أناسـاً يكاد يكـون القميص النظيف في نظرهم خروجاً على اللياقة والحشمة"، كذلك أجاب ليبوتين ذات مرة، حين لامه ستيفان تروفيموفتش على إهمالـه هندامه. وكان للكابتن كذلك قفازان أسـودان، يحمل أحدهما بيده اليمنـى، بينما الثاني الذي لم يفلح في أن يعقد زره، يشـد يسـراه الضخمة شـداً قويـاً دون أن يغطيها تغطية كاملـة مع ذلك، وبهذه اليد اليسـرى كان يمسـك قبعـة مدوّرة جديدة كل الجـدة، لامعة. إذن فلقد كان "فراك الحب" الذي تحدث عنه الكابتن إلى شـاتوف أمس موجوداً بالفعـل. وهذا اللباس كله، أي الفراك والقميص النظيف، إنما حصل عليهما الكابتـن تنفيذاً لنصيحة ليبوتين (كما عرفت ذلـك فيما بعد) لأغراض خفية. وممـا لا شـك فيه أيضاً أنه جـاء إلى منزل فرفـارا بتروفنا (راكبـاً عربة أجرة) بتحريـض ومسـاعدة أحد الناس. فهذه الفكرة مـا كان لها أن تخطر بباله قط، وما كان له بمفرده أن يعزم أمره وأن ينفق ثلاثة أرباع السـاعة في العناية بزينته وهندامه، حتى ولو افترضنا أنه علم فوراً بالمشـهد الذي حدث تحت مدخل الكاتدرائيـة. ولـم يكن الكابتن سـكراناً، لكنه كان متبلـداً متبلهاً، كما يحدث ذلـك لأناس صحوا فجأة من سـكر دام عدة أيـام دون انقطاع. فلو هززته من كتفيه هزاً خفيفاً، مرةً أو مرتين، لعاد يهوي إلى حالة السكر فوراً.

دخـل الكابتـن إلى الصالون شـبه راكـض، لكنه تعثر بالسـجادة منذ صار في العتبة. فأخذت ماريا تيموفيئفنا تتلوى ضحكاً. فألقي عليها نظرة وحشـية كاسرة، واتجه نحو فرفارا بتروفنا بخطى سريعة.

قال بصوت رنان:

ـ جئت يا سيدتي!

فقالت فرفارا بتروفنا وهي تنتصب بجذعها في مقعدها:

ـ يـا سـيد، تفضل فاجلس هنـاك على ذلك الكرسـي. إن في وسـعك أن تسمعنا صوتك من هناك، وأنا يناسبني أن أنظر إليك من هنا.

فتوقـف الكابتـن فوراً وهـو ينظر إلى أمـام، أبلهَ الهيئة. ولكنه اسـتدار مع

ذلك، وجلس على الكرسي الذي حدّدته له فرفارا بتروفنا قرب الباب تماماً. إن تعبير وجهه يكشف عن فقدان الثقة بنفسه فقداناً كاملاً، ولكنه يكشف في الوقت نفسه عن نوع من الوقاحة ونوع من الغيظ المكظوم. كان خائفاً خوفاً رهيباً. ذلك واضح كل الوضوح. ولكنه كان يعاني من جرح في كرامته، فمن السهل على المرء أن يتنبأ أن كرامته الجريحة يمكن عند الاقتضاء أن تدفعه إلى الإقدام على إهانة أحد الناس رغم جبنه. كان واضحاً أنه يخشى أن يتحرك، لشعوره بخراقته. إنكم تعلمون أن أكبر عذاب يشعر به أشخاص من هذا النوع حين يدخلون إلى المجتمع الراقي بمصادفة تشبه أن تكون معجزة، إنما مصدره أنهم لا يعرفون ماذا يصنعون بأيديهم، وأنهم لا ينفكون يفكرون في هذا الأمر. لبث الكابتن جالساً على كرسيه كالمتجمد، حاملاً قبعته وقفازيه بيده، مثبتاً نظرته البلهاء على وجه فرفارا بتروفنا القاسي. لعله كان يود أن يرى ماذا يجري حوله، ولكنه لم يجرؤ أن يعزم أمره على ذلك. ولعل ماريا تيموفيئفنا قد رأت أن وضع الكابتن مضحك جداً، فإذا هي تطفق ضاحكة من جديد. ولكن الكابتن لم يتحرك. وتركته فرفارا بتروفنا التي لا ترحم، تركته على هذه الحال برهة طويلة، دقيقة كاملة، تحت نظرتها الفاحصة، وقالت له أخيراً بلهجة وقورة ذات دلالة:

ـ قبل كل شيء، أريد أن أعرف اسمك منك أنت.

فصاح الكابتن يقول:

ـ الكابتن لبيادكين، لقد جئت يا سيدتي...

وتحرك على كرسيه مضطرباً.

قاطعته فرفارا بتروفنا تقول:

ـ اسمح لي. هذه الإنسانة المسكينة التي همّني أمرها كثيراً، أهي أختك حقاً؟

ـ نعم يا سيدتي، هي أختي، وقد هربت من حراستي، فهي في حالة...

وأمسك عن إتمام جملته، واحمرّ وجهه احمراراً شديداً.

ثم جمجم يقول متلعثماً:

ـ لا تسيئي فهمي ياسيدتي، فأنا لا يخطر ببالي أن ألطخ سمعة أختي... فحين أقول إنها في حالة... لا أقصد أنها في حالة.. أقصد في حالة تسيء إلى السمعة... إنها في هذه الآونة الأخيرة...

وانقطع عن الكلام فجأة.

قالت فرفارا بتروفنا وهي ترفع رأسها مزيداً من الرفع:

ـ يا سيد...

ـ إليك ما أريد أن أقوله...

ولطم جبينه بإصبعه. وساد صمت.

ـ سألته فرفارا بتروفنا بصوت بطيء:

ـ أهي مصابة بهذا منذ مدة طويلة؟

ـ سيدتي، لقد جئت لأشكر لك ما أظهرته نحوها تحت مدخل الكنيسة، من كرم، من كرم روسي، أخويّ...

ـ أخويّ؟

ـ لا، لا أقصد ذلك... وإنما أقصد أنني أنا أخوها يا سيدتي.

ثم استأنف كلامه يقول متعجلاً وقد احمرّ احمراراً شديداً من جديد:

ـ صدّقي يا سيدتي أنني لست قليل الأدب إلى الحد الذي يمكن أن يظهر عليّ من الوهلة الأولى في صالونك. إننا، أنا وأختي، لا نُعَدّ شيئاً يا سيدتي بالقياس إلى ما نرى هنا من صنوف الروعة. يضاف إلى ذلك أن لنا أعداء، أن هناك وشاة يتقولون علينا كاذبين. أما عن السمعة يا سيدتي فإن لبيادكين يمكنه أن يعتز... وإن له كبرياءه... و... و... ولقد جئت لأزجي لك الشكر... إليك المال يا سيدتي!

وفيما كان يقول هذا الكلام أخرج محفظة نقوده واستل منها حزمة أوراق مالية وأخذ يعدها بأصابعه المرتجفة نافد الصبر حانقاً. كان واضحاً أنه يريد أن يشرح شيئاً ما بأقصى سرعة ممكنة، والحق أن الناظر إليه كان يشعر بضرورة ذلك. لكن لبيادكين، وقد أدرك في أغلب الظن أن وضعه في تلك اللحظة جعله مضحكاً، أضاع صوابه تماماً، فكانت الأوراق ترفض أن تُعَد، وكانت أصابعه لا تطاوعه، وزاده خزياً أن ورقة بثلاثة روبلات انسلت

من محفظته وسقطت على السجادة.

ـ إليك عشرين روبلاً يا سيدتي!

كذلك هتف وهو ينهض على حين فجأة، حاملاً حزمة الأوراق بيده، والعرق يتصبب منه خجلاً واضطراباً. وفي تلك اللحظة لمح الورقة التي كانت قد سقطت على الأرض، فطأطأ ليتناولها، لكنه شعر بخزي من هذه الحركة لا أدري لماذا، فقال وهو يُجرى يده بإشارة ازدراء:

ـ بل أتركها لخدمك يا سيدتي، للخادم الذي سيرفعها عن الأرض حتى يتذكر أختي.

فسرعان ما قالت فرفارا بتروفنا محتجةً وهي تشعر في الوقت نفسه بشيء من الرعب:

ـ لا يمكنني أن أرضى بهذا.

عندئذ طأطأ الكابتن من جديد، فتناول الورقة النقدية، واحمرّ وجهه احمراراً شديداً جداً، وسار بضع خطوات نحو فرفارا بتروفنا ومدّ إليها المال الذي عدّه قائلاً:

ـ ففي هذه الحالة إذن...

صرخت فرفارا بتروفنا تقول مرتاعة في هذه المرة:

ـ ما هذا؟

حتى لقد تقهقرت قليلاً في كرسيها. وهرعنا نتقدم إليها أنا ومافريكي نيقولايفتش وستيفان تروفيموفتش.

صات الكابتن يقول وهو يلتفت يمنةً ويسرة:

ـ هدئوا روعكم، هدئوا روعكم، ما أنا بمجنون، أقسم لكم إنني لست مجنوناً.

ـ بلى يا سيد. أنت قد فقدت عقلك.

ـ سيدتي، ليس الأمر ما تفترضين. ما أنا طبعاً إلّا حلقة تافهة لا قيمة لها. آه... سيدتي!... غنيٌّ مسكنك، وفقير مسكن "ماريا المجهولة"، أختي التي وُلدت باسم لبيادكين، ولكننا سنسميها مؤقتاً باسم "ماريا المجهولة"، مؤقتاً ياسيدتي، مؤقتاً فقط، لأن الله نفسه لا يرضى أن يستمر الأمر على هذه

الحال. سيدتي، لقد أعطيتها عشرة روبلات، فقبلتها، ولكنها لم تقبلها إلّا لأنك "أنت" التي أعطيتها إياها. هل تسمعين يا سيدتي؟ إن "ماريا المجهولة" ما كان لها أن تقبل مالاً من أحد في هذا العالم، ولو فعلت ذلك لاهتزّ من العار في قبره جدّها، الضابط أركان حرب، الذي قُتل في القوقاز على مرأى من بارمولوف. إيرمولوف[1]. أما منك أنت يا سيدتي، منك أنت، فإنها تقبل كل شيء. لكنها بيد تقبل، وبيد أخرى تقدّم هذه العشرين روبلاً تبرعاً لإحدى لجان البر والإحسان التي تشرّفينها بعضويتك في العاصمة... لقد أعلنت أنت نفسك في "جريدة موسكو" أن عندك هنا سجلاً للتبرعات، وأن أي إنسان يستطيع أن يتبرع.

وتوقف الكابتن عن الكلام. كان يزفر زفيراً مسموعاً كأنه قام بعمل مجهد. لعل هذا الحديث الطويل كله عن لجنة البر والإحسان إنما كان مهيّأً من قبل. حتى إن من الممكن أن يكون قد كتبه ليبوتين. وكان الكابتن يتصبب عرقه بمزيد من الغزارة: إن قطرات العرق تسيل على صدغيه سيلاناً بالفعل. وكانت فرفارا بتروفنا تتأمله بانتباه.

قالت بلهجة جافة:

ـ ما يزال السجل موجوداً تحت، عند بواب منزلي. فهناك إنما تستطيع أن تسجل تبرعك إذا شئت. أرجوك إذن أن ترتب أوراقك النقدية وأن لا تلوّح بها أمامي. يؤسفني كثيراً يا سيد أنني أخطأت الظن في أختك فأعطيتها صدقة، بينما هي غنية هذا الغنى كله. ليس هناك إلّا شيء واحد لا أفهمه: لماذا لن تقبل في يوم من الأيام أن تأخذ شيئاً من أحد غيري. لقد بلغت من الإلحاح على هذه النقطة أنني أريد أن تشرح لي ما بنفسك.

أجاب الكابتن يقول:

ـ سيدتي، هذا سر سأحمله معي إلى القبر.

فسألته فرفارا بتروفنا بصوت أقل ثقة في هذه المرة:

---

(1) ألكسي إيرمولوف (1861ـ 1772): جنرال شهير برز أثناء حملة 1812، ثم أصبح بعد ذلك قائداً للجيش الروسي بالقوقاز.

ـ لماذا؟

ـ سيدتي! سيدتي!

وصمتَ مظلّم الوجه، وخفض عينيه، ووضع يده اليمنى على قلبه. فكانت فرفارا بتروفنا تنتظر دون أن تحوّل عنه نظرها.

صاح يقول:

ـ سيدتي، هل تسمحين لي بأن ألقي عليك سؤالاً، سؤالاً لا أكثر، ولكن بصراحة، بصراحة تامة، صراحة روسية، من أعماق القلب؟

ـ قل ما تريد.

ـ هل تألمت في هذه الحياة يا سيدتي؟

ـ هذا يعني أنك تألمت أو ما تزال تتألم بسبب ذنب اقترفه غيرك.

ـ سيدتي، سيدتي!

ونهض مرة أخرى بحركة مباغتة، ربما دون أن يشعر بذلك، ولطم صدره. وأضاف يقول:

ـ هنا، في هذا القلب، تراكمت أشياء كثيرة سيُدهش منها الإله نفسه حين سينكشف كل شيء في يوم الحساب.

ـ همْ... إنك تستعمل تعابير قوية.

ـ سيدتي، ربما كنت أتكلم بلهجة تشتمل على إسراف في الغضب والحنق.

ـ لا تهتم، سأعرف كيف أوقفك عن الكلام حين يجب أن أوقفك عنه.

ـ هل يمكنني أن ألقي عليك سؤالاً آخر يا سيدتي؟

ـ افعل!

ـ هل يمكن أن يتعذب المرء لا لسبب غير نبل نفسه؟

ـ لا أدري. لم ألقِ على نفسي هذا السؤال يوماً!

فهتف الكابتن يقول بلهجة فيها سخرية وتأثر:

ـ لا تدرين! ولم تلقي على نفسك هذا السؤال يوماً! طيب، فإذا كان الأمر

كذلك، فاصمت يا قلبي اليائس[1]

قال ذلك ولطم صدره بقوة وعنف.

كان يسير في الغرفة طولاً وعرضاً. إن السمة المميزة لهؤلاء الناس هي أنهم عاجزون عجزاً مطلقاً عن إخفاء رغباتهم، وإن بهم حاجةً لا تقاوم إلى التعبير عنها فوراً بكل ما فيها من بشاعة. فإذا وُجدوا في مجتمع غير مجتمعهم شعروا في أول الأمر بضيق وحرج، ولكنهم ما إن يُسمح لهم بتثبيت أقدامهم حتى يصبحوا وقحين.

كان الكابتن قد أخذ يندفع. إنه يسير بخطى كبيرة، محرّكاً ذراعيه، وقد أصبح لا يصغي إلى الأسئلة التي تلقى عليه، ويتكلم من تلقاء نفسه بتدفق يبلغ من القوة في بعض الأحيان أنّ لسانه يعصيه، فإذا هو يترك الجملة قبل أن ينهيها ويشرع في جملة أخرى. يجب أن نذكر أيضاً أنه ربما كان قد شرب كأساً في ذلك الصباح. أضف إلى ذلك وجود ليزافتا نيقولايفنا. إنه لم ينظر إلى جهتها مرة واحدة، ولكن لا شك أن وجود الفتاة كان قد أدار رأسه. على أن هذا ليس إلّا افتراضاً مني. ومهما يكن من أمر، فلا شك أن فرفارا بتروفنا كانت تملك من الأسباب ما يجعلها تتغلب على تقززها، وتصغي إلى إنسان كهذا الإنسان. وكانت براسكوفيا إيفانوفنا، من جهتها، ترتعش خوفاً، رغم أنها كانت لا تفهم كثيراً ما هو الأمر الذي يدور عليه الكلام، فيما يبدو لي. أما ستيفان تروفيموفتش فكان يرتجف هو أيضاً، ولكن لأنه، على عكسها، كان مؤهّلاً لأن يدرك أشياء كثيرة مسرفة في الكثرة. وكان مافريكي نيقولايفتش يلتزم وضع امرئ مستعد لأن يتدخل من أجل أن يحمي الجميع. وكانت ليزا شاحبة الوجه جداً، لا تحول عينيها المحملقتين عن الكابتن لحظة واحدة. وظل شاتوف جالساً على وضعه نفسه لم يغيره. وأغرب ما في الأمر أن ماريا تيموفيئفنا لم تنقطع عن الضحك فحسب، بل أصبحت كذلك حزينة حزناً

(1) بيت من الشعر مستمد عن قصيدة كوكولنيك "الشك"، وقد وضع ميشيل جلنكا موسيقى لهذه القصيدة، فاشتهرت كثيراً.

رهيباً. كانت واضعة كوعيها على المائدة تتابع بنظرتها الحالمة الأسيانة أخاها الذي كان يتدفق في الكلام. وكانت داريا بافلوفنا الشخص الوحيد الذي بدا لي هادئاً كل الهدوء.

قالت فرفارا بتروفنا وقد أخذ صبرها ينفد:

ـ ما هذه الرموز كلها إلّا سخافات! إنك لم تجب عن سؤالي، "لماذا؟". وأنا أصرّ على أن أنال جواباً.

ـ لم أجب عن سؤالك "لماذا"؟ تنتظرين جواباً عن سؤالك "لماذا"؟

كذلك ردّد الكابتن كلامها غامزاً بطرفه. وتابع كلامه يقول:

ـ إن هذه الكلمة الصغيرة "لماذا"، منتشرة في الكون كله منذ أول يوم وُجدت فيه الخليقة يا سيدتي، والطبيعة كلها تصيح في كل لحظة سائلةً خالقها "لماذا؟". والناس ينتظرون الجواب منذ سبعة آلاف سنة. فهل على الكابتن لبيادكين وحده أن يتحمل التبعة نيابةً عن جميع البشر. أهذا عدل وإنصاف يا سيدتي؟

هتفت فرفارا بتروفنا تقول وقد أخذ غضبها يزداد:

ـ هذه كلها سخافات لا شأن لها بالسؤال. هذه كلها رموز. ثم إنك تسمح لنفسك بأن تتكلم لغةً متنفخةً كثيراً، وذلك أمرٌ أعدّه أنا وقاحة.

استأنف الكابتن كلامه دون أن يصغي إليها فقال:

ـ سيدتي، وددت لو يكون اسمي "آرنست"، ولكن ها أنذا أُسمّى بهذا الاسم الغليظ، اسم "أجناس". فلماذا في رأيك؟ وددت لو أكون الأمير مونتبارد، ولكنني لست إلّا لبيادكين، المشتق اسمه من كلمة "البجعة"، فلماذا؟ أنا شاعر يا سيدتي، شاعر في أعماق روحي، وكان يمكن أن أقبض مالاً من ناشر شعري، ومع ذلك فإنني مضطر أن أعيش في إسطبل، فلماذا؟ لماذا يا سيدتي؟ سيدتي، ليست روسيا في رأيي إلّا ألعوبة في يد الطبيعة، لا أكثر!

ـ ألا تستطيع حقاً أن تعبّر عما في نفسك تعبيراً أدق وأوضح؟

ـ أستطيع أن أنشدك مقطوعة شعرية عنوانها "الخنفسة"، يا سيدتي.

ـ هيه!...

ـ سيدتي، لم أصبح مجنوناً بعد، سأصبح مجنوناً في المستقبل، سأصبح مجنوناً ليس في ذلك ريب، لكنني لم أصبح كذلك حتى الآن. سيدتي، إن واحداً من أصدقائي، وهو رجل محـ..تـ..ر..م جداً، قد كتب حكاية من حكايات كريلوف، عنوانها "الخنفسة"، فهل تسمحين لي بأن أتلوها عليك؟

ـ تريد أن تنشدنا قصيدة من قصائد كريلوف عن الحيوانات؟

ـ لا، ليست هي حكاية من حكايات كريلوف يا سيدتي، بل هي حكاية من نظمي، من نظمي أنا. صدّقي يا سيدتي ـ ولا يسوءنَّك هذا ـ إنني لست عديم الثقافة ولا منحط العقل إلى الحد الذي يجعلني أجهل أن روسيا تملك شاعراً كبيراً نظم حكايات عن الحيوانات هو كريلوف الذي شاد له وزير التعليم العام نصباً تذكارياً في حديقة الصيف حتى يلعب الأطفال حوله[1]. إنك ياسيدتي تسألينني "لماذا". والجواب عن هذا السؤال مدوّن في هذه القصيدة بأحرف من نار.

ـ اقرأ القصيدة!

أخذ الكابتن يتلو القصيدة:

كانت خنفسة تعيش وادعة في هذا العالم،
هي خنفسة منذ ولدت.
فيوماً سقطت في كأس
مليء بذباب يموت

قالت فرفارا بتروفنا:

ـ ما هذا الكلام يا رب!

فأسرع الكابتن يشرح لها محركاً ذراعيه، حانقاً متململاً كأي مؤلف قوطع في الموضع المؤثر من كلامه:

---

(1) "... إن كريلوف الشاعر الكبير الذي نظم حكايات عن حديقة الحيوانات، قد أقام له وزير العام نصباً تذكارياً في "حديقة الصيف": إن هذا النصب الذي شاده المثال البارون كلودت قد أقيم سنة 1856.

ـ معنـى هـذا أن الذباب حين يسـقط صيفاً في كأس فإنـه يهلك. إن أغبى الأغبياء يدرك ذلك. لا تقاطعيني، لا تقاطعيني، سترين...

قال ذلك وهو ما يزال يحرك ذراعيه. وتابع ينشد القصيدة:

احتلت الخنفسة مكاناً صغيراً
لكن الذباب ثار منادياً جوبيتر:
كأسنا ملأى كثيراً.
ولكن بينما كان الذباب يحتج
مَرَّ هناك نيكيفور
الشيخ المحترم جداً...

هنـا اضطررت أن أتوقف عن النظم، ولكن لا ضير، فسـوف أقص عليك القصة نثراً.

كذلك قال الكابتن متوفقاً، وتابع يسرد القصة فقال:

ـ تنـاول نيكيفور الـكأس، ورغم احتجاجات الذبابـات، رمى الجمع كله في سـلة الزبالة، الذبابات والخنفسـة على حد سـواء، وذلك أمـر كان ينبغي أن يُـفعـل منذ مدة طويلة. ولكن لاحظي يا سـيدتي، لاحظي أن الخنفسـة لا تتشـكى ولا تتذمر. هذا هو جوابي عن سؤالك "لماذا؟": الخنفسة لا تتشكى ولا تتذمر.

بهذا صاح الكابتن منتصراً. ثم أسرع يضيف قوله:

ـ وإن نيكيفور يمثل الطبيعة.

وعاد يسير في الغرفة راضياً مسروراً.

اغتاظت فرفارا بتروفنا واستبد بها حنق شديد. وقالت تسأله:

ـ اسـمح لي أن أسـألك: ما قصة ذلك المال الذي كان يجب أن تتلقاه من ابنـي نيقولاي فسـيفولودوفتش، ثم لم يصلك كامـلاً؟ لقد تجرأت، فاتهمت شخصاً ينتمي إلى أسرتي.

فزأر الكابتن يقول وهو يرفع يده بحركة من يمثل دوراً في مأساة:

ـ وشاية!

ـ لا ليس هذا وشاية!

ـ سيدتي، ربّ ظروف تجبر المرء على أن يتحمل تلطخ سمعة أسرته بالعار، مفضّلاً ذلك على أن يجهر بالحقيقة. إن لبيادكين لن يقول كلمة واحدة، زيادةً على ما قال، يا سيدتي.

كان لبيادكين كمن عميَ بصره من النشوة. كان يحس بخطورة شأنه. كان واضحاً أنه يحسب كل شيء مباحاً له. إنه يريد أن يهين أحداً ما، إنه يريد أن يرتكب سفالة ما، ليظهر للجميع قوته وسطوته.

قالت فرفارا بتروفنا تخاطب ستيفان تروفيموفتش:

ـ اقرع الجرس، من فضلك يا ستيفان تروفيموفتش، أرجوك.

قال لبيادكين وهو يبتسم ابتسامة خبيثة ويغمز بعينه:

ـ إن لبيادكين ماكر يا سيدتي. إنه ماكر. لكنه هو أيضاً فيه ضعف. إنه هو أيضاً له هوى. وهذا الهوى هو... هو الزجاجة المعتقة التي يشربها الفرسان والتي تغنّى بها دافيدوف[1]. فحين تكون هذه الزجاجة في يده ياسيدتي، يمكنه أن يبعث رسالة من شعر، رسالة رائعة، لكنه سرعان ما يتمنى أن يدفع جميع دموع مآقيه ثمناً لاسترداد هذه الرسالة، لأنها تدمّر شعوره بالجمال. لكن العصفور يكون قد طار فلا سبيل إلى اللحاق به. فمن الممكن ياسيدتي أن يكون لبيادكين، في هذه الحالة، قد تكلم عن فتاة محترمة، منقاداً لاستياء نبيل نشب في نفسه ثورةً على الظلم، فاستفاد الوشاة النمامون من ذلك. لكن لبيادكين ماكر ياسيدتي. عبثاً يتربص به ذئب كاسر لا ينفك يصب له شراباً، متوقعاً أن يكشف عن نفسه أخيراً. إن لبيادكين لن يتكلم. وفي قرارة الزجاجة لن يجد إلّا مكر لبيادكين بدلاً من أن يعثر على السر الذي ينتظر أن يعثر عليه. ولكن كفى! أوه! كفى يا سيدتي! إن منزلك الرائع كان يمكن أن يكون ملكاً لأنبل الكائنات، ولكن الخنفسة لا تتذمر ولا تحتج. لاحظي هذا، لاحظيه جيداً! إن الخنفسة لا تتشكى! فاعترفي بعظمة نفسها!

---

(1) دينيس فاسيليفتش دافيدوف (1839ـ 1781): ضابط من سلاح الفرسان، قاد حرب أنصار سنة 1812، ونظم شعراً في الحرب والخمرة.

في تلك اللحظة سُمع صوت جرس تحت، ثم لم نلبث أن رأينا دخول ألكسي إيجورتش الذي كان قد تأخر عن الظهور استجابة لنداء ستيفان تروفيموفتش. وكان الخادم العجوز المهيب يبدو منفعلاً انفعالاً غريباً.

وإذ ألقت عليه فرفارا بتروفنا نظرة سائلة مستفهمة، قال:

- وصل نيقولاي فسيفولودوفتش.

إنني ما أزال أتذكر حالة فرفارا بتروفنا في تلك اللحظة: لقد شحب لونها شحوباً شديداً، والتمعت عيناها، ثم انتصبت في مقعدها وقد بانت في هيئتها قوة العزيمة. أما نحن فقد ذهلنا جميعاً. إن وصول نيقولاي فسيفولودوفيتش على حين بغتةً، بينما كان لا يُنتظَر وصوله قبل شهر آخر، قد فجأنا لا بمباغتته فحسب، بل أيضاً بكونه قد تمّ في هذه الدقيقة. وظل الكابتن نفسه متجمداً في وسط الغرفة، فاغر الفم، مثبتاً نظرته البلهاء على الباب.

وهذه أصوات خطى صغيرة متعجلة تدوّي في الغرفة المجاورة: إن شخصاً يصل راكضاً. وداهم هذا الشخص الصالون، ولكنه لم يكن نيقولاي فسيفولودوفتش، بل كان شاباً لا نعرفه.

5

أتوقف هنا لحظة لأرسم بعض ملامح هذه الشخصية التي ظهرت على حين فجأة.

إنه شاب في نحو السابعة والعشرين من عمره، أطول قليلاً من متوسط طول الرجال، شعره أشقر قليل لكنه طويل، له شاربان مشعثان ولحية ضئيلة، لائق الهندام، حتى إنه يرتدي ثياباً على الموضة، ولكن بغير أناقة. يبدو من النظرة الأولى أخرقاً، محدَّب الظهر قليلاً، غير أنه في حقيقة الأمر ليس محدَّب الظهر، وإنما هو يقف منطلقاً بغير تكلّف. يمكن أن يعد شاذاً بعض الشذوذ، لكن جميع الناس قد وجدوا بعد ذلك أنه حسن الآداب عاقل اللسان.

لا يمكن أن يقال إنه دميم، ومع ذلك لا يرضي وجهه أحداً. إن رأسه

المسطَّح في الجانبين، المتطاول إلى خلف، يُظهر وجهه مستدقاً كثيراً. وجبينه عالٍ ضيق. وقسماته صغيرة. وعيناه حادتان. وأنفه صغير مدبّب. وشفتاه طويلتان رقيقتان.

إذا رأيت تعبير وجه حسبته ضعيفاً مريضاً. وليس الأمر كذلك بتاتاً. إن خديه تغضّنهما تحت الوجنتين غضون جافة تضفي عليه مظهر رجل خرج من مرض خطير، ومع ذلك كان صحيح البنية قوي الجسم، حتى إنه لم يمرض في يوم من الأيام.

خطواته وحركاته سريعة دائماً، ومع ذلك فهو لا يتعجل شيئاً. لا شيء فيما يبدو يمكن أن يربكه ويشوشه. فمهما تكن الظروف ومهما يكن المكان، يظل هو نفسه على الدوام. وهو راضٍ عن ذاته، لكنه لا يشعر بذلك.

إنه يتكلم متدفقاً بغزارة، ولكنه يتكلم بثقة كبيرة، دون أن يبحث عن الألفاظ. أفكاره واضحة رغم سرعته، واضحةٌ دقيقة محدّدة، وقد خطفت هذه الصفة انتباه مستمعيه. نطقه بيِّن جليٌّ، كلماته تتساقط كحبات كبيرة متساوية، قد أحسن اختيارها دائماً وهيأها سلفاً لجميع المناسبات.

ذلك يعجبك في البداية، لكنك تشعر بعدئذ بانزعاج، ولا سيما من ذلك النطق المسرف في الوضوح، ومن ذلك التدفق الغزير السريع المطّرد على وتيرة واحدة. حتى ليخيَّل إليك في النهاية أن هذا الرجل لا بد أن لسانه له شكل خاص جداً، فهو طويل طولاً خارقاً، نحيل نحولاً هائلاً، مزوَّد برأس ذي أهداب، أحمرٌ قاني الحمرة، متحركٌ أبداً.

ذلكم هو الشاب الذي سقط في وسط الصالون سقوط الصاعقة. ويخيَّل إليّ الآن أنه كان قد بدأ الكلام وهو في الحجرة المجاورة، فلمّا دخل علينا كان في منتصف جملة يقولها. وسرعان ما انغرس أمام فرفارا بتروفنا، وقال لها مسرعاً:

ـ تخيلي يا فرفارا بتروفنا: لقد دخلت وأنا أتصور أن أجده. كان ينبغي أن يكون هنا منذ ربع ساعة. لقد وصل منذ ساعة ونصف. كنا معاً عند كيريلوف. وانصرف منذ نصف ساعة ليأتي إلى هنا رأساً، وطلب مني أن أجيء أيضاً بعد ربع ساعة.

سألته فرفارا بتروفنا:

ـ ولكن من هو؟ من هو الذي طلب لك أن تجيء إلى هنا؟

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش! كيف؟ ألا تعرفين، بعدُ، أنه وصل؟

لا بـد أن حقائبـه قد أصبحت هنا مع ذلك منذ مدة! لمـاذا لم ينبئوك؟ أأنا الـذي أحمـل إليك هذا الخبر؟ من الممكن أن يُرسَـــل أحد ليجيء به. على كل حـال، سـيصل بين لحظة وأخرى، وأظن أنه سيُسـرُّ كثيـراً بهذا الاجتماع الذي يطابق رغباته، كما يطابق ـ فيما أعلم ـ بعض مشاريعه. (قال ذلك ونظر حواليـه وتفرس في الكابتن لبيادكين بانتباه خاص). آ... ليزافتا نيقولايفنا! ما أسـعدني بأن ألقاك منذ وصولي! إنني مسـرور حقاً بمصافحة يدك (قال ذلك راكضـاً نحو ليزا ليتناول يدها التي مدتها إليه ليزا مبتسـمةً في فرح). وها أنذا أرى أن المحترمـة جـداً، براسـكوفيا إيفانوفنا، لم تنسَ، هـي أيضاً، صاحبها "الأستاذ"، ولا هي غاضبة منه الآن كما كانت غاضبة منه في سويسرا! كيف حال سـاقيك يا براسـكوفيا ايفانوفنا؟ هل كان الأطباء السويسريون على حق حين وصفوا لك هواء بلادك؟ ... كيف؟ تقولين إنك تستعملين كمادات؟ لا بد أن هذا يفيدك كثيراً. ولكن لشد ما أسفت يا فرفارا بتروفنا (هنا التفت نحو ربة المنزل من جديد) لشـد ما أسـفت لأنني لم أسـتطع أن أراك في الخارج وأن أقدم إليك احتراماتي بنفسـي! لا سـيما وأن هناك أشـياء كثيرة كان ينبغي أن أنقلهـا إليك... صحيح أنني أبلغت أبي العجـوز، ولكنني أعتقد أنه، على عادته...

وهتف ستيفان تروفيموفتش يقول وقد عاد من ذهوله وشدهه فجأة:

ـ بتروشا!

وضمَّ يديه ووثب نحو ابنه. وتابع يقول:

ـ "بطرس، ابني" (بالفرنسية) ! هل تصدق أنني لم أتعرفك؟

واحتضنه بذراعيه، وسالت على خديه دموع.

جمجم بتروشا يقول وهو يحاول أن يتخلص من عناق أبيه:

ـ هيَّا! لا تضطرب! لا تضطرب! كفى! أرجوك!

ـ أنا أذنبت دائماً في حقك، دائماً، دائماً!

ـ كفى! ستتكلم عن هذا فيما بعد. كنت أعلم أنك ستردد هذه الحكاية... كفى! عليك بمزيد من الوقار، أرجوك!

ـ ولكنني لم أرك منذ عشر سنين.

ـ هذا أدعى إلى أن لا تسترسل في الكلام...

ـ ابني!

ـ نعم، أنت تحبني، صدَّقتك... ولكن انزع يديك. ألا ترى أنك تزعج الآخرين؟ آ... هذا نيقولاي فسيفولودوفتش! هيَّا... هدىء نفسك، أرجوك!...

كان نيقولاي فسيفولودوفتش قد وصل فعلاً بصمت، فتلبث على عتبة الصالون لحظةً، وراح يتأملنا جميعاً بنظرة هادئة.

وكما حدث لي قبل ذلك بأربع سنين، حين رأيته أول مرة، خطف منظره اهتمامي فوراً. لم أكن قد نسيت محياه. غير أن هنالك وجوهاً لا تراها مرةً أخرى إلّا وتنكشف لك فيها سمة جديدة لم تكن قد لاحظتها قبل ذلك، رغم أنك تعرف هذه الوجوه منذ زمن طويل. لم تكن يبدو عليه أنه تغير خلال تلك السنين الأربع: مايزال أنيقاً كما كان، رصيناً كما كان، ما تزال مشيته وحركاته موسومة بالوقار، وما يزال على غضارة شبابه نفسها تقريباً، ما تزال ابتسامته الخفيفة ودوداً فاترة على عهدك بها، وما تزال تنمّ عن تلك الثقة ذاتها التي كانت تنمّ عنها. ما تزال نظرته على ما عرفت فيها من قسوة، وتفكير، وشيء من ذهول. الخلاصة: كان في إمكاني أن أعتقد أننا لم نفترق إلّا بالأمس. غير أن هناك أمراً فجأني مع ذلك: كان المرء يراه في الماضي جميلاً، ولكن وجهه كان في تلك الأيام "أشبه بقناع" في الواقع، على حد تعبير بعض سيداتنا. أمَّا الآن فهو جميل جمالاً كاملاً، جمالاً لا سبيل إلى الجدال فيه. لا شك أن أحداً لا يستطيع أن يقول الآن إن وجهه يشبه قناعاً. أيكون مرد ذلك إلى أنه شحب قليلاً ونحل قليلاً؟ أم أن فكراً جديداً قد أصبح يضيء نظرته؟

صاحت فرفارا بتروفنا تقول وقد انتصبت في مقعدها دون أن تبارحه، وأوقفت ابنها بإشارة آمرة صارمة:

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش! نيقولاي فسيفولودوفتش! قف!

ولكن لكي تفسر السؤال الرهيب الذي أعقب هذه الإشارة وهذه الصيحة، وهو سؤال ما كان لي أن أتخيل أن تلقيه فرفارا بتروفنا، أرجو من القارىء أن يتذكر طبع هذه السيدة، وأن يتذكر مدى ما تتصف به من اندفاع في بعض الظروف. إنها رغم قوة نفسها ورغم ما تملكه من حسٍّ عملي واضح، قد اتفق لها في بعض لحظات حياتها أن انقادت لعنف مزاجها انقياداً تاماً، ولم تعرف كيف تكبح جماح نفسها وكيف تقف عند حد. ويجب أن نُدخل في حسابنا أيضاً أن هذه الدقيقة التي كنا فيها يمكن أن تكون واحدة من تلك اللحظات الحرجة الدقيقة التي يتركز فيها، كتركز الأشعة بواسطة عدسة، كلُّ الماضي وكل الحاضر وربما كل المستقبل من حياة بكاملها. وينبغي أن أشير عابراً كذلك إلى تلك الرسالة الخالية من اسم كاتبها، التي تحدثت عنها فرفارا بتروفنا منذ برهة إلى براسكوفيا إيفانوفنا، كاتمةً العنصر الأساسي من مضمونها فيما يبدو لي. فلعل تلك الرسالة أن تكون هي السبب الحقيقي الذي دفع فرفارا بتروفنا إلى إلقاء ذلك السؤال بغتةً على ابنها.

قالت تسأله مفصِّلة كل كلمة من كلماتها بصوت قوي مثقل بالتهديدات:

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش، أرجوك أن تقول لي فوراً، دون أن تترك مكانك، هل صحيح أن هذه العرجاء ـ انظر إليها، هذه هي... هل صحيح أن هذه العرجاء هي زوجتك الشرعية؟

إنني أتذكر تلك اللحظة تذكراً واضحاً مسرفاً في الوضوح. إن نيقولاي فسيفولودوفتش لم ترفَّ عيناه، وحدَّق إلى أمه بنظرة ثابتة. لم يظهر على وجهه شيء. وأخيراً ابتسم ابتسامة متسامحة، واتجه نحو أمه بخطى هادئة دون أن يقول كلمة واحدة، فتناول يدها وحملها إلى شفتيه باحترام، ولثمها. ولقد كانت سيطرته على أمه ما تزال تبلغ من القوة أنها في هذه المرة أيضاً لم تجرؤ أن تسحب يدها، واكتفت بأن راحت تنظر إليه سائلة مستفهمة، ولكن وضعها كله كان يقول إن هذا الشك إذا لم يقطعه اليقين في لحظة، فلن تستطيع له احتمالاً.

ولكـن ابنهـا صمـت. وبعد أن لثـم يد أمه أجـال بصره علينا مـرة أخرى، وتقدم نحو ماريا تيموفيئفنا بتلك الخطى الهادئة نفسها. إنه لمن الصعب جداً وصف وجه الناس في بعض اللحظات. فمما أتذكره مثلاً أن ماريا تيموفيئفنا قد نهضت تستقبله وهي ترتعش خوفاً، وضمت يديها إحداهما إلى الأخرى كأنمـا لتضرع إليه. وأتذكر في الوقت نفسـه الافتتان الذي سـطع في نظرتها، وهو افتتان مجنون شـوّهها تشويهاً بمعنى من المعاني، افتتان ربما كان أقوى من أن يحتمله كائن إنسـاني. لعل صراعاً قد نشـب في نفسـها بين عاطفتين، الخـوف والافتتـان. لكنني أذكر أنني أسـرعت أقتـرب منها (ولـم أكن بعيداً عنها): إذ تراءى لي أنها ستسقط مغشياً عليها.

قال لها بصوت مؤثر رخيم، وكان في عينيه التماع حنان رائع:

ـ يجب أن لا تبقي هنا.

كان واقفاً أمامها على وضع يفيض احتراماً، وكانت كل حركة من حركاته تنم عمَّا يحمل لها من اعتبار صادق.

قالت المسكينة متأثثةً بصوت متقطع:

ـ هل يمكنني.. هنا.. الآن.. أن أركع أمامك؟

فأجابها يقول:

ـ لا... مستحيل.

وابتسـم ابتسـامة بلغت من الروعة أن انطلقت من صدر العرجاء ضحكةً صغيرة فرحة.

وأضاف يقـول بذلك الصوت المؤثر الرخيم المقنع نفسـه، أضاف يقول بجدٍ كمن يخاطب طفلاً:

ـ تذكـري أنك فتاة، وأنني مهما أكن لك صديقاً مخلصاً، فلسـت بالنسـبة إليـك إلّا رجـلاً أجنبيـاً، فما أنا زوجـك، ولا أبوك، ولا خطيبـك. هاتي يدك ولننصرف. سأشيعك إلى العربة، وإن شئت أوصلتك إلى بيتك.

أصغت إليه بانتباه، وأحنت رأسها شاردة الفكر حالمة الهيئة.

وقالت أخيراً وهي تتنهد وتمد إليه يدها:

ـ لننصرف!

غير أن مصيبة صغيرة قد وقعت في تلك اللحظة، لعل الفتاة قد قامت بحركة خطأ، فاستندت إلى ساقها المريضة. المهم أنها سقطت إلى جانب على مقعد. فلولا أن كان ذلك المقعد هناك، لتدحرجت على الأرض. وقد سندها نيقولاي فسيفولودوفتش، ووضع ذراعه تحت ذراعها، ثم أمسكها بقوة، وقادها نحو الباب بكثير من العناية والاحتياط.

كان واضحاً أنها خجلت من سقوطها، لأن وجهها احمرّ، وظهر عليها الاضطراب. مهما يكن من أمر فقد تبعته خافضةً عينيها، صامتةً لاتقول شيئاً، عارجةً عرجاً قوياً حتى لكأنها معلقة بذراعه. وهكذا غابا عن أعيننا. وقد رأيت ليزا التي نهضت عن كرسيها فجأةً لحظةَ سارا ليخرجا، رأيتها تتابعهما بنظرة ثابتة إلى أن اجتازا عتبة الباب. حتى إذا غابا عادت تجلس صامتةً، غير أن وجهها كان قد تقبّضَ تقبُّض الاشمئزاز، كأنما هي قد لمست حية أو ما أشبه الحية من الزواحف.

ولقد لبثنا جميعاً، طوال المدة التي استغرقها هذا المشهد كالخُرس صمتاً من فرط الذهول. فلو طارت في الغرفة ذبابة لسُمع صوت طيرانها. ولكن ما إن خرجت ماريا تيموفيئفنا مع نيقولاي فسيفولودوفتش حتى أخذ الجميع يتكلمون معاً في آن واحد.

6

والحق أن الكلام لم يكن كلاماً بقدر ما كان صيحات تعجب. لقد نسيت قليلاً كيف تسلسلت الأحداث، لأن ذلك كله كان مضطرباً مشوشاً. صرخ ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية لا أدري ماذا، ضاماً يديه إحداهما إلى الأخرى. ولكن فرفارا بتروفنا كانت تملأ رأسها همومٌ أخرى. حتى مافريكي نيقولايفتش نطق بضع كلمات بصوت لاهث. ولكن أكثر الحضور اضطراباً وتحركاً إنما كان بطرس ستيفانوفتش. كان يحرِّك يديه بإشارات عريضة محاولاً أن يقنع فرفارا بتروفنا. ولم أستطع أن أدرك مدار حديثه إلّا بعد

برهـة طويلـة. وكان يلتفـت أيضاً نحو براسـكوفيا إيفانوفنا ونحـو ليزا، حتى لقـد خاطـب والده أثنـاء حركتـه واضطرابه ببضـع كلمـات. الخلاصة: كان يسـعى هنا وهناك متخبطاً أكبر التخبط. وها هي ذي فرفارا بتروفنا تنهض من مقعدها وقد احمرَّت احمراراً شـديداً، وتصرخ سـائلةً براسـكوفيا إيفانوفنا: "هل سـمعت؟ هل سمعت ماذا قال لك؟". لكن براسكوفيا إيفانوفنا كانت قـد نفـذ صبرهـا وخـارت عزيمتها فلم تـزد علـى أن دمدمت ببضـع كلمات وهي تحرك يدها بإشـارة تململ. لقد كان للمسـكينة همـوم خاصة بها: فهي تلتفت نحو ابنتها في كل لحظة، وتنظر إليها مرتاعة. ومع ذلك لا يخطر ببالها أن تنهـض وتنصـرف قبل أن تومئ لها ابنتها بإشـارة الانصـراف. أمَّا الكابتن فـكان يتمنى لو يفر دون أن يراه أحـد، لاحظت ذلك واضحاً. إنه منذ وصول نيقولاي فسـيفولودوفتش يبدو فريسة رعب شـديد وذعر هائل. لكن بطرس ستيفانوفتش قد أمسكه من ذراعه ومنعه من الهروب.

كان بطرس ستيفانوفتش ما ينفك يكرر على مسامع فرفارا بتروفنا محاولاً إقناعها:

ـ لا بد من هذا، لا غنى عن هذا.

كان واقفـاً أمامها، وكانت هي قد عادت فجلسـت فـي مقعدها، وراحت تصغـي إليه في شـراهة ونهم. أتذكر هـذا. لقد بلغ غاياتـه وتمكن من جذب انتباهها.

ـ هذا لا بد منه، هذا لا غنى له. إنك لترين بنفسـك يا فرفارا بتروفنا أن في الأمر سـوء فهـم. إن الموقف يبدو غريباً، لكنه فـي الواقع واضح وضوح ماء الصخر، بسيط بساطة تحية الصباح. إنني أعلم حق العلم أن أحداً لم يكلفني بـأن أقصَّ هـذه القصة، وأنني قد أبـدو مضحكاً حين أقوم بهـذه المبادرة من تلقاء نفسـي. ولكن نيقولاي فسيفولودوفتش لايولي هذه القضية أي اهتمام، ذلك من جهة أولى، ومن جهة أخرى هناك حالات يصعب فيها على صاحب الشأن نفسه أن يشرح سلوكه. فلا بدّ أن يتولى شخص ثالث يستطيع أن يعرض بعض الوقائع الحرجة بسهولة أكبر. صدِّقي يا فرفارا بتروفنا أننا لا نستطيع أن

نأخذ على نيقولاي فسيفولودوفتش أنه لم يجب عن سؤالك بشروح وافية. ومع ذلك فإن هذه القضية لا تكاد تستحق أن يتكلم المرء عنها. إنني أعرفها منذ كنت ببطرسبرج. وهي تشرِّف نيقولاي فسيفولودوفتش إذا كان لا بدّ من استعمال هذه الكلمة الغامضة: "الشرف..."

سألته فرفارا بتروفنا:

ـ هل تقصد أنك كنت شاهداً على حادث هو السبب في سوء الفهم ذاك؟

ـ بل كنت شاهداً وفاعلاً في آن واحد.

بهذا أسرع بطرس ستيفانوفتش يصحح سؤال فرفارا بتروفنا.

ـ إذا كنت تعاهدني على أن قصتك لن تخدش عواطف نيقولاي فسيفولودوفتش الذي لم يكتم عني شيئاً في يوم من الأيام... وإذا كنت على يقين من أنك إذ تفعل ذلك تسرُّه...

ـ لاشك عندي في هذا، وذلك بعينه هو السبب في أنني يسعدني أن أقدم لك هذه الشروح. إنني مقتنع بأنه يمكن أن يصرَّ هو نفسه على أن أتكلم.

إن إلحاح هذا السيد الذي هبط من السماء على أن يروي لنا شؤون غيره كان أمراً غريباً لا يطابق العادات المألوفة. ولكنه قد اصطاد فرفارا بتروفنا بصنارته إذ لمس منها موضعاً حساساً على نحو خاص. ولقد كنت في ذلك الحين، أجهل طبع هذا الشخص، وأجهل مراميه.

قالت فرفارا بتروفنا بلهجة رصينة متحفظة، وقد ضايقها تسامحها قليلاً:

ـ إنني أصغي إليك.

ـ ليست القصة طويلة. حتى أنها ليست حكاية. ولكن رُبّ كاتب من كتاب الروايات لا يجد شيئاً يفعله خيراً من أن يلفق منها رواية، فهي حالة شائقة. إني على ثقة بأن براسكوفيا إيفانوفنا وليزافنا نيقولايفنا ستصغيان إليَّ باهتمام، لأن في هذه القضية أشياء كثيرة إن لم تكن خارقة فهي على الأقل عجيبة. منذ خمس سنين عرف نيقولاي فسيفولودوفتش هذا السيد ببطرسبرج، نعم هذا السيد لبيادكين الذي يقف فاغر الفم، والذي يتمنى في هذه اللحظة أن يكون بعيداً إذا لم يخطىء ظني معذرة يا فرفارا بتروفنا. على

أنني لا أنصحك بالهروب يا عزيزي السيد الموظف المحال على التقاعد من مصلحة التموين (ها أنت ذا ترى أنني أعرفك جيداً). إننا، أنا ونيقولاي فسيفولودوفتش، على علم كامل بجميع أفعالك هنا، وهي أفعال ستُحاسَب عليها حساباً عسيراً، لا تنسَ هذا. مرةً أخرى أستغفرك يا فرفارا بتروفنا. في ذلك الأوان كان نيقولاي فسيفولودوفتش يطلق على هذا الشخص اسم فالستاف، أي يعدُّه إنساناً مضحكاً جداً يسخر منه جميع الناس ويستهزئون به ولا يحتج هو على ذلك شريطة أن يجني منه بعض المال (كذلك اعتقد بطرس ستيفانوفتش أن من واجبه أن يشرح). وفي ذلك الأوان كان نيقولاي فسيفولودوفتش يعيش في بطرسبرج حياة "ساخرة" إن صح التعبير. إنني لا أجد كلمةً غير هذه الكلمة لوصف الحياة التي كان يعيشها في ذلك الأوان، فهو إنسان لا يستسلم لليأس وهو من جهة أخرى يحتقر أن يشغل نفسه بأي شيء. إنني لا أتكلم عن ذلك العهد فقط يا فرفارا بتروفنا. وكان للبيادكين هذا أخت، هي تلك نفسها التي كانت هنا منذ هنيهة. والأخ والأخت لم يكن لهما ركن يأويان إليه، فكانا يسكنان تارةً عند هؤلاء وتارةً عند أولئك. كان، هو، يظل يطوِّف ببزته الرسمية تحت أروقة الدكاكين ويستوقف المارة، أحسن المارة طبعاً، ثم يمضي بكل ما يتصدقون به عليه إلى الخمارة. أمّا الأخت فكانت تعيش كما تعيش عصافير السماء. كانت تساعد الفقراء فيطعمونها. اغفروا لي أنني أصف لكم هذه الحياة التي جذبت نيقولاي فسيفولودفتش من باب "التفرد والشذوذ". إنني لا أتكلم إلّا عن تلك الفترة يا فرفارا بتروفنا. أمّا تعبير "الشذوذ والتفرد" هذا فهو من عنده: إنه تعبيره هو. لقد كان لا يخفي عني أشياء كثيرة. والآنسة لبيادكين التي أتيح لها كثيراً أن تراه في ذلك الأوان قد خطف بصرها وفتن لبَّها مظهره. لقد كان بمثابة قطعة من الماس تتلألأ على صفحة حياتها الوسخة المقززة. ولكن وصف العواطف ليس هو ما أبرع فيه، لذلك أصرف النظر عن هذا الأمر. ومع ذلك فقد وُجد أناس خبثاء أشرار أخذوا يسخرون منها، فجعلها ذلك حزينة كل الحزن. كانوا يستهزئون بها ويضحكون عليها بغير انقطاع، ولكنها كانت في أول الأمر لا

تلاحظ ذلك ولا تدركه. إنها منذ ذلك الحين لم تكن مالكة عقلها كاملاً، ولكن اختلال عقلها لم يكن قد بلغ الحد الذي بلغه الآن. وعلينا أن نفترض أنها، بفضل عناية ورعاية محسنةٍ ما، قد نُشِّئت في طفولتها تنشئة مكَّنتها من الإلمام بشيء من ثقافة. كان نيقولاي فسيفولودوفتش لا يوليها أي اهتمام في يوم من الأيام، وكان يقضي وقته في لعب "الويست" بورق عتيق متسخ على ربع كوبك للنقطة الواحدة مع أشخاص من صغار الموظفين. لكنه، في ذات مرة، وقد سخر أحدهم من المسكينة، أمسك الرجلَ من تلابيبه دون أي شرح ورماه من النافذة من الطابق الأول. ولم يكن ذلك منه تعبيراً عن غضب فروسي أثارته فيه رؤية الفتاة البريئة مهانة. فقد جرى المشهد كله بين ضحكات الحضور وصيحاتهم، حتى إن نيقولاي فسيفولودوفتش ضحك أكثر مما ضحك الآخرون. وحين تبيَّن أن الحادث لم يسفر عن عواقب أليمة، تمَّت المصالحة حول زجاجة من الخمرة. ولكن "البريئة المهانة" لم تنس ما فعله الفارس من أجلها. وكان طبيعياً أن ينتهي هذا بتشويش ملكاتها العقلية تشويشاً حاسماً. أكرر أنني لا أجيد وصف العواطف. ولكن كل شيء هنا كان يتم في نطاق خيالها. وكان نيقولاي فسيفولودوفتش ما ينفك يزيد هذا الخيال اضطراماً بما يشبه التعمّد. فبدلاً من أن يضحك على الآنسة لبيادكين كما يفعل الآخرون، أخذ يعاملها باحترام، مثيراً بذلك دهشة الجميع. حتى أن كيريلوف الذي شهد ذلك (وهو شخص على جانب كبير من الأصالة والصراحة الخارقة يا فرفارا بتروفنا، وقد ترينه لأنه الآن هنا) أقول أن كيريلوف هذا، الذي لا يتكلم أبداً، قد غضب مرةً وقال لنيقولاي فسيفولودوفتش - أتذكر هذا جيداً - إنه يرتكب خطأ كبيراً إذ يعامل الآنسة لبيادكين كما تعامَل مركيزة، لأن ذلك يفقدها عقلها تماماً. يجب أن أقول لك إن نيقولاي فسيفولودوفتش كان يقدّر كيريلوف. فهل تعرفين بماذا أجابه؟ لقد أجابه بقوله: "أتظن يا سيد كيريلوف أنني أسخر منها؟ إنك إذن لواهم: إنني أحترمها فعلاً، لأنها خير منا جميعاً". وقد قال ذلك بلهجة جادة. ومع ذلك فإنه خلال الشهرين أو الأشهر الثلاثة التي عرفها خلالها لم يقل لها

كلمة واحدة عدا "يومك سعيد" و "إلى اللقاء". وإني لأذكر بوضوح كامل أنها انتهت من ذلك إلى أن عدَّته خطيبها تقريباً، ولكنه خطيب لا يجرؤ أن يختطفها لأن له أعداء كثيرين، ولأنه يخشى أن تجيئه متاعب من جهة أسرته، أو شيء من هذا القبيل. ما أكثر ما كنا نضحك من ذلك! وفي النهاية حين غادر نيقولاي فسيفولودوفتش مدينة بطرسبرج ليجيء إلى هنا، اتخذ تدابيره من أجل أن يكفل للفتاة المسكينة معاشاً سنوياً، معاشاً كبيراً فيما أعتقد، يساوي نحو ثلاثمائة روبل إن لم يكن أكثر. لنفرض أن ذلك لم يكن منه إلّا نزوة عارضة، إلّا نزوة جامحة، كما يمكن أن يحدث هذا لرجل سئم الحياة قبل الأوان. بل فلنفترض أن كيريلوف كان على حق، وأن الأمر لا يعدو أن يكون تجربةً يقوم بها امرؤ قليل المروءة يريد أن يرى إلى أين يمكن المضيّ بامرأة شوهاء نصف مجنونة. لقد قال له كيريلوف: "إنك تعمدت أن تختار أبشع مخلوقة، أن تختار امرأة عرجاء يسخر منها الناس ويسيئون معاملتها، وهي إلى ذلك تموت بك حباً مضحكاً، وأخذت تدير لها رأسها عامداً قاصداً لا لشيء إلّا أن ترى ما عسى ينتج عن ذلك.". ولكن هل ينبغي أن نعدَّ رجلاً من الرجال مسؤولاً عن جميع الأفكار المجنونة التي يمكن أن تساور ذهن امرأة لم يبادلها هذا الرجل جملتين. لاحظوا أنه لم يبادلها جملتين حقاً. هناك يا فرفارا بتروفنا أشياء لا يعجز المرء عن أن يقول فيها كلاماً معقولاً فحسب، بل يعجز كذلك حتى عن محاولة معالجتها معالجة جادة. لنفترض أن ذلك كان "تفرداً وشذوذاً" من جانب نيقولاي فسيفولودوفتش. إن هذا كل ما يمكن أن يقال عن هذه القصة. فانظري ماذا جعلوا منها! إنني على علم، إلى حدّ ما، بما يجري هنا يا فرفارا بتروفنا.

هنا قطع القاصُّ حديثه فجأة، وهمَّ أن يلتفت نحو لبيادكين، لكن فرفارا بتروفنا أوقفته. لقد كانت فرفارا بتروفنا تعاني انفعالات قوية شديدة.

سألته:

ـ هل أنهيت كلامك؟

ـ لا، فلكي أخرج القضية إلى النور يجب عليَّ أيضاً أن ألقي عدداً من

الأسـئلة على هذا السـيد، إذا أذنت لي بذلك. فلسـوف تريـن حقيقة الأمر يا فرفارا بتروفنا.

ـ كفـى. أرجـىء هذا إلى ما بعد. توقف عن الـكلام لحظة، أرجوك. آه... لكم أحسنت صنعاً إذ تركت لك أن تتكلم!

أستأنف بطرس ستيفانوفتش كلامه يقول بحرارة:

ـ ولاحظي يا فرفارا بتروفنا أنه كان يستحيل استحالةً مطلقةً على نيقولاي فسيفولودوفتش أن يذكر لك جميع هذه الإيضاحات جواباً عن سؤالك الذي لعله كان يشتمل على إسراف في الجزم والقطع.

ـ آ... نعم ... كان يشتمل على إسراف كثير في الجزم والقطع.

ـ أفلم يكن من حقي أن أقول أن ثمة ظروفاً يكون فيها تقديم الإيضاحات اللازمة أسهل على شخص آخر منه على صاحب الشأن نفسه؟

ـ نعم، نعم... ولكن هناك نقطة أخطأت فيها وما تزال تخطىء. إنني ألاحظ ذلك آسفة.

ـ حقاً؟ ما هو الخطأ الذي وقعت فيه؟

ـ اسمع... ولكن اجلس أولاً يا بطرس ستيفانوفتش.

ـ لك ما تشائين... أعترف بأنني منهوك القوى. شكراً.

وسـرعان ما قرَّب مقعداً فجلس عليه بحيـث يكون بين فرفارا بتروفنا من جهـة وبراسـكوفيا إيفانوفنا من جهة أخـرى، مع بقائه قبالـة الكابتن ليبادكين حتى لا يحوِّل عنه بصره.

قالت فرفارا بتروفنا:

ـ لقد أخطأت حين عددت ذلك "تفرداً وشذوذاً".

ـ أوه ... إذا لم يكن خطئي إلّا هذا...

فقاطعته فرفارا بتروفنا تقول:

ـ لا، لا، لا، انتظر قليلاً...

وكان واضحاً أنها تتأهب للاسترسـال في حديث طويل جداً، مؤثر جداً. فما إن لاحظ بطرس ستيفانوفتش ذلك حتى أصبح كله آذاناً مصغية.

قالت فرفارا بتروفنا:

ـ لا، لم يكن ذلك تفرداً وشذوذاً، بل كان شيئاً أرفع كثيراً من ذلك، كان شيئاً مقدساً إن صح التعبير، أؤكد لك. إن نيقولاي فسيفولودوفتش رجل ذو كبرياء، جرحته الحياة فى سنٍ مبكرة، فانتهى من ذلك إلى أن ينظر إليها نظرة "سخرية"، على حد تعبيرك الموفق في شرحك الممتاز. إنه الأمير هاري كم أحسن ستيفان تروفيموفتش خلع هذا اللقب الرائع عليه، وكان يمكن أن يكون هذا اللقب صادقاً لولا أن هذا الرجل يشبه هاملت أكثر مما يشبه الأمير هاري، في رأيي أنا على الأقل.

تدخل ستيفان تروفيموفتش قائلاً بلهجة نافذة :

ـ "وإنك لعلى حق" (بالفرنسية).

ـ أشكرك يا ستيفان تروفيموفتش، أشكرك شكراً خاصاً على هذه الثقة التي لا تتزعزع، هذه الثقة بنيقولا، وبعظمة نفسه، وعظمة قدره. لقد أحييتَ في نفسي هذه الثقة حين فقدت أنا الشجاعة.

ـ "عزيزتي، عزيزتي..."

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش وهو يتقدم نحو فرفارا بتروفنا، ولكنه سرعان ما توقف إذ قدَّر أن مقاطعتها ربما كانت خطرة.

وتابعت فرفارا بتروفنا كلامها فقالت بصوت كأنه الغناء:

ـ لو وُجد بقرب نيقولاي إنسان عطوف مثل هوراسيو[1]، العظيم جداً في تواضعه ومذلته ـ وهذا تعبير آخر من تعابيرك الجميلة يا ستيفان ترفيموفتش ـ فلربما كان منذ زمن طويل قد أُنقذ "من شيطان السخرية الحزين المشؤوم" الذي لم ينقطع عن تعذيبه (وتعبير "شيطان السخرية" هو من اكتشافاتك أيضاً يا ستيفان تروفيموفتش). ولكن نيقولاي لم يوجد إلى جانبه شخص مثل هوراسيو في يوم من الأيام، ولا إنسانة مثل أوفيليا. إنه لم يكن له أحد إلّا أمه. ولكن ما عسى تستطيع أن تفعله أم وحدها، وفي ظروف كتلك الظروف؟ الآن

(1) "هوراسيو" هو الصديق المخلص لهاملت في مسرحية شكسبير.

بدأت أفهم يا بطرس ستيفانوفتش كيف أمكن شخصاً مثل نيقولاي أن يعيش في مثل تلك الأماكن التي وصفتها لنا منذ برهة. إنني أتصور بوضوح كامل باهر "سخرية" تلك الحياة (ما كان أصدق تعبيرك هذا!)، وأتصور الظمأ المحرق، الناشئ عمّا يحمله في نفسه من تناقضات، وأتصور الصفحة الكالحة الحزينة من تلك اللوحة التي يبرز عليها نيقولاي بروز قطعة من الماس على حد تشبيهك يا بطرس ستيفانوفتش، وأتصوره يلقى في هذه البيئة تلك المخلوقة المثقلة بالإهانات، تلك الشوهاء نصف المجنونة، التي لعلها تزخر مع ذلك بأنبل العواطف!...

ـ همْ... لنسلِّم بهذا...

ـ أفتستغرب بعد هذا أن لا يسخر منها كما يسخر سائر الناس؟... آه من الرجال! إنكم لا تفهمون لماذا يدافع عنها ويحيطها باحترام "كما لو كانت مركيزة" (إن كيريلوف هذا لا بد أنه يعرف البشر معرفة رائعة، رغم أنه لم يفهم نيقولاي!). إن الشر كله قد نشأ عن هذا التضاد، إن شئت. فلو أن المسكينة قد وُجدت فى بيئة مختلفة، فلعلها ما كانت لتسترسل في أحلام مجنونة إلى ذلك الحد! لا يستطيع أحد أن يفهم هذه الأمور، إلّا امرأة. نعم المرأة وحدها قادرة على أن تفهم هذه الأمور يا بطرس ستيفانوفتش! ومما يؤسف له كثيراً أنك لست امرأة، وأنك لا تستطيع أن تصبح امرأة خلال لحظة من الزمان، من أجل أن تفهم...

ـ تريدين أن تقولي على وجه الإجمال إن المرء كلما ساءت حاله كان أشد توقاً إلى شيء آخر. إنني أفهم يا فرفارا بتروفنا، أفهم. مثل ذلك كمثل الدين: فكلما كانت حياة الإنسان شاقة أليمة، وكلما كان الشعب مضطهداً يائساً، كان أكثر استرسالاً في أحلام المكافآت التي سيلقاها في الجنة. فإذا جاء بالإضافة إلى هذا مائة ألف كاهن يتدخلون في الأمر ويضرمون نار هذه الأحلام مزيداً من الإضرام، ويزيدون عليها أفكاراً وتأملات، فعندئذ... إنني أفهمك يا فرفارا بترْوفنا، اطمئني...

ـ ليس هذا هو الأمر تماماً. ولكن قل لي يا بطرس ستيفانوفتش: هل كان

يجب على نيقولاي، من أجل أن يهدّئ نار الأحلام التي استرسلت فيها تلك العضوية المسكينة (لم أستطع أن أفهم لماذا استعملت فرفارا بتروفنا كلمة "العضوية") هل كان يجب عليه أن يسخر منها أيضاً، وأن يعاملها كما كان يعاملها أولئك الموظفون الصغار؟ هل يُعقل حقاً أن ترفض أنت قبول ذلك العطف العميق وتلك الرحمة البالغة وذلك الارتعاش النبيل في جسم نيقولاي كله، حين أجاب كيريلوف بقسوة: "إنني لا أسخر منها" ؟ ألا ما كان أعظمه وأقدسه من جواب!...

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية:

ـ "رائع" (بالفرنسية).

ـ ولاحظْ أنه ليس غنياً إلى الحد الذي تفترضه. ليس هو الغني بل أنا الغنية. ولقد كان في ذلك الأوان لا يطلب مني شيئاً.

قال بطرس ستيفانوفتش بشيء من نفاذ الصبر:

ـ أفهم، أفهم هذا كله يا فرفارا بتروفنا.

ـ إنه أنا تماماً. إنني أتعرّف نفسي في نيقولاي. أتعرّف عهد الصبا، وتلك الاندفاعات العنيفة، وتلك الانفجارات... وإذا أتيح لنا أن نتعارف مزيداً من التعارف يا بطرس ستيفانوفتش ـ وذلك ما أتمناه من جهتي صادقة، لا سيما وإنني مدينة لك بأشياء كثيرة ـ فلعلك ستفهم عندئذ...

دمدم بطرس ستيفانوفيتش يقول بلهجة مقطَّعة:

ـ ثقي أنني أنا أيضاً من جهتي...

ـ ستفهم عندئذ تلك الاندفاعة التي تجرك بعماوتك السمحة الكريمة نحو إنسان لا يستحقك، إنسان غير جدير بك من أية ناحية، إنسان لا يفهمك ولا يني يسومك سوء العذاب، والتي تجعل من هذا الإنسان في نظرك، بالقياس إلى جميع الناس وعلى خلاف رأي جميع الناس، تجسداً للمثل الأعلى الذي تصبو إليه نفسك، وتهفو إليه أحلامك، ففيه تتركز جميع آمالك، فإذا أنت تحبه وتعبده دون أن تدري لماذا، وربما كنت لا تحبه ولا تعبده إلّا لأنه غير جدير بذلك... ليتك تعلم كم تألمت أنا يا بطرس ستيفانوفتش!

حاول ستيفان تروفيموفتش، وكان قلق الهيئة، أن يقع بصره على بصري، ولكنني أشحت وجهي في الوقت المناسب.

ـ وحتى في الآونة الأخيرة، نعم، في الآونة الأخيرة الأخيرة... آه... ما أكبر ذنبي في حق نيقولاي!... إنك لاتستطيع أن تتصور كم عذبوني جميعاً، جميعاً... الأعداء والأوغاد والأصدقاء. حتى إن الأصدقاء عذبوني أكثر من الأعداء. حين تلقيت آخر رسالة خالية من اسم كاتبها، لعلك لا تصدقني يا بطرس ستيفانوفتش، ولكن الحقيقة هي أنني لم أجرؤ أن أعامل بالاحتقار جميع تلك الدناءات... آه... لن أغفر لنفسي هذا الضعف ما حييت، لن أغفره ما حييت...

قال بطرس ستيفانوفتش وقد انتعش فجأة:

ـ سمعت عن تلك الرسائل الخالية من أسماء كاتبيها. ولسوف أكشفهم... اطمئني...

ـ لا تستطيع أن تتخيل المكائد التي حاكوها حولنا هنا. حتى صاحبتنا المسكينة براسكوفيا إيفانوفنا قد عانت منها أيضاً. وماذا كان هدفهم من تعذيبها هي؟

وأضافت فرفارا بتروفنا تقول مخاطبةً براسكوفيا إيفانوفنا منفعلةً انفعالاً لا يخلو مع ذلك من بعض الارتياح الساخر:

ـ لعلني أذنبت اليوم في حقك يا عزيزتي براسكوفيا إيفانوفنا.

فجمجمت براسكوفيا إيفانوفنا تقول كأنما على أسف:

ـ لندع هذا الآن. في رأيي أن الأفضل أن ننتهي من هذه المسألة كلها. لقد أسرفنا في الحديث عنها.

قالت براسكوفيا إيفانوفنا ذلك وعادت ترشق ليزافتا نيقولايفنا بنظرة وجلى. ولكن ليزافتا نيقولايفنا كانت تنظر إلى بطرس ستيفانوفتش.

وهتفت فرفارا بتروفنا تقول:

ـ أمّا تلك المخلوقة المسكينة، تلك المجنونة التي فقدت كل شيء ولم تحتفظ إلّا بقلبها، فإنني أنتوي الآن أن أحتضنها. ذلك واجبي وسأقوم به.

هي منذ الآن في حمايتي.

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول من جديد:

ـ وسيكون هذا من جهتك خيراً عظيماً بمعنى من المعاني. معذرة، إنني لم أنته من كلامي منذ قليل، وعن هذه "الحماية" إنما كنت أنتوي أن أحدثك. تصوَّري أن هذا السيد، هذا السيد لبيادكين الذي ترينه، ما إن سافر نيقوي فسيفولودوفتش (إنني أستأنف سرد القصة من حيث وقفت) حتى تصور أن من حقه أن يتصرف في معاش أخته كاملاً. وقد تصرف فيه فعلاً بحيث لم تر منه قرشاً. لا أدري على وجه الدقة. كيف رتَّب نيقولاي فسيفولودوفتش الأمور في البداية، ولكنه بعد ذلك بسنة، وقد عرف بما حدث، اضطر أن يتخذ إجراءات أخرى. أعود فأقول إنني غير مطلع على التفاصيل، وسيروي لك هو هذه التفاصيل. كل ما أعلمه هو أن الإنسانة التي همَّه أمرها قد وُضعت في دير بعيد، مريح جداً على كل حال، ولكن تحت رقابة حنون. هل تفهمين عني؟ فهل تتصورين ما تخيله السيد لبيادكين؟ لقد جهد بجميع الوسائل أن يكتشف أين خُبّئ مصدر وارداته، أعني أين خُبّئت أخته. حتى إذا توصل إلى معرفة ذلك ـ منذ مدة غير طويلةـ استردها من الدير، مستنداً إلى حقوق له عليها، وجاء بها إلى هنا رأساً. وهو هنا لا يطعمها، وهو هنا يضربها، ويضربها بجميع الأساليب. فلما تلقى مبلغاً كبيراً من المال من نيقولاي فسيفولودوفتش أخذ يدمن على الشراب، وأخذ يسيء إلى المحسن إليه، وأخذ يطارده بمطالب جنونية، ويهدده بمقاضاته أمام المحاكم إذا لم يوضع المعاش بين يديه رأساً. فهو يرى إذن أن الهبة التي وهبها له نيقولاي فسيفولودوفتش بمحض إرادته، إنما هي ضريبة واجبة الدفع. هل تتخيلين هذا؟ يا سيد لبيادكين، هل "كل" ما قلته أنا الآن صحيح؟

ما إن سمع الكابتن هذا السؤال، وكان حتى ذلك الحين يقف صامتاً خافض العينين، حتى تقدم خطوتين إلى أمام، واصطبغ وجهه بحمرة شديدة، وقال بصوت متقطع:

ـ لقد عاملتني بقسوة يا بطرس ستيفانوفتش!

ـ بقسـوة؟ ما معنى هذا؟ ولكن اسـمح لي. لنرجئ مسألة القسوة هذه إلى بعد. أمّا الآن فإنني لا أطلب منك إلّا أن تجيبني عن سؤالي الأول: هل "كل" ما قلته أنا الآن صحيح، أم هو غير صحيح؟ إذا كنت ترى أنه كذب فلا شـيء يمنعك من أن تعلن ذلك في هذه اللحظة نفسها.

بدأ الكابتن يغمغم متلعثماً فيقول:

ـ أنا... إنك تعلم أنت نفسـك... يا بطرس سـتيفانوفتش... ولكنه أمسك عن الكلام فجأة..

يجـب أن نقـول أن بطـرس سـتيفانوفتش كان جالسـاً في مقعـد، واضعاً سـاقاً على ساق، بينما كان الكابتن لبيادكين واقفاً أمامه، على وضع الاحترام والتعظيم.

وكان يبـدو أن تـرددات الكابتـن تزعـج بطرس سـتيفانوفتش كثيـراً، فإذا بالغضب يقبِّض قسـمات وجهه فجأة. وها هو ذا يسـأله قائلاً وهو يلقي عليه نظرة ذات دلالة:

ـ هل تريد أن تصرِّح بشيء حقاً؟ إذا كنت تريد، فهلمَّ افعل. إننا ننتظر.

ـ إنك تعلم أنت نفسـك يا بطرس سـتيفانوفتش إنني لا أسـتطيع أن أقول شيئاً.

ـ لا، لا أعلـم. حتـى أن هـذه هي المرة الأولى التي أسـمع فيها كلاماً عن مانع من هذا النوع. لماذا لا تستطيع أن تقول شيئاً؟

ظل الكابتن صامتاً خافض العينين. قال أخيراً بلهجة جازمة:

ـ اسمح لي أن أنصرف يا بطرس ستيفانوفتش.

ـ لا أسمح لك بالانصراف قبل أن تجيب عن سؤالي الأول: هل "كل" ما قلته أنا الآن صحيح؟

أجاب الكابتن بصوت أجش، وهو يرفع عينيه نحو جَلّاده:

ـ نعم.

و كان جبينه مغطى بالعرق.

ـ "كل" شيء صحيح؟

ـ نعم، كل شيء.

ـ أليس لديك أي شـيء تضيفه؟ أليس هناك أي شيء لتصححه؟ إذا كنت ترى أننا نظلمك فقل ذلك. احتجَّ. عبِّر جهاراً عن كل استيائك.

ـ لا، ليس عندي شيء أضيفه.

ـ هل هدَّدت نيقولاي فسيفولودوفتش في الآونة الأخيرة؟

ـ كان ذلك... كان ذلك من تأثير الخمرة يا بطرس ستيفانوفتش.

ورفع الكابتن رأسه، وأضاف يقول ناسياً نفسه من جديد:

ـ بطرس سـتيفانوفتش، إذا أخذ شـرفُ الأسـرة والعار الذي يجلل المرء ظلماً، إذا أخذا يصرخان بين الناس، فهل يكون المرء آثماً مذنباً؟

فسأله بطرس ستيفانوفتش وهو يرشقه بنظرة حادة:

ـ ألست الآن سكران يا سيد لبيادكين؟

ـ أنا.. لا.. لست سكراناً .. لم أشرب شيئاً.

ـ إذاً فمـا معنى هذه العبارات التي تتكلم عن شـرف الأسـرة والعار الذي يجلل المرء ظلماً؟

ـ أنا لا ألمح إلى أي إنسان. أنا لم أشأ أن أسيء إلى أحد. أنا لم أقصد إلّا نفسي...

كذلك تمتم الكابتن وهو ينهار من جديد.

ـ يخيَّـل إليَّ أنـك تضايقت من التعابير التي اسـتعملتُها فـي الكلام عنك وعن سـلوكك. إنك سـريع التأذي شديد الحساسية يا سـيد لبيادكين. ولكن انتظر قليلاً. إنني لم أبدأ الكلام عن سـلوكك بالمعنى الحق للكلمة. سأتكلم عنـه بعد قليل. نعـم، من الجائز أن أبدأ الكلام عن سـلوكك، ولكنني لم أقل شيئاً على وجه الإجمال حتى الآن.

ارتعش لبيادكين، ونظر إلى بطرس ستيفانوفتش منقلب الهيئة.

ـ بطرس ستيفانوفتش، الآن فقط إنما أستيقظ!

ـ همْ... وهل أنا الذي أيقظتك؟

ـ نعم يا بطرس سـتيفانوفتش... ولقد نمت خلال أربع سنين تحت سماء

مشحونة بالصاعقة. هل يمكن أخيراً أن أنصرف يا بطرس ستيفانوفتش؟

ـ نعم، اللهم إلّا أن يكون رأي فرفارا بتروفنا أن...

لكن فرفارا بتروفنا أسرعت تحرك يدها بإشارة النفي.

فسلَّم الكابتن، وخطا خطوتين، وتوقف، ووضع يده على قلبه، وأراد أن يقول شيئاً، لكنه لم يقله، وهُرع نحو الباب، فإذا هو يجد نفسه أمام نيقولاي فسيفولودوفتش. فتنحى له هذا ليفسح له مجال المرور. فصغَّر الكابتن جسمه تصغيراً شديداً، ولبث واقفاً كالمتجمد، محدقاً إلى الشاب بعينين ساكتين، كأرنب أمام أفعوان ضخم. انتظر نيقولاي فسيفولودوفتش لحظة، ثم أبعده بحركة خفيفة من يده، ودخل الصالون.

7

كان مرحاً وهادئاً كل الهدوء. لعل شيئاً ممتعاً جداً كان قد حدث له ولم يدر في خلدنا نحن. مهما يكن من أمر، فقد كان يبدو مرتاحاً كل الارتياح، راضياً أشد الرضى.

قالت فرفارا بتروفنا تسأله نافذة الصبر:

ـ هل ستغفر لي يا نيقولاي؟

ونهضت تلقاه بحركة نشيطة.

لكن نيقولاي انفجر ضاحكاً. وهتف يقول ببساطة وطيبة:

ـ قدَّرت هذا. توقعته. ولقد كنت أقول لنفسي وأنا في العربة: كان ينبغي لي أن أروي لهم قصة قصيرة، فليس حسناً أنني انصرفت على ذلك النحو... ولكنني حين تذكرت أن بطرس ستيفانوفتش قد بقي عندكم، لم أهتم بعد ذلك.

وكان وهو يتكلم يتفحص وجوهنا بسرعة.

هتفت فرفارا بتروفنا تقول بحماسة:

ـ لقد قصَّ علينا بطرس ستيفانوفتش قصة بطرسبرجية قديمة عن فترة من حياة شاب جامح الخيال عجيب الطبع طائش النزوات، لكنه يظل نبيل

العواطف ذا مشاعر فروسية...

- فروسية؟ هل وصلتم إلى هذا الحد؟ على كل حال، أنا أشكر للسيد بطرس ستيفانوفتش تعجّله وتسرّعه هذه المرة.

قال ذلك وبادل بطرس نظرة سريعة، ثم تابع كلامه يقول:

- يجب أن تعلمي يا ماما أن بطرس ستيفانوفتش يصالح دائماً بين جميع الناس: ذلك دوره، ذلك مرضه، ذلك جنونه، وأنا أنصحك نصحاً خاصاً في هذا المجال. إني أتخيل ما لا بد أن يكون قد رواه لكم وقصه عليكم مسهباً مطنباً! ذلك أنه يسهب ويطنب حين يروي أمراً من الأمور. إن رأسه أرشيف زاخر. لاحظي أنه، بصفته واقعياً، لايستطيع أن يكذب، وأن الحقيقة أغلى عنده من النجاح... باستثناء بعض الحالات الخاصة طبعاً، ففي تلك الحالات الخاصة يكون النجاح عنده أثمن من الحقيقة.

كان نيقولاي فسيفولودوفتش وهو يقول هذا الكلام لا ينفك ينظر حواليه. وتابع حديثه يقول:

- فها أنت ذي ترين بوضوح يا ماما أنك لست أنت التي يجب تستغفريني، وأن التبعة تقع على عاتقي أنا إذا كان قد ارتُكب عمل جنوني ما. وهذا يدل في آخر حساب على أنني مجنون فعلاً... يجب عليَّ حقاً أن أؤيد السمعة التي شاعت عني هنا...

قال ذلك وقبَّل أمه برقة و حنان. ثم أضاف يقول بصوت ترن فيه نغمة جديدة، قاسية، خشنة:

- على كل حال، انتهت القضية الآن. لقد رُويت القصة، فأصبح لا يمكننا أن نعود إليها.

وقد سمعت فرفارا بتروفنا تلك النغمة الجديدة في صوت ابنها، لكن حماستها لم تهبط. بالعكس.

قالت:

- ما كنت أنتظر وصولك قبل شهر آخر.

- سأشرح لك كل شيء يا ماما طبعاً. أمَّا الآن...

واتجه نحو براسكوفيا إيفانوفنا.

لكن براسكوفيا إيفانوفنا لم تكد تلفت رأسها نحو نيقولاي فسيفولودوفتش. ومع ذلك كان ظهوره قبل نصف ساعة قد صعقها صعقاً كاملاً. غير أن هناك أسباباً أخرى لاضطرابها الآن. ففي اللحظة التي وجد فيها الكابتن نفسه أمام نيقولاي فسيفولودوفتش وجهاً لوجه، كانت ليزا قد أخذت تضحك، ضحكاً بدأ صامتاً ثم ما انفك يشتد شيئاً بعد شيء، وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة. إن التضاد بين هذا المرح وبين تجهم وجهها منذ حين كان تضاداً يخطف البصر ويفجأ الانتباه. وبينما كان نيقولاي فسيفولودوفتش يتحدث مع فرفارا بتروفنا، أهابت ليزا مرتين بصاحبها مافريكي نيقولايفتش أن يدنو منها كأنها تريد أن تقول له شيئاً بصوت خافت. ولكن ما يكاد مافريكي نيقولايفتش يميل نحوها حتى تنطلق في ضحك صاخب مجلجل، حتى ليمكن أن يظن أنها إنما تضحك من المسكين مافريكي نيقولايفتش. وكان واضحاً من جهة أخرى أنها تبذل جهوداً في سبيل أن تخنق ضحكها، وما تنفك تحمل منديلها إلى شفتيها.

وحيَّاها نيقولاي فسيفولودوفتش بهيئة بريئة صريحة. فأسرعت تجيبه:

ـ اغفر لي. أرجوك. إنك... إنك قد رأيت مافريكي نيقولايفتش ولا شك. آه... إنه ليس مباحاً للمرء أن يكون طويلاً هذا الطول كله يا مافريكي نيقولايفتش!

وطفقت تضحك. ولقد كان مافريكي نيقولايفتش طويل القامة فعلاً، لكن طوله ليس مفرطاً البتة.

ودمدمت تقول وهي تحاول أن تسيطر على نفسها:

ـ هل وصلت منذ مدة طويلة؟

كانت تبدو خجلى مشوشة، لكن عينيها تسطعان.

أجابها نيقولاي فسيفولودوفتش وهو ينظر إليها بانتباه:

ـ منذ ساعتين تقريباً.

يجب أن أذكر أن وضعه كان يتسم بأقصى التهذيب والتحفظ، ولكن إذا

غضضنـا النظر عـن هذا التهذيب، وجـب أن نلاحظ أن وجهـه كان يعبِّر عن عدم الاكتراث بل وعن عدم الشعور.

ـ أين ستسكن؟

ـ هنا.

وكانـت فرفـارا بتروفنا تنظر أيضاً إلى ليزا بانتباه، غير أن فكرة قد راودتها بغتةً. فسألت ابنها:

ـــ فأيـن كنت إذن يـا نيقولاي؟ أين قضيـت هاتين السـاعتين؟ إن القطار يصل في الساعة العاشرة.

ـ أولاً أوصلت بطرس ستيفانوفتش إلى عند كيريلوف. و كنت قد التقيت به في ماتفايفو (على مسافة ثلاث محطات من هنا)، فترافقنا في عربة واحدة من القطار.

تدخل بطرس ستيفانوفتش فوراً يقول:

ـ كنت أنتظر في ماتفايفو منذ الفجر. كانت العربات الأخيرة من القطار قد خرجت عن السكة الحديدية ليلاً، ولولا قليل لتكسرت سيقاننا.

هتفت ليزا صائحة:

ـ لتكسـرت سـيقانكم؟ مامـا، مامـا، ألـم نكن نريـد أن نذهـب نحن إلى ماتفايفو في الأسبوع الأخير؟ لو ذهبنا لتكسرت سيقاننا!...

قالت براسكوفيا إيفانوفنا وهي ترسم إشارة الصليب:

ـ يا لطيف!

ـ مامـا، مامـا، ماما العزيـزة! لا ترتاعي إذا تكسَّـرت سـاقاي. قد يحدث لي هذا بسـهولة، مادمت تقولين أنت نفسك أنني أعدو بحصاني عدواً سريعاً كمجنون. يا مافريكي نيقولايفتش، هل ستظل تصحبني حين تتكسر ساقاي؟

وعادت تضحك من جديد. ثم تابعت كلامها تقول:

ـ إذا حـدث لـي هـذا، فلن أسـمح لأحد غيـرك أن يصحبني، ثـق بذلك. لنتصور أن ساقاً واحدة من ساقيَّ كُسرت... هيَّا، كن لطيفاً، قل لي أنك ستعد ذلك سعادة.

قال مافريكي نيقولايفتش بهيئة جادة:

- يا لها من سعادة أن تُكسر ساق المرء!

- في مقابل ذلك، ستقودني دائماً، أنت وحدك، ولا أحد سواك!

- حتى في هذه الحالة ستظلين أنت التي تقودينني يا ليزافتا نيقولايفنا.

هتفت ليزا تقول مرتاعة:

يا إلهي! أراد أن يلعب بالألفاظ! مافريكي نيقولايفتش، إنني أحظر عليك أن تندفع في هذا الطريق. ما أشد أنانيتك! ومع ذلك فأنا مقتنعة، وهذا يشرِّفك، بأنك تذم نفسك عامداً. بالعكس: حين أفقد أنا إحدى ساقيَّ فلن تكف أنت عن أن تؤكد لي أنني أصبحت بذلك أحلى وألذ. ولست أجد ثمة إلّا صعوبة واحدة هي أنك مسرف في الطول، وأنا حين سأفقد إحدى ساقيَّ سأكون قصيرة جداً. فكيف يمكنك والحال هذه أن تقودني من ذراعي؟ ستكون صحبتنا مضحكة.

قالت ذلك وهزَّتها ضحكة عصبية. لقد كانت مزحاتها وتلميحاتها باهتة، ولكن كان واضحاً أنها لا يخطر ببالها أن تحدث في من يسمعونها أثراً كبيراً.

همس بطرس ستيفانوفتش يقول لي:

- هذه نوبة عصبية. إليَّ بكأس ماء. بسرعة.

ولقد صدق تقديره. فما هي إلّا دقيقة واحدة حتى اضطرب الجميع. وجيء بالماء. وشدت ليزا أمها إلى حضنها، وغمرت وجهها بالقبل، وطفقت تبكي على كتفها، ثم ارتدّت إلى وراء وتأملتها من أمام، وعادت تضحك. وأخذت براسكوفيا إيفانوفنا تبكي قليلاً هي أيضاً. وأسرعت فرفارا بتروفنا تقتادهما كلتيهما إلى شقتها الخاصة من الباب الصغير الذي دخلت منه داريا بافلوفنا. ولكن غيابهن لم يدم طويلاً، فقد عدن إلينا بعد بضع دقائق...

أحاول أن أستحضر الآن جميع تفاصيل نهاية ذلك الصباح الذي لا يُنسى. فأذكر أننا حين صرنا وحدنا بغير سيدات (إلا داريا بافلوفنا التي لم تترك مكانها)، طاف نيقولاي فسيفولودوفتش على جمعنا، وصافح كل واحد منا، باستثناء شاتوف الذي ظل جالساً في ركنه يطرق إلى الأرض

مزيداً من الإطراق شيئاً بعد شيء. وشرع ستيفان تروفيموفتش في حديث فكه جداً مع نيقولاي فسيفولودوفتش، ولكن نيقولاي أسرع يتركه ليتجه نحو داريا بافلوفنا. لكنه ما إن صار في منتصف الطريق حتى استوقفه بطرس ستيفانوفتش، وجرّهَ نحو النافذة بالقوة تقريباً وأخذ يكلمه بصوت خافت. لعل الحديث كان يدور على شيء هام جداً، إذا صدق ما عبَّر عنه وجه بطرس ستيفانوفتش وعبَّرت عنه حركاته وإشاراته. وكان نيقولاي فسيفولودوفتش يصغي إليه ذاهل الهيئة عديم الشعور، مبتسماً ابتسامةً مصنوعة. ثم حرك يده بإشارة تململ، وظهر عليه أنه يريد التخلص من محدِّثه. حتى إذا عادت السيدات ابتعد عن النافذة. جلست ليزا في مكانها من جديد، وأصرَّت فرفارا بتروفنا على البقاء نحو عشر دقائق قبل الخروج، لأن الهواء في الخارج أقوى من أن تحتمله أعصابها المريضة. وكانت فرفارا بتروفنا تسعى حول الفتاة بمداراة ظاهرة ورعاية واضحة، ثم جلست إلى جانبها. وسرعان ما هُرع بطرس ستيفانوفتش قرب فرفارا بتروفنا وجعل يحدثها حديثاً زاخراً بالحرارة. وعندئذ إنما اتجه نيقولاي فسيفولودوفتش أخيراً نحو داريا بافلوفنا بخطى هادئة، فلما رأته داريا يقترب منها اضطربت في كرسيها ثم نهضت وقد استولى عليها ارتباك واضح واشتعل خداها احمراراً.

قال وقد طاف بوجهه تعبير غريب:

ـ أظن أن في الإمكان تهنئتك... أم أن الآوان لم يحن بعد؟

فأجابته داشا ببضع كلمات لم أستطع أن أميِّزها.

وتابع نيقولاي كلامه فقال وهو يرفع صوته:

ـ اغفري لي قلة تكتمي. ولكنني قد أُبلغت بالأمر صراحة. هل تعلمين ذلك؟

قالت: ـ نعم أعلم.

قال ضاحكا: ـ أرجو مع ذلك أن لا تفسد عليك تهنئاتي شيئاً، وإذا كان ستيفان ترفيموفتش...

فقاطعه بطرس ستيفانوفتش قائلاً على حين فجأة:

ـ لمـاذا هـذه التهنئات؟ بأي شـيء يهنئك يـا داريا بافلوفنا؟ هـه... أتراها تهنئـات بخطبتـك؟ إن حمـرة وجهك تدل علـى أنني حزرت. وفعـلاً، بماذا عسـى يهنـئ المرء آنسـاتنا الجميـلات الفاضلات إن لـم يهنئهـن بالخطبة؟ طيـب... اقبلـي إذن تهنئاتي أنا أيضـاً، إذا كنت قد حـزرت، وادفعي الرهان: تذكري أنك راهنتني حين كنت في سويسـرا علـى أنك لن تتزوجي أبداً.. آ.. نعم.. بمناسـبة سويسـرا... ماذا خطر ببالي؟ أوه... ها أنذا كدت أنسى الأمر مع أنه أحد أسباب رحلتي...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك والتفت نحو أبيه بحركة سريعة وقال يسأله:

ـ وأنت، متى تسافر إلى سويسرا؟

ـ أنا... إلى سويسرا؟

كذلك صاح ستيفان تروفيموفتش مدهوشاً مرتبكاً.

فقال له ابنه:

ـ كيف؟ ألا تسافر؟ ولكنك تتزوج... ألم تكتب لي ذلك؟

هتف ستيفان تروفيموفتش يقول:

ـ بطرس!...

ـ مـاذا؟ مـاذا تريـد مـن بطرس؟ لقـد جئـت خصيصـاً لأعلن لـك أنني لا أعـارض هذا الـزواج، مادمت حريصاً ذلك الحرص كله على أن تعرف رأيي بأقصى سـرعة ممكنة. وإذا كان يجب "إنقـاذك" (كذلك تابع كلامه متعجلاً) كما كتبت إليَّ ذلك متوسـلاً أن أسارع لإغاثتك ونجدتك فإنني في خدمتك. هل صحيح أنه سـيتزوج يا فرفارا بتروفنا؟ (كذلك سـأل فرفـارا بتروفنا وهو يلتفت إليها بسرعة). أرجو أن لا أكون قليل الكتمان فاشياً للأسرار. لقد كتب يقـول لي هو نفسـه أن المدينـة كلها على علم بالأمـر، وإن الناس يهنئونه من كل حـدب وصوب، حتى إنه من أجل أن يتحاشـى التهنئات أصبح لا يخرج مـن البيـت إلّا في الليل. إن رسـالته فـي جيبي. ولكن هل تصدقيـن يا فرفارا بتروفنا؟ أنني من جهتي لم أفهم من الأمر شيئاً. قل لي نقطة واحدة يا ستيفان تروفيموفتـش: أيجـب مثلاً أن أهنئـك أم أن "أنقذك" ؟ لـن تصدقي يا فرفارا

بتروفنا! فهو تارةً يبدو مفتوناً، ثم إذا هو بعد سطرين يهوي إلى قاع الكمد واليأس. في البداية يأخذ يستغفرني. صحيح أنهم جميعاً هكذا... ومع ذلك يجب أن أقول هذه الحقيقة: إنه طوال حياته ـ تصوري! ـ لم يرني إلّا مرتين، وبالمصادفة! وها هو ذا يراني الآن مرةً ثالثة عشية زواجه. إنه يخاف أن يقصِّر فيما لا أدري من واجبات تقع على عاتقه، فيضرع إليَّ من على بعد ألف فرسخ أن لا أزعل وأن أمنَّ عليه بموافقتي. لا تنزعج ياستيفان تروفيموفتش، أرجوك. إنك تنتمي إلى عصرك، و إن لي فكراً واسعاً، فلست أحكم عليك، حتى أن هذا يشرفك، إلخ . ولكن الأمر الأساسي هو أنني لا أفهم جوهر القضية، إنك تلمِّح في رسالتك إلى ما لا أدري من "خطايا وآثام ارتكبت في سويسرا". لقد كتبت إليَّ تقول: "سوف تتزوج بسبب خطايا أو من أجل خطايا غيري"... لا أتذكر العبارة تماماً. المهم أن هناك كلاماً عن خطايا. إنه يقول: "إن الفتاة جوهرة، لؤلؤة" ، وإنه "لا يستحقها" طبعاً. ذلك هو أسلوب جيله. ولكنه بسبب ما لا أدري من آثام أو ظروف مضطر أن "يضع على رأسه إكليل الزواج وأن يسافر إلى سويسرا"... فهلمَّ "اترك كل شيء وأسرع إلى انقاذي". هل تفهمون شيئاً من هذا كله؟ ولكن... ولكنني أرى وأنا أنظر إلى ما تعبِّر عنه وجوهكم (قال ذلك وكان ينظر إلى من حوله مبتسماً ابتسامة بريئة، والرسالة في يده)... إنني على عادتي قد ارتكبت غلطة... بسبب صراحتي الحمقاء أو بسبب تسرعي كما يقول نيقولاي فسيفولودوفتش. لقد كنت أحسب أننا هنا بين أصدقاء، أقصد بين أصدقائك ياستيفان تروفيموفتش، بين أصدقائك... ذلك أنني أنا غريب عنكم... وإني لأرى... إني لأرى أنكم تعرفون شيئاً، وأنني لا أعرف أنا هذا الشيء...

وظل ينظر حواليه.

سألته فرفارا بتروفنا وهي تتقدم نحوه:

ـ هل كتب إليك ستيفان تروفيموفتش بالنص أنه يتزوج ليغطي خطايا غيره، خطايا ارتكبت في سويسرا، وإن عليك أن "تنقذه" ؟

كان وجه فرفارا بتروفنا أصفر، وكانت شفتاها تختلجان.

قال بطرس ستيفانوفتش بسرعة ما تنفك تشتد، متظاهراً بأنه قد تنبَّه إلى خطورة الموقف:

ـ أقصد... إذا كان هناك شيء لم أفهمه حق فهمه، فالذنب ذنبه هو طبعاً. لماذا يكتب بهذه الطريقة؟ إليك الرسالة. إن رسائله طويلة طولاً لا ينتهي يا فرفارا بتروفنا، وهو لا يكل من الكتابة ولا ينقطع عنها. إنني منذ شهرين أو ثلاثة أشهر أتلقى منه الرسالة تلو الرسالة، وأعترف بأنني كنت أحياناً أن لا أقرأها حتى نهايتها. اغفر لي هذا الاعتراف يا ستيفان تروفيموفتش، ولكن يجب أن تسلِّم لي بأن هذه الرسائل رغم أنها موجَّهة إليَّ إنما كتبتها للأجيال المقبلة، بحيث لا بد أن تستوي عندك الأمور... هيَّا، هيَّا، لا تزعل، لا داعي إلى أن يكون بيننا حرج. ولكن تلك الرسالة يا فرفارا بتروفنا، تلك الرسالة إنما قرأتها إلى آخرها. فهذه "الخطايا"، "خطايا الغير" هذه، لا شك أنها خطايانا الصغيرة نحن، وهي خطايا صغيرة جداً. أراهن على ذلك. لكننا بنينا منها قصة كاملة أتاحت لنا أن نستغيث بأنبل العواطف، بل إن هذا بعينه هو الذي حضنا على بنائها، على بناء تلك القصة. ذلك أن هناك في حساباتنا شيئاً لا يستقيم، شيئاً غير سليم. يجب أن نعترف بذلك. إننا نحب ورق اللعب كثيراً، كما تعلمين ... ولكن هذا الكلام زائد لا محل له، نعم زائد لا محل له، معذرة، إنني ثرثار مكثار، و لكنني أحلف لك أنه أخافني يا فرفارا بتروفنا، وإنني تأهبت "لإنقاذه". حتى لقد شعرت في النهاية بأنني مذنب. ولكن أأنا أضع له السكين على العنق؟ أأنا دائن لا يرحم؟ وهو يتكلم في رسالته أيضاً عن مهر ما. ولكن... عجيب!... هل ستتزوج حقاً ياستيفان تروفيموفتش؟ جائز أيضاً أن لا يكون هذا كله إلّا جملاً منمقة. وذلك من طبيعته أيضاً... آه... فرفارا بتروفنا، أنا واثق بأنك ترين فيَّ الآن رأياً سيئاً، بسبب طريقتي في الكلام خاصة...

فقالت فرفارا بتروفنا بلهجة حانقة:

ـ بالعكس، بالعكس، إنني أرى أنك إنما تتكلم لأن صبرك قد نفد، ولا شك أن هناك أسباباً تدعوك إلى الكلام.

كانت فرفارا بتروفنا قد أصغت بفرح خبيث إلى الثرثرة "الساذجة" التي استرسل فيها بطرس ستيفانوفتش الذي كان واضحاً أنه يمثل دوراً. (أمّا ما هو ذلك الدور، فإنني لم أكن قد عرفته بعد، ولكن كان واضحاً أنه يمثِّل، تمثيلاً فيه كثير من المبالغة).

وتابعت فرفارا بتروفنا كلامها فقالت:

- بالعكس، إنني ممتنة كثيراً لأنك تكلمت. فلولاك لما عرفت شيئاً. لقد تفتحت عيناي لأول مرة منذ عشرين سنة. يا نيقولاي فسيفولودوفتش، لقد قلت منذ برهة أنك قد أُبلغت أنت أيضاً نبأً عن الزواج صراحة. فهل كتب إليه ستيفان تروفيموفتش بهذا الأسلوب نفسه؟

- تلقيت منه رسالة بريئة.. و.. و.. هي... رسالة نبيلة جداً.

- أرى أنك تتردد، وأنك تتخير تعابيرك. هذا كافٍ.

والتفتت فرفارا بتروفنا نحو ستيفان تروفيموفتش فجأة وقد أخذت عيناها تقدح شرراً، وقالت له:

- ياستيفان تروفيموفتش، إنني أسألك خدمة كبيرة جداً. أرجو أن تتركنا حالاً، وأن لا تضع قدميك على عتبة هذا الباب يوماً بعد الآن.

أرجو من القارىء أن يتذكر "حميَّاها" الأخيرة التي لم تكن قد تبددت بعد. ويجب أن نقول أيضاً أن ستيفان تروفيموفتش كان مذنباً بالفعل. غير أن الشيء الذي أذهلني أكثر من كل ما عداه هو وقار وضعه ورصانة موقفه سواء تجاه ما كشف عنه بتروشا الذي لم يحاول حتى أن يقاطعه، أو تجاه "اللعنة" التي صبتها عليه فرفارا بتروفنا. من أين أتى بقوة النفس هذه؟ لكنني أدركت أنه قد جُرح جرحاً بالغاً عميقاً منذ اللحظة الأولى التي استقبل فيها بتروشا، ولا سيما من طريقة بتروشا في التخلص من عناقه. كان الألم في قلبه هذه المرة عميقاً "حقيقياً"، في نظره هو على الأقل، غير أن ذلك الألم قد انضاف إليه ألم آخر: شعوره بأنه تصرف تصرفاً فيه جبن وحقارة. لقد اعترف لي بذلك فيما بعد بصراحة تامة .والألم "الحقيقي"، المؤكد، يمكن أن يبث الشجاعة في أكثر الناس خفة وطيشاً، ولو إلى حين. بل أكثر من ذلك إن الألم الحقيقي يمكن

أن يهب ذكاءً لغبي، إلى حين طبعاً. تلك واحدة من مميزات الألم. فإذا صدق هذا ففي وسعكم أن تتخيلوا التبدلات التي لا بد أنها حدثت في نفس إنسان مثل ستيفان تروفيموفتش. إن التبدل يكون عندئذ تحولاً كاملاً، لكنه مؤقت بطبيعة الحال.

انحنى ستيفان تروفيموفتش أمام فرفارا بتروفنا بوقار دون أن ينطق بكلمة واحدة، (وهل كان يمكنه أن يفعل غير هذا على كل حال)، واتجه نحو الباب، لكنه لم يملك أن يمنع نفسه من التوقف أمام داريا بافلوفنا. ويظهر أن داريا بافلوفنا كانت تتوقع ذلك، فها هي ذي ترتاع أشد الارتياع، وتقول له مادةً إليه يدها كأنها تريد الإسراع في تحذيره:

ـ أرجوك يا ستيفان تروفيموفتش، لا تقل شيئاً (وكان وجهها يعبِّر عن الألم)... كن على ثقة بأنني ما زلت أضمر لك نفس الاحترام... وإنني أقدرك كما كنت أقدرك من قبل... واحتفظ برأيٍ حسنٍ فيَّ يا ستيفان تروفيموفتش، فإنني أحرص على هذا كثيراً.

فانحنى ستيفان تروفيموفتش يحييها تحيةً عميقة.

قالت فرفارا بتروفنا تختم الحديث بلهجة فيها أبهة:

ـ أنت حرة يا داشا. إنك تعلمين أن اتخاذ القرار في هذا الأمر هو من شأنك أنت. لقد كنت دائماً حرة، وما تزالين حرة، و ستبقين إلى الأبد حرة.

هتف بطرس ستيفانوفتش يقول وهو يلطم جبينه:

ـ أف... الآن فهمت كل شيء. ما أسوأ وضعي إذن! معذرةً يا داريا بافلوفنا. أرجو أن تغفري لي...

وأضاف يقول وهو يلتفت نحو أبيه ستيفان تروفيموفتش:

ـ انظر إلى أي وضع دفعتني، وعلى أي فعل حملتني!

قال ستيفان تروفيموفتش بألم كبير:

ـ بطرس، في إمكانك أن تكلمني بغير هذه الطريقة. ألا ترى معي هذا الرأي يا صديقي؟

قال بطرس وهو يحرك ذراعيه:

ـ لا تصرخ، أرجوك. صدِّق أن مردَّ ذلك إلى أعصابك الهرمة المريضة، وليس يجديك الصراخ شيئاً. كان عليك أن تدرك أنني سأتكلم في هذا الموضوع فوراً، فلماذا لم تنبهني؟ لماذا لم تحذِّرني؟

ألقى عليه ستيفان تروفيموفتش نظرة حادة نافذة، وقال له:

ـ بطرس، هل يُعقل، وأنت المطّلع هذا الاطلاع كله على مايجري هنا، أن لا تكون قد علمت شيئاً ولا سمعت شيئاً عن هذه القضية؟

ـ انظروا إلى هؤلاء البشر! لست إذن ابنه فحسب، بل أنا أيضاً ابنه السيء الخبيث! هل تسمعين ما يقوله يا فرفارا بتروفنا؟

وأخذ الجميع يتكلمون في آن واحد معاً. ولكن في تلك اللحظة إنما حدث حادث لا شك في أن أحداً لا يمكن أن يكون قد توقعه.

8

يجب أن أقول قبل كل شيء إن ليزافتا نيقولايفنا قد بدا عليها منذ دقيقتين أو ثلاث دقائق أن اضطرابها عاد إليها واستبد بها. فهي تبادل أمها ومافريكي نيقولايفتش كلماتٍ سريعة بصوت خافت. إن وجهها ينم عن قلق وحزم في آن واحد. وها هي ذي أخيراً تنهض متعجلةً الانصراف، وتومئ بإشارة تدل على نفاد الصبر، لأمها التي هبَّ مافريكي نيقولايفتش يساعدها على ترك مقعدها. ولكن كان مقرراً أن لا تنصرفا قبل أن تريا كل شيء حتى النهاية.

إن شاتوف الذي كان قد نُسي تماماً في ركنه (قرب ليزافتا نيقولايفنا جداً)، والذي لعله كان هو نفسه لا يعرف لماذا بقي هناك ولماذا لا ينصرف، قد نهض على حين فجأة، فاجتاز الغرفة كلها بخطى بطيئة لكنها ثابتة، واتجه نحو نيقولاي فسيفولودوفتش وهو ينظر إليه وجهاً لوجه.

رآه نيقولاي ستيفانوفتش يدنو منه من بعيد فابتسم ابتسامة خفيفة. ولكن حين وصل شاتوف إلى قربه كفَّ عن الابتسام.

حتى إذا وقف شاتوف أمامه وهو ما يزال صامتاً دون أن يحوِّل عنه عينيه، أدرك الجميع أن شيئاً يحدث، وصمتوا، حتى بطرس ستيفانوفتش.

ووقفت ليزا وأمها في وسط الصالون جامدتين. وانقضت على هذه الحال بضع ثوان. وها هي ذي الدهشة المزدرية التي يعبر عنها وجه نيقولاي فسيفولودوفتش يحل محلها غضب، وها هو ذا يقطب حاجبيه، ثم فجأة...

ثم فجأةً يرفع شاتوف يده الطويلة الثقيلة ويهوي بها على وجه نيقولاي فسيفولودوفتش بكل ما أوتي من قوة، فيترنح ستافروجين من قوة الضربة.

ولقد هوى شاتوف بضربته على نحو خاص، لا كما يصفع أحد أحداً على وجهه (إذا جاز استعمال هذا التعبير): أي لم يضربه براحة اليد بل باليد مقبوضة مشدودة. وكانت يده ضخمة ثقيلة قوية العظام مغطاة بشعر أحمر وبقع حمراء. فلو سقطت هذه الضربة على الأنف لهشمته حتماً، لكن شاتوف أنزل ضربته على الخد، وانزلقت الضربة على الطرف الأيسر من الشفتين وعلى الأسنان العليا فسرعان ما نزف الفم دماً.

دوَّت صرخة أطلقتها فرفارا بتروفنا، إذا لم يخطئ ظني. لست أتذكر على وجه الدقة، إذ لم يلبث الصمت أن ساد الجوَّ من جديد: لقد أصبحنا كالمتجمدين من الدهشة. والمشهد كله لم يدم إلّا نحو عشر ثوان على كل حال.

غير أن أشياء كثيرة جداً قد حدثت خلال هذه الثواني.

يجب أن أذكر القارئ بأن نيقولاي فسيفولودوفتش له طبيعة من تلك الطبائع التي لا تعرف الخوف. إنه قادر، في مبارزة مثلاً، على أن يواجه رصاص خصمه بهدوء كامل ليسدد إليه بعد ذلك فيقتله بهدوء وحشي ضارٍ. ولو صفعه أحد فما أظن أنه يطلب المعتدي إلى المبارزة، وإنما يقتله على الفور. نعم إن له طبيعة من تلك الطبائع التي ترتكب القتل مدركةً فعلتها، لا منقادةً لعماوة الغضب. بل إنني لأعتقد أنه لم يعرف في حياته اندفاعات الحنق الشديد تلك التي تحرمنا من إمكان أي تفكير أو تأمل. ففي نوبات السخط التي كانت تستولي عليه أحياناً كان يستطيع دائماً أن يبقى مسيطراً على إرادته، وكان يدرك إذن أنه حين يقتل رجلاً في غير مبارزة فهو لا يستطيع أن يفلت من عقوبة السجن غير أن هذه الفكرة ما كان لها بأية حال

من الأحوال أن تمنعه من قتل الرجل الذي يكون قد أهانه، بغير أي تردد.

لقد درست طبع نيقولاي فسيفولودوفتش في هذه الآونة الأخيرة كثيراً، فأصبحت بفضل تضافر ظروف خاصة أعرف عنه وقائع كثيرة في هذه الساعة التي أكتب فيها عنه. إنني أشبِّهه ببعض شخصيات الزمان الماضي التي ما تزال ذكراها الأسطورية باقية بيننا حتى الآن. يُحكى مثلاً أن الديسمبري "لـ... ن"[1] كان طوال حياته يبحث عن الخطر، وأنه كان يتلذذ بهذا الإحساس الذي أصبح لديه احتياجاً حقيقياً. فحين كان شاباً كان يقتل في مبارزة لكلمة نعم أو كلمة لا. وفي سيبيريا كان يصطاد الدب بغير سلاح إلّا سكيناً، وكان يتسلى بأن يطارد في الغابات السجناء الهاربين الذين يجب أن نصفهم - عابرين - بأنهم أشد خطراً على الحياة من الدببة. مما لا شك فيه أن أولئك الأشخاص الأسطوريين كانوا يعرفون الخوف، بل ولعلهم كانوا يحسونه بقوة خاصة، وإلا لعاشوا حياة أكثر مسالمة وهدوءاً وموادعة، ولما قلبوا الإحساس بالخطر إلى حاجة طبيعية فيهم. وواضح أن الشيء الذي كان يثير حماستهم وحمياهم إنما هو الانتصار على ذلك الخوف. إن فرحم بالظفر والإحساس بقوتهم ليس لهما حدود. ذلكم ما كان يفتنهم ويخلب ألبابهم. إن "لـ... ن" ذاك نفسه، قد عرف الجوع قبل نفيه إلى سيبيريا، وعرف الحاجة إلى جني خبزه بعرق جبينه، لا لشيء إلّا لأنه رفض الخضوع للمطالب التي كان يريد أبوه الغني أن يفرضها عليه وكان هو يعدها ظالمة غير عادلة. كان إذن قد تصور كفاح الحياة في صور شتى، وكان قد عرف قوة مقاومته وقوة شكيمته لا في صيد الدب وفي المبارزات فحسب.

---

(1) هو ميشيل لونين (1845ـ 1787) الضابط الذي كان أحد متمردي ديسمبر 1825. وقد نفي إلى سيبريا ومات فيها. لقد قام ديسمبري آخر هو سفستونوف بوصف طبع لونين. وذلك حين عاد من سيبريا سنة 1856، ولا شك أن دوستويفسكي قد اطلع على مذكرات هذا الديسمبري التي أودعت في "الأرشيف الروسي" عام 1871. يجب أن نشير هنا إلى اسم الديسمبرين كان يطلق على أعضاء جمعيات سرية تشكلت في روسيا في نحو نهاية حكم الكسندر الأول. فلما مات العاهل حاولوا في 14 ديسمبر 1825 تحريك جيش سان بطرسبرج. ولكن نيقولا الأول الذي خلف الاسكندر الأول استطاع أن يسحق الثورة. شنق خمسة منهم، ونُفي الباقون إلى سيبيريا.

لكـن ذلـك كلـه كان يجـري فـي زمـان بعيـد جـداً، والطبيعـة العصبيـة، المعنيـة المختلفـة، التـي يتصـف بهـا رجال اليـوم، لا تشـعر حتـى بالحاجة إلـى هـذه الإحساسـات البسـيطة القوية التـي كان يبحـث عنها ويسـعى إليها الرجـال المتحركـو ن الفعالـون الذيـن عرفهم الزمـان القديم. لعـل نيقولاي فسـيفولودوفتش أن ينظر إلى "لـ... ن" ذاك نظرة متعالية، بل متعالية، بل لعله يعده رجلاً متنفخاً وديكاً مشاكساً يحب القتال، لكنه لا يقول هذا إلّا بينه وبين نفسـه دون أن يعلن هذا الحكم جهاراً. إن نيقولاي فسـيفولودوفتش قد يقتل خصمـاً فـي مبارزة، وقـد يجابه دبـاً عند الحاجة، وقـد يقاتل قاطـع طريق إذا تعـرض له، وهـو يحقق في هذا كله انتصـارات لا تقل عن انتصـارات " لـ... ن" ويبرهـن على شـجاعة لا تقل عن شـجاعة "لـ...ن" ولكـن دون أن يجني مـن ذلك ليلـة لذة، وإنما يقوم بهـذه الأعمال كلها برخاوة وتواتر وكسـل بل وضجـر، كمن يمتثل لضـرورة مزعجة لا بد منها. ومع ذلك فقد كان نيقولاي فسـيفولودوفتش أشـد قسـوة وأعمق شـراً من "لـ... ن". لكن شـره فاتر بارد هادئ، بل هو شـر "عاقل" إن صح التعبير، وهو إذن شـر أدعى إلى الإشمئزاز وأبعـث على الشـعور بالهول من أي شـر آخر. أكـرر مرة أخـرى: لقد عددته حينـذاك، وما زلـت أعده الآن (بعد أن أنتهى كل شـيء علـى وجه الإجمال) رجـلاً قـادراً، إذا هو تلقى صفعـةً أو إهانة مماثلة، أن يقتـل المعتدي عليه في الحال دون أن يطلبه إلى مبارزة.

ومـع ذلـك فقد تصرف عندئـذ تصرفاً مختلفاً كل الإختـلاف، جمَّدنا من الدهشة جميعاً.

فمـا إن نصـب قامته بعـد أن انحنى انحنـاء مخجلاً بتأثيـر الضربة، ما إن انقطـع صـوت اللكمـة الفظيعـة الرهيبـة ـ إن صـح التعبير ـ عـن الترجع في آذاننا، حتى أمسك نيقولاي فسيفولودوفتش صاحبنا شاتوف من كتفيه بيديه. ولكنه سـرعان ما عاد يسـحب يديـه في نفس اللحظة تقريبـاً، ويضعهما وراء ظهـره. كان صامتاً ينظر إلى شـاتوف وقد شـحب لونه حتـى صارت صفرته أشـبه ببياض. ولكن ما أعجب ما لاحظناه: لكأن نظرته أخذت تنطفئ حدتها

شيئاً بعد شيء، فما انقضت عشر ثوان حتى كانت عيناه باردتين، هادئتين. لست أكذب. إنني متأكد مما أقول. كل ماهنالك أن لون وجهه أصبح شاحباً شحوباً رهيباً. إنني أجهل ما حدث في نفسه طبعاً: فأنا لم أر منه إلّا الظاهر. يخيَّل إليَّ أنه إذا أوتي إنسانٌ أن يقبض على قضيب من حديد محمرٍ من النار وأن يظل ممسكاً به ليمتحن قدرته على الاحتمال، وإذا تمكن هذا الإنسان أن يحقق النصر بعد أن قاوم الألم الرهيب خلال عشر ثوان، فإن ما يعانيه يكون شبيهاً بما تحمّله نيقولاي فسيفولودوفتش أثناء تلك الثواني العشر.

وكان شاتوف أول من خفض بصره. وكان واضحاً أنه إنما خفض بصره لأنه اضطر إلى ذلك اضطراراً. ثم استدار بهدوء، واتجه نحو الباب، ولكن بخطوة مختلفة عن خطوته التي سار بها من قبل. انصرف بغير جلبة، مقوَّس الظهر، داسّاً رأسه في كتفيه، كأنه يفكر تفكيراً عميقاً. حتى أنني أعتقد أنه دمدم يقول بضع كلمات. كان يتقدم محاذراً، محاولاً أن لا يصدم شيئاً، وأن لا يقلب شيئاً. حتى إذا وصل إلى الباب شقّه شقاً صغيراً بحيث اضطر أن يخرج مواربا حتى يستطيع أن ينسل منه. وفيما كان يخرج لاحظت كتلة الشعر التي كانت منفوشة على جمجمته، لاحظتها خاصة.

وعندئذ دوَّت صرخة رهيبة سبقت جميع الصرخات. رأيت ليزافتا نيقولايفنا تمسك أمها من كتفها، وتمسك مافريكي نيقولايفتش من ذراعه وتبذل جهوداً كبيرة عنيفة لتجرهما وراءها إلى خارج الغرفة، ولكنها أطلقت من صدرها صرخة قوية على حين فجأة، وسقطت على الأرض مستلقية مغشياً عليها. يبدو لي أنني ما أزال أسمع اصطدام قفا رأسها بالسجادة.

الجزء الثاني

الفصل الأول

الليل

1

انقضى أسبوع. الآن وقد انتهى كل شيء، في الساعة التي أكتب فيها هذه القصة، أصبحنا نعرف الحقيقة. أمَّا في ذلك الحين فقد كنا نجهلها. لذلك كانت أشياء كثيرة تبدو لنا عجيبة جداً. في الآونة الأولى لزمنا البيت أنا وستيفان تروفيموفتش، مكتفين بملاحظة الأحداث من بعد، بشيء من الخشية. ومع ذلك كنت أخرج من حين إلى حين، وأنقل إلى صديقي كما كنت أفعل في الماضي، ما أستطيع أن أصل إلى جمعه من معلومات ما كان له أن يستغني عنها.

من نافل القول أن أذكر أن أغرب الشائعات قد سرت في المدينة بشأن الصفعة، وإغماء ليزا، والأحداث الأخرى التي وقعت في ذلك اليوم الذي لا يُنسى، يوم الأحد. وقد أدهشنا ذلك كثيراً: فكيف أمكن أن تُعرف هذه الوقائع بمثل تلك السرعة، حتى في أيسر تفاصيلها؟ لا أحد من الذين شهدوا تلك الأحداث يمكن أن يجني فائدة من إشاعتها وإذاعتها بين الناس فيما يبدو. أمَّا الخدم فإنهم لم يروا شيئاً. لبيادكين وحده كان يمكن أن يتكلم، لا عن خبث وشر (فقد كان مرتاعاً، والارتياع يقتل الكره) بل تلذذاً بالثرثرة فحسب. ولكن لبيادكين وأخته كانا قد اختفيا منذ الغد دون أن يتركا أثراً يدل على المكان الذي رحلا إليه: لقد تركا منزل فيليبوف ولا يعرف أحد أين هما. لقد حاولت أن أسأل شاتوف عن ماريا تيموفيئفنا، لكن شاتوف كان

قد سجن نفسه في بيته. وأظن أنه لم يخرج من مسكنه مرة واحدة خلال ذلك الأسبوع، متنازلاً عن كل مشاغله بالمدينة. وهو على كل حال لم يشأ أن يستقبلني. لقد صعدت إلى بيته يوم الثلاثاء، وقرعت بابه، فلما لم أحصل على جواب، وإذ تأكدت أنه موجود في البيت، قرعت الباب مرةً أخرى. فسمعت عندئذ صوتَ حركة هي حركة من يثب عن سريره إلى الأرض، وها هو ذا يقترب من الباب بخطى ثقيلة ويصرخ: "شاتوف ليس بالبيت". فلم يبق عليَّ إلّا أن أمضي.

وقد انتهينا أنا وستيفان تروفيموفتش أخيراً إلى التسليم بأن مروِّج الشائعات التي كانت تسري في المدينة (وذلك افتراض روَّعنا ما فيه من جرأة وتهور، ولكن كلّاً منا شجَّع صاحبه على قبوله) لا يمكن أن يكون أحداً غير بطرس ستيفانوفتش. ومع ذلك فقد أكَّد بطرس ستيفانوفتش لأبيه بعد مدة قصيرة أنه مدهوش جداً من أن الحكاية كلَّها قد انتقلت من فم إلى فم على الفور في المدينة كلها، وخاصةً في النادي، وأن الحاكم وامرأته يعرفانها بكل تفاصيلها. ولكن الأغرب من ذلك إنني علمت حين لقيت ليبوتين مساء يوم الإثنين أنه كان منذ ذلك الحين على علم كامل بكل ما جرى. فمعنى هذا أنه كان من أوائل من اطلعوا على الأمر.

إن كثيراً من السيدات (وبينهن سيدات من أبرز أعضاء المجتمع الراقي) قد حيَّرهن أشدَّ الحيرة أمرُ تلك "العرجاء اللغز". كذلك كنَّ يلقبنها. حتى أن بعضهن قد تمنين أن يعرفنها. معنى ذلك أن الذين أسرعوا يخفون لبيادكين وأخته قد فعلوا ما يجب فعله في الوقت المناسب جداً. على أن إغماء ليزافتا نيقولايفنا هو الذي كان يشغل الأذهان خاصة. ألم يكن هذا الحادث يخص جوليا ميخائيلوفنا، امرأة الحاكم، وقريبةَ الفتاة وحاميتها؟ ما أكثر ما قالوا! ثم إن هذه الثرثرات كان يسهِّلها ويشجِّعها ما يحيط بها من سر: لقد بقي المنزلان مغلقين. كان يقال على وجه التأكيد أن ليزافتا نيقولايفنا مصابة بحمى حارة، ومثل هذا كان يُقال عن نيقولاي فسيفولودوفتش، بالإضافة إلى اختراع تفاصيل أخرى كثيرة منفِّرة، منها أن أسنانه تكسرت، وأن وجهه

تشـوه، وهلم جراً، وكانوا يرددون، تحت طابع السر، أن الأمور لن تقف عند هذا الحد، فليس سـتافروجين رجلاً يمكن أن يغفر إهانةٌ كهذه، وأنه سـيقتل شاتوف حتماً، ولكن بطريقة خفية سرية، كما يحدث في أعمال الثأر المعروفة في جزيرة كورسـيكا. وكانت هذه الفكرة تخلب الألباب. ولكن أكثر شـبابنا الأنيقين كانوا يصغون إلى هذه الأقاويل بازدراء خال من الاهتمام والإكتراث، وذلـك أمر كانوا يصطنعونه اصطناعاً بطبيعة الحال. وعلى وجه العموم، فإن العداوة القديمة التي حملها مجتمعنا في الماضي لنيقولاي فسـيفولودوفتش قـد ظهـرت الآن من جديد عنيفـةً كل العنف، قويةً كل القـوة، فحتى الأفراد الجادون قد أخذوا يتهمونه، دون أن يعرفوا لماذا على وجه الدقة. كان الناس يتهامسـون بأنـه لطخ شـرف ليزافتـا نيقولايفنا بالعـار، وأن هنـاك مغامرة قد وقعت بينهما في سويسـرا. صحيـح أن الحكماء من الأفراد كانوا يتحفظون، ولكنهـم كانوا يصغون إلى هـؤلاء الثرثارين متلذذين. وقد راجت شـائعات أخرى أيضاً. غير أن الشـائعات الأخرى كان الناس لا يرددونها إلّا في خلوة وعلى حذر. ولسـت أذكر هذه الشـائعات إلّا لأنبه القـارئ، وأهيّئه للاطلاع علـى الأحداث التي أعقبت ذلك كلـه. كان بعضهم يؤكدون وهم يصطنعون هيئة الجد والوقار (الله وحده يعلم من أين استمدوا هذه الأنباء!) أن نيقولاي فسـيفولودوفتش مكلَّف بمهمة خاصة، وأنه بواسطة الكونت ك... قد أصبح على صلة بشـخصيات هامة جداً في بطرسـبرج، بل وأنه يشـغل منصباً عالياً. فكان الأفراد الجادون المتحفظون يبتسـمون حين يسـمعون هذه الأحاديث، مشـيرين بحق إلى أن رجلاً يثير فضائح ويتلقى صفعة منذ بداية إقامته عندنا، لا يشبه موظفاً كبيراً في شيء، فكان الآخرون يجيبونهم قائلين إن ستافروجين لا يشغل مركزاً رسمياً، بل منصباً سرياً بمعنى من المعاني، وإن مهمته تقتضي منـه والحالة هذه أن لا يشـبه موظفاً مـن الموظفين إلّا أقل شـبه ممكن. وقد أحدثت هذه الملاحظة أثراً ما: كان الناس لا يجهلون أن زمزتوف[1] مقاطعتنا

(1) "زمزتوف المقاطعة" أو هو مجلس للإدارة المحلية في الإقليم. وكثيراً ما كانت هذه المجالس تبدي في مناقشاتها آراء لبرالية. وذلك ما لفت نظر وزارة الداخلية.

كان قد لفت انتباه العاصمة مراراً وتكراراً، على أن هذه الشائعات لم تستمر. بل تبددت منذ عاد نيقولاي فسيفولودوفتش إلى الظهور بيننا. لكنني أحرص على أن أذكر أن هذه الأقاويل كلها إنما يرجع أصلها إلى بضع جملٍ كارهة مبغضة، لكنها غير صريحة جداً، قذفها ذات يوم في النادي آرتيمي بافلوفتش جاجانوف، الكابتن المتقاعد من ضباط الحرس. إن جاجانوف هذا، قد وصل من بطرسبرج منذ مدة قصيرة، وهو من كبار ملاكي الأطيان بمقاطعتنا، كما أنه رجل من رجال المجتمع الراقي، إنه ابن المرحوم بافل بافلوفتش جاجانوف الذي كان نيقولاي فسيفولودوفتش قد عامله منذ أربع سنين تلك المعاملة الفظة الغليظة، كما رويت ذلك في بداية قصتي.

عرفت المدينة كلها أن جوليا ميخائيلوفنا قد ذهبت إلى منزل فرفارا بتروفنا، فأرسلت فرفارا من يبلغها أنها لا تستطيع استقبالها لتوعك صحتها. وقد عُلم أيضاً أن جوليا ميخائيلوفنا قد بعثت بعد ذلك بيومين رسولاً يسأل عن أبناء السيدة ستافروجين، وأنها كانت من جهة أخرى تأخذ على عاتقها عبء "الدفاع" عنها. ويجب أن نفهم كلمة "الدفاع" هذه بأرفع معانيها طبعاً، أي بأغمض معانيها. لقد استقبلت بعبوس وفتور التلميحات الأولى التي أسرع الناس يسوقونها لها عن أحداث يوم الأحد. لذلك أصبح لا يجرؤ أحد أن يدير الحديث حول هذا الموضوع بعد ذلك بحضورها. وانتهى الناس إلى أن يسلّموا بأن جوليا ميخائيلوفنا ليست على علم بالقصة كلها فحسب، بل وتعرف معناها الخفي وسرها المكتوم وتعرف أصغر تفاصيلها، بل هي مشاركةٌ فيها بعض المشاركة. يجب أن أذكر بهذه المناسبة أن جوليا ميخائيلوفنا كانت قد أخذت تتمتع بيننا منذ ذلك الحين بذلك النفوذ الذي تتوق إليه، وكانت ترى نفسها منذ ذلك الحين "محاطة" كثيراً. إن قسماً كبيراً من المجتمع قد أصبح يعترف لها بذكاء عملي وكياسة وحسن تصرف... وسنرجع إلى الكلام عن هذا في ما بعد. وإلى حمايتها ورعايتها إنما يرجع أكبر الفضل فيما حققه بطرس ستيفانوفتش من نجاح سريع، وهو نجاح أدهش ستيفان تروفيموفتش إدهاشاً قوياً.

جائز أننا، أنا وستيفان تروفيموفتش، قد ضخمنا في خيالنا ذلك النجاح. مهما يكن من أمر، فإن بطرس ستيفانوفتش قد تعرف على جميع الناس في الأيام الأربعة الأولى التي أعقبت وصوله. كان قد وصل إلى مدينتنا يوم الأحد، فلما جاء يوم الثلاثاء رأيته يمر راكباً العربة التي يملكها آرتيمي بافلوفتش جاجانوف، وهو رجل متعجرف مزهو بنفسه حاد الطبع شرس مغرور، رغم ما يصطنعه من آداب راقية، فهو إذن امرؤ ليس التفاهم معه بالأمر السهل. وكذلك اسُتقبل بطرس ستيفانوفتش عند الحاكم وامرأته استقبالاً حسناً جداً، حتى إنه سرعان ما أصبح من أصدقائهما الحميمين، وسرعان ما أصبح الولد المدلَّل في منزلهما، إن صح التعبير. لقد أصبح يتغذى كل يوم تقريباً عند جوليا ميخائيلوفنا، التي سبق أن عرفها في سويسرا على كل حال.

ومع ذلك فإن الدور الذي يلعبه في ذلك المنزل كان يبدو دوراً غريباً. فلقد كان هذا الشاب يوصف في الماضي بأنه ثوري. لا أدري صحيح أم لا! ولكن كان يُقال على وجه التأكيد إنه في الخارج قد اشترك في عدة مؤتمرات وساهم في إصدار بعض النشرات الهدَّامة، "حتى ليمكن البرهان على ذلك بالرجوع إلى صحف ذلك الزمان"، كما قال لي ذلك، في غيظ وحنق، أليوشا تلياتنيكوف الذي هو اليوم ـ وا أسفاه! ـ موظف صغير محال على التقاعد، لكنه كان قبل ذلك أثير الحاكم السابق. ومع ذلك فهناك واقع قائم: هو أن هذا الثوري السابق لم يلق عند عودته إلى البلاد أية عقبة. حتى لقد اسُتقبل فيها استقبالاً يشتمل على كثير من اللطف والمودة. ألا يمكن أن نستخلص من ذلك أن الشائعات التي راجت في حقه كانت باطلة؟ لقد همس ليبوتين في أذني يوماً أن بطرس ستيفانوفتش قد أدلى باعترافات كاملة، على ما يُقال، ونال عفواً بعد أن وشى بأسماء شتى، وإذ كفّر بذلك عن ذنوبه وعد بأن يستمر على السير في الطريق القويم. وقد نقلت هذه الجملة المسموعة إلى ستيفان تروفيموفتش، فإذا هو يصبح شارد الذهن، مع أنه كان في تلك الآونة عاجزاً عن استجماع أفكاره. وقد عُلم فيما بعد أن بطرس ستيفانوفتش كان

مزوَّداً عند وصوله إلينا برسائل توصية وتزكية، ممهورة بأسماء محترمة ذات شأن كبير، وأن إحدى هذه الرسائل كانت موجهة إلى جوليا ميخائيلوفنا من عرَّابتها، وهي سيدة عجوز يُعد زوجها من أعلى شخصيات العاصمة مقاماً وأسماهم منزلةً. لقد كتبت هذه السيدة إلى جوليا ميخائيلوفنا أن الكونت ك...، وقد تعرف إلى بطرس ستيفانوفتش بواسطة ستافروجين، قد استقبله بترحيب، وأنه يعدُّه "شاباً مليئاً بالسجايا الممتازة رغم أخطائه السابقة". وكانت جوليا ميخائيلوفنا تحرص حرصاً عظيماً على العلاقات النادرة التي عقدتها مع أصحاب الشأن الرفيع بجهود كثيرة. لذلك سرَّتها رسالة السيدة العجوز سروراً كبيراً. ومع ذلك كان موقفها من بطرس ستيفانوفتش يبدو لنا على جانب كبير من الغرابة. ألم تكن تسمح له بأن يعامل زوجها معاملة خالية من الكلفة، وذلك أمر كان فون لمبكه يشكو منه مرَّ الشكوى؟... على أنني سأعود إلى هذه النقطة فيما بعد. ويجب أن أضيف أيضاً، من باب الذكرى، أن كارمازينوف الشهير قد رحَّب أكبر الترحيب، هو أيضاً، ببطرس ستيفانوفتش، ودعاه أن يزوره. إن هذه الحفاوة من جانب رجل يتصف بما يتصف به كارمازينوف من زهو وغرور قد جرح ستيفان تروفيموفتش أكثر مما جرحه أي شيء آخر. ولكنني فسَّرت هذا الأمر لنفسي بسهولة: لقد تودد كارمازينوف إلى هذا الرجل الذي يدين بالمذهب العدمي، لما له من صلات بالشبيبة الثورية في العاصمتين. لقد كان هذا الكاتب الشهير يخاف من هذه الشبيبة خوفاً مرضياً، ويتخيل من جهله أنها قابضة بأيديها على مستقبل روسيا. لذلك كان يتملَّقها في كثير من الهوان والصغار، لا سيما وأنها كانت لا تحفل به ولا توليه أي اهتمام.

2

جاء بطرس ستيفانوفتش إلى أبيه مرتين. ومما أسفت له أسفاً كبيراً أنه جاء إليه أثناء غيابي عنه. فأمَّا المرة الأولى فبعد لقائهما عند فرفارا بتروفنا بأربعة أيام، ولم يكن لزيارته هذه من هدف إلّا تصفية الحسابات المتعلقة بأرض

بطـرس سـتيفانوفتش. وقد انتهت هـذه القضية بغير ضجـة أو جلبة: تكفلت فرفارا بتروفنا بكل شـيء. دفعت المال للشاب، لكنها تملكت الأرض طبعاً، واكتفت بأن أبلغت ستيفان تروفيموفتش أن المسألة قد سُويت تسوية نهائية. لقـد حمـل إليه خادمها الـذي تثق به، وهو ألكسـي إيجوروفتـش، حمل إليه ورقـة عليـه أن يمهرهـا بتوقيعه، فوقَّعها سـتيفان تروفيموفتـش صامتاً، بوقار شـديد. يجـب أن أقـول بصدد الوقـار أو الرصانـة أو الكرامـة أنني أصبحت لا أتعـرف صاحبـي القديـم سـتيفان تروفيموفتـش: إن وضعـه الآن يختلف عـن وضعه السـابق اختلافـاً كبيراً. لقد أصبح شـديد الصمـت، وهو منذ يوم الأحـد لـم يكتب إلـى فرفارا بتروفنا رسـالةً واحدة، وذلك أمـر لو حدث في الماضـي لعددته معجزةً من المعجزات. غير أن الشـيء الذي أدهشـني أكثر مـن كل مـا عداه، إنما هـو هدوءه. كان سـتيفان تروفيموفتش قـد اتخذ قراراً حاسـماً وثبت عليه ثباتاً عنيداً. وهذا هو مصدر هدوئه. إنه الآن يضمر فكرة، وينتظـر الأحداث. على أنه قد شـعر في البداية بأنه مريـض. ففي يوم الإثنين اعترته نوبة إسـهال يشـبه أن يكون إسـهال الكوليرا. ويجب أن أقول أيضاً أنه ظل لا يسـتطيع الاسـتغناء عن الأنباء التي كنت أنقلها إليه. ولكنه ما إن أترك الوقائـع وأواجه جوهر المسـألة وأجازف فأتصور بعـض الافتراضات، حتى يومئ مهيباً بي أن أسكت.

ومـع ذلـك فإن اللقاءيـن اللذين تمَّـا بينه وبين ابنه قـد تركا فيه أثـراً أليماً موجعاً، لكنهما لـم يثنياه عن عزمه. فما يكاد بطرس سـتيفانوفتش يتركه حتى يسـتلقي علـى ديوانه ملفعاً رأسـه بمنشـفة مبلولـةٍ بالخل، محتفظـاً مع ذلك بوضع هادئ وقور كريم.

وكان مع هذا يسـمح لي أن أتكلم بعض الأحيـان. حتى لقد كان يبدو لي عندئـذ أن القرار السـري الذي عقـد عليه عزمه قد أخذ يضعـف، وأن أفكاراً أخـرى أخـذت تفتنـه وتغويـه. وكان هذا التـردد لا يدوم إلّا لحظـة، ولكنني أحرص على الإشـارة إليه. أظن أنه كان في تلك اللحظات يشتهي أن يخرج من عزلته وأن يتحدى وأن يخوض معركة أخيرة.

أفلت من لسانه في مساء يوم الخميس، بعد زيارة بطرس ستيفانوفتش الثانية:

ـ يا عزيزي، إنني أستطيع أن أبدِّدهم جميعاً!...

كان متمدداً على ديوانه، ملفعاً رأسه بمنشفة، ولم يكن قد وجَّه إليَّ كلمة واحدة طوال النهار. وتابع يقول:

ـ "ابني، العزيز"، وهلم جراً... أوافق على أن جميع هذه التعابير سخيفة فنية تليق بطباخة. أعترف بهذا أنا نفسي الآن. إنني لم أعطه شراباً ولا طعاماً. ولم يكن إلّا طفلاً رضيعاً حين شحنته من برلين بالبريد إلى ولاية ف... وهكذا! إنني أسلِّم بذلك. لقد قال لي: "أنت لم تُعنَ بها ولم تهتم بأمري، وشحنتني بالبريد كما تُشحن صرة، وزدت على ذلك فنهبتني هنا". صرخت أقول له: "ولكنني أيها الشقي، رغم أنني شحنتك بالبريد، لم ينقطع قلبي عن أن ينزف دماً من الألم لك والحسرة عليك!". فضحك! لكنني أسلِّم... أسلِّم ... نعم... بالبريد شحنته.

بهذا ختم كلامه كمن يهذي.

وعاد يتكلم بعد خمس دقائق فقال:

ـ "دعنا" (بالفرنسية). إنني لا أفهم تورجنيف. إن بازاروف[1] في روايته شخصية وهمية لم توجد في يوم من الأيام. ألم يكونوا أول من نبذوه معلنين أنه يشبه شيئاً؟ إن بازاروف هذا خليط غير مفهوم من نوزدريوف[2] ومن بايرون. "هذه الكلمة!" (بالفرنسية). انظر إليهم كيف يتدحرجون على الأرض مطلقين زعقات فرح، ككلاب صغيرة في الشمس! إنهم سعداء. إنهم ينتصرون. ما شأنهم وبايرون؟ ويالها من تفاهة لا مذاق لها فوق ذلك! وياله من غرور عامي سريع الاهتياج! ويا لها من حطة تزخر بها حاجة المرء هذه إلى "إحداث ضجة كبيرة حول اسمه" (بالفرنسية) دون أن يلاحظ أن "اسمه"

---

(1) "بازاروف": نموذج عدمي وصفه تورجنيف في كتابه "الآباء والأبناء".

(2) "نوزدريوف": أحد شخوص كتاب جوجول "النفوس الميتة". هو شخص كذاب مدع متبجح.

(بالفرنسية)... رباه! يا لها من رسوم كاركاتورية! لقد صرخت أقول له: "هل يُعقل أن تطمع، وأنت ما أنت، في أن تقدم نفسك للناس بديلاً للمسيح؟". " فضحك. إنه يضحك كثيراً. "إنه يسرف في الضحك" (بالفرنسية) إن له ابتسامة غريبة. لم تكن أمه تبتسم تلك الابتسامة. "إنه يضحك دائماً" (بالفرنسية).

وساد الصمت من جديد.

ثم عاد يتكلم فقال:

ـ إنهم ماكرون. لقد تواطؤوا يوم الأحد.

فهتفت أقول متلقّفاً الكرة بوثبة:

ـ حتماً! لا شك في ذلك! لقد كانوا على اتفاق وتواطؤ. لقد نسجوا مسرحيتهم نسجاً ثم أساءوا تمثيلها جداً.

ـ لا أقصد هذا. هل تعلم أنهم تعمدوا أن لا يجيدوا تمثيلها بغية أن يراها أولئك الذين يجب أن يروها؟ هل تفهم؟

ـ "أفضل. دعنا." (بالفرنسية).

ـ "فلماذا ناقشته يا ستيفان تروفيموفتش؟

ـ "أردت أن أغيِّر عقيدتي". (بالفرنسية).اضحك مني! "لسوف تسمع هذه العمة أشياء كثيرة جميلة!". آه ياصديقي، هل تصدِّق أنني شعرت منذ قليل بأنني وطني؟ على كل حال، لقد كنت أحس دائماً أنني روسي!... إن الروسي الحقيقي هو أنت، هو أنا. "إن ههنا شيئاً فيه عماوة، شيئاً مريباً" (بالفرنسية).

ـ قطعاً.

ـ يا صديقي، إن الحقيقة الصادقة تكون دائماً غير قابلة لأن تصدِّق. هل تعلم ذلك؟ فإن شئت أن تجعل الحقيقة قابلة لأن تصدق عليك أن تضيف إليها شيئاً من كذب حتماً. وذلك ما فعله الناس دائماً. ربما كان في ذلك كله شيء لا نفهمه. ما رأيك؟ ألا يمكن أن يكون في زعقات الانتصار هذه شيء لا نفهمه؟ أتمنى أن يكون الأمر كذلك. نعم أتمنى كثيراً.

لم أجبه. ولزم الصمت مدةً طويلة.

ثم دمدم يقول كأن به حمى:

ـ يقال إن المسؤول هو الفكر الفرنسي. كذبٌ ذلك. لقد كنا دائماً هكذا. لماذا نتجنّى على الفكر الفرنسي؟ إنه كسلنا الروسي وحده، إنه عجزنا المهين المشين عن أن نخلق فكرة، إنها طفيليتنا الكريهة المنفِّرة! "هؤلاء كسالى لا أكثر" (بالفرنسية). لا شأن للفكر الفرنسي بهذا. آه... يجب أن يُبادَ الروس لتحقيق خير الإنسانية لأنهم طفيليات ضارة. ليس هذا ما كنا نصبو إليه نحن، لا ليس هذا البتة! إنني لا أفهم شيئاً على الإطلاق. أصبحت لا أفهم. قلت له: هل تعلم أنك إذا جعلت القول الفصل للمقصلة، وبهذه الحماسة كلها أيضاً، فلا يكون ذلك إلّا لأن قطع الرقاب أسهل شيء، ولأنه لا شيء أصعب من أن يكون للمرء أفكار... "أنتم كسالى! رايتكم خرق بالية، شعاركم عجز..." (بالفرنسية). تلك العربات... أو ماذا يقولون؟... "جريان العربات التي تنقل الخبز الضروري للإنسانية" أنفع من مادونا كنيسة سيستو... "سخافة من هذا النوع" (بالفرنسية) . صرخت أقول له، ألا تفهم، ألا تفهم أن الإنسان لا يحتاج إلى السعادة فحسب، يحتاج كذلك إلى الشقاء، ويحتاج إلى الشقاء كاحتياجه إلى السعادة سواء بسواء؟ فضحك. وقال: "أنت راقد هنا على ديوان من مخمل تتلذذ بقول كلام منمَّق" (حتى لقد استعمل تعابير أشد فظاظة)... لاحظ أيضاً هذا التخاطب بصيغة المفرد بين أب وابنه. لقد كان يمكن التسامح في هذا لو كان ثمة وفاق، ولكن كيف يمكن التسامح فيه والأمر أمر شجار؟...

لزمنا الصمت لحظة.

ثم قال لي وهو ينتصب على حين بغتة:

ـ هل تعلم يا عزيزي أن هذا الأمر سينتهي حتماً بطريقة أو بأخرى؟

ـ لا شك في ذلك!

ـ "إنك لا تفهم. دعنا". العادة أن لاينتهي شيء في هذا العالم. ولكن في هذه الحالة سيكون ثمة نهاية، هذا مؤكد، مؤكد قطعاً.

ونهض، ومشى في الغرفة بضع خطوات مضطرباً أشد الاضطراب، ثم عاد إلى قرب الديوان فتهالك عليه مهدود القوى منهكاً.

في صباح يوم السبت ذهب بطرس ستيفانوفتش إلى مكان في المقاطعة لا أدرى أين يقع. ثم لم يعد إلّا مساء الإثنين. إن ليبوتين هو الذي أنبأني بذلك. وروى لي أيضاً أن لبيادكين وأخته قد أقاما في مكان ما على الضفة الأخرى بضاحية مصانع الفخار. وأضاف يقول: أنا الذي توليت نقلهما إلى هناك. وترك هذا الموضوع بعد ذلك فأبلغني أن ليزافتا نيقولايفنا ستتزوج مافريكي نيقولايفتش: ليس الأمر رسمياً بعد، ولكن الخطوبة حدثت وتمَّ الأمر. وقد قابلت الآنسة في الغداة راكبةً حصانها، يصحبها مافريكي نيقولايفتش. هذه أول مرة تخرج فيها بعد مرضها. التمعت عيناها حين رأتني، وابتسمت لي، وأومأت إليَّ برأسها محييةً تحيةً وديةً لطيفة. نقلت هذا كله إلى ستيفان تروفيموفتش، فلم يكترث بالأنباء المتعلقة بلبيادكين وأخته أي اكتراث ولم ينتبه إليها أي انتباه.

والآن وقد وصفت الوضع المضطرب المشوش الذي تخبطنا فيه خلال ذلك الأسبوع، حين كنا لا نعرف بعدُ شيئاً، استأنف سرد قصتي عالماً بحقائقها، فأعرض الأحداث كما تبدو لنا اليوم، بعد أن اتضح كل شيء، وبعد أن عرفنا أخيراً بواطن الأمور. سأبدأ باليوم الثامن الذي تلا ذلك الأحد المحتوم، أي بمساء يوم الإثنين، لأن ذلك المساء هو في الواقع بداية "القصة الجديدة".

3

هي الساعة السابعة من المساء. إن نيقولاي فسيفولودوفتش معتزل في حجرة مكتبه، الحجرة الأثيرة عنده. هي حجرة عالية السقف، تغطي أرضَها سجادة، ويزينها أثاث ثقيل قليلاً، قديم الطراز. إنه جالس على ديوان، مرتدٍ ثيابه كأنما ليخرج، ولكن لا شيء في وضعه يدل على أن في نيته أن يغادر الغرفة. وعلى المائدة الموجودة أمامه، مصباحٌ يتوَّجه طربوش يسقط النور

إلـى تحت. أمَّا أركان الغرفة الواسـعة وجدرانها فهـي غارقة في الظل. كانت نظـرة الشـاب مركزة مهمومـة. وكان وجهه الـذي نحل قليلاً ينـم عن تعب. وكانـت خـده متورمة بالفعل، لكـن الناس قد بالغوا حين زعموا أن شـاتوف كسـر له أحد أسنانه: إن السن لم تزد على أن تخلّعت قليلاً، ثم ثبتت وعادت إليها صلابتها. وكذلك الشـفة العليا التي شـقتها لكمـة قبضة اليد، فقد كانت تبدو ملتئمة التئاماً كاملاً، أمَّا التورم المتقرح فقد اسـتمر أسـبوعاً كاملاً، لأن المريـض رفض أن يعوده الطبيب الذي كان يمكن أن يفصد القرحة، وآثر أن ينتظـر انفتاحها من تلقاء ذاتها. وكان لا يـكاد يقبل أن تزوره أمه مرةً في اليوم إلّا بكثيـر مـن العنـاد، على شـرط أن لا تطـول زيارتها أكثر من بضـع دقائق، عنـد هبوط المسـاء قبل إشـعال المصباح. ورفـض أيضاً أن يسـتقبل بطرس سـتيفانوفتش الـذي جاء مع ذلـك إلى فرفـارا بتروفنا مرتيـن أو ثلاث مرات قبل سفره إلى الريف. وحين عاد بطرس ستيفانوفتش من سفرته قام بزيارات كثيرة، وتعشـى عند جوليا ميخائيلوفنا، وذهب في المسـاء إلى فرفارا بتروفنا التـي كانـت تنتظره نافـذة الصبر: لقـد رُفع الحظـر أخيراً، وأصبـح نيقولاي فسيفولودوفتش يستقبل الزائرين.

تولـت فرفـارا بتروفنـا بنفسـها اصطحاب الزائـر إلى باب حجـرة مكتب ابنهـا. لقـد كانت تحرص علـى لقائهما حرصاً شـديداً، واسـتقطعت بطرس سـتيفانوفتش عهـداً علـى نفسـه أن يمـرَّ بها حيـن خروجه من عنـد نيقولاي فسيفولودوفتش ليقصَّ عليها ما جرى بينهما. نقرت الباب في خجل ووجل، وإذ لم تسمع جواباً سمحت لنفسها بأن تشق الباب شقاً خفيفاً، وقالت تسأل ابنها بصوت خافت وهي تحاول أن تتبين تعبير وجهه وراء المصباح:

ـ نيقولاي، هل يمكنني أن أُدخل عليك بطرس ستيفانوفتش؟

فهتف بطرس ستيفانوفتش نفسه قائلاً في مرح:

ـ طبعاً، طبعاً...

وفتح الباب ودخل.

إن النقـرات الخفيفـة علـى البـاب لـم تكـن قـد لفتـت انتبـاه نيقـولاي

فسيفولودوفتش. وهو لم يسمع إلّا السؤال الذي ألقته عليه أمه فرفارا بتروفنا. ولكن بطرس ستيفانوفتش دخل قبل أن يتاح لصاحبنا نيقولاي أن يجيب عن ذلك السؤال. وكان في تلك اللحظة يمسك رسالةً أنهى قراءتها منذ هنيهة، فأغرقته في تأملات عميقة. فيما سمع كلمات بطرس ستيفانوفتش ارتعش، وأسرع يخبئ الرسالة تحت كيس أوراق، ولكنه لم يفلح في إخفائها تماماً، فإن طرفاً من الرسالة ظل ظاهراً مرئياً مع ظرفها.

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول مسرعاً بسذاجة مدهشة:

ـ لقد تعمدت أن أصرخ بصوت عالٍ هذا العلو كله لأهب لك فرصة الاستعداد والتهيؤ.

وهرع نحو المائدة ونظر في طرف الرسالة بانتباه.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش بهدوء دون أن يتحرك من مكانه:

ـ وقد اتسع وقتك طبعاً لأن ترى أنني أخفيت رسالة تحت مكبس الأوراق.

فصاح الزائر يقول: ـ رسالة؟ ما شأني أنا بالرسالة؟

ثم أضاف يقول خافضاً صوته ملتفتاً نحو الباب الذي كانت فرفارا بتروفنا قد أغلقته:

ـ ولكن... ولكن الشيء الرئيسي...

فقاطعه نيقولاي فسيفولودوفتش يقول له مطمئناً في برود:

ـ إنها لا تتنصت وراء الأبواب أبداً.

ـ هبها تتنصّت... ليس لي أي اعتراض على هذا...

كذلك أسرع يجيب بطرس ستيفانوفتش في مرح، وهو يجلس على مقعد. ثم أضاف يقول:

ـ على أنني هُرعت إليك في هذه المرة لأكلمك على انفراد... أخيراً أراك! ولكن قل لي قبل كل شيء كيف حالك الآن؟ حسنة جداً فيما أرى. ولعلك تخرج غداً، هه؟

ـ ربما.

هتف بطرس ستيفانوفتش يقول بلهجة مضحكة وهو يحرك يديه:

ـ هدِّئهم أخيراً وخلصني! ليتك تعرف كل ما اضطررت أن أقوله لهم! على أنك تعرف...

وانفجر ضاحكاً.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش:

ـ لا، لا أعرف شيئاً كثيراً. لكنني علمت من أمي أنك سعيت وتحركت كثيراً...

فأجاب بطرس ستيفانوفتش محتجاً بقوة كأنما ليدفع عن نفسه اتهاماً رهيباً:

ـ لا، أنا لم أذكر أي شيء معيَّن واضح . لقد تكلمت عن امرأة شاتوف، أعني عن الشائعات التي راجت عن علاقاتكما بباريس، وذلك أمر يمكن أن يفسر الحادث الذي وقع يوم الأحد... ألست غاضباً؟

ـ أنا واثق بأنك أرهقت نفسك كثيراً.

ـ ذلك ما كنت أخشاه. ولكن ماذا تعني هذه الجملة: "أرهقت نفسك كثيراً"؟ هذا لوم وتقريع. على كل حال فأنت تمضي إلى الموضوع رأساً. إن ما كنت أخشاه وأنا آتٍ إلى هنا، هو أن ترفض المضي إلى الموضوع مباشرة.

أجاب نيقولاي فسيفولودوفتش بشيء من السخط:

ـ لا يخطر ببالي قط أن أمضي إلى الموضوع رأساً.

ولكنه سرعان ما ابتسم ابتسامة خفيفة.

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول وهو يهز ذراعيه:

ـ لست أقصد هذا، لست أقصد هذا البتة. لا يخطئ ظنك!

وكان يتكلم بسرعة ما تنفك تزداد ويبدو كأنه سعيد جداً بحنق محدِّثه، وتابع كلامه:

ـ لن أضايقك بقضيتنا "نحن"، خاصة في ظرفك الراهن. وإنما هُرعت إليك لأكلمك عن حادث يوم الأحد، و بالقدر الضروري فقط، ذلك أنه

يستحيل ترك الأمور على هذه الحال. لقد جئت لأقدم إليك إيضاحات صريحة. لست أنت المحتاج إلى هذه الإيضاحات بل أنا المحتاج إليها. أقول هذا إرضاء لك، ولكنه هو الحقيقة على كل حال. لقد جئت لأكون بعد اليوم صادقاً معك كل الصدق، صريحاً كل الصراحة.

ـ هل يعني هذا أنك لم تكن صريحاً من قبل؟

ـ تعرف ذلك أنت نفسك. كم مرة مكرت بك!... لكنني أراك تبتسم، وهذا يسعدني كثيراً، لأنه يتيح لي ذريعة للإيضاح. لقد تعمدت أن أستعمل كلمة "المكر" لأغضبك: كيف أبحت لنفسي أن أظن أن في إمكاني أن أمكر معك! إن هذا يهب لي على الفور إمكان تقديم إيضاح. انظر كم أصبحت صادقاً! هل تريد أن تصغي إليَّ؟

رغم ما كان واضحاً من أن الزائر يريد إثارة حنق ستافروجين بوقاحته وبسذاجاته المصنوعة المهيأة المحضَّرة، فإن وجه نيقولاي فسيفولودوفتش ظل هادئاً هدوء الاحتقار والازدراء بل والسخرية. ولكنه حين سمع الكلمات الأخيرة من أقوال بطرس ستيفانوفتش ظهر عليه شيء من حب الاطلاع بل وشيء من القلق.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يتحرك مزيداً من التحرك:

ـ أصغ إذن إليَّ. حين وصلتُ إلى هنا، أقصد حين وصلت إلى هذه المدينة، منذ نحو عشرة أيام، كنت قد عزمت أمري طبعاً على أن أمثِّل دور شخصية ما. ولعله كان من الأفضل أن لا أمثل أي دور، وأن أكون أنا نفسي، ألا ترى هذا الرأي؟ لا شيء يساوي وجهك الخاص لأن أحداً لا يصدقه. أعترف لك بأنني كنت أنوي أن أمثِّل دور الأهبل، لأن تمثيل دور الأهبل أسهل على المرء من إظهار وجهه الخاص. ولكن ولمّا كان الهبل مبالغة سرعان ما تثير حب الاطلاع، فقد قررت أخيراً أن أظهر بوجهي الخاص. فماذا أنا على وجه الإجمال؟ أنا شخص عادي لست بالغبي ولا بالذكي، ولا أملك موهبة من المواهب، أي رجل من القمر كما يقول عقلاء الناس هنا، أليس هذا صحيحاً؟

أجاب ستافروجين وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

ـ ربما!

ـ آ... ها أنت ذا توافقني على رأيي! إنني سعيد بذلك سعادة عظيمة كنت أعلم سلفاً أنك تفكر هذا التفكير وترى هذا الرأي... لا تقلق، لا تقلق، لست زعلاناً. ولئن قلت هذا الكلام في حق نفسي، فإنني لم أفعل ذلك لأحملك على الإنكار والاحتجاج ولتقول لي: "بل أنت رجل ذو موهبة، وأنت رجل ذكي". آ...ها أنت ذا تبتسم من جديد!... ها أنا ذا أُضبط مرةً أخرى!... إنك لم يخطر ببالك أن تقول لي "بل أنت ذكي". إنني أقبل هذا، أقبله. "دعنا" (بالفرنسية)، على حد تعبير أبي. وإني لأضيف إلى هذا مستطرداً بين قوسين: "لا يسوءنّك هذري. وفي هذه المناسبة، إليك مثالاً ممتازاً: إنني أكثر من الكلام دائماً، ورغم إكثاري هذا لا أصل إلى قول ما أريد قوله. ولماذا أستعمل كلمات كثيرة ثم لا أصل إلى أهدافي؟ لأنني لا أجيد الكلام. إن الذين يجيدون الكلام يتكلمون بإيجاز. ذلك يبرهن على أنني لست بذي موهبة، أليس هذا صحيحاً؟ ولكن لما كان فقدان الموهبة عندي هبةً طبيعية فلماذا يكون عليَّ أن لا أستعملها؟ إن الأفضل أن أستعملها. وذلك بعينه هو ما أفعله. صحيح أنني إذ وصلت إلى هنا كنت قد قررت في أول الأمر أن أصمت. ولكن الصمت يحتاج إلى موهبة كبيرة. فذلك إذن لا يناسبني. ثم إن الصمت خطر على كل حال. لهذا قررت أن الأفضل أن أتكلم، ولكن أن أتكلم بحماقة، أي أن أتكلم كثيراً، كثيراً، وأن أُراكمَ جميع أدلتي وبراهيني وحججي بأقصى سرعة ممكنة فإذا أنا في آخر الأمر أخلط الحابل بالنابل بغية أن يتركني محدثي دون أن يصغي إلى النهاية، رافعاً منكبيه من الحيرة، أو حتى باصقاً على الأرض من الغضب. وهكذا تكون أولاً قد توصلت إلى إقناعه بصدقك، وتكون ثانياً قد جعلته يملّ منك، وتكون ثالثاً قد أعجزته عن فهمك. جميع المزايا في آن واحد. فمن ذا الذي يستطيع بعد هذا أن يظن فيك إخفاء أهداف سرية وأغراض خبيثة؟ لسوف يشعر كل إنسان بأنه أُهين شخصياً إذا قيل له إن لي نيات خفية ومرامي مستترة. زد على ذلك أنني

أضحكهم من حين إلى حين، وذلك أمر له قيمة ثمينة. فإذا لاحظوا بذلك أن الرجل الخطر الذي كان يصدر في الخارج لا أدري أيَّ نشرات ثورية، هو أغبى منهم، غفروا له كل شيء، لهذا السبب وحده. أليس ذلك صحيحاً؟ أقدِّر من ابتسامتك أنك توافقني على رأيي.

ولكن نيقولاي فسيفولودوفتش لم يكن يبتسم البتة، بل كان على نقيض ذلك متجهم الوجه لا يخلو من تململ ونفاد صبر.

ـ هيه؟ ماذا؟ أتقول "هذا لا يهم"!

كذلك استأنف بطرس ستيفانوفتش سائلاً بحرارة، مع أن نيقولاي فسيفولودوفتش لم يكن قد فتح فمه بكلمة واحدة. وتابع بطرس ستيفانوفتش يقول:

ـ أؤكد لك، نعم أؤكد لك أنني لا أقول هذا كله بغية تعريضك للإساءة إلى سمعتك بمصاحبتي. ولكن هل تعلم أنك اليوم شديد الاهتياج إلى حد رهيب؟ ما كان أغباني حين هرعت إليك سعيد النفس مفتوح القلب! ثم إذا أنت تشتبه في كل كلمة من كلماتي. أؤكد لك أنني لن ألامس اليوم أي موضوع حسّاس حرج. لك عليَّ عهد الشرف أن لا أفعل، وإنني أذعن سلفاً لجميع شروطك.

ظل نيقولاي فسيفولودوفتش ملتزماً الصمت في عناد.

ـ هيه؟ ماذا؟ هل قلتَ شيئاً؟ أرى أنني ارتكبت غلطة من جديد: إنك لم تفرض عليَّ أيَّ شرط. أصدِّقك! أطمئن بالاً أنا نفسي أعرف أنه لا حاجة إلى فرض شروط. أليس كذلك؟ ها أنت ذا ترى أنني أجيب عن كل أسئلتي نيابةً عنك. وأنا أتصرف هذا التصرف لأنني غير ذي موهبة طبعاً. إن الموهبة تعوزني تماماً... أتضحك؟ كيف؟

قال نيقولاي فسيفولودوفتش أخيراً وهو يبتسم:

ـ لا قيمة لهذا! لقد تذكرت أنني وصفتك فعلاً في ذات يوم بأنك غير ذي موهبة طبعاً. لكنِ ذلك كان في غيابي. أنقلوا إليك إذن هذا الكلام؟... أرجوك أن تنتقل إلى الموضوع بأقصى سرعة.

ـ ولكنني في قلب الموضوع. إنني أتكلم عما حدث يوم الأحد...

هكذا استأنف بطرس ستيفانوفتش كلامه بمزيد من النشاط. وتابع كلامه فقال:

ـ كيف كان تصرفي يوم الأحد في رأيك؟ لا شك أنه كان تصرف شخص رجل غبي عاجز، وذلك ما أتاح لي أن أستولي على الحديث. لكنهم غفروا لي كل شيء، أولاً لأنني هابط من القمر، فهذا شيء يجمع الناس عليه هنا فيما أعتقد. وثانياً لأنني رويت قصة صغيرة جميلة، فأخرجتكم جميعاً من الارتباك والحرج. أليس هذا ما حدث؟

ـ نعم، لكنك رويتها على نحو يدعو لبعض الشكوك أن تبقى، و يوهم بأن ثمة اتفاقاً وتواطؤاً بيننا، مع أنه لم يكن بيننا أي اتفاق أو تواطؤ، وأنني لم أكلفك بأن تتدخل أبداً.

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول مفتتناً كل الافتتان:

ـ تماماً، تماماً. لقد تصرفت على نحو يمكّنكم من أن تروا جميع الخيوط. ومن أجلك أنت خاصة إنما أخذت أمثّل، لأنني أردت أن أضبطك وأن أربكك. وأردت على وجه الخصوص أن أدرك مدى ما كان يعتمل في نفسك من خوف.

ـ وددت لو أعرف أسباب صراحتك الآن!

ـ لا تغضب، لا تغضب، لا تنظر إليَّ بعينين ساطعتين (على أنهما لا تسطعان)! تود لو تعرف لماذا أصبحت صريحاً هذه الصراحة كلها؟ ألا فاعلم إذن أنني إنما أصبحت كذلك لأن كل شيء قد تغير الآن، فالماضي قد انتهى، الماضي قد دُفن. غيَّرت رأيي فيك فجأة. قطعت الصلة بمناهجي القديمة. لن أعرِّضك للارتباك بعد اليوم بطرائقي القديمة. إنني أسير في طريق جديدة.

ـ هل غيرت أسلوبك؟

ـ ليس الأمر أمر أسلوب. أنت الآن حر في أن تتصرف التصرف الذي يروق لك، أن تقول "نعم" أو أن تقول "لا". ذلك هو أسلوبي الجديد أمَّا

"قضيتنا"، فإنني لن أتكلم عنها إلّا حين تأمرني بذلك. أتضحك؟ على رسْلك! أنا أيضاً أضحك. لكنني أتكلم الآن جاداً، جاداً، وإن يكن الرجل الذي يتسرع يوصف دائماً بأنه خال من كل موهبة! ولكن ليس يعنيني أن أكون ذا موهبة أو أن لا أكون ذا موهبة. إنني أتكلم جاداً، جاداً كل الجد.

لقد كان يتكلم جاداً بالفعل، كان يتكلم بلهجة مختلفة كل الاختلاف، وكان يبدو فريسةً لانفعال غريب عجيب، حتى أن نيقولاي فسيفولودوفتش ألقى عليه نظرة فيها كثير من الاستطلاع والدهشة.

ـ تقول إنك غيَّرت رأيك فيَّ؟

ـ نعم لقد تغيرت آرائي لحظةَ عقدتَ يديك وراء ظهرك بعد صفعة شاتوف. ولكن كفى كفى، أرجوك. لا تسألني، فلن أقول شيئاً.

ونهض وهو يحرِّك ذراعيه كأنما ليدفع عنه أسئلة محدِّثه، ولكن لم يُلق عليه محدِّثه أي سؤال، ولما كان بطرس ستيفانوفيتش لا يريد الانصراف بعد، فقد عاد يتهالك على مقعده هادئاً بعض الهدوء.

وسرعان ما عاد يتكلم فقال:

ـ بالمناسبة، يزعم بعضهم أنك سوف تقتله. حتى لقد قامت مراهنات حول هذا الموضوع. فخطر ببال السيدة لمبكه أن تبلغ الشرطة للتدخل في الأمر، غير أن جوليا ميخائيلوفنا منعتها من ذلك... ولكن كفى، كفى كلاماً عن هذا!... إن ما قلته الآن ليس إلّا من باب المعلومات. هناك في هذه المناسبة شيء آخر: لقد رحَّلتُ لبيادكين وأخته في ذلك اليوم نفسه. هل تعلم ذلك؟ هل تلقيت رسالتي مع عنوانها الجديد؟

ـ نعم.

ـ وذلك شيء لم أفعله إلّا من باب "الحماقة". غير أنني فعلته لأسرَّك، أقول هذا صادقاً كل الصدق. فلئن ارتكبت حماقة، لقد كانت نيتي مخلصة صادقة.

قال نيقولاي فسيفولودفتش شارد الذهن:

ـ لعل ذلك كان ضرورياً... ولكن لا تبعث إليَّ بعد الآن رسائل، أرجوك.

ـ كان يستحيل أن لا أفعل ما فعلت. وهذه آخر مرة.

ـ هل ليبوتين على علمٍ بالأمر إذن؟

ـ كان لا بد أن أطلعه. ولكنك تعلم أنت نفسك حق العلم أن ليبوتين لا يجرؤ... بالمناسبة: يجب أن نذهب إلى "جماعتنا"، أقصد "إليهم"، إلى "جماعتنا"، فلو قلتُ إلى "جماعتنا" لعدت تشاكسني وتناكدني. ولكن اطمئن بالاً. ليس اليوم. بل فيما بعد. في يوم من الأيام. السماء تمطر الآن، سوف أنبئهم، فيجتمعون فنمضي نراهم في ذات مساء. إنهم هناك ينتظروننا فاتحين مناقيرهم كأفراخ غربان في أعشاشها، ليروا ما عسى نجيئهم به أو نحمله إليهم من عجائب المفاجآت. ما أشد حماستهم! إنهم يهيئون كتبهم، ويستعدون للمناقشة. إن فرجنسكي من أشياع المذهب الإنساني. وإن ليبوتين من أنصار فوربيه مع ميل قوي إلى الأساليب البوليسية. يجب أن أقول إنه رجل ثمين من بعض النواحي، ولكن يجب أن يراقب. ثم هناك الرجل الطويل الأذنين: إن هذا يُعدُّ نفسه لأن يشرح لنا مذهبه الخاص. وهم متضايقون من أنني أعاملهم معاملة طلقة بغير تحرّج، وأنني أصب على حماستهم ماءً بارداً. هيء هيء! ولكن سيكون علينا أن نذهب إليهم قطعاً.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش بإهمال وقلة اكتراث:

ـ لا شك أنك حدثتهم عني حديثك عن زعيم!

فألقى عليه بطرس ستيفانوفتش نظرة سريعة، ثم قال متظاهراً بأنه لم يسمع السؤال، منتقلاً إلى موضوع آخر على الفور:

ـ بالمناسبة، لعلك تعلم أنني ذهبت إلى فرفارا بتروفنا مرتين أو ثلاث مرات، وإنني اضطررت أن أحكي لها أموراً كثيرة.

ـ أتخيل هذا.

ـ لا، لا، لا تتخيل شيئاً. كل ما قلته هو أنك لن تقتل شاتوف، وقلت لها أشياء أخرى من هذا النوع. ولكن هل تتصور أنها منذ الغداة كانت تعلم أنني أسكنت ماريا تيموفيئفنا وراء النهر. أأنت الذي ذكرت لها هذا؟

ـ لم يخطر ببالي أن أفعل.

ـ قدَّرت ذلك. ولكن من عساه قال لها هذا الأمر؟

ـ ليبوتين طبعاً.

ـ لا، ليس ليبوتين.

كذلك دمدم يقول بطرس ستيفانوفتش وقد ظهرت في وجهه علائم انشغال الفكر على حين فجأة. وتابع يقول:

ـ ولكنني سأعرف من الذي قال لها ذلك. لعله شاتوف!... على كل حال، دعنا من هذه السخافات... ولكن الأمر خطير إلى أبعد حدود الخطورة مع ذلك!... بالمناسبة: كنت أنتظر طول الوقت أن تلقي عليك أمك السؤال الرئيسي فجأة... نعم!... لقد كانت تبدو في جميع هذه الأيام الأخيرة مهمومة البال مظلمة الوجه، فماذا وجدت حين وصلت إليها اليوم؟ رأيتها مشرقة المحيا منبسطة الأسارير. ما معنى هذا؟

ـ مرد ذلك إلى أنني وعدتها اليوم بأن أخطب ليزافتا نيقولايفنا بعد خمسة أيام.

هذا ما أفلت من لسان نيقولاي فسيفولودوفتش بصراحة لم تكن متوقعة.

تمتم بطرس ستيفانوفتش يقول متلعثماً كالمرتبك:

ـ آ... نعم... في هذه الحالة مهم حتماً.. هل تعلم أن الناس يتحدثون اليوم عن خطوبته؟ ولكنك على حق. لسوف تترك الآخر عند أول نداء منك، حتى ولو كانت في تلك اللحظة بالكنيسة أمام الكاهن الذي يعقد قرانها على الآخر. ألستَ مستاءً مني لأنني أقول هذا الكلام؟

ـ لا.

ـ ألاحظ أن إغضابك اليوم أمر صعب جداً، لقد بدأت أخاف منك. لشدة ما يشوقني أن أعرف ما هو الوضع الذي ستتخذه غداً حين تظهر.

لا بد أنك هيأت منذ الآن حيلاً كبيرة. هل تزعل من كلامي بهذه الطريقة؟

لم يجب نيقولاي فسيفولودوفتش، فكأن من شأن ذلك أن رفع حنق بطرس ستيفانوفتش إلى ذروته. قال:

ـ بالمناسبة: هل جدٌّ ما قلته لأمك في موضوع ليزافتا نيقولايفنا؟

فحدّق إليه نيقولاي فسيفولودوفتش بنظرة باردة.
ـ آ... فهمت. أنت لم تقل لها ذلك إلّا لتهدئها.
ـ فماذا لو كان ما قلته جداً لا هزلاً؟
كذلك سأله نيقولاي فسيفولودوفتش بلهجة قاطعة.
قال بطرس:
ـ طيب. سأقول لك: كان الله في عونك، على حد التعبير الشائع. إن هذا لـن يلحق ضـرراً بالقضية (ها أنت ذا تـرى أنني لا أقـول "بقضيتنا"، فأنت لا تحـب هـذا الضمير "نا").. أمّا أنـا... فإنني... فإنني.. فـي خدمتك... تحت أمرك.. كما تعلم...
ـ أتظن؟
ـ لا أظن شيئاً، لا أظن شيئاً على الإطلاق...
كذلك أسرع يقول بطرس ستيفانوفتش ضاحكاً. وتابع كلامه يقول:
ـ لأنني أعلم أنك تتنبأ بجميع تفاصيل شـؤونك الشخصية، وأن كل شيء عندك معيَّن محدَّد. لكنني أريد ان أقول لك إنني تحت أمرك، صادقاً مخلصاً، في كل وقت وفي كل مكان، وفي جميع الظروف، والمناسبات، نعم، جميع الظروف والمناسبات، هل تفهم؟
تثاءب نيقولاي فسيفولودوفتش.
قال بطرس ستيفانوفتش وهو ينهض بغتةً:
ـ ضجرت مني.
وتنـاول قبعتـه المـدوَّرة، الجديـدة كل الجـدة، كأنما لينصـرف. لكنه لم ينصـرف وظل يتكلـم بغير توقف. وكان من حين إلى حين يمشـي في الغرفة بضع خطوات، لاطماً ركبته بقبعته.
وهتف يقول مرحاً:
ـ كنت أنوي أيضاً أن أروي لك بعض النوادر المضحكة عن أسرة لمبكه.
ـ لا، أرجـئ هـذا إلـى مرة أخـرى. ولكن بالمناسـبة: كيف صحـة جوليا ميخائيلوفنا؟

ـ مـا أغـرب العـادات الاجتماعيـة الراقيـة؟ فيـم تهمـك صحـة جوليـا ميخائيوفنا؟ وها أنت ذا مع ذلك تسأل عنها. يعجبني هذا. إن صحتها حسنة، وهـي تحمل لك احتراماً يمضي إلى حد الإيمان بالخرافات. إنها تنتظر منك أمـوراً عظيمة جليلة! أمـا عمَّا حدث يوم الأحد، فهي لا تقـول كلمةً واحدةً، لاقتناعهـا بأنه يكفيك أن تظهر للنـاس حتى تنتصر على جميع أعدائك. يميناً إنهـا لتتخيـل قدرتك غير ذات حـدود. ثم إن شـخصيتك أصبحت الآن أكثر إيغـالاً في السـر وأقرب إلى عالـم الخيال والروايات ممـا كانت في الماضي أيضـاً. ظـرف ملائم جداً. جميـع الناس ينتظـرون وقد نفذ صبرهـم إلى حد الجنـون. كانت أذهانهم ملتهبة متأججة حين تركتهـم. وهي الآن أكثر التهاباً وتأججاً. بالمناسـبة: شـكراً على الرسـالة، مرةً أخرى. إنهـم جميعاً يرهبون الكونـت لـ... رهبة فظيعة. هل تعلم أنهم ينظـرون إليك، فيما أظن، نظرتهم إلى جاسوس؟ وأنا أشجعهم على هذا الظن. هل يسوءك هذا مني؟

ـ لا.

ـ هذا هام جداً للمستقبل. إن لهم هنا أفكارهم. وأنا أشجّعهم عليها طبعاً. فـي طليعتهـم جوليا ميخائيلوفنـا. ثم جاجانوف... أتضحـك؟ إن لي خطتي وأسـلوبي، إن لـي "تكتيكـي": أتكلم، وأتكلـم، ثم أقذف بفكـرة ذكية فجأة، فـي اللحظة التـي يتوقعونها جميعـاً. فيحتشـدون حولي، وأسـتأنف ثرثرتي وهذري. لذلك لا يكرهني أحد الآن. هم يقولون: "هذا شاب موهوب، لكنه هابـط مـن القمر، لمبكـه يقترح علـيَّ أن أتوظف، ليصلح حالـي. ليتك تعلم كيف أعامله! إنني أعرِّضه للمشاكل فيُشده شدهاً شديداً حتى ليصعق صعقاً. أمَّـا جوليـا ميخائيلوفنا فإنها تشـجعني. بالمناسـبة: جاجانـوف حاقد عليك جداً. أمس، في دوخوفو، قال لي عنك كلاماً سـيئاً جداً. فشرحت له الحقيقة كلهـا فـوراً، أقصد: جزءاً من الحقيقـة طبعاً، قضيت عنده يومـاً كاملاً. أطيان رائعة، منزل جميل!

ـ كيف؟ أما يزال إذن في دوخوفو؟

كذلـك سـأل نيقـولاي فسـيفولودوفتش وهو ينتصـب علـى ديوانه فجأة بحركة قوية.

أجاب بطرس ستيفانوفتش بإهمال، متظاهراً بأنه لم يلاحظ الانفعال المفاجئ الذي اعترى ستافروجين:

- لا، عاد بي هذا الصباح. رجعنا معاً. هه. أسقطت كتاباً.

وانحنى على الأرض ليتناول الكتاب. وأردف:

- كتاب "النساء"، تأليف بالزاك، مع صور.

وفتح الكتاب قائلاً:

- لم أقرأ هذا الكتاب. إن لمبكه يكتب روايات أيضاً.

سأله نيقوي فسيفولودوفتش كأن الأمر يهمه:

- حقاً؟

- بالروسية؟ وخفيةً طبعاً. ثم إن جوليا ميخائيلوفنا تعرف ذلك وتسمح له به. يا للرجل العاجز! غير أن له مظهراً قوياً: إنها عادة السلطة. ما أشد حرص هؤلاء الناس على مهابة التقاليد. ما أقوى تقيدهم بالقواعد ومراعاتهم للأشكال! ذلك ما ينقصنا نحن.

- أتتغنى بمدح رجال الحكم؟

- هذا هو الشيء الوحيد المتقن في روسيا.

وأسرع يهتف:

- لكنني لن أضيف كلمة أخرى، لن أضيف كلمة أخرى، لن أقول كلمة واحدة في هذه الأمور الحرجة الشائكة!... وأنا منصرف على كل حال. ما هذا التجهّم في هيئتك؟

- بي حمّى.

- ظاهر هذا عليك. يجب أن ترقد. بالمناسبة: يوجد في المقاطعة أناس من "ملة الخصيان"[1] إن أمرهم لعجيب جداً. سوف أحدثك عنهم فيما بعد. ولكن هناك حكاية أخرى صغيرة. غيرَ بعيد من هنا، يوجد لواء مدفعية. ويوم الجمعة، في ب... ، سكرنا مع الضباط، إن بينهم ثلاثة من أصدقائنا، هل تفهم؟ تكلمنا

---

(1) "ملة الخصيان": ملة صوفية يسمى أصحابها بالروسية "سكوبتزي"، وهم يمارسون خصي أنفسهم نشداناً للكمال الأخلاقي.

في الإلحاد، فأجهزنا على الله طبعاً. بالمناسبة: يؤكد شاتوف أننا إذا أردنا أن تقوم ثورة في روسيا، فيجب أن نبدأ حتماً بالإلحاد. ربما كان هذا صحيحاً. كان هناك كابتن أشيب الشعر، جندي قديم عجوز، لم يكن يقول شيئاً. فها هو ذا ينهض فجاة، ويقف في وسط الغرفة كعمود، ويأخذ يقول كمن يخاطب نفسه، "إذا كان الله غير موجود، فما معنى رتبة الكابتن التي أحملها؟". وها هو ذا بعد ذلك يأخذ قبعته، و يرفع منكبيه متحيراً، و يخرج.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش وهو يتثاءب للمرة الثالثة:

ـ لقد عثر بذلك على فكرة صحيحة.

ـ حقاً؟ إنني لم أفهم وقد أردت أن أسألك. ماذا أحكي لك أيضاً؟ آ... نعم... إن مصنع آل شبيجولين هام جداً. إن فيه كما تعلم خمسمائة عامل. هو بؤرة كوليرا. إنه لم ينظف منذ خمسة عشر عاماً، وإن أصحابه، وهم من ذوي الملايين، يسرقون من أجور العمال. أؤكد لك أن بعض هؤلاء العمال عندهم فكرة عن "الأممية"[1] لماذا تبتسم؟ سوف ترى. أمهلني بعض الوقت فقط، بعض الوقت. سبق أن طلبت منك مهلة. وإني لأطلب منك مهلة ثانية، وعندئذ... معذرةً على كل حال. ها أناذا أصمت. ها أنذا أصمت، لا تقطِّب حاجبيك. وها أناذا أنصرف أيضاً. ولكن...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وهو يعود أدراجه، وتابع كلامه:

ـ نسيت الشيء الأساسي: لقد أُبلغت منذ قليل أن صندوقنا وصل من بطرسبرج.

سأله نيقولاي فسيفولودوفتش مدهوشاً:

ـ صندوقنا؟

ـ أقصد صندوقك مع أمتعتك وثيابك وسراويلك وملابسك الداخلية.

ـ هل وصل؟

ـ نعم، قيل لي ذلك منذ قليل.

---

(1) هل من حاجة إلى التذكير بأن "الرابطة الأممية للعمال" ("الأممية الأولى")، إنما أسسها كارل ماركس بلندن سنة 1864؟

ـ ألا يمكننا والحالة هذه...

ـ اسأل ألكسي.

ـ إذن في الغد، أليس كذلك؟ إن بين أمتعتك سترة ورداء وثلاثة بنطلونات صنعها لي شارموف وفقاً لطلبك. هل تتذكر ذلك؟

قال نيقولاي فسيفولودوفتش مبتسماً:

ـ سمعت أنك تتأنق هنا وتتبع الموضة. هل صحيح أنك تريد أن تأخذ دروساً في ركوب الخيل؟

فتقلصت شفتا بطرس ستيفانوفتش بابتسامة. ودمدم يقول بصوت متقطع مختلج:

ـ اسمع يا نيقولاي فسيفولودوفتش، لا نصطنعنْ هنا أوضاع شخصيات. لنتفق على هذا مرةً واحدة إلى الأبد،هه؟ في وسعك أن تحتقرني ما شئت ما ظل ذلك يسرُّك ويسلِّيك، ولكن من الأفضل أن ندع هنا أدوار الشخصيات، ولو إلى حين على الأقل، أليس كذلك؟

أجابه نيقولاي فسيفولودوفتش بقوله:

ـ طيب. لن أفعل هذا بعد الآن.

فابتسم بطرس ستيفانوفتش ابتسامة صغيرة. ولطم ركبته بقعته، ومشى بضع خطوات، واسترد هيئته المعهودة.

ـ يذهب بعضهم حتى إلى اعتباري منافساً لك على ليزافتا نيقولايفنا. فكيف تريد مني أن لا أعنى بحسن هندامي؟

كذلك قال بطرس ضاحكاً ثم أضاف يسأل:

ـ ولكن من ذا الذي يأتيك بهذه الأخبار؟ هم... إن الساعة قد بلغت الثامنة تماماً. هيَّا! أنا ذاهب. لقد وعدت فرفارا بتروفنا بأن ألقاها. ولكنني أعدل الآن عن ذلك. وأنت، يجب عليك أن ترقد. ستتحسن غداً. الجو مظلم في الخارج، والسماء تمطر. ولكن عندي عربة. الطرقات في الليل غير مأمونة. آ... بالمناسبة: يحوم هنا حول المدينة رجل يقال له فدكا، هو سجين محكوم عليه بالأشغال الشاقة، هرب من سيبيريا. إنه أحد أقناني القدماء. تصور أن

أبي احتاج يوماً إلى مال فباعه جندياً منذ خمس عشرة سنة. شخص نادر حقاً.

سأل نيقولاي فسيفولودوفتش زائره وهو يرفع نحو عينيه:

ـ هل... هل كلمته؟

ـ نعم. إنه لا يختبىء عني. وهو مستعد لكل شيء، لكل شيء، في سبيل المال طبعاً. غير أن له اقتناعاته كذلك، على طريقته الخاصة بطبيعة الحال!... آ... نعم... بالمناسبة: إذا كان ما قلته منذ قليل عن مشاريعك المتعلقة بليزافتا نيقولايفنا جَدّاً، لا هزلاً، فإنني أذكِّرك مرةً أخرى بأنني أيضاً مستعد لكل شيء في سبيلك، في جميع الظروف والمناسبات، على النحو الذي تتصوره وتريده. أنا في خدمتك... ماذا بك؟ أتبحث عن عصاك؟ آ... لا... تصوَّر أنني ظننت أنك تبحث عن عصاك.

لم يكن نيقولاي فسيفولودوفتش يبحث عن شيء ولا كان يقول كلمة واحدة، لكنه قد انتصب فجأة، وظهر في وجهه تعبير غريب.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يشير بغير تحرّج إلى الرسالة والظرف اللذين كانا تحت مكبس الورق:

ـ وإذا احتجت أيضاً إلى مساعدتي في مسألة جاجانوف، فأنا أنبئك بأنني أستطيع أن أرتب الأمور، وفي تقديري أنك ستستعين بي.

قال هذه الكلمات وخرج دون أن ينتظر جواب ستافروجين، ولكنه لم يلبث أطل برأسه من الباب المشقوق وصرخ يقول متعجلاً:

ـ أقول لك هذا لأن شاتوف لم يكن من حقه كذلك أن يجازف بحياته يوم الأحد حين اقترب منك، أليس كذلك؟ أحب أن تحفظ هذا جيداً.

وغاب.

4

لعل فرخوفنسكي كان يتخيل حين خرج أن نيقولاي فسيفولودوفتش متى خلا إلى نفسه، سيدمر كل شيء من حوله. و لعله تمنى أن يشهد نوبة الحنق المسعور هذه. لأن ظنه قد خاب: فإن نيقولاي فسيفولودوفتش ظل هادئاً.

وقد لبث واقفاً قرب المائدة دقيقة أو دقيقتين، على وضعه نفسه لم يغيِّره، شارد اللب ذاهل الهيئة. ثم تقلصت شفتاه بابتسامة جهمة باردة. وجلس على الديوان بهدوء، في ذلك المكان نفسه من ركن الغرفة وأغمض عينيه كأنه يشعر بتعب. وكانت الرسالة ما تزال تظهر من تحت مكبس الورق، لكنه لم يقم بأية حركة لإخفائها.

ولم يلبث أن غفا.

لم تستطع فرفارا بتروفنا التي كان يرهقها القلق منذ عدة أيام، لم تستطع أن تقاوم الرغبة في رؤية ابنها، فلما علمت أن بطرس ستيفانوفتش قد انصرف رغم الوعد الذي قطعه لها بأن يجيء، قررت أن تأتي لرؤية ابنها، رغم أن الوقت غير مناسب، فلعله يكلمها أخيراً بوضوح وحسم. نقرت على بابه وجلى، كما فعلت من قبل، فلمّا تفز بجواب، دخلت، فرأت ابنها جامداً جموداً غريباً، فاقتربت منه واجفة القلب بخطى خفيفة. إن الشيء الذي أدهشها هو أنه نام بمثل هذه السرعة بعد انصراف بطرس ستيفانوفتش، وأنه استطاع أن ينام على وضع غير مريح، منتصب الجذع، ساكناً سكوناً تاماً، إن أنفاسه لا تكاد تُسمع، وإن وجهه شاحب قاس كأنه متجمِّد، وإن حاجبيه مقطبان تقطيباً خفيفاً. لقد كان في تلك اللحظة يشبه وجهاً من الشمع لا حياة فيه حقاً.

لبثت الأم مائلة على ابنها هكذا بضع لحظات، حابسةً أنفاسها، ثم إذا هي تشعر فجأة بخوف. فابتعدت سائرةً على رؤوس الأصابع، لكنها توقفت عند العتبة، والتفتت صوبه، ورسمت على النائم إشارة الصليب بسرعة، وتركت الغرفة مثقلة القلب بغمٍ جديد.

ظل نيقولاي فسيفولودوفتش غارقاً في هذا الغفو أكثر من ساعة. ما من عضلة في وجهه ارتجفت، ما من خلجة في جسمه ظهرت. وحافظ وجهه على عبوسه وقسوته. فلو بقيت فرفارا بتروفنا بضع دقائق أخرى لما استطاعت حتماً أن تحتمل هذا الشعور الساحق بأن ابنها جامد جمودَ الإغماء، ولأيقظته حتماً.

وها هو ذا يفتح عينيه من تلقاء نفسه، ولكنه يظل جامداً نحو عشر دقائق أخرى، محدِّقاً ببصره، في عناد وإصرار، إلى ركن من الغرفة كأنه يتبين فيه شيئاً غريباً ما، مع أنه ليس في ذلك المكان أي شيء يلفت النظر.

وأخيراً انطلقت ساعة الحائط الضخمة تدق بصوتها الرقيق العميق. فلفت نيقولاي فسيفولودوفتش رأسه إليها بشيء من القلق، ولكن الباب الذي يفضي إلى الدهليز انفتح في تلك اللحظة نفسها ودخل منه رئيس الخدم ألكسي ايجورتش. كان يحمل على ذراعه اليسرى معطفاً وشالاً وقبعة، ويمسك باليد اليمنى صينية من الفضة عليها رسالة.

قال ألكسي إيجورتش بصوت خافت وهو يضع الملابس على كرسي:

ـ الساعة هي التاسعة والنصف.

وقدَّم لمولاه رسالة غير مغلقة، لا تضم إلّا سطرين مكتوبين بالقلم الرصاص.

فلما قرأ نيقولاي فسيفولودوفتش الرسالة، تناول من على المائدة قلم رصاص، وخطَّ بضع كلمات في أسفل الرسالة ووضع الرسالة على الصينية، وقال لخادمه وهو ينهض عن ديوانه:

ـ سلِّمها بعد خروجي فوراً. والآن ساعدني في ارتداء ملابسي. وإذ لاحظ أنه يرتدي سترة خفيفة من مخمل، فكَّر لحظة، ثم أمر أن يؤتى بردنجوت من جوخ كان يرتديه ليخرج إلى المدينة في المساء. حتى إذا انتهى من العناية بزينته وهندامه، وضع على رأسه قبعته، وأغلق بالمفتاح الباب الذي كانت قد دخلت منه أمه، واستلَّ الرسالة التي كان قد خبأها تحت مكبس الورق، وخرج إلى الدهليز صامتاً، يتبعه ألكسي إيجورتش. وعن طريق سلَّم حجري ضيق، وصلا إلى مخرج يفضي رأساً إلى الحديقة وقد أُعدَّ فيه مصباح ومظلة كبيرة.

قال ألكسي إيجورفتش محاولاً بذلك، مرةً أخيرة، أن يثني عزم مولاه عن القيام بالرحلة التي كان يزمع القيام بها:

ـ لقد هطلت الأمطار غزيرة حتى ليكاد يستحيل المرور في الشوارع.

ولكـن نيقولاي فسـيفولودوفتش نشـر مظلته دون أن يجيب، ومشـى في الحديقـة العتيقـة المظلمـة كأنها كهف. وكانـت الريح تصفـر، وتهز رؤوس الأشـجار التي كادت تعرى من أوراقها منذ ذلـك الحين. والممرات الضيقة المفروشة بالرمل متزلقة لزجة.

وتبـع ألكسـي إيجورفتـش مـولاه ينيـر لـه الطريـق، سـائراً وراءه بثلاث خطوات، لابساً رداء الفراك، عاري الرأس، كما دخل عليه منذ برهة.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش يسأل:

ـ لا يمكن أن نُرى؟

ـ يستحيل أن يُرى من النوافذ شيء. ثم إن جميع الاحتياطات قد اتخذت.

كذلك أجاب الخادم بصوت هادئ ولهجة موزونة .

قال نيقولاي:

ـ هل نامت أمي؟

فأجاب الخادم:

ـ اعتصمت بغرفتها في الساعة التاسعة تماماً، على عادتها منذ أيام.

ثم أضاف يسأل مولاه متجرئاً:

ـ في أي ساعة يجب أن أنتظر عودتك؟

ـ الواحدة، الواحدة والنصف، الثانية في أكثر تقدير...

ـ أمرك مطاع.

فبعـد أن قطعا الحديقة كلها تقريباً بطـرق متعرجة يعرفانها كلاهما معرفة جيـدة، وصـلا إلى السـور الحجري، ووجدا البـاب الذي يفضي إلى شـارع صغيـر مظلـم ضيق، وهو باب يظل مقفلاً بالمفتاح فـي جميع الأحيان ولكن هذا المفتاح موجود الآن في يدي ألكسي إيجورتش.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش:

ـ آمل أن لا يُسمع للباب صرير.

فأجابـه ألكسـي إيجورتش بأنه قد زيّـته أمس، و "زيّـتـه اليوم أيضاً"، فهو مبتـل بالزيت ابتلالاً تاماً، فلا يمكن أن يكون له صرير. حتى إذا فتح ألكسـي

الباب بالمفتاح، مدَّه إلى نيقولاي فسيفولودفتش الذي أخذه منه.

ـ إذا كان مولاي ينتوي الذهاب إلى مكان بعيد، فإنني أسمح لنفسي بأن ألفت نظر مولاي إلى الناس هنا لا يؤمَن شرهم كثيراً، ولاسيما أولئك الذين يحومون في الشوارع الصغيرة النائية، وعلى الشاطئ الآخر من النهر خاصة.

كذلك قال الخادم وقد عجز عن الامتناع عن إبداء هذه الملاحظة. إنه خادم عجوز كان قد حمل نيقولاي فسيفولودوفتش على ذراعيه، وهو إنسان كثير الجد، بل هو أميل إلى الصرامة، ولا ينفك يقرأ الكتب المقدسة.

أجابه نيقولاي فسيفولودوفتش قائلاً:

ـ لا تقلق يا ألكسي ايجورتش!

ـ باركك الله يا سيدي، على شرط أن تفعل خيراً.

ـ كيف؟

كذلك قال نيقولاي فسيفولودوفتش متوقفاً على حين فجأة بعد أن اجتاز العتبة.

فكرر ألكسي إيجورتش كلامه بصوت ثابت، متمنياً له أن يباركه الله على شرط أن يفعل خيراً. لم يجرؤ ألكسي إيجورتش في يوم من الأيام قبل الآن أن يتمنى لمولاه أن يباركه الله، بعبارة كهذه العبارة.

أغلق نيقولاي فسيفولودوفتش الباب، ودسَّ المفتاح في جيبه، وسار متعثراً بالوحل في شارع صغير أفضى به إلى شارع طويل خال مقفر لكنه مرصوف. كان ستافروجين يعرف المدينة معرفة جيدة، غير أن شارع أبيفانا بعيد عن منزله كثيراً، لذلك كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حين وقف أخيراً أمام بوابة منزل فيليبوف، المغلقة في تلك الساعة من الوقت. إن الطابق الأرضي غير مسكون منذ رحيل لبيادكين وأخته، ولقد سُدَّت نوافذه بألواح من خشب، غير أن المسكن الذي يقع تحت السقف، وهو المسكن الذي يقيم فيه شاتوف، كان مضاءً. وإذ لم يكن ثمة جرس فقد قرع نيقولاي فسيفولودوفتش الباب بقبضة يده عدة قرعات، ففتحت طاقة صغيرة أطل منها شاتوف محاولاً أن يتعرف الزائر. ولكن الظلمات كانت أكثف من أن

يستطيع شاتوف رؤية شيء. فقال بعد دقيقة يسأل:

ـ أهذا أنت؟

فأجابه الزائر غير المنتظر:

ـ نعم، أنا!

فأغلق شاتوف الطاقة، ونزل، وفتح الباب.

اجتاز نيقولاي فسيفولودوفتش العتبة، ومرَّ صامتاً أمام شاتوف، واتجه رأساً نحو الجناح الصغير الذي كان يشغله كيريلوف.

5

كل الأبواب هنا مفتوحة على آخر مداها. حجرة المدخل والغرفتان الأوليان مظلمتان، لكن الغرفة الأخيرة التي يسكنها كيريلوف، والتي يحتسي فيها الشاي الآن، كانت مضاءة، وكانت تخرج منها ضحكات وصيحات عجيبة. مضى نيقولاي فسيفولودوفتش نحو النور، ولكنه توقف على العتبة. كان الشاي مصبوباً في الفناجين. وفي وسط الغرفة كانت تقف امرأة عجوز هي قريبة فيليبوف. إنها حاسرة الرأس، عارية القدمين في حذاءيها، لا ترتدي إلّا تنورة وصديرة من جلد الأرنب، وعلى ذراعيها طفل في نحو الشهر الثامن عشر من عمره، يلبس قميصاً لكنه عاري الساقين. خداه حمراوان قرمزيان، وشعره الأشقر منفوش مشعث فكأنه رُفع الآن من مهده. لا بد أنه بكى كثيراً، فإن دموعاً صغيرة ما تزال تتلألأ على أهدابه. ولكنه في هذه اللحظة يحرِّك يديه الصغيرتين ويضحك ضحك الأطفال الصغار حتى ليكاد يختنق من شدة الضحك. ذلك أن كيريلوف كان واقفاً أمام الطفل يرمي على أرض الغرفة كرة كبيرة حمراء، فتنط الكرة إلى السقف، وتعود لتسقط على الأرض، فيصيح الطفل "بَهْ.. بَه!" فيلتقط كيريلوف ال "به"، ويناولها الطفل فيرميها الطفل بيديه الصغيرتين الخرقاوين، فيركض كيريلوف وراءها، ويلتقطها، حتى إذا تسللت الكرة مرةً تحت الخزانة، أخذ الطفل يصيح "بَهْ... بَه"، فانبطح كيريلوف على بطنه ومطَّ جسمه محاولاً التقاط الكرة، وعندئذ

دخل نيقولاي فسيفولودوفتش إلى الغرفة، فإذا الطفل يطفق منتحباً حين رآه، وإذا هو يندسّ في صدر العجوز التي أسرعت تنصرف به.

قال كيريلوف وهو ينهض عن الأرض والكرة بيده، دون أن يبدو عليه أي دهشٍ لهذه الزيارة غير المتوقعة:

ـ ستافروجين؟ هل تريد شاياً؟.

ـ لا أرفض، ولا سيما إذا لم يكن بارداً. إنني مبتل بالماء كل الابتلال.

قال كيريلوف بسعادة واضحة لا تخفى على الناظر:

ـ الشاي ساخن، بل هو محرق. اجلس. لقد حملت إلينا وحلاً. ولكن لا ضير. سأنظفه بخرقة مبلولة.

جلس نيقولاي فسيفولودوفتش، وشرب الشاي الذي صبَّه له كيريلوف، شربه جرعةً واحدة تقريباً.

سأله كيريلوف:

ـ هل لك بمزيد؟

ـ شكراً.

كان كيريلوف قد ظل حتى ذلك الحين واقفاً، فجلس عندئذ أمام الزائر وسأله:

ـ ماذا جاء بك؟

ـ جئت لشأن. اقرأ هذه الرسالة. لقد بعثها إليَّ جاجانوف. هل تتذكر؟ لقد سبق أن حدثتك عن هذا في بطرسبرج.

تناول كيريلوف الرسالة وقرأها ثم وضعها على المائدة ونظر إلى ستافروجين نظرة استفهام.

بدأ نيقولاي فسيفولودوفتش يتكلم فقال:

ـ تعلم أنني رأيت هذا الرجل أول مرة في بطرسبرج منذ شهر تقريباً. ثم التقينا في المجتمع مرتين أو ثلاث مرات. ولم نتعارف، ولم يوجه إليَّ كلمة واحدة في يوم من الأيام، ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون وقحاً معي. ذكرتُ لك هذا في حينه. لكنك لا تعرف التتمة. فحين بارح بطرسبرج قبلي بمدة

قصيرة بعث إليَّ رسالة إن كانت أقل فظاظة من هذه فإنها شرسة جداً على كل حال، وقد أدهشتني كثيراً لا سيما وأنني حاولت أن أعثر فيها على الأسباب التي دفعته إلى كتابتها إليَّ فلم أظفر بطائل. وسرعان ما أجبته فأكَّدت له صادقاً كل الصدق أنه إذا كان الأمر أمر ذلك الحادث الذي وقع بيني وبين أبيه في النادي منذ أربع سنين، كما افترض ذلك، فإنني مستعد لأن أقدم إليه جميع اعتذاراتي، خاصة وأن فعلي لم يكن مقصوداً وأنني كنت في ذلك العهد مريضاً، وطلبت منه أن يُدخل في حسابه هذه الظروف. ولم يجبني وسافر. ثم ها أنذا أجده الآن هنا وقد جُنَّ جنونه حقداً عليَّ وكرهاً لي. وقد نُقل إلي أنه قذفني مراراً بشتائم مقذعة على مسمع من الناس، واتهمني بأمور لا يصدقها العقل. وأخيراً حُملت إليَّ اليوم هذه الرسالة. ما أظن أن أحداً تلقى في حياته رسالةً كهذه الرسالة. إنها رسالة ملأى بالشتائم والإهانات، كقوله مثلاً: "يا صاحب البوز الذي لا يصلح لغير الصفع واللكم". وقد جئت إليك آملاً أن لا ترفض أن تكون شاهدي في المبارزة التي سأطلبه إليها.

قال كيريلوف:

ـ تقول إنه ما من أحد تلقى في حياته رسالة كهذه الرسالة؟ أنت مخطئ. ذلك يحدث في نوبة من نوبات غضب شديد. ذلك يحدث كثيراً. إن بوشكين قد كتب إلى هكرن[1]. طيب. سأذهب إليه. ماذا يجب أن أقول له؟

طلب نيقولاي فسيفولودوفتش من كيريلوف أن يمضي غداً إلى جاجانوف، فيبدأ كلامه معه بأن يكرر اعتذارات ستافرجين، وأن يقول له إن ستافروجين مستعد حتى لأن يكتب إليه رسالة ثانية زاخرة بالاعتذارات، ولكن على شرط أن يقطع جاجانوف على نفسه عهداً من جهته بأن لا يبعث إليه بعد الآن رسائل سب وشتم. أمَّا الرسالة الأخيرة التي بعثها جاجانوف

(1) إن البارون هكرن، سفير هولاند في روسيا، قد تبنى شارل دانتيس الذي كان يغازل زوجة بوشكين. ففي 26 كانون الثاني (يناير) 1837، كتب الشاعر إلى البارون رسالة مهينة تشتمل على سب وشتم، وتتهم البارون بتهم بشعة عن علاقته بابنه المتبنى، وفي تلك الرسالة طلب بوشكين البارون إلى المبارزة. وقد أناب السفير عنه في المبارزة ابنه المتبني دانتيس الذي أصاب بوشكين بجرح قاتل كما هو معلوم.

فتعتبر في هذه الحالة كأنها لم تكن، وتعد ملغاة.

قال كيريلوف:

ـ هذه تنازلات كبيرة. لن يقبل.

ـ أريد أن أعرف أولاً أأنت مستعد لأن تنقل إليه هذه الشروط؟

ـ سأنقلها إليه. هذا شأنك أنت. لكنه لن يقبل.

ـ أعرف.

ـ إنه يريد أن ينتهي كل شيء غداً هذا هو الأمر الأساسي. ستكون عنده في الساعة التاسعة. وسيصغي إلى كلامك، سيرفض اقتراحاتك، ولكنه سيجعلك على صلة بشاهده، في الساعة الحادية عشرة مثلاً. فنتفق مع شاهده على أن نكون جميعاً في مكان المبارزة في نحو الساعة الواحدة أو الثانية. حاولْ، أرجوك، أن ترتب الأمور على النحو الذي أطلبه منك. سيكون السلاح هو المسدس طبعاً. وأنا أحرص على الشروط التالية: تكون المسافة بين الحاجزين عشر أقدام، وتتوليان أنتما وقف كل منا على مسافة عشر أقدام من حاجزه. فإذا انطلقت الإشارة المتفق عليها، مضى كل منا نحو الآخر، وكان عليه أن يسير إلى الحاجز، ولكن يحق له أن يطلق النار قبل أن يبلغه مشياً. ذلك كل شيء كما أظن.

قال كيريلوف:

ـ عشر أقدام بين الحاجزين؟ هذا قليل.

ـ فلتكن المسافة بين الحاجزين اثنتي عشر قدماً، ولكن لا أكثر. أنت تدرك أنه يريدها مبارزة جدّ لا هزل. هل تعرف كيف تحشو المسدسات.

ـ نعم. عندي مسدسات. وسوف أحلف يمين الشرف على أنك لم تستعملها في يوم من الأيام. وسيحلف شاهده هذه اليمين أيضاً بالنسبة إلى مسدساته. سيكون هناك أربعة مسدسات، اثنان لكل واحد. وسيُعيّن مسدسا كل متقاتل بالقرعة.

ـ هل تريد أن ترى مسدساتي؟

ـ أتمنى.

جثا كيريلوف أمام حقيبته التي لم يكن قد فضَّها بعد، وإنما كان يُخرج منها ما هو في حاجة إليه، متاعاً بعد متاع. فما هي إلّا برهة حتى أخرج منها علبة من خشب النخيل مزدانة في الداخل بنسيج من المخمل. كانت العلبة تضم مسدسين ممتازين لا بد أنهما غاليا الثمن.

ـ عندي كل ما يجب: بارود، رصاصات، خرطوشات. ثم إن عندي كذلك مسدساً يحمل عدة رصاصات. انتظر! وأخذ ينبش في حقيبته من جديد، إلى أن أخرج منها مسدساً أمريكياً ذا ستِّ طلقات في ظرفه.

ـ عندك أسلحة كثيرة، أسلحة غالية الثمن.

ـ نعم، غالية الثمن جداً، باهظة الثمن كثيراً.

كان واضحاً أن كيريلوف الفقير، المعدم، الذي كان لا يلاحظ فقره على كل حال، يعتز اعتزازاً كبيراً بأسلحته الجميلة التي لا شك أنه اشتراها بتضحيات ثقيلة.

سأله ستافروجين بعد صمت قصير، وبشيء من تردد:

ـ ألا تزال على رأيك؟

ـ نعم.

كذلك أجاب كيريلوف وقد أدرك فوراً، من لهجة الزائر، ماذا كان يقصد. وجعل يرتب أسلحته.

فسأله ستافروجين بعد صمت آخر بمزيد من التردد والحذر:

ـ ومتى؟

كان كيريلوف قد أرجع العلبة والصندوق إلى الحقيبة، وعاد إلى مكانه. فقال:

ـ ذلك لا يتعلق بي أنا كما تعلم. عندما يُطلب مني.

كذلك تمتم يقول كأن السؤال يحرجه قليلاً وكان واضحاً مع هذا أنه مستعد للإجابة عن جميع الأسئلة التي قد تتلو ذلك السؤال. وحدَّق إلى ستافروجين بعينيه السوداوين اللتين ليس فيهما بريق، وكانت نظرته هادئة، ولكنها رقيقة لطيفة بشوش.

وساد صمت طويل، ثم استأنف ستافروجين كلامه فقال حالمَ الهيئة:

ـ إنني أفهم هذا جيداً... الانتحار...

كان وجهه قد تجهّم واكفهرّ، وتابع كلامه يقول:

ـ كثيراً ما فكرت في هذا الأمر. ولكن كانت توافيني عندئذ فكرة جديدة: لو ارتكب المرء جريمة أو قل عملاً مشيناً أو دناءة حقيرة أو سفالة جبانة سخيفة، أي شيئاً يظل الناس يذكرونه خلال قرون ويظل يثير اشمئزازهم ألف عام... حتى إذا فرغ من ارتكاب ذلك العمل "أطلق رصاصة على رأسه، فزال كل شيء ولم يبق شيء" ما قيمة أقوال البشر عندئذ وما قيمة بصقاتهم؟ أليس هذا صحيحاً؟

ـ وأنت تسمي هذا فكرة جديدة؟

كذلك سأله كيريلوف بعد لحظة تأمل وتفكير.

أنا... لا أقول إنها فكرة جديدة، ولكنني أحسستها جديدة حين بدت لي.

ألحَّ كيريلوف يسأله:

ـ "أحسست" الفكرة؟ طيب. ما أكثر الأفكار التي وُجدت دائماً، ثم إذا هي تبدو جديدة على حين فجأة! ذلك صحيح. أشياء كثيرة أراها الآن كما لو كنت أراها أول مرة.

قال ستافروجين دون أن يصغي إليه، مستمراً في شرح فكرته:

ـ لنفترض أنك عشت في القمر، فارتكبت هناك عملاً من تلك الأعمال الحقيرة الخسيسة المضحكة. إنك وأنت تعيش الآن هنا تعلم حق العلم أن الناس سيضحكون عليك هنالك وأنهم سيلطخونك بالوحل خلال قرون، إلى الأبد، ما بقي القمر. ولكنك على الأرض، ومن الأرض إنما تنظر إلى القمر: فهل تعنيك عندئذ جميع القذارات التي اقترفتها هناك على القمر وهل يهمك أن يبصق عليك سكان القمر خلال قرون؟ أليس ما أقوله صحيحاً؟

أجاب كيريلوف:

ـ لا أدري.

ثم أضاف يقول دون أية نية ساخرة، بل لإثبات واقع لا أكثر:

ـ أنا لم أعش في القمر.

ـ لمن هذا الطفل؟

ـ لحماة العجوز... بل أقصد لامرأة ابنها... سيَّان! لقد وصلت أمه منذ ثلاثة أيام. وهي مريضة. في السرير. الطفل يصرخ كثيراً في الليل. آلام في البطن. أمه نائمة. جاءتني به العجوز. أخذت أرمي أمامه الكرة. إنها كرة من هامبورج. اشتريتها من هامبورج لأرميها وأتلقفها: هذا يقوي الظهر. والطفل بنت لا صبي.

سأل ستافروجين:

ـ هل تحب الأطفال؟

فأجاب كيريلوف، ولكن بلهجة ليس فيها اكتراث كثير:

ـ نعم.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين:

ـ فأنت إذن تحبّ الحياة أيضاً؟

ـ نعم. أحب الحياة... لماذا؟

ـ ولكنك عازم على الانتحار.

ـ وما العلاقة بين الأمرين؟ الحياة شيء، والموت شيء آخر. الحياة موجودة والموت غير موجود.

ـ أأنت تؤمن إذن بالحياة الآخرة الأبدية؟

ـ لا، ليس بالحياة الآخرة الأبدية، بل بالحياة الأبدية هنا على هذه الأرض. هناك لحظات... إن المرء يصل إلى لحظات يتوقف فيها الزمان فجأة، فيصبح الحاضر أبدية.

ـ هل تأمل أن تتوصل إلى هذه اللحظة؟

قال نيقولاي فسيفولودوفتش، بدون سخرية من جهته هو أيضاً:

ـ لا أظن أن هذا ممكن في زماننا. في رؤيا يوحنا يحلف الملاك أن الزمان

لن يوجد بعدئذ[1].

كان يتكلم ببطء، مستغرق الفكر.

قال كيريلوف:

ـ أعلم ذلك. وهذا صحيح. قيل بوضوح ودقة. حين يكون الإنسان بكامله قد بلغ السعادة، فإن الزمان لن يوجد بعدئذ، لأنه لن يكون ضرورياً بعد ذلك.

ـ أين عساه يختفي في أي مكان، ليس الزمان شيئاً له حيِّز، بل هو فكرة ستنطفئ.

ـ ما هذه إلّا أقوال فلسفية مبتذلة معادة مكرورة، تتردد هي نفسها منذ بداية القرون.

كذلك دمدم يقول ستافروجين بنوع من أسف يمازجه ازدراء.

فهتف كيريلوف يقول وقد التمعت عيناه فجأة، كأن هذه الفكرة وحدها ضمانة للنصر:

ـ نعم، تتردد هي نفسها منذ بداية القرون، ولكن لن يكون هناك غيرها...

ـ إنك تبدو سعيداً جداً يا كيريلوف، هه؟

أجاب كيريلوف، وكأنه ينطق بكلمات عادية جداً:

ـ نعم، سعيد جداً.

ـ لكنك كنت معتكر المزاج منذ قليل، وكنت حانقاً على ليبوتين.

ـ همْ... الآن لست كذلك. لم أكن أعرف عندئذ أنني سعيد. هل رأيت ورقة، ورقة شجرة؟

ـ طبعاً.

ـ رأيت ورقة شجرة في الآونة الأخيرة، ورقة مصفرَّة، ما يزال فيها شيء من اخضرار، وكانت حواشيها قد تفسّخت. وكانت الريح تطردها. في العاشرة من عمري، أثناء الشتاء، كنت أغمض عينيَّ عامداً، وأتخيل ورقة

---

(1) من المعروف أن دوستويفسكي قد تأثر كثيراً بهذه العبارة الواردة في رؤيا القديس يوحنا. وقد تحدث عنها في كتابه "الأبله"

خضراء، متألقة بعروقها الملتمعة تحت أشعة الشمس. حتى إذا فتحت عيني لم أصدق الواقع. إن ما رأيته كان جميلاً جداً. وكنت أعود أغمض عينيَّ...

ـ أهذا رمز؟

ـ لا... لماذا؟ ليس هذا رمزاً. إنها ورقة لا أكثر. ورقة. شيء حسن. كل شيء حسن.

ـ كل شيء؟

ـ كل شيء.. الإنسان شقي لأنه لا يعرف أنه سعيد. لا لشيء غير هذا. ذلك سر الأمر كله، كله على الاطلاق. فمن عرفه لم يلبث أن يصبح سعيداً، على الفور. امرأة الابن ستموت. والطفلة ستعيش. كل شيء حسن. كل شيء بديع. اكتشفت هذه الحقيقة فجأة.

ـ وإذا مات المرء من الجوع، وإذا أوذيت بنت صغيرة، إذا لطخ شرفها بالعار، فهل هذا حسن أيضاً، هل هذا بديع أيضاً؟

ـ نعم. وإذا كسر أحدٌ جمجمةَ الشخص الذي ألحق أذى بالبنت الصغيرة فهذا حسن أيضاً. وإذا لم يكسر أحد جمجمته، فهذا حسن كذلك. كل شيء حسن، كل شيء بديع، كل شيء. وهم سعداء أولئك الذين يعرفون أن كل شيء حسن بديع. فإذا عرفوا أنهم سعداء. كانوا سعداء. لكنهم لا يكونون سعداء ما ظلوا يجهلون أنهم سعداء. تلك هي الفكرة كلها، الفكرة كاملةً، وليس هناك فكرة غيرها.

ـ متى اكشفت أنك سعيد؟

ـ في هذا الأسبوع، يومَ الثلاثاء، لا بل يوم الأربعاء، لأن الوقت كان في الهزيع الأخير من الليل.

ـ بأية مناسبة؟

ـ لا أذكر. كنت أمشي في الغرفة طولاً وعرضاً... لا قيمة لهذا... المهم أنني وقفت ساعتي. كانت تشير إلى الثانية وخمس وثلاثين دقيقة.

ـ فعلت هذا إشارةً إلى أن الزمان سيتوقف.

لم يجب كيريلوف.

ثم استأنف كلامه فجأة فقال:

ـ هـم ليسـوا طيبيـن لأنهم لا يعرفون أنهـم طيبون. فمتـى عرفوا ذلك في المسـتقبل، فسـيصبحون طيبين، ولن يغتصبوا عفـاف البنت الصغيرة. يجب أن يعرفـوا أنهم طيبون، فـإذا هم يصبحون طيبين على الفـور، جميعهم، إلى آخر واحد منهم.

ـ طيب. أنت الآن تعرف أنك طيب، فهل أنت إذن طيب؟

ـ نعم أنا طيب.

فدمدم ستافروجين يقول مكفهر الوجه:

ـ على هذا أوافقك.

قال كيريلوف:

ـ والـذي سـيعلِّم النـاس أنهـم جميعاً طيبـون أخيار، فذلك سـوف يختم تاريخ العالم.

ـ إن الذي علَّم الناس ذلك قد صُلب.

ـ سوف يجيء، وسيكون اسمه الإله الإنسان.

ـ الإنسان الإله؟

ـ بل الإله الإنسان. ذلك هو الفرق كله.

ـ أتُراك أنت الذي أشعلت السراج أمام الأيقونة؟

ـ نعم، أنا.

ـ أتؤمن الآن؟

ـ العجوز تحب السراج... ولم يتسع وقتها اليوم.

كذلك دمدم كيريلوف.

ـ أنت، ألا تصلي بعد؟

ـ أصلِّـي دائماً. انظر إلى هذا العنكبوت الذي يتسـلق الجـدار! إنني أنظر إليه فأشكره لأنه هنا.

وسقطت عيناه من جديد، وحدَّق إلى ستافروجين بنظرة فيها عزة وشمم،

نظرة لا تنصاع أو تنثني. فكان ستافروجين يتأمله بنوع من الاشمئزاز، ولكن دون أية سخرية. ثم قال وهو ينهض ويتناول قبعته:

ـ أراهن على أنك ستكون قد آمنت بالله حين أجيئك في مرة قادمة.

سأله كيريلوف: ـ لماذا؟

فأجاب ستافروجين وهو يضحك ساخراً:

ـ إذا كنت تعرف أنك مؤمن بالله، فسوف تؤمن به، ولكنك لا تؤمن الآن لأنك لمّا تعرف بعدُ أنك مؤمن.

أجاب كيريلوف بعد لحظة تفكير:

ـ ليس هذا هو الأمر البتة. أنت قلبتَ فكرتي. ما كلامك هذا إلّا مزاح رجل من المجتمع الراقي. تذكر، يا ستافروجين، المنزلة التي لك في نفسي، تذكّر ماذا كنتَ لي.

ـ أستودعك الله يا كيريلوف.

ـ ارجع إليَّ ليلاً. متى؟

ـ أتُراك نسيت قضيتنا غداً؟

ـ آ... نعم... نسيت. اطمئن بالاً، لن أتأخر عن الموعد. في الساعة التاسعة. إنني أستطيع أن أستيقظ في الوقت الذي أشاء. أنام قائلاً لنفسي: سوف أستيقظ في الساعة السابعة، فإذا أنا أستيقظ في الساعة السابعة، وإذا قلت إنني سأستيقظ في الساعة العاشرة، استيقظت في الساعة العاشرة.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش وهو ينظر إلى وجه كيريلوف الشاحب:

ـ تلك موهبة ثمينة جداً.

ـ سأفتح لك البوابة.

ـ لا تزعج نفسك. سوف يفتحها لي شاتوف.

ـ آ... شاتوف... طيب... أستودعك الله.

6

إن المنزل المقفر الذي يسكنه شاتوف لم يكن مغلقاً. ولكن حين دخل

ستافروجين، وجد نفسه في ظلام حالك، واضطر أن يتلمس السلم الذي يفضي إلى مسكن شاتوف تلمساً. وفجأة فُتح باب هذا المسكن الذي يقع تحت سطح المنزل، فُتح على مصراعيه، وأُضيء السلَّم. ولكن شاتوف لم يخرج من غرفته. فلما بلغ ستافروجين الفسحة الأخيرة من فسحات السلَّم رأى شاتوف واقفاً في ركن من الغرفة قربَ المائدة ينتظره.

فسأله وهو يقف على عتبة الباب:

ـ هل ترضى أن تستقبلني لعمل؟

فأجابه شاتوف:

ـ ادخل واجلس. أغلق الباب. لا بل انتظر. سأغلقه أنا.

وأقفل شاتوف الباب بالمفتاح وجلس قبالة نيقولاي فسيفولودوفتش، وراء المائدة. كان قد نحل خلال هذا الأسبوع، وكان كأنه يعاني من حُمّى.

قال بصوت أجش وهو يخفض عينيه:

ـ لشد ما عذبتني! لماذا لم تجئ إليَّ؟

ـ أكنت واثقاً هذه الثقة كلها بأنني سأجيء؟

ـ انتظر... لقد أصابتني حُمّى فكنت أهذي... ولعلني ما زلت أهذي...

ونهض، وتناول شيئاً كان موجوداً على حافة الرف الثالث من خزانة كتبه. إنه مسدس. ثم قال:

ـ حلمت ذات لية أنك ستجيء تقتلني، حتى إذا استيقظت في الغد أعطيت ذلك الوغد ليامشين آخر ما كنت أملك من قروش، ثمناً لهذا المسدس. لقد أردت أن أدافع عن نفسي. وبقي المسدس على هذا الرف منذ ذلك الحين.

وفتح طاقة النافذة.

فقال نيقولاي فسيفولودوفتش:

ـ لا ترمه. علام ترميه؟ إنه باهظ الثمن، وغداً يقول الناس إنهم وجدوا مسدساً تحت نوافذ شاتوف. أعده إلى مكانه. نعم، هكذا، اجلس الآن. قل لي: لماذا يبدو عليك أنك تعتذر عن أنه خطر ببالك أنني سأجيء أقتلك؟ لا يذهبن بك الظن إلى أنني جئت أصالحك. ولكن قل لي أولاً: أليست علاقتي

بزوجتك هي التي دفعتك إلى صفعي؟
أجاب شاتوف وهو يخفض عينيه من جديد:
ـ أنت تعلم حق العلم أن السبب ليس هذا!
ـ ولا كانت الشائعات الغبية التي راجت عن داريا إيفانوفنا هي السبب؟
ـ لا، لا، حتماً لا... يا لها من شائعات سخيفة! لقد قالت لي أختي فوراً...
كذلك صاح شاتوف بلهجة جافية تدل على نفاد الصبر، حتى لقد ضرب الأرض بقدمه.
فتابع ستافروجين كلامه يقول بلهجة هادئة:
ـ إذن حزرتُ أنا وحزرت أنت: نعم، إن ماريا تيموفيئفنا هي زوجتي الشرعية. لقد تزوجنا ببطرسبرج منذ أربع سنين. وبسببها قمت تضربني، أليس كذلك؟
فدمدم شاتوف يقول أخيراً وهو يتأمل ستافروجين بهيئة غريبة:
ـ كنت قد حزرت ذلك، ولكنني كنت لا أريد أن أصدِّق الأمر.
ـ ومع هذا ضربتني...
احمرّ وجه شاتوف، وغمغم يقول متلعثماً بصوت متقطع:
ـ بسبب... صغارك وتدنّيك... بسبب كذبك. ثم إنني لم أقترب منك لأعاقبك... حين اتجهت إليك... ولم أكن أعرف أنني سأضربك... ولئن ضربتك، فلأنك لعبت دوراً كبيراً جداً في حياتي.
ـ فهمت، فهمت. يكفي هذا. من المؤسف أن بك حمّى. إن أموراً هامة يجب أن أُبلغك إياها.
فهتف شاتوف وهو ينهض عن مكانه مرتعشاً كل الإرتعاش من نفاذ الصبر:
ـ إنني أنتظرك منذ مدة طويلة. قل قضيتك... وسوف أتكلم أنا أيضاً... بعدك...
وعاد يجلس.
بدأ نيقولاي فسيفولودفتش يتكلم فقال وهو يتوسَّمه مستطلعاً:
ـ هذه القضية من نوع آخر تماماً. لقد اضطررت بسبب الظروف أن أجيئك

هذه الساعة لأُبلغك أن من الممكن أن تُقتل.

نظر إليه شاتوف بوحشية. ثم قال ببطء:

ـ أنـا أعلـم أن حياتي ربما في خطـر، ولكن كيف تستطيع أنت أن تعرف هذا؟

ـ لأنني واحد من الجماعة، مثلك تماماً، لأنني عضو في جمعيتهم، مثلك تماماً.

ـ أنت... أنت عضو في جمعيتهم؟

قال نيقولاي فسيفولودوفتش وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

ـ أرى من عينيك أنك كنت تتوقع مني كل شيء إلّا هذا. ولكن اسمح لي: أأنت تعرف إذن أنهم ضاقوا بك وأنهم يعتـزمون قتلك؟

ـ لـم يخطـر ببالي هذا في يوم من الأيـام، لا ولا أطيق ان أصدِّقه حتى في هـذه اللحظـة بعد أقوالك... رغم أن المرء لا يمكن أن يكون واثقاً بشـيء أو متأكداً من شيء في تعامله مع هؤلاء الأغبياء!...

كذلـك صاح شـاتوف في سـورة مفاجئة مـن غضب شـديد وهو يضرب المائدة بقبضة يده. وتابع كلامه يقول:

ـ لقـد قطعـت الصلة بهـم. وجاءني واحد منهـم أربع مرات فقـال إن في إمكاني أن...

لكن شاتوف أمسك عن الكلام فجأة ونظر إلى ستافروجين وسأله:

ـ ولكن ما الذي تعلمه أنت على وجه الدقة؟

استأنف ستافروجين كلامه فقال ببرود امرئ يكتفي بالقيام بواجب:

ـ اطمئـن. لاتخف. إنني لا أخدعك. هـل تريد أن تعرف ماذا أعلم؟ إنني أعلـم أنـك دخلت في هـذه الجمعية في الخارج منذ سـنتين، حتى قبل إعادة تنظيمهـا، وذلك قبيل سـفرك إلى أمريـكا، وبُعيد حديثنا الـذي كتبت إليَّ فيه مـن أمريكا بإفاضة وإسـهاب، فيما أظن. بالمناسـبة: اغفر لـي إنني لم أجبك برسالة، واقتصرتُ على...

ـ ... أن ترسل إليَّ المال. انتظر...

قال شـاتوف ذلك، وأسرع يفتح دُرْجاً في مائدته، فاستلَّ من تحت أوراق فيه، ورقةً نقدية بمائة روبل. وقال لستافروجين:

ـ إليك المال الذي أرسـلته إليَّ حينـذاك. خذه. لولاك لهلكت هناك. وما كان لي أن أسـتطيع رده إليك إلّا بعد مدة طويلة لولا تدخل أمك: فمنذ تسعة أشهر، بعد مرضي، علمت بما أنا فيه من شقاء وعوز وبؤس، فأهدت إليَّ هذه المائة روبل. ولكن أكمل كلامك، أرجوك.

كان شاتوف كمن يختنق.

ـ وفـي أمريكا تغيرت آراؤك، حتى إذا عدت إلى سويسـرا أردت أن تترك الجمعية. ولـم يجيبوك، ولكنهم كلفوك بأن تسـتلم في روسـيا آلة طابعة وأن تحتفظ بها هنا إلى أن يأتيك شـخص موفد منهم ليطلب منك أخذها. لسـت علـى علـم بجميـع التفاصيـل، ولكنني أظـن أن الأمر كان كذلـك على وجه الإجمال. أهذا صحيح؟ أمَّا أنت، فقد قبلت هذا مؤملاً أو مشـترطاً أن تكون هـذه المهمة آخر مطلب لهم عندك، وأن يدعوك بعد ذلك وشـأنك. هذا كله لـم أعرفـه منهم هم، وإنما عرفتـه بمصادفة محضة. هناك شـيء لا أظن أنك تعرفه بعد: هو أن هؤلاء السادة لاينتوون الانفصال عنك أبداً.

صاح شاتوف يقول:

ـ مستحيل. لقد أعلنت لهم صادقاً أننا مختلفون من جميع النواحي، وهذا حقـي. هذا حـق ضميري وفكري!... لن أقبل... ما من قوة سـوف تسـتطيع أن...

قاطعه ستافروجين يقول بهيئة رصينة:

ـ لا تصرخ. من الممكن أن يكون فرخوفنسـكي ذاك متجسـساً علينا الآن في الممر بنفسه أو بموفدٍ منه. حتى ذلك السكير لبيادكين قد كلفوه بمراقبتك كمـا كلفـوك أنت بمراقبتـه، أليس صحيحـاً ما أقـول؟ قل لي أولاً هل سـلَّم فرخوفنسكي بأدلتك وحججك أم هو لـم يسلِّم بها؟

ـ سلَّم بها. وقال لي إن في وسعي أن أتركهم، فهذا من حقي...

ـ فاعلـم إذن أنـه يخدعك ويضلّلـك. إني أعلم أن كيريلوف نفسـه، وهو

الـذي لا يـكاد يجمـع بينهم وبينه أي شـبـه، قـد أمدَّهم بمعلومـات عنك. إن لهـم عمـلاء كثيريـن. حتى إن بعـض هؤلاء العمـلاء يجهلون أنهـم يعملون للجمعيـة. إنهـم لم يكفوا عـن مراقبتك في يوم من الأيـام. ولقد جاء بطرس فرخوفسـكي إلـى هنا بقصـد البت في أمور كثيـرة منها تقرير مصيـرك تقريراً حاسماً. لقد خُوِّل سلطات تامة لإزالتك في اللحظة التي يراها مناسبة، لأنك تعـرف أشـياء كثيرة، فمن الممكن أن تشـي بالجمعية. أكرر لـك أن هذه هي الحقيقـة. واسـمح لي أن أضيف أنهم مقتنعون اقتناعـاً مطلقاً ـ لا أدري لماذا ـ بأنك جاسـوس، وبأنك إن لم تكن قد خنتهم حتى الآن فسوف تخونهم في المستقبل. أليس هذا صحيحاً؟

حيـن سـمع شـاتوف هـذا السـؤال يطرحـه نيقـولاي فسـيفولودوفتش سـتافروجين بهذه اللهجة العادية، ابتسـم ابتسامة مصنوعة، وقال غاضباً دون أن يجيب إجابة مباشرة:

ـ هبني جاسوساً، فلمن أشي بهم؟

ثم صاح عائداً إلى جملة من الجمل التي قالها محدِّثه فشدهته شدهاً أكبر كثيراً من شدهه للنبأ القائل بأن حياته معرَّضة للخطر، صاح يقول:

ـ ولكـن دعنـا من الكلام عني أنـا. فلأذهب أنا إلى جهنـم. وإنما أريد أن أعرف: كيف أمكنك أنت، أنت ستافروجين، أن تحشر نفسك في هذه الزمرة مـن الخدم الأغبياء الحقيرين؟ أأنت تدخـل عضواً في جمعيتهم؟ أهذا عمل لامع يليق بنيقولاي ستافروجين؟

كذلك هتف شاتوف وقد استولى عليه كمد شديد وحزن هائل.

حتـى لقد صفق يديه إحداهما بالأخرى، كأنه ليس هناك شـيء أدعى إلى المرارة، وأبعث على الأسف من هذا الاكتشاف.

قال ستافروجين بدهشة غير مفتعلة:

ـ معـذرة. ولكـن يخيـل إليَّ أنـك تعدّني كوكبـاً متألقاً ما أنـت بجانبه إلّا حشـرة مسـكينة. لقد سـبق أن لاحظت ذلك عند قراءتي الرسـالة التي بعثتها إليّ من أمريكا.

ـ إنك... إنك تعلم... ولكن كفى حديثاً عني... كفى!

كذلك قال شاتوف يقطع كلامه حاسماً. وأضاف:

ـ إذا كنت تستطيع أن تمدني بإيضاحات... عن سؤالي، فافعل.

ـ بسرور. تسألني كيف أمكنني أن أزج نفسي في مثل هذه القضية الوسخة؟ إنني بعد أن أبلغتك ما أبلغتك أجد نفسي مضطراً أن كون صريحاً معك، إلى حد من الحدود. الحق أنني لا أنتمي إلى هذه الجمعية، ولا انتميت إليها في يوم من الأيام. فأنا إذن أحق منك بأن أتركها لأنني لم أدخل فيها على وجه الإجمال. حتى لقد أعلنت لهم منذ البداية أنني لا أعمل معهم في قضية مشتركة، ولئن اتفق أن ساعدتهم في بعض المناسبات، فإن ذلك لم يكن مني إلّا هواية، إذا لم أجد هواية أفضل. ومع ذلك فقد شاركت في إعادة تنظيم الجمعية على أسس جديدة. ذلك كل شيء. لكنهم غيَّروا رأيهم الآن، وقرروا فيما بينهم أن من الخطر أن يتركوني: وأعتقد أنهم حكموا عليَّ بالإعدام أنا أيضاً.

ـ أوه! إنهم لا يعرفون إلّا هذا: عقوبة الإعدام... مع حكم مطابق للأصول، على ورق ممهور بأختام رسمية وثلاثة تواقيع. وهل تظن أنهم قادرون على أن ينفذوا؟

تابع ستافروجين كلامه يقول بتلك اللهجة نفسها التي تشتمل على قلة الاكتراث ولا يكاد يكون فيها انفعال:

ـ إنك على بعض الحق، ولكن على بعض الحق فقط. لا شك فيه أن هذا كله يتضمن إسرافاً في الخيال: إنهم يضخمون قوّتهم وخطورة شأنهم. وإذا أردت أن تعرف رأيي، فإن الزمرة كلها تتجمع في شخص بطرس فرخوفنسكي، وبطرس فرخوفنسكي هذا يكون متواضعاً جداً حين لا يعد نفسه إلّا عميلاً للجمعية. على أن مبدأ تنظيمهم ليس أسخف من مبدأ تنظيمات أخرى من هذا النوع. إنهم على صلات بـ "الأممية". إن لهم عملاء في روسيا. حتى لقد ابتدعوا أساليب جديدة أصيلة... على الصعيد النظري طبعاً. أمّا عن نياتهم هنا، فإن عمل التنظيمات الروسية التي من هذا النوع تبلغ

من الغموض وتبلغ من البعد عن التوقع أن كل شيء ممكن عندنا. لاحظ أن فرخوفنسكي يملك إرادة.

ـ هذه القملة، هذا الجاهل، هذا الحيوان الذي لا يفهم من روسيا شيئاً؟

كذلك صرخ شاتوف حانقاً أشد الحنق. فقال له نيقولاي فسيفولودوفتش:

ـ إنك لا تعرفه حق معرفته. صحيح أنهم لا يفهمون من روسيا شيئاً كبيراً على وجه العموم، و لكنهم ليسوا أجهل منا بها إلّا قليلاً. ثم إن فرخوفنسكي ذو حماسة.

ـ فرخوفنسكي ذو حماسة؟

ـ نعم، إنه في ما وراء بعض الحدود يكف عن التمثيل والتهريج... ويصبح نصف مجنون. تذكَّر أحد تعابيرك نفسها: "هل تعلم مدى ما يمكن أن يملكه إنسان وحيد من قوة؟" لا تضحك، أرجوك. إنك قادر كل القدرة على إطلاق رصاصة. وهم مقتنعون بأنني أنا أيضاً جاسوس. إنهم إذ يعجزون عن تعريف قضيتهم مستعدون لأن يتهموا الآخرين بالجاسوسية.

ـ ومع ذاك فلست خائفاً أنت منهم، أليس صحيحاً؟

ـ لا، لست خائفاً كثيراً. ولكن وضعك مختلف تماماً. وإنما نبهتك من أجل أن تحتاط. في رأيي أنه ليس أمراً مزعجاً مثيراً أن يهدِّدَ المرءَ أناسٌ سخفاء أغبياء. ولكن الأمر ليس أمر ذكائهم، وقد اتفق أن رفعوا أيديهم على آخرين غيري وغيرك. ولكن الساعة قد بلغت الحادية عشرة والربع...

قال ستافروجين ذلك وهو ينظر في ساعته. ونهض. ثم قال:

ـ أريد أن ألقي عليك سؤالاً عن موضوع غير هذا تماماً.

فصاح شاتوف يقول وهو ينهض فجأة:

ـ ناشدتك الله!

فسأله ستافروجين مدهوشاً:

ـ ماذا تعني؟

ـ اسأل! ألق سؤالك، ناشدتك الله!

كذلك كرر شاتوف وهو فريسة انفعال لا سبيل إلى مغالبته. وتابع يقول:

ـ ولكن على شرط أن أستطيع أنا أيضاً أن ألقي عليك سؤالاً.

أتوسل إليك... إذا سمحت... أصبحت لا أطيق صبراً... اسأل...

انتظر ستافروجين لحظة. ثم بدأ يتكلم فقال:

ـ سمعت أن لك بعض التأثير في ماريا تيموفيئفنا، وأنها تحب أن تراك، وأن تسمع كلامك. هل هذا صحيح؟

ـ نعم... إنها تصغي إليَّ أحياناً...

وظهر الاضطراب على شاتوف.

قال ستافرجين:

ـ أنوي أن أعلن زواجنا على الناس في الأيام القليلة القادمة.

فدمدم شاتوف يقول مرتاعاً:

ـ ولكن... مستحيل!

ـ بأي معنى هو مستحيل؟ لا يمكن أن يكون هناك أية صعوبة. شهود الزواج هنا. لقد تمَّ كل شيء في بطرسبرج، على نحو شرعي جداً، بهدوء كامل وسلام تام. ولئن ظل الأمر سراً مكتوماً حتى هذا اليوم، فلأن شهود الزواج، وهم كيريلوف وبطرس فرخوفنسكي وكذلك لبيادكين (الذي يسرني أن يكون الآن قريبي) قد قطعوا على أنفسهم عهداً، هم الثلاثة، بأن يصمتوا.

ـ لست أقصد هذا... إنك تتكلم بهدوء... ولكن أكمل حديثك. قل لي: لم يجبرك أحد على هذا الزواج، هه؟

أجاب نيقولاي فسيفولودوفتش يقول مبتسماً من حرارة شاتوف المندفعة النافدة الصبر:

ـ لا، لم يجبرني أحد؟

فتابع شاتوف كلامه يقول بما يشبه الحمى:

ـ وما ذلك الطفل الذي تتكلم هي عنه؟

ـ الطفل؟ أي طفل؟ عجيب! هذه أول مرة أسمع فيها كلاماً عن طفل! إنها لم تلد طفلاً أبداً، ولم يكن ممكناً أن تلد: إن ماريا تيموفيئفنا قد ظلت عذراء.

ـ آ... ذلك ما كنت أقدِّره... اسمع!

ـ ما بك يا شاتوف؟

لقد غطى شاتوف وجهه بيديه وأشاح رأسه ثم أمسك ستافروجين من كتفيه فجأة، وقال صارخاً:

ـ تعرف على الأقل، نعم، هل تعرف على الأقل لماذا فعلت هذا الأمر، ولمذا ترتضي هذا القصاص الآن؟

ـ هذا سؤال ذكي وبل وغادر. لكني سوف أُدهشك: نعم، إنني أعلم تقريباً لماذا تزوجت، ولماذا قررت الآن أن أرتضي هذا "القصاص" على حد تعبيرك.

ـ لنترك هذا... سنتكلم عنه فيما بعد. انتظر! لننتقل إلى الشيء الجوهري، إلى الشيء الجوهري: إنني أنتظرك منذ سنتين!

ـ حقاً؟

ـ أنتظرك منذ مدة طويلة جداً. لم أنقطع عن التفكير فيك يوماً. إنك الإنسان الذي تستطيع أن... لقد سبق أن كتبت إليك في هذا الموضوع من أمريكا.

ـ أتذكر رسالتك الطويلة تذكراً كاملاً.

ـ لعلها كانت أطول من أن تُقرأ، هه؟ صحيح! ست صفحات كاملة. اسكت. اسكت. قل لي: هل تستطيع أن تهب لي من وقتك عشر دقائق أخرى، الآن، فوراً؟... إنني أنتظرك منذ مدة طويلة...

ـ أهب لك نصف ساعة، ولكن لا أكثر من ذلك. آمل أن يكفيك هذا.

قال شاتوف خارجاً عن طوره:

ـ ولكن على شرط... أن تغير لهجتك. هل سمعت؟ إنني أطالبك مطالبةً بأن تغيِّر لهجتك، بينما كان يجب عليَّ أن أضرع إليك... هل تعرف ما معنى أن يطالب المرء مطالبة، بينما كان ينبغي له أن يتوسل ويتضرع؟...

ـ أفهم أنك بهذه الطريقة تتحلل من القواعد والأصول، وتضع نفسك في خارجها، في سبيل هدف أعلى وغاية أسمى.

بهذا أجابه ستافروجين وهو يبتسم ابتسامة خفيفة. وأردف:

ـ لكنني ألاحظ متألماً أن بك حمّى.

ـ إنني أطلب الاحترام، بل أقتضيه، لا لشخصي ـ فليس لشخصي من قيمة ـ ليذهب شخصي إلى الشيطان، ولكنني أقتضي الاحترام باسم شيء آخر، وفي هذه اللحظة فقط، لهذه الكلمات القليلة. نحن هنا شخصان يلتقيان وجهاً لوجه في اللانهاية... ربما لآخر مرة. اترك لهجتك، تكلم بلهجة إنسانية. تكلم إنسانياً، ولو مرةً واحدة في حياتك. لا أقول هذا من أجل نفسي، بل من أجلك. هل تدرك أن عليك أن تغفر لي تلك الصفعة التي هويت بها عليك لا لشيء إلّا لأنني هيأت لك فرصة معرفة قوّتك الكبيرة؟... ها أنت ذا تبتسم مرة أخرى ابتسامة الازدراء تلك التي تعوّدتها، ابتسامة الازدراء تلك التي يبتسمها أبناء المجتمع الراقي. آه... متى تستطيع أن تفهمني أخيراً؟ تباً لمالك الأطيان العظيم! تباً للسيد الكبير! أفهم أنني أطالب بالاحترام، نعم، أطالب به وأقتضيه، وإلا فلن أتكلم بحال من الأحوال!

كاد اندفاعه أن يبلغ حد الهذيان. فقطب نيقولاي فسيفولودفتش حاجبيه، وأصبح أكثر تحفظاً. ثم قال بلهجة رصينة وهو يزن كل كلمة من كلماته:

ـ إذا بقيت نصف ساعة أيضاً مع أن وقتي ثمين جداً، فثق أنني إنما أفعل ذلك لأنني أنتوي أن أصغي إلى كلامك باهتمام على الأقل. وأنا واثق بأنك ستعلِّمني أشياء كثيرة جديدة عليَّ.

صاح شاتوف يقول:

ـ اجلس.

ـ وتهالك هو على كرسيه.

واستأنف ستافروجين كلامه فقال:

ـ اسمح لي أن أذكرك مع ذلك بأنني بدأت أكلمك عن ماريا تيموفيئفنا وإنني كنت أريد أن أتوجه إليك برجاء هام جداً في شأنها، من أجلها هي على الأقل...

ـ هيه؟

كذلك قال شاتوف نافد الصبر كإنسان قاطعتَه في منتصف حديثه، ولم يدرك السؤال الذي ألقيته عليه مع استمراره في النظر إليك.

أضاف نيقولاي فسيفولودوفتش يقول مبتسماً:

ـ ولكنك لم تدع لي فرصة إتمام الكلام الذي شرعت فيه...

فصاح شاتوف يقول وهو يهز منكبيه بعد أن فهم المقصود:

ـ هذه سخافات. سنتكلم عنها فيما بعد.

وسرعان ما رجع إلى فكرته.

7

قال بلهجة تكاد تكون تهديداً وهو يميل على ستافروجين ملتمع العينين رافعاً سبابة يده (إنه لم يلاحظ ذلك حتماً)، قال:

ـ هل تعرف من هو الآن على وجه الأرض الشعب "الحامل للرب" الوحيد، الشعب الذي سيجدد العالم وينقذه باسم إله جديد، الشعب الوحيد الذي بيده مفاتيح الحياة والكلمة الجديدة...؟ هل تعرف من هو هذا الشعب وما اسمه؟

ـ أستنتج من وضعك، بغير تأخر، أنه الشعب الروسي...

هتف شاتوف يقول وهو يضطرب في كرسيه:

ـ ها أنت ذا تضحك منذ الآن! آه من هذا الصنف، من البشر!

ـ هدىء نفسك، أرجوك. لقد كنت أتوقع شيئاً من هذا القبيل.

ـ كنت تتوقع شيئاً من هذا القبيل؟ ولكن ألا تذكِّرك هذه الأقوال بشيء؟

ـ بلى. وإني لأرى رؤية واضحة ما الذي تقصده، وإلى أين تريد أن تصل من هذا. إن عبارتك الطويلة، وحتى هذا التعبير: الشعب "الحامل للرب"، ليسا إلّا النتيجة التي تُستخرج من الحديث الذي جرى بيننا منذ أكثر من سنتين في الخارج قبيل سفرك إلى أمريكا... على الأقل إذا صدقت ذاكرتي الآن.

ـ إن تلك الجملة هي لك، لك أنت. أنت الذي قلتها. هذه أقوالك ذاتها،

وليست النتيجة التي تستخرج من "الحديث" الذي جرى بيننا، كان هناك معلّم ينادي بأفكار كبيرة، وكان هناك تلميذ ينبعث من بين الموتى. فأمّا التلميذ فأنا، وأمّا المعلّم فأنت.

- ولكن إذا صدقت ذاكرتي، فإنك بعد أقوالي تلك إنما دخلت في جمعيتهم ثم سافرت إلى أمريكا.

- نعم، وقد كتبت إليك عن هذا من أمريكا. لقد حدثتك في تلك الرسالة عن كل شيء. نعم، لم أستطع أن أنتزع نفسي دفعةً واحدة من كل ما كان قوام حياتي منذ طفولتي، من كل ما كان معقد آمالي وموضوع حماساتي، من كل ماجعلني أسكب دموعاً تفيض بالكره والبغض... إنه لمن الصعب على المرء أن يغير آلهته. لم أصدِّق أقوالك حينذاك، لأنني كنت لا أريد أن أصدِّقها، فرميت نفسي في تلك الهوة الملأى بالقذارات. غير أن البذرة في نفسي بقيت ثم نبتت. قل لي، ولكن بصدق: هل قرأت رسالتي التي بعثتها إليك من أمريكا، إلى نهايتها؟ لعلك لم تقرأها البتة؟

- قرأت منها ثلاث صفحات، الصفحتين الأولين والصفحة الأخيرة، وتصفّحت الباقي تصفحاً ولكنني كنت أنوي دائماً أن...

قال شاتوف يقاطعه وهو يجري يده بإشارة ازدراء:

- غير مهم، غير مهم! ولكن إذا كنت تعدل عن أقوالك التي قلتها في الماضي عن الشعب الروسي، فكيف أمكنك أن تقولها حينذاك؟ ذلك ما يعذبني اليوم ويسحقني سحقاً.

قال ستافروجين:

- لم أكن مازحاً يومئذ. وحين حاولت أن أقنعك في ذلك الأوان فلعلني كنت أفكِّر في نفسي أكثر مما أفكر فيك.

كلام يشبه أن يكون لغزاً أو أحجية.

فأجابه شاتوف:

- لم تكن مازحاً؟ لقد بقيت في أمريكا ثلاثة أشهر راقداً على القش بجانب إنسان شقي، فعلمت منه أنك بينما كنتَ تغرس في نفسي فكرة الله والوطن،

كنتَ في الوقت نفسه تسمِّم قلب ذلك الشقي، ذلك المهووس كيريلوف... لقد سكبت فيه الكذب والنفي، وألقيت بعقله إلى الجنون سريعاً. انظر إليه الآن، تأمل ماذا صنعت به! لقد رأيته على كل حال.

ـ أحب أن ألفت نظرك أولاً إلى أن كيريلوف قد قال لي هو نفسه منذ برهة أنه سعيد وأنه طيب الحال تماماً. إن افتراضك أن الأحاديث التي أجريتها معه قد تمت في ذلك الوقت نفسه الذي قام فيه الحديث بيني وبينك، هذا الافتراض صحيح تقريباً. ولكن على أي شيء يدل ذلك؟ أعود، فأقول لك: إنني لم أخدعكما، لا أنت ولا هو.

ـ أنت الآن ملحد، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ وفي ذلك الوقت؟

ـ كما أنا الآن تماماً.

دمدم شاتوف يقول مستاءً:

ـ لئن طالبتك بالاحترام في بداية محادثتنا هذه، فإنني لم أفعل ذلك من أجل نفسي. ولقد كان ينبغي لك، وأنت على هذا الجانب العظيم من الذكاء، أن تدرك ذلك.

ـ إنني لم أنهض حين بدأتَ تتكلم، ولا قطعت حديثنا، ولا انصرفت، بل بقيت جالساً أمامك أجيب عن أسئلتك وعن صرخاتك وزعقاتك طبعاً... فمعنى ذلك أنني لم أغضض من قدرك ولا قصَّرت في احترامك...

قاطعه شاتوف بحركة من يده. وقال يسأله:

ـ هل تتذكر أقوالك: "ما من ملحدٍ يمكن أن يكون روسياً"، هل تتذكر هذا؟

قال ستافروجين بلهجة فيها شيء من الشك:

ـ أقلتُ هذا؟

ـ أتسألني هل قلت هذا؟ أنسيت أنك قلته؟ ألا إنك مع ذلك قد أدركت عندئذ سمةً من سمات الفكر الروسي والروح الروسية. يستحيل أن تكون

قـد نسـيت أنك قلتَ هـذا. حتى لقد أضفـت يومئذ قولك: "ما مـن أحد غير أرثوذكسي يمكن أن يكون روسياً.".

ـ افترض أن هذه الفكرة هي من أفكار دعاة السلافية.

ـ لا، إن دعاة السـلافية المعاصرين ينبذونها. لقد أصبحوا أذكى. ولكنك مضيـت إلى أبعد من ذلك، فقلت إن الكاثوليكية الرومانية لم تعد هي الديانة المسـيحية. لقـد أكدت أن المسـيح الذي تنادي بـه روما قد وقع فـي الغواية الثالثة من غوايات إبليس[1]، وإن الكاثوليكية إذ أعلنت للعالم كله أن المسيح لا يمكن أن ينتصر في هذه الأرض ما لم يملك مملكة الأرض إنما نادت بما يخالف روح المسـيح، وهي بذلك تقود العالـم الغربي كله إلى الهلاك. وقد أشرت إلى أن فرنسا إذا كانت تتألم وتتعذب، فإنما مردُّ ذلك إلى الكاثوليكية، لأنها إن كفرت بالإله الروماني المتعفن، لم تظفر بالاهتداء إلى إله آخر. ذلك ما كنت لا تتحرج من قوله حينذاك. إنني أتذكر أحاديثنا تذكراً كاملاً.

قال ستافروجين جاداً كل الجد:

ـ لـو كنت أملـك الإيمان لكررت هذه الأقوال نفسـها حتماً. إنني لم أكن أكذب حينذاك حين تكلمت كما يتكلم مؤمن. ولكنني أؤكد لك أنه يزعجني جداً أن أسمع ترديد أفكاري القديمة. ألا تطيق أن تمسك عن الكلام؟

صاح شاتوف يسأله دون أن ينتبه أي انتباه إلى ما طُلب منه:

ـ لو كنت تملك الإيمان؟ ولكن ألست أنت الذي قلتَ لي إنك إذا برهنوا لك برهاناً رياضياً على أن المسـيح ضلال وأن الحقيقة شـيء والمسيح شيء آخر، لآثرت المسيح على الحقيقة؟[2] ألم تقل لي ذلك؟ أجب!

قال ستافروجين رافعاً صوته:

ـ ولكن اسمح لي أن أسألك بدوري، ما الداعي إلى هذا الامتحان الكاره المبغض، وإلى ماذا يؤدي هذا الاستجواب الغاضب الخبيث؟

---

(1) في إنجيل متى (الإصحاح الرابع، 9) أن الشيطان عرض على المسيح أن يكون له سلطان على مملكة هذا العالم. إشارة إلى السلطة الزمنية للبابا الكاثوليكي بروما.

(2) هذه العبارة نفسها وردت في رسالة بعثها دوستويفسكي إلى السيدة فونفيزينا من أومسك بعد خروجه من السجن في شهر شباط (فبراير) 1854

ـ سينتهي هذا الامتحان، وسينقضي إلى الأبد، فلن تُذكَر به بعد الآن.

ـ أما زلتَ عند رأيك من أننا في خارج المكان والزمان؟...

قال شاتوف غاضباً على حين فجأة.

ـ اسكت. إنني غبي أخرق. ولكن فيم يهمني أن يصبح اسمي مثاراً للضحك والسخرية! هل تسمَح لي أن أذكِّرك بفكرتك الأساسية؟... أوه... عشرة أسطر فقط! النتيجة وحدها لا أكثر...

ـ أتمنى أن تقتصر على النتيجة.

قال ستافروجين ذلك، وهمَّ أن ينظر في ساعته، ولكنه أمسك في الوقت المناسب.

ومال شاتوف إلى أمام مرةً أخرى، ورفع سبَّابة يده، ولكن لحظةً قصيرة فحسب، وقال كمن يقرأ في كتاب وهو يحدِّق إلى ستافروجين بنظرة تهديد:

ـ ما من شعب، ما من شعب استطاع يوماً أن ينظم نفسه في الأرض على أسس علمية وعقلية، ما من شعب أفلح في ذلك، أو لعل شعباً من الشعوب قد أفلح في ذلك مدةً قصيرة عن حماقة. إن الاشتراكية في جوهرها ملحدة، لأنها نادت منذ البداية بأنها تستهدف بناء المجتمع على أساس العلم والعقل فحسب. في كل مكان وفي كل زمان، منذ بدء الأعصر، لم يمثل العلم والعقل في حياة الشعوب إلّا دوراً ثانوياً لخدمة الحياة. وسيظل الأمر كذلك إلى نهاية العصور، فإنما تتكوّن الشعوب وتنمو بدافع قوة مختلفة عن هذا كل الاختلاف، بدافع قوة عليا مسيطرة يظل أصلها مجهولاً ولا يمكن تفسيره. هذه القوة هي الرغبة المتأججة في الوصول إلى نهاية، وإنكار هذه النهاية في الوقت نفسه، هي تأكيد الحياة تأكيداً مستمراً لا يتعب، وإنكار الموت. هي روح الحياة، كما يقول الكتاب المقدس، هي "ينابيع المياه الدافقة" التي تهددنا رؤيا القديس يوحنا بأنها ستغيض ذات يوم[1]، هي مبدأ الجمال، على تعبير الفلاسفة، أو هي مبدأ الأخلاق على حد تعبيرهم أيضاً. أمَّا أنا فأسميها

(1) راجع رؤيا القديس يوحنا (الإصحاح الثاني والعشرين، 1).

ببساطة أكبر: البحث عن الله. إن هدف كل شعب، في كل حقبة من تاريخه، هو البحث عن الله فقط، عن إلهه، عن إلهه هو الذي يؤمن به على أنه هو الإله الوحيد الحق. إن الإله هو الحقيقة المركّبة من الشعب كله، منذ وجوده إلى نهايته. في كل زمان وفي كل مكان، كان لكل شعب إلهه الخاص، ولم يحدث حتى الآن أبداً أن كان لكلّ الشعب أو لعدة شعوب إله واحد، مشترك بينها جميعاً. وحين تأخذ الشعوب بأن يصبح لها آلهة مشتركة، فذلك علامة موتٍ لهذه الشعوب، وحين تصبح الآلهة مشتركة بين عدة شعوب، فإن الآلهة تموت، كما تموت الشعوب ويموت إيمانها. ولم يحدث حتى الآن أبداً أن وُجد شعب بغير دين، أي بغير فكرة عن الخير والشر. إن لكل شعب تصوره الخاص للخير والشر، شعب خيره الخاص به، وشرَّه الخاص به. حتى إذا تشاركت عدة شعوب في تصوراتها للخير والشر، فإن هذه الشعوب تنحدر عندئذ، حتى إن التفريق بين الخير والشر يمَّحي حينذاك ويزول. لم يقدر العقل يوماً، ولن يقدر، أن يحدد الخير والشر، بل ولا على أن يفصل الشر عن الخير ولو فصلاً تقريبياً. بالعكس: كان العقل على الدوام مشوشاً تشويشاً مخجلاً يدعو إلى الأسف. أمَّا العلم فإنه لم يُمدَّنا إلّا بحلول مبنية على القوة الوحشية، ولا سيما "نصف العلم" الذي كان أفظع الأوبئة التي أصابت الإنسانية، وكان أسوأ من الطاعون والمجاعات والحروب، والذي لم يظهر إلّا في هذا القرن من الزمان. إن "نصف العلم" طاغية لم نَرَ له مثيلاً من أقدم العصور إلى هذه الأيام، طاغيةٌ له كهنته وعبيده، يسجد أمامه الناس بحب غامر وإيمان خرافي، ويرتجف أمامه العلم نفسه، ولكنه يُهين هو العلمَ إهانةٌ مخجلة. هذا الكلام كله هو أقوالك ياستافروجين، إلّا جملتي الأخيرة عن "نصف العلم": فهذه الجملة لي أنا، لأنني من أهل "نصف العلم"، ولذلك أكرهه كرهاً خاصاً. أمَّا أفكارك أنت، أمَّا تعابيرك أنت، فإنني لم أغيِّر فيها شيئاً، ولم أبدِّل منها حرفاً.

قال ستافروجين متروياً:

ـ ما أظن أنك لم تغير شيئاً. لقد التقطت أفكاري بهوى مشتعل فشوَّهها

هـذا الهـوى المتأجـج، دون أن تشـعر أنـت بذلـك. يكفي للرهـان على هذا التشويه أنك أنزلت الله إلى حيث جعلته صفةً للشعب لا أكثر.

إن سـتافروجين يتابـع الآن شـاتوف بانتبـاه خاص، ولكنـه لا يتابع أقواله بقدر ما يتابع وضعه وحركاته وإشاراته.

صاح شاتوف يقول:

ـ أأنـا أُنزل الله إلى حيث أجعله صفةٌ للشـعب؟ لا بل إنني أرفع الشـعب إلـى حيث أصل به إلـى الله. وهل كان الأمر غير هذا فـي يوم من الأيام على كل حال؟ إن الشـعب هو جسـم الله. كل شـعب لا يكون شـعباً ما لم يكن له إلهـه الخـاص، إلهه الخاص به هو، وما لم يكفر دون أي اسـتعداد للتنازل أو التشـويه، بجميع الآلهـة الأخرى، وما لم يؤمن أنه بفضل إلهه سـينتصر على جميع الآلهة الأخرى وسـيطردها. ذلك كان إيمان جميع الشـعوب الكبيرة، أو على الأقل جميع الشعوب التي كان لها دور في التاريخ، والتي سارت في طليعة الإنسـانية. يستحيل على المرء أن يغالب الوقائع. إن اليهود لم يعيشوا إلّا لينتظروا الإله الحق ولقد أورثوا العالم فكرة الإله الحق. والإغريق قد ألَّهوا الطبيعـة، وأورثوا العالم ديانتهم، أي الفلسـفة والعلم. وروما ألَّهت الشـعب متجسداً في "الدولة"، وأورثت الإنسانية "الدولة". وفرنسا، التي تجسد الإله الرومانـي، لـم تـزد طوال تاريخهـا على أن تنمّـي فكرة الإلـه الروماني، وإذا كانـت قد أسـقطته أخيراً وانحدرت هي نفسـها إلى هوة الإلحـاد الذي يطلق عليـه هناك، مؤقتاً، اسـم الاشـتراكية، فمـا ذلك إلّا لأن الإلحـاد هو رغم كل شـيء أسـلم من الكاثوليكية الرومانية. ومتى انقطع شـعب كبير عن الاعتقاد بأنه الوحيد الذي يقدر بفضل حقيقته أن يجدد الإنسـانية وأن ينقذ الشـعوب الأخـرى، فإنه سـرعان مـا ينقطع عن أن يكون شـعباً كبيراً، ثـم إذا هو يصبح مادة بشـرية لا أكثر. إن الشعب، إذا كان عظيماً بالفعل لن يقتصر أبداً على أن يقوم بدور ثانوي في حياة الإنسـانية، ولا بد أن يقوم بدور من الطبقة الأولى، فإنمـا هو يريد أن يكون له المـكان الأول تماماً، وأن يقوم بالدور الوحيد. إن الشعب الذي يفقد هذا الإيمان لا يبقي شعباً. ومع ذلك فإن الحقيقة واحدة،

ومعنى هذا أن شعباً واحداً من جميع الشعوب هو صاحب الإله الحق، مهما تكن آلهة الشعوب الأخرى قوية. إن الشعب الوحيد و"الحامل للرب" إنما هو الشعب الروسي...

وصاح شاتوف يقول محموماً على حين فجأة :

ـ و... و... هل يمكن يا ستافروجين أن تعدّني غبياً لا أدرك؟ هل هذه الآراء هي ثرثرات نساء عجائز عجنتها في موسكو، خلال سنين، معاجن دعاة السلافية، أم هي أقوال جديدة كل الجدة، أقوال فريدة، أقوال هي كلمة الخلاص والبعث الوحيدة؟ ... و... فيم يهمني ضحكك الآن! فيم يهمني أن لا تفهم شيئاً مما قلت، أن لا تفهم كلمة واحدة، أن لا تفهم حرفاً واحداً! ... آه... لشد ما أكره ضحكك المتغطرس ونظرتك في هذه اللحظة.

قال شاتوف ذلك ونهض بوثبة واحدة، حتى لقد كان فمه مزبداً.

قال ستافروجين بجدٍ غريب، دون أن يتحرك من مكانه:

ـ بالعكس يا شاتوف، بالعكس. إن أقوالك الحارة أيقظت في نفسي ذكريات كثيرة. إنني أعثر في أقوالك هذه على الحالة الروحية التي كنت أنا فيها من سنتين. وفي هذه المرة، لن أقول كما قلت منذ قليل إنك قد ضخَّمت الأفكار التي عبَّرت أنا عنها في الماضي. حتى ليبدو لي أن أفكاري تلك كانت تتصف بقطع أكبر وجزم أشد واندفاع أعظم. وإني لأؤكد لك مرة ثالثة أنني أتمنى كثيراً لو أكرر اليوم ما قلته أنت كلمة كلمة ولكن...

ـ ولكن يعوزك الأرنب؟

ـ ماذا؟

قال شاتوف وهو يضحك ضحكاً خبيثاً:

ـ هذا التعبير المنحط هو من تعابيرك أنت. "من أجل أن يطبخ المرء طاجن أرنب، يحتاج إلى وجود أرنب، ومن أجل أن يؤمن بإله يحتاج إلى وجود إله.". يقال إنك أنت الذي كررت هذه الجملة في بطرسبرج، كما فعل نوزدريوف الذي أراد أن يقبض على الأرنب من خلف.

ـ كان نوزدريوف، على خلاف ذلك، يتباهى بأنه قبض على الأرنب.

بالمناسبة: اسمح لي أن ألقي عليك سؤالاً، لا سيما وأن هذا من حقي الآن فيما يبدو لي. قل لي: هل أرنبك صار في قبضة يدك أم ما يزال يجري؟

فصاح شاتوف:

ـ أمنعك من إلقاء هذا السؤال بهذه الألفاظ. اسألني بأسلوب آخر، بأسلوب آخر!

فقال نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين وهو ينظر إليه مربدَّ الهيئة:

ـ أنا مستعد. كل ما أردته هو أن أعرف أأنت مؤمن بالله أم لا؟

ـ أنا مؤمن بروسيا، أنا مؤمن بالأرثوذكسية... مؤمن بجسم المسيح... مؤمن بأن ظهور المسيح ثانيةً سيتم في روسيا... مؤمن..

تمتم شاتوف خارجاً عن طوره.

قال ستافروجين ملحاً:

ـ وبالله؟ بالله؟

ـ بالله... سوف... سوف أؤمن.

لم تختلج عضلة واحدة في وجه ستافروجين. وكان شاتوف يتحداه بنظرته الحارة العنيفة. وهتف أخيراً يقول:

ـ أنا لم أزعم على كل حال أنني لا أؤمن بالله. ولكنني أريد أن أُفهمك أنني لست إلّا كاتباً حزيناً مملاً، لا أكثر من ذلك، ولكن مؤقتاً فقط، مؤقتاً! على كل حال، فليهلك اسمى! إنما الأمر أمرك أنت لا أمري أنا. أنا لا أملك أية موهبة، ولا أستطيع أن أقدم إلّا دمي لا شيء غير ذلك، كأي شخص عادي تافه. أنا أهب دمي. غير أنني أعلم عنك أنت. لقد انتظرتك سنتين. ومن أجلك إنما أرقص هنا منذ نصف ساعة عارياً كل العري. إنك الإنسان الوحيد، نعم، الوحيد الذي يستطيع أن يرفع هذه الراية...

وانقطع عن الكلام، وأسند كوعيه إلى المائدة، وأخفى رأسه في يديه كمن اعتراه يأس شديد.

ـ إنني ألاحظ، وهذا أمر عجيب حقاً، أن الجميع يريدون أن يضعوا بين يديَّ لا أدري أية راية. بطرس فرخوفنسكي، هو أيضاً، مقتنع بأنني أستطيع

أن "أرفع رايتهم". هذا ما نُمي إليَّ على الأقل. في ذهنه أنني أستطيع أن أقوم بدور كدور ستنكا رازين[1]، بفضل ما أتمتع به من "قدرة خارقة على الجريمة". تلك أقواله بنصها.

ـ ماذا؟ بفضل قدرتك الخارقة على الجريمة؟

ـ نعم.

ـ همْ...

كذلك همهم شاتوف. ثم سأل وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:

ـ هل صحيح أنك انتسبت في بطرسبرج إلى جمعية سرية كانت تسترسل في دعارة حيوانية؟ هل صحيح أنك ربما كنت تتفوق على المركيز دي ساد؟ هل صحيح أنك كنت تجتذب إلى بيتك الأطفال لتدنِّسهم؟ تكلم! لا تكذب!

كذلك صاح شاتوف مهتاجاً. وأردف يقول:

ـ إن نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين لا يمكن أن يكذب أمام شاتوف الذي صفعه على وجهه قل كل شيء، فإذا صدق هذا كله، قتلتك على الفور، في الحال.

نطق ستافروجين بعد صمت طويل فقال:

ـ تكلمت عن هذه الأشياء. لكنني لم أدنِّس أطفالاً.

واصفر وجهه، والتمعت عيناه.

فتابع شاتوف كلامه ولكن دون أن يحوِّل عنه نظرته المشتعلة:

ـ لكنك تكلمت عن هذا، أليس كذلك؟ أحد صحيح أنك زعمت أنك لا ترى أي فرق بين دناءة شهوانية حيوانية وبين عمل عظيم كتضحية المرء بنفسه في سبيل الإنسانية؟ أصحيح أنك تجد في هذين الضدين لذة واحدة وأنك تكتشف فيهما جمالاً واحداً؟

دمدم ستافروجين يقول، وكان يمكنه أن ينهض وينصرف، لكنه ظل جالساً ولم يمض، دمدم يقول:

---

(1) "ستنكا رازين": زعيم عصبة قوقازية أثار الفلاحين في شرق روسيا وجنوبها من سنة 1667 إلى سنة 1671، وفي سنة 1671 خانه أنصاره فأعدم.

ـ تستحيل الإجابة عن أسئلة كهذه الأسئلة... لا أريد أن أجيب.

تابع شاتوف كلامه يقول مرتعشاً ارتعاشاً شديداً.

ـ أنا أيضاً لا أدري لماذا أرى الشر دميماً، وأرى الخير جميلاً، ولكنني أعلم كيف يمَّحي الإحساس بهذا الفرق ويزول لدى أمثال ستافروجين. هل تعرف لماذا تزوجت هذا الزواج السخيف الحقير؟ إنك إنما فعلت ذلك لأن العار والسخافة تمضيان هنا إلى حد العبقرية! لا، إنك لا تحوم حول ضفاف الهوة، بل تلقي نفسك فيها بجسارة منكَّس الرأس. إنك تزوجت حباً بالألم، وميلاً إلى عذاب الضمير، واحتياجاً إلى مباهج روحية. إن في عملك هذا نوعاً من الغيظ العصبي. إن تحديك هذا للحسّ العام قد أغراك إغراءً لم تستطع مغالبته ومقاومته. ستافروجين والمتسولة العرجاء المسكينة التي هي نصف بلهاء! حين عضضت أُذن الحاكم، ألم تشعر بإحساس لذيذ؟ ألم تعان ذلك الإحساس، أيها الأرستقراطي العاطل الخالي؟

قال ستافروجين وقد ازداد اصفرار وجهه شيئاً بعد شيء:

ـ إنك عالم بالنفس الإنسانية. ومع ذلك فقد أخطأت قليلاً في شرح أسباب زواجي...

ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة يُكره عليها نفسه إكراها:

ـ ولكن من أمدَّك بهذه المعلومات؟ أتُراه كيريلوف؟... غير أنه لم يشارك...

قال شاتوف: ـ أيصفرّ لونك؟

فإذا ستافروجين يرفع صوته فجأة:

ـ ولكن ماذا تريد أخيراً؟ إنني هنا أحتمل ضربات سوطك منذ نصف ساعة... إن في وسعك على الأقل أن تدعني أنصرف، بلطف وأدب، اللهم إلّا أن يكون هناك دافع معقول يحضّك على هذا الأسلوب في المعاملة؟

ـ دافع معقول؟

ـ حتماً. إن من واجبك أن تشرح لي هدفك على الأقل. انتظرت أن تشرح

لي هذا الهدف. لكنني لم أجد فيك إلّا غيظاً مسعوراً وكرهاً شديداً. أرجوك، افتح لي بوابة المنزل.

ونهض. فهجم عليه شاتوف بوحشية، وصاح يقول له وهو يمسكه من كتفه:

ـ قبِّل الأرض[1]. اروِها بدموعك. استغفرها.

قال ستافروجين خافض العينين، بلهجة توشك أن يخالطها ألم:

ـ أنا لم أقتلك مع هذا، في ذلك اليوم... بل عقدت ذراعيَّ وراء ظهري.

ـ أكمل كلامك، قل ما يجول في خاطرك ويعتمل في نفسك. لقد جئت تنبهني إلى خطر يحدق بي، وتركتني أتكلم... وغداً تعلن زواجك!... ألا أرى في وجهك أنك فريسة فكرة جديدة، فكرة رهيبة تقاومها! ستافروجين، لماذا حُكم عليَّ أن أؤمن بك دائماً؟ هل كان يمكنني أن أتكلم بهذه الطريقة مع إنسان آخر؟ إنني أشعر بحياء من عواطفي، ومع ذلك لم أخجل من عريي أمامك، لأنني كنت أكلم ستافروجين. لم أخشَ أن أحيل فكرة عظيمة إلى ثورة سخيفة بلمسها، وذلك لأن ستافروجين هو الذي كان يصغي إليَّ!... ألن أقبّل موطىء أقدامك حين ستخرج؟ إنني لا أستطيع أن أنتزعك من قلبي يا نيقولاي ستافروجين!

قال نيقولاي فسيفولودوفتش ببرود:

ـ أمَّا أنا فيؤسفني أنني لا أستطيع أن أحبك يا شاتوف.

ـ أعلم ذلك. أعلم أنك لا تكذب في هذا الذي تقوله. اسمع: ما يزال في وسعي أن أدبِّر كل شيء: سأمدك بالأرنب.

لزم ستافروجين الصمت.

قال شاتوف: ـ أنت ملحد، لأنك أرستقراطي، لأنك سيد. لقد أصبحت لا تستطيع أن تميز الخير من الشر، لأنك أصبحت لا تفهم شعبك... لكن جيلاً جديداً يسير، يخرج من قلب الشعب، ولن تتعرفه أبداً، لا أنت ولا أمثال

---

(1) يعد الشعب الروسي الأرض أمّاً. وفي رواية "الجريمة والعقاب" نرى صوفيا تنصح راسكولنيكوف بتقبيل الأرض تعبيراً عن التوبة والتكفير.

فرخوفنسكي، الأب أو ابنه، ولا أنا، لأنني أنا أيضاً سيد، نعم أنا، ابن قنّك، ابن خادمك باشكا[1]. اسمع! توصل إلى الله بالعمل: هذا سر الأمر كله. فإن لم تفعل زلت كما تزول الطفيليات. توصل إلى الله بالعمل. احصل على الله بالعمل!

ـ بالعمل؟ أي عمل؟

ـ بعمل الفلاح. امض. اترك ثرواتك... آه... إنك تضحك، إنك تخشى أن يستسخفك الناس؟

ولكن ستافروجين لم يكن يضحك. وعاد يقول بعد لحظة تفكير كأنما هو قد سمع قولاً جديداً هاماً يستحق الدرس:

ـ أتعتقد أن الحصول على الله ممكن بعمل الفلاح؟

ثم أضاف يقول منتقلاً إلى موضوع آخر على حين فجأة:

ـ بالمناسبة: هل تعلم أنني لم أعد غنياً، وأنني لا أملك ثروة كبيرة فأهجرها؟ إنني لا أكاد أملك ما يمكنني من تأمين مستقبل ماريا تيموفيئفنا... ولكن ها أنذا أوشكت أن أنسى ما جئت إليك من أجله: لقد جئت إليك لأغراض منها أن أوصيك خيراً بماريا تيموفيئفنا وأن أسألك الاستمرار في العناية بها واليقظة عليها إذا أمكنك ذلك، لأنك الشخص الوحيد الذي له شيء من تأثير في عقلها المسكين... أقول هذا احتياطاً لكل طارئ.

قال شاتوف بلهجة من نفد صبره، وهو ممسك شمعة:

ـ طيب طيب. سأفعل. طبعاً. اسمع. حاول أن تزور تيخون.

ـ من؟

ـ تيخون. أسقف قديم أحيل إلى التقاعد بسبب اعتلال صحته. إنه يقيم هنا في دير القديس أوتيم.

ـ وعلام أزوره؟

ـ هكذا. إنه يستقبل الكثير من الناس. اذهب إليه. لن تخسر شيئاً اذهب إليه.

---

(1) تصغير اسم بافل على سبيل التحقير.

ـ لم أسمع عنه أبداً، ولا رأيت في حياتي شخصاً من هذا النوع من الناس. أشكرك. سأذهب.

قال شاتوف وهو يضيء السلّم: ـ من هنا.

حتى إذا وصل إلى تحت، فتح بوابة المنزل.

دمدم ستافروجين يقول وهو يجتاز العتبة:

ـ لن أجيء إليك بعد الآن ياشاتوف.

وكان الليل ما يزال حالكاً، وكانت السماء ما تزال ممطرة.

الفصل الثاني

الليل

(تتمة)

1

سَـلكَ شارع ابيفانيا كله، ثم هبط منحدراً قوياً، فكانت قدماه تغوصان في الوحل. وفجأة لمح مكاناً فسيحاً خالياً لونه أشهب: إنه النهر. هنا لا عمارات بل أكواب حقيرة تتعرج بينها شوارع صغيرة وطرق مسدودة.

سـار نيقولاي فسيفولودوفتش بمحاذاة الأسيجة ولكن دون أن يبتعد عن الضفـة. كان يبـدو واثقـاً من الطريـق، بل كان لا يلـوح عليه أنه ينتبـه إليه أي انتباه. إن أفكاراً أخرى وهموماً أخرى تملأ رأسـه وتشـغل باله. فما كان أشد دهشته حين نظر حواليه فرأى، وقد خرج من تأمله فجأة، أنه في وسط جسرنا الطويـل المبتل المكوَّن من مراكب. ما من إنسـان في ذلـك المكان. ولذلك شُـده حين سـمع صوتاً يناديه من قرب، صوتاً أليفاً لطيفاً من تلك الأصوات المتعاذبة المترققة التي يصطنعها الشبان الذين يعملون في محالّ تجارية وقد جمَّلوا شعرهم بتجعيده.

ـ ألا تسمح لي يا سيدي أن أنتفع بمظلتك؟

قال الشخص ذلك واندس فعلاً أو همَّ أن يندس تحت المظلة، وسار إلى جانبه ملاصقاً بكوعه كوعَه تقريباً. فأبطأ نيقولاي فسـيفولودوفتش في خطوه ومـال علـى الرجل لينعـم النظر إليه والتفـرس فيه، بقدر ما يسـمح له الظلام

بذلك. إنه متوسط طول القامة، رث الثياب فيما يبدو، أشبه بعامل ثمل قليلاً. إن قبعة من الجوخ، منزوعة الحافة إلى النصف تقريباً، تغطي شعره القصير الأجعد الذي لا بد أنه أنه أكحل اللون. وهو نحيل أسمر الوجه، ولا شك أن عينيه سوداوان جداً، ساطعتان جداً، مصطبغتان بصفرة كأعين الغجر. إن المرء يحزر ذلك رغم الظلام الدامس. ولعله في الأربعين من العمر. ولم يكن سكراناً.

سأله نيقولاي فسيفولودوفتش:

ـ أتعرفني؟

فأجاب الرجل:

ـ السيد ستافروجين، نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين. لقد دُللت عليك، يوم الأحد الأخير، منذ وقف القطار. ثم إننا قد سبق أن سمعنا عنك.

ـ دلَّك عليَّ بطرس ستيفانوفتش؟ أأنت... أأنت فدكا السجين؟

ـ اسمنا الذي سمُّونا به في التعميد هو فيدوروفتش[1]. وما تزال أمنا حية، تقيم في هذه المنطقة. عجوز طيبة من خلق الله، لن تلبث أن توارى التراب، وهي ما تنفك تصلي لله من أجلنا في االليل والنهار، حتى تكون شيخوختها نافعة.

ـ وقد فررت من السجن؟

ـ... غيرت مهنتي في الحياة... فتخلصت من أثقالهم كلها.. ذلك أنني كنت محكوماً بالسجن إلى آخر الحياة. رأيت المدة طويلة جداً.

ـ ماذا تصنع هنا؟

ـ لا شيء يستحق الذكر. الأيام تنقضي سريعة. مات عمنا هنا في الأسبوع الأخير في السجن. للأمر علاقة بتزييف نقود. فأحييت ذكراه بأن رميت الكلاب ببضع عشرات من الحجارة. ذلك كل ما فعلناه حتى الآن. لكن بطرس ستيفانوفتش قد وعدني بأن أحصل على جواز سفر، بل على جواز

(1) يتحدث أبناء الشعب عن أنفسهم أحياناً بصيغة الجمع من باب التأدب.

سفر تاجر، كيما أستطيع أن أتجول في روسيا كلها، فأنا أنتظر أن يمنَّ عليَّ بتحقيق وعده. هو يقول: "إن أبي قد ضاع منك ثلاثة روبلات أثناء لعبك بالورق بالنادي الإنجليزي، وأنا أرى هذا عملاً ظالماً، عملاً غير إنساني "[1] هلاَّ تفضلت يا سيدي فأعطيتني ثلاثة روبلات فأشرب كأساً فأتدفأ.

ـ إذن كنت ترقب مروري! أنا لا أحب هذا... مَنْ أمرك به؟

ـ لم يأمرني أحد. لكنني أعرف عواطفك الطيبة. جميع الناس يتكلمون عن ذلك. أنت نفسك تعرف ما مواردنا نحن: حزمة علف أو ضربة شوكة في الكليتين. يوم الجمعة أكلت فطائر حتى أُتخمت، وبعد ذلك بقيت يوماً بغير طعام، وفي اليوم التالي انتظرت، وفي اليوم الثالث شددت على بطني الحزام. غير أن النهر فيه ماء كثير، لذلك أربِّي أسماكاً... هذا كل شيء! أملي كله معقود إذن عليك. عرَّابتي تنتظر هنا. ولكن لا فائدة من المثول أمامها بغير شيء من المال.

ـ بماذا وعدك بطرس ستيفانوفتش مني؟

ـ الحق أنه لم يعدني بشيء، لكنه قال لي مصادفة أنني قد أستطيع أن أنفع سيادتك، إذا واتت الظروف. أمَّا عن هذه الظروف فإنه لم يتحدث حديثاً واضحاً. إن بطرس ستيفانوفتش يريد أن يمتحن صبري. إنه لا يوليني أية ثقة.

ـ لماذا؟

ـ بطرس ستيفانوفتش منجِّم. يعرف جميع كواكب ربنا. ومع ذلك فإنه هو أيضاً غير خالص من العيوب. أنا هنا أمامك كأنني أمام العلي الأعلى، لأن سمعتك تجري في الشوارع. إن بطرس ستيفانوفتش هو بطرس ستيفانوفتش، أمَّا أنت يا سيدي ففي رأيي أنك شيء آخر. هو، إذا قال عن شخص إنه وغد، فقد قال كل شيء، ولا يحبّ أن يعرف شيئاً آخر عنه. وإذا قال عن شخص إنه أبله فقد انتهى الأمر، فليس هذا الشخص في نظره إلّا أبله، على حين أن من الممكن، فيما يتعلق بي أنا أن أكون في أيام الثلاثاء وأيام الأربعاء أبلهاً،

---

(1) في عهد القنانة كان يجوز بيع الخدم عبيداً أو التنازل عن امتلاكهم سداداً لدين.

ثـم أكـون في أيـام الخميس والجمعة ذكيـاً، بل أن أكون أذكى منـه. هو يعلم الآن أنني أحترق رغبةً في الحصول على جواز سفر ـ لأن المرء في روسيا لا يسـتطيع أن يسير خطوة بغير جواز سفر ـ لذلك فهو يتخيل أنه وضع يده على روحي. أقول لك يا سـيدي إنه من السـهل عليه جداً أن يعيش في هذا العالـم، لأنه يرى الناس على نحو ما يتخيلهم، فبين أولئك الناس الذين تخيلهم تخيلاً إنمـا يعيش. ثـم إنه بخيل بخلاً فاحشـاً. هو يتصور أنني لـن أجرؤ أن أتعرف لـك فأزعجك هذا الازعاج إلّا بأذن منه. ولكنني أقول لك صادقاً كمن يقول لله نفسـه: هذه هي الليلة الرابعة التي أنتظرك فيها على هذا الجسـر، لأبرهن على أنني أسـتطيع الاستغناء عنه، وأن أجد طريقي وحدي. قلت لنفسي: لئن أنحني أمام الحذاء الجديد خير من أن أنحني أمام الخف المهترئ.

ـ فمن قال لك أنني سأعبر الجسر ليلاً؟

ـ أعتـرف أنني عرفت هـذا مصادفةً، أو قل بفضل غباوة الكابتن لبيادكين، ذلـك أنـه عاجز إطلاقاً عن كتمان سـر.. والروبلات الثلاثـة التي أطلبها إنما هـي أجـر انتظاري هنا ثلاثـة أيام وثلاث ليالٍ، إنما هي ثـواب ما تحملت من عناء. أمَّا ثيابي المبتلة فلن نتكلم عنها حتى لا أسيء إليك.

ـ أتجه أنا يسـرةً، وتتجه أنت يمنة. هنا نحن قد بلغنا آخر الجسـر و اسـمع يـا فيدور، إنني أحب أن أُفهم منذ الكلمة الأولـى مرةً إلى الأبد: لن تنال مني كوبـكاً واحداً. ولسـت في حاجة إليك، ولن أكون فـي حاجة إليك يوماً، ولا تعترض طريقي، لا على هذا الجسر ولا في أي مكان آخر. فإذا عصيت أمري هذا أوثقتك، وقدتك إلى الشرطة.

ـ ولكـن عليـك أن تعطينـي شـيئاً، على الأقـل لأنني رافقتـك. إن صحبة الطريق أمتع رغم كل شيء...

ـ امض!

ـ ولكن هل تعرف الطريق؟ هنا شـوارع صغيرة!... في وسـعي أن أكون دليـلاً لك. ذلك أن هذه المدينة تشـبه أن يكون الشـيطان قد حملها في سـلة مثقوبة، فتناثرت على الدرب تناثراً هنا وهناك...

ـ حذار!

ـ لاحظ يا سيدي أنني يتيم لا يملك ما يدافع به عن نفسه.

ـ بل أنت واثق بنفسك ثقة كبيرة.

ـ لا ياسيدي، لست واثقاً بنفسي إلى هذه الدرجة. إنما أنا واثق بك أنت.

ـ قلت لك إنني لست في حاجة إليك.

ـ ولكنني أنا في حاجة إليك. هذه هي المسألة. سأنتظرك في عودتك، مهما يحدث!..

ـ يميناً لأوثقنك إذا وجدتك هنا.

ـ إذن سأمضي أهيء لك حبلاً توثقني به. أتمنى لك رحلة موفقة يا سيدي، فقد ارتضيتَ على الأقل أن تحمي من المطر بمظلتك يتيماً مسكيناً. وحسبي هذا حتى أظل شاكراً لك صنيعك إلى أن أوارى في القبر.

قال الرجل هذا وغاب في الظلام. وتابع نيقولاي فسيفولودوفتش طريقه مهموماً أشد الهم. إن هذا المخلوق الذي هبط عليه من السماء مقتنع اقتناعاً تاماً بأن نيقولاي محتاج إليه، وأنه لن يستطيع الاستغناء عنه، حتى لقد أعلن له ذلك بغير حياء. ولكن من الجائز أيضاً أن يكون هذا المتشرد كاذب، وأنه عرض عليه خدماته بمبادرة منه هو، بدون علم بطرس ستيفانوفتش. فإذا صحَّ هذا فإن وضعه يكون أدعى إلي المزيد من الاستغراب.

2

إن البيت الذي كان نيقولاي فسيفولودوفتش ذاهباً إليه يقع في آخر طرف المدينة، في طريق مسدودة مقفرة بين سياجين تمتد وراءهما بساتين خضار. إنه بيت صغير منعزل خشبي قد بُني منذ برهة وجيزة، فجدرانه المكوَّنة من حطبات مدوَّرة لم تُكسَ بعدُ بألواح.

لقد تُرِكَ مصراعا إحدى النوافذ مفتوحاً عن عمد، وأُشعلت في الداخل شمعة قُصد منها أن تكون منارة يستهديها الزائر المتأخر المنتظَر قدومه في تلك الليلة.

وكان ستافروجين ما يزال على مسافة نحو ثلاثين خطوة من المسكن الصغير حين لاح له على درجات المدخل رجل طويل القامة، لعله رب البيت يرتقب وصول الزائر.

قال الرجل بصوت يدل على نفاد الصبر وعلى الخشية معاً: ـ أهذا أنت؟

فأجابه نيقولاي فسيفولودوفتش حين وصل إلى درجات المدخل وطوى مظلته: ـ نعم، أنا!

فقال الكابتن لبيادكين (فهو الذي كان ينظر على الباب): ـ أخيراً!

ثم أضاف يقول بصوت فرح متعجل:

ـ هات المظلة، من فضلك! يا له من جو فظيع! سأفتح المظله هنا في ركن. ادخل، أرجوك، ادخل!...

وكان باب الغرفة التي تضيئها شمعتان مفتوحاً على مداه كله.

قال لبيادكين:

ـ لولا أنك وعدتني وعداً قاطعاً بأن تزورنا اليوم لكففت عن انتظارك.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش وهو ينظر في ساعته:

ـ هي الساعة الواحدة إلّا ربعاً.

ودخل الغرفة.

قال لبيادكين:

ـ وفوق ذلك، هذا المطر الغزير! والمسافة بعيدة جداً. ليس عندي ساعة. ولسنا نرى من نوافذنا إلّا مزارع الخضار هذه... فلا نعلم بما يحدث ولا نعرف ماذا يجري. لا أقول هذا من باب التشكي، فأنا لا أبيح لنفسي، لا أبيح لنفسي... ولكنني أقوله لسبب واحد هو أن نفاد الصبر يأكلني أكلاً منذ أسبوع كامل... أريد أخيراً أن أعرف...

ـ ماذا تريد أن تعرف؟

ـ أريد أن أعرف مصيري يا نيقولاي فسيفولودوفتش، اجلس، أرجوك.

قال لبيادكين ذلك وانحنى أمام زائره مشيراً له إلى مكان على الديوان وراء المائدة.

نظر نيقولاي فسيفولودوفتش حواليه. الغرفة صغيرة واطئ سقفها، لا تضم من الأثاث إلّا ما لاغنى عنه: ديواناً وكراسي من خشب عارٍ بغير وسائد، ومائدتين من خشب الزيزفون قد وُضعت إحداهما أمام الكنبة وُوضعت الأخرى في ركن. وهذه المائدة الأخيرة تتراكم فوقها أشياء شتى قد غُطيِّت بمنشفة نظيفة. ثم أن الغرفة كلها تبدو معتنى بها. إن الكابتن لبيادكين لم يسكر منذ ثمانية أيام. وقد اصطبغ وجهه المحتقن بلون ضارب إلى الصفرة. وهو يلقي على ستافروجين نظرات مستطلعة قلقة حيرى، وكان واضحاً أنه لا يدري بأيِّ لهجة يتكلم ولا يعرف ما هو الوضع الذي يمكن أن يفيده أكثر من غيره.

قال وهو يشير إلى الأشياء التي تحيط به:

ـ هكذا أعيش كما يعيش زوسيما[1]. زهد، وعزلة، وفقر، وفق الأمنيات الثلاث التي كان يتغنى بها الفرسان القدامى.

ـ هل تعتقد أن الفرسان القدامى كانوا يتغنون بأمنيات من هذا النوع؟

ـ لعل الأمور قد اختلطت عليَّ. واحزناه! إنني امرؤ تعوزه الثقافة. لقد أفسدت على نفسي كل شيء. هل تصدق يا نيقولاي فسيفولودوفتش؟ هنا إنما تخلصت لأول مرة من أهوائي المشينة وعيوبي المخجلة! لا كأس، بل ولا قطرة! أخيراً صار لي ركن، وأصبحت منذ ستة أيام أحس بالأفراح والمباهج التي يحس بها قلب نقي طاهر. الجدران نفسها يفوح منها شذى أشجار الصنوبر وتذكرني بالطبيعة. ماذا كنتُ حتى الآن؟ و ماذا كان وضعي؟

في الليل بلا مأوى أعدو
ولساني متدل طول النهار[2]

على حد التعبير العبقري الذي جرى به لسان الشاعر... ولكن.. ولكنك

---

(1) زوسيما هو اسم الراهب الذي أنشأ دير زولوفكي في الجزر المقفرة الخالية بالبحر الأبيض في القرن الخامس عشر.

(2) يروي لبيادكين هنا بيتين من قصيدة للأمير ب.آ. فيازمسكي، وهما في سياقهما لهما معنى مختلف كل الاختلاف، فالأمر هنالك أمر عربة ترويكا على الطرق الروسية.

مبتل تماماً... ألا تريد فنجاناً من الشاي؟

ـ لا تزعج نفسك.

ـ كان السماور يغلي ماؤه منذ ثماني ساعات ... ولكنه انطفأ... كجميع الأشياء في هذا العالم. يقال إن الشمس ستنطفئ هي أيضاً ذات يوم... على كل حال، سأدبِّر الأمر إذا لزم. إن آجافيا لم تنم.

ـ قل لي: هل ماريا تيموفيئفنا...

فأسرع لبيادكين يجيبه بصوت خافت:

ـ هي هنا. هي هنا. هل تريد أن تلقى نظرة؟

وأشار إلى الباب المغلق الذي يؤدي إلى الغرفة المجاورة.

ـ أهي نائمة؟

ـ لا، لا، ما هذا الذي تقول؟ إنها تنتظرك منذ غروب الشمس. وهي منذ علمت بالنبأ عُنيت بزينتها واهتمت بمظهرها.

وهمَّ لبيادكين أن يبتسم، ولكنه أمسك.

سأله ستافروجين مقطباً حاجبيه:

ـ كيف حالها على وجه الإجمال؟

ـ على وجه الإجمال؟ تعرف أنت نفسك...

ورفع منكبيه واصطنع مظهر من اعترته شفقة، وأضاف:

ـ هي الآن تسحب أوراقاً من أوراق اللعب...

ـ طيب. سوف نرى هذا فيما بعد. يجب أولاً أن نفرغ منك أنت.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش ذلك وجلس على كرسي.

ولم يجرؤ الكابتن أن يجلس على الديوان فجلس على كرسي آخر وانحنى إلى أمام ليحسن الإصغاء، قلقاً مهتماً أشد الاهتمام بما سيقوله له نيقولاي فسيفولودوفتش..

قال نيقولاي فسيفولودوفتش وهو يلقي نظرة على المائدة:

ـ ماذا يوجد هناك تحت المنشفة؟

فالتفت لبيادكين إلى وراء بحركة قوية وقال:

ـ هـذا؟ هـذا كله مـن خيراتك وهباتـك. للاحتفـال بإقامتنا هنـا. ثم إنني قدَّرت أن الطريق طويل وأنك ستصل منهك القوة حتماً...

قال ذلك وهو يبتسـم متحننـاً مترفقاً. ثم نهض واتجه نحو المائدة سـائراً علـى رؤوس الأصابـع ورفع المنشـقة باحتـرام واحتياط. كان علـى المائدة عشـاء بـارد كامل: شـرائح مـن لحـم الخنزير، ومـن لحم العجل، وأسـماك سـردين، وجبـن، وإبريق أخضر، وقنينـة طويلة العنق لا شـك أنها من خمرة بوردو. وكان ذلك كله حسن التنسيق يدل على أن يدا خبيرة قد أعدَّته.

ـ أأنت الذي هيأت هذا كله؟

ـ بنفسـي. كان كل شيء جاهزاً منذ أمس. أردت أن أحتفي بك أنت. أنت تعلـم أن ماريا تيموفيئفنا لا تكترث بهذه الأمور. ولكن الشـيء الرئيسـي هو أننـي نلـت ذلك كله من فضلـك وكرمك. ذلك كله منك أنـت. أنت هنا رب الـدار، أمَّا أنا فلسـت على وجه الإجمـال إلّا أجيراً لك بمعنـى من المعاني، ذلك أنني يا نيقولاي فسيفولودوفتش احتفظ باستقلال الروس الروحي رغم كل شيء، رغم كل شيء. فلا تحرمني من هذه النعمة الأخيرة!

كذلك ختم الكابتن لبيادكين كلامه متحمساً.

قال ستافروجين:

ـ همْ... ولكن هلاَّ عدت تجلس!..

ـ إنني أحمل لك أعظم الامتنان، و لكنني احتفظ باستقلالي!

وعاد يجلس متابعاً كلامه بقوله:

ـ آه يـا نيقولاي فسـيفولودوفتش! ما أكثر الأشـياء التـي تراكمت في هذا القلب!... لقد أُرهقت من انتظارك. سوف تقرر مصيري الآن ومصير... هذه المسـكينة الشـقية، ثم بعد ذلك... بعد ذلك... كما كنت أفعل في الماضي، سأسـكب أمامك كل ما يفيض به قلبي، كما كنت أفعل منذ أربع سـنين. ذلك أنني كنت تتنازل فترضى أن تصغي إليَّ حينذاك، وكنت تقرأ أشعاري... ماذا يهمني أنني لُـقبت بلقب فالسـتاف! لقد لعبت فـي حياتي دوراً كبيراً!... وأنا أشـعر اليوم بمخاوف كبيرة، ومنك وحدك إنما أنتظر الغوث والنجدة، لأنك

أنت ضيائي. إن بطرس ستيفانوفتش يعاملني بقسوة بالغة.

كان نيقولاي فسيفولودوفتش يصغي إليه باهتمام، محدقاً إليه بنظرة ثابتة متنبهة... ورغم أن الكابتن كان قد انقطع عن السكر، فإنه لم يكن قد استرد انسجامه النفسي وتوازنه الروحي. إن المدمنين على الشراب ينتهي بهم الأمر في العادة إلى أن يصبحوا لا يستطيعون الخروج عن حالة الاضطراب والتشوش التي تتاخم الجنون، ولكنها لا تمنعهم من أن يخدعوا ويضللوا ويمكروا كغيرهم سواء بسواء، إذا اقتضى الحال.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش بلهجة أصبحت أرق:

ـ أرى يا كابتن أنك لم تتغير أي تغير منذ أربع سنين. صدق الذين زعموا إذن أن النصف الثاني من عمر الإنسان إنما تحدِّده العادات التي يكون قد اكتسبها خلال النصف الأول.

هتف الكابتن يقول بحماسة كلها تظاهر، لأنه كان من المولعين بالعبارات الجميلة:

ـ أقوال رائعة! حُلَّ لغزُ الحياة! من أحاديثك كلها يا نيقولاي فسيفولودوفتش ما أزال أحتفظ خاصةً بتلك الجملة التي نطقت بها في بطرسبرج: "لا بد أن يكون الإنسان عظيماً كل العظمة حقاً حتى يستطيع أن يقاوم العقل".

ـ أو أن يكون أحمق كل الحماقة.

ـ ممكن، إذا شئت. إنك لم تنقطع يوماً عن نثر مثل هذه الومضات الفكرية الحلوة، أمَّا هم... فليحاول ليبوتين أو بطرس ستيفانوفتش معي!

ـ ولكن كيف كان سلوكك أنت يا كابتن؟

ـ كان الذنب في ذلك ذنب السكر وكثرة الأعداء. أمَّا الآن فقد انتهى هذا كله، وسوف أغيِّر نفسي كما تغير الحية جلدها. هل تعلم يا نيقولاي فسيفولودوفتش أنني أكتب وصيتي، بل إنني كتبتها؟

ـ هذا شائق جداً. ماذا تورث، ومَنْ تورث؟

ـ أورث وطني، أورث الإنسانية، أورث الطلبة. نيقولاي فسيفولودوفتش،

لقد قرأت في الصحف قصة حياة أمريكي. لقد أوصى بثروته لطلبة الأكاديمية بالمنطقة، وأوصى بأن يُجعل جلده طبول يُقرع عليه النشيد الأمريكي ليلاً نهاراً. وا أسفاه! ما نحن إلّا أقزام معتوهون بالقياس إلى الأمريكيين، وبالقياس إلى جسارة تفكيرهم. إن روسيا طبيعة لا فكر. فلو حاولت أن أوصي بجلدي ليُصنع منه طبلٌ يُهدى إلى جيش أخمولنسك[1] الذي شرفت بالخدمة فيه أول أمري، من أجل أن يُعزف عليه النشيد الوطني الروسي أمام الجنود مجتمعين، لاتُّهمت بالليبرالية، ولصودر جلدي... لذلك اكتفيت بأن أورث الطلبة. أريد أن أوصي بعظامي لأكاديمية العلوم، ولكن على شرط أن يلصق فوق جمجمتي وريقة تكتب عليها هذه العبارة: "جمجمة ملحد تاب وأناب".

كان الكابتن قد انتعش وتحمس. إن فكرة المليونير الأمريكي قد بثت فيه حماسة صادقة. ولكن لما كان من جهة أخرى ماكراً فقد أراد كذلك أن يُضحك ستافروجين الذي طالما قام لديه بدور المهرِّج. غير أن نيقولاي فسيفولودوفتش لم يبتسم. بالعكس: ها هو ذا يسأل مشتبهاً مرتاباً:

ـ أتنوي إذن أن تنشر وصيتك أثناء حياتك فتنال مكافأة؟

ـ هب هذا يا نيقولاي فسفولودوفتش! ماذا لو كانت هذه هي نيتي فعلاً؟

كذلك سأل لبيادكين متروياً محاذراً، وأضاف يقول:

ـ انظر إلى أين وصلت الآن! لقد انقطعت حتى عن نظم الشعر. وكنتَ أنت مع ذلك تجد متعة في قراءة قصائدي الصغيرة يا نيقولاي فسيفولودوفتش بينما أنت تُفرغ زجاجة من خمرة طيبة... هل تتذكر؟ لكنني هجرت قلمي. لم أكتب بعد ذلك إلّا قصيدة واحدة، شيئاً من نوع "القصة الأخيرة" التي كتبها جوجول وفيها يعلن لروسيا أنه قد انتزع هذا العمل من صدره[2] أنا أيضاً

---

(1) أخمولنسك مدينة صغيرة في سيبريا الغربية.

(2) يتحدث جوجول في وصيته (راجع الفصل الأول من رسائله إلى أصدقائه"، 1847) عن "قصة وداعه" يصفها بأنها أغنية نابعة من القلب، ويجب أن لا تنشر إلّا بعد موته. ولكن أحداً لم ير هذه القصة يوماً، وأغلب الظن أنها لم تكتب أبداً.

نظمت أغنيتي الأخيرة. انتهى!

ـ ما هذه القصيدة؟

ـ عنوانها: "إذا كُسرت ساقها".

ـ كيف؟

لم يكن الكابتن ينتظر إلّا أن يلقى عليه هذا السؤال. كان يقدر أشعاره قدراً كبيراً. لكنه بحكم ازدواج نفسه كان يسعده كذلك أن يُضحك ستافروجين الذي كان في الماضي يضحك إلى حد التلوي أثناء الاستماع إليه. فبذلك كان كلا الشاعر والمهرِّج يجدان ضالتهما. على أن الكابتن كان في هذه المرة يرمي إلى هدف آخر، هدف دقيق حرج: كان يريد من إنشاد أشعاره أن يبرئ نفسه في أمر كان يخشاه كثيراً، وكان يشعر فيه بأنه مذنب آثم.

ـ "إذا كُسرت ساقها"، أي أثناء ركوبها الخيل. ما هذا إلّا نزوة خيال يا نيقولاي فسيفولودوفتش، ما هو إلّا حلم، لكنه حلم شاعر: في ذات يوم، صادفت في الشارع سيدة تلبس ثوب الآمازون الذي تلبسه الفاراسات، فخطف منظرها بصري، فألقيت على نفسي عندئذ هذا السؤال: "ماذا يحدث إذا... " أي إذا... إن الجواب واضح. سيتراجع جميع المعجبين، جميع المولَّهين بها، الطامحين إليها... صباح الخير، مساء الخير. ولا يبقى إلّا الشاعر". يا نيقولاي فسيفولودوفتش، إن الحب مباح، حتى لأحقر حقير، حتى لقمل... ما من قانون يستطيع أن يمنع ذكَر القمل أن يحب. ومع ذلك انزعجت السيدة من رسالتي وأشعاري، ويظهر أنك أنت أيضاً قد غضبت. فإذا صدق هذا فهو أمر مؤسف جداً. حتى لقد رفضتُ أن أصدِّقه. من ذا الذي يمكن أن تُلحق به أخيلتي أذى؟ ثم إنني أحلف لك أن الذنب في هذا ذنب ليبوتين: لقد ظل يلح عليَّ قائلاً: "اكتب إليها، اكتب إليها، كل إنسان يحق له أن يكتب رسائل.". وهكذا أرسلت إليها أشعاري.

ـ بل أعتقد أنك طمحت إلى تالزواج منها، أليس هذا صحيحاً؟

ـ هذه تخرّصات أعدائي. إنني محاط بأعداء لا حصر لهم.

قاطعه ستافروجين قائلاً بخشونة:

ـ اقرأ أشعارك.

فقال لبيادكين:

ـ ما هي إلّا حلم، إلّا نزوة خيال، لا أكثر من ذلك...

ومع ذلك نصب جذعه، ورفع يده، وأخذ ينشد:

حلوة الحلوات فقدت ساقاً

فإذا هي أحلى مرتين

وإذا الذي كان يحبها كثيراً

أصبح مولهاً بها ضعفين.

قال ستافروجين وهو يحرك يده بإشارة نفاد الصبر:

ـ كفى!

فإذا بالكابتن لبيادكين يقفز فوراً إلى موضوع آخر، كأن الحديث لم يكن عن أشعاره أبداً، فيقول:

ـ إنني لا أنقطع عن الحلم ببطرسبرج. إنني أتطلع إلى بعث نفسي أيها المحسن إليَّ، هل يمكنني أن أؤمل أن لا تضن عليَّ بما أحتاج إليه للقيام بهذه الرحلة إلى بطرسبرج؟ لقد انتظرتك طوال هذا الأسبوع، كما تُنتظر الشمس.

ـ لا، لا، لا تعوِّل على هذا. لم يكد يبقى معي شيء من مال، ثم علام أعطيك مالاً؟

كذلك قال ستافروجين وقد ثار حنقه فجأة.

وأخذ يعدِّد جميع الأخطاء التي ارتكبها الكابتن: أكاذيبه، إدمانه على السكر، تبديده المال الموقوف على ماريا تيموفيئفنا التي أُخرجت من الدير، الرسائل الوقحة، التهديدات بالكشف عن أمر الزواج، الشائعات الكافية عن داريا بافلوفنا، إلخ. فكان الكابتن يضطرب على كرسيه، وُيجري حركات وإشارات عريضة، ويحاول أن يحتج، ولكن نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين كان يوقفه بشدة وصرامة. وقال له أخيراً:

ـ إنك تتكلم طول الوقت عن "عار لحق بأسرتك". فأي عار يلحق بك إذا

كانت أختك هي زوجة ستافروجين الشرعية؟

قال لبيادكين:

ـ ولكن الزواج بقي مكتوماً يا نيقولاي فسيفولودوفتش، بقي مكتوماً. هذا سر محتوم. إنني أتلقى منك مالاً فأسأل: "لماذا يبعث إليك هذا المال؟". وأنا متقيد بما عاهدت عليه، فلا أستطيع أن أجيب، وبذلك أسيء إلى أختي، وأسيء إلى شرف الأسرة.

كان الكابتن قد رفع صوته. ذلك موضوع كان يؤثر فيه تأثيراً خاصاً، وكان هو يعوِّل على استغلاله لمصلحته. لم يوجس المسكين ما كان ينتظره. وها هو ذا نيقولاي فسيفولودوفتش ينبئه بلهجة هادئة، كأنه يسوِّي مسألة منزلية، بأنه سوف يذيع على الملأ في خلال الأيام القليلة القادمة، وربما غداً أو بعد غد، نبأ زواجه، وأنه "سيعلم به الشرطة والمجتمع"، وأن قصة "العار الذي لحق بالأسرة" ستسوَّى حينذاك، وكذلك مسألة المساعدات.

حملق الكابتن بعينيه. حتى إنه لم يفهم، فاضطر ستافروجين أن يمده بإيضاحات دقيقة.

قال لبيادكين:

ـ ولكنها... نصف مجنونة...

ـ سأدبر أموري وأتخذ إجراءاتي.

ـ ولكن... ما عسى تقول أمك؟

ـ لتَقُلْ ما تشاء!

ـ ولكن سيكون عليك أن تدخل زوجتك إلى منزلك...

ـ ربما. على كل حال، هذا ليس شأنك، ولا علاقة لك به البتة!

صاح الكابتن يقول:

ـ كيف؟ وأنا ماذا أصير في هذه الحالة؟

ـ لن تدخل بيتي طبعاً.

ـ لكنني أخوها.

ـ الأخوة الذين يكونون مثلك يُبعدون. اقض في الأمر أنت نفسك: لماذا

ينبغي لي أن أعطيك مالاً إذا أذعت زواجي في الملأ؟

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش، نيقولاي فسيفولودوفتش! هذا غير ممكن! فكر مزيداً من التفكير! إنك لن تريد أن تضيِّع نفسك... ماعسى يظن الناس فيك؟ ما عسى يقولون عنك؟

ـ يستوي عندي كل شيء. لقد تزوجت حين استبدت بي هذه النزوة من نزوات الخيال بعد عشاء كثرت خموره، من أجل أن أربح بضع زجاجات من الخمرة راهنوا عليها ضدي... والآن سوف أعلن هذا الزواج إذا كان ذلك يسليني ويضحكني.

قذف ستافروجين هذه الجملة الأخيرة بلهجة حانقة حنقاً شديداً روّع الكابتن فجعل يأخذ كلامه مأخذ الجد.

ـ ولكن أنا؟ ماذا أصير أنا في هذه الحالة؟... ذلك هو السؤال الأساسي! أتراك تمزح يا نيقولاي فسيفولودوفتش؟

ـ لا، لا أمزح.

ـ قل ما تشاء يا نيقولاي فسيفولودوفتش. إنني لا أصدقك... سأتجه إلى المحاكم.

قال ستافروجين:

ـ أنت غبي غباءً خارقاً يا كابتن.

فدمدم لبيادكين يقول:

ـ جائز. ولكن هذا هو الشيء الوحيد الذي بقي لي أن أفعله. في الماضي، حين كانت تعمل للناس ببطرسبرج، كنت ما أزال أستطيع أن أجد لي مأوى هنا أو هناك. ولكن ما الذي أصير إليه إذا أنت تركتني؟

ـ كنت أظن أنك ذاهب إلى بطرسبرج لتغير طراز حياتك. بالمناسبة: لقد سمعت أنك تستعد للوشاية بجميع الأخرين، أملاً في الحصول على عفوٍ عنك. هل هذا صحيح؟

لبث الكابتن فاغر الفم محملق العينين.

فبدأ ستافرجين يتكلم بجد ورصانة ووقار، مائلاً على ضيفه، قائلاً له:

ـ اسمعني يا كابتن...

كان ستافروجين قد تكلم حتى ذلك الحين بطريقة ملتبسة بحيث أن لبيادكين الذي اعتاد أن يمثِّل دور المهرج كان ما يزال يراوده شيء من شك، فكان يتساءل: تُرى هل مولاه غاضب منه حقاً أم هو يضحك عليه؟ أهو يفكر في إذاعة نبأ زواجه على الملأ فعلاً أم أنه يسخر منه ويتسلى به؟ غير أن ما اتخذه وجه نيقولاي فسيفولودوفتش من قسوة وجهامة قد ذهب بآخر شك عند لبيادكين فيما يظهر، فسرت في ظهر الكابتن قشعريرة باردة.

تابع ستافروجين كلامه يقول:

ـ تسمعني يا كابتن جيداً وقل لي الحقيقة كلها، هل وشيت بالآخرين أم أنت لم تش بهم؟ أشرعت في شيء أم لا؟ ألم ترتكب حماقة فترسل رسالة ما؟

ـ لا، لم أفعل بعد... بل إنني لم يخطر هذا ببالي أبداً.

بذلك أجاب لبيادكين ثابتَ النظرة.

قال له ستافروجين:

ـ أنت تكذب. إن ذلك يخطر ببالك. إنك تفكر فيه. بل إن الغاية الوحيدة التي تستهدفها من السفر إلى بطرسبرج هي هذا الأمر. إذا كنت لم تكتب بعد، أفلم تثرثر على الأقل؟ قل الحقيقة: لقد سمعت أشياء عن هذا!

تمتم الكابتن المسكين يقول:

ـ قلت بضع كلمات لليبوتين وأنا سكران. إن ليبوتين خائن. لقد فتحت له قلبي.

ـ ليست المسألة مسألة قلبك، وإنما المسألة أن لا يكون المرء غبياً أحمقاً. إذا كانت هذه الفكرة قد خطرت ببالك فلقد كان ينبغي لك على الأقل أن تحتفظ بها لنفسك سراً مكتوماً لا تفضي به إلى أحد. الأذكياء يعلمون اليوم أن الصمت خير من الكلام.

صاح الكابتن يقول مرتعشاً:

نيقولاي فسيفولودوفتش، ولكنك أنت لم تشارك في شيء، ولست أنت من وشيت به...

- طبعاً، لم يخطر ببالك في يوم من الأيام أن تشي ببقرتك الحلوب!

- نيقولاي فسيفولودوفتش، أترك لك أن تقضي في الأمر بنفسك، أن تقضي في الأمر بنفسك!...

قال لبيادكين ذلك وهو يبكي يائساً، وطفق يروي بصوت لاهث قصة حياته خلال هذه السنين الأربع الأخيرة. إنها قصة بلهاء لرجل أحمق، أقحم نفسه في قضية لا شأن له بها البتة، وظل إلى آخر لحظة لا يفهم خطورة هذه القضية، لانشغاله بالسكر والقصف واللهو.

روى لبيادكين أنه حين كان لا يزال ببطرسبرج قد انجرف في بداية الأمر من باب الصداقة، "من حيث هو طالب مع أنه لم يكن طالباً"، فأخذ - وهو لا يدري ماذا يفعل - يرمي نشرات تحريضية في سلالم المنازل، ويدس منها عشرات تحت الأبواب وفي صناديق البريد، ويحمل منها إلى المسرح فيضعها في قبعات المشاهدين وجيوبهم. وصار في النهاية يقبل أن يتقاضى مالاً "فأنت تعرف مواردي، تعرفها، أليس كذلك؟". ثم وزَّع أنواعاً شتى من المنشورات في ولايتين. "آه يا نيقولاي فسيفولودوفتش، إن ما كان يثيرني أكثر من كل ما عداه هو أن ذلك جميعه كان مخالفاً للقوانين المدنية مخالفة مطلقة، ولا سيما لقوانين الوطن!" كذلك صاح يقول الكابتن، وأضاف شارحاً: "من ذلك مثلاً قولهم أن على الفلاحين أن يتسلحوا بفؤوسهم، فإذا الذين يخرجون في الصباح فقراء، يعودون في المساء أغنياء. فكِّر في هذا الكلام! لقد كنت أرتعش هولاً، ومع ذلك استمريت في توزيع هذه الأوراق! أو ربما كان المنشور[1] نداءً يتألف من خمسة أسطر أو ستة، موجهاً إلى روسيا كلها: "أغلقوا الكنائس بأقصى سرعة، اعدموا الله، ألغوا الزواج، أزيلوا الإرث، تسلحوا بسكاكين!" وأشياء من هذا النوع لا يعلم بها إلّا

(1) المنشور المقصود هنا هو النداء المعروف الذي وزع سراً بعنوان "روسيا الفتاة".

الشـيطان!... وحين كنت أوزِّع هذه الورقة إنما أوشكت ذات مرة أن أُعتقل. ولكـن ضربنـي الضباط في الثكنة ضربـاً مبرحاً، ثم أطلقوا سـراحي... بارك اللـه في كرمهم وسـماحتهم! ثـم، في السـنة الأخيرة، كـدت أن يُقبض عليَّ حين أعطيت كارافاييف ورقة بخمسـين روبلاً من صنع فرنسـا. ولكن أحمد اللـه على أن كارافاييف الذي كان سـكران قد غرق في غدير فخرجت أنا من المـأزق. وهنـا، عند فرجنسـكي، ناديت بحق المـرأة في الحب. وفي شـهر حزيران (يونيه) طفقت أوزع نشرات في مقاطعة س... من جديد. ويبدو أنهم يريـدون إجباري على الاسـتمرار في القيـام بهذا العمل. لقـد أبلغني بطرس سـتيفانوفتش أن علـيَّ أن أطيع: إنـه يهددني منذ مدة طويلـة. آه... ليتك تعلم كيف عاملني يوم الأحد الماضي! نيقولاي فسـيفولودوفتش، إنني عبد، إنني دودة من دود الأرض. ولكنني لسـت إلهاً، وبهذا إنما أختلف عن دريافين[1]. غير أنك تعرف مواردي!

كان نيقولاي فسيفولودوفتش يصغي إليه باهتمام. فقال:

ـ علمت أشياء لم أكن أعرفها. طبعاً لا شيء مستحيل على رجل مثلك.

ثم أضاف بعد لحظة تفكير يقول:

ـ اسمع، إن شئت قل له، قل للذي تعرفه منهم إن ليبوتين قد كذب، وإنك لـم تشـأ إلّا أن تخيفني مهدداً بالوشـاية بي، لافتراضك أننـي أنا أيضاً معرَّض للخطر، وذلك بغية أن تطلب مني مزيداً من المال... هل فهمت؟

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش، هل تعتقد حقاً أنني مهدد بخطر؟ لقد انتظرتك مدة طويلة لأسألك النصح.

ابتسم نيقولاي فسيفولودوفتش ابتسامة ساخرة. وقال له:

ـ هبني أعطيتك مالاً فإنهم لن يدعوك تسافر... ولكن آن لي أن أذهب إلى ماريا تيموفيئفنا.

---

(1) هو جبريل دريافين (1816ـ 1743): شاعر مشهور له قصيدة ذاع صيتها كثيراً عنوانها "رب"، وفيها هذا البيت الذي أصبح كلاسيكياً: أنا ملك، أنا عبد.. أنا دود، أنا رب

ونهض.

قال لبيادكين:

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش؟ وما مصير ماريا تيموفيئفنا؟

ـ قلت لك.

ـ هل يعقل أنك كنت تتكلم جاداً؟

ـ أمازلت لا تصدقني؟

ـ هل يُعقل أن ترميني كما يُرمى حذاء مهترئ؟

قال نيقولاي فسيفولودوفتش ضاحكاً:

ـ سوف أرى. هيَّا. دع لي أن أمرَّ!

ـ ألا تريد أن أبقى على درجات المدخل حتى لا أتعرَّض لأن أسمع، رغم إرادتي؟... إن الغرف صغيرة جداً.

ـ فكرة حسنة. اخرج إلى درجات الباب. ولكن خذ مظلتي.

ـ مظلة... مظلتك؟ أأنا أستحق هذا الشرف؟

بذلك تمتم الكابتن وهو يبالغ في المذلة.

قال ستافروجين:

ـ كل إنسان جدير بمظلة.

فأجاب لبيادكين:

ـ بهذه الجملة عيَّنت "الحد الأدنى" للحقوق الإنسانية دفعة واحدة...

لكن لبيادكين كان يتكلم آلياً. لقد صعقته الأنباء التي سمعها فهو لا يستطيع أن يثوب إلى رشده وأن يسيطر على نفسه؟

ومع ذلك فإنه ما إن أصبح على درجات المدخل ونشر المظلة، حتى أخذت ترتسم في ذهنه الطائر الماكر فكرة مهدئة ومألوفة. قال لنفسه: لا شك أنه قد أريدَ خداعُه، وتخويفه، فليس عليه هو أن يخاف.

وقال يحدث نفسه: "إذا كان يمكر ويكذب، فذلك دليل على أن ثمة شيئاً يريد إخفاءه.". لم يستطع لبيادكين أن يصدِّق ما قاله له ستافروجين من أنه سيذيع نبأ الزواج على الملأ، هذا مستحيل. "صحيح أن في وسع المرء أن

يتوقع من مثل هذا الرجل كل شيء. فهو لا يحيا إلّا ليسيء إلى البشر. ولكن لعلـه خائف مني منذ فضيحة يوم الأحد، لعلـه خائف مني الآن أكثر مما كان خائفاً في أي يوم من الأيام... لعله إنما أسـرع يؤكد لي أنه سـيذيع نبأ الزواج على الملأ خشـية أن أسبقه أنا إلى ذلك. دعك من السخافات يا لبيادكين! إذا لم يكن خائفاً من رأي الناس فلماذا جاء في الليل، مختبئاً كاختباء لص؟ وإذا كان خائفاً، فهو إذن خائف مما سيحدث الآن، في غضون الأيام التالية... كن على حذر يا لبيادكين! كن يقظاً!...

"إنـه يريـد أن يخيفنـي ببطرس ستيفانوفتش. وهـذا مخيف حقـاً... ما كان أغبانـي حيـن تحدثـت إلـى ليبوتين. الشـيطان وحـده يعرف مـاذا يهيء هؤلاء الأبالسـة. إنني لم أفهم من أمرهم شـيئاً في يوم من الأيام. ها هم أولاء يتحركون ويسعون هنا وهناك كما كانوا يفعلون منذ خمسة أعوام. ولكن لمن كان يمكـن أن أشـي بهـم؟ "ألـم ترتكب حماقـة فتكتب إلى أحـد؟". همْ... معنـى هذا أن من الممكـن أن يكتب المرء متظاهـراً بالحماقة والبلاهة. "من أجـل هـذا إنمـا تريد أن تسـافر إلـى بطرسـبرج". يا للوغـد! أنا إنمـا راودني هذا حلماً من الأحلام، فكيف أمكنه أن يضبطني متلبسـاً بالحلم نفسه. لكأنه يريـد أن يدفعني هو نفسـه إلـى القيام بهذه الرحلة. هنـاك حالتان يجب النظر فيهمـا. حالتـان لا ثالثـة لهما، فإما أنـه خائف لأنـه ارتكب عملاً طائشـاً ما، وإما أنه ليس خائفاً من شـيء فهو يريد أن يدفعني إلى الوشـاية بالأخرين!... آه... لبيادكيـن... إيـاك أن تقع في الفخ!...". وبلغ لبيادكين من الاسترسـال في خواطره هذه أنه نسـي حتى أن يصيخ سـمعه إلى ما كان يجري في الغرفة الثانية. ولكن كان يصعب أن يسمع شيئاً ما، فالباب سميك، والحديث يجري بصوت خافت.

وإذ لم يسـتطع الكابتن لبيادكين أن يسـمع إلّا بضعة أصوات غير متميزة، بصق من شدة الغضب، وعاد يصفر على درجات المدخل شارد الذهن.

3

إن غرفة ماريا تيموفيئفنا، المزدانة بسجادة رائعة، أوسع من غرفة الكابتن مرتين. ولكن الأثاث الذي فيها أثاث بسيط كل البساطة أيضاً مصنوع صناعةً غليظة كذلك. على أن غطاءً زاهي الألوان كان يغطي المائدة الموضوعة أمام الديوان وفوقها مصباح مُشتعل. وهناك ستارة منشورة على طول الغرفة، تخفي السرير عن الأنظار. وعلى مقربة من المائدة يوجد أيضاً مقعد منجدٌ ظهره، غير أن ماريا تيموفيئفنا لا تجلس عليه أبداً. وثمة قنديل صغير كان يشتعل أمام أيقونة في أحد الأركان. وعلى مائدة ماريا تيموفيئفنا صُفَّت جميع الأشياء التي هي بحاجة

إليها: ورق لعب، مرآة صغيرة، كتاب أغان، ورغيف خبز باللبن، وكذلك كتابان مصوَّران أحدهما يضم قصص رحلات مما يقرؤه الشباب، والثاني يضم أساطير من القرون الوسطى.

كانت ماريا تيموفيئفنا تنتظر الزائر، كما قال الكابتن. ولكن حين دخل نيقولاي فسيفولودوفتش وجدها نائمةً وقد اضطجعت نصف اضطجاع على الديوان مسندةً رأسها إلى وسادة. فأغلق ستافروجين الباب بغير ضوضاء وأخذ يتأمل النائمة دون أن يتحرك من مكانه.

كذب لبيادكين: لم تكن ماريا تيموفيئفنا قد أبدلت هندامها وعُنيت بزينتها. إنها ترتدي ذلك الثوب القاتم نفسه الذي كانت ترتديه يوم الأحد الماضي عند فرفارا بتروفنا. وما يزال شعرها معقوداً خلف عنقها كبةً صغيرة. وكانت عنقها الطويلة الجافة عارية. أمَّا الشال الأسود الذي كانت فرفارا بتروفنا قد أهدته إليها فقد كان إلى جانبها مطوياً بعناية كبيرة على الديوان. وكان وجهها مثقلاً بالمساحيق والأصباغ على عادتها.

وما كادت تنقضي على دخول نيقولاي فسيفولودوفتش دقيقة واحدة حتى استيقظت ماريا تيموفيئفنا بغتةً، كأنما هي قد أحسَّت نظرته، ففتحت عينيها وانتصب جذعها بحركة قوية. ولكن كأن شيئاً غريباً كان يجري في

ذهـن الزائـر: ظل جامداً قرب البـاب يحدِّق إلى وجه العرجـاء تحديقاً عنيداً بنظـرة نافـذة. ولعل هذه النظرة قد بدت للمرأة قاسـية، أو لعـل المرأة قرأت فيهـا الاشـمئزاز، أو لعل المرأة توهمت توهماً لا أكثـر، ولكن مهما يكن من أمر، فإن تعبيراً عن الارتياع الشديد والذعر القوي يشنِّج وجه الفتاة المسكينة بعد انتظار بضع لحظات، ثم إذا هي ترفع ذراعيها فجأةً كأنما لتحمي نفسها، وإذا هي تجهش باكية منتحبة، تماماً كما يفعل طفل خاف. فلو انقضت لحظة أخـرى، لأخذت تصرخ مسـتغيثة. ولكـن الزائر صحا من شـروده وثاب إلى نفسـه، فتبدلـت هيئته حالاً، واقتـرب من المائدة وهو يبتسـم ابتسـامة لطيفة ودوداً. وقال للفتاة وهو يمد إليها يده:

ـ سـامحيني يـا ماريا تيموفيئفنـا! لقد روَّعتك إذ دخلـت عليك فجأة بغير استئذان.

فسرعان ما فعلت هذه الكلمات اللطيفة فعلها في نفس الفتاة. فزال رعبها، لكنها ما برحت تتفرس في سـتافروجين، بشيء من القلق، وكان واضحاً أنها تبـذل جهداً من أجل أن تفهـم ما يحدث. ومدت إليه يدها خجلى وجلى، ثم ظهرت على شفتيها في آخر الأمر ابتسامة.

دمدمت تقول وهي تلقي عليه نظرة غريبة:

ـ نعمت صباحاً يا أمير.

فقال الأمير مبتسماً بمزيد من المودة والبشاشة:

ـ أغلب الظن أنك كنت ترين حلماً ثقيلاً.

ـ ولكن كيف عرفت أنني حلمت "بهذا".

ثم عادت ترتجف فجـأةً، وارتدّت إلى وراء، رافعةً ذراعيها كأنما لتحمي نفسها، وبدا عليها أنها توشك أن تعود إلى البكاء. فقال لها ستافروجين ملحاً:

ـ هـلاَّ رجعـت إلى رشـدك! مـمَّ أنت خائفة؟ هـل يُعقـل أن لا تكوني قد عرفتني؟

ولكنها لـم تهدأ في هذه المرة إلّا بعد برهة طويلة. كانت تنظر إليه صامتة، وقد استبد بها قلق أليم. كان واضحاً أنها تحاول أن تستجلي فكرةً تعذبها فلا

تستطيع إلى ذلك سبيلاً. فهي تارةً تخفض عينيها وتارةً تلقي على ستافروجين نظرة سريعة. وفجأةً بدا عليها أنها اتخذت قراراً رغم أنها لمَّا تسترد هدوءها بعدُ كاملاً.

قالت له بصوت ثابت جازم:

ـ اجلس إلى جانبي، أرجوك، حتى أستطيع أن أراك من قرب فيما بعد.

واضح أنها اهتدت الآن إلى الفكرة التي كانت تبحث عنها.

وتابعت كلامها تقول:

ـ لن أنظر إليك حالاً، بل سأخفض عينيَّ. وأنت أيضاً لا تنظر إليَّ، إلى أن أرجوك أن تفعل.

ثم ألحت قائلة بشيء من التململ:

ـ ما بالك لا تجلس! هلاً جلست!

كان واضحاً أن هناك فكرة جديدة تتضح لها شيئاً بعد شيء.

فجلس ستافروجين وانتظر. وساد صمت طويل. ثم دمدمت تقول أخيراً بما يشبه الاشمئزاز:

ـ همْ... ذلك كله يبدو لي قريباً جداً. إن أحلاماً سيئة تطاردني، ولكن لماذا رأيتك أنت في الحلم منذ هنيهة، كما أنت الآن تماماً؟

قال ستافروجين متذمراً وهو يلتفت إليها رغم حظرها عليه ذلك:

ـ لنترك الأحلام.

وظهر في وجهه ذلك التعبير نفسه الذي ألمَّ بقسماته سريعاً منذ قليل. وكان يرى أن ماريا تيموفيئفنا ترغب رغبة قوية في أن ترفع بصرها نحوه، ولكنها تحجم عن ذلك، مستمرةً على النظر إلى أرض الغرفة بعناد.

قالت وهي ترفع صوتها فجأة:

ـ اسمع يا أمير، اسمع يا أمير...

فهتف ستافروجين يسألها فاقداً صبره:

ـ لماذا تشيحين؟ لماذا لا تنظرين إليَّ؟ ما هذه المسرحية؟

ولكن بدا كأنها لم تسمعه. وكررت تقول للمرة الثالثة بلهجة جازمة وقد

اتخذ وجهها تعبيراً عن الهمِّ والعداء:

ـ اسمع يا أمير. حين قلت لي في العربة ستذيع نبأ الزواج على الملأ أخافني أن أعلم أن السر سينكشف. لا أدري ماذا أصنع! لقد فكّرت طويلاً، وإني لأرى الآن رؤية واضحةً أنني لا أناسبك البتة. صحيح أنني سأعرف كيف أتزين، وقد أحسن أيضاً استقبال الناس: إن تقديم فنجان من الشاي ليس بالأمر الصعب كثيراً، لا سيما حين يكون للمرء خدم. ولكن، رغم كل شيء، ما عسى يقول الغرباء؟... لقد أدركت يومَ الأحد كثيراً من الأمور في ذلك المنزل. كانت الآنسة الجميلة لا تنفك تنظر إليَّ، ولا سيما بعد دخولك. أنت الذي دخلت عندئذ؟ ألست أنت الذي دخلت؟ أمَّا أمها فما هي إلّا امرأة مضحكة من نساء المجتمع. وكذلك كان لبيادكين مضحكاً. حتى لقد أخذتُ أنظر إلى السقف طول الوقت من أجل أن لا أضحك. كان دهانه جميلاً، ذلك السقف. وأما أمه "هو"، فقد خُلقت لتكون رئيسة دير. إنني أخاف منها. لقد أعطتني مع ذلك شالاً أسود. لا شك أنهم جميعاً قد قالوا في حقي سوءاً. و لكنني لا أحقد عليهم. قلت لنفسي في ذلك اليوم: أنا لا أصلح أن أكون قريبةً لهؤلاء الناس. صحيح أن الكونتيسة لا تطلب منها إلّا مزايا نفسية، لأن لديها خدماً كثيرين يقومون بأعمال المنزل. وإنما ينبغي لها في أكثر تقدير أن تكون على شيء من "الغندرة"، حتى تستطيع أن تحسن وفادة المسافرين الأجانب. ومع ذلك فإنهن جميعاً كن ينظرن إليّ يومَ الأحد ذاك وقد لاح في وجوههن كرب ويأس. داشا وحدها ملاك. إنني أخشى كثيراً أن يؤلموه "هو" بإبداء ملاحظة متسرعة في حقي.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش غاضباً:

ـ لا تخشي شيئاً، ولا تقلقي!

ـ وهبه أحس بشيء من العار، فلن يغضبني ذلك، لأن الشعور بالشفقة يغلب على الشعور بالعار، وإن كان ذلك يختلف باختلاف الناس طبعاً. وإني لأعلم أنهم أحق بشفقتي مني بشفقتهم.

ـ أظن أنهم جرحوك جرحاً عميقاً يا ماريا، أليس كذلك؟

قالت وهي تبتسم ابتسامة بريئة:

ـ جرحوني؟ أنا؟ لا. أبداً! كنت أنظر إليكم جميعاً: فأراكم تغضبون وتشتجرون. إنكم لا تعرفون حتى كيف تضحكون ضحكاً صادراً عن القلب حين تجتمعون. ثروات كبيرة، وفرح ضئيل!... ذلك كله يبعث على الاشمئزاز. مهما يكن من أمر، فإنني الآن لا أحس بشفقة على أحد. وإنما أنا أشعر بشفقة على نفسي.

ـ سمعت أن أخاك قد جعل حياتك قاسية في غيبتي، فهل هذا صحيح؟

ـ من قال لك ذلك؟ ترّهات! بالعكس: الأمر الآن أسوأ. الآن أرى أحلاماً سيئة، أرى أحلاماً سيئة لأنك جئت. إني أتساءل: لماذا جئت؟ لماذا؟ قل لي: لماذا جئت؟

ـ ألا تريدين أن تعودي إلى الدير؟

ـ تنبأت بهذا! هاهم أولاء يعرضون عليَّ أن أرجع إلى الدير! لقد شبعت من رؤيته، ديرك هذا! ما عساني فاعلة هناك؟ أنا الآن وحيدة وحدة تامة. فات أوان استئناف حياة ثالثة.

ـ يبدو عليك الغيظ والحنق. أتُراك خائفةً أن يكون حبي لك قد زال؟

ضحكت ماريا تيموفيئفنا ضحكة احتقار وقالت:

ـ أنا لا أهتم بك البتة. وإنما أنا خائفة على نفسي، خائفة أن يزول حبي لشخصٍ ما في يوم قريب. لعلني قد أذنبت في حقه بارتكاب خطيئة كبيرة جداً. أضافت ماريا هذه الجملة الأخيرة فجأة كأنها تكلم نفسها. وتابعت تقول:

ـ... لكنني أجهل الذنب الذي اقترفته. وهذا هو شقائي كله. دائماً، دائماً، في الليل وفي النهار، منذ خمس سنين، لم تنقطع هذه الفكرة عن تعذيبي، وهي أنني مذنبة في حقه... ما هو ذنبي؟ إنني أصلي لله، وأفكِّر بغير انقطاع في الخطيئة الكبرى التي ارتكبتها والآن يتضح أن ذلك كان صحيحاً.

ـ ما الذي كان صحيحاً؟

كذلك سألها ستافروجين، غير أنها تابعت كلامها تقول دون أن تجيب

عن سؤاله وربما دون أن تسمع سؤاله:

ـ وإنـي لأتسـاءل مع ذلك ألم يكـن له "هو" دخل في الأمـر. ولكن كيف أمكنـه أن يرتبـط بمثـل هـؤلاء الأشـرار؟ إن الكونتيسـة يطيـب لهـا طبعاً أن تلتهمنـي كوحش كاسـر، وإن تكن قـد أركبتني عربتها. الجميع اشـتركوا في المؤامرة؟ هل يُعقل أن يكون قد اشترك فيها هو أيضاً؟ هل يُعقل أن يكون قد خانني؟ (هنا أخذت ذقنها وشـفتاها ترتعش). اسـمع، أنت: هل تعرف قصة جريشكا أوتريبيف الذي أعلنت الكنيسة طرده؟[1]

لم يجب نيقولاي فسيفولودوفتش.

قالت وقد عزمت أمرها فجأة:

ـ على كل حال، سألتفت الآن وأنظر إليك. فالتفت أنت إلى جهتي وانظر إليَّ، ولكن أنعم النظر بانتباه. أريد أن أراك لآخر مرة...

ـ إنني أنظر إليك منذ مدة طويلة.

قالت ماريا تيموفيئفنا وهي تتأمله منتبهة:

ـ همْ... لقد سمنتَ كثيراً.

وأرادت أن تضيف شيئاً آخر ولكن الرعب شنَّج وجهها فجأة من جديد، وارتدّت إلى وراء رافعة ذراعيها كأنما لتحمي نفسها.

فصاح نيقولاي فسيفولودوفتش يسألها بما يشبه الحنق:

ـ ماذا بك؟ ماذا أصابك؟

لكـن رعبهـا لم يدم إلّا لحظة، وها هي ذي ابتسـامة غريبة تعقف وجهها، ابتسامة ريابة شكاكة، منفِّرة مزعجة. وقالت فجأة بصوت حازم ملحّ:

ـ أرجوك يا أمير، انهض وادخل!

ـ أدخل؟ أدخل إلى أين؟

---

(1) جريشكا أوتريبيف، هو مغامر استطاع أن يقنع الناس بأنه دمتري، آخر أبناء القيصر يوحنا الرابع الذي قتل سنه 1591، واستطاع أن يحظى بعرش روسيا سنة 1605، وحين قتله الشعب في السنة التالية استنكاراً لميوله الكاثوليكية أعلنت الكنيسة طرده، وكان هذا الطرد يتكرر كل سنة في الأحد الثالث من الصيام الكبير في جميع أنحاء روسيا.

ـ لبثتُ خمس سنين أتخيل دائماً كيف ستدخل عليَّ. انهض، واذهب إلى الغرفة الأخرى. وسأبقى أنا جالسةً هنا كأنني أنتظر أحداً وسأتناول كتاباً. ثم تدخل أنت كأنك عائد بعد غيبة خمس سنين. أريد أن أرى كيف سيتم هذا.

صرّ نيقولاي فسيفولودوفتش على أسنانه، وجمجم ببضعة أقوال غير مفهومة، ثم ضرب المائدة براحة يده صائحاً:

ـ كفى! أرجوك أن تسمعيني يا ماريا تيموفيئفنا. أرجوك، أن تستجمعي كل انتباهك إذا استطعت. ما أنت مجنونة تماماً على كل حال.

كذلك أفلتت من لسانه هذه الجملة. ولكنه تابع كلامه فقال:

ـ غداً سوف أذيع زواجنا في الملأ. لن تسكني قصراً منيفاً في يوم من الأيام. اطردي هذه الفكرة من ذهنك. هل تريدين أن تقضي حياتك كلها معي، ولكن في مكان بعيد عن هنا؟ في الجبال، بسويسرا... إنني أعرف مكاناً هناك... لاتقلقي: لن أهجرك ولن أضعك في مستشفى للمجانين. عندي من المال ما يكفي لأن نعيش دون أن نسأل أحداً شيئاً. سيكون لك خادمة، فلن تُضطري إلى القيام بأي عمل في البيت. وكل ما تشتهينه سأهيئه لك وأزودك به في حدود الإمكان. سيكون في إمكانك أنَ تصلي، وأن تذهبي إلى حيث تريدين، وأن تفعلي ماتشائين. ولن ألمسك. وأنا أيضاً لن أتحرك، من ذلك المكان. وإذا شئت، فلن أخاطبك بكلمة واحدة، وإذا أردت، فسوف تقصّين عليَّ حكاياتك الصغيرة كما كنت تفعلين في الماضي ببطرسبرج. وسوف أقرأ لك إذا كان ذلك يسرك. ولكننا، في مقابل هذا، سنقضي حياتنا كلها في ذلك المكان. وذلك المكان جهم مقفر. هل تريدين؟ أتعزمين أمرك على هذا؟ ألا تندمين في المستقبل؟ ألن ترهقيني بدموعك ولعناتك؟

أصغت إليه باستطلاع شديد. فلما أنهى كلامه، فكرت ملياً، ثم قالت أخيراً بلهجة فيها سخرية واحتقار:

ـ ذلك كله يبدو غير ممكن. فلربما وجب عليَّ أن أعيش هكذا أربعين سنة في الجبال.

وانفجرت تضحك مقهقهة.

أجاب نيقولاي ستافروجين:

ـ نعم، سنعيش هنالك أربعين سنة إذا وجب الأمر.

وقطب حاجبيه.

ـ هم... لن أقبل هذا بحال من الأحوال.

ـ ولكن معي أنا؟

ـ ومن أنت حتى أسافر معك هكذا؟ انظروا يا ناس! يريد أن أبقى أربعين سنة معلقة في جبل! إن أهل هذا الزمان أصبحوا على جانب عظيم من الصبر! لا، لن يستطيع بوم أن يكون صقراً! إن أميري ليس هكذا.

هكذا صاحت بلهجة الانتصار وهي ترفع رأسها معتزة مفتخرة. فرأى ستافروجين الأمر بوضوح فجأةً. فأسرع يسألها:

ـ لماذا تلقبينني أميراً... و... من تظنينني؟

ـ كيف؟ ألست أميراً إذن؟

ـ لم أكن أميراً في يوم من الأيام.

ـ كيف؟ أأنت نفسك تعترف لي بهذا وجهاً لوجه؟

ـ أكرر أنني لم أكن أميراً في يوم من الأيام.

فصاحت وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى:

ـ يا إلهي! كنت أتوقع من أعدائه كل شيء، إلّا هذه الوقاحة... هذه الوقاحة لم أتوقعها منهم يوماً!

ثم صرخت تقول خارجة عن طورها وهي تهرع نحو ستافروجين:

ـ ولكن أهو حي على الأقل؟ هل قتلته؟ اعترف...

قال وهو ينهض فجأة وقد انقلبت سحنته:

ـ من تظنينني؟

ولكنها أصبحت الآن غير خائفة، بل مزهوة منتصرة، قالت:

ـ من ذا الذي يعرف من أنت، ومن أين خرجت؟ لقد أوجس قلبي ذلك دائماً منذ خمس سنين. لقد حزر قلبي كل مكيدتهم! وتساءلت أنا: من تُرى تكون هذه البومة العمياء التي دخلت إلى غرفتي؟ لا ياصاحبي، أنت ممثل لا

يجيد التمثيل، أنت أسوأ حتى من لبيادكين. سلِّم لي على الأميرة، وقل لها أن تبعث إليَّ بشخص أمهر منك قليلاً. هل دفعت لك مالاً كثيراً في سبيل قيامك بهذه المهمة؟ أهل تعولك في مطبخها من باب البر والإحسان؟ لقد اكتشفت جميع أكاذيبكم. إنني أعرفكم جميعاً، من أولكم إلى آخركم!

فأمسك ستافروجين ذراعيها بقوة، فوق الكوع قليلاً، لكنها انفجرت تضحك في وجهه ضحكاً مجلجلاً. ثم قالت له:

ـ أمَّا أنك تشبهه كثيراً فهذا صحيح. لكن صاحبي أمير. إنه صقر نبيل[1]. ولست كذلك أنت، فما إلّا بومة، ما أنت إلّا بائع في دكان! صاحبي يسجد لله إذا شاء، ولا يسجد إذا أرادت له نزوة من النزوات أن لا يسجد. وأنت قد صفعك شاتوشكا(عزيزي الطيب شاتوشكا). لقد حكى لي لبيادكين ذلك. مـمَّ كنت خائفاً حين دخلت؟ من ذا الذي روَّعك؟ إنني منذ رأيت وجهك الكريه حين وقعتُ فأنهضتني، أحسست كأن دودة قد نفذت في قلبي. وسرعان ما قلت لنفسي: لا، ليس "هو"، ما هذا "هو" ما كان لصقري أبداً أن يشعر بالعار مني أمام آنسة من آنسات المجتمع الراقي! يا إلهي! إن تلك الصورة التي كانت تملأ خيالي، وهي أن فارسي يطير محلقاً هناك، وراء الجبال، يتأمل الشمس، هذه الصورة كافية لتغمرني بالسعادة خلال هذه السنين الخمس!... تكلم أيها الغشاش الدجَّال. هل دُفع لك أجر كبير؟ هل قبضت مبلغاً ضخماً من أجل أن تكذب؟ أمَّا أنا فما كان لي أن أعطيك قرشاً واحداً!... هأ هأ هأ!...

دمدم نيقولاي فسيفولودوفتش يقول من بين أسنانه وهو ما يزال يمسكها من ذراعها فوق الكوع:

ـ آه... معتوهة!

فصاحت تقول بكبرياء وزهو:

ـ أنزل يديك أيها الغشاش الدجال. أنا امرأة أميري، ولست أخشى سكينك!

---

(1) في الأغاني الروسية الشعبية، كثيراً ما تقع عل تشبيه الشاب بصقر نبيل.

ـ سكيني؟

ـ نعم، سكينك. إنك تخفي سكيناً في جيبك. كنت تظن أنني نائمة، لكنني رأيت كل شيء: فحين دخلت كنت قد استللت سكينك.

ـ ما هذا الذي تقولين أيتها الشقية؟ أية أحلام ترين؟

هكذا قال نيقولاي فسيفولودوفتش، ودفعها عنه بعنف بلغ من القوة، أنها صدمت الديوان برأسها وكتفيها. وأسرع يخرج من الغرفة. ولكنها لم تلبث أن قامت، وطاردته متوهمة عارجة.

وعلى درجات المدخل قبض عليها لبيادكين بكل ما أوتي من قوة، ولكنها أعولت ترسل إلى نيقولاي هذه الكلمات وهي تضحك ضحك امرأة معتوهة:

ـ جريشكا أوتريبيف! مطرود من الكنيسة!

4

مشى ستافروجين في برك الماء والوحل دون أن ينتبه إلى الطريق وهو يردد: "سكين... سكين!" صحيح أنه في بعض اللحظات رغب رغبة رهيبة في أن يضحك، أن يضحك ضحكاً عالياً مدوياً، كمجنون، لكنه أمسك عن الضحك وسيطر على نفسه دون أن يدري هو نفسه لماذا. ولم يثب إلى وعيه إلّا حين صار على الجسر، في ذلك المكان نفسه الذي لقي فيه فدكا. وكان فدكا هناك ينتظره مرة أخرى. فلما رأى فدكا صاحبنا نيقولاي فسيفولودوفتش خلع قبعته، وابتسم ابتسامة فرحة كاشفاً عن جميع أسنانه، ثم سرعان ما أخذ يثرثر. مرَّ ستافروجين أمامه دون أن يتوقف، وحتى دون أن ينتبه أي انتباه إلى أقوال هذا المتشرد الذي أخذ يتبعه من جديد. فما كان أشد دهشته حين لاحظ أنه نسي وجود فدكا نسياناً تاماً، وإن يكن قد ظل يردد في سره بغير انقطاع: "سكين... سكين" والتفت فجأة، فقبض على المتشرد من ياقته وجندله على الأرض، بكل القوة التي كانت قد تجمعت في نفسه من شدة العنف. وخطر ببال فدكا لحظةً أن يدافع عن نفسه، ولكنه أدرك فوراً أنه

أمـام خصم كهذا الخصم لا تُعدُّ قوته شـيئاً مذكوراً، لذلـك أذعن ولـم يُبد أية مقاومـة، وظل راكعاً على ركبتيه متجهـاً بوجهه إلى الأرض، ينتظر ختام هذه المغامرة، مقتنعاً بأنه غير معرَّضٍ لأي خطر.

ولم يخطئ ظنه. كان نيقولاي فسـيفولودوفتش قد حل عن عنقه المنديل الـذي كان يحيط بـه وأخذ يوثق به يدي سـجينه، ولكنه سـرعان ما عدل عن رأيه ودفع فدكا عنه فسرعان ما انتصب فدكا على قدميه، وإذا بسكين عريضة قصيرة تلتمع بيده، لا يدري أحد من أين أخرجها!...

فما كان من نيقولاي فسـيفولودوفتش إلّا أن "أمره" بحركة تدل على نفاد الصبر:

ـ اخفض السكين! واخفها!

فإذا بالسكين تختفي بسرعة مثلما ظهرت بسرعة.

واستأنف نيقولاي فسـيفولودوفتش سيره صامتاً دون أن يلتفت بعد ذلك إلـى وراء. ولكن الشـخص العنيد ظل يتبعه، ولكنه يتبعـه الآن باحترام، على مسـافة خطوة منه، دون أن يكلمه البتة. وهكذا عبرا الجسر، ثم نزلا إلى ضفة النهـر المنحدرة، ولكنهما دارا في هذه المرة يسـرةً، وسـارا في شـارع ضيق طويـل مقفـر أفضى بهما إلى وسـط المدينة بسـرعة، فلو أنهما سـلكا شـارع ابيفانيـا الذي سـلكه سـتافروجين في الذهـاب لما وصلا إلى وسـط المدينة بمثل هذه السرعة.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش يسأل فدكا:

ـ يقـال إنك سـطوت في هذه الأيـام الأخيرة على كنيسـة بمقاطعتنا. فهل هذا صحيح؟

فأجابـه المتشـرد برصانة وأدب وتهذيب، كأن شـيئاً لـم يحدث، بل أجابه ليس برصانة فحسب، وإنما بوقار أيضاً:

ـ الحق أنني دخلت الكنيسة أولاً لأصلّي...

لـم يُبدِ فدكا شـيئاً من رفع الكلفة واصطنـاع "الصداقة" كما فعل من قبل، وإنما هو يتكلم الآن كلام إنسان جاد، إنسان عملي إن كان قد أسيء إليه فإنه

سرعان ما ينسى الإساءات. وتابع كلامه يقول:

ـ فحين دخلت قلت لنفسي: إن نعمة الله هي التي قادت خطاي إلى هنا... وقد فعلت فعلتي ياسيدي لأننا في مثل وضعنا ندبِّر أمرنا كما نستطيع... إننا لا نطيق الاستغناء عن معونة الآخرين. ولكن صدِّق يا سيدي أنني لم أجن من ذلك أي فائدة. لقد عاقبني الله على آثامي. فالمبخرة وحلة الشماس لم أستطع أن أبيعهما بأكثر من اثني عشر روبلاً. أمَّا طوق القديس نيقولا وهو من فضة فقد زعموا أنه ليس من فضة فلم أقبض ثمنه إلّا مبلغاً زهيداً لا يُذكر.

ـ وذبحت الحارس؟

ـ لقد نظفنا الكنيسة مشتركين، وكنا تشاجرنا في الصباح قرب النهر، لأننا اختلفنا حول هذه المسألة: من الذي يحمل الكيس؟ وعندئذ ارتكبت ذلك الذنب، إذ أرحت رفيقي!

ـ استمر في القتل، استمر في السرقة .

ـ ذلك ما يقوله لي أيضاً بطرس ستيفانوفتش، كلمةً كلمةً، تماماً! ذلك أنه فيما يتعلق بإغاثة الناس ومساعدتهم رجل قاس القلب بخيل. وهو لا يكتفي بأن لا يؤمن بالخالق الذي أخرجنا من طين الأرض وأن يقول إن الطبيعة صنعت كل شيء، بل هو أيضاً لا يريد أن يدرك أننا معشر الفقراء لا يمكننا أن نعيش دون أن يكون لنا أحد يحسن إلينا وينعم علينا وينجدنا. فإذا أخذت تشرح له هذا نظر إليك نظرة خروف، فلا تملك إلّا أن تُشده، هل تصدِّق يا سيدي؟ في مسكن ذلك الكابتن لبيادكين الذي زرته أنت هذه الليلة، في مسكنه أيام كان يقيم بعمارة فيليبوف، كان الباب يظل طوال الليل مفتوحاً على سعته كلها. وكان هو، عدا ذلك، ينام نوم الموتى من فرط السكر، وكان المال يخرج من جميع جيوبه. رأيت ذلك بعيني رأسي. ذلك أننا في وضعنا يستحيل علينا إطلاقاً أن نستغني عن مساعدة الآخرين...

ـ رأيته بعيني رأسك؟ إذن دخلت عليه ليلاً؟

ـ ربما، لكن أحداً لا يعرف ذلك.

ـ فلماذا لم تذبحه؟

ـ زِنتُ الأمر، ما له وما عليه فرأيت أن أعدل عن ذبحه. كنت أعلم أن في إمكاني دائماً أن أجني منه مائة وخمسين روبلاً، ولكن علام التسرُّع ما دمت أستطيع أن أجني ألفاً وخمسمائة روبل على الأقل، إذا أنا انتظرت قليلاً؟ ذلك أن الكابتن لبيادكين يعتمد عليك أعظم الاعتماد في حالة السكر (سمعته بأذني)، ما من حانة هنا ولا من خمارة إلّا سمع فيها يتكلم عن هذا الأمر أثناء سكره. فلما سمعت هذا من جهات مختلفة، عقدت أنا أيضاً كل آمالي على "معاليك" يا سيدي. فأنا أتوجه إليك يا سيدي كما يتوجه ابنٌ إلى أبيه أو أخ إلى أخيه. ولن يعرف بطرس ستيفانوفتش عن ذلك شيئاً، ولن يعرف أحد شيئاً. هل يريد صاحب السعادة أن يعطيني ثلاثة روبلات. إنني أريد أن أعرف الحقيقة، وأن أعرف ما الذي يجب عليَّ أن أفعله، ذلك أننا في وضعنا ياسيدي، يستحيل علينا أن نعيش مستغنين عن مساعدة الآخرين.

انفجر نيقولاي فسيفولودوفتش ضاحكاً، واستل من جيبه محفظة نقوده التي تضم خمسين روبلاً، أوراقاً صغيرة، فرمى إليه من هذه الأوراق واحدة فثانية فثالثة فرابعة. فكانت الأوراق تسقط في الوحل. وكان فدكا يركض وراءها ويحاول إمساكها طائرةً وهو يطلق صرخات قصيرة: "آه... آه...". وأخيراً رمى إليه نيقولاي فسيفولودوفتش حزمة الأوراق كلها، وهو ما يزال يضحك ضحكاً مجلجلاً، واستأنف سيره، ولكنه استأنفه في هذه المرة وحيداً. كان المتشرد جاثماً على ركبتيه في الوحل، ما يزال يبحث عن الأوراق التي بعثرتها الرياح فسقطت في البرك. وظلت صرخاته الصغيرة: "آه... آه... " تترجع في الظلمات مدة طويلة.

الفصل الثالث

المبارزة

1

تمت المبارزة في الغد، في الساعة الثانية بعد الظهر. إن رغبة القتال العنيفة التي كانت تتأرجح نارها في قلب آرتمي بافلوفتش وتدفعه إلى المبارزة مهما كلف الأمر قد عجلت الأحداث. وهو لم يستطع أن يفهم سلوك خصمه فكان خارجاً عن طوره وكان الغضب يستعر في كل نفسه. إنه يهين خصمه بغير داع منذ شهر، ثم لا يتوصل إلى إفقاده صبره. فكان لا بد له حتماً من أن يطلبه نيقولاي فسيفولودوفتش إلى المبارزة، لأنه كان لا يملك أي حجة أو ذريعة لأن يطلبه هو إلى المبارزة. وكان من جهة أخرى يستحي أن يعترف بالبواعث الخفية التي تحضه على هذا السلوك، أعني الكره الفظيع الرهيب الذي كان يحمله لستافروجين بسبب ما ألحقه ستافروجين بشرف الأسرة من إهانة. كان يدرك هو نفسه أنه لا يستطيع أن يذكر هذا الباعث، لا سيما منذ أن قدّم إليه ستافروجين اعتذارات بلغت غاية المذلة، مرتين. وكان جاجانوف قد اعتقد في قرارة نفسه أن نيقولاي فسيفولودوفتش ليس إلّا جباناً. إنه لم يستطع أن يدرك لماذا لم يثأر نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين للصفعة التي تلقاها من شاتوف. وفي ذلك الحين إنما عزم أمره أخيراً على أن يكتب إليه تلك الرسالة التي اشتملت على فظاظة لا مثيل لها، فاضطر ستافروجين عندئذ أن يطلبه إلى المبارزة. كان جاجانوف، بعد أن بعث رسالته، ينتظر الجواب محموماً من شدة نفاد صبره، معدداً احتمالات النجاح كالمريض، منتقلاً من الأمل إلى اليأس ومن اليأس إلى الأمل بغير انقطاع. ومن أجل

أن يتهيأ لكل احتمال رجا مافريكي نيقولايفتش سلفاً أن يكون شاهده: إن مافريكي رفيق طفولته، وهو يقدّره قدراً عظيماً. وهكذا، فإن كيريلوف حين ذهب في صباح الغد إلى جاجانوف، وجد الأرض ممهدة إن صح التعبير.

رفض جاجانوف جميع الاعتذارات والتنازلات الكثيرة التي حملها إليه كيريلوف من عند ستافروجين، رفضها منذ أول كلمة، رفضاً قوياً قاطعاً. وقد شُده مافريكي نيقولايفتش الذي لم يكن يعرف تفاصيل الأمر إلّا أمس، شُده كثيراً حين سمع تلك العروض التي يعرضها ستافروجين وأراد أن يلحّ من أجل حل المسألة حلاً ودياً، لكنه لم يسعه إلّا أن يصمت حين رأى وضع جاجانوف الذي حزر ما كان ينتويه مافريكي فكان يضطرب على كرسيه اضطراباً عصبياً قوياً. لولا أن مافريكي كان قد وعد جاجانوف بمساعدته في هذا الأمر، لانصرف فوراً، لكنه بقي آملاً أن يتدخل فيما بعد، بطريقة أو بأخرى، لتحاشي وقوع كارثة.

نقل كيريلوف الشروط التي يعرضها ستافروجين للمبارزة، فقبلها جاجانوف جميعها دون أي اعتراض، ولكنه طلب إضافة بند آخر إليها، بند قاس من جهة أخرى، وهو أنه إذا انطلقت الرصاصتان الأوليان فلم تقع إصابة حاسمة، كان على المتبارزين أن يطلقا مرة ثانية، فإذا لم تفلح المرة الثانية، أطلقت النار مرة ثالثة. والحق أن كيريلوف قد استاء من هذه المرة الثالثة، وأصر في أول الأمر على أن تعد المبارزة منتهية بعد الإطلاق الثاني لكنه اضطر أن يرضخ أخيراً، ملحاً مع ذلك "على أنه لا مجال لإطلاق رابع حتماً". فتم الاتفاق على هذه النقطة.

هكذا أمكن أن تتم المبارزة في الساعة الثانية بعد الظهر من ذلك اليوم نفسه، في قرية بريكوفو، عند غابة تقع بين أملاك سكفورشنيكي ومصنع شبيجولين. كان المطر قد انقطع عن الهطول تماماً، ولكن الجو رطب، والأرض مبتلة، وكانت ريح قوية تطرد السحب الواطئة الشهباء المتقطعة التي تتلاحق سريعة في السماء الباردة. وكانت الأشجار تحني هاماتها للريح وكان لأوراقها حفيف قوي وصريف صاخب. إنه نهار حزين كئيب.

وصل جاجانوف ومافريكي نيقولايفتش إلى المكان في عربة أنيقة ذات مقاعد طويلة، وكانت العربة يجرها حصانان يقودهما جاجانوف بنفسه. وكان يصحب الرجلين خادم. ولحق بهما ستافروجين وكيريلوف على مسافة قريبة، ممتطيين صهوتي حصانين، وكان يصحبهما خادم هما أيضاً. ولم يكن كيريلوف قد ركب حصاناً قبل الآن، فكان جالساً على السرج كأنه الوتد جموداً وتصلباً، ولكن على جسارة وشجاعة. إنه يمسك بيده اليمنى الصندوق الثقيل الذي يضم المسدسين ولم يشأ أن يعهد به إلى الخادم، ويشد بيده اليسرى على لجام الحصان من قلة الخبرة، لذلك كان حصانه يهز رأسه، ويهم أن يشب في كل لحظة، لكن ذلك لم يكن يروّع الفارس فيما يظهر.

إن جاجانوف رجل سريع التأذي حاد المزاج عارم الغضب، لذلك عدّ ركوب الحصان للوصول إلى مكان المبارزة إهانة جديدة له: فكأن خصمه واثق إذن من انتصاره ثقة تامة ما دام لم يرَ ضرورة لإعداد عربة تقلّه إذا جُرح. فنزل جاجانوف من عربته أصفر اللون من شدة الحنق. وكانت يداه ترتعشان، وسرعان ما أطلع مافريكي نيقولايفتش على ذلك. وحيّاه ستافروجين من بعيد فأشاح وجهه ولم يرد على التحية. وتولى الشاهدان سحب القرعة لتوزيع المسدسات، فكان مسدسا كيريلوف من نصيب ستافروجين. وعدت الخطوات، وحدّد الموضعان اللذان يجب أن يقف فيهما الخصمان.

يؤسفني أن ضرورات القصة تضطرني أن أغفل كثيراً من التفاصيل مع أن بعضها خليق بأن يذكر. كان مافريكي نيقولايفتش يبدو حزيناً مهموماً. ولا كذلك كيريلوف، فقد كان يبدو هادئاً كل الهدوء، غير مكترث البتة. إنه ينفّذ الواجبات التي أخذها على عاتقه تنفيذاً دقيقاً، ولكن دون أي اضطراب، حتى لكأنه لا يبالي كثيراً بالنتيجة التي سيسفر عنها هذا اللقاء. وكان نيقولاي فسيفولودوفتش أكثر شحوباً مما يكون شاحباً في العادة. وهو يرتدي معطفاً خفيفاً ويضع على رأسه قبعة بيضاء من قماش الكستور. كان يبدو عليه التعب والإرهاق، وكان يقطب حاجبيه بين الفينة والفينة لأنه لا يرى أن من

الضروري أن يخفي اعتكار مزاجه. غير أن منظر آرتمي بافلوفتش كان هو المنظر الغريب في تلك اللحظة. هل يعقل ألا أقول بضع كلمات عن هذا الشخص؟

2

لم تتح لي حتى الآن فرصة وصف مظهره الخارجي. إنه رجل طويل القامة، بدين، قد أحسنت تغذيته، على حد التعبير الشعبي، أبيض اللون، أشقر الشعر قليله، أميل إلى ملاحة الوجه، في نحو الثالثة والثلاثين من العمر. كان هذا الرجل قد طلب إحالته على التقاعد وهو برتبة كولونيل، فلو أنه بلغ رتبة جنرال لاكتست هيئته مزيداً من المهابة أيضاً. ولعله يكون عندئذ جنرالاً ممتازاً.

وتجدر الإشارة هنا، من أجل إبراز الصفات التي تميز بها آرتمي بلوفتش، إلى أن السبب الأساسي الذي حضه على الاستقالة إنما هو تلك الفكرة الأليمة، الماثلة في ذهنه دائماً، وهي فكرة العار الذي لحق باسمه في أعقاب الإهانة التي أنزلها ستافروجين بأبيه. فلقد اعتقد صادقاً أنه ليس من الشرف في شيء أن يستمر في عمله بالجيش، واعتقد أن وجوده يلوث شرف فرقته ورفاقه، مع أن أحداً من هؤلاء لم يكن قد سمع شيئاً عن ذلك الحادث الذي وقع لأبيه. على أن آرتمي بافلوفتش كان قد أوشك أن يستقيل حتى قبل الإهانة التي ألحقها ستافروجين بأبيه، قبلها بمدة طويلة، ولكنه عدل عن ذلك في آخر لحظة. ومهما يبدو لكم الأمر غريباً، فالواقع أن بيان 19 شباط (فبراير) القاضي بإلغاء الرق هو الذي حضه يومئذ على ترك الجيش. إن آرتمي بافلوفتش، وهو من أثرى أثرياء السادة في مقاطعتنا، لا يدمر بيان 19 شباط ثراءه، حتى إن آرتمي بافلوفتش قادر على أن يقدر الطابع الإنساني الذي يتسم به ذلك الإجراء، وعلى أن يفهم منافعه الاقتصادية تقريباً، ولكن آرتمي بافلوفتش أحس فجأة بأن صدور هذا القرار يكاد يكون شتماً له هو. لم يكن هذا إلّا نوعاً من عاطفة لا شعورية، ولكن كون العاطفة لا شعورية هو

الذي يهب لها القوة والشدة. ولم يعزم أمره ولا خطا خطوة حاسمة ما ظل أبوه حياً. لكن "نبالة" آرائه قد احترمها وقدّرها عدد من الشخصيات ذات الشأن، التي كانت له بها علاقات وثيقة. كان رجلاً منطوياً على نفسه مغلقاً. يجب أن نذكر أيضاً هذا: لقد كان ينتمي إلى ذلك الصنف من السادة الذين ما نزال نلقاهم في روسيا، والذين يقيمون وزنا كبيراً لعراقة محتدهم ونقاء سلالتهم، ويهتمون بذلك اهتماماً فيه غلوّ. وكان في الوقت نفسه يكره التاريخ الروسي، ويرى العادات الروسية على وجه العموم مثيرة للاشمئزاز بعض الشيء. وهو منذ طفولته، في تلك المدرسة العسكرية الخاصة[1] الموقوفة على التلاميذ النبلاء الأثرياء، التي شُرّف ببدء وإنهاء دراسته فيها، قد تعلق ببعض الأفكار التي كانت تبدو له شعرية: فكان يحب القلاع والقصور وحياة القرون الوسطى، وجانبها الزخرفي، والفروسية. كان منذ ذلك الحين يكاد يبكي من شدة الشعور بالعار حين يتصور أن القياصرة الموسكوبيين القدماء كانوا ينزلون في النبلاء الروس عقوبات جسدية، وكانت المقارنات التي تفرض نفسها عليه بهذا الصدد تجعله يحمرّ خجلاً وحياء. إن هذا الرجل الصلب القاسي الذي كان يعرف مهام وظيفته معرفة رائعة، ويقوم بواجباته على أكمل نحو، كانت نفسه نفس إنسان حالم على وجه العموم. ويقال إنه كان يمكنه أن يلعب دوراً في المجالس، لأنه كان يملك موهبة الخطابة ومع ذلك كان صموتاً طوال حياته، وكان في مظهره تكبر واستعلاء حتى في المجتمع البطرسبرجي العالي الذي أخذ يتردد عليه في هذه السنين الأخيرة. ولقد كاد التقاؤه، في بطرسبرج، بنيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين، أن يجعله مجنوناً. وهو الآن، إذ يجد نفسه في مواجهته على الجانب الآخر من الحاجز، يشعر بقلق فظيع. كان يخيل إليه طوال الوقت أن حادثاً سيحدث

---

(1) "تلك المدرسة العسكرية الخاصة": هي مدرسة الحرس الامبراطوري ببطرسبرج التي كان لا يقبل فيها إلا أبناء أو أحفاد جنرالات. إن تلاميذ هذه المدرسة يقومون بدور الحرس الغلمان في احتفالات البلاط الامبراطوري، ويتخرجون من المدرسة ضباطاً في الحرس. وقد تحدث "الفوضوي ـ الأمير" عن هذه المدرسة في مذكراته.

فيحول دون قيام المبارزة، فكان أيسر إبطاء يجعله يرتجف ارتجافاً من شدة نفاد صبره. لذلك تقبض وجهه تقبضاً أليماً حين أخذ كيريلوف فجأة يتكلم، بدلا من إطلاق إشارة بدء القتال، فيقول من باب التقيد بالشكل، كما أعلن ذلك هو نفسه:

- الآن وقد تسلحتما ولم يبق علي إلّا أن أطلق إشارة القتال، فإنني أعرض عليكما لآخر مرة أن تتصالحا. إنني لا أتكلم إلّا من باب التقيد بالشكل. فهذا واجبي بصفتي شاهدا.

وهذا هو مافريكي نيقولايفتش الذي لزم الصمت حتى ذلك الحين، ولكنه لم يكفّ عن لوم نفسه على ضعفه منذ أمس، يتدخل فوراً، بمصادفة تشبه العمد، فيقول مؤيداً اقتراح كيريلوف:

- إنني أثني على أقوال السيد كيريلوف، وأضم صوتي إلى صوته. وليست الفكرة القائلة بأن المصالحة لا تتم على أرض القتال إلّا وهماً من الأوهام الاجتماعية الباطلة التي تصلح للفرنسيين في أكثر تقدير!.. على كل حال، لكما ما تشاءان، غير أنني لا أرى أن هناك إساءة قد وقعت، أو أن هناك إهانة قد لحقت أحداً!... لقد وددت لو أقول هذا الكلام منذ مدة طويلة... ما دام ثمة استعداد لتقديم كل الاعتذارات الممكنة.. أليس هذا صحيحاً؟

قال مافريكي ذلك واحمرّ احمراراً شديداً. إنه قلما قال كلاماً طويلاً هذا الطول كله، وبمثل هذا الاندفاع كله!

وهنا أسرع نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين يتدخل قائلاً:

- إنني أؤكد مرة أخرى ما سبق أن عرضته من تقديم كل الاعتذارات الممكنة.

فصاح جاجانوف يقول خارجاً عن طوره، ملتفتاً نحو مافريكي نيقولايفتش، حتى لقد ضرب الأرض بقدمه من شدة غضبه:

- مستحيل! قل لهذا السيد يا مافريكي نيقولايفتش، ما دمت شاهدي لا عدوّي، قل لهذا السيد (وأومأ بطرف مسدسه إلى ستافروجين) أن ما يعرضه من تنازلات لا يزيد على أن يفاقم الإهانة. فهو يرى أن الإهانات التي تصدر

عنـي أنـا لا تناله هو بأذى ولا تلحق بـه خزياً! إنه يرى أنه لا عـار عليه إذا هو تهـرب منـي!... فماذا يظننـي إذن؟ ثم إنه قد قال كلامـه أمامك، فلم تغضب لكرامتـي التي تهان، فكيف تكون شـاهدي؟ إنك لا تزيـد على أن تثير غيظي حتى لا أصيبه.

قال ذلك وضرب الأرض بقدمه مرة أخرى، وكان الزبد يخرج من فمه.

صرخ كيريلوف قائلاً بكل ما أوتي من قوة:

ـ انتهى التفاوض. واحد! اثنان! ثلاثة!

فلمـا قال "ثلاثة"، اتجه الخصمان أحدهما نحو الآخر. وسـرعان ما رفع جاجانوف مسدسه بعد خمس أو ست خطوات، وأطلق. ووقف لحظة، فلما لاحظ أنه لم يصب سـتافروجين أسـرع نحو الحاجز. فسـار ستافروجين إلى لقائـه ورفع مسدسـه، لكنه تعمـد أن يرفعه أكثر مما يجـب، بحيث لا تصيب الرصاصـة هدفها، وأطلق دون أن يصـوّب تقريباً. فعل ذلك ثم أخرج منديله ولـفّ به إصبـع يده اليمنـى. وعندئذ فقط إنمـا رأى آرتمـي بافلوفتش أنه لم يخطـئ خصمه تماماً، ولكن رصاصته انزلقت على طول إصبعه دون أن تبلغ منها العظم، فلم تزد الإصابة على أن تكون خدشاً. وأسرع كيريلوف يقول إن المبارزة ستستمر إذا لم يكتف الخصمان بهذا اللقاء الأول.

قـال جاجانوف بصوت مختنق (وكان حلقـه جافاً)، قال وهو يلتفت نحو مافريكي نيقولايفتش من جديد:

ـ إننـي أعلن أن هذا الرجل (وأومأ إلى سـتافروجين مرة أخرى) قد تعمد أن يطلـق رصاصة في الهواء... نعم، تعمد ذلـك بإرادته. فهذه إهانة جديدة، هذه مسبّة أخرى يوجهها إلي... إنه يريد أن يجعل المبارزة مستحيلة.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش جازماً:

ـ من حقي أن أطلق كما أريد، شريطة ألا أخلّ بالقواعد المقررة.

فأجاب جاجانوف صارخاً:

ـ لا، ليس من حقه. قل له هذا! ما بالك لا تقول له!

تدخل كيريلوف فقال:

ـ إنني أشارك نيقولاي فسيفولودوفتش رأيه كل المشاركة.

وتابع جاجانوف صراخه يقول دون أن يصغي إلى أحد:

ـ لماذا يتجنب أن يصيبني. إنني أحتقر سماحته هذه... إنني أبصق على... إنني...

فأجابه ستافروجين وقد نفد صبره:

ـ أقسم لك بشرفي أنني لم أشأ إهانتك البتة. وإنما أنا أطلقت في الهواء لأنني أصبحت لا أريد أن أقتل أحداً، لا أنت ولا أيّ شخص آخر. الأمر لا يتناولك. صحيح أنني لا أرى أنني أهان، ويؤسفني كثيراً أن هذا قد أغضبك. ولكنني لن أسمح لأحد بأن يحرمني من استعمال حقي.

أعول جاجانوف يقول متوجهاً بكلامه إلى مافريكي نيقولايفتش أيضاً:

ـ إذا كان يخشى سفح الدم إلى هذه الدرجة من الخشية، فاسأله لماذا طلبني إلى المبارزة؟

قال كيريلوف:

ـ كيف كان يمكنه أن لا يطلبك إلى المبارزة؟ إنك لم تشأ أن تسمع شيئاً. فلم يكن هناك وسيلة للتخلص منك غير هذه الوسيلة!

قال مافريكي نيقولايفتش بجهد ظاهر، وقد آلمه مجرى هذه القضية كثيراً:

ـ أحب أن ألفت النظر إلى أن المبارزة لا يمكن أن تستمر بالفعل إذا أعلن أحد الخصمين أنه سيطلق في الهواء... وذلك لأسباب دقيقة.. وواضحة...

فصاح ستافروجين يقول وقد ذهب عنه كل صبره:

ـ أنا لم أعلن بتاتاً أنني سأطلق في الهواء في كل مرة. إنك لا تعرف ما هي نياتي التي أضمرها، ولا تعرف كيف سأطلق النار في المرة التالية... إنني لا أضع أي عائق يحول دون إتمام المبارزة.

قال مافريكي نيقولايفتش لجاجانوف:

ـ إذا كان الأمر كذلك فالمبارزة تستمر.

وهتف كيريلوف آمراً:

ـ ليقف كل منكما في مكانه أيها السيدان!

وعاد الخصمان يتجه كل منهما نحو الآخر من جديد. ومرة أخرى أخطأ جاجانوف خصمه نيقولاي فسيفولودوفتش الذي أطلق النار في الهواء هذه المرة. غير أن طلقتي نيقولاي فسيفولودوفتش يمكن أن تكونا محل مناقشة، ولولا أنه اعترف هو نفسه بأنه أطلق في الهواء عامداً لكان في إمكانه أن يدعي أنه صوب فأحسن التصويب، لأنه في الواقع لم يسدّد سلاحه نحو السماء أو نحو قمة شجرة، وإنما كان يسدّده إلى ما فوق قبعة خصمه قليلاً. حتى أن تسديده في المرة الثانية كان أخفض من تسديده في المرة الأولى، كأنما ليبرهن على صدق إرادته. ولكن تهدئة جاجانوف أصبحت الآن مستحيلة.

قال جاجانوف وقد كزت أسنانه:

ـ أيضاً. ولكن لا فرق عندي! لقد دُعيت إلى المبارزة فلي أن أستعمل حقي. أريد أن أطلق مرة ثالثة... مهما كلف الأمر!

قال كيريلوف موافقاً على كلامه بلهجة جافة:

ـ هذا حقك.

ولزم مافريكي نيقولايفتش الصمت. وعاد الخصمان إلى موقعيهما مرة ثالثة أخيرة، وسارا أحدهما نحو الآخر بأمر من كيريلوف. فتقدم جاجانوف حتى وصل إلى الحاجز، فلما صار هناك، على مسافة اثنتي عشرة خطوة، صوب إلى ستافروجين. ولكن يديه كانت ترتعشان ارتعاشاً يبلغ من القوة أنه كان يستحيل عليه أن يحسن التسديد. ووقف نيقولاي فسيفولودوفتش جامداً خافضاً مسدسه ينتظر طلقة عدوه.

صرخ كيريلوف بصرامة وعنف:

ـ أطلت... أطلت التسديد كثيراً! أطلق، أطلق بسرعة!

وانطلقت الرصاصة، فإذا بقبعة الكستور الأبيض التي كانت على رأس نيقولاي فسيفولودوفتش، تتدحرج على الأرض. لقد ثقبت القبعة في موضع منخفض، فلو جاءت الطلقة أخفض بمقدار سنتمتر واحد، لانتهى كل شيء.

تناول كيريلوف القبعة من الأرض، ومدها إلى نيقولاي فسيفولودوفتش.

صرخ مافريكي نيقولايفتش يقول وقد رأى ستافروجين كمن نسي جاجانوف، وأخذ يدقق النظر في القبعة مع كيريلوف، صرخ يقول ستافروجين بانفعال شديد:

ـ أطلق! لا تجعل خصمك ينتظر طويلاً!

فارتعش ستافروجين، ونظر إلى جاجانوف، ثم أشاح بوجهه عنه. ودون أن يكلف نفسه هذه المرة حتى عناء التظاهر، أفرغ مسدسه باتجاه الغابة. وانتهت المبارزة.

لبث جاجانوف واقفاً كالمتجمد. واقترب منه مافريكي نيقولايفتش، فقال له بضع كلمات. ولكن لم يبدُ على جاجانوف أنه سمعها. وحين انصرف كيريلوف رفع قبعته محيياً مافريكي نيقولايفتش. أما ستافروجين، المهذب في العادة، فإنه لم يلتفت نحو خصمه بعد أن أطلق رصاصته في اتجاه الغابة، وإنما مدّ مسدسه إلى كيريلوف بحركة مفاجئة، واتجه مسرعاً إلى المكان الذي ربطت فيه الخيول. كان وجهه قد اكتسى تعبيراً خبيثاً. وكان صامتاً. وكان كيريلوف صامتاً كذلك. وركبا حصانيهما، ومضيا خبباً.

3

صاح ستافروجين يسأل كيريلوف بنفاذ صبر:

ـ ما بالك تصمت ولا تتكلم؟

وكانا قد أصبحا غير بعيدين عن البيت. فأجابه كيريلوف:

ـ ماذا تريد أن أقول لك؟

وشب حصان كيريلوف فأوشك كيريلوف أن يسقط.

سيطر ستافروجين على نفسه. وقال بصوت خافت:

ـ كنت لا أريد أن أهين ذلك.. الغبي، ومع ذلك أراني قد أهنته مرة أخرى.

فقال كيريلوف بلهجة قاطعة:

ـ نعم أهنته مرة أخرى. ثم إنه ليس غبياً.

ـ فعلت مع ذلك كل ما استطعت أن أفعله.

ـ لا.
ـ ماذا كان يجب علي أن أفعل؟
ـ كان يجب ألا تدعوه إلى المبارزة.
ـ أأسمح إذن بأن أصفع مرة أخرى؟
ـ نعم.
ـ أصبحت لا أفهم شيئاً.
كذلك قال ستافروجين غاضباً واستطرد يقول:
ـ لماذا ينتظر مني جميع الناس ما لا ينتظرونه من أحد غيري؟ لماذا علي أن أحتمل ما لا يحتمله أحد، وأن أقبل من الأثقال ما لا يطيق أحد حمله؟
ـ كنت أظن أنك أنت نفسك تبحث عن هذه الأثقال.
ـ أنا؟ أبحث عن أثقال؟
ـ نعم.
ـ أهو ظاهر ملحوظ إلى هذا الحد؟
ـ نعم.
ولبثا صامتين بضع لحظات. كان ستافروجين يبدو مهموماً، بل مضطرباً أشد الاضطراب. واستأنف كلامه فقال قلقاً، كأنما هو يحاول أن يبرر سلوكه:
ـ لم أسدّد إليه لأنني لم أشأ أن أقتل أحداً. هذا هو السبب الوحيد. أؤكد لك.
ـ ما كان ينبغي لك أن تهينه.
ـ فماذا كان يجب أن أفعل إذن؟
ـ كان يجب أن تقتله.
ـ أيؤسفك أنني لم أقتله؟
ـ لست آسفاً على شيء. لقد ظننت أنك كنت تريد حقاً أن تقتله. إنك لا تعرف أنت نفسك ما الذي تسعى إليه وتبحث عنه.
قال ستافروجين ضاحكاً:
ـ أبحث عن أثقال.

فسأله كيريلوف:

ـ إذا كنت لا تريد سفح الدم، فلماذا أتحت له فرصة القتل؟

ـ لو لم أطلبه للمبارزة لقتلني بغير مبارزة.

ـ هذا ليس شأنك. لعله ما كان يقتلك.

ـ كان يمكن أن يكتفي بصفعي مثلاً؟

ـ هذا ليس شأنك. احمل أثقالك. وإلا فلا ميزة ولا فضل، ولا جدارة ولا استحقاق!

ـ إنني أبصق على هذا كله، ولا أسعى للحصول على أي ميزة أو فضل أو جدارة أو استحقاق.

ـ كنت أظن أنك تبحث عن ذلك وتسعى إليه.

هكذا ختم كيريلوف الحديث بهدوء يثير الغيظ.

واقترح عليه ستافروجين أن يدخل معه، قائلاً له:

ـ هل لك أن تجيء معي إلى البيت؟

فرد عليه كيريلوف:

ـ بل أنا عائد إلى مسكني. أستودعك الله.

ونزل عن الحصان، وتأبط صندوق المسدسات.

سأله ستافروجين وهو يمد إليه يده ليصافحه:

ـ ولكن أرجو أن تكون أنت على الأقل غير حاقد علي، هه؟

فأجابه كيريلوف عائداً إليه ليصافحه:

ـ لا، بتاتاً! إن أثقالي خفيفة، لأن هذا من طبيعتي، أما أثقالك أنت فهي أكبر، وذلك يتعلق بطبيعتك. ما يجب أن يستحي المرء من هذا كثيراً بل قليلاً.

ـ أنا أعلم أن لي طبيعة ضعيفة، لذلك ليس لي أي مطمع في القوة.

ـ تحسن صنعاً. ما أنت بالقوي. تعال زرني، فنشرب الشاي.

ودخل نيقولاي فسيفولودوفتش بيته مضطرباً اضطراباً شديداً.

وسـرعان ما أبلغه ألكسي إيجورتش أن فرفارا بتروفنا، وقد أسعدها كثيراً أن يخرج ابنها في نزهة على الحصان ـ هذه أول نزهة له بعد ثمانية أيام قضاها مريضـاً ـ قد أمـرت بإعداد عربتهـا وخرجت، كما كانت تفعـل في الماضي، لتستنشـق قليلاً من الهـواء الطري، لأنها بعد هذه الأيام الثمانية قد نسـيت ما هواء الشارع.

قاطعه ستافروجين فجأة يسأله:

ـ أخرجت وحدها أم مع داريا بافلوفنا؟

واكفهـر وجهه حين علم أن داريا بافلوفنا، لشـعورها بتوعك صحتها، قد رفضت أن تصحب فرفارا بتروفنا، وأنها الآن في شقتها.

قال له ستافروجين وكأنه اتخذ قراراً حاسماً على حين فجأة:

ـ اسـمع. راقبهـا اليـوم طوال النهـار، فإذا لاحظـت أنها آتية إلـى عندي، أوقفهـا فوراً وقل لها أنني لا أسـتطيع اسـتقبالها، على الأقـل خلال بضعة... وأنني أنا الذي أرجوها هذا الرجاء... وأنني سأسـتدعيها متى آن الأوان. هل تسمع؟

أجابه إيجورتش بصوت مضطرب وهو يخفض عينيه:

ـ سأقول لها ذلك.

ـ ولكن لا تقله لها إلّا إذا رأيت أنها تريد المجيء إلي.

ـ اطمئن بالاً، لن يحدث خطأ. فبواسـطتي أنـا إنما تمت المقابلات حتى الآن. إنها تتجه دائماً إلي.

ـ أعلم. ومع هذا، لا تتدخل أنت إلّا في آخر لحظة.

ولكـن ما كاد يخرج الخـادم العجوز حتى فتح الباب الذي كان قد أغلقه، فـإذا داريـا بافلوفنا تظهر في العتبـة. كانت نظراتها هادئـة، ولكن وجهها كان أكثر شحوباً مما عهد فيه من شحوب.

هتف ستافروجين يسألها:

ـ من أين جئت؟

ـ كنت وراء الباب أنتظر أن يخرج حتى أدخل. وسمعت ما قلته له، فلما خرج اختبئت في زاوية على اليمين فلم يبصرني.

ـ إنني أريد، منذ مدة طويلة، يا داشا، أن أقطع علاقتنا... إلى حين. لم أستطع أن أستقبلك هذه الليلة رغم رسالتك. وقد أردت أن أكتب إليك أنا نفسي، لكنني لا أعرف ماذا أكتب...أضاف هذه الجملة الأخيرة بغضب يكاد يمازجه اشمئزاز.

قالت داريا بافلوفنا:

ـ أنا أيضا كنت أرى أن نقطع علاقتنا. إن شبهات قوية تقوم في نفس فرفارا بتروفنا.

ـ فلتظن ما يشاء لها هواها أن تظن.

ـ ما ينبغي لها أن تقلق. وإذن لم يبق علينا إلّا أن ننتظر النهاية.

ـ أما تزالين واثقة بأن سيكون ثمة نهاية حتماً؟

ـ نعم، أنا واثقة.

ـ لا شيء ينتهي في هذا العالم.

ـ ولكن في هذا الأمر سيكون ثمة نهاية. نادني عندئذ فأجيء. والآن أستودعك الله.

سألها وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

ـ وما عسى تكون تلك النهاية؟

فسألته دون أن تجيب على سؤاله:

ـ ألم تجرح؟... و... ألم تسفح دماً؟

ـ جرى كل شيء مجرى غبياً أحمقاً. لم أقتل أحداً، لا تخافي. على كل حال، ستعرفين التفاصيل في هذا اليوم نفسه. سيتكلم عنها جميع الناس. لا أشعر بأن صحتي حسنة.

ـ أنا ذاهبة.

ثم أضافت تسأله بتردد:

ـ هل اليوم تعلن الزواج؟
ـ لا، لا اليـوم، ولا غداً. بعد غد... لسـت أدري. قد نموت جميعاً. وهذا أفضل. دعيني، دعيني أخيراً!
ـ هل تكون سبباً في ضياع الأخرى... الملتاثة العقل؟
ـ لـن أهلـك المجنونات... لا هـذه المجنونة ولا تلـك... ولكنني أعتقد أنني سـأضيع العاقلة الحكيمة: أنا أبلغ من الحقارة والدناءة والخسـة يا داشا أننـي ربمـا ناديتك أنت "في آخـر الأمر"، كما تقولين، فإذا بـك تهرعين ملبية النداء، رغم كل ما تتصفين به من عقل وحكمة. لماذا تضيعين نفسك؟
ـ أنا أعلم أنني في النهاية سأبقى وحدي معك. و... أنا أنتظر تلك اللحظة!
ـ وإذا لم أنادك في النهاية، بل هربت؟
ـ هذا لن يكون. ستناديني.
ـ إن ما تقولينه يشتمل على كثير من الاحتقار.
ـ أنت تعلم أن الأمر ليس أمر احتقار فحسب.
ـ معنى هذا أن فيه شيئاً من الاحتقار على كل حال؟
ـ أسـأت أنـا التعبير. يشـهد الله أنني أتمنـى أن لا تحتاج إلـيّ في يوم من الأيام.
ـ أبدلت جملة بجملة تعادلها. أنا أيضاً أتمنى أن لا أكون سبباً في ضياعك.
ـ لـن تستطيع يوماً، بحال من الأحـول، أن تضيعني. وإنـك لتعرف ذلك خيراً مما أعرفه.

كذلك أجابت داريا بافلوفنا بحرارة ولهجة قاطعة. واستطردت تقول:
ـ إذا لـم أجـئ إلـى قربـك، سـأصير راهبة مـن راهبـات المحبـة، أعتني بالمرضى، أو أصبح بائعة متجولة أبيع الأناجيل في القرى. لقد عزمت أمري واتخـذت قـراري. لا أسـتطيع أن أتـزوج، ولا أسـتطيع أن أعيش فـي منازل كهذه. ما أريده شيء آخر... إنك تعرف كل شيء.
ـ لا، لم أستطع في يوم من الأيام أن أعرف ما تريدين. يبدو لي أنك تهتمين بي قليـلاً كبعض الممرضات العجائز اللواتي يعتنيـن بواحدة من مريضاتهن

أكثـر مـن سـائر المريضات ـ لا يـدري أحد لمـاذا ـ أو كبعض تلـك العجائز اللواتـي يحببن دفن الموتـى ويرين أن هذه الجثة أجمل من تلك الأخرى. ما بالك تنظرين إلي بهيئة غريبة عجيبة إلى هذا الحد؟

سألته بلهجة فيها كثير من الشفقة وهي تنظر إليه بانتباه خاص:

ـ أأنت مريض جداً؟ رباه كيف يريد هذا الرجل أن يستغني عني؟

ـ اسـمعي يـا داشـا، إنني الآن تظهر لي أشـباح دائمـاً. فبالأمس مثلا ظهر لي شـيطان صغير على الجسـر، وعرض علي أن يقطع عنـق لبيادكين وماريا تيموفيئفنا، فأنتهي من زواجي الشـرعي، ولا يتحدث عنه أحد بعد ذلك أبداً. وسألني الشيطان الصغير أن أدفع له عربوناً قدره ثلاثة روبلات، لكنه أفهمني بوضـوح أن العمليـة كلهـا لـن تكلفني أقل من ألـف وخمسـمائة روبل. هذا شيطان يجيد الحساب. إنه حيسوب! هأ هأ هأ!.

ـ أأنت واثق بأن ذلك لم يكن إلّا شبحاً؟

ـ لا، لـم يكـن شـبحاً، وإنما هـو فدكا قاطـع الطريق، الهارب من سـجن الأشـغال الشـاقة. ولكن ليس الأمر هذا. هل تعرفين ماذا فعلت؟ لقد أعطيته كل ما كان في محفظتي من مال، وهو الآن مقتنع بأنني دفعت له عربوناً.

ـ لقيته ليلاً، وعرض عليك ذلك العرض؟ ولكن ألسـت ترى إذن أنك قد وقعت في شباكهم وانتهى الأمر؟

ـ ليكن ما يكون!

ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة خبيئة:

ـ ولكنني أرى هناك على طرف لسانك سؤالا تريدين أن تلقيه!

خافت داشا.

ـ أي سؤال؟ ليس ثمة سؤال البتة. ليس عندي أيسر شك. اسكت.

كذلـك صاحـت مضطربة أشـد الاضطـراب، كأنهـا أرادت أن تدفع عن نفسها ذاك السؤال.

ـ أأنت واثقة بأنني لن أستعين بفدكا، ولن أذهب إلى دكانه؟

قالت داريا بافلوفنا وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى:

ـ رباه! لماذا يعذبني هذا التعذيب؟

ـ اغفري لي هذه المزحة السخيفة! لعلني سَرَت إليّ عدوى عاداتهم السيئة! هل تعلمين أنني، منذ ليلة البارحة، تستبد بي رغبة رهيبة في الضحك، في الضحك بلا توقف، مدة طويلة، دائماً... لكأنني مصاب بمرض الضحك. انتبهي! هذه أمي تصل. عرفت ضجة مركبتها واقفة أمام درجات المدخل.

أمسكت داشا يده.

ـ أسأل الله أن يحميك من شيطانك! و... نادني... نادني بأقصى سرعة.

ـ شيطاني؟ ما هو إلّا شيطان صغير مصدور، مزكوم، فاشل. ولكن ها أنت ذي مرة أخرى لا تجسرين أن تعبري عن فكرتك يا داشا!

ألقت عليه داشا نظرة مثقلة بالألم والعتب، واتجهت نحو الباب. فهتف يقول لها، وهو يبتسم ابتامة متشنجة، ابتسامة خبيثة:

ـ اسمعي يا داشا! إذا... الخلاصة... "إذا"... هل فهمت؟ "إذا" أنا استعنت بفدكا وذهبت إلى دكانه، ثم ناديتك بعد ذلك، فهل تجيئين، هل تجيئين حتى بعد ذهابي إلى دكانه؟

خرجت داريا بافلوفنا دون أن تلتفت، ودون أن تجيب، مخفية وجهها بين يديها.

ودمدم نيقولاي فسيفولودوفتش يقول بعد لحظة من تفكير، وقد ألم بوجهه تعبير عن احتقار واشمئزاز:

ـ نعم، ستهرع إلي، حتى بعد ذهابي إلى دكان فدكا. ممرضة! هم!... على كل حال، ربما كان هذا بعينه هو ما أنا بحاجة إليه.

الفصل الرابع
الجميع ينتظرون

1

انتشرت حكاية المبارزة بسرعة، وأحدثت في النفوس تأثيراً قوياً وأسرع جميع الناس ينحازون إلى صف نيقولاي فسيفولودوفتش. إن عدداً كبيراً ممن كانوا أعدائه حتى ذلك الحين قد أصبحوا الآن أصدقاء له. وكان مرد هذا الانقلاب في الرأي العام، هذا الانقلاب غير المتوقع، كان مَرَدّه في جلّه إلى تدخل شخصية ظلت متحفظة خلال مدة طويلة، ولكنها قالت في الوقت المناسب كلمات محكمة اجتذبت إجماع رأي جميع الناس، إذ أضفت على الحادث معنى جديداً شائقاً. إليكم كيف حدث هذا:

في غداة يوم المبارزة، كان المجتمع كله محتشداً عند زوجة عميد النبالة التي كانت تحتفل بعيد ميلادها. وقد حضرت جوليا ميخائيوفنا هذا الاجتماع، بل قد ترأسته. وقد وصلت إلى الحفلة مع ليزافتا نيقولايفنا التي كانت مشرقة الجمال مرحة المزاج خاصة، وذلك أمر بدا لكثير من سيداتنا منذ الوهلة الأولى محل شبهة وريب. يجب أن أقول في هذه المناسبة إن خطوبتها مع مافريكي نيقولايفتش أصبحت لا تحتمل الشك. فلقد قالت جوليا ميخائيلوفنا، مجيبة عن سؤال ألقاه عليها جنرال محال على التقاعد، وهو شخص خطير الشأن سأتكلم عنه بعد قليل، قالت إن ليزافتا نيقولايفنا مخطوبة. ومع ذلك لم تقبل واحدة من هاته السيدات أن تصدق النبأ. فهن جميعاً مصرات إصراراً عنيداً على تخيل لا أدري أية قصة، لا أدري أية حكاية

عجيبة ملغزة يقال إنها حدثت في سويسرا ويقال إن جوليا ميخائيلوفنا داخلة فيهـا لا أدري كيف! إنه ليصعب على المـرء أن يقول كيف صدق الناس هذه الشـائعات بل هـذه التخيلات إلى هذا الحد من التصديـق، ولماذا يحرصون هذا الحرص المطلق على إقحام اسـم جوليا ميخائيلوفنا فيها. فما إن دخلت حتى التفت نحوها جميع الناس بنظرات مثقلة اسـتطلاعاً. ويحسـن أن نشير إلـى أن الناس كانوا في تلك السـهرة لا يتحدثون عـن المبارزة إلّا محاذرين، بصـوت خافت، وذلك بسـبب حداثتها وبسـبب ظـروف خاصـة صاحبتها. يضـاف إلى ذلك أنهم يجهلون ما عسـى يكون موقف السـلطات. على أنهم كانـوا يعرفـون أن الخصمين المتبارزين لم تتعرض لهم الشـرطة بأي إقلاق، وأن جاجانـوف قد اسـتطاع أن يرجع صباحـاً إلى منزله فـي دوخوفو. وكان جميـع الناس ينتظرون بفارغ الصبر طبعـاً أن ينبري أحد للكلام عن الحادث بصـوت عـال، فيفتح الباب بذلـك لحب الاطلاع الـذي كان يغلي في جميع الصـدور. وكانت آمال الحشـود معقودة بخاصة على الجنرال الذي أشـرت إليه منذ برهة. ولم يخب ظنهم.

كان الجنـرال، وهـو واحـد مـن أبـرز أعضـاء نادينـا، رجـلاً مـن مالكي الأراضـي ليس على جانب كبيـر من الغنى والثراء، لكنه متوقد الذهن محكم الآراء، يحـب التودد إلى الآنسـات والتلطف معهن، ويهوى خاصة أن يتكلم في المجتمع جهاراً بكل ما تهبه له رتبة الجنرال من سلطة وسطوة، أن يتكلم عن أمور لا يسمح الناس لأنفسهم أن يتكلموا فيها إلّا همساً بعد، في الأركان والزوايـا النائيـة. وذلـك كان دوره بيننا إن صح التعبير. ثـم إنه يتكلم بصوت يتصنع العذوبة، ماطّاً كلماته، ولعله اكتسـب هذه العادة من معاشـرة الروس الذين يسافرون إلى الخارج أو من معاشرة السّراة القدامى الذين دمّر ثرواتهم تحريـر الفلاحين. حتى أن سـتيفان تروفيموفتش قد ذكر ذات يوم أن المالك مـن مالكـي الأراضـي يكون صوتـه أقرب إلى اصطنـاع العذوبـة ويكون في كلامـه أميل إلى مـط الألفاظ، على قـدر ما تكون قوانين الإصـلاح الزراعي قد نالت ثراءه بأذى أكبر. على أن سـتيفان تروفيموفتش كان هو نفسـه يجعل

صوته حلواً ممطوطاً، ولكن دون أن يلاحظ ذلك بتاتاً.

ولقد تكلم الجنرال كلام رجل مختص خبير: إنه وهو يمت إلى جاجانوف بقربى بعيدة، كانت علاقاته به سيئة، بل لقد كان بينهما دعاوى تنظر فيها المحاكم. يضاف إلى ذلك أن قام في الماضي بمبارزتين حتى إن إحدى هاتين المبارزتين قد كلفته ثمناً باهظاً، هو أنه أُرسل إلى القوقاز جنديا بسيطاً[1].

أشار أحد الحضور إلى فرفارا بتروفنا التي بدأت تخرج بعد مرضها، بل إنه لم يشر إلى فرفارا بتروفنا نفسها وإنما أشار إلى مركبتها الفخمة التي تجرها أربعة أفراس شهباء من حظيرة التهجين التي يملكها آل ستافروجين. فإذا بالجنرال يقول فجأة أنه قد التقى هذا الصباح "بالفتى ستافروجين" راكباً حصاناً. فسرعان ما صمت الجميع. وحرك الجنرال شفتيه مغمغماً، ثم قال وهو يقلب بين يديه علبة ذهبية للتبغ هي هدية امبراطورية:

ـ يؤسفني أنني لم أكن هنا، منذ بضع سنين خلت. كنت أيامئذ في كارلسباد... هم... إن هذا الشاب الذي يسري بين الناس كلام كثير عنه يشوقني أمره جداً... هم... أصحيح أنه مجنون؟ لقد قيل ذلك في الماضي. وها أنذا أعلم أنه وقد أهين أمام قريباته ذات يوم قد مضى يختبئ تحت مائدة. وأمس قال لي ستيفان فرخوفنسكي إن ستافروجين قد اقتتل في مبارزة مع ذلك... الذي يسمى جاجانوف، لا لشيء إلّا لتحقيق غاية من غايات الفروسية هي أن يقدم جبينه هدفاً يرميه بالرصاص رجل حانق مسعور، تخلصاً منه لا أكثر. هم... ألا إن هذا هو نوع ضباط حرس سنة 1820. من ذا يعاشر هنا؟

وصمت الجنرال كأنه ينتظر جواباً. وبذلك فتح الباب لما كان يضطرم في نفوس أفراد مجتمعنا من نفاد الصبر.

---

(1) كانت المبارزات شائعة جداً في روسيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، رغم أنها ممنوعة قانوناً، فكان الضباط الذين يقومون بمبارزات يُجرَّدون من رتبهم العسكرية ويرسلون إلى القوقاز جنوداً لا أكثر.

فإذا بصوت جوليا ميخائيلوفنا التي أحنقها أن تشعر فجأة أنها محل أنظار الجميع، إذا بصوتها يعلو قائلاً على حين بغتة:

ـ أي شـيء أبسـط من هذا؟ لماذا يدهشنا أن يقتتل ستافروجين في مبارزة مـع جاجانـوف، وأن يزدري إهانـة طالب؟ ما كان له علـى كل حال أن يقاتل رجلاً كان في الماضي قنا من أقنانه!

كلمات من سحر! إن هذه الفكرة البسيطة لم تكن قد دارت في خلد أحد بعـد. وكان لهذه الجملة التي قالتها جوليـا ميخائيلوفنا نتائج خارقة. زال جو الفضيحـة. جميع التقولات والنمائـم والأقاصيص التـي كان يتناقلها الناس غابـت فـي الظل. اكتسـبت القضيـة كلها معنى جديـداً. إن شـخصية جديدة قد انكشـفت لنا، شـخصية كنا قـد أخطأنا في معرفتها، شـخصية بطل صلب يمثـل أرفع التقاليـد. إنه وقد نالته إهانة قاتلة من طالب، أي من شـاب متعلم ليـس الآن قنا، قد ازدرى الإهانة لأن الشـخص الـذي أهانه كان في الماضي عبداً لـه. ويضطرب الناس وتجري النمائم والتخرصات في طريقها، ويلطخ الناس بالوحل ذلك الرجل الذي صفع. ولكن الرجل لا يكترث برأي هؤلاء النـاس الذين لم يرتفعوا بعد إلى مسـتوى فهم الأمور فهمـاً صحيحاً صادقاً، ويخبطون في آرائهم خبط عشواء.

هتف عضو عجوز من أعضاء النادي يخاطب جاره بحرارة نبيلة قائلاً:

ـ ما كان أغبانا، أنا وأنت، يا إيفان ألكسـندروفتش، حين رحنا نتناقش في المبادئ الصادقة الصحيحة!

فأجابه صاحبه موافقاً في فرح:

ـ نعم يا بطرس ميخائيلوفتش. ما رأيك في جيل الشباب؟

وتدخل ثالث فقال:

ـ ليس الأمر أمر جيل الشباب يا إيفان ألكسندروفتش. يجب أن لا تخلط بين الأمور: إن سـتافروجين هذا نجم، إنـه حالة فذة فريدة، وليس يمثل جيل الشباب. هكذا يجب أن تنظر إلى الأمور.

ـ وإلـى رجـال من هـذا المعدن إنما نحـن بحاجة. يعوزنا رجـال من هذا النوع.

على أن الشيء الأساسي هو أن "الرجل الجديد" الذي انكشف "سيداً حقيقياً" قد كان عدا ذلك أغنى مالك في مقاطعتنا، فكان يمكن إذن أن يقوم بدور كبير في الشؤون العامة، وأن يكون نافعاً كل النفع. لقد سبق لي أن قلت كلمة عن الحالة النفسية التي كان عليها مالكو الأراضي عندنا.

وأخذت الرؤوس تزداد حرارة وحماسة.

قال أحدهم: ـ إنه لم يحتقر إهانة الطالب فحسب، بل عقد يديه وراء ظهره، لاحظوا هذا، انتبهوا إلى هذه البادرة.

فأضاف آخر: ـ ولم يجرّ الطالب إلى المحاكم الجديدة.

وتدخل ثالث فقال: ـ رغم أن هذه المحاكم الجديدة كان يمكن أن تحكم له بخمسة عشر روبلاً، تعويضاً عما نال شرفه من إهانة وهو سيد من السادة!... هئ هئ هئ!...

وصرخ صوت غاضب يقول:

ـ بل سأكشف لكم أنا عن سر المحاكم الجديدة[1]. إذا كان أحد مقتنعاً بأنه ارتكب جريمة سرقة أو احتيال، فإن خير ما يفعله هو أن يركض إلى بيته قبل فوات الأوان وأن يقتل أمه، فبذلك يضمن لنفسه البراءة فوراً، وتأخذ سيدات المحاكم بتحريك مناديلها. هذه هى الحقيقة صافيةً.

ـ نعم، هذا صحيح كل الصحة.

وجرت الأحاديث في طريقها. تذكر الناس العلاقات التي كانت قائمة بين نيقولاي فسيفولودوفتش والكونت "ك...". لقد كان معروفاً أن الكونت "ك..." مستقل الرأي وأنه يعادي الإصلاحات الأخيرة. وكان معروفاً كذلك أن له نشاطاً في الحياة العامة، وإن يكن هذا النشاط قد تباطأ قليلاً في الآونة الأخيرة. وها هم أولاء يذكرون على حين فجأة نقلاً عن مصدر مطلع جدير بالثقة والتصديق، رغم أنه ما من واقعة تؤكد هذه الشائعة، أن نيقولاي فسيفولودوفتش قد خطب إحدى بنات الكونت. أما ما لعله قد حدث في

(1) أنشئت المحاكم الجديدة سنة 1864 فكانت محل هجوم الرجعيين عليها، وتندرهم بها.

سويسـرا بين ليزافتا نيقولايفنا وستافروجين، فلم يتحدث أحد عنه بعد ذلك. يجب أن نذكر في هذه المناسبة أن أسرة دروزدوف كانت قد فرغت من إتمام جولـة زياراتها التي أهملتهـا حتى ذلك الحين. وأجمعت السـيدات على أن ليزافتـا نيقولايفنـا فتاة كسـائر الفتيات، باسـتثناء أنها تتكلـف الظهور بمظهر شخص مريض الأعصاب، وتستمد من ذلك زهواً بنفسها. وقالوا إن الإغماء الذي أصابها يوم وصول نيقولاي فسـيفولودوفتش لم يكن له من سـبب غير ذعرها من السـلوك المشـين الذي صدر عن الطالب. حتى لقد أصبحوا الآن يبالغـون فـي التلطيف من قيمة الأمـور التي كانوا يسـبغون عليها من خيالهم قبل ذلك ألواناً هائلة فإذا هي أشـبه بألغاز يحار في فهمها العقل. أما العرجاء فقد نُسيت تمامـاً. حتى لقد أصبح الناس ينزعجون مـن الإتيان على ذكرها. "هب أنه كان في حياته مائة عرجاء! من منا لم يكن شاباً؟". وأخذوا يشيدون بموقـف الاحترام الذي يقفه نيقولاي فسـيفولودوفتش من أمه، ويبرعون في وصفه بأنواع الفضائل، ويمتدحون ما حصّل من معارف واسعة وثقافة غزيرة خلال السـنين الأربـع التي قضاها طالباً في الجامعات الألمانية. أما سـلوك جاجانـوف فقـد أجمعوا على نعتـه بأنه قد أعوزته اللياقة والكياسـة، فما كان لجاجانـوف أن يتهجـم علـى رجل مـن طبقته. وأمـا جوليـا ميخائيلوفنا فقد اعترفوا لها بنفاذ البصيرة وسداد الحكم وحصافة الرأي.

لذلـك فإن الناس، حين ظهر نيقولاي فسـيفولودوفتش أخيراً، اسـتقبلوه اسـتقبالاً فيـه جدٌّ يبلـغ غايـة السـذاجة، محدّقين إليـه بنظـرات تفيض حبّ استطلاع ونفاد صبر. وسرعان ما حبس نفسه في صمت كامل مطلق، فأرضى صمتـه الناس أكثر مما كان يرضيهم أن يلقـي خطباً طويلة. الخلاصة: أصبح كل شـيء فيـه محبباً مناسـباً، وجرى سـلوكه مجرى "الموضـة". والمرء في الريف متى ظهر في المجتمع أصبح يسـتحيل عليه أن يختبئ. وعاد نيقولاي فسـيفولودوفتش يراعـي جميـع آداب الريـف مراعـاة دقيقة تمضـي إلى حد الإتقـان المرهف. وكان الناس يرون أنه غير مـرح فيقولون: "لقد تألم كثيراً. إنـه إنسـان غير عادي. من حقه أن يكـون مهموماً". حتى زهـوه وحتى تعاليه

اللذان استاء منهما الناس استياءً كبيراً قبل أربع سنين، أصبحا الآن يثيران الاحترام والإعجاب.

وكانت فرفارا بتروفنا هي المنتصرة أكثر من أي شخص آخر. لا أدري هل أسفت كثيراً على انهيار آمالها المتعلقة بليزافتا نيقولايفنا. لكنها على كل حال قد وجدت في زهوها قوةً تشد أزرها. والأمر الغريب أنها بين عشية وضحاها اقتنعت اقتناعاً جازماً بأن ابنها نيقولاي قد اختار عروساً لنفسه إحدى بنات الكونت "ك...". والأغرب من ذلك أن هذا الاقتناع كان لا يقوم، عندها هي أيضاً، إلّا على شائعات تسري في المدينة. ولقد كانت تتمنى أن تسأل ابنها عن هذا الأمر، ولكنها لم تجرؤ. ومع ذلك عجزت عن السيطرة على نفسها مرتين أو ثلاث مرات فلامت ابنها، وهي تصطنع المرح، على أنه أصبح لا يصارحها بشؤونه كما كان يفعل من قبل. فكان نيقولاي فسيفولودوفتش يبتسم، ولكنه يلتزم الصمت، فكانت هي ترى في هذا علامة موافقة. ورغم ذلك، رغم ذلك كله، لم تفلح في نسيان العرجاء. كانت ذكرى العرجاء تثقل على قلبها كصخرة. إنها كابوس رهيب يعذبها ويوقظ في نفسها إحساسات تنبؤ غريبة، بينما كانت مؤمنة إيماناً قاطعاً بأن ابنها خطب إحدى بنات الكونت "ك...". لكننا سنتكلم عن هذا كله مرة أخرى فيما بعد. وحسبنا أن نذكر الآن أن فرفارا بتروفنا قد وجدت نفسها طبعاً، من جديد، محلّ احترام وتقدير، وحفاوة وترحيب، في المجتمع كله، غير أنها لم تستفد من هذا كثيراً، لأنها لا تخرج إلّا نادراً.

مع ذلك فقد زارت جوليا ميخائيلوفنا زيارة فخمة. يجب أن نشير إلى أن أحداً لم تؤثر في نفسه الكلمات البليغة التي نطقت بها جوليا ميخائيلوفنا في حفلة عيد ميلاد عميدة النبالة كما أثرت في نفس فرفارا بتروفنا: لقد أزاحت تلك الكلمات عن قلبها حملاً ثقيلاً، وبدّدت من نفسها شيئاً من الشكوك التي ظلت تعذبها منذ يوم الأحد ذاك. حتى لقد قالت صراحة: "إنني لم أكن أفهم تلك المرأة". وباندفاعها المعهود فيها، المألوف عندها، قالت لجوليا ميخائيلوفنا حين زارتها: إنني آتية "لأشكرك". فسرّت زوجة الحاكم سروراً

عظيماً، ولكنها حافظت على وضع الرصانة والاستقلال، وأخذت ترى في خطورة شأنها وعلو قدرها رأياً عظيماً، حتى لقد غالت في هذا بعض المغالاة في أغلب الظن. من ذلك أنها أعلنت أثناء الحديث أنها لم تسمع أبداً عن الأعمال العلمية التي قام بها ستيفان تروفيموفتش.

ـ إنني أستقبل طبعاً الشاب فرخوفنسكي، وأعامله معاملة لطيفة. صحيح أنه طائش، ولكنه ما يزال فتى. ثم إنه على جانب من الثقافة. هو على كل حال ليس كناقد قديم فات أوانه وولى زمانه.

فأسرعت فرفارا بتروفنا تعلن لجوليا ميخائيلوفنا أن ستيفان تروفيموفتش لم يكن ناقداً في يوم من الأيام، وأنه قد عاش عندها دائماً، وأنه اشتهر "بأحداث يعرفها الناس كافة" وقعت له في بداية حياته العلمية، كما اشتهر في الآونة الأخيرة بأعماله التي تتناول تاريخ إسبانيا. وهو يهيء الآن كتاباً عن وضع الجامعات الألمانية، كما يهيء دراسةً عن "مادونا" درسدن فيما تعتقد. الخلاصة: لقد رفضت فرفارا بتروفنا أن تترك صديقها للسان جوليا ميخائيلوفنا.

ـ عن "مادونا" درسدن؟ عن مادونا سيستو؟[1] يا عزيزتي فرفارا بتروفنا، لقد وقفت ساعتين أتأمل هذه اللوحة، ثم انصرفت عنها خائبة الأمل. ما كان أشد دهشتي حين لم أفهم منها شيئاً. كارمازينوف يقول هو أيضاً أن فهمها عسير. ما من أحد يرى فيها اليوم شيئاً خارقاً، لا الروس ولا الإنجليز. إن الشيوخ هم الذين خلقوا مجدها.

ـ أهذه موضة جديدة؟

ـ أنا من جهتي أرى أن لا ننظر إلى شبابنا نظرة تعالٍ. الناس في كل مكان يصيحون قائلين: هؤلاء شيوعيون، ولكن في رأيي أن علينا أن نجتذبهم وأن نحميهم من أنفسهم. إنني أقرأ كل ما ينشر الآن: المجلات، المؤلفات التي تتكلم عن الشيوعية، كتب العلوم الطبيعية. إنني أتلقى جميع المطبوعات

---

(1) كان دوستويفكي شديد الإعجاب بمادونا سيستو التي رسمها رافائيل والتي كانت في معرض درسدن.

الجديـدة، لأن علـى المرء أن يعرف زمانه، وأن يعرف الناس الذين يعيشـون فـي عصره. لا يسـتطيع المرء علـى كل حال أن يقضي حياتـه كلها فوق ذرى الخيـال. والنتيجـة التـي أخلـص إليها هي أن علينا أن نسـتميل الشـباب وأن نمنعهم من السـقوط في الهوة. تلك قاعدتي في السـلوك. وصدّقي يا فرفارا بتروفنـا أننا وحدنا، أبناء المجتمع، نسـتطيع بتأثيرنا الحسـن وموقفنا الودود خاصة أن نمسـكهم علـى حافة الهوة التـي يدفعهم إليها مـا يتصف به جميع هؤلاء الشيوخ الطيبون من تعصب وتزمت وعدم تسامح. ثم إني سعيدة جداً بمـا قلته لي عن سـتيفان تروفيموفتش. لقد أوحيت إلـيّ بفكرة: إنه قد يفيدنا كثيـراً في الصبيحة الأدبية. تعلمين أنني أنظـم حفلة كبرى لمعونة المعلّمات الفقيـرات اللواتـي يرجـع أصلهـن إلـى إقليمنا. إن سـتّـاً منهن قـد وُلدن في مقاطعتنا، وتبعثرن في أنحاء روسـيا، وبينهن اثنتان مسـتخدمتان في مصلحة التلغـراف، واثنتان طالبتـان. ومنهن أيضاً من يردن دخول الجامعة، لكنهن لا يملكن من المال ما يمكّنهن من ذلك. إن حظ المرأة الروسـية فظيع يا فرفارا بتروفنا. إن مسألة الدراسة العليا هي مشكلتهن الآن. حتى لقد اضطر "مجلس الامبراطوريـة"[1] نفسـه أن يعالج هذه المشـكلة في الآونة الأخيرة. يسـتطيع المـرء في بلادنا العجيبة هذه روسـيا أن يفعل ما يريـد. لكنني أعود فأكرر أن المجتمـع لن يتوصل إلى توجيه هـذا العمل الجليل في الطريق القويم إلّا إذا التزم في معاملة الجيل الجديد موقفاً يفيض بشاشة وترحيباً وحفاوة وتعاطفاً نشـيطاً. إن الصفوة من الناس ليسـت كبيرة العدد وا أسـفاه! صحيح أن هناك أناسـاً يُعدّون صفوة، لكنهم مبعثرون. فلنتحـد إذن فنكون أقوياء. الخلاصة: ستقام عندي صبيحة أدبية، يعقبها غداء خفيف، ثم تتبع الغداء فترة استراحة، وفـي المسـاء تُقـام حفلـة راقصة. ولقـد كنا ننتوي تدشـين الحفلـة بلوحات حيـة، لكنني أعتقد أن النفقات تكون عندئذ باهظة، لذلك سـنكتفي بأن نقدم للجمهـور رقصتيـن أو ثلاثاً من رقصـات الكادريل المقنعـة التنكرية، ممثلة

(1) تشكل "مجلس الامبراطورية" سنة 1811 كمجلس استشاري، وكان يناقش مشاريع القوانين مرتبطاً بالامبراطور.

الاتجاهـات الأدبيـة الرئيسـية. إن هذه الفكرة التي تشـتمل علـى فكاهة إنما اقترحها كارمازينوف الذي يساعدني كثيراً من جهة أخرى. وسوف يقرأ علينا فـي الصبيحة الأدبية آخر عمل أدبي له، وهو عمل لم يطلع عليه أحد بعد. إن كارمازينـوف يهجـر القلم، ولن يكتب بعد اليوم. وفـي هذه الصفحات يودّع الجمهور، عمل رائع عنوانه: "شـكراً". وقد جعل العنوان بالفرنسية. هو يرى أن ذلك أحلى وألطف وأرهف. وأنا أشـاطره هذا الرأي. بل أنا التي اقترحت عليه هذا الاقتراح. أظن أن سـتيفان تروفيموفتش يسـتطيع، هو أيضاً، أن يقرأ لنا شـيئاً، شـريطة أن لا يكون طويلاً... وأن لا يكون فيه تعالم كثير!... أعتقد أن بطرس سـتيفانوفتش سـيجيئ إليك، ويطلعك على البرنامج، أو اسـمحي لي أن أحمله إليك بنفسي.

ـ واسـمحي لي من جهتك بأن أضع اسـمي في قائمة المتبرّعين. وسوف أنقل اقتراحك إلى ستيفان تروفيموفتش، وسوف ألحّ عليه أن يقبل.

عـادت فرفـارا بتروفنـا مفتتنـةً بجوليـا ميخائيلوفنـا أشـد الافتتـان. وقد سـندتها بعد ذلك ودعمتها بكل ما تملك من قوة. ولكن حنقها على سـتيفان تروفيموفتش قد اشـتد مزيداً من الاشـتداد في الوقت نفسـه، لا ندري لماذا! وكان المسكين لا يخطر بباله شيء من ذلك بتاتاً.

قالت فرفارا بتروفنا لنيقولاي فسـيفولودوفتش وبطرس ستيفانوفتش وقد جاءا إليها في السهرة:

ـ إننـي هائمـة بحبها حقاً. ولسـت أدري كيف أمكـن أن أخطئ في معرفة هذه المرأة.

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ عليـك مع ذلـك أن تصالحي العجوز. إنـه يائس. إنـك تعاملينه معاملة مسرفة في الشدة. أمس التقى بمركبتك فحيّاك، ولكنك أشحت وجهك عنه. نريد أن ندفعه إلى أمام. إن لي أملاً فيه. وما يزال في وسعه أن يفيدنا.

ـ آ... أنا واثقة بأنه سيقرأ.

ـ ليـس الأمر هو هذا فحسـب. كنت أريد أن أذهب إليـه اليوم، فهل أبلغه شيئاً من جهتك.

قالت فرفارا بتروفنا بشيء من التردّد:

ـ إذا شئت. ولكنني لا أدري كيف ستدبر الأمر. كنت أنتوي أن أتولى بنفسي شرح ما أريد شرحه، فأحدّد له موعداً...

وقطّبت حاجبيها. فقال بطرس ستيفانوفتش:

ـ موعداً؟ لا يستحق الأمر كلّ هذا. يكفي أن أنقل إليه ما تريدين أن أنقله إليه...

فقالت فرفارا بتروفنا:

ـ ولكن قل له إنني سأبلغه موعد لقائنا، باليوم والساعة. لا تنسَ هذا.

خرج بطرس ستيفانوفتش وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة. يمكنني أن أقول ـ إذا صدقت ذاكرتي ـ إنه كان في ذلك الأوان كثير الغضب، وإنه كان يعامل جميع الناس تقريباً معاملة فيها شيء من حدة المزاج. والغريب في الأمر أن الناس كانوا يغفرون له هذا. لقد سلموا بأن من حقه أن ينعم بحظوة خاصة. وينبغي أن أذكر أن مبارزة نيقولاي فسيفولودوفتش قد أثارت حنقه كثيراً. لقد فوجئ بنبأ الحادث. فحين رُويت له القصة اخضرّ لونه من شدة الغضب. هل جرح ذلك كبرياءه؟ إنه لم يعلم بالأمر إلّا في الغد، أي بعد أن أصبحت المدينة كلها على علم به.

فلما لقي ستافروجين مصادفة في النادي بعد ذلك بخمسة أيام قال له:

ـ لم يكن من حقك أن تبارز.

يجب أن نلاحظ أنهما لم يكونا قد التقيا بعد المبارزة، رغم أن بطرس ستيفانوفتش كان يأتي إلى فرفارا بتروفنا كل يوم.

نظر إليه نيقولاي فسيفولودوفتش صامتاً، ذاهل الهيئة، حتى لكأنه لم يفهم ماذا كان يريد منه الآخر، ومضى دون أن يتوقف، واجتاز الصالة الكبرى متجهاً نحو البوفيه. فما كان من بطرس إلّا أن ركض وراءه، حتى إذا وصل إليه وأضاف:

ـ وقد ذهبت أيضاً إلى شاتوف... وتريد أن تعلن على الملأ زواجك بماريا تيموفيئفنا...

وأمسكه من كتفه عن ذهول.

فانتزع نيقولاي فسيفولودوفتش نفسه منه بحركة مفاجئة، والتفت إليه بوجه يعبّر عن التهديد بغتة. فنظر إليه بطرس ستيفانوفتش، وتقبضت شفتاه بابتسامة صفراء. ولم يدم ذلك كله إلّا لحظة. ومضى نيقولاي فسيفولودوفتش.

2

ترك بطرس ستيفانوفتش بيت فرفارا بتروفنا وذهب إلى أبيه رأساً. كان يغذ الخطو من شدة شوقه إلى إفراغ غضبه وإلى الثأر لنفسه من إهانة كنت ما أزال أجهلها. يجب أن أقول أن ستيفان تروفيموفتش، أثناء آخر لقاء تم بينه وبين ابنه يوم الخميس من الأسبوع الماضي، قد انتهى إلى طرد ابنه طرداً إلى الباب مهدّداً إياه بعصاه. وكان الأب هو الذي بادر إلى المشاجرة في الواقع. وقد كتم عني وقوع هذا الحادث بينه وبين ابنه. ولكن حين وصل بطرس ستيفانوفتش راكضاً وهو يبتسم ابتسامته المستمرة التي تتكلف تواضعاً ساذجاً، وينظر نظرته المتفحصة المستكشفة التي تثير في النفس انزعاجا كريهاً، فقد أسرع ستيفان يومئ مهيباً أن لا أترك الغرفة. فكذلك أمكنني أن أعرف علاقاتهما، لأنني شهدت حديثهما كله في هذه المرة.

كان ستيفان تروفيموفتش مضطجعاً على ديوانه. وكان قد نحل جسمه واصفر لونه بعد يوم الخميس الماضي.

جلس بطرس ستيفانوفتش إلى جانبه بدون كلفة، وجعل ساقيه تحته بغير أي تحرّج، فاحتل من الديوان مكاناً أكبر مما يجيزه احترام الابن لأبيه. فابتعد ستيفان تروفيموفتش بوقار، ملتزماً الصمت.

كان على المائدة كتاب مفتوح هو رواية عنوانها: "ما العمل؟"[1]. يؤسفني

---

(1) الرواية الاشتراكية التي كتبها تشيرنيتشفسكي، ونشرت سنة 1864 وحظيت بشهرة واسعة وإعجاب كبير لدى الشبيبة الراديكالية. وقد هاجمها دوستويفسكي بشدّة في قصته "في قبوي".

أن عليّ أن أكشف الآن عن الضعف الغريب في صديقي: إن فكرة الخروج من العزلة وخوض معركة أخيرة كانت لا تنفك تتجسد في خياله الذي تفتنه الأحلام. فحزرت أنه كان "يدرس" هذه الرواية لا لشيء إلّا أن يهيء نفسه لتلك المعركة المحتومة مع أولئك "الزاعقين": يعرف أسلحتهم وأدلتهم وحججهم من عقيدتهم نفسها، ثم يربكهم ويحرجهم ويفحمهم على مرأى منها "هي" ذاتها. ولكن لكم كان يعذبه ذلك الكتاب! كان في بعض الأحيان يرميه على الأرض، ويأخذ يسير في الغرفة كالخارج عن طوره.

وكان يقول لي بصوت محموم رهيب:

ـ إنني أسلم بأن الفكرة الأساسية التي يقول بها الكاتب صحيحة صادقة. إنها فكرتنا، فكرتنا بعينها. نحن الذين زرعناها، ونحن الذين تعهدناها بالشرح! وما عساهم يقولون بعد الذي قلناه نحن على كل حال؟ ولكن رباه! لكم شوّهوها، وبتروها، وأساؤوا التعبير عنها. أهذه هي الأهداف التي سعينا إلى بلوغها؟ من ذا الذي يستطيع أن يتبيّن هنا فكرتنا الأصلية نحن؟

كذلك كان يقول هذه الجمل الأخيرة وهو ينقر على الكتاب بإصبعه.

سأله بطرس ستيفانوفتش وقد قرأ عنوان الكتاب بعد أن تناوله من على المائدة، سأله وهو يضحك ضحكاً ساخراً:

ـ أتثقف نفسك؟ آن الأوان حقاً. إن شئت جئتك بما هو خير من هذا أيضاً.

ظل ستيفان تروفيموفتش صامتاً وقوراً. وكنت جالساً على الديوان.

شرح بطرس ستيفانوفتش الغرض من زيارته بكلمات قليلة. فكان طبيعياً أن شُده ستيفان تروفيموفتش شدها كبيراً. وكان يصغي إلى ابنه بقلق يمازجه استياء واستنكار.

ـ هكذا إذن. إن جوليا ميخائيلوفنا تأمل أن أجيء لأقرأ عندها!

ـ ليس الدافع إلى دعوتك أنها بحاجة إليك حقاً. لكنها أرادت من ذلك أن تسر فرفارا بترونا وأن تداريها لا أكثر. وطبيعي أنك لن تجرؤ أن ترفض.

ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

ـ وأنا واثق من جهة أخرى بأنك تتمنى أن تقرأ... إنكم جميعاً، معشر العجائز، مغرورون بأنفسكم، محبون للظهور. ولكن اسمع: يجب أن لا يكون ما ستقرؤه مملاً إملالاً شديداً. ماذا تكتب في هذه الأيام؟ أما زلت مشغولاً بكتابة تاريخ إسبانيا؟ أعطني ورقتك قبل موعد الصبيحة الأدبية بثلاثة أيام، لألقي عليها نظرة، لأن من الجائز أن تنيمنا جميعاً من فرط الضجر.

كان واضحاً أن الفظاظة الصريحة في هذه الأقوال المهينة، بل وكذلك تعجل بطرس ستيفانوفتش في كلامه، إنما كانا مقصودين متعمدين، حتى ليفهم المرء من طريقة حديثه أن مخاطبة ستيفان تروفيموفتش بلغة ألطف، أمر مستحيل في رأي بطرس ستيفانوفتش. ومع ذلك أصرّ صديقي على تجاهل الإهانات. لكن الأنباء التي سمعها قد بثت في نفسه اضطراباً شديداً.

سأله وقد اصفر لونه:

ـ ولكن هل "هي" هي نفسها، تبلغني هذا الكلام بواسطتك "أنت"؟

ـ أقصد... أنها تريد أن تضرب لك موعداً لتتمكنا من التصارح: ذلك أثرٌ أخير من آثار تكلفكما العاطفي. لقد تغنجت عليها خلال عشرين عاماً، فعوّدتها على هذه الأساليب المضحكة السخيفة. ولكن لا تقلق: انتهى الأمر الآن. هي نفسها لا تنفك تكرر أنها الآن فقط إنما أخذت "ترى رؤية واضحة". لقد قلت لها بصراحة تامة إن صداقتكما تقوم عند كل منكما على أن يفرغ أحدكما أمام الآخر مياهه الوسخة. ما أكثر ما قالته لي يا صاحبي! هه! ما كان أحلاه من دور، ذلك الدور الذي قمت به تجاهها خلال هذا الوقت كله، وهو دور خادم! لقد احمرّ وجهي خجلاً وحياء عنك!...

ـ أنا قمت بدور خادم، أتقول ذلك عنّي أنا؟

كذلك صاح يقول ستيفان تروفيموفتش، عاجزاً عن السيطرة على نفسه. فأجابه ابنه قائلاً:

ـ بل كنت أسوأ من ذلك، كنت طفيلياً، أي خادماً لا يعمل. نحن أكسل من أن نعمل، لكن لنا أسناناً طويلة. هي نفسها تدرك هذا الآن. ولكن ما أفظع

ما روته لي عنك! لشدّ ما ضحكت يا صاحبي من الرسائل التي كنت تكتبها وتبعثها إليها! هذا مخجل، هذا مقزز. ألا إنك لمنحط انحطاطاً عميقاً! إن في البر والإحسان شيئاً يفسد الشخص الذي يقبلهما إفساداً يبقى إلى الأبد ولا يزول: إنك مثال على ذلك واضح.

- أطلعَتْك على رسائلي؟

- كلها. يستحيل على المرء طبعاً أن يقرأ هذا كله! ما أكثر الصفحات التي سوّدت! يخيّل إليّ أن هناك أكثر من ألفي رسالة. ولكن هل تعلم يا صاحبي أنها في لحظة من اللحظات كانت مستعدةً لأن تتزوجك فيما أظن؟ لقد ضيعت على نفسك بالغباء فرصة عظيمة! أنا أتكلم هنا من وجهة نظرك أنت طبعاً! ومهما يكن من أمر، فلو تزوجتها لكان ذلك أفضل من أن تقبل الزواج "لتغطية آثام الغير طمعاً في المال" فتكون مهرجاً تضحك عليه المدينة كلها.

- طمعاً في المال؟ أهي التي قالت هذا؟

كذلك هتف يقول ستيفان تروفيموفتش متألماً. فأجابه ابنه قائلاً:

- ما عسى يكون الباعث إذن؟ لماذا تتخبط هذا التخبط؟ لقد دافعت أنا عنك بهذه الحجة نفسها. وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي تملكها لتبرر سلوكك. هي نفسها أدركت أنك كنت في حاجة إلى مال، كسائر الناس، وأنك من هذه الناحية ربما كنت على حق. لقد برهنت لها برهاناً رياضياً على أن كلاً منكما يستفيد من هذه العلاقات التي بينكما: هي رأسمالية، وأنت مهرّج عاطفي! ثم إنها لا تأخذ عليك شيئاً من ناحية المال هذه، وإن تكن قد اتخذتها بقرةً حلوباً. ولكن ما يحنقها هو أنها و ثقت بك خلال عشرين عاماً، وأنها خُدعت بعواطفك الجميلة التي كانت تضطرها إلى الكذب بمعنى من المعاني. إنها لن ترضى أن تعترف بأكاذيبها هي طبعاً، ولكنها ستجعلك تدفع ثمن أكاذيبك أنت غالياً. لا أدري حقاً كيف لم تتنبأ بأنك ستدفع الثمن باهظاً في يوم من الأيام، مع أنك تملك شيئاً من الحس السليم. لقد نصحتها بأن تضعك في ملجأ، في ملجأ مناسب، فاطمئن. لن يكون في هذا إذلال لك. وهذا ما ستفعله فيما أظن. هل تتذكر آخر رسالة بعثتها إليّ وأنا في س...، منذ ثلاثة أسابيع؟

صاح ستيفان تروفيموفتش يسأل ابنه:

- هل يعقل أن تكون قد أطلعتها على تلك الرسالة؟

فأجابه ابنه:

- كيف لا؟ فوراً! إنها تلك الرسالة التي ذكرت لي فيها أنها تستغلك وأنها غيورة من مواهبك. ثم حدثتني فيها عن "خطايا الغير". بالمناسبة يا صاحبي، إن لك غروراً وأنانية لا مثيل لهما! لشدّ ما ضحكت! إن رسائلك مزعجة مرهقة على وجه العموم، فأسلوبك فظيع كريه. كان يتفق لي أحياناً أن لا أقرأ الرسائل التي تصلني منك. منها واحدة ملقاة في مكان، لم أفضضها قط. في إمكاني أن أردها إليك غداً إذا شئت. ولكن تلك الرسالة الأخيرة كانت هي الذروة. لشدّ ما ضحكت. يا إلهي! لشدّ ما ضحكت!

قال ستيفان تروفيموفتش:

- ما أنت بإنسان، ما أنت بإنسان! أنت وحش، أنت غول!

- لا سبيل إلى التحدث معك. ها أنت ذا تغضب من جديد، مثلما غضبت يوم الخميس الأخير.

نهض ستيفان تروفيموفتش مهدّداً يسأل ابنه:

- كيف تسمح لنفسك بأن تكلمني هكذا؟

- ماذا؟ إنني أكلمك بوضوح وبساطة.

- أأنت ابني أم لا، أيها الوحش؟

- لا بد أنك تعرف هذا خيراً مما أعرفه أنا. والآباء ميّالون طبعاً إلى تصديق الأوهام في هذا الشأن...

- اسكت، اسكت!

كذلك قاطعه ستيفان تروفيموفتش وهو يرتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه!

قال الابن:

- إنك تصرخ وتشتمني، كما فعلت في المرة الأخيرة حين أردت أن تضربني. فاعلم أنني وضعت يدي على الوثيقة بعد أن قضيت الليل كله في

نبش صندوقي. ولكن دع للعزاء سبيلاً إلى نفسك. لا شيء واضح دقيق. ما هي إلّا رسالة صغيرة أرسلتها إلى ذلك البولندي الصغير. فإذا حكمنا على الأمر من خلال اللهجة...

ـ إذا قلت كلمة واحدة أخرى، فلأصفعنّك!

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يلتفت إليّ فجأة:

ـ كذلك هم الناس. إن الأمر مستمر بيننا على هذا النحو منذ يوم الخميس الماضي. يسعدني أنك اليوم هنا، ففي إمكانك أن تكون قاضياً لنا. أحب قبل كل شيء أن أسجل هذه الواقعة: هو يأخذ عليّ أنني أقول عن أمي هذا الكلام، ولكن أليس هو الذي دفعني إلى ذلك دفعاً؟ حين كنت طفلاً في بطرسبرج، ألم يكن يوقظني مرتين في الليل ليقبّلني ويبكي فوقي كما تبكي امرأة عجوز؟ وهل تعلم ماذا كان يروي لي في ذلك الحين؟ لقد كان يقصّ عليّ هذه الحكايات نفسها عن أمي. فمنه هو إنما عرفت هذه الحكايات.

ـ أوه! لقد كان لأقوالي معنى آخر تماماً، معنى رفيع! إنك لم تفهم. إنك لم تفهم شيئاً، لم تفهم شيئاً البتة!

ـ أعترف مع ذلك أن هذه الحكايات كانت في فمك أدنأ وأحط. على كل حال، هذا كله لا أكترث به! وإنما أضع نفسي في الموضع الذي تنظر منه أنت إلى الأشياء. أما من الموضع الذي أنظر أنا منه إلى الأمور، فلا تقلق. إنني لا ألوم أمي. فيم يهمني أن تكون أبي أو أن لا تكون؟ سيّان عندي. أنا لست مسؤولاً عما جرى بينكما في برلين. وهل كان في وسعكما أن تتصرفا تصرفاً يتصف بالتعقل والحكمة؟ ألا تدرك إلى أي حد كنتما سخيفين مضحكين؟ ومهما يكن من أمر، فيم يهمك أن أكون ابنك أو ابن ذلك البولندي؟

والتفت بطرس ستيفانوفتش نحوي من جديد وقال:

ـ اسمع! إنه لم ينفق عليّ قرشاً واحداً في يوم من الأيام، ولم يرني إلّا حين بلغت السادسة عشرة من عمري. وبعد ذلك، أثناء وجوده هنا، نهبني نهباً. ثم ها هو ذا الآن يصرخ قائلاً إنه ظل طوال حياته يتألم في سبيلي، وها هو ذا يمثل أمامي تمثيلاً لا يخفي كذبه. أنا لست فرفارا بتروفنا، فاعفني من هذا التمثيل!...

ونهض وتناول قبعته.

صاح ستيفان تروفيموفتش يقول وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة وجه الأموات، ومدّ يده نحو ابنه:

ـ إنني ألعنك، ألعنك!

قال بطرس ستيفانوفتش مدهوشاً:

ـ هل يُعقل أن ينطق امرؤ بسخافات كهذه السخافات. هيا. أستودعك الله يا صاحبي. لن أعود بعد اليوم. لا تنسَ أن ترسل إليّ مقالتك، وأن لا تكثر فيها من الحماقات إذا أمكن، هه؟ وقائع، ووقائع، ووقائع، لا أكثر. وعليك بالإيجاز خاصة.

3

كانت هناك أسباب تدعو بطرس ستيفانوفتش إلى أن يتصرف مع أبيه كما تصرّف: في رأيي أنه يريد أن يغرق العجوز في اليأس ويضطره بذلك إلى ارتكاب عمل من الأعمال الفاضحة الصاخبة التي ستفيد الابن في تحقيق أهداف بعيدة سوف نتكلم عنها فيما بعد. إن طائفة كبيرة من المشاريع والخطط، وهي كلها تقريباً مشاريع رهيبة، كانت تشغل في ذلك الأوان ذهن الشاب الذي كان يستهدف كذلك ضحايا أخرى غير ستيفان تروفيموفتش. غير أن هناك واحدة من هذه الضحايا كان يعوّل عليها تعويلاً خاصاً: هي السيد فون لمبكه نفسه.

ـ إن آندره أنطونوفتش فون لمبكه ينتمي إلى ذلك الشعب الذي أنعم عليه الحظ[1]، ويُعدّ ممثلوه في روسيا ببضعة مئات من الآلاف، ويؤلفون ـ ربما على غير علم منهم ـ عصبةً منظمةً أكمل تنظيم. ليست هذه العصبة مخلوقاً اصطناعياً. وإنما هي نشأت من تلقاء نفسها على نحو طبيعي، فهي لم تقم

---

(1) كان بين الألمان في روسيا عدد غفير من كبار العسكريين وكبار الموظفين، لا سيما في عهد نيقولا الأول "مولاي، اجعلني بالترقية ألمانياً" كذلك قال الجنرال آ. إيرمولوف للقيصر نيقولا الأول الذي كان يريد أن يكافئه.

على عقد مبرم، بل على التزام أدبي. إن هدف هذه العصبة هو دعم ومساعدة جميع ممثلي هذا الشعب، في كل وقت، وفي كل مكان، وفي جميع الظروف وقد نال آندره أنطونوفتش شرف الدراسة في واحدة من تلك المدارس العليا التـي لا يتردد إليها إلّا أولاد أسـر غنية أو ذات نفـوذ. حتى إذا أتمّ تلاميذ هذه المدارس دراستهم، أُسندت إليهم على الفور تقريباً وظائف هامة في إدارات الدولـة. لقـد كان أحـد أعمام آنـدره أنطونوفتش ليوتنان كولونيل في سـلاح الهندسـة، وكان عمه الآخر صاحب مخبز. غير أن آندره أنطونوفتش، إذ ظفر بدخول تلك المدرسـة الأرسـتقراطية، قد وجد هنالك عدداً كبيراً من ممثلي الشـعب الذي يرجـع أصله إليه. وكان مـرح الطبع خفيف الظـل فكان رفاقه يحبونه كثيراً، ولكنه لم يكن مجتهداً في دراسـته. وبينما كان أكثر الشـبان في الصفوف العليا، ولا سيما الروس، يناقشون منذ ذلك الحين مشكلات كبرى من مشـكلات السـاعة، حتى لكأن حل هذه المشـكلات لا ينتظـر إلّا منهم، كان فون لمبكه ما يزال يسترسـل في أمازيحـه البريئة كما يفعل تلميذ صغير. وكانت تهريجاته البسـيطة، السـاخرة أحياناً، تضحك الجميع، وذلك ما كان يريده. فتارة يلقي عليه الأستاذ سؤالاً في الصف فإذا هو يتمخط تمخطاً يبلغ من الغلظة أن الجميع ينفجرون ضاحكين ومعهم الأسـتاذ نفسه، وتارةً يمثل فـي المهجع لوحة حيـة ذات طابع مسـتهتر، فيصفق له رفاقـه فرحين، وتارةً يعـزف بمجرد قرص أنفه افتتاحيـة "فرا ديافولـو"[1]. وكان يتميز كذلك بنوع مـن الإهمال المقصود كان يعـده فكهاً باعثاً على الضحـك. وفي أواخر أيام إقامته بالمدرسـة، أخذ ينظم شـعراً باللغة الروسـية، ذلك أنه، على غرار كثير مـن أبناء جنسـه، كان لا يعرف لغته الأم إلّا معرفة ناقصـة جداً. فكان أن قرّبه هـذا الميل إلى الشـعر من رفيق له هو ابن جنرال روسـي ألمـت به مصائب. إن هـذا الفتـى المكتئـب النفس الحادّ المـزاج كان رفاقه في المدرسـة يرون أنه سـيكون في المسـتقبل أحد أمجاد أدبنـا. وقد أنعم هذا الفتـى على آندره

---

(1) "فرا ديافولو" الأوبرا الكوميدية التي وضعها دانيل فرانسوا أوبير (1782ـ1871)، وكانت واسعة الشهرة والانتشار في ذلك الأوان.

أنطونوفتش بحمايته. وبعد ثلاث سنين كان ذلك الفتى المكتئب قد ترك الوظيفة وفرغ للأدب، فكان إذن ينتعل حذاء مهترئاً، ويرتجف من شدة البرد تحت معطف صيف. وإنه كذلك في ذات يوم من أيام الخريف إذ هو يرى على جسر آنتشكوف رفيقه القديم الذي كان قد شمله هو بحمايته، "لمبكا"، كما كانوا يسمونه في المدرسة، فلم يتعرفه في أول وهلة، ووقف مبهوتاً. لقد وجد نفسه أمام شاب يرتدي أحسن حلة، له في العارضين لحيتان أُحسن قصّهما، ضاربةً شقرتهما إلى حمرة، وعلى إحدى عينيه نظارة. حذاءان ملمعان، قفازان زاهيان نضران، معطفه على آخر موضة، يمسك تحت ذراعه محفظة أوراق.

أظهر لمبكه كثيراً من اللطف والمودّة، وذكر لصاحبه عنوانه، ودعاء أن يزوره. إن اسمه الآن ليس "لمبكه" فقط، بل فون لمبكه. ومع ذلك زاره رفيقه القديم، ربما لا يدفعه إلى هذا إلّا الغيظ وإلا الحرص على أن يسخر منه ويضحك عليه. استقبله على السلّم ـ وما هو بالسلم الفخم بتاتاً لكنه مفروش بسجادة حمراء ـ استقبله سويسري شدّ حبل جرس يدق في الطابق الأعلى. وكان الزائر ينتظر أن يدخل شقة رائعة، فإذا هو يرى صاحبه "لمبكه" مقيماً في غرفة صغيرة مظلمة مخرّبة، مشطورة شطرين بستارة لونها أخضر قاتم. والأثاث مريح مناسب بعض الشيء، لكنه عتيق جداً. والنوافذ العالية الضيقة مزوّدة بستائر خضر داكنة. إن فون لمبكه يقطن عند شخص يمت إليه بقرابة بعيدة، هو جنرال شمله برعايته ومنّ عليه بحمايته.

استقبل فون لمبكه الزائر بمودة، مع احتفاظه بمظهر وقور. وتحدث عن الأدب فيما تحدث، ولكن دون أن يتعرض لأية مشكلة حادة. وجاء خادم له رباط عنق أبيض، فقدّم للضيف شاياً أصفر وبسكويتاً جافاً. ولكن الرفيق سارع يطلب كأساً من ماء سلتس لا لشيء إلّا أن يزعج صاحب البيت. فجيء إليه بالماء بعد شيء من الانتظار، وبدا على فون لمبكه شيء من الارتباك لإزعاج الخادم مرةً أخرى. ومع ذلك اقترح على الزائر أن يبقى للعشاء، فما كان أوضح سروره حين رفض الزائر هذا الاقتراح وانصرف.

في ذلك الأوان كان آندره أنطونوفتش مولّها بحب البنت الخامسة من بنات الجنرال، ويبدو أنها كانت تبادله عاطفة بعاطفة. لكن ذلك لم يمنع أن تزوجت آماليا، بعد ذلك بمدة قصيرة، ألمانياً من رجال الصناعة كان رفيق الجنرال العجوز في الماضي.

لم يشعر آندره أنطونوفتش من ذلك بحزن مسرف في الشدة، وأخذ يعمل في صنع مسرح من الكرتون: تُرفع الستارة، فيخرج الممثلون إلى المسرح يلوحون بأيديهم ويُجرون إشارات شتى، والشرفات ملأى بالمشاهدين، وموسيقيو الأوركسترا يحركهم جهاز فيزلقون أقواس آلات الكمان على أوتارها، بينما قائد الأوركسترا يضبط الإيقاع بحركات عصاه بين تصفيق الضباط والشبان الأنيقين الذين يجلسون على كراسي أرض الصالة. إن هذا كله، حتى أدق تفاصيله، قد صنعه فون لمبكه نفسه، واقفاً على إنجاز هذا العمل ستة أشهر كاملة. حتى إذا فرغ منه أقام الجنرال العجوز حفلة ضمت خاصته: البنات الخمس وبينهن العروس وزوجها، وسيدات وآنسات كثيرات يصحبهن أزواجهن وآباؤهن. رأى المشاهدون المسرح وأنعموا النظر فيه فأعجبوا به أيما إعجاب. ثم قاموا إلى الرقص. وكان لمبكه راضياً أعظم الرضا، فسرعان ما تعزى.

السنون تنقضي وفون لمبكه ينجح في عمله: ينال مناصب مرموقة على الدوام، مع رؤساء أصلهم ألماني في جميع الأحيان. فكذلك وصل إلى رتبة تُعد عالية جداً بالقياس إلى سنّه. وكان منذ مدة طويلة يتمنى أن يتزوج، فهو يترصد فرصة مواتية مناسبة. وعلى غير علم من رؤسائه أرسل إلى إحدى الصحف قصةً كتبها فلم يقيّض لها أن تُنشر. لكنه، في مقابل ذلك، أخذ يصنع بالكرتون محطة سكة حديدية، فكان هذا العمل الذي أنجزه عملاً ناجحاً كل النجاح مرة أخرى: المسافرون يخرجون إلى رصيف المحطة مثقلين بحقائبهم وأكياسهم ومعهم كلابهم وأولادهم، فيركبون عربات القطار التي يضطرب من حولها سائقون وحمّالون، ثم تُقرع إشارة فيتحرك القطار. لقد اقتضاه إنجاز هذا العمل البارع سنة من شغل دائب. ومع ذلك كان ينبغي له أن

يتزوج. إن حلقة معارفه واسعة. وهو يخالط أبناء جنسه خاصة. ولكنه يتردد إلى الأوساط الروسية أيضاً بطبيعة الحال. وأخيراً بينا هو يدخل السنة التاسعة والثلاثين من عمره، نزل عليه ميراث: إن عمه صاحب المخبز قد أوصى له في وصيته بمبلغ قدره ثلاثة عشر ألف روبل. فلم يبق عليه إلّا أن ينال منصباً ممتازاً. إن السيد فون لمبكه، رغم رتبته الكبيرة، كان رجلاً متواضعاً. كان يمكن أن يرضيه كل الإرضاء أن يحظى بمركز مستقل مريح يضمن له بعض الموارد الإضافية، كان هذا يمكن أن يكفيه إلى آخر أيام حياته. لكنه بدلاً من مينا أو أرنستين التي كان ينتظر أن يتزوجها، وقع على جوليا ميخائيلوفنا. فإذا بحياته في العمل تبلغ على الفور مدى آخر وتتسع اتساعا ليس في الحسبان. لقد أحس فون لمبكه المتواضع الذي يتقيد بالمواعيد ويواظب على العمل أن من حقه هو أيضاً أن يكون طموحاً.

كانت جوليا ميخائيلوفنا تملك أرضاً تُقدّر في المقاييس القديمة بمائتي نفس، وعدا ذلك جاءت إلى أنطونوفتش بصلات لها نفوذ وسلطان. ومن جهة أخرى كان لمبكه فتى جميلاً، بينما تجاوزت هي الأربعين من العمر. شيء غريب: كان لمبكه يزداد ولهاً بها كلما ازداد شعوراً بوضعه كخطيب لها. حتى لقد أرسل إليها في صباح يوم الزواج أشعاراً. وذلك كله، مع الأشعار، كان يعجب جوليا ميخائيلوفنا كثيراً. أربعون عاماً! ما هذا بقليل!... وبعد الزواج بمدة قصيرة، مُنح الرجل وساماً ونال رتبة أعلى، ثم سُمّي حاكماً لإقليمنا.

وقد عنيت جوليا ميخائيلوفنا منذ البداية بترويض زوجها أشد العناية: هو في رأيها رجل لا تعوزه الكفاءات. فهو يحسن تمثيل وظيفته، يعرف كيف يجلس وكيف يصغي مهيباً، وكيف يلتزم الصمت إذا وجب الصمت، ولكنه قادر أيضاً على أن يلقي خطاباً، حتى إنه يملك شذرات أفكار، وقد اكتسب طلاء من اللبرالية لا غنى عنه في هذا الزمان. غير أن الشيء الذي كان يقلق جوليا ميخائيلوفنا مع ذلك هو أن زوجها بعد أن قضى عمره كله ساعياً وراء الوظائف يبدو الآن قليل الطموح، ويميل إلى الراحة. إنه، بينما كانت تحاول

أن تبث فيه نشاطها، قد شرع في صنع معبد بروتستانتي: القس يصعد إلى المنبر ويلقي موعظة، المؤمنون يصغون إليه بتقى وخشوع ضامين أيديهم، سيدة تجفف دموعها بمنديلها، رجل عجوز يتمخط، ثم يُسمع صوت أرغن صغير طلبه فون لمبكه من سويسرا خصيصاً رغم أنه كلّف ثمناً غالياً. رُوّعت جوليا ميخائيلوفنا، فما كان منها إلّا أن صادرت هذا العمل الجميل منذ علمت بوجوده، وسجنته في خزانة من أثاث المنزل. ومن أجل أن يتعزى عن ذلك، استأذن فون لمبكه امرأته في أن يكتب رواية، فأذنت له بذلك، ولكن على غير علم من أحد. ومنذ ذلك الحين أصبحت جوليا ميخائيلوفنا لا تعتمد إلّا على نفسها. ومن سوء الحظ أنها امرأة يعوزها القصد والاعتدال، وأنها تنقاد كثيراً للخيال. فليس من باب الصدفة أنها ظلت عانساً خلال مدة طويلة ذلك الطول كله. إن الأفكار يطارد بعضها بعضاً في ذهنها الطموح، المهتاج. وإذ كانت تغذي في نفسها بعض الأهداف وتريد أن تحكم الإقليم، فقد اختارت نوعاً من اتجاه سياسي، مقتنعةً بأنها ستفلح في الجمع بين الناس وقيادة العقول. حتى لقد قلق فون لمبكه من ذلك بعض القلق في أول الأمر، ولكنه بما يملك من حس الموظف سرعان ما أدرك أن وظيفة حاكمٍ في إقليم ليست بالأمر الرهيب على وجه الإجمال. وفعلاً، سارت الأمورُ في الشهرين الأولين أو في الأشهر الثلاثة الأولى سيراً مرضياً جداً. ولكن بطرس ستيفانوفتش خرج له من جوف الأرض بعد ذلك، فجرت الأحوال مجرى غريباً.

يجب أن نقول إن الشاب فرخوفنسكي قد أخذ يعامل آندره أنطونوفتش، منذ أول لحظة، معاملة خالية من أي تحرّج، ووهب لنفسه حقوقاً عليه خاصة ولم تشأ جوليا ميخائيلوفنا رغم حرصها الشديد على مهابة زوجها، أن تلاحظ وضع بطرس ستيفانوفتش، أو قل على الأقل إنها لم توله اي اهتمام ولم تقم له أي وزن. لقد جعلت من الشاب صديقها الأثير. فكان يتناول وجبات طعامه عندها، حتى ليكاد ينام في منزلها. وقد حاول فون لمبكه أن يدافع عن نفسه فكان يخاطبه أمام الناس بقوله: "يا فتى"، وكان يربت على كتفه مصطنعاً

وضع من يرعاه ويحميه، ولكنه لم يظفر بشـيء: فإن بطرس سـتيفانوفتش ما يـزال يبـدو عليه أنه يتواقح معـه، حتى حين كان يخاطبه بلهجـة فيها كثير من الجد، وكان يوجه إليه أمام الناس أقوالاً غريبة بحضور آخرين. وفي ذات يوم دخل فون لمبكه حجرة عمله فوجد بطرس سـتيفانوفتش بسـبيل أن ينام على الديوان. فقال الفتى للحاكم إنه لم يجد في البيت أحداً، فانتهز الفرصة ليغفو "غفوة قصيرة". فشـعر الحاكم بأنه أهين إهانة كبيرة، وشـكا أمره إلى امرأته مـرة أخرى، لكن امرأته سـخرت مـن فرط تأذيه، وأخذت عليـه أنه لا يعرف كيف يجعل الناس على مسافة منه: فإن "هذا الفتى" لا يسمح لنفسه بأن يرفع الكلفة بينه وبينها على هذا النحو. "ثم إنه ساذج بسيط، وإنما تعوزه الخبرة في مخالطة المجتمع". فزعل فون لمبكه قليلاً، ثم أذعن لإلحاح زوجته، فانتهى إلى مصالحة بطرس ستيفانوفتش. ولم يعتذر بطرس عن فعلته مع ذلك، حتى لقد تخلص من الموقف بمزحة صغيرة أخرى كان يمكن أن تُعد إهانة أخرى جديدة، ولكنها قُبلت على أنها علامة ندم. ومن سـوء حظ آندره أنطونوفتش أنه كان قد كشـف للشاب عن نقطة ضعفه، وأطلعه على أنه يكتب رواية. وإذ ظـنّ فيـه طبيعةً حارة شـعرية، وإذ كان يبحـث منذ مدة عن مسـتمع يقرأ له ما يكتـب، فقد قرأ له فصلين من مخطوطة الرواية في ذات مسـاء، فكان بطرس ستيفانوفتش يصغي إليه دون أن يخفي ضجره، حتى لقد تثاءب صراحة، ولم يثـنِ على المؤلف أي ثناء. ولكنـه حين همّ بالانصراف طلب منه المخطوطة ليعيد قراءتها في البيت، كما قال، فيرى فيها رأياً أوضح، ويحكم عليها حكماً أصـح، فأعطاه آندره أنطونوفتش المخطوطة. ومنذ ذلك اليوم لم يفلح آندره أنطونوفتش في اسـتردادها. كان بطرس سـتيفانوفتش يجـيء كل يوم، ولكنه كلمـا طُلبـت منـه المخطوطة اكتفى بـأن يضحك، ثـم أعلن أنـه أضاعها في المسـاء نفسـه الذي حملها فيه. فلما علمت جوليا ميخائيلوفنـا بالنبأ، لامَت إلى زوجها لوماً شـديداً، وهتفت تقول له قلقة أشد القلق: آمل على الأقل أن لا تكون قد حدثته عن المعبد البروتستانتي الذي أخذت تصنعه من الكرتون!

أصبـح آندره أنطونوفتش مهموم البال، وذلك أمر رأى الأطباء أنه يسـيء

كثيراً إلى صحته. فإلى جانب الهموم والمصاعب الإدارية، والتي سنعود إلى الكلام عنها فيما بعد، أصبح يشعر بعذاب في قلبه، لا كحاكم، بل كفرد فحسب. إن آندره أنطونوفتش لم يتصور حين تزوج أن الشقاق يمكن أن يحدث في بيته. حتى أن هذه الفكرة لم تكن تدور في خلده لحظةً حين كان يحلم أن يتزوج مينا أو أرنستين. لقد أدرك أنه عاجز عجزاً مطلقاً عن مغالبة الزوابع المنزلية. وأخيراً صارحته جوليا ميخائيلوفنا فقالت له:

ـ لا يجوز لك أن تزعل لأمر تافه هذه التفاهة، أولا لأنك أعقل منه كثيراً، وثانياً لأنك أعلى منه مقاماً في السلم الاجتماعي. إن هذا الفتى لم يتخلص بعد تخلصاً تاماً من عقليته الثورية. وفي رأيي أن تصرفاته لا تعدو أن تكون تصرفات صبيان. لكننا لا نملك أن نبدله دفعة واحدة، وإنما ينبغي أن نسير إلى هذا الهدف خطوة خطوة. إن علينا أن نفهم الجيل الجديد. أنا مثلاً أؤثر فيهم باللين والرفق وأعاملهم بالحسنى، فأمسكهم على حافة الهاوية قبل أن يتردوا فيها.

أجابها فون لمبكه قائلاً:

ـ لكنه يقول أشياء فظيعة. إنني لا أطيق أن يزعم بحضوري على مسمع من الناس أن الحكومة تشجع الإدمان على السكر لتخبل الشعب وتمنع من التمرد. تخيلي موقفي حين يكون علي أن اسمع أقوالاً كهذه الأقوال!

قال الحاكم هذا الكلام متأثراً بالحديث الذي جرى في الأونة الأخيرة بينه وبين بطرس ستيفانوفتش. إنه وقد أراد أن يفلّ سلاح خصمه بميله اللبرالي قد أطلعه على مجموعته من المنشورات الثورية التي ظهرت في روسيا وفي الخارج منذ سنة 1859، والتي كان قد جمعها لا بدافع حب الاطلاع وحده، بل بدافع المنفعة أيضاً. وإذ أدرك الشاب نيته أعلن له بفظاظة أن سطراً واحداً من بعض هذه المنشورات أزخر بالمعاني من جميع قراطيس أي دائرة من دوائر الحكومة، "بما في ذلك دائرتك حتماً".

فصعّر لمبكه وجهه، ثم قال بصوت يكاد يكون ضارعاً وهو يشير إلى المنشورات:

ـ ولكن هذا سابق لأوانه.

فأجابه بطرس ستيفانوفتش:

ـ لا، ليس سابقاً لأوانه. إنكم تخافون منه وهذا دليل على أنه ليس سابقاً لأوانه.

ـ ولكنهم يدعون الشعب إلى تهديم الكنائس...

ـ ولم لا؟ أنت رجل ذكي، وأنت إذن غير مؤمن، وأنت تدرك حق الإدراك أن الدين إنما يفيدكم في تخبيل عقول الشعب. إن الحقيقة أشرف من الكذب.

ـ طيب طيب، لنسلم بأن ما تقوله صحيح. ولكن هذا سابق لأوانه.

كذلك قال فون لمبكه ملحاً. فأجابه الشاب:

ـ إذا كنت موافقاً على تدمير الكنائس، وعلى الزحف إلى بطرسبرج بهراوات، إذا كانت المسألة في نظرك مسألة توقيت، فكيف يمكنك أن تكون موظفاً في الدولة؟

هتف فون لمبكه يقول بلهجة حانقة، منزعجاً أشد الانزعاج من أنه انقاد للوقوع في فخ يبلغ هذا المبلغ من الغلظة:

ـ ليس الأمر هذا، ليس الأمر هذا بتاتاً. أنت مخطئ لأنك ماتزال شاباً تجهل أهدافك ومراميك. تقول إننا موظفون في الحكومة؟ موظفون مستقلون؟ هذا صحيح. ولكن اسمح لي: ما هو عملنا الذي نقوم به؟ إن علينا مسؤوليات، ولكننا في الحساب الأخير إنما نخدم القضية العامة مثلكم. نحن لا نزيد عن أن نبقي ما تزعزعونه أنتم، وهو ما سينهار في يوم من الأيام. نحن لسنا أعداءكم، أبداً. نحن نقول لكم: "امضوا إلى أمام، تقدموا، بل وزعزعوا، أعني زعزعوا كل ما هو عتيق بالٍ، كل ما يجب أن يتغيّر. ولكننا سنبقيكم في الحدود المعقولة متى لزم ذلك، فنحميكم بهذا من أنفسكم، لأنكم إذا لم نوجد نحن، لن تزيدوا على أن تقلبوا روسيا عاليها سافلها، فلا يبقى لها وجه إنساني. إن هدفنا إنما هو الإبقاء على هذا الوجه الإنساني. ألا فافهموا أنكم في حاجة إلينا، كما أننا في حاجة إليكم. في إنجلترا أيضاً، لا غنى لحزب الأحرار عن حزب المحافظين، ولا غنى لحزب المحافظين عن

حزب الأحرار فنحن المحافظون وأنتم الأحرار. هكذا أرى أنا الوضع.

أصبح آندره أنطونوفتش فصيحاً بليغاً. إنه منذ كان في بطرسبرج كان يحبّ أن يعبّر عن أفكار ذات طابع لبرالي. وهو في هذه المرة قد استرسل مزيداً من الاسترسال في هذا لأن أحداً لا يتجسس عليه. وكان بطرس ستيفانوفتش صامتاً، وكان يلتزم موقفاً أقرب إلى الجد مما عُهد فيه، فكان ذلك يحرّض الخطيب مزيداً من التحريض على الكلام.

استأنف كلامه قائلاً وهو يمشي في حجرة مكتبه طولاً وعرضاً:

ـ هل تعلم أنني وأنا "رئيس" هذا الإقليم إن صح التعبير تقع على عاتقي واجبات تبلغ من الكثرة أنني أعجز عن أداء واحدة منها، ولكنني من جهة أخرى أستطيع أن أقول أيضاً إنني ليس لي عمل أقوم به. والسر في هذا هو أن كل شيء مرهون في حقيقة الأمر بما تستهدفه الحكومة. لنفرض أن الحكومة، في سبيل تهدئة الخواطر والنفوس، أو لأسباب سياسية معينة، أقامت نظاماً جمهورياً، ولكنها في الوقت نفسه عززت سلطات حكام الأقاليم. أؤكد أننا معشر حكام الأقاليم سنرتضي الجمهورية عندئذ، بل سنرتضي ماشئت، أنا شخصياً، على كل حال، أشعر بأنني أستطيع ذلك... الخلاصة: لنفرض أن الحكومة أرسلت البرقية التالية:

"عليكم بنشاط جبار"، إنني سأندفع عندئذ في القيام "بنشاط جبار". أعلنت ذلك هنا أمام جميع الناس: "أيها السادة، من أجل تحقيق التوازن والازدهار للمؤسسات الإقليمية، لا بد حتماً من تعزيز سلطات حاكم الإقليم". يجب على هذه المؤسسات أن تعيش حياة مزدوجة إن صح التعبير، فهي من جهة أولى ينبغي أن تبقى وتستمر (أنا أُسلّم بأن هذا ضروري لا غنى عنه)، ولكن يجب من جهة أخرىٰ أن لا توجد، وذلك وفقاً لما تستهدفه الحكومة. فإذا بدا لها فجأة أن هذه المؤسسات ضرورية، كانت هذه المؤسسات تحت تصرفي. وإذا أصبحت غير ضرورية لم يعثر أحد على أثر لها. هكذا أفهم "النشاط الجبار"، ولكن يستحيل تحقيق ذلك بدون تعزيز سلطات حاكم الإقليم. نحن نتكلم هنا أنا وأنت على انفراد. ولقد أبلغت

بطرسبرج أن من الواجب حتماً أن يوضع على باب الحاكم خفير. وما زلت أنتظر الجواب.

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ بل أنت تحتاج إلى خفيرين اثـنين.

سأله فون لمبكه متحيراً:

ـ لماذا أحتاج إلى اثـنين؟

ـ قد لا يكفيك واحد ليفرض الاحترام. إنك تحتاج إلى اثنين.

ـ آه منـك يا بطرس سـتيفانوفتش! إنك تجيز لنفسـك معي مـا لا يعلم إلّا الله!... تستغل طيبتي فتلكزني لكزات قوية!

جمجم بطرس ستيفانوفتش قائلاً:

ـ لك ما تشاء! مهما يكن من أمر، فإنك تشق لنا الطريق، وتهيء لنا النجاح.

ـ ماذا تريد أن تقول؟ أي نجاح تقصد؟ من أنتم الذين أشق "لكم" الطريق؟

حين علمت جوليا ميخائيلوفنا بأمر هذه المحادثة، استاءت استياء شديداً. فقال آندره أنطونوفتش محاولاً تبرير سلوكه:

ـ مـا كان لـي على كل حـال أن أعامل أثيرك كما أعامل شـخصاً هو دوني مقامـاً، ولا سـيما حين نتحدث على انفراد. لقد انقـدت للرغبة في الكلام... وهذا ذنب قلبي الطيب.

ـ بل قل قلبك الطيب أكثر مما يجب. ما كنت أعرف أنك تجمع منشورات. أرني هذه المنشورات، من فضلك!

ـ لكنه... طلب أن يستعيرها يوماً واحداً.

صاحت جوليا ميخائيلوفنا تسأله:

ـ وأعطيته إياها؟ ما أقلّ براعتك.

ـ سوف أطالبه بردّها إليّ حالاً.

ـ لن يردّها.

ـ سـأصر على استردادها. من هو ومَنْ أنا حتى نخشاه، وحتى لا أجرؤ أن أفعل شيئاً؟

كذلك صاح فون لمبكه غاضباً ونهض. فقالت له جوليا ميخائيلوفنا وهي توقفه بإشارة:

ـ اجلس وهدئ نفسك. سوف أجيبك الآن عن سؤالك الأول: هذا شاب زُكّي لي تزكية حارة، وأوصيت به خيراً، إن له مواهب طبيعية، وكثيراً ما يقول أشياء تبلغ غاية الذكاء. ويؤكد لي كارمازينوف أن له صلات بجميع الأوساط، وإن له تأثيراً كبيراً ونفوذاً قوياً على الشبيبة بالعاصمة. فإذا استطعت أن أجتذب هؤلاء الشبان، وأن أجمعهم حولي، أمكنني أن أجنبهم الكارثة بتحديد هدف لطموحهم. إنه مخلص لي إخلاصاً صادراً من كل نفسه، وهو يطيعني في كل شيء.

ـ ولكن... بينما نحن نتملّقهم... يستطيعون هم أن يفعلوا ما الله به أعلم!... هذه فكرة طبعاً.

ـ لكن... لكن سمعت منذ برهة أن هناك منشورات توزَّع في إقليم "ف..."

كذلك تمتم فون لمبكة وهو ما يزال يحاول الدفاع عن نفسه بغموض. ثم أردف:

ـ سبق أن سَرَت هذه الشائعات في الصيف الماضي، فتحدث الناس عن نداءات وأوراق نقدية مزيفة، وأشياء من هذا القبيل. ومع ذلك لم يُعثر على شيء حتى الآن. من قال لك هذا؟

ـ فون بلومر.

ـ ناشدتك الله دعني من صاحبك فون بلومر هذا، ولا تكلمني عنه قط!

واضطرت جوليا ميخائيلوفنا أن تصمت لحظة لتسترد هدوءها. لقد كانت تكره فون بلومر، الموظف في ديوان الحاكم. وسنعود إلى هذا الأمر فيما بعد.

ـ أرجوك أن لا تصدِّع رأسك بمسألة فرخوفنسكي. فلو كان يشارك في أعمال صبيانية كهذه، لما تكلم كما يتكلم معك ومع غيرك. إن الذين يكثرون من الكلام لا يكونون خطرين. بل إنني لأقول لك: إذا حدث شيء من ذلك فسأكون أول من يطلع عليه منه. إنه مخلص لي إخلاصاً متعصباً، نعم متعصباً...

يجب أن أذكر في هذه المناسبة، مستبقة الأحداث، أنه لولا طموح جوليا ميخائيلوفنا وثقتها بنفسها، لكان من الممكن أن لا يستطيع أولئك الأشخاص الأدنياء الصغار أن يفعلوا عندنا من الشر ما فعلوا، وهكذا يقع على عاتق جوليا ميخائيلوفنا جزء كبير من تبعة هذا الشر.

الفصل الخامس

قبل الحفلة

1

إن الحفلة التي كانت تُعدُّها جوليا ميخائيلوفنا لصالح معلّمات إقليمنا، قد أرجئت عدة مرات، فمن بين الذين كانوا يسعون و يتحركون حول امرأة الحاكم ويساعدونها في ما تهيئه وتحضِّره نستطيع أن نذكر، عدا بطرس ستيفانوفتش، هؤلاء الأشخاص: ليامشين، الموظف الصغير الذي كان في الماضي يتردد على ستيفان تروفيموفتش ثم استطاع الآن بموهبته في العزف على البيانو أن ينال حظوةً لدى جوليا ميخائيلوفنا، وليبوتين الذي كانت جوليا ميخائيلوفنا تنوي أن تجعله رئيساً للجريدة المستقلة التي أرادت أن تنشئها في إقليمنا، وأخيراً كارمازينوف، الذي لم يكن شديد التحمس كالآخرين، ولكنه أعلن مع ذلك راضياً مرتاحاً أنه يهيء مفاجأة ممتعة، وأن "رقصة الأدب" ستكون مشهداً خلاباً. وقد تكاثرت التبرعات والهبات. فإن جميع أفراد الصفوة المختارة في مجتمعنا أرادت أن تشارك في الحفلة. هذا عدا أن أشخاصاً من عامة الناس قد قُبلوا أيضاً على شرط أن تكون مساهماتهم كبيرة. لقد صرَّحت جوليا ميخائيلوفنا أن التقريب بين الطبقات وخلط بعضها ببعض من الأمور اللازمة أحياناً: "إذا لم نقم نحن بتثقيف هؤلاء المساكين وتنوير عقولهم، فمن ذا الذي يجب أن يفعل ذلك؟". وقد شكلت جوليا ميخائيلوفنا من خلصائها نوعاً من لجنة إدارية قررت أن تتخذ الحفلة طابعاً ديموقراطياً. وكانت ضخامة التبرعات تحض على الإنفاق:

لقد أُريد أن تكون الحفلة شيئاً خارقاً لا عهد بمثله من قبل. فذلك هو السبب في أن موعد الحفلة قد أرجئ مراراً. وكانوا لا يعرفون بعد أين ستقام حفلة الرقص: أتقام في منزل عميدة النبالة وهو منزل واسع، أم تقام عند فرفارا بتروفنا في سكفورشنيكي؟ إن سكفورشنيكي بعيدة قليلاً، غير أن عدداً من أعضاء اللجنة قالوا إن المرء يحس هناك "بحرية أكبر". وكانت فرفارا بتروفنا نفسها تود أن تُقام الحفلة عندها. إنه ليصعب علينا أن نفهم لماذا كانت هذه المرأة تسعى ذلك السعي كله إلى نيل الحظوة لدى جوليا ميخائيلوفنا! لعلها قد سرَّها أن ترى أن جوليا ميخائيلوفنا كانت من جهتها تقف من نيقولاي فسيفولودوفتش موقف العبادة، وتعامله كما لا تعامل أحداً قط. أعود فأكرر مرة أخرى: إن بطرس ستيفانوفتش كان لا ينفك يهمس في أذنها أن لنيقولاي فسيفولودوفتش صلات قوية بجهة سرية، وأنه مكلف بمهمة خاصة حتماً.

وما كان أغرب حالة النفوس في ذلك الأوان! كانت حالة غريبة عجيبة حقاً! فبين السيدات خاصةً كانت تسيطر حالة من قلة المبالاة، والخفة، لا يدري المرء من أين انبجستا فجأة. إن أشدَّ الأفكار أصبحت تُقبل بحماسة. لكأن ريحاً من جنون ومرح قد عصفت بالناس جميعاً. غير أن مشهد هذا المرح لم يكن بالمشهد الممتع دائماً. أصبحت الفوضى هي الموضة...

فيما بعد، حين انتهى كل شيء، أُلقيت تبعة ذلك على جوليا ميخائيلوفنا، والمحيطين بها، وتأثيرها. ولكن لا شك أن جوليا ميخائيلوفنا لم تكن المسؤول الوحيد. لقد كان كثير من الناس في البداية يتغنون بمدح امرأة الحاكم الجديد التي استطاعت أن تجمع الناس وأن تجعل الحياة في الريف أمتع. حتى لقد وقعت حوادث فاضحة لا يمكن أن تُعدَّ جوليا ميخائيلوفنا مسؤولة عنها بحال من الأحوال، حوادث لم يزد الناس على أن ضحكوا منها، ولم يوجد من يضع لها حداً، ويضع الأمور في نصابها. على أن بعض الناس قد قاوموا هذا التيار، وظلوا مبتعدين، محتفظين برأيهم. لكنهم لم يحتجّوا واكتفوا بالتبسّم.

أذكـر أنـه تكونت في تلـك الأيام جماعة يجـب أن نعتـرف بأنها اتخذت صالـون جوليـا ميخائيلوفنـا مركـزاً لها. فكان من المسـلَّم به فـي داخل هذه الحلقة أن الشـبان يحق لهم، بل ويجب عليهم، أن يسترسلوا في مهازل شتى منهـا ما كان يبلغ حداً كبيـراً من الجرأة والمجون. وكانـت هذه الحلقة تضم بين أعضائها عدة سـيدات منهن من كن بارعات الجمال. كان هؤلاء الشباب يقومـون برحـلات، وينظمـون سـهرات، حتى لقـد كانوا في بعـض الأحيان يتجولون على ظهور الخيل أو في العربات موكباً في الشوارع، ويبحثون عن المغامرات ويسعون إليها، أو يستثيرونها أو يلفقونها عند اللزوم، لا لشيء إلّا أن يستطيعوا بعد ذلك قصَّ حكايات مضحكة ونوادر مسلية. فكانت مدينتنا تُعامَل معاملة مدينة محتلة تقريباً. كان هؤلاء "الهازلون"، كما سمَّاهم الناس عندنا، لا يتحرجون من شيء ولا يصدهم شيء.

مـن ذلـك أن امـرأة ضابط برتبـة ملازم، وهي امرأة سـمراء ما تزال شـابة لكـن حياتهـا الصعبة مع زوجها قـد أهرمتها قبل الأوان، قـد ارتكبت حماقة الجلـوس إلى مائدة القمار في سـهرة من السـهرات آملة أن تربح ما تشـتري به لنفسـها خماراً، ولكنها بدلاً من أن تربح ثمن الخمار خسرت خمسة عشر روبـلاً. وإذ لـم تكـن تملك ما يمكنها مـن دفع هذه الخسـارة، وإذ خافت أن يلومها زوجها، فقد اسـتجمعت كل شـجاعتها وقررت أن تقترض المبلغ من ابـن عمدتنا، وهو صبـي داعر لم يكتف بأن رفض إقراضها المال، بل أسـرع يحكـي القصـة لزوجهـا وهـو يضحك فـي قهقهـة مجلجلـة. وكان الملازم المسـكين لا يملك لمعيشـته إلّا راتبه الضئيل، فما إن عـاد بامرأته إلى البيت حتـى انهال عليها يضربهـا ضرباً موجعاً رغم صرخاتهـا ودموعها ورغم أنها جثـت علـى ركبتيها تسـتغفره عن ذنبها. إن هـذه القصة الأليمة لـم تثر عندنا إلّا الضحـك والمـزاح. ولـم تكـن المرأة الشـقية تنتمـي إلى مجتمـع جوليا ميخائيلوفنا، لكن إحدى سيدات هذه الحلقة وهي امرأة شاذة الأطوار جريئة وقحـة، كانت تعرف امرأة المـلازم، فمرَّت بها وأخذتها إلى بيتها، فسـرعان مـا اجتمع عليهـا فتياننـا المتحللون الفاسـدون، فدللوها وأغرقوهـا بالهدايا

وتسلوا بها أربعة أيام قضتها كلها عند السيدة الجريئة، فكانت تنزل معها إلى المدينة، وتشارك في المسرات وتشهد حفلات الرقص. وكانوا يحضّونها على ملاحقة زوجها أمام المحاكم، فتثير بذلك فضيحة، باذلين لها الوعود بمساعدتها والشهادة لها على زوجها. ولبث الزوج ساكناً صامتاً، يخشى دخول المعركة. وارتأت المرأة الشابة أخيراً أنها قد أخطأت الطريق، فلما جاء مساء اليوم الرابع تركت حاميتها ورجعت إلى بيتها شبهَ ميتة من شدة الخوف. لا يدري أحد ماذا جرى بين الزوجين. ولكن نوافذ الجناح الخشبي الصغير الذي يسكنه الملازم قد ظلت مغلقةً مدة خمسة عشر يوماً لم تُفتح مرةً واحدة. فلما علمت جوليا ميخائيلوفنا بالأمر أظهرت استياءً شديداً من تدخل السيدة الشاذة الأطوار التي كانت مع ذلك قد عرَّفتها بامرأة الملازم منذ الأيام الأولى. ومهما يكن من أمر، فإن هذا كله سرعان ما طواه النسيان.

وبعد ذلك بزمن قصير وقعت فضيحة أخرى. إن موظفاً صغيراً يتمتع بسمعة حسنة كانت له ابنةٌ تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً مشتهرة في المدينة كلها بأنها بارعة الحسن فاتنة الجمال، فزوَّجها شاباً هو موظف صغير أيضاً. وما لبث الناس أن علموا أن الزوج الشاب قد تصرف مع عروسه تصرفاً سيئاً جداً في ليلة الزفاف نفسها، انتقاماً لشرفه الملطخ. وقد شهد ليامشين الحادث تقريباً، ذلك لأنه وقد سكر في الوليمة قد قضى الليلة في بيت العروسين. لذلك ما إن طلع النهار حتى ركض ينشر القصة الطريفة في كل مكان. فسرعان ما تكونت جماعة من نحو عشرة أشخاص انضم إليها بطرس ستيفانوفتش وليبوتين الذي كان رغم شعره الأشيب يشارك في جميع المهازل التي ينظمها فتياننا المتحللون. ركب الجميع أفراساً، حتى إذا مضى العروسان في عربة يقومان بجولة الزيارات التي توجبها التقاليد على العروسين غداة زفافهما، أحاط فرساننا بالعربة يضحكون ضحكاً مرحاً، وظلوا يرافقون الزوجين طوال النهار في المدينة. وكانوا لا يدخلون البيوت في أثرهما بل ينتظرون على الباب في كل مرة ممتطين صهوات خيولهم. يجب أن نقول أيضاً إنهم قد امتنعوا عن إهانة الزوجين صراحةً، لكن هذا

لا ينفي أنهم أثاروا فضيحة تحدثت عنها المدينة كلها. غير أن فون لمبكة غضب في هذه المرة، وقامت بينه وبين امرأته مناقشة حامية. وقد استاءت جوليا ميخائيلوفنا استياءً شديداً كذلك، فقررت أن توصد باب منزلها في وجه هؤلاء الفاسدين. ولكنها لم تلبث أن غفرت لهم استجابةً لإلحاح بطرس ستيفانوفتش الذي دعمه وأيده كارمازينوف. لقد رأى كارمازينوف أن "المزحة" فكهة لطيفة. فقال:

ـ هذا من تقاليد البلاد. ومهما يكن من أمر فللقصة لون جميل.. وفيها جرأة محببة. ثم إن جميع الناس يضحكون منها ويتفكهون بها وأنت وحدك غاضبة.

غير أن هناك مهازل أخرى، مهازل لا تطاق فعلاً، مهازل لها طابع خاص جداً.

وفدت إلى مدينتنا بائعة متجولة تبيع الأناجيل. إنها امرأة فقيرة الحال، لكنها في الوقت نفسه محترمة جداً. وقد اهتم الناس بها لأن الجرائد كانت في تلك الآونة قد خصَّت البائعين المتجولين بعدد من المقالات. فهذا هو الوغد ليامشين يتظاهر بأنه يريد شراء كتب من المرأة الطيبة، فيدسُّ لها، بمساعدة طالب عاطل كان يضرب في الشوارع بانتظار أن يُعيَّن معلّماً، يدس لها في رزمة كتبها حزمة صور خليعة كان قد زوَّد بها (كما علمنا ذلك فيما بعد) رجل عجوز محترم كان يحمل وساماً (لكنني سأكتم اسمه)، وكان يحب "الضحك البريء والمزاح الطيب". فلما وصلت بائعة الكتب إلى السوق وأخذت تفك رزمتها تبعثرت الصور الفوتوغرافية الخليعة على الأرض، فأخذ الناس يضحكون، ثم أخذوا يدمدمون ويهمهمون، ثم تحلق حول المرأة المسكينة حشد راح يكيل لها الشتائم جزافاً، وكان يمكن أن يلحقوا بها أذى لولا أن تدخلت الشرطة فاقتادت بائعة الكتب إلى القسم، ثم لم تفرج عنها إلّا في المساء بفضل إلحاح مافريكي نيقولايفتش الذي علم بتفاصيل هذه القضة الدنيئة كلها فاستاء أشد الاستياء. وقد غضبت جوليا ميخائيلوفنا غضباً شديداً وقررت أن تطرد ليامشين. ولكن أصحابنا

"الهازلين" أخذوه إليها في ذلك المساء نفسه فما زالوا يضرعون إليها أن تسمع مرةً واحدة، لا أكثر، المزحة الموسيقية الجديدة التي فرغ ليامشين من تأليفها منذ قليل، حتى أذعنت وخضعت. واتفق أن كانت هذه الفانتازيا الموسيقية التي عنوانها: "الحرب الفرنسية الألمانية"(1)، مضحكة بالفعل.

تبدأ القطعة الموسيقية بنوع من نشيد "المارسييز" البطولي الذي يضم قول الشاعر:

بدم الأعداء الفاسد فلنسق أخاديد أرضنا

إن المطلع كله زاخر بالكبرياء ونشوة الانتصارات المقبلة. ولكن ها نحن أولاء على حين فجأة، أثناء توسع لحن النشيد المجيد، ها نحن نسمع في موضع ما، في ركن ما يزال غير متميز، لكنه قريب غير بعيد، اللازمة الصغيرة البذيئة من أغنية "حبيبي أوغسطين" (بالألمانية). إن نشيد المارسييز لا يحفل بهذه اللازمة، وإنما يسترسل في الحماسة لانتصاره المقبل. ولكن أغنية "أوغسطين" تكبر، وتقوى، وما تنفك تغدو أكثر جرأة ووقاحة، وها هو ذا لحنها يدخل في نشيد المارسييز نفسه دخولاً ليس بالمتوقع. ويأخذ نشيد المارسييز بالغضب، ويلاحظ أخيراً تسلل أغنية أوغسطين، فيريد أن يتخلص منها وأن يطردها كما تُطرد ذبابة مزعجة، ولكن أغنية "حبيبي أوغسطين" تقاوم وتثبت. إنها مرحة ملأى بالثقة، زاخرة بالوقاحة. ويطيش صواب نشيد المارسييز: فلا يُخفي بعدئذ حنقه وسخطه. وها هي ذي صرخات الاستياء والاستنكار، وها هي ذي الدموع الغزيرة، وها هي ذي الأيمان المغلظة ترقى مع الأذرع المرفوعة إلى السماء منادية:

لا شبر من أرضنا، لا حجر من قلاعنا

ولكن نشيد المارسييز كان قد اضطر أن يساير أغنية "حبيبي أوغسطين"،

---

(1) إن الحرب الفرنسية الألمانية التي قامت بين 1871ـ 1870 تصورها هذه القطعة الموسيقية القصيرة في صورة صراع بين نشيد "المارسييز" وبين أغنية ألمانية عنوانها "حبيبي أوغسطين". وقد سبق أن أشار دوستويفسكي إلى هذه الأغنية في بداية روايته "مذلون مهانون"، وهي تنتهي بهذه الجملة "أوغسطين راقد في الوحل".

وأن يجاري إيقاعها، حتى ليختلط لحنه بلحنها اختلاطاً أبله، ثم إذا هو يرضخ وينطفئ. ومع ذلك نظل نسمع من هنا ومن هناك: "بدم الأعداء الفاسد... بدم الأعداء الفاسد..."، ولكن الجملة سرعان ما تنثني لتساير أغنية الفالس البذيئة الخليعة. لقد خضع نشيد المارسييز: إنه جول فافر يبكي في صديرة بسمارك، ويترك كل شيء، كل شيء... ولكن أغنية أوغسطين تنتفخ عندئذ وتصبح حانقة معربدة: إنها براميل البيرة التي شُربت، إنه النصر يزدهي بنفسه متغطرساً، إنها المطالبة بتعويضات تبلغ مليارات، إنها الأوامر بإحضار فاخر السيجار ومعتق النبيذ، انه أخذ الرهائن. لسنا الآن أمام أغنية "حبيبي أوغسطين" بل نحن إزاء زئير ينطلق وحشياً. انتهت الحرب الفرنسية الألمانية. صفق المستمعون. وقالت جوليا ميخائيلوفنا مبتسمةً: "ويستحيل طرده!". وتمَّ الصلح. لقد كان الوغد ينعم بشيء من الموهبة حقاً. لقد أكَّد لي ستيفان تروفيموفتش ذات يوم أن أكبر الفنانين يمكن أن يكونوا أوغاداً فظيعين، فهذا لا ينفي ذاك. وسرت إشاعة بعد ذلك بقليل تقول إن ليامشين إنما سرق هذه الفانتازيا الموسيقية من فتى موهوب لكنه متواضع، عرفه مصادفةً ولم يسمع عنه أحد شيئاً بعد ذلك، أقول ذلك عابراً. وإنما يجب الآن أن أذكر أن ليامشين الذي كان في الماضي يسعى حول ستيفان تروفيموفتش فيمثل، متى طُلب منه ذلك، يهوديين يتشاجران[1] أو اعتراف امرأة صماء، أو صرخات أم تلد، أصبح الآن عند جوليا ميخائيلوفنا يقلد ستيفان تروفيموفتش نفسه في بعض الأحيان تقليداً كاريكاتورياً، تحت عنوان: "لبرالي من سنوات الأربعينات". لقد بلغ من النجاح أن أحداً لا يخطر بباله أن يطرده: لقد عرف كيف يجعل من نفسه إنساناً لا غنى عنه. ثم إنه بما يجيده من التملق قد نال حظوةً لدى بطرس ستيفانوفتش الذي كان قد أصبح له في ذلك الأوان سلطان كبير على جوليا ميخائيلوفنا.

ما كان لي أن أفيض في الكلام على هذا الشقي الذي لا يستحق أن أتكلم

---

(1) كانت الموسيقى الواقعية رائجة في تلك السنين. وقد ألف موسجورسكي سنة 1868 مجموعة قطع موسيقية بعنوان "لوحات من معرض". وكانت إحدى هذه القطع تمثل يهوديين يتشاجران.

عنـه لـولا أن وقع حادث مثيـر يؤكد الناس أنه قد شـارك فيـه ولا يمكنني أن أصمت عنه.

ففـي ذات صبـاح، انتشـر فـي المدينـة كلهـا نبـأ حـدوث حـادث يخرق المقدسات.

وعند مدخل الميدان الواسع الذي يقوم فيه السوق، ترتفع الكنيسة القديمة، كنيسـة "ولادة العـذراء" وهي من أجمل المباني التاريخيـة في مدينتنا العريقة. وتحـت البـاب الذي فـي جدار صحن الكنيسـة توجـد منذ زمان قديـم أيقونة موضوعـة فـي واجهـة مصنوعة من قضبـان حديد وزجـاج، هي أيقونـة كبيرة تمثل العذراء. ففـي ذات صباح من الأصباح وُجدت الأيقونة منهوبة: الزجاج قـد حُطِّم، وقضبـان الحديد قد فُكَّت، ولآلئ كبيرة وأحجـار كريمة (لا أعرف قيمتها) قد انتُزعت من الإكليل والإطار. غير أن الأخطر من ذلك، أن الجناة لم يكتفوا بارتكاب فعل السرقة بل زادوا عليه فاقترفوا عملاً ينافي الشعور الديني، عملاً حقيراً دنيئاً: فوراء الزجاج المحطَّم وُجدت فأرة حية في ما يقال.

اليـوم، بعـد انقضـاء أربعة أشـهر على وقوع هـذا الحادث، لا يشـك أحد من الناس في أن هذه الجريمة إنما ارتكبها فدكا الهارب من سـجن الأشـغال الشـاقة، ولكن الناس يضيفون إلى ذلك أن ليامشـين سـاعده في ارتكابها. لم يتكلم أحد عن ليامشـين حينذاك، ولم يشـتبه فيه أحد. لكـن الجميع يؤكدون اليـوم أنـه هـو الذي أدخـل الفـأرة وراء الزجـاج. أذكـر أن السـلطات فقدت صوابهـا قليلاً يومـذاك. ومنذ الصباح أصبـح الوقوف أمام مـكان الجريمة لا ينقطـع. علـى أن الجمهور لـم يكن ضخمـاً. لعله نحو مائة شـخص. فبعض يأتي وبعض ينصرف. والآتون يرسمون على أنفسهم إشارة الصليب ويقبِّلون الأيقونـة. وظهـر راهـب يحمـل صينية وجعـل يجمـع العطايا. وفي السـاعة الثالثـة بعـد الظهر، ارتأت السـلطات أخيـراً أن تمنع التجمع وأصـدرت أمراً إلـى الذين انتهوا من تقبيل الأيقونة ووضـع عطاياهم بأن ينصرفوا. ويظهر أن هذا الحادث المؤسـف قـد أحدث في نفس فون لمبكة أثراً سـيئاً، وجعله في حالة اكتئاب شديد. حتى لقد صرَّحت جوليا ميخائيلوفنا، إذا صدق ما سمعته

عنهـا، أنها في ذلك اليوم بعينه إنما أخذت تلاحـظ على زوجها ذلك الانهيار الغريب الذي لم يبارحه إلى حين مغادرته مدينتنا، والذي ما يزال يلازمه، على ما يقال، حتى الآن بسويسرا، حيث يرتاح بعد إقامته القصيرة في إقليمنا.

أذكر أنني مررت بميدان السـوق في نحو السـاعة الواحدة. كان الجمهور صامتـاً، وكانـت الوجوه مكفهـرّة مظلمة. رأيت عربة من عربـات الدرويكي يصل عليها تاجر بدين أصفر، فيسجد أمام الأيقونة، ويقبّلها ويضع روبلاً في الصينيـة، ثـم يركب عربة ثانية وهو يزفر زفرات قويـة، وينصرف. ثم وصلت مركبة فيها سـيدتين يصحبهما اثنان من شـبابنا المسـتهترين. نزل الشابان من المركبـة (وكان أحدهمـا قد تقدم في السـن قليلاً على كل حـال) واقتربا من الأيقونة وهما يشقان لهما طريقاً بين الجمهور بقسوة ووحشية. لم ينزع أحد منهمـا قبعته احتراماً، حتـى أن أحدهما وضع على عينيه نظارة. وانطلقت من النـاس دمدمـات وهمهمات إن تكـن خافتة فقـد كان واضحاً أنها مسـتنكرة سـاخطة. وهذا هو الذي يضع على عينيه نظارة، يخرج محفظة نقود محشـوة بـالأوراق المالية، فيتناول منها كوبـكاً ويلقيه في الصينية. ثـم يضحك الاثنان كلاهمـا، ويتكلمان بصوت عال، ويعودان إلى السـيدتين. وفـي تلك البرهة ظهـرت ليزافتا نيقولايفنا على صهوة حصانها، يخفرها مافريكي نيقولايفتش كمـا جرت بذلـك العادة دائماً. قفزت الفتاة عن فرسـها، ورمـت اللجام إلى رفيقهـا الـذي بقي على حصانـه تنفيذاً لأمرهـا، واقتربت مـن الأيقونة لحظةَ كان الشـاب يلقـي الكوبك فـي الصينيـة. احمرّ خـدّا الفتاة اسـتياءً. ونزعت قبعتهـا المدوَّرة، وخلعت قفازيها وانحنت على الأرض ثلاث مرات في تقى وخشـوع، ثم أخرجت محفظة نقودها، ولكنها حين لم تجد في المحفظة إلّا نقوداً فضية صغيرة، أسرعت تنتزع قرطي أذنيها المزدانين بالماس ووضعتهما في الصينية سائلةً الراهب وهي منفعلة أشد الانفعال:

ـ هل يمكنني؟ يمكنني، أليس كذلك؟ هذا لزينة الأيقونة.

فأجابها الراهب قائلاً:

ـ نعم، هذا مباح، كل هبة فهي حسنة.

وكان الناس صامتين لا يظهرون لا لوماً ولا تحبيذاً. وعادت ليزافتا نيقولايفنا تركب حصانها ملطخة بالوحل، وانصرفت عدواً.

2

بعد ذلك الحادث بيومين، لقيتها مع صحب كثير تركب ثلاث عربات محاطة بعدد من الفرسان. فدعتني بإشارة من يديها، وأوقفت العربات وألحَّت أن أنضم إليهم. فوجدوا لي مكاناً صغيراً في مركبتها، وقدمتني، ضاحكةً، إلى السيدات الأنيقات جداً اللواتي كن يصحبنها، وذكرت لي أنهم ماضون في رحلة شائقة جداً. كانت تضحك طول الوقت، حتى لقد كانت تبدو مرحةً مرحاً عجيباً. إن فيض نشاطها يكاد يتجاوز حدود الاعتدال في هذه الآونة الأخيرة. وكانت الرحلة التي يقومون بها شائقة بالفعل: إنهم ذاهبون إلى الجهة الأخرى من النهر، إلى منزل التاجر سيفاستيانوف. إن هذا الرجل يؤوي عنده منذ عشر سنين، في جناح خشبي بصحن الدار، رجلاً يقال له سيميون ياكوفلفتش[1]، وهو "مجذوب" يحكى أنه أوتي القدرة على التنبؤ بالمستقبل فهو يعيش عند صاحب البيت حياة فراغ وهدوء وبحبوحة. كانت شهرة هذا الشخص القديس قد انتشرت وذاعت حتى في الأقاليم المجاورة، بل لقد وصلت هذه الشهرة إلى العاصمتين. فكان الناس يؤمونه من أقاصي البلاد، يرونه ويسمعونه، ويحمل إليه كل منهم عطية. وكانت هذه العطايا أو الهبات، وهي ضخمة في بعض الأحيان، تُنقل إلى الكنائس المحلية (إلا أن يأمر سيميون ياكوفلفتش بغير ذلك) أو تُرسل خاصة إلى دير "ولادة العذراء" الذي أوفد إلى "الجنوب" مندوباً مقيماً يستلم العطايا والهبات.

كانت الجماعة كلها تتوقع من هذه الرحلة تسلية كثيرة، لا سيما وأن أحداً منا لم يكن قد رأى، بعدُ، سيميون ياكوفلفتش، باستثناء ليامشين الذي كان

---

(1) إن شخصية جد سيميون ياكوفلفتش هذه تذكر بشخصية واقعية هي إيفان كوريشا (1861ـ 1780)، وهو رجل متنبئ دجال كان له بموسكو معجبات.

قـد جاء إليه مـرةً والذي كان يؤكد لنـا الآن أن الرجل القديـس قد أمر بطرده بضربات مكنسة وأنه رماه هو نفسه ببطاطستين ضخمتين مسلوقتين ساخنتين. وبيـن الفرسـان الذى يحيطـون بالعربـات، رأيت بطرس سـتيفانوفتش الذي استأجر لهذه المناسـبة حصاناً قوزاقياً كان لا يحسن ركوبه، ورأيت نيقولاي فسـيفولودوفتش الذي كان يشارك دائماً في أمثال هذه الرحلات المرحة، مع بقائه قليل الكلام. ولقد كان وجهه ينم يومئذ عن ابتهاج وانتعاش.

لما عبرنا الجسـر فأصبحنا أمام فندق من أهم فنـادق المدينة قال أحدهم فجـأة إنه قـد عُثر في هذا الفندق منذ برهة على جثة مسـافر أطلق على نفسـه رصاص مسدس، فهل لكم في رؤية المنتحر؟ فاستحسن الجميع هذه الفكرة وحبذوها: فإنه لم يسبق لسيداتنا أن رأين منتحراً قبل اليوم. وأذكر أن إحداهن قالـت بصـوت عالٍ: "لقد سـئمنا من التسـليات العادية فلا داعـي لأن نزعج أنفسـنا بهـذه التسـلية الجديدة، اللهـم إلّا أن تكون شـائقة". ولـم يمتنع عن الدخول إلّا بضعة أشـخاص ظلوا ينتظرون عند مدخل الفندق. أمَّا الآخرون ومنهم ليزافتا نيقولايفنا ـ وهذا ما أدهشـني كثيراً ـ فقد أسرعوا يلجون الدهليز القذر المعتم. كانت غرفة المنتحر مفتوحة: كان يُنتظر وصول الشرطة، ولكن لـم يجـرؤ أحد أن يمنعنا مـن الدخول طبعاً. إنه فتى يبلغ التاسـعة عشـرة من عمره في أكثر تقدير، جميل الوجه، أشقر الشعر غزيره كثيفه، حلو القسمات، صافي الجبين جداً. كان الجسـم قد تجمد. إن الوجه الشـاحب يبدو كأنه من مرمـر. لقد ترك الفتى على المائدة بطاقة مكتوبة بخط يده يعلن فيها أنه أطلق على نفسـه الرصاص لأنه "التهم" أربعمائة روبل. وكانت كلمة "التهم" بارزة في الرسالة القصيرة التي ضمَّت ثلاثة أخطاء إملائية في أربعة أسطر.

كان واقفاً أمام الجثة رجل ضخم يزفر زفرات عميقة هو واحد من مالكي الأراضـي ينزل في الفندق نفسـه. فعلمنا منه أن الفتى قـد أوفدته أمه الأرملة وخالاته ليتولى، بإشـراف قريبة لهن، شـراء جهاز أختٍ له أكبر منه سـتتزوج قريبـاً، ومن أجل شـراء هذا الجهـاز عهد إليه بأربعمائـة روبل جُمعت خلال عشـرات السـنين بفضل أنواع من الحرمان القاسـي. وقد سـافر الفتى مودِّعاً

بالدموع ومشيَّعاً بإشارات الصليب، وتوصيات ملحة ونصائح كثيرة وأدعية متصلة. وكان سلوك الفتى إلى ذلك الحين سلوكاً ممتازاً والحق يقال. فيما وصل إلى المدينة منذ ثلاثة أيام لم يذهب إلى قريبته، بل استأجر غرفةً في الفندق، ثم مضى إلى النادي تواً، على أمل أن يربح مبلغاً ضخماً من المال في ركن ناءٍ من مقامر عابر. لكنه لم يجد أحداً من هذا النوع. فلما عاد إلى الفندق في منتصف الليل أمر لنفسه بشمبانيا وسيجار فاخر وعشاء يتألف من ستة أطباق أو سبعة. لكن الشمبانيا أدارت رأسه، والسيجار أورثه غثياناً، فلم يستطع أن يمس أي طبق من أطباق الطعام ونام كالمغشي عليه. ثم استيقظ في صباح اليوم التالي نضراً كتفاحة، وذهب فوراً إلى نوع من كاباريه يقوم على إدارته غجر، ويقع على الضفة الأخرى من النهر، كان الفتى قد سمع عنه في الليلة البارحة بالنادي، ولم يرجع إلى الفندق إلّا في اليوم الثالث، في نحو الساعة الخامسة بعد الظهر، وقد رجع سكران كل السكر، فرقد فوراً، ولبث نائماً حتى الساعة العاشرة من المساء. حتى إذا أفاق أمر بشريحة لحم، وزجاجة خمر، وعنب وورق وحبر، وطلب فاتورة الحساب. لم يلاحظ أحد في وضعه شيئاً خاصاً يلفت النظر: فلقد كان يبدو هادئاً لطيفاً. ولعله قد انتحر في نحو منتصف الليل. لكن الشيء الغريب هو أن أحداً لم يسمع صوت طلقة المسدس، لا من الجيران ولا من العاملين بالفندق. وفي الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر فقط إنما قرع بابه الخادم، فلما لم يسمع جواباً اقتحم الغرفة. كانت قنينة الخمر فارغاً نصفها، وكان قد بقي من العنب بضعة عناقيد. وكانت الرصاصة قد أُطلقت على القلب رأساً، وكان المسدس، ذي الطلقات الثلاث، الصغير الحجم، قد سقط من يدي الفتى على السجادة. وكان الجسم الذي لم ينزف منه إلّا قليل جداً من الدم موجوداً الآن على ديوان في ركن من الغرفة. لا بدّ أن الموت قد تمَّ فوراً. فالوجه ليس فيه أثر من آثار ألم: إنه يعبر عن الهدوء بل وعما يشبه السعادة. حتى لكأنه يوشك أن يُبعث حياً.

شاهد أصحابنا المنظر بفضول شره. إن كل مصيبة تنزل بأحد من البشر

تشتمل دائماً على شيء يفرحنا. وقد نظرت سيداتنا إلى الشاب المنتحر صامتات. أمَّا الرجال وقد حافظوا على حضور بديهتهم فقد كانوا يحاولون أن يلمعوا بملاحظة لطيفة أو قولة فكهة. فقال أحدهم إن الفتى ما كان في وسعه أن يتخيَّل حلاً أفضل، وإنه تصرف تصرفاً فيه كثير من الذكاء. وقال آخر: لئن كانت حياته قصيرة، قد كانت ملأى زاخرة. وتساءل ثالث على حين فجأة: لماذا تكثر حوادث الانتحار ببلادنا هذه الكثرة كلها في الآونة الأخيرة، كأن الناس يحسون بأنهم لا جذور لهم تشدهم إلى الحياة، ولا أقدام لهم تقف على أرض. فلم يتلق المتسائل أي جواب غير نظرات خالية من اللطافة. وفي مقابل ذلك رأيت ليامشين، الذي يحرص على أن يكون له شرف تمثيل دور المهرِّج، رأيته يأخذ من الطبق عنقود عنب، فقلده في ذلك شخص آخر. حتى إذا مدَّ ثالث يده إلى قنينة الخمرة دخل مفوض الشرطة إلى الغرفة، وأخرج منها الجميع. وإذ كانوا قد رأوا ما أرادوا أن يروه، فقد انسحبوا دون أي اعتراض، إلّا ليامشين الذي شاء أن يحتج، فما كان من هذه الفكاهة إلّا أن زادت مرح الجماعة وأنعشت نشاطها، وتابع الركب الفرح طريقه وسط سيلٍ من الضحك والكلام.

وصلنا إلى عند سيميون ياكوفلفتش في الساعة الواحدة تماماً. كانت بوابة منزل التاجر الكبير مفتوحة على سعتها. وكان كل من يريد الدخول إلى جناح "المجذوب" يستطيع أن يدخل. وعلمنا أن سيميون ياكوفلفتش يتغدى، ولكنه مع ذلك يستقبل. فدخلنا جميعنا دفعةً واحدة. إن الغرفة التي يأكل فيها "المجذوب" ويستقبل، لها ثلاث نوافذ. وهي واسعة سعةً كافية، وثمة حاجز من قضبان خشب، علوُّه متر تقريباً، يقسمها إلى جزأين يمتد من جدار إلى آخر، ويقسم الغرفة قسمين متساوين. فأمَّا الزوار العاديون فإنهم يقبعون وراء الحاجز، وأمَّا الزوار الذين يخصهم الرجل القديس بامتياز خاص فإنه يأمر بإدخالهم إلى الجهة التي هو فيها، من باب في السور خاص به، ويجلسهم، إذا بدا له ذلك، على مقاعد عتيقة من جلد، أو على ديوان. أمَّا هو فإنه متربع فوق مقعد كبير ذي مسند عال، وهو مقعد مهترئ

كل الاهتراء. الرجل في نحو الخمسين من العمر، طويل القامة، أصفر اللون، متورم الوجه، حليق اللحية تماماً، قليل شعر الرأس. إن خده اليمنى منتفخة، وإن فمه موارب قليلاً، وله ثؤلول ضخم بقرب منخره الأيسر، وله عينان صغيرتان هادئتان. وهو يرتدي ثياباً على الزي الأوروبي، ولكن لا صديرة ولا ربطة عنق تحت ردنجوته الأسود. قميصه من قماش خشن، لكنه ناصع البياض. وقدماه، المريضتان فيما أظن، ينتعلان خفَّين مما يُنتعل في البيت. يقال إنه كان في الماضي موظفاً وكانت له رتبة. لقد فرغ الآن من تناول حساء خفيف بالسمك، وشرع في أكل الطبق الثاني وهو بطاطس مسلوقة بغير تقشير ومرشوشة بملح. إنه لا يأكل في حياته شيئاً آخر قط، ولكنه يكثر من شرب الشاي، فهو يهوى الشاي كثيراً. إن خدماً ثلاثة يقفون حوله، والتاجر هو الذي يدفع لهم أجورهم. فأحدهم يرتدي بزة رسمية، والثاني يشبه أن يكون مستخدماً في محل تجاري، والثالث شبيه بخادم كنيسة. وهناك عدا هؤلاء فتى في السادسة عشرة من عمره، كثير الحيوية والنشاط، وراهب شائب الشعر، مهيب المظهر، وإن يكن سميناً بعض السمنة، يحمل بيده علبةً مغلقة للعطايا والهبات. وعلى مائدة يغلي سماور توجد إلى جانبه صينية عليها نحو دستتين من الكؤوس. وعلى مائدة أخرى مقابلة قد صُفَّت الهدايا: أرغفة خبز، وصرر سكر، ورطلان من الشاي، وخفَّان مطرَّزان، ومنديل تلف به العنق، وقطعة جوخ لصنع رداء، وقطعة نسيج مما تخاط منه القمصان... أمَّا العطايا المالية فيذهب بها الراهب إلى الكنيسة في العلبة المغلقة، دائماً على وجه التقريب. وكان عدد الزائرين نحو اثني عشر زائراً، اثنان منهما كانا جالسين قرب سيميون ياكوفلفتش، فأمَّا أحدهما فهو حاج من "عامة الناس" وأمَّا الثاني فهو راهب قصير نحيل كان ماراً بمدينتنا، وقد جلس متواضعاً خافض العينين. وكان باقي الزوار وراء الحاجز. إن أكثرهم أناس من الشعب، باستثناء تاجر سمين ذي لحية وصل إلى المدينة من القرية المجاورة، وهو يرتدى لباساً على الزي الروسي، لكنه معروف بأنه عظيم الثراء، وباستثناء رجل آخر من مالكي الأراضي، وامرأة عجوز نبيلة فقيرة.

كان الجميع ينتظرون، لا يجسرون أن ينطقوا بكلمة واحدة قبل أن يتجه إليهم الرجل القديس بالكلام. إن أربعة منهم راكعون. ومالك الأرض، الرجل السمين، الذي يبلغ من العمر نحو خمسة وأربعين عاماً، هو الذي يلفت الانتباه خاصة: كان راكعاً أمام الحاجز، يراه كل من بالغرفة، ينتظر بكثير من الخشوع أن يمن عليه سيميون ياكوفلفتش بنظرة أو كلمة طيبة. إنه هنا منذ ساعة، ولكن الرجل القديس لا يوليه أيَّ انتباه.

تكدست سيداتنا على الحاجز وهن يُطلقن ضحكات صغيرة ويتبادلن همسات فرحة، فيدفعن الزوار الآخرين ويحجبنهم، إلّا المالك الذي حافظ على مكانه في عناد، متشبثاً بقضبان الحاجز بكلتا يديه. وسرعان ما أصبح سيميون ياكوفلفتش محط هذه الأنظار الضاحكة المستطلعة. وتسلح عدد منا بنظارات تُمسك باليد، أو توضع على الأنف، حتى أن ليامشين أخذ يتأمل القديس مستعملاً نظارتين مقرِّبتين من النظارات التي يُستعان بها في المسرح. وألقى علينا سيميون ياكوفلفتش نظرة هادئة كسولة من نظرات عينيه الصغيرتين.

ثم قال بصوت خفيض أبحَّ قليلاً:

ـ نظرات لطيفة!

فانفجرت جماعتنا كلها ضاحكة: مامعنى هذا القول: "نظرات لطيفة"؟ ولكن سيميون ياكوفلفتش عاد إلى صمته الكامل. وأتى على طبق البطاطس الذي كان يأكله، ومسح شفتيه بمنشفة، ثم حُمل إليه الشاي. إنه في العادة لا يشرب الشاي وحيداً، وإنما يقدِّم منه إلى زواره، أو قل إلى عدد من زواره يصطفيهم. وكان هذا الاصطفاء من بين الزوار يفجأ الناس دائماً بما فيه من أمور غير متوقعة. فهو تارةً يهمل الأغنياء والشخصيات الهامة فيأمر بالشاي لفلاح أو لامرأة عجوز من الشعب، وهو تارةً أخرى يحتقر الفقراء فيأمر بالشاي لتاجر سمين من التجار مليء الجيب بالمال. هذا عدا أنه لا يعامل جميع الذين يختارهم معاملة واحدة: فواحد يأمر له بشاي محلى بالسكر، وآخر يأمر له بشاي مع قطعة من السكر عليه أن يمصها مصاً أثناء احتساء

الشـاي، وثالث لا يأمر له مع الشـاي بسـكر بتاتاً. ففي هذه المرة وقع اختيار سـيميون ياكوفلفتـش علـى الراهب الغريـب القصير، فأمر له بشـاي محلًّى، وعلى الحاج العجوز فأمر له بشـاي من غير سـكر. أمَّا الراهب السمين الآتي من ديرنا فإنه لم يأمر له بشيء، رغم أنه كان ينال كأسه دائماً.

ـ سيميون ياكوفلفتش، قل لي شيئاً! إنني منذ زمن طويل أحب أن أعرفك.

بذلك صدح صوت مغرِّد مغناج هو صوت تلك السيدة الأنيقة التي قالت منذ برهة إن على المرء أن لا يكون متشـدداً في شـؤون التسـليات شريطة أن يكون الأمر شائقاً.

فلم يرض سيميون ياكوفلفتش حتى أن ينظر إليها. وزفر مالك الأراضي، الراكع أمام الحاجز، زفرة صاخبة، كأن أحداً قد نفخ في صفَّارة قوية.

قال "الرجل التقي"، وهو يشير بإصبعه إلى التاجر الغني:

ـ هاتوه بشاي محلًّى بسكر.

فاقترب التاجر الغني وركع إلى جانب المالك.

وقال سيميون ياكوفلفتش حين صُبَّ الشاي:

ـ مزيداً من السكر.

فضاعفوا له مقدار السكر. فقال:

ـ مزيداً، مزيداً!

فضاعف الخادم السكر مرة ثانية، ثم ضاعفه مرة ثالثة، فكان مقدار السكر الذي وُضع في الشـاي أربعـة أضعاف المقدار العادي. فأخذ التاجر يشـرب شرابه طيِّعاً خاضعاً. وهمس الناس وهم يرسمون إشارة الصليب:

ـ يا رب!

وزفـر المالك من جديـد. وارتفع صوتُ سـيدة فقيرة كانـت جماعتنا قد دفعتهـا إلى الحائط، ارتفـع على حين فجأة أليماً موجعاً، لكنه يبلغ من الحدة أن جميع الحضور دُهشوا، ارتفع يقول:

ـ سـيميون ياكوفلفتـش، أبتـاه! إنني هنا منذ سـاعة أرتقـب أن تلقي عليّ نظرتك الحنون. كلِّمني. قل لي، ماذا يجب أن أفعل، أنا اليتيمة المسكينة!

فقال سيمون ياكوفلفتش للخادم الذي يشبه خادم كنيسة:

ـ اسألها!

فدنا الخادم من الحاجز، وسأل الأرملة بصوت رقيق بطيء:

ـ هل فعلت ما أمرك به سيميون ياكوفلفتش آخر مرة؟

ـ أنَّى لي أن أستطيع فعل ما أمرني به أيها الأب العزيز! هؤلاء أناس من أكلة لحوم البشر حقاً! لقد شكوني إلى المحاكم، وهم يهددونني بأن يجروني إلى أمام مجلس الشيوخ، أنا أمهم!

قال سيميون ياكوفلفتش للخادم وهو يشير إلى كتلة سكر:

ـ أعطها هذا!

فأسرع الفتى نحو المائدة، وتناول الكتلة، ومدَّها إلى الأرملة.

فهتفت الأرملة تقول:

ـ أوه! أبتاه! عظيمة طيبتك! ما عساني فاعلة بهذا كله؟

فأردف سيميون ياكوفلفتش يقول متابعاً كلامه:

ـ مزيداً! مزيداً!

فجيئت المرأة بكتلة أخرى. فألح سيميون ياكوفلفتش مكرراً:

ـ مزيداً!

فجيئت بثالثة، فرابعة، فرأت نفسها محاطة بسكر من كل جهة.

ـ زفر الراهب السمين: إن هذا كله كان ينبغي أن يُرسل إلى الدير كالعادة.

وتندهت الأرملة قائلة بمذلة:

ـ ولكن ما عساني صانعة بهذا كله؟ إنه يكاد يثير الغثيان... أم تُرى هذا نبوءة؟

دمدم واحدٌ من الجمهور يقول:

ـ هو نبوءة طبعاً.

ـ أعطوها رطلاً آخر.

كذلك قال سيميون ياكوفلفتش.

كانت قد بقيت على المائدة حزمة كاملة. ولكن الرجل المقدس أمر بأن تعطى رطلاً واحداً فأطيع.

قال الناس متنهدين وهم يرسمون على أنفسهم إشارة الصليب:

ـ يارب! يا رب! واضح أنها نبوءة.

وتصدَّى الراهب السمين الذي أغضبه أن يرى أنه نُسي، وأن عليه أن يستغني عن كأس الشاي الذي اعتاد أن يؤمر له به، تصدَّى للتعليق على هذا فقال للمرأة برصانة:

ـ عليك أولاً أن تجعلي قلبك حلواً بالطيبة والغفران فيما كان ذلك هو معنى هذا الرمز!

فهتفت المرأة تقول وقد غضبت فجأة:

ـ ما هذا الذي تقول يا أبت! لقد أرادوا أن يلقوني في النار حين شب حريق في منزل أسرة فرخيشيف. وقد رموا في صندوقي قطة فاطسة، إنهم لا يتورعون عن شيء...

صاح سيميون ياكوفلفتش يقول محركاً ذراعيه:

ـ اطردوها! اطردوها!

فوثب خادم الكنيسة والخادم الشاب إلى الجهة الأخرى من الحاجز، فأمسك خادم الكنيسة بالأرملة تحت ذراعيه، فسرعان ما عادت ذليلة متواضعة وانقادت سائرة نحو الباب، دون أن يفوتها أن تلقي نظرة على كتل السكَّر التي حملها الصبي وراءها.

قال سيميون ياكوفلفتش يأمر الخادم الذي يشبه أن يكون مستخدماً في محل تجاري والذي كان يقف بقرب مقعده:

ـ استرد منها كتلة من السكر.

فركض الخادم وراء الأرملة، فما هي إلّا لحظة حتى رجع الخدم الثلاثة بكتلة السكر التي أُعطيت للأرملة ثم استُردت منها، لكن المرأة انصرفت بثلاث كتل.

قال صوت قريب جداً من الباب:

ـ سيميون ياكوفلفتش، رأيتُ في الحلم طائراً. إنه زاغ صعد من الماء ومضى يرتمي في النار. فما معنى هذا الحلم؟

قال الرجل "التقي":

ـ نذير برد.

وعادت السيدة الأنيقة تسأله:

ـ سيميون ياكوفلفتش، لماذا لا تجيبني؟ إنني منذ مدة طويلة أهتم بك ويشوقني أمرك.

ـ اسأله.

كذلك قال سيميون ياكوفلفتش لراهب ديرنا مشيراً إلى مالك الأرض الذي ما يزال راكعاً، دون أن ينتبه إلى السيدة الأنيقة التي وجَّهت إليه ذلك السؤال.

ـ ماذا كان ذنبك؟ هل سبق أن أُمرت بشيء؟

فأجاب الرجل بصوت أجش:

ـ أمرت بأن لا أقتتل مع الناس، أُمرت بأن أسيطر على نفسي.

ـ فهل أطعت الأوامر؟

ـ لا أستطيع، يستحيل عليَّ أن أتحكم بسلوكي وأسيطر على نفسي.

ـ اطرده! اطرده! بالمكنسة!

كذلك صاح سيميون ياكوفلفتش محركاً ذراعيه من جديد. فإذا بالمالك يلوذ بالفرار قبل أن يُنفِّذ فيه هذا التهديد.

قال الراهب وهو يلتقط من الأرض قطعة ذهبية بعشرة روبلات:

ـ ترك قطعة ذهبية.

ـ فقال سيميون ياكوفلفتش وهو يشير إلى التاجر الثري:

ـ أعطها هذا.

فلم يجرؤ التاجر الثري أن يرفضها. ولم يملك الراهب إلّا أن يعلق على ذلك بقوله:

ـ الذهب يجذب الذهب!

ـ وأَعط هذا شاياً بالسكر.

قال سيميون ياكوفلفتش ذلك وهو يشير إلى مافريكي نيقولايفتش.

فملأ خادم كأساً، ولكنه أخطأ فقدمه إلى الشاب الأنيق ذي النظارة. فصحح سيميون ياكوفلفتش خطأه قائلاً:

ـ بل لهذا! الطويل، الطويل!

فتناول مافريكي نيقولايفتش الكأس، وقام بتحية عسكرية سريعة وأخذ يشرب الشاي. فلا أدري لماذا أخذ جميع صحبنا يضحكون!

وقالت ليزا فجأة:

ـ مافريكي نيقولايفتش، إن السيد الذي كان راكعاً قد انصرف، فاركع أنت في مكانه. فنظر إليها مافريكي نيقولايفتش مبهوتاً.

ـ أرجوك. ستسرني بهذا سروراً عظيماً.

ثم تابعت تقول مسرعة بلهجة ضاغطة مندفعة:

ـ اسمع يا مافريكي نيقولايفتش! يجب، يجب حتماً أن أراك راكعاً. فإذا لم تركع فلن تجيئني بعد اليوم. أريد... أريد...

لا أدري ماذا كان معنى هذا. لكنها أصرَّت على رأيها إصراراً عنيداً، وتكلمت بلهجة حاسمة قاطعة، وكأنها تعاني نوبة عصبية. ولقد كان مافريكي نيقولايفتش، كما سنرى ذلك فيما بعد، يعزو هذه النزوات الغريبة التي تزداد يوماً بعد يوم، إلى البغض الأعمى الذي تحمله له الفتاة. ولكنها كانت تضمر له مع ذلك اعتباراً واحتراماً وعاطفة، وكان هو يعرف ذلك. على أن هذا لا ينفي أنها كانت تحمل له عداوة لا شعورية لم تفلح الفتاة في أن تنتصر عليها.

لم يقل مافريكي نيقولايفتش كلمة واحدة، وإنما التفت إلى عجوز كانت وراءه فأعطاها الكأس، وفتح باب الحاجز ودخل دون استئذان إلى الجزء الموقوف على سيميون ياكوفلفتش من الغرفة، وركع في وسطه. أظن أن رقة إحساسه وبساطة قلبه قد روَّعتهما هذه الإهانة الفظة التي أنزلتها فيه ليزا بحضور المجتمع كله. لعله قال لنفسه إنها لا بد أن تخجل من سلوكها حين ترى هذا الذل الذي أكرهته عليه. نعم، لا بد أن يكون مافريكي نيقولايفتش رجلاً من نوع مافريكي نيقولايفتش حتى يحاول أن يؤثر في امرأة بوسائل تبلغ هذا المبلغ من السذاجة، وتبلغ هذا المبلغ من قلة التبصر. وكان منظر

هـذا الرجـل الطويل المتخلـع الراكع الذي ظـل وجهه رصينـاً لم يضطرب، كان منظـراً مضحكاً كل الإضحاك. غير أن أحداً لم يضحك حينذاك: إن هذا المشـهد الغريب قد أثار شـعوراً بالضيق والانزعاج. واتجهـت الأنظار كلها إلى ليزا.

غمغم سيميون ياكوفلفتش قائلاً:

ـ منتهى الرقة! منتهى الرقة!

فاصفـرت ليزا فجأة، وأطلقت صرخـة، واندفعت إلى الجهة الأخرى من الحاجـز، وأخـذت تشـد مافريكي نيقولايفتـش لتنهضه وكأنهـا خرجت عن طورها، وتصرخ زائغة الهيئة قائلة:

ـ قم! فوراً! كيف جرؤت على أن تفعل هذا؟

فقـام مافريكي نيقولايفتش. وأمسـكت بذراعيه تحـت كوعيها، وحدَّقت إلى عينيه بنظرة مرتاعة.

وكرر سيميون ياكوفلفتش:

ـ نظرات لطيفة، نظرات لطيفة!...

ورجعت إلينا بمافريكي نيقولايفتش أخيراً، كانت جماعتنا كلها مضطربة أشـد الاضطـراب، وأرادت السـيدة الأنيقـة أن تسـرِّي عنا في أغلـب الظن، فاتجهت تخاطب سـيميون ياكوفلفتش مرة ثالثة، قائلة له بصوتها الحاد وهي تبتسم ابتسامة غنج ودلال:

ـ هيه... سـيميون ياكوفلفتش، هلا تنازلت فقلت لي شيئاً؟ لطالما عوَّلت عليك!...

ـ ابحثي لنفسك عمن... ابحثي لنفسك عمن يـ..!...

كذلك صاح "وليُّ الله" غاضباً وهو يلتفت إليها. وقد نطق "القديس" بهذه العبارة البذيئة بوضوحٍ مروِّع. فما سـمعته سيداتنا يقول هذا الكلام حتى لذن بالفرار و هنَّ يطلقن صرخات صغيرة مرتاعة، بينما انفجر مرافقوهن الفرسان يضحكون ضحكاً هوميرياً. هكذا انتهت زيارتنا لسيميون ياكوفلفتش.

غيـر أن حادثاً غريباً قد وقع أيضاً قبل ذلـك، وإني لأعترف لكم بأنني من

أجل الوصول إلى هذا الحادث خاصةً إنما سردت التفاصيل كلها عن رحلتنا.

قيل إن ليزا التي كان يسندها مافريكي نيقولايفتش قد اصطدمت فجأة، أثناء هروب الجميع إلى خارج غرفة سيمون ياكوفلفتش، قد اصطدمت قرب الباب بنيقولاي فسيفولودوفتش. يجب أن أقول إنهما، منذ مشهد يوم الأحد وإغماء ليزا، لم يتعرض أحد منهما لصاحبه، ولا كلَّمه، رغم أنهما يلتقيان في المجتمع. لقد رأيتهما قريبين أحدهما من الآخر عند الباب، وبدا لي خلال لحظة أنهما توقفا كلاهما وألقى كل منهما على الآخر نظرة غريبة. لكن الازدحام كان شديداً فمن الجائز أنني أخطأت. غير أن ما أكده الآخرون هو أن ليزا رفعت يدها إلى مستوى وجه نيقولاي فسيفولودوفتش، وأنها كانت ستصفعه حتماً لولا أنه تنحى في الوقت المناسب. فلعل ليزا أحست، ولا سيما بعد المشهد الذي وقع مع مافريكي نيقولايفتش، أن نظرة ستافروجين أو ابتسامته تجرحان شعورها. أعترف بأنني من جهتي لم ألاحظ شيئاً. لكن الجميع قد أكدوا أنهم رأوا هذه الحركة. ومهما يكن من أمر، فإذا كان قد حدث شيء فإن الذين استطاعوا من بيننا أن يروه قليل، وذلك بسبب الازدحام والفوضى. ولقد رفضت في ذلك الوقت أن أصدق ما قالوه. ولكنني أذكر أن وجه نيقولاي فسيفولودوفتش كان يبدو أثناء العودة شاحباً بعض الشحوب.

3

في ذلك اليوم نفسه، وفي تلك الساعة نفسها تقريباً، تمَّ اللقاء الذي كانت فرفارا بتروفنا قد قررت منذ مدة طويلة أن تحدده لستيفان تروفيموفتش، ولكنها أرجأته حتى ذلك الحين، لا أدري لماذا! ولقد تمَّ هذا اللقاء في سكفورشنيكي.

وصلت فرفارا بتروفنا إلى منزلها الريفي مشغولةً جداً: كان قد تقرر في الليلة البارحة نهائياً أن تقام الحفلة في منزل عميدة النبالة. ولكن فرفارا بتروفنا، بما تتميز به من تعجل، سرعان ما قررت أن لا يمنعها شيء بعد تلك

الحفلة من إقامة حفلة أخرى بمنزلها في سكفورشنيكي، تدعو إليها المدينة كلها. فسوف يرى الناس حينذاك أن منزلها هو الأجمل، وسوف يرون أن الاستقبال فيه أليق، وأن الحفلة فيه ستمتاز بذوق ألطف. نستطيع أن نقول على وجه العموم أن فرفارا بتروفنا قد تغيرت حتى أصبحت لا تكاد تُعرف. لقد طرأ عليها تحوّل كامل، فصارت "السيدةُ العظيمةُ" ذات الكبرياء (كما كان يلقبها ستيفان تروفيموفتش) امرأةً عادية من نساء المجتمع التافه، خفيفةً ذات نزوات.

ما إن وصلت فرفارا بتروفنا إلى منزلها الريفي حتى قامت بجولة سريعة فيه، يصحبها العجوز الأمين ألكسي إيجورتش فاموشكا[1] الاختصاصي الواسع الخبرة في شؤون تزيين المنازل. ودارت المناقشة: ما الأشياء وما اللوحات التي يجب إحضارها من منزل فرفارا بتروفنا بالمدينة؟ أين يجب وضع هذه الأشياء واللوحات هنا! كيف نُرتِّب الأزهار؟ كيف يمكن الاستفادة من أشجار البرتقال؟ أين توضع مجموعة الطنافس الجديدة؟ والبوفيه، أين يكون؟ وهل يقام بوفيه واحد أم اثنان؟ إلخ إلخ...

وبينما كانت فرفارا بتروفنا مشغولةً بمناقشة هذه الأمور، إذ خطر ببالها فجأة أن ترسل عربتها لتجيئها بستيفان تروفيموفتش.

وكان ستيفان تروفيموفتش متهيئاً. لقد أُبلغ منذ مدة طويلة أن فرفارا بتروفنا ستحدد له موعداً، وكان ينتظر فعلاً أن تدعوه دعوة مفاجئة من هذا النوع. فحين ركب العربة رسم على نفسه إشارة الصليب: لأنه كان يحس أن مصيره سيتقرر أخيراً.

وجد صديقته في الصالة الكبرى. إنها جالسة على كنبة صغيرة أمام منضدة من مرمر تكتب، كان فاموشكا وهو يحمل بيده متراً، يقيس علوَّ المنصات والنوافذ، ويملي الأرقام على فرفارا بتروفنا فتسجلها.

لم تقطع فرفارا بتروفنا عملها حين وصل ستيفان تروفيموفتش وإنما

(1) "فاموشكا": تصغير اسم فوما تحبباً.

أومأت له بحركة من رأسـها، حتـى إذا عبَّر لها عن تحياتـه واحترامه متمتماً، مـدت إليه يدها بسـرعة تصافحه مـن دون أن تنظر إليه، وعينـت له مكاناً إلى جانبها يجلس عليه.

وقد حكى لي ما جرى، فيما بعد، فقال: "جلسـت وانتظرت خمس دقائق أو سـت دقائق كاملـة، ضاغطاً قلبـي. إن المرأة التي أراها أمامي ليسـت هي تلـك التي أعرفها منذ عشـرين عاماً. فكان من شـأن اقتناعـي المطلق بأن كل شـيء بيننا قد انتهى أن ملأني بقوة دُهشـت منها هي نفسـها. أحلف لك أنها بُهتت من ثبات جناني وصلابة إرادتي في تلك الساعة الأخيرة.".

وفجأة وضعـت فرفارا بتروفنا قلمها على المنضدة والتفتت إلى سـتيفان تروفيموفتش بحركة مفاجئة وقالت له:

ـ يا سـتيفان تروفيموفتش، هناك أمور يجب أن نصفّيها. أنا واثقة بأنك قد هيأت عبارات جميلة وألفاظاً عاطفية وصيحات مؤثرة، ولكن أليس الأفضل أن نمضي إلى الوقائع رأساً؟

انتفـض سـتيفان تروفيموفتش. قال لنفسـه: إذا أسـرعتْ إلـى اتخاذ هذه اللهجة منذ البداية فما عسى تكون التتمة والنهاية.

ـ انتظر! اسكت! دعني أتكلم! ستتكلم أنت بعد ذلك، رغم انني لا أعرف حقاً بماذا يمكن أن تجيبني!

كانت تتدفق في الكلام، وتابعت كلامها من دون أن تنتظر أجوبة:

ـ فيمـا يتعلـق براتبك الذي يبلغ ألفـاً ومائتي روبل، فإنـي أرى أنه واجب مقدس عليَّ أن أستمر في تقديمه إليك حتى آخر حياتك. ولكن علام الكلام عـن "واجب مقـدس" ؟ هذا اتفاق لا أكثـر ولا أقل. بذلك نكـون أقرب إلى الواقع، أليس كذلك؟ وإذا شـئت سجَّلناه كتابةً. وإذا اتفق أن متُّ قبلك، فقد اتخـذت إجراءات خاصة لهذه الحالة. وبالإضافـة إلى ذلك تقع على عاتقي أجرة المسـكن ونفقات الخادمة والمعيشة. فإذا ترجمنا هذه المصاريف إلى مـال، كان المبلغ اللازم ألفاً وخمسـمائة روبل، أليس كذلك؟ وإني لأضيف إلـى هذا ثلاثمائة روبـل للنفقات الخارقة، فيكـون المجموع كله ثلاثة آلاف

روبل في السنة. ألا يكفيك هذا المبلغ؟ أظن أنه ليس بالمبلغ الضئيل. والآن خذ المال، وردَّ إليَّ خدمي، وعش كما يحلو لك أن تعيش، في المكان الذي تريد: بطرسبرج، أو موسكو، أو الخارج، أو حتى هنا، ولكن ليس عندي، هل تفهم؟

قال ستيفان تروفيموفتش ببطء وكآبة وأسى:

ـ منذ مدة غير طويلة سمعت من هذا الفم نفسه مطلباً آخر يبلغ هذا المبلغ نفسه من القطع والجزم والإلحاح. وخضعت للمطلب... رقصت الرقصة القوزاقية لأسرَّك... "نعم، هذا التشبيه مباح. لقد كنت مثل قوزاقي صغير من الدون يرقص على قبره... والآن..." (بالفرنسية).

ـ قف ياستيفان تروفيموفتش. أنت ثرثار إلى درجة فظيعة. إنك لم ترقص، وإنما جئت إليَّ متزيناً بربطة عنق جديدة، لابساً قميصاً نضراً ناصع البياض، داساً يديك في قفازين جميلين، متدهّناً متعطراً. أؤكد لك أنك كنت راغباً في الزواج أشد الرغبة. كان ذلك يُقرأ في وجهك. وصدِّقني إذا قلت لك إنه لم يكن جميلاً منك. ولئن لم أُبد هذه الملاحظة حينذاك، فلقد كان من جانبي ذوقاً وأدباً ولطفاً. لكنك كنت راغباً، نعم كنت راغباً في أن تتزوج، رغم كل الأشياء الدنيئة التي كتبتها عني وعن خطيبتك خفيةً. والأمر الآن يختلف عن ذلك تماماً. ما شأن "قوزاقي الدون والقبر" هنا؟... إنني لا أفهم هذا التشبيه. بالعكس: لا تمت، بل عش أطول عمرٍ ممكن، وسيسعدني هذا كثيراً.

ـ أعيش في ملجأ؟

ـ في ملجأ؟ لا يذهب المرء إلى ملجأ حين يكون له دخل قدره ثلاثة آلاف روبل. آ... نعم... نعم تذكرت الآن. إن بطرس ستيفانوفتش قد قال، فعلاً، في ذات مرة، على سبيل المزاح، أنه سيضعك في ملجأ. على أن الملجأ الذي كان يعنيه ملجأ من نوع خاص جداً، ينبغي أن نفكر في هذا حقاً. إنه ملجأ لا يُستقبل فيه إلّا أشخاص محترمون جداً، رجال برتبة كولونيل مثلاً، حتى أن بين المرشحين لدخوله شخصاً برتبة جنرال. فإذا دخلته بما تملك من مال وجدت فيه الراحة والرخاء وخدمة ممتازة. فتستطيع أن تنصرف فيه

إلى العلم وأن تلعب لعبة الورق التي تلعبها كل يوم...

ـ "طيب... دعينا من هذا الكلام" (بالفرنسية).

ـ "دعينا من هذا الكلام"؟ (بالفرنسية).

قالت فرفارا بتروفنا ذلك وهي تحرك يدها بإشارة تنم عن التململ ونفاد الصبر. وأضافت:

ـ إذا كان الأمر كذلك فهذا كل شيء. ها أنا ذا قد أبلغتك ما عقدت عليه نيتي. بعد الآن، سيعيش كل منا مستقلاً عن الآخر، سيسير كل منا في طريقه...

ـ هذا كل شيء؟ هذا كل ما بقي لنا من السنين العشرين التي أنفقناها معاً؟ أهذا وداعنا الأخير؟

ـ إن لك ولعاً شديداً بالصيحات العاطفية المؤثرة يا ستيفان تروفيموفتش! لقد انقضت هذه الموضة وأصبحت بالية! الناس يتكلمون الآن بخشونة ولكن ببساطة. إنك ما تنفك تتكلم عن هذه السنين العشرين. نعم، إنها عشرون سنة من الأنانية! الرسائل التي بعثتها إليّ إنما كُتبت للأجيال القادمة، لا لي أنا، ما أنت بصديق. وإنما أنت منشئ ينمّق أسلوبه ويزوّق كتابته. والصداقة على كل حال كلمة ضخمة لا تعني على وجه الإجمال إلّا أن يتساكب اثنان مياهاً وسخة...

ـ رباه! هذه كلها كلمات ليست لك! إنك تكررين درساً حفظته عن ظهر القلب. هل ألبسوك أنت أيضاً زيَّهم؟ "عزيزتي، عزيزتي، (بالفرنسية)... بأي طبق من عدس بعتهم حريتك؟

قالت فرفارا بتروفنا غاضبة:

ـ لست ببغاء أكرر أقوال الآخرين. ثق أن قلبي مثقل بأشياء تكفيني من أجل أن أجد الكلمات التي تناسبني. ماذا فعلت في سبيلي أثناء هذه السنين العشرين؟ منعتَ عني حتى الكتب التي كنت أستقدمها لك والتي ما كان لها أن تُقصَّ لولا أنني كنت آمر بتجليدها. ماذا كنت تعطيني للقراءة حين كنتُ

"في السنين الأولى أطلب منك توجيه مطالعاتي؟ كابفيج[1]، ولا شيء إلاّ كابفيج، كنت تغار من تطور فكري ونمو ثقافتي، فكنت تتخذ إجراءاتك للحيلولة دونهما. ومع ذلك فمنك أنت إنما يضحك الآن جميع الناس. أعترف بأنني لم أكن أرى فيك على الدوام إلّا ناقداً أدبياً لا أكثر. إنك ناقد أدبي لا أكثر. وحين سافرت إلى بطرسبرح وقلت لك إن في نيتي أن أنشئ مجلةً وأن أقف عليها حياتي كلها أسرعت تنظر إليَّ ساخراً وتتخذ مني موقف استعلاء وغطرسة.

ـ لم يكن الأمر هذا... لم يكن هذا بتاتاً... وإنما كنا يومئذ نخشى الملاحقات...

ـ لا، لم يكن الأمر كذلك. أمَّا عن الملاحقات فلم يكن لك أن تخشاها في بطرسبرح. وبعد ذلك، في شهر شباط (فبراير) حين سرت بعض الشائعات، هرعت إليَّ مذعوراً، وطلبت مني أن أعطيك شهادة في صورة رسالة تثبت أن المجلة المزمع إصدارها لا شأن لك بها بتاتاً، وأن الشبان يترددون عليَّ أنا لا عليك أنت، وأنك لست إلّا مربياً يعيش عندي لأنني ما أزال مدينةً له بمال. هل تتذكر؟ لقد كان لك طوال حياتك موقف خاص يا ستيفان تروفيموفيتش!

صاح ستيفان تروفيموفتش يقول مكروباً يائساً:

ـ إنها لحظة ضعف، لم يكن إلّا كلاماً جرى بيني و بينك على انفراد. ولكن هل يُعقل، هل يُعقل قطع كل صلة بسبب حوادث طارئة صغيرة من هذا النوع؟ هل يُعقل أن لا يبقى بيننا شيء بعد هذه السنين كلها؟

ـ إنك حيسوب إلى درجة رهيبة: تصرُّ بكل ما أوتيت من قوة على أن أبقى مدينةً لك. حين عدتَ من الخارج، كنت تنظر إليَّ من علٍ، ولا تدعني أقول كلمة واحدة. وحين سافرت أنا بدوري وأردت أن أقص عليك انطباعاتي عن "مادونا سستين" لم تتنازل حتى أن تستمع لحديثي إلى نهايته، واكتفيت بالتبسم متعالياً متكبراً كأنني عاجزة حتى عن الشعور بأي شيء.

---

(1) هو بنجامان كايفيج: مؤرخ فرنسي ملكي الاتجاه.

ـ لـم يكن الأمر كذلـك... لعل الأمر كان يتعلق بشـيء آخر... "نسـيت" (بالفرنسية).

ـ بـل كان الأمـر كمـا وصفت. ولـم يكن مع ذلـك ثمة داع إلـى اصطناع الاستعلاء والتكبر. كل ما كنت تحكيه لي عن تلك اللوحة لم يكن إلّا سخفاً وحماقـة ومحـض خيال من جهتك. ما من أحد يشـعر الآن بنشـوة تجاه هذه المادونا، أو يضيِّع وقته في تأملها، باسـتثناء شـيوخ سـذَّج بسطاء. وذلك أمر مؤكد مبرهن عليه.

ـ مبرهن عليه؟

ـ إنها لا تفيد في شـيء على الإطلاق. هذه الجرة مفيدة لأننا نسـتطيع أن نملأها ماءً، وهذا القلـم نافع لأنه يتيح لي أن أسجل ما أريد تسجيله. أمَّا تلك اللوحـة فما هي إلّا وجه امرأة أسـوأ مـن الوجوه التي نلقاها في الشـارع. إذا رسـمتُ تفاحةً ووضعت إلـى جانبها تفاحة حقيقية، فأيَّهـا تختار؟[1] إنك لن تخطـيء الاختيـار. أنا موقنة من هذا. ذلك ما يبقى اليـوم من جميع نظرياتك متى سلَّطنا عليها أول شعاع من حرية النظر.

ـ طيب... طيب...

ـ إنك تبتسـم سـاخراً. ماذا كنت تقول لي عن الصدقة؟ والحقيقة أن اللذة التـي يهيئها لنـا التصدق لذة أنانية لا أخلاقية. إنها تتيـح للغني أن يبتهج بغناه وسلطاته إذ يقارنهما بضعف الفقير. والصدقة تفسد المعطي والآخذ كليهما. وهي فوق ذلك لا تبلغ غايتها ولا تحقق هدفها، لأنها تكاثر البؤس. فالكسالى الذين لا يريدون أن يعملوا يتزاحمون حول أولئك الذين يعطون، كالمقامرين الذيـن يتحلقـون حول المائـدة الخضراء أملاً فـي أن يربحـوا. والدريهمات القليلـة التـي يرمونها إليهم لا تخفف جزءاً من مائة جـزء من آلامهم. كم من المـال وزَّعت طوال حياتك؟ ثمانين كوبكاً في أكثر تقدير. تذكر هذا. حاول

---

(1) يتهكم دوستويفسكي هنا على الرأي الذي ذهب إليه تشيرنيـشفـسكي القائل بأن "آثار الفن أقل قيمة من الجمال الواقعي"، وهو الرأي الذي يدافع عنه تشيرنيشفسكي في كتابه "العلاقات الجمالية بين الفن والواقع".

أن تتذكـر متـى تصدقت آخـر مرة. ربما منذ سـنتين أو حتى منذ أربع سـنين. إنـك لا تزيـد على أن تتكلـم فتعرقل عمـل الآخرين. إن مـن الواجب، حتى في المجتمع الحالي، إصدار قانون يحظر الصدقة. أمَّا المجتمع الجديد فلن يكون فيه فقراء قط.

ـ أوه! سـيل مـن الأقوال العجيبة! المجتمـع الجديد! إذن قد وصلت إلى هنا؟ مسكينة! كان الله فى عونك!

ـ نعـم، وصلت إلـى هنا يا سـتيفان تروفيموفتش. كنت تحـرص على أن تخفـي عني جميع الأفـكار الجديدة التـي يعرفها الناس كافـةً منذ الآن. ولـم تفعـل ذلـك إلّا بدافع الغيرة، فقد كنت تريد أن تحتفظ بسـلطانك عليَّ والآن أرى امـرأة يقال لها جوليا تسـبقني مائة فرسـخ! إنما أصبحـت أرى بوضوح أخيراً. لقد دافعت عنك ما وسـعني أن أدافع يا سـتيفان تروفيموفتش. ولكن جميع الناس يدينونك.

قال وهو ينهض فجأة:

ـ كفى! لا أملك إلّا أن أتمنى لك الندامة وأدعو لك بالتوبة!

ـ عد إلى الجلوس دقيقة أخرى يا سـتيفان تروفيموفتش. لم أختم كلامي بعد. لقد طُلب منك أن تقرأ شـيئاً في الصبيحـة الأدبية. أنا رتبت ذلك. فماذا تنوي أن تقرأ؟

ـ لأقـرأنَّ بضـع صفحـات عن ملكـة الملكات تلـك، عن المثـل الأعلى للإنسانية، عن تلك "المادونا" التي لا تساوي في رأيك كأساً أو قلماً!

صاحت فرفارا بتروفنا تسأله خائبة الآمال:

ـ إذن لـن تقـرأ قصـة تاريخيـة! لـن يصغـي إليك أحـد. أتصرُّ علـى هذه "المادونا"؟ إنني لا أرى ما هي اللذة التي تجنيها من إنامة المسـتمعين. ثق يـا سـتيفان تروفيموفتـش أنني لا أقول هـذا الكلام إلّا في سـبيل مصلحتك. خيـر لـك أن تختار قصة قصيرة أو حكاية خفيفة عن حياة البلاط بإسـبانيا في القـرون الماضية مضيفاً إليها بضع تأملات فكهة من ابتكارك. فخامة البلاط، السـيدات الجميـلات، حوادث القتل بالسـم، ذلك كله شـائق! كارمازينوف

يقـول إنه ليكون أمراً غريباً جداً أن لا تجد في تاريخ إسـبانيا موضوعاً شـائقاً تتكلم عنه.

ـ كارمازينوف، هذا الأحمق الأجوف، يبحث عن موضوعات لي أنا؟

ـ إن كارمازينوف يكاد يملك ذكاء رجل دولة. لسـانك وقح سليط جداً يا ستيفان تروفيموفتش.

ـ صاحبك كارمازينوف أشبه بعجوز نمامة شريرة غبية! عزيزتي! عزيزتي! إنك خاضعة لتأثيره كل الخضوع! رباه!

ـ إنني أكره فيه اصطناعه علوَّ الشـأن، ولكننـي أنصف ذكاءه. أعود فأقول إنـي دافعت عنك بـكل ما أوتيت من قوة، ما وسـعني أن أدافـع. علام يظهر المرء بمظهر سخيف مضحك مضجر؟ بالعكس: اصعد إلى المنصة مبتسماً، كرجـل يمثل عصراً مضى وانقضى، واقصص عليهم حكايتين أو ثلاثاً مما لا يسـتطيع أن يضارعك فيه أحياناً خفة ظل وروح فكاهة. هل يضيرك أن تكون شـيخاً، أن تمثل عصراً آخر، وأن تبقى متخلفاً في وراء! اعترف أنت نفسـك بهـذا، مبتسـماً في مسـتهل خطابك، فيـرى الجميع عندئذ أنك بقيـة باقية من عصـر تصرَّم حقـاً، ولكنك بقية لطيفة محببة حلوة فكهـة... رجل من الزمان القديـم فعـلاً، ولكنه يملك من الذكاء ما يمكنَّه من إدراك سـخافة الآراء التي ظل متعلقاً بها حتى الآن. هيَّا، حقق لي هذه المسرَّة، أرجوك!

ـ "عزيزتي" (بالفرنسية)! كفى! لا تلحِّي! يستحيل عليَّ هذا. سوف أتكلم عن "المادونا" وسوف أثير زوبعة تسحقهم أو لا تنال أحداً غيري.

ـ ستكون أنت الضحية حتماً يا ستيفان تروفيموفتش.

ـ ذلـك قَدَري. سـأتكلم عن ذلك العبد الحقير الجبـان، عن ذلك الخادم الشـرير العفن الذي سـيصعد أول الصاعدين على سلَّم، ممسكاً بيديه مقصاً، ويأخـذ يمـزق ذلـك الوجه الإلهـي، ذلـك المثل الأعلى، باسـم المسـاواة، والحسد... والهضم! فلترجع أصداء لعنتي أولاً، ثم، ثم...

ـ ثم مستشفى المجانين؟

ـ ربما. ولكن سـواء أخرجت غالباً أم خرجت مغلوباً، فلأحملنَّ في ذلك

المساء نفسه كيس متسوِّل، تاركاً جميع أشيائي وأمتعتي، جميع عطاياك وهباتك، جميع مرتباتك ووعودك، ماضياً على قدميَّ أختم حياتي عند تاجر من التجار كمربٍ لأولاده، أو أموت جوعاً تحت سياج. "تقرر المصير فليكن ما يكون" (باللاتينية).

ونهض من جديد.

ونهضت فرفارا بتروفنا أيضاً، مشتعلة العينين من الغضب! وصاحت تقول:

ـ كنت من هذا على يقين! كنت أعلم منذ سنين أنك لا تنتظر إلّا اللحظة التي تلطخني فيها بالعار، أنا وبيتي، بما ستذيعه من افتراءات وتنشره من تخرّصات! ما حكاية أن تصبح مربياً أو تموت تحت سياج؟ ليس هذا إلّا شراً ونية إساءة وعزماً على النميمة!

ـ لقد احتقرتني دائماً، لكنني سأنهي حياتي كفارس ظل وفياً لسيدته. إذ لا شيء كان أغلى عندي من رأيك في يوم من الأيام. منذ هذه اللحظة، لن أقبل منك أية عطية، بل أمجِّدك تمجيداً مبرّأً من كل منفعة!

ـ سخف!

ـ لم تحترميني يوماً. لعلني أتصف بأنواع كثيرة من الضعف. نعم، لقد كنت طفيلياً عليك. إنني أتكلم الآن لغة المذهب العدمي. ولكن حياة الطفيلي لم تكن المبدأ الأعلى الذي أستمد منه أفعالي في يوم من الأيام. وإنما حدث ذلك عرضاً من تلقاء نفسه، لا أدري كيف... كنت أظن دائماً أن بيننا شيئاً يفوق الشراب والطعام، ولم أكن حقيراً في يوم أبداً، أبداً... والآن، سرْ يا ستيفان تروفيموفتش في طريقك لتصلح أخطاءك! الوقت متأخر، الخريف قد تقدم، البرية غارقة في الضباب، قطرات الماء المتجلدة تملأ طريق شيخوختي، وفي زئير الرياح أسمع نداء الموت... و لكن هيَّا سر في الدرب... إن سكة جديدة تنفتح أمامي ملأى بحب نقي وفية للأحلام[1].

---

(1) بيتان من الشعر للشاعر بوشكين في قصيدته "الفارس الفقير"

أوه! وداعاً يا أحلامي! يا عشرين عاماً! " تقرر المصير، فليكن ما يكون" (باللاتينية).

كذلك ختم ستيفان تروفيموفتش كلامه، وابتل وجهه بالدموع.

وتناول قبعته.

قالت فرفارا بتروفنا مغالبةً انفعالها:

ـ لا أفهم اللغة اللاتينية!

من يدري؟ لعلها أرادت هي أيضاً أن تبكي. ولكن الغضب والكبرياء غلباها مرةً أخرى. قالت:

ـ لا أعرف إلّا شيئاً واحداً، هو أن هذا كله أمور صبيانية منك. لن تكون في يوم من الأيام قادراً قدرة كافية على تنفيذ تهديداتك الأنانية. لن تمضي إلى مكان. لن تذهب إلى أي تاجر من التجار، وستظل بين ذراعيَّ، مستمراً على قبض مرتبك وعلى استقبال أصدقائك الذين لا يُطاقون، كلَّ ثلاثاء. أستودعك الله يا ستيفان تروفيموفتش.

ـ "تقرر المصير، فليكن ما يكون" (باللاتينية).

قال ستيفان تروفيموفتش ذلك، وحيَّاها بانحناءة شديدة، وعاد إلى داره وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

الفصل السادس
بطرس ستيفانوفتش يسعى

1

عُيِّنَ موعد الحفلة نهائياً، ولكن فون لمبكه كان يزداد اكتئاباً وهمّاً. إنه يوجس تنبؤات غريبة مشؤومة، فكان ذلك يقلق جوليا ميخائيلوفنا كثيراً. والحق أن الأمور كانت لا تجري على ما يرام على الحاكم القديم، وهو رجل حليم مفرط في الحلم، قد أدخل في الإدارة شيئاً من الفوضى. ومن جهة أخرى كانت الكوليرا تهدِّد إقليمنا الذي كانت بعض مناطقه قد اجتاحتها أوبئة ذهبت بماشيتها عدا ذلك. وطوال الصيف كله عانت المدينة والأرياف كثيراً من حرائق قالت شائعةٌ سخيفة لكنها شائعة كانت تزداد انتشاراً في الشعب يوماً بعد يوم، أنها من صنع يدٍ مجرمة. وقد تضاعف عدد السرقات في الآونة الأخيرة. وكان ذلك كله يمكن أن لا يُعتبر خطيراً لولا أن هموماً ومشاغل أخرى قد أُضيفت إليه فعكرت هدوء آندره أنطونوفتش الذي حالفه الحظ والتوفيق إلى ذلك الحين.

إن الشيء الذي فجأ جوليا ميخائيلوفنا أكثر من كل ما عداه هو أن زوجها قد ازداد صمته وتكتمه شيئاً بعد شيء. ذلك أمر غريب. هل هناك ما يوجب التكتم حقاً؟ صحيح أنه لا يناقشها ولا يعارضها إلّا نادراً، وأنه في أكثر الأحيان يطيعها طاعةً مطلقة. وقد اتخذ فون لمبكة، خضوعاً لإلحاح زوجته، إجراءين أو ثلاثة إجراءات تشتمل على مجازفة وتكاد تكون غير شرعية، بغية تعزيز سلطة الحاكم. ولهذا الغرض نفسه ارتُكبت مظالم

صارخـة: من ذلك أن أناسـاً يسـتحقون أن يُحالوا إلى القضـاء وأن يُنفوا إلى سـيبيريا قد أُعطوا جوائز لا لسـبب غير تدخل جوليا ميخائيلوفنا وشـفاعتها، ومن ذلك أن شـكاوى ومطالب كثيرة قد تقرر أن لا يجاب عنها. هذا كله لم يظهر إلّا فيما بعد. ولم يكن فون لمبكة يوقِّع على كل شيء فحسب، بل كان لا يدهشـه أيضاً تدخل امرأته في واجبات عمله وشـؤون وظيفته. وفي مقابل ذلـك كان يتفـق له أن يغتـاظ ويحتد فجأةً لأمـور "تافهة"، فـكان هذا يدهش جوليا ميخائيلوفنا أشد الدهشة. واضح أنه كان يشعر بالحاجة إلى تدارك أيام الطاعـة بدقائق تمرد. غير أن من المؤسـف أن جوليـا ميخائيلوفنا رغم كل ما تتمتع به من ذكاء لم تسـتطع أن تدرك هذه الرهافة عند رجل مرهف بطبيعته. لقد كان لها، وا أسـفاه، هموم أخرى تملأ رأسـها! نشأ عن ذلك كثير من سوء التفاهم!

على أن هذه الأمور ليست من شأني، وليس في وسعي أن أجيد الحديث عنها، ولو أردت ذلك. لست أنا من يجب أن يحكم على الأخطاء التي لعلها ارتُكبـت في الإدارة. فلأدع الشـؤون الإدارية إذن في جانب. لقد كان هدفي حين شـرعت في سرد هذه الأحداث غيرَ هذا الهدف تماماً. يُضاف إلى ذلك أن التحقيـق الـذي يُجرى الآن في إقليمنا سيكشـف عن وقائـع أخرى أيضاً. يكفي أن ننتظر قليلاً. ومع ذلك يستحيل عليَّ أن أتجنب بعض الإيضاحات.

فها أنا ذا أسـتمر في الكلام عن جوليا ميخائيلوفنا. لقد كان في وسـع هذه السيدة المسكينة (إنني أرثي لحالها كثيراً) أن تحصل على كل ماكانت ترغب فـي الحصول عليه وعلـى كل ما كان يجتذبها (من مجدٍ وغيره) دون أن تلجأ إلـى تلـك المكائد الغريبة التي عـادت إليها منذ خطواتهـا الأولى عندنا. غير أنها، سـواء أكان ذلـك راجعاً إلى فرط خيالهـا أم كان راجعاً إلى ما لقيت في شـبابها من خيبة الآمال، ما إن ابتسـم لها الحظ حتى اعتقدت أنها مدعوة إلى تحقيق أمور عظيمة، وحتى شعرت أنها هي السيدة "المختارة المصطفاة" بين جميع السـيدات. وطبيعي أن أولئـك الذين تملقوا أوهامهـا ـ وما أكثرهم! ـ كانوا ينالون منها كل ما يريدون فإذا المرأة المسكينة التي كانت تظن في نفسها

استقلال الرأي وأصالة الفكر ألعوبة تتقاذفها شتى المكائد والمؤامرات. إن كثيراً من الناس البارعين قد استطاعوا باستغلال سذاجتها أن يدبِّروا أمورهم الصغيرة في أيام حكمها القصير. ولقد كانت أفكارٌ متعارضةٌ أكبر التعارض متناقضة أشد التناقض تضطرب في رأسها فوضى، مصطبغةً بصبغة الحرية. كانت تبدو، في آن واحد، من أشياع الملكية الكبيرة، والمبادىء الأرستقراطية، وتعزيز السلطات الإدارية، والمثل العليا الديموقراطية، والمؤسسات الجديدة، والنظام، وحرية التفكير، والاشتراكية، وشدة التقيد بآداب الصالونات الأرستقراطية وفرط الإهمال العامي الذي يلاحَظ في الشباب المحيطين بها. كانت تحلم بتحقيق سعادة الجميع، والمصالحة بين من لا سبيل إلى المصالحة بينهم، أو قل كانت تحلم بأن تجمع الناس كافةً على حب شخصها. وكان لها أثيرون تفضِّلهم على غيرهم، وكان بطرس ستيفانوس الذي يؤثر فيها ويتسلط عليها بالتملق المفضوح والمصانعة الكاذبة وغير ذلك من أساليب، يحظى بإعجابها كثيراً. ولكنها كانت تحرص عليه لسبب آخر أيضاً، سبب مضحك، يبرز ملامح شخصية هذه المرأة المسكينة: لقد كان يلازمها أمل قوي بأن هذا الشاب سيكشف لها عن مؤامرة هامة ستدَّبر للدولة. كذلك كانت تتصور مهما يبدُ لكم هذا غريباً. أنها تتخيل، لا أدري لماذا، أن ثمة مؤامرة لا بد أنها تحاك ضد الدولة في إقليمنا، وكان بطرس ستيفانوفتش يساهم في ترسيخ هذه الفكرة الغريبة في ذهنها، تارةً بصمته المليء بالسر، وتارةً بتلميحات متحفِّظة متكتمة. كانت تتصور أن له علاقات بجميع الثوريين، ولكنه من جهة أخرى مخلص لها إخلاصاً يبلغ حدَّ العبادة. فاكتشاف المؤامرة، وامتنان دوائر بطرسبرج العليا، والمناصب العظيمة التي سيستلمها زوجها، وما سوف تحدثه هي نفسها من تأثير في الشبيبة لوقفها عند حافة الهاوية، ذلك كله كان راسخ الجذور في رأسها المشوَّش المضطرب. فما دامت قد أفلحت في إنقاذ بطرس ستيفانوفتش وإخضاعه (لقد كانت مقتنعة بهذا اقتناعاً مطلقاً)، فلتفلحنَّ أيضاً في إنقاذ الآخرين. لن يهلك أحد منهم. لسوف تعرف كيف تعرض الأمور ببطرسبرج

عرضاً من شأنه أن ينقذ الجميع. لن تنقاد إلّا للشعور السامي بالعدالة. وعندئذ سيبارك التاريخ اسمها أخيراً، وقد تباركه اللبرالية الروسية نفسها. وتكون المؤامرة مع ذلك قد كُشفت. فتتحقق جميع الفوائد وتُجنى جميع المنافع في آن واحد.

ولكن ينبغي حتماً، في الحفلة على الأقل، أن يبدي آندره أنطونوفتش وجهاً هادئاً مطمئناً. فلا بد إذن من تهدئته وتسليته. ومن أجل ذلك أسرعت ترسل إليه بطرس ستيفانوفتش آملةً أن يُذهب عنه ما يحسه من إرهاق، وذلك بأن يروي له، على سبيل المثال، أنباء جديدة عن المؤامرة. واعتمدت في هذا على الشاب اعتماداً كاملاً.

كان بطرس ستيفانوفتش قد كفَّ منذ مدة طويلة عن دخول مكتب فون لمبكة. وها هو ذا يدخل الآن على "المريض" وهو في أسوأ حالات اعتكار المزاج.

2

كانت قد وقعت أحداث لم يتوصل السيد فون لمبكه إلى توضيحها لنفسه. من ذلك أن ملازماً ثانياً (في تلك الناحية نفسها التي أقام فيها بطرس ستيفانوفتش حفلةً منذ مدة قصيرة جداً) قد وجَّه إليه رئيسه نوعاً من اللوم بحضور جنود. والملازم شاب صغير نُقل من بطرسبرج إلى هنا منذ فترة وجيزة، وهو صموت عابس متعاظم رغم أنه قصير سمين أحمر الخدَّين. فما كان منه حين لامه رئيسه إلّا أن استشاط غيظاً فهجم على رئيسه خافض الرأس وهو يصرخ صرخةً حادة ذُهل لها جميع أفراد الفصيلة، ثم صفع الرئيس وعضَّه في كتفه عضةً بلغت من القوة أنه لم يمكن تخليص كتف الرئيس من بين أسنانه إلّا بعد عناء كبير. لقد فقد عقله. فذلك أمر لا سبيل إلى الشك فيه. وكانت قد لوحظت عليه في الآونة الأخيرة أمور شاذة كثيرة في الواقع، من ذلك أنه رمى من بيته أيقونتين تملكهما صاحبة الدار، حتى

لقد هشَّم إحداهما بفأس. ومن ذلك أنه رتَّب على بعض المناضد مؤلفات فوجت ومولشوف وبوشنر[1]، فكان في كل مساء يوقد شموعاً أمام هذه الأنواع من مناضد الكنائس التي توضع عليها كتب الصلوات. ولا بد أنه كان رجلاً مثقفاً إذا قضينا في ذلك برأي على أساس عدد الكتب التي وُجدت عنده. ولو ملك خمسين ألف فرنك إذن لربما أبحر مسافراً إلى جزر ماركيز، كما فعل ذلك الفتى الذي يحدثنا عنه هرتسن في أحد كتبه بكثير من الفكاهة[2]. وحين اعتقل عُثر في جيوبه وفي مسكنه على منشورات تدعو إلى التمرد والعصيان والثورة.

الحق أن هذه المنشورات ليس لها في ذاتها شأن، وهي في رأيي لا تستحق أن نتوقف عندها. فما أكثر ما رأينا من منشورات تشبهها! ثم إن المنشورات لم تكن جديدة. فهي نفسها، كما علمنا فيما بعد، كانت قد انتشرت في إقليم س... في الأونة الأخيرة. وقد أكد ليبوتين الذي كان قد سافر إلى الاقليم المجاور قبل ذلك بستة أسابيع، أن هذه الوريقات يتناقلها الناس هنالك. غير أن ما فجأ آندره أنطونوفتش خاصةً هو أن مدير مصنع شبيجولين كان منذ برهة حمل إلى الشرطة حزمتين أو ثلاث حزم من هذه المنشورات، ضُبطت في المصنع وهي مماثلة تماماً للمنشورات التي عثر عليها عند الملازم الثاني. وكانت الحزم ما تزال مربوطةً لم تفضَّ، وما من أحد من العمال كان قد اتسع وقته للاطلاع على هذه الوريقات. والأمر ليس خطيراً على وجه الاجمال. غير أن آندره أنطونيوفتش غرق في تأملات أليمة: لقد بدت له المسألة معقدة تعقيداً مزعجاً.

---

(1) هؤلاء هم الممثلون الثلاثة، للمذهب المادي العامي في ذلك الأوان. فكتاب "رسائل فزيولوجية" (فوجت 1895 ـ 1817) وكتاب "القوة والمادة" (لودفيج بوشنر 1899 ـ 1824) قد ساهما مساهمة كبيرة في نشر المادية والإلحاد في روسيا بين 1860 ـ 1870 وسوف يصف انجلز هؤلاء الكتاب بأنهم "باعة مادية رخيصة".

(2) يحدثنا هرتسن في "مذكراته" أنه قد زاره في لندن سنة 1858 فتى كان مسافراً إلى جزر ماركيز وهو يحمل ثلاثين ألف فرنك لينشئ هنالك رابطة اشتراكية. والشاب إنما هو في الواقع سيد اسمه بولس باختيف سافر فعلاً إلى نيوزيلانده، ولم يعرف أحد ما صار إليه.

ذلك أن مصنع شبيجولين[1] كان منذ برهة قصيرة مسرحاً لما أُسمي "فضيحة شبيجولين" التي أحدثت في إقليمنا ضجة كبيرة، وأثارت صحف العاصمة جلبةً شديدة حولها كذلك. فمنذ ثلاثة أسابيع مات أحد عمال المصنع بالكوليرا، ثم أعقبت وفاتَه عدةُ وفيات أخرى. فانتشر الرعب بين الناس لا سيما وأن الكوليرا قد ظهرت في الولايات المجاورة. يجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن السلطات كانت قد سارعت إلى اتخاذ الإجراءات الصحية اللازمة. ومع ذلك فإن مصنع آل شبيجولين، وهم أناس أغنياء لهم علاقات كبيرة، لم يكن قد زاره أحد المفتشين. لهذا أسرع الناس في المدينة يصيحون أن المصنع موبوء، وأن الأماكن التي يسكنها العمال خاصةً تسودها منذ سنين قذارة تبلغ من الشدة أن الكوليرا حتى إذا لم تكن قد وفدت من الأقاليم المجاورة فمن الجائز جداً أن تكون قد انطلقت من تلقاء ذاتها من مصنع شبيجولين. وقد اتخذت السلطات طبعاً الإجراءات اللازمة، وأشرف آندره أنطونوفتش بنفسه على تنفيذها فوراً. ونُظِّف المصنع في غضون ثلاثة أسابيع. ولكن آل شبيجولين لم يلبثوا أن أغلقوه لا ندري لماذا! كان أحد الأخوين شبيجولين يعيش دائماً ببطرسبرج، وسافر الأخ الثاني إلى موسكو فورَ صدور الأمر بتنظيف المصنع وتطهيره. وقام مدير المصنع بدفع أجور العمال، ولكنه بلغ من قلة الأمانة وكثرة الغش في سداد حقوقهم أن العمال أخذوا يدمدمون متذمرين، مطالبين بأن يحاسَبوا حساباً أعدل. وقد ارتكبوا هذه الخراقة: وهي أنهم ذهبوا إلى الشرطة متجمهرين، دون صخب على كل حال، لأنهم لم يكونوا في حالة اهتياج. وفي تلك الآونة إنما نقل المدير إلى آندره أنطونوفتش المنشورات التي عُثر عليها في المصنع.

دخل بطرس ستيفانوفتش إلى حجرة عمل الحاكم دون استئذان، بصفته

---

(1) هذه القصة مستوحاة من واقعة حدثت فعلاً: وهي الإضراب الذي قام به عمال مصنع النسيج (ستيجلتس) في بطرسبرج سنة 1870، إن نحو ثمانمائة عامل قد أعلنوا هنالك الإضراب لأن إدارة المصانع احتجزت جزءا من أجورهم بينما كانوا يطالبون هم بزيادة الأجور. وقد قدموا عريضة لرئيس الشرطة فزار المصنع، فأحيل ثلاثة وستون عاملا إلى المحاكمة في شهر حزيران (يونيه). إن هذا "الإضراب الأول" الذي انطلق في روسيا قد أحدث أثرا عميقاً ودويا كبيرا.

صديقاً للمنزل، ولأن جوليا ميخائيلوفنا كانت قد حمّلته عدا ذلك رسالةً إلى زوجها. فلما رأى فون لمبكة صاحبنا الشاب قطّب حاجبيه ووقف أمام مكتبه عابس الوجه. إنه حتى تلك اللحظة لم يزد على أن يسير في الغرفة طولاً وعرضاً، متناقشاً مع سكرتيره فون بلومر وهو ألماني أخرق متجهم، كان فون لمبكه قد أتى به من بطرسبرج رغم ما أبدته جوليا ميخائيلوفنا من معارضة شديدة.

ـ آ... ها أنا أقع عليك مع ذلك، يارئيس المدينة الذي لا يراه أحد.

كذلك صرخ بطرس ستيفانوفتش ضاحكاً، وهو يضع يده على منشور مبسوط فوق المائدة. وأضاف يقول:

ـ هذا سيثري المجموعة التي تملكها، هه؟

احمرّ آندره أنطونوفتش. وتقلّص وجهه فجأة. وصاح يقول وهو يرتجف غضباً:

ـ اترك! اترك هذا كله فوراً. ولا تحسبنْ ياسيد...

ـ ماذا دهاك؟ أرى أنك غاضب، هه؟

ـ اسمح لي أن ألفت نظرك، يا سيد، أنني بعد الآن لن أتسامح بتاتاً في هذا الذي تبيحه لنفسك من "رفع الكلفة" (بالفرنسية)، وأرجوك أن تتذكر...

ـ ياسلام! إنه يتكلم جاداً!

ـ اسكت، اسكت! ولا تحسبنّ...

كذلك صرخ فون لمبكة وهو يقرع الأرض بقدمه.

لا يدري إلّا الله إلى أين كان يمكن أن يمضي هذا! من المؤسف أن هناك، عدا كل ما مرَّ ذكره، أمراً كان بطرس ستيفانوفتش يجهله كل الجهل، وكانت تجهله حتى جوليا ميخائيلوفنا. كان آندره أنطونوفتش المسكين قد بلغ من الاضطراب والبلبلة أنه في الأونة الأخيرة قد تسرَّب إلى نفسه، خفيةً، شيء من الغيرة على امرأته من بطرس ستيفانوفتش. فكان في وحدته، ولا سيما ليلاً، يقضي ساعات شاقة إلى أبعد الحدود.

قال بطرس ستيفانوفتش بشيء من الوقار والرصانة:

ـ ما كان أغباني حين ظننت أن رجلاً يقرأ لي روايته في خلوة، خلال يومين متتاليين، إلى ما بعد منتصف الليل، ويسألنى رأيي، إنما يكون قد تنازل عن "الرسميات" معي!... ثم إن جوليا ميخائيلوفنا تستقبلني كما تستقبل صديق حميم... فكيف تريد مني أن لا أحتار؟

ثم أضاف يقول وهو يضع على المائدة دفتراً كبيراً ثقيلاً ملفوفاً على شكل أسطوانة، ومغلفاً تغليفاً كاملاً بورق أزرق:

ـ بالمناسبة، إليك روايتك...

احمرّ وجه فون لمبكة. وسأله متئداً، يفيض من فرح كان عاجزاً عن كظمه ولكنه حاول كظمه بكل ما أوتي من قوة:

ـ أين وجدته؟

ـ تصور!... وجدته ملفوفاً كما هو وقد انزلق وراء منضدة. لا بد أنني حين وصلت إلى البيت قد ألقيته على المنضدة بحركة خرقاء. ولم نجده إلّا أمس الأول، أثناء غسل أرض الغرفة. وما أكثر ما شُغلت به...

خفض فون لمبكة عينيه قاسي الهيئة. وتابع بطرس ستيفانوفتش كلامه:

ـ لم يغمض لي جفن خلال ليلتين بسببك. لقد عثروا عليه أمس الأول، لكنني لم أجئك به، وذلك لأتمكن من قراءته كله. وإذ إنني مشغول في النهار، فقد كنت أقرأ ليلاً. فهل تريد أن تعرف رأيي؟ إنني غير راض عن الفكرة. على أن ذلك لا يهمني، فأنا لم أكن ناقداً في يوم من الأيام. المهم أنني لم أستطع انتزاع نفسي من الكتاب، رغم استيائي منه!... الفصلين الرابع والخامس هما.. هما.. لا أدري بماذا أصفهما! شيء مدهش... وما أكثر ما دسست فيهما من روح الفكاهة والسخرية... لقد ضحكت ضحكاً مجلجلاً. ما أبرعك في التهكم، "دون أن يظهر ذلك" (بالفرنسية)!... أمَّا الفصلين التاسع والعاشر، فليس فيهما إلّا غرام... وهذا لا شأن لي به... غير أن الكتابة مؤثرة... فرسالة أجرنيف كادت تبكيني، رغم أنك صغتها بأسلوب مرهف غاية الرهافة!... مؤثرة... مؤثرة حقاً! وكأنك مع ذلك قد أردت أن تظهرها

بمظهـر الزيـف، أليس كذلك؟ أحـزرت أم لا؟ أما عن النهاية فلا أملك إلّا أن أقول إنك تستحق عليها أن أضربك.

فما الذي تنادي به وتدعو إليه في الواقع؟ إنها لا تزيد على أن تكون ذلك التمجيد القديم للسـعادة العامة، وكثرة الأولاد، وسعة الرزق. إنهم يعيشون سـعداء ويجمعون أموالاً. سـوف تسـحر القارئ بهذا الكلام، فأنا نفسـي لم أسـتطع أن أبـرأ من التأثر به، ولم أسـتطع أن أنتزع نفسـي مـن قراءته، فكيف بغيري!... ذلك خطير! إن القراء بسطاء أغبياء. وعلى الأذكياء أن يخرجوهم مـن حذرهـم... أما أنت... ولكن دعنـا من هذا الموضـوع الآن. إلى اللقاء. أكـرر قولـي: لا تغضب. لقد جئت لأقـول لك كلمتين قـد تهمانك، ولكنك الآن مهتاج حانق...

كان آندره أنطونوفتش، في أثناء ذلك، قد أخذ روايته، ووضعها في مكتبة من خشـب السـنديان أحكم إغلاقهـا بالمفتاح، وأشـار لسـكرتيره بلومر أن يخرج. فترك بلومر الغرفة حزين الهيئة مستطيل الوجه.

قال فون لمبكة مدمدماً مظلم الوجه:

ـ لست حانقاً. غير أن هناك مزعجات تنصبّ عليَّ من كل جهة..

ولكن غضبه كان قد هبط. وجلس أمام مكتبه. وأضاف يقول:

ـ اجلـس، وقـل لـي مـا تريـد أن تقولـه. إنني لـم أرك منـذ مـدة طويلة يا بطرس سـتيفانوفتش. ولكن يجب عليك بعـد الآن أن لا تدخل إلى هنا بهذه الطريقـة... تقتحم الغرفة اقتحاماً وتدخلهـا كهبوب الريح. حين يكون المرء بسبيل القيام بعمل من الأعمال، فإنه أحياناً...

ـ هذه آدابي لم تتغير، وليس لي آداب غيرها...

ـ أعرف. وأنا على يقين من أنك لا تفعل هذا بسوء نية، ولكن حين يكون للمرء هموم كثيرة... اجلس، اجلس.

تهالك بطرس ستيفانوفتش على الديوان، وتربَّع فوراً.

3

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يومئ إلى المنشور بحركة من رأسه:

ـ ما تلك الهموم؟ ألعلها هذه السفاسف؟ إنني قادر على أن أحمل إليك من هذه الوريقات ما شئت. وقد اطلعت عليها أيضاً في إقليم س...

ـ أي أثناء إقامتك في ذلك الإقليم؟

ـ طبعاً. أأطلع عليها إذن أثناء غيابي؟ هناك منشور رُسمت في أعلاه كرمة وفأس. اسمع لي (وتناول المنشور). نعم، توجد هنا فأس أيضاً. هو ذلك المنشور نفسه، تماماً.

ـ فماذا؟ لماذا الفأس تخيفك؟

ـ ليست هي الفأس. ولست خائفاً. ولكن هذه القضية... إن لهذه القضية شأناً... هناك ظروف...

ـ ما هي تلك الظروف؟ ألأن المناشير قد جيء بها من المصنع؟ هئ هئ! ولكن هل تعلم أن العمال في هذا المصنع لن يلبثوا أن يكتبوا بأنفسهم منشورات؟

سأله فون لمبكة وهو يلقي عليه نظرة قاسية:

ـ كيف هذا؟

ـ هكذا! ما عليك إلّا أن تراقبهم. إنك مسرف في اللين يا آندره أنطونوفتش. أنت تكتب روايات، بينما عليك أن تعمد إلى الطريقة القديمة.

ـ ما هي الطريقة القديمة؟ ما هذه النصائح؟ لقد نظفنا المصنع. أمرت بتنظيف المصنع فتمَّ تنظيفه.

ـ والعمال يتحركون ويعصون. يجب جلدهم بالسوط فينتهي كل شيء.

ـ يتحركون ويعصون؟ مستحيل: لقد أمرت بتنظيف المصنع فتمَّ تنظيفه وتطهيره.

ـ هيه يا آندره أنطونوفتش. إنك رجل ليِّن!

قال فون لمبكة حانقاً من جديد:

ـ أولاً لست باللّيِّن إلى الحد الذي تتصور، وثانياً...

كان فون لمبكة يتحدث إلى الشاب في عناء، مستطلعاً، لعل الشاب أن يقول له شيئاً جديداً.

قاطعه بطرس ستيفانوفتش وهو يصوِّب نظره إلى ورقة أخرى تحت كباسة الورق، وهي نوع من منشور أيضاً، كان من الواضح أنه طُبع في الخارج، لكنه صيغ شعراً لا نثراً.

ـ ها... هذا منشور آخر مما سبق لي أن اطلعت عليه بل حفظته: "بطل يثير الحمية"(1). أرني قليلًا. أليس هو ذلك المنشور نفسه "بطل يثير الحمية"؟ إنني أعرف هذا المنشور مذ كنت في الخارج. أين عثرت عليه؟

سأله فون لمبكة مصيخاً بسمعه:

ـ تقول إنك اطلعت عليه في الخارج؟

ـ طبعاً. منذ أربعة أشهر بل خمسة.

قال فون لمبكة وهو ينظر إليه نظرة مرهقة:

ـ ما أكثر الأشياء التي رأيتها في الخارج!

لم يُصغ بطرس ستيفانوفتش إلى كلام فون لمبكة، بل فضَّ الورقة وأخذ ينشد هذه الأبيات بصوت عال:

لم يكن نبيلاً ولا غنياً
بل كان ابناً من أبناء الشعب
طارده انتقام القيصر
واضطهاد أعوانه
لم يخش أن يتعرض للسجن والموت.
ومضى ينادي في الشعب:
حرية، مساواة، أخوة.

---

(1) "بطل يثير الحمية": معارضة لقصيدة نظمها مهاجر اسمه نيقولا أوجاريوف (صديق هرتسن) وأهداها إلى الشاب نتشايف وطبعت بمدينة جنيف سنة 1870 على ورقة مستقلة وأعاد نتشايف طبعها في العدد الثاني من جريدة "عدالة الشعب" الصادرة في جنيف أيضاً، وقد وزعت أثناء محاكمة في موسكو.

بذلك هيأ الثورة
ثم فر إلى الخارج
مفلتاً من زنزانات القيصر
هارباً من سياط الجلاد
واستعد الشعب للثورة
لتحطيم القيد القاتل
من سمولنسك إلى طشقند
وأخد ينتظر عودة الطالب، نابضاً بالحماسة.
انتظره نافد الصبر
ليمضي بعد ذلك بغير تردد
يحطم أعوان السلطان
ويدمر الامبراطورية الروسية كلها
فيجعل الرزق مشاعاً
ويلغي إلى الأبد
الكنائس والزواج
وسائر هذه الشرور المعطلة.

سأل بطرس ستيفانوفتش:

ـ لا شك أنهم وقعوا على هذا عند الضابط، هه؟

ـ غريب! أتعرف أيضاً ذلك الضابط؟

ـ أظـن. لقد قصفنـا ولهونا معاً خلال يومين. كان نصف مجنون منذ ذلك الحين.

ـ من يدري؟ قد لا يكون مجنوناً البتة!

ـ أتقول هذا لأنه يعضُّ الناس؟

ـ ولكن اسمح لي: إذا كنت قد رأيت أبيات الشعر هذه في الخارج، ثم إذا بنا نكتشفها هنا عند ذلك الضابط...

ـ ماذا؟ ماذا تريد أن تقول؟ أهذا استجواب يا آندره انطونوفتش؟

وتابع بطرس ستيفانوفتش كلامه قائلاً بلهجة وقورة فجأة:

ـ اسمع يا آندره أنطونوفتش: إنني منذ عودتي من الخارج قد قدَّمت إيضاحاتي إلى من يجب تقديمها إليه، وقد عُدَّت تلك الإيضاحات كافية بطبيعة الحال، ما دامت هذه المدينة قد سعدت بأن تعدَّني بين سكانها. فأنا أرى إذن أن تلك الفترة من حياتي قد ختمت، وأن أحداً لا يملك أن يحاسبني بعد اليوم. وأنا كنت قد أنهيت ذلك كله، فلأنني لم يكن في وسعي أن أفعل غير ذلك. ولكنني لست خائناً. إن الذين زوَّدوني برسائل تزكية إلى جوليا ميخائيلوفنا يعرفون ماضيَّ وقد شهدوا لي بأنني رجل شريف. على كل حال، فليذهب هذا كله إلى الشيطان! فأنا إنما جئت لأحدثك في أمر عام، ولقد أحسنت صنعاً إذ صرفت صاحبك بلومر. هو أمر على جانب كبير من الخطورة عندي يا آندره أنطونوفتش: لي مطلب عندك، ورجاء لديك.

ـ مطلب عندي، ورجاء إليَّ؟ تكلم. إنني أصغي إليك، بل ثق أنني أصغي إليك باهتمام. وعلى وجه العموم، يجب أن أقول لك يا بطرس ستيفانوفتش إنك تدهشني كثيراً.

ظهر على فون لمبكه شيء من الانفعال. واعتدل بطرس ستيفانوفتش في جلسته، مدلّياً ساقيه من تحته، وبدأ يتكلم فقال:

ـ في بطرسبرج تكلمت بصراحة عن أشياء كثيرة. لكنني كتمت بعض الأمور. ومن الأمور التي كتمتها هذه القصيدة (قال ذلك وهو يشير بإصبعه إلى قصيدة "البطل"). كتمت أمر هذه القصيدة أولاً لأنها لا تستحق الاهتمام بها والكلام عليها، وثانياً لأنني اكتفيت بالإجابة عن الأسئلة التي ألقيت عليَّ. إنني أكره فرط إظهار التحمس في مثل هذه الحالة: وذلك هو في رأيي الفرق بين الخائن وبين الإنسان الشريف الذي تجبره الظروف. على كل حال، دعنا من هذا... المهم أنني الآن... الآن وقد افتضح أمر هؤلاء الأغبياء، وأصبح كل شيء واضحاً، وصاروا بين يديك، وبتُّ أرى أنه لا يمكن إخفاء أمر من الأمور عنك ـ لأنك رجل ذكي نافذ البصيرة رغم ما يبدو عليك من ذهول ـ وما داموا مستمرين في.. فإنني.. فإنني.. الخلاصة... إنني جئت لأتوسل

إليـك أن تنقـذ واحداً منهـم... غبياً مثلهـم... وربما كان مجنونـاً.. أن تنقذه رحمةً بشـبابه الغض، ورأفة بما لقي من صنوف الشـقاء، واستلهامه لأفكارك الإنسانية... إنني آمل أن لا تكون إنسانياً في رواياتك فحسب...

بهذه الجملة ختم بطرس ستيفانوفتش كلامه بلهجة أصبحت ساخرة على حين فجأة، وكأنه يتعجل الانتهاء من حديثه لفرط نفاد صبره.

كانت هيئته هيئة إنسان صادق لكنه أخرق محروم من الحس العملي، إنسان طيب مسـرف في الطيبة، مرهف مسـرف في الرهافة، إنسـان يمكن أن يوصف خاصـةً بأنه غير ذكي، كما أسـرع فون لمبكة يقول لنفسـه ذلـك بما عُهد فيه من نفاد البصر وسداد الرأي، وكما سبق له أن قدَّر هذا منذ مدة طويلة ولا سيما في الأسبوع الأخير، حين خلا إلى نفسه في الليل فأخذ يكيل للشاب أنواع الشتائم متحيراً من ذلك النجاح الذي أصابه الشاب مع زوجته جوليا ميخائيلوفنا.

سأله بفخامة وهو يحاول إخفاء استطلاعه:

ـ من الذي تشفع له، وما معنى هذا كله؟

ـ هـو... هـو... أو! أهي خطيئتي إذا كنت أثق بك؟ أهي خطيئتي إذا كنت أعدك إنسـاناً نبيلاً أكمل النبل، وإذا كنت أعدُّك على وجه الخصوص ذكياً... قادراً... قادراً على أن.. تفهم! أوه!.

كان واضحاً أن الشاب المسكين مرتبك لا يعرف كيف يخرج من المأزق الذي تورَّط فيه!

ـ إنني إذا سميته لك فقد فضحته وخنته، أليس كذلك؟ هه؟

ـ ولكن كيف يمكنني أن أعرفه إذا لم تذكر لي اسمه؟

ـ صحيـح، صحيح. إنك بمنطقك تفحم كل مجادل، وترد دائماً على كل سـؤال. هوه! طيـب... إن ذلك "البطل"، ذلك "الطالـب" هو شـاتوف. ها قد عرفت الآن كل شيء!

ـ شاتوف؟ ماذا تقصد؟

ـ إن الطالب الذي جاءت القصيدة على ذكره هو شاتوف. إنه يقيم هنا. إنه قن قديم. هو ذلك الذي صفع ستافروجين.

قال لمبكة:

ـ أعرف، أعرف. ولكن اسمح لي: ما تهمته، وما هو رجاؤك بشأنه؟

ـ أريد إنقاذه، ألا تفهم؟ إنني أعرفه منذ ثماني سنين.. ولعلني كنت صديقه!

ثم أضاف: ـ ليس عليَّ أن أقدم إليك تقريراً عن حياتي الماضية. كل ذلك لا قيمة له، ولا شأن له ولا خطر. كانوا ثلاثة لا أكثر. وإذا حسبت شركاءهم في الخارج لم يتجاوز عددهم العشرة. ليس الأمر هذا. وإنما المهم أنني أثق بعواطفك الطيبة، وأثق بذكائك المتوقد. فافهم الموقف كما هو، وانقله إلى من ينبغي نقله إليه على حقيقته، ولا تخلق منه قصة ضخمة، ذلك أن الأمر كله لا يعدو أن يكون حلم فتى فاقد صوابه... فتى شقي لاحقه سوء الحظ، وحالفه الشقاء. ليست القضية قضية مؤامرة على أمن الدولة...

كان بطرس ستيفانوفتش كمن يختنق.

قال فون لمبكة بلهجة يكاد يكون فيها فخامة وجلال:

ـ هـمْ... أرى أن له علاقة بقضية المنشورات التحريضية! ولكن اسمح لي: لو كان يعمل وحيداً لما استطاع أن ينشرها هنا، وفي الضواحي وحتى في إقليم س...! ... ثم، وهذا هو الأمر الأساسي، من أين أخذ هذه المنشورات؟

ـ أحقاً لا تعرف؟

ـ كيف يمكنني أن أعرف؟

ـ أنت تعرف مع ذلك أن شاتوف واحد من أفراد العصابة.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يُجري بيده حركة تعبِّر عن نفاد الصبر كأنه يحاول الإفلات مما يتصف به محدثه من براعة وذكاء:

ـ هوه! طيب... اسمع... سأقول لك الحقيقة كلها. إنني لا أعرف شيئاً عن المناشير التحريضية، لا أعرف شيئاً البتة... شيطان يأخذني... هل تفهم معنى هذه الجملة: لا أعرف شيئاً البتة؟ طبعاً... هناك ذلك الملازم الثاني، وربما كان هناك شخص آخر... ثم شخص ثالث هنا... وهناك أخيراً

شـاتوف، ربما... وذلك كله غبـار... ذلك كله عدم... لكنني جئت متشـفعاً لشاتوف. يجب إنقاذه. لأن تلك الأشعار هو التي نظمها، وبعنايته إنما طُبعت في الخارج. ذلك ما أنا موقن منه واثق به. أما المنشـورات التحريضية، فإنني أجهل كل شيء عنها.

ـ إذا كانت الأشعار له، فالمنشورات له أيضاً. ولكن ما هي الأسباب التي تدعو إلى الاشتباه في السيد شاتوف؟

ما إن سـمع بطرس سـتيفانوفتش هذا السؤال حتى ظهر عليه مايظهر على المـرء مـن فقدان الصبـر فقداناً كامـلاً، ثم إذا هـو يخرج محفظـة أوراقه من جيبـه، ويخـرج من المحفظة ورقـة مكتوبة، ويصرخ قائلاً وهـو يرمي الورقة على المائدة:

ـ إليك الأسباب!

فضَّ فون لمبكة الورقة المكتوبة منذ سـتة أشـهر، والمرسلة إلى الخارج، فلم تكن تضم إلّا سطرين:

"لا أسـتطيع أن أطبع هنا لا قصيدة "البطل" ولا أي شـيء آخر فاطبعوا في الخارج.".

رفـع فون لمبكـة عينيه إلى بطرس سـتيفانوفتش وحدَّق إليـه بنظرة ثابتة. صَدَقت فرفارا بتروفنا: ان آندره أنطونوفتش له في بعض الأحيان نظرة كنظرة خروف.

وأسرع بطرس ستيفانوفتش يتكلم فقال:

ـ سأشرح لك. لقد نظم هذه الأبيات هنا منذ ستة أشهر، ولكنه لم يستطع أن يطبعها سراً. فأرسل يطلب طبعها في الخارج. هذا واضح، هه؟

ـ كل الوضـوح . ولكـن إلـى من كتـب رسـالته القصيرة هـذه؟ ذلك غير واضح بعد.

كذلك سأل فون لمبكة بملاحظة مرهفة. فأجابه بطرس ستيفانوفتش:

ـ إلى كيريلوف طبعاً. الرسـالة بُعثت إلى كيريلوف، في الخارج. ألم تكن تعلـم ذلـك؟ المزعج في حقيقة الأمـر أنك تعبث بي الآن عبثـاً. فأنت مطلع

علـى هذه القصيـدة منذ مدة، وأنت عارف إذن بسـائر الأمـور الأخرى. ماذا جاء بها هنا إلى مكتبك؟ لقد استطعت إذن أن تضع يدك عليها. فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا تعذبني هذا التعذيب؟

قال ذلك وجعل يجفف بمنديله عرق جبينه بحركة عصبية.

فقال له فون لمبكة موافقاً، متحاشياً أن يجيب عن السؤال الذى ألقاه عليه بطرس ستيفانوفتش:

ـ فعلاً... أعرف بعض الأشياء... ولكن من هو كيريلوف هذا؟

ـ هو ذلك المهندس الذي وصل إلى هنا في الآونة الأخيرة، وكان شـاهد سـتافروجين في المبارزة. شـخص مهووس، مجنون! لعل صاحبك الملازم الثاني إنما أصابته نوبة حمى حارة لا أكثر، أما الآخر، كيريلوف، فهو مجنون حقـاً، مجنون تماماً. ذلك أمر أضمنه لك. آه يـا آندره أنطونوفتش، لو عرفت الحكومـة مـا هـؤلاء الناس في الواقـع لما رفعـت يدها عليهم. إنهـم جميعاً مؤهّلـون لدخـول دار المجانيـن. لقد اسـتطعت، في سويسـرا، أثنـاء انعقاد مؤتمرهم أن ألاحظهم على مهل.

ـ هل هناك يختبئ قادة الحركة؟

ـ قادة الحركة؟ ثلاثة أشخاص في أكثر تقدير. منظر يهلك المرء منه ضجراً وسـأماً. ومـا هذه الحركة؟ ومـا تلك المناشـير التحريضية؟ ومَنْ الشـركاء؟ لنتكلم عنهم! ملازمون أولون، وطلاب! إنني أسألك وأنت رجل ذكي كيف لم يسـتطيعوا أن يضموا ولو شخصية هامة واحدة؟ لماذا يضطرون دائماً إلى الاكتفاء بطلاب وفتيان في العشـرين مـن أعمارهم؟ ثم هل هم كثيرون؟ لقد أرسـلوا فـي ملاحقتهم ألوف الكلاب، فما عدد الذين تم اكتشـافهم؟ سـبعة أشخاص فقط! قلت لك: منظر يهلك الإنسان منه ضجراً وسأماً!

كان لمبكة يصغي إليه بانتباه. ولكن هيئته كانت كأنها تقول:

"لا يمكنك أن تغذي بلبلاً بأقاصيص"(1).

---

(1) مثل روسي معناه: كفى كلاماً ولننتقل إلى العمل.

قال آندره أنطونوفتش:

ـ اسمح لي: إنك تزعم أن الرسالة قد بُعثت إلى الخارج. ولكنني أرى أنها لا تحمل أي اسم. فكيف أمكنك أن تعرف أنها أُرسلت إلى كيريلوف في الخارج، و... و... أن شاتوف هو كاتبها فعلاً؟

ـ الأمر سهل. احصل على بضعة أسطر من شاتوف، وقارن بين ذلك الخط وخط هذه الرسالة. لا بد أن مكاتبك تضم توقيع شاتوف في ذيل ورقة ما. أمَّا سؤالك عن كيريلوف، فإن كيريلوف هو الذي أطلعني على الرسالة بنفسه.

ـ وإذن فأنت نفسك...

ـ نعم، أنا نفسي، أنا نفسي... كنت أطلع على أشياء كثيرة في الخارج. أمَّا تلك الأشعار، فظهر أن المرحوم هرتسن[1] هو الذي نظمها لشاتوف، بينما كان شاتوف يطوف في الخارج، نظمها ذكرى للقائهما، أو تكريماً لشاتوف، أو نوعاً من التزكية له والتوصية به... أين لي أن أعرف! على كل حال، فإن شاتوف هو الذي نشرها في الناس كأنما ليقول: "انظروا إلى رأي هرتسن فيَّ".

قال لمبكه وقد تخَيل أخيراً أنه أخذ يرى الأمر رؤية واضحة:

ـ هاه! قلت لنفسي: المناشير، يفهم المرء أمرها... ولكن هذه الأشعار، مامعناها؟

ـ كيف يمكن أن لا تدرك هذا؟ لا أدري لماذا ثرثرت هذه الثرثرة كلها. اسمع. اترك لي شاتوف، وليأخذ الشيطان سائر الآخرين، ومنهم كيريلوف الذي يختبئ عند فيليبوف حيث يختبئ شاتوف أيضاً. إنهم غاضبون عليَّ، لأنني رجعت... ولكن اترك لي شاتوف، وسأقدمهم إليك جميعاً على طبق واحد. إن في وسعي أن أفيدك يا آندره أنطونوفتش. رأيي أن عصبتهم التعيسة الصغيرة لا يزيد عددها على تسعة أفراد أو عشرة. إنني أطاردهم لمصلحتي

(1) المرحوم هرتسن: معروف أن ألكسندر هرتسن قد مات بباريس في 21 كانون الثاني (يناير) 1870.

الشخصية. نحن نعرف منهم حتى الآن ثلاثة: شاتوف، وكيريلوف، وذلك الملازم الثاني. أمَّا الباقون فإنني "أفحصهم" من قرب. ولست حسير البصر تماماً. الأمر كما في اقليم س... لقد قبضوا هنالك أثناء توزيع المناشير على طالبين، وتلميذ في مدرسة ثانوية، وولدين لأسرة من الأسر، ومعلّم مدرسة، وميجر محال على التقاعد كان الإدمان على السكر قد أصابه بخبال في عقله. ذلك كل شيء. صدِّقني. حتى لقد دُهشوا هنالك كثيراً. ولكنني أحتاج إلى ستة أيام. لقد أجريت حساباتي، فانتهيت إلى أنني محتاج إلى ستة أيام، لا تقل يوماً واحداً. فإذا أردت أن تحصل على نتيجة فلا تفعل شيئاً قبل ستة أيام، ولسوف أُسلمك إياهم في كيس واحد. أما إذا تدخلت قبل ذلك، طارت العصافير فوجدت العش خالياً. ولكن اترك لي شاتوف. أنا أدافع عن شاتوف. ولعل الأفضل أن يُستدعى إلى هنا سراً فيُستقبل في هذه الحجرة كما يُستقبل صديق، ويستجوب ببراعة وحذق، فترفع أمام عينيه جميع الحجب، فإذا هو يهوي على قدميك باكياً. أنا من هذا على يقين. إنه رجل عصبي، بائس. امرأته تلهو مع ستافروجين. استقبله استقبالاً حسناً. أكرم وفادته، فيكشف لك عن كل شيء... ولكن يجب عليك أن تنتظر ستة أيام. وإياك خاصةً أن تقول كلمة واحدة لجوليا ميخائيلوفنا. التزم الكتمان الكامل. احفظ السر حفظاً تاماً. أتستطيع أن تكتم سراً؟

ـ ماذا؟ ألم تقل أنت شيئاً لجوليا ميخائيلوفنا؟

كذلك صاح لمبكة متعجباً محملقاً. فأجابه بطرس ستيفانوفتش:

ـ لها هي؟ وقاني الله شرَّ هذا! آه يا آندره أنطونوفتش! إنني أحرص كثيراً على صداقتها وأضمر لها احتراماً عظيماً... وما شئت... ولكنني سأعرف دائماً كيف أصون نفسي من ارتكاب هذه الغلطة. إنني لا أعارضها، وأنت نفسك تعلم أن معارضتها خطر كبير. لعلني قد دسست في حديثي لها إشارةً ما، لأنها تحب ذلك كثيراً. أمَّا أن أسمِّي لها أشخاصاً بأعينهم، كما أفعل معك أنت، أو أن أنقاد لشيء من هذا القبيل، فاللهم لا!... لماذا أتجه إليك أنت الآن؟ لأنك رجل رغم كل شيء، رجل جاد يملك خبرة واسعة أكسبته

إياهـا المهنـة. إنك قد رأيت في حياتك كثيراً! وأحسـب أنك في هذه الأنواع مـن الأمور تسـتطيع أن تتنبأ بكل خطوة من خطواتك علـى غرار الأمثلة التي وقعـت تحت بصرك في بطرسـبرج. أمَّـا إذا ذكرت هذين الاسـمين لها هي، أسـرعت تذيعهما في كل مكان قبل كل شـيء! ذلك أنها من هنا إنما تريد أن تثير دهشة بطرسبرج. لا، لا، إنها مسرفة في الانقياد لحرارة الحماسة!

دمدم آندره أنطونوفتش يقول بشيء من الرضى، على استيائه من أن يتجرأ هذا الشاب الطائش فيقول مثل هذا الكلام عن جوليا ميخائيلوفنا:

ـ نعم، إنها تتصف بشيء من هذا الاندفاع العارم...

ولكن لعل بطرس ستيفانوفتش قد أحسَّ أنه لم يقل ما فيه الكفاية فأراد أن يزيد في تملق لمبكة ليستولي عليه استيلاء أكمل، فقال:

ـ نعـم، تماماً، إنهـا تتصف بكثير من هذا الاندفاع العـارم. قد تكون امرأة عبقرية، وامرأة مثقفة، لكنها إذا تدخلت في الأمر أطارت العصافير من عشها. لن تسـتطيع أن تصمد لإغراء الكلام سـتة أيام ولا ست ساعات. آ... يا آندره أنطونوفتش، لا تطلب من امرأة من النسـاء أن تنتظر ستة أيام. آمل أن تعترف بـأن لي شـيئاً من الخبرة، فـي مثل هذه الأمور على الأقـل. إنني أعرف بعض الأشـياء، وأنت لا تجهل أنني قادر على أن أعرف بعض الأشـياء. وإذا كنت أسـتهلك ستة أيام، فليس ذلك نزوة مني، بل إجراء يقتضيه الموقف وتحجبه الظروف.

بدأ فون لمبكة يتكلم فقال بغير تردد:

ـ سـمعت أنك حين عدت من الخارج قد أعربت لمن يجب أن تعرب له عن ذلك، أقول أعربت له عن... ندمك وتوبتك إن صح التعبير.

ـ ما شأن التصريحات التي أدليت بها حينذاك؟

ـ أنا لا أحب التدخل طبعاً. ولكن كان يبدو لي دائماً أنك تتكلم هنا بلهجة أخرى مختلفة كل الاختلاف، عن الدين مثلاً، وعن المؤسسات الاجتماعية، وعن الحكومة أخيراً...

ـ أي ضير في هذا؟ إنني ما زلت أفكر هذا التفكير نفسه. غير أن هذه الآراء

يجـب تطبيقها على غير النحـو الذي يتصوره أصحابنـا الأغبياء هؤلاء. تلك هي المسـألة كلها. ما قيمة أن أعضَّ رجلاً في كتفه؟ أنت نفسـك قد وافقتني على آرائي، ولكنك قلت إن الأوان لم يئن بعد.

ـ كان الموضوع عندئذ غير هذا تماماً.

قال بطرس ستيفانوفتش ضاحكاً:

ـ هئ هئ!... أرى أنك رجل حذر متروٍّ يزن كل كلمة من كلماته. اسـمع يـا عزيزي. لقد كان عليَّ أن أعرفك معرفة أدق وأكمل، ومن أجل ذلك كنت أكلمك بتلك اللهجة. ولستَ الإنسان الوحيد الذي تعلمت كيف أعرفه بهذه الطريقة. لعلني أردت أن أعرف طبعك!

ـ ما حاجتك إلى معرفة طبعي؟

ـ أين لي أن أعرف!!...

وعاد بطرس ستيفانوفتش يضحك. واستطرد يقول:

ـ اسمع يا عزيزي المحترم جداً آندره أنطونوفتش. إنك رجل ماكر، ولكن ليـس هذا موضـوع اهتمامي بعد، وقد لا أصل إليه يوماً. هل تفهم؟ لعلك قد فهمت! صحيح أنني حين عدت إلى بطرسبرج قدمت معلومات وإيضاحات إلـى الجهة التي يجب أن تُقدَّم إليها تلك المعلومات والإيضاحات. ولسـت أدري حقاً لماذا لا يجوز لإنسان له اقتناعات صادقة أن يفعل ما فعلت، خدمةً لاقتناعاتـه هذه. ومع ذلك فما من أحد "هنـاك" قد كلفني بأن أدرس طبعك، وأنـا على وجه العموم لم أكلف نفسـي حتى الآن بمهـام من هذا النوع. انظر فـي الأمـر بنفسـك: إن هذين الاسـمين اللذين كشـفت لك عنهمـا، كان في وسـعي أن لا أذكرهمـا لـك أنت أولاً، وإنمـا أبعث بهما إلى "هناك" رأسـاً، أي إلى الجهة التـي قدمت إليها المعلومات والإيضاحات الأولى. ولو كنت أسعى إلى نيل مكافأة أو جني نفع مادي لعمدت إلى ذلك حتماً، أمَّا الآن فإن بطرسـبرج ستوجه شـكرها وامتنانها إليك أنت. ولكنني إنما أتدخل من أجل شـاتوف (كذلـك أضاف بطـرس سـتيفانوفتش بنبل)، من أجلـه وحده، وفاء

لذكرى صداقتنا القديمة... على أنك إذا أمسكت بالقلم لتكتب إلى "هناك" فلك أن تكيل لي المديح إن شئت، فلا اعتراض لي على هذا. هئ هئ!... أستودعك الله! لقد استهلكت من وقتك مدة طويلة. ما كان ينبغي لي أن أثرثر هذه الثرثرة كلها...

بذلك ختم بطرس ستيفانوفتش كلامه وهو يبتسم ابتسامة رضى، وينهض عن الكنبة. فأجابه فون لمبكة بمودة، ناهضاً هو أيضاً:

ـ بالعكس. لقد سرَّني كثيراً أن الأمور اتضحت.

كان واضحاً أن الكلمات الأخيرة التي قالها محدِّثه قد أحدثت في نفسه أثراً حسناً. وأردف يقول:

ـ إنني أقبل خدماتك شاكراً ممتناً. وثق أن كل ما يقع على عاتقي من إشارة إلى همتك ونشاطك وحماستك سوف...

ـ ستة أيام فقط. أمهلني ستة أيام. وحذار أن تتحرك في أثناء هذه المدة. ذلك كل ما يجب.

ـ حسن جداً.

ـ إنني لا أكبِّل يديك طبعاً، وما كان لي أن أسمح لنفسي بهذا. إنك لا تستطيع العدول عن القيام بما تقوم به من بحث وتقصٍ. ولكن كل ما أطلبه منك هو أن لا تروِّعهم قبل الموعد المناسب. إنني أعتمد في هذا على ذكائك وخبرتك. آه... لا بد أن عندك كلاباً من كل نوع! هئ هئ!...

هكذا أنهى بطرس ستيفانوفتش كلامه بمرح ظاهر ولهجة هي لهجة شاب قليل المبالاة. فأجابه فون لمبكة متحفظاً ولكن على لطف ومودة:

ـ ليس الأمر كذلك تماماً. إن للشبيبة آراء مغالية في هذا الموضوع... ولكن بالمناسبة، هناك أمر آخر: إذا كان ستافروجين قد استعان بكيريلوف شاهداً في المبارزة، فمعنى ذلك أن ستافروجين، هو أيضاً...

ـ ماذا؟

ـ صديقين حميمين؟

ـ أوه! لا، لا، لا! هنا ترتكب خطأً جسيماً، رغم كل ما تتصف به من حذق

ومكـر، بل إنك لتدهشـني. كنت أظن أنك مطلع علـى مايتعلق بهذا الأمر... همْ... إن ستافروجين هو النقيض، تماماً.

قال لمبكة غيرَ مصدِّق:

ـ أهذا ممكن؟ أهذا ممكن؟ لقد قالت لي جوليا ميخائيلوفنا إن المعلومات التي وصلت إليها من بطرسبرج تفيد أن ستافروجين قد يكون مكلفاً بنوع من مهمة...

ـ لا أعـرف شـيئاً! لا أعـرف شـيئاً البتـة! لا أعرف شـيئاً علـى الإطلاق! أستودعك الله!

كذلـك قطع بطرس سـتيفانوفتش الحديـث على حين فجـأة، راغباً رغبةً واضحة في الاكتفاء بهذا الحد. وركض نحو الباب.

فصرخ الحاكم يناديه قائلاً:

ـ لحظـة يا بطرس سـتيفانوفتش، لحظـة أخرى! هناك مسـألة صغيرة، ثم أدعك تنصرف.

فتـح فـون لمبكـة درجـاً، وأخـرج منـه ظرفـاً. ومـدَّ الظرف إلـى بطرس ستيفانوفتش قائلاً له:

ـ إليك عيِّنة من هذا النوع نفسه. إنني إذ أطلعك على ذلك أبرهن لك على ثقتي بك. خذ. قل لي رأيك.

كان الظرف يضم رسـالةً، غريبة جداً، غير مذيلة بتوقيع، موجهة إلى فون لمبكة الذي استلمها أمس.

فقرأ بطرس ستيفانوفتش الأسطر التالية ممتعضاً أشد الامتعاض:

"صاحب المعالي،

"مـادام هـذا لقبك. أنهي إلى علمك في رسـالتي هذه أنه يتهيأ الآن تآمر علـى حياة شـخصيات كبيـرة وعلى الوطن. كل شـيء يتجه إلى هـذه الغاية. أنـا نفسـي وزعـت منشـورات تحـرِّض علـى الثورة خـلال سـنين، وتحض علـى الزندقـة. هناك فتنة تُحضَّـر. ألوف المنشـورات التحريضيـة يكفي كل واحـد منهـا لإثارة مئات من الأفراد الذين سـيركضون لاهثيـن إذا لم تتدخل

السلطات سلفاً. ذلك أن هناك مكافآت ضخمة موعوداً بها. والشعب غبي. وهناك الخمرة أيضاً. ولخوفي من هؤلاء وأولئك على السواء، فإنني نادم على أخطاء لست مسؤولاً عنها في الواقع، لأن الذنب ذنب الظروف. فإذا كنت تريد أن أشي لك بالأمور حفاظاً على الوطن، وعلى الكنائس والأيقونات أيضاً، فإنني الشخص الوحيد القادر على ذلك بشرط أن ترسل إليَّ الشعبة الثالثة[1] برقية سريعة تبلغني فيها العفو عني، ولكن عني وحدي. أمّا الآخرون فيجب أن يحالوا إلى المحاكم. فإذا كنت موافقاً على هذا فلتكن الإشارة المتفق عليها بيننا هي التالية: ضع في الساعة السابعة من كل مساء شمعة مشتعلة على نافذة البواب. فمتى اطمأنت نفسي لرؤيتها جئت أقبل اليد الرحيمة التي ستمدها إليَّ بطرسبرج. ولكن على شرط أن يُخصَّص لي راتب، وإلا فكيف أعيش؟ ولن تندم على هذا، لأنك ستنال وساماً. ولكن عليك بالصمت وإلا دقوا عنقي! إنني أرتمى على قدمي معاليك.

"الزنديق اليائس التائب: مجهول"

وذكر فون لمبكة أن الرسالة وُجدت في شرفة البواب، وكانت قد وضعت فيها أثناء غيابه.

فقال بطرس ستيفانوفتش يسأله بغلظة:

ـ فما رأيك؟

ـ يخيَّل إليَّ أن كاتب الرسالة رجل أراد أن يسخر مني.

ـ قد يكون الأمر كذلك. أنت رجل لا تُخدع!

ـ ومما يقوى ظني هذا أن في الأمر غباء شديداً بالفعل.

ـ هل سبق أن تلقيت رسائل من هذا النوع؟

ـ واحدة أو اثنتين، بدون اسم المرسل أيضاً.

ـ طبعا. لا يذكر المرسل اسمه. وهل الأسلوب والخط واحدان في هذه الرسائل جميعاً!

---

(1) "الشعبة الثالثة" من مكاتب الامبراطور هي الدائرة التي تهتم بالشؤون السياسية وتلاحق الثوريين.

ـ لا. إنها تختلف أسلوباً وخطاً.

ـ وهل هي سخيفة كهذه؟

ـ نعم، سخيفة... وحقيرة.

ـ إذا كانـت من نوع واحد، فمن الجائز أن تكون الأخيرة صادرة عن نفس المصدر.

ـ لا سـيما وأن فيهـا غبـاءً مفرطاً. أولئك رجال أذكيـاء لا يمكن أن يكتبوا ترهات كهذه حتماً.

ـ طبعاً.

ـ ولكن ماذا لو كان الأمر أمر وشاية فعلاً؟

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة خشنة:

ـ هـذا بعيـد عـن الاحتمـال. وإلا فما تلـك البرقيـة المطلوبة من الشـعبة الثالثة؟ وما ذلك الراتب؟ واضح أن الأمر تهريج!...

قال لمبكة وهو يشعر بالخجل من هذه الشبهات التي راودته:

ـ إنك على حق.

ـ اسـمع. أعطنـي الرسـالة فأكتشـف لـك كاتبهـا حتـى قبل أن أسـلِّمك الآخرين.

قال فون لمبكة موافقاً بشيء من تردد:

ـ خذها.

ـ هل أطلعت عليها أحداً؟

ـ لا، لا، إطلاقاً!

ـ أقصد هل أطلعت عليها جوليا ميخائيلوفنا؟

ـ وقاني الله شر هذا! ثم إنني أستحلفك أن لا تطلع عليها أحداً.

كذلك صاح الحاكم يقول مرتاعاً. وأردف:

ـ لـو أطلعتهـا عليها لاضطربـت اضطراباً شـديداً، ولغضبـت مني غضباً رهيباً...

ـ نعم، لو اطلعت عليها لآخذتك أنت أولاً، ولقالت إن الذنب ذنبك حين يتجرأ أحد فيسمح لنفسه أن يكتب إليك بهذه الطريقة. منطق النساء معروف. طيب. أستودعك الله. قد أُعلمك اسم كاتب هذه الرسالة في غضون ثلاثة أيام. تذكر ما اتفقنا عليه.

4

قد لا يكون بطرس ستيفانوفتش غبياً أحمقاً، ولكن صَدَق السجين فدكا حين قال عنه "إنه يرى الناس في الصورة التي يرسمها عنهم خياله، ومع هؤلاء الناس إنما يعيش".

ولقد ترك الآن فون لمبكة وهو مقتنع اقتناعاً جازماً بأن فون لمبكة قد هدأ ستة أيام على الأقل، وهي المهلة التي كان في حاجة إليها. والحق أن هذه الفكرة خطأ، ولا تقوم إلّا على الصورة التي رسمها خيال الشاب عن آندره أنطونوفتش والتي تصوِّره أنه رجل أهبل.

الواقع أن آندره أنطونوفتش، كسائر الرجال الوجلين الريَّابين قد امتلأ في أول الأمر ثقةً بهذا الذي أخرجه من الشك، وفرح فرحاً كبيراً، وبدا له الموقف، بعد انصراف بطرس ستيفانوفتش، في صورة مُطَمئْنة رغم التعقيدات والمتاعب التي قد تنشأ عنه لاحقاً. مهما يكن من أمر، فقد تبدَّد ما كان يراوده من شكوك وما كان يساوره من أنواع القلق والتردد. وإلى الراحة إنما كانت تتوق نفسه خاصةً، لأنه يشعر منذ بضعة أيام بأنه متعب مرهق منهك القوى. ولكن طمأنينته لم تطل وا أسفاه! إن إقامته الطويلة ببطرسبرج قد تركت في نفسه آثاراً لا تمَّحي. لقد كان يعرف التاريخ الرسمي بل والسري "للجيل الجديد"، لأنه كان رجلاً طُلعةً، وكان يجمع المناشير التحريضية غير أنه لم يفهم منها شيئاً في يوم من الأيام. وهو يحس الآن أنه ضائع تماماً. إن غريزته توحي إليه أن إيضاحات بطرس ستيفانوفتش تشتمل على شيء بعيد عن الاحتمال، شيء مناقضٍ لجميع الأشكال والأعراف. وكان يحدث نفسه قائلاً في حيرة وارتباك: "مع ذلك فإن الشيطان وحده

يعرف ما يمكن أن يحدث في هذا "الجيل الجديد"، والشيطان وحده يعرف كيف تجري الأمور!".

وإنه لغارق في هذه التأملات والأحلام إذ أطل عليه رأس بلومر من ثقب الباب. إن بلومر لم يترك الغرفة المجاورة طوال مدة زيارة بطرس ستيفانوفتش. يجب أن نذكر أن بلومر هذا يمت بقرابة إلى آندره أنطونوفتش، قرابة بعيدة طبعاً حرص فون لمبكة طوال حياته على أن يكتم أمرها ويسكت عنها وجلاً. وإني لأستميح القارئ عذراً إذا أنا قلت كلمات عن هذه الشخصية التافهة. إن بلومر واحد من تلك الفئة الغريبة من الألمان "العاثري الحظ"، لا بسبب عجزه الخارق، بل بدون سبب ظاهر على وجه الإجمال.

إن الألمان "العاثري الحظ" ليسوا خرافة: إنهم يوجدون فعلاً حتى في روسيا، ويؤلفون جنساً على حدة. ولقد عطف فون لمبكة دائماً على بلومر عطفاً كبيراً، وكان يشد أزره ويدعمه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً أثناء ارتقائه على سلَّم المجتمع، محاولاً أن يجد له وظيفة صغيرة في مكتب من مكاتبه. ولكن بلومر كان قليل الحظ. فتارةً تلغى وظيفته فجأة، وتارةً يتغير رؤساؤه، حتى لقد أوشك ذات مرة أن يُحال إلى القضاء مع موظفين آخرين. وهو موظف مخلص لعمله دؤوب مجتهد، غير أن وجهه المتجهم دائماً كان يسيء إليه أكبر الإساءة. إنه طويل القامة محدودب الظهر أحمر اللون، حزين النفس بل وعاطفي الطبع، وهو رغم مذلّته عنيدٌ عنادَ بغل، معارض دائماً. وكان هو وامرأته وذريته الغفيرة يحملون لآندره أنطونوفتش شعوراً بالشكر يبلغ حدَّ العبادة. وما من أحد أحبه في يوم من الأيام إلّا فون لمبكة. وقد كرهته جوليا ميخائيلوفنا منذ اللحظة الأولى، لكنها لم تستطع أن تحطم مقاومة زوجها. كانت تلك أول مشاجرة بين الزوجين. حدث هذا بعد الزواج على الفور تقريباً، أثناء الأيام الأولى من شهر العسل. لقد اكتشفت جوليا ميخائيلوفنا وجود بلومر فجأةً، وكان مختفياً حتى ذلك الحين واكتشفت في الوقت نفسه ذلك السر المخجل وهو أن بينه وبين زوجها صلة قرابة. وقد استغفرها آندره

أنطونوفتش متوسلاً ضارعاً ضاماً يديه إحداهما إلى الأخرى، وقصَّ عليها بطريقة عاطفية مؤثرة قصة بلومر كلها وقصة صداقتهما التي ترجع إلى عهد الطفولة، لكن جوليا ميخائيلوفنا رأت أن شرفها قد تلطخ بالعار إلى الأبد، حتى عمدت إلى الإغماء مرةً بعد مرة. ومع ذلك ثبت فون لمبكة ولم يتزحزح عن موقفه، وأعلن لزوجته أن لا شيء يمكن أن يحمله على هجر بلومر، فلم تملك الزوجة رغم دهشتها الشديدة واستغرابها القوي إلّا أن ترضخ للأمر الواقع وأن تقبل بلومر. ولكن تم الاتفاق بين الزوجين على أن تظل القرابة سراً مكتوماً، وأن يُكتفى من اسمه باسم بلومر، وهو اسم أسرته، أما اسمه واسم نسبته إلى أبيه فلا يجيء أحد عليهما بذكر، إذ شاءت المصادفة أن يكون اسمه واسم نسبته إلى أبيه هما آندره أنطونوفتش أيضاً. وحين وصل بلومر إلى مدينتنا لم يزر أحداً، ولم يعاشر إلّا صديقاً ألمانياً، وعاش حياة ضيقة منزوية. وكان منذ مدة طويلة على علم بعيوب لمبكة المتعلقة بميله إلى الأدب، حتى لقد أصغى إليه وهو يقرأ عليه روايته في خلوة، فكان بلومر أثناء تلك الجلسات التي ربما دامت في بعض الأحيان ست ساعات متتالية، كان يبقى جالساً جامداً متصلباً كأنه وتد مغروز في الأرض، يتصبب عرقه قطرات كبيرة، ويبذل جهوداً مستميتة في سبيل أن لا ينام، وفي سبيل أن يحافظ على هيئة اللطف والمودة. حتى إذا رجع إلى البيت أخذ يبكي مع زوجته، وهي امرأة طويلة يابسة، تألماً على هذا الإنسان المحسن إليهما كيف يُشغف بالأدب الروسي هذا الشغف المشؤوم.

ألقى آندره أنطونوفتش على بلومر نظرة تفيض بالألم، وقال له متعجلاً رافضاً رفضاً واضحاً أن يستأنف الحديث الذي قطعه عليهما وصول بطرس ستيفانوفتش منذ حين:

ـ دعني هادئاً يا بلومر، دعني وشأني، أرجوك.

فقال بلومر مصراً بعناد فيه احترام:

ـ إن الأمر يمكن أن يتم على نحو خفي مرهف. ألست تتمتع بسلطات كاملة؟

ـ إنك تبلغ من الإخلاص لي والاستعداد لخدمتي أنني لا يسعني إلّا أن أخاف منك كلما نظرت إليك.

ـ أنت دائماً تقول أشياء ذكية ثم تنام بعد ذلك هادئ البال راضياً عن أقوالك، ولكن هذا بعينه ما يلحق بك الضرر ويسيء إليك.

ـ لقد أدركت منذ هنيهة أن الأمر ليس ذاك، ليس ذاك قط.

ـ أتكون شكوكك قد نشأت عن تصديقك هذا الشاب الكاذب المنحط؟ لقد استولى عليك بامتداح موهبتك الأدبية.

ـ إنك لا تفهم شيئاً. مشروعك سخيف. أقول لك إن مشروعك سخيف. لن نعثر على شيء، ولكن الفضيحة ستكون رهيبة. سيسخر منا الناس وسيضحكون علينا. ثم إن جوليا ميخائيلوفنا...

ـ سنعثر حتماً على كل ما نبحث عنه وسنجد كل ما نسعى إليه.

كذلك أجاب بلومر وهو يضع يده اليمنى على قلبه، ويقترب من فون لمبكه مزيداً من الاقتراب. واستطرد يقول:

ـ سوف نقوم بالتفتيش فجأة، في ساعة مبكرة من الصباح، ملتزمين أكبر لطف ورقّة في معاملة الشخص الذي أعنيه، ولكنا نطبق القانون أيضاً تطبيقاً صارماً. إن هناك شباباً ـ مثل ليامشين وتلياتنيكوف ـ يؤكدون أننا سنضع أيدينا على كل ما نحن باحثون عنه. لقد ذهبوا إلى السيد فرخوفنسكي مراراً كثيرة. ما من أحد يقيم للسيد فرخوفنسكي أي وزن. إن السيدة ستافروجين قد حجبت عنه حمايتها، وحرمته من أية حظوة لديها، وإن كل إنسان شريف، إذا كان بين سكان هذه المدينة الأفظاظ الغلاظ إنسان شريف، مقتنع اقتناعاً تاماً بأن الزندقة والاشتراكية إنما منبعهما هناك. إن السيد فرخوفنسكي يحتفظ في بيته بجميع الكتب المحظورة، مثل "أفكار" ريلايف[1]، وهو يملك مؤلفات هرتسن الكاملة... وقعت مصادفة على قائمة كاملة تقريباً...

ـ هه! هذه الكتب موجودة لدى جميع الناس! ما أشد سذاجتك يا عزيزي

---

(1) كان كوندراتي ريلايف شاعراً ذا موهبة كبيرة، وقد نشر سنة 1825 ديواناً من الشعر يضم قصائد تاريخية، بعنوان "أفكار" وهي قصائد تستلهم روحاً وطنية ليبرالية. وبعد إعدام ريلايف سنة 1826، بصفته أحد قادة ثورة ديسمبر، إنما منعت الرقابة آثاره.

المسكين بلومر!

تابع بلومر كلامه دون أن ينتبه أي انتباه إلى هذه الملاحظة فقال:

ـ وعدداً كبيراً من المنشـورات التحريضية. سـوف نهتـدي في آخر الأمر حتمـاً إلـى المصـدر الـذي تصدر عنـه هـذه المنشـورات المتداولـة هنا. إن اشتباهي في هذا الشاب فرخوفنسكي قد قوي واشتد!

ـ أنـت تخلـط بين الأب والابن. إنهمـا على غير وفـاق. العلاقات بينهما سيئة. الابن يتهكم على أبيه ويسخر منه علانية.

ـ ما هذا إلّا تمثيل!

ـ أتراك آليت على نفسـك أن تميتني! هلاّ فكرت قليلاً. إن فرخوفنسـكي شخصية هامة هنا. ولقد كان أستاذاً. هو رجل معروف. سوف نثيرها فضيحة. سـتهزأ بنا المدينة كلها. وسـوف يُفلت منا الآخرون جميعاً... ثم هلاّ فكرت فيما سوف تقوله جوليا ميخائيلوفنا!

غير أن بلومر ظل يصر في عناد، ولا يريد أن يسـمع شـيئاً وأن يفهم شـيئاً. قال وهو يلطم صدره بيده:

ـ لم يكن أستاذاً، وإنما كان مكلفاً بإلقاء دروس. لم يكن إلّا في رتبة معيد. ولم يظفر بأي لقب فخري. وقد طُرد من الوظيفة لأن السـلطات اشتبهت فيه واتهمتـه بالتحريـض على الثورة. وهو منذ ذلك الحين تراقبه الشـرطة سـراً. ولمـا كانـت تُهيأ هنا اضطرابات فـإن من واجبك أن تتدخـل. ولكنك تفوِّت الفرصة فتحرم نفسك من التميز باكتشاف المجرم الحق.

ـ هذه جوليا ميخائيلوفنا آتية! امضِ يا بلومر، امضِ!

كذلـك صـاح آنـدره أنطونوفتـش حيـن سـمع صـوت امرأته فـي الغرفة المجاورة على حين فجأة.

ارتعشـس بلومـر، ولكنه لم يستسـلم. قـال ملحاً وهو يضغـط على صدره بكلتا يديه مزيداً من الضغط:

ـ دع لي أن أتصرف. دع لي أن أتصرف.

ـ امضِ! امضِ! افعل ما شئت... فيما بعد! هوه!

كذلك كرر فون لمبكة بصوت صافر.

وفُتح الباب وظهرت جوليا ميخائيلوفنا في العتبة. فلما رأت بلومر توقفت في فخامة وجلال، ورشقته بنظرة فيها احتقار وفيها غضب، كأن مجرد وجود هذا الشخص إهانة لها. فحيَّاها بلومر بصمت، منحنياً انحناء شديداً حتى كاد ينثني نصفين من شدة الاحترام، ثم اتجه نحو الباب سائراً على رؤوس الأصابع مباعداً ذراعيه قليلاً.

سواء أكان بلومر قد فهم من صيحة آندره أنطونوفتش الحانقة أنه أجاز له أن يتصرف كما يشاع، أم كان قد قرر أن لا يحفل برأي صاحبه هذا المحسن إليه، وذلك في سبيل مصلحة صاحبه نفسها ولاقتناعه بأن النجاح سوف يبرر الجرأة، فالمهم أن هذه الحادثة بين الحاكم ومرؤوسه قد كانت لها، كما سنرى فيما بعد، نتيجةٌ لم تدر في خلد أحد ولا توقّعها أحد، نتيجة سلَّت كثيراً من الناس، وأحدثت ضجة كبيرة، وأحنقت جوليا ميخائيلوفنا، وبلبلت أفكار آندره أنطونوفتش إذ هوت به في أحرج لحظة إلى شلل في الإرادة يرثى له.

5

كان ذلك اليوم من أيام بطرس ستيفانوفتش حافلاً بأعمال كثيرة يجب عليه أن يقوم بها. إنه حين خرج من عند فون لمبكه أسرع يسير إلى شارع أبيفانا راكضاً، ولكنه حين مرَّ أمام المنزل الذي يقيم فيه كارمازينوف بشارع "الأبقار"، توقف فجأة، وابتسم ودخل، فقال له الخادم إن "مولاه ينتظره"، فدُهش من ذلك دهشةً كبيرة، لأنه لم يكن قد أنبأ كارمازينوف بأنه سيزوره.

ولكن الكاتب الكبير كان ينتظره فعلاً منذ أمس، بل منذ أمس الأول. لقد أعطى بطرس ستيفانوفتش، قبل ثلاثة أيام، مخطوطة قصيدته "شكراً" (التي كان يتأهب لإلقائها في الصبيحة الأدبية التي تحضّرها جوليا ميخائيلوفنا). وهو إذ أعطاه إياها قد اعتقد أنه يتلطف معه، لاقتناعه بأنه إذ يتيح لهذا الشاب أن يطلع قبل سائر الناس على عمل أدبي يبلغ هذا المبلغ من علو الشأن إنما

يرضي غرور الشاب. وكان بطرس ستيفانوفتش قد لاحظ منذ مدة طويلة أن هذه الشخصية الكبيرة المعجبة بنفسها، المحبة للظهور، التي أغرقها الناس بمدح وتعظيم لا يحلم بمثلهما بشر عاديون، أقول كان بطرس ستيفانوفتش قد لاحظ أن هذه الشخصية الكبيرة أو هذا "الفكر الجبار" إنما كان يتودد إليه لا أكثر، بل ويتودد إليه بكثير من الشراهة. وقد حزر الشاب أخيراً، فيما يخيَّل إليَّ، أن كارمازينوف كان يتصور أن هذا الشاب إن لم يكن هو رئيس الحركة الثورية الروسية كلها، فهو على الأقل واحد من أحسن الناس اطلاعاً على هذه الحركة، وله على الشبيبة سلطان كبير ونفوذ لا سبيل إلى جحوده.

إن الحالة النفسية والفكرية التي كان عليها هذا الكاتب الكبير الذي هو "أذكى رجل في روسيا" كانت تهم بطرس ستيفانوفتش كثيراً، ولكنه لبعض الأسباب كان قد تحاشى حتى ذلك الحين أن يلتمس لها إيضاحاً.

كان الكاتب الكبير يقيم عند أخته المتزوجة ضابطاً في البلاط، يملك أرضاً في إقليمنا. وكانت الأخت وزوجها يشعران نحو قريبهما الشهير بحب يبلغ درجة العبادة. ولكنهما الآن ـ وما كان أشد أسفهما لهذا! ـ قد اضطرا إلى البقاء بموسكو، فوقع شرف استقبال الضيف العظيم على سيدة عجوز فقيرة تمت إلى ضابط البلاط بقرابة بعيدة، وهي تعيش في منزله منذ مدة طويلة، وتتولى خدمة البيت. إن الجميع في هذا المنزل يمشون الآن على رؤوس الأصابع منذ وصول السيد كارمازينوف. وكانت السيدة العجوز تكتب إلى موسكو كل يوم تقريباً لتقول لأصحاب المنزل كيف نام الضيف الشهير وماذا تنازل فأكل. حتى إنها في إحدى المرات قد أرسلت برقية لتذكر أنه بعد عشاء راقص في منزل رئيس البلدية قد اضطر أن يتجرع ملعقة دواء. وكانت لا تجرؤ أن تدخل عليه إلّا لماماً. ولكنه كان كيِّساً في معاملتها، وإن كان لا يكلمها إلّا عند الضرورة القصوى، وإذا يكلمها فإنه يكلمها بلهجة باردة.

حين دخل عليه بطرس ستيفانوفتش وجده يأكل ضلع اللحم الذي اعتاد أن يأكله، ومعه نصف كأس من نبيذ أحمر. لقد سبق لبطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي أن جاءه مراراً، فكان في كل مرة يجده جالساً إلى ضلع اللحم

هـذا يأكله، ويستمر في أكله بحضوره دون أن يقدِّم له أي شيء في مرة من المرات، حتى إذا فرغ من ضلع اللحم أتبعه بفنجان صغير من القهوة. وكان الخادم الذي يخدمه يُلبس يديه قفازين دائماً، ويرتدي رداء "فراك"، وينتعل حذاءين مرنين ليس لوقعهما على الأرض صوت.

قال كارمازينوف وهو ينهض عن الكنبة:

ـ ها...

ومسح فمه بمنشفة، وتقدم نحو زائره مشرق الهيئة ليقبِّله وفقاً لعادة الروس الذين أصبحت لهم شهرة كبيرة. ولكن بطرس ستيفانوفتش كان يعلم بالتجربة أن كارمازينوف يتظاهر بتقبيل الناس مع أنه لا يزيد على أن يمد إليهم خدَّه. وهذا ما فعله في هذه المرة فالتقت الخدان. وعاد كارمازينوف يجلس على الكنبة دون أن يُظهر أنه لاحظ ذلك. وبحركة ودود أومأ للشاب إلى مقعد قبالته ليجلس عليه. فجلس بطرس ستيفانوفتش على المقعد جلسة مريحة.

سأله الكاتب مغيِّراً عاداته في هذه المرة:

ـ لا شك أنك.. ألا تريد أن تتغدى؟

وكان واضحاً في هيئته أنه يطلب جواباً سلبياً. ولكن بطرس ستيفانوفتش أسرع يقول إنه يسره أن يتغدى. فإذا بالدهش والاستياء يلقيان ظلهما على كارمازينوف، ولكن ذلك لم يدم إلّا لحظة قصيرة. ثم قرع الجرس ينادي الخادم بعصبية، فلما جاء الخادم أمره بغداء ثانٍ، فكان في صوته رغم حسن أدبه ولطف كياسته، حنق لا يخفى. وقال يسأل ضيفه:

ـ ماذا تريد؟ أضلع لحم أم شيئاً من قهوة؟

ـ ضلعاً وقهوة. وأمرْ لي أيضاً بنبيذ. فأنا جائع.

كذلك أجاب بطرس ستيفانوفتش وهو يتأمل رداء الكاتب العظيم بانتباه شديد. كان السيد كارمازينوف يرتدي نوعاً من سترة مبطنة بقطن، لها أزرار لامعة كالصدف، تشبه أن تكون جاكيتة، ولكنها قصيرة قليلاً، فلا تناسب كرشه الناتئ ولا تناسب ذلك التدوير في ذلك الجزء من الجسم الذي يبدأ

عند الفخذان. غير أن لكل إنسـان ذوقه الخاص به. ورغم أن جَوّ الغرفة كان حاراً، فقد غطى ركبتيه بغطاء صوفي ذي مربعات يتدلى على الأرض.

سأله بطرس ستيفانوفتش:

ـ أنت مريض؟

فأجـاب الكاتب الروائي بصوته الحاد، مقطعاً كلماته برهافة ورقة، منغماً لهجته على الطريقة الأرستقراطية:

ـ لا، ولكنني أخشى أن أصبح مريضاً في هذا الجو. لقد انتظرتك أمس.

ـ لماذا انتظرتني؟ أنا لم أبلغك أنني آتٍ.

ـ صحيح... ولكن مخطوطتي عندك.. هل قرأتها؟

ـ مخطوطتك؟ أية مخطوطة؟

قال له كارمازينوف مشدوهاً:

ـ آمل أن تكون المخطوطة معك!

وبلـغ من القلـق أنه أهمل قهوتـه ونظر إلى بطـرس سـتيفانوفتش مرتاعاً مذعوراً.

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ آ... تقصد "مرحباً".

ـ بل "شكراً".

ـ سـيان. لقد نسـيتها نسـياناً تاماً، ولـم أقرأها. ليس في الوقت متسـع. لا أدري حقـاً مـاذا صنعـت بها. ليسـت فـي جيوبي... لا بـد أننـي تركتها على مائدتي. لا تقلق. سوف أجدها.

ـ بل أفضل أن نبعث أحداً يبحث عنها في الحال. قد تضيع. قد تُسرق.

ـ مـا عسـى يصنع بها مـن يخطر بباله أن يسـرقها؟ ثم، ما بالـك تقلق؟ إن جوليـا ميخائيلوفنا تؤكد أنك تستنسـخ دائماً عدة نسـخ: نسـخةً تودعها عند الكاتـب بالعـدل فـي الخـارج، وثانيـة تدعها فـي بطرسـبرج، وثالثـة تتركها بموسكو، ويظهر أنك ترسل نسخةً رابعة إلى صاحب البنك الذي تودع عنده أموالك.

ـ لكـن موسـكو قد تُحرق، فتحـرق معها مخطوطتـي "لا" إنني أفضل أن نرسل أحداً يبحث عنها في الحال.

ـ انتظر. هي ذي مخطوطتك.

كذلـك قـال بطرس سـتيفانوفتش وهو يخـرج من إحدى جيوبـه الخلفية حزمة من أوراق الرسائل. إنها مجعَّدة مهترئة قليلاً. واستطرد يقول:

ـ تصور أنني، حين أعطيتي إياها، قد دسستُها في هذا الجيب الخلفي مع منديل، ثم بقيت فيه. نسيتها تماماً.

اسـتولى كارمازينـوف على مخطوطتـه بشـراهة، وفحصها بعنايـة، وعدَّ أوراقها، ثم وضعها بكثير من الاحترام على منضدة صغيرة في جانب، بحيث لا تغيب عن بصره.

قال بصوت صافر، عاجزاً عن كبح غيظه:

ـ لعلك لا تقرأ كثيراً.

ـ نعم، لا أقرأ كثيراً.

ـ ومن الأدب الروسي، ألا تقرأ شيئاً؟

ـ من الأدب الروسي، لحظة... لقد قرأت شيئاً ما... "على الطريق"... أو "في الطريق"... أو "عند تقاطع الطرق"... لا أدري على وجه الدقة. قرأت ذلك منذ مدة طويلة... منذ خمس سنين تقريباً.. لا وقت لديّ.

وخيَّم صمت.

قال كارمازينوف:

ـ حين وصلتُ إلى هنا أكدت لجميع الناس أنك رجل تحظى بذكاء نادر، ويخيَّل إليَّ أنهم مفتونون بك الآن.

أجاب بطرس ستيفانوفتش ببساطة يقول:

ـ شكراً.

وجيء بالغداء. فهجم الشـاب على ضلع اللحم هجمة نهمة، وأتى عليه، وشرب كأساً من نبيذ، وابتلع قهوته.

حـدَّث كارمازينوف نفسـه قائلاً وهو يتفحص الشـاب بطـرف عينيه أثناء

ابتلاعـه آخـر جرعـة: "لعـل هـذا القليـل الأدب قد لاحـظ سـخرية جملتي الأخيرة... إني لعلى ثقة بأنه ما من شـيء كان أشـدَّ لجاجةً وإلحاحاً عليه من قراءة مخطوطتي بسرعة. هو يكذب. إنه يبيِّت فكرة. لعله لا يكذب مع ذلك، وإنمـا هو غبي لا أكثر! إنني أحب لعبقري أن يكون على شـيء من غباء. ألن يكون عبقرياً بينهم؟ على كل حال، فليذهب إلى الشيطان!...".

ونهض وأخذ يسير في الغرفة طولاً وعرضاً، وذلك ما كان يفعله بعد كل وجبة تنشيطاً لجسمه.

قال بطرس ستيفانوفتش يسأله وهو جالسٌ يشعل سيجارة:

ـ أأنت مسافر قريباً؟

ـ لقد جئت لأبيع أرضي، وسفري مرهون بوكيلي.

ـ يظهر أنك عدت إلى روسـيا لأنك خشـيت الأوبئة التي تهدد بالانتشـار في أعقاب الحرب، هه؟

ـ لـ... لا! ليس الأمر هذا تماماً!

كذلك أجاب السيد كارمازينوف مقطعاً كلامه. وكان كلما وقف واستدار ليسـتأنف مشـيه فـي الغرفة يحرك سـاقه اليمنى قليـلاً. واسـتطرد يقول وهو يبتسم بشيء من السخرية:

ـ لكننـي أنتوي فعلاً أن أحيـا أطول مدة ممكنة. إن النبالة الروسـية تنحل بسرعة خارقة من جميع النواحي. ومن جهتي أحب أن أؤخر انحلالي أطول تأخيـر ممكـن. لذلـك أريد أن أسـتقر في الخـارج إلى الأبد: المنـاخ هنالك أصح، والبنيان الاجتماعي أقوى، وكل شيء متين مبني بحجر. ما رأيك؟

ـ همْ... إذا انهارت بابل أوروبا فستكون تلك كارثة كبرى فعلاً (أنا أوافقك علـى رأيـك في هذه النقطـة، وإن كنت أقدِّر أنها باقية ما بقيـت) أما عندنا في روسـيا فلا يرى المرء ما الذي يمكن أن ينهار على وجه الإجمال. لن نشـهد حجارة تتسـاقط، وإنما سـيتداعى كل شيء وحلاً. إن روسيا المقدسة عاجزة عجـزاً مطلقاً عن إبداء أية مقاومة لأي شـيء. وبفضل الإله الروسـي ما يزال الشعب الروسي هادئاً بعض الهدوء. ولكن المعلومات الأخيرة تدل أن الإله

الروسي لم يبق له كثير من قوة، وأن إلغاء الرق قد أوشك أن يُسقطه، وهو قد هزَّه هزاً قوياً على كل حال. ثم، هناك السكك الحديدية، وهناك أنتم... إنني، فيما يتعلق بالإله الروسي، أصبحت لا أؤمن به بتاتاً.

ـ والإله الأوروبي!

ـ إنني لا أؤمن بأي إله. لقد افتروا عليَّ عند الشبيبة الروسية. إن قلبي كان دائماً معها. وقد اطلعت على المنشورات التحريضية التي تنتشر هنا. إنها تدع الناس مبلبلين حيارى، لأن لهجتها تروِّع عقولهم، ولكن الجميع مقتنعون، حتى من دون أن يدركوا ذلك، بأن لها تأثيراً قوياً. إن كل شيء يتدحرج إلى الهوة منذ مدة طويلة، والناس يعلمون منذ مدة طويلة أيضاً أنهم لا يستطيعون أن يتشبثوا بشيء. ومما يزيد يقيني بنجاح هذه الدعاية السرية أن روسيا هي الآن بين سائر بلاد العالم البلد الذي يمكن أن يحدث فيه كل شيء دون أن تعترضه أية مقاومة مهما تكن يسيرة. إنني أفهم كل الفهم لماذا كان الروس الذين يملكون ثروة ما، يجتازون الحدود متزايدين سنةً بعد سنة. إن الغريزة هي التي توجّههم وتقود خطاهم. حين توشك سفينة على الغرق فإن الفئران أول من يتركها. إن روسيا المقدسة بلد البيوت الخشبية، إنها بلد بائس شقي و... خطر، إنها بلد شحاذين، مغرورين في الطبقات العليا، لكن سوادهم الأعظم يعيش في أكواخ مترنحة الجدران. فهم يسعدهم أن يجدوا أي مخرج، ويكفي أن يدلهم أحد على أي مخرج. الحكومة وحدها ما تزال تريد أن تقاوم، ولكنها تلوِّح بهراوتها في الظلام وتهوي بها هنا وهناك خبط عشواء، وتصيب الموالين. هنا كل شيء محكوم عليه، مقضي عليه. روسيا ليس لها مستقبل. أنا أصبحت ألمانياً، وإني لأعتزّ بهذا.

ـ لقد بدأت كلامك بالحديث عن المنشورات التحريضية. فما رأيك فيها؟

ـ جميع الناس خائفون منها. معنى هذا أنها تؤثر تأثيراً كبيراً قوياً. إنها تفضح الكذب فضحاً صريحاً، وتبيِّن أن لا شيء عندنا يمكن التعلق به والاستناد إليه والاعتماد عليه. إنها ترفع صوتها عالياً بينما يصمت الجميع.

أمجد شـيء فيها رغم شـكلها إنما هو الجرأة الخارقة فـي النظر إلى الحقيقة وجهـاً لوجـه. إن هذه القـدرة لا يتصف بهـا إلّا الجيل الروسـي الحالي. لا، الناس في أوروبا ليس لهم هذه الجسارة بعد: البنيان الأوروبي من حجر، وما يزال المرء هناك يجد ما يتعلق به ويسـتند إليه. إذا صدقت رؤيتي وإذا صدق حكمي، فإن الفكرة الثورية الروسـية تقوم أساسـاً على نفي الشرف. يعجبني أن أرى هذا معبَّراً عنه بمثل هذه الشجاعة ومثل هذه الجسارة. لا، في أوروبا مـا يزال النـاس لا يفهمون هذه الفكرة، وليس الأمر كذلـك عندنا، فإلى هذه الفكـرة بعينهـا إنما سـيهرع الناس. ليس الشـرف في نظر الروسـي إلّا حملاً لا فائـدة منـه، والأمر على هـذا النحو في جميـع الأزمان على امتـداد تاريخ الروس كله. لذلك سـيكون من اليسـير إغراؤه و جرُّه بالمناداة "بحق التخلي عن الشـرف" صراحةً، إننـي أنتمي إلى الجيل القديم، وأعتـرف أنني ما أزال أعتنق فكرة الشـرف. ولكن ذلك ليس إلّا عادة. ما زلت متمسـكاً بالأشـكال القديمة. لنسـلِّم بأن هذا ضعف. إنه لجدير بالمرء أن يموت مع المبادئ التي تعلق بها طوال حياته...

قطع كارمازينوف كلامه فجأة. وحدّث نفسـه يقول: "إنني أتكلم وأتكلم. ويبقى هو صامتاً يراقبني. لقد جاء لألقي عليه سـؤالاً محدَّداً. فلسـوف ألقي عليه ذلك السؤال".

سأله بطرس ستيفانوفتش فجأة:

ـ لقـد رجتني جوليا ميخائيلوفنا أن أسـألك ببراعـة عن موضوع المفاجأة التي تهيئها للحفلة الراقصة بعد غد، فما هي هذه المفاجأة؟

ـ نعم، سـتكون مفاجاة حقاً. وسأُدهش جميع الناس... لكنني لن أكشف لك عن سري.

بذلك أجاب كارمازينوف متعاظماً. فلم يلح بطرس ستيفانوفتش كثيراً.

ـ قال الكاتب العظيم:

ـ يوجد هنا رجل اسمه شاتوف. هل تتصور أنني لم أره بعد؟

ـ هو شخص ممتاز. وبعد؟

ـ لا شـيء خاصاً. لكن النـاس يتكلمون عنه كثيراً. أليـس هو الذي صفع ستافروجين؟

ـ نعم هو الذي صفع ستافروجين.

ـ ما رأيك في ستافروجين؟

ـ الحق أنني لا أدري ما هو بين أصناف الرجال. أحسـب أنه نوع من دون جوان.

كان كارمازينوف يكره سـتافروجين، لأن سـتافروجين اعتاد أن لا يلتفت إليه وأن لا يكترث به.

قال وهو يضحك ساخراً:

ـ إذا تحقق عندنا ما تنادي به المنشـورات التحريضية، في يوم من الأيام، فسوف يكون زير النساء هذا أول من يجب شنقه.

فقال بطرس ستيفانوفتش:

ـ قد يُشنق قبل ذلك.

فقـال كارمازينوف محبذاً مؤيداً، دون أن يضحك في هذه المرة، وكانت لهجته جادة:

ـ لعل ذلك أن يكون خيراً.

ـ سبق أن قلت هذا. واعلمْ أنني نقلت كلامك إليه.

ـ حقاً؟ فعلت هذا؟

كذلك سأل كارمازينوف وانفجر ضاحكاً. فقال بطرس ستيفانوفتش:

ـ وقد أجاب بأنه إذا شُـنق هو، فيكفيك أنت أن تُجلد جلداً، لا على سبيل المزاح، بل جلداً صارماً، كما يُجلد الفلاحون.

وتنـاول بطـرس سـتيفانوفتش قبعته ونهض. فمـدَّ إليـه كارمازينوف كلتا يديـه. وقال يسـأله بصوته المتلطـف المرائي الذي اصطنع نبـرة جديدة على حين فجأة، مع استمرار الكاتب العظيم في إمساك يدي الشاب بيديه:

ـ قـل لـي: إذا كانـت مشـروعاتكم سـتتحقق... فمتـى... متـى يمكن أن يحدث هذا؟

فأجابه بطرس ستيفانوفتش بفظاظة:

ـ ما يدريني!

ونظر كل من الرجلين في عيني صاحبه.

فألح كارمازينوف سائلاً بصوت فيه مزيد من العذوبة واللطف.

ـ تقريباً؟ على وجه التقريب؟

فجمجم بطرس ستيفانوفتش يقول بمزيد من الفظاظة:

ـ لديك متسع من الوقت لبيع أرضك، ولديك متسع من الوقت لتفر بجلدك. وكان الرجلان ما يزال كل منهما ينظر في عيني الآخر.

وساد الصمت لبعض الوقت.

وقال بطرس ستيفانوفتش أخيراً:

ـ سيبدأ الأمر في شهر أيار (مايو)، فلا يأتي عيد "الشفاعة" إلّا ويكون كل شيء قد انتهى.

قال كارمازينوف بلهجة مؤثرة وهو يشد على يدي زائره:

ـ أشكرك أصدق الشكر.

وحدّث الشاب نفسه قائلاً بعد أن ترك كارمازينوف: "لديك متسع من الوقت، يا أيها الفأر، لترك السفينة قبل غرقها. ولكن إذا كان هذا الذي يشبه أن يكون رجل دولة يسألني بهذا الجد كله عن تاريخ البدء يوماً وساعة، ويشكرني بهذه الحرارة على المعلومات التي زوَّدته بها فلا يجوز أن نشك في أنفسنا بعد هذا (قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وضحك ساخراً). همْ... حقاً إنه ليس غبياً، و... ما هو إلّا فأر يهاجر. مثله لا يشي".

وأسرع إلى منزل فيليبوف، شارع أبيفانيا.

6

دخل بطرس ستيفانوفتش أولاً إلى مسكن كيريلوف. كان كيريلوف وحيداً على عادته، وكان يقوم ببعض التمارين الرياضية وسط الغرفة. لقد

باعد ساقيه وجعل يُدير ذراعيه فوق رأسه. وكانت كرة من الكاوتشوك ملقاة على أرض الغرفة. ولم يكن شاي الصباح قد رُفع عن المائدة بعد أن أصبح بارداً.

وقف بطرس ستيفانوفتش على العتبة لحظة. ثم قال مرحاً بصوت رنان وهو يلج الغرفة:

ـ أرى أنك تعنى بصحتك عناية كبيرة رغم كل شيء. يا لها من كرة جميلة! ما أحلى تواثبها! أهي أيضاً للقيام بتمارين رياضية؟

ارتدى كيريلوف ردنجوته. وقال بخشونة:

ـ نعم، إنني أعتنى بصحتي. اجلس.

ـ لقد جئت لأمكث لحظة قصيرة. على كل حال، ها أنا ذا أجلس. الصحة شيء ممتاز، و لكنني أتيت لأذكِّرك بما تمَّ عليه الاتفاق بيننا. إن الأوان يقترب. بعض الاقتراب".

بهذه الجملة الأخيرة ختم بطرس ستيفانوفتش كلامه مازحاً.

ـ أي اتفاق؟

ـ تسألني أي اتفاق؟

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وانتفض مرتاعاً.

فقال كيريلوف:

ـ ليس بيننا اتفاق ولا التزام. أنا لا أشعر بأنني مرتبط. إنك مخطئ.

فصاح بطرس ستيفانوفتش قائلاً وهو ينهض على حين فجأة:

ـ ما هذا الذي تقول؟

ـ إنني أنفّذ مشيئتي. إنني أحقّق رغبتي.

ـ أية رغبة؟

ـ رغبتي تلك نفسها.

ـ كيف يجب أن أفهم هذا الكلام؟ هل معناه أنك ما تزال مصمماً على ما عقدت النية عليه؟

ـ نعم، ولكن الأمر ليس أمر اتفاق، فما كان ثمة اتفاق قط، ولست بمرتبط.

وإنما هي مشيئتي وحدها، كانت وما تزال مشيئتي وحدها.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يعود إلى الجلوس راضياً مرتاحاً:

ـ طيب، طيب، أسلِّم بأنها مشيئتك الحرة، وإنما المهم أن لا تكون مشيئتك هذه قد تغيرت. إنك تندفع وتتحمس من أجل كلمة. لقد أصبحت سريع الاهتياج في هذه الآونة الأخيرة. لذلك صرت لا أزورك. على أنني كنت أعرف أنك لن تخون.

ـ إنني لا أحبك البتة. ولكن في وسعك أن تعتمد عليَّ، رغم أنني لا أقبل تعبير الخيانة هذا.

قال بطرس ستيفانوفتش وقد عاد إليه قلقه:

ـ إن علينا مع ذلك أن نتكلم بوضوح حتى لا نتعرض للبلبلة. إن هذه القضية تتطلب دقة ووضوحاً. وأقوالك هذه تقلقني كثيراً. هل تعدني بأن تتكلم؟

قال كيريلوف بخشونة وهو يحدق إلى زاوية من الغرفة:

ـ تكلم!

ـ لقد قررت منذ مدة طويلة أن تنتحر... أقصد أن هذه الفكرة قد قامت في نفسك. هل وُفقت في التعبير؟ ألم أرتكب خطأً ما؟

ـ وهذه الفكرة ما زالت قائمة في نفسي.

ـ عظيم. لاحظ أن أحداً لم يجبرك عليها إجباراً.

ـ نعم. ما أغبى تعبيرك عن فكرك!

ـ طيب، طيب. لقد عبَّرت عن فكري بغباء وحماقة. لا شك أبداً في أن الكلام على الإجبار هنا حماقة. والآن أتابع: إنك كنتَ عضواً في الجمعية منذ إنشائها وقد كاشفت أحد أعضائها بمشاريعك.

ـ لم أكاشف أحداً بشيء، وإنما قلت ببساطة ما أريد أن أفعله.

ـ طيب. صحيح. الكلام على "المكاشفة" هنا سخف. لم يكن ذلك منك اعترافاً. وإنما أنت قلت ما قلته ببساطة. كلام عظيم.

ـ ليس هذا كلاماً عظيماً. إنك تتردد وتلتوّى في أقوالك ولا تلتزم

الصراحـة. لسـتُ مضطراً إلى أن أشـرح لك كل شـيء، وما أنـت بقادر على أن تفهـم أفكاري. لقد قررت أن أنهـي حياتي لأن هذه فكرتي، لأنني أريد أن أنتصـر على الرعب من المـوت... لأن... ولكن ليس عليك أن تعرف لماذا. ماذا تريد؟ شاياً؟ الشاي بارد. انتظر سآتيك بكأس أخرى.

كان بطرس ستيفانوفتش قد أمسك إبريق الشاي فعلاً، وكان يبحث ببصره عن كأس فارغة. فمضى كيريلوف إلى الخزانة، وتناول منها كأساً نظيفة.

ثم قال:

ـ لقد تغديت عند كارمازينوف، وأصغيت إلى حديثه، فعرفت، ثم ركضت لأجيء إلى هنا فتصبب عرقي مزيداً من التصبب، فأنا الآن ميت ظمأً!

ـ أشرب! الشاي بارد! ذلك ممتاز.

عـاد كيريلـوف يجلس، وحـدَّق بعينيه مرةً أخـرى إلى زاوية مـن الغرفة. واستطرد يقول بتلك اللهجة نفسها:

ـ لقد قدَّروا، في الجمعية، أنني بانتحاري أسـتطيع أن أخدمهم: فإذا قمتم هنا بعمل شـيء ما، فأخذت السـلطات تبحث عن الفاعلين، أطلقت أنا على رأسـي رصاصة تاركاً رسـالةً أذكر فيها أنني أنا الذي فعلت كل شيء. فبذلك تفلتون من الشبهات خلال سنة بكاملها.

ـ بل تكفينا بضعة أيام، بل قد يفيدنا يوم واحد أكبر الفائدة.

ـ حسن. فطلبوا مني أن أنتظر. فأجبت بأنني سأنتظر إلى أن تنبئني الجمعية بأن أفعل، فأفعل، لأن الأمور عندي سواء.

ـ نعـم، ولكن تذكَّر أنك تعهّـدت بتحرير هذه الرسـالة معي، وبأن تصبح متى وصلت إلى روسـيا... أن تصبح رهن إشـارتي، لهـذا الأمر وحده طبعاً، أمَّا في كل ما عدا ذلك فأنت حر.

كذلـك أضـاف بطرس سـتيفانوفتش بلهجة تشـبه أن تشـتمل علـى تودد وتحبب.

ـ لم أتعهّد بشيء. وانما أنا قبلت لأن الأمور عندي سواء...

ـ طيب... طيب... ليس في نيتي قط أن أجرح كرامتك، ولكن...

ـ ليست المسألة مسألة كرامة.

ـ تذكَّر مع ذلك أنك أُعطيت مبلغاً من المال لتتمكن من السفر. فقد تقاضيت إذن مالاً.

صرخ كيريلوف يقول وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة:

ـ هذا خطأ! أنا لا أعمل من أجل مال.

ـ بلى، أحياناً.

ـ أنت تكذب. لقد كتبت من بطرسبرج عارضاً جميع الإيضاحات اللازمة، وقد رددت في بطرسبرج مبلغ المال، رددته بنفسي... فالمال رُدَّ إذن، اللهم إلّا أن تكون قد احتفظت به لنفسك.

ـ طيب طيب. موافق. لقد رُدَّ المال. وإنما المهم أن تكون ماتزال مستعداً لما كنت مستعدّاً له من قبل.

ـ نعم، ما أزال مستعداً. فمتى أتيت فقلت لي: "آن الأوان"، فعلت ما وعدت به. هل الموعد قريب؟

ـ بعد بضعة أيام... ولكن لا تنس أن علينا أن نحرِّر الرسالة معاً في تلك الليلة.

ـ وحتى قبلها بليلة إن شئت. لقد قلتَ إن عليَّ أن أضع على عاتقي تبعة المنشورات التحريضية.

ـ نعم، وأشياء أخرى أيضاً.

ـ لن أحمل نفسي كل شيء.

سأله بطرس ستيفانوفتش مرتاعاً من جديد:

ـ ما الذي ترفض أن تحمِّله نفسك؟

ـ ما لا أريد. وكفى هذا! أصبحت لا أطيق الكلام في هذا الموضوع!

سيطر بطرس ستيفانوفتش على نفسه وغيَّر مجرى الحديث. قال:

ـ هناك الآن شيء آخر: هل تجيء الليلة إلى عند أصحابنا؟ اليوم عيد فرجنسكي، وسوف نجتمع متعللين بهذه الحجة.

ـ لا أريد.

ـ بل تعال، أرجوك. يجب أن تجيء. يجب أن نفرض عليهم مهابتنا بعددنا ومظهرنا... إن لك وجهاً... وجهاً لا تُقاوم له جاذبية.

قال كيريلوف ضاحكاً:

ـ أهذا رأيك؟ طيب. سأجيء. ولكنني لن أجيء من أجل أن تفرض عليهم مهابتنا بوجهي. في أية ساعة يكون الاجتماع؟

ـ في وقت غير متأخر، في الساعة السادسة والنصف. وتستطيع أن تدخل فتجلس ولا تكلم أحداً، مهما يكن العدد كبيراً. ولكن لا تنس أن تحمل قلماً وبضعة أوراق.

ـ لماذا القلم والأوراق؟

ـ بالنسبة إليك لا قيمة لهذا، أمَّا بالنسبة إليّ فإن له قيمةً كبيرة. ستمكث هناك جالساً لا تقول كلمة، بل تصغي وتتظاهر من حين إلى حين بأنك تدوِّن شيئاً. لك أن ترسم إذا كان يحلو لك ذلك.

ما هذه السخافات؟ ما الغرض من هذا كله؟

ـ أليست الأمور عندك سواء. إنك ما تنفكّ تردد بأن جميع الأشياء عندك سواء.

ـ بل قل لي لماذا!

ـ طيب. اسمع: إن العضو الذي ننتظره، وهو المفتش، كما تعلم، لم يستطع أن يغادر موسكو. وأنا قد أبلغت عدداً من الأعضاء أن مفتشنا سيحضر الاجتماع. فسوف يظنون إذن أنك المفتش، وسيُدهشون دهشة كبيرة لا سيما وأنك هنا منذ ثلاثة أسابيع.

ـ هذه كلها ترهات! ليس لكم مفتش بموسكو.

ـ طيب. لنسلِّم بذلك. لنا مفتش. سحقاً للمفتش. ولكن هل يزعجك ما أطلبه منك؟ هل يؤذيك أو يسيء إليك؟ أنت أيضاً عضو في الجمعية.

ـ قل لهم إنني مفتش. سأبقى جالساً لا أنطق بكلمة. ولكنني لا أريد قلماً ولا ورقاً.

ـ ولكن لماذا؟

ـ لا أريد!

صار وجه بطرس ستيفانوفتش ضارباً إلى الخضرة من شدة الغضب، ولكنه كظم غيظه وسيطر على نفسه من جديد، ونهض وتناول قبعته. وقال يسأل بصوت خافت:

ـ هل "الآخر" عندك؟

ـ نعم.

ـ طيب سأخلِّصك منه قريباً. اطمئن بالاً ولا تقلق.

ـ لست قلقاً البتة. إنه لا يجيء إلّا في الليل. المرأة العجوز في المستشفى، وامرأة ابنها ماتت، وأنا وحيد منذ يومين. وقد دللته على اللوح الخشبي الذي يمكن تحريكه بسهولة في الحاجز، فيستطيع أن يدخل دون أن يُرى.

ـ سأخلِّصك منه قريباً.

ـ هو يكذب. إنه ملاحق مطارد. وهم إلى الآن لا يشتبهون في وجوده هنا. هل تتحدث معه مصادفةً؟

ـ نعم، طوال الليل. إنه لا يكف عن شتمك. قرأت عليه رؤيا يوحنا في الليلة الماضية، وشربنا شاياً. أصغى بانتباه شديد، بل شديد جداً، طول الليل.

ـ لسوف تهديه إلى الإيمان بالمسيحية!

ـ إنه مسيحي. ولكن اطمئن: سوف يقتل. من تريد أن يقتله لك؟

ـ لا، لست في حاجة إليه من أجل أن يقتل، بل من أجل شيء آخر... هل شاتوف على علم بأمر فدكا؟

ـ نحن لا نتخاطب أبداً. أنا وشاتوف لا يرى أحد منا الآخر.

ـ أأنتما متخاصمان؟

ـ لا، لسنا متخاصمين، ولكن كلاً منا يتحاشى الآخر. لقد اضطجعنا في أمريكا جنباً إلى جنب مدة مسرفة في الطول.

ـ سأصعد إليه.

ـ افعل ما تشاء.

ـ قـد نجيئك أنا وسـتافروجين بعد الخروج من السـهرة في نحو السـاعة العاشرة.

ـ تعالا.

ـ هنـاك أشـياء هامة يجب أن أكلمه فيها. اسـمع: أعطنـي كرتك هل أنت فـي حاجة إليها الآن؟ أنا أيضاً سـأقوم بتمارين رياضية. سـأدفع لك ثمنها إن شئت.

ـ خذها. إنني أهبها لك.

وضع بطرس ستيفانوفتش الكرة في الجيب الخلفي من ردنجوته.

دمدم كيريلوف يقول فجأة وهو يشيِّع زائره إلى الباب:

ـ لن أعينك على ستافروجين في شيء.

فنظر إليه الزائر مدهوشاً، ولكنه لم يجب.

إن هـذه الكلمـات الأخيرة التـي قالها كيريلوف قد بثـت في نفس بطرس ستيفانوفتش اضطراباً عميقاً. ولكن وقته لم يتسع للتفكير في الأمر، لأنه تذكر وهو يصعد سلَّم شاتوف أن عليه أن يسبغ على وجهه الحانق هيئة ألطف.

كان شاتوف في بيته، راقداً على سريره وهو مرتدٍ كلَّ ثيابه: كان يشعر بأن حالته الصحية ليست حسنة تماماً.

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول وهو في العتبة:

ـ يا لسوء الحظ! أأنت مريض حقاً؟

واختفى عن وجهه قناع اللطف فجأة، ولمَّ بعينيه لهيب خبيث.

قال شاتوف وهو ينهض:

ـ لا أبداً، لست مريضاً البتة. ولكن رأسي...

كان زائـغ الهيئة: إن ظهور بطرس سـتيفانوفتش على هذا النحو المباغت قد روَّعه حقاً.

بـدأ بطرس سـتيفانوفتش يتكلم فقال بلهجة فيها إيجاز، وفيها مايشـبه أن يكون أمراً:

ـ أنا إنما جئت لأحدثك في أمر يتطلّب أن تكون في صحة جيدة. اسمح لي أن أجلس.

قال ذلك وجلس ثم أردف يقول:

ـ وأنت عُدْ فاجلس على سريرك. نعم. هكذا. في هذا المساء، سيعقد بعض أصحابنا اجتماعاً عند فرجنسكي، متعللين بحجة عيد ميلاده. وسأجيء أنا مع ستافروجين. وإذ إنني عالم بما أنت عليه الآن من حالة نفسية خاصة، فما كان لي أن أجرَّك حتماً إلى هذه السهرة... تحاشياً لتعذيبك بطبيعة الحال، لا خوفاً من وشاية منك. ولكن الظرف يوجب أن تحضر الاجتماع قطعاً. ستجد هناك أشخاصاً نتفق معهم اتفاقاً نهائياً على الطريقة التي يجب أن تخرج بها من الجمعية، وتعطيهم الأشياء المختلفة المودعة عندك. سنرتب الأمر خفيةً: أقودك إلى ركن من الأركان، وهناك يتم كل شيء، لأن عدد الحضور سيكون كبيراً، ولا داعي لأن يطلع الجميع على المسألة. لا أكتمك أنني تعبت كثيراً في الدفاع عنك. ولكنهم الآن موافقون فيما يبدو لي. على شرط أن ترد المطبعة وجميع الأوراق طبعاً. وبعد ذلك تكون حراً طليقاً، وتمضي إلى حيث تشاء.

كان شاتوف يصغي إليه مغتاظ الهيئة مقطب الحاجبين. إن خوفه العصبي الذي رأيناه فيه منذ قليل قد بارحه الآن تماماً. قال شاتوف بلهجة قاطعة:

ـ أنا لا أعدّ نفسي ملزماً بتقديم حساب لأي شيطان! لست في حاجة لأن تُردَّ إليَّ حريتي، فأنا حر.

ـ لا تملك كل الحرية. لقد عُهد إليك بأشياء كثيرة. وليس من حقك أن تترك دون أن تبلغ أحداً ما عزمت عليه. ثم إنك لم تفصح عما بنفسك إفصاحاً واضحاً حول هذا الموضوع في يوم من الأيام، فجعلتنا في حيرة من أمرنا.

ـ منذ وصولي بعثت رسالةً واضحة كل الوضوح.

أجابه بطرس ستيفانوفتش بهدوء:

ـ لا، لم تكن رسالة واضحة البتة. مثال ذلك أنني بعثت إليك قصيدة "البطل" لتطبعها هنا، ولتحتفظ بالنسخ إلى أن تُطلب منك، وكذلك بعثت

إليك نشرتين ثوريتين. فرددت هذا كله مع رسالة مشتبهة لا تعني شيئاً على وجه الإجمال.

ـ بل أعلنت صراحة أنني أرفض أن أطبع.

ـ نعم، ولكن جوابك لم يكن واضحاً. لقد كتبت تقول: "لا أستطيع" وهذا لا يعني أبداً: "لا أريد". لقد أمكننا أن نفترض أنك ترفض بسبب بعض الظروف المادية. هكذا فُهم جوابك، واستُنتج منه أنك ما تزال عضواً في الجمعية. لقد عهدوا إليك بأشياء، فأصبحوا بذلك معرَّضين للخطر. هم يقولون هنا إنك إنما أردت أن تخدعهم لتحصل على بعض المعلومات الهامة ثم تشي بهم. وقد دافعت عنك بكل بما أوتيت من قوة، وأطلعتهم على جوابك الذي يتألف من سطرين، كوثيقة تبرئك. ولكنني إذ أعدت قراءة هذه الرسالة اضطررت أن أعترف أنا نفسي بأنها لم تكن واضحة، وبأنها يمكن أن توقع في الخطأ.

ـ هل حرصت إذن على الاحتفاظ برسالتي؟

ـ فيم يضيرك هذا؟ إنها ما تزال معي.

صاح شاتوف غاضباً:

ـ هنيئاً لكم بها! ليكن ما يكون! إذا كان أصحابك الأغبياء هؤلاء يتصورون أنني وشيت بهم، فليس يهمني ما يتخيلون! وددت لو أعرف ما الذي يمكنكم أن تصنعوه بي!

ـ يمكن أن تُراقب، وأن تشنق عند أول نجاح تحققه الثورة.

ـ أي حين تستولون على السلطة وتسيطرون على روسيا؟

ـ لا تضحك. أعود فأقول لك إنني دافعت عنك. مهما يكن من أمر، فإنني أنصحك بأن تأتي هذا المساء. علام هذه الأقوال التي لا طائل تحتها، وفي هذا الزهو الزائف والعجب الباطل؟ أليس الأفضل أن تنفصل على مودة وصداقة؟ ينبغي لك على كل حال أن تَرُدّ إليهم المطبعة والأحرف، وكذلك الأوراق القديمة. على هذا إنما سنتفق.

جمجم شاتوف قائلاً:

ـ سأجيء.

كان خافض الرأس، شارد الذهن، حالم الهيئة. وكان بطرس ستيفانوفتش يتفحصه من مكانه خلسة.

وقال شاتوف فجأةً يسأل وهو يرفع رأسه:

ـ هل سيحضر ستافروجين؟

ـ نعم، قطعاً.

ـ هيه، هيه!...

وصمت الرجلان من جديد. وابتسم شاتوف ابتسامة فيها مرارة واشمئزاز.

ـ وهل طُبعت أخيراً قصيدتك الدنيئة "البطل" التي رفضت أن أطبعها؟

ـ نعم.

ـ وهل يؤكدون لطلاب المدارس الثانوية أن هرتسن نفسه هو الذي كتبها في دفترك.

ـ نعم، هرتسن نفسه.

ساد صمت جديد دام ثلاث دقائق. ونهض شاتوف أخيراً وقال:

ـ اخرج من هنا. لا أريد أن أبقى معك.

فسرعان ما نهض بطرس ستيفانوفتش وقال بما يشبه المرح:

ـ ها أنا ذا أنصرف. كلمة أخيرة: هل كيريلوف وحيد تماماً في جناحه الآن بغير خادمة؟

ـ نعم، وحيد تماماً. هيَّا انصرف. إنني لا أطيق أن أبقى معك في غرفة واحدة.

حدّث بطرس ستيفانوفتش نفسه قائلاً حين أصبح في الشارع: "ها أنت ذا في أحسن حالة. وفي هذا المساء ستكون على ما أحب لك أن تكون. ما كان يمكن أن أتمنى خيراً من هذا. نعم، ما كان يمكن أن أتمنى خيراً من هذا. إن الإله الروسي نفسه قد أرسلك عوناً لي".

7

لا شك أنه تحرك كثيراً في ذلك اليوم، ولا شك أن مساعيه لم تخل من نجاح إذا صدق ما كان يعبر عنه وجهه من بهجة منتشرة على أساريره حين

وصل إلى عند ستافروجين في الساعة السادسة تماماً من المساء. إلّا أنهم لم يدخلوه على الشاب فوراً، فستافروجين كان منذ برهة قصيرة قد خلا إلى مافريكي نيقولايفتش في حجرة عمله. ولقد سبَّب هذا النبأ لبطرس ستيفانوفتش شيئاً من انشغال البال. وها هو ذا يجلس قرب باب الحجرة منتظراً خروج الزائر. كان يسمع الحديث ولكنه لا يميز الأقوال. ولم تدم زيارة مافريكي نيقولايفتش مدة طويلة. فإن فرخوفنسكي لم يلبث أن سمع صيحات قوية، ثم سرعان ما فُتح الباب وخرج الضابط شاحب الوجه ممتقع اللون، حتى إنه لم يلاحظ بطرس ستيفانوفتش، ومرَّ مسرعاً. فهرع بطرس ستيفانوفتش إلى حجرة ستافروجين فوراً.

لا أملك أن أعفي نفسي من أن أصف هنا، على وجه التفصيل، اللقاء الذي تم بين "الخصمين المتنافسين"، وهو لقاء بدا أنه لا بد أن يكون مستحيلاً بسبب الظروف القائمة، ولكنه تم مع ذلك.

إليكم كيف جرت الأمور: كان نيقولاي فسيفولودوفتش غافياً غفواً خفيفاً على ديوانه بعد الغداء، حين جاء ألكسي إيجورتش يعلن له عن زيارة مافريكي نيقولايفتش. فلما سمع ستافروجين هذا الاسم هبّ واقفاً على حين فجأة، وكأنه لم يصدِّق أذنيه. غير ان ابتسامةً لم تلبث أن ظهرت على شفتيه، ابتسامة فيها معنى الزهو بالانتصار، ولكن فيها معنى الدهشة المرتابة في آن واحد. ولا شك أن مافريكي نيقولايفتش الذي دخل في تلك اللحظة، قد خطفت تلك الابتسامة بصره، لأنه توقف في وسط الغرفة فجأة، وكأنه كان يتساءل أليس الأفضل أن يرجع أدراجه. ولكن ستافروجين قد أسرع يبدِّل تعبير وجهه أثناء ذلك، وها هو ذا يتقدم بضع خطوات للقاء الزائر ويمد إليه يده، وفي هيئته دهشة صادقة. غير أن مافريكي نيقولايفتش لم يتناول اليد الممدودة، وأسرع يأخذ كرسياً بحركة خرقاء، ويجلس أمام رب الدار دون أن يقول كلمة، ودون أن ينتظر أن يدعوه رب الدار إلى الجلوس.

جلس نيقولاي فسيفولودوفتش على الديوان مواربا، ونظر إلى الزائر بانتباه، وانتظر صامتاً.

قال مافريكي نيقولايفتش فجأة:

ـ تزوج ليزافتا نيقولايفنا إذا شئت.

وأغرب ما في الأمر أنه كان يستحيل على المرء أن يدرك من لهجته هل عبارته تلك رجاءٌ أم هي نصيحة، أم هي تنازل، أم أمرٌ يأمره به.

لبث نيقولاي فسيفولودوفتش صامتاً. لكن الزائر وقد عبَّر تعبيراً واضحاً عن الهدف من زيارته كان يحدق إليه بنظرة ثابتة، وينتظر جوابه.

قال ستافروجين أخيراً:

ـ إذا لم أخطئ، وما أنا بمخطئ حتماً، فإن ليزافتا نيقولايفنا خطيبتك.

أجاب الزائر مؤيداً بصوت واضح ثابت:

ـ نعم، نحن مخطوبان رسمياً.

ـ هل... تشاجرتما؟ معذرة يا مافريكي نيقولايفتش.

ـ لا! إنها "تحبني"، وهي "تقدرني". هذه أقوالها هي نفسها. وأقوالها أثمن شيء عندي.

ـ طبعاً.

ـ ألا فاعلم مع ذلك أنها إذا ناديتها أنت أثناء قيام الكاهن بمراسم زواجنا في الكنيسة أمام الهيكل وهي واضعة حجابها على وجهها، فسوف تبادر إلى تركي أنا والآخرين في سبيل أن تلبي نداءك وتتبع خطاك!

ـ حتى في لحظة الزواج؟

ـ حتى في لحظة الزواج.

ـ ألست تخطئ الظن والتقدير؟

ـ لا. إنها تحت الكره المستمر الصادق العميق الذي تحمله لك ينفجر في قلبها الحب في كل لحظة... وينفجر الجنون... أصدق الحب وأوسعه... والجنون! وبالعكس: تحت الحب الذي تحمله لي يتفجر الكره، يتفجر كره فظيع رهيب. ما كان لي أن أتخيل في يوم من الأيام قبل الآن حدوث تحولات كهذه التحولات... أو انقلابات كهذه الانقلابات!...

ـ يدهشني مع ذلك أنك خطيب ليزافتا نيقولايفنا والحال ما وصفت! هل لك حق في ذلك؟ هل أجازته هي لك؟

اكفهر وجه مافريكي نيقولا يفتش وخفض رأسه.

وقال أخيراً:

ـ إنك تنطق بأقوال لا داعي إليها ولا جدوى فيها. إنك تنتقم وتنتصر. أنا على يقين من أنك تقرأ بين السطور. هل هنا مجال لزهوٍ كهذا الزهو؟ ألست راضياً كل الرضى، مرتاحاً كل الارتياح؟ هل يُعقل أن أظل مضطراً إلى وضع النقاط على الحروف؟ أن أكون ما أزال محتاجاً إلى توضيح الأمور؟ طيب! ليكن! سوف أضع النقاط على الحروف إذا كنت تريد إذلالي. ليس لي أي حق، ولم أحصل على أية إجازة. إن ليزافنا نيقولايفنا ليست على علم بشيء، وقد فقد خطيبها كل شعاع من عقل وأصبح مهيأً لدخول مستشفى من مستشفيات المجانين. وأعجب ما في الأمر أنه يجيئك هو نفسه ليعلن لك ذلك. إنك الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يجعلها سعيدة، في هذا العالم، وليس هناك إلّا رجل واحد يستطيع أن يجعلها شقية: وهذا الرجل هو أنا. إنك تكافح في سبيل الظفر بها، وتعذبها وتضطهدها، ولكنك ـ وهذا ما لا أدري سببه ـ لا تتزوجها. إذا كان الأمر بينكما لا يعدو أن يكون أمر اختصام حبيبين قام بينهما في الخارج، وإذا كان يجب عليَّ في سبيل إنهاء هذا الاختصام أن أضحّي بنفسي فأنا مستعد للقيام بهذه التضحية. ليست أقوالي هذه إجازة ولا أمراً. فما ينبغي أن يُجرح من هذا شعورك، ولا أن تُمسَّ كبرياؤك. إذا أردت أن تحل محلي أمام الهيكل في الكنيسة ففي وسعك أن تفعل ذلك ولا تحتاج لأن أجيزه لك، وما كانت بي حاجة طبعاً إلى أن أعرض جنوني. لا سيما وأن زواجنا، بعد هذه الخطوة التي قمت بها، قد أصبح مستحيلاً. لا أستطيع الآن أن آخذها إلى الكنيسة للزواج: فوجودي هنا، وكوني جئتك متنازلاً لك عن خطيبتي، جئتك أنت عدوَّها، هما في نظري دناءة لن أستطيع احتمالها طبعاً.

ـ هل تنتحر حين نُزوَّج؟

ـ لا! ولكن أنتحر بعد مدة طويلة. لا أريد أن ألطخ بدمي ثوب زفافها. وقد لا أنتحر لا الآن ولا في المستقبل.

ـ أغلب الظن أنك تقول هذا الكلام لتهدئني.

ـ لأهدِّئك؟ وهل يعنيك قليل من الدم زيادةً أو نقصاناً؟

كان شاحب الوجه، وكانت عيناه تسطعان. وران الصمت دقيقة.
استأنف ستافروجين كلامه فقال:
- اعذرني إذا أنا سألتك. إن هناك أسئلةً لا يحق لي حتى أن ألقيها عليك. غير أن بين تلك الأسئلة سؤالاً يخيَّل إليَّ أنه يجوز لي إلقاؤه. قل لي: ما الذي حضَّك على الاعتقاد بعواطفي نحو ليزافتا نيقولايفنا؟ على أي أساس أقمت هـذا اليقين الذي أتاح لك أن تجيء إليَّ وتصارحني بما صارحتني به... وأن تجازف فتعرض عليَّ هذا العرض؟
قال مافريكي نيقولايفتش وهو ينتفض دهشةً:
- كيف؟ ألم تحاول أن تخطبها؟ ألا تطمع في زواجها؟ ألا تفكر أنت نفسك في هذا؟
- إنني على وجه العموم لا أستطيع أن أكلِّم أي إنسان عن عواطفي نحو امرأة. معذرة. هذه سمة شاذة من سمات طبيعتي. ولكنني في مقابل ذلك سأقول لك الحقيقة كلها فيما يتعلق بالباقي: إنني متزوج، ويستحيل عليَّ إذن أن أتزوج امرأة أخرى، أو أن أحاول "طلب يد امرأة أخرى".
بلغ مافريكي نيقولايفتش من الذهول أنه ارتمى إلى وراء، وحدَّق إلى وجه ستافروجين بنظرة متجمدة. ثم دمدم يقول بعد برهة:
- تصور أنني لم أكن أتوقع أي شيء من هـذا القبيل بتاتاً. لقد قلتَ منذ حين أنك لست متزوجاً... فصدَّقت أنا أنك لست متزوجاً...
واصفر وجهه اصفراراً رهيباً. وها هو ذا يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية على حين فجأة، ويقول:
- بعد اعتراف كهذا الاعتراف، إن لم تدع ليزافتا نيقولايفنا وشأنها هادئة البال فإنك تشقيها، ولأضربنَّك عندئذ بالعصا كما يُضرب كلب.
قال ذلك ونهض واثباً وأسرع يخرج من الغرفة.
وهُرع بطرس ستيفانوفتش يدخل على رب الدار، فوجده في حالة نفسية لم يكن يدور في خلده أن يجده عليها.
قال ستافروجين وهو يضحك ضحكاً صاخباً مجلجلاً يبدو أن دخول بطرس ستيفانوفتش متعجلاً مستطلعاً عجيب الهيئة هو الذي أطلقه فيه:

ـ آ.. هـذا أنـت! أكنـت تتنصت على البـاب؟ انتظر! لمـاذا كان عليك أن تجيء؟ أظن أنني كنت قد وعدتك بشيء ما... آ... نعم... تذكرت: سنذهب إلى "جماعتنا"! أنا سـعيد بوصولك! لا تستطيع أن تتخيل شيئاً جاء في محله كوصولك الآن.

وتناول قبعته، وانصرفا فوراً.

قال بطرس ستيفانوفتش مرحاً:

ـ إنك تضحك سلفاً من فكرة رؤية "جماعتنا".

وكان بطـرس سـتيفانوفتش يحـاول تـارة أن يمشـي إلـى جانـب رفيقـه علـى رصيـف الآجـر الضيق، وتـارة يركض علـى وحل أرض الشـارع، لأن ستافروجين لم يلاحظ البتة أنه كان يسير في وسط الرصيف فيملؤه كله.

أجاب ستافروجين يقول بصوت رنان فرح:

ـ أنا لا أضحك بتاتاً بالعكس: إنني مقتنع بأنهم جميعاً أناس جادون.

ـ مـا هـم إلّا "أغبياء متجهّمون"، كما تفضلـت فوصفتهم بهذا في يوم من الأيام.

ـ لا شيء أدعى إلى التسلية أحياناً من رؤية "أغبياء متجهّمين"!

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ آ... لا شك أنك تفكر في مافريكي نيقولايفتش. أنا واثق بأنه جاء يعرض عليك أن يتنازل لك عن خطيبته، هه؟ تصور أنني أنا الذي حضضته على هذا حضاً غير مباشر! وإذا رفض أن يتنازل عنها، فسنأخذها منه أخذاً، هه؟

كان بطـرس سـتيفانوفتش يعـرف حتمـاً مـا يخاطر بـه حين يتكلـم بهذه اللهجة. ولكنه حين يكون في حالة من الاهتياج الشديد يؤثر أن يجازف بكل شيء على أن يظل في حالة بلبلة ليس فيها يقين.

اكتفى ستافروجين بأن ضحك. وسأله:

ـ أما تزال منتوياً أن تساعدني؟

ـ نعم، إذا ناديتني، ولكن هل تعلم أن هناك وسيلة أخرى، أفضل كثيراً؟

ـ أعرف هذه الوسيلة.

ـ لا. إن الأمر ما يزال سراً. ولكن لا تنس أن هذا السر يكلف مالاً.

ـ أعرف مبلغ المال اللازم!

كذلك قال ستافروجين، ولكنه سيطر على نفسه وصمت.

سأله بطرس ستيفانوفتش وقد قلق فجأة:

ـ كم؟ ماذا قلت؟

ـ قلت: اذهب إلى الشيطان، أنت وسرُّك! الأفضل أن تقول لي الآن: من هم الذين سنلقاهم هناك؟ أنا أعلم أن الأمر أمر احتفال بعيد فرجنسكي، ولكن من هم المدعوون إلى الحفلة؟

ـ أنواع شتى! وسيكون هناك كيريلوف أيضاً.

ـ جميع أعضاء فئتك؟

ـ هوه! أرى أنك متعجل كثيراً. إننا لم نكوِّن هنا فئة واحدة حتى الآن!

ـ فماذا فعلت إذن حتى استطعت أن توزع ذلك العدد الكبير كله من النشرات التحريضية؟

ـ في المكان الذي نذهب إليه لا يوجد إلّا أربعة أعضاء منتسبون. أمَّا الآخرون فإنهم ينتظرون متجسسين بعضهم على بعض، وينقلون إليَّ كل شيء. أناس مضمونون. تلك كلها مواد يجب تنظيمها، ثم تجري الأمور. ثم إنك أنت الذي وضعت النظم التي يجب اتباعها، فما حاجتي إلى شرح هذا لك؟

ـ والأمور لا تجري؟

ـ بل تجري! لا يمكن أن تجري خيراً من ذلك! سوف أضحكك: إن أحسن وسيلة للتأثير إنما هي الزي الرسمي الموحَّد. لا شيء أقوى أثراً من الزي الرسمي الموحّد. لذلك أوجدت طائفة كبيرة من الألقاب والوظائف: إنني أنشئ سكرتيرين، ومفوّضين سريين، وأمناء صندوق، ورؤساء، ومسجلين، ومساعدين للمسجلين. ذلك كله يرضي كثيراً، ويحدث في النفوس أثراً كبيراً. ثم هنالك الناحية العاطفية طبعاً. إن الفضل في نجاح الاشتراكية يرجع أكثره إلى الناحية العاطفية. وإنما البلاء أن المرء يقع أحياناً على ضباط صغار حانقين مسعورين ما يلبثون أن يعضوا. وهناك أيضاً أناس ليسوا إلّا أوغاداً. هم رجال شجعان على وجه الإجمال، رجال يمكن الانتفاع بهم كثيراً. غير

أن المرء يضيع معهم وقتاً طويلاً، لأن عليه أن يراقبهم عن كثب. والقوة الرئيسية أخيراً، أو قل الأسمنت الذي يربط كل شيء ويشد بعضه إلى بعض، إنما هو الخوف من رأي الآخرين. هذه قوة حقاً! إنني لأتساءل أحياناً عمن يجب أن نشكر له أنه برع تلك البراعة كلها في أنه جعل الناس لا يملك واحد عنهم فكرة شخصية. لكأنهم يستحبون أن يفكروا لأنفسهم بأنفسهم.

ـ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تحمِّل نفسك هذا العناء كله؟

ـ كيف لا تستفيد من هذا الظرف؟ كيف لا تستولي على من يمد إليك ذراعيه؟ أأنت لا تؤمن حقاً بالنجاح؟ الإيمان موجود، لكن ما نفتقر إليه إنما هو إرادة العمل. ومع أمثال هؤلاء الناس إنما يكون النجاح ممكناً. أقول لك: إنهم مستعدون لأن يلقوا أنفسهم في النار إذا لزم الأمر. يكفيني من أجل ذلك أن آخذ عليهم فتور اعتقاداتهم. إن البلهاء يعيبون عليَّ أنني خدعت جميع الناس حين تكلمت عن اللجنة المركزية، و "تشعباتها التي لا نهاية لها". أنت نفسك لمتني على هذا في ذات يوم. والواقع إنني لم أخدع أحداً: إن اللجنة المركزية هي أنت وأنا. وأمَّا تشعباتها فسوف يكون لنا منها القدر الذي نشاء.

ـ ولا أحد غير الرعاع؟

ـ هؤلاء مواد. سوف يكونون نافعين في شيء ما.

ـ وما تزال تعتمد عليَّ؟

ـ أنت زعيم. أنت قوة. أنا أقف في ظلك. أنا سكرتيرك.

إننا نبحر على ظهر سفينة، مجاديفها من قبقب، وأشرعتها من حرير، وفي مؤخرتها تتربع ليزافتا نيقولايفنا الجميلة[1]... أوه! نسيت الأغنية!...

قال ستافروجين ضاحكاً:

ـ ها هو ذا ينسى بقية القصة. سأحكي لك حكاية أخرى. لقد أتيت منذ هنيهة على تعداد القوى التي تملكها وتتصرف فيها. صحيح أن الوظيفية والعاطفية هما إسمنت ممتاز حقاً. غير أن هناك ما هو خير من هذا: ادفع أربعة من أعضاء فئتك إلى قتل خامسهم بحجة أنه يخونهم أو يتجسس

---

(1) هذا تذكر لأغنية شعبية تصور زعيم ثورة 1667، ستيفان رازين، مبحراً في نهر الفولجا مع فتاة جميلة جالسة على حافة سفينته.

عليهم أو يشي بهم، فإن هؤلاء الأربعة ما إن يشتركوا معاً في سفك دم حتى يرتبطوا ارتباطاً قوياً، فيصبحوا عبيداً لك، لن يجسروا بعد ذلك أن يتمردوا، أو أن يحاسبوا. هأ هأ هأ!...

قال بطرس ستيفانوفتش يحدث نفسه: "أنت... أنت ستدفع ثمن هذا. بل ستدفعه في هذا المساء نفسه. إنك تجيز لنفسك أشياء كثيرة مرنة في الكثرة!..".

في هذا أو في ما يشبهه إنما فكر بطرس ستيفانوفتش. وكانا قد اقتربا من دار فرجنسكي.

سأله ستافروجين قائلاً:

ـ أغلب الظن أنك قدمتني بصفتي عضواً في اللجنة المركزية آتياً من بطرسبرج، أو مفتشاً على صلة بالأممية[1]، أليس كذلك؟

فأجاب بطرس ستيفانوفتش بقوله:

ـ لا، لم أقدِّمك مفتشاً. لست أنت المفتش. وإنما أنت أحد الأعضاء المؤسسين، وأنت على علم بأهم أسرار التنظيم. ذلك هو دورك. سوف تتحدث حتماً، أليس كذلك؟

ـ من زعم لك هذا؟

ـ أنت الآن ملزم بالتحدث.

وقف ستافروجين مدهوشاً في وسط الشارع، غير بعيد عن أحد المصابيح. ولبث بطرس ستيفانوفتش ينظر إليه وفي وجهه تحدٍ. فبصق ستافروجين وتابع طريقه. ثم سأل صاحبه:

ـ وأنت هل ستتحدث؟

ـ لا بل أكتفي بالإصغاء إليك.

ـ شيطان يأخذك! ولكن اسمع... إنك توحي إليَّ في الواقع بفكرة...

أسرع بطرس ستيفانوفتش يسأله:

ـ ما هي هذه الفكرة؟

---

(1) "الأممية" أو "الانترناسيونال": معروف أنه كان في ذلك الأوان أمميتان اثنتان إحداهما هي "الرابطة الأممية للعمال" التي أسسها كارل ماركس في لندن سنة 1864، والثانية هي "الرابطة الديموقراطية الاشتراكية" التي أنشأها باكونين في جنيف. ولقد كان نشايف على صلة بالثانية.

ـ جائز جداً أن أتحدث هناك. ثم أهوي عليك بضرب مبرِّح!
ـ بالمناسبة، لقد نقلت إلى كارمازينوف منذ قليل أنك قلت إن من الواجب أن يُجلد... لا جلداً شكلياً فحسب، بل جلداً حقيقياً كما يُجلد فلاح!
ـ لكنني لم أقل هذا الكلام في لحظة من اللحظات.
ـ سيان... "إذا لم يكن هذا واقعاً، فهو خيال جميل."[1]. (باللاتينية).
ـ طيب... شكراً! أنا ممتن أعظم الامتنان.
ـ هل تعرف ماذا يقول كارمازينوف؟ يقول إن عقيدتنا في الواقع تنفي الشرف، وإن خير وسيلة لإغراء الروس وجرِّهم إنما هي الدعوة الصريحة إلى حق المرء في إنكار الشرف.
صاح ستافروجين قائلاً:
ـ كلمات رائعة! كلمات من ذهب! لقد وضع إصبعه على الحقيقة! الحق في إنكار الشرف! جميع الناس سيجيئون إلينا. لن يشاء أحد أن يبقى في الخلف! ولكن ألا يمكن أن تكون فرداً من أفراد من الشرطة السرية يا فرخوفنسكي؟
ـ حين يكون في رأس المرء أفكار كهذه، فإنه يحاذر أن يعلنها...
ـ صحيح. ولكننا نتكلم الآن على انفراد لا يسمعنا أحد.
ـ لا، لست من الشرطة السرية بعد. ولكن كفى! لقد وصلنا. اصطنع السحنة المناسبة للظروف يا ستافروجين. إنني دائماً أفتعل هيئة خاصة حين أدخل عليهم. يكفي أن تتخذ هيئة مظلمة. ذلك كل شيء، ليس الأمر أصعب من هذا.

---

(1) "إذا لم يكن هذا واقعاً فهو خيال جميل": من الأمثال السائرة الإيطالية.

شخصيات الرواية

أركل

ضابط، عضو في الجمعية السرية الثورية

آرينا بروخورفنا

راجع اسم فرجنسكي

ألكسي إيجورتش أو إيجوروفتش

خادم فرفارا بتروفنا، ومحل ثقتها

ألكسي نيليتش

راجع اسم كيريلوف

ليزافتا نيقولايفنا

راجع اسم لوشين

آندره أنطونوفتش

راجع اسم لمبكة

إيفان أوسيبوفتش

حاكم المقاطعة السابقة. قريب فرفارا بتروفنا ستافروجين.

باشكا

تصغير اسم بافل فيدوروفتش

بتروشكا

تصغير اسم بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي

براسكوفيا إيفانوفنا

راجع اسم دروزدوف.

بطرس ستيفانوفتش

ويرد اسمه مصغراً: بتروشكا

راجع اسم فرخوفنسكي

بلومر (فون بلومر)

سكرتير الحاكم آندره انطونوفتش فون لمبكة، ومحل ثقته.

تلياتنيكوف (أليوشا تلياتنيكوف)

سكرتير الحاكم السابق إيفان أوسيبوفتش

توشين

هي إليزافتا أو ليزافتا نيقولايفنا توشين. ويرد اسمها مصغراً ليزا، ولدت لبراسكوفيا إيفانوفنا من زوجها الأول الكابتن لوشين. خطيبة مافريكي نيقولايفتش.

تولكاتشنكو

مستخدم في السكك الحديدية. عضو الجمعية السرية الثورية.

تيخون

أسقف معتزل في دير. يتلقى اعتراف نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين.

جاجانوف (آرتيمي بافلوفتش جاجانوف).

كابتن متقاعد. ابن بافل بافلوفتش جاجانوف، رجل عجوز ممن يحيطون بستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي

جـ... ف (أنطون لافرنتيتفتش)

القاص. صديق ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي

جوليا ميخائيلوفنا

راجع اسم لمبكة

داريا بافلوفنا

ويرد اسمها مصغراً: داشا، داشكا

راجع اسم شاتوف.

داشا، داشكا

تصغير اسم داريا بافلوفنا

دروزدوف (براسكوفيا إيفانوفنا دروزدوف)

أرملة الكابتن توشين، ثم الجنرال إيفان إيفانوفتش دروزدوف، صديقة آل ستافروجين. أم إليزافتا نيقولايفنا توشين.

ستازيا

تصغير اسم ناستاسيا

ستافروجين (فرفارا بتروفنا ستافروجين)

مالكة أطيان، غنية، أرملة الجنرال. أم نيقولاي فسيفولودفتش (نيقولنكا)، الضابط سابقاً، المنتمي إلى الجماعة الثورية. متزوج سراً من تيموفئيفنا لبيادكين.

ستيفان تروفيموفتش

راجع اسم فرخوفنسكي

سيميون إيجورفتش

راجع اسم كارمازينوف

سيميون ياكوفلفتش

"مجذوب" ينسبون إليه مواهب نبوءة.

شاتوف (إيفان شاتوف)

طالب، عضو سابق في الجمعية السرية الثورية. ابن القن بافل فيدوروفتش (باشكا) الذي كان خادم آل ستافروجين. زوج ماريا أجناتيفنا، وأخو داريا بافلوفنا (داشا، داشكا). ربيب فرفارا بتروفنا ستافروجين.

شيجاليوف

أخو آرينا بروخورفنا فرجنسكي. عضو في الجمعية السرية الثورية.

صوفيا ماتفيفنا أوليتينا

بائعة متجولة، رفيقة سفر ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي

فرجنسكي

دوستويفسكي

الشياطين

ضللنا الطريق فما عسانا فاعلين؟

الشيطان يجرّنا هنا وهناك

ويديرنا إلى كل الجهات

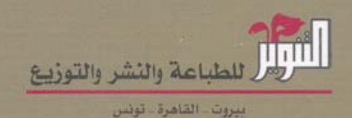
بهذه الأبيات من بوشكين، وبمقطع من انجيل لوقا عن الشياطين التي دخلت في الخنازير يفتتح دوستويفسكي روايته التي يعطيها عنوان "الشياطين".

أما الشياطين فهم أولئك الذين يتصارعون على روسيا وليس من أجلها.

في العام 1871 نشر دوستويفسكي الجزء الأول من روايته هذه، وتلك المرحلة كانت مرحلة الانقسامات والأفكار المتصارعة، حيث تنمو أفكار الاشتراكية، والأفكار التي تدعو إلى التحرّر من سلطة الكنيسة، وحيث سلطة الدولة تبدو أضعف، وروسيا ترى نفسها أقل من ألمانيا وبقية أوروبا.

عبر نماذج يختارها دوستويفسكي بعناية، من المجتمع الروسي، وهي نماذج لشخصيات حقيقية في جزء كبير منها ، يقدّم لنا صورة عن المجتمع الروسي في تلك الأيام، وعن النقاشات الواسعة التي كانت تدور حول الأفكار الجديدة، وحول رغبة رؤية روسيا في مصاف الدول الأكثر تحضّراً، وحول حياة الشعب الروسي. وتشكّل المناقشات حول القضايا الأدبية وحول الدين والايمان، وحول الخير والشرّ، والارستقراطية، والديمقراطية، وحرية التفكير، والصراع بين العلم والدين... الخلفية التي يبني عليها دوستويفسكي نماذج شخصياته.


ISBN 978-9938-886-52-8



للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس

دوستويفسكي

الشياطين

المجلد الثاني



ترجمة: د. سامي الدروبي

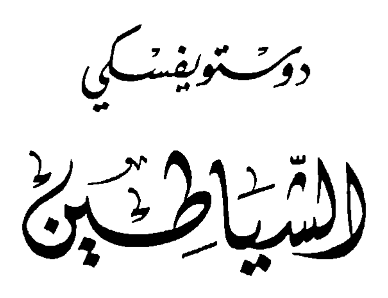
دوستويفسكي

الشياطين

ترجمة : د. سامي الدروبي

المجلد الثاني





المجلد الثاني

الكتاب: الشياطين/ المجلد الثاني
المؤلف: دوستويفسكي
ترجمة: د. سامي الدروبي
عدد الصفحات: 416 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-886-53-5
رقم الناشر: 14/439-61

الطبعة الأولى: 2014

الناشر:

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340
بريد إلكتروني: beirut@dar-altanweer.com
مصر: القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225
فاكس: 0020227738932
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

الفصل السابع
عند جماعتنا

1

إنّ الدار التي يسكنها فرجنسكي في شارع النملة تملكها زوجته. هي مبنى من خشب لا يشتمل إلّا على طابق واحد. فليس هناك مستأجرون. وقد دعا فرجنسكي نحو خمسة عشر شخصاً بحجة الحفلة. ولكن هذا الاجتماع لا يشبه في شيء السهرات التي تقام في هذه المناسبات بالأقاليم. لقد اتفق الزوجان مرة واحدة إلى الأبد، منذ بداية حياتهما الزوجية، على أن الاحتفال بأعياد الميلاد أمر سخيف، "إذ لا شيء يبعث على البهجة". وقد استطاعا في بضع سنين أن ينعزلا انعزالاً تاماً عن كل مجتمع. وأصبح الناس يعدّونه، رغم أنه رجل موهوب ورغم أنه ينعم ببعض الثراء، أصبحوا يعدّونه امرءاً شاذاً يحب العزلة، وقالوا عنه، عدا ذلك، إنه "يعبِّر عن نفسه بتكبر". أما السيدة فرجنسكي التي كانت تمارس مهنة التوليد، فإنها بسبب هذه المهنة كانت توضع في أدنى درجات السلم الاجتماعي، رغم المنصب الذي يشغله زوجها في الإدارة. غير أنها كانت لا تتصف بالمذلة التي تناسب وضعها، وقد أصبحت سيداتنا جميعهن منذ أن انعقدت تلك العلاقة الحمقاء النكراء بين السيدة فرجنسكي والكابتن لبيادكين، وهي علاقة حرصت السيدة فرجنسكي على أن تعلنها في كل مكان تقيداً بالمبدأ، أقول أصبحت سيداتنا جميعهن، حتى أكثرهن تسامحاً، يشحن عنها وجوههن ويدرن لها ظهورهن باحتقار واضح، غير أن السيدة فرجنسكي رضيت هذا كأنه هو بعينه ما كانت

تنشده وتسعى إليه. ومع ذلك كانت هذه السيدات القاسيات تستنجدن، في اللحظات الهامة، بآرينا بروخوروفنا (أي السيدة فرجنسكي)، ما وسعهن أن يفعلن هذا، ويؤثرنها على المولدات الثلاث الأخريات بالمدينة. وكانت نساء مالكي الأراضي في المنطقة تعتمدن على خدمات السيدة فرجنسكي في كثير من الأحيان أيضاً. فإلى هذا الحد كانت الثقة كبيرة بعلمها وحظّها في الحالات الصعبة. وقد أصبحت في النهاية لا تمارس المهنة إلّا من أجل الأثرياء، لأنها كانت تحب الربح حباً شديداً. وكانت تشعر شعوراً كاملاً بما لها من سلطان، فهي لا تتحرّج أي تحرج، وهي ترخي العنان لطبيعتها حراً طليقاً. فإذا كانت تقوم بواجبات مهنتها في أحسن البيوت، روَّعت النساء التي تولِّدهنّ، وربما روَّعتهن عن عمد، مظهرةً أشد الاحتقار للمواضعات الاجتماعية، أو مستهزئة "بأقدس" الأمور، وذلك حتى في اللحظة التي يمكن أن تكون فيها هذه "الأمور المقدسة" أنفع ما تكون. لقد روى أحد أطبائنا، وهو نفسه مولِّد، أن امرأة من النساء اللواتي تولِّدهن، جاءها المخاض يوماً، فكانت تعاني آلاماً شديدة، فذكرت اسم الله العلي القدير، فما كان من آرينا بروخوروفنا إلّا أن أطلقت مزحة متحلّلة على حين فجأة، فنزلت المزحة على المرأة المسكينة نزول الصاعقة، وأحدثت فيها من الروع والهول ما عجَّل خلاصها تعجيلاً كبيراً. على أن السيدة فرجنسكي، رغم أنها عدمية المذهب، تتقيد بأكثر العادات الاجتماعية بلَى حين يكون في ذلك نفع لها. من ذلك أنها لا تعفي نفسها أبداً من حضور حفلة تعميد الطفل الذي وُلّد على يديها، وهي ترتدي لهذه المناسبات ثوباً من حرير أخضر طويل الذيل، وتعقد شعرها في مؤخرة الرأس كعكةً معقدة ذات ضفائر وجدائل، بينما هي في العادة تستطيب إهمال هندامها. ومع أنها طوال مدة الاحتفال الديني تصطنع وضعاً وقحاً يستثير رجال الدين، فإنها متى انتهى الاحتفال الديني تحرص على أن تقدم الشمبانيا للمدعوين بنفسها (وهي لهذا الغرض إنما جاءت وتزينت)، وويلٌ لمن ينسى، حين يقبل الكأس، أن ينفح المولِّدة "بالهدية الصغيرة"...

إن المدعوين الذين كانوا في ذلك المساء عند فرجنسكي (وأكثرهم رجال) يتظاهرون بأنهم اجتمعوا عرضاً ومصادفة. لم يكن ثمة عشاء ولا موائد للعب. غير أن مائدتين مغطاتين بغطاء غير نظيف جداً كانتا قد ضُمّتا إحداهما إلى الأخرى في وسط الصالون المفروشة جدرانه بورق أزرق قديم، وعليهما سماوران يغلي ماؤهما إلى جانب صينية كبيرة محمَّلة خمساً وعشرين كأساً وسلةً ملأى بقطع من خبز أبيض كالذي يُقدَّم في المدارس الداخلية للبنات أو البنين. وكانت أخت ربة الدار هي التي تصبّ الشاي، وهي عانس في نحو الثلاثين من العمر ليس لها حاجبان، و شعرها مصفرٌّ اللون، إنسانة صموت لا تتكلم، ولا تضمر لأحد حباً، تعتنق الأفكار الجديدة، ويخشاها فرجنسكي نفسه في سرِّه. لم يكن في الصالون من النساء إلّا ثلاث: السيدة فرجنسكي، أختها، و أخت السيد فرجنسكي التي وصلت من بطرسبرج منذ هنيهة ولم يتسع وقتها بعدُ حتى لتغيير ملابسها.

إن آرينا بروخوروفنا، المشعَّثة الشعر، التي ترتدي ثوباً من صوف ضارب اللون إلى الخضرة، سيدة مهيبة المظهر، غير دميمة، عمرها سبعة وعشرون عاماً. إنها تتأمل المدعوِّين بعينيها الجريئتين وكأن نظرتها تقول: "أترون؟ لست أخشى أحداً". أما الآنسة فرجنسكي، أخت السيدة فرجنسكي، وهي طالبة تؤمن بالمذهب العدمي، فإنها فتاة قصيرة سمينة حمراء الخدين ليست بالدميمة أيضاً. و لقد جلست إلى جانب آرينا بروخوروفنا، وجعلت تُجيل على الحضور نظرة قلقة نافذة الصبر، وفي يدها لفافة ورق. وكان فرجنسكي نفسه يعاني من ألم في ذلك المساء. ومع ذلك جلس على مقعد أمام المائدة. وكان جميع الحضور جالسين. فإذا نظر الناظر إلى الطريقة التي صُفَّت بها المقاعد أدرك أن الأمر أمر اجتماع (جلسة). و لكن كان واضحاً مع ذلك أن المجتمعين ينتظرون شيئاً ما، فهم من أجل مخادعة الانتظار إنما يسترسلون في محادثات صاخبة وإن تكن تافهة. حتى إذا دخل ستافروجين وفروخوفنسكي صمتوا جميعاً على حين فجأة.

ولكن يجب عليَّ أن أتوقّف هنا لأقدّم بعض الإيضاحات.

أظـن أن هـؤلاء الناس، وقد أُبلغوا من قبل، إنمـا اجتمعوا على أملٍ ممتع هو أن يعلموا ببعض الأمور الهامة. إنهم يمثلون زهرة الراديكالية الحمراء في مدينتنا القديمة، وقد كانت عناية فرجنسـكي باختيارهم لهذه "الجلسة" عناية كبيـرة. يجـب أن أقول أيضاً إن عدداً منهم (هو قلـة على كل حال) لم يكونوا قـد جاؤوا قبـل ذلك اليوم إلى عند فرجنسـكي. وكان واضحـاً أن أكثرهم لا يـدرك هدف الاجتمـاع إدراكاً واضحاً. غير أنهم جميعـاً ينظرون إلى بطرس ستيفانوفتش علـى أنـه رسـولٌ وفد من الخـارج مـزوَّداً بسـلطات كاملة. إن هـذه الفكـرة التي ترضـي غرورهم طبعاً كانت قد رسـخت في نفوسـهم منذ البداية. ومع ذلك كان بعضهم قد تلقى تعليمات محدَّدة من قبل. فإن بطرس ستيفانوفتش قد استطاع في الواقع أن يشـكِّل عندنا خلية من "خمسة"، على غـرار مـا فعل في موسـكو، وعلى غـرار ما فعل أيضـاً في جيـش إقليمنا كما عُلـم فيما بعد. ويظهر أنه أنشـأ خليـة رابعة في ولاية س... فهؤلاء الخمسـة "المختـارون" كانـوا يجلسـون في ذلك الاجتمـاع إلى المائدة المشـتركة، ويجيـدون اصطنـاع هيئة أناس عاديين فـلا يحزر المرء دورهـم. لقد عُرفت الآن أسـماؤهم فليسـت سـراً: إنهم ليبوتين، وفرجنسكي، وشـيجالوف (ذو الأذنين الطويلتين، وهو شـقيق السيدة فرجنسكي) وليامشين، ورجل يقال له تولكاتشـنكو، وهو إنسـان عجيب في نحو الأربعين من العمر يقال إنه يعرف الشـعب معرفـة رائعة، ولا سـيما قطاع الطريـق واللصـوص، ويواظب على التردد إلى الحانات (لا بهدف دراسة الشعب فقط) ويفتخر بملابسه الغليظة، وحذاءيـه المطليين بالقطـران، وهيئته الماكرة، وكلامه الشـعبي العامي. لقد سبق أن اصطحبه ليامشين في الماضي إلى سهرات ستيفان تروفيموفتش مرةً أو مرتيـن، فلـم يحدث فـي الحضور كبير أثـر. ولقد كان يعمل في السـكك الحديديـة، ويظهـر في مدينتنـا من حين إلى حين، حين يصبـح بغير عمل في العمادة. إن هؤلاء الأشـخاص الخمسة قد شـكلوا أول خلية، مقتنعين بأنهم ليسـوا إلّا خلية واحدة بين مئات الخلايا وألوف الخلايا المنتشـرة في روسيا كلهـا والمرتبطة جميعها بلجنة مركزية، قوية سـرية، مرتبطـة أوثق الارتباط،

أيضاً، بسائر الحركة الثورية في أوروبا. يجب عليَّ أن أعترف مع ذلك آسفاً بأن هناك خلافاً قد بدأ يظهر بينهم. لقد كانوا منذ الربيع يعوِّلون على وصول بطرس ستيفانوفتش الذي أبلغهم عن وصول تولكاتشنكو أولاً وشيجالوف بعد ذلك؛ ورغم أنهم توقعوا منه أشياء خارقة وانتظموا تلبيةً لأول نداء صدر عنه من دون أن يبدوا أي اعتراض، فإنهم ما إن تشكلت حلقتهم حتى شعروا جميعاً بأنهم قد أهينوا وأُسيء إليهم، وأغلب ظني أن مردَّ ذلك إلى شعورهم بأنهم تعجلوا في الموافقة. ولا شك أنهم إنما لبوا نداء فرخوفنسكي خشية أن لا يُتهموا بعد ذلك بأنهم جبنوا. ولكن في وسع بطرس ستيفانوفتش، في ما يبدو لهم، أن يعترف لهم ببطولتهم، فيفضي إليهم بسرٍ خطير ما. وذلك ما لم يفعله فرخوفنسكي. فإنه لم يخطر بباله أن يرضي رغبتهم المشروعة هذه في الاطلاع، فلم يفض إليهم بأي سر. وكان على وجه العموم يعاملهم بصرامة قصوى، بل يعاملهم معاملة لا تخلو من الاحتقار. فكان ذلك يثير حنقهم، حتى لقد كان شيجالوف يحض الآخرين على "المطالبة بإيضاحات". ولكن لا الآن طبعاً، لا عند فرجنسكي حيث يضم الحفل كثيراً من الغرباء.

وعلى ذكر "الغرباء" يجب أن أشير إلى فكرة تراودني، هي أن أعضاء الحلقة كانوا ميالين في ذلك المساء إلى الاعتقاد بأن مدعوي فرجنسكي لا بد أن يكون بينهم أفراد منضمون إلى حلقات أخرى مجهولةٍ عندهم لكنها تنتمي إلى نفس التنظيم وقد شكلها فرخوفنسكي أيضاً، بحيث إن جميع الحضور كان يشتبه بعضهم في بعض ويمثِّل بعضهم على بعض، وذلك أمر يضفي على الاجتماع طابعاً عجيباً، روائياً إن صح التعبير. على أن هناك أيضاً أشخاصاً لا يمكن الاشتباه فيهم. من ذلك أن ضابطاً برتبة ميجر، وهو قريب فرجنسكي، ولا شأن له بهذه الأمور البتة، ولا دُعي إلى الحفلة، كان جاء من تلقاء نفسه ليعبِّر للسيد فرجنسكي عن تمنياته بمناسبة عيد ميلاده. و كان يستحيل طبعاً أن يُرفض استقباله. ثم إن فرجنسكي لم يكن قلقاً من هذه الناحية، لأن الميجر "عاجز عن الوشاية"، ذلك أنه، رغم غبائه، كان طوال حياته يحب أن يتردّد على أشد البيئات الراديكالية تطرفاً، لا لأنه كان يشاركها

آراءها، بل لأنه كان يستمتع بالإصغاء إلى أحاديثها. ثم إنه هو نفسه قد تعرض للخطر. فحين كان شاباً، وقعت في يده حزمٌ من منشوراتٍ تحريضية، وأعدادٌ من جريدة "الناقوس"، فرأى أن من الجبن أن يرفض توزيعها، رغم أنه لم يجرؤ أن يفضها. إننا لا نزال نلقى في روسيا أناساً كثيرين من هذا النوع. و كان باقي المدعوين يمثِّلون إما نموذج الشخص الجريح الكرامة، الحانق الحاقد، وإما نموذج الشاب الذي تشتعل نفسه حماسة وسماحة. وكان هناك اثنان أو ثلاثة من أساتذة المدارس الثانوية، أحدهم أعرج في الخامسة والأربعين من العمر، وهو رجل شرِّير شديد الغرور، وكان هناك بضعة ضباط منهم واحد من سلاح المدفعية متخرج من المدرسة الحربية حديثاً، وهو فتى صموت كان لا يعرف بعدُ أحداً، و كان يمسك بيده قلماً، وما ينفك يدوِّن في دفتره من دون أن يشترك في الحديث. ولقد لاحظه الجميع، ولكنهم تظاهروا بأنهم لا يرون شيئاً، وكان بين الحضور أيضاً ذلك الطالب المتشرّد الذي ساعد ليامشين على دسِّ صورٍ خليعة في حِمْل بائعة الأناجيل المتجولة، وهو شاب مديد القامة ضخم الجسم، تتصف حركاته بقلة الاكتراث وشدة الحذر في آن واحد، وتتميز ابتسامته بالسخر دائماً، ويبدو عليه أنه واثق بنفسه كل الثقة، راضٍ عنها كل الرضى. و كان ابن عمدتنا حاضراً كذلك (وهو الفتى الفاسق الذي أتيح لي أن أتكلم عنه بمناسبة المغامرة التي وقعت لامرأة الليوتنانت الشابة)، ولا أدري لمَ كان حاضراً. إنه لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال السهرة. يجب أن أذكر أيضاً أن الحفل قد ضمَّ كذلك تلميذاً من تلاميذ المدارس الثانوية عمره ثمانية عشر عاماً، وهو ولد مشعث الهيئة شديد الحماسة مظلم الوجه كان يبدو عليه أنه يضيق ذرعاً بصغر سنه ويشعر من ذلك بجرح في كرامته. إن هذا الصبي هو منذ الآن زعيم جماعة من المتآمرين جنَّدهم من بين تلاميذ الصف الأعلى، كما عُلم ذلك في ما بعد على دهشة من الناس جميعاً. لم أقل حتى الآن شيئاً عن شاتوف: لقد كان جالساً على أحد أطراف المائدة، متقهقراً قليلاً عن الآخرين، مطرقاً إلى الأرض، صامتاً، مكفهر الوجه. وقد رفض الشاي

والخبز، ولم يترك قبعته لحظةً كأنما هو يريد أن يُظهر أنه إنما جاء لعمل، ولم يجئ مدعواً، وأنه سينصرف متى شاء. وغيرَ بعيد عنه كان يجلس كيريلوف. وكان صامتاً هو الآخر، ولكنه لم يكن خافض العينين. بالعكس: كان يجيل نظرته الثابتة الكابية بانتباه على كل من يأخذ زمام الكلام، ويصغي إلى جميع الناس من دون أية دهشة. وكان الذين لم يسبق أن رأوه ينظرون إليه خلسةً شاردي اللب.

هل كانت السيدة فرجنسكي على علم بوجود "الخمسة"؟ لا أدري على وجه اليقين. ولكن من حق المرء أن يخمِّن أن زوجها قد أطلعها على كل شيء. أما الطالبة فكان واضحاً أنها لا تعرف السر. ثم إن لها مشاغلها الخاصة على كل حال: كانت لا تنوي أن تمكث عندنا إلّا يوماً أو يومين، لتطوف بعد ذلك على جميع المدن الجامعية "بغية أن تعرف عن كثب آلام الطلاب الأشقياء و أن تحضّهم على الاحتجاج". وهي تحمل عدة مئات من نسخ منشورٍ مطبوع على الحجر كانت قد كتبته هي نفسها في ما يخيَّل إليَّ. شيء غريب: إن التلميذ و الطالبة، رغم أنهما يلتقيان هنا أول مرة، قد شعر كل منهما نحو الآخر بكره فظيع. يحسن أن نشير إلى أن الميجر هو عمُّ الفتاة، وأنه يراها الآن عند آل فرجنسكي بعد فراقٍ دام عشر سنين. وحين دخل ستافروجين وفرخوفنسكي إلى الصالون كان خداها حمراوين كالجمر: ذلك أنها كانت قد تشاجرت منذ هنيهة مع عمها حول "قضية المرأة".

2

تهالك فرخوفنسكي على كرسي من الكراسي بإهمال ملحوظ، تقريباً من دون أن يحيي أحداً. كانت هيئته تعبر عن الاشمئزاز، وتكاد تعبر عن الاستعلاء. أما ستافروجين فقد سلَّم على الحفل بأدب. ولم يكن أحد غيرهما ينتظر، ومع ذلك اصطنع الجميع، بما يشبه التواطؤ والاتفاق، هيئة من لا يلاحظهما. وما إن جلس ستافروجين حتى سألته السيدة فرجنسكي بلهجة قاسية:

ـ ستافروجين، هل تريد شاياً؟
فأجاب ستافروجين قائلاً:
ـ أتمنى.
فأمرت السيدة فرجنسكي أختها بقولها:
ـ صُبِّي شاياً لستافروجين.
ثم اتجهت إلى فرخوفنسكي فسألته:
ـ وأنت هل تريد شاياً؟
فأجابها فرخوفنسكي:
ـ طبعاً. من يلقي على ضيوفه مثل هذه الأسئلة؟ واعطيني حليباً أيضاً: فإن مذاق الشاي عندك كمذاق دواء، وأنتم تحتفلون اليوم بعيد ميلاد.
ـ ما هذا، أتراك من أنصار الاحتفال بالأعياد. لقد تناقشنا في هذا الأمر منذ برهة.
كذلك قالت الطالبة ضاحكة.
فدمدم التلميذ يقول في الطرف الآخر من المائدة:
ـ كلام قديم!
فانبرت الطالبة تردُّ عليه قائلةً وهي تضرب على كرسيها:
ـ كلام قديم؟ إن محاربة الأوهام الاجتماعية، حتى البريئة منها، لا يمكن أن تكون كلاماً قديماً بحال من الأحوال. بالعكس: هي جديدة دائماً بكل أسف.
ثم أضافت تقول مستدركة:
ـ هذا عدا أنه ليس هناك أوهام اجتماعية بريئة غير ضارة.
فصاح التلميذ يقول مضطرباً أشد الاضطراب:
ـ كل ما أردت أن أقوله هو أن الأوهام الاجتماعية أمور بالية تجب محاربتها طبعاً، ولكن في ما يتعلق بالأدعياء فإن جميع الناس يعرفون أنها سخافات تافهة، وأنه ليس يجدينا أن نضيِّع في الكلام عليها وقتاً ثميناً وما أكثر ما يبدده الناس كافة! فالأفضل أن ينفق المرء وقته في أمور نافعة..

هتفت الطالبة تقول:

ـ إنك تسهب في الكلام وتطنب، ولا يفهم المرء عنك شيئاً.

قال التلميذ:

ـ يخيَّـل إليَّ أن من حق كل إنسـان أن يتكلم، وإنني إذا أردت أن أعبِّر عن رأيي كما يعبر عن رأيه أي إنسان آخر...

فقاطعته ربة البيت قائلة على حين فجأة بشراسة:

ـ لا أحـد يحرمك من حـق الكلام. كل ما هنالك أنه يُطلب أن توجز، لأن أحداً لا يفهم عنك.

قال التلميذ مدمدماً وقد أوشك أن يهوي إلى قاع الكمد واليأس:

ـ اسمحي لي أن ألفت نظرك مع ذلك إلى أنك لا تعاملينني باحترام كافٍ. وإذا لم أكمل عرض رأيي، فليس يرجع ذلك إلى أنني تعوزني الأفكار، وإنما يرجع إلى أنني أملك أفكاراً كثيرة، مسرفة في الكثرة.

ثم أمسك عن الكلام وقد ارتج عليه وارتبك أشد الارتباك.

قالت الطالبة:

ـ إذا كنت لا تحسن التعبير عما بنفسك فخير لك أن تصمت.

فوثب التلميذ عن كرسيه، وصاح يقول وقد أحمر خجلاً وخشي أن ينظر في ما حوله:

ـ أردت أن أقول أنك إنما حاولت أن تلمعي لأن السيد ستافروجين دخل. هذا ما أردت أن أقوله!

فهتفت الطالبة تقول:

ـ أفكارك وسـخة، لا أخلاقية، تدل على ضحالة فكرك! أرجوك ألا توجِّه إليَّ الكلام بعد الآن.

قالت ربة الدار:

حيـن دخلت يا سـتافروجين كان أحدهم ينادي بحقوق الأسـرة: هو هذا الضابط الذي ترى (قالت ذلك وأشارت إلى قريبها الميجر). طبعاً، لست أنا من سـأصدِّع رؤوسـكم وأضجركم بهذه الترهات السخيفة التي سوِّي أمرها

منذ مدة طويلة. ولكن من أين نشأت هذه الحقوق العائلية وهذه الواجبات العائلية التي اتخذت صورة أوهام اجتماعية راهنة. هذا هو السؤال. ما رأيك؟

سألها ستافروجين:

ـ ماذا تعنين بقولك: "من أين نشأت؟".

فتدخلت الطالبة تقول وهي تلتهم ستافروجين بعينيها التهاماً إن صح التعبير:

ـ نحن نعلم مثلاً أن وهم وجود الله إنما نشأ عن الرعد والبرق. فمن المعروف أن الإنسان البدائي قد ارتاع من الرعد والبرق فعبد العدو الذي لا يُرى، شاعراً أمامه بضعفه. ولكن من أين نشأ وهم الأسرة؟ من أين نشأت الأسرة ذاتها؟

قالت السيدة فرجنسكي محاولةً وقف الطالبة عن الكلام:

ـ ليس هذا هو الأمر تماماً.

قال ستافروجين:

ـ أخشى أن يجيء الجواب على هذا السؤال خالياً من الحشمة.

فصاحت الطالبة متعجبةً و هي تثب عن كرسيها من جديد:

ـ كيف هذا؟

ـ ولكن ضحكات مخنوقة سُمعت آتيةً من جهة فئة الأساتذة، فسرعان ما استجاب لها بالضحك، على الطرف الآخر من المائدة، ليامشين والتلميذ والميجر ذو الصوت الجهير.

فقالت السيدة فرجنسكي لستافروجين معقبةً:

ـ عليك أن تؤلف تمثيليات هزلية.

وأعلنت الفتاة رأيها مستاءةً تقول:

ـ هذا لا يشرِّفك يا سيد... لا أدري ما اسمك...

فجمجم الميجر قائلاً:

ـ وأنت كفِّي عن التحرك والتململ. لكأنك قاعدة على إبرة...

ـ أرجوك أن تسكت و أن تعفيني من أمازيحك و تشبيهاتك الكريهة. إنني

أراك أول مرة، ولا أريد أن أعرف شيئاً عن قرابتنا.

ـ أنا عمك مع ذلك حملتك على ذراعي حين لم تكوني إلّا طفلةً صغيرة.

ـ لا يهمني أن تكون قد حملتني على ذراعيك. لم أطلب منك أن تحملني، وإذا كنت قد حملتني، أيها الضابط قليل الأدب، فلأنك كنت تجد في ذلك لذة لك. واسمح لي أن أنبِّهك إلى أنك لا يجوز لك أن تخاطبني بصيغة المفرد، اللهم إلّا من حيث أنني مواطنة؛ إنني أمنعك من ذلك مرةً واحدة إلى الأبد.

ـ قال الضابط لستافروجين وهو يضرب بقبضته المائدة:

ـ هن جميعاً كذلك! اسمح لي: إنني أحب اللبرالية وأحب جميع الأفكار الحديثة، وأصغي متلذذاً إلى الأفكار الذكية، ولكنني لا أستطيب هذا كله إلّا من الرجال. اعلمْ ذلك. أما من النساء، من هاته الشابات الثرثارات، فلا ثم لا... إن ذلك فوق طاقتي.

ثم قال للفتاة صارخاً وقد أصبحت لا تطيق الاستقرار في مكانها:

ـ لا تتحركي هذا التحرك كله! أنا أيضاً أطلب الكلام. لقد أُهنت!

دمدمت ربة الدار تقول مستاءة:

ـ إنك تمنع الآخرين من الكلام، وأنت نفسك لا تعرف أن تقول شيئاً.

فقال الميجر غاضباً حانقاً وهو يلتفت نحو ستافروجين:

ـ لا، سأقول كل ما في قلبي. إنني لم أشرف بمعرفتك يا سيد ستافروجين، ولكنني أتوجه بالكلام إليك لأنني آخر من دخل. لولا الرجال لهلكت هذه النسوة كالذباب. ذلك هو رأيي. وقضية المرأة كلها ما هي إلّا دليل جديد على نقص أصالتهن. أؤكد لك أن هذه القضية إنما اخترعها الرجال، حماقةً منهم، فجلبوا لأنفسهم الشقاء. الحمد لله على أنني لست متزوجاً! إنهن جميعاً متشابهات متماثلات، ولا يستطعن حتى أن يبتكرْنَ أعمال سيدات. فالرجال هم الذين يبتكرون لهن هذه الأعمال أيضاً. انظر إلى هذه! لقد حملتها على ذراعي. وحين كانت في العاشرة من العمر كنت أرقص معها المازوركا. وها هي ذي اليوم تصل، فأهرع طبعاً إلى تقبيلها، فإذا هي تعلن لي فوراً أن الله

غير موجود. كان في وسعها أن تدع لي فسحةً من الوقت لأُقبِّلها. ولكنها لم تفعل. كانت مستعجلة! صحيح أن الناس الأذكياء أصبحوا لا يؤمنون بوجود الله، وذلك لأنهم أذكياء. أما أنت، أيتها الحمقاء الصغيرة، (كذلك قلتُ لها)، فماذا تعرفين عن الله؟ إن طالباً من الطلاب هو الذي بث فيك هذه العقيدة. فلو علَّمك أن تشعلي مصابيح أمام الأيقونات، لأشعلت مصابيح أمام الأيقونات!

أجابت الطالبة باحتقار، كأنها تتواضع فترضى أن تناقش شخصاً كهذا الشخص مدةً طويلة:

ـ أنت تكذب لا أكثر! وأنت رجل شرير! لقد عرفتُ كيف أبرهن لك منذ قليل على صحة أدلتي. قلت لك إنهم كانوا يعلموننا في دروس الدين ما يلي: "إذا كرَّمت أباك وأقرباءك، فسيوهب لك العمر المديد والثراء الطائل". هذا موجود في الوصايا العشر. فإذا كان الله قد رأى أن من الضروري أن يكافئ على الحب، فمعنى ذلك أن إلهك هذا غير أخلاقي. تلك هي التعابير التي صغت بها برهاني. وأنا لم أسق لك هذا البرهان منذ أول كلمة، وإنما سقته بعد أن زعمتَ أنك تؤكد حقوقك عليَّ. فهل الذنب ذنبي إذا كنت أنت بليد العقل فلم تفهم شيئاً حتى الآن؟ إنك غاضب حانق، وهذه هي الحالة النفسية لجيلكم كله.

قال الميجر:

ـ حمقاء!

فقالت الفتاة:

ـ غبي!

قال الميجر:

ـ هكذا... اشتميني الآن!

قال ليبوتين بصوته الحاد الضئيل:

ـ اسمح لي يا كابيتون مكسيموفتش: ألم تعلن لي أنت نفسك أنك لا تؤمن بالله؟

ـ ومـاذا يعني هذا؟ أنا، شـيء آخر!... ربما كنـت أؤمن، ولكنني لا أؤمن إيماناً كاملاً. ورغم أنني لا أؤمن إيماناً كاملاً فإنني لا أقول بأن علينا أن نطلق على الله رصاص البندقية! حين كنت ما أزال أخدم في سـلاح الفرسان، كان يتفـق لـي كثيـراً أن أفكّر في الله. الشـعراء يسـلّمون بأن الفرسـان لا يزيدون علـى أن يشـربوا ويلهـوا. و لقد كنت أشـرب فعـلاً. ولكن هـل تصدق؟ لقد كان يتفـق لي أن أثب عن سـريري كما أنا، فآخذ أرسـم إشـارة الصليب أمام الأيقونة، وأدعو الله أن يهب لي الإيمان. ذلك أنني حتى في ذلك الحين كان الهدوء لا يجد إلى نفسي سبيلاً، فأنا لا أنفك أتساءل: هل الله موجود أم غير موجـود؟ انظر إلـى أي حدٍ كان الأمـر يعذبني. وكنت في الصبـاح أعود إلى اللهـو والقصف طبعـاً، وكان إيماني يزول فيما يبـدو. وقد لاحظت على كل حال أن الإيمان يضعف في النهار بوجهٍ عام.

سأل فرخوفنسكي ربة الدار وهو يتثاءب:

ـ أليس عندكم ورق للعب؟

فهتفت الطالبة تقول وقد احمر وجهها استياءً من أقوال الميجر:

ـ إنني أؤيد سؤالك كل التأييد.

وقالت السيدة فرجنسكي بخشونة وهي تلقي على زوجها نظرة عتب:

ـ إننا نضيع وقتاً ثميناً في الاستماع إلى أحاديث سخيفة.

فقالت الطالبة وقد نفد صبرها:

ـ كنت أريد أن أشـارك في الجمعية التي تبحث آلام الطلبة واحتجاجهم. أما وأننا نضيع الوقت في أقوال لا أخلاقية...

فأسرع التلميذ يقول:

ـ لا شيء يوصف بأنه أخلاقي أو غير أخلاقي.

فقالت الطالبة:

ـ أعـرف هـذا كل المعرفة يـا حضرة التلميـذ، أعرفه قبـل أن يعلّموك إياه بزمان طويل.

فأجاب الآخر غاضباً:

ـ وأنـا أؤكد أنك لسـت أكثـر من طفلة وصلت من بطرسـبرج لتلقي علينا دروساً، مع أننا نعرف هذه الأمور أحسن مما تعرفينها كثيراً. إن جميع الناس فـي روسـيا يعلمون منذ بيلنسـكي أن الوصيـة القائلة "كرِّم أبـاك وأمك" هي وصية لا أخلاقية. ولكنك لم تعرفي حتى كيف تردديها بنصِّها الصحيح.

سألت السيدة فرجنسكي زوجها حازمةً:

ـ أسوف ينتهي هذا؟

إنها بصفتها ربة الدار كانت تحمر خجلاً من تفاهة هذا الشجار، ولا سيما أنها كانت تلاحظ ابتسـامات و دهشة بعض الأشـخاص الذين يجيئون اليوم أول مرة.

قال فرجنسكي رافعاً صوته:

ـ يا سادة، إذا كان أحد منكم يريد أن يتكلم في موضوع أهم، أو كان لديه ما يقرأه لنا، فإنني أدعوه إلى البدء من دون إضاعة للوقت.

فتدخّـل الأسـتاذ الأعرج الذي ظـلّ إلى ذلك الحين صامتـاً ملتزماً وضع التحفظ، تدخّل فقال بصوت مترفق:

ـ اسـمحوا لي أن ألقي سـؤالاً: أنحن هنا في جلسـة، أم في اجتماع زيارة يضم عدداً من الناس لا أكثر؟ إنني ألقي هذا السـؤال من باب المحافظة على الشكل، وحتى لا أظل في شكٍ وحيرة من أمري.

فأحدث هذا السـؤال "الماكر" أثره: فنظر كل واحد إلى جيرانه كأنه ينتظر منهم جواباً، ثم إذا بجميع الأعين تتجه نحو فرخوفنسكي وستافروجين كأنما ذُكرت كلمة السر.

قال السيد فرجنسكي:

ـ أقترح إجراء تصويت لنعرف أنحن في جلسة أم لا؟

فتدخل ليبوتين فقال:

ـ أضم صوتي إلى هذا الاقتراح، رغم أنه غامضٌ قليلاً.

فانطلقت الأصوات من جميع الجهات تقول:

ـ وأنا أيضاً! وأنا أيضاً!

قال فرجنسكي مؤيداً:
ـ أعتقد فعلاً أن هذا سيدخل على حديثنا شيئاً من النظام.
قالت ربة الدار:
ـ فلنقترع. يا ليامشين اجلس إلى البيانو، أرجوك. في وسعك أن تقترع من هناك حين يجيء الأوان.
هتف ليامشين محتجاً:
ـ كيف؟ أيضاً؟ لقد اصطنعت دور العازف بما فيه الكافية.
ـ أرجو و ألحّ في الرجاء. اجلس و اعزف! أم تراك لا تريد أن تخدم "القضية"؟
ـ أؤكد لك أن أحداً لا يتجسس علينا يا آرينا بروخوروفنا. ذلك منك خيال محض. ثم إن النوافذ عاليةٌ جداً. وحتى لو سمعنا الناس فإنهم لن يفهموا شيئاً.
ـ جمجم أحدهم يقول:
ـ نحن أنفسنا لا نفهم، فكيف يفهم الآخرون؟
قالت آرينا بروخوروفنا تشرح لفرخوفنسكي:
ـ أقول لك إن الحذر لا يكون مفرطاً مهما يكن شديداً. أنا أتخذ هذا الاحتياط على أساس أن من الممكن أن يكون ثمة تجسسٌ علينا فإذا سمع الناس الموسيقى قالوا لأنفسهم أن عندنا حفلة.
قال ليامشين متبرماً:
ـ ليكن ما تريدين.
وجلس إلى البيانو وأخذ يعزف لحن فالس، ضارباً على أصابع البيانو ضربات قوية وكأنه أصم، جارياً في العزف على ما تشاء المصادفة تقريباً.
قالت السيدة فرجنسكي:
ـ الذين من رأيهم أن يكون الاجتماع "جلسة"، عليهم أن يرفعوا أيديهم.
فرفع بعضهم أيديهم، ولم يحرك بعضهم الآخر ساكناً، ورفع بعضٌ ثالث أيديه ثم خفضها ثم رفعها من جديد.

هتف أحد الضباط يقول:
ـ ما هذا؟ لم أفهم شيئاً!
وقال آخر:
ـ أنا أيضاً لم أفهم شيئاً!
وصرخ ثالثٌ قائلاً:
ـ أما أنا فقد فهمت. إذا كان الجواب "نعم"، تُرفع اليد.
ـ ولكن ما معنى "نعم"؟
ـ معناها أن رأيك أن يكون الاجتماع "جلسة".
ـ لا، أبداً، بالعكس!
قال التلميذ مخاطباً السيدة فرجنسكي:
ـ أنا اقترعت مؤيداً فكرة "الجلسة".
ـ فلماذا لم ترفع يدك إذاً؟
ـ لقد نظرت إليك، فرأيت أنك لم ترفعي يدك، فلم أرفع يدي أنا أيضاً.
ـ هذا غباء! أنا لم أرفع يدي لأنني كنت أتولى إجراء الاقتراع.
أيها السادة، سنجري الآن اقتراعاً على العكس: من كان رأيه أن يكون الاجتماع جلسة فليبق ساكناً ولا يرفعْ يده. ومن كان رأيه أن لا يكون الاجتماع جلسةً فليرفع يده اليمنى.
سأل التلميذ:
ـ من كان رأيه أن لا يكون الاجتماع جلسة؟
صرخت السيدة فرجنسكي تقول حانقةً:
ـ أتراك تفعل هذا متعمداً؟
ـ لا، من فضلك! من الذي يجب ألا يرفع يده؟ أهو الذي يريد أن يكون الاجتماع جلسةً أم هو الذي لا يريد ذلك؟ يجب توضيح هذا.
كذلك هتفت بضعة أصوات.
ـ من كان رأيه ألا يكون الاجتماع جلسة.
صرخ ضابط يسأل:

ـ طيب. فماذا يجب عليه أن يفعل؟ أيرفع يده أم لا يرفعها؟

قال الميجر:

ـ هئ هئ! إننا لمّا نتعود على البرلمان بعد!

قال الأستاذ الأعرج:

يا سـيد ليامشـين، معذرة... إنك تحدث من الصخب ما يجعلنا عاجزين عن أن يسمع بعضنا بعضاً ويفهم بعضنا عن بعض.

هتف ليامشين يقول للسيدة فرجنسكي:

ـ أؤكد لك أنه ما من أحد ينصت على النوافذ يا آرينا بروخوروفنا. لا أريد أن أعزف. لقد جئت إليك زائراً لا ضارباً على البيانو!

قال فرجنسكي يسأل الحضور:

ـ أيها السادة أجيبوني ببساطة: أنحن في جلسة أم لا؟

فقالت الأصوات تجيبه من كل جانب:

ـ بلى! بلى!

ـ فإذا كان الأمر كذلك فلا داعي للاقتراع. أأنتم موافقون أيها السادة؟ هل يجب الاقتراع؟

ـ لا، لا داعي إلى الاقتراع، فهمنا!...

ـ هل لأحد رأي مخالف؟

ـ لا، الجميع متفقون!

هنا نادى صوت يقول:

ـ ولكن ما معنى أننا في جلسة؟

لم يجب أحد.

ـ يجب انتخاب رئيس.

ـ هو صاحب الدار طبعاً. هو مضيفنا!

فبدأ فرجنسكي يتكلم فقال:

ـ إذا كان الأمـر كذلك أيها السـادة فإنني أعـود إلى اقتراحي الذي عرضته منذ قليل: من كان عنده ما يقرأه لنا فليتكلم من دون إضاعة للوقت.

خيَّم صمت شامل. والتفتت الأنظار مرة أخرى نحو ستافروجين وفرخوفنسكي.

قالت السيدة فرجنسكي تسأل فرخوفنسكي:

ـ فرخوفنسكي، هل لديك ما تعلنه لنا؟

فأجاب بطرس ستيانوفتش فرخوفنسكي قائلاً وهو يتمطى ويتثاءب تثاؤباً ذا صوت:

ـ لا شيء البتة. و لكنني أريد كأساً من الكونياك.

ـ و أنت يا ستافروجين؟

ـ لا، شكراً، لا أشرب!

ـ أنا سألتك هل تريد أن تتكلم، ولم أسألك عن الكونياك!

ـ أتكلم؟ عمَّ؟ لا.

قالت تخاطب فرخوفنسكي:

ـ سيُؤتى بالكونياك.

نهضت الطالبة لتشرع في الكلام، ولم تكن قد انقطعت عن التحرك والاضطراب على كرسيها:

ـ لقد جئت لأتكلم عن آلام الطلاب التعساء وعن الوسائل التي يجب استعمالها لحملهم على القيام باحتجاج جماعي...

ولكنها لم تلبث أن توقّفت عن الكلام فجأة: فعلى الطرف الآخر من المائدة كان قد وقف منافسٌ سرعان ما جذب إليه جميع الأنظار. إنه شيجالوف المتجهّم المظلم الوجه، وقف ببطء، ووضع على المائدة، بحزن وأسى، دفتراً سميكاً مغطى بكتابة دقيقة. وظل واقفاً لا يتكلم. أخذ بعض الحضور يتأملون الدفتر متعجبين. ولكن ليبوتين وفرجنسكي والأستاذ الأعرج بدا عليهم الرضى الشديد.

قال شيجالوف بلهجة حزينة لكنها جازمة:

ـ أطلب الكلام.

فقال فرجنسكي:

ـ الكلام لك.

فعاد الخطيب يجلس، وانتظر لحظة، ثم شرع يتكلّم بفخامة فقال:

ـ أيها السادة!

ولكن أخت السيدة فرجنسكي قاطعته بخشونة إذ قالت تخاطب فرخوفنسكي:

ـ إليك الكونياك!

ووضعت أمام فرخوفنسكي، وهي تقلب شفتها احتقاراً، زجاجةً وقدحاً جاءته بهما من دون صينية ومن دون صحن.

فتوقف الخطيب عن الكلام بوقار. وصرخ فرخوفنسكي يقول له وهو يصب لنفسه الكونياك:

ـ لا عليك! أكملْ!...

ـ أيها السادة، إنني إذ أسأُلكم الانتباه، وإذ أسأُلكم أيضاً، كما سترون في ما بعد، أن تساهموا معي وأن تساعدوني في هذا العمل الذي له شأن كبير وله خطورة أساسية، يجب عليَّ أن أقدِّم لكم الإيضاحات التمهيدية.

قال بطرس ستيفانوفتش فجأة يسأل السيدة فرجنسكي:

ـ هل عندك مقص يا آرينا بروخوروفنا؟

فسألته هذه محملقةً:

مقص؟ ماذا تريد أن تعمل بالمقص؟

فقال و هو يتفرس بهدوء في أظافره الطويلة السوداء:

نسيت أن أقصَّ أظافري. كان عليَّ أن أقصَّها منذ ثلاثة أيام...

فاحمرت آرينا بروخوروفنا، ولكن الطالبة أعجبها عدم التحرج هذا الذي أظهره فرخوفنسكي، فقالت:

ـ أظن أنني رأيت المقص منذ لحظة على النافذة.

وقامت فجاءت بالمقص ومدَّته إلى فرخوفنسكي، فتناوله منها حتى من دون أن ينظر إليها، وأخذ يرقب بطرس ستيفانوفتش حاسداً كارهاً.

تابع شيجالوف كلامه فقال:

إنني وقد عكفت عكوفاً تاماً على دراسة تنظيم مجتمع المستقبل الذي يجب أن يحل محل مجتمعنا الحالي، وصلت إلى الاقتناع بأن جميع منشئي المذاهب الاجتماعية منذ أقدم العصور إلى أيامنا هذه، إنما كانوا أناساً حالمين ورواة حكايات خرافية، وحمقى، يناقضون أنفسهم ولا يفهمون شيئاً في مجال العلوم الطبيعية، ولا يعرفون شيئاً عن هذا الحيوان الذي يسمى الإنسان. إن أفلاطون وروسو وفوريِه ليسوا إلّا أعمدة من ألومنيوم. إنهم، في أكثر تقدير، يصلحون للعصافير لا للبشر، فلما كانت الأشكال الاجتماعية للمستقبل يجب تحديدها الآن تحديداً دقيقاً بعد أن قررنا جميعاً أن علينا أن ننتقل إلى الفعل بغير تردد، فإنني أعرض مذهبي في تنظيم العالم.

ثم نقر شيجالوف على دفتره وقال:

ـ ها هو ذا. لقد كنت أريد أن أعرض عليكم كتابي بأكبر إيجاز ممكن. لكنني أرى أن عليَّ أن أضيف إليه كثيراً من الإيضاحات الشفوية. لذلك سيحتاج عرضي إلى عشر سهرات على الأقل، تبعاً لعدد فصول الكتاب.

هنا سُمعت بضع ضحكات. و تابع شيجالوف كلامه يقول:

ـ يجب عليَّ، عدا ذلك، أن أنبهكم إلى أن مذهبي لم يكتمل اكتمالاً تاماً... (وهنا انطلقت ضحكات أخرى)... فلقد تهت في شعاب مقدماتي نفسها، وجاءت نتيجتي متناقضة تناقضاً مباشراً مع الفكرة الأساسية التي يقوم عليها المذهب. إنني وقد انطلقت من فكرة الحرية التي ليس لها حدود قد انتهيت إلى فكرة الاستبداد الذي ليس له حدود. ولكنني أضيف إلى ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك حل آخر للمشكلة الاجتماعية غير الحلْ الذي خلصت إليه.

ازدادت الضحكات. ولكن الشبان فقط هم الذين كانوا يضحكون، أعني الأغرار الذين ليس لهم سابق دراية إن صح التعبير. أما السيدة فرجنسكي وليبوتين والأستاذ الأعرج، فقد كانت وجوههم تعبِّر عن شيء من الأسف والغضب.

قال أحد الضباط يسأله محاذراً:

ـ إذا لـم تسـتطع أنت نفسـك أن تكمل مذهبك، وإذا كنـت قد هويت من ذلك إلى اليأس، فماذا نستطيع أن نفعل نحن؟

فأجابه شيجالوف يقول بلهجةٍ قاطعة:

ـ إنـك علـى حق أيها الضابط، ولا سـيما باسـتعمالك كلمـة اليأس هذه. نعـم، لقـد حوصرت باليأس. ومـع ذلك يسـتحيل على المرء أن يقول شـيئاً آخـر غيـر الذي قلتـه في كتابي. ليس هنـاك أي مخرج غير هـذا المخرج. لن يعثـر أحد على غير هذا أبداً. لذلك أسـارع فأدعـو الحضور، من دون إضاعة للوقت، إلى سـماع قراءة كتابي خلال عشـر سهرات، وإلى أن يقولوا لي بعد ذلك رأيهم. فإذا رفضتم أن تصغوا إليَّ، فلا يبقى علينا بعد ذلك إلّا أن نفترق، فيعـود الرجال إلـى مكاتبهم، وتعود النسـاء إلى مطابخهن. لأنكـم إذا نبذتم مذهبي فلن تجدوا حلاً آخر، لن تجدوا أي حل آخر. سـتضيعون وقتكم، ثم تجدون أنفسكم مضطرين حتماً أن تعودوا إلى مذهبي.

أخذ الحضور يتحركون. وسألت بعض الأصوات: "أهو مجنون؟".

قال ليامشين ملخصاً:

ـ الموضـوع إذًا هو على وجه الإجمال موضوع يأس شـيجالوف: أيجب عليه أن ييأس أم لا؟

فقال التلميذ:

ـ إن يأس شيجالوف مسألة شخصية.

فانطلق ضابط يقول مرحاً:

ـ أقتـرح أن نجـري اقتراعاً لنعرف هل ليأس شـيجالوف قيمة عامة، وهل يستحق كتابه عناء الاستماع إليه!

فتدخل الأستاذ الأعرج فقال:

ـ ليس هذا هو الأمر...

إن للأستاذ الأعرج في العادة ابتسامةً خفيفة ساخرة، فلا يعرف المرء أهو مازح في كلامه أم هو جاد.

وتابع الأستاذ الأعرج يقول:

ـ لا يا سادة، ليس هذا هو الأمر. إن السيد شيجالوف قد أسرف في التفرغ لأداء مهمته، ثم هو عدا ذلك مسرف في التواضع. إنني أعرف كتابه. إنه من أجل أن يحل المسألة الاجتماعية حلاً نهائياً، يقترح تقسيم الإنسانية قسمين غير متساويين. فعُشْرٌ ينال الحرية المطلقة وينال سلطةً بغير حدود على تسعة الأعشار الأخرى، و تسعةُ أعشار يجب عليهم أن يفقدوا شخصيتهم وأن يصبحوا أشبه بقطيع، فإذا ظلوا خاضعين خضوعاً تاماً بغير حدود أمكنهم أن يصلوا شيئاً فشيئاً بعد سلسلة من التحولات إلى حالة البراءة البدائية، إلى شيء يشبه جنة عدن الأولى، مع بقائهم مضطرين إلى العمل. والإجراءات التي ينادي بها المؤلف ليجرِّد تسعة أعشار الإنسانية من إرادتهم وليحوِّلهم إلى قطيع بواسطة التربية، إنما هي إجراءات ممتازة إلى أبعد الحدود. إنها قائمة على حقائق العلوم الطبيعية، وإنها لمنطقية تماماً. قد لا يسلِّم المرء ببعض النتائج التي ينتهي إليها، ولكن من المستحيل على المرء أن ينكر ذكاء المؤلف وأن يجحد معارفه. وإنه لمن المؤسف حقاً أن لا نستطيع، بسبب الظروف، أن نوافق له على السهرات العشر التي يطلبها، وإلا لكنا سمعنا كثيراً من الأمور الشائقة الهامة حتماً.

قالت السيدة فرجنسكي تسأل الأستاذ الأعرج بشيء من القلق:

ـ هل يمكن أن تنظر نظرة جد إلى هذا الرجل الذي لم يعرف ماذا يصنع بالإنسانية فردَّ تسعة أعشارها إلى العبودية؟ إنني قد اشتبهت في الأمر منذ مدةٍ طويلة.

فسألها الأعرج:

ـ أأخاك تعنين؟

ـ مرةً أخرى، روابط الدم! أأنت تسخر مني؟

قالت الطالبة مستاءةً:

ـ إنه لجبن أن نعمل في سبيل الأرستقراطيين وأن نخضع لهم خضوع الآلهة!

قال شيجالوف يختم الكلام بلهجة السلطة:

ـ إن مـا اقترحتـه ليـس جبنًا، وإنمـا هو الجنـة، الجنة الأرضيـة، ولا جنة سواها.

هتف ليامشين يقول:

ـ أما أنا فإنني إذا لم أعرف ماذا أصنع بتسعة أعشار الإنسانية، عمدت إلى نسفهم بدلاً من أن أنظم الجنة الأرضية، و لم أبق على قيد الحياة إلّا عدداً من الناس المتعلمين الذين سوف يعيشون في دعة وسلام وفقاً لمبادئ العلم.

قالت الفتاة محتجة:

ـ يجب أن يكون المرء مهرِّجاً حتى يقول هذا الكلام!

فهمست السيدة فرجنسكي تقول لها:

هو مهرِّجٌ فعلاً، ولكنه نافع.

وتدخل شيجالوف يقول متلفتاً نحو ليامشين بقوة:

ـ قـد يكـون هذا هو الحل الأمثل للمشـكلة. إنك تجهل حتماً، يا سـيدي المـازح، إنك قد قلت الآن شـيئاً عميقاً كل العمق، ولكـن لما كانت فكرتك مسـتحيلة التحقيق تقريباً، فلا بد من الاكتفاء بالجنة الأرضية ما دام يجب أن نسميها بهذا الاسم.

فأفلت من لسان فرخوفنسكي قوله:

ما هذه السخافات!

لقد قال فرخوفنسكي هذا الكلام بما يشبه الغفلة، من دون أن يرفع رأسه، وكان لا يزال يقلِّم أظافره بكثير من عدم الاكتراث.

فسرعان ما تدخّل الأعرج، وكأنه كان لا ينتظر إلّا اللحظة المواتية ليهاجم بطرس ستيفانوفتش، تدخّل فقال:

ـ لمـاذا سـخافات؟ صحيح أن حب شـيجالوف للإنسـانية فيه شـيء من التعصـب. ولكـن تذكـر أن فورييه، ولا سـيما كابيـه، وحتى بـرودون، كانوا أنصاراً لبعض الحلول الاسـتبدادية الشديدة، وكانوا يبدون من النظرة الأولى خياليين. بل لعل السـيد شـيجالوف أقرب منهم إلى التعقـل والتروي. أؤكد لكم أنه يكاد يسـتحيل على المرء بعد قراءة كتابه ألّا يسلِّم ببعض أفكاره. إنه

ربما كان أقل ابتعاداً عن الواقعية من الآخرين؛ وتكاد جنته الأرضية أن تكون هي الجنة الحقيقية، الجنة التي يتوق إليها البشر بعد أن فقدوها، إذا صدق أن تلك الجنة قد وُجدت حقاً في يوم من الأيام.

جمجم فرخوفنسكي يقول مرةً أخرى:

ـ كنت أتنبأ فعلاً بأن أسمع كلاماً من هذا النوع.

قال الأعرج وقد ازداد غضبه استعاراً:

ـ اسمح لي! إن الكلام على تنظيم المجتمع المقبل والنقاش حوله يكادان أن يكونا الآن ضرورةً لجميع الناس الذين يفكرون. إن هرتسن لم يهتم طوال حياته إلّا بهذا. وأنا أعلم من مصدر ثقة أن بيلنسكي كان يقضي سهرات كاملة في المناقشة مع أصدقائه حول المسألة الاجتماعية محدِّداً أدق تفاصيل المجتمع المقبل.

قال الميجر:

ـ بل هناك أشخاص أصبحوا من ذلك مجانين!

وتشجع ليبوتين فتجرأ أن ينتقل إلى الهجوم فقال:

ـ حين يناقش المرء فإنه قد يصل إلى نتيجة ما، وهذا خير دائماً من أن يلتزم الصمت مصطنعاً وضع دكتاتور.

فقال فرخوفنسكي من دون اكتراث:

ـ أنا حين قلت: "هذه سخافات"، لم أقصد شيجالوف البتة.

ثم أضاف يقول وهو يرفع عينيه قليلاً:

ـ اسمعوا أيها السادة، في رأيي أنا أن جميع هذه الكتب، وفورييه، وكابيه، و"حق العمل"، وأفكار شيجالوف، في رأيي أن هذا كله يشبه ألوف الروايات التي تصدر كل يوم: تسلية فنية! وأنا أفهم أن تضجروا في هذه المدينة، فتأخذوا بتسويد ورق.

استأنف الأعرج كلامه فقال وهو يتحرك مضطرباً على كرسيه:

ـ من فضلك! ما نحن إلّا ريفيون فعلاً، ونحن إذًا نستحق الشفقة. ولكننا نعرف أنه لم يحدث بعد في هذا العالم شيء خطير كل الخطورة، فلا داعي

إذًا لأن نشكو الجهل وأن نرثو لحال أنفسنا. إن هناك منشورات من أصل أجنبي تدعونا أن نضم جهودنا لتحطيم كل شيء، إذ مهما نفعل في سبيل شفاء المجتمع، فلن نصل إلى شفائه يوماً، على حين أننا بقطع رقاب مائة مليون نبسِّط الموقف ونجعل اجتياز الهوة أضمن. هذه فكرة ممتازة حقاً، ولكنها لا تقل استحالة على التحقيق عن فكرة شيجالوف التي تعاملها بكل هذا الاحتقار.

أفلت لسان بطرس ستيفانوفتش فقال وهو يقرِّب الشمعة كأنه لا يشعر بالغلطة التي يرتكبها:

ـ هذا كله حسن جداً، ولكنني لم أجئ إلى هنا من أجل أن أناقش...

ـ إنه لما يدعو إلى الأسف، إلى الأسف الشديد، أنك لم تجئ إلى هنا من أجل أن تناقش. وإنها لخسارةٌ حقاً أن تكون الآن مستغرقاً هذا الاستغراق كله في العناية بزينتك!

ـ ما شأنك وزينتي؟

قال ليبوتين مجازفاً من جديد:

ـ إن تغيير العالم بقطع مائة مليون رقبة لا يقل صعوبة عن تغيير العالم بالدعاية. وقد تكون الطريقة الأولى أصعب، ولا سيما في روسيا.

وقال ضابط:

ـ إن جميع الآمال معقودة الآن على روسيا.

فأجاب الأعرج:

ـ نعم، يظهر أنهم يعقدون على روسيا آمالاً كبيرة. نحن نعلم أن إصبعاً سريةً قد أشارت إلى وطننا الحبيب وعدَّته أقدر جميع بلدان العالم على تحقيق هذا العمل العظيم. ولكن إليكم ما أريد أن ألفت إليه الانتباه: إذا حُلَّت المشكلة الاجتماعية تدريجياً بالدعاية، فإنني أظل أربح شيئاً ما: أربح أولاً إمكان التمتع بالثرثرة، وأربح ثانياً المكافأة التي تعطيني إياها الحكومة المقبلة اعترافاً بالخدمات التي أكون قد قدمتها للقضية الاجتماعية. أما إذا حُلَّت المشكلة حلاً فورياً، أي إذا قطعت مائة مليون رقبة، فما الذي يمكن

أن أربحـه أنا؟ إن المرء حين يدعو إلى مثل هذه العقائد يعرِّض لسـانه لخطر القطع.

قال فرخوفنسكي:

ـ سيقطع لسانك أنت حتماً.

ـ أرأيت إذًا؟ ولما كنت لا تستطيع، في أحسن الظروف، أن تفرغ من هذه المذبحة في أقل من خمسين سنة، أو في أقل من ثلاثين سنة، لأنك لن تذبح خرافـاً، ولأن من الممكـن أن لا تمكِّنك الضحايا من ذبحها، أفليس الأفضل إذًا أن يطـوي المرء أمتعته وأن يهاجر إلى مكان بعيد في جزيرة هادئة فيقضي هنـاك بقية أيامه هادئـاً؟ صدِّقني إذا قلت لك إن دعايتك هذه لن تزيد على أن تشجع الناس على المهاجرة.

قال الأعرج هذه الجملة الأخيرة وهو ينقر على الطاولة بإصبعه.

لقـد انتصـر. إنه أحـد الرؤوس القويـة في الإقليـم. وكان ليبوتين يبتسـم وقـد بانت في وجهـه معانٍ مفهومة. وكان فرجنسـكي يبـدو مصعوقاً. وكان الآخرون يتابعون المناقشـة باهتمام شـديد، ولا سـيما السـيدات والضباط. أدرك الجميـع أن صاحـب فكـرة المائة مليون من الروس قـد أُحرج وغُلب، فهم ينتظرون النهاية.

قـال فرخوفنسـكي مدمدماً بلهجـة فيها مزيد من عدم الاكتـراث، بل فيها كذلك شيء من الضجر:

ـ يجب أن أعترف بأنك قد قلت الآن فكرةً صحيحة، إن فكرة الهجرة فكرة ممتـازة. ومع ذلك، رغم المحاذير الواضحـة التي ذكرتها، فإن الجنود الذين يعتنقـون عقيدتنـا وينضمون إلى قضيتنا يزداد عددهم يوماً بعد يوم. وسـوف نسـتغني عنك. إن الأمر أمر دينٍ جديد يجب أن يحل محل الدين القديـم. إن الأمـر أمر قضية خطيـرة، لذلك يزداد عدد جنودنا. أما أنـت فما عليك إلّا أن تهاجر. وأنا أنصحك بأن لا تهاجر إلى جزيرة هادئة من الجزر، بل إلى مدينة درسـدن. أولاً لأن هـذه المدينة لم تعرف الأوبئـة يوماً، فأنت لا بد أن تخاف المـوت حتمـاً من حيـث أنك رجلٌ مثقف. وثانياً لأن مدينة درسـدن ليسـت

بعيدة عن الحدود الروسية، فيسهل إرسال إيراداتك إليها من وطنك الحبيب. وثالثاً لأن هذه المدينة ملأى بما يسمى كنوز الفن، وأنت رجل فنان، لأنك كنت أستاذاً للأدب فيما أظن. ورابعاً وأخيراً لأن هذه المدينة صورة مصغَّرة عن سويسرا: فهذا يفيدك في استنزال الوحي الشعري، لأنك تنظم شعراً ولا شك. الخلاصة: كنز كبير في علبة صغيرة.

قامت حركات شتى. الضباط يضطربون على كراسيهم. لو انقضت دقيقة واحدة أخرى لأخذ الجميع يتكلمون في آن واحد معاً. ولكن الأعرج انقضَّ على الطُعْم. قال:

ـ لا، قد لا نترك "القضية" المشتركة!... سوف نرى..

فما أن سمع فرخوفنسكي منه هذا الكلام حتى قال يسأله فجأة:

ـ ماذا أتقبل أن تدخل في جماعتنا إذا أنا عرضت عليك ذلك؟

ووضع المقص على المائدة.

ارتعش الجميع. إن الشخص اللغز قد حسر القناع عن وجهه فجأة. حتى لقد جرؤ أن يذكر كلمة "جماعة".

أجاب الأعرج بشيء من الارتباك:

ـ إن كل من يعد نفسه رجلاً شريفاً لا يمكنه أن يتقاعس عن القيام بمهمته، ولكن...

قاطعه بطرس ستيفانوفتش قائلاً بلهجة صارمة:

ـ اسمح لي. دعنا الآن من "لكن". إنني أعلن لكم أيها السادة أنني أطالب بجواب واضح بيِّن. أنا أفهم تماماً أنني إذ جئت إلى هنا وإذ جمعتكم، قد أصبح لكم عليَّ حق تقديم إيضاحات (وهذا كشف آخر لم يكن متوقعاً)، ولكن يستحيل عليَّ أن أمدكم بإيضاحات وشروح ما جهلت حالتكم النفسية. إنني أترك جانباً الكلمات التي لا فائدة منها ولا طائل تحتها ـ ذلك أننا لا يمكن أن نتكلم ثلاثين سنة أخرى كما تمَّ حتى الآن طوال ثلاثين سنة ـ وأسألكم ماذا تُفضِّلون: أتفضِّلون الطريقة البطيئة، أي الروايات الاجتماعية وتنظيم مصائر الإنسانية على الورق لألف سنة قادمة، بينما الحكم

الاستبدادي يبتلع اللقمة السائغة التي تسقط في أفواهكم وتدعونها تفلت منكم، أم تفضّلون حلاً سريعاً أياً كان هذا الحل، حلاً يفك أيديكم من وثاقها ويتيح للإنسانية أن تنظم نفسها بحرية كاملة، لا على الورق بل في الواقع؟ يصيح بعضهم قائلاً: "بل نريد قطع مائة مليون رقبة". إن هذا الكلام قد لا يكون إلّا مجازاً. ولكن هبوا أنه ليس مجازاً بل حقيقة. لماذا تخافون منه إذا كان الحكم الاستبدادي سيقضي، أثناء استغراقنا في الأحلام البطيئة التي ندونها على الورق، سيقضي لا على مائة مليون فحسب، بل على خمسمائة مليون؟ لاحظوا أيضاً أن المريض الذي ليس إلى شفائه من سبيل، لا يمكنكم أن تشفوه مهما تصفون له من وصفاتٍ طبية. ثم إنكم إذا تأخرتم تتيحون له أن تسري عدواه إلينا جميعاً، وأن يُجهز على القوى الفتية التي لا يزال في وسعنا أن نعتمد عليها، فيكون في هذا هلاكنا جميعاً. إنني أُسلِّم معكم بأن الاسترسال في أقوال لبرالية بليغة أمر ممتع جداً، على حين أن العمل فيه بعض المخاطر... ثم إنني لست خطيباً. فأنا إنما جئت هنا لأنقل إليكم بلاغاً، لذلك أطلب إلى حفلكم الكريم أن يقول بكل بساطة من دون تصويت ما الذي يسرُّه أكثر من سواه: أأن يتخبط في المستنقع بسرعة السلحفاة، أم أن يطوي الطريق طياً بسرعة السهم؟

هتف التلميذ يقول متحمساً:

- رأيي أن نطوي الطريق طياً بسرعة السهم.

وقال ليامشين:

- وأنا أيضاً.

وجمجم أحد الضباط:

- الاختيار واضح لا لبس فيه.

وكذلك قال ثانٍ فثالث.

والشيء الذي فاجأ الحضور خاصةً هو أن لدى فرخوفنسكي بلاغاً يجب أن ينقله، وأنه وعد بالكلام.

قال فرخوفنسكي وهو يجيل على الحفل بصره:

ـ أيها السادة، أرى أنكم جميعكم تقريباً من أنصار الحل الذي تنادي به المنشورات وتدعو إليه.

فصاحت أغلبية الأصوات تقول:

ـ نعم، جميعنا، جميعنا.

وتدخل الميجر فقال:

ـ أعترف لكم بأنني أميل إلى حلٍ أكثر إنسانية، ولكنني أنحاز إلى رأي المجموع.

وقال فرخوفنسكي يسأل الأعرج:

ـ يبدو أنك لا تعارض أنت أيضاً، هه؟

فأجاب الأعرج وقد احمرّ وجهه:

ـ ليس معنى هذا أنني... ولكن إذا انضممت إلى رأي المجموع فما ذلك إلّا لأنني لا أريد أن أحدث اضطراباً...

ـ هكذا أنتم جميعاً! إنكم مستعدون لأن تناقشوا وتجادلوا مدة ستة أشهر، ولكنكم تصوِّتون في النهاية كسائر الناس. أيها السادة، أأنتم جميعاً مستعدون حقاً؟ فكروا في الأمر!

(مستعدون لأي شيء؟ ـ سؤال غامض و لكنه جذاب إلى أقصى الحدود).

تعالت أصوات كثيرة تقول:

ـ طبعاً، جميعاً!

وكان الحضور من جهة أخرى ينظر بعضهم إلى بعض.

قال فرخوفنسكي:

ـ قد تستاؤون في المستقبل من أنكم تعجّلتم في الموافقة؟ هذا يحدث لكم في جميع الأحيان تقريباً.

اضطرب الحفل، بل اضطرب اضطراباً شديداً.

صاح الأعرج يقول بلهجة غاضبة:

ـ اسمح لي مع ذلك أن ألفت انتباهك إلى أن الأجوبة على أسئلة من هذا

النوع لا يمكن أن تكون إلّا شرطية. لقد سمعت جوابنا، ولكنك قد ألقيت سؤالك بطريقة تبلغ من الغرابة...

ـ ما غرابتها؟

ـ ما هكذا تُلقى أسئلة كهذه الأسئلة.

ـ علمني إذًا كيف يجب إلقاؤها. على كل حال، كنتُ واثقاً أنك ستكون أول نادم...

ـ لقد انتزعت منا موافقتنا على عمل فوري، ولكن ما هي الحقوق التي لك علينا؟ أين سلطاتك الكاملة؟

ـ كان ينبغي أن تفكر في هذا قبل الآن! لماذا أسرعت تجيب؟ أتوافق من أجل أن تتراجع على الفور!

ـ في رأيي أن الصراحة الطائشة في سؤالك تدل دلالة واضحة على أنك لا تملك سلطات كاملة ولا حقوقاً، وتدل على أنك لم تشأ بطرح سؤالك إلّا إرضاء حب الاطلاع عندك.

هتف فرخوفنسكي يقول وكأنه قد تنبّه إلى الخطر:

ـ و لكن ما هي المسألة؟ ما هي المسألة؟

قال الأعرج:

أقول إن المرء حين يريد أن يضم أعضاء، إنما يفعل ذلك سرًّا، ولا يفعله بحضور عشرين شخصاً لا يعرفهم.

كان الأعرج قد بلغ من الحنق حداً لا يستطيع معه أن يسيطر على نفسه، وأن يكتم ما يدور في خاطره. فالتفت فرخوفنسكي نحو الحفل وهو يتظاهر بقلقٍ شديد:

ـ أيها السادة، أرى من واجبي أن أعلن لكم إن هذا كله ليس إلّا سخافات، وأن حديثنا قد مضى بنا إلى أبعد مما نريد. وأنا لم أضمَّ بعدُ أعضاء، وليس لأحد حق في أن يقول إنني أهتم بهذا. نحن لا نزيد على أن نعلن آراءنا. أليس كذلك؟

ثم أضاف يقول وهو يلتفت نحو الأعرج:

ـ لقد نبهتني إلى الخطر على كل حال. أنا لم أكن أتخيل أن الكلام هنا في أمور بريئة كل البراءة محظور إلّا على انفراد. أتراك تخشى وشاية؟ هل يمكن أن يكون بيننا جاسوس؟

هاج الحضور. وطفق الجميع يتكلّمون في آن واحد.

تابع فرخوفنسكي كلامه فقال:

ـ إذا كان الأمر كذلك أيها السادة، فالشخص الوحيد المعرَّض للخطر بينكم هو أنا. لذلك أطالبكم بأن تجيبوا عن سؤال سألقيه عليكم، إن كان ذلك يناسبكم طبعاً، فإنكم أحرار على كل حال:

ـ ما هو السؤال؟ ما هو السؤال؟

ـ هو سؤال سيبيِّن بوضوح هل علينا أن نكمل حديثنا. أم أن على كل واحد منا أن يتناول قبعته صامتاً ثم يمضي لشأنه.

ـ السؤال! السؤال!

ـ إذا علم أحدنا أن اغتيالاً سياسياً يُهيَّأ، فهل هو يشي بالمؤامرة متنبئاً بجميع النتائج، أم هو يبقى في بيته منتظراً الأحداث؟ إن الآراء قد تختلف. فالإجابة عن هذا السؤال ستبين لنا بوضوح هل يجب علينا أن نفترق أم يجب علينا أن نبقى معاً، لا في هذه السهرة وحدها بل بعدها أيضاً.

ثم قال فرخوفنسكي للأعرج:

ـ اسمح لي أن أخاطبك أنت أولَ من أخاطب.

ـ لماذا أنا بالذات؟

ـ لأنك أنت الذي بدأت. أرجوك، لا تتملّص. لن يفيد المكر في شيء. على كل حال، افعل ما تشاء، فأنت حر.

ـ معذرة، إن سؤالاً كهذا السؤال إهانة.

ـ أوضح مزيداً من الإيضاح، أرجوك.

قال الأعرج:

ـ أنا لم أكن شرطياً سرياً في يوم من الأيام.

ـ أوضح مزيداً من الإيضاح، من فضلك. لا تضيِّع وقتنا.

انشل الأعرج من فرط الغضب فلبث صامتاً، واكتفى بأن أخذ يرشق عدوَّه من تحت نظارتيه بنظرات مثقلة كرهاً و بغضاً.

ـ أنعم أم لا؟ أتشي أم لا تشي؟

كذلك صرخ فرخوفنسكي يسأله.

فصرخ الأعرج يقول بصوت أعلى أيضاً:

ـ لا أشي طبعاً.

وتعالت أصوات عدة تقول:

ـ ولا أحد يشي طبعاً.

وتابع فرخوفنسكي استجوابه، فقال يسأل الميجر:

ـ اسمح لي أن أسألك أنت يا حضرة الميجر: أتشي أم لا تشي؟

ـ لا، لا أشي.

ـ وإذا علمت أن رجلاً يستعد لأن يقتل أو يسرق رجلاً آخر، رجلاً عادياً، فأنت تنبِّه إلى الجريمة، أليس كذلك؟

ـ طبعاً، لأن الأمر هنا أمر شخصي وليس وشاية سياسية. أنا لم أكن من الشرطة السرية في يوم من الأيام.

وتعالت أصوات من جميع الجهات تهتف:

ـ ولا أحد كان من الشرطة السرية في يوم من الأيام. لا داعي إلى إلقاء مثل هذه الأسئلة. سيكون جواب الجميع واحداً. ليس ههنا جواسيس.

صاح الطالب يسأل:

ـ ولكن لماذا ينهض ذاك السيد؟

ـ هذا شاتوف. لماذا تنهض يا شاتوف؟

كذلك سألت السيدة فرجنسكي.

كان شاتوف قد نهض فعلاً على حين فجأة. إنه يحمل قبعته بيده، ويحدِّق إلى فرخوفنسكي. كان يبدو عليه أنه يريد أن يقول له شيئاً ما، ولكنه يتردّد وقد اصفرَّ لونه من شدة الغضب. ومع ذلك سيطر على نفسه وكظم غيظه واتجه نحو الباب صامتاً.

صرخ فرخوفنسكي يقول له بلهجة ملغزة:

ـ ما تفعله يلحق بك ضرراً يا شاتوف.

فأجابه شاتوف قائلاً:

ـ كما يلحق نفعاً بالجاسوس الوغد الذي هو أنت.

وخرج.

فتعالت الصرخات وصيحات التعجّب في كل جهة:

ـ تمت التجربة.

ـ وكانت نافعة.

ـ بعد فوات الأوان!

ـ من دعاه؟ كيف دخل إلى هنا؟ من هو؟ من شاتوف؟ أتراه يشي أم لا؟

قال أحدهم:

ـ لو كان خائناً لأظهر غير ما يبطن، ولكنه لم يعبأ بنا وخرج.

صاحت الطالبة:

وهذا ستافروجين ينهض. إنه هو أيضاً لم يجب عن السؤال!

كان ستافروجين قد نهض فعلاً، وكان كيريلوف قد اقتدى به على الطرف الآخر من المائدة.

قالت ربة الدار تخاطب ستافروجين بجفوة:

ـ اسمح لي يا سيد ستافروجين! نحن جميعاً قد أجبنا عن السؤال، وأنت تنصرف من دون أن تقول كلمة!

جمجم ستافروجين يقول:

ـ لا أرى ضرورةً للإجابة عن السؤال الذي يهمكم.

ـ ولكننا عرَّضنا أنفسنا للخطر، وأنت لم تعرِّض نفسك لشيء.

بهذا صاحت عدة أصوات.

أجاب ستافروجين ضاحكاً، ولكن عينيه كانتا تسطعان:

ـ فيم يعنيني أن تعرضوا أنفسكم للخطر؟

فهتفت أصوات كثيرة تقول متعجبة:

ـ كيف هذا؟

ونهض عدد من الحضور فجأة.

صرخ الأعرج يقول:

ـ اسمحوا لي أيها السادة، اسمحوا لي. إن فرخوفنسكي أيضاً لم يجب عن السؤال، وإنما اكتفى بإلقائه.

فأحدثت هذه الملاحظة أثراً خارقاً. نظر الجميع بعضهم إلى بعض. وانفجر ستافروجين ضاحكاً عند أنف الأعرج وخرج يتبعه كيريلوف. وهرع فرخوفنسكي وراءهما إلى حجرة المدخل.

ـ ماذا تفعل؟

كذلك تمتم يقول وهو يمسك يد ستافروجين ويشد عليها بكل ما أوتي من قوة. وتابع كلامه:

ـ اذهب إلى عند كيريلوف. وسألحق بكما. يجب أن أكلمك. لا بد أن أكلمك. لا غنى عن هذا.

أجابه ستافروجين بخشونة:

ـ لا لي أنا.

ـ بل لا غنى عنه لك أنت يا ستافروجين. سأشرح لك هذا في البيت.

كذلك قال كيريلوف متدخلاً في الأمر. وقال يطمئن فرخوفنسكي:

ـ سيصحبني إلى بيتي.

وخرجا.

الفصل الثامن
ابن القيصر. إيفان

كانت أول حركة قام بها بطرس ستيفانوفتش هي أنه عاد بأقصى سرعة إلى المدعوين ليهدئ النفوس، ولكن أغلب الظن أنه رأى أن ذلك لا يستحق العناء، لأنه ترك "الجلسة" بعد دقيقتين، وطار يلحق بستافروجين وكيريلوف. وفيما كان يركض تذكّر شارعاً صغيراً يمكن أن يوصله إلى عمارة فيليبوف بسرعة أكبر. فسلك ذلك الشارع غاطساً في الوحل حتى الركبتين، فإذا هو يصل إلى المنزل فعلاً في اللحظة التي كان فيها صاحباه يجتازان البوابة.

قال كيريلوف:

ـ كيف؟ أوصلت؟ حسن جداً. ادخل.

وقال ستافروجين سائلاً كيريلوف حين لمح في حجرة المدخل سماوراً يغلي فيه الماء:

ـ ألم تقل لنا إنك تعيش وحيداً؟

فأجاب كيريلوف يقول مدمدماً:

ـ سترى مع من أعيش.

وما إن دخلوا حتى أخرج فرخوفنسكي من جيبه الرسالة الغفل التي عهد بها إليه فون لمبكه، ووضعها على المائدة أمام ستافروجين. وجلس الثلاثة. فقرأ ستافروجين الرسالة صامتاً. ثم سأله:

ـ هيه، وبعد؟

فقال فرخوفنسكي:

ـ إن هذا الشقي سيفعل ما يكتبه. وما دام مرتبطاً بك فقل ما الذي يجب عليَّ أن أفعله. أؤكد لك أنه قد يذهب منذ الغد إلى فون لمبكه.

ـ فليذهب!

ـ كيف هذا؟ يمكننا أن نمنعه.

ـ أنت مخطئ: إنه ليس مرتبطاً بي. على كل حال، لا يهمني الأمر. إنه لا يستطيع شيئاً ضدي. وإنما هو يهددك أنت.

ـ وأنت أيضاً.

ـ لا أظن ذلك.

ـ ولكن الآخرين قد لا يوفرونك. كيف لا تفهم هذا؟ اسمع يا ستافروجين. إنك تتلاعب بالألفاظ. أيكون هذا من حرصك على المال؟

ـ هل الأمر أمر مال؟

ـ طبعاً. يجب دفع ألفين، أو ألف وخمسمائة على الأقل. أعطني هذا المبلغ غداً أو حتى اليوم، فأرحِّله في مساء الغد إلى بطرسبرج. ذلك ما يريده في حقيقة الأمر. لاحظ أن من الممكن حتى ترحيل ماريا تيموفئفنا معه إذا شئت.

لكأنه كان طائش اللب، فهو يتكلم مضطرباً من دون تفكير، وهو يرسل أقوالاً خطرة من دون أن يتبصّر بالعواقب. وكان ستافروجين يلاحظه مدهوشاً.

قال ستافروجين:

ـ ليس هناك أي سبب يدعوني إلى ترحيل ماريا تيموفئفنا.

ـ وربما كنت لا تريد لها أن ترحل.

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وضحك ضحكةً ساخرة.

ـ ربما.

صرخ بطرس ستيفانوفتش يقول وقد نفد صبره واستعرّ حنقه:

ـ الخلاصة: أتعطي المال أم لا؟

فأجابه ستافروجين وهو يتأمله مظلم الوجه:

ـ لا، لن أعطيه!

ـ إيه ستافروجين! إما أنك تعلم شيئاً ما، وإما أنك فعلت شيئاً ما! إنك... تمزح!

قال فرخوفنسكي ذلك وتقبّض وجهه، وارتعش طرفا شفتيه، ثم إذا هو ينفجر ضاحكاً ضحكةً غريبة على حين فجأة.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين بهدوء:

ـ لقد قبضتَ من أبيك المال المتأتي عن بيع أرضك. دفعت لك أمي عن ستيفان تروفيموفتش مبلغ ستة آلاف أو ثمانية آلاف روبل. ففي وسعك إذًا أن تدفع ألفاً و خمسمائة روبل من هذا المبلغ. كفاني ما دفعته حتى الآن من مال في سبيل الآخرين. ما أكثر ما أعطيت ذات اليمين وذات الشمال! هذا مزعجٌ أخيراً..

قال ستافروجين ذلك ثم ابتسم من أقواله نفسها.

ـ !... إنك تمزح الآن!...

نهض ستافروجين. سرعان ما وثب فرخوفنسكي عن كرسيه، وأسند ظهره إلى الباب بحركة آلية كأنه يريد أن يمنع ستافروجين من الخروج. وفيما كان نيقولاي فسيفولودوفتش يرفع ذراعه لينّحيه ويخرج، إذا هو يعدل على حين فجأة، ويقول:

ـ لن أدع لك شاتوف.

فارتعش بطرس ستيفانوفتش. وحدَّق كل من الرجلين إلى عيني صاحبه.

وعاد ستافروجين يتكلم فقال:

ـ ذكرتُ لك منذ قليل لماذا أنت في حاجة إلى دم شاتوف. إنك تريد أن تستخدم دم شاتوف في ترسيخ الرابطة التي تشد جماعتك بعضها إلى بعض. لقد حملته على الانصراف، بحذق وبراعة. كنت تعلم أنه سوف يرفض أن يقول: "لن أشي"، وأنه يجد أن الكذب عليك جبن منه وعار. ولكن أنا، ما حاجتك إليَّ أنا الآن؟ إنك تلاحقني منذ لقائنا في الخارج. والشروح التي قدمتها لي في هذا الشأن حتى الآن ليست إلّا هذيانًا محمومًا. ومع ذلك

تحضنـي علـى أن أعطـي لبيادكيـن ألفاً وخمسـمائة روبل من أجـل أن يدفع فـدكا إلى قتله. إنني أعرف: أنت تظن أننـي أريد أن أدفع إلى قتل زوجتي في هذه المناسـبة نفسـها. وتتخيل أنك بهذه الجريمة تمسـك بي وتسيطر علي، أليس هذا صحيحاً؟ ولكن فيم تفيدك هذه السـلطة؟ فيم يمكنني أن أنفعك؟ أعود فأقول لك مرة أخرى: أنعم النظر إليَّ، واعرف أنني لسـت الرجل الذي تنشده، ودعني وشأني!

سأله فرخوفنسكي لاهثاً:

ـ هل جاء إليك فدكا؟

ـ نعم، جاء. والسعر الذي يطلبه هو أيضاً ألفًا و خمسمائة روبل. على كل حال، سوف يؤكد لك هذا بنفسه. ها هو ذا!

قال ستافروجين ماداً ذراعه.

فالتفت بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي فجأة: إن شخصاً جديداً يخرج مـن الظـل ويقف على العتبة: إنه فدكا وقد ارتدى معطفاً قصيراً، لكنه حاسـر الرأس كأنه في بيته. كان يبتسم، كاشفاً عن أسنانه البيضاء المنضودة. إن عينيه السـوداوين اللتين تلتمعان التماعاً ضارباً إلى صفرة تتفحّصان وجوه الشـبان الثلاثـة بحذر. لم يكن يدرك مـا يجري، ولـم يعزم أمره على الدخول. واضح أن كيريلـوف هـو الذي جـاء به. وعلـى كيريلوف إنمـا تلبثت نظرته السـائلة أخيراً.

قال ستافروجين:

ـ لا شـك أنك اسـتقدمته إلى هنا ليشهد الصفقة، وربما ليرى أن المال قد أصبح بين يديك منذ الآن، أليس كذلك؟

ومـن دون أن ينتظـر جوابـاً، أسـرع سـتافروجين يخرج متعجـلاً. فخرج فرخوفنسكي عن طوره، وهرع يدركه تحت البوابة.

صاح فرخوفنسكي يقول وهو يمسك ستافروجين من كوعه:

ـ قف! لا تخط خطوة واحدة أخرى.

حاول سـتافروجين أن يتخلّـص بحركة مفاجئة، ولكنه لم يسـتطع ذلك.

فثار غضبه فأمسك بيده اليسرى شعر فرخوفنسكي، وقلبه على الأرض بكل ما أوتي من قوة، واجتاز الباب. ولكنه ما إن قطع ثلاثين خطوة حتى كان فرخوفنسكي قد أدركه مرة أخرى.

ودمدم فرخوفنسكي يقول بصوت متقطع:

ـ لنتصالح! لنتصالح!

فرفع نيقولاي فسيفولودوفتش منكبيه، و ظل سائراً في طريقه من دون أن يلتفت.

ـ اسمع، سأجيئك بليزافتا نيقولايفنا منذ الغد، هل تريد؟ لا؟ لماذا لا تجيب؟ قل ما تشاء فأنفِّذ. اسمع، سأترك لك شاتوف، هل تريد؟

ـ هو إذًا صحيح أنك كنت قد قررت قتله؟

كذلك صرخ ستافروجين.

فعاد فرخوفنسكي يتكلم فقال متعجلاً:

ـ ولكن ما حاجتك إلى شاتوف؟

كان صوته يختنق في حلقه. وكان في جريه إلى جانب ستافروجين لا ينفك يشده في كل لحظة من كمه، وربما من دون أن يشعر بذلك.

ـ اسمع، سأتركه لك، فلنتصالح. حسابك مثقل... ولكن فلنتصالح!

وأخيراً نظر إليه ستافروجين فدُهش: ليس هذا الصوت صوتَه نفسه، وليست هذه النظرة نظرته نفسها التي كانت له منذ قليل عند كيريلوف. إن أمام نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين الآن شخصاً آخر. اللهجة مختلفة: إن فرخوفنسكي يتوسّل الآن و يضرع و يبتهل، زائغ الهيئة تماماً، كرجل يُسلب أعزُّ ما يملك أو سُلب أعزَّ ما يملك.

هتف ستافروجين يسأله:

ـ ما بك؟

ولكن فرخوفنسكي لم يجب، فهو لا يزال يركض بقربه ويحدِّق إليه بنظرة ضارعة متوسلة لا تنثني.

دمدم يقول مرة أخرى:

ـ فلنتصافح. اسمع! أنا أيضاً عندي تحت الجزمة سكين، مثل فدكا تماماً. ولكنني أريد أن نتصالح.

فصاح ستافروجين يقول غاضباً، و لكن على دهشة:

ـ ماذا تريد مني أخيراً؟ اذهب إلى الشيطان! ما هذا السر؟ أأنا لك تميمة؟

همس فرخوفنسكي يقول:

ـ اسمع! سوف نثير روسيا، سوف نحدث ثورة في روسيا....

كان كمن يهذي. وتابع كلامه:

ـ ألا تعتقد أننا نستطيع فعل هذا؟ سوف نحدث من الاضطرابات والزلازل ما يجعل كل شيء ينهار. إن كارمازينوف على حق: أصبح المرء لا يستطيع أن يتشبّث بأي شيء. كارمازينوف ذكي جداً. عشر حلقات أخرى كهذه في روسيا، ثم يصبح القبض عليَّ مستحيلاً.

فقال ستافروجين رغم إرادته:

ـ حلقات مؤلفة من أغبياء كهؤلاء؟

ـ أوه! كن أكثر غباءً يا ستافروجين! كن أنت نفسك أكثر غباءً! على كل حال، لا داعي لأن يتمنى لك المرء ذلك: فما أنت بالذكي جداً. ولكنك خائف، لا تملك الإيمان. أبعاد الأمر ترعبك. ضخامة المهمة تبث في نفسك الهلع. ولماذا تعدهم أغبياء؟ ليسوا أغبياء إلى هذا الحد: ما من أحد يملك اليوم تفكيراً خاصاً به. العقول الأصلية المستقلة نادرة جداً في هذا الزمان. فرجنسكي إنسان نقي جداً، أنقى عشر مرات من أناس مثلك ومثلي. ما قيمة هذا على كل حال؟ أما ليبوتين فهو وغد. لكنني أعرف نقطة الضعف فيه. ما من وغد إلّا فيه نقطة ضعف. ولكنني ممسك به. بضع حلقات أخرى كهذه الحلقة، ثم يصبح تحت تصرفي في كل مكان جوازات سفر، ومال. هذا وحده شيء كثير. ليس هذا بالقليل. ويصبح لي مخابئ مضمونة آوي إليها. فإذا وضعوا أيديهم على إحدى الحلقات، فاتتهم الحلقات الأخرى. ستحدث اضطرابات، وثورات... هل يمكن ألا تصدِّق أننا نستطيع نحن الاثنان كلَّ شيء؟

ـ خذ شيجالوف، ودعني وشأني!...

ـ شيجالوف رجل عبقري. هل تعرف أنه عبقري من مستوى فورييه، ولكنه أجرأ من فورييه، وأقوى من فورييه؟ سوف أهتم به. لقد اخترع "المساواة".

قال ستافروجين لنفسه وهو يتفرس في فرخوفنسكي من جديد: "إنه محموم. إنه يهذي". واستمرا يسيران جنباً إلى جنب.

وعاد فرخوفنسكي يتكلّم فقال:

ـ مشروعه عظيم. إنه يخلق التجسس. جميع أعضاء المجتمع في مشروعه يتجسس بعضهم على بعض، وعليهم أن ينقلوا كل ما يصل إلى علمهم. كل واحد ينتمي إلى الجميع، والجميع ينتمون إلى كل واحد. كل البشر عبيد ومتساوون في العبودية. وفي الحالات القصوى يُلجأ إلى الافتراء و إلى القتل. وليس الشيء الرئيسي هو أنهم جميعاً متساوون. قبل كل شيء، يجب خفض مستوى التعليم والعلوم والمواهب. إن المستوى العالي لا يصل إليه إلّا أصحاب المواهبُ. إذًا فلا مواهب. إن أصحاب المواهب يستولون دائماً على السلطة و يصبحون طغاةً مستبدين. ليس في وسعهم أن يفعلوا غير ذلك. ولقد أساؤوا دائماً أكثر مما أحسنوا. فيجب إلغاؤهم أو إنزال عقوبة الموت فيهم. شيشرون سيُقطع لسانه. كوبرنيك ستُفقأ عيناه. شكسبير سيُرجم بالحجارة. هذا هو مذهب شيجالوف. هذه هي الشيجالوفية! يجب على العبيد أن يكونوا متساوين. من دون استبداد لم توجد في يوم من الأيام لا حرية ولا مساواة. ويجب أن تعمَّ مساواة القطيع. هذه هي الشيجالوفية. هأهأهأ!... أيدهشك هذا؟ أنا من أنصار شيجالوف.

كان ستافروجين يُغذ الخطى ليصل إلى بيته بأقصى سرعة. قال يحدّث نفسه: "إذا كان هذا الرجل سكران، فأين أمكنه أن يسكر؟ أيكون الكونياك الذي شربه منذ قليل هو الذي أسكره؟".

ـ اسمع يا ستافروجين! إن توطئة الجبال فكرة ممتازة. ليست هذه الفكرة سخيفة مضحكة. أنا من رأي شيجالوف. لا حاجة إلى التعليم. كفى علماً! حتى من دون علم تكفينا الموارد التي نملكها الآن ألف سنة أخرى. ولكن

علينا أن نقيم الطاعة. الشيء الوحيد الذي يفتقر إليه العالم إنما هو الطاعة. إن الظمأ إلى التعليم قد أصبح منذ الآن ظمأً أرستقراطياً. وما إن تُمكِّن الأسرة أو الحب من القيام حتى تنشأ الرغبة في التملك على الفور. سوف نقتل هذه الرغبة: سوف ننمي الإدمان على السكر، سوف نغذي الافتراء و التحريض، والسعاية و النميمة. سوف نغرق البشر في فجور لا عهد بمثله من قبل، سوف نقتل كل عبقرية قبل أن تولد. سوف يكون جميع الناس متساوين: مساواةً مطلقة. "نحن نعرف مهنتنا و نحن أناس شرفاء، ذلك كل ما نحتاج إليه". هذه هي الإجابة التي أجاب بها العمال الإنجليز في الآونة الأخيرة. الضروري وحده ضروري. ذلك هو الشعار الذي يجب أن ترفعه الإنسانية بعد الآن. ولكن سوف يجب علينا أن نمنحها من حين إلى حين بعض الانتفاضات نوفِّرها لهم نحن القادة. إن العبيد يجب أن يكون لهم سادة. طاعة كاملة، امّحاء للشخصية مطلق. ولكن شيجالوف يسمح بالانتفاضات، مرةً كل ثلاثين سنة. وعندئذ يهجم الجميع على الجميع ويلتهم بعضهم بعضاً، ولكن إلى حد، للتغلب على الضجر فحسب. الضجر شعور أرستقراطي. إن مجتمع شيجالوف لن يعرف الرغبات. لنا نحن الرغبة والألم. أما العبيد فلهم الشيجالوفية.

ـ أتستثني نفسك؟

ـ وأستثنيك أيضاً. هل تعلم أنني فكرت في أن أترك العالم للبابا. فليخرج حافي القدمين، وليظهر للشعب قائلاً: "انظروا كيف صيَّروني". فإذا الجميع يتبعونه، حتى الجيش. البابا في القمة، ونحن حوله، وتحتنا الجماهير الخاضعة لنظام شيجالوف. وإنما ينبغي فقط أن يقوم اتفاق بين الأممية والبابا. وسيحدث هذا. سيوافق العجوز فوراً. ماذا بقي له أن يفعل غير هذا؟ تذكّر كلماتي. هأهاها!... أهذا غباء شديد؟... قل لي أهذا غباء؟ أهو غباء أم لا؟...

دمدم ستافروجين يقول غاضباً:

ـ كفى!

ـ كفى! اسمع. لقد عدلت عن البابا. ليذهب شيجالوف إلى الشيطان! وليذهب البابا إلى الشيطان! نحن في حاجة إلى شيء راهن، شيء يمكن أن يلهب النفوس. أما أفكار شيجالوف فهي مسرفة في الرهافة والتعقيد. هي مثل أعلى ينتمي إلى المستقبل. إن شيجالوف صائغ مجوهرات. وهو غبي ككل محب للبشر. لا بد لنا من الاندفاع في أعمال ضخمة، وشيجالوف يحتقر هذا النوع من الأعمال. اسمع: في الغرب سيكون البابا، وعندنا... ستكون أنت!

غمغم ستافروجين يقول وهو يسرع في خطاه مزيداً من الإسراع:

ـ دعني وشأني. أنت سكران!

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول كأنه في نشوة:

ـ ستافروجين. إنك جميل! وأثمن ما فيك هو أنك يتفق لك أحياناً أن تجهل ذلك. آه... لقد درستك دراسة عميقة! إنني كثيراً ما أنظر إليك خلسةً. بل إن فيك شيئاً من البراءة أيضاً. شيئاً من السذاجة، هل تعرف هذا؟ نعم، إن فيك هذا. لا بد أنك تتألم من هذه السذاجة، لا بد أنك تتألم منها صادقاً. إنني أحب الجمال. صحيح أنني عدمي، ولكنني أحب الجمال. هل العدميون لا يحبون الجمال؟ إن العدميين لا يحبون الأصنام المعبودة. أم أنا فأحب الأصنام المعبودة. أنت معبودي! إنك لا تسيء إلى أحد، ومع ذلك يكرهك جميع الناس. أنت تعامل الناس معاملة أندادٍ مساوين لك، ومع ذلك فإنهم يخافون منك. هذا حسنٌ جداً. لا أحد سيجيء يربت على كتفك. إنك أرستقراطي، والأرستقراطي الذي يجيء إلى الديمقراطية يسحر العقول ويأسر النفوس إلى أقصى حد. ليس يكلفك شيئاً أن تضحي حياتك أو حياة إنسان آخر. أنت من نحن في حاجة إليه. أنت من أنا في حاجة إليه. ولا أعرف شخصاً آخر مثلك. أنت الزعيم، أنت الشمس، أما أنا فلست إلّا دودة من دود الأرض...

قال فرخوفنسكي ذلك ثم تناول يد ستافروجين فجأة وقبَّلها. ارتعش نيقولاي فسيفولودوفتش. وبحركة عنيفة سحب يده. ووقف الاثنان كلاهما.

دمدم ستافروجين يقول لصاحبه:

ـ أنت مجنون

فأسرع بطرس ستيفانوفتش يستأنف كلامه فقال:

ربما كنت أهذي. نعم، ربما... لكنني أنا الذي اكتشفت بأي شيء يجب البدء. هذه فكرة ما كنت لتخطر ببال شيجالوف في يوم من الأيام. أمثال شيجالوف كثيرون جداً! لكن رجلاً واحداً في روسيا عرف ما هي الخطوة الأولى التي يجب القيام بها، وعرف كيف يجب القيام بها. هذا الرجل هو أنا. ما بالك تنظر إليَّ هكذا؟ أنا في حاجةٍ إليك. أنا لا غنى لي عنك. أنا بدونك صفر. لست بدونك إلّا ذبابة، إلّا فكرة في قمقم، إلّا كولومب بغير أمريكا!...

كان ستافروجين لا يزال ساكناً جامداً يتأمله بانتباه محاولاً أن يقرأ في عينيه المجنونتين.

وتابع فرخوفنسكي كلامه فقال بصوت لاهث متعجل، وهو يشد ستافروجين من كمِّ معطفه في كل لحظة:

ـ اسمع، سنبدأ بأن نثير اضطرابات. سبق أن قلت لك ذلك. سوف نتسلل إلى أعماق الشعب. هل تعرف أننا أقوياء قوة رهيبة منذ الآن؟ إن الذين يعملون من أجلنا ليسوا فقط أولئك الذين يقتلون ويشعلون الحرائق ويستعملون المسدس بالطريقة الكلاسيكية وأولئك المسعورين الذين يعضون. حتى أن هؤلاء قد يكونون أميل إلى الإعاقة والعرقلة. إنني أضع الجميع في الحساب: إن معلّم المدرسة الذي يستهزئ مع تلاميذه بإلههم ومهادهم واحد منا، والمحامي الذي يدافع عن موكله القاتل المثقف مشيراً إلى أنه أعلى ثقافة من الذين قتلهم، وإلى أنه اضطر أن يقتل للحصول على المال، هو واحد منا، وتلامذة المدرسة الذين يقتلون أحد الفلاحين نشداناً لإحساسات خارقة هم منا، والمحلَّفون الذين يبرِّئون جميع المجرمين بغير استثناء هم منا، ووكيل النيابة الذي يرتعش خوفاً متى خطر بباله أنه لم يظهر قدراً كافياً من اللبرالية هو منا. ثم أضف إلى هؤلاء، الموظفين و الكتاب. إن

كثيريـن منهم ينتمون إلينا دون أن يخطر ذلـك ببالهم! ثم إن طواعية التلاميذ والحمقـى طواعيـة مطلقة. أما المعلّمون فإنهم ممتلئون غيظاً. كل شـيء في كل مكان ليس إلّا غروراً و شهوة حيوانية لا عهد بمثلها من قبل.. هل تتصور مـدى المسـاعدة التي يمكـن أن تقدمها لنا الأفـكار الجاهـزة الرائجة؟ حين سافرت أنا، كانت فكرة لِتريه هي الشائعة في الناس، فكانوا يزعمون أيام ذاك أن الجريمة أصبحت لا تعدُّ اختلالاً بل ذليلٌ على سلامة الحس، بل واجب أخلاقـي، أو احتجاج كريم في أقل تقدير. "كيف يمكن لإنسـانٍ مثقف أن لا يقتـل إذا هـو احتاج إلى مـال؟". ولكن هذا ليس إلّا بدايـة. إننا منذ الآن نرى الإله الروسي قد أذعن للخمرة الرخيصة الثمن. فالشعب يشرب، والأمهات تشـرب، والأولاد يشـربون، والكنائس خالية مقفرة. وماذا نسمع في محاكم القرويين؟ "سـطل خمرة، وإلا فمائتا جلـدة!". دع لهذا الجيل أن يكبر فقط! خسـارةٌ أننا مسـتعجلون، فلو كان في وسـعنا أن ننتظر، لما أصبحوا جميعهم إلّا أشـد سـكراً. خسـارةٌ أيضـاً أنه لا توجـد بروليتاريـا. ولكنها سـتوجد... ستوجد!... نحن سائرون إلى هذا.

جمجم ستافروجين يقول مستأنفاً السير:

خسارةٌ أيضاً أننا غدونا أغبياء حقاً.

- اسـمع! لقد رأيت طفلاً في السادسـة من عمره يقود إلى البيت أمه التي كانت سـكرى تماماً و كانت تمطره بوابل من أقذع الشـتائم... هل تصدِّق أن هذا قد سـرَّني ؟ حين سنستولي على السلطة، فقد نراهم يشفون من دائهم... وسـوف نطردهم إلـى الصحراء أربعين عاماً إذا وجـب الأمر. أما الآن فنحن فـي حاجة إلى جيـل أو جيلين اثنين من الفاسـقين الداعرين. نحن في حاجة إلـى فسـاد لا نظير لـه، إلى تحلل دنيء، يحيل الإنسـان حشـرةً قـذرةً حقيرةً قاسيةً أنانية. ذلك ما نحن في حاجة إليه. وعدا هذا سنعطيهم قليلاً من "الدم الجديد" حتى يألفوا ويتعودوا. ما بالك تضحك؟ إنني لا أناقض نفسي. إنني لا أناقض إلّا محبي البشـر وشـيجالوف. وأنا وغد ولسـت اشتراكياً. هأهأها !... خسـارةٌ فقط أننا لا نملك الوقت الكافـي. لقد وعدت كارمازينوف بأن

نبدأ في شـهر أيار(مايو)، وبأن يكون كل شـيء قد تمَّ في أول أكتوبر (تشرين الأول). لـن يطـول الأمر كما تـرى. هأهأهأ!... هل تعرف ما سـأقوله لك يا سـتافروجين؟ إن الشـعب الروسـي، رغم شـتائمه البذيئة و تجديفاته، كانت روح الاستهتار غريبةً دائماً عنه. هل تعلم أن الأقنان كان يحترم بعضهم بعضاً أكثر مما يحترم رجل مثل كارمازينوف نفسـه: كانوا يتلقون جلدات السـياط، ولكنهم استطاعوا أن يدافعوا عن آلهتهم، أما كارمازينوف فقد ترك إلهه.

قال ستافروجين:

ـ هـذه أول مرة أصغي فيها إلى كلامك يا فرخوفنسـكي، ويجب أن أقول لـك إني مذهول مشـدوه. مـا أنت بالاشـتراكي حتمـاً، وإنما أنـت رجلٌ... طامح، رجل سياسي.

ـ بل أنا وغد، وغد، كما قلت لك. هل تحب أن تعرف من أنا؟ سأقول لك: إلى هذا إنما أريد أن أصل. إنني لم أقبِّل يدك عبثاً بغير هدف. ولكن يجب أن يؤمن الشـعب بأننا نعرف ماذا نريد، على حين أن الآخرين "يشهرون الهراوة ويضربون ذويهم". آه... ليتنا نملك وقتاً! إن بلاءنا الوحيد هو افتقادنا الوقت الكافي. سوف ننادي بالتدمير... فلماذا... لماذا كانت هذه الفكرة فاتنة آسرة إلـى هذا الحـد؟ نعم، يجب على المـرء أن يرخي أعضاءه أحياناً!... سـوف نشـعل الحرائق!... سوف ننشـر أساطير. ومن أجل تحقيق هذا ستفيدنا أيسر حلقـة صغيرة. سـأجد لك بين هـذه الحلقات هواةً يطلقـون النار فرحين، بل يـرون أنهم نالوا شـرفاً عظيماً لأنهم كانـوا الأوائل. وعندئذ إنمـا تبدأ البلبلة والثورة. وسنشـهد انقلاباً لا عهد للعالم بمثله من قبل... سيهبط على روسيا ضباب كثيف... وستبكي الأرض آلهتها القديمة... ويومئذ نخرجه...

ـ نخرج من؟

ـ من؟

ـ ابن القيصر، إيفان.

ـ كيف؟

ـ ابن القيصر، إيفان! أنت، أنت!

فكَّر ستافروجين لحظة.

ثم سأل المجنون وهو ينظر إليه بدهشة عميقة:

ـ محتال! هذه إذًا خطتك؟

وعـاد فرخوفنسـكي يتكلّم فقال بصـوت عذب، بصوت يشـبه أن يكون صوت عاشق ولهان (وكان في الواقع يبدو سكراناً):

ـ سـوف نقول إنـه "مختبئ". هل تعلم ماذا تعني هـذه الكلمة "مختبئ"؟ ولكنه سـيظهر، سـيظهر. سوف نخلق أسـطورة أجمل من أسطورة سوبتزي. "إنه موجود، ولكن أحداً لم يره بعد". ما أروع الأسطورة التي يمكن خلقها فـي هذا الشـأن! ولكن الشـيء الرئيسـي هـو أن ذلك سـيكون قـوةً جديدة. وحاجتنـا إنما هي إلى قـوة جديدة. إلى قوة جديدة إنمـا نحن نتوق. ما الذي تجـيء به الاشـتراكية؟ لقد حطمت القـوى القديمة، ولكنها لـم تخلق قوى جديدة. أما نحن فسـنملك قوة، ويا لها من قوة! على شـرط أن نملك رافعة، ولو لحظةً قصيرة، رافعةً تتيح لنا أن نرفع الأرض. وسيثور الجميع حينذاك.

قال ستافروجين وهو يبتسم ابتسامة سخرية:

ـ هل يمكن أن تعتمد عليَّ جاداً؟

فقال فرخوفنسكي:

ـ لماذا تبتسم، ولماذا تبتسم ابتسامة فيها هذه السخرية كلها؟ لا تروِّعني! أنا الآن أشبه بطفل. تكفي ابتسامة كابتسامتك لقتلي خوفاً. اسمع! لن أُظهرك لأحـد، لن أظهرك لأحـدٍ البتة. إنه موجـود، ولكن أحداً لم يـره. إنه مختبئ. مـع ذلك ربما كان من الممكن إظهارك، لواحدٍ من مائة ألف مثلاً. وسـتضج الأرض كلها حينذاك: "لقد رؤي، لقد رؤي!". ألم يروا إيفان فيليبوفتش، ألم يروا الإله يهوه مختطفاً من السماء في عربة من نار. ألم يروا "بأعينهم"؟ وأنت لست إيفان فيليبوفتش. أنت جميل، وأنت ذو كبرياء كإله، ولست تسعى إلى شـيء لنفسـك، سـوف تحيط به هالة التضحية: "المختبئ"! أسـطورة. ذلك هو الشـيء الرئيسـي! سـوف تنتصر، تكفيك نظرة لتنتصر. إنه يجيء بحقيقة جديدة و "يختبئ". وسننطق، إلى هذا، بحكمين أو ثلاثة من أحكام سليمان.

لا حاجة إلى الجرائد. حلقاتنا ستتولى نشر الشائعة. ويكفي أن نلبّي طلباً من عشرة آلاف طلب حتى يتجه الجميع إلينا. في كل قرية سيعرض كل فلاح أن في مكان ما جذعاً يجب عليه أن يودعه التماسه. وستنتشر في الأرض كلها شائعة تقول : "لقد صدر قانون جديد، قانون عادل!". البحار ستهتاج، والمنزل الخشبي القديم سيتهاوى. وعندئذ نفكر في شيد بناءٍ من حجر، لأول مرة. و"نحن" الذين سنشيده. نحن وحدنا.

قال ستافروجين مدمدماً:

ـ جنونٌ هذا كله.

ـ لماذا؟ لماذا لا تريد؟ أتخاف؟ ولكن لئن كنت أتشبّث بك، فما ذلك إلّا لأنك لا تخاف من شيء. أيكون هذا ابتعاداً عن العقل. ما أنا الآن إلّا كولومب بدون أمريكا. هل يمكن أن يكون كولومب بدون أمريكا عاقلاً؟

لزم ستافروجين الصمت. وفي أثناء ذلك وصلا، ووقفا أمام ذرجات الباب.

همس فرخوفنسكي يقول في أذن نيقولاي فسيفولودوفتش:

ـ اسمع. سأدير كل شيء بغير مال. سأفرغ منذ الغد من ماريا تيموفئفنا... ولن يكلفك هذا شيئاً. وفي غدٍ سأجيئك بليزا. هل تريد ليزا غداً؟

حدّث ستافروجين نفسه فتساءل مبتسماً: "أتراه فقد عقله حقاً؟". وفتح الباب.

سأله فرخوفنسكي وهو يمسك ذراعه:

ـ ستافروجين ، هل أمريكا لنا؟

فأجابه ستافروجين بجفاء:

ـ فيم يفيدنا هذا؟

ـ لا تريد؟ كنت أتوقع هذا!...

كذلك صرخ بطرس ستيفانوفتش و قد ثارت ثائرته على حين فجأة. وتابع كلامه فقال:

ـ أنت تكذب، أيها السيد الشرير الفاجر الداعر. لست أصدقك. إن

لك شـهوة ذئـب!... افهمْ أخيراً أن حسـابك أشـد ثقلاً مـن أن أتنازل عنك. أنـت فريـد في العالم. لقـد اخترعتك منـذ لقائنا في الخـارج. اخترعتك وأنا ألاحظك. لولا أنني لاحظتك خلسةً لما خطر ببالي شيء.

صعد ستافروجين السلم من دون أن يجيب.

وصرخ فرخوفنسكي:

ـ ستافروجين! إننـي أمهلـك يوميـن... بل أمهلـك ثلاثة أيـام. لكنني لا أستطيع أن أمهلك أكثر من ذلك. لا بد لي من جواب.

الفصل التاسع

"مصادر" في بيت ستيفان تروفيموفتش

في تلك الأثناء حدث أمر أدهشني كثيراً وأدخل في نفس ستيفان تروفيموفتش أشدَّ الاضطراب. ففي الساعة الثامنة من الصباح هرعت إليَّ ناستاسيا من عنده لتبلغني أن مولاها قد "صودر". فلم أفهم في البداية شيئاً. فقالت إن موظفين قد جاؤوا وقاموا "بمصادرة"، فأخذوا أوراقاً لفَّها جندي بخيط و"حملها على نقَّالة". بدت لي القصة عجيبة كل العجب. فأسرعت إلى بيت ستيفان تروفيموفتش.

وجدته في حالة غريبة جداً: كان منفعلاً، مضطرباً، وكان وجهه في الوقت نفسه يعبر عن معنى الانتصار. وعلى مائدة، إلى جانب كأس من الشاي لم يُشرب منها شيء، كان هناك سماور يغلي ماؤه. إن ستيفان تروفيموفتش يدور حول المائدة، أو يمشي في الغرفة طولاً وعرضاً، من دون أن يدرك ماذا يفعل. وهو يلبس، على عادته، ثوب التريكو الأحمر، ولكنه ما إن رآني حتى أسرع يرتدي صديرته وردنجوته، وذلك أمر ما كان يفعله أبداً في الماضي حين يفاجئه صديق وهو بثوب التريكو.

ـ "أخيراً يصل صديق"! (بالفرنسية).

قال ذلك وتنفس من أعماق صدره. ثم تابع كلامه:

ـ "عزيزي" (بالفرنسية)، أنت الشخص الوحيد الذي بعثت أنبئه بما حدث، ولا أحد يعرف شيئاً البتة. يجب أن نقول لناستاسيا أن تغلق الباب، ولا تدع أحدًا أن يدخل، إلّا "هم" طبعاً... "هل فهمت؟" (بالفرنسية).

كان ينظر إلـيَّ قلقـاً كأنـه ينتظـر جوابـاً. وأسـرعت أسـأله عمَّـا حدث، فاسـتطعت كيفما اتفق أن أسـتخرج من أقواله المفككـة التي تقطعها وقفات واسـتطرادات لا داعي لها أن موظفاً من موظفـي الإقليم قد جاءه "فجأة" في الساعة السابعة من الصباح.

ـ "معذرةً، لقد نسـيت اسـمه. ما هو من أبناء البلاد" (بالفرنسـية) ولكنني أعتقد أن لمبكه هو الذي جاء به. "شخص غبي ألماني الهيئة اسمه روزنتال".

ـ أتراه هو بلومر؟

ـ بلومر. نعم، هذا هو الاسـم الذي ذكره. "هل تعرفه؟ شـخص أهبل يدل وجهه على رضاه عن نفسـه، ومع ذلك قاس صلب حاد" (بالفرنسـية). هيئته هيئـة رجل من رجـال البوليس، من رجـال البوليس السـري. "إنني أعرفهم" (بالفرنسـية). كنـت مـا أزال نائمـاً. وطلـب منـي أن يلقـي نظـرة علـى كتبي ومخطوطاتـي، هـل تتخيـل هذا؟ "نعـم، أتذكر، لقد اسـتعمل هـذه الكلمة" (بالفرنسية). لم يعتقلني، ولكنه أخذ الكتب.. "كان يقف بعيدًا" (بالفرنسية)، ولمـا بدأ يشـرح لي الغرض مـن زيارتـه، كان وجهه يدل أنه يتصـور أنني... "الخلاصـة كان وجهـه وجه من يظن أنني سـأهوي عليه فوراً وآخذ أضربه ضرباً عنيفاً. جميع أمثاله من أبناء الطبقة الدنيا هم كذلك" (بالفرنسـية) حين يجدون نفسـهم أمام رجل محترم. طبيعي أنني فهمت كل شـيء على الفور. "إنني أتهيأ لهذا منذ عشـرين سـنة" (بالفرنسـية). فتحت لـه جميع الأدراج وأعطيته المفاتيح: أعطيته المفاتيح بنفسـي، سـلَّمته كل شـيء. "كنت رصيناً وهادئـاً" (بالفرنسـية). أخـذ من الكتب طبعات هرتسـن الأجنبية، والنسـخة المجلدة من "الناقوس"، وأربع نسـخ من قصيدة، "الخلاصة، أخذ كل ذلك" (بالفرنسية). وأخذ أوراقاً ورسائل وأخذ "بعض مسوداتي التاريخية والنقدية والسياسية" (بالفرنسية). ذلك كله حملوه. لقد قالت ناستاسيا أن جندياً حمل هذه الأشياء كلها على نقالة مغطاة بفوطة، نعم، "هكذا" (بالفرنسية)، بفوطة.

كان يهـذي. مـن ذا يسـتطيع أن يفهـم مـن كلامـه شـيئاً؟ وطفقـت ألقي عليـه الأسـئلة من جديـد: هل جاء بلومـر وحيداً، أم كان معـه أحد؟ من أمره

بالمجيء؟ بأي حق؟ كيف جرؤ؟ ما هو التفسير الذى ذكره؟

ـ "كان وحيداً، وحيداً، نعم" (بالفرنسية)... على كل حال كان هناك شخص آخر "في حجرة المدخل، أتذكر ذلك، ثم..." (بالفرنسية). نعم كان هناك شخص آخر على كل حال، في ما أظن. وفي المدخل كان يرابط حارس. يجب أن نسأل ناستاسيا. هي تعرف ذلك كله خيراً مما أعرفه أنا. "كنت أنا مهتاجاً اهتياجاً شديداً، كما تعلم" (بالفرنسية). "وكان يتكلم، ويتكلم... قال أشياء كثيرةً جداً..." (بالفرنسية). ولكنه لم يتكلم إلّا قليلاً، وإنما كنت أنا الذي أتكلم. رويت قصة حياتي كلها، من هذه الناحية طبعاً. "صحيح أنني كنت مهتاجاً اهتياجاً شديداً، ولكنني كنت رصيناً، أؤكد لك" (بالفرنسية). على أنني أخشى أن أكون قد بكيت. أما النقالة فقد أخذوها من عند صاحب الدكان التي تقع بجانبنا.

ـ رباه! كيف أمكن أن يقع هذا كله! و لكن ناشدتك الله يا ستيفان تروفيموفتش، تكلم بشيء من الدقة والوضوح! إن ما تقصه عليَّ حلم.

ـ "عزيزي" (بالفرنسية)... أنا نفسي أعتقد بأنني أحلم... "هل تعلم؟" (بالفرنسية). "لقد نطق باسم تلياتنيكوف" (بالفرنسية) وأظن أن تلياتنيكوف هذا هو الذي كان مختبئاً عند المدخل. نعم، أتذكر الآن: لقد اقترح عليَّ أن أستدعي وكيل النيابة ودمتري متريتش فيما أظن... "دمتري متريتش الذي لا يزال مديناً لي بخمسة عشر روبلاً ربحتها منه في اللعب بالورق... أقول هذا بالمناسبة عابراً... الخلاصة: إنني لم أفهم كثيراً". (بالفرنسية). ولكنني كنت أمكرَ منهم. ما شأني ودمتري متريتش! أظن أنني رجوته أن يُبقي الأمر سراً، نعم توسلت إليه، تضرعت إليه... أخشى أن أكون قد أسرفت في التذلل له. "ما رأيك؟"... الخلاصة أنه قبل... بل لا... إنني أتذكر أنه هو الذي قال إن الأفضل أن يبقى الأمر سراً مكتوماً، لأنه لم يجئ إلّا لإلقاء نظرة عابرة، على حد تعبيره... ولا شيء غير ذلك، نعم، لا شيء غير ذلك، فإذا لم يعثر على شيء بقي الأمر عند هذا الحد ولم يتجاوزه. لذلك افترقنا "صديقين".

" إنني راضٍ كل الرضى".

هتفت أقول له مستاءً استياء الصديق من صديقه:

ـ ما هذا الذي تقوله؟ أيعرض عليك ضمانات هي من حقك في مثل هذه الحالة ثم ترفضها بنفسك؟

ـ كان الأحسن أن أتنازل عن الضمانات. علام أحدث فضيحة؟ لقد كان من الأفضل أن نفترق صديقين موقتاً... ذلك أن الأمر إذا شاع في المدينة، "فإن أعدائي... ثم علام وكيل النيابة، علام هذا الخنزير وكيل النيابة الذي أساء الأدب معي مرتين، والذي ضُرب ضرباً مبرحاً في إحدى السنين عند تلك الفاتنة الجميلة ناتاليا بافلوفنا، حين اختبأ في مخدعها. ثم... يا صديقي"، لا تواجهني باعتراضات تلو اعتراضات، ولا تؤسني وتثبط عزيمتي، أرجوك، فحين يكون المرء تعيساً فلا شيء أبغض إليه وأبعد عن قدرته على الاحتمال من أن يسمع أصدقاءه يقولون له إنه ارتكب غلطة. ولكن هلاً جلست وشربت كأساً من الشاي! أما أنا فأعترف بأنني متعَب كثيراً... يخيَّل إليَّ أني أحسن صنعاً إذا أنا اضطجعت ووضعت كمَّادة خلٍ على رأسي. ما رأيك؟

صحت أقول له:

ـ حتماً. بل أنت في حاجة أيضاً إلى جليد. إنك مضطرب اضطراباً شديداً. وجهك شاحب ويداك ترتعشان. اضطجع، ارتح قليلاً، ولا تقل شيئاً. سأبقى جالساً إلى جانبك انتظر أن تتحسن حالك.

ـ لم يشأ أن يضطجع. ولكنني ألححت. وجاءتنا ناستاسيا بخلٍ في طاسة. فبللت بالخل المنشفة ووضعت المنشفة على رأسه. ثم صعدت ناستاسينا على كرسي وأخذت تشعل قنديلاً أمام الأيقونة. لاحظتُ ذلك مدهوشاً. فإنني لم أرَ عند صاحبي قبل ذلك قنديلاً قط.

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول لي وهو يرمقني بنظرة ماكرة:

ـ أنا الذي أمرت ناستاسيا بذلك بعد انصرافهم رأساً. "إذا كان لدى المرء أشياء من هذا النوع، وجاؤوا يعتقلونه" فإن هذا يكون له أثره، لأنهم لا بد أن ينقلوا ما رأوا...

أشعلت ناستاسيا القنديل، وظلت واقفةً في العتبة، مسندة خدها إلى راحة يدها اليمنى، وأخذت تتأمل مولاها وقد ظهر على وجهها حزن شديد.

فدمدم ستيفان تروفيموفتش يقول لي:

ـ "أبعدها" بأية حجة من الحجج. إنني أكره هذه الشفقة الروسية. ثم إن هذا يضايقني ويزعجني.

ولكن ناستاسيا خرجت بعد لحظة من تلقاء نفسها. ولاحظتُ أنه لا ينقطع عن النظر إلى الباب والإصغاء إلى أيسر ضجة صادرة عن حجرة المدخل.

قال وهو يلقي عليَّ نظرة ذات دلالة:

ـ "يجب على المرء أن يكون مستعداً، كما تعلم". في أية لحظة قد يأتون، فيقتادونني، فإذا أنا أختفي في مثل لمح البصر.

ـ عجيب! ما هذا الذي تقوله؟ من ذا يختفي؟ من الذي يقتادك؟

ـ يا "عزيزي" لقد سألته ملحاً حين انتهى عما سيفعلونه بي.

صحت أقول مستاءً:

ـ ليتك سألته أيضاً إلى أين سينفونك!

ـ ذلك بعينه ما عنيته بسؤالي. ولكنه انصرف من دون أن يجيبني. في ما يتعلق بالملابس والثياب، ولا سيما الثياب الدافئة، سوف يكون الأمر على ما يحبون. فإذا أذنوا لي بحملها كان هذا من حسن حظي، ولكنهم يستطيعون أيضاً أن ينفوني مرتدياً معطف جندي. غير أنني (هنا خفض صوته وهو ينظر إلى الباب الذي خرجت منه ناستاسيا منذ هنيهة) قد دسست خمسة وثلاثين روبلاً في بطانة جيب صديرتي التي كانت مفتوقة. أنظر، هي هنا، جُسَّها بيدك. أظن أنهم لن ينتزعوا مني صديرتي. ومن أجل التمويه، تركت سبعة روبلات في محفظة نقودي، فكأنني أقول لهم: "هذا كل ما أملك"، ثم إني تركت قليلاً من النقود على المائدة، بحيث لا يحزرون أنني خبأت المال، بل يعتقدون أن هذا كل شيء فعلاً. الله يعلم أين سأقضي الليلة!

خفضت رأسي أمام هذا الجنون. واضح أن اعتقال الناس وتفتيشهم لا

يكون بهذه الطريقة التي يصفها. لقد خلط كل شيء ما في ذلك شك. صحيح أن هـذه القصة كان يجري مثلها قبل تطبيق القوانين الجديدة. وصحيح أيضاً أنـه اقتُرح عليـه إجراءٌ أقرب إلى الأصـول المتعبة، ولكنـه "كان أمكرَ منهم" فرفض... ولا شـك أن الحاكم في الماضي، منذ زمن غير بعيد، يسـتطيع في بعـض الحالات القصوى... ولكن أين "الحالة القصـوى" هنا؟ ذلك ما كان يدهشني.

قال ستيفان تروفيموفتش فجأة:

ـ لا شك أنهم تلقوا برقية من بطرسبرج.

ـ برقية؟ بشأنك؟ عن مؤلفات هرتسن وقصيدتك؟ إنك فقدت عقلك. لا يُعتقل الناس لأسباب كهذه.

لقد غضبتُ فعلاً. فصعَّر وجهه، وظهر عليه التأذي، لا من لهجتي بل من قولي إنه ليس ثمة ما يدعو إلى اعتقاله.

دمدم يقول بهيئة ملغزة:

ـ هل يعرف المرء في هذا الزمان لماذا يمكن أن يعتقل؟

فإذا بفكرة مجنونة تلمع في ذهني على حين فجأة، فأقول له:

ـ ستيفان تروفيموفتش، قل لي وأنا صديقك الذي لا يخونك: أأنت تنتمي إلى جمعية سرية ما؟

فما كان أشد دهشتي حين لاحظت أنه هو نفسه لا يعرف. ذلك أنه أجابني بقوله:

ـ هذا يتوقف على الجهة التي ننظر منها إلى الأمور...

ـ كيف؟

ـ حيـن ينذر المرء نفسـه لفكـرة التقدم من أعمـاق قلبـه، وحين...مَنْ ذا يسـتطيع أن يجزم؟ رب شـخص يتخيل أنه لا ينتمي إلى أيه جمعية، حتى إذا نظر إلى الأمر من كثب اكتشف نقيض هذا تماماً.

ـ مستحيل. إما أنه ينتمي وإما أنه لا ينتمي!

ـ يرجـع عهد هـذا الأمر إلى أيام بطرسـبرج، إلـى الوقت الـذي أردنا فيه

إنشـاء مجلة. ذلك مصدر كل شيء. لقد انصرفنا حينذاك فنسونا، ثم تذكرونا الآن. عزيزي، ألا تعرف كيف تجري الأمور؟

كذلك هتف متوجعاً، ثم تابع كلامه يقول:

ـ يعتقلونـك ويُركبونـك زحّافـة ويمضـون بك إلى سـيبيريا إلـى الأبد أو ينسونك في معقل من المعاقل.

قـال ذلك وانفجر يبكـي منتحباً. كانت دموعه تسـيل غزيـرةً على خديه، وظل ينشـج هـذا النشـيج المتشـنج خلال خمـس دقائـق، ضاغطـاً بمنديله الأحمر على عينيه.

اضطربـتُ من ذلك اضطراباً شـديداً. إن هذا الرجل الـذي كان لنا بمثابة نبي منذ عشـرين سـنة إلى الآن، وكان معلّمنا وكان إمامنا، وكان يعاملنا بتلك الأبهة وتلك الفخامة كلها، وكان يتسـلط علينا من علٍ، وكنا نقدسـه تقديسـاً مـن أعمـاق قلوبنا، ونعـدُّ وجوده بيننا شـرفاً لنا، إن هذا الرجـل ينتحب الآن انتحاب صبي مذنب ينتظر أن يُجلد بالسوط. شعرت نحوه بشفقة عميقة. إنه يؤمـن بأن الزحافة آتية لنقله كإيمانـه بوجودي قربه، بل إنه ينتظر وصولها في هذا الصباح نفسـه. إنه يؤمن بأنهم سـيجيئون لاعتقاله في هذه اللحظة ذاتها. وذلك كله بسبب مؤلفات هرتسن، وبسبب قصيدة لا أدري ما هي! ألا إن هذا الجهل بالواقعِ والانفصال عنه يبلغان من التمام والقوة ما يجعل حالة الرجل مؤثرة ومغيظةً في آن واحد.

وأخيـراً كـفّ عن البـكاء، وقام عن ديوانه، وعاد يمشـي فـي الغرفة طولاً وعرضاً، مع اسـتمراره في التحدُث إليَّ. ولكنه كان ينظر من النافذة من حين إلى حين، و يصيخ بسـمعه إلى أيسـر ضجة. وكان حديثنا متقطعاً لا تسلسـل فيه، وكانت جميع الأقوال التي يمكن أن أسوقها له لأطمئنه لا تحدث فيه أي تأثير. كان لا يصغي إلّا قليلاً، ولكنه كان في حاجة كبيرة إلى أن أهدئ روعه وأطمئن نفسـه، وإلى أن يسـمعني أتكلم في هذا المعنى بغير توقف. ورأيت أنه أصبح لا يسـتطيع الاسـتغناء عنـي، وأنه لن يدع لـي أن أنصرف بحال من الأحوال، فبقيت وقضينا معاً أكثر من ساعتين. وتذكر أثناء الحديث أن بلومر

أخذ منشورين وجدهما بين أوراقه.

هتفت أقول بغير روية ولا حذر:

ـ منشورات تحريضية؟ هل يُعقل أن تكون...

فأجاب بلهجة مغتاظة:

ـ دسوا لي منها نحو عشرة... فتخلّصت من ثمانية ولم يعثر بلومر إلّا على اثنين...

كان يتكلم تارةً بتعالٍ وسخط، وتارةً بشكوى ومذلة.

واحمر وجهه استياءً على حين فجأة، وقال:

ـ "أتضعني مع أولئك الناس!". هل تستطيع أن تفترض أن من الممكن أن أشترك مع هؤلاء الأوغاد الأنذال، مع هؤلاء الجواسيس، مع ابني بطرس ستيفانوفتش، مع هذه "النفوس الزاخرة جبناً وحقارة!". آه!... رباه!...

ـ ذلك ما أتساءل عنه وأشك فيه! أتراهم خلطوا بينك وبين شخص آخر... ولكن لا... هذا سخف!... مستحيل!

ـ "اسمع"... إنني أشعر أحياناً بأنني "سأحدث هنالك فضيحةً ما". آه.... لا تخرج. لا تدعني وحيداً: "لقد انتهت حياتي الفكرية والثقافية الآن. أشعر بهذا". هل تعلم أن من الممكن أن أهجم على أحد الناس وأن أعضه، كما فعل الملازم الثاني...

قال ذلك ورشقني بنظرة غريبة وجلة، ولكنها في الوقت نفسه نظرة يقرأ المرء فيها معنى الرغبة في التخويف. كان الحنق يستولي عليه. وكان يبدو غاضباً مزيداً من الغضب على شخص ما وعلى شيء ما، كلما انقضى الوقت ولم تصل "الزحافة". كان مسعوراً من شدة السخط فعلاً. وفجأة اصطدمت ناستاسيا، التي كانت في حجرة المدخل، اصطدمت بحمالة المعاطف فأسقطتها على الأرض. فتجمّد ستيفان تروفيموفتش في مكانه من شدة الهلع. ولكن حين اتضح له الأمر، أخذ يصرخ في وجه ناستاسيا، وقرع الأرض بقدمه، وطرد ناستاسيا إلى المطبخ. وبعد دقيقة، قال لي بهيئة يائسة:

ـ لقد هلكت يا عزيزي!

وجلس بقربي، وحدَّق إلى عينيَّ بنظرة تثير الشفقة. وأردف يقول:
ـ "يا عزيزي"، أنا لست خائفاً من سيبريا، أحلف لك...
حتى لقد ترقرق الدمع في عينيه. وأضاف قائلاً:
ـ وإنما أنا خائف من شيء آخر...
فأدركـت من النظر في وجهـه حينذاك أن هناك أمراً خطيراً خطورة خاصة يريد أن يقوله لي، ولكنه يتردد منذ برهة في الإفصاح عنه. وهمس يقول أخيراً بلهجة تحمل معنى السر:
ـ أنا إنما أخاف العار.
ـ أي عار؟ صدِّقني يا سـتيفان تروفيموفتش: إن كل شيء سيتضح في هذا اليوم نفسه لمصلحتك.
ـ أأنت واثق بأنهم سيغفرون لي؟
ـ يغفـرون لك ماذا؟ ما معنى هـذا التعبير؟ أي جريمة ارتكبت؟ أؤكد لك أنك لم تجن أي ذنب.
ـ "مـا يدريـك يـا عزيـزي؟". لقد كانـت حياتي كلهـا... "يـا عزيزي"... لسـوف ينبشـون ماضـيَّ كله... فـإذا لم يعثروا على شـيء، كان ذلك "اسـوأ وأنكى" عندي.
ما كان أشد دهشتي حين سمعت منه هذه الجملة الأخيرة!....
ـ أسوأ و أنكى عندك؟
ـ نعم.
ـ لا أفهم!
ـ صديقي، صديقي، لا تهمني سيبيريا، لا اتهمني آرخانجلسك، لا يهمني فقدان حقوقي. إن المرء لا يموت إلّا مرةً واحدةً... أما ما أخشـاه فهو شـيء آخر...
هنا عاد إلى الهمس، والهيئة المروَّعة، ولهجة السر.
ـ فما الذي يخيفك؟ ما الذي يخيفك؟
فقال أخيراً زائغ العينين:

ـ السوط.
فعدت أهتف خائفاً على عقله:
ـ من ذا الذي يمكن أن يجلدك بالسوط؟ وأين؟ ولماذا؟
ـ أين؟ هناك، حيث يتم الجلد بالسياط.
ـ ولكن أين؟
ـ آه... عزيزي...
كذلك دمدم يقول لي بما يشبه الهمس في الأذن:
ـ آه ...عزيزي... تخسف الأرض فجأة تحت قدميك، فتغور إلى منتصف جسمك... جميع الناس يعرفون هذا.
صحت أقول وقد فهمت أخيراً ماذا يريد أن يقول:
ـ حكايات خرافية. هل يُعقل أنك لا تزال تصدّق هذه الحكايات الخرافية القديمة؟
وانفجرت ضاحكاً.
ـ حكايات خرافية؟ لا دخان بلا نار. الذين ذاقوا هذا لا يفتخرون به طبعاً. لقد تصورت بالخيال ألف مرة كيف تجري الأمور.
ـ ولكن أنت، علام يجلدونك؟ إنك لم تفعل شيئاً.
ـ تماماً سوف يرون أنني لم أفعل شيئاً فيجلدونني.
ـ وهل أنت مقتنع بأنهم لهذا الغرض إنما سيقتادونك إلى بطرسبرج؟
ـ يا صديقي، قلت لك إنني غير آسف على شيء. "لقد انتهت حياتي الفكرية والثقافية". منذ أن ودَّعتني في سفورشنيكي لم يبق للحياة من قيمة عندي. ولكنه العار! العار! "ما عساها تقول حين تعلم؟".
قال ذلك واحمرّ احمراراً شديداً، ونظر إليَّ يائساً. فخفضت عينيَّ. ثم قلت له:
ـ لن تعلم شيئاً لأن شيئاً لن يحدث. إنك تدهشني كثيراً في هذا الصباح، حتى ليبدو لي أنني أكلمك لأول مرة في حياتي يا ستيفان تروفيموفتش.
ـ يا صديقي، ليس هو الخوف. هبهم غفروا لي، وأعادوني إلى هنا من دون

أن يصنعوا بي شيئاً. لقد هلكت مع ذلك. "ستظل تشتبه فيَّ طوال حياتي"... أنا الشاعر، أنا المفكر، أنا الرجل الذي قدّستني على مدى عشرين عاماً...

ـ لن تخطر لها هذه الفكرة على بال.

دمدم يقول باقتناع عميق:

ـ بلى. لطالما تكلمنا معاً في بطرسبرج أيامَ الصوم الكبير قبل رحيلنا، حين كنا كلانا خائفين... "سوف تشتبه فيَّ طوال حياتها". من ذا الذي يستطيع أن يحوِّلها عن هذا الخطأ؟ مستحيل! ومن ذا الذي سيصدقني أنا في هذه المدينة الصغيرة الحقيرة؟... "ثم النساء!".... سوف تكون هي سعيدة. صحيح أنها ستتألم، ستتألم كثيراً، ستتألم ألماً صادقاً، لأنها صديقة حقاً، ولكنها في قرارة نفسها، في سرها، ستُسرُ سروراً عظيماً... سأكون قد زودتها بسلاح ضدي مدى الحياة... آه... لقد تحطمت حياتي. عشرون عاماً انقضت في سعادة كاملة... والآن!...

قال ذلك و دفن وجهه في يديه.

فقلت مقترحاً:

ـ ستيفان تروفيموفتش، ألا يحسن أن تنبئ فرفارا بتروفنا فوراً بما حدث؟

فما سمع هذا الاقتراح حتى وثب عن ديوانه وقال:

ـ معاذ الله! مستحيل! أبداً! يستحيل أن أفعل هذا بعد الذي جرى في سفورشنيكي! أبداً!

وسطعت عيناه.

أحسب أننا لبثنا على هذه الحال ساعةً بل أكثر، ننتظر حادثاً يجب أن يقع في ما نتصور. وتمدد من جديد، وأغمض عينيه، وظل مستلقياً قرابة عشرين دقيقة من دون أن ينطق بكلمة، حتى ظننت أنه نام، أو أنه غفا في أقل تقدير. وها هو ذا ينتصب فجأة، فينزع عن رأسه المنشفة المبللة، ويثب عن الديوان، ويهرع إلى المرآة، فيعقد رباط عنقه مرتعش اليدين، وينادي ناستاسيا بصوت مرعد، ويأمرها بأن تهيئ له معطفه الجديد، وقبعته، وعصاه.

قال بصوت لاهث:

ـ نفد صبري. هذا فوق ما أطيق. إنني ذاهب إلى هناك بنفسي.

سألته وأنا أنهض أيضاً:

ـ إلى أين؟

ـ إلى لمبكه. يا عزيزي، لا بد لي أن أذهب إليه. هذا واجبي. إنني رجل، إنني مواطن، ولست قشة حقيرة. إن لي حقوقاً... وإنني لأطالب بأن تُحترم حقوقي... لقد أهملت حقوقي مدة عشرين عاماً، أهملتها طوال حياتي إهمالاً إجرامياً... أما اليوم فإنني أطالب بها. يجب عليه أن يقول لي كل شيء. نعم، كل شيء. لقد تلقى برقية، ولكنني لا أسمح له بأن يعذبني. ليقتلني، ليقتلني، ليقتلني!

كان يصرخ بصوت حاد وهو يقرع بقدمه الأرض.

قلت له بأكبر هدوء ممكن رغم ما تثيره حالته في نفسي من قلق شديد عليه:

ـ إنني أؤيدك. هذا أفضل حتماً من أن تبقى هنا نهباً للعذاب. ولكنني لا أؤيد فرط اهتياجك. انظر إلى وجهك في المرآة. ما هذه الهيئة؟ كيف يمكنك أن تمثل هناك على هذه الحال. "يجب أن تكون رصيناً هادئاً مع لمبكه". إنك لا تتورع الآن عن الهجوم على الناس وعضِّهم.

ـ إنني أسلمهم نفسي. إنني أرمي نفسي في فم الأسد.

ـ سأرافقك.

ـ لم أكن أتوقع غير هذا من صداقتك. إنني أقبل تضحيتك هذه التي هي تضحية صديق حق. ولكنك لن تصحبني إلى منزل لمبكه. لا يجب عليك، وليس من حقك أن تعرّض نفسك للخطر بصحبتي مدةً أطول. أوه! "صدقني: سأكون هادئاً". إنني أشعر في هذه اللحظة بأنني سأكون "في مستوى أقدس ما أقدِّس".

قلت أقاطعه:

ـ ربما دخلت معك. إن لجنتهم السخيفة قد أبلغتني أمس بواسطة فيسوتزكي أنه يعتمد عليَّ، ودعتني إلى الاشتراك في حفلة الغد مفوضاً (هذه

هي التسمية في ما أظن)... فسأكون إذًا في عداد الشبان الستة المكلفين بمراقبة الخدمة، وملاطفة السيدات، واصطحاب المدعوين إلى أماكنهم. وسنضع على أكتافنا اليسرى عقدة من شرائط بيض وحمر. لقد أردت أن أرفض، ولكنني أستطيع أن أدخل الآن المنزل بحجة أنني أريد التحدث إلى جوليا ميخائيلوفنا. سنذهب إذًا معاً.

كان يصغي ويهزّ رأسه، ولكن كان يبدو عليه أنه لا يفهم شيئاً. ووصلنا إلى العتبة. فإذا هو يقول لي ماداً ذراعه نحو الأيقونة:

- عزيزي، عزيزي، إنني أؤمن بهذا... ولكن... فليكن، فليكن... هيًا بنا.

قال ذلك ورسم إشارة الصليب على صوره.

قلت محدثاً نفسي وأنا أهبط درجات المدخل: "هذا أفضل. سوف يحسن إليه الهواء الطري. سوف يهدأ، فإذا عاد إلى البيت نام".

ولكنني لم أحسن الحساب. ففي الطريق، وقع لستيفان تروفيموفتش حادث زاده اضطراباً، ودفعه دفعاً نهائياً في طريق... إنني أعترف بأنني ما كنت لأتوقع في يوم من الأيام مثل تلك الحرارة وتلك الهمة اللتين أظهرهما صاحبنا في ذلك الصباح. مسكين صديقي الطيب.

الفصل العاشر

النصابون. صبيحة مشؤومة

1

إن الحادث الذي وقع لنا في الطريق حادث خارق تماماً. و لكن فلنذكر الأمور مرتَّبةً متسلسلة. قبل خروجنا أنا وستيفان تروفيموفتش بساعة، تظاهرت في الشوارع جمهرةٌ من عمال مصنع شبيجولين يُقدَّر عددها بسبعين تقريباً، وربما أكثر من ذلك، فأثار تظاهرها اهتمام الناس وفضولهم. كان العمال يسيرون صفاً مرتَّباً، ملتزمين الصمت. وقد رُوي في ما بعد أنهم إنما ندبهم عمال مصنع شبيجولين البالغ عددهم تسعمائة عامل ليطلبوا من الحاكم، أثناء غياب أصحاب المصنع، أن يتوسط لهم لدى مدير المصنع، ذلك أن هذا المدير قد غشَّ عمال المصنع بعد إغلاقه، وخدعهم في حساب حقوقهم، وهذا أمر أصبح لا ينكره اليومَ أحد. حتى إن بعض الناس يؤكدون أن هؤلاء السبعين لم يكونوا منتدبين من رفاقهم لينطقوا باسمهم (والحق أن عددهم أكبر من أن يكونوا وفداً منتدباً)، وإنما كانوا هم العمال الذين أصابهم ضرر أكبر فجاؤوا يطالبون بحقوقهم باسم أنفسهم لا باسم جميع العمال، فلا يمكن إذًا أن يكون الأمر أمر "ثورة" كما أُشيع في ما بعد. غير أن هناك أناساً آخرين يؤكدون أن المتظاهرين كانوا "ثواراً" حقيقين، وعصاةً عنيدين تأثروا بالمنشورات التحريضية التي وزِّعت في المصنع. الخلاصة أننا لا نعرف حتى الآن، على وجه اليقين، هل كان العمال في تظاهرهم ينفذون أوامر صدرت إليهم، أم هم خرجوا من تلقاء أنفسهم. أما أنا فأعتقد أنهم لم

يقرأوا منشورات. وهبهم قرأوها فما كان لهم حتماً أن يفهموا منها شيئاً، لأن الذيـن يحـررون هذه الأوراق يكتبـون كتابة غامضة، وإن تكن قاسـية عنيفة. ولكـن لما كان العمال يمـرون بظرف صعب فعلاً، ولما كانت الشـرطة التي لجـأوا إليها قـد رفضت التدخل والتوسـط، فقد كان طبيعيـاً أن يخطر ببالهم أن يذهبوا إلى "الجنرال نفسـه" مجتمعين، حاملين مطلبهم بارزاً للعيان، وأن يصطفـوا حول بابه، وأن يركعـوا أمامه متى ظهر لهـم، مبتهلين إليه بأصوات عاليـة. هـذه طريقة تقليديـة تاريخية، فلا حاجـة بنا، في رأيـي، لأن نلجأ إلى أي تعليـل آخـر. فالشـعب الروسـي، منـذ قديم الزمـان، يحـب أن يتجه إلى "الجنرال نفسه"، إلى الشخص القادر على كل شيء في نظره، لا لغرض إلّا لذة التحدث إليه والشكوى له، أيًّا كانت نتيجة هذا الحديث وهذه الشكوى.

وهبنـا سـلمنا بأن بطـرس سـتيفانوفتش وليبوتين وغيرهمـا ـ ربما فدكا ـ قد اسـتطاعوا أن يتصلـوا بالعمال (كما تبيح بعض االدلائـل افتراض ذلك)، وبأنهـم تحدثـوا إلـى اثنين أو ثلاثة منهم أو حتى خمسـة، لا لشـيء إلّا جسّ نبضهـم ومعرفة مدى اسـتعدادهم، فإنني مقتنع بأن الأحاديـث التي أجروها معهم لم تؤدّ إلى أي شـيء، لأن العمال إذا فهموا شـيئاً من هذه الدعاية فإنهم قد أشاحوا عنها على الفور حتماً، إذ لا بد أن تكون قد بدت لهم غبية ليس لها أيـة فائـدة عملية. أما فدكا فلعله قد أصاب عندهـم حظاً أكبر من حظ بطرس سـتيفانوفتش. فمما لاشـك فيه اليوم أن الحريق الذي شـب فـي المدينة بعد ثلاثـة أيام إنما أشـعله فدكا وعاملان من مصنع شـبيجولين. كما أن ثلاثةً من عمال هذا المصنع قد اعتقلوا بعد ذلك بشـهر بسـبب ارتكابهم جريمة سرقة وجريمة إشعال حريق. ومهما يكن دور فدكا، فيجب أن نعتقد بأنه لم يستطع أن يجتذب إلّا أولئك الخمسة، إذ لم يُسمع عن الآخرين شيء من هذا القبيل.

حيـن وصل العمال إلـى منزل الحاكم وهـم لا يزالون صامتيـن ملتزمين نظاماً تاماً، اصطفوا حول درجات الباب، ورفعوا قبعاتهم، و أخذوا ينتظرون فاغري الأفواه. انتظروا نصف سـاعة، لأن المصادفة شاءت أن يكون الحاكم غائبـاً عن منزلـه في ذلك الوقت. فلم تلبث الشـرطة أن ظهرت، أفراداً قلائل

في أول الأمر، وعدداً كبيراً بعد ذلك. وطبيعي أن الشـرطة طفقت تتعجرف، وأنـذرت المتظاهريـن بأن يتفرقـوا. ولكن المتظاهرين عنّـدوا فلم يتحركوا، كقطيـع من الخـراف أمام حاجـز، وأجابـوا موجزين مقتضبيـن بأنهم جاؤوا ليكلمـوا "الجنـرال نفسـه"، وكان واضحـاً أنهـم مصـرون علـى موقفهـم لا يريـدون أن يتزحزحـوا عنـه. عندئـذٍ حلَّـت التهديـدات والصرخـات محل التفكير. وتشاور ممثلو السـلطة مهمومين حائرين، تشاوروا بصوت خافت، فاستقر رأيهم على الإجراءات التي يجب اتخاذها. وآثر رئيس الشرطة انتظار فـون لمبكـه. ليس صحيحـاً أن إيليا إيلتش (رئيس شـرطتنا) قـد وصل على عربة تجري بسرعة كبيرة فما إن نزل من العربة حتى أسرع يشهر قبضتيه على المتظاهرين. فلا شـك أن إيليا ايلتش كان يحب في الأحوال العادية أن يعدو بمركبتـه الصفراء سـريعاً، وأنه بينما كانت تشـتد حماسـة أفراسـه فتثير حميًّا جميع تجار السـوق، كان هو يقف في المركبة منتصب القامة، متمسـكاً بزنار وضع لهـذا الغرض. مادًّا ذراعه اليمنى كتمثال، فيجتـاز المدينة كلها بأقصى سـرعة. ولكنه لم يسـتعمل اليوم قبضتيه والحق يقال. صحيح أنه لم يسـتطع عنـد نزوله من العربة أن يمتنع عن قذف بعض شـتائم مدوِّية، ولكنه لم يفعل ذلك في الواقع إلّا من باب المحافظة على سمعته. وليس صحيحاً كذلك أن جنوداً قد اسـتُقدموا حاملين بنادق عليها حـراب، وأن فصيلاً من القوزاق قد استُدعي مع بطارية من المدفعية، ببرقية. فمـا هذا كله إلّا أقاويل لم يصدقها حتـى أولئـك الذيـن أشـاعوها. وغيـر صحيـح أيضـاً أن رجـال المطافئ قد استدعوا لرش الجمهور بالماء. كل ما هنالك أن إيليا ايلتش قد غضب غضباً شديداً فصرخ يقول للعمال إنه سيلقيهم في الماء، ولعل هذا الكلام هو الذي ولَّد أسـطورة الرش تلك التي اسـتولت عليها صحف موسـكو وبطرسـبرج. والرواية الأصدق في رأيي هي أن جميع قوات الشرطة الموجودة قد طوَّقت الجمهـور في البداية، ثم أسـرعوا يوفـدون إلى فون لمبكه رسـولاً وثب إلى عربة رئيس الشرطة ومضى نحو سكفورشنيكي التي كان فون لمبكه قد ذهب إليها على مركبته منذ نصف ساعة...

إننـي لأعترف مع ذلك بأني ما زلت أتسـاءل كيف أمكنهـم أن يقلبوا هذا المسعى الذي قامت به جماعة بسيطة من أجل أن تقدم عريضة للحاكم، أقول كيـف أمكنهـم أن يقلبوا هذا المسـعى علـى الفور ـ و إن يكن عـدد الجماعة سبعين شخصاً ـ إلى ثورة زعموا أنها تهدد أسس الدولة نفسها؟ ولماذا أسرع فون لمبكه نفسـه إلى قَبول هذه الفكرة والتسـليم بها حين وصل بعد عشرين دقيقـة؟ إننـي أميل إلـى الاعتقـاد (وليس ذلـك إلّا رأياً شـخصياً أيضـاً) بأن إيليـا إيلتش، وهو صديـق حميم لمدير المصنع، قـد رأى أن من المفيد إبراز المظاهرة لفون لمبكه في هذه الصورة، حتى لا يخطر ببال فون لمبكه أن ينظر في مطالب العمال وأن يدرسها. ولكن يجب أن نذكر أن فون لمبكه نفسه هو الـذي كان قـد أيقظ هذه الخطة فـي ذهن رئيس الشـرطة. إن الحاكم ورئيس الشـرطة كانا في تلك الأيام الأخيرة قد عقدا عدة اجتماعات سـرية مشـبوهة وإن تكن غامضة مبهمة، اسـتنتج منها رئيس الشـرطة أن الحاكم يأخذ مسألة المنشـورات التحريضية مأخذ الجد كثيراً، ويقلق لها أشـد القلق، وأنه مقتنع بـأن العمـال ينتظرون صدور الأمر إليهـم ليقوموا بثورة شـاملة. كان الحاكم يبـدو متشـبثاً بهـذه الفكرة تشـبثاً يبلغ مـن القوة أنه لـو كذَّبتها الوقائع لشـعر بأسـف. ولقد حدَّث صاحبنا الخبيث إيليا إيلتش نفسـه فقـال: "وإن الحاكم يريد أن تعترف بطرسبرج بهمته ونشاطه. لمَ لا؟ إن هذا يناسبنا كثيراً!".

أمـا أنـا فأعتقد بأن المسـكين آندره أنطونوفتش كان عاجـزاً عن أن يتمنى قيام ثورة ليتاح له أن يبرز و يتميَّز. إنه موظف سـليم الخلق حي الضمير، ظل محتفظاً ببراءته إلى أن تزوج. وهل يكون الذب ذنبه إذا شـاءت الأقدار أن لا تكتفي له بالوظيفة البسيطة المفيدة التي كان يطمح إليها، وبامرأة صغيرة كان يتـوق إلى زواجها، بل وضعت فـي طريقه أميرةً عمرها أربعـون عاماً أرادت أن ترفعـه إلى مسـتواها؟ إني لأعـرف معرفةً تكاد تكون مؤكـدة أنه منذ ذلك الصباح المشـؤوم إنما ظهرت أولى الأعـراض القاطعة لذلك المرض الذي قـاد آنـدره أنطونوفتش إلى سويسـرا في ما قـال، وأودعه في تلك المؤسسـة الخاصة المعروفة التي أخذ يسـترد فيها عافيته وقواه. ولكن مع تسـليمنا بأن

تلك العلائم الواضحة إنما ظهرت في ذلك الصباح، فمن الممكن أن نسلِّم، في رأيي، بأن وقائع مماثلة وإن تكن غير قاطعة إلى هذا الحد، يمكن أن تكون قد حدثت منذ الليلة البارحة. إنني أعرف من مصدر موثوق به (افرضوا أن جوليا ميخائيلوفنا قد أفضت إليَّ بأسرارها، لا في عهد انتصاراتها، بل بعد ذلك، حين أصبحت نهباً لما يمكن أن يوصف بأنه نصف ندم، لأن النساء لا يندمن ندماً كاملاً في يوم من الأيام)، إنني أعرف إذًا من مصدر موثوق به أن آندره أنطونوفتش قد ذهب إلى امرأته في الليلة السابقة، في نحو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، فأيقظها من نومها لتسمع "إنذاره". لقد طلب منها ذلك بلهجة تبلغ من الصرامة أنها اضطرت أن تنهض عن السرير مستاءة، مغطاة الرأس بالورق الذي يُلفُّ به الشعر لتجعيده، فجلست على مضجع، و أخذت تصغي إلى كلام زوجها رغم ما ينم عنه وجهها من احتقار ساخر. وعندئذ إنما أدركت لأول مرة ما آلت إليه حال زوجها. فشعرت بجزع. ولكنها بدلاً من أن تعترف بأخطائها وتلطِّف سلوكها، أخفت جزعها وعنّدت مزيداً من العناد. أفترض أنها، كسائر الزوجات، كانت تلتزم إزاء زوجها موقفاً جُرِّب كثيراً. وهذا الموقف الذي سبق أن أحنق آندره أنطونوفيتش في كثير من الأحيان إنما هو الصمت المزدرى يدوم ساعةً أو ساعتين أو ربما أربعاً وعشرين ساعةً وربما دام ثلاثة أيام. إنه صمت عنيد لا يمكن أن يقطعه شيء مما قد يقوله أو يفعله فون لمبكه. والحق أن هذه الطريقة هي فوق ما يطيقه إنسان حسَّاس. هل أرادت جوليا ميخائيلوفنا أن تعاقب زوجها على الأخطاء التي ارتكبها في الآونة الأخيرة وعلى الحسد الذي أثارته في نفسه المواهب الإدارية لدى زوجته؟ أكانت مستاءةً من الملاحظات التي أبداها لها بشأن سلوكها مع شباننا ومع مجتمعنا كله، دالةً على أنه لا يفهم شيئاً من أهدافها السياسية الناعمة العميقة؟ أكانت غاضبةً من أنه يغار عليها من بطرس ستيفانوفتش هذه الغيرة الغبية التي لا سبب لها ولا داعي إليها؟ المهم على كل حال أنها قررت أن لا تذعن ولا تخضع رغم أن الوقت هو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، ورغم أن آندره أنطونوفتش كان يبدو مضطرباً اضطراباً

غريباً. كان خارجاً عن طوره، يذرع أرض الغرفة في جميع الاتجاهات، فقال لهـا، ولو بطريقة مشوشـة في الواقع، كل مـا كان يعتمل في قلبه، لأنه "أصبح لا يطيـق صبراً". أعلن لها أولاً أن جميع الناس يسـخرون منه، ويجرُّونه "من طـرف الأنف". "لا يهمني التعبيـر"، كذلك صرخ يقول بصوت حادٍ رداً على ابتسـامتها السـاخرة. "نعم، من طرف الأنف!... هذه هي الحقيقة... فاعلمي يـا سـيدتي أنني أرفض هذا... لقـد آن الأوان يا سـيدتي! اعلمي أن ليس هذا وقـت الضحك والغندرة!... لسـنا الآن في مخدع امرأة من نسـاء المجتمع. وإنما نحن نمثل إنسـانين مجرَّدين إن صح التعبير، التقيا في بالون ليتكاشـفا ويقـولا الحقيقـة. (واضـح أنـه كان مرتبكاً مشوشـاً فـلا يحسـن التعبير عن أفكاره، الصائبة على كل حال). إنك أنت يا سـيدتي، أنت التي أخرجتني من ظرفـي القديـم. وأنا لـم أقبل هٰذا المنصـب إلّا من أجلك، في سـبيل إرضاء مطامحك... أتبتسـمين سـاخرة؟ لا تشـعري بالانتصار... انتظري قليلاً!... اعلمـي يا سـيدتي، أنني كان في وسـعي أن أنهض بأعباء هـذا المنصب على خيـر وجه، لا بأعباء هذا المنصب وحده، بل بأعباء مناصب أخرى أخطر منه شـأناً عشـر مرات، لأنني أملك الكفـاءات اللازمة. ولكنني لا أسـتطيع ذلك معـك أنت يا سـيدتي. فبوجودك تنعـدم كفاءاتي. ذلك أن من المسـتحيل أن يسـتقيم العمـل مع وجود مركزين. وأنت قد خلقـت مركزين: واحداً عندي، وواحداً عندك، في مخدعك. مركزان للسـلطة يا سيدتي. ولكنني لن أحتمل هذا. لا. لن أحتمله. ففي الإدارة، كما في البيت، لا يمكن أن يكون إلّا مركز واحـد. يسـتحيل أن يكون هناك مركزان... ما هو موقفـك؟ إن علاقتنا تنحل إلـى مـا يلي: تبرهنين لي في كل سـاعة علـى أنني تافه، وعلـى أنني غبي، بل على أنني جبان. وأنا، في كل سـاعة أيضاً، أجدني مضطراً اضطراراً ذليلاً إلى أن أبرهـن لك على أنني لسـت تافهاً ولا غبياً، وعلى أنـني بنبلي أُذهل جميع الناس. أليس هذا مذلاً لنا كلينا؟".

هنـا أخذ الـزوج يضرب الأرض بقدميه ضرباً شـديداً، حتـى رأت جوليا ميخائيلوفنا أنها مضطرة أن تنهض مهيبة الهيئة صارمة الملامح. فسـرعان ما

هبط غضب الزوج. ولكنه سقط عندئذ في فرط الحساسية وأخذ يبكي منتحباً (نعم، منتحباً) لاطماً صدره، فاقداً صوابه فقداً تاماً بتأثير الصمت العنيد الذي تصرّ عليه جوليا ميخائيلوفنا. دام ذلك خمس دقائق. ثم إذا به يزل لسانه زللاً ما بعده زلل، فيقول إنه يغار على امرأته من بطرس ستيفانوفتش. وإذ أدرك على الفور أنه ارتكب حماقة ضخمة، فإنه لم يلبث أن غضب غضباً مسعوراً، وأخذ يصرخ قائلاً إنه لن "يسمح بإنكار وجود الله"، وإن "صالونها هذا بؤرة كفر وجحود"، وإن على الحاكم أن يكون مؤمناً بالخالق، وكذلك يجب أن تكون زوجة الحاكم أيضاً، وأنه قد ضجر واشمأز من جميع هؤلاء الشبان. وأضاف يقول: "إن من واجبك أنت يا سيدتي، نعم من واجبك أنت، حرصاً على كرامتك نفسها، أن تدعمي زوجك وأن تعلني للملأ جهاراً أنه ذكي، حتى و لو كان عاجزاً (فكيف ولست بعاجز!) ولكن الواقع هو أنك أنت السبب في أن الناس يحتقرونني هنا، فأنت التي تحرضينهم عليَّ!...". ثم صرخ قائلاً: إنه سيعدم قضية المرأة إعداماً، وإنه سيمنع من الغد تلك الحلقة السخيفة التي تزمع إقامتها لمعونة المربيات (شيطان يأخذهن!)، وإنه سيطرد من الإقليم، بواسطة قوزاقي، أولَ مربية يلقاها. "سأفعل هذا عمداً، عمداً". كذلك كان يصيح. هل تعلمين أن التافهين الذين يحيطون بك يحاولون إثارة العمال، وأنني على علم بأفعالهم هذه؟ هل تعلمين أنهم يوزعون في المدينة منشورات تحريضية، عن عمد، عن عمد؟ هل تعلمين أنني أعرف أسماء أربعة من هؤلاء الأشقياء، وأنني أفقد عقلي وأصير مجنوناً، مجنوناً، مجنوناً؟!!".

ولكن جوليا ميخائيلوفنا قطعت الصمت حينذاك، وأعلنت بلهجة قاسية أنها هي نفسها مطلعة منذ زمن طويل على هذه النيات الإجرامية، ولكن هذا كله لا قيمة له، وأن زوجها يسرف في أخذ الأمر مأخذ الجد، وأنها تعرف لا الأنذال الأربعة الذين يعرفهم فحسب، بل تعرف كذلك جميع الآخرين (هنا كانت تكذب)، لكنها لا يخطر ببالها أن تصبح مجنونة، حتى إنها تثق بعقلها وذكائها أكثر من أي وقت مضى، وتأمل أن تتم مهمتها على أحسن

وجه: تشجع الشبان، وتُسمعهم صوت العقل، وتُبرز لهم فجأة أن أغراضهم مكشوفة، ثم تقترح على نشاطهم أهدافًا أقرب إلى الرشاد وأسمى وأرفع. فما إن سمع أنطون أنطونوفتش هذا الكلام حتى جُنَّ جنونه! إذًا لقد ضحك عليه وعبث به بطرس ستيفانوفتش مرة أخرى بطريقة تبلغ هذا المبلغ كله من السوء، فهو قبل أن يجيء إليه كان قد كشف لجوليا ميخائيلوفنا عن كل شيء، وهو قد يكون المحرِّض الأساسي على المؤامرة. وها هو ذا أنطون أنطونوفتش يصيح متفجر الغضب: "اعلمي أيتها المرأة الطائشة الفاسدة أنني سأعتقل على الفور عشيقك الخطير، وأنني سأرميه في حفرة مكبلاً بالأغلال، أو أنني... أو أنني سوف ألقي بنفسي من النافذة على مرأى منك!". فكان جواب جوليا ميخائيلوفنا على هذا الكلام أن أطلقت ضحكةً طويلة منهمرة، وقد اخضرَّ لونها من شدة الغضب، ضحكة أشبه بالضحكة التي يسمعها المرء على المسرح الفرنسي حين تأخذ الممثلة الفرنسية التي تتقاضى مائة ألف روبل وتمثل أدوار الغانيات، حين تأخذ تضحك عند أنف زوجها الذي يبيح لنفسه أن يغار. فركض فون لمبكه نحو النافذة، ولكنه توقف فجأة، وعقد ذراعيه على صدره، وحدَّق إلى امرأته بنظرة مروِّعة وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة الموتى، وقال لها بصوت متقطع متوسل: "هل تعلمين، هل تعلمين يا جوليا أن من الجائز أن أرتكب عملاً رهيباً؟". ولكن كلماته استُقبلت بمزيد من الضحك، فما كان منه إلّا أن كزَّ أسنانه، وأنَّ أنةً عميقة، وهُرع لا نحو النافذة بل نحو زوجته مشهراً عليها قبضة يده؟ صحيح أنه لم يهو بيده، لا لم يهو بها قط، ولكن هذه الحركة التي بدرت منه قد أتمت هزيمته. فاصطكت ساقاه، وفرَّ هارباً إلى حجرته، فتهاوى على سريره مرتدياً ثيابه، كما هو، ودفن رأسه تحت الأغطية، ولبث على هذه الحال ساعتين كاملتين، من دون أن ينام، ومن دون أن يفكر في شيء، ولكنه مغموم القلب قد استولى على نفسه يأس كالح. وكانت تهزّه رعدات حمى من حين إلى حين، وتستيقظ في نفسه ذكريات ليس لها أية علاقة بوضعه الراهن: فهو تارةً يتذكر ساعةَ حائطٍ قديمة رآها ببطرسبرج

منذ خمسة عشر عاماً، وتنقصها إبرتها التي تشير إلى الدقائق، وتارة يتذكر الموظف المرح ميليبوا، أحد أصدقائه، ويتذكر العصفور الذي طارداه ذات يوم في حديقة ألكسندروفسكي حتى اصطاداه، فلما اصطاداه فطنا فجأة إلى أن أحدهما كان قد أصبح معاون قاض، فضحك ضحكاً شديداً. ونام أخيراً في نحو الساعة السابعة من الصباح. نام نومًا لذيذاً، ورأى أحلاماً ممتعة. حتى إذا استيقظ في نحو الساعة العاشرة وثب عن سريره، وتذكر فجأة ما قد جرى بالأمس، فلطم جبينه براحة يده. ولم يتناول فطوره، ولم يشأ أن يرى أحداً: لا بلومر، ولا رئيس الشرطة، ولا الموظف الذى جاء ليذكّره بأن عليه في هذا الصباح أن يرأس اجتماعاً يعقده مجلس الإقليم. لم يصغ الى شيء، ولم يرد أن يعرف شيئاً، وأخذ يركض كالمجنون في جميع الغرف التي كانت تشغلها جوليا ميخائيلوفنا، فأعلمته صوفيا أنتروبوفنا، وهي سيدة نبيلة عجوز تقيم عند زوجة الحاكم منذ مدة طويلة، أن جوليا ميخائيلوفنا، ذهبت إلى عند فرفارا بتروفنا في سكفورشنيكي منذ الساعة العاشر، بصحبة عدد كبير من الأشخاص، بغية أن ترى المكان الذي انعقدت النية على إقامة حفلة ثانية فيه بعد خمسة عشر يوماً، كما تم الاتفاق على ذلك مع فرفارا بتروفنا أمس الأول. فاضطرب آندره أنطونوفتش لهذا النبأ اضطراباً شديداً، فعاد إلى حجرته، وسرعان ما أمر بكدن الخيل. لقد أصبح لا يستطيع الاستقرار في مكان. إن نفسه ظامئة إلى جوليا ميخائيلوفنا: ويريد أن يتأملها مرةً أخيرةً على الأقل، وأن يبقى بقربها ولو خمس دقائق! فلعلها تجود عليه بنظرة، لعلها تلتفت إليه، لعلها تبتسم له كما كانت تفعل في الماضي، لعلها تصفح عنه! آه... آه... "ماذا فعلتم بالخيل؟". و بحركة غير إرادية فتح كتاباً ضخماً موضوعاً على المائدة، فإذا هو يقرأ هذه الجملة التي يقولها فولتير في كتابه "كانديد": "كل شيء هو أحسن ما يكون في هذه العالم الذي هو أحسن العوالم الممكنة". فأجرى يده بحركة تدل على الحسرة، وخرج راكضاً. وصاح يأمر الحوذي بقوله: "إلى سكفورشنيكي!".

وقد روى الحوذي في ما بعد أن مولاه لم ينقطع طوال الطريق عن حثّه

علـى الإسـراع، ولكن ما أن شـارفا على سكفورشـينكي حتى أمـره فجأة بأن يرجـع أدراجـه وأن يعـود إلى المدينـة قائلاً لـه: "بأقصى سـرعة، أرجوك!". فلمـا صـارا على مقربة من الأسـوار "اسـتوقفه مـن جديد، ونزل مـن العربة، وعبـر الطريق، ودخـل في حقل. ولكنـه توقف، وأخذ يتأمـل الأزهار. ولبث على تلك الحال زمناً. حتى لقد بدا لي ذلك غريباً جداً، بل إنني اضطربت منه اضطراباً شـديداً". هذا ما شـهد به الحوذي في ما بعد. إنني أتذكر كيف كان الجـو في ذلك الصباح: كان يوماً من أيام شـهر أيلول (سـبتمبر) بارداً صاحياً لكن رياحه شديدة. وأمام آندره أنطونوفتش كان يمتد منظر حزين كئيب، وهو منظـر الحقول التي حُصد زرعها منذ مدة طويلة، فليس فيها إلّا بضع زهيرات صفر شـبه يابسـة تُرعشـها الريح. هل خطر بباله أن يشـبِّه مصيره بمصير هذه الأزهـار التـي أذبلتها أولى موجات البـرد؟ لا أظن ذلك. بل إننـي لعلى يقين مـن أن خواطـره كانت تطوف فـي بعيد، ولا تلتفت إلى الأزهـار، رغم ما قاله الحوذي، ورغم ما راوه مفوَّض الشرطة الذي وصل أثناء ذلك و حكى في ما بعـد أنـه رأى في يد الحاكم باقـة من زهيرات صفر. إن مفوَّض الشـرطة هذا، فاسـيلي إيفانوفتش فليبوسـتيروف، الذي وصل إلى مدينتنـا منذ مدة قصيرة، كان قد لفت إلى نفسـه الأنظار بهمته ونشـاطه وحرارته وطاقته الجبارة وقوته الطافحة التي كان يبذلها في تنفيذ أوامر رؤسائه، وكذلك بما يلتزم من اعتدال فـي الطعام والشـراب، وهـو اعتدال كأنـه وُهب لـه فطرةً. لقد وثـب مفوَّض الشـرطة من العربـة، ومن دون أن تُربكه المشـاغل الغريبـة التي كان صاحب السعادة غارقاً فيها، أسرع يقول له بلهجة زائفة إن "المدينة في حالة غليان".

قال آندره أنطونوفتش وهو يلفت إليه وجهاً قاسياً، ولا يبدو عليه أن دُهش بتاتاً، ولا يلوح أنه يتذكر الحوذي والعربة اللذين قاداه إلى هذا المكان، حتى لكأنه في بيته، في حجرته:

ـ هيه؟ كيف؟

ـ أنا مفوض شرطة الحي الأول، فليبوسيريوف. لقد قامت ثورة يا صاحب السعادة!

قال آندره أنطونوفتش يسأله:

ـ أهم النصابون؟

ـ نعم يا صاحب السعادة. إن عمال مصنع شبيجولين يحدثون فوضى.

ـ عمال مصنع شبيجولين...

لا بد أن هذا الاسم قد ذكَّره بشيء ما، حتى لقد ارتعش، ووضع إصبعه على جبينه. وها هو ذا يتجه نحو عربته بخطى بطيئة وهو لا يزال صامتاً حالماً، ثم يصعد إلى العربة ويأمر الحوذي بأن يرجعه إلى المدينة. وتبعه فليبوستيروف راكباً عربته.

إنني أتخيل أن آندره أنطونوفتش قد فكَّر أثناء رحلة العودة هذه تفكيراً غامضاً مبهماً في أمور كثيرة هامة ومع ذلك أستبعد أن يكون عند وصوله إلى المكان قد اتخذ قراراً ما. لكنه ما إن أبصر جمهور "الثائرين" محتشداً حول درجات المدخل، وما إن رأى حبل رجال الشرطة محيطاً بهم، وما إن لمح رئيس الشرطة وألفاه عاجزاً عن القيام بأي عمل (ربما عن قصد)، وما إن وجد نفسه محط أنظار جميع تلك العيون القلقة حتى ازدحم الدم في قلبه، فنزل من العربة أصفر الوجه، وقال بصوت مخنوق لاهث:

ـ انزلوا قبعاتكم، احسروا رؤوسكم!

ثم صرخ يقول على غير توقع من أحد، بل على غير توقع منه نفسه:

ـ اركعوا على ركبكم!

ولعل كل ما حدث بعد ذلك إنما مردُّه إلى أن الأمر قد صدر عنه فجأة من دون توقع. هذا ما يحدث على الجبال الروسية: هل تستطيع الزلاجة التي تنزلق على منحدر من جليد أن تتوقف في منتصف الطريق؟ إن من سوء حظ آندره أنطونوفتش أنه قد ظل إلى ذلك الحين يظهر متساوي المزاج. فهو لم يصرخ في حياته يوماً، ولا ضرب الأرض بقدمه. وأمثال هذا الرجل يصبحون خطرين جداً إذا اتفق لهم يوماً، لسبب من الأسباب، أن أخذت زلاجتهم تنزلق على المنحدر.

أخذ كل شيء من حوله يدور.

وقال بصوت فيه مزيد من الصراخ والحدة والسخف المضحك:

ـ نصابون!

وتقبَّض حلقه. أصبح لا يعرف ماذا عساه يفعل. ولكنه كان يعلم ويحس بكل كيانه أنه سيفعل شيئاً ما.

صاحت أصوات في الجمهور تقول: "رباه!". ورسم عاملٌ شاب إشارة الصليب. وأخذ ثلاثة رجال أو أربعة يركعون. ولكن الآخرين تقدموا كتلةً واحدة وأخذوا يصرخون جميعاً في آن واحد قائلين: "يا صاحب السعادة... لقد اتفقوا معنا على أن يكون أجرنا أربعين كوبكاً... ولكن المدير... إنه لا يجوز له أن..." إلخ، إلخ... لقد كان يستحيل على المرء أن يفهم شيئاً.

وكان آندره أنطونوفتش لا يستطيع أن يدرك ما يحدث، وا أسفاه! كان لا يزال ممسكاً الأزهار بيده. وكان مؤمناً بأن الثورة قامت كإيمان ستيفان تروفيموفتش بأن زلاجةً ستقوده إلى سيبريا حتماً. وكان آندره أنطونوفتش يرى بين جمهور "الثائرين" الذين كانوا يحدِّقون إليه بأعين محملقة، يرى كالحالم في منامه أنه يبصر "محرّضهم، بطرس ستيفانوفتش، بطرس ستيفانوفتش الذي لم تنقطع صورته عن ملاحقة صاحبنا منذ أمس، بطرس ستيفانوفتش الذي يكرهه صاحبنا أشد الكره ويمقته أكبر المقت.

وزأر آندره أنطونوفتش منادياً:

ـ هاتوا السياط!

فهبط على الجمهور صمت كأنه صمت الموت.

تلكم هي الوقائع التي جرت في أول الأمر، في ما ترويه الأخبار وتقدره تخميناتي. أما ما حدث فالأخبار والتخمينات بشأنه أقل دقة ووضوحاً. ومع ذلك نملك بعض المعلومات.

ظهرت السياط بسرعة غريبة، وهذا يحمل المرء على أن يفترض أن رئيس الشرطة كان قد تنبأ بما سيحدث فأعدَّ السياط احتياطاً لكل طارئ. ولكن لم يُجلد إلّا عاملان اثنان، أو ثلاثة عمال في أكثر تقدير. وإنني ألحّ على تقرير هذه الحقيقة، لأنه زُعم زوراً وبهتاناً في ما بعد أن نصف المتظاهرين على

الأقـل قد نالتهـم عقوبة الجلد، إن لـم تكـن قد نالتهم جميعـاً. وقدا اختُلقت أمـور أخرى أيضاً، منها أن سـيدة فقيرة لكنها نبيلة المحتـد قد مرَّت بالمكان عرضـاً في ذلك الحين، فاعتُـقلـت وجلدت بدون أي ذنب، ومع ذلك قرأت بنفسـي قصـة هذا الجلـد الملفقة، فـي إحدى جرائـد بطرسبرج. ومن ذلك أيضـاً أن فتاةً اسـمها آفدوتيـا بتروفنا تارابيجين قد مـرت بالمكان في طريقها إلى الملجأ الذي تعيش فيه، فاختلطت بالمشـاهدين مدفوعةً إلى ذلك بحب الاطـلاع طبعاً، ولكنها حين رأت ما يحدث لم تملك إلّا أن تهتف قائلة "هذا عار"، وأن تبصق اشـمئزازاً. فما كان من الشـرطة، في مـا قيل، إلّا أن قبضت عليها وجلدتها. وقد اسـتولت الجرائد على هـذه القصة حتى لقد نُظِّمت في المدينـة حملةٌ تبرع للمرأة المسـكينة، سـاهمت أنا فيها بعشـرين كوبكاً. إلّا أنـه قـد ثبت اليـوم أن تارابيجيـن هذه لم تكن إلّا أسـطورة. حتـى لقد ذهبت إلى الملجأ بنفسـي سـائلاً فعلمت أن هذا الاسـم مجهول هناك، وقد اسـتاء موظفو الملجأ أكبر الاسـتياء حين نقلت إليهم الإشـاعات التي كانت تجري فـي المدينة. ولئن ذكرت آفدوتيا بتروفنا المزعومة فلأن ما وقع لها (إذا صح أنـه وقـع) كاد يقـع لسـتيفان تروفيموفتش بل لعـل ذلك الحـادث الذي وقع لصاحبي هو الذي ولَّد تلك القصة، مع إبدال اسمه باسم تارابيجين تلك التي لم يعرف أحد من هي.

لقـد أفلت مني سـتيفان تروفيموفتش، لا أدري كيف، منـذ أن وصلنا إلى المكان. إنني وقد أوجسـت شـراً، أردت أن أدور بـه دورةً لأوصله إلى منزل الحاكم، ولكن حب الاستطلاع استولى على نفسي فوقفت أسأل أحد المارة. فلما التفت بعد ذلك كان سـتيفان تروفيموفتش قد اختفى. فأسـرعت أركض بغريزتـي إلى أخطر مكان فوراً، إذا أحسسـت أن زلاَّجته هي أيضاً قد أخذت تنزلق على المنحدر، فوجدته شارعاً في العمل فعلاً، فأمسكته من ذراعه فيما أذكر، لكنه ألقى عليَّ نظرة هادئة متكبّرة، وكان وجهه ينم عن فخامة لا حدود لها، وقال لي بصوت فيه شيء من التكسر:

- "يـا عزيـزي"، إذا كانـوا هنا، فـي هذا المـكان، على مرأى ومسـمع من

جميع النـاس، يتصرّفون هذا التصـرّف بغير أي تحرّج، فما عسـى يُنتظر من "ذاك" مثلاً... إذا أتيح له أن يفعل ما يشاء له هواه؟...

قـال ذلك وهـو يرتعـش استياء، ومدَّ إبهامـه بحركـة تحـدٍ وتهديد نحو فليبوستيروف الـذي كان علـى بعـد خطوتيـن منـا، وكان ينظـر إلينـا بعينين محملقتين.

فجنَّ جنون رجل الشرطة غضباً، وصرخ يقول:

ـ "ذاك"؟ من ذا تعني؟ وأنت، من أنت؟

وجـاء نحونا قابضـاً يديه. وردد يلقي سـؤاله بغضب يدل على شـيء من الحيـرة والارتبـاك (يجـب أن أذكـر أنه يعرف سـتيفان تروفيموفتش أحسـن معرفة):

ـ من أنت؟ من أنت؟

فلو انقضت لحظة أخرى لأمسك بتلابيب صاحبي. ولكن شاء حسن الحظ أن يلتفت فون لمبكه عند سماع هذه الصرخات، فتأمل ستيفان تروفيموفتش بانتباه، وبدا عليه التردد كأنه يحاول أن يسـتجمع أفكاره، ثم حرّك يده بإشارة تململ، فتوقف فليبوستيروف، فجررت ستيفان تروفيموفتش، وأخرجته من الجمهور. ولا شك أنه كان يتمنى هو نفسه أن ينسحب.

قلت ملحاً:

ـ بسرعة، بسرعة، إلى البيت، لقد نجونا، ولم يكن ذلك إلّا بفضل لمبكه.

ـ ارجـع إلـى بيتـك يا صاحبـي. ليس مـن حقـي أن أعرِّضـك لمثل هذه المخاطـر. إن المسـتقبل مفتوح أمامك. أنتَ في مسـتهل حياتك، أما أنا فقد "دقت ساعتي"...

وصعد درجات باب منزل الحاكم بخطى ثابتة. وكان البواب السويسـري يعرفنـي، فقلـت له إننا ذاهبـان إلى جوليـا ميخائيلوفنا. وأدخلنـا إلى صالون الاستقبال.

لم أشـأ أن أتـرك صديقي. ولكنني قـدَّرت أن المزيد مـن الكلام لا طائل تحتـه ولا فائـدة منه. كان وضعه وضع رجل ضحى بحياته في سـبيل سـلامة وطنه.

جلسـنا متقابلين. فكنت أنا أقرب إلى باب الدخول، وكان هو في الطرف الآخـر مـن الصالـون، وقد جلس خافـضَ الرأس مفكـراً، واضعـاً يديه على عصاه، ممسـكاً باليسـرى قبعته ذات الحافة العريضة. ولبثنا على هذه الحال زهاء عشر دقائق.

2

دخل لمبكه فجأة بخطى سـريعة، يتبعه رئيس الشـرطة. فألقى علينا نظرة ذاهلـة ثـم اتجه نحو حجـرة عمله مـن دون أن يلقي إلينا بالاً. ولكن سـتيفان تروفيموفتـش نهض وسـدَّ عليه طريقه، وكان لقامتـه المديدة وهيئته الخاصة أثرهما فتوقف لمبكه.

دمدم لمبكه يقول مدهوشاً، وكأنه يسأل رئيس الشرطة، ولكن من دون أن يكف عن تأمل ستيفان تروفيموفتش بانتباه:

ـ من هذا؟

فأجاب ستيفان تروفيموفتش وهو ينحني بوقار كبير:

ـ أنا ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي، الموظف المحال على التقاعد.

وظل صاحب السعادة يحدِّق إليه، ولكن بنظرة كابية.

سـأله الحاكـم بتلـك اللهجة التي تدل علـى نفاد الصبر وعلـى الاحتقار، تلك اللهجة التي يسـتعملها كبار الموظفين في العادة، ومدَّ أذنه نحو سـتيفان تروفيموفتش الذي لا شك أنه واحد يطلب التماساً أو يرجو شفاعة.

قال ستيفان تروفيموفتش:

ـ لقـد فتَّـش منزلي في هـذا اليوم موظفٌ قـال إنه يفعل ما يفعـل بأمرٍ من صاحب السعادة. فأنا أريد أن...

ـ ما اسمك؟ ما اسمك؟

كذلك سـأله فون لمبكه نافد الصبر وكأنه بدأ يفهم، فكرر صاحبي اسـمه بوقار أعظم أيضاً.

ـ آ...آ... هو إذًا أمر تلك الدعاية التي تقوم بها... أيها السـيد، لقد ظهرت

بمظهر يدل على أنك... هل أنت أستاذ جامعة؟ هل أنت أستاذ جامعة؟

ـ في الماضي تشرفت بإلقاء بضع محاضرات على الشباب في الجامعة، و...

ـ على الشباب؟ على الشباب؟

بدا على لمبكه الارتجاف والارتعاش، مع أنني أراهن على أنه لمَّا يدرك الأمر بعد، ولا كان يعرف من ذا يكلم.

وصاح يقول وقد استبد به غضب مفاجئ:

ـ لن أقبل هذا! لن أسمح بهذا! أنا لا أقبل الشباب. إنهم يوزعون منشورات تحريضية في كل مكان! هذا هجوم على المجتمع. هذه قرصنة. أنتم جميعاً نصَّابون!... ماذا تطلب مني؟

ـ إن زوجتك هي التي طلبت مني أن أقرأ بضع صفحات في الحفلة التي تقيمها غداً. أنا لا أطلب شيئاً. أنا أدافع عن حُقوقي...

ـ في الحفلة؟ الحفلة لن تكون أيها السيد! لن أسمح بإقامة حفلتكم هذه؟ محاضرات؟ محاضرات؟

كذلك زأر غاضباً.

فقال ستيفان تروفيموفتش:

ـ أود يا صاحب السعادة أن تعاملني بمزيد من الكياسة، من دون أن تضرب الأرض بقدمك، ومن دون أن تصرخ في وجهي كما يصرخ المرء في وجه صبي.

ـ هل تعرف من ذا تكلِّم؟

ألقى عليه فون لمبكه هذا السؤال واحمر احمراراً شديداً. فأجاب ستيفان تروفيموفتش:

ـ أعرف من ذا أكلّم يا صاحب السعادة.

ـ أنا أحمي المجتمع، وأنت تريد تهديمه. نعم، أنت ت...هدِّ...م المجتمع! ثم إنك... تذكرتُ الآن... ألم تكن معلّماً عند الجنرال ستافروجين؟

ـ نعم... كنت... معلّماً... عند الجنرال ستافروجين.

ـ وخلال عشرين عاماً ما برحت تنشر من حولك الأفكار التي... أنظر إلى ثمارها!... أظن أنني لمحتك منذ قليل في الساحة. حذار مع ذلك أيها السيد! إن ميولك معروفة. ثق أنني أراقبك. لا يمكن أن أسمح بمحاضرات، لا، مستحيل. لا تطلب مني أنا مثل هذا الطلب.

وهمَّ أن يتابع طريقه. فقال ستيفان تروفيموفتش:

ـ أكرر أنك مخطئ يا صاحب السعادة. إن زوجتك هي التي طلبت مني لا أن ألقي محاضرة بل أن أقرأ شيئاً في حفلة الغد. ولكنني الآن أرفض هذا الطلب. وإنما أنا جئت لأرجوك أن تتفضل فتشرح لي سبب تفتيش بيتي اليوم إذا كان ثمة سبب. لقد أُخذت مني كتب وأوراق شتى ورسائل أحرص عليها، وحُمل ذلك كله على نقالة...

هنا انتفض لمبكه واحمر احمراراً شديداً وسأله:

ـ من الذي فتش بيتك؟

لقد أدرك أخيراً ما يجري. واستدار بحركة مفاجئة نحو رئيس الشرطة. وفي تلك اللحظة نفسها ظهرت عند عتبة الباب قامة بلومر الطويلة المحدودبة الخرقاء.

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يومئ إلى بلومر:

ـ هذا هو الذي فتش بيتي:

فتقدم بلومر معترفاً بفعلته ولكنه غير نادم عليها. فقال له فون لمبكه غاضباً حانقاً:

ـ "إنك لا تفعل إلّا حماقات" (بالفرنسية).

ثم لم يلبث أن عاد إلى صوابه وتغير وضعه. فقال متمتماً محمر الوجه متحيّر الهيئة:

ـ معذرةً... ربما كان ذلك كله خرافةً لا أكثر... ربما كان غلطة... نعم، غلطة...

قال ستيفان تروفيموفتش:

ـ يا صاحب السعادة لقد أتيح لي في عهد شبابي أن أشهد واقعة ذات دلالة خاصة. في ذات مساء، في دهليز مسرح من المسارح، اقترب سيدٌ من أحد المشاهدين بغتةً، فصفعه على وجهه صفعة مدوية على مرأى من جميع الناس. ولكنه سرعان ما أدرك أن الرجل الذي ناله بهذا الأذى ليس هو من كان يريد أن يصفعه وإنما هو رجل يشبهه بعض الشبه، فما كان منه إلّا أن نطق بهذه الكلمات نفسها التي تقولها أنت يا صاحب السعادة، ولكنه قالها بلهجة غاضبة مستعجلة كرجل لا يريد أن يضيِّع وقته بغير طائل: "لقد أخطأت... معذرة... هذه غلطة... غلطة لا أكثر...". فلما أخذ الرجل المظلوم يحتج، لأنه ظل مستاءً رغم كل شيء، ألحَّ الظالم قائلاً بانزعاج: "ألا يكفي أنني اعترفت بأنها غلطة. فما بالك تصيح هذا الصياح!".

قال فون لمبكه وهو يبتسم ابتسامة بغير معنى:

ـ هذا... مضحك جداً... مضحك حتماً... و لكن ألا ترى مدى ما أنا فيه من شقاء؟

لقد رفع صوته حتى كاد يكون صراخاً أثناء النطق بهذه الكلمات، ويخيَّل إليَّ أنه همَّ أن يخفي وجهه بيديه.

فهذه الصيحة الأليمة، بل أكاد أقول هذه الانتحابة المفاجئة، كانت فوق ما يحتمل قلب الإنسان. لعل آندره أنطونوفتش لم يدرك إدراكاً واضحاً ما جرى منذ الأمس، إلّا في هذه اللحظة. وسرعان ما أعقبت هذا الإشراقَ المباغت نوبة يأس ذليل لا حدود له. من يدري؟ لعله كان سينفجر باكياً ناشجاً بعد لحظة أخرى. تأمله ستيفان تروفيموفتش مبهوتاً مصعوقاً، ثم حنى رأسه وقال بصوت مؤثر:

ـ يا صاحب السعادة، لا تلق بالاً إلى شكوى رجل عجوز نقّاق. ولكن قل لهم أن يردُّوا إليَّ كتبي وأوراقي...

واضطر ستيفان تروفيموفتش أن يقطع كلامه لأن جوليا ميخائيلوفنا داهمت الغرفة مع حاشيتها صاخبةً لاغطة. و لكن يجب عليَّ أن أصف المشهد الذي أعقب هذا، أن أصفه بجميع تفاصيله ما وسعني ذلك.

3

أقـول أول مـا أقول إن الحاشـية كلهـا، وقد وصلت على ثـلاث عربات، قـد ظهرت في الصالة الواسـعة دفعةً واحـدة. إن لميخائيلوفنا مدخلاً خاصاً يقـع على يسـار البـاب ويؤدي إلـى حجراتها رأسـاً، ولكن الجميـع قد مروا بالصالة، ربما لمعرفتهم بأن سـتيفان تروفيموفتش لا بد أن يكون فيها، لأنهم قـد أطلعهـم ليامشـين على ما وقع له، كمـا أطلعهم على قضيـة عمال مصنع شـبيجولين. كانت جوليا ميخائيلوفنا غاضبة من ليامشين لأسباب لا أعرفها، فلـم تدعه إلى مشـاركتهم في رحلتهم إلى سكفورشـنيكي. لذلك عرف قبل غيـره مـا حـدث بالمدينة. وقد سـرَّه كثيـراً أن ينقل أنباء سـيئة كهـذه الأنباء، فاسـتأجر حصاناً عجوزاً وأسرع يجري في طريق سكفورشنيكي للقاء جوليا ميخائيلوفنا. وأغلب ظني أن جوليا ميخائيلوفنا رغم ثقتها قد شـعرت ببعض الاضطـراب والقلـق، ولـو إلى حين، حيـن علمت بهذه الأحـداث الخارقة. ليس الجانب السياسي من هذه الأحداث هو الذي يقلقها على كل حال: فقد سبق أن أوحى إليها بطرس ستيفانوفتش مراراً أن المشاغبين من عمال مصنع شـبيجولين لا بـد أن يُجلـدوا، وكان بطـرس سـتيفانوفتش يتمتـع لديها بثقة مطلقة منذ بعض الوقت. ولا شك أنها قالت تحدّث نفسها: "لكنه سيدفع لي ثمـن هذا غالياً على كل حال، وكانت تعني زوجها طبعاً. يجب أن أذكر عابراً أن المصادفة شـاءت بما يشـبه العمد أن لا يشـارك بطرس سـتيفانوفتش هذه المرة في الرحلة إلى سكفورشـنيكي، وأنه لم يُر طوال ذلك الصباح. ويجب أن أذكـر أيضاً في هذه المناسـبة أن فرفارا بتروفنا قد رجعـت إلى المدينة مع ضيوفها (في مركبة جوليا ميخائيلوفنا)، مصرة إصراراً مطلقاً على المشـاركة فـي آخر اجتماع للجنة تنظيم الحفلة، وهو الاجتماع الذي يجب أن يُعقد في الغد. فلا بد إذًا أن تكون الأنباء. التي نقلها ليامشين عن ستيفان تروفيموفتش قد همتها كثيراً، بل لعلها أقلقتها أيضاً.

وقد صُفِّي الحساب مع أندره أنطونوفتش بغير إبطاء. إن الحاكم قد حزر ما

ينتظره منذ رأى زوجته الفاتنة. كانت مشرقة الوجه أخاذة المحيا، ترتسم على شفتيها ابتسامة لذيذة، وها هي ذي تقترب من ستيفان تروفيموفتش بحركة رشيقة، فتمدُّ إليه يدها الصغيرة المغمدة في قفاز وتخاطبه بأرق عبارات المديح: لكأنها لم تفكر طوال هذا الصباح إلّا في الطريقة التي ستستقبل بها ستيفان تروفيموفتش معبِّرة له عن فرحها برؤيته عندها أخيراً. لم تشر أي إشارة إلى تفتيش منزله في هذا الصباح، كأنها تجهل كل شيء. ولم تقل لزوجها كلمة واحدة، ولا ألقت عليه نظرة، فكأنه غير موجود. وفي مقابل ذلك أسرعت تصادر ستيفان تروفيموفتش وتقتاده إلى الصالون، متظاهرةً بأنها تجهل أنه كان بسبيل مكاشفة مع آندره أنطونوفتش، لتدل بذلك على أن هذه المكاشفة لا قيمة لها البتة. يخيَّل إليَّ أن جوليا ميخائيلوفنا، رغم ما أظهرته من أبهة وعظمة، قد ارتكبت في هذه المرة غلطة ضخمة، ولا شك أن كارمازينوف قد شارك في ذلك مشاركة خاصة على كل حال. إنه تلبيةٌ لإلحاح جوليا ميخائيلوفنا كان قد اشترك في رحلة ذلك الصباح، فبذلك زار فرفارا بتروفنا ولو زيارة غير مباشرة، فافتتنت بتروفنا بزيارته. وحين دخل الآن آخر الداخلين فرأى ستيفان تروفيموفتش منذ صار في عتبة الباب. أطلق صيحة تعبر عن الحبور، وركض إليه يعانقه، فبذلك قطع الكلام على جوليا ميخائيلوفنا.

ـ ما أكثرها من سنين!... أخيراً... "أيها الصديق الممتاز"!...

وقبَّله مادًّا إليه خدَّه، فرأى ستيفان تروفيموفتش نفسه مضطراً إلى تقبيل الخد الممدودة إليه، فاقداً صوابه بعض الشيء.

وقد قال لي ستيفان تروفيموفتش في ذلك المساء، حين تذكّر أحداث النهار: "يا عزيزي، لقد تساءلت في تلك اللحظة من منا نحن الاثنين أشد جبناً وحقارة من الآخر: أهو، الذي قبلني ليذلني بعد هنيهة، أم أنا، الذي أحتقره وأحتقر خدَّه، ومع ذلك قبَّلت تلك الخد في حين كان يمكنني أن أشيح عنها... آه!...".

قال له كارمازينوف:

ـ هيه! تكلم! قصَّ عليَّ كل شيء.

كأن المرء يستطع أن يروي ببضع كلمات قصة حياة خمسة وعشرين عاماً. ولكن هذا الطيش كان في نظره علامة لهجة تظهر "التفوق".

قال ستيفان تروفيموفتش بتعقل كبير، وبلهجة ليس فيها إذًا أي إظهار للتفوق:

ـ لاحظ أننا التقينا آخر مرة بموسكو، في الوليمة التي أقيمت تكريماً لخرانوفسكي منذ أكثر من أربعة وعشرين عاماً...

فقاطعه كارمازينوف يقول بلهجة الألفة وبصوت حاد، وهو يشد على كتفه متحمساً تحمساً فيه شيء من الإفراط:

ـ "ذلك الإنسان العزيز!"... انقلينا إلى مسكنك بأقصى سرعة يا جوليا ميخائيلوفنا، فسنمكث هناك، فيروي لنا كل شيء.

وقد قال لي ستيفان تروفيموفتش في مساء ذلك النهار وهو يرتجف اشمئزازاً وتقززاً: "مع ذلك لم يكن بيني وبين هذا النمام العجوز أية صداقة حميمة في يوم من الأيام. وكنت في شبابي أكرهه وكان يبادلني كرهاً بكره طبعاً!"...

سرعان ما امتلأ صالون جوليا ميخائيلوفنا. وكانت فرفارا بتروفنا مهتاجة اهتياجاً شديداً، رغم أنها كانت تحاول أن تظهر بمظهر من لا يبالي. لكنني رأيت نظراتها عدة مرات مثقلةً بكره وبغض تلقيهما على كارمازينوف، ورأيت هذه النظرات مثقلةً بغضب تصبه على ستيفان تروفيموفتش، غضب مستبَق، غضب تغذيه غيرة و يغذيه حب: فلو أن ستيفان تروفيموفتش غلط هذه المرة فرضي أن يغلبه كارمازينوف على مرأى من الجميع، إذن لكان يمكن في ما أعتقد أن تهجم عليه فتخنقه. نسيت أن أقول إن ليزا كانت هناك أيضاً. ما رأيتها في حياتي أشد مرحاً مما كانت حينذاك، ولا أقل اكتراثاً، ولا أزخر فرحاً. وكان مافريكي نيقولايفتش إلى جانبها طبعاً. وبين جمهرة السيدات الشابات، والشبان الأوغاد الذين كان المجون يُعدُّ في نظرهم مرحاً وكان الاستهتار البشع يُعد في نظرهم ذكاءً، رأيت وجوهاً أخرى أيضاً: رأيت

بولندياً ماراً بالمدينة كان يتحرك ويسعى حول الجميع، ورأيت طبيباً ألمانياً هو عجوز قوي البنية كان يضحك ضحكاً مجلجلاً لكل كلمة من الكلمات الظريفة التي يطلقها هو، ورأيت أميراً شاباً واصلاً من بطرسبرج هو نوع من آلة متحركة، بارد الهيئة مرسوم القسمات، تحيط بعنقه ياقة عالية علواً خارقاً. ولكن كان واضحاً أن جوليا ميخائيلوفنا فخورةٌ جداً بوجود هذا الضيف، وأنها شديدة الاهتمام بما قد نراه من رأي في صالونها.

بدأ ستيفان تروفيموفتش يتكلّم فقال وهو يجلس على الديوان جلسة رشيقة، وينطق بالكلمات نطقاً شبيهاً بنطق الكاتب الكبير:

ـ يا سيد كارمازينوف، إن حياة إنسان ينتسب إلى عصرنا ويملك اعتقادات معينة، لا بد أن تكون متشابهة بالضرورة، ولو امتدت على فترة خمس وعشرين سنة...

تخيل الطبيب أن ستيفان تروفيموفتش قد قال شيئاً مضحكاً جداً، فانفجر يقهقه قهقهةً منقطعة تشبه أن تكون صهيل خيل. فرشقه ستيفان تروفيموفتش بنظرة تصطنع معنى الدهشة. ولكن ذلك لم يحدث في الشيخ أي أثر. والتفت الأمير نحوه كتلةً واحدة أيضاً، وتفرس فيه يفحصه بنظارتي أنفه، ولكن من دون أي تعبير عن حب الاطلاع.

تابع ستيفان تروفيموفتش كلامه فقال مكرراً عن عمد، متفاخراً من دون تحرج من اختيار الألفاظ:

ـ ... لا بد أن تكون متشابهة بالضرورة. تلك كانت حياتي خلال ربع القرن هذا، و"لما كان عدد الرهبان أكبر من عدد العقول، (بالفرنسية)، ولما كنت ممن يشاركون في هذا الرأي كل المشاركة، فقد ترتب على ذلك أنه في خلال ربع القرن هذا من الزمان...

دمدمت جوليا ميخائيلوفنا تقول وهي تلتفت نحو فرفارا بتروفنا التي كانت جالسة. إلى جانبها:

ـ رائع... الرهبان...

فأجابت فرفارا بتروفنا على ذلك بنظرة تفيض زهواً وفخراً. ولكن

كارمازينوف لم يستطع أن يحتمل هذا النجاح الذي ظفرت به الجملة الفرنسية، فأسرع يقاطع ستيفان تروفيموفتش قائلاً بصوته الحاد الصارخ:

ـ أما أنا فهادئ من هذه الناحية. إنني أقيم في كارلسروهه منذ سبعة أعوام، وحين قرر المجلس البلدي في العام الماضي إنشاء قناة جديدة للماء شعرت في أعماق نفسي أن إنشاء القنوات في كارلسروهه أعزُّ في نفسي وأحب إلى قلبي وأهم في نظري من جميع أحداث وطني الجميل... ومن جميع ما يسمى هنا بالإصلاحات وما شاكل ذلك...

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يزفر زفرة ذات دلالة، ويحني رأسه:

ـ إنني أفهمك، وإن كان قلبي يحتج.

تهللت جوليا ميخائيلوفنا جذلاً: إن الحديث يجري الآن مجرى جدياً لبرالياً.

وسأل الطبيب العجوز مستفهماً:

ـ أهي أقنية مجارٍ؟

ـ بل أقنية لمياه الشرب يا دكتور، أقنية لمياه الشرب، حتى لقد ساعدتهم في كتابة المشروع.

فانطلق الطبيب يضحك ضحكاً قوياً، وقلَّده آخرون، مستهزئين به. ولكنه لم يفطن إلى ذلك، حتى لقد بدا عليه الحبور من إشاعته هذا الجو من المرح.

قالت جوليا ميخائيلوفنا مستعجلةً التدخل في الحديث:

ـ معذرةً يا كارمازينوف، إنني لا أستطيع أن أوافق على رأيك. ولست أستغرب أن تشعر براحة في مدينة كارلسروهه، ولكنك تحب أن تموِّه على الآخرين، ونحن في هذه المرة لا نصدِّقك. من ذا بين جميع الكتاب الروس، الكاتبُ الذي أبدع نماذج تمثل الفكر الحديث أصدق تمثيل، وتنبأ بمشكلات عصرنا أكثر من سائر الكتاب، ودلَّ على الملامح المميِّزة لرجل العمل المعاصر أوضح دلالة؟ هو أنت، أنت وحدك، ولا أحد سواك. فكيف تريد أن تقنعنا الآن بأنك لا تكترث بروسيا، وبأن اهتمامك الأكبر إنما ينصب على إنشاء أقنية مياه الشرب بمدينة كارلسروهه؟ هأ هأ هأ!

قال كارمازينوف بصوته المألوف:

ـ نعم، هذا حق. لقد صورت في شخصيته بوجوديين جميع عيوب أنصار السلافية، وصورت في شخصية نيكوديموف جميع عيوب أنصار الغرب...

دمدم ليامشين يقول:

ـ "جميعهم"! قالها بنفسه!

ـ ولكنني لا أفعل هذا إلّا عابراً، تزجيةً للوقت فحسب، وإرضاءً للمطالب المستمرة لدى أهل وطني...

عادت جوليا ميخائيلوفنا إلى الكلام فقالت متحمسة:

ـ لعلك تعلم يا ستيفان تروفيموفتش أننا سيفرحنا غداً أن نسمع صفحات جميلة ممتعة... هي أثر من أحدث وأروع الآثار التي كتبها سيميون إيغوروفتش. العنوان: "شكراً". إنه يعلن لنا في هذا العمل الذي ألفه أنه لن يكتب بعد اليوم أبداً، بأية حال من الأحوال، ولو جاءت جميع ملائكة السماء أو جميع شخصيات المجتمع العالي تضرع إليه أن ينثني عن عزمه وأن يتراجع عن قراره، الخلاصة أنه يدع القلم إلى الأبد. وهذا الأمر الرشيق الجميل الذي جعل عنوانه "شكراً"، إنما يتجه به إلى الجمهور شاكراً له ما أبدى من حماسة دائمة متصلة لأعماله طوال مدة حياته الأدبية التي نذرها لخدمة الفكر اللبرالي الروسي.

كانت جوليا ميخائيلوفنا في ذروة الافتتان والحبور.

فقال كارمازينوف وقد استسلم لحنان القلب ورقة العاطفة:

ـ نعم، سأودع الجمهور. سأقرأ "شكراً"، ثم أرحل... وهناك، في كارلسروهه... سأغمض العينين...

إنه، كعدد كبير من كبار كتابنا (وما أكثرهم، كبار كتابنا) لم يستطع أن يصمد للمديح وأن يقاوم تأثيره، بل ضعف له بسرعة، رغم ذكائه، وذلك أمر يُغفر له على كل حال في ما أعتقد. يقال إن واحداً من أدبائنا الذين يُقارَنون بشكسبير قد أعلن يقول ذات يوم على حين فجأة: "هكذا نحن معشر الرجال العظام، لا نملك أن نتصرف غير هذا التصرف"، إلخ. قال ذلك حتى من دون أن يحس به.

تابع كارمازينوف كلامه يقول:

ـ هناك، في كارلسروهه، سوف أغمض عينيَّ. إننا معشر الرجل العظام لا نملك متى أنهينا رسالتنا إلّا أن نغمض أعيننا بأقصى سرعة، من دون أن ننتظر مكافأة. ذلك ما سأفعله.

قال الألماني وقد انطلق يضحك ضحكاً شديداً:

ـ قل لي عنوانك، و سأجيء أزور قبرك في كارلسروهه.

وقال أحد الشبان الصغار الذين كانوا موجودين:

ـ في هذا الزمان، يُشحن الموتى في القطار.

فانفجر ليامشين، يضحك مفتوناً. وقطبت جوليا ميخائيلوفنا حاجبيها. وإنهم لكذلك إذا بستافروجين يدخل فيصرفهم عما هم فيه.

قال ستافروجين متجهاً في أول الأمر إلى ستيفان تروفيموفتش:

ـ هه! لقد روي لي أنهم اقتادوك إلى قسم الشرطة.

فقال ستيفان تروفيموفتش مازحاً:

ـ لا بل هي قضية "خصوصية".

فقالت جوليا ميخائيلوفنا:

ـ ولكنني أرجو أن لا يكون لها أي أثر على ما طلبته منك. إنني آمل رغم الانزعاج المؤسف الذي تعرضت له وأشرت إليه، والذي لا أعرف عنه شيئاً البتة حتى الآن، أن لا تخيِّب ظننا وأن لا تحرمنا من متعة الاستماع إليك في الصبيحة الأدبية.

ـ لا أدري... أنا... الآن...

ـ حقاً إنني تعيسة جداً يا فرفارا بتروفنا.. ففي اللحظة التي أتوق فيها إلى أن أعرف معرفة شخصية واحداً من ألمع المفكرين الروس ومن أكثرهم استقلالاً في الرأي، أرى ستيفان تروفيموفتش يريد الابتعاد عنا...

قال ستيفان تروفيموفتش:

ـ كان عليَّ حتماً أن أتظاهر بأنني لم أسمع هذا المديح الذي يُقال بصوت عالٍ، ولكنني لا أستطيع أن أصدِّق أن شخصي الضعيف يمكن أن يكون ضرورة لا غنى عنها للحفلة التي تزمعين إقامتها. إنني على كل حال...

هنا دخل بطرس ستيفانوفتش بخطاه السريعة وصاح يقول:

ـ ولكنكم ستفسدونه بالدلال. فما كدت أفلح في تعليمه أن يسير مستقيماً حتى تدفقت عليه في صباح يوم واحد ضربةٌ تلو ضربة: فمن تفتيش إلى اعتقال إلى شرطي يمسك بتلابيبه، ثم ماذا أرى الآن؟ أرى السيدات ينشرن حوله البخور في صالون الحاكم! إنه الآن مفتون بنفسه. أنا من ذلك على يقين. إنه لم يحلم بمثل هذا الانتصار في يوم من الأيام. إنني أتخيل ما سيقوله الآن عن الاشتراكيين من سوء!

قالت جوليا ميخائيلوفنا بقوة وعزم:

ـ مستحيل يا بطرس ستيفانوفتش! إن الاشتراكية فكرة أعظم من أن ينكرها ستيفان تروفيموفتش.

فقال ستيفان تروفيموفتش وهو ينهض بأبهة نبيلة:

ـ الفكرة عظيمة، ولكن الذين يعتنقونها ليسوا بالعمالقة دائماً "وحسبنا هذا يا عزيزي!" (بالفرنسية).

ولكن وقع في تلك اللحظة حادث لا يمكن أن يكون في حسبان أحد أن يقع. إن فون لمبكه موجود في الصالون، منذ بعض الوقت، ولكن الحضور تظاهروا بأنهم لم يلاحظوا وجوده رغم أنهم رأوا دخوله جميعاً، كما أن جوليا ميخائيلوفنا ظلت وفيةً لأسلوبها فاستمرت تتجاهل زوجها. كان فون لمبكه جالساً قرب الباب، قاسي الهيئة مكفهر الوجه، يصغي إلى ما يدور من أحاديث. فلما أشير إلى الأحداث التي وقعت في الصباح اضطرب على كرسيه قلقاً، ثم أدار نظرته نحو الأمير. كان واضحاً أن الياقة الضخمة الطويلة التي تلف عنق الأمير قد أثرت فيه تأثيراً شديداً. وأن دخول بطرس ستيفانوفتش المداهم، ودويَّ صوته، قد جعلاه يرتعش. فما إن أنهى ستيفان تروفيموفتش جملته عن الاشتراكيين حتى اقترب منه آندره أنطونوفتش فون لمبكه، دافعاً ليامشين الذي كان في طريقه والذي تقهقر على حين فجأة مصطنعاً الدهشة ماسحاً كتفه كأن فون لمبكه قد صدمها صدماً عنيفاً. قال فون لمبكه:

ـ كفى!

وأمسك يد ستيفان تروفيموفتش بحركة قوية روَّعته، وضغطها ضغطاً شديداً. وتابع كلامه يقول:

ـ لقد انحسر القناع عن وجوه النصّابين في هذا الزمان. لا تقل كلمة واحدة أخرى. لقد اتّخذت الإجراءات...

هذه الكلمات التي قيلت بصوت عالٍ ولهجة قاطعة، قد دوَّت في الصالون كله وأحدثت شعوراً شاقاً أليماً. أحس الجميع أن شيئاً مزعجاً سيحدث. ورأيت جوليا ميخائيلوفنا يمتقع وجهها ويصفر لونها. غير أن هذا المشهد قد انتهى بحادثٍ مضحك. فإن لمبكه، بعد أن أعلن أن الإجراءات قد اتُّخذت، استدار على حين فجأة، واتجه بسرعة نحو الباب، لكنه ترنح عند الخطوة الثانية، إذ تعثرت قدمه بالسجادة، فكاد يسقط على الأرض طريحاً.

توقف فون لمبكه لحظة، وتأمل السجادة، وقال بصوت عالٍ: "يجب تبديل هذا"، وخرج. فركضت جوليا ميخائيلوفنا وراءه. وسرعان ما أخذ الجميع يتكلمون في آن واحد. وسمعت بين لغطهم هذه الكلمات "مجنون"، "مختل"، "نوبة"... وكان بعضهم يلطم جبينه بالإصبع. وفي ركن من الأركان رفع ليامشين إصبعين إلى رأسه. وخفض بعضهم أصواتهم فأشاروا إلى نزاعات عائلية. ومع ذلك لم ينصرف أحد، بل لبثوا ينتظرون. إنني أجهل الإجراءات التي اتخذتها جوليا ميخائيلوفنا، ولكنها رجعت بعد خمس دقائق باذلةً جميع جهودها من أجل أن تبدو هادئة وجواباً عن الأسئلة التي ألقيت عليها، قالت إن آندره أنطونوفتش ثائر الأعصاب قليلاً، وإن الأمر هيِّن يسير، وإنه يعاني من أمثال هذه النوبات الصغيرة منذ طفولته، وإن حفلة الغد ستسرِّي عنه كثيراً. وإنقاذاً للمظاهر لا أكثر، وجَّهت إلى ستيفان تروفيموفتش بضع كلمات من مديح أيضاً، ودعت أعضاء اللجنة إلى اتخاذ أماكنهم لعقد الاجتماع. وعندئذ فقط إنما قام أولئك الذين ليسوا أعضاء في اللجنة، من أجل أن ينصرفوا. غير أن الأحداث الأليمة التي وقعت في ذلك النهار المشؤوم لم تكن قد انتهت بعد.

حين دخل نيقولاي فسيفولودوفتش، لاحظتُ النظرة الفاحصة التي حدَّقت بها إليه ليزا. حتى لقد بلغت من طول النظر إليه والتأمل فيه أن

ذلـك لفت الانتباه أخيراً. ورأيـت مافريكي نيقولايفتش يميل عليها ليكلمها بصـوت خافـت في أغلب الظن. ولكنـه عدل عن رأيه، وعـاد ينتصب فجأة، وشـمل الجمـع بنظـرة كأنه يريـد أن يعتـذر عما بدر منـه. وقد أثـار نيقولاي فسـيفولودوفتش شيئاً من حب الاطلاع هو أيضاً. كان وجهه أشد شحوباً من عهدنـا به، وكانـت نظرته تبدو ذاهلـةً ذهولاً خاصاً. ولاح عليه أنه لم يسـمع جواب سـتيفان تروفيموفتش عن السؤال الذي وجهه إليه حين دخل، بل إني لأظن أنه نسـي أن يحيي ربة الدار. أمـا ليزا فلقد أغفل حتى النظر إليها. وإني لواثـق علـى كل حـال بأنه لم يقصـد ذلك ولم يتعمـده: كل ما هنالـك أنه لم يلاحظهـا. وفجأةً، بعد صمت قصيـر أعقب اقتراح جوليا ميخائيلوفنا بافتتاح اجتمـاع اللجنـة فوراً، دوَّى صوت ليزا الرنان منادياً سـتافروجين، متعمداً أن يسمعه الجميع طبعاً.

ـ نيقـولاي فسـيفولودوفتش، إن رجلاً يسـمى الكابتـن لبيادكين، ويدّعي أنـه قريبك، إنه أخو زوجتك، يبعث إليَّ رسـائل غير لائقة يتشـكى فيها منك ويعرض عليَّ أن يفضي إليَّ بأسرار تخصك. فإذا صح أن هذا الرجل قريبك، فاحظر عليه أن يهينني وضع حداً لأفعاله.

كانـت هـذه الكلمات تشـتمل على تحدٍّ رهيـب. وقـد أدرك ذلك جميع الحضـور. إن التهمة واضحـة. ولكن من الجائز أن تكون ليـزا قد قذفتها من دون أن تدرك ما تفعل، كإنسان يلقي نفسه من أعلى سطح مغمضاً عينيه.

ولكـن جـواب نيقولاي فسـيفولودوفتش كان أدعى إلى الدهشـة وأبعث على الذهول أيضاً.

لم يبدُ عليه شيء من الاستغراب بتاتاً، وأصغى إلى كلام ليزا بانتباه شديد وهدوء كامل. ولم يعبِّر وجهه عن اضطراب ولا عن غضب. وببسـاطة هائلة ولهجة ثابتة بل متعجلة إنما أجاب عن السؤال المحتوم قائلاً:

ـ نعـم، من سـوء حظي أن بيني وبين هذا الرجـل قرابةً. لقد تزوجت أخته منـذ زهـاء خمس سـنين، وثقي أني سـأبلغه مطالبك في أقـرب فرصة، وأني لأضمن لك أن يكف عن إزعاجك بعد اليوم.

لن أنسـى، ما حييـت، الهول الذي ارتسـم على وجه فرفـارا بتروفنا. لقد

انتصبت زائغة الهيئة، رافعةً ذراعها اليسرى فوق رأسها كأنما لتحميه. ونظر إليها نيقولاي فسيفولودوفتش، ثم تأمل ليزا، ثم طاف ببصره على سائر المشاهدين. وألمَّت بشفتيه ابتسامة، وغادر الصالون بغير تعجل. وفي اللحظة التي اتجه فيها نحو الباب نهضت ليزا عن ديوانها فجأة بحركة قوية، وهمَّت أن تركض وراءه. ولكنها سيطرت على نفسها فأمسكت عن الجري، وخرجت بهدوء، من دون نظرة تلقيها على أحد، ومن دون كلمة تقولها لأحد، يتبعها مافريكي نيقولايفتش طبعاً...

لن أقول شيئاً عن الشائعات التي جرت في المدينة في ذلك المساء نفسه، ولقد سجنت فرفارا بتروفنا نفسها في منزلها لا تبارحه. أما نيقولاي فسيفولودوفتش فيقال إنه ذهب رأساً إلى سكفورشنيكي، حتى من دون أن يرى أمه. وفي المساء أرسلني ستيفان تروفيموفتش إلى عند تلك الصديقة الغالية، (بالفرنسية) راجياً أن تأذن له بأن يجيئها زائراً. ولكنني لم أُستقبل في منزلها. كان ستيفان تروفيموفتش متأثراً تأثراً رهيباً، حتى لقد كانت الدموع تترقرق في عينيه. كان يكرر على مسمعي بغير انقطاع: "زواج كهذا الزواج! يا لها من كارثة للأسرة!". ولكن ذلك كان لا يمنعه من التفكير في كارمازينوف، وشتمه شتماً عنيفاً، وأن يجدَّ في إعداد قراءة الغد، مكرراً حركاته أمام مرآة (هذه طبيعة فنية)، مستحضراً في ذاكرته على سبيل تمليح كلامه جميع الكلمات الظريفة وجميع النكات القائمة على الجناس اللفظي التي سبق له أن هيأها ودوَّنها في دفتر خاص.

ـ يا صديقي، أنا أفعل ذلك كله في سبيل فكرتنا العظيمة "يا صديقي العزيز"، إنني أدع الانزواء الذي ألزمت به نفسي مدة خمسة وعشرين عاماً، وأرحل... إلى أين؟ لا أدري بعد... لكنني أرحل!...

الجزء الثالث

الفصل الأول

الحفلة

1

أقيمت الحفلة رغم جميع الأحداث التي جرت أمس. وفي اعتقادي أنها كانت ستُقام حتى ولو كان لمبكه قد قضى نحبه البارحة. فإلى هذا الحد كانت إقامة الحفلة هامةً في نظر جوليا ميخائيلوفنا. لقد ظلت إلى آخر لحظة ـ وا أسفاه! ـ مصرةً على عماوتها، لا تدرك الحالة النفسية التي كان عليها الناس. ومع ذلك ما من أحد كان يتصور أن ذلك النهار الفخم يمكن أن ينتهي بغير فضيحة خطيرة ما، أو بدون "خاتمة" على حد تعبير أولئك الذين كانوا يفركون أيديهم من الجذل سلفاً. صحيح أن كثيراً من الناس كانوا يحاولون أن يصطنعوا هيئة مكفهرة متشائمة، لكننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن الروس يجدون في الفضائح والمشاكل لذةً قصوى. على أن الواقع هو أن هناك شيئاً آخر أخطر شأناً من هذا الظمأ إلى الفضائح: إنه حنق عام، إنه نوع من كره وحشي كاسر. يبدو أن جميع الناس كانوا مغتاظين، وكانوا يتوقون إلى تغيير ما، أياً كان هذا التغيير. كان يرين علينا استخفاف غريب، واستهتار مقصود. السيدات وحدهن كنَّ ثابتات الرأي، ولكن في أمر واحد: هو هذا الكره الساحق الماحق الذى يحملنه لجوليا ميخائيلوفنا، والذي كانت المسكينة لا يخطر لها على بال. لقد ظلت إلى آخر لحظة مقتنعة بأنها محاطة بمحبة الناس جميعاً، وأن الناس مخلصون لها "إخلاصاً متعصباً".

سبق أن ذكرت أن أنواعاً شتى من صغار الأشرار قد ظهرت في مدينتنا.

إن أمثال هؤلاء ينبجسون في عهود الاضطراب، في عهود الانتقال، في كل زمان ومكان. لست أعني الأشخاص الذين يسمون "متقدمين"، والذين ليس لهم من هم إلّا أن لا يكونوا متأخرين متخلّفين، والذين تكون لهم في أكثر الأحيان غاية محدَّدة بعض التحديد مهما تكن هذه الغاية سخيفة. لا، فإنما أنا أعني الأوغاد. إن الوغد موجود في كل مجتمع، ولكنه لا يظهر على السطح إلّا في فترات الانتقال. وهو لا يرمي إلى أية غاية، ولا يسعى إلى أي هدف، ولا يملك أية فكرة. كل ما هنالك أنه يعبر عن نفاد الصبر، ويدل على اختلاط الأمور في المجتمع. ومع ذلك نرى الوغد، من دون أن يدرك هو ذلك، يخضع في جميع الأحيان تقريباً لجماعة صغيرة من "المتقدمين" الذين لهم هدف محدد، فهم يدفعون هؤلاء الأوغاد في الاتجاه الذي يناسبهم، على شرط أن لا يكونوا إلّا بلهاء تماماً وذلك ما يحدث في بعض الأحيان على كل حال.

الآن وقد انقضى كل شيء، يؤكد الناس لدينا أن بطرس ستيفانوفتش كان يأتمر بأوامر "الأممية"، يوجّه جوليا ميخائيلوفنا التي كانت تستخدم الأوغاد تنفيذاً لتعليماته. ويتساءل العقلاء منا مذهولين كيف أمكن تضليلهم هذا التضليل.

لا أحد يعرف (ربما باستثناء بعض الأجانب)، ولا أنا أعلم ماذا كان ذلك التململ العام والانزعاج الشامل ولا ما هو "الانتقال" المقصود: انتقال إلى أي حال؟ ومع ذلك وقعنا جميعاً تحت سيطرة أولئك الأشقياء من الأشخاص الصغار الذين طفقوا ينتقدون بصراحة كل ما هنالك من أمور هي أقدس الأمور، هم الذين كانوا قبل ذلك لا يجسرون حتى أن يفتحوا أفواههم، وراح الآخرون الذين كانوا إلى ذلك الحين يحتلّون أرفع مقام يصغون إليهم صامتين، حتى ليشجعونهم بضحكاتهم في بعض الأحيان. إن أناساً مثل ليامشين، وتلياتنيكوف، وتنتتنيكوف، وإن أغراراً مدَّعين مثل رادشتشيف، وإن يهوداً صغاراً من أصحاب الابتسامة الأليمة المتغطرسة في آن واحد، وإن ضاحكين ومسافرين عابرين، وشعراء لبراليين وافدين

مـن العاصمة، شـعراءَ يقوم عندهـم قميصٌ من قمصـان الفلاحين وحذاءان مدهونان بالقطران مقام اللبرالية والموهبة، وإن ضباطاً برتبة ميجر وكولونيل ممن لا يشـعرون نحو رتبهم العسـكرية إلّا بالاحتقـار والازدراء، والذين لا مانـع لديهـم في سـبيل زيادة قدرها روبل واحد أن يرموا سـيوفهم ليلتمسـوا وظيفة في مصلحة للسـكك الحديدية، وإن جنرالات ممن أصبحوا محامين أو موظفيـن بـلا عمل ولكنهم يحسـنون تدبيـر أمورهم وتصريف شـؤونهم ويعرفـون من أين تـؤكل الكتف، وإن شـباباً من أبناء التجـار اعتنقوا الأفكار الجديدة، وطلاباً لا نهاية لعددهم، ونسـاءً يعددْن أنفسهن بطلات مكافحات في سبيل قضية المرأة، هؤلاء جميعاً هم الذين أصبحت لهم الغلبة والسيطرة. وعلى من؟ على أعضاء نادينا، على موظفين محترمين، على جنرالات فقدوا في الحرب بعض أعضاء أجسـامهم، على سـيداتنا المتعاليـات المتكبرات. ومهما يكن من أمر فإننا لا نملك إلّا أن نعذر سيداتنا على أنهن فقدن صوابهن حين نرى أن فرفارا بتروفنا نفسها قد خضعت لسطوة هؤلاء الأشرار، إلى أن حلت الكارثة التي أصابت ابنها.

سـبق أن قلـت إن النـاس الآن يحمِّلون "الأمميـة" تبعة كل مـا وقع. وقد بلغت هذه الفكرة من قوة الرسـوخ فـي الأذهان أنهم يعللون بها الأمور حتى للوافديـن إلينـا من الخـارج (وما أكبرهم!) حتـى إن المستشـار كوبريكوف الذي يبلغ الثانية والسـتين من عمره، ويحمل وسام سان ستانسلاس، قد جاء في الآونة الأخيرة من تلقاء نفسـه يصرِّح للسـلطات بلهجـة نافذة جازمة أنه ظل مدة ثلاثة أشهر خاضعاً لتأثير "الأممية"، فلما سُئل بما ينبغي لسنِّه ورتبته مـن مداراة ومراعـاة أن يذكر بعـض الإيضاحات الدقيقة، اكتفـى بأن قال إنه "شعر بذلك شعوراً داخلياً"، ولكن هذا لـم يمنعه من الإصرار على تصريحه. لذلك تُرِك له أن ينصرف من دون أن يُلقى عليه مزيد من الأسئلة.

أكـرر مـرة أخرى: لقد وجـدت فئة صغيرة مـن العقلاء تنحَّـت جانباً منذ البداية، حتى لقد سـجنت نفسها في بيوتها وأغلقت عليها الأبواب بالأقفال. ولكـن ما من قفل يقـاوم قوانين الطبيعة. ففي الأسـر العاقلة المحاذرة توجد

دائماً فتيات لا يستطعن الاستغناء عن الرقص، فهو لهن ضرورة. لذلك رأينا أكثر الأشخاص تحفظاً يشترون في النهاية بطاقات لحضور حفلة الرقص التي نُظِّمت لمساعدة المعلّمات، لا سيما وأن الحفلة ستكون باهرة إلى أقصى حد. كان يقال إنها ستكون معجزة من المعجزات: تحدّث الناس عن أمراء سيحضرونها، وعن عشراتٍ من خيرة أبناء الأسر سيتولون الإشراف على تنظيمها عاقدين على أكتافهم اليسرى شريطاً يميزهم عن غيرهم، وتحدّثوا عن شخصية سياسية من بطرسبرج لا أدري من هي، وعن كارمازينوف الذي ارتضى في سبيل تضخيم البرنامج أن يقرأ قصيدته "شكراً" وهو في لباس معلّمة، وتحدثوا عن "رباعي أدبي" سيرتدي راقصوه أبهى الأزياء، فكل زي من هذه الأزياء يرمز إلى اتجاه أدبي، وتحدثوا عن سيدٍ سيلبس رداء خاصاً ويمثل "الفكر الروسي الصادق الأصيل"، وسيرقص هو أيضاً، وذلك كله شيء جديد لا عهد بمثله من قبل. فكيف يمكن أن يمتنع المرء عن الاشتراك في حفلة رقص كهذه الحفلة؟ هكذا انقاد الجميع للإغراء.

2

تتضمّن الحفلة، وفقاً للبرنامج، جزأين: صبيحةٌ أدبية من الظهر حتى الساعة الرابعة، وحفلة رقص تبدأ في الساعة التاسعة وتمتد على طول الليل. ولكن هذا البرنامج يشتمل بذاته على عناصر فوضى. من ذلك أولاً أن الجمهور تخيَّل أن سيكون ثمة غداءٌ بعد الصبيحة الأدبية فوراً أو أثناءها، خلال فترة استراحة تُخصّص لهذا الغرض، غداءٌ مع شمبانيا، بالمجان طبعاً، لأنه جزء من البرنامج. إن المبلغ الباهظ الذي يدفعه المشترك ثمناً للبطاقة (وهو ثلاثة روبلات) قد ساهم في ترويج هذه الإشاعة وتعزيزها: "هل كان يمكن أن أشترك لولا هذا؟ إن الحفلة تدوم أربعاً وعشرين ساعة، فلا بد من إطعام الحضور الذين سيأخذ منهم الجوع كل مأخذ". كذلك كان يفكر الناس في الأمر. يجب أن أقول إن جوليا ميخائيلوفنا نفسها هي التي خلقت بطيشها وتسرّعها هذه الأوهام المشؤومة، إنها قبل موعد الحفلة بشهر،

كانت وقد هزّتها الحماسة الشديدة لمشروعها، تزعم لكل قادم أنها ستقيم حفلةً ستُشرب فيها الأنخاب. حتى لقد أعلنت عن هذه الأنخاب التي كانت تحرص عليها حرصاً خاصاً، في جريدة من جرائد العاصمة. كانت تريد أن ترفع الأنخاب بنفسها، وكانت تهيئها منذ ذلك الحين. كان ينبغي لهذه الأنخاب في نظرها أن تجمع العقول حول "رايتنا الجديدة" (ما هي تلك الراية الجديدة؟ أراهن أن المسكينة كانت هي نفسها لا تعرفها!). فإذا نُشرت في جرائد العاصمة في صورة أنباء يبعث بها المراسلون الصحافيون، فلسوف تثير عاطفة السلطات العليا ولسوف تفتن ألباب هذه السلطات حتماً، ثم إذا هي تنتشر بعد ذلك في البلاد باعثةً على الدهشة والتنافس في كل مكان. ولكن رفع الأنخاب يقتضي شمبانيا. والشمبانيا لا تُشرب على جوع طبعاً، فلا بد إذًا من وجبة غداء. ولكن حين تشكّلت بعد ذلك لجنة لدراسة المشروع من جميع جوانبه، فإن أعضاء اللجنة لم يلبثوا أن برهنوا لجوليا ميخائيلوفنا أن إقامة مأدبة ستكلف نفقات طائلة فلا يبقى للمعلّمات شيء ذو بال مهما يكن إيراد الحفلة. وهكذا أصبح الوضع كما يلي: فإما مأدبة فاخرة وأنخاب ثم لا يبقى للمعلّمات إلّا زهاء تسعين روبلاً، وإما إيراد كبير إذا اقتصرت الحفلة على ما هو ضروري ولم تكن إلّا ذريعة لمساعدة المعلّمات. وكانت اللجنة من جهة أخرى تنصح بالتعقل والحكمة، وتقترح حلاً ثالثاً يصالح بين الأمرين ويتّصف بالاعتدال والتبصّر: اقترحت اللجنة أن تكون الحفلة لائقة من جميع النواحي، ولكن بغير شمبانيا، فإذا تمَّ ذلك كان في الإمكان أن تنال المعلّمات مبلغاً كبيراً، مبلغاً يزيد كثيراً على تسعين روبلاً. ولكن جوليا ميخائيلوفنا لم تشأ أن تسمع شيئاً عن هذا الحل الوسط. إنها تحتقر التسويات البورجوازية. وما دامت فكرتها الأولى مستحيلة التحقيق، فها هي ذي تعدل عنها لتدفع إلى الطرف الأقصى الآخر: سنحاول أن نظفر بأكبر ريع، فنستثير غيرة سائر الأقاليم. قالت في خطاب ملتهب ألقته على أعضاء اللجنة إن الأهداف الأساسية الكبرى التي نرمي إليها أهم كثيراً من ملذات الجسم العابرة، وإن حفلتنا إنما هي في الواقع تعبير عن فكرة عظيمة، فيجب أن نكتفي

إذًا بحفلـة رقص صغيرة على الطريقة الألمانية، لا تكلف نفقات كبيرة، حفلة رقص رمزية إن صح التعبير ما دام يستحيل الاستغناء عن حفلة الرقص هذه الكريهـة التـي لا تطاق!". والحق أنها كانت قد كرهـت هذه الحفلة. ولكنهم استطاعوا أن يهدئـوا روعهـا. وعندئـذ إنما تخيلـوا "الرباعي الأدبـي"، كما تخيلوا تسليات فنية أخرى من شـأنها أن تحل محل مباهج الجسم وملذات الطعام والشـراب. وعندئذ أيضاً إنما رضـي كارمازينوف الذي لم ينقطع عن التصنع والتدلل، ولم يكف عن استدرار الرجاء والضراعة، أقول عندئذ إنما رضي كارمازينوف أن يقرأ قصيدته "شـكراً" وأن يستأصل بذلك حتى فكرة الطعام من نفس الجمهور الشـره المسرف في الشـراهة. هكذا تسترد الحفلة بهاءهـا، ولكنـه بهاء من نـوع خاص. ومن أجـل أن لا يغـرق القائمون عليها غرقـاً كاملاً في السـحاب، قرروا أن يقدمـوا في بداية حفلة الرقص شـاياً مع الليمـون وحلويات جافة، ثم أن يطوفـوا بعصير البرتقال والليمون بعد ذلك، بـل وأن يقدموا في النهاية مثلجات، ولكن لا شـيء غير ذلـك. أما الذين هم جائعـون وظامئـون فـي كل وقت وفي جميع الظروف، فسـيُهيأ لهـم "بوفيه" خـاص يتعهده بروخورتش (رئيس طهاة النـادي)، ويمكن أن يُقدم فيه تحت رقابة قاسـية تمارسـها اللجنة كلُّ ما يشـتهيه المشـتهون، ولكن أثمان الطعام والشـراب لن تكون من أصـل ثمن البطاقة، وإنما يدفعها المسـتهلكون على حدة، إذ يُعلن لهم ذلك بإعلان خاص يوضع على الباب. وحمايةً للقراءة من التشـويش أثناء الصبيحة الأدبية، يظل "البوفيـه" مغلقاً، رغم أن خمس غرف تفصلـه عن الصالة البيضاء التي سينشـد فيها كارمازينوف قصيدته "شـكراً".

والأمـر الغريـب هو أن اللجنة، ومن بين أعضائها أنـاس عمليون جداً، كانت تضفي على هذا الحادث، أعني قراءة القصيدة، قيمة كبيرة وشـأناً عظيماً. أما النفوس الشـعرية فكانت حماستها أشد. حسبي أن أستشهد على ذلك بمثال زوجة مارشـال النبالة التي قالت لكارمازينوف إنها بعد إنشـاده القصيدة فوراً ستأمر بأن يُرصَّع جدار صالتها بلوحة من مرمر يُكتب عليها بأحرف من ذهب أن الكاتـب الروسـي والأوروبي الكبير قد أنشـد قصيدته "شـكراً" للجمهور

المتمثِّل في شخصيات مدينتنا، وذلك في يوم كذا، وهو اليوم الذي ترك فيه قلمه وودَّع الكتابة. وستكون هذه اللوحة بما عليها من كتابة، مهيأة عند افتتاح حفلة الرقص، أي بعد الحادث التاريخي بخمس ساعات. وإني لأعلم من مصدر موثوق به أن كارمازينوف خاصةً هو الذي طالب مصراً بأن يظل "البوفيه" مغلقاً أثناء الصبيحة الأدبية، رغم ما ارتآه بعض أعضاء اللجنة من أن هذا ليس من مألوف عاداتنا.

هذا ما كان قد تقرر بينما كان الناس في المدينة يأملون أن يحضروا مأدبة، أي أن يأكلوا ويشربوا بالمجان. لقد ظلوا يعوِّلون على هذا إلى آخر لحظة. وكانت الآنسات تحلم بسكاكر وحلويات توزَّع وافرة بغير عد، وتحلم كذلك بأمور خارقة لا أدري ما هي! كان معلوماً أن الرَّيع ضخم، وأن المدينة كلها ستتهافت على حفلة الرقص، وأن كثيراً من الناس يفدون من المقاطعات المجاورة خصيصاً لشهود الحفلة، وأن الجمهور يتخاطف التذاكر تخاطفاً. وكان معلوماً كذلك أن عطايا ضخمة قد قُدِّمت: فالسيدة فرفارا بتروفنا مثلاً قد اشترت تذكرتها بثلاثمائة روبل ووهبت من مزارعها جميع الأزهار التي ستزين الصالة. وزوجة مارشال النبالة (وهي عضو في اللجنة) قد قدَّمت منزلها والإضاءة. كما أن النادي تبّرع بالموسيقى والخدم، وتنازل عدا ذلك عن طباخه طوال النهار. إنني أصرف النظر عن عطايا أخرى أقل ضخامة. وقد خطر بالبال تخفيض ثمن التذكرة وجعله روبلين لا ثلاثة. ذلك أن اللجنة قد خشيت في أول الأمر أن يكون من شأن الثمن الباهظ، وهو ثلاثة روبلات، أن يحول دون مجيء الآنسات، حتى لقد قام في الأذهان بيع بطاقات عائلية. فالآباء قد لا يدفعون ثمن بطاقة الدخول إلّا لواحدة من بناتهم، فلا مانع أن تدخل الأخريات بالمجان ولو كان عددهن عشراً. غير أن هذه المخاوف لم تلبث أن تبددت: فالآنسات جئن زرافات ووحدانا، وأصغر الموظفين اصطحبوا بناتهم جميعاً. طبيعي أنهم ما كانوا ليفكروا في المجيء لولا أن لهم بنات. إن سكرتيراً صغيراً فقيراً قد جاء ببناته السبع، مع امرأته طبعاً، ومع ابنة أخته كذلك، فكانت كل واحدة منهن تحمل بيدها عند الدخول بطاقتها

التـي ثمنهـا ثلاثة روبلات. تسـتطيعون أن تتصوروا بسـهولة أن المدينة كلها كانـت في ثورة. وإذ كانت الحفلة تشـتمل على صبيحـة أدبية وحفلة رقص، فقـد كان على السـيدات أن يكون لكل منهن ثوبان: واحـدٌ للاجتماع الأدبي والثاني للرقص. لذلك فإن عدداً من رجال الطبقة المتوسـطة، كما عُلم ذلك في ما بعد، قد رهنوا لهذه المناسبة كل ما يملكون من بياض، حتى لقد رهنوا أغطيـة الأسـرَّة، إن لـم يكونوا قد رهنوا الفُرُش نفسـها، لدى يهـودٍ كانوا منذ سـنتين قد أخذوا يتوافدون إلى مدينتنا ويسـتقرون فيها ويزداد عددهم شـيئاً بعد شيء. وجميع الموظفين تقريباً قد اقترضوا سُلفاً على مرتباتهم. حتى أن بعض الملاَّكين قد باعوا بعض مواشـيهم. كل ذلك من أجل أن تلبس بناتهم لباسـاً حسـناً، وأن لا يظهرن دون غيرهن. أما التزين فلم يُرَ له مثيل قبل ذلك في مدينتنا. غير أن نوادر كثيرة عن الحياة الخاصة التي يعيشـها عدد من أسـر المدينة قد تناقلها الناس في كل مكان قبل الحفلة بخمسة عشر يوماً، وتطوَّع بعض المازحين فأسـرعوا ينقلونها إلى جوليـا ميخائيلوفنا. وقد تناقل الناس كذلـك صوراً كاريكاتورية رأيت بعضها في ألبـوم جوليا ميخائيلوفنا. وذلك كلـه قد وصـل إلى مسـامع أولئك الذيـن كانوا موضـوع هذه النـوادر وتلك الرسـوم. وأغلب ظنـي أن ذلك هو مصدر الكره الذي حملـه كثير من الناس لامـرأة الحاكم فـي الأيام الأخيـرة. إن جميـع الناس لا يتذكـرون الآن تلك الذكريـات حتـى يثور غضبهم. ولكـن كان واضحاً منذ ذلك الحين أن أيسـر هفوة تقع فيها اللجنة وأن أيسر خلل يحدث يمكن أن يفجِّر غضب الجمهور قوياً عنيفاً. لذلك كان كل واحد يتوقع بينه وبين نفسه حدوث فضيحة ما. وإذا كان الجميع يتوقعون الفضيحة فلا بد أن تقع الفضيحة حتماً.

فـي الظهر تماماً بدأت الأوركسـترا تعزف. ولما كنتُ واحداً من الشـبان المشـرفين الذيـن يبلغ عددهم اثني عشـر شـخصاً ويزدان كتفهـم بعقدة من شـريط، فقد رأيت بنفسـي كيف بدأ ذلك النهار المخزية ذكراه. لقد بدأ الأمر بتزاحم وتدافع عند المدخل. لماذا جرى كل شـيء مجرى سـيئاً منذ اللحظة الأولى، ولماذا لـم تكن الشـرطة نفسـها في مستوى الظـروف؟ إنني لا أتَّهم

الجمهـور الحقيقـي. إن آباء الأسـر، مهمـا تكن رتبهـم عالية، لم يسـتعملوا أكواعهـم ولـم يحاولوا أن يدخلوا قبـل غيرهم. بل إنه ليقـال، خلافاً لذلك، إنهم تنحوا جانباً، وضاقوا صدراً بهذا المشـهد الذي لا عهد لنا بمثله، مشهد الحشـد محاصـراً درجـات المدخل متزاحماً علـى الباب. وكانـت العربات تصل أثناء ذلك إلى أن سدَّت الطريق آخر الأمر.

في السـاعة التي أكتب فيها هذه السـطور، أستطيع أن أؤكد، بالاستناد إلى وقائع ثابتة، أن ليامشـين وليبوتين وربما غيرهما أيضاً، وهم جميعاً مشرفون مثلي، قد سمحوا بالدخول من غير بطاقة لأفراد من أوباش الناس. لقد رؤي انبجاس أشـخاص مجهولين تماماً، جاؤوا مـن الريف أو وفدوا لا أدري من أيـن! فما إن دخل هـؤلاء الجفاة المتوحشـون إلى الصالـة (وكأنهم ينفذون كلمة سر) حتى أخذوا يسألون عن "البوفيه". فلما علموا أن ليس ثمة "بوفيه" أخذوا يطلقون شتائم فظة، بوقاحة لا مثيل لها وبذاءة غير معروفة عندنا حتى ذلـك الحين. وكان عدد منهم سـكارى قد أخذ منهـم الثمل كل مأخذ. وكان بعضهم يبدو مشـدوهاً مبهوتاً من عظمة الصالة لأنه لم ير قبل اليوم شيئاً يبلغ هـذا المبلـغ من البهـاء والأبهة، فهؤلاء جمـدوا في مكانهم لحظـةً، وجعلوا ينظـرون من حولهم فاغرين أفواههم. إن هذا الصالة البيضاء الواسـعة، رغم أنهـا قديمة جداً منـذ الآن، لها في الواقع مظهر رائع باهـر: صفَّان من النوافذ المنضودة، بعضها فوق بعض، سقف مغطى بنقش وحفر وتذهيب، وشرفات، وجـدران تزينهـا مرايا ومفارش حمراء، وتماثيل من مرمـر (إنها تماثيل مهما تكن)، أثـاث مهيب (يرجع عهده إلى عصر نابوليون) مدهون ببياض وذهب ومكسو بمخمل قرمزي اللون. وفي آخر القاعة نُصب منبر للذين سيشاركون في الصبيحة الأدبية. وفي سـائر القاعة صُفَّت كراسٍ كما تُصف في مسـرح، وجُعلـت بيـن صفوفها مسـافات عريضة تسـمح بمرور الجمهـور. ولكن ما إن انقضـت دقائق الدهشـة الأولى حتى أخذ النـاس يتبادلون ملاحظات من أغـرب ما تكـون الملاحظات، ومن أغبى مـا تكون الملاحظـات. "ربما كنا لا نريد إنشـاد الشـعر... لقد دفعنا ثمن تذاكر الدخول مبلغاً طائلاً... خدعوا

الجمهور... نحن هنا السادة لا آل لمبكه!..." . الخلاصة: لكأنهم ما أُدخلوا إلّا ليحدثوا لغطاً وفوضى. أتذكر على وجه الخصوص حادثاً كان بطله ذلك الأمير الذي يلتف عنقه بياقة عالية مسرفة في العلو، والذي يشبه أن يكون وجهه آلة متحركة من تلقاء ذاتها، إنه ذلك الأمير الذي لقيته أمس عند جوليا ميخائيلوفنا. لقد قبل بعد إلحاح من جوليا ميخائيلوفنا أن يعلِّق على كتفه اليسرى عقدة شريط، وأن يكون بذلك أحد المشرفين. فهذا الشخص الأبكم الذي تكاد حركاته أن تكون حركات آلة اتضح أنه يستطيع أن يفعل إذا كان لا يستطيع أن يتكلم. لقد ناداه كابتن محال على التقاعد، ناداه بفظاظة وغلظة، وهو رجل عملاق في وجهه بقايا من بثور الجدري، شجعته عصبة من الأوغاد فطالب بأن يُقاد إلى "البوفيه". فما كان من الأمير إلّا أن أومأ لرجل من رجال الشرطة، فأسرع الشرطي يتدخل فوراً ليخرج الكابتن من القاعة رغم احتجاجاته الصارخة وزعيقه المتصل. وفي أثناء ذلك أخذ الجمهور "الحقيقي" يصل ويجلس متسللاً بين الممرات الثلاثة التي جُلعت بين صفوف الكراسي. وصمت الصياحون شيئاً فشيئاً. ولكن الجمهور "الرفيع المقام" كان يبدو عليه عدم الرضى وكانت تبدو عليه الدهشة. وكان عدد من السيدات يبدو مرتاعاً لا أكثر ولا أقل.

واستقر كل فرد في مكانه أخيراً. وصمتت الموسيقى. كان الناس يتمخّطون وينظرون من حولهم. وكان للانتظار أبهة وفخامة. وهذا في العادة نذير سوء. لم يصل لمبكه وزوجته حتى الآن. لا ترى الأعين في ما حولها إلّا حريراً ومخملاً وماساً. العطور تملأ الجو. السادة يحملون جميع أوسمتهم، حتى إن المتقدّمين في السن وأصحاب الرتب العالية يرتدون بزاتهم الرسمية. وأخيراً دخلت زوجة مارشال النبالة تصحبها ليزا. لم تكن ليزا في يوم من الأيام باهرة الجمال ولا رائعة الزينة كما كانت في ذلك اليوم. إن شعرها يتهدل على كتفيها ضفائر، وإن عينيها تسطعان سطوعاً براقاً، وإن بسمة مشرقة تشعّ في وجهها. أحدث دخولها أثراً عظيماً. التفتت نحوها جميع الأبصار وأخذ الناس يتبادلون الملاحظات والآراء عنها بصوت

خافت. وأكَّد بعضهم أنها كانت تبحث بنظراتها عن ستافروجين. ولكن لا ستافروجين ولا فرفارا بتروفنا كانا في الصالة. لم أدرك عندئذ المعنى الذي عبَّر عنه وجه ليزا، ولا فهمت لماذا كان محياها يفيض سعادة وفرحاً وقوة. وخطر ببالي ما حدث بالأمس، فطفقت أحدس وأفترض وأخمِّن. لايزال آل لمبكه غائبين لم يصلوا بعد. تلك خطيئة. علمت في ما بعد أن جوليا ميخائيلوفنا قد انتظرت بطرس ستيفانوفتش إلى آخر لحظة. لقد أصبحت لا تستطيع الاستغناء عنه، رغم أنها ترفض الاعتراف بذلك في قرارة نفسها. بالأمس، في آخر اجتماع عقدته اللجنة، كان بطرس ستيفانوفتش قد ردَّ عقدة الشريط التي توضع على كتف المشرف، فاستاءت جوليا ميخائيلوفنا استياءً شديداً وخاب أملها حتى أوشكت الدموع أن تترقرق في عينيها حزناً ولوعة. فلما لم تره في الغد، أدهشها ذلك كثيراً ثم أدخل الاضطراب والبلبلة إلى نفسها (إنني أستبق الأحداث): إنه لم يجئ لشهود الصبيحة الأدبية، وجاء المساء من دون أن يسمع أحد عنه شيئاً.

أخذ الجمهور يُظهر بعض التململ. لا تزال المنصة خاليةً. ودوَّى تصفيق في الصفوف الأخيرة، كما يحدث في المسرح. السيدات والرجال المسنون يبدو عليهم الامتعاض، "إن آل لمبكه لا يزعجون أنفسهم!". ووصلت إشاعات سخيفة حتى إلى الصفوف الأولى: لن تُقام الحفلة، فالحاكم قد بلغ به المرض أنه لن... إلخ إلخ! ولكن وصلت أسرة لمبكه أخيراً ولله الحمد. كانت الزوجة متأبطة ذراع زوجها. أعترف أنني كنت قد فقدت الأمل في وصولها. إن الحقيقة تنتصر على الإشاعات الكاذبة. بدا الهدوء وظهرت الطمأنينة على الجمهور. كانت هيئة آندره أنطونوفتش تدل على أن صحته جيدة. ذلك كان شعور الجميع: في وسعكم أن تتصوّروا كيف كان الناس ينظرون إليه بانتباه شديد. يجب أن أقول من جهة أخرى ـ وذلك يميِّز الحالة النفسية التي كان عليها الجمهور ـ إن قلةً من الأفراد في المجتمع الراقي كانت تصدِّق أن لمبكه مريض: ففي تلك البيئة كان لمبكه يتصرّف تصرفاً سليماً جداً، حتى لقد أيدوا الموقف الذي وقفه بالأمس في الميدان. كانت

الشخصيات الرفيعة المقام تقول: "بهذا إنما كان ينبغي له أن يبدأ. إن هؤلاء الموظفين البطرسبرغيين الذين يصطنعون في البداية دور محبي البشر ينتهون إلى الاعتقاد، كسائر الناس، من دون أن يشعروا بذلك، أن هذه الطريقة هي أحسن الطرق التي يجب أن يستعملها محبّو البشر". هكذا كانوا يفكرون في نادينا. وكانوا يلومونه على أنه انقاد للغضب: "كان ينبغي له أن يحافظ على هدوئه. ولكن سبب اندفاعة الغضب واضح: إنه تعوزه الخبرة والتجربة". كذلك كان يقول الأخصائيون في الموضوع. وقد رأت جوليا ميخائيلوفنا أنها محط جميع الأنظار أيضاً. لا يمكنكم أن تطالبوني طبعاً بتفاصيل دقيقة جداً عن بعض الوقائع: نحن بصدد امرأة، وبصدد سرٍّ من أسرار حياتها الصميمة، إنني لا أعرف إلّا شيئاً واحداً: هو أن جوليا ميخائيلوفنا قد لحقت بآندره أنطونوفتش مساء أمس إلى حجرة عمله، ولبثت معه هنالك إلى ما بعد منتصف الليل. فما زالت به حتى غفرت له وعفت عنه، وواسته وعزته. واتفق الزوجان على جميع النقاط، ونُسي كل شيء. وحين تذكر فون لمبكه، في نهاية المصارحة، حين تذكّر مذعوراً انفجار غضبه في الليلة السابقة، لم يستطع أن يكبح جماح نفسه، فجثا راكعاً على ركبتيه. فما كان من جوليا ميخائيلوفنا إلّا أن مدت يدها الفاتنة ترفه عنه وأخذت تلثمه بشفتيها مخففةً اندفاعات الندامة لدى هذا الرجل الفارس المرهف الشعور المسرف في الانقياد لعواطف الرقة والحنان، أعني آندره أنطونوفتش.

لاحظ جميع من في الصالة ما يشع في وجه جوليا ميخائيلوفنا من معاني السعادة. كانت تتقدم في زهو وخيلاء، وهي ترتدي ثوباً رائعاً. لكأن أقصى أمانيها قد تحققت: إن هذه الحفلة التي كانت هدفاً وتتويجاً لسياستها قد أصبحت واقعاً في آخر الأمر. اتجه لمبكه وزوجته إلى مكانيهما في الصف الأول، مرسلين تحيات كثيرة عن يمين وشمال. ولم يلبثا أن أحاطت بهما جمهرة كبيرة. ومضت نحوهما زوجة مارشال النبالة... فإذا بغلطة مؤسفة تقع في تلك اللحظة: لقد أخذت الأركسترا، على حين فجأة، بدون أي سبب، تنفخ في البوق لحناً من تلك الألحان المألوفة في المآدب الرسمية

حين يشرب الناس نخب شخص من الأشخاص. إنني أعلم الآن أن ليامشين، بصفته مرشداً من مرشدي الحفلة، قد أراد أن يستقبل أسرة لمبكه هذا الاستقبال. ولقد كان في وسعه عند اللزوم أن ينتحل لهذه الفعلة أي عذر من الأعذار، فيقول إنه تصرّف هذا التصرّف عن حماقة، أو أنه قد دفعته إليه الحماسة. وا أسفاه! لقد كنت أجهل حينذاك أن ليامشين والآخرين أصبحوا لا يفكرون في الاعتذار ولا يريدون انتحال الحجج والتعلّات، وأنهم سيزيحون النقاب عن وجوههم في ذلك المساء تماماً. ولكن المظاهرة لم تقتصر على لحن عُزف بأبواق: فبينما كان الناس يتبادلون نظرات مدهوشة وابتسامات، ترجّعت في آخر الصالة وعلى المنصات صيحات استحسان موجهة إلى لمبكه وزوجته. إن الصيحات ضعيفة، لكنها استمرت زمناً!... احمرّت جوليا ميخائيلوفنا احمراراً شديداً، والتمعت عيناها. ووقف فون لمبكه إلى جانب كرسيه، والتفت إلى الجهة التي كانت تصدر عنها الأصوات، وأجال على الحضور نظرة فيها فخامة وقسوة... فسرعان ما أجلسوه. ولاحظتُ على وجهه، من جديد، تلك الابتسامة المقلقة نفسها التي ظهرت على شفتيه بالأمس، في صالون زوجته، حين همَّ أن يتقدم من ستيفان تروفيموفتش. لقد بدا لي أن هيئته لا تبشّر بخير، بل أسوأ من ذلك إنها مضحكة قليلاً، فهي تعبِّر عن عزيمة رجل قرر أن يضحي بنفسه إرضاءً للأهداف العليا التي ترمي إليها زوجته!... أسرعت جوليا ميخائيلوفنا تستدعيني بإشارة من رأسها، وقالت لي بدمدمة خافتة أن أجري إلى كارمازينوف فأضرع إليه أن يبدأ. ولكن ما إن أوليتها ظهري حتى حدثت دناءة جديدة أبشع من الأولى أيضاً. فعلى المنبر، على المنبر الخالي الذي اتجهت إليه حتى الآن جميع الأبصار وانصب عليه كل الانتظار، والذي كان لا يرى فيه المرء إلّا مائدة صغيرة أمامها كرسي وفوقها كأس ماء على صينية من فضة ـ أقول: على هذا المنبر الخالي ظهرت على حين فجأة قامة مديدة ضخمة هي قامة الكابتن لبيادكين مرتدياً رداء فراك مع ربطة عنق بيضاء. بلغتُ من شدة الذهول أنني لم أصدِّق عينيَّ في اللحظة الأولى. وكان الكابتن يبدو خجلاً وجلاً وقد وقف في آخر المنبر.

غيـر أن أحداً صرخ يقول في الجمهور: "كيف؟ أهذا أنت يا لبيادكين؟". فإذا بوجه لبيادكين، إذا بوجهه الغبي المحتقن المحمر من فرط الطعام والشراب (ولقد كان سـكراناً تماماً)، إذا به يتألق لدى سـماع هذه الكلمات فتنتشـر فيه ابتسـامة بلهاء، وإذا هو يرفع يده، ويحك جبينه، ويهزّ رأسـه الكث الأشعث، ثم يجمع قواه ويعزم أمره فيتقدم خطوتين إلى أمام، ويطلقها ضحكةً مقهقهة طويلة سـعيدة هزَّت جسـده الضخم كله، وغضَّنت عينيه. فأخذ عدد كبير من الجمهور يضحك لهذا المشـهد، بينما راح الجادون من المشاهدين يتبادلون نظـرات حانقـة. وذلك كله لم يـدم إلّا زهاء ثلاثين ثانية علـى كل حال، هرع بعدها ليبوتين إلى المنصة يتبعه خادمان أمسكا الكابتن بلطف من إبطيه، بينما همـس ليبوتين في أذنيه ببضـع كلمات. فقطب الكابتن حاجبيه، ودمدم يقول وهـو يحرك يده: "إذا كان الأمر كذلك..."، ثـم أدار للجمهور ظهره الضخم وانقاد للممسـكين به. ولكـن ما هي إلّا لحظة حتى عـاد ليبوتين إلى المنصة وفي يده ورقة من الورقات التي تكتب عليها الرسائل، فاصطنع ابتسامة عذبة من ابتسـاماته تلك التي يختلط فيها السـكَّر بالخل، وتقدم بخطى قصيرة إلى حافة المنبر، وقال:

ـ أيها السـادة، لقد أوقعنا السـهو والإهمال في غلطة مضحكة سـرعان ما وضعنا لها حداً من حسـن الحظ على كل حال. لكنني أخذت على عاتقي أن أنقـل إليكـم ـ آملاً أن تقبلوا ذلك ـ رجاءً زاخـراً بالاحترام يوجهه إليكم أحد شـعراء مدينتنا. إن هذا الشـاعر الذي هزّته وحرّكت أوتار قلبه فكرةٌ إنسـانية رفيعـة (رغم مظهره الخارجي) هي تلك الفكرة نفسـها التـي جمعتنا في هذا المـكان... إن هذا السـيد... أريـد أن أقول إن هذا الشـاعر... على رغبته في كتمان اسـمه يود كثيراً لو تُتلى قصيدته قبل حفلة الرقص، أقصد قبل الجلسة الأدبية. وهذه الأبيات الشعرية، رغم أن برنامج الحفلة لا يتضمن إلقاءها، قد بـدت لنا نحن (من "نحـن"؟ إنني أنقل هنا نص خطابـه المضطرب المفكك كلمـة كلمـة بل حرفاً حرفاً) إنها بما تتميز به من بـراءة العاطفة، بالإضافة إلى مـا تتصف بـه كذلك من الظرف وروح المرح، تسـتحق أن تقرأ، لا من حيث

أنهـا قصيدة جادةٌ طبعاً، ولكن لأنها تتعلق نوعـاً من التعلق بالفكرة. أو قولوا بالغايـة التـي ترمي إليها حفلتنا هذه... لا سـيما وأنها لا تعـدو أن تكون أبياتاً قليلة. خلاصة الأمر أنني أستأذن الحضور الكرام في أن...

أعول صوت من آخر الصالة يقول:

ـ اقرأ.

ـ أأقرأ؟

فصرخ عدة أشخاص يقولون:

ـ اقرأ! اقرأ!

قال ليبوتين وهو لا يزال يرسم على شفتيه تلك الابتسامة المتعاذبة:

ـ سوف أقرأ إذًا.

ومـع ذلـك كان يبـدو عليـه التـردد. حتـى لقـد قـدَّرت أنه منفعـل بعض الانفعـال. إن أمثال هذا الإنسـان، مهمـا يكونوا وقحين، يتفق لهـم أحياناً أن يتخاذلـوا. لـو كان طالباً لما تـردد حتماً، ولكن ليبوتين ينتمي رغم كل شـيء إلى الجيل القديم.

ـ أنبئكم سـلفاً، أقصد يشرفني أن أنبئكم سلفاً أن القصيدة ليست من تلك القصائد التي كان ينظمها الشـعراء في الماضي لمناسبات ذات أبهة وجلال. فمـا هي في حقيقة الأمر إلّا مزاحـة، ولكنها زاخرة بعاطفة خالصة، بالإضافة إلى ظرف لاذع وواقعية صادقة إن صح التعبير.

ـ اقرأ! هلا قرأت!

فضَّ ليبوتين الورقة. لم يتسع وقت أحد للتدخل طبعاً. ثم إن ليبوتين كان يحمل شارة مشرف من المشرفين على الحفلة. وها هو ذا ينشد بصوت رنان:

قصيدة مهداة من الشاعر إلى معلّمتنا الوطنية في هذه المناطق بمناسبة هذا الاحتفال:

تحية تحية أيتها المعلّمة

انتصري و ابتهجي

رجعية كنت أم كنت مثل جورج صاند

ابتهجي كائنة ما كنت!

صاحت بعض الأصوات تقول:
- ولكن هذا شعر لبيادكين. نعم، هذا شعر لبيادكين.
وانطلقت ضحكات، بل سمعت أيضاً تصفيقات، وإن تكن قليلة.

تعلّمين اللغة الفرنسية
لأطفال صغار بلداء
وتصطنعين السرور
لكل من يرغب في أن يدفع الأجور

- صحيح، صحيح. هذا من الواقعية. لا حيلة للمرء بغير مال.

لكننا بفضل هذا الاحتفال
أصبحنا نملك رأس مال
هذا مهرك نهديه إليك
وهذه هدية من أصدقاء
رجعية كنت أم كنت جورج صاند
تستطيعين أن تختاري زوجك
وأن تبصقي، أيتها المعلّمة
بعد أن تملكي المهر
على كل شيء!

لم أصدِّق أذنيَّ. إن في هذا من الوقاحة ما لا يمكن معه أن يُعذر لليبوتين ولو تعلل بالحماقة والغباء. لا سيما وأن ليبوتين لم يكن غبياً البتة. لقد كانت النية واضحة، في نظري على الأقل: إنهم يتعجّلون إحداث فوضى وبلبلة وفضيحة. إن بعض أبيات هذه القصيدة الغبية، ولا سيما الأخير منها، شيء لا يمكن قبوله، مهما يكن قائله أبله. وأظن أن ليبوتين قد أحس بأنه أسرف: فبعد أن فعل فعلته جمَّدته هذه الجرأة نفسها في مكانه، فلبث على المنصة كأنما هو يريد أن يضيف شيئاً آخر. لعله كان يتوقّع أن يُستقبل غير هذا الاستقبال، وأن يُحدث غير هذا الأثر. ولكن الذي حدث هو أن فئة الأوباش الصغيرة نفسها التي قاطعته بالتصفيق قد صمتت مذعورة على حين فجأة. وكان عدد

كبير منهم قد أخذ القصيدة مأخذ الجد، وعدّها شعراً واقعياً لبراليّ الاتجاه. غير أن ما اشتملت عليه الأبيات من عامية مثيرة مزعجة قد ضايقتهم هم أيضاً آخر الأمر. أما السواد الأعظم من الجمهور فقد شعر بفضيحة كبيرة، لا بل أحس أنه أهين. لا أخشى أن أكون مخطئاً حين أزعم هذا. لقد اعترفت جوليا ميخائيلوفنا في ما بعد أنها أوشكت أن يُغمى عليها. وهناك سيد عجوز محترم وامرأته قد نهضا وغادرا الصالة على مرأى من الناس الذين كانت نظراتهم تعبر عن القلق. ومن يدري؟ لعل أشخاصاً آخرين كانوا سيقتدون بهما ويفعلون مثلهما لولا أن كارمازينوف الذي يرتدي رداء فراك ويضع ربطة عنق بيضاء ويمسك بيده دفتراً قد ظهر على المنصة في تلك اللحظة نفسها. لقد استقبلته جوليا ميخائيلوفنا بنظرة مفتونة مسحورة كما يُستقبل منقذ... لكنني أسرعت أمضي إلى ما وراء الكواليس. كنت أريد أن ألقى ليبوتين.

قلت له مستاءً وأنا أمسك ذراعه:

ـ أنت فعلت هذا عامداً.

فأجابني وهو ينكمش على نفسه ويصغّر جسمه ويتظاهر بأنه آسف لما وقع أشد الأسف:

ـ لم يخطر ببالي هذا... حقاً لم يخطر ببالي هذا... أحلف لك. لقد جاؤوني بهذه الأشعار، فظننتها تبعث على التسلية والضحك.

ـ لا، لم تظن ذلك. يستحيل عليك أن تعد مثل هذه القذارة مزاحة جميلةً!

ـ بل هكذا تصورتها!

ـ أنت تكذب. وليس صحيحاً كذلك أنهم جاؤوك بهذه الأشعار من هنيهة قصيرة. لقد كتبتها مع لبيادكين، ربما في مساء أمس، لا لشيء إلّا إثارة فضيحة. لا شك أنك أنت قائل البيت الأخير منها. لماذا كان لبيادكين يرتدي رداءً رسمياً؟ أكان هو الذي سيقرأ القصيدة لولا أنه كان سكراناً؟

اصطنع ليبوتينْ هيئة باردة شريرة. وسألني بهدوء غريب:

ـ فيم يعنيك هذا؟

ـ فيم يعنيني؟ ما هذا السـؤال؟ أنت أيضاً تحمل على كتفك شارة مشرف من المشرفين على الحفلة... أين بطرس ستيفانوفتش؟

ـ لا أعلم. في مكانٍ ما هنا. لماذا تسأل عنه؟

ـ لأنني أفهمكم الآن. هذه مؤامرة على جوليا ميخائيلوفنا لإفساد الحفلة.

رشقني ليبوتين بنظرة ماكرة:

ـ ولكن ما شأنك أنت؟

وابتسم، ورفع كتفيه، وتركني.

صُعقت. تأكدت شبهاتي وشكوكي كلها. ما كان أغباني حين كنت آمل أن أكون مخطئاً في ظنوني! ماذا يجب أن أفعل؟ بدا لي في اللحظة الأولى أن أستشير ستيفان تروفيموفتش. ولكن ستيفان تروفيموفتش الذي كان متسمراً أمام مرآة، كان يجرِّب ابتسامات ويراجع في كل لحظة من اللحظات ورقه كان قد دوَّن عليها بعض الملاحظات. لقد كان عليه أن يتكلم بعد كارمازينوف رأساً، ولم يكن في وسعه حتماً أن يبدي إليَّ أية نصيحة. هل يجب أن أسعى إلى جوليا ميخائنلوفنا؟ ولكن الأوان لم يحن بعد: إنها لا تزال في حاجة إلى درس أقسى من هذا الدرس لتشفى من أوهامها ولتبرأ من اعتقادها بأن الذين يحيطون بها متعصبون في إخلاصهم لها متفانون في سبيل خدمتها. ما كان لها أن تصدقني، وما كان لها إلّا أن تعدّني إنساناً تراوده الهواجس وتستبد به الوساوس. ثم ماذا في وسعها أن تفعل؟ ثم قلت لنفسي: "وفيمَ يهمني هذا فعلاً؟ سوف أنزع الشارة عن كتفي، وأمضي إلى بيتي، حين سيبدأ الأمر". لقد نطقت فعلاً بهذه الكلمات: "حين سيبدأ الأمر". إنني أتذكّر هذا جيداً.

ولكن يجب أن أمضي أستمع إلى كارمازينوف. فلما طفت ببصري على الكواليس مرةً أخيرة رأيت ناساً مجهولين يتجولون فيها، حتى إن بينهم نساء. فبعضهم يدخل، وبعضهم يخرج. إن هذه الكواليس مساحةٌ ضيقة تفصلها عن الصالة ستارة، ويصلها بالحجرات الأخرى دهليز. فهناك إنما كان الذين سيظهرون على المسرح ينتظرون أن يجيء دورهم. فلما هممت أن أخرج خطف بصري على حين فجأة منظر الشخص الذي سيعقب ستيفان

تروفيموفتش. إنه أستاذ في ما أظن (حتى اليوم لا أعرف ماذا كان على وجه الدقة): يقال إنه ترك بمحض إرادته المؤسسة التي كان يعلِّم فيها، وذلك في أعقاب اضطرابات حدثت بين الطلاب، وهو اليوم في مدينتنا لا أدري لأية أسباب. هو أيضاً قد زُكِّي لجوليا ميخائيلوفنا فاستقبلته باحترام. إنني أعرف الآن أنه لم يجئ إليها إلّا مرةً واحدة، وأنه لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال السهرة، مكتفياً بأن يبتسم ابتسامة ساخرة من الأمازيح التي كان يتبادلها الحاضرون عند جوليا ميخائيلوفنا ومن اللهجة التي كانوا يتكلّمون بها. ولقد أحدثت هيئته المتغطرسة وحساسيته المتأذية أثراً مزعجاً جداً. يجب أن أذكر أن جوليا ميخائيلوفنا نفسها هي التي طلبت منه أن يشترك في الصبيحة الأدبية. كان حين رأيته يمشي طولاً وعرضاً، ويكلم نفسه، مثل ستيفان تروفيموفتش، ولكنه كان خافض العينين. لم يكن يدرس ابتساماته أمام المرآة، رغم أنه كان يبتسم كثيراً فتعبّر ابتساماته عن خبث وشر وقسوة. هو أيضاً كان لا يمكن أن يخاطَب طبعاً. إنه قصير القامة، أصلع الرأس، شائب اللحية، محتشم الملبس، يبدو في نحو الأربعين من عمره. لكن أغرب ما في الأمر هو أنه كان كلما استدار يرفع قبضة يده اليمنى ويلوِّح بها فوق رأسه ثم يسقطها فجأةً كأنه يسحق خصماً من الخصوم. كانت هذه الحركة تتكرر بانتظام. شعرت بضيق وغم وأسرعت أمضي إلى سماع كارمازينوف.

3

مرةً أخرى كان الجو في الصالة مشحوناً بالكهرباء. إنني أعلن لكم سلفاً أنني أجلّ عظمة العبقرية، ولكنني أتساءل لماذا نرى هؤلاء السادة، رجالنا العباقرة، يتصرفون تصرف صبيةٍ صغار حين يصلون إلى نهاية سنيهم المجيدة؟ مهما يكن كارمازينوف عظيماً مشهوراً، ومهما يكن دخوله إلى القاعة محفوفاً بهالة من الفخامة والأبهة كأنه ياوران ملك من الملوك، فهل كان في وسعه أن يحمِل على الصبر جمهوراً كجمهورنا مدة ساعة كاملة؟ لقد لاحظت على وجه العموم أن الخطيب لا يمكنه في اجتماعات أدبية

مـن هـذا النوع أن يحتـل المنصة أكثر من عشـرين مـن دقيقـة دون أن يعاقبه الجمهـور، مهمـا يكن عبقريـاً. يجب أن أذكـر على كل حال أن هـذا الرجل العظيم قد اسـتُقبل اسـتقبالاً فيه أقصـى الاحترام، وأن الشـيوخ الوقورين قد أظهروا ترحيبهم وتأييدهم ولاح عليهم كثير من حب الاطلاع. أما السـيدات فقـد بانـت عليهن الحماسـة. ولقـد كان التصفيق قصيراً مع ذلـك، ولم يكن شـاملاً. غيـر أن الصفوف الأخيـرة ظلت هادئةً سـاكنة إلى اللحظـة التي بدأ فيها السـيد كارمازينوف الكلام. وحتى في تلك اللحظة لم يحدث شـيء ذو بـال. فـكل ما حدث عندئذ لا يعدو أن يكون سـوء تفاهم. لقد سـبق أن قلت إن صـوت السـيد كارمازينوف صارخ قليلاً، نسـوي بعض الشـيء، وأنه عدا ذلـك متعـاذب تعاذباً أرسـتقراطياً. لذلك فمـا كاد يتكلم حتـى رأينا أحدهم يبيـح لنفسـه أن يضحك: ربمـا كان الضاحك رجلاً أحمـق لا أكثر، رجلاً لم يـر في حياته شـيئاً، فكل شـيء يفرحه ويضحكه. ولا شـك في أنـه لم يخطر ببالـه إحداث فضيحة. وسـرعان ما قامـت في الصالة أصـوات قوية تأمر بأن يخرس، فسـكت وجمد في مكانه. ولكن ها هو ذا السيد كارمازينوف يصرِّح متصنِّعاً بأنه "كان في أول الأمر لا يريد أن يقرأ شـيئاً أمام جمهور، مهما تكن الأسـباب".(لقد كان فـي حاجة إلى أن يقـول هذا، حقاً!). "إن هناك أسـطراً تنبـع من القلب رأسـاً كأنها غناء. فـإذا قرأتها على جمهور كنتَ تسـيء إليها وتحـط من قدرهـا وتجرِّدها من قدسـيتها." (لمـاذا يقرأهـا والحالة هذه؟)" ولكنهم بلغوا من الإلحاح عليَّ أنني وافقت أخيراً. ولما كنت من جهة أخرى أهجـر القلـم إلى الأبد، ولما كنت قد آليت على نفسـي أن لا أكتب بعد اليوم شـيئاً، فقد قـررت هذه المقالة الأخيرة، ولما كنت قـد حلفتِ أن لا أقرأ على الجمهور بعد اليوم شـيئاً، فقد قررت أن أقرأ الآن ما كتبت توديعاً للجمهور، إلى آخر ما هنالك من كلام مشابه.

ولكـن ذلك كله ما كان ليعدَّ شـيئاً. من ذا الـذي يجهل مقدمات الكتاب؟ يجـب أن أذكـر مع هذا أن أمثال هـذا الكلام يمكن أن تحدث آثاراً سـيئة كل السـوء في مثل هذا الجمهور الذي تعوزه الثقافة، ولا سـيما إذا كانت الحالة

النفسـية لدى المسـتمعين في آخر القاعة هي ما كانت عليه فعلاً. لقد كان من الأفضـل للسـيد كارمازينوف أن يقرأ قصةً قصيـرة، أو أن يقرأ حكايةً صغيرة مـن نوع الحكايات التي كان يكتب مثلها في الماضي، وهي حكايات إن كان فيها تصنع وافتعال، فإن فيها فكاهةً في بعض الأحيان على كل حال. فلو فعل ذلك لأُنقذ كل شـيء. ولكن لا. لقد كان يريد شـيئاً آخـر. لقد ألقى خطاباً لا نهايـة له. ربـاه! ما أكثر مـا احتوى مقاله من كلام! إنني لعلى يقين بأن جمهور العاصمة نفسه ما كان يمكن أن يتحمّل هذا الخطاب كله، فما بالك بجمهور مدينتنـا! تصـوروا ملزمتين من ملازم المطبعة مملوءتيـن ثرثرة متأنقة فارغة! زد علـى ذلـك أن كارمازينوف كان يقـرأ بلهجة المتفضِّـل المتواضع، فكأنه يُنعم علينا ويغمرنا بإحسـانه. فمن شأن هذا أن يسيء إلى كبرياء الناس طبعاً. أمـا الموضوع فمن ذا الذي كان يمكنـه أن يفهمه؟ لقد كان مدار المقال على بعـض الانطباعـات وبعض الذكريات. ولكن بأية مناسـبة؟ مـا أكثر ما قطب المسـتمعون حواجبهم وحكّوا جباههم أثناء سـماع الجـزء الأول من القصة عسـى أن يفهموا شـيئاً ولكنهم لم يظفروا بطائل. لذلك لم يصغوا إلى الجزء الثانـي إلّا مـن قبيـل الكياسـة والتهذيب. لقـد كان في المقـال كلام كثير عن الحب، عن الحب الذي ملأ قلب الكاتب العبقري يوم توله بغرام فتاة شـابة. أعترف لكم أن هذا قد بدا محرجاً بعض الإحراج، بل مزعج بعض الإزعاج. فمـا أكبر التعـارض في رأيي بين وجهه المتكـرش المترهل وبين القصة التي يرويها لنا عن قبلته الأولى!... والشـيء الـذي كان مثيراً أكثر من كل ما عداه هـو أن قصـة القبلـة هذه لم تحدث كمـا تحدث لجميع النـاس. كان لا بد أن تحيط بها أزهار الوزَّال (أزهار الوزَّال أو أية نباتات مزهرة أخرى لا تسـتطيع أن تعرفها إلّا إذا رجعتَ إلى كتب النبات)، وكان لا بد أن يكون لون السـماء فوقها ضارباً إلى لون البنفسـج، وهو لون لم يسـتطع أن يميِّزه في السماء أحدُ من البشر يوماً، بل قل إن البشر رأوه ولكنهم لم ينتبهوا إليه ولم يحفلوا به "أما أنـا فقد ميَّزته، ميَّزت هذا اللـون، وإني لأصفه لكم أيها الأغبياء، كما يوصف شـيء بسـيط كل البسـاطة". وإن الشـجرة التي كان الكاتب العبقري وحبيبته

جالسين تحتها لا بد أن تكون بلون البرتقال. والحبيبان موجودان في مكانٍ ما بألمانيا. وهاهما يبصران بومبيوس أو كاسيوس على حين فجأة، عشية معركة خاضاهـا، فإذا بالحبيبين يتجمـدان افتتاناً. وهذه حورية مـن حوريات البحر تطلـق صرخة وراء أحد الأدغال. وهذا جلوك يأخذ يعزف على الكمان، بين شجيرات القصب، لحناً عنوانه: "في جميع الآداب"، ولكن لما لم يكن أحد قد سـمع عن هـذا اللحن فلا بد مـن مراجعة معجمٍ موسـيقى لمعرفته. وفي أثناء ذلك ينتشر ضباب، ثم يتكاثف الضباب. بل يبلغ من التكاثف أنه يصبح أقـرب إلـى زغب منفوش منـه إلى ضباب مألـوف. وفجأة يغيب كل شـيء، ويأخـذ الرجـل العظيم باجتياز نهر الفولغا أثناء تكسـر الجليـد. إنه يصف لنا عبـور النهر في صفحتين ونصف صفحة. لقد سـقط في الماء. إنه يغرق. هل يهلـك؟ لا، لا، لـن يهلك أبداً. لقد حكـى لنا العبقري ذلك كلـه من أجل أن يقـول إنـه حين أوشـك أن يغور في قـاع المياه، لمح قطعة مـن الجليد فجأة، قطعة صغيرة جداً، لكنها صافية شـفافة "كدمعة متجلدة"، وعليها كانت تتألق ألمانيا أو قل تتألق سـماء ألمانيا. وهذا التألق المتلون بألوان قوس قزح يذكّر الرجل العظيم بتلك الدمعة نفسـها التي "كما تتذكرين، انحدرت من عينيك، حين كنا جالسـين تحت شجرة الزمرد، فصرخت تقولين وقد زخرت نفسك فرحاً: "لا وجود للجريمة!"، فأجبتك من خلال عبراتي قائلاً: "نعم، ولكن لا وجود للصالحين العادلين أيضاً!"، ثم أجهشـنا باكيين منتحبين، وافترقنا إلى الأبد". وذهبت الفتاة لا أدري إلى أي شـاطئ من شـواطئ البحر، وذهب هو يعتصم بمغارةٍ في موسكو تحت برج سوخاريف. ولا يزال يهبط من مغارات إلى مغارات أعمق خلال ثلاث سنين حتى رأى في باطن الأرض مصباحاً قد وقف أمامه ناسك يصلّي. ويقترب الكاتب من كوة ذات قضبان حديدية، فإذا هو يسمع زفرة. هل تظنون أن الناسك هو الذي تنهد؟ نعم إنه الناسك. ولكن الزفـرة لا تزيد على أن تذكّر الكاتـب بالتنهيدة الأولى التي خرجت من صدر حبيبتـه قبل سـبعة وثلاثين عاماً، "متى؟ هـل تتذكرين؟ فـي ألمانيا، حين كنا جالسـين تحت شـجرة عقيق، فقلت لي: علام الحب؟ انظر إلى نباتات زهر

الـوزَّال هذه التي تحيط بنا. لسـوف أكـف عن الحب متـى صوَّحت!". وهنا يتكاثف الضباب من جديد، وإذا هو فمان يظهر، وإذا حورية البحر تصفر لحناً من ألحان شـوبان. وفجأةً، فوق سـطوح المنازل بروما، ينبجس من الضباب آنكـوس ماركيـوس متزنراً بأغصان أشـجار الغار. فإذا رعدة نشـوة تهزّنا، ثم افترقنـا إلى الأبد" إلخ إلخ. لعلّني لم أنقل ثرثرة صاحبنا نقلاً دقيقاً كل الدقة، ولكنني نقلت معنى الكلام وطابعه العام. تُرى ما مصدر هذا الشغف الشديد المخجل، لدى عظماء رجالنا، بأمثال هذه الشـعوذات الدعية؟ إن الفلاسـفة الأوروبييـن، والعلماء، والمخترعين، والعاملين، والأبطال، إن جميع أولئك الذيـن يجهدون ويتألمون هم في نظر العبقري الروسـي أشـبه بخدم. إنه هو السـيد، أما هم فلا يمثُلون أمامه إلّا رافعين قبعاتهم بأيديهم ينتظرون أوامره. صحيح أنه ينظر إلى روسيا من علٍ أيضاً، وأنه لا شيء أحب إلى نفسه من أن يعلن أن روسيا قد أفلست إفلاساً تاماً إزاء العقول الأوروبية العظيمة. ولكن هـذا لا يصـدق عليه هو، لا يصدق على شـخصه: فهو من جهتـه يحلق عالياً فـوق جميع العقول الأوروبية العظيمة التي لا تزيد على أن تمده بمادة عبث. إنه يسـتولي على فكرة غيره، فيضم إليها النقيض الذي يتصوره، فيتم العبث، وتنتهـي اللعبـة. الجريمة موجودة، الجريمة غير موجـودة. الحقيقة لا وجود لها. ليـس هناك صالحون عادلون. الإلحاد. الداروينية. أجراس موسـكو... لكنه لا يؤمن بأجراس موسكو مع الأسف! روما، أكاليل الغار! ولكنه أصبح لا يؤمـن حتـى بأكاليل الغار!... أضف إلى ذلك وصولاً اضطرارياً إلى سـأم علـى طريقـة بايـرون، وتصعيرةَ وجه علـى طريقـة هايني، وجملـةً من كلام بتشـورين! وتسـير الآلة... و تسـير!... "ولكن عليكم خاصةً أن تمدحوني! امدحونـي! ذلـك ما أريده! وحين أعلـن أنني أهجر القلم، فمـا ذلك مني إلّا تظاهر! انتظروا قليلاً! لسـوف أضجركم ثلاثمائة مرة أخرى... حتى تضيقوا ذرعاً بقراءة ما أكتب!".

كان طبيعياً أن لا تكون خاتمة ذلك حسنة. ومع ذلك فإذا كانت الأمور قد جرت مجرى سـيئاً، فإنما الذنب في هذا ذنـب كارمازينوف. لقد أخذ الناس

منذ مدة يتمخطون ويسعلون ويتحركون متململين، كما يحدث دائماً حين يحتل الخطيب المنصة أكثر من عشرين دقيقة، كائناً من كان الخطيب. ولكن الكاتب العبقري لم يلاحظ شيئاً. لقد ظل يتكلم بصوته المتعاذب المترقق وظل يتظارف ويتغنج من دون أن ينتبه إلى الجمهور الذي أخذ يُدهش من هذه الحالة. وفجأة تعالى صوت قوي من آخر الصالة يصيح قائلاً:

ـ ما هذه السخافات!

كانت صيحة غير مقصودة. أنا واثق بذلك. هي صيحة إنسان استبد به التعب والضجر، ولم يكن يخطر بباله قط أن يحدث لغطاً وبلبلة. ولكن السيد كارمازينوف توقف عن الكلام، وألقى على الحضور نظرة سخرية، واصطنع على حين فجأة لهجة ياوران منزعج قائلاً:

ـ يبدو أيها السادة أنني أضجركم بعض الإضجار، أليس كذلك؟

لقد كان خطأه أنه تكلم أول من تكلم. إنه بإلقائه هذا السؤال قد منح أي وغد حق الإجابة بطريقة من الطرق. فلو أنه سيطر على نفسه وأمسك عن الكلام، لأمكن أن يستمر الناس في التمخط والسعال، ولربما قضت الأمور عند ذلك الحد لا تتعداه!... لعل كارمازينوف كان يتوقع أن يجيء الجواب عن سؤاله تصفيقاً. ولكن أحداً لم يصفق. بالعكس: ظهر على الناس القلق، ولبثوا ساكنين لا يتحركون.

قال صوت مغتاظ يكاد يكون حانقاً:

ـ أنت لم ترَ آنكوس مارسيوس في حياتك. ما هذه إلّا جمل منمقة.

وقال آخر مؤيداً:

ـ تماماً. لا أحد اليوم يميل إلى الرؤى الخيالية. وإنما تحب الناس في هذا الزمان العلوم الطبيعية. هلا اطلعت على العلوم الطبيعية؟

قال كارمازينوف مذهولاً:

ـ أيها السادة، حقاً لم أكن أتوقع اعتراضات من هذا النوع.

إن هذا الرجل العظيم كان قد نسي في كارلسروهه وطنه.

صرخ شاب يقول بصوت كأنه صوت طائر من الجوارح:

ـ إنـه لمن المخزي فـي هذا العصر أن يزعم لنا زاعـم أن الأرض تحملها ثلاث سمكات. أنت لم تهبط إلى مغارة في يوم من الأيام، ولا رأيت ناسكاً. ومن ذا الذي يتكلم عن ناسك في هذا الزمان؟

قال كارمازينوف:

ـ إن الشـيء الـذي يدهشـني أكثر من كل ما عداه هو أنكـم تأخذون الأمر مأخـذ الجد إلـى هذا الحد. على كل حال، على كل حـال، أنتم على حق. ما من أحد يحترم الحقيقة أكثر مني...

لقد كان مذهولاً مشدوهاً، رغم أنه ظل يبتسم ساخراً. وكان وجهه يقول: "أنا لست أبداً ما تظنون. أنا معكم. ولكن امدحوني، اغمروني بالمديح. إني أعبد المديح...".

وقال أخيراً وقد اغتاظ اغتياظاً عميقاً:

ـ أرى أيها السادة أن قصيدتي الصغيرة المسكينة لم تجئ في محلها، وأني أخطأت هدفي.

ـ رمى غراباً فأصاب بقرة.

كذلـك صـرخ يقـول بأعلى صوته غبـيٌ ربما كان سـكرانًا. ولا شـك في أنـه كان لا ينبغي الـرد على هذه المقولة التي أثـارت بضع ضحكات يعوزها الاحترام والحق يقال، ولكن كارمازينوف استجاب اسـتجابة عنيفة. فصاح يقول بصوت كان ما ينفك يزداد صياحاً:

ـ بقـرة؟ في مـا يتعلق بالغربان والأبقار، أعتقد أن الأفضل أيها السـادة أن أمتنع عن التعليق. إنني أحترم جمهوري أشد الاحترام، أياً كان هذا الجمهور، فلا يمكن أن أسمح لنفسي بتشبيهات ولو كانت بريئة، ولكنني أظن...

قال واحد من آخر القاعة:

ـ أراك تسرف مع ذلك!

ـ ولكنني ظننت أني إذ أهجر القلم وأودع القارئ كنتُ سأُسمع...

فارتفعت في الصفوف الأمامية أخيراً بضعة أصوات جريئة تقول:

ـ نعم، نعم، نريد أن نسمعك، نريد أن نصغي إليك!

وصرخت سيدات متحمسات تقول:

ـ اقرأ! اقرأ!

ودوَّت أخيراً تصفيقات وإن تكن ضعيفة هزيلة. فابتسم كارمازينوف ابتسامة متقلصة ونهض.

وقالت زوجة مارشال النبالة نفسها:

ـ ثق ياكارمازينوف أن الجميع يعدون الإصغاء إليك شرفاً عظيماً...

ومن آخر الصالة قام معلّم مدرسة هو شاب رقيق الحاشية مهذب وفد إلينا واستقر بمدينتنا منذ مدة قصيرة، قام وهو يصيح قائلاً:

ـ يا سيد كارمازينوف، لو قد أسعدني الحظ فأحببت الحب الذي تصف، لما تكلمت عن حبي في مقالة تُقرأ على جمهور.

وعاد الشاب يجلس وقد صار كالجمر احمراراً.

فصرخ كارمازينوف يقول:

ـ أيها السادة، لقد انتهيت. إنني أترك الخاتمة و أنسحب. ولكن اسمحوا لي أن أقرأ لكم الأسطر الأخيرة.

قال كارمازينوف ذلك وبدأ يقرأ ناظراً في مخطوطته من دون أن يعود إلى الجلوس فقال:

"صديقي القارئ، وداعاً. وداعاً أيها القارئ. لا أريد حتى أن ألح كثيراً على ضرورة أن نفترق كما يفترق أصدقاء. علام أزعجك؟ إن في وسعك حتى أن تشتمني. فاشتمني ما شئت، إذا كان ذلك يحدث لك أية مسرة. ولكن الأفضل هو أن لا يفكر أحدنا في الآخر بعد اليوم. وهبكم جميعاً أيها القراء مضيتم بشهامتكم فجأة إلى حد استعطافي راكعين دامعين قائلين: اكتب أيضاً يا كارمازينوف، اكتب لنا، لوطنك، للأجيال القادمة، للمجد!"، فسوف أجيبكم شاكراً بأدب كبير طبعاً: "لا يا مواطنيَّ الأعزاء! لقد قضينا معاً حتى الآن وقتاً طويلاً كافياً. شكراً لكم. لقد آن أن نفترق. شكراً. شكراً. شكراً!"

وهنا حيَّا كارمازينوف الجمهور بكثير من الاحتفال وانسحب محمرَّ

الوجه احمراراً شديداً.

ـ ما من أحد يخطر بباله أن يركع أمامه. يا لها من فكرة!

ـ يا له من غرور!

ـ هذه فكاهة.

كذلك علّق واحد أعلم من الآخرين. فأجابه ثان:

ـ اعفني من هذه الفكاهة.

ـ ويا لها من وقاحة أيها السادة!

لقد انتهى على الأقل!

ـ حقاً لقد أضجرنا كثيراً!

لكن هذه الصيحات الفظة التي كانت لا تصدر عن آخر الصالة فحسب، قد غلبتها تصفيقات الجزء الآخر من الجمهور الذي أخذ ينادي كارمازينوف. وتجمع عدد من السيدات، في طليعتهن جوليا ميخائيلوفنا وزوجة مارشال النبالة، حول المنصة. كانت جوليا ميخائيلوفنا تحمل إكليلاً رائعاً من الغار موضوعاً على وسادة من مخمل أبيض ومحاطاً بإكليلٍ آخر من ورود طبيعية.

قال كارمازينوف وهو يبتسم ابتسامة فيها قليل من السخرية:

ـ إكليل من الغار! إن هذا اللطف يؤثر في نفسي طبعاً، وأنا أقبل شاكراً هذا الإكليل الذي سبق تحضيره ولكن لم يذبل بعد. غير أني أؤكد لكن يا سيداتي أني قد بلغت من الواقعية على حين فجأة أني صرت أرى أن أكاليل الغار تكون في هذا الزمان في مكانها الطبيعي حين توضع بين يدي طباخ ماهر أكثر مما تكون في مكانها الطبيعي حين تُقدَّم إليَّ.

ـ فعلاً، الطباخ أنفع.

كذلك قال الطالب الذي شارك في "جلسة" فرجنسكي. إن كثيراً من الأفراد كانوا قد غادروا أماكنهم واحتشدوا حول المنصة ليروا المشهد رؤيةً أكمل.

وأضاف آخر وهو يرفع صوته عالياً، بل عالياً جداً:

ـ أنا مستعد أن أدفع ثلاثة روبلات لطباخ الآن.

ـ أنا أيضاً!

ـ وأنا أيضاً!

ـ أليس ههنا إذًا بوفيه؟

ـ كانت تلك خدعةً لا أكثر، أيها السادة.

ومع ذلك فإن هؤلاء الرعاع جميعاً كانوا لا يزالون يشعرون بالوجل من شخصياتنا الكبرى، ومن مفوَّض الشرطة الذي كان واقفاً في الصالة. وعاد الناس إلى الجلوس بعد زهاء عشر دقائق. غير أن شيئاً من الفوضى كان لا يزال قائماً. وفي وسط هذا السديم الناشئ إنما وقع المسكين ستيفان تروفيموفتش.

4

مضيت ألقاه في الكواليس مرةً أخرى (وكنت خارجاً عن طوري)، فنبهته إلى أن كل شيء قد ضاع في نظري، وأن الأفضل أن يعدل عن الكلام، وأن يرجع رأساً إلى البيت بحجة مغص انتابه فجأةً. وقلت له إنني مستعد لأن أرجع معه، تاركاً شارة المشرف على الحفلة. وكان هو قد أخذ يتجه نحو المنصة، ولكنه توقف بغتةً، وألقى عليَّ نظرة احتقار وقال بلهجةٍ فخمة:

ـ كيف يمكنك أن تتصور أن في وسعي أن أرتكب صَغاراً كهذا الصَّغار أيها السيد؟

فتركته يمر. كنت واثقاً، كوثوقي بأن اثنين واثنين أربعة، أن خطابه سيؤدي إلى كارثة. وفيما كنت باقياً في مكاني وقد صُعقت تماماً، أبصرت مرةً الأخرى الأستاذ الذي سيتكلم بعد ستيفان تروفيموفتش، والذي كان لا يني يرفع قبضته في الهواء ويخفضها مهدداً. إنه لا يزال يمشي طولاً وعرضاً، غارقاً في أفكاره، مجمجماً بكلمات غير مفهومة، مبتسماً ابتسامة حانقة. فناديته رغم إرادتي تقريباً (حتى إنني لا أعرف ما الذي دفعني إلى مناداته).

قلت له:

ـ إنك تعرف أن الخطيب إذا احتل المنصة أكثر من عشرين دقيقة، كفَّ

الجمهور عن الاستماع إليه. هذا ما تشهد به أمثلة كثيرة. فما من رجل شهير، أياً كان شأنه، يمكن أن يُحتمل أكثر من نصف ساعة...

فوقف الرجل مرتعشاً، جريح الكبرياء، وعبَّر وجهه عن غطرسة لا نهاية لها، ودمدم يقول لي باحتقار:

ـ لا تخش شيئاً.

واستأنف سيره. وفي تلك اللحظة بلغ إلى سمعي صوت ستيفان تروفيموفتش من الصالة.

قلت بيني و بين نفسي: "اذهبّ إلى الشيطان!". وهرعت إلى الصالة.

كان ستيفان تروفيموفتش قد جلس قبل أن يستتب الهدوء تماماً. استقبلته الصفوف الأولى بنظرات كارهة (لقد أصبح الناس في النادي في الآونة الأخيرة، لا يحملون له من المودة والاحترام ما كانوا يحملون له منهما قبل ذلك). وأسعدني على كل حال أن رأيتهم لا يصفرون له استنكاراً. لا أدري لماذا كنت منذ أمس أتخيل أنهم سيصفرون له متى ظهر. ولكن، في وسط الاضطراب الذي كان يسود الجو، لم يلاحَظ وجودُه فوراً. ماذا كان يمكن أن يتوقع هذا المسكين من الناس إذا كانوا لم يتحرجوا حتى مع كارمازينوف، ولم يتورعوا عن معاملته تلك المعاملة؟ كان ستيفان شاحب اللون. هذه أول مرة يظهر فيها أمام الجمهور منذ عشر سنين. أدركت إدراكاً واضحاً حين لاحظت انفعاله ورأيت بعض العلامات التي أعرفها فيه جيداً، إن ستيفان تروفيموفتش كان يعد ظهوره على المنبر لحظة حاسمة في حياته أو شيئاً من هذا القبيل. وذلك بعينه ما كنت أخشاه. لقد كان الرجل عزيزاً في نفسي. لهذا تستطيعون بسهولة أن تتصوروا ما أحسست به حين فتح فاه ونطق جملته الأولى...

بدأ يتكلم بصوت مخنوق وكأنه عقد العزم على أن يجازف بكل شيء فقال:

ـ أيها السادة! هذا الصباح أيضاً كانت أمامي ورقة من تلك الورقات التي تُوزَّع سراً في البلاد، فتساءلت للمرة المائة: "ما سرُّ هؤلاء؟".

صمتت القاعة فوراً. واتجهت الأنظار كلها إلى ستيفان تروفيموفتش في شيء من القلق، لا شك أنه استطاع منذ الكلمات الأولى أن يجتذب اهتمام سامعيه، حتى لقد ظهرت رؤوس من خلف الكواليس. وكان ليبوتين وليامشين يصغيان طبعاً.

نادتني جوليا ميخائيلوفنا إليها من جديد، وهمست تقول لي مرتاعة:

ـ أسكته، أسكته مهما كلّف الأمر!

فلم أزد على أن رفعت كتفي. أين لي أن أسكت إنساناً "عزم أمره أخيراً"؟ وا أسفاه! لقد فهمت الآن ستيفان تروفيموفتش!

دمدم بعض أفراد الجمهور يقولون:

ـ هذه منشورات تحريضية.

وظهر في الصالة اضطراب.

ـ أيها السادة! لقد حللت هذا اللغز: إن سر عملهم هو غباؤهم.

قال ذلك وسطعت عيناه. وتابع كلامه فقال:

ـ نعم أيها السادة! لو كانت هذه الغباوة مقصودة، متظاهراً بها، محسوبة، لكاد الأمر أن يكون عبقرياً. ولكن يجب أن ننصف كتّاب هذه الورقات: ليس غباؤهم مزيفاً، بل هو الغباء الخالص العاري البريء المسكين، "هو الغباء في جوهره الصافي صفاءَ عنصر كيماوي بسيط" (بالفرنسية). لو كانوا يعبِّرون ولو بقليل جداً عن الذكاء، لأدرك جميع الناس غباءهم التافه. ولكن جميع الناس يتوقفون الآن أمام هذه الأوراق مشدوهين، ولا يستطيعون أن يصدِّقوا أنها يمكن أن تكون غبية إلى هذا الحد من الغباء. إن كل واحد منا يقول لنفسه: "يستحيل التسليم بأن ليس فيها شيء أكثر من هذا". ونمضي نبحث عن سرهم ويتراءى لنا أننا نكتشف لغزهم، ونحاول أن نقرأ بين السطور. وبذلك يتحقّق الغرض ويحدث الأمر المنشود. آه... إن الغباء لم يحقّق في يوم من الأيام انتصاراً كهذا الانتصار، انتصاراً مسوَّغاً هذا التسويغ، رغم أنه يستحق هذا الانتصار في كثير من الأحيان... ذلك أن الغباء ـ أقول هذا بين قوسين ـ مفيد للإنسانية كالعبقرية سواء بسواء.

قال صوت خجول في الواقع، لكنه وضع في البارود ناراً:

ـ هذه من مزاحات سنوات الأربعينات!
وهتف ستيفان تروفيموفتش يقول متحدياً الجمهور:
ـ أيها السادة! مرحى مرحى! إنني أشرب نخب الغباء!
أسرعت إلى المنصة كما لو كنت أريد أن أصب له ماء. وقلت له:
ـ ستيفان تروفيموفتش، انصرف! إن جوليا ميخائيلوفنا تتوسّل إليك أن تنصرف...
فقال لي غاضباً:
ـ بل دعني وشأني أيها الشاب العاطل!
فوليت هارباً. وتابع هو كلامه فقال:
ـ أيها السادة! لماذا هذا الاضطراب؟ لماذا هذه الأصوات المستاءة التي أسمعها؟ إنني أجيء إليكم حاملاً غصن زيتون. إنني آتيكم بقول فصل، ذلك أنني أنا الذي أعرف هذا القول الفصل، وسوف نتصالح.
أعول بعضهم يقول:
ـ فليسقط! فليسقط!
وصاح آخرون:
ـ صمتاً! دعوه يتكلّم! ليقل ما يريد أن يقوله.
وكان أشدهم حماسة، في ما يبدو، إنما هو معلّم المدرسة الشاب الذي تجاسر فتكلّم مرةً، فإذا هو قد أصبح لا يستطيع التوقف عن الكلام.
ـ أيها السادة! إن القول الفصل لهو قول صفح وعفو ومغفرة. إنني لأعلن لكم جهاراً، أنا الشيخ الذي انتهت حياته، أن روح الحياة تهبّ اليوم مثلما كانت تهبّ في الماضي، وأن الجيل الجديد لا يزال زاخراً بالقوة. إن حماسة شباب اليوم لا تقل نقاءً وضياءً وسناءً عن حماسة شباب زماننا المنصرم. هناك شيء واحد تغيَّر: ذلك الشيء إنما هو الغاية، إنما هو الهدف. إن مثلاً أعلى جديداً قد حل محل المثل الأعلى القديم. والقضية كلها ترجع إلى هذا السؤال: هل شكسبير أعلى قيمةً من حذاءين، وهل رافائيل أرفع شأناً من صفيحة نفط؟
ـ هذه وشاية!

- هذه مسائل تعرِّض للخطر!

- يا للعميل المحرِّض!

صرخ ستيفان تروفيموفتش يقول بصوت حاد:

- أما أنا فأقول لكم أن شكسبير ورافائيل أجلُّ شأناً من تحرير الفلاحين، وأرفع قدراً من القومية، وأعظم قيمة من الاشتراكية، وأسمى منزلةً من الجيل الجديد، وأهم خطراً من الكيمياء، وأنهما فوق الإنسانية بكاملها تقريباً، لأنهما ثمرة الإنسانية، ثمرتها الحقيقية، لأنهما ربما كانا أجمل الثمار الإنسانية التي يمكن أن تهبها الإنسانية يوماً، لأنهما يحققان منذ الآن صورة من الجمال كاملة قد لا أحب بدونها أن أحيا... آه... رباه!... (قال ذلك وضمَّ يديه إحداهما إلى الأخرى)... منذ عشر سنين، في بطرسبرج، ناديت من أعلى المنبر بهذه الأفكار نفسها، معبراً عنها بهذه الألفاظ نفسها تماماً. وكما لا تفهمونني الآن، كذلك سخروا مني يومذاك، وصفَّروا لي. يا للبشر المساكين! ماذا يعوزكم حتى تفهموني؟ هل تعلمون... هل تعلمون أن الإنسانية تستطيع أن تستغني عن الإنجليز اذا لزم الأمر، وأن تستغني عن ألمانيا، وأنها تستطيع جداً جداً أن تستغني عن الروس، وعن الخبز، وعن العلم، ولكنها لا تستطيع أن تستغني عن الجمال؟ إن الجمال وحده لا غنى لها عنه، إذ بدون الجمال لا يبقى لنا على الأرض ما نعمله! هذا هو السر كله! ذلكم هو كل التاريخ! العلم نفسه لا يمكن أن يعيش لحظةً بعد زوال الجمال! هل تعلمون ذلك أنتم يا من تضحكون؟ نعم، إن العلم بدون الجمال يتدهور إلى تفاهة، فتصبحون عاجزين عندئذ حتى عن اختراع مسمار!

قال ذلك ثم أعول فجأة وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية:

- لن أتراجع عن رأيي!

ولكن بينما كان ستيفان تروفيموفتش يهذر هذا الهذر كانت الفوضى في الصالة تزداد، إن جزءاً من الجمهور قد هبَّ واقفاً، وإن عدداً من الناس قد أخذوا يقتربون من المنصة متدافعين. وهذا كله حدث بسرعة تبلغ من الشدة أن الوقت لم يتسع لاتخاذ الإجراءات الضرورية. وربما لم يشأ أحد أن تتخذ

هذه الإجراءات.

زأر الطالب قائلاً وقد وصل إلى قرب المنصة، وكان يضحك ضحكة خبيثة كاشفاً لستيفان تروفيموفتش عن جميع أسنانه:

ـ هذا يصلح لكم أيها الكسالى الذين تعيشون عالةً على غيركم كما تعيشون...

فلما رآه ستيفان تروفيموفتش وثب إلى حافة المنصة.

ـ ألست أنا الذي قلت إن حماسة الجيل الجديد لا تقل صفاء وضياءً وسناءً عما كانت عليه حماستنا نحن، وإنها لا تضيع إلّا لخطأ في فهم صور الجمال؟ ألا يكفيكم هذا؟ هل يستطيع إنسان، يا أيها المحدودون، أن يكون أكثر حياداً وإنصافاً، وأن يكون أعظم هدوءاً ورصانة؟... يا لكم من عاقين ناكرين للجميل!... لماذا، لماذا لا تريدون أن تتصالحوا؟...

ألقى ستيفان تروفيموفتش هذا السؤال وأجهش باكياً منتحباً، وأخذ يمسح بأصابعه دموعه التي طفقت تسيل على وجهه كله. كان جسمه يرتعش متشنجاً. وكان قد فقد صوابه تماماً.

وهبَّت على الصالة ريح ذعر. إن جميع الحضور تقريباً قد وقفوا وانتصبت جوليا ميخائيلوفنا فجأة، شادةً زوجها من ذراعه لينهض هو أيضاً... وبلغت الفوضى ذروتها.

هتف الطالب يقول فرحاً:

ـ ستيفان تروفيموفتش! إن فدكا، المحكوم عليه بالأشغال الشاقة قد هرب من السجن وهو الآن يطوف في المدينة وفي الضواحي. إنه يسرق ويقتل. ولقد ارتكب في الآونة الأخيرة جريمة قتل جديدة. فهلّا أذنت لي أن ألقي عليك هذا السؤال، لو أنك منذ خمسة عشر عاماً لم تبق جندياً لتسدد ديناً ترتب عليك في القمار، أو قل بتعبير آخر، لو أنك لم تخسر فدكا في اللعب بالورق، أفكان ذهب إلى السجن؟ أفكان يقتل كما يفعل الآن في كفاحه من أجل البقاء؟ ما رأيك في هذا يا عاشق الجمال؟

إنني أعزف عن وصف ما جرى حينذاك. لقد هبَّت في أول الأمر عاصفة

من التصفيق. صحيح أن الذين صفقوا لا يتجاوز عددهم خُمس عدد الحضور في القاعة، ولكنهم صفقوا بحماسة تشبه الهذيان. واتجه الآخرون نحو باب الخروج. ولكن لما كان المصفقون يتدافعون نحو المنصة، فقد عمَّ اضطراب شامل، فالسيدات يطلقن صرخاتٍ صغيرة، والفتيات يبكين ويطلبن إعادتهن إلى البيوت. ولمبكه واقف أمام كرسيه يجيل على ما حوله نظرات زائفة. وجوليا ميخائيلوفنا تبدو كأنها فقدت صوابها. أما ستيفان تروفيموفتش فقد بان عليه في البداية أن كلام الطالب قد سحقه سحقاً بالفعل. ولكنه لم يلبث أن مدَّ ذراعيه فوق الجمهور على حين بغتة وأعول يقول:

- إنني أنفض غبار حذاءي وألعن!... هذه هي النهاية! النهاية!...

واستدار إلى وراء، وفرَّ إلى الكواليس ملوحاً بذراعيه على هيئة التهديد.

أعول المسعورون يقولون:

- لقد أهان الجمهور! هاتوه! أرجعوه!

وأراد بعضهم أن يركض في أثره. لقد كان يستحيل استحالة مطلقة، في تلك اللحظة على الأقل، أن تعود الأفكار إلى هدوئها، وأن يرجع إلى النفوس صفاؤها وسكونها.

ولم يطل انتظار وقوع الكارثة الحاسمة. فها هي ذي تنفجر انفجار قنبلة: إن المحاضر الثالث، ذلك الرجل المهووس الذى كان لا يني يشهر قبضة يده في الكواليس قد انبجس الآن على المنصة فجأة.

كانت هيئته هيئة مجنون تماماً. وجهه يشرق بابتسامة نصر، ويزخر بزهو كبير، وهو يتأمل الصالة مفتوناً بالفوضى التي تسودها، لا يقلقه ولا يشوشه أن عليه أن يتكلم في وسط هذا اللغطِ وهذه الضوضاء، حتى لكأنه مسرور بذلك أعظم السرور. وكان ابتهاجه يبلغ من الوضوح أنه سرعان ما لفت إليه انتباه الناس كافةً على الفور.

هتفت بضعة أصوات تسأل:

- ما هذا أيضاً؟ من هذا؟ سكوت! ماذا يريد أن يقول؟

صاح المهووس يقول بأعلى صوته، واقفاً على حافة المنصة:

ـ أيها السادة...

إن صوتـه صـارخ كصـوت كارمازينـوف، ولكـن ليس فيه مـا في صوت كارمازينوف من تعاقب أرستقراطي.

ـ أيها السـادة! منذ عشـرين سـنة، قبل أن تدخل روسـيا حرباً ضدَّ نصف أوروبا، كانت روسـيا تجسّد المثل الأعلى لجميع مستشاري الدولة وغيرهم من المستشـارين. وكان الأدب عبد الرقابة. وكانت الجامعات تعلّم الخطوة العسكرية، وكان الجيش قد أصبح فرقة باليه. أما الشعب فكان يدفع الضرائب ويصمت مجلوداً بسـياط القنانة. وكانت الوطنية تعني قبض الرشـوات، فأما الذيـن لا يقبضون رشـوات فيعـدون عصاة ثائرين لأنهم يشوشـون انسـجام النظـام. وكانت غابات أشـجار السـندر تُقطـع دائماً في سـبيل الحفاظ على النظـام. وكانـت أوروبـا ترتعـش... ولكن روسـيا خلال السـنين الألف من حياتها البليدة لم تكن قد بلغت ذلك المبلغ من السقوط إلى الدرك الأسفل...

قال الخطيب هذا ورفع قبضة يده وشـهرها غاضباً فوق رأسه ثم هوى بها كأنـه يحطّم خصماً من الخصوم. فضجّت القاعة بأصوات معولة مجنونة في كل جهة من الجهات. وطفق نصف من في القاعة يصفقون تصفيقاً محموماً. وحتى الخجلون الوجلون انقادوا للحماسـة العامة. إن روسـيا تُشتم وتلطخ بالوحل على رؤوس الأشهاد. فكيف لا تثور الحماسة تأييداً واستحساناً؟

ـ هذا رجل! هل اسمه كلام! ما هذه بجمل منمقة في علم الجمال!...

وتابع المهووس خطابه قائلاً وقد سكر بما أصاب من نجاح:

ـ انقضـت علـى ذلـك العهد عشـرون سـنة. افتُتحـت جامعـات جديدة. الخطوة العسكرية أصبحت أسـطورة. وأصبح يعوزنا ألوف الضباط لإكمال القيادات في جيشـنا. السـكك الحديديـة التهمت العواصم، وغطت روسـيا كخيـوط العنكبوت، فما إن تمضي خمس عشـرة سـنة أخرى حتى يكون في وسـع المـرء أن ينتقل إلى أي مـكان في أغلب الظن. الجسـور لا تحترق إلّا مـن حين إلى حين، في أوقات متباعدة. أما المدن فتحترق واحدةً بعد أخرى بانتظام، حين يجيء موسم الحرائق. المحاكم تصدر أحكاماً كأحكام سليمان

الحكيـم، والمحلَّفون لا يتقاضون مالاً إلّا من أجل أن لا يموتوا جوعاً. ذلك هو الكفاح في سـبيل البقاء. الأقنان أحرار، يضرب بعضهم بعضاً لأن السادة أصبحوا لا يضربونهم. بحار من الخمرة بل أوقيانوسـات من الخمرة يشربها الشـعب مسـاعدةً للميزانية. وفي نوفغورود، أمام كاتدرائية القديسـة صوفيا، القديمة التي لا فائدة منها، نصبت كرة فخمة كبيرة من البرونز تخليداً لذكرى السـنين الألـف التي قضيناها مـن حياتنا فـي فوضى وغبـاء. وأوروبا تقطب حاجبيها، وتسـتأنف قلقها... خمسة عشـر عاماً من الإصلاحات! ومع ذلك لم تسـقط روسـيا يوماً، حتى فـي أحلك عهود فوضاها، إلـى مثل هذا الدرك الأسفل...

لـم يمكن سـماع كلماته الأخيرة: لقد غطَّتها هتافـات الجمهور وأغرقتها إغراقـاً. وظـل المجنون يُرى رافعـاً قبضة يده، هاوياً بها علـى ظفر وانتصار. تجاوزت الحماسة العامة كل الحدود. كان الناس يعولون، ويضربون أكفهم، حتـى لقد أخـذت إحدى السـيدات تصيح قائلـةً: "كفى! لن تقـول خيراً مما قلت!". كان الناس كالسكارى. وكان الخطيب يطوف ببصره على الجمهور ويتلـذذ بانتصـاره. رأيت لمبكه مضطرباً اضطراباً لا سـبيل إلى وصفه، وكان يصـدر إلى أحدهم أوامره. ورأيت جوليا ميخائيلوفنا شـاحبةً كل الشـحوب تقـول بضع كلمات سـريعة للأمير الذي هـرع إليها... ولكن سـتة رجال هم جميعـاً أشـخاص رسـميون قليلاً أو كثيراً، قـد ظهروا علـى المنصة في تلك اللحظة نفسـها، فأمسـكوا بالخطيب واقتادوه إلـى الكواليس. لا أدري كيف استطاع أن يفلت منهم. ولكنه قد أفلت في الواقع، وركض إلى حافة المنصة، وأمكنه أن يصرخ مرة أخرى شاهراً قبضة يده قائلاً بصوت عالٍ:

ـ ولكن روسيا لم تسقط يوماً هذا السقوط...

واقتادوه من جديد. وأراد نحو خمسـة عشـر رجلاً أن يخلِّصوه، فأحدقوا بالمنصة وحطموا الدرابزين الهزيل الذي يحيط بها فسرعان ما سقط...

وبعـد ذلـك رأيـت، مـن دون أن أصـدق عينـيَّ، رأيـت الطالبـة (أخت فرجنسـكي) تظهر على المنصة فجأة وقد انبجسـت لا أدري من أين. إنها لا

تزال مدوَّرة الجسم وردية اللون، ولا تزال ترتدي ذلك الثوب نفسه، ولا تزال تتأبط تلك اللفيفة من الأوراق نفسها. وكان يصحبها عدة أشخاص، رجال ونساء، عرفت منهم طالب المدرسة الثانوية، عدوَّها اللدود. لم أستطع أن أدرك إلّا عبارة واحدة قالتها:

"أيها السادة، لقد جئت لأطلعكم على آلام الطلاب التعساء، ولأدعوكم إلى الاحتجاج...".

ولَّيت هارباً. دسست في جيبي عقدة الشريط الذي كانت موضوعةً على كتفي، وخرجت إلى الشارع من باب خلفي كنت أعرفه. وقبل كل شيء ذهبت طبعاً إلى ستيفان تروفيموفتش.

الفصل الثاني
نهاية الحفلة

1

لم يقبل ستيفان تروفيموفتش أن يستقبلني. كان قد سجن نفسه، وأخذ يكتب. قرعت مرةً أخرى وناديته من خلال الباب فأجابني بقوله:

ـ لقد أنهيت كل شيء يا صديقي، فماذا يُراد مني أيضاً؟

ـ لم تنه أي شيء البتة، وإنما أنت أسهمت في الكارثة. كفاك مزاحاً، أرجوك! ستيفان تروفيموفتش، افتح! يجب اتخاذ إجراءات. قد يجيئون إلى هنا ويهينونك.

رأيت من واجبي أن أكون قاسياً بل صارماً معه. كنت أخشى أن يندفع في حماقة أشد وأخطر. ولكن ستيفان تروفيموفتش قاوم مقاومة غير معهودة فيه، مقاومةً أدهشتني كثيراً.

ـ لا تهنِّي، أنت خاصةً. إنني شاكر لك كلَّ ما صنعته لي حتى الآن، لكنني أكرر لك إني قد أنهيت صلتي بالناس، أخيارهم وأشرارهم على السواء. أنا أكتب الآن إلى داريا بافلوفنا التي أهملها إهمالًا لا يغتفر، في الآونة الأخيرة، فاحمل رسالتي إليها غداً إذا شئت. والآن ـ "شكراً".

ـ ستيفان تروفيموفتش، أؤكد لك أن الأمر أخطر شأناً مما تظن. أتتصور أنك سحقت أحداً؟ إنك لم تسحق أحداً. وإنما أنت تحطمت كما تتحطم زجاجة فارغة...

كنـت فظاً في مخاطبتـه، وما زلت أتألم حين أتذكر هـذا. وتابعت كلامي أقول:

ـ ليس ثمة سبب يدعوك أن تكتب إلـى داريا بافلوفنا... وماذا عسـى أن تصير بدوني؟ مـاذا تفهم أنت من شؤون الحياة العملية؟ أغلـب الظن أنك تهيـئ ضربـة أخـرى، أليس كذلـك؟ إذا صـح هذا فإن شـقاءً جديداً سـينزل عليك...

نهض ستيفان تروفيموفتش واقترب من الباب. وقال:

ـ إنك قد بقيت بقربهم زمناً قصيراً، ولكنك أخذت عنهم لغتهم ولهجتهم. "عفا الله عنك يا صديقي، وحماك!" (بالفرنسية). لقد لاحظت فيك نوعاً من الشرف على الدوام، وربمـا كانت لك عودةٌ أخرى إلى أفـكارٍ أفضل ـ "بعد فوات الأوان" ـ شـأننا جميعاً معشـر الروس. أما عـن ملاحظتك التي تعرِّض فيها بنقص خبرتي في الشؤون العملية، فإننـي أذكِّرك بكلمة من كلماتي: إن لدينا، في روسـيا، أناسـاً كثيرين، يتهافتـون تهافت الذبـاب وراء واحد منهم ويعيبون على الآخرين أنهم يفتقرون إلى الحس العملي، من دون أن يرجعوا إلـى أنفسـهم في يوم من الأيـام... "يا عزيـزي"، تذكَّر أنني منفعـلٌ جداً، فلا تعذبنـي. "شـكراً" مرةً أخرى لـكل ما صنعته من أجلـي، ولنفترق كما افترق كارمازينوف عن جمهوره، أو قل بتعبير آخر: لنكن كريمين سمحين، فتنساني كما سأنسـاك. إن كارمازينوف كان يمكر حين طلب من قرائه أن ينسـوه. أما أنـا فإنني أقل غـروراً وأقل حباً للظهور. ثم إنني أعتمد خاصةً على كونك في عنفوان الشباب: كيف يمكنك أن تحتفظ مدةً طويلة بذكرى شيخ لا خير فيه؟ "عش مدةً أطول"، يا صديقي، على حد التعبير الذي قالته لي ناستاسيا مؤخراً بمناسـبة عيـد ميـلادي ("إن للفقراء كلمات رائعـة زاخرة بالفلسـفة أحياناً") (بالفرنسـية). إنني لا أتمنى لك سـعادة كثيرة ـ فالسـعادة تتعـب ـ ولكنني لا أتمنـى لك الشـقاء أيضـاً. وإنما أنا أكرر حكمة الفلسـفة الشـعبية: "عش مدة أطول"، وحاول أن لا تضجر كثيراً. وهذا التمني الذي لا سـبيل إلى تحقيقه، أنا الذي أضيفه. والآن، وداعاً، وداعاً! ولا تبق أمام بابي. فلن أفتح الباب.

وعـاد يكتب. ولـم أسـتطع أن أجني منه أكثر من ذلـك. ولقد تكلم بلهجة متسـاوية رغم "انفعاله"، تكلم بغير تعجل، بـل تكلم بفخامة، بغية أن يفرض عليَّ مهابته. لا شك أنه حاقد عليَّ بسبب المسارّات التي استرسل في الإفضاء بهـا إليَّ أمس عن "الزلاجة"، وعن "الأرض التي تميد تحت خطواته". ثم إن الدموع التي ذرفها أمام الجمهور منذ قليل قد وضعته في ظرفٍ مضحك رغم هيئة الانتصار التي كان قد اصطنعها، وهو يدرك هذه الحقيقة. فإذا تذكرنا أنه ما من أحد يحرص حرص سـتيفان تروفيموفتش على أن يحافظ في علاقاته بأصدقائه على قواعد الأصول وآداب اللياقة، كان في وسـعنا أن ندرك ما هو عليه الآن من حالة نفسـية خاصة. معاذ الله أن أتهمه! ومهما يكن من أمر فإن هذا التأذي السـريع وهذه اللهجة الساخرة اللذين احتفظ بهما رغم كل شيء قـد طمأناني: لقد بدا لي قليل الاختلاف جداً عما عهدته فيه عادةً، فلا يمكنه الآن إذًا أن يتخـذ قراراً فاجعاً غير عادي. ولكنني أخطأت الظن... لقد غابت عني أشياء كثيرة.

وها أنا ذا أستبق الحوادث فأورد لكم مستهل الرسالة التي بعثها إلى داريا بافلوفنا، فاستلمتها هذه في الغد فعلاً.

"بنيَّتـي، إن يدي ترتعش، ولكنني أنهيت كل شـيء. لم تشـهدي سـاعة معركتـي الأخيـرة مع النـاس. إنـك لـم تجيئـي لسـماع المحاضرة. وحسـناً فعلت. ولكنهم سـيقولون لك إن رجلاً شـجاعاً في بلادنا روسـيا التي تفتقر أشد الافتقار إلى رجال شجعان قد نهض مقتحماً تهديدات الموت التي كانت تتقاطر عليـه من كل جهة، فأعلن لأولئك الحمقى الصغار حقيقتهم، أي قال لهـم إنهـم ليسـوا إلّا حمقى صغـاراً. آه... ما هـم في حقيقة الأمـر إلّا صغار تافهون لا قيمة لهم، ما هم إلّا صغار أغبياء، نعم هذه الكلمة التي تصفهم بما فيهم" (بالفرنسـية). لقد قلت كلمتي وحدّدت مصيري. سأبارح هذه المدينة إلى الأبد، وأذهب لا أدري إلى أين. إن جميع الذين كنت أحبهم قد أشـاحوا عنـي. أما أنت، أيتها النفـس الطاهرة البريئة النقية، أنت أيتها الإنسـانة العذبة الرقيقة، الذي أوشـك مصيرهـا أن يتحد بمصيري تنفيـذاً لإرادة امرأة طاغية

ذات نـزوات، أنـت التـي لعلك كنـت تنظرين باحتقـار إلى العبـرات تذرفها عيناي بحقارة وجبانة عشية خطبتنا، أنت التي لن تملكي إلّا أن تعديني رجلاً مضحـكاً، فاقبلي هذه الصرخة الأخيرة يطلقها قلبي. إنني إذ أوجه إليك هذه الصرخـة إنما أحقق واجباً أخيراً. ذلك أنني لا أسـتطيع وأنا أتركك إلى الأبد أن أدعك تظنين أنني لسـت إلّا إنساناً عقوقاً، إنساناً غليظ القلب، إنساناً أنانياً كما يؤكد لك ذلك كلَّ يوم، في أغلب الظن، شـخص عقوق قاسٍ لا أستطيع أن أنساه وا أسفاه!...".

وهكذا دواليك على مدى أربع صفحات كبار.

حين قال لي سـتيفان تروفيموفتش إنه لن يفتح، قرعت الباب بقبضة يدي ثـلاث مـرات وصرخت أقول له إنه سـيبعث ناستاسـيا لاسـتدعائي في ذلك اليوم نفسـه، ولكنني أنا الذي سـأرفض عندئذ أن أجيء. ثم تركته وأسـرعت أذهب إلى جوليا ميخائيلوفنا.

2

هنـاك حضـرت مشـهداً يثيـر الأعصاب فعـلاً: كانـوا بصدد غـش المرأة المسكينة بوقاحة لا حياء فيها، ولم أستطع أن أفعل شيئاً. ماذا كان في وسعي أن أقول لها في الواقع؟ كنت قد ثبت إلى رشدي وعدت إلى صوابي وأدركت أن ليس لديَّ على وجه الإجمال إلّا انطباعات ومشـاعر وشـبهات وشـكوك وتوجسـات لا أكثر. رأيتها غارقةً في دموعها توشك أن تصاب بنوبة عصبية. كانت تشـرب ماء، وتمسـح وجههـا بالكولونيـا. وكان بطرس سـتيفانوفتش واقفـاً أمامهـا يتكلّم بغيـر توقّف أو انقطـاع، بينما كان الأميـر هنالك أيضاً لا ينطق بكلمة واحدة. إنها تأخذ على بطرس سـتيفانوفتش، بصرخات ودموع، ما كانت تصفه بأنه "خيانة" منه. ما كان أشدَّ دهشتي حين رأيتها تنسب إخفاق الاجتماع وكل ما جرى إلى مجرد غياب بطرس ستيفانوفتش عن الحفلة.

ولقـد لاحظـت فيه تغيـراً كبيراً: كان يبدو مشـغول البال كثيـراً. إن وجهه رصين جاد. إن هيئته لا تعبر في العادة عن جد: فهو يضحك دائماً حتى حين

يغضب، وذلك ما يحدث له في أحيان كثيرة. إنه الآن أيضاً حانق، ولكنه يتكلّم بلهجة فظّة، متذمّرة، متململة، خالية من التحرج زاخرة بالإهانة. كان يؤكد أنه قد أصيب بصداع شديد وتقيؤ عند جاجانوف الذي ذهب إليه في الصباح. وا حسرتاه! لقد كانت المرأة المسكينة لا تتوق إلّا إلى أن تُخدع مرةً أخرى. كانوا لحظة دخولي يتناقشون في أمر حفلة الرقص: أتقام أم لا؟ فكانت جوليا ميخائيلوفنا تصرّ على أنها لن تظهر في هذه الحفلة بحال من الأحوال بعد "الإهانات التي نالتها في الصباح". قل بتعبير آخر: إنها كانت تريد أن تُجبر إجباراً على حضور الحفلة، وأن يجبرها على ذلك بطرس ستيفانوفتش نفسه، كانت تنظر إليه نظرتها إلى عرَّاف لا يخطىء. وأظن أنها كانت ستمرض لو انصرف. ولكن بطرس ستيفانوفتش لا يخطر بباله أن ينصرف: إنه يصر إصراراً قاطعاً على أن تقام حفلة الرقص، وعلى أن تحضرها جوليا ميخائيلوفنا حتماً...

ـ ما بالك تبكين؟ أأنت حريصة هذا الحرص كله على خلق مشكلة؟ ألا بد لك من صبِّ غضبك على أحد؟ طيب! صبِّي غضبك عليَّ أنا، ولكن أسرعي، لأن الوقت يمضي سريعاً، ولا بد من اتخاذ قرار. أخفقت صبيحتك الأدبية؟ طيب... إن حفلة الرقص ستصلح من الأمر ما فسد. انظري إلى الأمير. إنه يوافقني على رأيي. نعم، لو لم يكن الأمير هناك، لما عرف أحد كيف كان يمكن أن تنتهي القضية!

لقد كان من رأي الأمير في البداية أن لا تُقام الحفلة (أو قل كان من رأيه أن لا تحضرها جوليا ميخائيلوفنا، إذ لا بد من إقامة حفلة الرقص على كل حال)، ولكنه بعد أن ذُكر مرتين أو ثلاث مرات قال في النهاية بضع كلمات مبهمة يُفهم منها أنه موافق.

وقد دُهشت كثيراً كذلك من لهجة بطرس ستيفانوفتش التي كانت خالية من الأدب والتهذيب. آه... معاذ الله أن أصدِّق الإشاعات الدنيئة السافلة التي أذيعت، في ما بعد، عن العلاقات التي قالوا إنها كانت قائمةً بين جوليا ميخائيلوفتش وبطرس ستيفانوفتش. إن أمثال تلك العلاقات المزعومة لم

توجد ولا كان يمكن أن توجد بينهما. ولئن استطاع بطرس ستيفانوفتش أن يكون له على جوليا ميخائيلوفتش شيء من السيطرة، فالسبب الوحيد في ذلك هو أنه كان يشجّع أحلامها الطموحة، مقنعاً إياها بأنها تستطيع أن تؤثر في المجتمع وأن تؤثر في الوزير. لقد دخل في خططها منذ البداية، وكان يلقنها هذه الخطط هو نفسه، ويغمرها بأنواع المديح المبذول، فاستطاع أخيراً أن يلتف عليها ويكبّلها من أخمص القدمين إلى قمة الرأس بحيث أصبحت لا تستطيع الاستغناء عنه.

حين رأتني جوليا ميخائيلوفنا أطلقت صرخة، وسطعت عيناها، وقالت تخاطب بطرس ستيفانوفتش:

ـ ها هو ذا. اسأله. إنه هو أيضاً لم يتركني، كالأمير.

وأردفت تقول لي:

ـ قل لهم، أليس بديهياً أن المسألة كانت مؤامرة، مؤامرة دنيئة وقحة تهدف إلى إيذائي أنا وآندره أنطونوفتش؟ أوه! لقد كانوا متواطئين متفاهمين! كانت لهم خطة مرسومة. إنهم حزب، حزب حقيقي.

قال لها بطرس ستيفانوفتش:

ـ إنك تبالغين، على عادتك. لا بد من قصيدة في رأسك دائماً.

ثم أردف يقول لي:

ـ على كل حال، يسعدني أن أراك يا سيد...

وتظاهر بأنه نسي اسمي. وتابع كلامه:

ـ ... سوف يقول لنا رأيه.

أجبت متعجلاً:

رأيي مطابق لرأي جوليا ميخائيلوفتش في كل ما قالت. بديهي كل البداهة أن ثمة مؤامرة محبوكة. إنني أرد إليك هذه الشرائط يا جوليا ميخائيلوفنا. لا أدري هل تقام حفلة الرقص. ذلك أمر لا شأن لي به. لكنني لن أكون واحداً من المشرفين على الحفلة. انتهى دوري هذا. اغفري لي حدتي. ولكنني لا أستطيع أن أتصرف تصرفاً مخالفاً للعقل والحس السليم، منافياً لقناعاتي.

فصاحت تقول وهي تضم ذراعيها:

ـ هل سمعت؟ هل سمعت؟

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يلتفت نحوي:

ـ سمعت. وفي رأيي أنكم جميعكم قد بلعتم شيئاً شوّش عقولكم وبلبل أفكاركم. في رأيي أنه لم يقع أي شيء خارق. لم يقع شيء يزيد على ما سبق أن وقع هنا وما يمكن أن يقع في كل زمان. أين المؤامرة التي تتخيّلون؟ كان الأمر سخيفاً بشعاً مخزياً، ولكن أين ترون مؤامرة؟ أمؤامرة على جوليا ميخائيلوفنا، حاميتهم التي تدلّلهم كل الدلال، وتغفر لهم كل العيوب؟ جوليا ميخائيلوفنا، ماذا كنت أقول لك بلا انقطاع في الشهر الأخير؟ ألم أنبّهك وأحذّرك سلفاً؟ ما كانت حاجتك إلى هؤلاء الناس جميعاً؟ ما كانت حاجتك إلى الارتباط بهؤلاء الأوغاد؟ فيم كان ذلك كله؟ أكان لتحقيق وحدة المجتمع؟ هلاّ فكرت في ما تقولين! أهؤلاء قادرون على أن يتحدوا؟

ـ أأنت نبهتني وحذّرتني؟ بالعكس! كنت دائماً تشجعني، بل كنت دائماً تطالبني بالمزيد. حقاً إنك لتدهشني الآن غاية الإدهاش! أنت نفسك جئتني بأشخاص عجيبين جداً.

ـ لا، أبداً. كنت أشاجرك في هذا الأمر، وكنت لا أؤيدك ولا أحبّذ تصرفك، لقد جئتك بأناس عجيبين... هذا صحيح... ولكن بعد أن كان منزلك قد امتلأ بأمثالهم... ثم إنني لم أجئك بهم إلّا في الآونة الأخيرة من أجل "الحفلة الأدبية": لقد كان يصعب الاستغناء عن هؤلاء الأوباش. أراهن أن دستةً أو دستتين منهم قد أُدخلوا بغير تذاكر.

قلت مؤيداً:

ـ أنا من هذا على يقين.

ـ أرأيت؟ إنك توافق. ثم تذكّر اللهجة التي كانت تسود المدينة كلها في الآونة الأخيرة. لم يكن ثمة إلّا وقاحة، واستهتار، واستخفاف... وفضائح متصلة لا نهاية لها. من ذا الذي كان يشجع ذلك؟ من ذا الذي كان يحميه بسلطته؟ من ذا الذي شوّش الأفكار كلها؟ من ذا الذي أحنق هؤلاء الصغار

من الناس جميعاً؟ ألم تكن جميع أسرارهم العائلية الصغيرة مودعةً في ألبومك؟ ألم تكوني تمسحين بيدك على رؤوس شعرائنا ورسامينا؟ ألم تمدي يدك إلى ليامشين ليقبِّلها؟ ألم يتجرأ أحد الطلاب أن يشتم بحضورك مستشاراً من مستشاري الدولة؟ ألم يوسخ بحذاءيه المدهونين بالقطران ثوب ابنة ذلك المستشار؟ فكيف تعجبين بعد هذا أن يقوم عليك الجمهور؟

ـ ولكنك أنت الذي كنت تدفعني. هذه خطيئتك. آه... رباه!

ـ لم يحدث هذا أبداً! لقد نبهتك وحذَّرتك. وكنا نختصم ونشتجر في هذا الأمر. نعم، كنا نختصم ونشتجر...

ـ أنت تكذب بغير حياء.

ـ سهل عليك طبعاً أن تقولي هذا الآن. لا بد لك من ضحية تصبين عليها نار غضبك. وقلت لك: صبي نار غضبك عليَّ أنا. لا بأس. و لكنني أؤثر أن أتجه إليك أنت يا سيد... (هنا أيضاً لم يفلح في أن يتذكر اسمي). لنعدَّ على أصابعنا: أنا أؤكد أنه، باستثناء ليبوتين، لم تكن هناك مؤامرة، لم تكن هناك أية مؤا.. مرة! سوف أبرهن على هذا. ولكن فلنحلل أولاً حالة ليبوتين. لقد ظهر على المنصة حاملاً أشعار ذلك الأحمق، لبيادكين. وأنت ترى أن هذه مؤامرة، أليس كذلك؟ ولكن ألا يجوز أن يكون ليبوتين قد وجد الأشعار فكهة فعلاً؟ إنني ألقي هذا السؤال جاداً. لقد ظهر على المنصة آملاً أن يُسلِّي الجمهور، وأن يضحك الناس كافة، وعلى رأسهم حاميته جوليا ميخائيلوفنا. ألا تصدق هذا؟ ولكن ألا ينسجم هذا مع كل ما كان يجرى هنا منذ شهر؟ هل تريد أن أقول لك كل شيء؟ يميناً إن هذه المزاحة كان يمكن في ظروف أخرى، أن تمر بسلام. صحيح أنها فظة غليظة، صحيح أنها قوية قليلاً، ولكنها مضحكة، هل تستطيع أن تنكر هذا؟

صاحت جوليا ميخائيلوفنا تسأله مستاءةً:

ـ كيف يمكنك أن ترى مهزلة ليبوتين مضحكة؟ هذه قلة كياسة... بل هذه دناءة مقصودة محسوبة! آه... إنك تقول هذا الكلام عامداً. واضح بعد هذا أنك أنت أيضاً ضالع في المؤامرة.

ـ كيـف؟ إذًا كنـت مختبئاً وراءهـم أحرِّكهم كما تُحـرَك الدمى! ولكن لو أنني اشتركت في المؤامرة ـ اعلمي هذا ـ لكان هنالك أشياء أخرى كثيرة غير ليبوتين! وأنت تتصورين إذًا أنني تواطأت مع أبي العزيز على أن يثير فضيحة. من ذا الذي طلب من أبي العزيز أن يقرأ؟ ومن الذي حاول أن يثنيك عن هذا أمس، نعم أمس؟

ـ آه... لقـد كان بالأمـس زاخـراً بالفكـر والظـرف! كنـت معتمـدةً عليـه أكبـر الاعتماد، لا سـيما وأن لـه آداباً رفيعة وسـلوكاً أنيقاً! كنـت أظن أنه هو وكارمازينوف سوف... ولكن انظر ماذا حدث!...

ـ نعم... انظري ماذا حدث! إن أبي قد أفسـد كل شيء رغم كل ما يتحلّى بـه من "فكر وظـرف" كما تقوليـن. ولو كنت أعلم سـلفاً أنه سـيتصرف هذا التصـرف، وأنا ضالـع في المؤامرة التي دُبِّرت لإفسـاد حفلتك، لما ألححت عليـك راجيـاً منـك أن لا يُتـرك التيس فـي مزرعـة الخضار! أليـس كذلك؟ ولكننـي حاولـت أن أثنيك عن دعوة أبي، لأنني كنت أوجس ما سـوف يقع. ومن المسـتحيل علـى المرء أن يتوقع كل شـيء طبعاً. هو نفسـه كان قبل أن يظهر على المنصة بدقيقة واحدة يجهل ما سـوف يقوله. هل هؤلاء الشـيوخ العصبيـون رجـال؟ علـى أن فـي إمكاننـا أن نصلـح الأمـور: فلكـي تُرضي الجمهـور، أرسـلي إلى أبـي منذ الغد طبيبيـن يفحصانه، أرسـليهما إليه على جنـاح السـرعة رسـمياً. بل يمكن إرسـالهما في هـذا اليوم نفسـه، فينقل إلى المستشـفى رأسـاً، ويعالـج هناك بكمـادات وحمامات باردة. عندئذ سـوف يضحك جميع الناس، وسـوف يرون أنه ما كان لهم أن يشـعروا بإهانة. حتى إنني أسـتطيع أن أخاطب جمهـور الحفلة في الأمر هذا المسـاء، بصفتي ابن الرجل. أما كارمازينوف، فشـأنه شـأنٌ آخر. لقد تصرَّف كارمازينوف تصرّف حمـار ذي بردعـة، لا أكثر. لقد جعل خطابه يطول سـاعةً كاملة. لا شـك أنه تواطأ معي. لا شـك أنه قال لنفسـه: "هيَّا، فلنفعل خطيئة من شـأنها أن تزعج جوليا ميخائيلوفنا!" هه؟...

ـ أوه! كارمازينوف! "يا للعار!" (بالفرنسية). لقد احمرّ وجهي خجلاً من جمهورنا.

ـ أما أنا فلو كنت في مكانك لما احمرّ وجهي خجلاً، أؤكد لك... وإنما كنت أضربه، صاحبك كارمازينوف! لقد كان الجمهور على حق. وأعود فأسألك مرةً أخرى: من المذنب في هذا؟ من المخطىء؟ أأنا الذي فرضت عليك كارمازينوف؟ أأنا شاركتك في تعظيمه إلى حد العبادة؟ شيطان يأخذه! وأما عن المهووس الثالث، المهووس السياسي فتلك حكايةٌ أخرى، الجميع مسؤولون عن أمره، أنا مسؤول وأنت مسؤولة.

ـ آه... لا تجىء على ذكره! لا تكلمني عنه! شيء فظيع، فظيع! في هذه الحالة أنا المذنبة، أنا المخطئة، أنا وحدي!

ـ طبعاً، ولكنك معذورة. أنَّى للمرء أن يحذر أناساً يبلغون هذا المبلغ من الصراحة؟ حتى في بطرسبرج لا تمكن محاذرتهم دائماً. ألم يُزكُّوه لك؟ ألم يوصوك به خيراً؟ بلى! ولقد فعلوا ذلك بكثير من الحماسة. والآن يجب عليك أن تفكري في الأمر وأن تتخذي قرارك: إنك مضطرة أن تحضري حفلة الرقص. الأمر خطير: إنك أنت التي أظهرته على المنصة، فمن واجبك إذًا أن تعلني على رؤوس الأشهاد أنك لست متعاونة معه، وأنه الآن بين يدي الشرطة، وأنك خُدعت في أمره. يجب عليك أن تصرِّحي، مستاءةً، بأنك كنت ضحية رجل مجنون. لأنه ليس في الواقع إلّا مجنوناً! على هذا النحو إنما يجب شرح الأمور. إنني أكره هؤلاء الناس الذين يعضّون. إنه ليتفق لي أن أقول أموراً أسوأ من تلك التي قالها، ولكنني لا أقولها من على منبر. والناس إنما تجري أحاديثهم الآن حول عضو من أعضاء مجلس الشيوخ.

ـ أي عضو من أعضاء مجلس الشيوخ؟ وماذا يقولون؟

ـ أنا نفسي لا أفهم مما يقولون شيئاً. ولكن ألم تسمعي أنت يا جوليا ميخائيلوفنا شيئاً عن وصول عضو من أعضاء مجلس الشيوخ؟

ـ عضو من أعضاء مجلس الشيوخ؟

ـ اسمعي. إن الناس جميعاً مقتنعون الآن بأن عضواً من أعضاء مجلس

الشـيوخ سيصل قريباً، وإنكم سـتعفون من منصبكم. سمعت هذا الكلام في كل جهة من الجهات.

قلت مؤيداً:

ـ وأنا سمعت هذا الكلام.

ـ ولكن من الذي يقول هذا؟

واصطبغ وجه جوليا ميخائيلوفنا بحمرة شديدة.

ـ مـن الذي أطلق هذه الشـائعة؟ أنَّى لي أن أعـرف! على كل حال، الناس يتحدثون في هذا الأمر يمنةً ويسرة. بالأمس خاصةً، كانوا يتكلّمون فيه كثيراً، وقـد لاح فـي وجوههم الجد، وإن خالط هذا الجـد تحفظ وتردد، طبيعي أن أذكاهم وأخبرهم ببواطن الأمور يلتزمون الصمت، ولكن ذلك لا يمنع بعض هؤلاء من الإصغاء بانتباه.

ـ يا للصغار! و... يا للحماقة!...

ـ هذا سبب آخر يدفعك إلى أن تظهري، وإلى أن تبرهني لهؤلاء الحمقى على أن...

ـ نعم، إنني أدرك بنفسي أن هذا من واجبي... ولكن ماذا لو كنت أعرِّض نفسـي لإهانـة جديـدة؟ مـاذا إذا لم يجيئـوا إلى حفلـة الرقـص؟ إن أحداً لن يحضر حفلة الرقص... لا... لن يجيء أحد!...

ـ إنك مسرفة في التعجّل! أتتصورين أن الناس لن يحضروا حفلة الرقص؟ أتتخيلين هذا؟ فما عساهم فاعلين بالأثواب التي أعدوها لهذه المناسبة، وما عسـاهم فاعلين بما زُيِّنت به الفتيات؟ ألست امرأة؟ ألا إنك لا تعرفين العالم حق معرفته!

ـ إن زوجة مارشال النبالة لن تجيء حتماً. أنا واثقة بهذا!

صـاح بطـرس سـتيفانوفتش يقول وقـد أصبح لا يسـتطيع السـيطرة على تململه وحنقه:

ـ ولكن أي شيء رهيب حدث؟ لماذا تتصورين أنهم لن يجيئوا؟

ـ حدث شـيء مخجل، شـيء مخزٍ، شـيء دنيء، ذلك ما حدث. شيء لا

أفهمه، ولكنني لا أستطيع أن أظهر للناس بعد أن حدث.

ـ لماذا؟ ما هي أخطاؤك وذنوبك في الحساب الأخير؟ لماذا تحمّلين نفسك كل التبعة، وتلفين على عاتقك بكل الخطأ؟ أليس المخطئ هو الجمهور، وهؤلاء الشيوخ الكبار، وأرباب الأسر أولئك؟ لقد كان عليهم أن يحتجزوا الأوباش والأوغاد، وما هم في الواقع إلّا أوباش وأوغاد، ثم ينتهي الأمر. إن الشرطة لا يمكن أن تكفي لكل شيء. وإنما ينبغي للمجتمع أن يقوم بواجبه ويبذل جهده. إن كل إنسان في بلادنا يتطلب عند دخوله إلى حفلة أن ينتدب له شرطي خاص يسهر على سلامة شخصه العظيم. الناس في بلادنا لا تدرك أن عليها أن تحافظ على نفسها بنفسها في مثل هذه الظروف. ماذا يفعل أرباب أسرنا وكبار موظفينا، وسيداتنا، وآنساتنا؟ يصمتون ويحردون. ما من مبادرة يقومون بها، ولو لقمع سفالة السفلة!

ـ آ... نعم... ما أصدق هذا الذي تقول!... إنهم يصمتون ويحردون ولا يزيدون على أن ينظروا إلى ما يجري!

ـ إذا كان ما أقوله صادقاً فاعلنيه جهاراً، اعلنيه بكبرياء، اعلنيه بقسوة، لكي تُظهري أنك لم تُصعقي وتُغلبي، لكي تظهري ذلك لأولئك الشيوخ وأمهات الأسر. آ... لسوف تعرفين كيف تفلعين هذا! إنك تملكين الموهبة اللازمة حين تكونين صافية الذهن. اجمعيهم، واعلني لهم الحقيقة بصوتٍ عالٍ... ثم نبعث برسالة صحافية إلى جريدة "الصوت" أو "البورصة". انتظري. سوف أشرع في العمل. وسوف أدبر كل شيء بنفسي. لا بد طبعاً من الانتباه واليقظة. يجب أن يراقب البوفيه. ويجب الإلحاح على مجيء الأمير، ومجيء السيد... إنك لا تستطع يا سيدي أن تتركنا في اللحظة التي يجب علينا فيها أن نبذل جهداً جديداً. وسوف تظهرين متأبطة ذراع آندره أنطونوفتش. كيف حاله الآن؟

فصاحت جوليا ميخائيلوفنا فجأة تقول باندفاعة غير متوقعة حتى لكأن دموعاً أخذت تترقرق في عينيها:

ـ أوه! ما كان أظلمك دائماً في حق هذا الإنسان الملائكي! لقد كانت

آراؤك فيه خاطئة كل الخطأ، مهينةً كل الإهانة!

ورفعت منديلها إلى عينيها. فجمد بطرس ستيفانوفتش في الوهلة الأولى مذهولاً.

ـ رحماك... أنا... أنا... ما هذا الذي تقولين؟ لقد كنت دائماً...

ـ لا، أبداً، أبداً، لم تنصفه في يوم من الأيام!

ـ يستحيل على المرء أن يفهم النساء.

كذلك جمجم يقول بطرس ستيفانوفتش وهو يبتسم ابتسامة مقهورة.

قالت جوليا ميخائيلوفنا:

ـ إنه بين الناس أصدقهم قولاً، وأرهفهم شعوراً، وأقربهم إلى أن يكون ملاكاً من الملائكة! هو خير الناس طراً!

ـ أرجوك... في ما يتعلّق بطيبة قلبه وشهامة نفسه، أنا أنصفه دائماً...

ـ لا، أبداً. ولكن دعنا من هذا. لقد كان كلامي الآن خراقة في غير محلها. منذ قليل، رمتني زوجة مارشال النبالة تلك، رمتني هي أيضاً، ببضعة سهام عن أحداث الأمس، ماكرةً مكر يسوعي.

ـ هوه! إن في رأسها الآن هموماً أخرى غير أحداث الأمس. إن أحداث اليوم تكفيها. لماذا تقلقين هذا القلق كله من أنها قد لا تحضر حفلة الرقص؟ إنها لن تحضر حتماً بعد الفضيحة التي وجدت نفسها مقحمة فيها. قد لا يكون لها بها شأن. ولكن سمعتها ستتأثر، ويديها ستظلان متسختين.

سألته جوليا ميخائيلوفنا مدهوشةً أشد الدهشة:

ـ ما هو الأمر؟ إنني لا أفهم: لماذا "ستظل يداها متسختين"؟...

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ لاحظي أنني لا أؤكد شيئاً، إلّا أن شائعة تجري في المدينة قائلة إنها كانت هي الوسيطة.

ـ وسيطة؟ بين من ومن؟

ـ كيف؟ ألا تعلمين بعد؟

كذلك صاح يقول بطرس ستيفانوفتش مدهوشاً دهشة كاذبة، وأردف يقول:

بين ستافروجين وليزافتا نيقولايفنا.

ـ ماذا؟ كيف؟

كذلك صحنا نسأل جميعاً في آن واحد.

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ هل يُعقل أن تكونوا جاهلين بالأمر؟ عجيب! إنها "تراجيديا ـ كوميديا": إن ليزافتا نيقولايفنا قد انتقلت رأساً من مركبة زوجة مارشال النبالة إلى مركبة ستافروجين، وهربت معه إلى سكفورشنيكي في وضح النهار، منذ ساعة واحدة، بل منذ أقل من ساعة.

جمدنا من الذهول. وأردنا أن نحصل على تفاصيل طبعاً. فما كان أشد دهشتنا حين رأيناه عاجزاً عن أن يمدنا بأية تفاصيل، رغم أنه قد شهد الحادث "مصادفةً". يظهر أن الأمور جرت كما يلي: بعد الجلسة الأدبية، حين كانت مارشالة النبالة تصطحب في مركبتها ليزا ومافريكي نيقولايفتش إلى منزل أم ليزا (التي كانت لا تزال تعاني آلاماً في ساقيها)، لمحوا مركبة كانت مرابطة على مسافة خمسة وعشرين متراً من باب المنزل. فما كان من ليزا إلّا أن وثبت إلى الأرض، وركضت رأساً إلى تلك العربة، فركبتها، ولكن من دون أن تنسى أن تصرخ قائلةً لمافريكي نيقولايفتش: "ارحمني!". وأسرعت العربة تطوي الأرض متجهةً إلى سكفورشنيكي، فلما سألناه "هل كانا على اتفاق؟ ومن ذا كان بالعربة؟"، أجاب بطرس ستيفانوفتش بأنه لا يعلم. قال: لا بد أنه كان ثمة اتفاق بين الشاب والفتاة، ولكنه لم يستطع أن يتعرّف الشخص الذي كان بالعربة، فلعله الخادم العجوز ألكسي إيغوروفتش. سألناه: "ولكن أنت، كيف اتفق أن كنت هناك؟"، و"كيف عرفت أنها ذهبت إلى سكفورشنيكي؟"، فأجاب بأنه كان ماراً بالمكان عرضاً، فلما لمح ليزا أسرع نحو العربة (ورغم ذلك، ورغم فضوله، لم يستطع أن يتعرف الشخص الذي كان بالعربة)، وأضاف أن مافريكي نيقولايفتش لم يحاول حتى أن يلاحق ليزا، بل إنه على عكس ذلك أسكت زوجة مارشال النبالة التي أخذت تصيح بصوتٍ عالٍ قائلة: "إنها ذاهبة إلى ستافروجين، إنها ذاهبة إلى ستافروجين!".

فجأةً رأيتني أفقد صبري وأصرخ قائلاً لبطرس ستيفانوفتش وقد أخذ مني الغضب كل مأخذ:

ـ أنت الذي دبرت كل شيء أيها الشقي! في تدبير هذه المؤامرة إنما قضيت الصباح! أنت الذي ساعدت ستافروجين! أنت الذي كنت في العربة! أنت الذي فتحت الباب لليزا!... أنت... أنت!... يا جوليا ميخائيلوفنا، هذا عدو لك فاحذريه! سيهلكك أنت أيضاً!

قلت هذا ووليت هارباً كمجنون.

ما أزال إلى هذا اليوم لا أفهم كيف أمكنني أن أصبَّ على رأسه هذه الكلمات. ولكن رأيي كان على صواب: فكما علمنا في ما بعد كان كل شيء قد تمَّ على ذلك النحو الذي ذكرته له، على ذلك النحو نفسه تقريباً. والعذر الذي انتحله لينبئنا بالخبر كان زائفاً زيفاً واضحاً كل الوضوح. إنه بدلاً من أن ينبئنا بالخبر فور دخوله من حيث أنه خبرٌ هامٌ جداً مثيراً جداً، تظاهر بأنه يظن أننا على علم به قبل وصوله هو، وذلك في الواقع مستحيل، لأن الحادث وقع منذ هنيهةٍ قصيرة. ولو كنا نعرف الخبر قبله لبادرناه نحن بالكلام عنه. ولم يكن في إمكانه كذلك أن يعرف ماذا تقول المدينة عن زوجة مارشال النبالة وماذا تشيِّع عنها لأن المدة التي انقضت على وقوع الحادث أقصر من أن تتيح رواج الإشاعات. وكنت قد لاحظت عدا ذلك ابتسامة الاحتقار التي ارتسمت على شفتيه مرتين أثناء رواية القصة: فلعله كان يعدنا أناساً بلهاء يسهل الضحك عليهم والتغرير بهم، ولكن ما شأني وبطرس ستيفانوفتش! لقد أخذت أفكر في الأمر الأساسي. فهربت من عند جوليا ميخائيلوفنا خارجاً عن طوري. إن هذه الكارثة قد طعنت قلبي في الصميم، فبلغت من الحزن والكرب أنني لعلني بكيت. كنت لا أعرف ماذا يجب أن أفعل. أسرعت راكضاً إلى عند ستيفان تروفيموفتش، ولكن الشيخ اللعين رفض أن يفتح لي أيضاً. وهمست ناستاسيا تقول لي خائفة: "إنه يرتاح". فلم أصدِّق من ذلك شيئاً. وذهبت إلى دار ليزا فاستطعت أن أسأل الخدم فأكدوا لي نبأ هروبها ولكنهم كانوا لا يعرفون شيئاً عدا ذلك. كان المنزل قد انقلب عاليه سافله.

براسكوفيا إيفانوفنا تُصاب بإغماء. ومافريكي نيقولايفتش لا يتركها. بدا لي مستحيلاً أن أستدعيه. وحين سألت عن بطرس ستيفانوفتش وعن دوره في القضية قيل لي أنه في الآونة الأخيرة أصبح لا يجيء إلى البيت أحدٌ غيره، وأنه ربما جاء في اليوم الواحد مرتين. كان الخدم حزانى، وكانوا يتكلمون عن ليزا بلهجة الاحترام. إنهم يحبونها. لم يراودني أي شك في أنها ضاعت، في أنها ضاعت ضياعاً لا خروج لها منه. ولكن الجانب السيكولوجي من هذه القضية كان لا يزال مجهولاً عندي، وكنت ما أزال عاجزاً عن فهمه كل العجز، لا سيما حين كنت أتذكر مشهد الأمس بين ليزا وستافروجين. وكنت أكره أن أسعى في المدينة سائلاً بعض الأصدقاء والمعارف الذين لا شك في أنهم كانوا على علم بالحادث وكانوا يعلقون عليه أسوأ التعليق في أغلب الظن. لا سيما وأن مثل هذه المساعي تشتمل في رأيي على مذلة ألحقها بليزا. ولكن لا أدري لماذا ذهبت إلى داريا بافلوفنا (على أنني لم أُستقبل هناك. فإن منزل آل ستافروجين قد أوصد في وجه كل قادم منذ أمس). لا أدري أنا نفسي ما الذي كان يمكنني أن أقوله لها لو أتيح لي أن ألقاها. ومن هنا ذهبت إلى عند أخيها. بدا لي شاتوف مربدَّ الوجه اربداداً شديداً. أصغى إلى كلامي ذاهلاً مفكراً كأنه يبذل جهداً خاصاً من أجل أن يتابع ما أقوله له. ولم يكد يجيبني بشيء، بل جعل يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً بخطى أثقل من خطاه المعهودة. ولم ألبث أن تركته. ولكن بينما كنت أهبط السلم، صاح ينصحني بأن أذهب إلى ليبوتين، قائلاً: "هناك ستعرف كل شيء". ولكنني لم أذهب إلى ليبوتين. فبعد أن قطعت شوطاً كبيراً من الطريق قررت فجأة أن أعود إلى شاتوف. لم أدخل عليه. ولكنني شققت بابه وسألته هل يريد أن يذهب إلى ماريا تيموفئفنا. فأجابني شاتوف بشتيمة. فرجعت أهبط السلم. أحب أن أذكر هنا، خشية النسيان، أن شاتوف في ذلك المساء نفسه قد مضى إلى الطرف الآخر من المدينة، إلى عند ماريا تيموفئفنا التي لم يكن قد رآها منذ مدةً طويلة. فوجدها في ذلك اليوم موفورة الصحة مشرقة المزاج. أما أخوها لبيادكين فكان قد اضطجع على الديوان في الحجرة الأولى ونام وهو

في حالة سكر شديد. كانت الساعة هي التاسعة تماماً كما ذكر لي شاتوف ذلك في الغداة حين لقيني عرضاً في الشارع. وفي الساعة العاشرة قررت أن أحضر حفلة الرقص، لا "مشرفاً" (فإن عقدة الشريط كانت قد بقيت عند جوليا ميخائيلوفنا)، بل مشاهد يدفعه حب الاطلاع وتدفعه الرغبة في أن يسمع ما تقوله المدينة عن جميع هذه الأحداث من دون أن يلقي على أحد سؤالاً ، ثم إنني كنت أريد أن أرى جوليا ميخائيلوفنا ولو من بعيد: لقد لمت نفسي كثيراً على أنني تركتها بمثل تلك السرعة.

3

تلك الليلة، مع جميع أحداثها المستحيلة و"خاتمتها" الرهيبة، لا تزال تبدو لي اليوم كابوساً فظيعاً، ولا تزال تؤلف في ما يتعلق بي أنا على الأقل، أشقَّ جزء من أجزاء هذه القصة، لقد وصلت الحفلة متأخراً، ولكنني استطعت أن أشهد نهايتها، فإنها لم تدم طويلاً. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة قليلاً حين دخلت باب منزل زوجة مارشال النبالة، لقد أعدوا الصالة البيضاء الكبيرة التي قامت فيها الصبيحة الأدبية لتكون صالة رقص، إذ كانوا يعتقدون أن المدينة ستشارك في الحفلة. ولكن الواقع تجاوز أسوأ التنبؤات. وكنت أنا منذ الصباح متشائماً في ما يتصل بالإقبال على هذه الحفلة. غاب المجتمع الراقي كله، وغاب كذلك جميع الموظفين الذين لهم قدر من الشأن، وتلك وحدها علامة سوء ونذير شر. أما عن السيدات والآنسات فإن حسابات بطرس ستيفانوفتش (وهي حسابات خادعة مضللة طبعاً) فقد اتضح بطلانها وكذبها: إن عدد السيدات والآنسات اللواتي حضرن الحفلة عدد ضئيل جداً. لا تكاد توجد سيدة واحدة في مقابل أربعة رجال. ويا لهن من سيدات! إنهن نساء ضباط صغار، وزوجات كتاب في الدواوين، وثلاث ممرضات مع بناتهن، وأسرة السكرتير التي سبق لي أن جئت على ذكرها، واثنتان أو ثلاث من المالكات الفقيرات بمقاطعتنا، وبائعات... أفهذا ما كانت تتوقّعه وترجوه جوليا ميخائيلوفنا؟ أما السادة فإنهم، رغم غياب

الطبقة الأرستقراطية، كانوا كتة كثيفة. ولكنهم يحدثون في النفس تأثيراً سيئاً، ويثيرون الشبهة. كان بينهم طبعاً ضباط متواضعون محترمون مع زوجاتهم، وكان بينهم أرباب أسر طيِّعون، مثل ذلك السكرتير الذي له سبع بنات، إن هؤلاء الناس البسطاء إنما جاؤوا بنوع من "الاضطرار"، على حد تعبير واحد منهم، ولكن كان بينهم أشخاص من طينة أخرى: فتيان مستهترون، وأشخاص من نوع الذين قدَّرنا أنا وبطرس ستيفانوفتش أنهم أُدخلوا الجلسة الأدبية بدون تذاكر. حتى لقد كان عددهم الآن أكبر كثيراً من عددهم في الصباح. إنهم الآن واقفون في قاعة البوفيه. وقد لاحظت أنهم ما إن دخلوا حتى مضوا إليها رأساً، كأنهم على موعدٍ فيها. وكان البوفيه قد أُعدَّ في نهاية سلسلة من الغرف، في قاعة فسيحة أقام فيها بروخورتش وسط مجموعة من أشهى المأكولات والمقبِّلات التي يعدها مطبخ النادي مع أعداد كبيرة من قناني الخمرة. ولاحظت هنالك أفراداً لا يدري إلّا الله من أين خرجوا، وقد أخذهم السكر منذ تلك الحين، وكانت هيئاتهم المزرية لا تليق بحفلة رقصٍ حتماً. كنت أعرف أن جوليا ميخائيلوفنا قد ارتأت أن تقيم حفلة ديموقراطية إلى أبعد حد، وأن تسمح بدخول الحفلة حتى "للبورجوازيين الصغار إذا كان بينهم من يملك ثمن تذاكر دخول". وهي حين قالت هذا الكلام أمام لجنتها لم تكن تجازف بشيء، لأنها تعلم علم اليقين أن لا أحد من بورجوازيينا الصغار، وكلهم فقراء، يخطر بباله أن يشتري بطاقة دخول. مهما يكن من أمر، ورغم الميول الديموقراطية لدى اللجنة، فإن حضور هؤلاء الأشخاص المشؤومين الذين يرتدون ملابس مرقعة مثقبة لم يبد لي أمراً مقبولاً. ولكن من ذا الذي تركهم يدخلون وماذا كان غرضه من ذلك؟ إن ليبوتين ولیامشين كانا قد حُرما من شارتي المشرفين (ولكنهما حضرا الحفلة على كل حال، لأنهما كانا سيشاركان في الرقصة الرباعية). ولكن ما كان أشد دهشتي حين رأيت أن ليامشين قد حلَّ محله في مهمة الإشراف ذلك الطالب الذي أحدثت مشاحنته مع ستيفان تروفيموفتش فضيحة كبرى في "الصبيحة الأدبية". وأما ليامشين فقد ناب عنه في وظائفه بطرس ستيفانوفتش نفسه.

فماذا كان يمكن أن يُنتظر إذًا؟ لقد أصخت بسمعي إلى المحادثات فأدهشني في بعضها غباؤها وخبثها. ففي جماعة من الجماعات مثلاً كانوا يؤكدون أن هرب ليزا إنما دبرته جوليا ميخائيلوفنا نفسها، وأن جوليا ميخائيلوفنا قد قبضت من ستافروجين ثمن ذلك مبلغاً من المال. حتى لقد حددوا المبلغ، وأن إقامة الحفلة لم يكن لها من غرض إلّا تنفيذ هذه الخطة، فلهذا السبب تخلف نصف المدينة عن المجيء بعد أن علم بالأمر. وقد بلغ لمبكه من الدهشة لهذه القصة كلها أنه فقد عقله ولكنه ينقاد لامرأته ولا يخرج على إرادتها. وكان الناس يضحكون ضحكاً فظاً سمجاً شريراً ولم يفتهم أن ينتقدوا حفلة الرقص انتقاداً عنيفاً، وأن ينعتوا جوليا ميخائيلوفنا بأبشع الأوصاف من دون أي تحرج. ولكن كان يصعب على المرء أن يستخرج أي شيء محدد معيَّن من هذه الثرثرة المشوشة الحانقة المحمومة. وكان الملجأ كذلك ملاذاً للأشخاص الذين يريدون أن يتسلّوا ويتندروا ويضحكوا لا أكثر. فهناك يرى المرء نساءً من أولئك السيدات اللواتي يطفحن نشاطاً ومرحاً، واللواتي أصبح لا يدهشهن شيء ولا يرهبهن شيء. إنهن في صحبة أزواجهن، الضباط في الغالب الأعم، وكان أزواجهن هؤلاء قد جلسوا إلى موائد صغيرة يشربون الشاي ويتمازحون ضاحكين. وما هي إلّا فترة وجيزة حتى أصبح نصف الجمهور في تلك الحجرة، شعرت بخوف حين تصورت ما قد يحدث حين يتزاحم هذا الجمهور كله دفعةً واحدة في صالة الرقص حيث كانت قد تكونت بمساعدة الأمير ثلاث رقصات رباعية بسيطة.

كانت الفتيات ترقصن أمام آبائهن وأمهاتهن، وكان الآباء والأمهات يبتهجون بذلك ويسرُّون له. ولكن عدداً كبيراً من هؤلاء الآباء والأمهات كانوا يقولون بعضهم لبعض أن بناتهن قد تسلَّين بما فيه الكفاية، فيحسن الانصراف في الوقت المناسب قبل أن "يبدأ الأمر". ذلك أن الجميع كانوا مقتنعين بأن "أمراً سيبدأ" لا محالة. يصعب عليَّ أن أصف الحالة النفسية التي كانت عليها جوليا ميخائيلوفنا. ورغم أنني وجدتني بقربها عدة مرات، فإنني لم أكلمها، كما أنها لم ترد التحية التي حييتها بها عند دخولي، لا

لشـيء إلّا كونها لـم تلاحظني. كان وجهها منقلباً، وكان في نظرتها غطرسةٌ واحتقـار، ولكـن كان في هذه النظرة قلق أيضاً. واضـح أنها كانت تحاول أن تتغلّب على نفسـها. لماذا؟ ولمن؟ لقـد كان ينبغي لها أن تنصرف، وأن تقتاد زوجهـا خاصةً، ومع ذلك بقيت. يكفي أن ينظر المرء إلى وجهها حتى يدرك أن عينيهـا قد "زالت عنهما الغشـاوة"، وأنها لـم يبق لديها أي وهم. أصبحت لا تنتبه حتى إلى بطرس ستيفانوفتش (وكان بطرس سـتيفانوفتش يتحاشاها على كل حال، لقد لمحتُه في البوفيه، فرأيته شـديد المرح). لقد بقيت جوليا ميخائيلوفنـا مـع ذلك ولم تتـرك زوجها. في ذلك الصباح نفسـه، لو أن أحداً ألمع إلماعاً إلى صحة آندره أنطونوفتش لرفضت هذا الإلماع مستاءةً أصدق الاستياء حتماً. ولكن عينيها قد زالت عنهما الغشاوة الآن في هذا الأمر أيضاً ولا شك. أما أنا فقد بدا لي منذ النظرة الأولى أن هيئة آندره أنطونوفتش أسوأ ممـا كانـت فـي الصباح. لكنه الآن لا يعـي ما يعمل، بل لا يـدرك أين هو من المكان. كان من حين إلى حين يلقي على ما حوله نظرات قاسية. وقد تلبثت إحـدى هذه النظرات عليَّ مرتين. وفجـأةً أخذ يتكلّم بصوت قوي، ولكنه لم يستطع أن يكمل جملته، فامتلأ من ذلك بالرعب قلبُ موظفٍ عجوز خجول كان حينـذاك بقربـه مصادفةً. ثم إن هذا الجزء نفسـه مـن الجمهور الذي كان واقفـاً فـي الصالة البيضاء بتواضـع، كان يبتعد عن جوليـا ميخائيلوفنا مكفهر الهيئـة حانقـاً، ملقيـاً على زوجهـا نظرات غريبـة، نظرات يتناقـض إصرارها وتتناقض دلالتها تناقضاً قوياً مع ما كانت تعبِّر عنه هيئاتهم من وجل.

لقد أسرَّت إليَّ جوليا ميخائيلوفنا، في ما بعد، قائلةً:

ـ ذلك بعينه هو ما فاجأني. وعندئذ إنما أخذت أدرك حقاً الحالة النفسـية التي كان عليها آندره أنطونوفتش.

نعـم، مـرةً أخـرى ارتكبت غلطـة. إنه لمـن الجائز أنهـا منذ قليـل، حين خرجتُ من عندها هارباً، وكانت قد قررت بالاتفاق مع بطرس سـتيفانوفتش أن الحفلة سـتقام، وأنها سـتحضرها، أقول إنه لمن الجائز أن تكون قد ذهبت إلى حجرة آندره أنطونوفتش الذي كانت الصبيحة الأدبية قد قلبت نفسه رأساً

علـى عقـب، فما زالت به تغريـه وتغريه حتى حصلت منه علـى موافقته على مصاحبتها إلى حفلة الرقص. ولكن لا شـك أنها تلوم نفسـها على ذلك أشـد اللـوم الآن! ومع ذلك لـم تشـأ أن تنصـرف. أكان العجب هو الـذي يعذّبها؟ لا أدري! إنهـا رغم زهوها قـد حاولت عدة مرات أن تعقـد حديثاً بينها وبين بعض السـيدات، موجِّهةً إليهن ابتساماتٍ متواضعة، ولكن السيدات سرعان مـا كن يتخوفن ثـم يتخلصن من الحديث بكلمة نعـم أو بكلمة لا، موجزات مقتضبات، ويبتعدن عنها متعجلات تعجلاً واضحاً.

وكان لا يمثّل الطبقة الأرسـتقراطية في الحفلـة إلّا ذلك الجنرالُ المحال على التقاعد الذي سـبق أن أتيح لي الكلام عنه والذي "فتح باب التذمر على مصراعيه للناس كافةً" بعد المبارزة التي قامت بين ستافروجين وجاجانوف. كان الجنـرال يتجول في القاعات مهيب المنظر، مُلاحظاً كل شـيء، حريصاً أشـد الحـرص علـى أن يُظهر بوضعه أنـه لم يجئ إلّا من بـاب حب الاطلاع على عادات أهل الإقليم. وانتهى به الطواف إلى التشبث بجوليا ميخائيلوفنا، فلـم يتركها بعد ذلك، محاولاً أن يسـرِّي عنها ويواسـيها ويهـدئ روعها. إن الرجـل الممتـاز، المهيب المنظـر، كان قد بلغ من التقدم في السـن أن المرء يقبل منه العطف والشفقة. ومع ذلك كان واضحاً على جوليا ميخائيلوفنا أنها يُحنقها أن ترى نفسـها مضطرةً إلى الاعتراف بأن هذا العجوز الثرثار قد أباح لنفسـه أن تأخذه بها شـفقة وأن يكون لها بمثابة الحامي تقريباً، شـاعراً بأنه إذ يفعل ذلك إنما يشرِّفها. ومع ذلك لم يتركها الجنرال، وظل يتكلم بلا توقف.

ـ يقـال إن مدينـةً مـن المـدن لا يمكن أن تبقـى إلّا إذا كان يحميها سـبعة صالحيـن... نعم... سـبعة... في ما أظـن... لا أتذكّر العـدد المطلوب على وجه الدقة. ومن بين صالحينا السبعة الذين لا يُجحدون، لا أعرف عدد الذين يشـهدون حفلتك هذه، ولكنني رغم حضورهم لا أشـعر بالثقـة والطمأنينة. إنـك تغفرين لي، يا سـيدتي الفاتنة، أليس كذلك؟ إننـي أتكلم رمزاً. ولكنني ذهبت إلى البوفيه فعددت نفسـي سـعيداً لأنني استطعت أن أخرج منه سليماً لم يمسسني سوء. إن صاحبنا الطيب بروخورتش ليس في مكانه، وأنا أخشى

أن لا يطلع الصباح إلّا ويكون مبناه قد انقلب عاليه سافله! أنا أمزح على كل حال. ولكنني أنتظر الرقصة الرباعية التي مدارها على الأدب، وبعد ذلك أمضي إلى سريري فأنام. اعذريني فأنا مريض بداء النقرس. إنني أنام في ساعةٍ مبكِّرة. وعلى كل حال، فأنا أنصحك بأن تنامي أنت أيضاً. أنا إنما جئت خاصةً لأمتّع بصري بالجمال الغض النضر. ولست أستطيع طبعاً أن أجد منه تشكيلة غنية كالتشكيلة التي يمكن أن أراها في هذا المكان... إنهن جميعاً من الحيِّ الذي يقع على الضفة الأخرى من النهر. وهو حي لا أذهب إليه أبداً. هناك زوجة أحد الضباط، الضباط القنَّاصة إذا لم يخطئ ظني. إنها حسناء... وتعرف أنها حسناء. لقد تحدثت مع الصغيرة الغنجة. ما هي بالخجول!... ثم... إن الفتيات نضيرات. ولكن ليس فيهن شيء غير هذا. على كل حال، لقد سُررت بمرآهن. إن بينهن لبراعم ورد حقاً. خسارة أن شفاههن سميكة قليلاً. إن الجمال الروسي بوجه عام يفتقر إلى اتساق القسمات... "تغفرين لي، أليس كذلك؟ (بالفرنسية). الأعين جميلة، يجب الاعتراف بهذا... هي أعين ضاحكة. إن براعم الورد هذه لذيذة ما ظلت فتية... أي مدة سنتين... أو ثلاث سنين... ثم هي تتفتح تفتحاً شديداً، فتتشوه، إلى الأبد... فتبعث في الأزواج ذلك النوع من "اللا.. اكترا.. ثية" التي تساهم كثيراً في مفاقمة قضية المرأة... إذا صحَّ ما أفهمه من هذه القضية وما أعرفه عنها... همْ... الصالة جميلة، والغرف قد أُعدت إعداداً لا بأس به. كان يمكن أن يكون إعدادها أسوأ. والموسيقى أيضاً كان يمكن أن تكون أردأ. لا أقول إنها كان ينبغي أن تكون أردأ!... الشيء الذي لا ترتاح إليه النفس هو قلة عدد السيدات. لا أقول شيئاً عن زينة السيدات، بل عن عددهن. من المؤسف أن هذا الرجل، الذي يرتدي بنطلوناً رمادياً، قد أباح لنفسه أن يرقص الكانكان منذ الآن. إنني أعذره لو كان يتهزّز هذا التهزّز عن فرح. ثم إنه أحد الصيادلة عندنا... إنه لكثير على صيدلي أن يبدأ منذ الساعة الحادية عشرة. لقد بكَّر كثيراً... وفي البوفيه رأيت رجلين يتبادلان اللكمات منذ لحظات، ولم يطردوهما. إن الذين يتضاربون في الساعة الحادية عشرة يجب أن يُطردوا، مهما تكن

عادات الجمهور وأخلاقه. لا أقول شيئاً عن الساعة الثالثة من الصباح، ففي الساعة الثالثة من الصباح لا بد من بعض التنازلات. ولكن هل يمكن أن تدوم هذه الحفلة حتى الساعة الثالثة؟... أرى أن فرفارا بتروفنا لم تبرَّ بوعدها فترسل أزهاراً. همْ... إن هموم رأسها الآن لا تسمح لها بالتفكير في هذا الأمر. يا للأم المسكينة! والشقية ليزا! هل سمعت؟ هذه قصة ملغزة في ما يقال، إن ستافروجين يظهر على المسرح من جديد!... همْ... يحلو لي أن أذهب الآن فأنام. إن عينيَّ تغمضان. والرقصة الرباعية الأدبية، متى عساها تبدأ؟

وبدأت الرقصة الرباعية الأدبية أخيراً. وكان الناس بالمدينة، في الآونة الأخيرة، ما إن يجيء الحديث على ذكر الحفلة حتى يتعرضوا لأمر هذه الرقصة، فإن حب الاطلاع كان يثور حتى يبلغ أقصاه. ولا شيء يمكن أن يكون خطراً على نجاح هذه الرقصة كهذه الحالة النفسية. لذلك ما كان أشد خيبة أمل الناس حين رأوها!

انفتح أحد أبواب الصالة البيضاء التي ظلت مغلقةً حتى ذلك الحين، وخرج منه فجأةً عددٌ من الراقصين المقنّعين. فسرعان ما أحاط بهم الجمهور. وجميع الذين كانوا في البوفيه هرعوا إلى القاعة. وتهيأ المقنّعون للرقص مصطفّين. واستطعت أنا أن أتسلل إلى أمام، فصرت وراء جوليا ميخائيلوفنا وآندره أنطونوفتش والجنرال تماماً. وفي تلك اللحظة رأيت بطرس ستيفانوفتش الذي ظل متنحياً طوال الوقت، رأيته يهرع نحو جوليا ميخائيلوفنا، ويهمس قائلاً لها بهيئة تلميذ مذنب.

ـ سوف أبقى في البوفيه وأراقب الناس.

وكان ذلك منه تظاهراً زائفاً مفضوحاً لا يهدف في الواقع إلّا إلى إحناق المرأة المسكينة مزيداً من الحنق. فاحمرّ لونها احمراراً شديداً من فرط الغضب.

فأفلت من لسانها قولها بصوت عالٍ سمعه الناس:

ـ لا تحاول أن تخدعني بعد الآن أيها الشخص الوقح.

فولَّى بطرس ستيفانوفتش هارباً، راضياً عن نفسه كل الرضى.

إنـه ليصعـب على المرء أن يتخيل رقصةً رمزية أبشـع ولا أغبى ولا أدعى إلـى الرثاء من تلـك "الرقصة الرباعية الأدبية"! ولا شـيء أبعد منها عن ذوق جمهورنـا، وأبعـث منهـا على نفـوره! ومع ذلـك فـإن كارمازينـوف، في ما يظهـر، هو الذي وضع فكرتها. صحيح أن التنفيذ قد تولاه ليبوتين، وساعده فيه الأستاذ الأعرج الذي شهد سهرة فرجنسكي. ولكن واضع الفكرة هو كارمازينـوف على كل حال. حتى لقد أكَّد بعضهم أن كارمازينوف خطر بباله أن يتقنع وأن يشـارك هو نفسـه في "الرقصة الرباعية الأدبية". لـم يتجاوز عدد المقنّعين سـتة أزواج، هذا إذا صح أن يطلق اسـم المقنّع على شخص يرتدي ملابس كملابس سـائر الناس: كان أحد المقنّعين مثلاً، وهو سـيد متقدم في السـن، قصير القامـة، يلبس رداء فراك، وله لحيةٌ بيضاء محترمة (هي الشـيء الوحيد المصنوع الذي كان بمثابة قناع)، كان هذا الرجل يرقص أو قل يتهزّز فـي مكانه بجـدٍ لا يزحزحه عنه شـيء، ولا يعكره عليه شـيء، وينطق أحرفاً غريبـة بصوت خافـت مبحوح، فكانت هـذه البحَّة هي الشـيء الوحيد الذي يرمـز إلـى جريـدة معينـة معروفة. وأمـام هذا الشـخص كان يرقـص رجلان عريضـان همـا "جيـم" و "دال". كان هـذان الحرفان معلقين بدبوسـين على رداءيهمـا (الفـراك)، ولكن لـم يعرف أحد ماذا يعنيان ولا إلى شـيء يرمزان. وكان "الفكر الروسـي الشـريف، إنما يمثله سـيد متوسـط العمر، على عينيه نظارتان، وفي يديه قفازان، ولباسه فراك، مع جنزير في قدميه (جنزير حقيقي مـن جنازير السـجناء المحكوم علهم بالأشـغال الشـاقة). إنـه يتأبط محفظة تحتـوي علـى "ملـف" لا أدري ما هـو. ومن جيبه تخـرج رسـالةٌ مفضوضةٌ مرسـلة إليـه من الخـارج تبرهن لأكثر الناس شـكاً وريبةً على شـرف "الفكر الروسـي الشـريف"، كما شُـرح لنا ذلك بصوتٍ عـالٍ، لأن الرسـالة لـم تكن قراءتها ممكنة بطبيعة الحال. والرجل يحمل بيده اليمنى قدحاً كأنه يتهيأ لأن يقترح نخباً. وعلى جانبيه يتواثب اثنان من العدميين قد قُصَّ شعرهما قصيراً. وأمـام هذا "الثلاثي" يرقص رجل كهل يرتدي فـراكاً ويحمل بيده هراوة. إنه

يمثل جريدة يومية تصدر بموسكو، وكأن هيئته تقول: "انتظروا قليلاً فلسوف ترون ما أفعل بكم!". ولكنه رغم هراوته لا يستطيع أن يتحمّل النظرة التي يطارده بها "الفكر الروسي الشريف" من خلال نظارتيه، فهو يحاول أن يشيح عينيه، حتى إذا خطا خطوةً من اثنتين، انحنى وتلوَّى، ثم لم يعرف أين يدس نفسه من شدة ما يعاني من عذاب الضمير!... لا أتذكر الآن بقية سخافات هذه الرقصة ولكنها كانت جميعاً من هذا الطراز على كل حال، حتى شعرت أخيراً بعار شديد وخزي أليم. وقد تجلى هذا الشعور بالعار في جميع الوجوه، حتى في الوجوه المشؤومة التي وفدت من البوفيه. ولقد ظل الناس صامتين خلال مدة من الوقت، يتأملون هؤلاء المقنَّعين مدهوشين دهشةً غاضبةً حانقة. ولكن من عادة الإنسان أن الشعور بالعار يجعله شريراً ميالاً إلى الاستهتار والاستخفاف. فهذه جلبة صماء تعلو شيئاً بعد شيء:

دمدم أحد أصدقاء البوفيه متسائلاً:

ـ ما معنى هذا كله؟

وقال آخر:

ـ يا للبلاهة!

فأجاب ثالث:

ـ هذا أدب. إنهم ينتقدون جريدة "الصوت".

ـ ولكن فيم يعنيني أنا هذا؟

وبين جماعة أخرى دار الحوار التالي:

ـ هؤلاء حمير!

ـ أنا لست حماراً!

ـ وأنا لست حماراً!

وفي جماعة أخرى دار الحوار التالي:

ـ يجب أن يُركل قفاهم بالأقدام وأن يرسلوا إلى الشيطان!

ـ تعال نخرّب الصالة كلها.

وفي حلقة أخرى:

ـ كيف لا يستحي آل لمبكه أن يروا هذا كله؟
ـ علام يستحون؟ وأنت لماذا لا تستحي؟
ـ إنني لأشعر بالحياء فعلاً، ثم إنه هو حاكم!
ـ وأنت أيضاً خنزير!
ـ لم أشهد في حياتي كلها حفلة رقص تبلغ هذا المبلغ من العامية والابتذال.

كذلك قالت بلهجة مسمومة وصوتٍ عالٍ، راغبةً في أن تُسمع، سيدةٌ كانت بقرب جوليا ميخائيلوفنا. إن جميع الناس في المدينة تقريباً يعرفون هذه السيدة التي تبلغ من العمر زهاء أربعين عاماً، السمينة، المثقلة الوجه بالمساحيق والأصباغ، المرتدية ثوباً من حرير صارخ الألوان. ولكنها لم تكن تُستقبل في منازل علية القوم. إنها أرملة مستشار دولة، أورثها زوجها منزلاً من خشب وراتباً هزيلاً. وكانت قبل شهرين قد مضت إلى منزل جوليا ميخائيلوفنا تحاول زيارتها، ولكن جوليا لم تستقبلها.

أضافت تقول وهي تلقي على جوليا ميخائيلوفنا نظرة وقحة:
ـ على كل حال كان هذا متوقعاً.
ـ فلم تستطع جوليا ميخائيلوفنا أن تسيطر على نفسها، فأجابتها قائلةً:
ـ إذا كان متوقعاً، فما كان ينبغي لك أن تجيئي.
فسرعان ما ردَّت السيدة تقول رافعةً رأسها في تحدٍ:
ـ كنت ساذجةً مسرفةً في السذاجة.
كان واضحا أن السيدة كانت تتحرّق شوقاً إلى مشاجرة جوليا ميخائيلوفنا.
ولكن الجنرال تدخل قائلاً بصوت خافت وهو يميل نحو جوليا ميخائيلوفنا:
ـ سيدتي العزيزة، حقاً إنه لمن الأفضل أن تنصرفي. نحن لا نزيد هنا على أن نضايقهم. فلو انصرفنا لتسلّوا وابتهجوا أكثر من هذا. لقد قمت بواجباتك الآن... لا سيما وأن آندره أنطونوفتش ليست صحته حسنةً في ما أظن... قد يحصل شيء خطير.

ولكن كان قد فات الأوان.

إن آنـدره أنطونوفتش، منـذ أن ظهر المقنَّعون، لم ينقطـع عن النظر إليهم بدهشـة يمازجها غضب. وحين أخذ الجمهور يضحـك، ألقى على ما حوله نظراتٍ قلقة عدة مرات. وحينذاك إنما لاحظ لأول مرة وجوهاً كريهة تستحق العقـاب. فارتسـمت علـى وجهـه عندئذ أقصـى معانـي الشـدة. وانفجرت قهقهات على حين فجأة: إن ناشـر الجريدة اليومية "الرهيبة" بموسكو، الذي كان يرقص مع هراوة، وقد عجز عن أن يحتمل النظرة التي يرشقه بها "الفكر الروسـي الشـريف" مزيداً من الاحتمال، وأصبح لا يعرف كيف يتجنّبها، لم يجـد وسـيلةً أفضـل من أن يمشـي على يديه، رافعـاً قدميه في الهـواء، وهذه إشـارة لطيفـة إلـى الفوضى الفكريـة التي تتخبـط فيها هذه الجريـدة وإلى ما تتصف به من بعدٍ عن الحس السـليم ونأي عن العقل. ولما كان ليامشـين هو الشـخص الوحيد الذي يستطيع السـير على يديه، فقد تولى بنفسه تمثيل دور هذه الشـخصية التي تحمَلِ الهراوة. لم يكن يخطر ببال جوليا ميخائيلوفنا أن مشـهداً كهذا المشهد سيُمثَّل: "لقد أخفوا عني هذا الأمر، لقد كتموه عني!". كذلـك كانـت تردد فيما بعد مسـتاءةً غاضبةً حانقـة. وكان الناس يضحكون. ولكنهـم لا يضحكـون طبعـاً مـن "الرمـز" الـذي لا يهم أحـداً، وإنمـا كانوا يضحكـون من منظر سيدٍ يرتدي فراكاً وقد جعل رأسـه فـي أدنى وقدميه في أعلى. وارتعش فون لمبكه غضباً. وها هو ذا يأخذ يصيح مشيراً إلى ليامشين:

ـ شـقي!... امسـكوه!... اقلبوه!... اجعلوا قدميه في أسـفل، ورأسـه في أعلى... في أعلى!...

استقام ليامشين على قدميه. وتضاعفت القهقهات.

وصاح فون لمبكه آمراً على حين فجأة:

ـ اطردوا جميع هؤلاء الأوغاد الذين يضحكون!

فاشتد الضحك صخباً، وطفق الجمهور كله يضج مرحاً:

ـ هذا سلوك غير لائق يا صاحب السعادة!

ـ لا تجوز إهانة الجمهور!

وصاح صوت في ركن من الصالة يقول:

ـ أنت الغبي!

وقذف آخرٌ قوله:

ـ نصابون!

فلما سمع لمبكه هذا الصيحة التفت فجأةً، واصفرّ وجهه اصفراراً شديداً. وألمّت بشفتيه ابتسامة مبهمة. لكأنه كان يتذكر شيئاً ويسترد وعيه.

قالت جوليا ميخائيلوفنا وهي تحاول أن تقتاد زوجها وأن تُخرجه من الجمهور الذي كان يزحمهما من كل جهة:

ـ أيها السادة! اعذروا آندره أنطونوفتش. إن آندره أنطونوفتش مريضٌ. اعذروه. اغفروا له...

نعم، لقد سمعتها تنطق بهذه الجملة "اغفروا له". وقد جرى المشهد سريعاً جداً. ولكنني أتذكر جيداً أن جزءاً من الجمهور قد ارتاع حين سمع ذلك، فهرع يخرج من الصالة. بل إنني أتذكر تلك الصرخة التي أطلقتها امرأة جعلت تبكي بكاءً عصبياً وتقول:

ـ آه... تجدد الأمر!

وفي وسط هذه الفوضى والبلبلة، انفجرت قنبلةٌ جديدة. فهذا صوتٌ يصيح قائلاً:

ـ النيران! النيران! الضاحية تحترق!

لا أدري على وجه الدقة من أين انبعثت هذه الصرخة. أظن أن أحداً في حجرة المدخل قد أطلقها بعد أن صعد درجات السلَّم أربعاً أربعاً. المهم أن هلعاً وجزعاً عامَّين لا يوصفان قد استوليا على الناس. إن أكثر من نصف الجمهور إنما يسكن في الضاحية (أي في الحيِّ الذي يقع على الضفة الأخرى من النهر). وهرع الناس إلى النوافذ، فأبعدوا الحجب وانتزعوا الستائر. كانت الضاحية تحترق فعلاً. إن الحريق لم يبدأ إلّا منذ برهةٍ قصيرة. ولكن المرء يرى رؤيةً واضحةً أن النار قد شبت في ثلاثة أماكن مختلفة. وذلك هو أفظع ما في الأمر.

أعول الجمهور يقول:

ـ عمال مصنع شبيجولين هم الذين أشعلوا النار.

وإني لأتذكر بضع صيحات ذات دلالةٍ كبيرة:

ـ كنت أتوقع أن يشعلوا النار! كنت أوجس هذا طوال هذه الأيام الأخيرة!

ـ هذه ضربة من عمال مصنع شبيجولين. ليس في هذا شك.

ـ لقد جمعونا هنا عمداً لإشعال النار في بيوتنا.

إن هذه الصرخة الأخيرة، وهي أغرب سائر الصرخات كافةً، إنما أطلقتها على غير إرادة منها، من دون أن تفكر فيها، امرأة جُنت من الذعر يقال لها كوروبوتشكا.

واتجه الناس نحو باب الخروج. لن أحاول أن أصف عويل النساء المروَّعات، وبكاء الفتيات، والتزاحم والتدافع في حجرة المدخل حول المعاطف والشالات. ولا غرابة في أن عدداً من الناس قد انصرف في وسط هذه الفوضى قبل أن يعثر على معطفه. ولكنني لا أعتقد أنه كان هناك سرقات كما رُوي ذلك بالمدينة في ما بعد. وقد أوشك لمبكه وجوليا ميخائيلوفنا أن يداسا في هذا الزحام فيهشما تهشيماً.

وكان لمبكه يصرخ مرغياً مزبداً، ماداً نحو الجمهور ذراعه، مهدداً:

ـ أوقفوا الجميع! اعتقلوا الجميع! لا يخرجنَّ أحد!

فجاءه الجواب على ذلك شتائم وسباباً من كل جهة بالقاعة.

وصرخت جوليا ميخائيلوفنا تقول له وقد طاش صوابها:

ـ آندره أنطونوفتش! آندره أنطونوفتش!

فصرخ يقول وهو يومئ إليها بإصبعه:

ـ اعتقلوها هي قبل أي شخص آخر. وفتشوها قبل أن تفتشوا أي شخصٍ آخر! لقد أقيمت حفلة الرقص لإشعال النار في المدينة.

فأطلقت جوليا ميخائيلوفنا صرخةً، وسقطت مغشياً عليها (لقد أغمي عليها إغماءً حقيقياً في هذه المرة). فأسرعنا إلى نجدتها أنا والأمير والجنرال. وهبَّ إلى مساعدتنا في هذه اللحظة الصعبة أشخاصٌ آخرون، حتى إن عدداً

من السـيدات كنَّ بين الذين هبوا إلى مسـاعدتنا. وأفلحنا في أن نخرجها من هـذا الجحيـم وأن نُركبهـا عربتهـا. ولكنها لـم تسـتيقظ من إغمائهـا إلّا حين وصلت إلى البيت. فكانت الكلمات الأولى التي نطقت بها هي السـؤال عن آندره أنطونوفتش. لقد أصبحت لا تفكر إلّا فيه وسط انهيار جميع أحلامها. وأرسـلنا نسـتدعي طبيباً. وبانتظار وصول الطبيب قضيت إلى جانبها سـاعةً أنـا والأمير. وقد عصفت بالجنرال نوبة كرم وأريحية (رغم أنه كان هو نفسـه خائفاً مذعوراً) فقرر أن يبقى ساهراً على "سرير المسكينة" طول الليل. ولكنه ما إن انقضت عشر دقائق حتى أخذه الكرى فنام على مقعد، وتُرِك وشأنه.

وقد اسـتطاع رئيس الشـرطة الذي كان يريد أن ينتقـل إلى مكان الحادث المشؤوم بأقصى سرعةٍ، استطاع أن يخرج لمبكه من صالة الحفلة وأن يركبه العربـة إلى جانب جوليا ميخائيلوفنا، ناصحاً "صاحب السـعادة" الحاكم بأن ينال قسطاً من الراحة. إنني لا أفهم لماذا لـم يلحَّ مزيداً من الإلحاح. وطبيعي أن كان فون لمبكه لا يريد أن يسـمع أحداً ينطق بكلمة "الراحة"، ويصرُ على أن يرى الحريق بنفسـه إصراراً شـديداً. ولـم يكن هذا بالحجة الكافية، ولكن رئيـس الشـرطة اصطحبه في عربتـه أخيراً وأخذه إلـى "الضاحية". وقد روي بعد ذلك أن فون لمبكه ظل طوال الطريق يحرك يديه بإشاراتٍ معينة ويصدر أوامـر غريبـة عجيبة "يسـتحيل تنفيذها". وفـي التقرير الذي قدمـه في ما بعد صرَّح بأن "صاحب السعادة" كان في تلك اللحظة، بسبب ذعرٍ مفاجئ وهلعٍ مباغت، يعاني نوبة حمى حارة".

لا داعـي إلـى أن أروي عليكـم كيف انتهـت الحفلة. لقد هـرب الجميع إلّا عشـرين أو ثلاثين شخصاً وبضع سـيدات. أما الشرطة فلم يبق منها أحد. وهؤلاء الذين لم يهربوا لـم يسـمحوا لأعضاء الأوركسـترا أن ينصرفوا، حتى إنهـم ضربوهم حين أرادوا الفـرار. وفي الصباح كانـت "دكان" بروخورتش قـد خـوت تماماً. لقد ظلوا يشـربون حتى ضاعت عقولهـم، وظلوا يرقصون بخطى مترنحة مبعثرة، وملأوا بالأوساخ الأرض ولطخوا بالأقذار الجدران. فلمـا طلع الفجـر اتجه جزء من العصبة إلى الضاحية سُـكارى تماماً، وكانت

النيـران قـد بدأت تنطفـئ. وهناك استرسـلوا في أنـواع جديدة مـن الفوضى والتشـويش... أمـا الجـزء الآخر منهم، فكانـت الخمرة قد خرّبتهـم تخريباً، فقضوا بقية الليل على الأرض أو على أرائك المخمل يعانون جميع ما يعانيه السكارى من عقابيل السكر البشعة الأليمة. حتى إذا شرقت الشمس أُخرجوا من المنزل جراً من أقدامهم. فهكذا انتهت حفلة الرقص التي أقيمت لمعاونة معلّمات إقليمنا.

إن النار لم تنشـب في الضاحية من تلقاء نفسـها. لقد كان واضحاً أنها من فعـل فاعلين. وذلـك خاصةً هو ما بث الذعر والهلع بين سـكان "الضاحية". يجـب أن نلاحظ أن الصرخة التي انطلقت قائلـةً: "النيران!" قد أعقبتها على الفـور صرخةٌ أخرى تقـول: "إنهم عمـال مصنع شـبيجولين!". ولقد أصبح معروفاً اليوم أن ثلاثة من عمال مصنع شبيجولين هم الذين أشعلوا النار فعلاً. ولكن زملاءهم جميعاً قد اتضحت براءتهم، للقضاة وللناس على حد سواء. إن أولئك الأوغاد الثلاثة (الذين قُبض على واحد منهم فاعترف بكل شـيء، ولا يزال الآخران هاربين)، قد فعلوا فعلتهم هذه مع فدكا، السـجين الهارب من سـجن الأشـغال الشاقة: ذلك أمر لم يبق أي شـك فيه الآن. وهذا مجمل مـا نعرفه عن أصل الحريق الذي شـب في "الضاحيـة". أما الافتراضات التي قامت في الأذهان فشـأنها شـأنٌ آخر. مـاذا كان هدف هـؤلاء الجناة الثلاثة؟ أكان يوجههم أحد أم لا؟ لا تزال الإجابة عن هذا السؤال صعبة أشد الصعوبة حتى الآن!

المهـم أن ريحـاً قويـة قـد أورت النيـران، فـاذا بالحريق الـذي اندلع في ثلاثة أماكن مختلفة في آن واحد، ينتشـر انتشـاراً سـريعاً جـداً فيمتد في حيٍ بكاملـه، لا سـيما وأن المنـازل التي تقع علـى هذه الضفة الأخـرى من النهر كانت جميعها تقريباً من خشب (سيتبيَّن لنا في ما بعد أن واحداً من المساكن الثلاثة قد اكتُشـفت فيه النار فسـرعان ما أُطفئت). على أن مراسـلي صحف العاصمة قد ضخّمت الحادث: فالنيران لم تلتهم في الواقع إلّا ربع الضاحية فـي أكثر تقديـر (إن لم يكن أقـل من ذلـك). إن رجال المطافئ فـي مدينتنا،

رغـم أن عددهـم قليل بالقياس إلى سـعة المدينـة وعدد سـكانها، قد عملوا بهمةٍ ونشاط، وتصرفوا تصرفاً يتسم بالجرأة والجسارة. ومع ذلك فإن جميع جهودهـم كان يمكن أن تذهب سُـدى، رغم مسـاعدة الأهالـي لهم، لولا أن الريح قد سكنت فجأةً عند طلوع الشمس. إنني حين وصلت إلى "الضاحية" بعد ترك الحفلة بسـاعة رأيت الحريق يسـتعر اسـتعاراً مجنوناً. كان الشـارع الموازي للنهر مشتعلاً كله. وكان المرء يرى على وهج النيران كلَّ شيء كأنه في وضح النهار. لن أسهب في وصف المشهد تفصيلاً: من ذا الذي لا يعرف روسيا؟ في الشوارع الصغيرة المجاورة، بلغ الاضطراب حداً رهيباً. السكان الذيـن ما تنفك النيـران تقترب منهم مهـدِّدةً، ينقلون أثـاث بيوتهم وأمتعتهم العتيقـة، ولكنهم لا يسـتطيعون أن يعزموا أمرهـم علـى الابتعاد عن منازلهم، فيظلون في الشارع، جالسين على صناديقهم وألحفتهم، تحت نوافذ بيوتهم. الرجال يندفعون في القيام بأعمالٍ قاسية: يهدُّون ألواح الحواجز بغير رحمه، ويهـدُّون حتى الخصـاص والأكواخ حين تكون في متنـاول النيران والرياح. الأطفـال الذيـن انتشـلوا من نومهـم يبكون. النسـاء اللواتي فرغـن من جمع أمتعتهـن حولهن ينتحبن انتحاباً شـديداً. واللواتي لم يفرغن من ذلك ما زلن يعملـن في نقـل متاعهن صامتـات. الشـرارات وجمرات الفحـم تتطاير إلى بعيد، فيسـارع المسـارعون إلى إطفائها كيفما اتفق لهم ذلك. أناس يهرعون من جميع أركان المدينة يحتشدون في أمكنة الكارثة. فبعضهم يساعد رجال المطافـئ وبعضهـم لا يزيد على أن ينظر إلى الحريق مشـاهداً. إن رؤية نيران عظيمة في الليل يُحدث على الدوام أثراً يهيِّج الأعصاب ويحرِّض النفس في آن واحـد. ذلك هو سـرُّ تأثير الأسـهم النارية التي تُطلق فـي الأعياد ابتهاجاً. ولكن الأسـهم النارية زينة مقصودة، وليس فيهـا خطر مهدِّد. لهذا لا تحدث فـي النفـس إلّا إحساسـات خفيفة ونشـوة يسـيرة كتلـك التـي تحدثها كأس شمبانيا. ولا كذلك الحريق: فها هنا ذعر وشعور بخطر شخصي يضافان إلى اهتيـاج فرح تولِّده نيران الليل، فإذا بالمشـاهد (اللهم إلّا إذا ألمّت به الكارثة هو نفسـه) يشـعر بنوع مـن هـزّة عصبية وتسـتيقظ في نفسـه غرائـز التدمير،

الغافية عند كل إنسان ـ وا أسفاه! ـ وحتى عند موظفٍ خجول هادئ! إن هذا الاحساس الغامض يكاد يكون مسكراً دائماً. "أشك أن يكون من الممكن أن يتأمل المرء حريقاً من دون أن يشعر من ذلك بلذةٍ ما". ذلكم ما قاله لي، كلمةً كلمةً، في ذات يوم، ستيفان تروفيموفتش، حين عاد من رؤية حريق شهده في الليل مصادفةً، ولقد قال لي هذا الكلام وهو لا يزال يشعر بالأثر الأول الذي تركه في نفسه منظر ذلك الحريق. لست أنفي طبعاً أن هذا الهاوي نفسه من هواة الحريق قد يكون قادراً قدرة تامة على أن يلقي بنفسه في النار لإنقاذ طفلٍ أو امرأةٍ عجوز عند اللزوم. ولكن هذا الأمر أمرٌ آخر.

تبعت جمهور المستطلعين فاستطعت من دون سؤال أحد أن أصل إلى أخطر مكان في الحريق، وهنالك لمحت أخيراً لمبكه الذي كنت أبحث عنه بإلحاح من جوليا ميخائيلوفنا. فرأيت الرجل في ظرف من أعجب الظروف. كان واقفاً فوق بقايا سياج. وفي يساره، على مسافة ثلاثين خطوة، يرى المرء هيكلاً أسود لمنزل خشبي من طابقين، احترق احتراقاً شبه كامل، وباتت في مكان نوافذه فوهات مفغورة. لقد انهار سقف المنزل. وهذه حيَّات من النار لا تزال تلعق عوارضه المتفحمة هنا وهناك. وفي الفناء يحاول رجال من رجال المطافئ أن يكافحوا ألسنة اللهب التي أخذت منذ ذلك الحين تخرج من جناح في وسط فناء ذي طابقين. وعلى اليمين، كانوا يحاولون أن يحموا مبنى كبيراً من خشب قد تسللت إليه النار مراراً، وكان واضحاً أن مصيره إلى الاحتراق. فكان لمبكه يصرخ، ويحرك يديه بإشارات كثيرة أمام الجناح، ويصدر أوامر لا ينفذها أحد. أحسست أنهم قد تركوه لشأنه يصيبه ما يصيبه. والواقع أن الجمهور الذي كان يحيط به وكان كثيفاً وكان متنوعاً، وقد عرفت منه عدداً من السادة، بل لقد عرفت منه كبير كهنة الكاتدرائية، أقول إن هذا الجمهور كان يصغي إلى لمبكه مدهوشاً مستغرباً مستطلعاً، غير أن أحداً لا يكلمه. كان لمبكه أصفر الوجه، ملتمع العينين، يلقي خطباً عجيبة ويقول كلاماً غريباً. وكان إلى ذلك حاسر الرأس، لأنه فقد قبعته منذ مدة طويلة.

ـ هـذا فعل فاعلين! إنهم عدميون! حين يشـب حريـق فالمذهب العدمي هو المسؤول...

هـذا ما سـمعته مرتاعاً. والحق أنـه أصبح على المرء أن لا يسـتغرب من لمبكه شـيئاً. ولكن حتى حين يتوقع الإنسـان كل شيء، لا يملك إلّا أن يهزّه الواقع القاسي الأليم وأن يبث الاضطراب في نفسه.

قال له واحد من مفوضي الشرطة وقد هرع إليه مسرعاً:

ـ صاحب السعادة، عليك أن تعود إلى المنزل وأن تنال قسطاً من الراحة... بل إنه خطر عليك أن تبقى هنا يا صاحب السعادة!...

إن هذا الموظف، كما علمت ذلك في ما بعد، كان قد كلّفه رئيس الشرطة بأن يسهر على آندره أنطونوفتش وأن يحاول اقتياده إلى المنزل ولو بالقوة في حالة الخطر، وذلك أمر يفوق طاقة مفوض الشرطة طبعاً.

ـ دموع الضحايا سـتكفكف، ولكن المدينة ستهلك. إنهم أولئك الأوغاد الأربعـة... الأربعـة والنصف!... اعتقلوا هذا الشـقي! إنه وحده المسـؤول. أما الآخرون فقد افترى عليهم زوراً! هو يتسـلل إلى الأسـر، ويدمر شـرفها. لقد كلفوا المعلّمات بإشـعال النيران في البيوت. هذا جبن! هذه حقارة! هذه خسة ودناءة!...

هكذا كان يتكلّم الحاكم. وإذ رأى فجأةً على سطح البيت المحترق رجلاً من رجال المطافئ تحدق به ألسنة اللهب، صرخ يقول:

ـ آي... ماذا يفعل هنا؟ اسـحبوه من هذا المكان! سـوف يسـقط! سـوف يهلك! أطفئوه! ماذا يعمل هنالك؟

ـ إنه يطفئ النيران يا صاحب السعادة.

ـ مسـتحيل! النيران في الضمائر لا في المنازل. اسحبوه من هناك، ودعوا كل شيء! الأفضل أن يُترك كل شيء! سينتهي الأمر من تلقاء نفسه!... من ذا الذي يبكي أيضاً! عجوز! العجوز تبكي! لقد نسوا العجوز!

فـي الطابـق الأرضي من الجنـاح المحترق كانت تصـرخ فعلاً عجوز في الثمانيـن مـن العمـر، هي قريبة صاحـب المنزل التـي كانت تلتهمـه النيران.

لكنها لم تكن قد نُسيت، وإنما هي رجعت بإرادتها كالمجنونة تريد أن تنتشل لحافها من غرفة لم تكن النيران قد نالتها، ولكنها بلغتها الآن فهي تشتعل. فكانت العجوز وقد خنقها الدخان والحرارة الشديدة تصرخ صراخاً قوياً مع استمرارها في دفع لحافها من إطار النافذة بكلتا يديها. فأسرع لمبكه يحاول نجدتها: رؤي يركض نحو النافذة، ويمسك طرف اللحاف ويشده إليه بكل ما يملك من قوة. ولكن المصادفة شاءت بما يشبه العمد أن يسقط لوح من ألواح خشب السقف في تلك اللحظة نفسها، فيصيب عنق آندره أنطونوفتش. لم يقتل لوح الخشب حاكمنا، ولكنه وضع خاتمةً لحياته بالوظيفة، في إقليمنا على الأقل. لقد قلبته الصدمة، ووقع مغشياً عليه.

وطلع الفجر أخيراً... طلع كالحاً مشؤوماً حزيناً. خبت النيران، وسكنت الريح. وأخذ يهطل مطر ناعم كسول. كنت قد صرت في حي آخر من الضاحية، بعيداً عن مكان الحادث الذي وقع للحاكم. وهناك علمت أشياء غريبة جداً، علمت أنه في أرضٍ نائية مقفرة، وراء بساتين الخضار، على مسافة خمسين خطوة من المساكن الأخرى في أقل تقدير، كان يوجد بيت صغير من خشب، جديد كل الجدة، وفي ذلك البيت المنعزل إنما اشتعلت النار قبل أي مكان آخر، في أول ظهور الحريق. فلو أن هذا البيت قد احترق، لما أمكن أن تصل ألسنة اللهب إلى المنازل الأخرى من "الضاحية". وكذلك كان يمكن أن تحترق الضاحية كلها دون أن يكون هذا البيت مهدداً بأي خطر، مهما تكن الريح شديدة عاتية. فكيف اشتعلت النار في هذا البيت إذًا؟ هل كان ذلك عن فعل فاعل متعمد؟ ولكن الأمر الأقرب من هذا هو أن النار التي شبت في البيت قد أمكن إطفاؤها منذ البداية، فإذا بأمور خارقة رهيبة تتكشف فيه. إن مالك البيت، وهو تاجر صغير كان يسكن غير بعيد عن ذلك المكان، قد رأى النار تشتعل في بيته الجديد، فأسرع يطفئها بمساعدة الجيران على الفور، ونجح في ذلك فعلاً ببعثرة الحطب المتكوم عند الحائط. ولكن البيت كان مسكوناً. فماذا رأى في البيت؟ رأى ساكنيه، وهم كابتن معروف في المدينة، وأخته وخادمتها العجوز، رآهم جميعاً مذبوحين في تلك الليلة

نفسـها، وقد سُـلبوا ما يملكون حتماً (من أجل أن يذهب إلى مكان الجريمة إنمـا كان رئيـس الشـرطة قد تـرك فون لمبكـه قبيل إنقـاذ اللحـاف). كان نبأ جريمـة الاغتيال هذه قد انتشـر بسـرعة، فما طلع الصباح حتـى كان جمهور كبيـر من النـاس قد غزا الأرض الخاوية حول البيـت الصغير، وقد انضم إليه حتى أناس من المنكوبين. وبلغ الازدحام من الشـدة أنه أصبح يستحيل على المـرء أن يتقـدم. وقد ذُكر لي أن الكابتن وُجد منحـور الرقبة، راقداً على دكة وهـو يرتدي ثيابه كلها، ولعله حين طُعن كان نائماً كالميت من فرط السـكر، فلم يشـعر بشـيء، وإنما نزف كما "تنزف بقرة"، أما أخته ماريا تيموفئفنا فقد كانت "مخرَّقة بطعنات سـكين"، راقدةً على العتبة. وهذا ما يمكن أن يُستنتج منـه أنها تخبطـت وقاومت القاتل. وأما الخادمة التي لا شـك أن الضجة هي التـي أيقظتها من نومها فقد كانت مهشـمة الرأس. ومما رواه مالك البيت أن الكابتن قد جاء إليه في صبيحة الأمس سـكرانًا كل السـكر، وأراه على سبيل التباهي والمفاخرة بالغنـى، حزمةً من الأوراق المالية قدرها مائتا روبل على وجـه التقريب. وقد وُجدت المحفظـة الخضراء التي كان لبيادكين يضع فيها نقوده، وجدت فارغةً ملقاةً على أرض الغرفة. ولكن صندوق ماريا تيموفئفنا لم يمسسـه أحد، وكذلك إطار الأيقونة المصنوع مـن فضة، وأمتعة الكابتن. واضح أن القاتل، وهو مسـتعجل أمره، كان يعـرف المكان، وكان لا يريد أن يأخـذ إلّا مال الكابتن، وكان يعرف أين يوجد هذا المال. ولو أن مالك البيت لـم يصل بالسـرعة المناسـبة لأحرقت كومـة الحطب البيت كلـه، ولكان من الصعب اكتشاف الحقيقة.

ذلـك مـا كان يرويـه الجمهـور. وكانـوا يضيفون إلـى هـذا أن البيت إنما اسـتأجره نيقولاي فسـيفولودوفتش سـتافروجين، ابن الجنرالة ستافروجين، وإنـه هو الـذي فاوض مالك البيت على اسـتئجاره: لقـد كان مالك البيت لا يريـد تأجيـر بيته، لأنه كان يقـدِّر أن يفتتح فيه حانة، ولكنه اسـتجاب لإلحاح سـتافروجين الذي دفع له أجرة سـتة أشـهر سـلفاً من دون أن يكترث بمقدار الأجرة أصلاً.

كل الناس يقولون في الجمهور:
ـ لا شك أن هناك أمراً مدبَّراً.

ولكـن أكثرهم كان يلـزم الصمت. الوجوه مظلمه مربـدة مكفهرة. ولكن النفـوس لا تبدو مهتاجة اهتياجاً شـديداً على أنهم لا يكفون عن الكلام على سـتافروجين. كانـوا يقولون: إن المرأة القتيل زوجته. وبالأمس اسـتمال إليه "بحيلة غير مشروعة" ابنة الجنرال دروزدوف، وهي آنسة تنتمي إلى أكرم أسر المدينة. وكان سيُشـكى إلى بطرسـبرج. فمن أجل أن يسـتطيع تزوج الآنسـة دروزدوف إنما قُتلت إذًا زوجته.

لـم تكـن سكفورشـنيكي تبعد عـن المكان أكثـر من فرسـخين ونصف. لذلك تسـاءلت (ما زلت أذكر هذا): ألسـتُ أحسـن صنعاً إذا أنا مضيت أنبئ آل ستافروجين بما حدث من دون أن أذكر مع ذلك أنهم يستثيرون الجمهور ويحرِّضونـه؟ ولكنني أبصـرت عدداً من أفراد مشـبوهين عرفتهم فوراً لأنني كنـت قـد رأيتهم في حفلة الرقـص. وإني لأذكر منهم علـى وجه الخصوص شـاباً طويلاً هزيلاً، جعدَ الشـعر، أدكن اللون: إنه قفَّال كما عرفت ذلك فيما بعد. لم يكن الشـاب سـكراناً، ولكن على خلاف الجمهور القاتم الصامت، كان يبـدو خارجـاً عن طـوره. إنه لا يني يتكلـم فيقول أمـوراً مفككة مبعثرة، ويحرك يديه بإشـاراتٍ كثيرة، ويستشـهد بالشعب سـائلاً: "ما معنى هذا أيها الأخوة؟ هل يجوز لنا أن ندع الأمور تجري على هذا النحو؟...".

الفصل الثالث

نهاية رواية

1

من الصالة الكبرى بسفورشـنيكي (تلك الصالة نفسها التي استقبلت فيها فرفارا بتروفنا صاحبنا ستيفان تروفيموفتش آخر مرة)، كان المرء يستطيع بنظرة واحدة أن يشمل منظر الحريق كله. وفي الفجر، في نحو الساعة السادسة من الصبـاح)، كانت ليـزا واقفةً قرب النافـذة الأخيرة على اليميـن تتأمل الضياء الأحمر الواسـع الذي كان يشحب شيئاً فشيئاً. لقد كانت وحيدةً. إنها ترتدي ذلـك الثوب نفسـه الذي كانت ترتديه أمس، فـي الصبيحة الأدبية، وهو ثوب أنيـق جداً، أخضـر كابٍ، مغطى بالدنتيلا، لكنـه الآن مجعد تماماً. واضح أن ليـزا قد لبسـته بسـرعة لتغطي به جسـمها، حتى إن جزأه الأعلـى عند الصدر لـم يزرَّر تماماً. فيما لاحظت الفتاة ذلك احمرَّ وجهها، وأسـرعت تصلح من فوضـى هندامها، وتناولت خماراً كانت قـد ألقته عنها في الليلة البارحة على مقعد حين دخولها، فلفَّت به الآن جيدها. إن شـعرها الكثيف يتدلى حلقاتٍ علـى كتفهـا اليمنى وإن وجههـا يبدو منهـكاً مهموماً، ولكن عينيهـا تلتمعان تحـت حاجبيهـا المقطبين. وها هـي ذي تقترب مـن النافذة، وتسـند جبينها الملتهب على زجاجها البارد.

وفُتح الباب، ودخل نيقولاي فسيفولودوفتش. قال:

ـ مضـى يسـتطلع الأخبـار خـادم يركب حصانـاً. فما هـي إلّا دقائق حتى نعـرف كل شـيء. يقـول النـاس إن جـزءاً مـن "الضاحيـة" قد احتـرق، على

طول الشاطئ، يمينَ الجسر. وقد اشتعلت النار بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل. وهي الآن تنطفئ.

لم يمض ستافروجين إلى النافذة، وإنما لبث وراء ليزا. ولم تلتفت ليزا.

قالت ليزا غاضبةً:

ـ لو صدق التقويم لكان ينبغي أن يطلع الصبح منذ ساعة. ومع ذلك لايزال يخيم الظلام كأننا في الليل.

فقال نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين بابتسامة لطيفة محببة:

ـ التقاويم كلها تكذب...

ولكنه لم يلبث أن شعر بالخجل من قول كلام مبتذل معاد مكرور، فأسرع يضيف:

ـ لشد ما تكون الحياة مضجرة إذا عيشت وفقاً لحسابات التقاويم يا ليزا!

وغضب ستافروجين مرةً أخرى من إفلات لسانه بسخافة جديدة، فسكت ثم لم ينطق. فابتسمت ليزا بمرارة، وقالت:

ـ إن مزاجك ليبلغ من الحزن إنك لا تدري ما عساك تقول لي. ولكن هدئ نفسك! لقد صدقت في ما قلت: إنني أعيش دائماً على حسب التقويم. كل خطوة من خطاي مرتبة وفقًا للتقويم. أأنت مدهوش؟

والتفتت ليزا بقوة وجلست على مقعد. وقالت:

ـ اجلس أنت أيضاً، أرجوك! لن نبقى معاً مدةً طويلة. ويجب أن أقول لك كل ما بنفسي... لماذا لا تقول لي أنت أيضاً كل ما تود أن تقوله؟

جلس نيقولاي فسيفولودوفتش إلى جانبها، وأمسك يدها برفق أو قل بما يشبه الوجل.

ـ ما هذه اللغة يا ليزا؟ لماذا هذه اللغة؟ ما معنى قولك: "لن نبقى معاً مدة طويلة؟" هذه هي المرة الثانية التي تقولين لي فيها هذه الجملة الملغزة خلال نصف ساعة منذ أن استيقظت.

قالت وهي تبتسم ابتسامةً خفيفة:

ـ ها أنت ذا قد أخذت تحصي جملي الملغزة. ولكن هل تتذكر أنني

بالأمس، حين دخلنا، قد قلت لك إنك تستقبل ميتة؟ لقد رأيتَ من المناسب أن تنسى هذه الجملة، أن تنساها وأن لا توليها انتباهاً.

ـ لا أذكر هذا يا ليزا. لماذا "ميتة"؟ يجب أن نحيا...

ـ وها أنت ذا تقف. لستَ اليوم جمَّ الفصاحة والبلاغة. لقد دقت ساعتي على هذه الأرض ويكفيني هذا. هل تتذكر كريستوفر إيفانوفتش؟

ـ أجاب ستافروجين وقد أظلم وجهه:

ـ لا!

ـ كريستوفر إيفانوفتش؟ في لوزان؟ كان يضجرك إضجاراً رهيباً. كان يقول دائماً حين يدخل: "إنني آتٍ للحظة واحدة"، ثم يمكث يوماً بكامله. لا أريد أن أكون مثل كريستوفر إيفانوفتش، فأبقى يوماً بكامله.

ـ ليزا، هذه اللغة الساخرة تؤلمني. وهذا التمثيل يؤلمك أنت نفسك. علام هذا؟ لماذا؟

وسطعت عيناه. وتابع كلامه يقول:

ـ ليزا، أحلف لك: إنني أحبك الآن أكثر مما كنت أحبك بالأمس حين دخلت إلى هنا.

ـ يا له من اعترافٍ غريب! لماذا هذه المقارِنة بين الأمس واليوم؟ لماذا القياس؟

واستأنف ستافروجين كلامه فقال بلهجة تكاد تعبر عن اليأس:

ـ لن تتركيني! سوف نسافر معاً، في هذا اليوم نفسه! أليس كذلك؟

ـ آي! إنك توجعني! لقد ضغطت يدي ضغطًا شديداً جداً! نسافر معاً؟ في هذا اليوم نفسه؟ إلى أين؟ "انبعاث جديد" مرةً أخرى؟... لا... كفى تجارب!... ثم إنني عاجزةٌ عن هذا. هذا كله أكبر مني وأعظم مني! إذا سافرنا، فسيكون سفرنا إلى موسكو، من أجل أن نستقبل الناس ونزور الناس. ذلك هو مثلي الأعلى. إنك تعرفه جيداً. أنا لم أُخفِ عنك حقيقتي منذ كنا بسويسرا. ولما كان من المستحيل أن نسافر إلى موسكو وأن نقوم بزيارات، ما دمتَ متزوجاً، فلا داعي إلى الكلام على السفر...

ـ ولكن ما الذي جرى بالأمس إذًا يا ليزا؟

ـ جرى ما جرى!

ـ مستحيل. هذه قسوة!

لا يهم أن تكون هذه قسوة! احتملها!

فدمدم ستافروجين يقول بابتسامة صفراء:

تنتقمين مني لنزوتك بالأمس.

فاحمرت ليزا.

ـ يا لها من فكرة دنيئة.

ـ فلماذا وهبت لي إذًا "تلك السعادة كلها"؟ هل من حقي أن أعرف جواب هذا السؤال؟

ـ لا!... استغن عن هذا الحق. لا تضف الحماقة إلى دناءة افتراضك. لا حظّ لك اليوم! بالمناسبة: أتراك تخشى رأي الناس، وأن يدينوك بسبب تلك "السعادة"؟ إذا كان الأمر كذلك، فهدئ روعك، ناشدتك الله! أنت لم ترتكب إثماً، وليس لأحد أن يحاسبك! حين فتحت أنا بابك بالأمس، كنت أنت لا تدري من ذا الذي يدخل عليك. لم يكن الأمر إلّا نزوةً مني، كما قلتَ منذ هنيهة، ولا شيء غير ذلك، في وسعك أن لا تغض الطرف أمام أحد، وأن تسير في الناس مرفوع الرأس.

ـ إن أقوالك وضحكاتك تجمِّدني ذعراً منذ ساعة. إن هذه "السعادة" التي تكلمينني عنها الآن بهذه اللهجة المبغضة الكارهة، تكلفني... كل شيء! هل يمكنني في هذه اللحظة أن أفقدك؟ أؤكد لك أنني كنت أحبك أمس أقل مما أحبك اليوم. فلماذا تنتزعين مني اليوم كل شيء؟ هل تعلمين ماذا كلفني هذا الأمل الجديد؟ لقد دفعت ثمنه حياة...

ـ حياتك أنت أم حياة أحد غيرك؟

فنهض ستافروجين فجأة. وقال يسألها وهو يحدِّق إليها بانتباه:

ـ ماذا تعنين؟

ـ أردت أن أعرف فقط هل دفعت ثمنه من حياتك أو من حياتي أنا...

ثم هتفت تسأله:

- أتـراك أصبحت لا تفهم شـيئاً؟ لماذا نهضت ذلـك النهوض المفاجئ؟ لمـاذا تنظـر إليَّ على هـذا النحو؟ إنـك تخيفني! ما الذي تخشـاه؟ إنك تبث الرعب في نفسـي! لكأنـك خائف. إنني ألاحظ منذ مـدة طويلة أنك خائف، ولا سيما الآن... في هذه اللحظة بالذات... رباه! ما أشد اصفرار وجهه!

- إذا كنت تعرفين شـيئاً يا ليزا، فإنني أنا لا أعرف شـيئاً... أحلف لك. وما عن "هذا" تكلمت حين قلت لك إنني دفعت الثمن...

دمدمت ليزا تقول خائفةً:

- لا أفهمك البتة!

وسـرحت على وجه سـتافروجين ابتسـامة مبهمة بطيئة آخـر الأمر. وعاد يجلس، وأسند كوعيه إلى ركبتيه، وأخفى وجهه في يديه.

- حلم سيئ... كابوس ثقيل... كنا نتكلم في أمرين مختلفين.

- لا أدري عـمَّ كنت تتكلم. هل يُعقل أن لا تكون قد حزرت بالأمس أنني سأتركك اليوم؟ أكنت تعلم هذا أم لا؟ لا تكذب. أكنت تعلمه؟

دمدم ستافرجين يقول:

- كنت أعلمه.

- فمـاذا تريـد أكثـر مـن ذلـك؟ كنـت تعلـم، ومـع هـذا اختلسـتها، تلك "اللحظة"... فعلام هذا الحساب كله الآن؟

صاح ستافروجين يسألها بلهجة أليمة:

- قولي لي الحقيقة كلها: حين فتحت بابي بالأمس، أكنت تعلمين أنك لا تفتحينه إلّا من أجل يوم واحد؟

فرشقته بنظرة كره وبغض، وقالت:

- يتفق لأكثر الرجال جداً أن يلقوا أسـئلة سـخيفة مضحكة. فيم تقلق هذا القلق؟ أهي الكبرياء التي تدفعك إليه؟ أهو تصوُّرك أن امرأةً هي التي تتركك ولسـت أنـت الذي تتركها؟ هـل تعلم يا نيقـولاي فسـيفولودوفتش أنني منذ دخلت هذا المكان لاحظت في ما لاحظت أنك كريم معي غاية الكرم. ذلك

بعينه هو ما لا أستطيع أن أحتمله منك.

نهض ستافروجين وسار بضع خطوات في الغرفة.

ـ طيب... أسلِّم بأن الأمر كان لا بد أن ينتهي هذه النهاية... ولكن كيف حدث كل هذا؟

ـ يا له من اهتمام يشغل بالك! لا سيما وأنك تعرف الأمر، وتدركه خيراً مما يدركه أي إنسان آخر، وأنك كنت تتوقع هذه النهاية! أنا آنسة، وقد نشأ قلبي وترعرع في الأوبرا. هكذا بدأت المسألة. ذلك هو السر كله.

ـ لا.

ـ لا شيء في هذا يمكن أن يجرح كبرياءك. هذه هي الحقيقة كلها. بدأ الأمر بلحظة جميلة لم أستطع مقاومتها. أمس الأول، حين آذيتك بالكلام على مسمع من الناس، فأجبتني بطريقة تزخر فروسية، حزرتُ فوراً أنك تتحاشاني وتتجنّبني لأنك متزوج، لا لأنك تحتقرني، وهو أمر كنت أخشاه أكثر مما أخشى أي شيء آخر بصفتي فتاة من فتيات المجتمع. لقد أدركت أنك إذ تتجنبني إنما كنت تحمي هذه المجنونة، أنا. فانظر كم أقدر لك كرمك! وفي تلك اللحظة هرع بطرس ستيفانوفتش، فشرح لي كل شيء. قال إنك ملك فكرةٍ عظيمة لا نساوي نحن بالقياس إليها شيئاً، لا أنا ولا هو، غير أنني مع ذلك حجر عثرة في طريقك، ثم إنه لا يريد أبداً أن يتركنا، وإنما هو يحرص على أن يكون الثالث. قال لي أشياء رائعة عن "سفينة" لا أدري ما هي، سفينة شراعية لها مجاديف من أشجار القيقب، وأنشدني أغنية روسية. أزجيت له المديح، وقلت له إنه شاعر، فقبل ذلك وسلَّم به على أنه أمر محقق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وإذ كنت أعلم منذ زمن طويل أن قراراتي ليست إلّا كنار القش، عزمت أمري على أن أتصرف فوراً. ذلك كل شيء. وكفى هذا الآن. أرجوك، لا تسألني إيضاحات أخرى. وإلا فقد نتشاجر. لا تخف من شيء. إنني أتحمل التبعة كلها. أنا شريرة، ذات نزوات، انقدت لإغراء سفينة أوبرا... أنا آنسة! ولكن هل تعلم أنني كنت أتخيل، رغم كل شيء، أنك تحبني حباً جنونياً؟ لا تحتقر الحمقاء ولا تسخر

مـن هذه الدمعة التي سـالت من عينـي الآن. إنني أحب سـكب الدموع على نفسـي، رثاءً لمصيري، وتألماً لحظِّي! ولكن كفى كفى! إنني غير قادرة على شـيء، ولا أنت قادر على شـيء، فليعـزِّ كل منا صاحبه بمدِّ لسـانه له تهكماً وسخرية! بهذا لا تتألم كبرياؤنا على الأقل.

هتف نيقولاي فسيفولودوفتش وهو يعقف يديه:

ـ حلم! جنون! عزيزتي المسكينة ليزا، ماذا فعلت؟

وكان يذرع الغرفة بخطى كبيرة.

حرقـت إصبعـي، وهـذا كل شـيء. أرجـو أن لا تأخذ في البـكاء. أصلح وقفتك، وكن أقل حساسية!

ـ لماذا جئت؟

ـ أتـراك لا تـدرك أخيراً سـخافة الموقف الذي تضعني فيـه أمام الناس إذ تلقي عليَّ هذه الأسئلة؟

ـ لماذا ضيَّعت نفسك بهذه الطريقة الغبية، السخيفة؟ وما العمل الآن؟

ـ أهذا هو ستافروجين، "الدموي ستافروجين"، كما تسميك سيدةٌ تهواك هوًى شـديداً؟ اسـمع، لقد سـبق أن قلت الأمر: إنني أعطيت حياتي كلها من أجل ساعة. وأنا الآن هادئة. فافعل مثلي!... على كل حال، أنت شأنك شأن آخر، ستكون لك "ساعات" أخرى كثيرة، و"لحظات" أخرى كثيرة!...

ـ علـى قدر ما سـيكون لك منها، على قدر ما سـيكون لـك منها. أعاهدك على ذلك. لا ساعة واحدة أكثر منك.

كان لا ينفك يمشـي. لم يرَ النظرة السـريعة الثاقبة التي ألقتها عليه، والتي سطع فيها على حين فجأة شعاع أملٍ سرعان ما انطفأ.

ـ ليتك تعرفين ثمن "صدقي" المسـتحيل في هذه اللحظة، ليتني أسـتطيع فقط أن أكشف لك يا ليزا...

ـ أن تكشـف لي؟ هل تريد أن تكشـف لي عن شيء أيضاً؟ وقاني الله شرَّ مكاشفاتك...

كذلك قاطعته ليزا شبه مذعورة.

فوقف وانتظر قلقاً مهموماً. قالت ليزا:

ـ يجب أن أعترف لك بأنني منذ كنا في سويسرا قد رسخ في ذهني أن ضميرك يخفي شيئاً ما، شيئاً رهيباً، موحلاً، دامياً... لكنه في الوقت نفسه يجعلك مضحكاً إلى درجة فظيعة. فحذار أن تكشف لي عن هذا الشيء إن صح تقديري: وإلا فسوف أضحك منك، وأتهكم على حياتك كلها... آي... ها أنت ذا يصفر لونك من جديد! فلن أقول بعدُ شيئاً، لن أقول شيئاً! ها أنا ذا منصرفة...

كذلك هتفت تقول وهي تنهض بحركة احتقار واشمئزاز.

قال ستافروجين يائساً:

ـ عذبيني! أدينيني! صبِّي عليَّ غضبك! من حقك أن تفعلي هذا. لقد كنت أعلم أنني لا أحبك وأنني ضيعتك! نعم، "لقد انتهزت اللحظة". كان لي أمل... منذ مدة طويلة... أمل أخير... ولم أستطع أن أقاوم الضياء الذي بهرني حين جئت من تلقاء نفسك، بمحض إرادتك. عندئذٍ، ظننت فجأة... ولعلني ما زلت أظن...

ـ سأجيب على صراحتك النبيلة بصراحة مثلها. لا أريد أن أكون لك راهبة رحمة وإحسان. إن لم أفلح في أن أموت اليوم ـ وهذا يجيء في حينه إذا جاء ـ فقد أصبح في يوم من الأيام راهبة ممرِّضة، ولكنني لن أكون ممرِّضةً لك أنت، رغم أنك أشبه بكسيح أو أكتع. لقد خيِّل إليَّ دائماً أنك ستقودني في يوم من الأيام إلى مكان يسكنه عنكبوت ضخم في حجم إنسان، وأننا سنقضي حياتنا ناظرين إلى العنكبوت مرتعشين من الخوف، وأن هذا هو ما سيؤول إليه حبنا. اذهب إلى داشا: إن داشا ستتبعك إلى حيث تقودها.

ـ لا تستطيعين أن تنسيها، حتى في هذه اللحظة!

ـ يا للكلبة الصغيرة المسكينة! سلِّم لي عليها! هل تعلم أنك منذ كنت في سويسرا، تدَّخرها لشيخوختك؟ يا للتبصر بالمستقبل! أي... مَنْ هناك؟

لقد شُقَّ الباب الذي في آخر الصالة، فأطل من شقه الضيق رأس سرعان ما اختفى في تلك اللحظة نفسها.

قال ستافروجين سائلاً:

ـ أهذا أنت يا إيغورتش؟

فعاد الرأس يظهر من شق الباب، فإذا هو رأس بطرس ستيفانوفتش يجيب عن السؤال قائلاً:

ـ بل هذا أنا. نعمت صباحاً يا ليزافتا نيقولايفنا. كنت أعلم أنني سأجدكما كليكما في هذه الصالة. لم أجئ إلّا للحظة واحدة يا نيقولاي فسيفولودوفتش: يجب عليَّ حتماً أن أقول لك كلمتين... إنه أمرٌ مستعجلٌ جداً، ولا غنى عنه أبداً. كلمتان فقط!

اتجه ستافروجين نحو الباب. ولكنه ما إن قطع ثلاث خطوات حتى رجع إلى ليزا، وقال:

ـ إذا سمعت شيئاً يا ليزا، فاعلمي أن الجاني هو أنا.

فارتعشت ونظرت إليه مرتاعة. وخرج مسرعاً.

انتقل ستافروجين إلى الغرفة المجاورة، وهي حجرة مدخل كبيرة بيضوية الشكل. وكان بطرس ستيفانوفتش، عند دخوله، قد رأى الخادم العجوز ألكسي إيجورتش، فطلب منه أن يتركه وحيداً.

أغلق نيقولاي فسيفولودوفتش باب الصالة وانتظر، فشمله بطرس ستيفانوفتش بنظرة سريعة فاحصة.

قال ستافروجين:

ـ هيه؟

فأجاب الزائر ولا تزال نظرته كأنها تريد أن تنبش أعماق ستافروجين، أجاب قائلاً:

ـ إذا كنت على علم بما جرى، فيجب أن أقول لك إن أحداً منا ليس مذنباً طبعاً، ولا سيما أنت، ولا يعدو الأمر أن يكون مصادفة... لا يعدو أن يكون تضافر عدد من الظروف... الخلاصة... من الناحية القانونية لا يمكن أن تُمسَّ، وقد جئت لأنبئك...

ـ هل حُرقوا؟ هل قُتلوا؟

ـ قتلوا! ولكن أجسامهم لم تمسسها النار. ذلك هو الشيء المؤسف. أقسم لك بشرفي أنني غير ضالع في ما حدث، مهما تكن شكوكك وشبهاتك. ذلك أن من الجائز أن تشتبه فيَّ، هه؟ هل تريد أن تعرف الحقيقة كلها؟ اسمع: في لحظة من اللحظات، خطر ببالي فعلاً أن... وأنت الذي أوحيت إليَّ بهذه الفكرة، لا إيحاءً جاداً بطبيعة الحال، بل من باب السخرية لا أكثر... (ذلك أنك لا يمكن أن توحي إليَّ بشيء كهذا إيحاءً جاداً)، ولكنني لم أستطع أن أعزم أمري، وما كنت لأعزم أمري بحال من الأحوال، بأي ثمن، ولو كان مائة روبل... لا سيما وأن ذلك لا يعود عليَّ بأي نفع، عليَّ أنا طبعاً... (كان تدفق كلامه يزداد سرعةً). ولكن انظر إلى هذه المصادفة العجيبة! من مالي الخاص (نعم، من مالي الخاص، فليس لك في هذا الأمر روبل واحد، وإنك لتعرف هذا حق المعرفة)، أعطيت ذلك الأبله لبيادكين مائتين وثلاثين روبلاً مساء أمس الأول. هل تسمع؟ مساء أمس الأول، لا أمس، بعد الجلسة الأدبية. لاحظ هذا. فهو أمر هام. ذلك أنني في أمس الأول لم أكن قد تيقنت بعد من أن ليزافتا نيقولايفنا ستجيء إليك. أعطيت لبيادكين ذلك المبلغ من جيبي، لأنك في أمس الأول دبَّرت لي مكيدة وكشفت عن سرِّك لجميع الناس. لا أدخل الآن في بحث الأسباب التي... فهذا من شأنك... لقد تصرّفت تصرف فارس... ولكنني أعترف لك أن ذلك كان ضربة عصا على ظهري... لقد ذُهلت و صُعقت. لقد طاش صوابي. ومع ذلك فإنني وقد سئمت جميع هذه التراجيديات، وكان هذا يعرقل خططي أخيراً فقد عاهدت نفسي على أن أرحِّل لبيادكين وأخته إلى بطرسبرغ مهما كلف الأمر، على غير علم منك، لا سيما وأن الكابتن كان لا يحلم إلّا بهذا. لم أرتكب إلّا خطيئةً واحدة: هي أنني أعطيته المال زاعماً أنه منك أنت. أهذا خطأ أم لا؟ ربما لم يكن هذا خطأ؟ هه؟ ولكن اسمع الآن، اسمع كيف جرت الأمور...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وهو في قمة الحرارة من حديثه، واقترب من ستافروجين فأمسك ثنية ردنجوته (لعله فعل ذلك عامداً) فما كان من ستافروجين إلّا أن هوى على ذراعه بضربة قوية.

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ ماذا جرى لك؟ انتبه... كدت تكسر ذراعي...

واستأنف حديثه الأول بمزيد من التدفق، غير مدهوشٍ للضربة:

ـ نقدته المال مساء أمس الأول، وتمَّ الاتفاق على أن يسافر هو وأخته في الغداة عند طلوع الصباح. وكلفت ذلك الوغد ليبوتين أن يضعه في القطار. ولكن ليبوتين كان حريصاً أشد الحرص على أن يدبر للجمهور ذلك "المقلب" القذر في الصبيحة الأدبية. لعلك سمعت عن هذا؟ فاسمع إذًا، اسمع! لقد شربا معاً، ونظما أشعاراً. وكان نصف الأبيات على الأقل من نظم ليبوتين. وألبس ليبوتين صاحبه الكابتن رداء فراك (مؤكداً لي مع ذلك أنه قد اصطحب لبيادكين إلى المحطة في ذلك الصباح نفسه)، وأخفاه لا أدري أين، ليدفعه إلى المنصة في اللحظة المنشودة. ولكن لبيادكين يسكر بسرعة، لذلك تولى ليبوتين قراءة الأشعار نيابةً عنه. وقامت الفضيحة. اقتيد الكابتن لبيادكين إلى البيت شبه ميت من فرط السكر، واختلس منه ليبوتين مائتي روبل ولم يترك له إلّا قليلاً من نقود صغيرة. ولكن كان من سوء حظ لبيادكين أنه في ذلك الصباح قد تباهى وأظهر على المائتي روبل أولئك الذين ما كان ينبغي لهم أن يروها. ولما كان فدكا لا ينتظر إلّا هذه الفرصة، ولا سيما أنه كان قد سمع بعض الأمور عند كيريلوف (هل تتذكر تلميحك) فقد قرر أن ينتهز هذه الفرصة. تلك هي الحقيقة كلها. يسرّني على الأقل أن فدكا لم يجد المال، بينما كان يعوِّل أن يعثر على ألف روبل حتماً. ولقد كان متعجلاً. فإن النيران قد أخافته هو أيضاً... هل تصدّق؟ لقد كان الحريق أشبه بضربة مطرقة على رأس، شيء غير مقبول، هذا الخروج على النظام والانضباط! اسمع! إنني أعلق عليك آمالاً كباراً وأنتظر منك أموراً كثيرة، لذلك لن أخفي عنك شيئاً: الحق أن فكرة الحريق هذه تراودني منذ مدة طويلة. إنها وسيلة من وسائل العمل شائعة جداً في وطننا. ولكنني كنت أحتفظ بهذه الوسيلة للّحظة الحرجة، للدقيقة الرائعة العظيمة التي سنقوم فيها كلنا قومةً واحدة...

ولكن ها هم أولاء أباحوا لأنفسهم أن يتصرفوا من تلقاء أنفسهم، من دون أمرٍ يصدر إليهم عني، وفي لحظة نحن أحوج ما نكون فيها إلى أن نبقى ساكنين، هـذا قلة نظـام وانضبـاط!... الخلاصة، لا أعـرف بعدُ شـيئاً... وإنما يجري الحديث عن عاملين من عمال مصنع شبيجولين!... ولكن إذا كان واحد من جماعتنا قد شـارك في إشـعال هذا الحريق، وضلع في هذه القضية من قريب أو بعيـد، فالويل له! إنك تعرف مـا يحدث متى تراخى المرء معهم قليلاً! لا، لا، يسـتحيل الاعتمـاد على معونة هذا الوغـد الديموقراطي و"حلقاته" إن ما نحـن فـي حاجة إليه هـو إرادة واحدة عليـا طاغية تعتمد على شـيء ثابت... عندئذ تأتي الجماعات تلعق أحذيتنا وتسـتطيع عندئذ أن نستعملها. على كل حـال، رغم ما يُذاع في كل مكان بالمدينة الآن من أن المدينة قد أحرقت لأن ستافروجين يريد أن يقتل زوجته...

ـ ماذا؟ أيذاع هذا منذ الآن؟

ـ لا، لا منـذ الآن والحـق يقـال. وأنـي لأعترف بأنني لم أسـمع شـيئاً من هـذا القبيل. ولكن ماذا يمكن أن يُنتظر من الجمهور؟ ولا سـيما المنكوبين: "صَـوت الخلـق صوت الحق" (باللاتينية)! هل من الصعب نشـر أسـخف الإشـاعات؟ ولكـن ليس هنـاك ما يجب أن تخشـاه على كل حـال. أنت من الناحيـة القانونية بـريء، بل أنت بريء فـي الواقع حتى من الناحية النفسـية، لأنـك لم تـرد جريمة القتل هذه، أليس كذلك؟ هل كنـت تريدها؟ لا. وليس هناك أي دليل يدينك... هي مصادفة محض مع ذلك قد يتذكر فدكا كلماتك الطائشـة عنـد كيريلوف (لماذا قلـت تلك الكلمات؟). ولكـن هذا لا يبرهن على شيء، وسوف نُسكت فدكا سأتولى الأمر في هذا اليوم نفسه.

ـ ألم تنل النيران أجسامهم البتة؟

ـ البتـة! إن هذا الوغد لم يحسـن حتى القيـام بالمهمة. ان ما يبهجني على الأقل هو أنك هادئ هذا الهدوء كله... فإنك، وان تكن بريئاً كل البراءة، حتى مـن جهة النيـة والتفكير... علـى كل حال، لاحظ أن هذا يرتـب أمورك على

خير وجه: ها أنت ذا قد ترمَّلت، ففي وسعك أن تتزوج على الفور فتاةً أخاذة واسعة الثراء، عدا أنها بين يديك منذ الآن! انظر ماذا يمكن أن ينتج عن مجرد تضافر عدد من الظروف. هه؟

ـ أتهددني أيها الأحمق؟

ـ دعك من هذا الكلام. ما أسرع ما تصفني بأنني أحمق! ما هذه اللهجة؟ عليك أن تكون راضياً مسروراً، فإذا أنت، بدلاً من ذلك... انظر كيف تكافئني أنا الذي هرعت أخبرك بالنبأ خصيصاً... بماذا عساني أهددك؟ إنني لا أريد أن أملكك بالتهديد. وإنما أنا في حاجة إلى إرادتك الحرة. أنت الضياء والشمس. وأنا الذي أخاف منك خوفاً رهيباً. أنا لست مافريكي نيقولايفتش... بالمناسبة، تصور: لقد رأيت مافريكي نيقولايفتش في قرارة حديقتك قرب السياج حين مررت هناك. لا شك أنه قضى الليلة كلها في ذلك المكان. ليس للجنون الإنساني حدود.

ـ مافريكي نيقولايفتش؟ صحيح؟

ـ هي الحقيقة خالصةً! إنه جالس قرب السياج... على مسافة ثلاثمائة خطوة من هنا، إن لم يخطئ ظني. مررت أمامه بأقصى سرعة استطعتُها، ولكنه رآني. ألم تكن تعلم؟ يُسعدني إذًا أنني أنبأتك. إن أمثال هذا الرجل يمكن أن يصبحوا خطرين جداً إذا كان في حوزتهم مسدس. أضف إلى ذلك، الليلَ والمطر وما يعتمل في نفسه من حنق طبيعي في مثل هذه الظروف. فعلاً: تصوَّر وضعه الآن! هأ هأ!... ما رأيك؟ لماذا تُراه يبقى متربصاً هناك؟

ـ واضح أنه ينتظر ليزافتا نيقولايفنا.

ـ تماماً! ولكن لماذا عساها تلحق به؟ ثم... في مطر منهمر كهذا المطر... يا له من أحمق!

ـ ستلحق به.

ـ هه هه... يا لها من فكرة عجيبة! معنى ذلك... ولكن اسمع: إن وضعها الآن قد تغير رأساً على عقب: ما حاجتها إلى مافريكي نيقولايفتش؟ أنت أرمل، وفي وسعك أن تتزوجها منذ غد. إنها لا تعرف شيئاً بعد. دعني

فأتصـرّف في الأمر كله. أين هي؟ يجب أن نزف إليها النبأ الجميل، إليها هي أيضاً.

ـ النبأ الجميل؟

ـ أظن أنه نبأ جميل. هيَّا!

ـ ألا يدور في خلدك أن هذه الجثث سوف تثير شبهاتها؟

كذلك سأله ستافروجين وهو يلقي عليه نظرة ذات دلالة.

فأجابه بطرس ستيفانوفتش يقول متغابياً:

ـ لا، أبـداً... إذ مـن الناحيـة القانونية... ثم هبها حزرت شـيئاً ما! إن هذه الأمـور تُرتَّـب مع النسـاء بسـهولة! إنك لا تعرف النسـاء بعـد!... ومن جهة أخـرى فـإن مـن مصلحتهـا أن تتزوجك، لأن سـمعتها قد سـاءت مهما يكن مـن أمر. زد على ذلك أنني كلّمتها عن السـفينة الشـراعية التـي لها مجاديف من خشـب القيقب، فلاحظت أن هذه الأشـياء تفعل فيها فعل السـحر. هذه فتاة حارة الطبع. لا تخشـى شـيئاً، لسـوف تخطو من فوق هـذه الجثث حتى لتسـتغرب أنـت نفسـك ذلك، لا سـيما وأنـك بريء، ألسـت بريئـاً؟ ولكنها سـتدّخر لـك ذكرى هـذه الجثث لتقدمها إليك بعد سـنتين من الـزواج مثلاً. إن كل امـرأة تدَّخـر لزوجهـا بعـض الخطايا القديمة لتسـتعملها فـي الوقت المناسب. ولكن هل يعلم المرء ماذا يمكن أن يحدث بعد سنة؟ هأ هأ هأ!...

ـ إذا كنت قد جئت راكباً عربة فاصطحبها فوراً إلى مافريكي نيقولايفتش. لقد قالت لي منذ هنيهة إنها تكرهني وإنها تتركني. ولن تقبل عربتي أنا طبعاً.

ـ عجيب! تريد أن تنصرف؟ لماذا؟

كذلك سأل بطرس ستيفانوفتش مذهولاً. فأجابه ستافروجين بقوله:

ـ لعلهـا حـزرت فـي هـذه الليلـة من بعـض العلامـات والقرائـن أنني لا أحبها... وذلك ما تعرفه منذ زمن طويل على كل حال.

سأله بطرس ستيفانوفتش متظاهراً بالدهشة:

ـ هل صحيح أنك لا تحبها؟ ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا احتجزتها بالأمـس بدلاً من أن تتصرف تصرف رجل شـريف فتعلـن لها أنك لا تحبها.

هذا جبن من جانبك. وما أدنأ الوضع الذي وضعتني فيه إزاءها!

فانفجر ستافروجين ضاحكاً. ثم أسرع يشرح قائلاً:

ـ إنني أضحك من قردي.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يضحك مرحاً:

ـ آ... حزرت إذًا أنني إنما كنت أمثِّل. لقد أردت أن أضحكك. تصور أنني منذ رأيتك داخلاً عليَّ أدركت من وجهك فوراً أن ثمة "مصيبةً" قد حلَّت. بل ربما إخفاق كامل، هه؟

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك ثم هتف يصيح وقد غمره الفرح:

ـ أراهن أنكما قضيتما الليلة كلها جالسين أحدكما إلى جانب الآخر على كرسيين، تضيِّعان وقتاً ثميناً في مناقشة أمور رفيعة نبيلة سامية!... اغفر لي! اغفر لي! ما شأني أنا على كل حال... لقد كنت أعلم منذ الأمس أن ذلك كله سينتهي بينكما إلى سخافات. إنني لم آتك بها إلّا لأسلِّيك، ولأبرهن لك على أنك لن تضجر معي. سوف أخدمك خدمات كثيرة من هذا النوع. إنني، على وجه العموم، أحب أن أسرَّ الناس. إذا كنت قد سئمت منها الآن ـ وهذا ما كنت أتوقعه وأعوِّل عليه حين أتيت إلى هنا ـ فإنني في هذه الحالة...

ـ ألم تجئني بها إذًا إلّا لتسليني؟

ـ طبعاً.

ـ وليس لتجعلني أقرر قتل زوجتي؟

ـ ولكن هل أنت الذي قتلتها؟

ـ بل أنت، فكأن..

ـ أنا؟ ألم أقل لك إنني لا شأن لي في الأمر. لقد بدأتَ تقلقني...

ـ أكمل. لقد قلت لي منذ برهة: "إذا كنت قد سئمت منها الآن، فإنني في هذه الحالة...".

ـ نعم، فإنني في هذه الحالة أتولّى كل شيء. سأزوجها مافريكي نيقولايفتش بسهولة. يجب أن أذكر لك عابراً أنني لست أنا الذي جعلته يرابط في آخر الحديقة. فلا ينصرفن بك الخيال إلى هذا أيضاً. أؤكد لك

أنني خائف منه. لقد جئتَ منذ قليل على ذكر العربة، فاعلم أنني مررت أمامه بأقصى سرعة... ذلك لأن معه مسدساً. من حسن الحظ أن معي مسدسي أنا أيضاً. هو ذا (هنا أخرج بطرس ستيفانوفتش المسدس وأراه ستافروجين ثم أسرع يخبئه). لقد تزودت به احتياطاً للطوارئ... على كل حال سأدبّر لك الأمر كله في برهةٍ وجيزة: إن قلبها يتألم الآن حين تفكر في مافريكي... أو على الأقل لا بد أن قلبها يتألم. وإني لأشفق عليها حقاً. وما إن آخذها إلى مافريكي حتى تعود تفكر فيك، وتتغنى بمحاسنك، وتندد بعيوبه. ذلك هو قلب المرأة. آ... ها أنت ذا تضحك من جديد. لشد ما يسرّني أن أراك مرحاً هذا المرح كله. طيب. هيَّا بنا! سأبدأ أولاً بمافريكي... أما الآخرون... الذين قُتلوا... فلعل الأفضل أن لا نذكر عنهم شيئاً الآن أليس كذلك؟ ستعلم هي بالأمر قريباً.

ـ أي أمر سأعلم به؟ من الذي قُتل؟ ماذا قلت عن مافريكي نيقولايفتش؟

كذلك صاحت ليزا سائلةً وهي تفتح الباب.

ـ آه... أكنت تتنصتين وراء الباب؟

ـ ماذا قلت عن مافريكي نيقولايفتش؟ هل قُتل؟

ـ إذًا لم تسمعي. هدئي نفسك. إن مافريكي نيقولايفتش حي، وإن صحته جيدة، كما تستطيعين أن تقتنعي من ذلك بنفسك فوراً، لأنه مرابط في الحديقة، قرب الطريق... أظن أنه بقي هنالك طوال الليل، تحت معطفه. لا بد أنه مبلل. وقد رآني حين وصلت.

ـ ليس هذا صحيحاً. لقد نطقتَ بكلمة "قُتل". فمن الذي قُتل؟

كذلك ألحت تقول بشك أليم.

فقال ستافروجين بصوت ثابت:

ـ زوجتي هي التي قُتلت مع أخيها لبيادكين وخادمتهما.

ارتعشت ليزا، واصفرت اصفراراً شديداً.

وأسرع بطرس ستيفانوفتش يتدخل فقال:

ـ مصادفةٌ غريبة، عجيبة، يا ليزافتا نيقولايفنا. اغتيال من أغبى وأسخف

الاغتيالات. استغل الجناة الحريق ليقتلوا ويسلبوا. إنه فدكا السجين الهارب من سجن الأشغال الشاقة. لقد كان هذا الأحمق لبيادكين يتباهى في كل مكان بأن جيوبه ملأى مالاً... ذلك ما جعلني أهرع... ضربة فظيعة فعلاً. لقد كاد ينقلب ستافروجين حين أبلغته النبأ. وكنا نتباحث الأن لنقرر أنعلمك بالخبر أم لا!

قالت ليزا تسأل ستافروجين وهي تنطق كل كلمة بمشقة:

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش، أهو يقول الحقيقة؟

ـ لا، إنه لا يقول الحقيقة.

فصرخ بطرس نيقولايفتش يقول:

ـ كيف؟ ما هذا أيضاً؟

صاحت ليزا:

ـ رباه! أكاد أُجن!

فصرخ بطرس ستيفانوفتش صراخاً قوياً يقول:

ـ ألا فاعلمي إذًا أن هذا الرجل قد فقد عقله. مهما يكن من أمر، فإن زوجته هي التي قُتلت، انظري إلى شحوبه الشديد!... لقد قضى الليلة كلها معك، ولم يتركك. فكيف يمكن الاشتباه فيه؟

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش. قل لي صادقاً كما لو كنت أمام الله. أأنت جانٍ أم لا؟ يميناً لأصدقنَّ كلامك كأنه كلام الله، ولأتبعنَّك إلى آخر الدنيا! نعم، نعم! سأتبعك، مثل كلب!...

زأر بطرس ستيفانوفتش يقول غاضباً غضباً مسعوراً:

ـ ما بالك تعذبها هذا التعذيب أيها الإنسان العجيب! يا ليزافتا نيقولايفنا. أحلف لك صادقاً، ولتدقّيني في هاون إن كنت أكذب: إن نيقولاي فسيفولودوفتش بريء. والأحرى أن يقال إنه هو الذى قُتل بهذا النبأ. إنه يهذي. ها أنت ذا ترينه بعينيك. إنه عاجز عن أن يفعل شيئاً من هذا القبيل، حتى بالخيال!... إن الذين فعلوا هذه الفعلة أناس من قطاع الطريق، سيُعرفون حتماً في غضون ثمانية أيام، وسيُجلدون. هو فدكا السجين الهارب من

سجن الأشغال الشاقة وعمالٌ من مصنع شبيجولين. المدينة كلها تتحدث في الأمر... وهذا هو السبب في أنني...أنا أيضاً...

قالت ليزا تسأل ملحةً:

ـ أهذا صحيح؟ أهذا صحيح؟

وكانت تنتظر الكلام الحاسم واجفةً راعشة.

قال ستافروجين:

ـ لم أقتل، وكنت أعارض هذا القتل، ولكنني كنت أعرف أنهم سيقتلونهم، فلم أمنع القتلة من ارتكاب ما ارتكبوا. دعيني يا ليزا.

قال ستافروجين ذلك، ورجع إلى الصالة.

خبّأت ليزا وجهها بيديها وخرجت من المنزل. فأراد بطرس ستيفانوفتش أن يركض وراءها، ولكنه عدل عن رأيه هذا، وهرع يعود إلى الصالة.

دمدم يقول وقد جُن جنونه غضباً وأخذ الزبد يخرج من بين شفتيه:

ـ آ... هكذا إذن! هكذا إذن! لستَ خائفاً إذن من شيء.

كان ستافروجين واقفاً في وسط الصالة. فظل صامتاً ولم يجب بكلمة. وكان يشدُّ شعره بيده اليسرى وقد ألمت بوجهه ابتسامة غامضة.

شدَّه بطرس ستيفانوفتش من كمِّه بقوة، وقال له:

ـ هل فقدت عقلك؟ إلى هنا وصلت؟ إنك سوف تشي بجميع الناس ثم تمضي تعتكف في أحد الأديرة، أو تمضي إلى جهنم!... ألا فاعلم إذًا أنني سأقتلك، وإن لم تكن خائفاً مني.

دمدم ستافروجين يقول وكأنه لم يلاحظ وجود بطرس ستيفانوفتش إلّا في تلك اللحظة:

ـ هه؟ أأنت الذي تحدث هذه الجلبة كلها؟

وبدا عليه فجأةً أنه رجع إلى وعيه، فأضاف يقول له:

ـ اركض وراءها! خذ العربة! لا تتركها!... ما بالك لا تركض؟ أعدها إلى بيتها، ولا يعلمنّ أحد!... امنعها خاصةً من الذهاب إلى هناك ورؤية الجثث... الجثث! أركبها في العربة قسراً!... يا ألكسي إيجورتش، يا ألكسي إيجورتش!

ـ انتظر! لا تصرخ! هي بين ذراعي مافريكي منذ الآن!... لن يركب مافريكي عربتك.. انتظر... ليس الأمر الآن أمر عربة!

وأخرج مسدسه ثانيةً، فألقى عليه ستافروجين نظرة رصينة، وقال له بصوتٍ هادئ:

ـ اقتلني!

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول مرتعشاً من شدة الغضب:

ـ عجيب! هل يمكن للمرء أن ينطلي عليه تمثيله هو نفسه! حقاً يجب عليَّ أن أقتلك! وقد كان ينبغي لها أن تبصق في وجهك! لا، ما أنت "سفينة"! أنت قارب عتيق مثقوب، لا يصلح في أكثر تقدير إلّا حطباً للموقد. ذلك أنت!... هلاً غضبت بعض الغضب على الأقل. لا شك أن جميع الأشياء تستوي في نظرك الآن، ما دمت تطلب بنفسك أن تُقتل!

ابتسم ستافروجين ابتسامةً غريبةً وقال:

ـ لولا أنك مهرِّج لكان يمكن أن أقول لك نعم... ليتك أذكى قليلاً على الأقل...

ـ أنا مهرِّج. ولكنني لا أريد أن تكون أنت مهرجاً، أنت الجزءَ الأساسي من نفسي. هل تفهمني؟

ولقد كان ستافروجين يفهم. ولعله الوحيد الذي كان يستطيع أن يفهم بطرس ستيفانوفتش. إنكم تتذكرون دهشة شاتوف حين قال له ستافروجين إن بطرس ستيفانوفتش قادر على أن يتحمس.

ـ اذهب الآن إلى الشيطان! قد أستطيع من الآن إلى الغد أن أتخذ قراراً ما. ارجع غداً.

ـ في الغد إذن؟ أهذا أكيد؟

ـ أنّى لي أن أعرف! اذهب إلى الشيطان!

قال ستافروجين ذلك وخرج.

فجمجم بطرس ستيفانوفتش يحدّث نفسه قائلاً: "ربما كان هذا أفضل... من يدري!". وأعاد المسدس إلى جيبه.

2

أسـرع بطـرس سـتيفانوفتش يلحـق بليزافتـا نيقولايفنـا التي لـم تكن قد ابتعدت كثيراً.

كان ألكسـي إيجورتش قد حاول أن يثنيهـا عن الخروج، ولكنه لم يفلح، فهو الآن يتبعها باحترام، لابسـاً رداء الفراك، حاسر الرأس، على مسافةٍ منها. إن الخـادم العجوز مرتاعٌ أشـد الارتياع، يهـمُّ أن يبكي من الهلع، وهو يضرع إليها أن تنتظر العربة.

قال له بطرس ستيفانوفتش وهو يدفعه:

ـ ارجـع إلـى البيت . مولاك يطلب شـايًا، وليس هناك من يجيئه بالشـاي غيرك.

قـال بطـرس سـتيفانوفتش ذلك للخـادم العجـوز، وأمسـك ذراع ليزافتا نيقولايفتش بسـطوة. فلم تسـحب ليزا ذراعها. ولـم تكـن تملك وعيها كاملاً على كل حال: إنها لم تعد إلى صوابها بعد.

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول لها:

ـ أولاً: لقد سرت في اتجاه خطأ، فما ينبغي أن نمر أمام الحديقة، لنمضي من هنا. وثانياً: يستحيل عليك استحالةً مطلقة أن تعودي إلى بيتك سيراً على القدمين، فالمسـافة تبلغ ثلاثة فراسـخ، ولسـت ترتدين معطفاً. فالأفضل أن تنتظـري قليلاً. لقد وصلت أنا بعربة. وهي الآن في فناء المنزل. سأسـتدعيها فتركبينها وأوصلك إلى بيتك. فلا يراك أحد.

ـ قالت ليزا بصوتٍ رقيق عذب:

ـ ما أطيب قلبك!...

ـ ما هذا الذي تقولين؟ إن كل إنسـان شـريف لا بد أن يفعل ما أفعل، في مثل هذه الحالة.

فنظرت إليه ليزا مدهوشةً تقول:

ـ رباه! كنت أظنه الخادم العجوز!...

ـ اسمعي. يسرني أن تأخذي الأمر هذا المأخذ، فما ذلك كله على كل حال إلّا وهم من الأوهام الاجتماعية الباطلة. ولكن، إذا كان الأمر كذلك، أفليس الأفضل أن نأمر العجوز بإعداد المركبة، فما تنقضي دقائقُ عشر إلّا وتكون المركبة مهيأة؟ وبانتظار ذلك نحتمي بسقيفة الباب، هه؟

ـ أريد قبل كل شيء... أين هي الجثث؟

ـ يا لها من نزوةٍ غريبة! ذلك ما كنت أخشاه... لا... لا تفكري في هذا. لنترك هذه الجثث اللعينة حيث هي. ما بك حاجة إلى رؤيتها.

ـ أنا أعرف أين هي؟ إنني أعرف ذلك البيت!

ـ ليس بالأمر الهام أن تعرفيه. اسمعي. إن المطر ينهمر، والضباب يغشى كل شيء ـ رباه! ما أغناني عن هذا العناء كله!... ـ اسمعي يا ليزافتا نيقولايفنا! أحد أمرين: إما أن تركبي في العربة معي، وفي هذه الحالة فلنقف هنا، ولتنتظريني، إذ لو سرنا عشرين خطوةً أخرى فسوف نلقى مافريكي نيقولايفتش...

ـ مافريكي نيقولايفتش؟ أين هو؟ أين؟

ـ إذا كنت تحرصين حرصاً مطلقاً على أن تذهبي إليه، فإنني أوافق على أن أسير معك بضع خطواتٍ أخرى، لأدلك أين هو، ولكنني أفرُّ بعد ذلك. إنني لا أريد الاقتراب منه الآن.

صاحت ليزا قائلةً وهي تقف فجأة:

ـ رباه! إنه ينتظرني!...

واصطبغ وجهها بحمرة شديدة.

ـ إذا كان رجلاً متحرراً من الأوهام الاجتماعية، فلا قيمة للأمر البتة. تعلمين يا ليزافتا نيقولايفنا أنني لا شأن لي في هذه القضية كلها. تعلمين هذا علماً تاماً. ولكنني مع ذلك لا أريد لك إلّا الخير. إذا لم تنجح "سفينتنا"، واتضح أنها ليست إلّا قارباً قديماً بالياً...

ـ آه... رائع!

ـ ها هي ذي تبكي الآن! يجب أن يتحلّى المرء بالشجاعة في مثل هذه

المناسبات. لا ينبغي للمرأة أن تخضع أمام الرجل. في أيامنا هذه... حين يحدث لامرأة أن...

هنا كاد بطرس ستيفانوفتش أن يبصق من شدة الغضب. ولكنه أردف يقول:

ـ الشيء الرئيسي هو أن لا تأسفي على شيء: إن من الجائز أن تسوَّى الأمور في النهاية. إن مافريكي نيقولايفتش رجل... رجل حساس... رغم أنه صموت... والصمت صفة ممتازة على كل حال... المهم أن يكون متحرراً من الأوهام الاجتماعية.

ـ رائع! رائع!

كذلك هتفت ليزا وهي تضحك ضحكاً عصبياً.

فقال بطرس ستيفانوفتش منزعجاً على حين فجأة:

ـ هوه! لاحظي يا ليزافتا نيقولايفنا أنني في سبيلك إنما أسعى الآن هذا السعي كله. ما شأني أنا!... لقد ساعدتك أمس حين أردت أنت نفسك... واليوم!... إننا نستطيع أن نرى مافريكي نيقولايفتش من هنا. انظري. هو ذا. إنه لم يبصرنا. ليزافتا نيقولايفنا، هل قرأت "باولين ساكس".

ـ ماذا؟

ـ "بولين ساكس". هي رواية. قرأتها حين كنت طالباً. إنها تحدثنا عن موظف، غني جداً، رأى زوجته متلبسةً بالجرم المشهود، في الريف. دعينا من هذا على كل حال! ما شأني أنا؟ إن مافريكي نيقولايفتش سيعرض عليك الزواج حتى قبل أن تصلي إلى البيت. سوف ترين. لم يبصرك حتى الآن.

هتفت ليزا تقول كالمجنونة:

ـ آه... ما يجب أن يراني. فلنهرب! فلنهرب! في الغابة! في الحقول!...

وعادت أدراجها راكضة.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يركض وراءها:

.. ليزافتا نيقولايفنا! ما هذا الضعف!... لماذا لا تريدين أن يراك! بالعكس: حدِّقي في عينيه، بكبرياء!... إذا كانت المسألة هي مسألة...

هي مسألة بكارتك... فذلك وهم اجتماعي سخيف... ذلك تأخر فكري كبير!... ولكن إلى أين تذهبين؟ إلى أين تذهبين؟ إنها تركض!... لنعد إلى سكفورشنيكي، لنركب عربتي... ولكن إلى أين تركضين هذا الركض... في الحقول؟!... ها... ها هي ذي تقع!

وقف بطرس ستيفانوفتش. كانت ليزا تركض كالمجنونة من دون أن تعرف إلى أين تمضي. وكان بطرس ستيفانوفتش قد أصبح بعيداً عنها. وتعثرت أخيراً بتلعة من الأرض فسقطت. وفي تلك اللحظة دوَّت صرخة رهيبة: إنه مافريكي نيقولايفتش رأى هرب الفتاة وسقوطها، فهو الآن يركض لنجدتها عبر الحقول.

فسرعان ما رجع بطرس ستيفانوفتش إلى منزل ستافروجين ليركب عربته بأقصى سرعة.

ها هو ذا مافريكي نيقولايفتش يقف بقرب ليزا مرتاعاً. لقد نهضت ليزا. وها هو ذا يميل عليها ويتناول يدها بيديه. إن الظروف الخارقة التي تكتنف هذا اللقاء قد بثت في نفس الفتى اضطراباً شديداً، وهذه دموع تسيل غزيرةً على خديه. لقد رأى تلك التي يحبها حباً يبلغ العبادة، رآها تركض كالمجنونة خلال الحقول، في هذه الساعة المبكرة من الصباح، تحت المطر، من دون معطف، بثوبها الجميل الذي كانت ترتديه أمس، مشعَّثةً ملطخةً بالوحل... فلم يملك أن يقول كلمة واحدة، ولم يزد على أن خلع عنه معطفه، ودثَّر به كتفي ليزا بيديه المرتعشتين. وها هو ذا يهتف قائلاً على حين فجأة، إذ أحس بشفتي ليزا على يده:

ـ ليزا! أنا لا أصلح لشيء. ولكن لا تنبذيني! لا تطرديني!

فقالت له ليزا:

ـ لننصرف من هنا! لا تتركني!

وأمسكت ذراعه وجرَّته وراءها. وأردفت تقول بصوت خائف:

ـ مافريكي نيقولايفتش، كنت أُظهر الشجاعة هناك، ولكنني هنا خائفةٌ من الموت. سوف أموت، سوف أموت بعد قليل، و لكنني خائفة، خائفة من الموت...

بهذا دمدمت ليزا وهي تضغط على ذراع صاحبها.

فقال مافريكي نيقولايفتش وهو يلقي من حوله نظراتٍ يائسة:

ـ ليت أحداً هنا على الأقل... قدماك ستبتلان... سوف... سوف تفقدين عقلك.

دمدمت تقول محاولةً أن تبث فيه شيئاً من الشجاعة:

ـ لا تخف! ما هذا بشيء! ما هذا بشيء! لقد قلَّ خوفي منذ أصبحت أنت بجانبي. أمسك يدي، قدني!... إلى أين نذهب الآن؟ إلى الدار؟ لا... إنني أريد أن أرى الجثث أولاً. يقال إنهم قتلوا زوجته. ولكنه يقول إنه هو الذي قتلها. ليس هذا صحيحاً أليس كذلك؟ ليس صحيحاً، هه؟ أريد أن أرى بعينيَّ... الأشخاصَ الذين قتلوهم بسببي أنا!... بسببهم إنما فقدت حبه هذه الليلة... سوف أرى كل شيء وأعرف كل شيء. أسرع! أسرع! إنني أعرف ذلك البيت.. ولقد أشعلوا فيه النار... مافريكي نيقولايفتش، لا تغفر لي، لقد كان سلوكي غير شريف! لماذا عسى يُغفر لي؟ ما بالك تبكي؟ اصفعني، واقتلني، في هذا المكان نفسه، كما يُفعل بكلب!

قال مافريكي نيقولايفتش بصوتٍ ثابت:

ـ لا أحد يحق له أن يحكم عليك. وأنا آخر من يحق له أن يحكم عليك! غفر الله لك!

إن الحوار الذي جرى بينهما سيبدو للقارئ غريباً عجيباً إذا أنا نقلته. كانا يمشيان يداً بيد، بخطى وئيدة، كمجنونين، سائرين نحو الحريق قُدُماً لا يلويان على شيء. لم يكن مافريكي نيقولايفتش قد فقد الأمل، بعدُ، في أن يلقى عربةً ما، ولكن الطريق كانت خالية مقفرة. و إن رذاذاً من المطر يحجب المنظر، مذيباً الأشكال والألوان، مغشّياً كلَّ شيء بنقاب أشهب. كانت الشمس قد شرقت منذ مدة، و مع ذلك كان الجو كأنه ليل. وفجأةً، من هذا الضباب المتجلّد، انبجست قامةٌ غريبة، شاذة. إنني حين أتصور هذا المشهد أتخيل أنني لو كنت في محل ليزافتا نيقولايفنا لما صدَّقت عينيَّ. ولكن ليزافتا نيقولايفنا سرعان ما تعرّفت صاحب القامة، فأطلقت صرخة فرح.

إنـه سـتيفان تروفيموفتش. كيف هرب مـن بيته؟ كيف اسـتطاع أن ينفّذ ذلك المشروع الخيالي الغريب الذي كان يساوره منذ زمن طويل؟ ـ ستعرفون كل شيء في ما بعد. وحسبي الآن أن أشير إلى أنه كان مريضاً منذ الصباح: كانت بـه حمى. ولكن لا شـيء كان يسـتطيع أن يثنيه عما عقد النية عليه. إنه يسـير فـي الطريـق الموحلة بخطى ثابتة. ومـن يَرَه يدرك أنه كان قـد أعدَّ قراره كما يمكـن أن يُعدِّه رجل غيـر ذي خبرة، وحيداً في غرفة مكتبه الهادئ السـاكن. كان سـتيفان تروفيموفتش مرتدياً "لباس السـفر"، أي أن معطفه كان مشدوداً على جسـمه بحـزامٍ عريض من جلد لامـع، وكان يحتذي جزمتيـن عاليتين. لعـل هـذه الصورة هي التي كانـت في خياله عن "المسـافر". أما حزام الجلد وحـذاء الفـارس اللذين كانـا يضايقانه في سـيره كثيراً، فأغلب ظنـي أنه كان قـد هيأهما منذ عدة أيام. وكان يُكمل هـذا اللباس قبعةٌ عريضة الحافة، ولثام مشدود حول عنقه. وكان يحمل بيسراه كيساً للسفر صغيراً لكنه محشو حتى ليـكاد ينفجر، ويحمل بيمنـاه عصا ومظلةً مفتوحة. إن هذه الأشـياء الثلاثة ـ العصا، والكيس، والمظلة ـ كان حملها مزعجاً جداً، وقد ثقلت على ستيفان تروفيموفتش منذ الفرسخ الثاني.

هتفت ليزا تقول:

ـ أهذا أنت؟ هل يُعقل أن تكون أنت؟

لقد كانت حركتها الأولى فرحاً، ولكن سـرعان ما حلَّ محل الفرح دهش أليم!

وهتف ستيفان تروفيموفتش هو أيضاً يقول وهو يهرع إليها:

ـ ليـزا! عزيزتـي! عزيزتي! هل يُعقـل أن... أن تكوني أنـت قد...في هذا الضباب المظلم؟ هل ترين الحريق؟ "إنك شقية، أليس كذلك؟" (بالفرنسية). إنني أرى هذا. لا تقصِّي عليَّ شيئاً، ولا تسألیني عن شيء أيضاً. "نحن جميعاً أشقياء، ولكن يجب أن نغفر لهم جميعاً! فلنغفر يا ليزا!" (بالفرنسية) ولنكن أحـراراً إلى الأبد! ولكي ننتهي من الناس ونصبح أحراراً يجب أن نغفر، وأن نغفر، وأن نغفر! (بالفرنسية).

ـ ولكن ما بالك تجثو راكعاً على ركبتيك؟

ـ لأنني وأنا أودِّع العالم أريد أن أودِّع في شخصك ماضيًّ كله!

وأخـذ سـتيفان تروفيموفتـش يبكي، وحمل يـدي ليزا إلـى عينيه وأردف يقول:

ـ إننـي أجثـو راكعـاً أمام كل مـا كان في حياتـي جميلاً. إننـي أقبل يديك وأقـول لـك شـكراً! لقد شـطرتُ حياتي شـطرين: مجنونـاً هنـاك كان يحلم بأن يرتقي السـماء، "اثنتين وعشـرين سنة"! وشـيخاً هنا، مسحوقاً، متجمداً، معلّماً... "عند ذلك التاجر، هذا إذا وُجد ذلك التاجر" (بالفرنسية).

وصاح سـتيفان تروفيموفتش قائلاً وهـو ينهض لأنه أحس بالأرض رطبةً تحت ركبتيه:

ـ ولكنك مبتلة يا ليزا! وكيف يمكن هذا؟ أبهذه الملابس؟... وسيراً على القدمين؟... وسط الحقول؟... إنك تبكين! "أأنت شقية؟" (بالفرنسية). آ... نعم... سمعت... ولكن من أين أنت الآن آتية؟

كان يلقي عليها هذه الأسئلة وجلَ الهيئة، ملقياً على مافريكي نيقولايفتش نظرات دهشة. وأردف يسأل:

ـ ولكن هل تعلمين كم الساعة الآن؟

قالت ليزا:

ـ سـتيفان تروفيموفتـش، هـل سـمعت عـن أولئـك الأشـخاص الذيـن قتلوا؟... أهذا صحيح؟... أهذا صحيح؟...

ـ أولئك الأشـخاص! لقـد لبثت الليل كله أتأمل حمـرة لهيب جريمتهم. كان لا يمكن أن ينتهوا إلى غير هذا.

وسطعت عيناه من جديد. وواصل كلامه يقول:

ـ إننـي هـارب من هذيانهم. إنني أنتزع نفسـي من كوابيسـهم. إنني ماضٍ أبحث عن روسيا. أهي توجد، روسيا؟ آه... هذا أنت أيها الكابتن العزيز! لم يساورني أبداً شك في أنني سأراك في يوم من الأيام تحقق عملاً نبيلاً. ولكن خذي مظلتي. ثم لماذا السير على الأقدام؟ ناشدتك الله! خذي مظلتي على

الأقل! وسأجد في النهاية عربةً تقلني. لقد رحلت سيراً على القدمين لأن ستازي (يريد أن يقول ناستاسيا) كان يمكن أن تهيج الشارع كله لو عرفت أنني راجل. لقد تسللت مجهولاً. إن جريدة "الصوت" ملأى بقصص عن قاطعي طرق. ولكن يستحيل، في ما أظن، أن أقع على واحدٍ من قطاع الطرق فور سيري في الطريق. عزيزتي ليزا، يخيَّل إليَّ أنك قلت منذ هنيهة أن أحداً قُتل، أليس كذلك؟ رباه! إنها يُغمى عليها.

هتفت ليزا تقول بحرارة وهي تجر مافريكي نيقولايفتش من جديد:

ـ هيَّا بنا، بسرعة! يا ستيفان تروفيموفتش، لحظة...

قالت ذلك و عادت إلى ستيفان تروفيموفتش. وتابعت تخاطبه:

ـ أريد أن أرسم عليك إشارة الصليب، أيها الرجل المسكين! لعل الأفضل أن توثق بالأغلال، و لكنني أوثر أن أباركك. أنت أيضاً صلِّ للمسكينة ليزا، قليلاً، من دون أن تتعب نفسك.

وعادت تخاطب مافريكي نيقولايفتش فقالت له:

ـ يا مافريكي نيقولايفتش، أعد إلى هذا الطفل مظلته. أعدها إليه حالاً. هلمَّ بنا... فلنمش!

ووصلا إلى المنزل المشؤوم بعد أن كان الجمهور الذي يحتشد في مكان الجريمة قد سمع كلاماً كبيراً عن ستافروجين وعن الفوائد التي يجنيها من مقتل امرأته. ومع ذلك ظل أكثر الناس هادئين صامتين. وإنما كان يضطرب ويصرخ بينهم عددٌ من السكارى والمندفعين، كذلك القفَّال الذي سبق أن تكلمت عنه. إن هذا القفَّال مشتهر بأنه رجل وديع مسالم، ولكنه يفقد صوابه تماماً حين يعصف به انفعال قوي، فلا يدرك عندئذٍ ماذا يفعل.

إنني لم أرَ وصول ليزا ومافريكي نيقولايفتش. فما كان أشدَّ دهشتي حين لمحتها في وسط الجمهور المحتشد، بعيداً عني! أما مافريكي نيقولايفتش، فإنني لم أميِّزه في اللحظة الأولى. جائز أن يكون الجمهور قد فصله عن الفتاة، فأصبح متخلّفاً عنها قليلاً. كانت ليزا تشق الحشد الغفير من دون أن ترى أو أن تسمع ما يجري حولها، كأنها مجنونة هاربة من المستشفى. لذلك

لم تلبث أن لفتت إليها الأنظار. فدوَّت عندئذٍ صيحات كثيرة، وصرخ أحدهم يقول فجأةً: "هذه آنسة ستافروجين!"، وقال صوت آخر: "لا يكفيهم أن يقتلوا الناس، وإنما يريدون أيضاً أن يروا جثثهم!".

وفجأةً رأيت ذراعاً ترتفع فوق ليزا وتهوي على رأسها. و سمعت في تلك اللحظة نفسها صيحةً رهيبة: إنه مافريكي نيقولايفتش يثب لنجدة الفتاة، ويضرب بجميع قواه الرجلَ الذي كان يفصله عن ليزا. ولكن القفَّال الذي كان وراءه أمسك يديه.

كان الاضطراب والازدحام يبلغان من الشدة أنني خلال بضع ثوان لم أستطع أن أرى شيئاً. أظن أن ليزا نهضت، ولكنها لم تلبث أن سقطت مرةً أخرى بضربةٍ جديدة. وابتعد الجمهور فجأةً فشكّل دائرةً حول ليزا الراقدة على الأرض ومافريكي نيقولايفتش المسعور النازف دماً، الذي كان يميل على الفتاة عاقفاً يديه. لا أتذكّر على وجه الدقة ماذا جرى بعد ذلك. ولكنني أتذكّر أن الناس حملوا ليزا. وركضت أنا وراءهم: كانت ليزا ما زالت تتنفس. بل لعلها لم تكن قد أُغمي عليها. واعتُقل القفَّال وثلاثة أفرادٍ آخرين. إن هؤلاء الثلاثة لا يزالون إلى اليوم يحتجّون ببراءتهم ويؤكّدون أنهم اعتُقلوا خطأً. ولعلهم صادقون. أما القفَّال فرغم أنه شوهد متلبساً بالجرم، لم يمكن أن يُستخرج منه شيء، بسبب اضطراب أفكاره. وحين دُعيت للشهادة، رغم أنني لم أرَ شيئاً كثيراً، أفدت بأن هذا القتل كان نتيجة تضافر ظروفٍ سيئة، وأن القتلة وقد هاجهم كل ما كانوا قد سمعوه، عدا أنهم سكارى، إنما تصرّفوا بغير وعي أو شعور، ولم يدركوا ما كانوا يفعلون. ولا يزال هذا رأيي إلى اليوم.

الفصل الرابع

قرار أقصى

1

إن أشخاصاً عدة التقوا ببطرس ستيفانوفتش في ذلك الصباح. وقد تذكروا في ما بعد أنه بدا لهم مهتاجاً اهتياجاً شديداً.

وفي الساعة الثانية بعد الظهر مرَّ بمسكن جاجانوف الذي وصل أمس من الريف. كان البيت مليئاً بالناس، وكان هؤلاء يناقشون أحداث المدينة بحرارةٍ واندفاع. وقد تحدّث بطرس ستيفانوفتش أكثر مما تحدث الآخرون، واستطاع أن يحملهم على الإصغاء إليه. إن الناس عندنا كانوا دائماً يعدّونه "طالباً ثرثاراً مختلاً بعض الاختلال"، ولكنه أدار الحديث على جوليا ميخائيلوفنا، فكان ذلك موضوعاً مثيراً للاهتمام، في وسط تلك البلبلة العامة الشاملة. وقد ذكر عن جوليا ميخائيلوفنا، بصفته من خلصائها المقرَّبين، عدداً من التفاصيل الجديدة غير المتوقعة. ونقل كذلك (كأنما عن طيش ومن دون أن يريد ذلك) عدداً من أحكامها على بعض الأشخاص المرموقين، فكان من شأن هذا طبعاً أن قَرَصَ كبرياء الحاضرين منهم. وكان يعبِّر عن نفسه بكلامٍ مبهم مقطَّع مفكَّك. لذلك أشعر الناس بأنه رجلٌ قليل المكر لكنه شريفٌ، اضطر أن يشرح دفعةً واحدةً طائفةً من أنواع سوء التفاهم، فهو لسذاجته الخرقاء لا يعرف من أين يبدأ وأين ينتهي. وقد أفلت من لسانه قوله بغير حذر: إن جوليا ميخائيلوفنا كانت على علمٍ بسرّ ستافروجين، وأنها هي التي حبكت المؤامرة التي كان بطرس ستيفانوفتش هو نفسه ضحيةً لها، لأنه

كان هـو أيضـاً مغرماً بحب تلك المسـكينة ليزا. وقد بلغـت من إحكام حبك المؤامرة أنه هو، بطرس سـتيفانوفتش قد تولى بنفسه "تقريباً" إيصال ليزا إلى ستافروجين بالعربة. "نعم، يا سادة، إنه لسهلٌ عليكم أن تضحكوا! ولكن لو أنني عرفت، لو أنني عرفت، ما ستؤول إليه الأمور!". وجواباً عن الأسئلة القلقة التي ألقوها عليه بصدد ستافروجين صرَّح بقوله إنه يعتقد أن مقتل لبيادكين لم يكن إلّا مصادفةً محضاً، وأن لبيادكين كان ضحية حماقته نفسها، لأنه راح يتباهى في كل مكان بأن عنده مالاً. وقد بدت تعليلات بطرس ستيفانوفتش في هذا الصدد واضحةً جداً. ومع ذلك علّق أحد مستمعيه على كلامه قائلاً: "هذا تمثيل لا ينطلي على أحد": لقد شرب وأكل حتى لقد نام عند جوليا ميخائيلوفنا إن صح التعبير، وها هو ذا رغم ذلك أول من يقول فيها سوءاً. ليس ذلك بالأمر المستحسن منه كما قد يُظن. ولكن بطرس ستيفانوفتش دافع عن نفسه بلهجةٍ وفورةٍ جداً يقول:

ـ إذا أكلتُ وشربتُ عندها، فليس ذلك عن عوز. أأكون مذنباً إذا هي دعتني دائماً؟ اسمح لي أن أكون بنفسي حكماً على ما يجب لها عليَّ من شكر وامتنان!

كان الشعور العام مؤيداً له على وجه الإجمال. "إنه لم يخترع البارود طبعاً، ولكن لا يمكن أن يُعدَّ مسؤولاً عن حماقات جوليا ميخائيلوفنا. بالعكس كان في ما يبدو يحاول أن يكبح جماحها...".

في نحو الساعة الثانية سرت إشاعة على حين فجأة تقول إن ستافروجين قد سافر إلى بطرسبرج في قطار الظهر. وقد أثار هذا النبأ فضولاً قوياً، حتى إن بعضهم اكفهر وجهه. أما بطرس ستيفانوفتش فقد بلغ من الاضطراب للنبأ أنه غيَّر سحنته في ما يقال، وصرخ يسأل: "من ذا الذي تركه يسافر؟". ولم يلبث أن غادر الحفل فوراً. ولكنه رؤي في منزلين آخرين أو في ثلاثة منازلٍ أخرى.

وفي نحو المساء استطاع أن ينفذ إلى عند جوليا ميخائيلوفنا، بغير قليلٍ من العناء، لأنها كانت ترفض رفضاً قاطعاً أن تلقاه. إنني لم أعلم بهذه الزيارة

إلّا بعد ثلاثة أسابيع، وذلك من جوليا ميخائيلوفنا نفسها قبيل رحيلها إلى بطرسبرج وهي لم تطلعني على التفاصيل، ولكنها اعترفت وهي ترتعش بأنه في تلك الزيارة قد "أدهشها إدهاشاً يفوق كلَّ حد". أظن أنه هدّدها بأن يشي بها شريكةً إذا هي تكلّمت. لقد كان صمت ميخائيلوفنا لا غنى عنه إطلاقاً لمشاريع بطرس ستيفانوفتش التي كانت المرأة المسكينة تجهلها طبعاً. ولم تدرك جوليا إلّا بعد خمسة أيام لماذا كان يحرص ذلك الحرص كله على أن تصمت و لماذا كان يخشى أن يتجلى استياؤها صريحاً.

وفي نحو الساعة الثامنة من المساء، حين خيَّم الظلام كاملاً، كان "أصحابنا" يجتمعون كلهم، هم الخمسة، في مسكن الضابط حامل الراية، إركل، الذي كان يقيم في منزلٍ صغير بأقصى المدينة يوشك أن يتداعى. إن بطرس ستيفانوفتش نفسه هو الذي دعا إلى عقد هذا الاجتماع. ولكنه تأخر عن الموعد فلم يصل حتى الآن، فأعضاء الحلقة ينتظرونه منذ ساعةٍ كاملة. إن إركل هو ذلك الضابط نفسه الذي لبث في سهرة فرجنسكي جالساً طوال الوقت أمام دفتر الملاحظات، وفي يده قلم رصاص. إنه مقيم عندنا منذ مدةٍ قصيرة، وهو يقطن في شارعٍ صغير صامت، لدى أختين عانسين. وكان يقول إنه سيغادر مدينتنا بعد وقتٍ قصير. لقد عُقد الاجتماع في بيته لأن عقد الاجتماع في هذا المكان غير معرَّضٍ لأن يلاحظ كما يمكن أن يلاحظَ في مكانٍ آخر. و لقد كان هذا الفتى الغريب صموتًا صمتاً خارقاً: كان يمكن أن يقضي عشر سهراتٍ متتاليات في مجتمع يبلغ أقصى درجات الحركة والحماسة، وأن يستمع إلى أحاديث طويلة تبلغ أقصى درجات الجلبة والصخب، من دون أن ينبس بكلمةٍ واحدة، وإنما هو ينصت إلى المتحدّثين ساكتاً، منقِّلاً بينهم عينيه اللتين تشبهان عيني طفل، متفرساً فيهم بانتباه. وكان له وجه جميل لا يخلو من ذكاء. إنه ليس واحداً من حلقة "الخمسة" التي كان أعضاؤها يعدّونه مكلفاً بمهمة خاصة تنفيذية لا أكثر. ولكننا نعلم الآن أنه لم يكن مكلفاً بأية مهمة. ولعله هو نفسه كان لا يدرك وضعه إدراكاً واضحاً. لقد كان يكفيه أن يعبد بطرس ستيفانوفتش الذي عرفه منذ مدة قصيرة. يميناً لو

التقى إركل بأيِ مخلوقٍ شاذ، فاستطاع هذا المخلوق الشاذ أن يضفي على حديثه إليه ثوباً اشتراكياً رومانسياً ما، في سبيل أن يدفعه إلى تأليف عصابةٍ من قطاع الطرق، ثم أمره من أجل وضعه في موضع الاختبار أن يقتل ويسلب أول فلاحٍ قادم، لانصاع إركل للأمر الذي صدر إليه ولنفَّذه بغير أي تردد. كانت أمه المريضة تعيش في الريف، وكان يرسل إليها نصف راتبه الهزيل. فما كان أعظم شوق الأم إلى تقبيل هذا الرأس الأشقر، وما كان أشد قلقها عليه، وما كان أقوى حبّها له. لا شك أنها كانت تدعو له كثيراً!

كان "أصحابنا" مضطربين اضطراباً شديداً. لا شك أن أحداث الليلة البارحة قد أدهشتهم وروَّعتهم. إن الفضيحة التي ساهموا في إحداثها راضين قد انتهت إلى خاتمةٍ لم تكن في الحسبان قط. فحريق الليل، ومقتل لبيادكين، وتهشيم ليزا، كل ذلك مفاجآتٌ لم تكن جزءاً من برنامجهم. إنهم يتهمون بطرس ستيفانوفتش بالاستبداد ويأخذون عليه بكثير من المرارة أنه يخفي عنهم الأمور. الخلاصة أنهم بانتظار وصول بطرس ستيفانوفتش قد بلغوا من الحنق أنهم قرروا أن يسألوه إيضاحاتٍ قاطعة، وأن يطلبوا منه تفسيراتٍ فاصلة. فإذا راوغ مرةً أخرى، فسوف يحلون حلقتهم، وسوف ينشئون بدلاً منها جمعيةً سريةً جديدةً ترمي إلى هدفٍ واحد هو "الدعاية للأفكار"، وتقوم على قواعد المساواة والديموقراطية. وكان ليبوتين وشيجالوف والشخص الذي يقول إنه يعرف الشعب الروسي حق معرفته، يؤيدون هذا المشروع بحرارةٍ وحماسة، وكان ليامشين صامتاً ولكن هيئته تعبر عن تأييدٍ وتحبيذ. أما فرجنسكي فكان لا يزال متردداً، وكان يلح على ضرورة انتظار الإيضاح من بطرس ستيفانوفتش. وتقرر أخيراً أن يُفسح لبطرس ستيفانوفتش مجال الإيضاح. ولكن بطرس ستيفانوفتش ما يزال متأخراً عن الحضور، فكان إهماله هذا يصب على النار زيتاً. وكان إركل صامتاً يحضّر الشاي ويقدمها بنفسه في أقداح على صينية حتى لا تدخل الخادمة الغرفة.

لم يصل بطرس ستيفانوفتش إلّا في الساعة التاسعة والنصف. وها هو ذا يتقدم بخطى سريعة نحو المائدة المستديرة التي جُعلت أمام الديوان

وتحلّقت حولها الجماعة. وقُدِّمت إليه قدح من الشاي لكنه رفضها. وكان وجهه يُعبِّر عن حنق وقسوة وتكبر. لعله أدرك من هيئة الحاضرين فوراً أن الحلقة "تتمرّد".

قال وهو يبتسم ابتسامةً صفراء ويطوف ببصره على الوجوه:

ـ قبل أن أفتح فمي، أفرغوا ما في أنفسكم من كلام!

فانبرى ليبوتين يتحدث "باسم الجميع" فقال بلهجةٍ مستاءة "إن الاستمرار على هذا الأسلوب يهدد كل واحدٍ بتحطيم جبهته". ونحن لا نخشى أبداً أن تتحطم جباهنا، لا، بل إننا مستعدون لهذا أتم الاستعداد، ولكن على شرط أن يكون الهدف هو خدمة العمل المشترك وحده.

هنا قام أفراد الجماعة بحركات شتى تنم عن التأييد. وتابع ليبوتين كلامه فقال: فيجب إذًا أن تكون صريحاً مع أعضاء الجماعة ليعرفوا سلفاً إلى أين هم سائرون، وإلا فما عسى يحدث؟".

هنا أيضاً ظهرت حركات تأييد وقامت دمدمات شتى. وواصل ليبوتين كلامه يقول: إن هذا التصرف يشتمل على إذلال، كما أنه محفوفٌ بالخطر. "ليس معنى ذلك أننا خائفون. ولكن إذا عمل فردٌ واحد بينما الآخرون لا يزيدون على أن يكونوا بيادق شطرنج يحركها كما يشاء، فإنه سيورِّطهم جميعاً في ما لا يد لهم فيه".

"نعم، نعم!". كذلك تعالت أصوات الآخرين مؤيدةً.

ـ ماذا تريدون مني؟

ـ ما شأن المكائد الصغيرة التي يديرها ستافروجين بالعمل المشترك والقضية العامة؟

كذلك تابع ليبوتين كلامه سائلاً باستياء. وأردف يقول:

ـ ربما كان عضواً في اللجنة المركزية ـ هذا إذا كان لتلك اللجنة السرية العجيبة وجودٌ حقاً ـ ولكننا لا نريد أن نعرف من ذلك شيئاً. غير أن جريمة قتل قد ارتكبت، والشرطة تبحث القضية، فإذا تابعت الخيط إلى آخره وصلت إلينا.

قال تولكاتشنكو الرجل الذي يعرف الشعب الروسي حق معرفته، قال مضيفاً إلى كلام ليبوتين:

ـ إذا أُخذت مع ستافروجين، فسوف نؤخذ نحن أيضاً.

وقال فرجنسكي يختم الحديث:

ـ وسوف نؤخذ بدون أية فائدة تعود على قضيتنا المشتركة.

ـ يا للحماقة! إن جريمة القتل هذه لا ترجع إلّا إلى المصادفة. إن فدكا هو الذي فعل هذه الفعلة ليسلب الكابتن ما معه من مال.

قال ليبوتين معقِّبا، وهو يحرِّك قسمات وجهه بمعنى التهكم:

ـ همْ!... مصادفة عجيبة مع ذلك.

ـ ثم إن الخطأ خطأكم على كل حال.

ـ خطأنا نحن؟ كيف هذا؟

ـ أولاً: لقد شاركت أنت نفسك في تدبير الحيلة يا ليبوتين. والأخطر من هذا ثانياً أنني أمرتك بترحيل لبيادكن إلى بطرسبرج، حتى لقد أعطيتك المال اللازم. فماذا فعلت؟ لو أنك رحَّلته لما حدث شيء مما حدث.

ـ ولكن ألست أنت الذي أوحيت إليّ فكرة حمله على قراءة أشعارٍ في الصبيحة الأدبية؟

ـ إذا أوحيت إليك فكرة فليس معنى ذلك أنني أصدرت إليك أمراً. إن الأمر الذي أصدرته إليك هو أن ترحِّله.

ـ "الأمر" الذي أصدرته إليّ؟ يا له من تعبيرٍ غريب... إن الواقع هو نقيض هذا: لقد أمرت بالتريث، وإرجاء رحيله.

ـ أخطأتَ الفهم، وبرهنتَ على أنك شديد الحماقة وعلى أنك لا تتقيد بالنظام. إن جريمة القتل كانت من فعل فادكا. وقد تصرّف من تلقاء نفسه بغية الاستيلاء على مال الكابتن. وأنت سمعت أقاويل فصدَّقتها فوراً، فخفت. ليس ستافروجين غبياً إلى هذا الحد. والبرهان أنه سافر ظهر هذا اليوم بعد أن قابل نائب الحاكم. فلو كان هناك ما يدعو إلى الاشتباه فيه، لما أُذن له بالسفر في وضح النهار.

استأنف ليبوتين كلامه بلهجةٍ تشتمل الآن على حقدٍ وتخلو من التحرج:
ـ نحن لا نقول البتة إن السيد ستافروجين قتل بيديه. حتى ليمكن أن يكون جاهلاً بكل شيء، مثلي أنا. إنك لتعلم علم اليقين أنني كنت أجهل كل شيء، وها أنا ذا مع ذلك قد أُقحمت في الفخ.
ـ فمن ذا تتهم إذًا؟
كذلك سأله بطرس ستيفانوفتش مربدَّ الوجه.
فأجابه ليبوتين:
ـ أتهم أولئك الذين يحرقون المدن.
ـ أنكى ما في الأمر أنك تمكر وتراوغ. على كل حال، أرجو أن تحمِّل نفسك عناء قراءة هذه الورقة، وأن تنقِّلها بعدئذٍ بين الآخرين من باب العلم بالشيء.
قال بطرس ستيفانوفتش ذلك واستل من جيبه رسالة غير مذيلة باسم صاحبها (وهي رسالة كان لبيادكين قد كتبها إلى لمبكه)، ومدَّها إلى ليبوتين. فقرأها ليبوتين ثم ناولها جاره ذاهلَ الهيئة. ولم تلبث الرسالة أن طافت على الحضور جميعاً.
سأل شيجالوف:
ـ أهذا خط لبيادكين حقاً؟
فقال ليبوتين وتولكاتشنكو مؤكدين:
ـ نعم، هو خط لبيادكين.
قال بطرس ستيفانوفتش وهو يعيد الرسالة إلى جيبه:
ـ لم أطلعكم على الرسالة إلّا لتكونوا على علم، ولأنني رأيت أنكم ترثون لمصير لبيادكين. هكذا يكون فدكا قد خلَّصنا إذًا من رجلٍ خطر إلى أقصى حدود الخطر. هناك مصادفاتٌ غريبةٌ أحياناً. أليس هذا بليغ الدلالة يا سادة؟
تبادل أعضاء الحلقة نظرةً سريعةً.
قال بطرس ستيفانوفتش وقور الهيئة:
ـ والآن يا سادة جاء دوري أنا لأسألكم. كيف أبحتم لأنفسكم أن تشعلوا

الحريق في المدينة بدون إذني.

ـ ماذا؟ أنحن أشعلنا الحريق في المدينة؟

تابع بطرس ستيفانوفتش يقول من دون أن يقيم وزناً لسؤالهم المتعجب:

ـ أفهم أن تكونوا قد اندفعتم فتطرفتم وأسرفتم. ولكن الأمر ليس أمر فضيحةٍ صغيرةٍ في هذه المرة. لقد جمعتكم هنا أيها السادة لأريكم مدى الخطر الذي أدت حماقتكم الشديدة إلى وضعه فوق رؤوسكم والذي يهدّد مصالح أخرى غير مصالحكم أنتم.

هتف فرجنسكي يقول مستاءً وكان قد ظل ساكتاً حتى ذلك الحين:

ـ اسمح لي. نحن الذين كنا ننوي أن نحتج على استبدادك وطغيانك اللذين فرضا هذا التدبير الغريب العجيب الخطير!

ـ إذًا أنتم تنكرون، ولكنني أنا أؤكد أنكم أنتم أحرقتم المدينة. لا تكذبوا أيها السادة. إنني أملك معلوماتٍ دقيقة. إن عدم انضباطكم يجعل القضية المشتركة والعمل المشترك في خطر. ما أنتم إلّا حلقةٌ واحدة في شبكةٍ واسعة، فيجب أن تخضعوا للجنة المركزية خضوعاً أعمى. ومع ذلك فإن ثلاثة منكم لم يصدر إليهم أي أمر في هذا الموضوع هم الذين دفعوا عمال مصنع شبيجولين إلى إشعال النار في المدينة، فشبَّ الحريق.

ـ من هم هؤلاء الثلاثة؟ اذكر أسماءهم!

ـ أمس الأول، في الساعة الثالثة من الصباح، في كاباريه "ميوزوتس"، قمتَ أنت يا تولكاتشنكو بتحريض زافيالوف.

قال تولكاتشنكو منتفضاً:

ـ اسمح لي. أنا لم أكد أقول إلّا كلمةً واحدةً في هذا الصدد، ولم أكن أنتوي أي شيء معيَّن محدَّد، ولم أتكلم إلّا لأنه كان قد جُلد في الصباح. ثم سرعان ما تركته إذ لاحظت أنه سكران. ولولا أنك ذكَّرتني بهذا الحادث الآن، لما خطر ببالي من تلقاء نفسه في لحظةٍ من اللحظات. إن كلمةً تقال عرضةً ومصادفةً لا يمكن أن تشعل النار في مدينة.

ـ أنت أشبه بإنسانٍ يدهشه كثيراً أن تفجِّر شرارةٌ مخزن بارود.

هتف تولكاتشنكو يقول:

ـ لقد كلمته بصوتٍ خافت، همساً في أذنه، وكنا في آخر الصالة. فكيف علمت بالأمر؟

ـ كنت مختبئاً تحت المائدة. لا تخشوا شيئاً أيها السادة. إنني أعرف كل واحد منكم. أراك تبتسم ساخراً يا سيد ليبوتين. طيب. أنا أعلم مثلاً أنك منذ ثلاثة أيام، في منتصف الليل، حين رقدت على فراشك، قرصت زوجتك حتى أدميتها.

فغر لبيوتين فاه من الدهشة واصفرَّ لونه.

(وقد عُلم في ما بعد أن بطرس ستيفانوفتش قد علم بفعلة ليبوتين هذه من آجافيا، خادمة ليبوتين التي كانت منذ البداية تتجسس لبطرس ستيفانوفتش).

سأل شيجالوف وهو ينهض فجأةً:

ـ هل أستطيع أن أقرر واقعةً؟

ـ افعل.

فعاد شيجالوف يجلس، وفكَّر لحظةً، ثم قال:

ـ إذا كان ما فهمته صحيحاً ـ ومن المستحيل أن لا يكون صحيحاً ـ فإنك قد قلت منذ البداية ثم كررت مرةً أخرى، متكلماً بكثير من البلاغة والفصاحة، وإن يكن كلامك نظرياً، أن هناك شبكة تغطي روسيا كلها وأن جماعتنا ليست إلّا حلقة في هذه الشبكة. فكل جماعةٍ من هذه الجماعات، وهي جزء من الحزب الذي يتفرع ويتفرع إلى غير نهاية، يجب عليها أن تقود بدعايةٍ منظمة تقوِّض السلطات المحلية، وتنشر الاضطراب في الأرياف، وتثير الفضائح، وتذكي الرغبة في حالٍ أفضل، وكذلك تعمد إلى إشعال الحرائق التي هي وسيلةٌ شعبيةٌ جداً، لتغرق البلاد في وهدة اليأس في الوقت المناسب. أهذه أقوالك نفسها حاولت أن أحفظها كلمةً كلمةً أم لا؟ أهذا هو برنامجك الذي نقلته إلينا بصفتك عضواً في لجنةٍ مركزية لا نعرفها بعد، وتكاد تبدو لنا قائمةً في عالم الغيب؟

ـ هذا صحيح. و لكن ما أطول إسهابك؟

ـ لكل إنسانٍ أن يعبِّر عما بنفسه كما يشاء. إنك حين أفهمتنا أن الشبكة التي تغطي روسيا كلها تُعدّ منذ الآن بمئات الحلقات، وحين أفهمتنا أنه إذا قامت كل حلقةٍ من هذه الحلقات بواجبها، فإن روسيا كلها، فإن روسيا كلها، بإشارةٍ واحدة...

ـ شيطانٌ يأخذكم جميعاً! إن على عاتقي أعباء كافية، بدون أن تزيدوها أنتم...

كذلك قال بطرس ستيفانوفتش وهو يتحرك على مقعده.

قال شيجالوف:

ـ طيب. سأوجز. وسأكتفي بأن ألقي عليك السؤال التالي: لقد شهدنا هنا فضائح منذ الآن، ورأينا استياء الأهالي، وحطمنا سلطة الإدارة المحلية، وشهدنا حريقاً. فممَّ استياؤك إذًا؟ أليس هذا برنامجك؟ ما الذي تستطيع أن تأخذه علينا؟

ـ آخذ عليكم عدم خضوعكم!

كذلك صرخ يقول بطرس ستيفانوفتش. وتابع كلامه فقال:

ـ ما دمت أنا هنا فإنه لمحظورٌ عليكم أن تتصرفوا بدون إذنٍ مني. كفى! سيوشى بنا غداً بل ربما الليلة، وسنعتقل جميعاً. ذلك ما أردت أن أقوله لكم. معلوماتي أكيدة.

أذهلهم هذا النبأ بل صعقهم.

ـ سيوشى بنا من حيث إننا مشعلو حرائق، ومن حيث أننا ثوريون. إن الواشي يعرف جميع التفاصيل. هذه ثمرة حماقاتكم!

صاح ليبوتين يقول:

ـ هو ستافروجين حتماً.

ـ ستافروجين؟... لماذا؟...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وجمد. ولكنه لم يلبث أن ثاب إلى نفسه. ثم قال:

ـ بل هو شاتوف. أظن أنكم تعلمون جميعاً أن شاتوف كان في الماضي

عضواً بالجمعية. ويجب عليَّ أن أقول لكم إنني قد كلفت بمراقبته أناساً لا يُرتاب في أمرهم، فما كان أشد دهشتي حين عرفت أن تنظيم شبكتنا ليس سراً خافياً عليه... وأنه يعلم كل شيء!... ومن أجل أن يجعل السلطة تعفو عن اشتراكه في الجمعية، فإنه سوف يشي بالجميع. ولقد كان يتردد حتى الآن، وكنت أنا أداريه. أما الآن فإنكم بالحريق قد أطلقتم يديه، وحررتموه من التردد، فعزم أمره، ولن يصده عن الوشاية بنا شيء. سنُعتقل جميعاً في الغد، بصفتنا مشعلي الحرائق وبصفتنا مجرمين سياسيين.

ـ ولكن هل هذا صحيح؟ كيف يعرف شاتوف؟

كان الانفعال الذي سيطر على أعضاء الجماعة لا يوصف.

ـ هذا صحيح كل الصحة. ليس من حقي أن أطلعكم على الوسائل التي استعملتها، ولا أن أذكر لكم كيف اكتشفت كل شيء. إليكم مع ذلك ما لا أزال قادراً على فعله لكم: إنني أستطيع، بواسطة شخصٍ ما، أن أؤثر في شاتوف من دون أن يشتبه في الأمر، فأحمله على إرجاء الوشاية أربعاً وعشرين ساعةً. ففي وسعكم إذًا أن تعدوا أنفسكم في مأمن حتى الصباح من بعد غد.

ساد الصمت دقيقةً.

ثم صاح تولكاتشنكو فجأةً يقول:

ـ فلنرسل شاتوف إذًا إلى جهنم!

فتدخل ليامشين قائلاً بصوت حانق وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربةً قوية:

ـ هذا ما كان ينبغي أن نفعله منذ مدةٍ طويلة.

فدمدم ليبوتين سائلاً:

ـ كيف؟

فأسرع بطرس ستيفانوفتش يتلقف الكرة ويعرض خطته، فيقول إن المطلوب هو استدراج شاتوف غداً عند هبوط الليل إلى المكان النائي الذي دفن فيه آلة الطباعة، بحجة استردادها. فمتى وصل شاتوف إلى هناك

"تفعلون اللازم". وقد دخل بطرس ستيفانوفتش في تفاصيل سأسكت عنها الآن، وعرض وضع شاتوف في الجمعية، وهو وضع ملتبس كما يعرف القارئ.

قال ليبوتين بصوتٍ متردد:

ـ هذا كله حسن، ولكن حكاية القتل الجديدة هذه... سوف تبلبل الأذهان...

فأجابه بطرس ستيفانوفتش مؤيداً:

ـ حتماً. ولكن هذا أيضاً محسوب. إننا نملك الوسيلة التي تمكننا من أن نصرف عنا الشبهات تماماً.

وبذلك الوضوح نفسه تكلم عن كيريلوف، وعن اعتزامه الانتحار، وذكر أن كيريلوف لن ينتحر إلّا في اللحظة المطلوبة، وأنه سيترك رسالةً يتهم فيها نفسه بكل ما يطلب إليه أن يتهم به نفسه (إن القارئ مطلع على هذه الأمور كلها).

وأضاف بطرس ستيفانوفتش معقباً:

ـ إن اعتزام كيريلوف الانتحار، وهو اعتزامٌ قاطعٌ يفسِّره هو تفسيراً فلسفياً ولكنه ليس في رأيي إلّا محض جنون، معروفٌ "هناك". و"هناك" لا يدعون لشيء أن يضيع، لا يتركون لشعرة أن تُفلت، بل لا يسمحون لذرة غبار أن تذهب سدىً. إن كل شيء يمكن أن يفيد عملنا المشترك. وهكذا فإن "اللجنة" إذ تنبأت بالفائدة التي يمكن أن تجنى من انتحاره، وإذ اقتنعت بأن نية الانتحار لديه جدٌ لا هزل، قد أعطته مالاً ليعود إلى روسيا (ذلك أن كيريلوف ـ لا أدري لماذا! ـ يحرص حرصاً مطلقاً على أن يموت بروسيا)، وعهدت إليه بمهمة تكفل بإنفاذها، وهو ينفذها فعلاً، وتعهَّد عدا ذلك بأن لا يطلق الرصاص على رأسه إلّا حين يصدر إليه الأمر بهذا. لاحظوا أنه يريد أن ينفع المجتمع. لا أستطيع أن أقول لكم أكثر من ذلك. ففي الغد، "بعد شاتوف"، سأملي عليه رسالةً يصرِّح فيها بأنه هو الذي قتله. وسوف يظهر هذا الأمر معقولاً: فقد كان الرجلان صديقين، وقد سافرا معاً إلى أمريكا

وتشاجرا هناك... سوف يذكر هذا كله في الرسالة... و... حتى لقد يمكننا، إذا كانت الظروف مواتيةً، أن نملي على كيريلوف أشياء أخرى أيضاً... في ما يتعلق بالمنشورات التحريضية مثلاً... بل في ما يتعلق بالحريق كذلك... على كل حال، سأفكر في الأمر مزيداً من التفكير. لا تخشوا شيئاً: إنه متحرر من الأوهام الاجتماعية الباطلة، وسوف يوقِّع كل شيء يمكن أن نمليه عليه.

أظهر الحضور بعض الشكوك. إن هذا كله يبدو عجيباً كأنه الخيال. ومع ذلك كانوا قد سمعوا جميعاً عن كيريلوف، ولا سيما ليبوتين.

فقال بطرس ستيفانوفتش قاطعاً:

ـ لا تقلقوا أيها السادة. سوف يقبل. وبمقتضى الاتفاقات التي تمت بيننا، يجب أن أبلغه الأمر قبل موعد التنفيذ بيوم، أي يجب أن أبلغه في هذا اليوم. لذلك اقترح أن يصحبني ليبوتين، ويشهد لقاءنا، ويقول لكم عند عودته، في هذا اليوم نفسه، أأنا ذكرت لكم الحقيقة أم لا.

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك ثم أسرع يضيف في حنق، كأنه أحسَّ أنه بمحاولة إقناع هؤلاء الناس الصغار يهب لهم شرفاً عظيماً لا يستحقونه:

ـ على كل حال، افعلوا ما تشاؤون! فإذا لم تعزموا أمركم فقد انفرط عقدكم وانفكت رابطتكم، وكان ذلك كله إنما يرجع إلى عدم طاعتكم وإلى خيانتكم. وبعد تلك اللحظة، يمضي كل منا في سبيله ولكن اعلموا أنكم مهدَّدون عندئذٍ بالنتائج التي ستترتب على وشاية شاتوف بكم، وأنكم مهددون عدا ذلك بانزعاج سبق أن نُبّهتم إليه عند إنشاء هذه الحلقة. إنني، من جهتي، لا أخشاكم كثيراً أيها السادة... لا تظنوا أن مصيري مرتبطٌ بمصيركم... على كل حال، ليس لهذا كله من قيمة...

قال ليامشين:

ـ نحن عازمون على العمل.

ودمدم تولكاتشنكو قائلاً:

ـ ليس هناك حلٌ آخر، وإذا أكَّد ليبوتين أقوالك عن كيريلوف...

هنا صاح فرجنسكي يقول وهو ينهض:

ـ أنا معارضٌ! إنني أحتج احتجاجاً شديداً على هذا القرار الدموي.

ـ ولكن؟

كذلك سأله بطرس ستيفانوفتش. فقال فرجنسكي:

ـ ماذا "ولكن"؟

ـ أنت قلت "ولكن"، وأنا أنتظر أن تتم كلامك...

ـ أظـن أنني لم أقل "ولكن"... وإنما قصدت أنني إذا اتخذتم هذا القرار، سوف...

ـ سوف ماذا؟

صمت فرجنسكي.

وتدخَّل إركل فجأةً فقال:

ـ قد لا يكترث الإنسان بأمنه وسلامته، ولكن إذا كان الأمر يضرّ بالقضية، فلا يحق للمرء عندئذٍ أن يهمل أمنه وسلامته...

وارتبك إركل وسكت. ونظر الجميع إليه مدهوشين، رغم انشغال بال كلٍ منهم بمصيره الشخصي. ذلك أنهم لم يألفوا أن يفتح إركل فمه بكلمةٍ أبداً.

قال فرجنسكي:

ـ في سبيل القضية، أنا مستعدٌ لكل شيء.

ونهضوا. وتقرر أن لا يُعقد اجتماعٌ في الغد، ولكن أعضاء الحلقة سيُطلعون على الوضع ظهراً، وسيُتفق عندئذٍ على التفاصيل. وشرح بطرس ستيفانوفتش أين توجد آلة الطباعة، ووزَّع على الأفراد أدوارهم واحداً واحداً، ثم مضى إلى كيريلوف يصحبه ليبوتين.

2

صحيحٌ أن "أصحابنا" أصبحوا مقتنعين بأن شاتوف يستعد للوشاية بهم، ولكنهم مقتنعون في الوقت نفسه بأن بطرس ستيفانوفتش يحرّكهم كما تُحرّك البيادق على رقعة الشطرنج. ومع ذلك كانوا يعرفون جميعاً أنهم سيذهبون

إلى المكان الذي حدّده لهم، وأن مصير شاتوف قد تقرر. يشعرون بسخطٍ وحنق، ولكنهم في الوقت نفسه يرتعشون خوفاً.

لا شك أن بطرس ستيفانوفتش قد أخطأ في حقهم. لقد كان يمكن تدبير الأمور كلها تدبيراً أقرب إلى الكياسة، وأدنى إلى اليسر والسهولة لو أنه كلَّف نفسه عناء تجميل الواقع ولو قليلاً. فبدلاً من أن يعرض لهم الوقائع عرضاً يظهر جانبها النبيل، كأن يحدثهم عن الرومانيين وعن تقيدهم بالنظام وتفانيهم في سبيل الوطن، عمد إلى التخويف وحده، فجعل كل واحدٍ منهم يخشى على جلده هو، وذلك شيءٌ يفتقر إلى اللطف والكياسة حقاً. صحيح أن كل شيء إنما يرتد إلى الصراع في سبيل الحياة، أي إلى تنازع البقاء، فذلك هو المبدأ الوحيد: هذا أمر يعرفه الجميع. ولكن، مع ذلك...

ولكن بطرس ستيفانوفتش لم يتسع وقته للاستعانة بالرومانيين. لقد كان هو نفسه في حالة تشوشٍ وحيرة. إن اختفاء ستافروجين قد بث في قلبه كثيراً من الاضطراب. كذب بطرس ستيفانوفتش حين قال إن نيقولاي فسيفولودوفتش قد تحدّث مع نائب الحاكم قبل أن يسافر. الواقع أن ستافروجين استقل القطار من دون أن يرى أحداً، حتى أمه. والشيء الغريب أن الشرطة لم تقلقه (حوسبت السلطات على ذلك في ما بعد). ولقد حاول بطرس ستيفانوفتش أن يستعلم عن ستافروجين، ولكنه لا يعرف حتى الآن شيئاً. لذلك كان مضطرباً أشد الاضطراب. هل كان يمكنه فعلاً أن يستغني هذا الاستغناء عن نيقولاي فسيفولودوفتش، وأن يذعن لفقده؟ ذلكم هو السبب في أنه لم يكن رقيقاً مع "أصحابنا"، لا سيما وأنهم كانوا يكبِّلون يديه: فلقد كان يريد في الواقع أن ينطلق ساعياً وراء ستافروجين على الفور. ولكن كان عليه أن يهتم بأمر شاتوف، وكان عليه أن يعزز ارتباط الخمسة بعضهم ببعض: "من يدري؟ قد أظل أستفيد منهم!". ذلك ما لعله كان يحدّث به نفسه.

زد على ذلك أنّ بطرس ستيفانوفتش كان مقتنعاً اقتناعاً تاماً بأن شاتوف يستعد للوشاية بهم. لقد كذب على "الخمسة": فالحق أنه لم ير تلك الوشاية

أبداً، ولا سـمع عنها في يوم من الأيام ولكنه كان مقتنعاً بوجودها. كان يُخيَّل إليه أن شاتوف لن يستطيع احتمال الأحداث الأخيرة ـ موت ليزا، مقتل ماريا تيموفئفنـا ـ وأنه سيعزم أمـره أخيراً علـى أن يفعل. من يـدري؟ لعل بطرس ستيفانوفتش كان من حقـه أن يفكر هذا التفكير. ولقد عُـرف منذئذٍ أنه يكره شـاتوف كرهـاً شـخصياً، فهما قد تشـاجرا مرةً فـي الماضـي، وليس بطرس ستيفانوفتش الـذي يغفر إهانةً في يوم من الأيام. بـل إنني لمقتنع بأن هذا هو السبب الرئيس في المؤامرة التي دبَّرها لشاتوف.

إن أرصفـة الآجـر ضيقـةٌ جداً فـي بعض الأماكـن عندنا حتـى لقد تنوب عنها ألواحٌ خشـبيةٌ أحياناً. فكان بطرس يسير في وسط الرصيف فيشغله كله، غيـر مكتـرثٍ بليبوتيـن أي اكتـراث، وكان ليبوتين مضطـراً أن يركض وراءه أو أن تتخبـط قدمـاه في وحل الشـارع إذا هـو أراد أن يكلمـه. وتذكر بطرس ستيفانوفتش فجأةً كيف كان يحب هو نفســه هذا الخبـب منذ بضعة أيام إلى جانـب سـتافروجين الـذي كان هو أيضاً (مثـل بطرس سـتيفانوفتش في هذه اللحظة تماماً) يسـير في وسط الرصيف فيشـغله كله. فحين وافته ذكرى هذا المشهد كاد يختنق غضباً.

ولكن ليبوتين كان غاضباً هو أيضاً، في وسع بطرس ستيفانوفتش أن يتصرّف مـع الآخريـن كما يحلو له، ولكن لا معه هو، هو ليبوتيـن، الذي يعرف أكثر مما يعرفـه الآخـرون، ويرتبط بالتنظيـم ارتباطاً أوثق، ويشـارك فيه مشـاركةً أعمق، وذلك منذ مدة طويلة. صحيحٌ أنه كان يدرك حق الإدراك أن بطرس ستيفانوفتش يستطيع حتى في هذه اللحظة أن يتخلّص منه، بل أن يضيِّعه إذا لزم الأمر. ولكنه كان قد أخذ يكره بطرس سـتيفانوفتش منذ مدةٍ طويلة، بسـبب موقف الغطرسـة هـذا الذي يقفه، وليس بسـبب الأخطار التي يقوده إليها. أمـا الآن وقد تقرر قتل شاتوف، فإنه حانقٌ أكثر من سائر "أصحابنا" مجتمعين، ولكنه يعرف مع ذلك أنه سيشـرع غداً في عمله أول واحد، "كعبدٍ ذليل"، بل إنه سـيحمل عليه الآخرين. لذلك لا يسـاورني أي شـك في أنه لو كان يسـتطيع أن يقتل بطرس ستيفانوفتش فوراً، من دون أن يهلك نفسه طبعاً، لفعل حتماً بغير تردد.

كان غارقاً في إحساساته ومشاعره، ملتزماً الصمت، يخبُّ وراء جلاده. وكان يبدو أن بطرس ستيفانوفتش قد نسيه تماماً. ولكنه يصدمه بكوعه من حينٍ إلى حين، من دون أن ينتبه إلى ذلك أي انتباه. وفجأةً وقف في شارعٍ من شوارعنا الصغيرة التي تحفل بالناس، ودخل أحد المطاعم.

هتف ليبوتين يسأله:

ـ إلى أين؟ ألا ترى أن هذا مطعم؟

ـ أريد أن آكل شريحةً من اللحم.

ـ المكان يغص بالناس هنا.

ـ لا يهمني.

ـ ولكن... سنصل متأخرين. الساعة قد بلغت العاشرة.

ـ يستطيع المرء أن يذهب إلى كيريلوف مهما يكن الوقت متأخراً.

ـ أنا الذي سوف أتأخر. إنهم ينتظرون عودتي.

ـ فلينتظروا! ومن الغباء أن تعود إليهم. إنني لم أصب غدائي اليوم بسببكم.

دخل بطرس ستيفانوفتش إلى حجرةٍ خاصة من المطعم. واضطر ليبوتين أن يجلس متنحياً على مقعد، غاضباً حانقاً، ينظر إليه وهو يأكل. دام ذلك أكثر من نصف ساعة. لم يتعجّل بطرس ستيفانوفتش، وكان واضحاً أنه يتلذذ بتناول طعامه. وقد رنَّ الجرس ينادي الخادم عدة مرات، فطلب منه بيرة ثم طلب خردلاً من نوعٍ خاص، كل ذلك من دون أن يتوجّه إلى ليبوتين بكلمةٍ واحدة. كان يبدو غارقاً في أفكاره العميقة، إنه قادر في الواقع أن يفعل شيئين في آنٍ واحد: يأكل بشهوةٍ ويفكر. وكان ليبوتين من فرط ما يشعر به من كرهٍ وبغض لا يستطع أن يحوِّل عنه بصره. شيء مرضي حقاً. كان يعدُّ كلَّ لقمةٍ من لقم شريحة اللحم، التي كان الآكل يحملها إلى فمه. إنه يكرهه لطريقته في فتح هذا الفم، لطريقته في مضغ الطعام، لتذوّقه اللقم الدسمة أكثر من غيرها، إنه يكره شريحة اللحم نفسها. واضطرب بصره أخيراً، وأخذ يشعر بدوار، وسرت في ظهره رعدات.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يرمي إلى ليبوتين ورقة:

ـ ما دمت لا تفعل شيئاً، فاقرأ هذا.

دنا ليبوتين من الشمعة. إن الورقة ملأى بكتابة مرصوصة، خطُّها لا يكاد يُقرأ وفيها شطب كبير. فلما انتهى ليبوتين من قراءة الورقة بغير قليل من الصعوبة، كان بطرس ستيفانوفتش قد فرغ من طعامه، ودفع الحساب، ونهض لينصرف.

وردَّ إليه ليبوتين الورقة في الشارع. فقال له بطرس ستيفانوفتش:

ـ بل احتفظ بها، سأشرح لك في ما بعد... ولكن ما رأيك على كل حال؟

فارتعش ليبوتين.

ـ رأيي أن منشوراً من هذا النوع... سخيفٌ، ومضحك!

لقد أصبح ليبوتين عاجزاً عن أن يحتمل أكثر مما احتمل، وأن يصبر مزيداً من الصبر، فكان يحس كأن شيئاً يُنهضه عن الأرض ويلقيه إلى أمام. واستطرد يقول وهو يرتعش حنقاً مسعوراً:

ـ إذا نحن قررنا أن نوزع منشوراتٍ من هذا النوع، فإن الناس جميعاً سيحتقروننا لغبائنا وجهلنا بالواقع.

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجةٍ قاطعةٍ وهو لا يزال يتقدّم بخطًى ثابتة:

ـ همْ...أما رأيي أنا فرأي آخر...

ـ ذلك رأيي. هل يُعقل أن تكون أنت الذي كتبت هذا البيان؟

ـ لا شأن لك.

ـ أرى أيضاً أن قصيدة "البطل" قصيدةٌ رديئةٌ جداً كذلك، ولا يمكن أن يكون هرتسن هو الذي نظم هذه الأشعار.

ـ أنت تكذب: القصيدة رائعة.

قال ليبوتين نافضاً كلَّ ما كان يجيش في قلبه:

ـ يدهشني أن يُقترح علينا أن نعمل على تقويض كل شيء. في أوروبا طبيعيٌ أن يتمنى المرء أن يتقوّض كل شيء، لأن لديهم طبقة بروليتاريا، أما نحن فلسنا إلّا هواة ولا نزيد على أن نثير غباراً. ذلك هو رأيي.

ـ كنت أظن أنك من أتباع فورييه.
ـ الأمر عند فورييه مختلف، مختلفٌ تماماً.
ـ نعم، أعرف! ما آراء فورييه إلّا سخافات.
ـ لا، ليس عند فورييه سخافات... معذرةً، يستحيل عليَّ أن أصدِّق أن الثورة ستقوم في شهر أيار (مايو).
اضطر ليبوتين أن يحل أزراره من شدة ما كان يشعر به من حر.
قال بطرس ستيفانوفتش منتقلاً بهدوء محيِّر إلى موضوعٍ آخر:
ـ كفى. والآن ـ قبل أن أنسى ـ يجب عليك أنت أن تجمع هذا البيان وأن تطبعه. سوف نخرج مطبعة شاتوف من مدفنها، و نسلمها لك غداً. وعليك، بأقصى ما تستطيع من سرعة،أن تطبع لنا عدداً من النسخ لنوزِّعها أثناء الشتاء تنفيذاً للتعليمات الصادرة إلينا. عليك أن تطبع أكبر عددٍ ممكن من النسخ، لأن أقاليمِ أخرى. ستطلب منا نسخاً.
ـ لا، معذرةً... لا أستطيع أن آخذ على عاتقي أن... إنني أرفض.
ـ لكنك ستنفذ مع ذلك ما أقوله لك. إنني أعمل وفق تعليمات اللجنة المركزية، وعليك أن تطيع.
وأنا أرى أن اللجنة المركزية في الخارج لا تدرك الواقع الروسي، وأنها قد قطعت كل صلةٍ لها بالبلاد. إنهم هناك يخرفون. بل إن من رأيي أنه لا يوجد إلّا حلقة خماسية واحدة هي حلقتنا، وأن الشبكة التي تتحدّث عنها ليست إلّا وهماً...
هذا ما انطلق به لسان ليبوتين وقد نفد صبره. فقال بطرس ستيفانوفتش:
ـ إنه لشيء يدعو إلى الاحتقار أن تكون قد لاحقت القضية من دون إيمانٍ بها... وأن تظل تركض الآن ورائي مثل كلبٍ صغير...
ـ لا، لست أركض. إن من حقنا أن ننسحب وأن ننشئ جمعيةً جديدة.
قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة التهديد:
ـ غبي!
وقدحت عيناه شرراً.

بقي الاثنان متقابلين لحظات. وأشـاح بطرس ستيفانوفتش وجهه أخيراً، وتابع سيره بخطى ثابتة.

التمعت في ذهن ليبوتين فكرةٌ سـريعة كومض البرق فقال يحدّث نفسـه: "سأعود أدراجي وأقفل راجعاً. إن لم أفعل هذا الآن فلن أفعله يوماً". وحين قال ذلك لنفسه كان قد سار عشر خطوات. وفي الخطوة الحادية عشرة شقَّت ذهنه فكرةٌ جديدة، فكرةٌ يائسة، فلم يعد أدراجه، ولم يقفل راجعاً.

وكانا قد اقتربا من عمارة فيليبوف، ولكنهما قبل أن يصلا إليها، سـارا في شـارعٍ صغيـر بل قل في ممـرٍ لا يكاد يُرى، ممـا يحاذي السـياج ويمتد على طـول حفـرة. إنهما لا يتقدمان هناك إلّا في مشـقةٍ وعناء، متشـبّثين بالسـياج فـي كل لحظـة، لأن القدمين تنزلقان علـى المنحدر. فلما وصـلا إلى ناصية ذلك السياج، أزاح بطرس ستيفانوفتش لوحاً من الخشب، ودخل من الثغرة. وتبعـه ليبوتين مدهوشـاً بعض الدهشـة. وأعادا لوح الخشـب بعـد ذلك إلى مكانه. هذا هو المدخل السري الذي كان يتسلل منه فدكا إلى المنزل.

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول بلهجةٍ قاسية:

ـ يجب أن لا يعرف شاتوف أننا هنا.

3

كان كيريلـوف، علـى عادتـه فـي مثل تلك السـاعة، جالسـاً علـى أريكته الجلدية يحتسـي الشـاي، فلما رأى الزائرين لم ينهض، ولكنه ارتعش وألقى عليهما نظرةً قلقة.

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ لم يخطئ ظنك، فإنما أنا جئت لذلك الأمر نفسه.

ـ اليوم؟

ـ لا، لا، بل غداً... في مثل هذه الساعة تقريباً.

وأسـرع يجلـس أمـام المائـدة متأمـلاً كيريلوف بشـيءٍ من القلـق. وكان

كيريلوف قد استرد هدوءه على كل حال، واستعاد وضعه المألوف. قال بطرس ستيفانوفتش يسأله:

ـ إنهم لا يريدون أن يصدقوني. هل يسوؤك أنني اصطحبت ليبوتين؟

ـ لا، اليوم لا بأس... أما غداً فأريد أن أكون وحدي.

ـ ولكن الأمر سيتم بحضوري.

ـ بل أود أن لا تكون حاضراً.

ـ تذكَّر أنك وعدتَ بأن تكتب كلَّ ما سأمليه عليك وأن تمهره بتوقيعك.

ـ سواءٌ عندي. والآن هل تبقيان مدةً طويلة؟

ـ هناك شخص يجب أن أراه وسأمكث عندك نحو نصف ساعة. فرتِّب أمورك كما تشاء، لكنني سأبقى نصف ساعة.

التزم كيريلوف الصمت. وكان ليبوتين في أثناء ذلك قد جلس متنحِّيًا تحت صورة الأسقف. إن الفكرة التي ساورته منذ قليل تستولي على فكره الآن أكثر فأكثر. وكان كيريلوف لا يكاد يلقي إليه بالاً، ولا يكاد ينتبه إليه أيَّ انتباه. إن ليبوتين يعرف نظرية كيريلوف، وكان في الماضي يسخر منها. ولكنه اليوم صامتٌ ينظر حوله مظلمَ الوجه.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يقترب من المائدة:

ـ يسرني أن أصيب شيئاً من الشاي. لقد أكلت شريحة لحمٍ منذ قليل، وكنت أعوِّل على أن أشرب الشاي عندك.

ـ اشرب إذا شئت.

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجةٍ لاذعة:

ـ في الماضي كنت أنت الذي تقدم لي الشاي!

ـ سيان! وليشرب ليبوتين أيضاً.

ـ لا... لا أريد!

ـ لا أريد أو لا أستطيع؟

كذلك سأل بطرس ستيفانوفتش فجأةً وهو يلتفت إلى رفيقه.

فأجابه ليبوتين بلهجةٍ ذات دلالة:

ـ لن أشرب عنده.

فقطب بطرس ستيفانوفتش حاجبيه.

ـ تفوح من هذا الكلام رائحة الغيبية. لا يعرف إلّا الشيطان أي أناسٍ أنتم جميعاً!

لم يجبه أحد. ودام الصمت دقيقةً كاملة.

عاد بطرس ستيفانوفتش يتكلم بخشونةٍ وجفاف فقال:

ـ أنا لا أعرف إلّا شيئاً واحداً، هو أنه ما من وهمٍ من الأوهام الاجتماعية سيمنعنا من أن يحقق كل منا واجبه.

سأل كيريلوف:

ـ هل سافر ستافروجين؟

ـ نعم.

ـ أحسن صنعاً.

ألقى بطرس ستيفانوفتش على كيريلوف نظرةً جادة، ولكنه كظم ما في نفسه وسيطر على إرادته.

ـ لا يهمني كثيراً ما تراه من رأي، ولكن يهمني أن يفي كل واحدٍ بما قطعه على نفسه من عهد.

ـ سأفي بوعدي.

ـ على كل حال، كنت أنا دائماً على ثقة بأنك ستفي بعهدك، كما يفعل رجلٌ مستقل متقدم.

ـ أما أنت فرجلٌ مضحك.

ـ لا مانع. يسعدني أن أُضحك. يسعدني دائماً أن أسرَّ أحداً.

ـ إنك ترغب رغبةً شديدةً في أن أنتحر، وتخشى خشيةً قوية أن أعزف عن ذلك.

ـ أنت الذي ربطت خطتك بعملنا. لقد شرعنا في عمل معيَّن على أساس تلك الخطة، فلا يمكنك بحالٍ من الأحوال أن تعدل عنها إلّا وتعرِّضنا للخطر.

ـ ليس لكم عليَّ أيُّ حق.

ـ أفهم، أفهم تماماً: هذه إرادتك الحرة، وما نحن بشيء، وإنما المهم أن تتحقق هذه الإرادة الحرَّة.

ـ وسيكون عليَّ أن أحمل على عاتقي جميع دناءاتكم؟

ـ اسمع يا كيريلوف: أتُراك خائفاً؟ إذا كنت تفكر في التراجع، فأعلن هذا فوراً.

ـ لست خائفاً.

ـ سألتك هذا السؤال لأنني رأيتك تلقي أسئلةً كثيرة.

ـ أتسافر قريباً.

ـ أسؤالٌ آخر؟

نظر إليه كيريلوف باحتقار.

وعاد بطرس ستيفانوفتش يتكلم وقد أخذ حنقه وقلقه يزدادان وأصبح يعجز عن العثور على اللهجة المناسبة:

ـ اسمع يا كيريلوف: إنك تريد أن أسافر من أجل أن تبقى وحدك، من أجل أن تخلو إلى نفسك. وهذه كلها أعراضٌ خطرة عليك، خطرةٌ عليك أنت قبل أي شخصٍ آخر. إنك تريد أن تفكر. وفي رأيي أن الأفضل أن لا تفكر، وإنما تُقدم على العمل ببساطةٍ. لقد أخذت تقلقني.

ـ شيءٌ واحدٌ يثير في نفسي الاشمئزاز، هو أنني في لحظةٍ كتلك اللحظة سيكون بقربي حشرةٌ مثلك!

ـ إذا كان هذا ما تخشاه فالأمر بسيطٌ! إنني مستعدٌ لأن أخرج أثناء ذلك الوقت فأنتظر على درجات المدخل. إذا كنت تقيم هذا الوزن كله لأمور كهذه الأمور وأنت تتهيأ للموت، فذلك... فذلك شيءٌ خطر. سأبقى على درجات المدخل، ولن يكون عليك إلّا أن تتخيل إنني لا أفهم شيئاً، وأنني دونك إلى غير نهاية.

ـ لا، لست دوني إلى غير نهاية: إنك لا يعوزك الذكاء، غير أن هناك أموراً كثيرة لا تفهمها لأنك إنسان فاسدٌ شرير.

ـ طيب. طيب. أنا مفتونٌ بهذا الكلام. سبق أن قلت لك أنني يسعدني أن أسرَّك... في مثل هذه اللحظة.

ـ إنك لا تفهم شيئاً.

ـ أقصد أنني... على كل حال، ها أنا ذا أصغي إليك بإجلال وإعظام...

ـ بل أنت غير قادرٍ على شيءٍ البتة. إنك لا تستطيع حتى أن تخفي في هذه اللحظة حنقك الحقير وغيظك الدنيء، رغم أن ذلك يضرك. ستغضبني أخيراً، فأراني أرجئ الأمر ستة أشهرٍ على حين فجأة.

نظر بطرس ستيفانوفتش في ساعته. ثم قال:

ـ إنني لم أفهم من نظريتك شيئاً في يومٍ من الأيام، لكنني أعلم أنك لم تتخيلها من أجلنا نحن. معنى ذلك أنك ستنفذ عزمك حتى بدون أن يكون لنا في الأمر شأن. وأعلم أيضاً أنك لست أنت الذي التهمت الفكرة وإنما الفكرة هي التي التهمتك. فلن تتراجع إذن!

ـ كيف؟ الفكرة التهمتني؟

ـ نعم.

ـ ولستُ أنا الذي التهمت الفكرة؟ هذا كلام ممتاز. إن لك بعض الذكاء. ولكنك تكتفي بالمزاح، أما أنا فلي كبريائي.

ـ عظيم، عظيم. ذلك بعينه هو ما نحن في حاجةٍ إليه: أن يكون لك كبرياؤك.

ـ كفى. لقد انتهيتَ من شرب الشاي، فانصرف الآن!

قال بطرس ستيفانوفتش وهو ينهض:

ـ يجب أن أنصرف فعلاً. ولكن لا يزال الوقت مبكِّراً. اسمع يا كيريلوف: هل أجد ذلك الرجل عند الجزَّارة؟ إنك تعلم من أعني، هه؟ أم تراها كذبت هي أيضاً؟

ـ لا، لن تجده عندها، لأنه هنا.

ـ هنا؟ شيطانٌ يأخذه! ولكن أين هو؟

ـ في المطبخ. يأكل. يشرب.

ـ كيف سمح لنفسه بأن...

احمر وجه بطرس ستيفانوفتش غضباً، وتابع كلامه فقال:

ـ لقد أُمر أن ينتظر... يا للحماقة. إنه لا يملك لا مالاً ولا جواز سفر.

ـ لا أدري. لقد جاء يودِّعني. وهو يستعد للسفر. سيسافر إلى غير رجعة. يقول أنك رجلٌ وغد، وأنه لا يريد أن ينتظر مالك.

ـ آه... إنه يخاف أن أ... إذا... أين هو؟ في المطبخ؟

فتح كيريلوف باب حجرةٍ صغيرةٍ مظلمة فيها سلم ذو ثلاث درجات يفضي إلى المطبخ الذي هو أشبه بزنزانةٍ تسكنها الخادمة في العادة. ففي ركن بهذا المطبخ، تحت الأيقونات، كان فدكا جالساً أمام قنينة فودكا وطبق لحم بارد مع بطاطس. كان يأكل على مهلٍ بغير تعجل، ويبدو نصف سكران. وكان يرتدي سترته المصنوعة من جلد الخروف تأهباً للرحيل. إن السماور يغلي ماؤه وراء الحاجز، ولكنه ليس لفدكا. بالعكس: إن فدكا نفسه هو الذي أصبح منذ أسبوع يحضِّر الشاي "لألكسي نيلتش لأن ألكسي نيلتش قد ألف أن يشرب الشاي في الليل". وهناك ما يجعلني أعتقد أن الخادمة كانت غائبة، وأن كيريلوف كان قد أمر بطهو اللحم والبطاطس منذ الصباح، من أجل فدكا.

هتف بطرس ستيفانوفتش سائلاً وهو يهرع إلى المطبخ:

ـ ما هذا أيضاً؟ لماذا لم تنتظرني هناك كما أمرتك؟

وضرب المائدة بقبضة يده ضربةً سريعة.

فاصطنع فدكا هيئة قلة الاكتراث، ثم قال وهو يقطِّع كل كلمة من كلماته متصنعاً:

ـ انتظر يا بطرس ستيفانوفتش، انتظر قليلاً. يجب عليك قبل كل شيء أن تفهم أنك في زيارة السيد كيريلوف، آلكسي نيلتش، الذي يجب عليك أن تلمِّع له حذاءيه، لأنه بالقياس إليك رجلٌ مثقف، على حين أنك أنت لست إلا....

قال ذلك والتفت فبصق بغير لعاب. إن لهجته المتغطرسة، المتفيهقة، الهادئة هدوءاً كاذباً حتى حدوث أول انفجار، كانت خطرة في أبعد حدود

الخطر. ولكن بطرس ستيفانوفتش لم يتسع وقته لملاحظة الخطر. هذا عدا أن فكره كان تائهاً بعد أن ذهبت بصوابه أحداث النهار وإخفاقاته...

وكان ليبوتين يراقب المشهد من أعلى السلَّم.

ـ أتريد أم لا تريد أن تملك جواز سفر وأن تنال مبلغاً ضخماً لتمضي إلى حيث أُمرت أن تمضي؟ أنعم أم لا؟

ـ اسمع يا بطرس ستيفانوفتش: لقد خدعتني منذ البداية، وأنا لذلك أعدُّك وغداً حقيراً كقملة. هذا أنت في نظري. لقد وعدتني بمالٍ كثير لقاء الدم البريء، وعدتني به باسم السيد ستافروجين. ثم اتضح أن ذلك كله لم يكن إلّا كذباً دنيئاً منك. فأنا لم أقبض ألفاً وخمسمائة روبل، بل لم أقبض كوبكاً واحداً، كما علمنا أن السيد ستافروجين قد صفعك منذ قليل على خدَّيك. وها أنت ذا الآن تستأنف تهديدك لي، وتستأنف وعدي بالمال، ولكنك لا تذكر الغرض من ذلك. ولكنني أحس أنك ترسلني إلى بطرسبرج معتمداً على سذاجتي وسرعتي في التصديق، لتنتقم من السيد ستافروجين، نيقولاي فسيفولودوفتش. فالقاتل حقاً إنما هو أنت. وهل تعلم ماذا ينتظرك من جراء انغماسك في حمأة الرذيلة إلى أن كفرت حتى بالله، الخالق الحق؟ إنك أشبه بوثني، وإنك لا تفضل تترياً. لقد شرح لك ألكسي نيلتش مراراً، وهو فيلسوفٌ كبير، شرح لك مراراً حقيقة الله، خالق كل شيء، وحدَّثك حديثاً طويلاً عن خلق العالم والحياة الآخرة، وعن بعث البشر والحيوان كما جاء في رؤيا القديس يوحنا. ولكنك ظللت لا تحس ولا تنطق، كشخصٍ أبله جامد. لقد أغويت الضابط إركل، مثل ذلك المغوي الشرير الذي يسمى ملحداً...

ـ يا للسكير! يسرق الأيقونات ثم يدعو إلى الإيمان بالله...

ـ هذا صحيح. أعترف لك بذلك يا بطرس ستيفانوفتش. لقد سلبت أيقونات. لكنني اكتفيت بأخذ اللآلئ. ومن يدري؟ لعل دموعي في هذه اللحظة نفسها تتحوّل إلى لآلئ أمام هيكل الرب، لأنني أُهنت وأُذيت، لأنني يتيم، حتى إنني كنت لا أعرف أين أُرقد رأسي. هل قرأت في الكتب القديمة،

أنه حدث في الماضي، في الأزمنة السحيقة، أن رجلاً من البائعين قد سرق لؤلؤة من إكليل السيدة العذراء، أم المسيح وهو يصلي ويبكي؟ وبعد ذلك، على مرأى من الشعب المحتشد، سجد أمام الأيقونة، ووضع المبلغ كله عند قدميها، فألقت عليه الأم العذراء حجابها تستره عن أعين الناس جميعاً؟ لقد تحققت في تلك المناسبة إذًا معجزة حقيقية، وأصدرت السلطات أمرها بتدوينها دقيقةً في كتب الدولة. ولكنك أنت قد سلَّلت فأراً. وبذلك تكون قد أهنت يد الرب نفسها. ولولا أنك السيد الذي حملتُه على ذراعيَّ مراهقاً، لقتلتك في هذه اللحظة نفسها، فوراً.

جُنَّ جنون بطرس ستيفانوفتش من الغضب.

ـ أجبني، هل رأيت اليوم ستافروجين؟

ـ لا أسمح لك بأن تسألني. إن السيد ستافروجين يُدهش من أعمالك. إنه لم يصدر إليك أمراً ولا أعطاك مالاً. بل إنه لم يشارك في جريمة القتل أي مشاركة، ولو بالفكر والخيال. لقد كذبتَ عليَّ.

ـ سوف تنال المال. وسوف تتلقى أيضاً ألفي روبل ببطرسبرج، في المكان المعيَّن، بل سوف تتلقى هناك أكثر من ذلك.

ـ أنت تكذب، أنت تكذب يا عزيزي، بل إنني ليضحكني أن أراك واثقاً هذه الثقة كلها. إن ستافروجين هو بالقياس إليك رجلٌ يقف في قمة سلَّم، وأنت في أسفل السلم تنبح نباح كلبٍ صغير، بينما هو يحس أنه يشرِّفك كثيراً إذا ارتضى أن يبصق عليك من أعلى.

أعول بطرس ستيفانوفتش يقول وقد بلغ ذروة الحنق:

ـ ولكن هل تعلم أنني لن أدعك تخرج من هنا أيها الشقي، وأنني سأسلمك للشرطة فوراً؟

فنهض فدكا بوثبةٍ واحدة وقد قدحت عيناه شرراً. فسرعان ما أخرج بطرس ستيفانوفتش مسدسه. إنه لمشهد سريع بشع. وقبل أن يتسع وقت بطرس ستيفانوفتش لإطلاق النار، كان فدكا، السريع كومض البرق، قد هوى على خده بلطمةٍ رهيبة أتبعها بلطمةٍ ثانية فثالثة فرابعة على الخد أيضاً. فدمدم

بطرس ستيفانوفتش ببضع كلمات مبهوتاً مصعوقاً، ثم خر على أرض الغرفة.

صاح فدكا يقول باعتزازٍ وزهو:

ـ هو ذا. افعل به ما تشاء.

ثم تناول قبعته وسحب خُرجه من تحت الدكة وانسل خارجاً.

كان بطرس ستيفانوفتش يحشرج مغشياً عليه، حتى لقد تخيل ليبوتين خلال لحظة إنه قد مات. وهرع كيريلوف إلى المطبخ. وصرخ يقول:

ـ إليَّ بماء.

وغرف ماءً من سطل، وسكب منه على وجه بطرس ستيفانوفتش. فتحرك بطرس بعد لحظة، وأنهض رأسه، ونظر أمامه زائغ البصر.

سأله كيريلوف:

ـ هيه! كيف الحال الآن؟

فتأمله بطرس ستيفانوفتش ملياً، من دون أن يتعرفه في ما يبدو ولكنه حين أبصر ليبوتين الذي كان ينظر إليه من أعلى السلم، ابتسم ابتسامته الشريرة تلك، ثم إذا هو يتناول مسدسه فجأةً، وينهض عن الأرض.

وصرخ قائلاً وهو يهرع نحو كيريلوف كمجنون:

ـ إذا خطر ببالك غداً أن تهرب كما فعل ذلك الوغد ستافروجين (كان شاحب اللون وكان صوته يختنق في حلقه)... فلسوف أجدك... في الطرف الآخر من العالم... وسوف أقبض عليك... كذبابة... فأسحقك... هل فهمت؟...

وصوَّب مسدسه إلى جبهة كيريلوف. ولكن في تلك اللحظة نفسها تقريباً ثاب إليه رشده تماماً، فخفض يده، ودسَّ المسدس في جيبه وخرج راكضاً من دون أن يقول كلمةً واحدة. وتبعه ليبوتين. فسارا في ذلك الممر نفسه، محاذيين المنحدر مرةً أخرى، متشبّثين بالسياج كما فعلا في المجيء. فلما صارا في الشارع أخذ بطرس ستيفانوفتش يسير بخطى تبلغ من السرعة أن ليبوتين لم يستطع أن يتبعه إلّا بكثيرٍ من العناء. حتى إذا بلغ مفترق طرقٍ توقف على حين فجأة.

وقال يخاطب ليبوتين بلهجة التحدي:

ـ طيب!

وكان ليبوتين لا يزال يرتجف ارتجفاً شديداً من ذكرى المسدس والمشهد الذي رآه. ولكن الجواب تساقط من شفتيه كأنما من تلقاء نفسه رغم إرادته، فقال:

ـ أظن... أظن "أنهم من سمولنسك إلى طشقند... لا ينتظرون الطالب نافدي الصبر إلى هذا الحد"...

ـ هل رأيت ماذا كان يشرب فدكا في المطبخ؟

ـ ماذا كان يشرب؟ كان يشرب فودكا...

طيب... فاعلم إذًا أنه قد شرب الآن فودكا آخر مرة في حياته. إني أنصحك بأن تتذكر هذا من أجل ما قد تراه من آراء في المستقبل. سوف يفيدك أن تتذكره. والآن، اذهب إلى الشيطان!... لم أعد في حاجةٍ إليك حتى الغد... ولكن حذار: لا ترتكب حماقات!

رجع ليبوتين إلى بيته سريع الخطى.

4

كان ليبوتين قد صنع لنفسه منذ مدةٍ طويلة جواز سفر باسمٍ مزوَّر. إن هذا الشخص الصغير الحيسوب، هذا الخادم الطاغية، هذا الموظف الذي ينتمي إلى أتباع فورييه ويتعاطى الربا في الوقت نفسه، قد بدت له منذ زمنٍ طويل هذه الفكرة العجيبة، وهي أن يحصل على جواز سفر استعداداً لكل طارئ، كي يستطيع أن يسافر إلى الخارج إذا حدث أن... نعم لقد بدت له هذه الفكرة، مهما يدهشكم ذلك من مثله. لقد كان يسلم إذًا أن ذلك يمكن أن يحدث، ومع هذا، لو سألته ماذا تعنيه هذه العبارة "إذا حدث أن..."، لما استطاع أن يجيبك على وجه الدقة.

ولكن ها قد اتضح اليوم هذا الاحتمال على حين فجأة مكتسياً صورةً هي أبعد ما تكون عن التوقع. إن الفكرة اليائسة التي دخل بها على كيريلوف

والتي كانت قد ومضت في ذهنه حين وصفه بطرس ستيفانوفتش بالغباء هي أن يترك كل شيء وأن يهرب إلى الخارج في صباح الغد. إن الذي يرفض أن يسلِّم بأن أشياء خارقة من هذا النوع يمكن أن تحدث في واقعنا الحالي، ما عليه إلّا أن يراجع حياة المهاجرين الروس. ما من أحد منهم هرب لأسبابٍ معقولة أكثر من ذلك: هذا أفق العجائب، هذه رحاب اللاواقع!

فلما رجع ليبوتين إلى البيت أغلق على نفسه الباب بالمفتاح، ثم أخذ يهيئ كيس السفر. وكانت مسألة المال تشغل باله أكثر من أي شيءآخر: كم يجب أن يأخذ؟ هل يتاح له أن ينقذ كل ما يملك؟ نعم، أن ينقذ. فهو يتصوّر أنه لم تبق ساعة واحدة يمكن أن يضيعها، وأن عليه أن يسير عند طلوع الشمس. وكان لا يعرف أيضاً أين يجب عليه أن يركب القطار: لعل الأفضل أن يركب القطار بعد محطتين أو ثلاث محطاتٍ من مدينتنا، ولو اقتضى الأمر يمضي إلى هناك سيراً على الأقدام. كانت هذه الأفكار كلها تدور في رأسه كالإعصار وهو يرتب أمتعته في كيسه، حين توقف فجأةً، فترك كل شيء، وتهاوى على أريكته وهو يئن أنةً طويلة.

لقد أحس إحساساً واضحاً وأدرك على حين فجأة أنه سيهرب طبعاً، ولكنه عاجزٌ عن أن يقرر بنفسه هل يهرب "قبل" مقتل شاتوف أو "بعده". ذلك أنه الآن ليس إلّا جسماً عاطلاً عن الحركة، ليس إلّا كتلةً ساكنة تحرِّكها قوةٌ غريبةٌ رهيبة. إنه يملك جواز سفر من أجل أن يرحل إلى الخارج، فيستطيع إذًا أن يهرب "قبل" شاتوف (أكان يستعجل لولا أن الأمر كذلك؟)، ولكنه مع ذلك يدرك أنه لن يسافر "قبل" شاتوف، بل "بعده"، لأن الأمر قد تقرر، ووُقِّع، وخُتم. وها هو ذا يبقى على هذه الحال، مستلقيًا على أريكته، يعذبه القلق، ويرتعد لأيسر ضجةٍ، يئن تارةً، ويحبس أنفاسه تارةً أخرى، ولا يفهم هو نفسه ما الذي يحدث في نفسه، حتى حانت الساعة الحادية عشرة، فحدثت أخيراً الصدمة التي أطلقت قراره. ففي الساعة الحادية عشرة، ما إن فتح باب غرفته حتى أخبره ذووه أن فدكا، الهارب من سجن الأشغال الشاقة، الذي كان ينشر الرعب والقتل والحرائق في كل كان، والذي تلاحقه

الشـرطة منـذ مدةٍ طويلة مـن دون أن تسـتطيع القبض عليه، قـد وُجد مقتولاً هذا الصباح، على مسـافة سبعة فراسـخ من المدينة عند تقاطع الدرب الكبير وطريق زاخارينو. إن المدينة كلها لا تتحدّث إلّا عن هذا النبأ. أسـرع ليبوتين يتقصـى الأخبار فـوراً فعرف ما يلي: إن فدكا الذي وُجد مهشـم الرأس لا بد أنه قد سُـلب ما كان معه، وأن الشـرطة تعتقد، لأسـباب وجيهة، في ما يبدو، أن القاتل هو فومكا، أحد عمال مصنع شبيجولين، الذي قتل لبيادكين وأخته مشـتركاً مـع فدكا، وحاول أن يشـعل النار فـي بيتهما. ولعـل الرجلين، فدكا وفومـكا، قد تشـاجرا فـي الطريق على المبلـغ الضخم الـذي كان فدكا (كما يظن رفيقه) قد سرقه من عند الكابتن لبيادكين...

أسـرع ليبوتين إلى منزل بطرس ستيفانوفتش فعلم من الخادمة أن مولاها قد رجع إلى البيت في نحو الساعة الواحدة من الصباح، فنام نومًا هادئاً حتى الساعة الثامنة.

لا عجـب طبعاً فـي موت فـدكا: فعلى هذا النحـو إنما يموت فـي العادة أمثال هؤلاء الرجال. ولكن تحقق نبوءة بطرس سـتيفانوفتش ("فاعلم إذًا أنه قد شـرب الآن فودكا آخر مرة في حياته!")، بدا له مليئاً بالدلالة، فوضع حداً لتردده. لكأن صخرة قد سقطت عليه فسحقته إلى الأبد.

وحيـن عـاد إلى البيت دفع كيس السـفر بقدمه حتى جعله تحت السـرير. وفي السـاعة المحددة من المساء وصل أولَ من وصل إلى المكان الذي كان يجب أن يُلتقى فيه بشاتوف. ولكنه كان يحمل في جيبه جواز السفر.

الفصل الخامس

المسافرة

1

إن موت ليزا وموت ماريا تيموفئفنا قد سحقا شاتوف سحقاً، وهدَّما نفسه تهديماً. سبق أن قلت إنني لقيته في ذلك الصباح، ففوجئت بهيئته التائهة ونظرته الزائفة. وقد ذكر لي، في ما ذكر، أنه في الليلة البارحة، في نحو الساعة التاسعة (أي قبل الحريق إذاً بثلاث ساعات) كان قد ذهب إلى ماريا تيموفئفنا. وفي الصباح مضى يشاهد الجثث، ولكنه احتفظ بافتراضاته ولم يبح بها لأحد. غير أن عاصفةً حقيقية قد ثارت في نفسه آخر النهار... و... و... أظن أنني أستطيع أن أؤكد أنه في لحظةٍ من اللحظات قد مرَّت به لحظةٌ قرر فيها أن يكشف عن كل شيء. أما ما هو "كل شيء" هذا فإنه كان هو نفسه لا يعرفه على وجه الدقة. ومن الواضح أن قيامه بهذه الخطوة ما كان يمكن أن يؤدي إلى أية نتيجة. كل ما هنالك أن الرجل كان سيعرِّض نفسه للخطر. إنه لا يملك أية براهين تدين الجناة: إنه لا يملك إلّا ظنوناً وتخمينات لا تعدل اليقين إلّا في نظره هو. ولكنه كان مستعداً لأن يضحي بنفسه في سبيل "سحق هؤلاء الأشقياء" على حد تعبيره هو. فلم يكن بطرس ستيفانوفتش إذاً على خطأ حين توقع هذا الانفجار عند شاتوف، وحين أدرك أنه بإرجاء تنفيذ مشروعه الرهيب إلى الغد إنما يجازف كثيراً. ومع ذلك قرر الإرجاء. غير أنه على عادته كان يمتلئ ثقةً بنفسه واحتقاراً لجميع هؤلاء "الناس الصغار" ولشاتوف خاصةً. إنه يحتقر شاتوف منذ مدةٍ طويلة ويحتقر

"طبيعته الخاصة البكاءة"، كما قال عنه حين كان لا يزال في الخارج، لهذا كان مقتنعاً أنه يستطيع أن يتغلّب بسهولةٍ على إنسان يبلغ مبلغه من السذاجة والبساطة: يكفيه من أجل هذا أن يكلّف أحداً بمراقبته طول النهار، فإذا لاحظ شيئاً وقف في طريقه وسدَّ عليه سبيل إنفاذ ما يريد إنفاذه. ومع ذلك أستطيع أن أقول إن "الأشقياء" لم ينجوا ويسلموا في هذه المرة إلّا بفضل حادثٍ غير متوقع ما كان لهم أن يتنبأوا به.

ففي الساعة الثامنة من المساء، بينما كان أصحابنا عند إركل ينتظرون وصول بطرس ستيفانوفتش ويضطربون ويتحركون، كان شاتوف، المثقل الرأس المصاب بحمى، كان مستلقياً على سريره في الظلام. وكان في أثناء ذلك يتقلب بين قرارٍ وقرار، فيغتاظ ويحنق ويتعذب، ويلعن تردده، ويتنبأ بأنه عاجزٌ عن المبادرة إلى القيام بعمل. وشيئاً فشيئاً نام وحلم: حلم بأنه موثقٌ في سريره لا يستطع حراكاً، ولكنه مع ذلك يسمع ضجةً رهيبة: إن طرقاتٍ قوية تهزّ باب المنزل، وجدرانه، وجناح كيريلوف، وإن صوتاً بعيداً، مألوفاً أليماً، يناديه باسمه شاكياً متوجعاً. استيقظ شاتوف من نومه منتفضاً، وانتصب على سريره. فما كان أشد دهشته حين أدرك أن الباب لايزال يُطرق، وأن الطرقات وإن تكن أقلَّ قوةً مما كان يسمعها أثناء الحلم، متكررةٌ وعنيدة، وأن الصوت الغريب الأليم لا يزال يرتفع ولكنه ليس شاكياً متوجعاً، بل هو على عكس ذلك نافد الصبر شديد الغضب. وكان يختلط به صوتٌ آخر أهدأ منه. وثب شاتوف عن سريره، وفتح النافذة الصغيرة، ومدَّ رأسه ناظراً، ونادى قائلاً وقد تجمد من الخوف حقاً:

ـ من هذا؟

فأجابه من تحت صوت جاف قاطع:

ـ إذا كنت شاتوف فأرجوك أن تقول لي بصراحةٍ وشرفٍ وصدق أتسمح لي بأن أدخل أم لا؟

"إنها هي!".

لقد تعرَّف صوتها.

ـ ماري!... أهذه أنت؟

ـ نعم، أنا ماري شاتوف، وأؤكد لك أن الحوذي لا يستطيع أن ينتظر دقيقةً واحدةً أخرى.

فنادى شاتوف يقول بصوتٍ ضعيف:

ـ حالاً... سأشعل الشمعة...

وأخـذ يبحـث عن عيـدان كبريت، ولكنـه كما يحدث دائماً فـي مثل هذه الأحوال لم يهتد إليها، حتى لقد قلب الشمعدان والشمعة. غير أنه ترك أخيراً كل شـيء، اسـتجابةً للنداء المتكرر الذي أطلقه الصوت النافد الصبر تحت، وانطلق على السلم يهبط درجاته أربعاً أربعاً، وفتح الباب.

قالت ماري شاتوف وهي تمد إليه كيساً خفيفاً من أكياس السفر المصنوعة من قماشٍ والمزودة بمسامير من نحاس، مما يُصنع بمدينة درسدن:

ـ تناول كيسي لحظةً، أرجوك، حتى أدفع لهذا الغبي أجره.

والتفتت نحو الحوذي فقالت له بلهجةٍ غاضبة:

ـ أبيـح لنفسـي أن أقول لك إن مطالبتك غيـر عادلة. لقد ظللت تجري بي هنـا وهناك سـاعةً كاملةً في هذه الشـوارع الوسـخة. فذلك خطـأك: كنت لا تعلـم مكان هذا الشـارع الغبي وهـذا المنزل البليد! خذ الثلاثيـن كوبكاً التي تستحقها وثق أنك لن تنال كوبكاً واحداً آخر غيرها.

ـ أنـت التي سـميت لي شـارع "الصعود" يا سـيدتي. أما هنا الشـارع فهو شـارع الابيفانيا. إن شـارع الصعود بعيدٌ جداً عن هنا. لقد أوشك حصاني أن يموت تعباً.

ـ شـارع "الصعود"، شـارع "الابيفانيـا"!... لا بد أن تعرف هذه الأسـماء الحمقاء خيراً مني أنا، لأنك من هذه المدينة. ثم إنك مخطئ: أنا إنما سمّيت لك منزل فيليبوف قبل كل شيء فأكدت لي أنك تعرفه. على كل حال، تستطيع أن تشكوني غداً إلى قاضي الصلح، أما الآن فأرجوك أن تدعني وشأني.

تدخل شاتوف قائلاً:

ـ هذه خمسة كوبكات أخرى...

وأخرج من جيبه قطعة نقدية مدَّها إلى الحوذي.

قالت السيدة شاتوف محتجةً:

ـ ما تدخلك أنت؟ إنني أمنعك...

ولكن الحوذي كان قد انصرف.

أمسك شاتوف زوجته من يدها وأدخلها في الدهليز.

ـ لنصعد بسرعة يا ماري، بسرعة... لا قيمة لهذا البتة! إنك مبتلةٌ تماماً! انتبهي... ههنا درجات. يؤسفني أننا من شدة الظلام لا نرى شيئاً! السلَّم وعر... تمسكي بالدرابزين جيداً. ها نحن وصلنا. هذه غرفتي. معذرةً. ليس عندي ضوء!... حالاً... حالاً...

وتناول الشمعدان من أرض الغرفة. ولكنه ظل لا يهتدي الى أعواد الكبريت أيضاً. كانت السيدة شاتوف واقفةً في وسط الغرفة، جامدةً لا تتحرك، تنتظر صامتةً.

ـ الحمد لله. ها هي ذي عيدان الكبريت.

كذلك هتف شاتوف فرحاً. وأشعل الشمعة. فطافت ماري شاتوف ببصرها على المسكن. ثم قالت بصوتٍ مشمئز:

ـ ذُكر لي أن مسكنك سيئ، ولكنني لم أتوقع كل هذا السوء. آه... ما أشد ما أعانيه من تعب!...

وتهالكت على سرير شاتوف، الخشن القاسي، خائرة القوى. وأردفت تقول:

ـ أرجوك، ضع الكيس على الأرض، واجلس على هذا الكرسي. بل افعل ما يحلو لك. ولكن لا تبقى واقفاً هذا الوقوف أمامي. لن أمكث عندك إلّا وقتاً قصيراً، إلى أن أجد عملاً، ذلك أنني لا أعرف أحداً هنا، ولا أملك قرشاً واحداً. ولكن إذا كان وجودي يضايقك، فأرجو أن تعلن لي هذا فوراً، كما ينبغي أن تفعل إذا كنت رجلاً شريفاً صادقاً. مهما يكن من أمر، أستطيع أن أبيع في الغد متاعاً ما، فأدفع أجر فندق، ولكن سيكون عليك في هذه الحالة أن تقودني إلى فندق... آه... ما أشد ما أشعر به من تعبٍ وإعياء.

قال شاتوف وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً:

ماري، يجب ألا تتكلمي عن فندق! ما هذه الفكرة! لماذا؟ وضمَّ يديه إحداهما إلى الأخرى.

ـ إذا كان يمكن تدبير الأمور من دون الذهاب إلى فندق، فيجب مع ذلك توضيح الموقف. تذكر يا شاتوف أننا عشنا معاً بمدينة جنيف كما يعيش رجلٌ وزوجته، مدة خمسة عشر يوماً، قبل ثلاث سنين، ثم افترقنا، بغير شجار على كل حال. ولكن لا يذهبن بك الظن إلى أنني أعود الآن لأستأنف تلك الحماقة. أنا إنما أعود لأعمل، وإذا كنت قد اخترت هذه المدينة، فلأن الأمور كلها عندي سواء. إنني غير نادمةٍ على شيء، أرجو أن لا تخطر ببالك سخافةٌ من هذا النوع.

دمدم شاتوف يقول:

ـ أوه! ماري! هذا كله لا داعي إليه، لا داعي إليه البتة!

ـ ما دام الأمر كذلك، ما دمت تملك آراء تبلغ من التقدم هذا المبلغ الذي يتيح لك أن تفهم ما أقول، فإنني أبيح لنفسي أن أضيف أنني إذا كنت قد اتجهت إليك، إذا كنت قد جئت إليك رأساً، فمما يدفعني إلى ذلك أنني لم أعددك في يوم من الأيام رجلاً حقيراً، بل لعلني عددتك في جميع الأحيان فوق جميع أولئك... الأوغاد.

كانت عيناها تلتمعان، وواضح أنها لا بد أن تكون قد تألمت كثيراً من بعض أولئك "الأوغاد".

ـ وثق أنني لم أكن أسخر منك منذ قليل حين وصفتك بأنك طيب. لقد تكلّمت بصراحةٍ، من دون اصطناع جملٍ مزوَّقة، ثم إنني أحتقر الجمل المزوقة. ولكن كفى عن هذا! لقد أمّلت دائماً أنك ستكون ذكياً ذكاءً يكفي لأن يجعلك تتركني هادئة، آه... كفى! ما أشد هذا التعب!

ونظرت إليه طويلاً، بألم، كان شاتوف واقفاً على مسافة بضع خطواتٍ منها يصغي إلى كلامها خجلَ الهيئة. ولكن وجهه كان يسطع بنورٍ جديد كمن ارتد عمره سنين عدة إلى وراء. إن هذا الرجل القوي القاسي، المشعث

دائمـاً، قـد أحس بعذوبةٍ كبيرة تنفذ فيه فجأةً. إن شـيئاً غريبـاً، غير متوقع، قد أخذ يهتز في نفسه. ثلاث سنوات من الفراق لم تكن قد محت من قلبه شيئاً. وفي خلال تلك السنوات الثلاث، لعله لم يمض يومٌ واحد من دون أن يذكر فيه هذه الإنسانة الغالية التي قالت له ذات مرة: "أحبك". إنني أعرف شاتوف معرفـةً كاملـة، فأسـتطيع أن أؤكـد واثقاً أنـه لم يحلم يومـاً أن تقول لـه امرأةٌ "أحبك". لقد كان قوي العفة شديد الحياء إلى حد التوحش، وكان يظن في نفسه بشاعةً رهيبةً، وكان يكره وجهه وطبعه، ويعد نفسه نوعاً من مسخٍ مشوهٍ خليـق بأن يُعرض فـي المعارض. لذلك كان يُنزل الشـرف فـي أعلى منزلة، ويعده أسمى من كل شيء، وكان مخلصاً لاعتقاداته إلى حد التعصب، فكان يبـدو مظلم الوجه صموتاً متكبـراً في جميع الأحيان. وها هي ذي الآن، تلك الإنسانة الوحيدة التي أحبته طوال أسبوعين (من هذا هو على يقين)، الإنسانة التـي كان يضعهـا في مقـام أعلى من مقامه بما لا نهاية لـه، مع إدراكه الكامل لأخطائها، الإنسـانة التي يغفر لها "كل شيء"، كل شيء على الإطلاق (حتى إن الأمر نقيض هذا، فإن شاتوف يحمِّل نفسه جميع الأخطاء)، هذه الإنسانة، ماري شـاتوف، ها هي ذي أمامه من جديد، بقربـه... ذلك أمر لا يكاد يُفهم. إن دهشـته تبلـغ من القـوة، وإن في هذا الحادث شـيئاً يبلغ مـن الهول ويبلغ من السـعادة فـي الوقت نفسـه، أنه كان لا يسـتطيع حتماً، ولعلـه لا يريد، أن يثوب إلى رشـده، فهو يخاف أن يفعل. هذا حلـم. ولكنه حين لاحظ نظرتها الموجعـة المرهَقة المضنـاة أدرك أن هذه المرأة تتألـم. فارتعش قلبه عندئذٍ، وتأمَّل قسـمات وجهها بعطفٍ أليـم: كانت نضارة الشـباب الأول قد زايلت هـذا الوجه المتعب منذ مدةٍ طويلة. ولكنها مع ذلك لا تزال جميلة، وهي في نظر شـاتوف لا تزال رائعة الجمال (إنها في الخامسـة والعشرين من عمرها، ممتلئة الجسـم، طويلة القامة بل هي أطول من شـاتوف، لها شـعر كسـتنائي غزير، ووجه شـاحب مسـتطيل، وعينان سـوداوان جميلتان تعانيان الآن من حمـى)، ولكـن حيويتهـا القديمـة التي تشـتمل على سـذاجة وتسـودها قلة الاكتراث، والتي يعرفها شـاتوف جيداً، قد حلت محلها الآن سـرعة الغضب

والاهتياج وحلَّ محلها نوع من الاستهتار لم تألفه حتى الآن فلا شك أنه شاق عليها. وهي الآن مريضةٌ بخاصة. رأى شاتوف ذلك واضحاً كل الوضوح. لذلك اقترب منها وأمسك يديها رغم خوفه منها. وقال لها:

ـ ماري... اسمعي... لا بد أنك متعبةٌ جداً... لا تزعلي، أتوسل إليك... ما رأيك في أن تجرعي شيئاً من الشاي، هه؟ الشاي مفيدٌ دائماً. ليتك توافقين، هه؟...

ـ أوافق طبعاً. إنك لا تزال طفلاً كما كنت. أعطني شاياً إذا كان عندك شاي ما أضيق مسكنك هنا! وما أشد البرد!

ـ آه... سأجيء بحطبٍ فوراً. عندي حطب!

كذلك هتف شاتوف وهو يتحرك ويسعى هنا وهناك. وتابع يقول:

ـ نعم... حطب... أي... وسآتيك بشاي أيضاً...

وتناول قبعته عازماً أمره.

ـ إلى أين تذهب؟ أليس عندك إذًا في البيت شاي؟

ـ سيكون عندي شاي، بعد لحظةٍ واحدة. سوف يكون عندنا كل ما يجب.

وتناول مسدسه من على الرف.

ـ سأبيع هذا المسدس... أو أرهنه.

يا للغباوة! وسيستغرق هذا زمناً طويلاً. إليك بعض النقود ما دمت لا تملك شيئاً. ههنا أربعةٌ وعشرون كوبكاً في ما أظن. ذلك كل ما معي. لكأن مسكنك مسكن رجلٍ مجنون.

ـ لا، لا، لست في حاجة إلى نقودك. أنا عائدٌ حالاً، بعد لحظة... سأدبر أمري حتى بدون المسدس!

وأسرع إلى كيريلوف. حدث هذا قبل زيارة بطرس ستيفانوفتش وليبوتين بساعتين تقريباً. إن شاتوف وكيريلوف، وهما يقيمان في مبنى واحد، كانا لا يتزاوران أبداً، وإذا اتفق أن التقيا عرضاً لم يكلم أحدهما الآخر ولم يسلِّم أحدهما على الآخر: لقد عاشا في أمريكا جنباً إلى جنب مدةً أطول مما يجب.

ـ كيريلـوف، أنـت عنـدك دائماً شـاي. فهل تسـتطيع أن تعطيني شـيئاً من الشاي وأن تعيرني السماور؟

كان كيريلـوف يسـير في الغرفة طـولاً وعرضاً على عادته (إنه يظل يسـير هكذا طول الليل)، فوقف وتأمل شاتوف بانتباه، ولكن بغير دهشةٍ كبيرة.

ـ عندي شـاي، وسـكر، ولكن لماذا السـماور؟ الشاي سـاخن: فاجلس واشرب.

ـ كيريلـوف، لقد عشـنا معاً في أمريكا... إن زوجتـي وصلت إلى بيتي... وأنا... أعطني شاياً... وإني أحتاج أيضاً إلى السماور.

ـ إذا كانـت زوجتـك قـد وصلـت فأنت في حاجـة إلى السـماور. لكنك سـتناله في ما بعد. عندي اثنان. أما الآن فخذ غلاية الشـاي من على المائدة. إنها سـاخنة، سـاخنةٌ جداً. خذ كل شيء، خذ السكر، خذ كل شيء. الخبز... عندي خبز كثير. خذ الخبز كله. وعندي أيضاً لحم عجل. وروبل.

ـ أعطني الروبل، سأرده إليك غداً. آه... كيريلوف!

ـ أهـي زوجتـك التـي كانت بسويسـرا؟ هذا حسـن. وحسـن أيضـاً إنك هرعت إليَّ.

صاح شاتوف يقول وهو يتأبط غلاية الشاي ويحمل بيديه الخبز والسكر:

ـ كيريلـوف! كيريلوف! ليتك تسـتطيع أن تتخلى عن نزواتك الرهيبة وأن تنبذ إلحادك. إذًا لصرت إنساناً كبيراً... يا كيريلوف!

ـ واضـحٌ أنك تحـب امرأتك بعد الذي حدث بسويسـرا. حسـنٌ جداً إذا احتجت إلى مزيد من الشاي فارجع إليَّ. في أية ساعة تعال. إنني أسهر الليل كله. سيكون السماور مهيأً. خذ الروبل. هذا هو. عد إلى زوجتك. سأبقى هنا وسأفكر فيك وفي زوجتك.

انقضّـت ماري شـاتوف على الشـاي بشـراهة، مسرورةً سـروراً واضحاً بسـرعة زوجها. ولكنهما لـم يحتاجا إلى السماور: فإنها لـم تشرب إلّا نصف فنجانٍ من الشـاي ولـم تزدرد إلّا قطعةً صغيرةً من الخبز. أما لحم العجل فقد نبذته مشمئزةً حانقة الهيئة.

قال شاتوف خجلاً وجلاً مع استمراره على التحرك حولها:

ـ أنت مريضة يا ماري. فيك شيءٌ مريض.

ـ طبعاً أنا مريضة. اجلس اجلس. من أين جئت بهذا الشاي؟ لم يكن عندك شاي.

شرح لها شاتوف، ببضع كلمات، من هو كيريلوف. وكانت قد سمعت عنه على كل حال.

ـ أعرف أنه مجنون. كفى، أرجوك. لا ينقصنا أغبياء. إذًا ذهبت إلى أمريكا؟ أنا أعلم أنك كتبت من هناك.

ـ نعم... كتبت... إلى باريس.

ـ كفى عن هذا الموضوع! لنتحدث عن شيء آخر! هل أنت من دعاة السلافية.

ـ أنا... ليس معنى هذا أنني... ولكن لأنني لم أستطع أن أكون روسياً، فقد أصبحت من دعاة السلافية.

قال شاتوف ذلك وهو يجبر نفسه على ابتسامة هي ابتسامة إنسانٍ يعلم أنه يمزح في غير موضع المزاح.

ـ ألست إذًا روسياً؟

ـ لا.

ـ هذه كلها سخافات. اجلس، أرجوك. ما بالك تركض هذا الركض يمنةً ويسرة؟ ألعلك تظن أنني أهذي؟ ربما هذيت بعد قليل. هل قلت إنكما في هذا المنزل اثنان لا أكثر؟

ـ نعم، اثنان... وتحت...

ـ وكلاكما ذكي كصاحبه؟ وتحت؟ لقد قلتَ منذ لحظة: "تحت"... فماذا تحت؟

ـ لا، لا شيء.

ـ كيف لا شيء؟

ـ أردت أن أقول إننا الآن اثنان لا أكثر، وتحت كانت تقيم أسرة لبيادكين.

ـ التي ذُبحت في هذه الليلة؟

ـ ألقت ماري شاتوف هذا السؤال وهي تنتصب فجأة. وتابعت تقول:

ـ سمعت عن القتلى منذ وصولي. وشبت عندكم حرائق أيضاً؟

ـ نعم يا ماري. ولعلني ارتكب دناءةً كبيرة في هذه اللحظة لأنني أغفر لأولئك الأوغاد...

قال شاتوف ذلك ونهض وأخذ يسير شاهراً قبضتي يديه في انتفاضة غضب.

ولكن ماري لم تفهمه. لقد كانت تسأل زوجها، غير أنها لا تصغي إلى أجوبته. قالت ماري:

ـ تحدث أشياءٌ جميلة في مدينتكم! آه... ما أحقر هذا كله! ليس هؤلاء جميعهم إلّا أوغاداً. ولكن لماذا لا تجلس؟ لشد ما تضايقني...

ولم تطق صبراً على ما بها، فهوت برأسها على الوسادة.

ـ ماري، سوف أجلس. تحسنين صنعاً إذا نمت يا ماري، ما رأيك؟

لم تجب ماري شاتوف وأغمضت عينيها. إنها بوجهها الشاحب أشبه بميتة. واستولى عليها الندم في تلك اللحظة نفسها تقريباً. نظر شاتوف حواليه. وقوَّم الشمعة. وبعد أن ألقى نظرةً قلقة أخيرة على المرأة الشابة، ضمَّ يديه إحداهما إلى الأخرى وخرج إلى فسحة السلم بخطى رقيقة لا يُسمع لها وقع. ولبث هنالك واقفاً قرابة عشر دقائق، ساكناً لا يتحرك، ملتفتاً بوجهه إلى الجدار. وكان يمكن أن يمكث مدةً أطول لولا أنه سمع خطى خفيفة: إن أحداً كان يصعد السلم ببطءٍ وحذر.

تذكر شاتوف أنه نسي أن يغلق باب فناء المنزل.

قال يسأل بصوتٍ خافت:

ـ مَنْ هنا؟

فلم يجب الزائر المجهول. حتى إذا وصل إلى فسحة السلم توقف. إن المرء لا يستطيع في هذا الظلام أن يميز وجهه. وها هو ذا يسأل مدمدماً على حين فجأة:

ـ إيفان شاتوف؟

فأجابه شاتوف بنعم، وأسرع يمد يده ليمنعه من الدخول. ولكن الزائر أمسك باليد الممدودة إليه، فارتعش شاتوف كأنه لامس حية. وقال بصوتٍ مختنق:

ـ ابق هنا. لا أستطيع أن أستقبلك الآن. لقد وصلت زوجتي. سأجيء بشمعة.

فلما عاد حاملاً الشمعة رأى ضابطاً شاباً لا يعرفه إلّا وجهاً.

عرَّف الآخر بنفسه قائلاً:

ـ أنا إركل. لقد التقينا عند فرجنسكي.

ـ أذكر هذا. كنت تدوِّن ما يدور من نقاش.

وظل شاتوف يتكلّم بصوتٍ خافت، وهو يقترب من الفتى خارجاً عن طوره:

ـ اسمع... أراك رسمتَ على راحة كفي إشارة. فاعلم إذًا أنني أحتقر هذه الإشارات جميعاً وابصق عليها جميعاً. إنني لا أقبل... لا أريد... إنني أستطيع أن أرميك إلى أسفل السلم، هل تعرف هذا؟

فقال الزائر بسذاجة:

ـ لا، إنني لا أعرف شيئاً. هناك شيءٌ عليَّ أن أبلغك إياه. وهذا هو السبب في أنني جئت بغير إبطاء. إن عندك آلة مطبعة ليست لك، ويجب عليك أن تردها إلى أصحابها كما تعلم ذلك أنت نفسك. لقد تلقيت أمراً بأن أقول لك إن عليك أن ترد الآلة غداً، في الساعة السابعة من المساء، إلى ليبوتين. وأنا مكلّف عدا هذا بأن أعلن لك أنك بعد ذلك لن يُطلب منك أي شيء.

ـ لن يُطلب مني أي شيء؟ أصحيح هذا حقاً؟

ـ لن يُطلب منك شيءٌ على الإطلاق. ستتحقق رغبتك، ستكون حراً. ذلك بعينه ما كُلِّفت بأن أنقله إليك.

ـ من أمرك بهذا؟

ـ الذين أبلغوني الإشارة.

ـ أأنت آتٍ من الخارج؟
ـ يخيَّل إليَّ، يخيَّل إليَّ... إنك يجب أن لا تكترث بهذا.
ـ طيب. ولكن لماذا لم تأت قبل الآن، منذ صدر إليك الأمر؟
ـ تقيدت بالتعليمات الصادرة إليَّ، ولم أكن وحدي.
ـ أفهم... أفهم أنك لم تكن وحدك. ولكن لماذا لم يجئ ليبوتين بنفسه؟
ـ سأجيء إليك غداً في الساعة السادسة من المساء، وسنمضي إلى هناك معاً، ولن يكون ثمة أحد غيرنا نحن الثلاثة.
ـ وفرخوفنسكي؟
ـ لن يكون هناك. إن فرخوفنسكي يسافر غداً في الساعة الحادية عشرة من الصباح.
دمدم شاتوف يقول محنقاً مغتاظاً وهو يلطم فخذه بقبضة يده:
ـ قدَّرت هذا. إنه يهرب، هذا الشقي!
وشرد ذهنه. وكان إركل ينتظر صامتاً، وهو يلاحظه بانتباه.
ـ ما عساكم تصنعون بالمطبعة؟ لا يمكنكم أن تحملوها في خلال المدينة على مرأى وعلم من جميع الناس.
ـ لن نأخذها. ستدلنا على المكان المدفونة فيه، فنتأكد من أنها موجودة حقاً. إننا نعرف الجهة ولكننا لا نعرف الموضع على وجه الدقة. هل سبق أن دللت أحداً على المكان؟
حدَّق إليه شاتوف متفرساً.
ـ صبي مثلك... أحمق صغير... ها أنت قد وقعت في الفخ كخروف! إنهم في حاجة إلى شباب مثلك فعلاً! طيب. انصرف الآن. إن ذلك الوغد قد ورَّطكم جميعاً، ولاذ بالفرار.
كانت هيئة إركل، المسالمة الساذجة، تدل على أنه لا يفهم.
وردَّد شاتوف يقول كازاً أسنانه:
ـ نعم، لقد هرب فرخوفنسكي، نعم، فرخوفنسكي!
قال إركل بلهجةٍ محببة مقنعة:

ـ ولكنـه لا يـزال هنـا. إنـه لم يسـافر. لقد طلبت منـه أن يحضر اسـترداد المطبعة شـاهداً، كما تقتضي ذلـك التعليمات التي صدرت إلـيَّ... فما كان أشد أسفي حين رفض ذلك بحجة السفر.

قال إركل ذلك مصطنعاً السذاجة، وأضاف:

ـ والحق أنه يتعجل السفر، لا أدري لماذا!

ألقى شـاتوف نظرة شـفقة على الغر المسكين، مرةً أخرى، ثم رفع منكبيه كأنما ليقول: "هل يستحق أن أرثي لحاله؟".

ثم أعلن قائلاً:

ـ طيب، سأجيء! والآن، هيَّا انصرف!

قال إركل وهو يحيي تحيةً مهذبة:

ـ سأتي إذًا لاصطحابك في الساعة السادسة تماماً.

وهبـط السـلم بغيـر تعجل. ولم يطق شـاتوف أن يكظم ما بنفسـه، فهتف يقول له من أعلى:

ـ مغفل!

وكان إركل قد وصل إلى تحت، فالتفت يسأله:

ـ ماذا؟

ـ لا شيء! هيَّا انصرف!

ـ ظننتك تريد أن تقول لي شيئاً.

2

إن إركل واحـدٌ مـن أولئـك "المغفليـن الصغـار" الذيـن يعجـزون عـن التفكير بأنفسـهم فينفذون أوامر غيرهم أحسـن تنفيـذ، حتى لقد يبرهنون في تنفيذها على شـيء من حسن الحيلة والمكر. إنه مخلص "للقضية" أو قل هو مخلص لفرخوفنسـكي إخلاصاً متعصباً، إخلاصاً طفولياً، فهو يتصرف وفق التعليمات التي أصدرها إليه فرخوفنسـكي عنـد "أصحابنا"، حين وزَّعوا في ما بينهم أدوار العمل في الغد. حتى إن بطرس سـتيفانوفتش فرخوفنسكي قد

انتحى به جانباً قبل الافتراق، وتحدث معه بضع دقائق. إن الطاعة حاجةٌ ملحة من حاجات هذه الطبيعة الغبية، الشرهة إلى الخضوع، باسم "قضيةٍ كبرى" أو "فكرةٍ عظيمة" طبعاً. ولكن الهدف ليس له على وجه الإجمال من شأن في هذه الحالة، لأن الشباب المتعصبين مثل إركل لا يفهمون الإخلاص لقضية إلّا بمقدار ما تكون هذه القضية متجسدة في شخصية تمثلها في نظرهم. إن إركل، على أنه حساسٌ ورقيقٌ وطيب، قد يكون أبعد هؤلاء المتآمرين عن الرأفة والرحمة، وسوف يساهم في مقتل شاتوف ربما من دون أي كرهٍ شخصي، ولكن من دون أي تردّدٍ أيضاً. لقد أوصي مثلاً بأن يلاحظ وضع شاتوف بانتباه، وحين أفلت من لسان شاتوف (ربما من دون أن يشعر بذلك) أن امرأته قد عادت إليه، كان إركل ماكراً مكراً كافياً من أجل أن يدرك أن عليه أن لا يُظهر أي فضولٍ بهذا الصدد. ومع ذلك حزر فوراً أن عودة ماري شاتوف يمكن أن تكون لها شأنٌ كبير في نجاح ما عقدوا النية على تنفيذه.

والحق أن هذا الحادث وحده هو الذي كان له الفضل في نجاة هؤلاء "الأوغاد"، وأن عودة امرأة شاتوف هي التي أتاحت لهم أن يتخلّصوا منه. إن عودة امرأة شاتوف قد قلبت شاتوف رأساً على عقب، وأخرجته عن عاداته، وجرَّدته مما عُهد فيه من محاذرة ونفاذ بصيرة. لقد غرق في مشاغله الجديدة، فأصبح الآن عاجزاً عجزاً مطلقاً عن التفكير في الخطر الذي كان معرَّضاً له. بالعكس: صار يحلو له أن يصدِّق حكاية هرب فرخوفنسكي التي تأتي مؤيدةً لجميع شكوكه أكبر تأييد.

عاد شاتوف إلى الغرفة، وجلس في ركن من الأركان، وأسند كوعيه إلى ركبتيه، وخبأ وجهه في يديه. إن خطراتٍ مُرة تعذبه.

وكان ينهض من حين إلى حين، فيمضي إلى السرير ماشياً على رؤوس الأصابع ليتأملها، فيقول محدثاً نفسه: "يا إلهي! لا شك أن حمى خبيثة ستلمُّ بها غداً، بل لعل الحمى قد بدأت! واضح أنها قد أصابها برد. إنها لم تألف هذا الجو الفظيع. ثم... الدرجة الثالثة بالقطار... والرياح في الخارج والأمطار!... إن معطفها خفيفٌ جداً!... ولا تكاد تكسوها ثياب! كيف

أتركها وأمنع عنها أية نجدة؟ وهذا الكيس... هذا الكيس الصغير، الخفيف، الذي لا يزيد وزنه على عشرة أرطال... في أكثر تقدير! مسكينة... كم تعذبت! كم احتملت من آلام! ولكنها ذات كبرياء، لذلك لا تتشكى! غير أنها غاضبةٌ محنقة! ما أشد حنقها! الذنب في هذا ذنب مرضها! المرض يجعل حتى الملائكة شديدي الحنق! لا بد أن جبينها محترقٌ جاف. ويا لهذه الهالة الزرقاء حول عينيها! و... ومع ذلك ما أجمل استدارة وجهها المستطيل! وهذا الشعر الرائع!..."

قال ذلك محدثاً نفسه ثم حوَّل عينيه بأقصى سرعة، وابتعد مروَّعًا من مجرد أن يرى فيها أكثر من إنسانة شقية معنَّاة مضناة يجب إسعافها. "هل يمكن أن تساور المرء آمال في مثل هذه اللحظة؟!... ما أدنأ الرجل و ما أسفله!".

ورجع إلى ركنه، وجلس ثانيةً، ودفن وجهه في يديه من جديد، واسترسل في الأحلام، والذكريات... وعادت الأحلام تنبعث في نفسه.

"آه... ما أشد ما أشعر به من تعب!" تذكر شاتوف هذه الصيحة، وتذكّر الصوت الضعيف المحطم. "رباه! كيف يمكنني أن أتركها في مثل هذه اللحظة! إنها لا تملك إلّا أربعة وعشرين كوبكاً. وقد مدت إليَّ محفظة نقودها، الصغيرة، العتيقة الرثة! إنها تبحث عن عمل... ماذا تعرف عما يجري هنا، بل ماذا يعرفون جميعاً عن روسيا؟ أطفال سذَّج أغرار يستطيعون الاسترسال في الأخيلة والأوهام! يا للمسكينة! إنها تغضب لأن روسيا لا تشبه الفكرة التي قامت في ذهنها عنها وهي في الخارج! مساكين! سذج أبرياء! ولكن... حقاً إن البرد هنا شديد!...".

تذكّر أنها اشتكت من البرد، وأنه وعد بإيقاد المدفأة. "عندي حطب. في وسعي أن أُصعده. بشرط أن لا أوقظها! سأحاول. وما العمل بلحم العجل؟ قد تأكل منه حين تستيقظ... سوف نرى! إن كيريلوف يظل ساهراً طول الليل! بأي شيءٍ يمكنني أن أغطيها؟ إنها نائمة نوماً عميقاً، ولكن لا شك في أنها تحس ببرد، ببردٍ شديد...".

دنا من السرير مرةً أخرى. كان ثوب المرأة الشابة مشموراً بعض الشيء فكانت ساقها اليمنى مكشوفة حتى الركبة. فتقهقر شاتوف بحركةٍ مفاجئة، كأنه أحس برعب، ونضا عن جسمه معطفه (محتفظاً بردنجوته وحده)، فغطى به ساقيها مشيحاً بعينيه عن النائمة.

هذه الأمور كلها ـ الاسترسال في الأحلام، التأمل، إيقاد المدفأة، السير في الغرفة ذهاباً و إياباً على رؤوس الأصابع ـ قد استغرقت ساعتين أو ثلاث ساعات جاء فرخوفنسكي وليبوتين في أثنائها إلى عند كيريلوف. ونام شاتوف أخيراً في ركنه. وانطلقت من صدر ماري أنةٌ على حين فجأة، لقد استيقظت من نومها ونادته. فانتفض كما ينتفض مجرم.

ـ ماري... لقد نمت... ما أشقاني يا ماري!

نهضت ماري، ونظرت حولها مدهوشة، فلعلها كانت لا تدرك أين هي! وها هي ذي تضطرب على حين فجأة، مستاءةً غاضبةً، وصاحت تقول له:

ـ لقد استوليت على سريرك. وغلبني النوم فنمت، ولكن لماذا لم توقظني؟ كيف أبحت لنفسك أن تظن أنني أريد أن أكون عالةً عليك؟

ـ هل كان يمكنني أن أوقظك يا ماري؟

ـ نعم، كان يمكنك أن توقظني، بل كان يجب عليك أن توقظني. ليس عندك إلّا سريرٌ واحد استوليت أنا عليه، فما ينبغي لك أن تضعني في موقفٍ خطأ! أتُراك تظن أنني أنتوي استغلال حسناتك؟ استرد سريرك فوراً، وسأرقد أنا على كراسي...

ـ ماري، ليس عندي كراسٍ كافية. ثم ليس عندي ما أضعه عليها.

ـ إذًا سأرقد على أرض الغرفة. وإلا سيكون عليك أنت أن ترقد على أرض الغرفة. سأنام على أرض الغرفة حالاً.

ونهضت، وتقدمت خطوة، إلّا أن آلام مغصٍ شديد قد جرَّدتها فوراً من كل قوة، ومن كل عزيمة، فعادت تتهالك على الكرسي في أنين. فهرع شاتوف إليها، ولكن ماري أمسكت يده، وشدت على هذه اليد شداً قوياً يكاد يهشمها، وهي تدفن رأسها في الوسادة.

ـ ماري، عزيزتي، إن الدكتور فرنتزل قريبٌ جداً من هنا. وأنا أعرفه جيداً... ففي وسعي أن أستدعيه.

ـ دعني و شأني!

ـ أين ألمك يا ماري، قولي لي! في إمكاننا أن نضع لك كماداتٍ ساخنة... على البطن. لا حاجة إلى طبيب من أجل هذا... أم تؤثرين قليلاً من دواء الخردل.

ـ سألته بصوتٍ غريب:

ـ ما هذا الكلام؟

ورفعت رأسها ونظرت إليه مرتاعةً.

قال شاتوف مدهوشاً:

ـ ماذا تعنين يا ماري؟ رباه! لقد فقدت عقلي تماماً. ماري، سامحيني. ولكنني لا أفهم شيئاً البتة.

ـ دعني. ليس هذا شأنك. بل إنه ليكون أمراً سخيفاً مضحكاً من جهتك أن...

وابتسمت بمرارةٍ.

وأردفت تقول:

ـ اقصص عليَّ شيئاً. امش وتكلم. إنني أطلب منك هذا للمرة المائة.

أخذ شاتوف يسير في الغرفة طولاً وعرضاً، محاولاً أن لا يرفع عينيه نحو المرأة الشابة.

ـ يوجد هنا ـ لا تزعلي يا ماري، أرجوك ـ يوجد هنا شيء من لحم العجل وقليلٌ من الشاي. إنك لم تأكلي إلّا قليلاً جداً...

فحركت ماري يدها بإشارة اشمئزاز وتقزز. فعضَّ شاتوف على شفتيه.

قالت ماري:

ـ اسمع. إنني أنتوي أن أفتتح هنا ورشة تجليد أقيمها على أسس الاشتراك المبنيِّ على العقل. فقل لي: ما رأيك؟ أأنجح أم أخفق؟

ـ لكن الناس عندنا لا تقرأ يا ماري. ولا توجد كتب. أنَّى له "هو" أن يفكر في تجليد الكتب؟

ـ من "هو"؟

ـ القارئ. ساكن هذا المدينة يا ماري.

ـ هـلا تكلمت بوضوح. ما معنى قولـك "هو"؟ من هو؟ ألا تعرف قواعد النحو؟

دمدم شاتوف يقول متلعثماً:

ـ هذا في روح اللغة يا ماري.

ـ دعني من الروح هذه. أرحني من كلامك. لقد سئمت. ولماذا لا يجلّد القارئ هنا كتبه؟ لماذا لا يجلد ساكن هذه المدينة كتبه؟

ـ لأن قراءة كتاب وتجليده مرحلتان من مراحل الحضارة تضم كل منهما فترةً طويلة. ففي البداية يتعلم الإنسان القراءة، شيئاً فشيئاً، خلال عدة قرون، ولكنه لا يعتني بكتبه أي اعتناء، بل يعاملها معاملة شيءٍ ليس له أي قيمة، أما تجليـد الكتـاب فهو علامة على أن الكتاب أصبح يحظـى باحترام، وهو يدل علـى أن الإنسـان أصبح لا يحب أن يقرأ فحسـب، بل علـى أنه أصبح يعرف مـا للقراءة من عظيم الشـأن. إن روسـيا لم تبلغ هذه المرحلـة حتى الآن. أما أوروبا فإنها تجلّد الكتب منذ مدةٍ طويلة.

قالت ماري:

ـ رغـم لهجتك المتعالمة المتفيهقة، فإن ما تقوله ليس غبياً، وهو يذكرني بالأحاديث التي كانت تقوم بيننا منذ ثلاث سنين. لقد كنت لمّاح الفكر أحياناً قبل ثلاث سنين.

نطقـت ماري هـذه الكلمات بتلك اللهجة نفسـها التي تكلمـت بها حتى تلك اللحظة، وهي لهجة فيها اشمئزاز، وفيها جموحٌ ونزوة.

عاد شاتوف يتكلم فقال في حنان:

ـ مـاري، مـاري! أوه! ماري! ليتـك تعرفين جميع التغيـرات التي حدثت منذ ثلاث سـنين حتى الآن! لقد سـمعت عنك أنك تحتقرينني لأنني تخليت

عن اعتقاداتي السابقة! وهل تعلمين ما الذي أصبحت أنبذه وأرفضه؟ لقد أصبحت أنبذ أعداء الحياة الحية، صرت أرفض اللبراليين الصغار المتخلّفين الذين يخشون استقلال أنفسهم، صرت أنبذ العبيد من أدعياء الفكر، وصرت أنبذ أعداء الحرية والشخصية، وصرت أنبذ أولئك المنحطين من دعاة التحلل والفساد والتفسخ. ماذا نجد عند هؤلاء؟ إننا نجد عندهم التردي، والتفاهة، والسخف في أحقر أشكاله وأكثرها بورجوازية، ونجد مساواة الحسد، المساواة الخالية من الكرامة الشخصية، المساواة كما يتصورها خادمٌ أو كما كان يتصورها فرنسيٌّ عام 93... والأنكى من ذلك أنهم جميعاً ليسوا إلّا أوغاداً، أوغاداً، أوغاداً!...

دمدمت ماري تقول بصوتٍ فيه ألم:

ـ نعم، هناك أوغادٌ كثر...

كانت مستلقية استلقاءً تاماً، على الجنب قليلاً، كأنها تخاف أن تتحرك، محدقةً إلى السقف بنظرة ثابتة محمومة. وكان وجهها شاحباً وكانت شفتاها يابستين محترقتين.

قال شاتوف:

ـ أتسلِّمين إذًا بهذا يا ماري؟ أتسلِّمين به؟

فهمَّت أن تحرك يدها بإشارة إنكار، غير أن مغصاً جديداً عقف جسمها فجأةً، فهرع إليها شاتوف كالمجنون من الذعر، فشدت على يده بكل ما تملك من قوة، دافنةً وجهها في الوسادة، كما فعلت في المرة الأولى.

ـ ماري، ماري! قد يكون مرضك خطيراً! ماري!

فصرخت تقول بما يشبه الغضب الحانق وهي تدير ظهرها:

ـ اسكت... لا أريد! لا أريد! إنني أمنعك من أن تنظر إليَّ هكذا. إنني لا أريد شفقتك. إنني أرفض هذه الشفقة. امش، تكلم، قل أي شيء!...

كان شاتوف كمن ضاع عقله تماماً، فدمدم ببضع كلمات غير متميزة.

فقاطعته سائلةً بصوتٍ منزعج:

ـ ما الذي تعمله هنا؟

ـ أعمل في مكاتب تاجرٍ من التجار. ولو شئت يا ماري لكسبت هنا مالاً كثيراً.

ـ هنيئاً لك به...

ـ لا تتخيلي يا ماري أنني... أنا لم أقصد شيئاً البتة...

ـ وماذا تعمل أيضاً؟ إلى ماذا تدعو؟ إنك لا تستطيع الامتناع عن الدعوة إلى شيءٍ ما: ذلك في طبعك.

ـ أدعو إلى الله يا ماري.

ـ الذي لا تؤمن به أنت نفسك. إنني لم أستطع أن أفهم هذه الفكرة في يومٍ من الأيام.

ـ دعينا من هذا يا ماري. سوف نتحدث عنه في ما بعد.

ـ ماذا كانت ماريا تيموفئفنا تلك؟

ـ هذا أيضاً ندعه الآن ونتحدث عنه في ما بعد.

ـ أمنعك من أن تكلمني بهذه الطريقة! هل صحيح أن جريمة القتل هذه إنما هي من صنع أولئك... الأوغاد.

ـ بدون أي شك يا ماري.

قال شاتوف ذلك كازاً أسنانه. فأنهضت ماري رأسها، وهتفت تقول له:

ـ أمنعك من أن تحدثني عن هذه الأمور أبداً... أبداً...

وتهالكت على السرير وقد وافتها آلام أخرى عنيفة. هذه ثالث نوبة. غير أن الأنّات في هذه المرة قد أصبحت صرخات.

قالت:

ـ آه... إنك لا تُطاق! لا تطاق!

وكانت تتخبط وتدفع عنها شاتوف الذي مال عليها.

قال لها شاتوف:

ـ ماري، سأفعل ما تريدين، سأمشي وأتكلم...

ـ ولكن ألا ترى إذًا أنّ الأمر بدأ؟

ـ الأمر بدأ؟ أي أمرٍ بدأ؟

ـ لا أعرف! لا أفهم شيئاً! آه... لعنة الله عليَّ... لعنة الله على كل شيء!

ـ ماري، ليتك تقولين لي ما هو الأمر الذي بدأ... إذ ماذا أستطع أن أفعل؟... إنني لا أفهم...

ـ أنت رجلٌ ثرثار لا فائدة منه، أنت مغرور متفيهق... آه... ألا لعنة الله عليكم جميعاً!...

ـ ماري! ماري!

وأخذ يعتقد أنها جُنَّت.

فنهضت ماري نصف نهوض ونظرت إليه، وقالت له:

ـ ألست ترى إذًا أنني في مخاض؟

وكان الكره والألم قد قلبا وجهها. وأردفت تقول:

ـ ألا فلتحل اللعنة على هذا الولد!

هتف شاتوف يقول وقد أدرك أخيراً ما يحدث:

ـ ماري! ماري! لماذا لم تقولي لي قبل الآن؟

وتناول قبعته بحركةٍ حازمة. قالت ماري تجيبه:

ـ وهل كنت أعرف ذلك حين دخلت إلى هنا؟ أكنت أجيء إليك لو كنت أعلمه؟ لقد قيل لي إنني لن ألد إلّا بعد عشرة أيام. إلى أين تذهب؟ إلى أين تذهب؟ إنني أمنعك...

ـ سأجيء بمولِّدة. سوف أبيع مسدسي. نحن الآن في حاجةٍ إلى المال قبل كل شيء.

ـ أمنعك من أن تفعل أي شيء. لا أريد مولِّدة... تكفيني أية امرأة عجوز. لا يزال معي أربعة وعشرون كوبكاً في محفظة نقودي... الفلاحات يستغنين عن المولِّدة. وإذا فطست، كان ذلك أفضل...

ـ سأجيء بامرأة عجوز، وبمولِّدةٍ أيضاً. ولكن كيف أتركك وحيدةً يا ماري؟

لكنه وقد قدَّر أن تركها الآن وحيدةً خيرٌ من تركها وحيدةً بعد حين، هُرع يهبط السلم مسرعاً، لا يلتفت إلى أنَّاتها وصرخاتها.

3

دخل شـاتوف أولاً على كيريلوف. كانت السـاعة قريبةً مـن الواحدة. إن كيريلوف واقفٌ في وسط غرفته.

ـ كيريلوف، امرأتي تلد.

ـ كيف؟

ـ تلد. سوف تلد ولداً.

ـ أأنت متأكد؟

ـ نعـم، الآلام بـدأت. هي فـي حاجةٍ إلى امـرأةٍ عجوز ما... فـوراً... هل يمكننا العثور على واحدة؟ كان هنا عجائز كثيرات...

قال كيريلوف:

ـ يؤسـفني أني لا أُحسن التوليد... أقصد لا أعرف كيف يكون التوليد... أوه!... إنني لا أهتدي إلى الكلمات التي تعبِّر عن قصدي.

ـ تريد أن تقول أنك لا تسـتطيع أن تسـاعد امرأةً تلـد. ولكن ليس هذا هو الأمر. ما نحن في حاجةٍ إليه إنما هو امرأةٌ عجوز، خادمة، ممرِّضة...

ـ سـنأتي بواحدةٍ. ولكن قد لا تسـتطيع إحضارها فوراً. أسـتطيع أن أحلَّ محلَّها إذا شئت.

ـ أوه! مستحيل. أنا ذاهبٌ فوراً إلى عند المولِّدة فرجنسكي.

ـ حقيرة!

ـ نعم يا كيريلوف، لكنها خير مولِّدة. صحيح أن كل شـيء سيجري معها بغيـر رأفة، وبغير فـرح، وبغير حب، صحيح أنها فظة غليظـة القلب. آه... ما أكبـره من سـرٍ مـع ذلك أن يولد كائـنٌ جديد! وما أعجب مـاري إذ تلعنه منذ الآن!...

ـ إذا شئت فإنني...

ـ لا، لا، ولكن أثناء غيابي (نعم، سأجيء بها هذه الفرجنسكي) اصعـد أنت إلى غرفتي من حينٍ إلى حين، وتنصَّت من خلال الباب على

ما يجري. ولكن لا تدخل، لأنك سترعبها إذا دخلت. لا تدخل أبداً. تنصَّت فقط. لا يعرف المرء ماذا يمكن أن يحدث. فإذا سمعت شيئاً رهيباً يحدث، فادخل عند ذاك.

- فهمت. إليك هذا الروبل أيضاً. كنت أريد أن آكل في الغد دجاجةً. أما الآن فقد صرفت النظر عن ذلك. اركض بسرعةٍ، اركض بكل ما تملك من قوة. سيظل السماور يغلي طول الليل.

كان كيريلوف يجهل كل شيءٍ عن المؤامرة المبيتة لشاتوف. بل إنه كان لا يخطر بباله الخطر الذي يتعرّض له شاتوف. كل ما كان يعرفه هو أن بين "هؤلاء الناس" وبين شاتوف حسابات قديمة. ومع ذلك كان قد أُقحم بعض الإقحام في هذه القضية، على أثر تعليمات تلقاها في الخارج (وهي على كل حال تعليمات مبهمة وسطحية، لأن كيريلوف قد ظل دائماً في خارج الجمعية)، ولكنه في الآونة الأخيرة كان قد ترك كل شيء، وتحرّر من جميع المهمات، ونأى بنفسه عن كل أمرٍ من الأمور، ولا سيما "العمل المشترك"، وانصرف انصرافاً تاماً إلى حياة التأمل وحدها. لذلك فرغم أن فرخوفنسكي قد جاء إلى كيريلوف مع ليبوتين بغية أن يقتنع ليبوتين بأن كيريلوف سيرضى أن ينسب إلى نفسه مقتل شاتوف، فإن بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي لم يقل لكيريلوف كلمةً واحدةً عن هذه القضية، مقدِّراً أن ذلك خطرٌ، لأن كيريلوف ليس بالرجل الذي يوثق به ويُطمأن إليه. وهكذا آثر أن يرجئ الإيضاحات إلى الغد، وأن يضع كيريلوف أمام الأمر الواقع. كان فرخوفنسكي يقول لنفسه: إن كيريلوف ستستوي عنده جميع الأمور في تلك اللحظة. وقد لاحظ ليبوتين جيداً أن فرخوفنسكي لم يجئ على ذكر شاتوف عند كيريلوف، رغم الوعد الذي بذله "لأصحابنا". ولكن ليبوتين كان عندئذٍ أكبر اضطراباً وأشد انفعالاً من أن يعترض أو يحتج.

ركض شاتوف إلى شارع "النملة" بسرعة الريح، لاعناً طول الطريق شاعراً بأنه لن يصل إلى نهايته.

وكان أفراد أسرة فرجنسكي قد ناموا جميعاً منذ مدة طويلة حين طرق

شـاتوف بابهـم. فلما لـم يتلقَّ أي جواب أخـذ يضرب مصـراع الباب بقبضة يده ضرباتٍ قوية. فأخذ كلب من كلاب الحراسـة في فناء المنزل ينبح نباحاً شـديداً حانقاً، وهو يجر سلسلته. وطفقت كلاب الشارع كلها تردُّ على نباحه بنباح مثله فوراً. فكانت جلبة رهيبة.

وفتحت كوة النافذة أخيراً.

ـ ما بالك تطرق الباب هذا الطرق، وماذا تريد؟

إنه فرجنسكي، الذي يتعارض صوته الرقيق تعارضاً واضحاً مع الضوضاء الشديدة.

وعـلا صـوتٌ صـارخ غاضب حانق يسـأل منسـجماً فـي هـذه المرة مع الظروف، هو صوت أخت زوجة فرجنسكي، العانس:

ـ من الطارق؟ من هذا الوغد؟

ـ أنا شاتوف. امرأتي عادت، وقد جاءها المخاض فهي تلد...

ـ طيب. مع السلامة.

ـ جئت سـاعياً إلى أرينا بروخوروفنا أريد اصطحابها، ولن أنصرف بدون آرينا بروخوروفنا.

ـ إنهـا لا تستطيع أن تذهـب إلـى أي بيت. ولا يحـق لجميـع الزبائن أن يوقظوها في الليل. اذهب إلى ماكشايفنا، ودعنا وشأننا.

كذلك صرخت العانس ساخطةً. وكان يُسمع مع ذلك أن فرجنسكي كان يحاول أن يسكتها، ولكنها كانت تدفعه عنها ولا تدع له أن يتكلم.

صرخ شاتوف يقول مكرراً:

ـ لن أنصرف.

فأجابـه فرجنسـكي الـذي اسـتطاع أخيراً أن يبعـد أخت زوجتـه عن كوة النافذة:

ـ انتظر! انتظر! أرجوكِ يا شاتوف، انتظر خمس دقائق، وسوف أوقظ آرينا بروخوروفنا... ولكن كفاك طرقاً ونداءً. هذا فظيع!

وبعـد دقائق خمس أحسَّـها شـاتوف دهراً، ظهرت آرينـا بروخوروفنا في النافذة.

قالت له من الكوة تسأله:

ـ أرجعت زوجتك إليك؟

فما كان أشـدَّ دهشـته من أن صوتها لـم يكن غاضباً، كان صارماً فحسب! الحق أن آرينا بروخوروفنا لا تستطيع أن تتكلّم بغير هذه الطريقة.

قال يجيبها:

ـ نعم رجعت. وهي الآن تلد.

ـ ماريا أجناتيفنا؟

ـ نعم، ماريا أجناتيفنا طبعاً.

وساد صمت. كان شاتوف ينتظر. وسمع تهامس وراء الزجاج.

سألت السيدة فرجنسكي:

ـ هل وصلت منذ مدةٍ طويلة؟

ـ هذا المساء، الساعة الثامنة. تعالي بسرعة، أرجوك...

واستؤنف التهامس: لعلهم يتشاورون.

ـ ألست مخطئاً؟ أهي التي أرسلتك؟

ـ لا، لم ترسلني إليك. لقد طلبت أية امرأةٍ عجوز، حتى لا تتكلّف نفقات. ولكن لا تخافي. سأدفع لك.

ـ طيـب. سـأجيء، سـواء أدفعـت أم لـم تدفـع. لطالما قـدرت العواطف الاستقلالية لدى ماريا أجناتيفنا، رغم أنها لا تتذكرني أغلب الظن. هل عندك الأشياء الضرورية في البيت؟

ـ لا، ليس عندي شيء، ولكن يمكن إحضار أي شيء...

حدّث شـاتوف نفسـه قائلاً وهو يتجـه إلى بيت ليامشـين: "هؤلاء الناس قـادرون على الكـرم مع ذلك. إن الإنسـان وأفكاره شـيئان مختلفان اختلافاً كبيراً، فيما يخيَّل إليَّ. لعلني مخطئ كثيراً في حقهم... جميع البشر مذنبون... جميعهم يخطئون... ولكن ليتهم يدركون ذلك!...".

لم يحتج شاتوف إلى أن يطرق باب ليامشين مدةً طويلة. وما كان أشد دهشته حين رأى ليامشين يفتح الكوة على الفور تقريباً: لقد قفز من سريره حافي القدمين متعرضاً للإصابة بالبرد، رغم أنه رهيف العناية بنفسه شديد الاهتمام بصحته. غير أن تعجله كان له في تلك اللحظة سببٌ خاص: إنه منذ الاجتماع الذي عقده أصحابنا يحس باضطرابٍ شديدٍ وقلق عنيف فلا يستطيع أن ينام. كان يرتعد خوفاً، وينتظر في كل لحظة ظهور زوار لا يرغب في زيارتهم. وكان الشيء الذي يعذبه خاصةً هو وشاية شاتوف التي كان لا يشك في أن شاتوف مقدم عليها لا محالة. وهذا بابه يُطرق طرقاً قوياً.

فلما لمح شاتوف بلغ من الرعب أنه أوصد الكوة ورجع إلى سريره.

وعاد شاتوف يطرق الباب ويصرخ.

صاح ليامشين يقول بصوتٍ مهدِّد متوعِّد ولكنه كان يرتعد خوفاً، صاح يقول بعد دقيقتين حين قرر أن يفتح الكوة واستطاع أن يقتنع بأن شاتوف وحيدٌ ليس معه أحد:

ـ كيف تجرؤ أن تحدث هذه الجلبة كلها في الليل؟

ـ هذا مسدسك، خذه وأعطني خمسة عشر روبلاً.

ـ ما معنى هذا؟ أأنت سكران؟ هذا عمل خليق باللصوص وقطّاع الطرق. سوف يصيبني زكام. انتظر قليلاً، ريثما أتدثر بمعطف.

ـ أعطني خمسة عشر روبلاً على الفور. وإلا ظللت أصرخ وأطرق الباب إلى الصباح. لسوف أحطم النافذة.

ـ وأنا سأصرخ مستنجداً، فتُسجن.

ـ أتظن أنني سأظل أخرس فلا أستدعي الشرطة؟ من منا نحن الاثنين أحرى بأن يخاف الشرطة، أأنا أم أنت؟

ـ كيف يمكن أن تراودك أفكار دنيئة هذه الدناءة كلها!... إنني أعرف إلى ماذا تلمح. انتظر. انتظر. لا تطرق الباب. رحماك! هل يمكن أن يملك المرء في بيته ليلاً مبالغ ضخمة كالتي تطلبها؟ وما حاجتك إلى المال إذا لم تكن سكراناً؟

ـ إن امرأتي رجعت. لقد خفَّضت لك عشرة روبلات. ولم أطلق من المسدس رصاصةً واحدةً. استردَّ المسدس. استردَّه فوراً. في هذه اللحظة!

مدَّ ليامشين يده من الكوة بحركة آلية وأخذ المسدس. ولكنه بعد لحظة تفكير أطلَّ برأسه مرةً أخرى ودمدم يقول زائغ الهيئة مرتعشاً كل الارتعاش:

ـ أنت تكذب. لم ترجع امرأتك... كل ما هنالك أنك تريد أن تهرب.

ـ يا لك من غبي أبله! لماذا عساني أهرب؟ إن صاحبك بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي هو الذي يهرب، لا أنا. لقد ذهبت إلى زوجة فرجنسكي ورضيت أن تأتي. اسأل. إن زوجتي تلد. أنا في حاجةٍ إلى مال. أعطني خمسة عشر روبلاً.

ها هي ذي نيرانٌ من أفكار متناثرة تنتشر في رأس ليامشين. إن الموقف يبدو له في ضوءٍ جديد كل الجدة على حين فجأة. ولكن الخوف زاد عقله ظلاماً.

ـ ولكن كيف هذا؟... إنك لم تكن تعيش مع امرأتك!

ـ سأحطم رأسك إذا ألقيت أسئلةً كهذه!

ـ أوه! سامحني. فهمت. ولكن ذلك النبأ قد أدهشني... فهمت... فهمت... ولكن هل رضيت آرينا بروخوروفنا أن تجيء حقاً؟ لقد زعمت في البداية أنها عندك منذ الآن. ألم يكن صحيحاً إذًا؟ أرأيت كم تكذب في كل لحظة؟

ـ لا شك أنها الآن عند امرأتي. لا تؤخرني. ليس ذنبي أنا أنك غبيٌّ أبله.

ـ لا، لست غبياً. هذا غير صحيح. معذرةً، يستحيل عليَّ تماماً أن...

قال ليامشين ذلك، وفقد صوابه من جديد، فعاد يغلق الكوة. ولكن شاتوف أطلق صرخات بلغت من القوة أن ليامشين ظهر ثانيةً.

ـ هذا اعتداءٌ عليَّ... لا أكثر و لا أقل! ماذا تريد مني؟ هيَّا، قل، ماذا تريد مني؟ أفصح عن مرادك. ولاحظ، لاحظ أن الوقت ليل.

ـ أريد خمسة عشر روبلاً يا حمار!

ـ ولكن ربما كنت لا أريد استرداد المسدس. ليس هذا من حقك إنك قد

اشتريت وانتهى الأمر، فليس من حقك أن ترد ما اشتريت. لست أملك مبلغاً كهذا المبلغ ليلاً. أين لي بمثل هذا المبلغ الآن؟ من أين عساني أجيئك به؟

ـ لا يخلو بيتك من مالٍ أبداً. لقد تنازلت لك عن عشرة روبلات، ولكن جشعك أمرٌ معروفٌ جداً.

ـ تعال بعد غد. هل فهمت؟ بعد غد صباحاً، عند الظهر تماماً، فأرد إليك كل شيء، كل شيء، هه؟

عاد شاتوف يضرب بقبضة يده إطار النافذة ضرباتٍ قوية. ثم قال:

ـ أعطني عشرة روبلات حالاً، ثم تعطيني الباقي غداً في الصباح.

ـ لا بل خمسة روبلات بعد غد في الصباح. أما غداً، فمستحيلٌ مستحيلٌ كل الاستحالة. لا فائدة من مجيئك غداً، لا فائدة البتة!

ـ هات عشرة روبلات يا حقير!

ـ لماذا تشتمني و تهينني؟ انتظر حتى أشعل شمعة. لقد كسرت مربع الزجاج. يا لها من فكرة أن يجيء المرء إلى الناس ليلاً لإهانتهم! خذ!

قال ليامشين ذلك ومدَّ إلى شاتوف ورقة نقدية.

تناول شاتوف الورقة، إنها خمسة روبلات.

قال له ليامشين:

ـ أحلف لك أنني لا أستطيع أن أعطيك أكثر من هذا. اقتلني إذا شئت. ولكن هذا كل ما أملك أن أعطيك. بعد غدٍ، ممكن. أما الآن، فلا...

أعول شاتوف قائلاً:

ـ لن أنصرف!

ـ طيب. خذ أيضاً. هاتان ورقتان. ولكن ذلك كل شيء. اصرخ ما شئت أن تصرخ، فلن أعطيك شيئاً آخر... لا... لا... لا!...

كان يشعر بكربٍ رهيب، وكان العرق يتصبّب منه.

نظر شاتوف في الورقتين النقديتين. إن كلاً منهما روبلٌ واحد. فمجموع ما قبضه إذًا سبعة روبلات.

قال شاتوف:

- شيطانٌ يأخذك! سأعود غداً يا ليامشين، ولأقتلنك إذا لم تكن قد أعددت لي الثمانية روبلات الباقية.

فحدث ليامشين نفسه قائلاً: "وأنا لن اكون غداً في البيت أيها الغبي!".

وصاح يقول لشاتوف الذي كان قد أخذ يركض مسرعاً:

- انتظر لحظة، انتظر. ارجع. قل لي: هل رجعت إليك زوجتك حقاً؟

فأجابه شاتوف قائلاً:

- غبي!

4

كانت آرينا بروخوروفنا لا تعلم شيئاً عن القرارات التي اتّخذت أمس في الاجتماع. ذلك أن فرجنسكي، حين عاد إلى البيت، وكان مصعوقاً، لم يجرؤ أن يحدث امرأته في الأمر. لكنه في صباح الغد لم يطق صبراً فروى لها جزءاً مما يعرف، أي قال لها إن المعلومات المتوفرة لدى فرخوفنسكي تشير إلى أن شاتوف يستعد لأن يشي بالجميع. ولكن فرجنسكي حرص على أن يضيف إلى ذلك قوله إنه من جهته لا يصدِّق هذه الدعوى كثيراً. ومع هذا شعرت آرينا بروخوروفنا برعبٍ شديد. وذلك هو السبب في أنها، رغم تعبها الشديد كل الشدة بسبب إشرافها في الليلة البارحة على ولادة عسرة، قد قررت أن تذهب إلى شاتوف بلا إبطاء حين سعى إليها شاتوف طالباً معونتها. لقد كانت دائماً مقتنعة بأن رجلاً إمَّعة مثل شاتوف لا يتورّع أي تورّع عن ارتكاب دناءة من هذا النوع، ولكن وصول ماريا أجناتيفنا يبدل الوضع تبديلاً كاملاً. إن ذعر شاتوف، وكربه، ويأسه، وتوسله، وضراعته، إن ذلك كله يدل على أن عواطف الخائن قد تغيرت: إن رجلاً يقرر تسليم نفسه لا لشيء غير تضييع الآخرين، لا يمكن أن يكون وجهه هذا الوجه، ولا يمكن أن تكون لهجته هذه اللهجة. كذلك كانت تقول لنفسها آرينا بروخوروفنا. الخلاصة: لقد قررت أن ترى كل شيء بعيني رأسها، وأن تعرف كل شيء بنفسها. وقد سُرَّ فرجنسكي كثيراً من قرارها هذا. حتى لقد شعر بأنه يتخفف من حملٍ

ثقيـل، بل إنه أخـذ الآن يأمل خيراً: إن وضع شـاتوف يتعـارض تعارضاً تاماً مطلقاً مع شكوك فرخوفنسكي.

لـم يخطئ شـاتوف: فحين وصل إلـى البيت كانت آرينـا بروخوروفنا قد سبقته إليه. وقد بـادرت آرينا بروخوروفنـا منذ وصولها إلى طـرد كيريلوف الـذي كان يترقب عند أسـفل السـلم. ولـم تشـأ المريضة أن تتعـرف المولِّدة على أنها من قدامى الأصحاب. كانت في حالةٍ نفسـية سيئةٍ جداً، فهي شريرة شرسـة ساخطة قد اسـتبد بها وسـيطر عليها "يأسٌ فيه جبن لا مثيل له"، على حد تعبير آرينا بروخوروفنا. ولكن آرينا لم تلبث أن طوَّعتها بعد خمس دقائق في أكثر تقدير.

وحين دخل شاتوف كانت تقول لها:

ـ مـا بالـك تكررين أنـك لا تريدين مولِّـدة باهظة الأجور؟ هذه سـخافة، هذه آراء فاسدة ناشئة عن حالتك التي ليست حالة طبيعية سليمة. إذا جاءتك امرأة عجوز ما، فمن الجائز أن تجري الأمور مجرى سيئاً. هذا أحد احتمالين متسـاويين قوةً. ثم إنك قد تقعين في مشـاكل وتدفعين نفقاتٍ ضخمة إذا لم تتعهدك مولِّدة ماهرة تزعمين أنها باهظة التكاليف. ثم من قال لك إن أجوري غالية؟ سـوف تدفعين لي في المستقبل، ولن أطلب منك كثيراً. وأنا من جهة أخـرى أضمن لك النجاح والسـلامة. لـن تموتي بين يدي. مـا أكثر ما رأيت من حالاتٍ كحالتك! أما الولد فسـأحمله منذ الغد إلى ملجأ، ثم نعهد به إلى مرضعٍ في الريف، فينتهي كل شـيء. حتى إذا شُـفيت وجدت عملاً، فما هو إلّا وقتٌ قصير حتى تكونين قد عوَّضت شاتوف أجور الإقامة والنفقات التي لن تكون ضخمة إلى الحد الذي تتصورين...

ـ لا يحق لي أن أكون عالةً عليه...

ـ هذه عواطف معقولة ومشـاعرُ نبيلة. ولكن ثقي أن شـاتوف لن يتكبد أية نفقة إذا هو رضي أن يترك أوهامه وأخيلته وأن يعتنق آراءً أسلم وأصح. يكفي أن لا يرتكب حماقات، أن لا يجري في المدينة مدلِّياً لسانه نافخاً في بوق. إن شاتوف، إذا لم يحتجز بالقوة، لن يتورع عن الذهاب منذ الغد إلى جميع أطباء

المدينة بغية اصطحابهم إليك. عندي أنا، أهاج جميع كلاب الحي. لست في حاجةٍ إلى طبيب. قلت لك إنني أضمن كل شيء. على أنك تستطيعين أن تستعيني بامرأةٍ عجوز لخدمة البيت. هذا لا يكلّف نفقةً ذات بال. ثم إن شاتوف يمكن أن يفيد في شيءٍ ما أيضاً. إن له ذراعين وساقين. فسيذهب إذًا إلى الصيدلية من دون أن يجرح هذا كرامتك. ما هذا منةٌ منه وكرم. أليس هو الذي جعلك في هذا الوضع؟ ألم يوقع شقاقاً بينك وبين تلك الأسرة التي كنت تعملين عندها مربية، ولم يكن له من ذلك إلّا هدفٌ أناني هو أن يتزوجك؟ لقد سمعنا عن هذا... ثم إنه قد هرع إلينا كالمجنون وأحدث جلبةً كبيرة. إنني لا أريد أن أفرض حضوري على أحد. وإنني لم أجئ إلّا من أجلك أنت تقيداً بالمبدأ، لأن جماعتنا يجب أن ينصر بعضها بعضاً. قلت له هذا حتى قبل أن أخرج من بيتي. فإذا كان وجودي في نظرك نافلاً فوداعاً إذًا! بشرط أن لا يقع لك سوء، وهو سوء ليس تحاشيه بالأمر السهل.

كذلك قالت آرينا بروخوروفنا، حتى لقد قامت لتنصرف.

وكانت ماري قد بلغت من الضعف والألم، وبلغت من الخوف مما ينتظرها في الواقع أنها لم تجسر أن تدع آرينا بروخوروفنا تنصرف. ولكن آرينا بروخوروفنا أصبحت كريهةً في نظرها فجأةً: إن كل ما قالته آرينا كان متعارضاً أشد التعارض مع ما كان يحدث في نفس ماري. غير أن خوفها من أن تموت بين يدي مولِّدة ليست بذات خبرة قد جعلها تتغلب على نفورها من آرينا وكرهها لها، وكذلك أصبحت تجاه شاتوف منذ تلك اللحظة أكثر شدةً وأقل رحمة، حتى لقد حظرت عليه في النهاية لا أن ينظر إليها فحسب، بل أن يلتفت بوجهه نحوها.

وتفاقمت الآلام مزيداً من التفاقم، واشتدت اللعنات والشتائم التي تطلقها ماري مزيداً من الاشتداد.

قالت آرينا بروخوروفنا:

ـ سنطرده إلى الخارج. إنه بوجهه المنقلب يبث في نفسك الخوف والرعب. إنه شاحبٌ كميت.

والتفتت تقول لشاتوف:

ـ ولكـن فيـم يعنيك أنت هـذا؟ ألا إنك لرجلٌ غريبٌ شـاذٌ حقـاً! ما هذه المهزلة!

لم يجب شاتوف. لقد قرر أن يلتزم الصمت.

ـ رأيـت فـي مثل هذه الأحـوال آباءً بلهـاء يفقدون عقولهـم تماماً. ولكن أولئك على الأقل...

ـ اسكتي، أو دعيني أفطس! لا يقل أحدٌ كلمةً بعد الآن لا أريد. لا أريد.

كذلك صرخت ماري.

ـ يسـتحيل علـى المرء أنِ لا يفتح فمه. لا بد أن يكـون المرء قد فقد عقله حتى يفرض مثل هذه المطالب. ولكنك في حالةٍ غير طبيعية. لنتكلم في أمورٍ جدية على الأقل. قولي لي: هل أعددت كل شيء؟ أجب يا شاتوف. هي في حالة لا تمكنها من الإجابة.

ـ قولي لي ما هي الأشياء اللازمة تماماً.

ـ ألم تُهيئ إذًا شيئاً؟

كذلـك أجابته آرينـا بروخوروفنا، ثم أخذت تحصي له مـا هي في حاجةٍ إليـه. يجـب أن نذكر لها هذا الفضـل، وهو أنها لم تطلـب إلّا ما هو لازمٌ كل اللزوم. وقد اتضح أن بعض الأشياء المطلوبة متوفرةٌ عند شاتوف. وأخرجت مـاري مفتاحها ومدَّته إليـه ليفتح الكيس الذي حملته في سـفرها. وإذ كانت يداه ترتعشـان فقد اسـتغرق إدخـال المفتاح في القفل وقتـاً أطول من الوقت اللازم، فأثار هذا حنق ماري وأغاظها غيظاً شـديداً. ولكن حين هرعت آرينا بروخوروفنـا لتأخذ المفتاح من يدي شـاتوف لم تشـأ المريضة أن تنظر آرينا في كيسـها وأصرَّت باكيةً صارخةً على أن يكون شاتوف هو الذي يتولى فتح الكيس.

وكان لا بـد مـن الذهاب إلى كيريلوف لإحضار بعض الأشـياء. ولكن ما إن غـادر شـاتوف الغرفـة حتى أخذت مـاري تناديه بصرخاتٍ كبيـرة، ثم لم تهدأ ثائرتها إلّا حين رجع شـاتوف مسـرعاً ليشـرح لها أنه لا يخرج إلّا لحظةً

واحدة، وأن خروجه لا غنى عنه، وأنه عائد على الفور.

قالت آرينا بروخوروفنا ضاحكةً:

ـ مـا أصعـب إرضاءك يا سـيدتي الصغيـرة! فتـارةً تطلبيـن أن يُلصق أنفه بالحائـط فلا ينظر إليك، وتارةً تنفجرين باكيـةً إذا هو اضطر أن يغيب لحظة. لا بد أن يتخيل شيئاً في النهاية. هيَّا، هيَّا! لا تضطربي. أنا أمزح طبعاً.

ـ ليس من حقه أن يتخيل شيئاً.

ـ لـولا أنـه هائـمٌ بك حباً لمـا ركض في الشـوارع كالمجنـون، ولما هاج جميع كلاب المدينة. لقد حطم اطار نافذة بيتي.

5

كان كيريلـوف مسـتمراً فـي ذرع غرفتـه جيئةً وذهابـاً، وقد بلـغ من فرط الاسـتغراق في تأمله أنه نسـي حتى وصول امرأة شـاتوف، فكان يصغي إلى شاتوف من دون أن يفهم عنه.

قال أخيراً وكأنه ينتزع نفسه انتزاعاً شاقاً من فكرةٍ جذابةٍ فاتنة:

ـ آ... نعـم... امـرأةٌ عجـوز... أكنت تتكلم عن زوجتـك أم عن حاجتك إلـى امـرأةٍ عجوز. آ... نعم، عـن زوجتك وعن امرأة عجـوز، أليس كذلك؟ تذكـرت الآن. لقد بحثت وسـألت: فالعجوز سـتأتي، ولكنها لـن تأتي فوراً. خذ الوسـادة. ماذا أيضاً؟ نعم... انتظر... هل اتفق لك يا شـاتوف في يومٍ من الأيام أن شعرت بلحظات انسجامٍ كلي شامل؟

ـ اسمع يا كيريلوف، يجب عليك بعد الآن أن لا تسهر كل ليلة...

بدا على كيريلوف أنه ثاب إلى نفسـه. والشـيء الغريـب أنه أخذ يتحدث حديثاً فيه من اليسـر والسـهولة والراحـة والمنطق أكثر مما عُهـد فيه. واضحٌ أنه كان قد صاغ هذه الأفكار لنفسـه منذ مدةٍ طويلة، بل لعله أيضاً قد سـطَّرها على الورق. قال:

ـ هنـاك لحظـات تدوم خمس ثـوانٍ أو سـتاً تحس أثناءها فجـأةً بحضور الانسـجام الأبـدي، وبأنـك بلغت هذا الانسـجام الأبـدي. ليس ذلك شـيئاً

أرضياً: لا أقول إنه سماوي، ولكنني أقول إن الإنسان من جانبه الأرضي عاجزٌ عن احتماله. فيجب أن يتغير جسم الإنسان أو يموت. إنه شعورٌ واضح، لا جدال فيه، مطلق. تدرك الطبيعة كاملةً على حين فجأة، وتقول لنفسك: نعم، هذا هو، هذا حق. حين خلق الله العالم كان يقول في آخر كل يوم: "نعم، هذا خيرٌ، هذا عدلٌ، هذا حق". ليس ذلك نوعاً من ترقق العاطفة والحنان. إنه شيءٌ آخر. إنه فرحٌ. وأنت عندئذٍ لا تغفر شيئاً، إذ لا يبقى ثمة ما تغفره. وليس ذلك حتى حباً. آه... إنه فوق الحب. الأمر الرهيب هو أنه واضح وضوحاً مخيفاً مروّعاً، غير أن فرحاً واسعاً يغمر كل شيئ! لو دام أكثر من خمس ثوانٍ، لما استطاعت النفس أن تتحمله ولكان عليها أن تزول. في هذه الثواني الخمس أحيا حياة بكاملها، وإني لمستعد في سبيلها أن أهب حياتي كلها... لأن هذه الثواني الخمس تساويها. من أجل أن يستطيع المرء احتمال ذلك عشر ثوانٍ يجب أن يتغيّر جسمه. وأظن أنه يجب على الإنسان أن يكفّ عن التناسل. لماذا الأطفال، لماذا نمو الإنسانية، إذا كانت لغاية قد بُلغت؟ لقد جاء في الإنجيل أن البشر لن يولدوا بعد البعث في الحياة الآخرة، وإنهم سيكونون جميعاً كملائكة الله. هذه إشارة. هل امرأتك تلد؟

- هل يحدث لك هذا كثيراً يا كيريلوف؟

- كل ثلاثة أيام، كل أسبوع...

- ألست مصاباً بمرض الصرع؟

- لا.

- ستصاب بهذا المرض. انتبه يا كيريلوف: لقد سمعت أن مرض الصرع إنما بهذا يبدأ. وقد حدثني أحد المصابين به فوصف لي المشاعر التي تسبق نوبات الصرع تفصيلاً. لقد تكلم هو أيضاً عن ثوان خمس، فكان يقول إن المرء يستحيل عليه أن يتحمّل هذا مدة أطول. تذكّر جرة النبي محمد، التي لم تكن قد فرغت من مائها حين عاد من معراجه إلى السماء. إن الجرة هي هذه الثواني الخمس التي تتحدث عنها، وإن المعراج هو هذا الانسجام الكلي الذي تحسّ به. ولقد كان محمد يصاب بغيبوبة.

انتبه إلى الصرع يا كيريلوف.

قال كيريلوف وهو يبتسم ابتسامة وادعة:

ـ لن يتسع الوقت لإصابتي بهذا الداء.

6

كان الليل ينقضي بطيئاً. وكان شاتوف يُطرد ويُشتم ثم يُستدعى. لقد بلغت ماري ذروة الهلع. كانت تصرخ قائلةً إنها تريد أن تعيش "حتماً، حتماً"، وإنها خائفة من الموت، فهي ما تنفك تكرر "يجب أن لا أموت، يجب أن لا أموت!". ولو لا أن آرينا بروخوروفنا كانت هناك لكان يمكن أن تجري الأمور مجرى سيئاً جداً. ولكن آرينا بروخوروفنا قد استطاعت أن تسيطر على المريضة شيئاً فشيئاً، فأصبحت المريضة في النهاية تخضع لأي أمر تصدره إليها، كما يخضع طفل. لقد عمدت آرينا بروخوروفنا إلى الشدة والقسوة لا إلى الرفق واللين، ولكنها كانت خبيرة في فنّها. وأخذ الصبح يطلع. وتخيلت آرينا بروخوروفنا فجأة أن شاتوف، وقد خرج إلى فسحة السلّم، هو الآن يصلي ويدعو الله، فانفجرت تضحك. فأخذت ماري تضحك هي أيضاً، ضحكاً خبيثاً، ضحكاً ساخراً، فكأن هذا الضحك كان يخفف عنها بعض التخفيف، وأخيراً أُخرج شاتوف من الغرفة. فبقي على فسحة السلم، مستنداً إلى الجدار، في الوضع الذي فاجأه فيه إركل بالأمس. كان يرتعش كورقة في مهب الريح، وكان يخشى أن يفكر. ولكن، كما يحدث للمرء في الحلم، كان فكره يتابع الصور التي تتشكل في خياله وتنقطع في كل لحظة. لم يعد يسمع أنات، بل أصبح يسمع إعوالات رهيبة، وصرخات كصرخات وحش، صرخات لا تُطاق تصل إليه من الغرفة. أراد أن يسدّ أذنيه، ولكنه لم يستطع أن يعزم أمره على ذلك، وجثا على ركبتيه مكرراً بغير شعور: "ماري! ماري!" وفجأة سمع صرخة جديدة أرعشته وأنهضته بوثبة واحدة، هي صرخة طفل صغير، صرخة ضعيفة، كأنها مصدوعة. فرسم على صدره إشارة الصليب وهرع إلى الغرفة. كانت آرينا بروخوروفنا تمسك كائناً صغيراً

أحمر مجعّداً، لا حول له ولا قوة،يستدر الشفقة، يمكن أن تعصف به ذرة خفيفة كأنه ذرة من غبار، ولكنه يصرخ ويحرك ذراعيه وساقيه الصغيرة كمن يريد أن يطالب بحقه في الحياة. وكانت ماري كالمغمى عليها، لكنها فتحت عينيها بعد دقيقة، وألقت على شاتوف نظرة غريبة، نظرة جديدة كل الجدة، نظرة كان لا يستطيع أن يفهمها بعد، ولا رآها أبداً قبل الآن.

سألت بصوت فيه ألم:

ـ صبي؟ صبي؟

فأجابتها آرينا بروخوروفنا وهي تقمّط الطفل:

ـ نعم، صبي بدين.

وقبل أن تضعه بين وسادتين على السرير، ناولته شاتوف لحظةً، فإذا بماري، وكأنها تخشى أن تراها آرينا بروخوروفنا، تومئ إلى زوجها، فيسرع يقرّب منها الطفل.

دمدمت تقول بصوت ضعيف وهي تبتسم:

ـ ما أجمله!

فهتفت آرينا بروخوروفنا تقول وقد أدهشها ما رأته في وجه شاتوف من تهلل الأسارير:

ـ انظروا إليه قليلاً! انظروا إلى وجهه العجيب!

فجمجم شاتوف قائلاً وقد أسكره الكلام الذي قالته ماري عن الطفل:

ـ ابتهجي يا آرينا بروخوروفنا... إنها فرحة كبرى!

فصاحت آرينا بروخوروفنا تقول مرحةً وهي تذهب وتجيء في الغرفة لترتّبها:

ـ فرحة كبرى؟ ما هذا الذي تقول؟

فدمدم شاتوف يقول كالسكران:

ـ إن انبثاق كائن جديد سر كبير، سر لا يُفهم يا آرينا بروخوروفنا. خسارة أنك لا تفهمين هذا.

كان شاتوف كمن فقد عقله، وكانت الكلمات كأنها تخرج من فمه رغم إرادته. وتابع كلامه يقول:

ـ كانا اثنين، فإذا بكائن إنساني جديد يظهر: روح جديدة، تامة مكتملة، لم تخلق مثلها يد إنسانية قط، فكر جديد، حب جديد. هذا أمر يكاد يكون رهيباً. لا شيء أعظم من هذا في العالم.

ـ أمواج من الكلام! ليس الأمر كله إلّا نموّ الجسم، ولا شيء غير هذا. لا سرّ!

كانت آرينا بروخوروفنا تضحك ضحكاً مرحاً صريحاً. وتابعت كلامها تقول:

ـ على هذا الأساس يكون نشوء أحقر بعوضة سراً من الأسرار. ولكن اسمعي ما سأقوله لك: الأجدر أن لا يولد في العالم بشر بلا فائدة منهم. قبل أن تلدوا أطفالاً ابدأوا بتغيير كل شيء، بحيث لا يكونون بغير فائدة منهم. أما الآن فيجب عليك أن تحملي الوليد بعد غد إلى ملجأ اللقطاء.

قال شاتوف مطرقاً إلى الأرض:

ـ لن أحمله إلى ملجأ اللقطاء بحال من الأحوال!

ـ أتتبناه؟

ـ هو ابني منذ الآن!

ـ طبعاً. إنه يحمل اسم شاتوف، إن القانون نفسه يوجب أن يكون اسمه شاتوف. فلا تمثّل دور محسن إلى الإنسانية. إنك لا تستطيع الاستغناء عن الألفاظ الكبيرة! هذا كله حسن جداً. ولكن آن لي أن أنصرف.

كذلك قالت آرينا بروخوروفنا وقد فرغت من ترتيب الغرفة. وأردفت تقول:

ـ سأرجع في هذا الصباح مرةً أخرى، وسأعود أيضاً في المساء إذا وجب الأمر. أما الآن وقد تمّ كل شيء على ما يُرام، فيجب أن أزور نساء أخريات ينتظرنني. لقد عثرت على امرأة عجوز يا شاتوف، لكن لا تتكل عليها وابق هنا. قد يُحتاج إليك. أعتقد أن ماريا اجناتيفنا لن تطردك... هيّا، هيّا، أنا أمزح.

وبقرب البوابة التى رافق إليها شاتوف المولّدة مشيعاً، أضافت تقول:

ـ لقد أضحكتني إلى آخر أيام حياتي. لن أتقاضى منك أجراً... لسوف أضحك من هذا حتى في المنام. حسبي ذلك. لم أر في حياتي رجلاً أبعث

على الضحك منك هذه الليلة.

وانصرفت مرتاحة أشد الارتياح، راضيةً كل الرضى. كانت تحدّث نفسها قائلة: "إنه لواضح من منظر شاتوف ومن أقواله أن هذا الرجل قد صيّر نفسه أباً منذ الآن، وأنه ليس إلّا إمّعةً ضعيف الشخصية". ورغم أنها كان عليها أن تزور امرأة أخرى على الفور فقد ذهبت أولًا إلى بيتها لتبلغ فرجنسكي انطباعاتها.

بدأ شاتوف يكلّم ماري خجلاً وجلاً فقال لها:

ـ ماري، إنها تقول إن عليك أن لا تنامي حالاً. لكنني أرى مع ذلك أن هذا سيكون شاقاً جداً عليك. سأجلس هنا، قرب النافذة، أسهر عليك، هل تريدين؟

قال ذلك وجلس قرب النافذة وراء الديوان، بحيث لا تستطيع أن تراه. ولكنها نادته بعد دقيقة، وسألته بلهجة احتقار أن يرتب وسائدها. وبينما كان شاتوف ينفذ أمرها، كانت هي تحدق إلى الجدار بإصرار.

ـ ما هكذا! ما هكذا! يا لخراقة يديك!

كان شاتوف يبذل كل ما في طاقته.

وأمرته على حين فجأة قائلة له بصوت أجش، جاهدةً أن لا تنظر إليه:

ـ ملْ عليّ.

فارتعد ولكنه مال عليها.

ـ مزيداً من الميل... ما هكذا... اقترب أكثر!...

وفجأة أمرّت يدها اليسرى حول عنق شاتوف. وأحسّ شاتوف على جبينه بقبلة حارة مخضلة.

ـ ماري!

كانت شفتا المرأة الشابة تختلجان. وكان واضحاً أنها تحاول أن تسيطر على نفسها، ولكنها أنهضت جسمها فجأة، وقالت متقدة العينين:

ـ إن نيقولاي ستافروجين رجل شقي!

وبارحتها قواها بغتة فعادت تتهالك على السرير، دافنةً رأسها في الوسائد، وانفجرت باكية وهي تضغط بيديها يد شاتوف.

ومنـذ تلـك اللحظة لم تفلـت زوجها. وطلبت إليـه أن يجلس إلى جانب سـريرها. وكانت لا تسـتطيع أن تتكلّم، فهي تتأمله ملياً، وقـد ألمّت بوجهها ابتسامة افتتان، ابتسامة طفلة صغيرة بلهاء. كل شيء كان يبدو لها متغيراً. أخذ شاتوف يبكي بكاء طفل، ثم طفق يتكلّم في

ما هبّ ودبّ بلهجة الملهم كأنه سـكران، ويقبل يديها من حين إلى حين مـرة تلـو مرة. وكانـت هي تصغي إليه نشـوى، ربما مـن دون أن تفهـم ما كان يقول، ولكنها تمسّـد شـعره بيـد ضعيفة واهنـة، وترتبه وتصففـه وهي تتأمله بحب ووجد. كلّمها عن كيريلوف، وعن الحياة الجديدة التي سـتبدأ بالنسبة إليهمـا، وعن وجـود الله، وعن طيبة البشـر. ومن فرط حماسـتهما، أخرجا الطفل من أقماطه ليُعجبا به مزيداً من الإعجاب.

هتف شاتوف قائلاً وهو يمسك الطفل في ذراعيه:

ـ ماري! لقد انتهينا من الهذيان القديم، من الخزي، من الموات القذر. ألا فلنبدأ العمل نحن الثلاثة! إن حياة جديدة تفتح ذراعيها لنا! نعم، نعم! ولكن ماذا نسميه يا ماري؟

فأجابت تكرر سؤاله بدهشة:

ـ ماذا نسميه؟

وارتسم على وجهها فجأةً ألمٌ شديد.

وضمـت يديها إحداهما إلى الأخرى، ونظرت إلى شـاتوف عاتبة الهيئة، ودفنت وجهها في الوسائد.

هتف شاتوف يسألها مرتاعاً:

ـ ماذا؟

ـ كيف أمكنك أن... كيف أمكنك أن... آه... عقوق!

ـ عقوق يا ماري، عقوك يا ماري!... أنا إنما سـألت ماذا نسـميه... لسـت أفهم...

قالت وهي تُنهض رأسها المحترق المبلل بالدموع:

ـ سنسـميه إيفان، إيفان. كيف أمكنك أن تتصور أن في وسـعنا أن نسـميه باسمٍ آخر، باسمِ "فظيع"؟

ـ ماري، هدئي نفسك. إن أعصابك مهتاجة!

ـ وهذه فظاظةٌ أخرى منك. لماذا تنسب دموعي إلى اهتياج أعصابي؟... يميناً لو اقترحتُ أن نسميه بذلك الاسم... ذلك الاسم الفظيع... لوافقت أنت فوراً، حتى لقد لا تنتبه إلى الأمر أي انتباه. آه... ما أشد عقوقكم... ودناءتكم... جميعاً، جميعاً!...

وبعد دقيقة، ساد بينهما السلام طبعاً، وألح عليها شاتوف أن تنام قليلاً. فنامت، ولكن من دون أن تدع يده التي كانت تقبض عليها بيديها. وكانت تستيقظ من حينٍ إلى حين، فتنظر إليه كأنها خائفةٌ أن ينصرف، ثم تغفو ثانيةً على الفور.

وصلت العجوز التي أرسلها كيريلوف حاملةً "تهنئاته"، وحاملةً كذلك شاياً ساخناً وشرائح لحم ومرقاً وخبزاً أبيض "لماريا أجناتيفنا". فشربت المريضة المرق بشراهة، وقمطت العجوز الطفل. وأجبرت ماري زوجها شاتوف على أن يأكل شريحة لحمٍ أيضاً.

وكان الوقت يمضي. وأخذ التعب من شاتوف كل مأخذ فغفا على كرسي مستنداً برأسه إلى وسادة زوجته. وعلى هذه الحال إنما وجدتهما آرينا بروخوروفنا حين جاءت براً بوعدها. فأيقظتهما مرحةً، وألقت إلى ماري بتعليماتها، وفحصت الطفل، وحظرت على شاتوف مرةً أخرى أن يترك زوجته. ثم بعد أن مازحت الزوجين بشيء من الازدراء والتعالي، انصرفت راضيةً مسرورة، كما فعلت في الصباح.

حين استيقظ شاتوف، كان الظلام قد خيَّم، فأشعل الشمعة، وأسرع يبحث عن العجوز، فما كان أشد دهشته حين هبط السلم فإذا هو يسمع وقع خطواتٍ خفيفة محاذرة. كان هناك رجل يتقدم نحوه: إنه إركل.

همس شاتوف يقول له:

ـ لا تدخل.

ثم أمسك يد الزائر وقاده نحو البوابة. وقال له:

ـ انتظرني هنا. سأرجع فوراً. نسيتك تماماً. لقد عرفت كيف تذكِّرني بك!

بلغ شاتوف من الاستعجال أنه لم يدخل على كيريلوف واكتفى بمناداة

المرأة العجوز. وقد غضبت ماري أشد الغضب واستاءت أشد الاستياء من أنه "أمكن أن يخطر بباله أن يتركها وحيدة".

فهتف يقول متحمساً:

هذه آخر مرة. إن طريقاً جديدة تنشق أمامنا، ولن نفكر أبداً، أبداً، في هول الأيام الماضية.

واستطاع أن يهدئها بعض التهدئة، ووعدها أن يرجع في الساعة التاسعة تماماً، وقبّلها وقبّل الطفل، وأسرع يدرك إركل.

اتجه الرجلان نحو حديقة آل ستافروجين، في سكفورشنيكي، حيث كان شاتوف، قبل سنةٍ ونصف سنة، قد دفن في موضع ناء، على حدود الحديقة، عند غابة صنوبر، المطبعة التي عُهد بها إليه. إن المكان موحش، مقفر، بعيد عن مسكن آل ستافروجين. والمسافة بينه وبين منزل فيليبوف تُقدَّر بثلاثة فراسخ ونصف، وربما بأربعة فراسخ.

قال شاتوف سائلاً:

ـ هل نقطع الطريق كله سيراً على الأقدام؟ إنني أفضّل كراء عربة.

فقال إركل:

ـ بل يجب أن نقطع الطريق سيراً على الأقدام. لقد أصروا على هذا كثيراً. إن الحوذي يمكن أن يُتخذ شاهداً.

ـ طيب. لا بأس. المهم أن أنتهي، أن أنتهي!

وكانا يسيران بخطى سريعة.

هتف شاتوف يسأل صاحبه:

ـ إركل، بنيَّ، هل سعدت في حياتك يوماً من الأيام؟

فقال إركل متعجباً:

ـ يبدو لي على كل حال أنك الآن سعيد.

الفصل السادس

ليلة مشقات ومخاوف

أثناء النهار طاف فرجنسكي على بيوت جميع "أصحابنا" لينبئهم بأن شاتوف لن يشي بهم حتماً، وذلك بسبب عودة امرأته التي ولدت عنده منذ قليل: كان يستحيل على فرجنسكي أن يسلِّم بأن شاتوف يمكن أن يكون خطراً في هذا الأوان، "لمعرفته بالقلب الإنساني". ولكن ما كان أشدَّ حسرة فرجنسكي حين لم يجد أحداً منهم في بيته، إلّا إركل وليامشين. ولقد أصغى إركل إلى كلامه صامتاً رقيق الهيئة. ولكن حين ألقى عليه هذا السؤال المباشر: "أأنت ذاهب اليوم إلى الموعد في الساعة السادسة؟" أجابه إركل و هو يبتسم: "طبعاً!".

أما ليامشين فقد كان في سريره، دافناً رأسه تحت الغطاء، وكان يبدو عليه أنه مريض فعلاً. وحين رأى فرجنسكي خاف خوفاً شديد، ومنذ أن أخذ فرجنسكي يتكلم تضرع إليه، محركاً يديه، بأن يُترك هادئاً مرتاحاً. غير أن المعلومات التي ذكرها فرجنسكي عن شاتوف بدت له هامة فأصغى إليها بانتباه. حتى إذا علم أن زائره لم يجد أحداً من "أصحابنا" في بيته، أزعجه ذلك كثيراً. وقد اهتز فرجنسكي هو أيضاً حين قصَّ عليه ليامشين، بكلام مفكك، ما وقع لفدكا (وكان قد علم ذلك من ليبوتين). فلما ألقى عليه فرجنسكي هذا السؤال المباشر: "هل يجب الذهاب إلى الموعد؟"، عاد ليامشين يضطرب و أعلن "أن ذلك كله لا شأن له هو به، وأنه لا يعرف شيئاً، وأن عليهم أن يتركوه هادئاً".

رجع فرجنسكي إلى بيته قلقاً مرهقاً. ولقد كان يصعب كثيراً أن يخفي عن أسرته ما يعتمل في نفسه، لأنه اعتاد أن لا يكتم عن امرأته شيئاً. ولقد كان يمكن أن يرقد أخيراً في سريره مثل ليامشين لولا أن فكرةً جديدة قد نبتت فجأةً في ذهنه المحموم، فكرةً بدا له أنها يمكن أن تدبر الأمور بما يرضي الجميع. وقد بثت هذه الفكرة في نفسه شجاعةً، حتى إنه أصبح ينتظر الساعة المحددة نافد الصبر، وانطلق يسير إلى مكان الموعد المضروب في وقتٍ أبكر من اللازم.

كان المكان حزيناً كئيباً على حدود حديقة آل ستافروجين الواسعة. لقد ذهبتُ إليه خصيصاً في ما بعد، وإني لأتخيل مدى ما كان يبدو عليه ذلك المكان من جهامة وشؤم في ذلك المساء الحزين من أماسي الخريف. كانت أشجار الصنوبر الضخمة الطاعنة في السن تشكّل في ظلمات الغابة بقعاً سوداً مبهمة. وقد بلغت الظلمة من الحلك أن المرء لا يكاد يرى قدّامه أكثر من خطوتين. ولكن بطرس ستيفانوفتش وليبوتين قد تزودا بمصابيح. إن مغارة من حجارة غير مقدودة، مغارةً مضحكة، كانت قد بُنيت في ذلك المكان لا يدري أحد متى، ولا يدري أحد لاي غرض بنيت. والمائدة والكراسي الموجودة في داخل المغارة كانت منخورة مسوَّسةً متآكلةً تتساقط غباراً. إن بين منزل السادة أصحاب الأرض وبين الغابة غدراناً ثلاثة تتعاقب على مسافة فرسخ. والغدير الثالث يقع يمنةً على بعد نحو مائتي متر من المغارة. يصعب على المرء أن يفترض أن ضجةً ما، كصرخة أو حتى طلقة رصاص، يمكن أن يسمعها سكان المنزل الذي هجره أصحابه ولم يبق فيه، منذ سفر نيقولاي فسيفولودوفتش بالأمس وسفر ألكسي إيجورتش، إلّا خمسة خدم عجائز أو ستة. ومن الجائز جداً على كل حال، حتى لو سمعوا صرخات ألم أو نداءات استغاثة، أن لا يزعجوا أنفسهم بالانطلاق إلى مكان الصوت إغاثةً للضحية.

في الساعة السادسة وعشرين دقيقة كان الجميع قد اجتمعوا، إلّا إركل الذي كان عليه أن يقود شاتوف. في هذه المرة لم يتأخر بطرس ستيفانوفتش.

لقد وصل مع تولكاتشنكو. وكان تولكاتشنكو قاتم الوجه مهموم النفس. لقد بارحته وقاحته المعهودة فيه، وبارحته رباطة جأشه وثقته بنفسه. إنه لا يترك بطرس ستيفانوفتش، ويبدو مخلصاً له بغير تحفظ. وهو الآن كثير الحركة والسعي، لا يكف عن الهمس في أذن صاحبه، ولكن صاحبه لا يكاد يجيبه أو هو يجمجم منزعج الهيئة ببضع كلمات تخلصاً منه.

ولقد وصل شيجالوف وفرجنسكي قبل بطرس ستيفانوفتش بقليل. فلما أبصراه انسحبا متنحيين، ملتزمين الصمت. فرفع بطرس ستيفانوفتش مصباحه وتفرس فيهما بانتباهٍ فيه استهانةٌ واحتقار، قائلاً لنفسه: "إنهما يستعدان للكلام".

سأل مخاطباً فرجنسكي:

ـ ألم يجيء ليامشين؟ من قال إنه مريض؟

أجاب ليامشين قائلاً وهو يخرج من وراء شجرة:

ـ أنا هنا.

كان يرتدي معطفاً ضخماً، وقد أحاط عنقه وكتفيه بغطاء، فلا يكاد يميِّز المرء وجهه إلّا بكثيرٍ من العناء، ولو سلط عليه ضوء المصباح.

ـ لا ينقص إذًا إلّا ليبوتين.

وخرج ليبوتين من المغارة من دون أن يقول كلمةً واحدةً.

دفع بطرس ستيفانوفتش مصباحه من جديد. وقال له:

ـ لماذا تختبئ؟ لماذا لم تخرج في الحال؟

فدمدم ليبوتين يقول، ربما من دون أن يعرف ماذا كان يريد أن يقول على كل حال:

ـ أفترض أننا محتفظون بحرية... حركاتنا..

قال بطرس ستيفانوفتش رافعاًصوته، محدثاً بذلك جواً يناقض جو الهمس الذي يسود منذ قليل:

ـ أيها السادة... أظن... أنكم تدركون أنه لا فائدة الآن من الإفاضة في الكلام، لقد قيل أمس كل شيء، وكُرِّر كل شيء، بوضوحٍ، وبجلاء. ولكنني

أرى في الوجوه أن بعضكم يود أن يتكلم. فليتكلم، بأقصى سرعة. ليس لدينا متسعٌ من الوقت: من الممكن أن يجيء به إركل بين لحظةٍ وأخرى...

تدخل تولكاتشنكو قائلاً لا يدري أحد لماذا:

ـ لسوف يجيء به حتماً.

وقال ليبوتين يسأل من دون أن يعرف أيضاً لماذا يلقي هذا السؤال:

ـ إذا لم يخطئ تقديري، فإن أول شيء نفعله هو استلام المطبعة، أليس كذلك؟

ـ حتماً. علام نضيِّع مطبعة؟

بهذا أجاب بطرس ستيفانوفتش وهو يقرِّب المصباح من وجه ليبوتين. واستطرد يقول:

ـ لكننا اتفقنا بالأمس على أن استلام المطبعة ليس إلّا خدعة. سوف يدلنا على المكان الذي دفن فيه المطبعة، فنتولى نحن إخراجها من الأرض فيما بعد. إنني أعلم أنها على مسافة عشر خطوات من إحدى زوايا هذه المغارة. كيف أمكن أن تنسى هذا يا ليبوتين؟ شيطان يأخذك! لقد تم الاتفاق على أن تمضي إلى لقائه وحدك، ثم لا نظهر نحن إلّا بعد ذلك... إن أسئلتك غريبة. اللهم إلّا أن يكون لكلامك دافعٌ واحدٌ هو الرغبة في الكلام لا أكثر...

كان وجه ليبوتين مربداً، ولم يجب بكلمة. ولبث الجميع صامتين بضع لحظات. وقامت الريح تهب على ذرى أشجار الصنوبر فتهزّها.

أضاف بطرس ستيفانوفتش يقول نافد الصبر:

ـ آمل أيها السادة أن يقوم كل منكم بواجبه.

دمدم فرجنسكي يقول منفعلاً انفعالاً شديداً، وهو يجري بيديه حركاتٍ عريضة:

ـ أعرف أن زوجة شاتوف قد رجعت إليه هذه الليلة، وأنها ولدت. ومن يعرف القلب الإنساني. يدركُ بداهةً... أنه لن يشي بنا... لأنه سعيد!... لقد سعيت إلى الجميع ركضاً في هذا اليوم... لكنني لم أجد أحداً... فلعلنا نستطيع أن نعدل الآن عن...

وتوقف عن الكلام منقبضَ الحلق.

فسأله بطرس ستيفانوفتش وهو يتقدم منه:

ـ إذا أصبحت سعيداً على حين فجأة، فهل تتراجع لا عن وشاية (لأن الأمر ليس أمر وشاية)، بل عن القيام بواجبٍ محفوفٍ ببعض الأخطار، واجبٍ تصورته قبل أن تعرف سعادتك، واجبٍ تعدُّه واجبك، رغم مخاطره ورغم ضياع سعادتك؟

ـ لا، لا أتراجع، لا أتراجع بحالٍ من الأحوال!

كذلك صرخ فرجنسكي مرتعشاً أشد الارتعاش، بحماسةٍ تكاد تكون مضحكة.

ـ أنت تؤثر إذًا أن تعود شقياً تعيساً على أن تكون جباناً رعديداً!

ـ نعم، نعم، بالعكس... أوثر أن أكون جباناً... لا، ليس هذا ما أريد أن أقوله... أريد أن أقول إنني أوثر أن أكون شقياً على أن أكون جباناً.

ـ فاعلم إذًا أن شاتوف يعدُّ هذه الوشاية واجباً مقدساً، ويعدها عملاً متفقاً ومبادئه كل الاتفاق. والبرهان على ذلك أنه يخاطر كثيراً حين يسلمنا للسلطات. صحيح أن السلطات ستغفر له أشياءً كثيرة، مراعاةً لوشايته، وإكراماً لها. ولكن رجلاً مثله لا يتقهقر في يومٍ من الأيام عن القيام بما يعده واجباً. ما من سعادة تبقى وتدوم. لسوف يثوب إلى نفسه منذ الغد، فيلوم نفسه لوماً مراً، ثم ينفذ ما عقد العزم عليه. ثم أين السعادة في رجعة امرأته إليه بعد غياب ثلاث سنين لتلد في بيته ولداً حملت به من ستافروجين؟

قال شيجالوف:

ـ ولكن ما من أحدٍ رأى تلك الوشاية على كل حال!

فصرخ بطرس ستيفانوفتش يقول:

ـ أنا رأيتها. إنها موجودة. وهذا الكلام كله غباءٌ مطلق أيها السادة.

فانفجر فرجنسكي فجأةً يقول:

ـ وأنا أحتج، أحتج بكل قواي... إنني أريد... إليكم ما أريد: حين يصل نهب إلى لقائه جميعاً، ونسأله عن حقيقة الأمر. فإذا صحَّ أن هناك وشاية

طلبنا إليه أن يعدل عنها وأن يحلف على ذلك... وعندئذٍ ندعه ينصرف. على كل حال يجب أن نحكم عليه، لا أن نختبئ ثم ننقض عليه.

ـ منتهى الغباء أن نفسد عملنا كله بالركون إلى يمينٍ يحلفه. أيها السادة، إن ما تفعلونه الآن لهو البلاهة بعينها! أهذا هو إذًا موقفكم في ساعة الخطر؟

كان فرجنسكي لا يزال يردد قوله:

ـ أحتج... أحتج...

ـ على كل حال، سُدَّ بوزك! وإلا لم نتمكن من سماع الإشارة. إن شاتوف (أوه! ما هذا الغباء كله!)... سبق أن قلت لكم إن شاتوف من دعاة السلافية، أي أنه من أغبى الناس طراً... على كل حال، لا يهمني هذا... لا يعنيني هذا في شيء! ... إنكم بمقاطعاتكم لي لا تزيدون على إرباك فكري، وتشويش ذهني... إن شاتوف، أيها السادة، كان رجلاً ساخطاً، ولما كان عضواً في الجمعية رغم كل شيء، سواء أأراد ذلك أم لم يرده، فلقد كنت آمل حتى آخر لحظة أن نستطيع الاستفادة منه بصفته ساخطاً. وكنت أهتم به وأداريه وأراعيه رغم التعليمات القطعية التي صدرت إليَّ بشأنه. ومع ذلك قرر أخيراً أن يشي بنا! إلى جهنم على كل حال!... ولكن فليجرؤ واحدٌ منكم أن ينسحب الآن! ما من أحد يحق له أن يترك "القضية". تستطيعون أن تقبِّلوا شاتوف إذا شاء قلبكم ذلك، ولكن ليس من حقكم أن تعرِّضوا كل شيءٍ للخطر ركوناً إلى عهدٍ يقطعه على نفسه، أو يمينٍ يحلفه. وليس يتصرف هذا التصرف إلّا خنازير أو أناس باعوا أنفسهم للحكومة...

أسرع ليبوتين يسأل قائلاً:

ـ من الذي باع نفسه للحكومة هنا؟

ـ ربما أنت. خير لك أن تسكت يا ليبوتين. إنك لا تتكلم إلّا بحكم العادة. الذين باعوا أنفسهم للحكومة هم جميع الذين يخافون في لحظة الخطر. لن تخلو صفوف الجبناء يوماً من غبي يهرب في آخر دقيقة صارخاً: "المغفرة المغفرة! إنني أسلمكم إياهم جميعاً". ولكن اعلموا أيها السادة أنه ما من وشايةٍ يمكن أن تجعلكم تحصلون على العفو. قد يُخفَّف العقاب درجتين،

ولكنه سيظل نفياً إلى سيبيريا. هذا عدا أنكم لن تفلتوا عندئذٍ من سيفٍ آخر أقطع من سيف الحكومة.

كان بطرس ستفانوفتش غاضباً في حديثه أشد الغضب. وهنا تقدم شيجالوف نحوه بخطى ثابتة حازمة، وقال بثقةٍ هادئةٍ ومنطق منظم على عادته (وإني لأعتقد أنه لو تزلزلت الأرض من تحته، لما رفع صوته ولما غيَّر ترتيب كلامه أي تغيير):

ـ إنني أقلِّب المسألة على وجوهها المختلفة منذ مساء الأمس، ولقد وصلت بعد طول التفكير إلى نتيجةٍ واضحة هي أن قتل شاتوف ليس فقط تضييعاً لوقتٍ ثمين يمكن أن يُستعمل استعمالاً أجدى وأجل شأناً، بل هو كذلك انحرافات من تلك الانحرافات المشؤومة التي طالما أضرَّت بالقضية وأخَّرت نجاحها عشرات السنين، بإخضاعها لتأثير أناسٍ سياسيين ليسوا اشتراكيين صرفاً. لقد جئت إلى هنا لغرضٍ واحد أن أحتج على هذا المشروع، آملاً أن يؤثر عملي هذا في العقول، وها أنا ذا أنسحب لا خوفاً من الخطر ولا حباً بشاتوف الذي لا أشتهي أن أقبِّله البتة، بل لأن هذا الأمر، من بدايته إلى نهايته، يناقض برنامجي. أما عن الوشاية بكم، ففي وسعكم أن تكونوا مطمئنين كل الاطمئنان: فلن أشي بكم!

قال شيجالوف ذلك ثم استدار وانصرف.

هتف بطرس ستيفانوفتش قائلاً وهو يخرج مسدسه من جيبه:

ـ شيطان يأخذه! لسوف يلقاهما فيحذِّر شاتوف.

وسُمع صوت ديك المسدس وهو يُرفع:

قال شيجالوف وهو يلتفت:

ـ ثق أنني إذا لقيت شاتوف فقد أحييه ولكنني لن أحذِّره.

ـ هل تعلم أن هذا يمكن أن يكلفك غالياً يا سيد فورييه؟

ـ أرجوك أن تلاحظ أنني لست فورييه. إنك إذ تخلط بيني وبين ذلك الثرثار العاطفي المجرد، تبرهن على أنك تجهل مخطوطتي جهلاً تاماً، رغم أنها كانت بين يديك، أما عن تهديدك، فإنني أقول لك إنك قد أخطأت إذ رفعت

ديك مسدسك: فإن هذا لا يمكن إلّا أن يضرك في اللحظة التي نحن فيها. وإذا نويت أن تنتقم مني غداً أو بعد غد، فإنك ستجلب لنفسك بقتلي هموماً جديدة: سوف تقتلني، ولكنك ستعود إلى مذهبي عاجلاً أو آجلاً. الوداع.

ـ في تلك الدقيقة دوَّت صفرة صفارة على مسافة مائتي متر، في الحديقة، من جهة الغدير. وكما اتُفق بالأمس ردَّ ليبوتين على الصفرة فوراً بصفرةٍ مثلها. (كان قد اشترى في ذاك الصباح نفسه من السوق صفارةً من تلك الصفارات الصغيرة التي يستعملها الأطفال، لأنه لا يستطيع الاعتماد في الصفير على فمه الأثرم). وكان إركل قد أبلغ شاتوف في أثناء الطريق أنه سيتبادل إشارات مع ليبوتين، حتى لا يراود شاتوف أي اشتباه.

قال شيجالوف وهو يخفض صوته:

ـ لا تخش شيئاً. سوف أتجنبهما، فلا يبصراني.

وبدون أن يسرع، قفل راجعاً إلى بيته عبر الحديقة المظلمة.

إن الناس يعرفون الآن أدق التفاصيل من حادثة مقتل شاتوف. وإليكم ما جرى:

في البداية تقدم ليبوتين يستقبل شاتوف وإركل عند باب المغارة. فبادر شاتوف يقول له، من دون أن يجيبه، ومن دون أن يمد له يده، رغبةً منه في الانتهاء من الأمر بأقصى ما يمكن من سرعة، قال له بصوتٍ قوي:

ـ هيه، أين معولك؟ أليس معك مصباحٌ آخر؟ لا تخف! ليس في المكان مخلوق. ولو أطلقت قنبلة من مدفع لما سمع أحدٌ في سكفورشنيكي شيئاً! المطبعة هنا، في هذا المكان تماماً...

قال شاتوف ذلك وهو يضرب بقدمه موضعاً من الأرض يقع على مسافة عشر خطواتٍ من زاوية المغارة فعلاً، من جهة الغابة.

في تلك اللحظة نفسها وثب تولكاتشنكو على شاتوف من خلف، وانقض إركل على كوعيه يمسكهما، وهرع ليبوتين ينقض عليه من أمام. واستطاع الثلاثة أن يقلبوه فوراً، وأن يهشموه على الأرض. وعندئذٍ تدخل بطرس ستيفانوفتش مسلحاً بمسدسه.

يقال إن شاتوف قد التفت إلى جهته حينذاك، فاستطاع أن يتعرفه. إن مصابيح ثلاثة كانت تنير المشهد. أطلق شاتوف صرخةً قصيرةً، يائسة، غير أن بطرس ستيفانوفتش أطبق مسدسه على جبهة شاتوف بيدٍ ثابتة واثقة، وضغط الزناد، فانطلقت الرصاصة في رأس شاتوف، ولم يكن صوت انطلاقها قوياً في ما يقال. مهما يكن من أمر، فإن أحداً لم يسمع صوت انطلاق الرصاصة في سكفورشنيكي. لكن شيجالوف الذي لم يكن بعيداً بعداً كبيراً قد سمع الصرخة وصوت انطلاق الرصاصة حتماً، ومع ذلك لم يتوقف، وقد اعترف هو نفسه بهذا في ما بعد.

مات شاتوف تواً، على وجه التقريب. وأظن أن بطرس ستيفانوفتش كان الشخص الوحيد الذي احتفظ لا بهدوئه في ما أعتقد، بل بحضور ذهنه. فها هو ذا يجلس القرفصاء، ويأخذ ينبش جيوب القتيل بيدٍ متعجلة لكنها ثابتة. فلم يجد مالاً (كانت محفظة نقود شاتوف قد بقيت تحت وسادة ماريا أجناتيفنا)، ولم يعثر إلّا على ثلاث وريقات لا قيمة لها: رسالةٌ تتعلق بأعمال، وعنوان كتاب، وفاتورة مطعم في الخارج كان شاتوف يحتفظ بها منذ سنتين لا يدري إلّا الله لماذا! دسَّ بطرس ستيفانوفتش هذه الوريقات في جيبه. وإذ لاحظ حينئذٍ أن رفاقه المتجمعين حول الجثة كانوا يتأملونها من دون أن يفعلوا شيئاً، أخذ يشتمهم شتماً فظاً غليظاً. فسرعان ما ثاب إركل وتولكاتشنكو إلى رشدهما، فأسرعا ينفذان أوامره، فهرعا إلى المغارة، وعادا منها بصخرتين كبيرتين تزن كل واحدة منهما نحو عشرين رطلاً. ولما كانت النية منصرفةً إلى إلقاء الجثة في الغدير الأقرب (الثالث)، فقد ربطت الصخرتان بقدميه وعنقه. إن بطرس ستيفانوفتش هو الذي تولى القيام بهذا العمل، أما تولكاتشنكو وإركل فلم يزيدا على أن أمسكا الصخرتين، ونقلاها إليه. مدَّ إركل صخرته أولاً. وبينما كان بطرس ستيفانوفتش يوثق قدمي الجثة متذمراً ويربطهما بالصخرة مدمدماً، وقد دام هذا وقتاً طويلاً، كان تولكاتشنكو مائلاً إلى أمام، على وضع يشبه أن يكون وضع الاحترام، ممسكاً الصخرة الثانية بيديه الممدودتين لينقلها إلى بطرس ستيفانوفتش بلا

إبطاءٍ متى أمره بذلك، حتى إنه لم يخطر بباله أن يضع حمله على الأرض بانتظار صدور الأمر. فلما فرغ بطرس ستيفانوفتش من عمله نهض وتأمل الوجوه التي تحيط به، تأملها بانتباه. وعندئذٍ إنما حدث حادثٌ غريب، لم يكن يتوقعه أحدٌ قط، حادث أدهش الجميع.

سبق أن قلنا إن إركل وتولكاتشنكو هما اللذان عملا، وأن الآخرين لبثوا في أماكنهم لا يفعلون شيئاً. وحين هجم الجميع على شاتوف فإن فرجنسكي هرع هو أيضاً، ولكنه لم يمسس شاتوف ولا ساعد في طرحه على الأرض. أما ليامشين فإنه لم ينضم إلى الآخرين إلّا بعد أن أطلق فرخوفنسكي الرصاصة. وبينما كان فرخوفنسكي يربط الصخرتين بالجثة، أي خلال عشر دقائق تقريباً، كان من ينظر إلى وجوهم هؤلاء الناس يخيَّل إليه أنهم أشبه بمن لا يشعر بما يحدث، ويحس أنهم إلى الدهشة والاستغراب أقرب منهم إلى القلق والاضطراب. إن ليبوتين مائلٌ إلى أمام، قرب الجثة. ووراءه ينظر فرجنسكي من فوق كتفه مستطلعاً، حتى إنه منتصب على رؤوس الأصابع ليرى رؤيةً أحسن. أما ليامشين فقد اختبأ وراء فرجنسكي، يختلس نظرةً سريعةً إلى المشهد من حين إلى حين، ثم ما يلبث أن يعود إلى الاختباء فوراً. ولكن حين فرغ بطرس ستيفانوفتش من عمله ونهض واقفاً، أخذ فرجنسكي يرتعش ارتعاشاً شديداً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه على حين فجأة، ثم ها هو ذا يضم يديه إحداهما إلى الأخرى، ويصرخ خائفاً:

ـ ليس هذا أبداً! لا، لا، ليس هذا أبداً!

ولعله كان سيضيف إلى هذا الكلام شيئاً جديداً لو أن ليامشين أمهله. غير أن ليامشين لم يلبث أن قبض عليه من الخلف فجأةً، وشده متشبثاً به تشبثاً قوياً، وطفق يطلق صرخاتٍ حادة رهيبة. إنه يتفق لرجلٍ أصابه جزعٌ مباغت وهلعٌ عنيف، أن يأخذ يصرخ بصوتٍ ليس صوته المألوف ولا يمكن أن يفترضه له أحد أبداً في الأحوال العادية. إن الأثر الذي يحدثه هذا الصوت في النفس إحساسٌ لا يحتمل ولا يُطاق في بعض الأحيان. فكذلك كان ليامشين يصرخ بصوتٍ ليس صوتاً إنسانياً بل هو صوت حيواني. وظل

ليامشين قابضاً على عنق فرجنسكي من خلف وظل يصرخ صراخاً ما ينفك يشتد بلا توقف، محملقَ العينين فاغرَ الفم، ضارباً الأرض بقدميه فكأنه يقرع طبلاً. فبلغ فرجنسكي من فرط الخوف أنه أخذ يصرخ هو أيضاً، محاولاً، أن ينتزع نفسه من عناق ليامشين، وأخذ يتخبط ويجهد أن يضربه من خلف ما أمكنه أن يفعل، وقد استبد به واستولى عليه حنقٌ مسعور ما كان لأحد أن يتوقعه منه. وساعده إركل أخيراً في التخلص من ليامشين، ولكن حين استطاع فرجنسكي المرتاع أن يتخلص من ليامشين، نظر ليامشين حوله فأبصر بطرس ستيفانوفتش فهجم عليه وهو يطلق صرخاتٍ جديدة. وتعثر بالجثة فسقط فوقها، فتشبث ببطرس ستيفانوفتش تشبثاً بلغ من القوة أنه في اللحظة الأولى لم يستطع لا بطرس ستيفانوفتش نفسه ولا تولكاتشنكو ولا ليبوتين أن يحملوه على تركه. فكان فرخوفنسكي يصرخ ويشتم ويضربه على رأسه بقبضتي يديه. حتى إذا أفلح في الإفلات منه أخيراً، أمسك مسدسه وصوَّبه على فم ليامشين الفاغر. ولكن ليامشين ظل يصرخ رغم التهديد، بينما كان تولكاتشنكو وإركل وليبوتين ممسكين بذراعيه إمساكاً قوياً.

وأخيراً لفَّ إركل منديله حتى جعله كالكرة، فأدخله في فم ليامشين بحذق، فأوقف بذلك صراخه، بينما كان ليبوتين وتولكاتشنكو يوثقان يديه وراء ظهره بحبل.

دمدم بطرس ستيفانوفتش وهو ينظر إلى المجنون قلقاً:

ـ غريب!

لقد كان مدهوشاً أشد الدهشة.

وأردف يقول حالم الهيئة شارد الذهن:

ـ كنت أتصوره غير ذلك!

وتُرك ليامشين في حراسة إركل موقتاً. لقد كان ينبغي الإسراع. إنهم قد صرخوا وأسرفوا في الصراخ حتى ليمكن أن يكونوا قد نبهوا أهل سكفورشنيكي. أخذ بطرس ستيفانوفتش وتولكاتشنكو مصباحيهما، وأمسكا جثمان القتيل من تحت الرأس، كما رفعه ليبوتين وفرجنسكي من القدمين.

كان الجثمان ثقيلاً بالصخرتين المربوطتين به. وكان ينبغي قطع مسافة مائتي خطوة بل أكثر. إن أقوى هؤلاء الرجال هو تولكاتشنكو. وقد نصح بأن يكون المشـي منتظمـاً، ولكن أحداً لم يصغ إليه، وسـاروا كيفمـا اتفق. كان بطرس سـتيفانوفتش يسير على اليمين. إنه مقوس الظهر تقوسـاً شديداً، يسند بكتفه رأس الميـت، ويمسـك الصخرة من تحتها باليد اليسـرى. وإذ لم يخطر ببال تولكاتشـنكو أن يساعده طوال نصف المسافة، فقد ناداه بطرس ستيفانوفتش شـاتماً. فدوّت صرخته القصيرة في الصمت. ظـل الرجال يتقدمون من دون أن يقولوا كلمة. حتى إذا صاروا على حافة الغدير صرخ فرجنسكي يقول من جديد، وقد ثناه حمله وأرهقه ثقله، صرخ يقول بصوت قلق خائف:

ـ ليس هذا أبداً، لا، لا، ليس هذا أبداً!

إن المـكان الـذي ينتهى عنده هـذا الغدير الثالث، وهـو غدير كبير، مكان خال لا يرتاده أحد، ولا سـيما في هذا الأوان المتقدم من السنة. والماء قرب الحافة قد اجتاحته الحشائش.

وُضعـت المصابيـح علـى الأرض. ورُجّحـت الجثة، بضـع لحظات ثم رميت في الغدير، فكان لسقوطها في الماء دوي أصم طويل.

رفـع بطرس سـتيفانوفتش مصباحه يحاول متابعة سـقوط الجثة، وكذلك فعل الآخرون مستطلعين. ولكنهم لم يروا شيئاً: فإن الجثة المثقلة بالصخرتين قد هوت إلى القاع رأسـاً، وسرعان ما امّحت الدوائر التي ظهرت على سطح الماء حين سقوطها فيه. انتهى كل شيء.

قال بطرس ستيفانوفتش مخاطباً الجميع:

ـ أيها السادة، ليس يخامرني أي شك في أنكم تشعرون الآن بذلك الزهو المرتبـط دائماً بتحقيـق واجب ارتضى المرء أن يقوم به حراً من تلقاء نفسـه. وإذا كنتم الآن، وا أسفاه، أشد اضطراباً من أن تحسوا ذلك الشعور، فلسوف تحسونه في غد حتماً، وإلا كان عاراً وخزياً أن لا تحسوه. أما السلوك المشين الذي سـلكه ليامشـين، فإنني أريد أن لا أرى فيه إلّا نوبة مرض، ولا سيما أنه كان مريضاً بالفعل هذا الصباح في ما قيل لي. وأما أنت يا فرجنسكي، فتكفيك

لحظة تفكير حتى تدرك أن مصلحة القضية تجعل من المستحيل علينا أن نركن إلى عهد يقطعه شاتوف على نفسه، وأن ما فعلناه هو ما كان ينبغي فعله. سوف ترى في ما بعد أن الوشاية كانت مهيأة كل التهيئة. إنني أوافق على نسيان صيحاتك! واعلموا أن لا شيء يهددنا الآن. فما من أحد يخطر بباله أن يشتبه في أحد منكم، وخاصة إذا أحسنتم التصرف. أي أن كل شيء على وجه الإجمال رهن بكم ومتوقف على اقتناعكم بأنكم أحسنتم عملاً، وهو اقتناع آمل أن يكون راسخاً في أنفسكم منذ الغد. من أجل هذا الغرض وأغراض أخرى إنما اجتمعتم، ولأنكم تؤمنون بأفكار واحدة إنما أنشأتم بحريتكم هذا التنظيم ليساعد بعضكم بعضاً، وليكون كل منكم رقيباً على الآخر إذا اقتضى الأمر ذلك. إن كلاً منكم يقع على عاتقه عبء كبير يجب أن يحمله، وتقع على عاتقه مهمة ضخمة يجب أن يحققها. إنكم مدعوون إلى تجديد مجتمع منهوك فاسد عفن: فلتكن هذه الفكرة حافزاً يبث فيكم الشجاعة ويحضكم على العمل باستمرار! إن جميع جهودكم يجب أن ترمى إلى انهيار كل شيء: الدولة وأخلاقها. سنظل وحدنا واقفين، نحن المهيئين منذ مدة طويلة لأن نستلم السلطة. فأما الأذكياء فسوف نجعلهم ملحقين بنا، وأما الأغبياء فسوف نركب على ظهورهم. ما ينبغي أن يقلقكم هذا. يجب علينا أن نعيد تربية الجيل الحالي، لنجعله جديراً بالحرية. لا يزال هناك ألوف من أمثال شاتوف. سوف ننظم صفوفنا من أجل أن نقود الحركة: إنه لعار علينا أن لا نستولي على ما يقدّم نفسه إلينا إن صح التعبير. أنا ذاهب تواً إلى كيريلوف. وفي صباح غد ستكون معي الرسالة التي يصرّح فيها قبل موته بأنه مسؤول عن كل شيء. وسيبدو الأمر معقولاً جداً. أولاً لأنه كان على خصام شديد مع شاتوف: لقد عاشا في أمريكا جنباً إلى جنب، فاتسع وقتهما لأن يكونا عدوين. وثانياً لأن شاتوف قد هجر عقائده القديمة وهذا أمر معروف، فلا بد أن يكرهه كيريلوف لخيانته ولإمكان وشاية شاتوف به، فهذه إذًا عداوة من العداوات التي لا سبيل فيها إلى صلح. ذلك كله سيذكر في الرسالة. وسيعترف كيريلوف أيضاً بأنه آوى فدكا. وهكذا لن يستطيع أولئك الحمير

أن يفهموا من الأمر شيئاً، بل لن يخطر في بالهم أن يشتبهوا فيكم. غداً لن نلتقي أيها السادة. إن عليّ أن أقوم بجولة في المقاطعة. ولكنكم ستعرفون أخباري بعد غد. أنصحكم بأن تقضوا نهار غد في منازلكم. والآن يجب أن نسلك في العودة طرقاً مختلفة. إليك أعهد بليامشين يا تولكاتشنكو. ارجع به إلى بيته. وتستطيع أن تؤثر في فكره، وأن تشرح له خاصة أن خوفه يمكن أن يكون خطراً أشد الخطر عليه. ولا أريد أن أشك في قريبك شيجالوف، ولا فيك أنت يا سيد فرجنسكي: إنه لن يشي بنا. ولا يبقى علينا إلّا أن نأسف لوضعه. على أنه لم يعلن أنه ترك الجمعية. لذلك لم يحن حين دفنه. ولكن فلنسرع يا سادة: الحذر واجب، ولو كان الآخرون حميراً...

انصرف فرجنسكي مع إركل. وقبل أن يعهد إركل بليامشين إلى تولكاتشنكو، اقتاده إلى قرب بطرس ستيفانوفتش وأعلن أن ليامشين قد ثاب إلى رشده، وأنه نادم، وأنه مستغفر، حتى إنه لا يتذكر ما حدث له تذكراً واضحاً.

انصرف بطرس ستيفانوفتش وحيداً، وسلك الطريق الأطول، وهو الطريق الذي يدور حول الغدران، فما كان أشد دهشته حين بلغ منتصف الطريق فإذا هو يرى ليبوتين ساعياً وراءه لاحقاً به، سائلاً إياه:

ـ بطرس ستيفانوفتش، هل تعلم أن ليامشين سوف يشي بنا؟

ـ لا بل سيثوب إلى صوابه فيدرك أنه إذا وشى بنا كان هو نفسه أول من يذهب إلى سيبريا. ما من أحد سيشي بنا الآن. وأنت أيضاً لن تشي.

ـ وأنت؟

ـ سأسلمكم جميعاً بطبيعة الحال متى اشتبهت أيسر اشتباه فقدّرت أنكم مقبلون على خيانة. إنك لتعلم ذلك. ولكنك لن تخون. أمن أجل أن تقول لي هذا إنما ركضت ورائي مسافة فرسخين؟

ـ بطرس ستيفانوفتش، بطرس ستيفانوفتش! قد لا نلتقي بعد اليوم أبداً!

ـ من أين تأتي بهذا الكلام؟

ـ قل لي شيئاً واحداً لا أكثر...

ـ ما هو؟ أنا شخصياً أؤثر أن تنصرف...

ـ كلمة واحدة، ولكن بشـرط أن تكون صادقة: هل حلقتنا التي تتألف من خمسـة أعضاء هـي الحلقة الوحيدة فـي العالم، أم هل هنـاك حلقات أخرى تبلغ عدة مئات؟ إنني ألقي هذا السـؤال من ناحية رفيعة بمعنى عالٍ يا بطرس ستيفانوفتش.

ـ أرى ذلـك مـن فـرط اهتياجـك. ولكن هـل تعلم أنك أشـد خطـراً من ليامشين؟

ـ أعلم، أعلم! ولكن أجبني.

ـ مـا أكبر حماقتك! إني لأتسـاءل: فيم يهمـك الآن أن تعرف أنحن حلقة واحدة أم مائة؟

صاح ليبوتين يقول:

ـ معنى هذا أنه ليس هناك إلّا حلقة واحدة. كنت أقدر ذلك. بل كنت واثقاً منه منذ مدة طويلة...

وبدون أن ينتظر جواباً آخر استدار وغاب في الظلام.

لبث بطرس سـتيفانوفتش حالماً شارد الذهن لحظة. ثم قال يحدّث نفسه فجـأة: "لا، لن يخون أحد منهـم. ولكن يجب أن يبقوا معاً وأن يطيعوا، وإلا فلسوف... على كل حال ما أحقرهم من ناس!".

2

ذهـب بطـرس سـتيفانوفتش أولاً إلـى بيته وهيـأ حقيبته باعتنـاء من دون تعجل. إن القطار السريع يسافر في الساعة السادسة من الصباح. وهذا القطار الذي لا يسـير إلّا مرةً كلّ أسـبوع يعمل منذ مدة قصيرة على سـبيل التجربة. وكان بطرس سـتيفانوفتش قد أبلغ "أصحابنا" أنه سـيجول قليلاً في المنطقة، ولكن نياته كانت غير ذلك في الواقع، كما ظهر هذا في ما بعد.

فلما فرغ من إعداد حقيبته، دفع أجرة مسكنه لصاحبة المنزل التي كان قد أبلغها أمر رحيله، وذهب بعربة إلى إركل الذي يسكن غير بعيد عن المحطة.

ثـم لـم يتجه إلى بيـت كيريلوف إلّا إلى السـاعة الواحدة، وقـد دخل إليه من الممر الذي كان يسلكه فدكا.

كان بطـرس سـتيفانوفتش معتكر المزاج جداً. وعـدا المزعجات الكبيرة التـي كانـت آخـذة بخناقـه (مـن ذلـك مثـلاً أنـه لا يـزال لا يعرف شـيئاً عن ستافروجين)، كان قـد بلغه فيما أظن (لكنني لسـت واثقاً من هـذا) نبأ جاءه سـراً من بطرسـبرج في أغلب الظن ينبهه إلى خطر كبير يهم أن يحدق به بعد مدة قصيرة. إن أسـاطير كثيرة تروج الآن في مدينتنا عن هذا الموضوع طبعاً. ولكن لا يسـتطيع أن يعـرف الحقيقة إلّا أولئك الذيـن مهمتهم أن يعرفوا كل شـيء. أما أنا فأعتقد أن بطرس ستيفانوفتش لا بد أنه كان له عملاء في خارج مدينتنـا. فمـن الجائز جداً أن يكون قد تلقى تنبيهاً مـا، بل إنني لمقـتنع، رغم الشـك الشـديد المسـتخف الذي عبّر عنه ليبوتين فـى ذروة كربه، أن بطرس سـتيفانوفتش يمكن أن يكـون له حلقتان أو ثلاث حلقات، في بطرسـبرج أو في موسـكو مثلاً، ولا بد أن يكون له علـى كل حال عدد من المنضوين، وأن تكـون لـه علاقات لعلها غريبـة كل الغرابة. إنـه بعد رحيله بثلاثـة أيام وصل إلـى مدينتنـا أمر بالقبض عليه فوراً، لا أدري هـل للجرائم التي ارتكبها عندنا أو لجرائـم أخرى أيضـاً. وقد جاء هذا الأمر في حينه، ليقوّي الرعب الرهيب الـذي يكاد يكون رعباً غيبياً، أعني الرعب الذي اسـتولى على السـلطات في المدينـة وعلـى المجتمـع كلـه، بعـد أن كان هـذا المجتمع مصـراً على عدم الاكتـراث، وذلك حين اكتُشـفت جريمة قتل شـاتوف العجيبة التي أوصلت اضطرابنا إلى آخر مداه بملابسـاتها السرية الغريبة. ولكن الأمر بالقبض على بطرس سـتيفانوفتش قد وصل بعد فوات الأوان، فحين وصل هذا الأمر إلى مدينتنا، كان بطرس سـتيفانوفتش قد وصل إلى بطرسـبرج واستقر فيها باسم مستعار. حتى إذا أحس أن الأمور تجري مجرى سيئاً، تسلل هارباً إلى خارج البلاد على الفور. ولكنني أستبق الأحداث.

حين دخل بطرس سـتيفانوفتش على كيريلوف كان خبيث الوجه شـرس الهيئة، حتى لكأنه حاقد على كيريلوف حقداً شـخصياً فهو يريد أن ينتقم منه.

وبدا على كيريلوف أنه سُرّ برؤيته. واضح أنه كان ينتظره منذ مدة طويلة، وأنه كان ينتظره على حالة من نفاد الصبر تكاد تكون مرضية. كان وجهه شاحباً أكثر مما عُهد فيه من شحوب. وكانت نظرة عينيه السوداوين ثقيلة ساكنة.

قال وهو ينطق بألفاظه في مشقة:

ـ كنت أظن أنك لن تجيء.

ولكنه لم ينهض لاستقبال الزائر، وظل جالساً في ركن الديوان.

فتفرّس بطرس ستيفانوفتش في وجهه صامتاً لا ينبس بكلمة. ثم قال له أخيراً:

ـ هيّا! كل شيء على ما يرام! لم نعدل عن خطتنا! مرحى!

وابتسم ابتسامة حمايةٍ وقحة ورعاية مؤذية. ثم أسرع يقول بمرح خبيث:

ـ اسمع. لقد تأخرت عن الموعد. وليس عليك أن تلومني. لقد أهديت إليك ثلاث ساعات. ـ لا أريد أن تهدي إليّ ساعات إضافية. وليس في إمكانك أن تهدي إليّ هدية... يا غبي!

فارتعش بطرس ستيفانوفتش وسأله:

ـ كيف؟

ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه. فقال له وهو على تلك الهيئة نفسها التي تعبر عن رعاية وقحة:

ـ ما أسرع تأذيك! أوه! أوه! أراك غضبت! إن الهدوء أفضل في مثل هذه اللحظة. وخير شيء هو أن تعد نفسك مثل كريستوف كولومب وأن لا تعدّني إلّا فأرة لا يمكنها أن تهينك. سبق أن نصحتك بهذا أمس.

ـ لا أريد أن اعدّك فأرة!

ـ أيكون هذا مديحاً! أوه! الشاي بارد! كل شيء مقلوب رأساً على عقب. ما هذا الذي أراه هناك في صحن؟

واقترب من النافذة. وأضاف يقول:

ـ دجاجة بالرز!... ولكن لماذا لم يؤكل منها شيء؟ أنت إذًا في حالة تبلغ من الغرابة أن دجاجةً لا...

ـ أكلت. ليس هذا شأنك. اسكت!

ـ طبعاً ليس هذا شأني. ولكن الأمرين في نظري لا يستويان. هل تتصور أنني لم أكد أتغدى؟ فإذا صحّ تخميني، وهو أنك لست في حاجة إلى هذه الدجاجة، كان في وسعي أن... هه؟

ـ كُل إن استطعت.

ـ شكراً، وسأشرب شاياً.

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وجلس إلى المائدة فوراً، على الركن الآخر من الديوان، وجعل يأكل بشراهة، مع استمراره على مراقبة ضحيته بطرف عينه. وكان كيريلوف يحدّق إليه بحنق يمازجه اشمئزاز، وكأنه لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره.

هتف بطرس ستيفانوفتش يقول من دون أن يكف عن الأكل:

ـ يجب علينا مع ذلك أن نتكلم في موضوعنا. لم تتراجع، هه؟ والرسالة؟

ـ قررت الليلة أن الأمرين عندي سواء. سوف أوقع الرسالة. وعن المنشورات التحريضية أيضاً؟

ـ نعم، أيضاً. سأملي عليك النص على كل حال. ما اهتمامك بهذا؟ هل يعقل أن يهمك مضمون هذه الرسالة في مثل هذه اللحظة؟

ـ ليس هذا شأنك.

ـ طبعاً. لا يعدو الأمر بضعة أسطر تقول فيها إنك أنت وشاتوف قد وزعتما منشورات بمساعدة فدكا الذي كنت تؤويه. إن هذه النقطة الأخيرة، أعني فدكا وإقامته عندك، أمر هام. هي أهم شيء. ها أنت ذا ترى أنني صريح معك.

ـ تقول شاتوف؟ لماذا شاتوف؟ لن أتكلم عن شاتوف.

ـ يا للفكرة العجيبة! فيم يهمك هذا؟ إنك لا تستطيع أن تلحق به ضرراً بعد الآن!

ـ رجعت زوجته. ولقد استيقظت وأرسلت تسألني أين هو.

ـ أرسلت تسألك أين هو؟ همْ... هذا شيء! قد تسأل مرة أخرى... يجب

أن لا يعرف أحد أنني هنا...

بدا القلق على بطرس ستيفانوفتش.

ـ لن تعرف شيئاً. لقد نامت ثانية. وإن آرينا فرجنسكي، مولِّدتها، هي الآن بقربها.

ـ أظـن... أنها لن تسـمع. ولكن مـن الأفضل، كما تـرى، أن يُقفل الباب بالمفتاح.

ـ لا، لن تسمع. أمَّا شاتوف، فسوف أخبئك في الغرفة الأخرى إذا جاء.

ـ شـاتوف لـن يجيء. وسـوف تكتـب أنكما تشـاجرتما لأنه كان يسـتعد للوشاية بك هذا المساء... وأنك قتلته.

هتف كيريلوف وهو يثب عن الديوان:

ـ مات؟

ـ اليوم، في السـاعة الثامنة من المسـاء، بل قل أمس، لأن الساعة الآن هي الواحدة من الصباح.

ـ أنت الذي قتلته... لقد تنبأت بذلك منذ أمس.

ـ لم يكن التنبؤ بذلك أمراً صعباً. قتلته بهذا المسدس نفسه...

قال ذلك وأخرج مسدسه كمن يريد أن يريه كيريلوف، ولكنه لم يعده إلى جيبه، بل ظل قابضاً عليه باليد اليسرى، استعداداً لكل احتمال...

وأردف يقول:

ـ انـك لإنسـان غريب يـا كيريلوف: ألـم تعرف أنت نفسـك أن الأمور لا يمكـن أن تنتهـي إلى غير هذه النهاية مع هذا الغبي؟ لقد كان التنبؤ بذلك أمراً سـهلاً. كم مرة شـرحته لك! لقد كان شـاتوف يستعد لوشـاية، وكنت أراقبه. ولـم يكن يمكننـا أن ندعه يفعل. أنت نفسـك تلقيت تعليمات بهذا الشـأن. وقلت لي منذ ثلاثة أسابيع...

ـ اسكت. أنت قتلته لأنه بصق في وجهك بمدينة جنيف.

ـ لهذا الأمر ولأمر آخر أيضاً، بل لأمور أخرى كثيرة، ولكن بدون كره على كل حال. ما لك؟ لماذا هذه الهيئة؟ أوه! أوه! علام هذه النظرة إلى الأمور!...

قال بطرس ستيفاتوفتش ذلك، وهبَّ يقف بوثبة، ممسكاً مسدسه بيده لأن كيريلوف كان قد أمسك مسدسه الذي هيأه وألقمه منذ الصباح. وصوَّب بطرس ستيفانوفتش سلاحه نحو كيريلوف. فضحك كيريلوف ضحكة صفراء وقال له:

ـ اعترف أيها الوغد أنك تناولت مسدسك عالماً بأنني كنت سأقتلك... ولكنني لن أقتلك... رغم أن... رغم أن...

وصوَّب إلى بطرس ستيفانوفتش مرةً أخرى كأنه يجرِّب نفسه، ولا يستطيع العدول عن اللذة التي يمكن أن يتمتع بها إذا هو قتله.

وكان بطرس ستيفانوفتش لا يزال ينتظر متأهباً، مصمماً على الانتظار إلى آخر دقيقة من دون أن يضغط الزناد، متعرضاً بذلك لخطر تلقي الرصاصة الأولى: إن كل شيء يمكن توقعه من هذا "المهووس". ولكن المهووس خفض ذراعه أخيراً، وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً، ويعجز عن النطق بكلمة واحدة.

وقال بطرس ستيفانوفتش خافضاً سلاحه هو أيضاً:

ـ كفى عبثاً! كنت أعلم أنك إنما تتسلى. ولكن هل تعلم أنك كنت تخاطر مخاطرة كبيرة؟ لقد كان يمكن أن أضغط على الزناد.

وعاد يجلس على الديوان هادئاً، وصبَّ لنفسه الشاي بيدٍ ترتجف بعض الارتجاف.

وضع كيريلوف مسدسه على المائدة، وجعل يسير في الغرفة طولاً وعرضاً.

ـ لن أكتب أنني قتلت شاتوف... لن أكتب شيئاً... لن أوقِّع الرسالة.

ـ لن تكتب؟

ـ لا؟

ـ يا له من جبن! ويا له من غباء!

كذلك هتف يقول بطرس ستيفانوفتش وقد اخضر لونه غضباً.

وأردف يقول:

ـ علـى كل حال، كنت أتنبأ بذلـك. ولكنك لا تغدر بي وأنا عاجز عن كل حيلة. افعل ما يحلو لك. إذا اسـتطعت أن أجبرك إجباراً فسـوف أفعل. مهما يكن من أمر، فأنت جبان!

لقد فقد بطرس ستيفانوفتش صوابه.

واستطرد يقول:

ـ طلبتَ منا مالاً، وبذلت لنا وعوداً كثيرة... لكنني لن أدعك هكذا: سوف أرى بعيني على الأقل كيف ستطلق الرصاص في رأسك.

قال كيريلوف بلهجة حازمة وهو يقف أمامه:

ـ أريد أن تنصرف فوراً.

فأجابه بطرس ستيفانوفتش وهو يتناول مسدسه مرة أخرى:

ـ أمَّـا هـذه فلا! أبـداً!... من يدري؟ قد تُقرر أن تؤجل كل شـيء إلى غد، خبثاً أو جبناً، ثم تمضي تشـي بنا في الغـد لتقبض بضعة قروش أخرى. ذلك أنهم سـيدفعون لك مبلغاً طيباً إذا أنت وشيت بنا، شيطان يأخذك. إن أمثالك لا يتورّعـون عن شـيء. ولكن اطمئن. لقد تنبـأت بالأمر: لن أنصرف قبل أن أهشِّـم رأسـك بهذا المسـدس، كمـا فعلت بذلـك الحقير شـاتوف، إذا أنت خفت وأرجأت تنفيذ مشروعك. فلتذهب إلى جهنم!

ـ أتصرُّ حتماً على معرفة لون دمي؟

ـ اعلـم أنني لا أفعل هذا كرهاً بـك أو بغضاً لك. أنت لا تعنيني. وإنما أنا أعمل في سـبيل "القضية". إنك لترى أنه لا يمكن الاعتماد على أحد. لسـت أفهم من فكرتك شـيئاً. لسـت أنا الذي أوحيت إليك بهـذه الفكرة. حتى قبل أن تعرفنـي، كنـت قد أطلعت أعضـاء جمعيتنا على خطتـك. لاحظ أن أحداً منهـم لـم يدفعك إلى ذلك، بل إن أحداً منهم لم يكن يعرفك. ولقد أسـررت إليهـم بكل شـيء من تلقاء نفسـك، في نوع من سـورة عاطفية. فمـا ذنبنا إذا نحن وضعنا، بالاتفاق معك، وتلبيةً لاقتراح منك، (نعم، تلبيةً لاقتراح منك، لاحـظ هذا)، أقول ما ذنبنا إذا نحن وضعنا خطة عمل يسـتحيل علينا أن نغيِّر منهـا الآن شـيئاً؟ لا، لا، إنك قـد ارتبطت والتزمت. لقد قطعت على نفسـك

عهداً، وقبضت مالاً. هذا لا تستطيع أن تنكره...

لقد تحمس بطرس ستيفانوفتش وهو يتكلم، ولكن كيريلوف كان قد انقطع عن الإصغاء إليه منذ مدة طويلة، كان يذرع الغرفة حالم الهيئة، شارد الذهن!

قال وهو يقف أمام بطرس ستيفانوفتش مرةً أخرى:

ـ إنني آسف على شاتوف.

ـ وأنا أيضاً آسف عليه، ولربما..

ـ اسكت أيها الشقي... سوف أقتلك.

كذلك أعول يقول كيريلوف وهو يحرك يده بإشارة تهديد لا لبس فيها.

فنهض بطرس ستيفانوفتش بوثبة واحدة، ورفع يده كمن يريد أن يحمي نفسه، وقال:

ـ طيب، طيب، أنا كاذب... إنني غير آسف عليه البتة! ولكن كفى، كفى!

فصمت كيريلوف واستأنف سيره في الغرفة. ثم قال:

ـ لن أتراجع. أريد أن أنتحر الآن، الجميع أوغاد.

ـــ فكرة عظيمة: ليس هناك إلّا أوغاد في كل مكان، ولما كان الإنسان الشريف لا يستطيع إلّا أن يشعر من ذلك باشمئزاز، فإن الأفضل أن...

ـ غبي! أنا أيضاً وغد، مثلك، ومثل جميع الناس! لم يوجد رجل شريف في يوم من الأيام.

ـ أخيراً وضع إصبعه على الحقيقة. كيف لم تدرك حتى الآن، وأنت رجل ذكي، أن جميع البشر سواء، وأنه لا أحد خير أو شر من أحد. وإنما هناك أذكياء وأغبياء، وأنه إذا كان الجميع أوغاداً (وذلك خطأ على كل حال) فليس هناك إذًا أناس شرفاء؟

سأل كيريلوف وهو ينظر إلى بطرس ستيفانوفتش مدهوشاً بعض الدهشة:

ـ ألست تمزح؟ إنك تتكلم بحرارة وبساطة، هل يُعقل أن يكون لأمثالك اقتناعات؟

ـ كيريلوف، أنا لم أستطع في يوم من الأيام أن أفهم لماذا تريد أن تنتحر.

كل ما أعرفه أن انتحارك نابع من اقتناع واعتقاد... ولكن إذا كنت تشعر بحاجة إلى أن تفضي بما في نفسك، إن صح التعبير... فأنا مستعد للاستماع... ولكن يجب أن لا يغيب عن بالنا أن الوقت يجري...

ـ كم الساعة الآن؟

أجاب بطرس ستيفانوفتش وهو ينظر في ساعته:

ـ هي الثانية تماماً منذ الآن.

وأشعل سيجارة. وحدّث نفسه قائلاً لها: "أظن أن التفاهم بيننا لا يزال ممكناً".

ودمدم كيريلوف يقول:

ـ ليس لديَّ ما أفضي به إليك.

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ إنني أتذكر تذكراً غامضاً أن مدار المناقشة على الله... لقد سبق أن شرحت لي هذا مرةً، بل مرتين. فقلت لي: إذا أنت انتحرت أصبحت إلهاً، أليس هذا ما قلته؟

ـ نعم، أصبح إلهاً.

حاذر بطرس ستيفانوفتش أن يبتسم. وانتظر. فرشقه كيريلوف بنظرة ماكرة. وقال له:

ـ ما أنت إلّا ماكر محتال وسياسي كاذب. إنك تريد أن تستدرجني إلى مجال النقاش الفلسفي وأن توري حماستي من أجل أن تُحلَّ السلام والوئام، من أجل أن تبدِّد غضبي، حتى إذا تصالحنا انتزعت مني الورقة التي تريدها بشأن شاتوف.

فقال بطرس ستيفانوفتش يجيبه بصراحة وبراءة توشكان أن تكونا طبيعيتين:

ـ لنسلِّم جدلاً بأنني وغد، ولكن فيم يهمك هذا الآن ياكيريلوف! لماذا نتشاجر؟ هلا قلت لي لماذا نتشاجر؟ أنت لك طبيعتك، وأنا لي طبيعتي، ثم ماذا؟ ثم إننا كلينا...

ـ من الأوغاد...

جائز... ولكنك تعلم أنت نفسك أن هذه كلها كلمات لا أكثر.

ـ لقد ظللت طول حياتي أرغب في أن لا تكون كلمات، بل شيئاً آخر. إنني ما عشت إلّا من أجل هذا... من أجل أن تكون شيئاً آخر غير الكلمات. وما زلت إلى الآن أريد في كل يوم أن لا تكون كلمات فحسب...

ـ كل امرئ يبحث عما يناسبه، ويسعى إلى ما يوافقه!... إن السمكة... أقصد إن كل إنسان ينشد رخاءه بمعنى من المعاني. هذا كل شيء. وهو معروف منذ زمن طويل.

ـ هل تقول ينشد رخاءه؟

ـ لا داعي إلى الجدال في الألفاظ.

ـ لا بل لقد أحسنت التعبير. الرخاء. صحيح. الله ضروري، إذًا لا بد أن يوجد.

ـ تماماً.

ـ لكنني أعلم أنه غير موجود، ولا يمكن أن يوجد.

ـ ذلك أرجح.

ـ هل يُعقل أن لا تفهم أن إنساناً من الناس لا يمكن أن يستمر في الحياة حاملاً فكرتين كهاتين؟

ـ فليس عليه إذًا إلّا أن يطلق في رأسه الرصاص.

ـ هل يُعقل أن لا تدرك أن المرء يمكن أن ينتحر لهذا السبب وحده؟ إنك لا تفهم أن من الممكن أن يوجد رجل، رجل واحد بين ملايين الرجال، قد لا يحتمل هذا التناقض فيعزف عن الحياة!

ـ لا أفهم إلّا شيئاً واحداً، هو أنك تبدو متردداً... وذلك سيئ جداً.

قال كيريلوف وهو لا يزال يمشي طولاً وعرضاً، مظلم الهيئة، حتى إنه لم يسمع الجملة الأخيرة التي قالها بطرس ستيفانوفتش:

ـ إن ستافروجين، هو أيضاً، قد التهمته الفكرة...

ـ كيف؟

كذلك هتف بطرس ستيفانوفتش قائلاً وهو يصيخ بسمعه. وتابع كلامه:

ـ أية فكرة؟ هل حدثك عن نفسه؟

ـ لا بل حزرت: حين يؤمن ستافروجين، فإنه لايؤمن بأنه يؤمن. وحين لا يؤمن، فإنه لا يؤمن بأنه لا يؤمن.

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول:

ـ همْ... إن لستافروجين أمراً آخر، أذكى من هذا.

وكان يقلق للمجرى الجديد الذي يجري فيه الحديث، ويلاحظ وجه كيريلوف الشاحب. قال يحدث نفسه: "شيطان يأخذه. إنه لن ينتحر. لقد أوجست دائماً هذا. إنه يتلذذ بتخيلاته. يا لهذه الزمرة من الناس ما أحطَّها!".

ـ إنك آخر من يبقى معي. فلا أحب أن نفترق افتراقاً سيئاً.

فتردد بطرس ستيفانوفتش لحظة قبل أن يجيب، قائلاً لنفسه: "ما هذا أيضاً؟". ثم قال يجيبه:

ـ ثق كل الثقة يا كيريلوف أنني لا أحمل لك أية عداوة من حيث أنا إنسان، ولا أضمر لك أي حقد شخصي، ولكنني كنت دائماً...

ـ أنت رجل شقي وفكر زائف، ولكنني مثلك. وسوف أموت أنا، وتحيا أنت.

ـ هل تريد أن تقول إنني أبلغ من السوء والرداءة والخبث ما يضمن لي البقاء على قيد الحياة؟

كان لا يعلم بعدُ هل يفيده أن يستمر في الحديث أو لا يفيده. وقرر أن "يدع الأمر للظروف". غير أن لهجة الاستعلاء والاحتقار التي يستعملها كيريلوف في مخاطبته، والتي طالما أزعجته وأغاظته في الماضي، تحنقه الآن أكثر من أي وقت مضى. لعل ذلك يرجع إلى أن كيريلوف سوف يموت بعد ساعة (ولقد كان بطرس ستيفانوفتش لا يحول بصره عنه رغم كل شيء)، فكان ذلك يهوِّن شأنه ويطفف قيمته في نظره، فهو إنسان نصف حي نصف ميت إن صح التعبير، إنسان لايطيق بطرس ستيفانوفتش أن يحتمل كبرياءه وزهوه بنفسه.

ـ يخيّل إليَّ أنك تسحقني بتفوقك لأنك ستنتحر، هه؟

قال كيريلوف الذي لم يسمع في هذه المرة أيضاً ما قاله بطرس ستيفانوفتش:

ـ يدهشني أكبر الدهشة أن الناس يستمرون في الحياة.

ـ همْ!... طيب... لنسلِّم جدلاً... هذه فكرة... ولكن...

ـ قرد! إنك تسارع إلى قول "نعم" لتستولي عليَّ. اسكت. أنت لا تفهم شيئاً. إذا كان الله غير موجود فأنا الله.

ـ هذه بعينها هي النقطة التي لم أستطع أن أفهمها منك في يوم من الأيام: لماذا أنت الله؟

ـ إذا كان الله موجوداً، كانت الإرادة كلها له، وكنت أنا عاجزاً عن كل شيء في خارج إرادته. أمَّا إذا لم يكن موجوداً فالإرادة كلها إرادتي، وعليَّ أن أنادي بإرادتي الخاصة.

ـ إرادتك الخاصة؟ ولماذا عليك أن تنادي بها؟

ـ لأن الإرادة كلها الآن إنما هي إرادتي. هل يُعقل أن لا يوجد على وجه الأرض كلها شخص يجرؤ أن ينادي بإرادته الخاصة في صورتها القصوى بعد أن قتل الله وآمن بتلك الإرادة الخاصة التي له. إن مثل من يعجز عن ذلك كمثل فقير ورث مالاً ولكنه لايجرؤ أن يقترب من الكيس لأنه يعد نفسه أضعف من أن يحق له الاستيلاء عليه. أريد أن أنادي بإرادتي أنا. سأفعل ذلك ولو فعلته وحدي.

ـ أحسنت! افعله!

ـ يجب عليَّ أن أطلق الرصاص في رأسي لأن الصورة القصوى التي تتجلى فيها إرادتي هي الانتحار.

ـ ولكنك لا تنتحر وحدك. كثيرون انتحروا قبلك.

ـ لأسباب أخرى. أمَّا للمناداة بالإرادة الشخصية وحدها، لا لأي سبب آخر، فأنا الوحيد الذي ينتحر.

حدَّث بطرس ستيفانوفتش نفسه قائلاً: "لا، لن ينتحر".

وقال منزعجاً مغتاظاً:

ـ هل تعلم؟ لو كنت في مكانك لجعلت إرادتي تتجلى في أن أقتل شخصاً آخر، أمّا أن أقتل نفسي فلا. فبذلك يمكنك أن تكون نافعاً. سأدلك على من تقتله، إذا كنت لا تخاف. في هذه الحالة تستطيع أن لا تطلق الرصاص على نفسك اليوم. يمكننا أن نتفاهم.

ـ أن أقتل شخصاً آخر فذلك أدنى شكل من أشكال تجلي إرادتي. هذا تفعله أنت. هذا أنت. أمّا أنا فلست أنت: أنا أريد الشكل الأعلى، أريد الصورة القصوى. فسأنتحر.

جمجم بطرس ستيفانوفتش يقول لنفسه ساخطاً: "اكتشف هذا وحده!".

واستأنف كيريلوف كلامه وهو لا يزال يذهب ويجيء في الغرفة:

ـ يجب أن أنادي بأنني غير مؤمن. إن أعلى فكرة في نظري هي أن الله غير موجود. تاريخ الإنسانية بأسره يشهد لي. حتى الآن كان الإنسان يخلق إلهاً ليعيش من دون أن ينتحر، أنا وحدي، لأول مرة في تاريخ العالم، أرفض أن أخترع إلهاً. ألا فليعلم جميع الناس هذا مرةً إلى الأبد.

قال بطرس ستيفانوفتش يحدّث نفسه وقد ازداد قلقه: "لن ينتحر".

وقال يحرِّضه:

ـ من الذي سيعلم هذا؟ لسنا هنا إلّا اثنين. ربما ليبوتين؟

ـ سيعلمونه جميعاً، جميعاً! لا شيء يخفى! "هو" الذي قال ذلك.

وأشار بنوع من الحماسة إلى صورة المسيح التي كان يشتعل أمامها سراج.

ثارت ثائرة بطرس ستيفانوفتش. قال:

ـ إذًا ما زلت تؤمن "به" وتشعل سراجاً. ربما من باب الاحتياط لكل شيء، هه؟

لزم كيريلوف الصمت. وأضاف بطرس ستيفانوفتش قوله:

ـ في رأيي أنك ما تزال تؤمن به أكثر مما يؤمن به كاهن!

ـ بمن؟ به "هو"؟ اسمع...

قال كيريلوف ذلك وتوقف محدقاً إلى أمام كأنه في حاله نشوة ووجد، وتابع كلامه:

ـ اسمع. فكرة عظيمة: في ذات يوم نُصبت ثلاثة صلبان. كان أحد المصلوبين يبلغ من قوة الإيمان أنه قال للذي كان إلى يمينه: "في هذا اليوم نفسه ستكون معي في الجنة". وانتهى اليوم ومات الاثنان، ولم يجدا لا جنةً ولا بعثاً. لم يتحقق قول المصلوب. اسمع. إن ذلك الرجل كان أعظم رجل في الأرض. بسببه إنما وُجدت الأرض. فالأرض كلها وجميع ما عليها لا تكون بغيره إلّا جنوناً. لم يوجد قبله ولن يوجد بعده إنسان يشبهه ولو تحققت معجزة. والمعجزة إنما هي أن هذا الإنسان لم يوجد أحد مثله ولن يوجد أحد مثله في يوم من الأيام. فإذا كان الأمر كذلك، إذا كانت قوانين الطبيعة لم تدارِ حتى "ذلك الإنسان"، إذا لم تراعِ حتى معجزتها، واضطرته أن يحيا في وسط الكذب، وأن يموت بسبب كذبة، بينما الأرض كلها ليست نفسها إلّا أكذوبة، ولاتقوم إلّا على الكذب والضلال، فإن قوانين هذه الأرض نفسها ليست إلّا كذباً، وليست إلّا مهزلة شيطانية! فعلام يحيا المرء؟ أجب إذا كنت رجلاً!

ـ هذه مسألة أخرى تماماً. أخال أنك تخلط بين شيئين مختلفين، وهذا لا ينبئني بأي خير. ولكن اسمح لي: ماذا إذا كنت الله؟ ماذا إذا انتهى الكذب فأدركت أن الكذب كان يصدر عن ذلك الإله القديم؟

صاح كيريلوف يقول خارجاً عن طوره:

ـ ها أنت ذا أخيراً فهمت! الفهم إذًا ممكن، ما دام واحد مثلك قد فهم. تدرك الآن أن سلامة الجميع إنما تكون بالبرهان على هذه الفكرة للجميع؟ ومن الذي سيبرهن عليها؟ أنا! إنني لا أتصور كيف يستطيع ملحدٌ يعلم أن الله غير موجود، كيف يستطيع أن لا ينتحر فوراً. لئن يدرك المرء عدم وجود الله، ثم لا يدرك في الوقت نفسه أنه هو الله، فتلك استحالة، وإلا وجب على المرء أن ينتحر. إذا كنت تشعر بذلك فأنت ملك، ولن تنتحر، بل ستعيش في المجد. واحد لا بد حتماً أن ينتحر أول من ينتحر. وإلا فمن عسى يبدأ ويبرهن؟ إنني أنا الذي سأنتحر لأبدأ وأبرهن. لست بعدُ إلهاً إلّا بالرغم مني، وأنا شقي لأنني "مضطر" أن أنادي بإرادتي الخاصة. جميع الناس أشقياء لأنهم يخافون أن يبادوا بإرادتهم. كان الإنسان دائماً حتى الآن فقيراً وشقياً،

لأنـه كان يخشـى أن يحقق الصورة القصوى لإرادته. كان لا يسـتعمل إرادته إلّا خفيـةً وسـراً، كتلميـذ في مدرسـة، إننـي بائس بؤسـاً رهيبـاً لأنني خائف خوفاً فظيعاً. الخوف لعنة الإنسـان... لكنني سـأنادي بإرادتي! أنا مضطر أن أؤمن بأنني لا أؤمن. سـأبدأ، وسـأنهي. سأفتح الباب. وسـأنقذ. ذلك وحده سـينقذ جميع البشر، وسـيبدلهم تبديلاً جسـمياً من الجيل المقبل. إذا ما ظل الإنسـان فـي حالته الجسـمية الراهنة ـ ولقـد فكرت في هذا ملياً ـ فيسـتحيل عليه اسـتحالةً مطلقة أن يسـتغني عـن الإله القديم. لقد ظللت أسـعى ثلاث سـنين إلى صفة ألوهيتي، حتى وجدتها: إن صفـة ألوهيتي هي حرية إرادتي! ذلك كل شـيء! فبفضل إرادتي إنما يمكـن أن تتجلّى الصورة القصوى لعدم خضوعـي، ولحريتي الجديـدة، حريتي الرهيبة. ذلك أنهـا رهيبة، إنني أنتحر لأبرهن على عدم خضوعي وعلى حريتي الجديدة.

كان وجهه شـاحباً شحوباً شديداً، وكانت نظرته ثقيلة. كان يبدو أنه يعاني حمّى. خُيِّل إلى بطرس ستيفانوفتش أنه سيقع على الأرض.

هتف كيريلوف يقول فجأة بوحي مباغت:

ـ أعطني الريشة! أَمْلِ عليَّ ما شئت، وسأوقع على أنني قتلت شاتوف، أَمْلِ عليَّ ما دام هذا يسليني حتى الآن. لا أخشى ما قد يقوله العبيد المتغطرسون. لسـوف ترى بنفسـك أن كل ما كان خافياً سـيُعلم. وستُسـحق أنت... أظن! أظن!.

انتهـز بطرس سـتيفانوفتش اللحظة المواتية مرتعشـاً من فرحـه بالنجاح، فنهض بوثبة واحدة، وأسـرع يضع الحبر والـورق أمام كيريلوف فوراً، وأخذ يملي عليه:

"أصرِّح أنا ألكسي كيريلوف...".

ـ قف! لا أريد! لمن أصرِّح؟

كان كيريلوف يرتعش كأن به حمى. إن هذا التصريح والفكرة التي أوحاها إليه فجأة، يسـتغرقان كل انتباهه ويفتحان مخرجاً موقتاً لنفسـه المرهقة التي أسرعت تندفع فيه فوراً.

ـ لمن أصرِّح؟ أريد أن أعرف لمن أصرح!

ـ لا تصرِّح لأحد، بل للجميع، لأول من سيقرأ. لماذا التحديد؟ هل تريد أن تصرِّح للعالم كله؟

ـ للعالـم كلـه؟ مرحى! وبدون أي ندم! لا أريد ندمـاً! لا أريد أن أخاطب السلطات.

ـ لا! فلتذهب السلطات إلى جهنم! هيَّا اكتب إذا كنت جاداً!

كذلك هتف بطرس ستيفانوفتش، ثائر الأعصاب.

ـ انتظر. أريد أن أرسم في أعلى الصفحة فماً ماداً لسانه.

ـ سـخافة! لا داعـي إلـى الرسـم. يمكـن التعبير عـن كل شـيء باللهجة وحدها.

أصبح بطرس ستيفانوفتش لا يكاد يستطيع كظم غيظه.

قال كيريلوف:

ـ باللهجة؟ حسن جداً. نعم، باللهجة، باللهجة. أَمْلِ عليَّ اللهجة!

أخـذ بطـرس سـتيفانوفتش يملي عليـه بصوت ثابـت صـارم، مائلاً على كتف صاحبه، متابعاً بانتباه شـديد كلَّ حرف من الأحرف التي كان كيريلوف يرسمها بيد مرتعشة من الانفعال:

"أصرِّح أنا ألكسـي كيريلوف، بأنني في هذا... من شـهر تشـرين الأول (أكتوبر)، عند السـاعة الثامنة مسـاءً، قد قتلت الطالب شـاتوف في الحديقة، بسبب خيانته ووشايته عن المنشورات التحريضية وعن فدكا الذي أقام عندنا بعمارة فيليبوف عشـرة أيام. وإنني أنتحر الآن بطلقة مسـدس لا لأن ضميري يعذبنـي، أو لأنني خائف منكـم، بل لأنني قد وضعت مشـروع الانتحار هذا منذ كنت في خارج البلاد.".

سأله كيريلوف مدهوشاً مستاءً:

ـ أفهذا كل شيء؟

فقال بطرس ستيفانوفتش وهو يحاول أن ينتزع منه الرسالة:

ـ لا تزد كلمة واحدة!

هتف كيريلوف يقول:

ـ قف!

ووضع يده على الورقة. واستطرد:

ـ ما هذا السخف! أحب أن أقول مع من قتلت. لماذا فدكا؟ والحريق؟ أريد أن أقول كل شيء، وأن أشتمهم فوق ذلك! اللهجة! اللهجة!

قال بطرس ستيفانوفتش متوسلاً إلى صاحبه، خائفاً أن يمزق كيريلوف الورقة:

ـ هذا كافٍ يا كيريلوف. أؤكد لك أن هذا يكفي! من أجل أن يصدِّقوك يجب أن يكون كلامك أغمض ما يمكن، يجب أن لا يشتمل إلّا على إشارات. يجب أن لا تبدي إلّا طرفاً من الحقيقة، طرفاً صغيراً هو القدر اللازم لجذبهم وإغرائهم. مهما نقل نحن، فلسوف يكذبون هم أكثر منا، ولسوف يصدِّقون طبعاً ما يكونون قد لفَّقوه أكثر مما يصدِّقون ما نلفِّقه نحن، وهذا أفضل. أعطني الورقة. هي هكذا كاملة. هيَّا! أعطنيها!

كان بطرس ستيفانوفتش يحاول أن يستولي على الرسالة. وكان كيريلوف يصغي إليه محملق العينين، وكأنه يبذل جهداً من أجل أن يفهم، ولكن كان واضحاً أنه أصبح لايفهم شيئاً.

صرخ بطرس ستيفانوفتش يقول غاضباً على حين فجأة:

ـ ما هذا يا ربّ! لم يوقِّع حتى الآن. ما بالك تحملق هكذا؟ هلاَّ وقعت!

فدمدم كيريلوف يقول:

ـ أريد أن أشتمهم...

ـ اكتب: عاشت الجمهورية! هذا كافٍ.

فافتتن كيريلوف بهذا الاقتراح أعظم الافتتان، وزأر يقول:

ـ أحسنت! "عاشت الجمهورية الديموقراطية الاجتماعية الشاملة أو الموت!". لا، لا، لا.هكذا! بل: "حرية، مساواة، أخوة، أو الموت!". هذا أفضل! هذا أفضل كثيراً.

وبلذة واضحة كتب تلك الجملة تحت توقيعه.

كرر بطرس ستيفانوفتش يقول:

ـ كفى! كفى!

ـ انتظر قليلاً أيضاً! اسمع، أريد أن أوقِّع مرة أخرى باللغة الفرنسية "من كيريلوف، السيد الروسي، المواطن في العالم". هأ هأ هأ! بل انتظر، وجدت ما هو أفضل من ذلك أيضاً! أوريكا! "طالب روسي، مواطن في العالم المتمدن". عظيم!

ووثب عن الديوان، وتناول مسدسه الموضوع على النافذة بحركة سريعة، وهرع إلى الغرفة المجاورة وأغلقها وراءه بالمفتاح.

لبث بطرس ستيفانوفتش لحظةً حالماً، متجهاً ببصره إلى الباب. وخاطب نفسه قائلاً: "إذا عزم أمره فوراً فقد ينتحر، أمَّا إذا أخذ يفكر فلن يحدث شيء!".

وبانتظار ما سيقع، تناول الرسالة وجلس وأعاد قراءتها، فأعجبته كثيراً. وجعل يحدث نفسه قائلاً:

"ما الذي نحن في حاجة إليه جملةً؟ نحن في حاجة إلى أن نشوشهم فترةً من الوقت، وأن ندفعهم في طريق خطأ. الحديقة؟ لا حديقة هنا، وسينتهون إذن إلى إدراك أن الحديقة المقصودة في هذه الرسالة إنما هي حديقة سكفورشنيكي. ولكن يكون قد انقضى بعض الوقت قبل أن توافيهم هذه الفكرة. وبعد ذلك يستغرق البحث في الحديقة وقتاً آخر. فإذا اكتشفوا الجثة أخيراً، أدركوا أن الرسالة كانت صادقة في ما قالته، ولا بد أن يكون سائر ما قالته صادقاً، ومنه قصة فدكا. ولكن ما فدكا؟ إن فدكا هو الحريق الذي أُشعل، ولبيادكين الذي قتل. كل شيء إذاً قد صدر عن هنا، عن عمارة فيليبوف. بينما هم لم يروا شيئاً ولا خطر ببالهم شيء! لسوف يفقدون صوابهم حقاً. ولن يدور في خلدهم أن يكون "لأصحابنا" شأن في هذه الأمور كلها. سوف يدورون حول شاتوف وكيريلوف وفدكا ولبيادكين. ولكن علام هؤلاء القتلى جميعاً؟ ذلك سر سيظل يصعب عليهم أن يجدوا

حلاً له!... غريب... ما باله لم يطلق على نفسه النار حتى الآن!...".

كان بطرس ستيفانوفتش يقرأ النص الذي أملاه ويعجب به، ومع ذلك كان يصيخ بسمعه شاعراً بقلق يعذبه تعذيباً شديداً. واعترته نوبة حنق مسعور على حين فجأة. ونظر في ساعته: كان الوقت قد تقدم كثيراً. إن كيريلوف قد حبس نفسه في الغرفة المجاورة منذ أكثر من عشر دقائق. تناول بطرس ستيفانوفتش الشمعدان واقترب من الباب. وخطر بباله في تلك اللحظة نفسها أن الشمعة ستكون قد ذابت كلها بعد عشرين دقيقة، وأنه لا يملك شمعة أخرى غيرها. وضع يده على قبضة الباب، ومدَّ أذنه: لم يسمع شيئاً. وفجأة فتح الباب ورفع الشمعة، غير أن شيئاً ما قد وثب عليه معولاً. فأسرع يعيد إغلاق الباب، واستند إليه بكل ثقله. لم يعد يُسمع شيء. صمت كصمت الموت.

لبث بطرس ستيفانوفتش مدة طويلة واقفاً، متحيراً، والشمعة بيده. إنه حين فتح الباب لم يستطع أن يميز شيئاً كثيراً. ولكنه لمح كيريلوف في آخر القاعة بسرعة كومض البرق، لمحه واقفاً قرب النافذة، وأدهشه كثيراً وثوب المهندس عليه ذلك الوثوب الذي يعبِّر عن حنق حيواني وحشي. ارتعش بطرس ستيفانوفتش، ووضع الشمعة على المائدة، ورفع ديك المسدس، ومضى بخطى كخطى الذئب يتربص في آخر الغرفة: هكذا يكون لديه متسع من الوقت لأن يصوِّب ويشد الزناد قبل كيريلوف، إذا فتح كيريلوف الباب وهجم عليه.

أصبح بطرس ستيفانوفتش لا يصدِّق أن كيريلوف سوف ينتحر. كان يحدِّث نفسه قائلاً: "إنه واقف في وسط الغرفة يفكر. في وسط غرفته المظلمة المشؤومة... ولقد وثب إلى أمام وهو يزأر... هناك احتمالان: فإما أنني أزعجته في اللحظة التي همَّ أن يضغط فيها زناد مسدسه لينتحر. وإمَّا أنه يتساءل ما السبيل إلى قتلي. نعم، هذا هو الأمر، إنه يفكر. هو يعلم أنه إذا جبن عن الانتحار، فلن أنصرف أنا قبل أن أقتله. إذًا يجب عليه أن يقتلني حتى لا أقتله. وهذا الصمت المستمر!... أنكى ما في الأمر أنه يؤمن بالله، بل إنه يؤمن بالله أكثر مما يؤمن بالله كاهن من الكهان... لا لن ينتحر! ما أكثرهم

الآن، هؤلاء "الشاذين"! وغد! سافل! ولكن الشمعة! الشمعة! بعد ربع ساعة ستكون قد ذابت حتماً... يجب إنهاء الموضوع. يجب إنهاء الموضوع مهما كلف الأمر... ثم إنني أستطيع أن أقتله الآن. الآن وقد وقّع الرسالة لن يظن أحد أنني أنا القاتل: يمكنني أن أضع الجثة وضعاً يوهم بأنه انتحر انتحاراً. سأضع المسدس فارغاً في يده... ولكن كيف أقتله؟ إذا فتحت الباب هجم عليَّ مرة أخرى وأطلق قبل أن أطلق... نعم، ولكنه لن يصيبني. هذا مؤكد".

هكذا كان بطرس ستيفانوفتش يترجح متخبطاً بين ضرورة المبادرة وبين التردد عن العمل، وهو يرتعش من نفاد الصبر. وأخيراً تناول الشمعة واقترب من الباب جاعلاً مسدسه أمامه. وحاول باليد اليسرى التي تحمل الشمعدان أن يمسك قبضة الباب وأن يديرها بغير صوت ولكن قبضة الباب صرَّت صريراً مسموعاً. فسرعان ما قال بطرس ستيفانوفتش لنفسه: "سوف يطلق النار". ودفع الباب بضربة قوية من قدمه ورفع الشمعدان وصوَّب المسدس. لا صرخة، ولا انفجار. الغرفة خالية.

ارتعش بطرس ستيفانوفتش. لم يكن للغرفة إلّا باب واحد هو الباب الذي دخل منه. لم يهرب إذًا كيريلوف. رفع بطرس ستيفانوفتش الشمعة إلى أعلى، وجال ببصره على الغرفة: لم ير أحداً. نادى كيريلوف، بصوت خافت أولاً، ثم بصوت قوي. لا جواب.

"أيكون قد هرب من النافذة؟".

وكانت الكوة مفتوحة. "سخف. لايمكنه أن يهرب من الكوة...". مضى بطرس ستيفانوفتش إلى النافذة رأساً. "لا، مستحيل". وفجأة التفت بحركة قوية، وجمد في مكانه.

عند الجدار المقابل، توجد خزانة على يمين الباب. وعلى يمين هذه الخزانة، في الزاوية التي تتشكّل من التقائها بالجدار، كان كيريلوف واقفاً على وضع غريب كل الغرابة: فهو جامد، ساكن، مسبلٌ يديه على طول جذعه، قائم الرأس، ملتصق الظهر بالجدار، يبدو كأنه يريد أن يمَّحي، وأن يختفي أكبر اختفاء ممكن. كان يريد قطعاً أن يتقي نظرة بطرس ستيفانوفتش.

أمر يصعب تصديقه. وكان بطرس ستيفانوفتش، من المكان الذي هو فيه، لا يـرى إلّا الأجزاء البارزة من هـذه القامة، ولا يجرؤ أن يقترب ليرى كيريلوف رؤية أوضح، وليحل اللغز ويكشف السر. إن قلبه يخفق خفقاناً ثقيلاً. وفجأة، استولى عليه حنق مجنون: فها هو ذا يصرخ صراخاً شديداً، ويضرب بقدميه الأرض، ويهجم على كيريلوف.

ولكـن حيـن صـار علـى مقربة منـه، حتـى كاد يلمسـه، توقف بغتـةً وقد استبد به ارتياع. إن الشـيء الذي شـدهه خاصةً هو أنه رغم صرخاته ووثوبه المسعور، ظـل الرجـل سـاكناً سـكوناً مطلقـاً، لا يختلج اختلاجـة واحدة، فكأنه تمثال من صخر أو لعبة من شـمع. وكان وجهه مصطبغاً بصفرة غريبة، وكانـت عيناه السـوداوان تحدقّان ثابتتين إلى نقطة فـي الفضاء أمامه. خفض بطرس سـتيفانوفتش الشـمعدان ورفعه، فأنار بذلك جميع أجزاء ذلك الوجه المتجمـد. ولاحظ على حيـن فجأة أن كيريلـوف، رغم تحديقـه الثابت إلى أمـام، كان ينظـر إليه بطـرف عينه، ولعلـه كان يرصده. فخطر ببالـه عندئذ أن يقرِّب الشـمعة من وجـه "ذلك السـافل"، فيحرقه ليرى ما عسـاه يفعل. لاح لـه فـي تلك اللحظة نفسـها أن ذقـن كيريلوف تتحرك، وأن ابتسـامة سـاخرة تلمُّ بشـفتيه، كأنه قد اكتشـف غرضه. فجُنَّ جنون بطرس سـتيفانوفتش خوفاً وغضباً وأمسك كيريلوف من كتفه.

إن ما حدث بعد ذلك قد بلغ من الهول والسـرعة أن بطرس سـتيفانوفتش لم يستطع بعد ذلك في يوم من الأيام أن يتذكر تسلسـل الحوادث على وجه الدقة. إنه ما إن أمسك كيريلوف حتى خفض كيريلوف جسمه بغتةً، ثم إذا هو بضربة من رأسـه يسقط الشـمعة على الأرض. لقد تدحرج الشمعدان بضجة قوية، وانطفأت الشـمعة. وفي تلك اللحظة نفسها أحسَّ بطرس ستيفانوفتش بألم شديد في خنصر يده اليسرى. فصرخ صرخة طويلة. لقد تذكر في ما بعد أنـه وقد فقد صوابه تمامـاً، قد ضرب جمجمة كيريلوف بأخمص المسـدس ثـلاث ضربـات، فـكان كيريلـوف لا يـزال يعضُّ إصبعـه. واسـتطاع بطرس سـتيفانوفتش أخيـراً أن يحملـه على إرخـاء إصبعه، وهرع يخـرج من الغرفة

متلمساً طريقه في الظلمات، بينما كانت تلاحقه صرخات رهيبة تكررت عشر مرات:

ـ فوراً! فوراً! فوراً!...

ولكن بطرس ستيفانوفتش ظل يركض، وحين دوَّت طلقة المسدس كان قد وصل هو إلى الدهليز. فلما سمع دوي الرصاص توقف، ولبث ساكناً بضع دقائق، يفكِّر في ما يجب عليه أن يفعله. وأخيراً قرر أن يعود إلى الغرفة التي كان فيها كيريلوف. كان عليه قبل كل شيء أن يعثر على الشمعة التي أسقطها كيريلوف من يديه، والتي لا بد أنها ملقاة على يمين الخزانة. ولكن كيف يشعلها؟ وهذه صورة غامضة تعود إلى ذهنه: بالأمس، حين ركض إلى المطبخ حيث كان فدكا يأكل، قد لمح في أغلب الظن علبة كبريت فوق لوح كبير من خشب أحمر. فها هو ذا يتجه الآن إلى باب المطبخ تلمساً، فيفتحه، ويتبع الممر الصغير، ويهبط الدرجات الثلاث، ويمد يده إلى ذلك الموضع نفسه من لوح الخشب، فإذا هو يقع على علبة كبريت ملأى فعلاً، فيأخذها، ويعود صاعداً إلى فوق، في الظلام أيضاً. حتى إذا صار قريباً من الخزانة، حيث ضرب كيريلوف بأخمص مسدسه، تذكر إصبعه المعضوضة فجأة، تذكرها حينئذ فقط. وفي تلك اللحظة نفسها أحس بألم يكاد لا يُطاق. فكزَّ أسنانه، وأشعل الشمعة، وأعادها إلى الشمعدان، وألقى على ما حوله نظرة دائرة: كان جثمان كيريلوف راقداً على الأرض، قرب النافذة المفتوحة كوَّتها، متجه القدمين نحو الزاوية القائمة من الغرفة. إن الرصاصة التي انطلقت من المسدس في الصدغ الأيمن قد خرجت من الجهة اليسرى نحو أعلى الجمجمة، فبذلك اخترقت الرأس من طرف إلى طرف. وهذه لطخات من الدم والدماغ قد انتثرت هنا وهناك. وكان المنتحر لا يزال ممسكاً سلاحه بيده. لا بد أنه قد مات على الفور.

فحص بطرس ستيفانوفتش كل شيء بعناية، ثم نهض وخرج ماشياً على رؤوس الأصابع. وأغلق الباب وراءه. ووضع الشمعدان على المائدة في الغرفة الأولى، وفكر لحظةً، فقرر أن لا يطفئ الشمعة، إذ قال لنفسه إنها لا

يمكن أن تسبب حريقاً. وبعد أن ألقى نظرة أخيرة على الرسالة التي كانت موضوعة في مكان بارز، ابتسم على غير إرادة منه، وترك الجناح سائراً على رؤوس الأصابع أيضاً، لا ندري لماذا!

حتى إذا تسلل إلى الخارج من الممر الذي كان يسلكه فدكا، حرص على أن يسده وراءه بعناية واهتمام.

3

في الساعة السادسة إلّا عشر دقائق تماماً، كان بطرس ستيفانوفتش وإركل يذهبان ويجيئان على رصيف المحطة أمام صفٍ طويل من حافلات القطار السريع. إن بطرس ستيفانوفتش مسافر، وقد رافقه إركل مودعاً. كانت الأمتعة قد سُجِّلت، وكانت حقيبة السفر قد وُضعت على مقعد في إحدى حجرات الدرجة الثانية إيذاناً بأن المكان محجوز. وقد انطلقت الإشارة الأولى التي تؤذن برحيل القطار، فالمسافرون ينتظرون الآن قرع الجرس بالإشارة الثانية وكان بطرس ستيفانوفتش ينظر يمنةً ويسرةً لا يحاول أن يختبئ عن الأبصار، وكان يلاحظ الناس الذين يدخلون حافلات القطار، بانتباه شديد. ولكنه لم يـر أي صديق، ولم يُتح له أن يحيي بحركة من الرأس إلّا تاجراً كان يعرفه معرفة غامضة، وكاهناً شاباً كان ذاهباً إلى أبرشيته التي تبعد عن المدينة محطتين.

واضح أن إركل كان يود في هذه اللحظات الأخيرة لو يتكلم في أمور هامة، رغم أنه ربما كان لا يعلم على وجه الدقة ما الذي يود لو يتكلم فيه، ولكنه لا يجرؤ أن يكون هو البادئ بالكلام. وكان يبدو أن بطرس ستيفانوفتش قد ضاق ذرعاً بوجوده، وأنه ينتظر انطلاق الإشارة الثانية من الجرس مؤذنة بتحرك القطار.

قال إركل على خجل ووجل، وكأنه يريد أن ينبِّه بطرس ستيفانوفتش إلى خطرٍ ما:

ـ إنك تنظر إلى الناس بطلاقة وحرية...

ـ لم لا؟ ما المانع؟ لا ينبغي لي بعدُ أن أختبئ. لم يحن الآوان بعد. اطمئن. كل ما أخشاه هو أن يرسل الشيطان إلينا ليبوتين: إنه إذا سمع شيئاً فسيهرع إلينا فوراً.

قال إركل وقد عزم أمره آخر الأمر على أن يتكلم جاداً:

ـ بطرس ستيفانوفتش، إنهم ليسوا بمضمونين.

ـ من؟ ليبوتين؟

ـ هو والآخرون.

ـ سخف! بعد الذي جرى أمس، أصبحت قابضاً على زمامهم جميعاً، لا أحد منهم سيخون. لا بد أن يفقد واحدهم عقله حتى يخاطر هذه المخاطرة.

ـ بطرس ستيفانوفتش، سيفقدون عقولهم.

لعل هذه الفكرة قد سبق أن خامرت بطرس ستيفانوفتش، لذلك أزعجته ملاحظة إركل مزيداً من الإزعاج.

ـ أتراك خائفاً أنت أيضاً يا إركل؟ إنني أعتمد عليك أكثر من اعتمادي على جميع الآخرين. أنا أعرف الآن ما قيمة كل واحد منهم، إنني أعهد بهم إليك، فأطلعهم على ما حدث، بل اذهب إليهم في هذا الصباح نفسه. أمَّا تعليماتي المكتوبة فاقرأها عليهم غداً أو بعد غد حين يكونون قد ثابوا إلى أنفسهم وعاد إليهم رشدهم... ولكن ثق أنهم سيكونون، حتى منذ الغد، قادرين على أن يسمعوها وأن يفهموها. ذلك أنهم خائفون خوفاً رهيباً، وسيصبحون كالشمع ليونة!... أنت خاصةً لا تفقدنَّ شجاعتك.

ـ آه يا بطرس ستيفانوفتش، الأفضل أن لا تسافر!

ـ ولكنني لن أغيب إلّا عدة أيام. سأعود قريباً.

قال إركل بحذر ولكن بلهجة ثابتة:

ـ بطرس ستيفانوفتش. هبك ذهبت حتى إلى بطرسبرج... أتظن أنني لا أدرك أنك إنما تعمل في سبيل "القضية" وحدها؟

ـ لم أكن أنتظر منك أقل من هذا يا إركل. إذا كنت قد حزرت أنني مسافر

إلى بطرسبرج، فلا بد أنك أدركت أيضاً أمس أنني لم أكن أستطيع، في مثل تلك اللحظة، أن أقول لهم أنني مسافر إلى بعيد، وذلك حتى لا أفزعهم. لقد رأيت بنفسك صنف هؤلاء الناس. ولكنك تدرك أنني مسافر لأمر خطير، خطير أقصى الخطورة، أمر يعنينا جميعاً ويتعلق بنا جميعاً، ولا أسافر هرباً كما يفترض شخص مثل ليبوتين.

ـ بطرس ستيفانوفتش، هبْك سافرت حتى إلى الخارج، فلسوف أفهم ذلك. أنا أدرك أن المفروض فيك والمطلوب منك أن تكون حذراً، حريصاً على شخصك، لأنك أنت كل شيء، أمَّا نحن فلسنا شيئاً. إنني أفهم يا بطرس ستيفاتوفتش.

وكان صوت الشاب المسكين يتهدج ويختلج.

ـ شكراً يا إركل! آي... لقد لمست خنصري المريضة...

كان إركل قد صافح بطرس ستيفانوفتش بخراقة، فلمس إصبعه الجريحة المضمدة، ضماد من قماش التافتاه الأسود.

وأردف بطرس ستيفانوفتش يقول:

ـ أكرر لك مرةً أخرى إنني لا أسافر إلى بطرسبرج إلّا التماساً للأخبار. وقد لا أمكث فيها إلّا أربعاً وعشرين ساعة أعود بعدها إلى هنا. ومن أجل أن أحوِّل عني الشبهات سوف أقيم في الريف، عند جاجانوف. إذا تخيلوا أنهم معرَّضون لخطر فسأضع نفسي في مقدمتهم، فأكون أول من يصاب. على كل حال، إذا أطلت إقامتي ببطرسبرج، فسأُعلمك فوراً... بالطريقة التي تعرفها... فتتولى أنت إبلاغهم.

وانطلقت الإشارة التالية التي تؤذن بتحرك القطار بعد قليل.

ـ لم يبق لنا إلّا خمس دقائق. اسمع إنني لا أريد أن تتفرق الحلقة التي هنا وأن تتبعثر. لا لأنني خائف... فلا تخش عليَّ شيئاً. إن حلقات شبكتنا كثيرة، ولست أحرص على هذه حرصاً خاصاً. ولكنها تزيد حلقات الشبكة حلقةً على كل حال. ثم إنني أعلم أن في وسعي أن أعتمد عليك، رغم أنني أتركك هنا وحيداً في وسط هؤلاء الحمقى الأغبياء. لا تخش شيئاً. لن يخونوا، لن يجسروا أن يخونوا...

هنـا رأى بطرس سـتيفانوفتش فتـى كان مقبلاً عليه بفـرح، فصاح بطرس يسـأله بصوت مـرح، صوت يختلف كل الاختلاف عـن صوته في حديثه مع إركل:

ـ آ... أأنت مسافر اليوم؟ أتركب القطار السريع؟ لم أكن أعرف ذلك. إلى أين أنت ذاهب؟ إلى عند أمك؟

ـ لا بـل إننـي ذاهب إلـى أبعد من ذلـك، إلـى "ر..." ثماني سـاعات في القطار! وأنت؟ إلى بطرسبرج؟

كذلـك سـأله الفتى ضاحـكاً. فأجابه بطـرس سـتيفانوفتش وهو يضحك ضحكاً صريحاً طلقاً:

ـ لماذا تفترض أنني مسافر إلى بطرسبرج؟

فرفع الفتى له إصبعه مهدداً. وكان الفتى يلبس قفازين.

وتابع بطرس سـتيفانوفتش كلامه فقال خافضـاً صوته خفضاً يحمل معنى السر:

ـ نـعـم. حـزرت. أنـا مسـافر إلـى بطرسـبرج ومعـي رسـائل مـن جوليا ميخائيلوفنـا. يجـب علـيَّ أن أرى ثـلاث شـخصيات أو أربعـاً... بصراحـة: شيطان يأخذهم! يا لها من مهنة لعينة كريهة!

فسأله الفتى هامساً:

ـ ولكـن قـل لـي: لمـاذا دب الذعـر في نفسـها فجـأة؟ لقـد رفضت حتى اسـتقبالي أمـس. وفي رأيـي أنها يجب أن لا تقلق على زوجهـا. ليس هناك ما يوجـب القلـق. بالعكس: لقد وثـب وثبة رائعـة أثناء الحريق. جـازف بحياته تقريباً.

عاد بطرس ستيفانوفتش يضحك وقال:

ـ ومع ذلك... المسـألة هي أنها تخشـى أن يكون أحد قد كتب من هنا... هناك أشـخاص تشـتبه فيهـم. ثم هنالك سـتافروجين خاصـةً، أو قل الكونت "ك..." هذه قصة طويلة... قد أروي لك طرفاً منها أثناء الطريق... إذا سمحت لي بذلك مشاعر الفروسية طبعاً! أعرِّفك بالضابط إركل. هو قريب لي.

لـم يكن الفتى قد انقطع عن التفرس فـي إركل بطرف عينيه. فلما عرَّفه به بطرس ستيفانوفتش وضع يده على قبعته محيياً، فردَّ إركل التحية.

ـ هل تعلم يا فرخوفنسـكي أن قضاء ثماني سـاعات في القطار أمر فظيع؟ عندنا هنا، في الدرجة الأولى من القطار، الكولونيل بيرسـتوف، رجل مسـلٍ جـداً، هـو جاري في الريف. لقد تزوج فتاة اسـم أسـرتها جاريـن. فتاة لائقة جـداً. حتـى إن عنده أفـكاراً... لقد قضى هنـا يومين، إنه يعشـق لعب الورق عشـقاً جنونيـاً (الويسـت) فما رأيك فـي أن ننظم لعبة "ويسـت"؟ هه؟ هناك شخص رابع يمكن أن يشاركنا اللعب، إنه بريبوخلوف، تاجر من "ت..." له لحية طويلة، مليونير، مليونير فعلاً... أنا أقول لك ذلك... سأعرِّفك به. كيس دنانير، مسلٍ جداً! سنضحك كثيراً!.

ـ يحلو لي كثيراً أن ألعب "الويسـت"، ولا سـيما في القطار، لكنني راكب في الدرجة الثانية!

ـ لا قيمة لهذا! تعال إلى حجرتنا. سـأنبئ رئيس القطار. إنه يطيعني بدون أن يقول كلمة واحدة. ماذا معك؟ حقيبة سفر؟ غطاء؟

ـ هيَّا بنا! نذهب إلى هناك.

تناول بطرس سـتيفانوفتش حقيبته وغطاءه وكتابه بمساعدة إركل ومضى يسـتقر في الدرجة الأولـى، راضياً عن هذا التغيير كل الرضى، سـعيداً به كل السعادة.

ورنَّ جـرس المحطـة مرة ثالثة. فقال بطرس سـتيفانوفتش يخاطب إركل منشغلاً أشد الانشغال، ماداً يده إلى الضابط من خلال الباب:

ـ طيب يا إركل. ها أنت ذا ترى أن عليَّ أن ألعب بالورق معهم.

ـ لا داعي إلى أن تشرح لي يا بطرس ستيفانوفتش. إنني أفهم حق الفهم يا بطرس ستيفانوفتش، أفهم كل شيء.

ـ طابت أيامك!...

قـال بطـرس سـتيفانوفتش ذلـك مودعـاً إركل، والتفت علـى حين فجأة يستجيب لنداء الفتى الذي كان يريد أن يعرِّفه بصاحبيه. ولم ير إركل صاحبه بطرس ستيفانوفتش بعد ذلك قط.

رجع إلى بيته حزيناً كل الحزن. ليس رحيل بطرس ستيفانوفتش بغتةً هو الذي يبث الاضطراب في نفسه، لا... ولكن... ولكن بطرس ستيفانوفتش قد تحوّل عنه بسرعة كبيرة استجابة لنداء هذا الفتى الأنيق... ثم... ثم لقد كان في وسعه أن يقول له في وداعه شيئاً آخر غير هذا التعبير "طابت أيامك"، أو أن يصافحه مصافحةً أقوى على الأقل.

إن تلك المصافحة التي تشتمل على قلة الاكتراث هي التي تحدث أكبر ألم. غير أن هناك شيئاً آخر أيضاً قد بدأ يعذّب قلبه الصغير، شيئاً كان هو نفسه لا يفهمه، شيئاً له علاقة بالليلة البارحة.

الفصل السابع
آخر رحلة لستيفان تروفيموفتش

1

أنا واثق بأن ستيفان تروفيموفتش كان يزداد خوفاً كلما اقتربت ساعة تنفيذ مشروعه الجنوني. أنا واثق بأنه تألم كثيراً، ولا سيما عشية رحيله، أثناء الليلة الرهيبة التي شب فيها الحريق. لقد روت ناستاسيا في ما بعد أنه اضطجع في سريره متأخراً ونام. ولكن هذا لا يدل على شيء: ألا يُروى عن المحكوم عليهم بالإعدام أنهم ينامون نوماً عميقاً عشية تنفيذ الحكم فيهم؟ ورغم أن ستيفان تروفيموفتش قد غادر مسكنه في الفجر، أي حين يكون الناس العصبيون في حالة من فرط الاهتياج عادةً (تتذكرون أن الميجر، قريب فرجنسكي، كان يكف عن الإيمان بالله متى طلع النهار)، فأنا واثق بأنه ما كان له في يوم من الأيام قبل الآن أن يتصور بغير جزع أنه سيمضي وحيداً في الطرق، وسيجد نفسه في مثل هذه الحال. ولكن يجب أن نفترض أن الكرب الشديد قد بثَّ في نفسه شجاعة، وأضعف في البداية - فظاعة ذلك الإحساس بالوحدة الكاملة الذي غزاه فجأة منذ ترك "ستازي" وبارح العش الدافئ الذي عاش فيه عشرين عاماً. ومهما يكن من أمر، فإن ستيفان تروفيموفتش ما كان له إلّا أن يرحل، ولو أحس إحساساً واضحاً بكل ما كان ينتظره. لقد كان في هذه الرحلة نوع من بطولة يثير حماسته رغم كل شيء. كان يمكنه طبعاً أن يقبل الشروط الرائعة التي وضعتها له فرفارا بتروفنا، وأن يرتضي آلاءها "كرجل عامي" طفيلي، ولكنه رفض تلك الصدقة ورحل.

فها هو ذا الآن يترك كل شيء، ويرفع "راية الفكرة العظيمة" عاليةً كل العلو، الفكرة العظيمة التي سيموت من أجلها في الطريق العام!... لا بد أن حالته النفسية كانت هي هذه. ولا بد أن مشروعه قد بدا له في هذه الصورة.

ولقد ألقيت على نفسي مراراً كثيرة هذا السؤال الآخر أيضاً: لماذا رحل ماشياً؟ لماذا لم يركب عربة؟ وأجبت نفسي عن ذلك السؤال في أول الأمر بأن هذا يرجع إلى ما عُرف في الرجل من ضعف الحس العملي، وإلى ما كان عليه من اضطراب فكري بتأثير العاطفة العنيفة التي تسيطر عليه آنذاك. لقد تراءى لي أن الحصول على جواز طريق واكتراء عربة (ولو كانت ذات جرس) كانا يبدوان له أمرين مبتذلين عاميين. فالأجمل والأوقع في النفس أن يسافر ماشياً مشي الحجاج (ولو كان هذا الحاجُّ مزوداً بمظلة)، ولا بد أن يكون لهذه البادرة شأن أكبر في نفس فرفارا بتروفنا. أمَّا اليوم، بعد أن انتهى كل شيء، فإنني أتصور أن الأمور جرت مجرى أبسط من هذا: لقد كان يخشى أن يكتري عربة لأن فرفارا بتروفنا قد تعلم الأمر فتمنعه من السفر بالقوة (لا شك أنها كانت ستفعل ذلك)، ويخضع هو، فأين تصير "الفكرة العظيمة" حينذاك؟ هذا عن اكتراء العربة، وأمَّا عن جواز الطريق، فمن الواضح أنه لكي يحصل المسافر على جواز طريق يجب أن يعرف إلى أين هو مسافر. ولم تكن تلك حال ستيفان تروفيموفتش. حتى إن هذا بعينه هو ما يعذبه في هذه الساعة أكثر من أي شيء آخر: لقد استحال عليه استحالةً مطلقة أن يعزم أمره على تحديد مكان من الأمكنة. ذلك أنه لو اختار هذه المدينة أو تلك من المدن لبدا له مشروعه على الفور سخيفاً ومستحيلاً. إنه يحس ذلك سلفاً، ما عساه فاعلاً في تلك المدينة التي يختارها؟ لماذا يختار هذه المدينة من دون سواها؟ أبحثاً عن ذلك "التاجر"؟ ولكن أي "تاجر"؟ عندئذ إنما كان ينبجس في ذهنه ذلك السؤال الرهيب. الواقع أنه لا شيء في نظره كان مريعاً مثل "ذلك التاجر" الذي يسرع هو إلى البحث عنه ويخاف أشد الخوف أن يعثر عليه طبعاً. لا، الأفضل أن يمشي في الطريق العام، الأفضل أن يمضي من دون أن يفكر في شيء ما ظل ممكناً أن لا يفكر في شيء. الطريق العام...

شيء طويل، طويل جداً، لا يرى المرء له نهاية، كالحياة الإنسانية. كالأحلام الإنسانية. الطريق العام يتضمن فكرة. أمَّا جواز السفر في الطريق فأية فكرة يمكن أن يتضمن؟ جواز السفر نهاية كل فكرة... "عاش الطريق العام"، وعلى بركة الله...

بعد أن التقى بليزا ذلك اللقاء غير المتوقع، وهو اللقاء الذي سبق أن وصفته، استأنف ستيفان تروفيموفتش مشيه وقد انتابته سورة من حماسة أشد. إن الطريق العام يبعد عن سكفورشنيكي مسافة نصف فرسخ. أمر غريب: إن ستيفان تروفيموفتش لم يلاحظ في البداية أنه سلك الطريق العام. ما كان له في تلك اللحظة أن يحتمل أن يفكر تفكيراً منطقياً، أو على الأقل أن يشعر شعوراً واضحاً بما كان يفعله. وهذا رذاذ من المطر يتساقط من حين إلى حين، ولكن ستيفان تروفيموفتش لا يفطن حتى إلى هطول المطر، وهو لم يفطن أيضاً إلى أنه رمى كيسه وراء كتفه، وأن ذلك قد سهَّل مشيه كثيراً. ولعله كان قد مشى فرسخاً أو فرسخاً ونصف فرسخ، حين توقف فجأة ونظر حوله. إن الطريق الأسود، المحفَّر، المحفوف بأشجار مائية، يمتد أمامه إلى غير نهاية. وعلى يمينه حقول عارية قد حُصدت منذ مدة طويلة، وعلى شماله حراج مقطوعة نمت على جذوع أشجارها فروع صغيرة، ثم غابةٌ بعد ذلك. وهناك، هناك في بعيد، خط السكة الحديدية الذي لا يُكاد يرى، وإنما يدل عليه دخان قطار لا يُسمع له صوت من شدة البعد. شعر ستيفان تروفيموفتش بخوف، ولكن الخوف لم يدم إلّا لحظة واحدة. وتنهد ستيفان تروفيموفتش على غير إرادة منه، ووضع كيسه على الأرض، وجلس ليستريح قليلاً، وشعر برعدة تسري في جسمه حين جلس فأحكم تلففه بمعطفه. وإذ لاحظ أيضاً أن المطر يهطل فتح مظلته. ولبث جالساً على هذه الحال مدة طويلة، وهو يحرِّك شفتيه من حين إلى حين، ويمسك قبضة المظلة إمساكاً قوياً، كانت صورة مبعثرة أشد التبعثر تدور في ذهنه وتتلاحق وتتطارد بعضها وراء بعض. "ليز، ليز، ومعها مافريكي ذاك... ما أغربهم من ناس!... ولكن ما ذلك الحريق الذي تحدثوا عنه؟... وتلك الجثث؟... أظن أن "ستازي" لم

تعلم شيئًا بعد... لا بد أنها لا تزال تنتظرني مع القهوة... بالورق؟ هل حدث لي أن خسرت رجالاً أثناء اللعب بالورق؟ همْ... في بلادنا، في روسيا، في العهد الذي يقال له عهد العبودية...آه... رباه!... وفدكا؟...".

ارتعش ستيفان تروفيموفتش مرتاعاً، ونظر حوله: "ماذا إذا كان فدكا مختبئاً هنا في مكان ما، وراء بعض الشجيرات مثلاً؟... يقال إنهم عصابة كاملة تهاجم المارة في الطريق العام. آه... يا رب! وأنا الذي... لأقولنَّ له الحقيقة كلها. سوف أقول له إنني مذنب... وإنني تألمت له خلال عشر سنين، أكثر مما تألم هو حين كان جندياً... و... وسوف أعطيه محفظة نقودي. همْ!... "معي أربعون روبلاً. سوف يأخذ المال ثم يقتلني مع ذلك" (بالفرنسية).

بهذا حدّث ستيفان تروفيموفتش نفسه جزعاً، ثم إذا هو أثناء هذا الجزع يطوي مظلته ـ لا ندري لماذا ـ ويضعها على الأرض إلى جانبه.

وفي بعيد، على الطريق، ظهرت عربة. إنها آتية من المدينة. أخذ ستيفان تروفيموفتش يراقبها قلقاً بعض القلق. وجعل يحدث نفسه قائلاً: "الحمد لله... هذه عربة. إنها تسير بطيئة. لا يمكن أن يكون هذا خطراً. هذه أفراس من هنا، أفراس بليدة مسكينة... لطالما قلت إن هذه السلالة من الأفراس... لا بل إن بطرس إيلتش هو الذي تكلم في النادي عن السلالة، بينما كنت أنا أجمع الحصيلة، ثم... ولكن ماذا وراء العربة؟... أظن أن في العربة امرأة قروية... قروي وقروية. هذا مُطمئن. المرأة في خلف، والرجل في أمام. هذا مطمئن جداً. ووراء العربة بقرة مربوطة من قرنيها. هذا مطمئن إلى أبعد حدود الطمأنينة".

ووصلت العربة إلى حيث كان ستيفان تروفيموفتش. إنها عربة من عربات الفلاحين، متينة وجديدة. كانت المرأة جالسةً على كيس كبير، وكان الفلاح راكباً في الأمام على حافة العربة متدلي الساقين. وكانت بقرة حمراء مربوطةً من قرنيها تتبع العربة فعلاً. تأمل الرجل وامرأته ستيفان تروفيموفتش محملقين، ونظر إليهما ستيفان تروفيموفتش أيضاً. ولكن ما إن تجاوزاه

عشرين خطوة حتى أسرع ينهض ليلحق بهما. إن مجاورة العربة تبدو له مطمئنةً حتماً. ولكنه ما إن وصل إلى العربة حتى كان قد نسي كل شيء، وعاد يغرق في أحلامه. وأغلب الظن أنه كان يتقدم في سيره من دون أن يخطر بباله أنه في نظر الفلاح وامرأته في هذه اللحظة أعجب وأغرب ما يمكن أن يلتقي به المرء في الطريق العام.

ولم تطق الفلاحة صبراً، فسألته وهو يرفع نحوها نظرة ذاهلة:

ـ من أنت، إذا جاز لي أن ألقي هذا السؤال؟

إنها امرأة في نحو السابعة والعشرين من عمرها، ممتلئة الجسم، سوداء الشعر، زاهية اللون، كانت ابتسامتها اللطيفة التي ترتسم على شفتيها الحمراوين تكشف عن صفين رائعين من الأسنان البيض.

دمدم ستيفان تروفيموفتش يسألها بدهشة أليمة:

ـ أتكلمينني أنا... أنا؟

قال الفلاح بثقة:

ـ لا شك أنه تاجر.

هو فلاح قوي الجسم، في نحو الأربعين من عمره، له لحية غزيرة تضرب إلى حمرة وتحف بوجهه العريض. وما هو بالرجل الغبي.

قال ستيفان تروفيموفتش مدافعاً عن نفسه كيفما اتفق:

ـ لا... لست تاجراً... أنا... أنا... "أنا شيء آخر" (بالفرنسية).

وأبطأ خطوه، فصار وراء العربة يسير محاذياً البقرة.

عاد الفلاح يتكلم فقال بعد أن سمع كلمات أجنبية:

ـ لا بد أنه سيد من السادة.

وشدَّ الازمَّة.

وقالت المرأة تكمل كلامه:

ـ ونحن كنا نقول لأنفسنا: لعله يتنزّه.

ـ هل... هل عنّي تتكلمين؟

من هنا.

قال الفلاح بلهجة الواثق بنفسه أيضاً:

ـ هذان حذاءا رجل عسكري.

ـ لا، لست عسكرياً، إنني...

وحدَّث ستيفان تروفيموفتش نفسه منزعجاً يقول: "ما أغرب هذه المرأة! وما أعجب تفرسها فيَّ!... "على كل حال" (بالفرنسية)... الخلاصة: أشعر بأنني مذنب في حقهم، ومع ذلك لست بمذنب".

فأخذت "المرأة" تكلم زوجها هامسة.

ـ إذا كان هذا لا يسوؤك، فنحن يسرنا أن نُركبك معنا... لا لشيء غير إرضائك.

فثاب ستيفان تروفيموفتش إلى نفسه فجأة وأسرع يقول:

ـ نعم نعم يا صديقيَّ. يسرني هذا كثيراً. لأنني متعب جداً. ولكن كيف أتسلق إليكما.

وأضاف يحدث نفسه: "شيء غريب جداً... مشيت إلى جانب البقرة هذه المدة الطويلة كلها ولم يخطر ببالي أن أركب عربتهما. حقاً إن "الحياة الراقية" شيء خاص جداً...".

ومع ذلك لم يوقف الفلاح حصانه. وأخيراً قال يسأله بشيء من عدم الثقة:

ـ ولكن إلى أين أنت ذاهب؟

فلم يفهم ستيفان تروفيموفتش فوراً.

ـ هل إلى خاتوفو مثلاً!

ـ إلى خاتوف؟ لا... وأنا لا أعرفه، وإن كنت قد سمعت عنه.

ـ خاتوفو، خاتوفو، هذه قرية، قرية!

ـ قرية؟ "رائع" (بالفرنسية). أعرف هذا الاسم فعلاً...

وظل ستيفان تروفيموفتش يمشي، ولا يدعوه أحد أن يركب. وفجأة

خطرت بباله فكرة عبقرية. قال:

ـ لعلكم تتخيلون أنني... ولكن معي جواز سفر، وأنا أستاذ، أو قولوا إن شئتم معلّم، ولكنني معلّم رئيسي، "نعم، هكذا يمكن أن يُترجم عملي". أود كثيراً لو أركب معكم، وسوف أشتري لكم... سوف أشتري لكم نصف زجاجة من الخمر.

قال الفلاح:

ـ خمسون كوبكاً يا سيدي... الطريق شاقة.

وقالت المرأة:

ـ وإلا كنا مغبونين.

ـ خمسون كوبكاً؟ موافق على خمسين كوبكاً. و"هذا أفضل، إن مجموع ما معي أربعون روبلاً، ولكن..." (بالفرنسية).

أوقف الفلاح الحصان، ورُفع ستيفان تروفيوفتش إلى العربة بجهد مشترك، فجلس على الكيس إلى جانب المرأة. وسرعان ما عاد يغرق في أحلامه. كان يدرك هو نفسه، في بعض اللحظات، أنه مسرف في الذهول وأنه لا يفكر في حاله. وكان يعجب لذلك. بل إن هذا الإحساس بالضعف العقلي كان يؤلمه ويجرح كرامته.

قال يسأل المرأة الشابة:

ـ وما ذاك... في الخلف؟

فقالت الفلاحة ضاحكة:

ـ كأنك يا سيدي لم تر في حياتك بقرة!

وتدخل الفلاح فقال:

ـ اشتريناها من المدينة. لقد فطست بهائمنا في الربيع الماضي... بالطاعون. هلكت الماشية في كل مكان، عند جميع الجيران، هلك أكثر من نصفها. كارثة حقاً.

وضرب الحصان بسوطه.

فقال ستيفان تروفيموفتش مدمدماً:

ـ نعم، هذا يحدث عندنا، في روسـيا... ونحن على وجه العموم، معشـر الروس... نعـم... هذا يحدث...
ـ إذا كنـت معلّمـاً فما ذهابك إلى خاتوفو؟ اللهـم إلّا أن تكون ماضياً إلى أبعد من خاتوفو...
ـ أنا... لا... لن أمضي إلى أبعد منها. على وجه الإجمال... أقصد... أنا ذاهب إلى أحد التجار.
ـ ربما إلى سباسوف؟
ـ نعم، تماماً، إلى سباسوف. لا قيمة لهذا على كل حال.
قالت المرأة ضاحكة:
ـ إذا كنت ذاهباً إلى سباسـوف، مشـياً على القدميـن، وبهذين الحذاءين، فسوف تصل إليه بعد أسبوع...
ـ تماماً، ولكن ما قيمة هذا "يا أصدقائي" (بالفرنسية)، ما قيمة هذا؟
كذلك قال ستيفان تروفيموفتش مقاطعاً. وأردف يحدث نفسه:
"مـا أعجبهـم! المـرأة تتحـدث خيراً مـن زوجها على كل حـال. وإنني لألاحظ بوجه الإجمال أن أسـلوبهم قد تبـدل بعض التبدل منذ إلغاء القنانة. ولكـن فيم يهمهم أن يعرفوا أنني ذاهب إلى سباسـوف أو إلى مكان آخر؟ ما دمت أدفع أجر ركوبي فلماذا لا يدعونني وشأني؟".
تابع الفلاح كلامه فقال:
ـ إذا كنت ذاهباً إلى سباسوف، فيجب ركوب السفينة.
وأسرعت المرأة تتدخل فقالت:
ـ هـذا صحيـح. إذ لـو تبعت الشـاطئ بالعربة لـدرت دورة طولها ثلاثون فرسخاً
ـ بل أربعون.
واستأنفت المرأة كلامها فقالت:
ـ غداً، في الساعة الثانية، ستجد السفينة في أوستيفو.
ولكن ستيفان تروفيموفتش أصرَّ على التزام الصمت.

وصمت رفيقاه. كان الرجل يحرك الزمام، وكانت المرأة تبادله ملاحظات قصيرة من حين إلى حين. وغفا ستيفان تروفيموفتش، فما كان أشد دهشته حين هزّته المرأة ضاحكة، فإذا هو يرى نفسه في قرية من القرى الكبيرة، أمام باب "عزبة" ذات ثلاث نوافذ.

ـ غفوت يا سيدي؟

ـ ما هذا؟ أين أنا؟ آ... نعم... لا بأس...

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش متنهداً، ونزل من العربة.

وألقى حوله نظرة حزينة مكتئبة. وبدا له منظر القرية عجيباً، وأحسَّ بغربة شديدة. وأسرع يقول للفلاح:

ـ كدت أنسى أن أنقدك الخمسين كوبكاً!

لقد كان واضحاً أنه منذ الآن يخشى أن يتركهما.

قال له الفلاح:

ـ ستدفع في العزبة. ادخل، أرجوك.

فصعد ستيفان تروفيموفتش درجات الباب المرتجة. ودمدم يقول لنفسه متحيراً قلقاً: "كيف يمكن هذا؟". ولكنه مع ذلك دخل. "هي التي أرادت ذلك" (بالفرنسية). وطعنت هذه الفكرة قلبه. ولكنه سرعان ما نسي كل شيء، نسي حتى كونه دخل العزبة.

تتألف العزبة من غرفتين، وهي منزل مضيء نظيف، لم يكن فندقاً ولكن معارف صاحبه قد ألفوا أن يتلبثوا عنده، وأن يبيتوا فيه.

اتجه ستيفان تروفيموفتش إلى الركن تحت الأيقونات، بدون تحرج أو خشية، ناسياً أن يسلّم، فجلس هناك واسترسل في أحلامه. وفي أثناء ذلك انتشر في جسمه، على حين فجأة، إحساسٌ لذيذ بالدفء. أعقب برد الطريق ورطوبته، فسرت فيه رعدة، ولكن هذه الرعدة القصيرة التي يعرفها الأشخاص العصبيون حين تنتابهم الحمى وينتقلون فجأة من البرد إلى الدفء، كانت لذيذةً له إلى أقصى الحدود. وها هو ذا يرفع رأسه. إن الرائحة

الشهية التي تفوح من فطائر كانت ربة البيت مشغولة بإعدادها قد دغدغت أنفه.

فنهض نصف نهوض، وتمتم يقول مبتسماً ابتسامة طفل:

ـ ما هذا؟ فطائر؟ "شيء عظيم" (بالفرنسية).

فسألته ربة البيت بأدب:

ـ هل تريد أن تصيب شيئاً منها يا سيدي؟

ـ نعم، أريد. هذا ما أريده. أريد فطائر... وأسألك شيئاً من الشاي كذلك.

ـ السماور؟ بسرور كبير.

وقُدِّمت إليه الفطائر في طبق كبير عليه رسوم أزهار ضخمة زرقاء، وهي فطائر من قمح وشلت، مصنوعة بالطريقة القروية، رقيقة جداً، مرشوشة بالزبدة الطازجة المحمية. إنها فطائر لذيذة، ذاقها ستيفان تروفيموفتش متمتعاً بمذاقها أكبر التمتع.

ـ ما أدسمها! وما أطيبها! ليت المرء يستطيع أن يشرب معها "إصبعاً من خمرة" (بالفرنسية).

ـ أليست الفودكا هي ما يرغب فيه سيدي؟

ـ هي بعينها. قليلاً من الفودكا. قليلاً جداً.

ـ بخمسة كوبكات؟

ـ نعم، بخمسة، بخمسة... قليلاً جداً.

كذلك كان يردد ستيفان تروفيموفتش وهو يبتسم ابتسامة سعيدة.

إذا سألت شخصاً من الشعب أن يفعل من أجلك شيئاً، فإنه يخدمك بسرور وعناية إذا أراد واستطاع. ولكن إذا سألته أن يجيئك بفودكا، فإن استعداده الهادئ للخدمة ما يلبث أن يحل محله تعجل فرح، واعتناء يوشك أن يشتمل على عاطفة وحنان. إن الذي يجيئك بالفودكا يعرف حق المعرفة أنك أنت الذي ستشربها لا هو، ولكنه مع ذلك يشاطرك اللذة التي تنتظرك نوعاً من المشاطرة...

ما انقضت ثلاث أو أربع دقائق (وكان الكاباريه على مسافة خطوتين)

حتى وضعت أمام ستيفان تروفيموفتش زجاجة وقدح كبير.

سأل مدهوشاً:

ـ أهذا كله لي أنا؟ لطالما شربت فودكا في البيت، ولكنني لم أكن أعلم أنه يمكن الحصول على هذا المقدار كله بخمسة كوبكات.

وملأ القدح ونهض واتجه بشيء من الأبهة صوب رفيقة رحلته، القروية الشابة ذات الحاجبين الأسودين التي شدَّ ما أرهقه فضولها، والتي كانت جالسة الآن في الركن المقابل من الغرفة. رفضت القروية في أول الأمر مضطربةَ الهيئة كل الاضطراب، لكنها لم تلبث أن سايرت المواضعات الاجتماعية فنهضت وشربت الكأس ثلاثَ جرعات، كما تفعل النساء عادة، مصعِّرةً وجهها كأن الشراب قد حرق فمها، ثم ردَّت الكأس إلى ستيفان تروفيموفتش وهي تنحني أمامه. فانحنى ستيفان تروفيموفتش هو أيضاً، برصانة ووقار، ثم رجع إلى مكانه مرفوع الرأس.

لكأنه انقاد لإلهام مفاجئ: هو نفسه كان لا يعرف قبل ثانية واحدة أنه سيقدم فودكا إلى المرأة الشابة.

قال يحدث نفسه راضياً عن سلوكه أشد الرضى: "إنني أعرف معرفة كاملة، نعم، معرفةً كاملة، كيف يجب أن يكون سلوك المرء مع الشعب. لطالما قلت لهم هذا".

وسكب لنفسه باقي الفودكا، ورغم أن هذا الباقي كان لا يملأ كأساً كاملة، فقد بثت الخمرة دفئاً وحرارة في جسمه، حتى لقد أثرت في رأسه.

قال يخاطب نفسه بالفرنسية: "مريض تماماً. ولكن ليس شراً كبيراً أن يكون المرء مريضاً".

وهنا سمع صوتاً عذباً، هو صوت امرأة، يسأله:

ـ ألا تريد أن تشتري كتاباً؟

فما كان أشد دهشته حين رفع عينيه فرأى سيدة ـ "سيدة حقاً، إن هيئتها هيئة سيدة" ـ بسيطة المظهر في نحو الثلاثين من العمر. إنها ترتدي ثياباً على زي سكان المدن: ثوباً أسود وشالاً أشهب كبيراً على الكتفين. وإن في

وجهها لشيئاً محبباً إلى القلب سرعان ما أعجب به ستيفان تروفيموفتش. لقد عـادت في هـذه اللحظة إلى العزبة التي تركت فيها أشـياءها على دكة، ومنها محفظة نقود كان سـتيفان تروفيموفتش قد تأملها مستطلعاً حين دخل، ومنها كيس من قماش مشمَّع.

استلت المرأة من الكيس كتابين صغيرين مجلَّدين تجليداً جميلاً، وعلى غلاف كل منهما صليب، ومدَّتهما إلى ستيفان تروفيموفتش.

ـ "آ... أظـن أنه الإنجيل!" (بالفرنسـية)... بسـرور عظيـم... آ... فهمت الآن... أنت من تسمى بائعة متجولة. سمعت عن هذا.. خمسون كوبكاً؟

أجابت البائعة:

ـ خمسة وثلاثون كوبكاً.

ـ بكل سرور. "لا اعتراض لي على الإنجيل" (بالفرنسية). و... إنني أريد منذ مدة طويلة أن أعيد قراءته.

وتذكر في تلك اللحظة أنه منذ ثلاثين عاماً على الأقل لم يفتح هذا الكتاب، وأنه قبل سبع سنين قد تذكر بضع عبارات بمناسبة كتاب رينان "حياة يسوع". وإذ لم يكن معه نقود صغيرة، أخرج ورقاته الأربع، ورقات العشـرة روبلات التـي كانت كلَّ ثروته. فأقبلت ربة البيت تعـرض عليه أن تبذِّل له إحدى هذه الورقـات بنقـود صغيـرة، وعندئذ فقط إنما لاحـظ سـتيفان تروفيموفتش أن العزبة كانت ملأى تقريباً بأناس يلاحظونه بانتباه ويبدو عليهم أنهم يتكلمون عنه. وكانـوا يتكلمون كذلك عن حريق الضاحية. وكان صاحب البقرة الذي وصل من المدينة متدفقاً في الحديث تدفقاً خاصاً. وكان المتكلمون يتهمون عمال مصنع شبيجولين.

قال سـتيفان تروفيموفتش يحدث نفسـه: "أمر غريب. إنـه لم يفاتحني أنا بكلمة واحدة عن الحريق، وكان مع ذلك يتكلم طول الوقت!".

ـ سـتيفان تروفيموفتـش، أأنت من أرى يا سـيدي؟ حقاً لـم أكن أتوقع أن ألقاك هنا!... ألم تعرفني؟

هكذا هتف على حين فجأة رجل متقدم في السن يرتدي دثاراً فضفاضاً له

ياقة عريضة مقلوبة. إنه بوجهه الحليق يبدو خادماً قديماً.

خاف ستيفان تروفيموفتش حين رأى أنه عُرف. وجمجم يقول:

ـ معذرة... لا أتذكر...

ـ لا تتذكرني؟ أنا آنيسيم، آنيسيم إيفانوفتش. كنت في خدمة المرحوم السيد جاجانوف. كم من مرة رأيتك مع فرفارا بتروفنا عند المرحومة آفدوتيا سرجيفنا! كنت أحمل إليك كتباً على الدوام، بل لقد جئتك أيضاً مرتين بمربيات من بطرسبرج.

قال ستيفان تروفيموفتش مبتسماً:

ـ آ... نعم... الآن عرفتك... آنيسيم... أأنت تسكن هنا؟

ـ قرب سباسوف، في دير "ف..."، عند مارفا سرجيفنا، أخت آفدوتيا سرجيفنا. لعلك تذكر أن ساقها كانت قد كُسرت: وثبت من العربة حين كانت ذاهبةً إلى حفلة رقص. إنها تسكن الآن قرب الدير، وأنا في خدمتها. واليوم أذهب إلى المدينة كما ترى لألقى أهلي.

ـ نعم، نعم...

تابع آنيسيم كلامه فقال بابتسامة مفتونة:

ـ إنني سعيد جداً برؤيتك. لقد كنت تحسن معاملتي دائماً. ولكن إلى أين تذهب هكذا وحيداً يا سيدي؟... ما كنت تسافر وحيداً قبل اليوم قط، في ما يبدو لي.

نظر إليه ستيفان تروفيموفتش بارتياع.

ـ ألست ذاهباً إلينا، إلى سباسوف؟

ـ نعم، إلى سباسوف. يخيل إليَّ أن الجميع مسافرون إلى سباسوف...

ـ ربما إلى عند فيدور ماتفئتش؟ ما أعظم السرور الذي سوف يملأ قلبه حين يراك! لقد كان يحمل لك أعظم التقدير دائماً! وكثيراً ما يتكلم عنك حتى الآن.

ـ نعم نعم، سأذهب أيضاً إلى عند فيدور ماتفئتش.

ـ تحسن صنعاً يا سيدي. إن الفلاحين هنا مدهوشون كل الدهشة. يقولون

إنك قد وُجدت في الطريق العام وحيداً ماشياً: إنهم بلهاء!

ـ إنني... المسألة... اسمع يا آنيسيم: لقد راهنت، على طريقة الإنجليز في الرهان، وسوف أقطع المسافة ماشياً، وسوف...

ـ نعم، هذه هي المسألة... هذه هي المسألة.

كان آنيسيم يصغي إليه باستطلاع لا يرحم. وأصبح ستيفان تروفيموفتش لا يطيق صبراً، وبلغ من الاضطراب والقلق أنه أراد أن ينهض وأن يخرج من العزبة. ولكن جيء بالسماور، وفي تلك اللحظة نفسها عادت البائعة المتجولة إلى الغرفة. فهبَّ ستيفان تروفيموفتش يقدم إليها شاياً بوثبة إنسان لاح له خلاصه، فغُلب آنيسيم على أمره، وتراجع منسحباً.

كان حضور ستيفان تروفيموفتش قد أيقظ دهشة الفلاحين وقلقهم فعلاً. كانوا يتساءلون: "من هذا الرجل؟". لقد وُجد ماشياً في الطريق العام. وهو يقول إنه معلّم. وهو يرتدي ملابس رجل أجنبي. وعقله عقل طفل يخبط في أجوبته خبط عشواء. لكأنه هارب. وهو عدا ذلك يملك مالاً! وخطر ببالهم أن يبلغوا السلطات. "لا سيما وأن المدينة يسودها الاضطراب". ولكن آنيسيم رتَّب الأمور بسرعة، خرج إلى الدهليز وشرح للفلاحين أن ستيفان ترofيموفتش ليس معلّماً وإنما هو "عالم كبير يعنى بجميع أنواع العلوم. وأنه كان هو نفسه يملك في البلد أرضاً، ولكنه منذ اثنين وعشرين عاماً يسكن عند الجنرالة ستافروجين التي يحتل لديها المقام الأول. وإن المدينة كلها تحترمه. وأنه كان يتفق له أن يخسر في "نادي البلاد" خمسة وعشرين روبلاً بل مائة روبل في ليلة واحدة. أمّا رتبته فهي رتبة مستشار، وهي تعادل لدى العسكريين رتبة ليوتنان كولونيل. وأمّا المال فلا غرابة في أن يملك منه قدراً كبيراً، لأن الجنرالة تعطيه ما يشاء بغير حساب"، إلخ، إلخ.

قال ستيفان تروفيموفتش يحدّث نفسه وقد أسعده أن يتخلص من آنيسيم وأخذ ينظر بدهشة ممتعة إلى جارته البائعة المتجولة: "ألا إنها لسيدة حقاً، سيدة كما يجب تماماً. وكانت البائعة في أثناء ذلك تشرب الشاي من صحن الفنجان عاضةً على قطعة السكر بأسنانها. فتابع ستيفان تروفيموفتش حديثه

مع نفسه معلقاً: "لا ضير، لا ضير في أن تعض على قطعة السكر... ما هذا بذي قيمة (بالفرنسية). إن فيها شيئاً نبيلاً مستقلاً، وادعاً في الوقت نفسه. "سيدة كما يجب تماماً" (بالفرنسية)، ولكنها من نوع خاص".

ولم تلبث أن أعلمته أن اسمها صوفيا ماتفئفنا أوليتينا، وأنها تقيم عادةً في "ك..."، عند أختها الأرملة. وقالت له إنها هي أيضاً أرملة. فإن زوجها الذي كان مساعداً ورُفِّع إلى رتبة ملازم ثانٍ تكريماً لخدماته قد قتل في سباستوبول.

ـ ولكنك لا تزالين في ريعان الشباب، "لم تبلغي الثلاثين من العمر" (بالفرنسية).

فقالت صوفيا وهي تبتسم:

ـ بل عمري أربعة وثلاثون عاماً.

ـ كيف؟ أتفهمين الفرنسية؟

ـ قليلاً. لقد عشت أربع سنين في أسرة من أسر المالكين، فتعلمت الفرنسية قليلاً بفضل الأولاد.

وقصَّت عليه أنها ترمَّلت في الثامنة عشرة من عمرها، فدخلت بعض الوقت في سلك "راهبات المحبة" بسباستبول، ثم عملت عند أشخاص كثيرين، وهي الآن تبيع أناجيل.

ـ "ولكن يا إلهي!" (بالفرنسية)، ألست أنت التي وقعت لها تلك القصة العجيبة، بل تلك القصة التي لا يكفي أن توصف بأنها عجيبة؟

فاحمرّت المرأة. نعم. إنها هي التي وقعت لها تلك القصة.

قال ستيفان تروفيموفتش بصوت يختلج من شدة الاستياء والاستنكار:

ـ "هؤلاء الحقراء، هؤلاء الأشقياء"! (بالفرنسية).

ولكن حين وافته هذه الذكرى انقبض قلبه، وهوى غارقاً في أفكاره وخواطره من جديد. حتى إذا ثاب إليه وعيه، فلاحظ أنها ليست معه، قال لنفسه: "غريب! لقد انصرفت ثانية! إنها تخرج باستمرار، وإن هناك ما يشغلها دائماً. حتى ليبدو أنها مهمومة... "آه لقد أصبحت أنانياً" (بالفرنسية).

ورفع عينيه فأبصر آنيسيم، ولكنه أبصره هذه المرة في جو ينذر بشر

مستطير. كانت العزبة ملأى بفلاحين أتى بهم آنيسيم طبعاً. كان هناك صاحب العزبـة، والفلاح الذي اشـترى البقرة من المدينة، وفلاحـان آخران (هما من سـائقي العربات)، ورجل قصير نصف سـكران، يرتدي ثياب الفلاحين لكنه حليـق فلعله أحد سـكان المدينـة، وكان صوته يعلو في الـكلام على صوت سـائر المتكلمين. كان هذا الجمع كله يتناقش في أمر سـتيفان تروفيموفتش. أمّـا صاحـب البقرة فـكان يؤكد أن اتباع طريق شـاطئ البحيرة بالعربة يرسـم دورة لا تقل عن أربعين فرسـخاً بل تزيد، فيجب حتماً ركوب السـفينة. وكان الرجل القصير الثمل وصاحب العزبة يحتجان على هذا احتجاجاً حاراً:

ـ إذا قطع سيادته البحر بالسفينة فلا شك أن هذا أسرع. ولكن من الممكن في هذا الطقس أن لا تستطيع السفينة الرسو على الشاطئ.

فيقول آنيسيم راداً بحرارة شديدة:

ـ بل سترسو، سترسو خلال أسبوع آخر.

ـ صحيح، ولكنها لا تسير سيراً منتظماً مطرداً لأن الجو قد سبق أوانه. فقد يتفق لك أن تنتظر ثلاثة أيام في أوستيفو.

ويزأر آنيسيم قائلاً:

ـ سـتكون السـفينة هنـا غـداً، فـي السـاعة الثانية تمامـاً. وسـتصلون إلى سباسوف قبل الليل يا سيد. الأمر كما أقول لك.

تساءل ستيفان تروفيموفتش بينه وبين نفسه وهو يرتعش منتظراً أن يقرروا مصيره: "ولكن من هذا الرجل؟" (بالفرنسية).

وتقـدم السـائقان هما أيضاً يشـاركان في الحديث ويعرضـان خدماتهما. إنهمـا يطلبان ثلاثة روبلات للوصول إلى أوسـتيفو. فصـاح الآخرون قائلين هذا أجر معتدل معقول، هو الأجر نفسه الذي كان يُطلب طوال فصل الصيف.

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول محاولاً الدفاع عن نفسه:

ـ ولكن حالتي هنا جيدة... ولا أريد أن...

ـ حالتك هنا حسنة... هذا صحيح... ولكنها ستكون عندنا في سباسوف أحسن أيضاً، وسيسعد فيدور ماتفئتش برؤيتك أكبر السعادة!

ـ يا أصدقائي، كل هذا لم أكن أتوقعه...

ودخلت صوفيا ماتفئفنا ثانيةً، فجلسـت على الدكة حزينة منهارة، وقالت لربة البيت:

ـ لن أستطيع الذهاب إلى سباسوف.

فصـاح سـتيفان تروفيموفتـش يقـول وكأن هـذا النبأ قـد ردَّه إلـى الحياة وأنعشه:

ـ ماذا؟ أأنت أيضاً ذاهبة إلى سباسوف؟

فذكـرت لـه أن ناديجدا إيجورفنا سفتلتسـينا، وهي من مالـكات الأطيان فـي هـذه النواحي، قـد طلبت منها أمـس أن تنتظرهـا فى خاتوفـو لتقلَّها إلى سباسوف، ثم لم تجئ هذه السيدة.

وكررت البائعة المتجولة تقول:

فماذا أعمل الآن، فماذا أعمل الآن؟

ـ "ولكن يا صديقتي العزيزة والجديدة" (بالفرنسـية)، يمكنني أنا أيضاً ان أُقلَّـك إلى تلك القرية... ما اسـمها؟ لقد اشـتريت عربة، وغـداً... نعم غداً، سنكون في سباسوف.

ـ أأنت ذاهب إلى سباسوف أيضاً؟

ـ "وما العمل، بل إنني سـعيد جداً بهذا!" (بالفرنسـية)، سأقلُّك إلى هناك مسروراً كل السرور.

ـ من منكما اتفقت معه على السفر إلى سباسوف؟

لقد أصبح سـتيفان ترفيموفتش يتعجل السـفر إلى سباسـوف نافد الصبر فجأة.

وبعد ربع ساعة كانا قد استقرا بمساعدة آنيسيم في عربة مغطاة. أمَّا ستيفان تروفيموفتش فكان مغتبطاً كل الاغتباط نشطاً كل النشاط، وأمَّا المرأة فكانت وقد جلست إلى جانبه مع كيسها المصنوع من قماشٍ مشمَّع، تطوف بشفتيها ابتسامةٌ تعبر عن الاعتراف بالجميل.

صاح آنيسيم يقول منهمكاً حول العربة:

ـ سفراً ميموناً. ما كان أسعدنا بلقائك!

ـ أستودعك الله، أستودعك الله يا صديقي، أستودعك الله!

ـ سترى فيدور ماتفئفتش يا سيدي...

ـ نعم يا صديقي، نعم، فيدور ماتفئفتش... ولكن أستودعك الله.

2

ما إن سارت العربة حتى بدأ ستيفان تروفيموفتش الكلام فقال:

ـ اسمعي يا صديقتي.. أتسمحين لي بأن أعدَّك صديقةً لي؟... إذًا اسمعي يا صديقتي... "أنا أحب الشعب. هذا ضروري لا غنى عنه ولكن يبدو أنني لم أر الشعب يوماً عن كثب. لا شك في أن ستازي من الشعب أيضاً... ولكن الشعب الحقيقي" (بالفرنسية)، الشعب الحقيقي الذي نلقاه على الطريق العام، ليس له من هم في ما يبدو لي إلّا أن يعرف إلى أين ذاهب... ولكن فلنسامحه... أظن أنني أهرف هرفاً... ولكن ذلك يرجع إلى أنني متعجل.

قالت صوفيا ماتفئفنا وهي تنظر إليه بانتباه ولكن باحترام:

ـ أنت مريض في ما أرى.

ـ لا، لا، يكفي أن أغطي جسمي جيداً. الهواء بارد مع ذلك، بل هو بارد جداً. ولكن فلندعْ هذا الآن. أريد أن أتكلم في أمر آخر. "أيتها الصديقة العزيزة التي ليس لها نظير" (بالفرنسية)، يخيَّل إليَّ أنني سعيد تقريباً. وهذا بفضلك أنت. والسعادة تضرني، لأنني سرعان ما أغفر لجميع أعدائي.

ـ ولكن هذا حسن جداً.

ـ ليس دائماً، "أيتها العزيزة البريئة". اسمعي... "من الآن سندعو إلى الإنجيل ونبشر به معاً" (بالفرنسية)، وسيسرني أن أبيع كتبك الصغيرة الجميلة هذه. نعم "يخيَّل إليَّ أن هذه فكرة ربما كانت رائعة، "شيء جديد جداً في بابه" (بالفرنسية). إن الشعب متدين، "هذا أمر مسلَّم به"، ولكنه لا يعرف الإنجيل بعد. فسوف أشرحه له. وحين يشرح المرء هذا الكتاب الممتاز، حين يشرحه بصوت عالٍ، فإنه يستطيع أن يصحح أخطاءه. إنني

مستعد لأن أولي هـذا الكتاب أعظم الاحترام. هكذا أستطيع أن أكون نافعاً حتـى في الطريـق العام. لقد كنت نافعـاً في جميع الأحيـان، قلت لهم ذلك، "وقلته لتلك العقوق العزيزة" (بالفرنسية). آه... ولنأمل أن يغفر لنا الآخرون أيضاً. نعم، لأن كل واحد منا مذنب في حق الآخرين. الجميع مذنبون.

ـ لقد أحسنت القول في ما يبدو لي.

ـ نعـم، نعـم، أحـس أننـي أحسـن القـول، وأجيـد الـكلام. سأحسـن مخاطبتهـم، ولكـن... ماذا كنت أريد أن أقول؟ ماذا كانت فكرتي الرئيسـية؟ إننـي أرتبـك دائمـاً، لم أعـد أتذكر... هل تسـمحين لـي بأن لا أتـركك الآن أبداً؟ إنني أحس أن نظرتك... بل إنني مدهوش من آدابك في السـلوك. إنك بسـيطة، وإنك تستعملين تعابير شعبية، وتشـربين من صحن الفنجان، عاضةً على تلك القطعة اللعينة من السـكر، ومع ذلك فيك شيء ساحر، وإني لأرى في قسـمات وجهـك... أوه! لا تحمـرِّي ولا تخافي منـي خوفك من رجل. "أيتها العزيزة التي لا تضاهى، المرأة عندي هي كل شيء" (بالفرنسية). لا أسـتطيع أن أعيـش إلّا إلى جانب امرأة، ولكن إلى جانبهـا فقط... أواه! إنني أرتبـك ارتبـاكاً رهيبـاً... لا أفلح في تذكـر ما كنت أريد أن أقوله. سـعيدٌ ذاك الذي تبعث إليه السـماء بامرأة دائمـاً... و... وأعتقد أنني متحمس كثيراً. في الطريـق العـام أيضاً يمكن أن تتحقق فكرة عظيمة. نعم، ذلك ما كنت أريد أن أقولـه بصدد الفكرة، تذكرت الآن. منـذ قليل عجزت عن وضع يدي على ما كنت أريد أن أقوله. أوه! كنا هناك في خير حال، بينما "البرد يشتد هنا اشتداداً فظيعاً" (بالفرنسـية). بالمناسبة: إن مجموع ما معي هو أربعون روبلاً، فإليك المال، خذيه، خذيه، إنني لا أحسـن تدبير أمري، قد أضيِّعه، قد يُسـرق مني، و... يخيَّـل إلـيَّ أنني أريد أن أنام. رأسـي يدور، يدور، يـدور. أوه! ما أطيب قلبك، ما أكرم نفسك! بماذا تغطينني؟

ـ لا شـك أنـك تعاني حمَّى، وقـد أعطيتك غطائي. أمَّا عـن المال، فإنني أفضِّل أن...

ـ ناشدتك الله! "لا نتكلمنْ عن هذا بعد الآن. لأنه يؤلمني" (بالفرنسية). ما أنبل نفسك!

وكفَّ عن الكلام فجأة، ولم يلبث أن نام نومَ المحموم. كانت رعدات تهزّه من حين إلى حين.

إن الطريق الموارب المختصر الذي سلكاه لقطع سبعة عشر فرسخاً لم يكن بالطريق الجيد. وقد ارتجت العربة ارتجاجاً شديداً. فكان ستيفان تروفيموفتش يستيقظ من حين إلى حين، فيرفع رأسه عن الوسادة الصغيرة التي دستها صوفيا ماتفئفنا تحت عنقه، ويمسك يد المرأة الشابة، ويسأل: "أأنت هنا؟" كأنما هو يخشى أن تتركه. وكان يقول لها أيضاً إنه يرى في المنام فكاً عريضاً مكشراً عن أسنان، وإن هذا يثير اشمئزازه. فكانت صوفيا ماتفئفنا تقلق قلقاً شديداً.

وتوقفت العربة أخيراً أمام عزبة كبيرة لها أربع نوافذ، ولها ملحقات كثيرة في الفناء. وها هو ذا ستيفان تروفيموفتش، المتعجل كثيراً، يدخل الغرفة الثانية رأساً، وهي أجمل الغرف وأوسعها. وسرعان ما اكتسى وجهه الوسنان تعبيراً عن الهم على حين فجأة. أعلن لربة الدار فوراً، وهي امرأة بدينة طويلة في نحو الأربعين من عمرها، سوداء الشعر، حتى إن شفتها العليا يظللها شارب صغير، أعلن لها أنه يريد أن تُحجز الغرفة كلها له وحده، وأن يُغلق الباب، وأن لا يدخل أحد "لأن هناك كلاماً كثيراً يجب أن يتبادلاه. نعم، هناك أمور كثيرة يجب أن أقولها لك يا عزيزتي، (بالفرنسية). وعاد يقول لربة البيت وهو يحرك يده بإشارات عريضة "سأدفع لك، سأدفع لك".

كان يتكلم في تعجل. ومع ذلك كان لسانه لا يطاوعه. وأصغت إليه ربة المنزل بغير بشاشه ولكنها لزمت الصمت علامةَ الموافقة، وهي موافقة زاخرة بمعاني التهديد على كل حال. لم يلاحظ هو هذا، بل أسرع يأمرها بأن تخرج وأن تجيئهما بالعشاء من غير أي إبطاء (كان يبدو متعجلاً أكبر التعجل).

فما كان من ذات الشارب إلّا أن قالت له وقد نفد صبرها وفقدت سيطرتها على نفسها:

ـ ليس هذا نُزُلاً يا سيدي. إننا لا نقدم للمسافرين هنا غداء. كل ما أستطع أن أفعله لـك هو أن أسـلق لك بعض السـلطعان وأن أحضِّر السـماور. ولن يكون عندنا سمك طازج إلّا في الغد.

حرَّك سـتيفان تروفيموفتـش ذراعيه نافد الصبر وهو يكـرر بلهجة غاضبة حانقة: "سـأدفع، سـأدفع، ولكن أسـرعي!". وتم الاتفاق على إعداد حسـاء بالسـمك ودجاجة مقليـة. وقد أعلنت صاحبة البيت فـي أول الأمر أن القرية كلهـا ليس فيها دجاجة واحدة، ولكنهـا قبلت مع ذلك أن تحاول العثور على دجاجة، متظاهرةً في الوقت نفسه بأنها تخدم الرجل خدمة كبيرة.

وما إن خرجت حتى جلس سـتيفان تروفيموفتش على الديوان، وأجلس صوفيـا ماتفئفنا إلى جانبه. إن الديـوان والمقاعد التي تؤثث الغرفة كانت في حالة يرثى لها. وفي وسعنا أن نقول عن هذه الغرفة الواسعة بعض السعة إنها كانت بسـريرها المخبأ وراء حاجز في داخل فجوة، وبورق جدرانها الأصفر الممـزق المهترئ، وبصورها الليتوغرافية الأسـطورية الفظيعـة، وبأيقوناتها المصطفة صفاً طويلاً، وبأثاثها غير المتجانس، كانت مزيجاً كريهاً من أذواق القريـة والمدينة. غير أن سـتيفان تروفيموفتش لـم يلق نظرة واحدة على ذلك كله، بل إنه لـم يلق حتى نظرة من النافذة على البحيرة الواسعة التي تمتد على بعد ثلاثين خطوة من العزبة.

ـ ها نحن أصبحنا وحيدين! لن يؤذن لأحد بالدخول. أريد أن أحكي لك كل شيء، كل شيء، من البداية.

ارتسم على وجه صوفيا ماتفئفنا قلق شديد، وقاطعته تقول:

ـ هل تعلم يا ستيفان تروفيموفتش...

فسألها وهو يبتسم ابتسامة افتتان:

ـ "كيف؟ أتعرفين اسمي منذ الآن"؟ (بالفرنسية).

ـ عرفتـه منذ قليـل، حين كنت تتكلم مع آنيسـيم. ولكن إليـك ما أريد أن أقوله لك إذا أذنت...

ومالـت عليـه وألقت نحو الباب نظرات قلقة خشـية أن تُسـمع، وأخذت تهمـس قائلةً له إن هذه القرية خطرة على المرء أشـد الخطر: فالفلاحون هنا

صيادون، ولكنهم يعيشـون خاصةً من استغلال المسافرين إذ يجبرونهم على أن يدفعوا لهم في الصيف ما يشاؤون. والناس لا يجيئون إلى هذه القرية التي لا تقـع فـي طريقهم إلّا لأن السـفينة تتلبث فيها. فإذا تأخرت السـفينة ـ لأنها حين يسـوء الجو لا تسـتطيع الرسو على الشـاطئ ـ كثر الناس كثرة كبيرة فإذا جميع الدور مشغولة. والفلاحون لا ينتظرون إلّا هذا: إذ يحملون المسافرين على أن يدفعوا ثلاثة أضعاف ما يجب دفعه في أيسر أمر من الأمور. وصاحب هـذا المحل أكثر أهل القرية كبرياء وغروراً، لأنه أغناهم. إنه يملك شـبكةً لا يقل ثمنها عن ألف روبل.

كان سـتيفان تروفيموفتـش ينظر إلى وجـه صوفيا المتوقد، بما يشـبه أن يكـون عتبـاً. حتى لقد حاول عدة مرات أن يوقفها عن الكلام بحركة من يده. ولكنها كانت حريصةً على فكرتها وأنهت إيضاحاتها: لقد سبق لها أن جاءت إلـى هـذه القرية في الصيف الماضي مع "سـيدة من أسـرة ممتـازة"، فأمضتا معـاً فيهـا يومين بانتظار السـفينة. إلّا أن الأفضل أن لا تتكلم عما قاسـتا: لقد كان مـا قاسـتاه رهيباً فظيعاً. "إنك قد حجـزت الغرفة لك وحدك يا سـتيفان تروفيموفتـش... وما أقولـه الآن إنما أريد به تنبيهـك... إن الغرفة المجاورة فيها منذ الآن مسافرون، رجل مسن، وشاب، وسيدة مع طفلين. ولكن العزبة سـتكون فـي الغد غاصةً بالناس، لأن السـفينة لـم تصل، فلا بد إذًا أن ترسـو فـي الغد حتماً. إن أصحاب الدار سـيطلبون منك مبلغـاً باهظاً لو طُلب حتى في بطرسـبرج لكان فضيحة. غرفة مسـتقلة، وغداء كالذي أمرت به، وإزعاج تسببه لسائر المسافرين، ذلك كله سيكلفك كثيراً...".

كان ستيفان تروفيموفتش يتألم. كان يتألـم فعلاً.

ـ أرجـوك يـا بنيتي! "كفى، كفـى! إن معنا مـالاً، وبعد ذلك يفعـل الله ما يشـاء" (بالفرنسـية). بلى إننـي ليدهشـني أن أراك أنت صاحبة الأمـر العالية الرفيعة تقولين هذا الكلام... "كفى، كفى! إنك تعذبينني"! (بالفرنسية).

كذلك صاح يقول ثائر الأعصاب. وأردف:

ـ إن أمامنـا المسـتقبل كلـه، وأنـت... أنـت تحاوليـن أن تخيفينـي مـن المستقبل...

وسرعان ما شرع يحكي لها قصته كلها، ولكنه بلغ في كلامه من فرط التعجل أنه كان يصعب حتى فهمه في البداية. ودامت قصته مدة طويلة. لقد جيء بحساء السمك، ثم جيء بالدجاجة المقلية، وجيء أخيراً بالسماور، والرجل لا يزال يتكلم... كان يعبِّر بطريقة غريبة، بطريقة مرضية. ولكنه كان مريضاً بالفعل. إن توتراً مفاجئاً في جميع قواه العقلية كان لا بد أن يؤدي ـ كما تنبأت بذلك صوفيا ماتفئفنا قلقةً ـ إلى وهن شديد في جسمه المصاب إصابة بالغة. بدأ بالكلام عن طفولته حين "كان يجري في الحقول عاري الصدر". وبعد ساعة كاملة من الكلام وصل إلى الحديث عن زواجيه ببرلين. لا أريد أن أسخر منه، وهيهات أن يخطر ببالي الضحك عليه. ولكنني أذكر أنه تحدث عن زواجيه حديثه عن شيء عظيم حقاً، لقد كان في نظر نفسه يناضل من أجل الوجود، على حد التعبير الحديث. إنه يرى أمامه المرأة التي اصطفاها لتكون رفيقة طريقه، فها هو ذا يعلِّمها إن صح التعبير. ما ينبغي أن تكون عبقرية ستيفان تروفيموفتش سراً مكتوماً عنها. لعله كان يعقد على صوفيا ماتفئفنا آمالاً فيها كثير من المبالغة الشديدة، ولكنه كان قد اختارها. إنه لا يستطيع أن يستغني عن امرأة. هو نفسه، على كل حال، كان يحزر من تعبير وجهها أنها لا تكاد تفهم عنه، إن أهم ما في كلامه لا تفهمه. فكان يقول لنفسه: "لا ضير، ليس لهذا قيمة، سوف تنتظر. سوف تفهمني الآن بقلبها...".

وصاح يقول قاطعاً حديثه عن قصة حياته:

ـ صديقتي! ما أنا في حاجة إلّا إلى قلبك، وإلى هذه النظرة الساحرة التي تلقينها عليَّ... لا تحمرِّي! سبق أن قلت لك...

وغمضت الأمور في عقل صوفيا المسكينة خاصةً حين أخذ يشرح لها بإفاضة وإسهاب أن أحداً لم يفهمه حتى الآن، وأن "الموهبة عندنا في روسيا مآلها إلى الذبول والضياع لا محالة". لقد اعترفت صوفيا في ما بعد قائلة: "كان كلامه أذكى من أن أستطيع فهمه". وكانت تصغي باجتهاد شاق محملقة العينين. فلما اندفع ستيفان تروفيموفتش في "التنكيت"، فأخذ يتهكم على "العقول التقدمية التي تقودنا" حاولت أن تستبدل بالحزن مرحاً وأن ترد على ضحكه بابتسامة، ولكن محاولتها بلغت من الإخفاق أن ستيفان تروفيموفتش

شـعر هو نفسه بشيء من الاضطراب، فأخذ عندئذ يتجهم بعنف وقسوة على "العدميين"، و"الناس الجدد"، فارتاعت المسكينة ارتياعاً شديداً. ثم لم يهدأ بالها قليلاً ـ وكان هدوءاً خداعاً على كل حال ـ إلّا حين وصل ستيفان تروفيموفتش من حديثه إلى تلفيق رواية حب، بالمعنى الأصلي لكلمة الرواية. إن المرأة مرأة ولو كانت راهبة. فها هي ذي الآن تبتسم، وتهزّ رأسها، ثم تحمرُّ وتخفض عينيها، فيزداد ستيفان تروفيموفتش افتتاناً، ويزداد إلهامه اتقاداً، فتتكاثر أكاذيبه في الرواية مزيداً من التكاثر. فإذا بفرفارا بتروفنا تستحيل إلى سمراء فاتنة ("سبت الأفئدة في بطرسبرج وعواصم أوروبا")، وكان زوجها قد "قُتل برصاصة في سيباستوبول"، لأنه كان يحس بأنه غير جدير بحب زوجته، وبأن عليه أن يدع الميدان خالياً لمنافسه، أي لستيفان تروفيموفتش. "لا تضطربي يا عزيزتي الرقيقة العذبة، لا تضطربي يا عزيزتي المسيحية الفاتنة! لقد كان حبنا يبلغ من الروعة ومن اللطافة أننا لم نتصارح عن عواطفنا في يوم من الأيام". كذلك صاح يقول وقد صدَّق أكاذيبه هو نفسه. وتابع يقول إن سبب ذلك الموقف إنما هو فتاة شقراء (إن لم تكن داريا بافلوفنا، فمن عسى تكون؟ حقاً لا أدري!). فلقد كانت تلك الفتاة الشقراء تدين للسيدة السمراء بكل شيء، فالسيدة السمراء هي التي عُنيت بتربيتها وتعليمها من حيث إنها تمت إليها بقرابة (بعيدة) فلما حزرت السيدة السمراء ما تحمله الفتاة الشقراء له من حب انطوت على نفسها. ولما أدركت الفتاة الشقراء من جهتها ما تحمله السيدة السمراء لستيفان تروفيموفتش من حب انطوت على نفسها هي أيضاً. وهكذا انطوى الثلاثة على أنفسهم وظلوا يتألمون صامتين طوال عشرين عاماً يعذّبهم نبل نفوسهم ويرهقهم من أمرهم عسراً. "آه... يا له من هوى! يا له من هوى!". كذلك صاح يقول وهو يكاد يبكي في سورة من حماسة صادقة، "كنت أراها (السيدة السمراء) في كمال تفتح جمالها، أراها جريحَ القلب، تخطر أمامي خجلةً من جمالها (ومرةً قال: "خجلةً من بدانتها"). وهرب في النهاية، مودعاً إلى الأبد ذلك الحلم الحار الذي دام عشرين عاماً. "عشرون عاماً! والآن، في الطريق العام...". بذلك ختم روايته. ثم ازدادت حمى رأسه فأخذ يشرح لصوفيا ماتفئفنا ما دلالة

"لقائهما العارض الحاسم إلى آخر عصور الدهر أبد الأبدين!". فاضطربت صوفيا ماتفئفنا أشد الاضطراب، ونهضت أخيراً عن الديوان. وهمَّ عندئذ أن يرتمي جاثياً على ركبتيه، فبلغت المرأة المسكينة من الارتياع أن الدموع سالت من عينيها. وكان الليل يهبط، وهما مختليان في هذه الغرفة المغلقة منذ عدة ساعات.

دمدمت تقول:

ـ لا. الأفضل أن تدعني أذهب إلى الغرفة المجاورة. ما عسى يقول هؤلاء الناس جميعاً؟...

وأفلتت أخيراً. وتركها تمضي واعداً إياها أنه سينام فوراً. وكان يشكو من صداع شديد على كل حال. إن صوفيا ماتفئفنا، حين دخلت الغرفة منذ قليل، قد تركت كيسها وأمتعتها في الغرفة المجاورة، عاقدةً عزمها على أن تبيت ليلتها مع ربة الدار. ولكنها لم تستطع أن ترتاح.

ففي أثناء الليل أصيب ستيفان تروفيموفتش بنوبة من نوبات الكوليرين التي يعرفها فيه أصدقاؤه والتي كانت تعقب عنده كل توتر عصبي قوي وكل هزّة انفعالية. فكذلك قضت صوفيا ماتفئفنا ليلتها كلها بغير نوم. واضطرت كأنما لتعتني بالمريض أن تذهب وتجيء مارةً بالغرفة التي كان ينام فيها رب الدار وزوجته وسائر المسافرين، فأخذ هؤلاء أخيراً يدمدمون متذمرين، حتى لقد جعلوا في النهاية يشتمونها حين أرادت في الفجر أن تحضِّر السماور. وكان ستيفان تروفيموفتش في شبه غيبوبة، يحس في بعض الأحيان أنه جيء بالسماور، وأنه يُجرَّع شيئاً ما (هو شراب التوت ساخناً)، وأن كمادات ساخنة توضع على بطنه وصدره. وكان يحس طوال الوقت "أنها" قريبة منه، وأنها "هي" التي تذهب وتجيء، وتُنهضه ثم ترقده، وفي نحو الساعة الثالثة من الصباح شعر بتحسن. فجلس على سريره، ثم وضع قدميه على الأرض، وفجأةً، من دون أن يحس بما يفعل، سجد أمام صوفيا ماتفئفنا: ولم يكن سجوده اليوم كركوعه بالأمس، فهو الآن يهوى على قدميها ويقبِّل حافة ثوبها. فدمدمت المسكينة تقول وهي تحاول أن تنهضه وأن تعيده إلى سريره:

ـ ماذا تفعل؟ إنني لا أستحق.

فقال وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى بحركة عبادة:

ـ أنت مخلِّصي. "إنك نبيلة كمركيزة!" (بالفرنسية) وأنا... أنا رجل شقي، إنسان بائس! آه... إنني لم أكن طوال حياتي إلّا رجلاً غير شريف...

فقالت صوفيا ماتفئفنا ضارعةً إليه:

ـ هدىء نفسك!

ـ لقد كذبت منذ قليل، كذبتُ غروراً وتبجحاً، كذبتُ كسلاً وبطالةً. كل ما قلته لم يكن إلّا كذباً، كل ما قلته، إلى آخر كلمة! ما أشقاني!

هكذا أعقبت نوبةَ الكوليرين نوبةُ مذلة. لقد سبق أن أتيح لي أن تكلمت عن تلك النوبات بصدد الرسائل التي كان يكتبها إلى فرفارا بتروفنا. وفجأة تذكر ليز، ولقاءهما بالأمس فهتف يقول: "فظيع! لا بد أن شقاءً قد حلَّ، ولم أسألها عما وراءها! لم أفكِّر إلّا في نفسي! ماذا حلَّ بها؟ ألا تعرفين ماذا أصابها؟".

ثم أخذ يحلف أنه "لن يخون أبداً" وأنه "سيعود إليها" (يقصد فرفارا بتروفنا). قال: "سنمر كلَّ يوم أمام بابها (يقصد هو وصوفيا ماتفئفنا)، ساعة تركب عربتها لتقوم بنزهتها الصباحية، وستتأملها بصمت... آه... أريد أن تضربني على خدي! ما ألذَّ أن تضربني على خدي! وسأمد لها خدِّي الأيسر، "كما يقول كتابك!" (بالفرنسية). الآن فقط فهمت ما معنى مدِّ الخد الأيسر... ولم أكن قد فهمته قبل الآن في يوم من الأيام...".

قضت صوفيا ماتفئفنا يومين رهيبين. إنها لا تزال حتى هذا اليوم لا تتذكرهما إلّا وترتعد. لقد بلغ ستيفان تروفيموفتش من شدة المرض أنه كان عاجزاً عن ركوب السفينة حين وصلت السفينة في الساعة الثانية تماماً من بعد الظهر، في هذه المرة. ولم تستطع صوفيا ماتفئفنا أن تقرر أن تذهب وتتركه وحده، وعدلت عن السفر إلى سباسوف. وقد روت في ما بعد أن المريض كان سعيداً جداً حين علم أن السفينة سافرت. لقد دمدم يقول وهو راقد على سريره:

ـ رائع! حالتي هنا حسنة، أحسن منها في أي مكان آخر. لن تتركيني، أليس كذلك؟ آه... لا... لم تتركيني!

ولكن الواقع أن حالته لم تكن حسنةً "هنا". لقد كان رأسه مليئاً بالأحلام، فكان لا يريد أن يعرف شيئاً عن المصاعب التي تجتازها صوفيا ماتفئفنا. كان يعدُّ مرضه وعكةً عارضة. حتى أن فكره كان لا يتلبث عليه، لانشغاله بشيء آخر: كيف سيسافران معاً من مدينة إلى مدينة "يبيعان هذه الكتب الصغيرة". وطلب أن تقرأ له الإنجيل.

ـ منذ مدة طويلة لم أقرأه... في النص الأصلي. فإذا سألني أحد كان يمكن أن أخطئ. فالأفضل أن يكون المرء مستعداً.

جلست صوفيا إلى جانبه وفتحت الكتاب. وأخذت تقرأ، فإذا هو يقاطعها منذ أول آية قائلاً لها:

ـ إنك تجيدين القراءة إجادة عظيمة. لقد أخطأ ظني...

قال هذه الجملة الغامضة بحماسة. ولقد كان شديد الحماسة دائماً على كل حال.

قرأت له خطبة الجبل.

قال لها:

ـ "كفى كفى يا بنيتي!" (بالفرنسية). أتحسبين أن هذا غير كاف؟

وأغمض عينيه منهوكاً. لقد كان خائر القوى جداً. لكنه لم يفقد شعوره بعد. نهضت صوفيا ماتفئفنا، مفترضةً أنه يريد أن ينام. لكنه استوقفها بحركة من يده:

ـ صديقتي. لقد ظللت أكذب طوال حياتي، حتى حين كنت أقول الحقيقة. لم أتكلم يوماً في سبيل الحقيقة، بل في سبيل نفسي. إنني أعلم هذا من قبل، ولكنني لم أر إلّا الآن أن... آه... أين هم أصدقائي الذين طالما آذتهم صداقتي؟ لقد آذيتهم جميعاً، جميعاً! "هل تعلمين؟" (بالفرنسية) أنني ربما كنت أكذب حتى في هذه اللحظة؟ نعم، إنني أكذب، هذا أكيد. المهم أنني أصدِّق ما أقوله حين أكذب. وأعسر الأمور أن يحيا المرء بدون أن يكذب. نعم، نعم، ذلك هو أعسر الأمور قاطبة!

قال هذه الجملة الأخيرة بحماسة شديدة.

قالت صوفيا ماتفئفنا تقترح في وجل وخشية:

ـ ستيفان تروفيموفتش، ألا يحسن أن نستدعي طبيباً من المدينة؟ فأدهشه هذا الاقتراح إلى أقصى حدود الإدهاش. وقال لها:

ـ لماذا؟ "أأنا مريض إلى هذا الحد؟ لا، ليس هذا بمرض ذي بال!" (بالفرنسية). ما حاجتنا إلى غرباء؟ وإلا عُلم أنني هنا، وعندئذ... لا، لا، لا حاجة إلى غرباء، بل نبقى وحدنا. وحدنا. وحدنا...

وقال بعد لحظة صمت:

ـ اسمعي. اقرئي لي شيئاً آخر في كتابك، دون اختيار، على المصادفة، ما يقع تحت بصرك...

ففتحت صوفيا ماتفئفنا الكتاب وأخذت تقرأ. فكان ستيفان تروفيموفتش يردد:

ـ على المصادفة، من دون اختيار، أيَّ شيء...

"واكتب إلى ملاك كنيسة اللاوديكيين".

ـ ما هذا؟ من أين هذا؟

ـ من رؤيا يوحنا.

ـ "آ.. نعم.. تذكرت.. رؤيا يوحنا.. اقرئي.. اقرئي" (بالفرنسية). قلت لنفسي إننا إذا فتحنا الكتاب على المصادفة سنكتشف مستقبلنا. أريد أن أعرف ما الذي وقعت عليه من الرؤيا. اقرئي بعد كلمة "الملاك"، "الملاك"...

" واكتب إلى ملاك كنيسة اللاوديكيين: هذا يقوله الأمين الصادق، الأمين الشاهد بداءة خليقة الله. أنا عارف أعمالك. ولست بارداً ولا حاراً، ليتك كنت بارداً أو حاراً. فلأنك فاتر، ولست بارداً ولا حاراً، أنا مزمع أن أتقيأك من فمي. أنت تقول إني أنا غني وقد استغنيت ولا حاجة بي إلى شيء. ولا تعلم أنك شقي وبائس وفقير وأعمى وعريان!".

هتف ستيفان تروفيموفتش يقول وقد أنهض رأسه متقد العينين:

ـ هذا... وهذا في كتابك. لم أعرف في حياتي هذه الصفحة الرائعة. أتسمعين: لأن تكون بارداً، بارداً، خير من أن تكون فاتراً، من أن تكون فاتراً "فحسب". آه... لسوف أبرهن... ولكن لا تتركيني، لا تهجريني! لسوف نبرهن لهم، لسوف نبرهن لهم!

قالت وهي تمسك يديه وتشدهما وتحملهما إلى قلبها:

لا يخطر ببالي أن أتركك يا ستيفان تروفيموفتش. لن أتركك أبداً.

وكانت تنظر إليه بعينين مليئتين بالدموع. "كنت أشعر نحوه بإشفاق شديد في تلك اللحظة". كذلك روت تقول في ما بعد.

وأخذت شفتا ستيفان تروفيموفتش تختلجان.

- ولكن ما العمل الآن يا ستيفان تروفيموفتش؟ يجب أن نبلغ أصدقاءك أو أقرباءك...

ولكنه بلغ من شدة الذعر حين سمع هذه الكلمات أنه ندم على إثارة هذه المسألة من جديد. فتوسل إليها أن لا تستدعي أحداً، وأن لا تشرع في القيام بأي شيء، توسل إليها وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً. وكان يلح إلحاحاً قوياً ويصر على أن تعاهده بأن لا "تبلغ أحداً، أن لا تبلغ أحداً البتة، فنبقى وحدنا" و" نسافر معاً" (بالفرنسية).

وأسوأ من ذلك أن صاحب الدار وامرأته أخذا يقلقان، وأخذا يتذمران، وأخذا يعذِّبان صوفيا ماتفئفنا. فدفعت لهما وأرتهما أنها لا تزال تملك مالاً. فهدأهما ذلك بعض الوقت، ولكن الرجل طلب جواز سفر ستيفان تروفيموفتش. فأشار المريض بيده إلى حقيبته الصغيرة وهو يبتسم ابتسامة تعالٍ واحتقار، فوجدت صوفيا في الحقيبة قرار إحالته على التقاعد أو ورقة أخرى من هذا النوع، وهي الورقة التي أقام بها في المدينة حتى ذلك الحين. ومع ذلك ظل صاحب البيت يلحُّ على ضرورة نقله إلى مكان آخر "لأن بيتنا ليس مستشفى، ولأننا سوف نلقى إزعاجات كثيرة إذا مات". فاستشارته صوفيا ماتفئفنا في أمر طبيب تستدعيه، فقال إن استدعاء الطبيب من المدينة يكلف نفقات باهظة لا قبل لها بها، فعدلت عن فكرتها. وعادت إلى قرب المريض الذي انهارت قواه انهياراً شديداً. لقد كان ستيفان تروفيموفتش يضعف مزيداً من الضعف ساعة بعد ساعة.

قال لها المريض:

- والآن اقرئي لي تلك الصفحة... عن الخنازير.

فقالت له مرتاعة:

ـ كيف؟

ـ عـن الخنازيـر... "أولئـك الخنازير"... أذكـر أن الشـياطين دخلت في خنازير هلكت جميعاً. اقرئي لي تلك الصفحة حتماً. سـأقول لك السبب في ما بعد. أريد أن أتذكر تلك الصفحة كلمة كلمة. يجب أن أتذكرها.

وكانـت صوفيـا ماتفئفنا تعرف الإنجيل جيداً، فسـرعان مـا وجدت تلك الصفحة من إنجيل لوقا، التي صدَّرت بها قصتي هذه. وها أنا ذا أكررها هنا:

"وكان هنـاك قطيـع كبيـر مـن الخنازيـر يرعـى فـي الجبـل، فتضرعت الشـياطين إلى يسـوع أن تدخـل في الخنازيـر. فأذن لهـا. فخرجت من ذلك الإنسـان ودخلت في الخنازير. فاندفع القطيع من أعلى الجرف إلى البحيرة، وغـرق فيها. فلما رأى رعـاة القطيع ما حدث هربوا ونشـروا النبأ في المدينة وفـي القـرى. فخـرج الناس ليـروا ما جـرى، فلما وصلـوا إلى قرب يسـوع وجدوا الإنسـان الذي كانت الشـياطين قد خرجت منه، وجدوه لابسـاً ثيابه، مالكاً عقله، جالساً عند قدمي يسوع. وروى لهم شهود الحادث كيف خلص المجنون".

قال ستيفان تروفيموفتش متأثراً تأثراً قوياً:

ـ اسـمعي يـا صديقتـي... إن هذه الصنعـة الرائعـة... الخارقـة... كانت لـي دائماً حجر عثـرة... "في هذا الكتـاب" (بالفرنسـية)... لذلك احتفظت بهـا فـي ذاكرتي منـذ طفولتي. غير أن فكـرةً وافتني الآن، فكرة هي تشـبيه أو "مقارنة". إن أفكاراً كثيرة توافيني الآن. اسـمعي: هذه هي روسيا تماماً. إن هؤلاء الشياطين الذين يخرجون من المريض ليدخلوا في الخنازير هم جميع الجراح والعفونات والقذارات والشـياطين الصغيـرة والكبيرة التي تراكمت خـلال القرون في مريضنا الغالي العظيم، في روسـيا! "نعم، في روسـيا هذه التي أحببتها دائماً" (بالفرنسـية). غير أن فكرةً رائعة، وإرادة جبارة سـتهبطان عليهـا من السـماء، كما هبطتـا على ذلـك المجنون. وسـتتخلص من جميع الوسـاخات والنتانـات التي سـتطلب هي نفسـها أن تدخل فـي الخنازير. بل لعلها قد دخلت منذ الآن... إنها نحن، نحن وأولئك، بتروشا... "والآخرون معـه" (بالفرنسـية)، وربمـا أنـا أيضـاً فـي طليعتهم. سـوف نهوي مـن أعلى

الجـرف إلى البحر كمجانين مسـعورين، وسـوف نهلك جميعـاً. وهذا خير. إننا لا نصلح لغير ذلك. ولكن المريض سوف يشفى، وسيجلس عند "قدمي يسـوع"، وسينظر الجميع إليه مدهوشين... عزيزتي... "سوف تفهمين في ما بعد... سوف نفهم معاً" (بالفرنسية).

قال ستيفان تروفيموفتش ذلك وأخذ يهذي، وأُغمي عليه أخيراً. فأخذت صوفيا ماتفئفنا تبكي جالسـةً بقربه. إنها لـم يغمض لها جفن منذ ثلاث ليال، وهي تتحاشى صاحب البيت وامرأته اللذين كان يهيئان شيئاً كما تحس بذلك صوفيا. ولم يأت الخلاص إلّا في اليوم الثالث. ففي الصباح عاد إلى ستيفان تروفيموفتش شعوره، وتعرَّف المرأة ومدَّ إليها يده. فرسمت إشارة الصليب، واسـتردت أملها. وأراد أن ينظر من النافذة، فقال: "هه! هذه بحيرة! يا إلهي! لـم أرهـا من قبل" وإنه ليقول هذا الكلام إذ سُـمعت قرقعـة عربة وقفت أمام الباب. فسرعان ما أثار وصولها هرجاً خارقاً في المنزل كله.

إنهـا فرفـارا بتروفنا، بشـخصها تصـل على عربـة ذات أربعـة أحصنة مع خادميـن وداريا بافلوفنا. لقد حدثت هذه المعجزة ببسـاطة تامة. فإن آنيسـيم كان غـداة وصوله إلى المدينة يعذبه حب الاطـلاع والفضول، فمضى يروي لخدم فرفارا بتروفنا أنه رأى سـتيفان تروفيموفتش وحيداً في قرية من القرى، وأن الفلاحين قد لقوه ماشـياً في الطريق العام، وأنه سافر إلى سباسوف. وإذ إن فرفـارا بتروفنـا كانت من جهتها شـديدة القلـق منذ ذلك الحيـن، وكانت قد أرسـلت تبحث عـن الهارب في كل مـكان، فقد قادوا إليها آنيسـيم، فلما سـمعت مـا رواه، ولا سـيما التفاصيل المتعلقة بسـفر سـتيفان تروفيموفتش إلى أوسـتيوف بعربة مع امرأة اسـمها صوفيا ماتفئفنا، أسـرعت تستعد فوراً، واندفعت في أثر الهارب الذي لا تزال تجهل أنه مريض.

حيـن دوَّى صوتها القاسـي الصارم، خاف حتى صاحـب البيت وامرأته. إنهـا لم تتوقف هناك إلّا سـائلة، لاقتناعها بأن سـتيفان تروفيموفتش لا بد أن يكون قد سافر إلى سباسوف منذ مدة طويلة. فلما علمت أنه لا يزال هنا وأنه مريض دخلت العزبة منفعلة أشد الانفعال.

وصاحت تسأل حين رأت صوفيا ماتفئفنا التي ظهرت لحظتئذ في عتبة الغرفة الثانية:

ـ أين هو؟ لقد حزرت فوراً من هيئتك الوقحة أنك أنت. اخرجي من هنا أيتها الوغدة! أخرجوها من هنا، اطردوها، وإلا فسأجعلك تُسجنين إلى آخر حياتك يا عزيزتي، لقد سبق أن سُجنتْ في المدينة وستعود إلى السجن، لا يسمحنّ أحد لنفسه بأن يدخل إلى هنا ما بقيت أنا أيها السيد. أنا الجنرالة ستافروجين، وإني أستأجر البيت كله. وأنت يا عزيزتي ، ستُحاسبين على كل شيء.

اضطرب ستيفان تروفيموفتش عند سماع هذا الصوت الذي يعرفه جيداً، وأخذ يرتعد. ولكن فرفارا بتروفنا كانت قد دخلت إلى ما وراء الحاجز. وجرَّت بقدمها كرسياً وهي متقدة العينين، وجلست، ثم ارتدَّت بجذعها إلى المسند وصرخت تقول لداشا:

ـ اذهبي إلى الغرفة الثانية، ابقي قليلاً مع صاحب البيت وامرأته. ما هذا الفضول؟ واحكمي إغلاق الباب وراءك.

وظلت خلال بضع لحظات تتفرس صامتةً بنظرة صقر في وجه ستيفان تروفيموفتش المذعور. ثم قالت أخيراً تسأله بسخرية حانقة ساخطة:

ـ هيه، ستيفان تروفيموفتش، كيف صحتك الآن؟

فأجابها يقول طائش اللب:

ـ "أيتها العزيزة" (بالفرنسية)... لقد تعلمت معرفة الواقع الروسي... وسأعود إلى الإنجيل.

فصرخت تقول مغتاظة ضامة يديها:

ـ آه... أيها الرجل الفاسق، أيها الرجل الذي لا نبل له! لم يكفك أن جلّلتني بالعار، بل كان لا بد لك من الارتباط أيضاً... آه... أيها العجوز الداعر!

ـ "عزيزتي" (بالفرنسية).

واختنق صوته في حلقه. فلم يستطع أن يضيف كلمة واحدة، واكتفى بأن نظر إليها مستدير العينين من الرعب.

ـ من هذه؟

ـ "هـذه ملاك... هـذه أكثر من مـلاك عنـدي" (بالفرنسـية)... لقد ظلت طوال الليل... لا تصرخي، لا تخيفيها، "عزيزتي، عزيزتي" (بالفرنسية)...

وثبـت فرفارا بتروفنا عن كرسـيها ودفعتـه عنها بقرقعـة، وصاحت تقول مروَّعـة: "مـاء! مـاء! وثـاب المريض إلـى نفسـه، ولكنها ظلـت ترتعش من الخوف، وتنظر في وجهه المتشـنج شـاحبة اللون. إنها في تلك اللحظة إنما أدركت مدى خطورة مرض ستيفان تروفيموفتش.

قالت بصوت خافت تخاطب داريا بافلوفنا:

ـ داريـا. اسـتدعي الدكتور سـالزفيش حالاً فليسـافر إيجور علـى الفور، فليسـتأجر حصانـاً. وليركـب فـي المدينـة عربـة أخـرى ليصـل إلـى هنا مع سالزفيش قبل الليل.

خرجـت داريـا راكضـةً. وكان سـتيفان تروفيموفتـش لا يـزال ينظر تلك النظرة الثابتة الجامدة المرتاعة، وكانت شفتاه الصفراوان تختلجان.

قالت فرفارا بتروفنا تخاطبه ملحةً كما يخاطَب طفل:

ـ هـدىء نفسـك ياسـتيفان تروفيموفتش. هيَّا. عليك بشـيء مـن الصبر. سـترجع داريا... وعندئذ... يا إلهي! يا ريِّسـة... يا ريِّسـة... تعالي... تعالي حالاً!

كذلـك نـادت صاحبـة البيت. ثـم هُرعـت تبحث عنها بنفسـها مـن نفاد صبرها.

ـ أرجعوا "الأخرى" حالاً. نادوها. بسرعة. بسرعة.

من حسـن الحظ أن صوفيا ماتفئفنا لم تكـن بعيدة: لقد رحلت منذ لحظة قصيرة بكيسـها وحزمتهـا الصغيرة. أعادوهـا. كانت يداها وسـاقاها ترتعش خوفـاً. وكمـا ينقـض باز على صـوص أمسـكتها فرفـارا بتروفنا مـن ذراعها وجرَّتها إلى عند ستيفان تروفيموفتش:

ـ هي ذي. لم آكلها! كنت تظن أنني أكلتها.

تناول سـتيفان تروفيموفتش يد فرفـارا بتروفنا، وحملها إلـى عينيه وأخذ يبكي طائش العقل.

ـ طيـب، طيـب، هدئ نفسـك ياعزيزي. رباه! ولكن هلاً هدأت نفسـك! آه... جلاد... جلاد...

كذلك زعقت على حين فجأة.

فدمدم ستيفان تروفيموفتش يقول ملتفتاً نحو صوفيا ماتفئفنا:

ـ عزيزتي، اذهبي لحظة إلى هناك، إلى الغرفة الثانية... أريد أن أقول بضع كلمات...

فأسرعت صوفيا ماتفئفنا تخرج.

ـ "عزيزتي... عزيزتي" (بالفرنسية).

كان يختنق. فقالت له فرفارا بتروفنا!

ـ لا تتكلم يا سـتيفان تروفيموفتش، انتظر قليلاً. اسـترح الآن. إليك ماءً. ولكن انتظر! قلت لك انتظر!

وجلسـت إلـى جانبه من جديـد، وحظرت عليـه أن يتكلم. كان سـتيفان تروفيموفتـش يضغط يدها بيديه ضغطاً قوياً. وها هو ذا يحمل هذه اليد فجأة إلى شفتيه ويقبّلها. فكانت فرفارا تحدِّق إلى ركن من الغرفة كازةً أسنانها.

وأفلت منه أخيراً قوله:

ـ "لقد أحببتك" (بالفرنسية).

لـم يسـبق أن قال لها في يوم من الأيام كلمة كهـذه الكلمة، وبهذه اللهجة أيضاً.

فهمهمت تقول:

ـ همْ...

ـ "لقد أحببتك طوال حياتي... عشرين عاماً!" (بالفرنسية).

فلزمـت الصمـت دقيقتين أو ثلاثـاً. ثم قالت فجأة بصـوت مختنق ولكنه مهدِّد:

ـ ومن أجل أن يَمثل أمام داشا تعطَّر وتطيَّب.

فصُعق ستيفان تروفيموفتش.

ـ ... ووضع رباط عنق جديداً...

صمتنا مرةً أخرى.

ـ والسيجار، هل تتذكره؟
حاول أن يحتج فقال مثأثئاً:
ـ صديقتي...
ـ السيجار، مساءً، قرب النافذة... في ضوء القمر... العريشة... بسكفورشنيكي؟ هل تتذكر؟ هل تتذكر؟
كذلك همست وهي تنهض فجأة، وأمسكت طرفي الوسادة التي كان يرقد عليها رأس ستيفان تروفيموفتش وأخذت تهزّهما. وتابعت تقول:
ـ ... هل تتذكر أيها الرجل الطائش، الخفيف، الذي لا حشمة فيه ولا حياء له، أيها الرجل التافه، التافه كل التفاهة!
أصبح صوتها من فرط الغضب صافراً، ولكنها حاولت أن تخنقه. وتركت الوسادة أخيراً، وتهالكت على الكرسي وغطت وجهها بيديها. ثم قالت وهي تهب واقفة:
ـ كفى! عشرون عاماً مضت ولن تعود. ما أنا إلّا حمقاء!
قال هو يضم يديه:
ـ "لقد أحببتك" (بالفرنسية).
ـ ما بالك تكرر هذا الكلام "أحببتك، أحببتك".
وهبَّت تقف مرة أخرى. وقالت له:
ـ إذا لم تنم فوراً فإنني... إنك في حاجة إلى هدوء. نَمْ، نَمْ حالاً، أغمض عينيك. رباه! لعله يريد أن يصيب شيئاً من الطعام؟ ماذا تأكل؟ ماذا يأكل؟ رباه! أين الأخرى؟ أين هي؟
وعاد الاضطراب. لكن ستيفان تروفيموفتش قال بصوت ضعيف إنه يريد فعلاً أن ينام "ساعة"، وبعد ذلك يشرب "مرقاً ساخناً أو شاياً... وإنه حقاً سعيد" (بالفرنسية). وتمدد، وبدا عليه أنه نام (لعل ذلك لم يكن إلّا تظاهراً).
فانتظرت فرفارا بتروفنا لحظة، ثم خرجت ماشيةً على رؤوس الأصابع.
واستقرت في الغرفة الأولى، وأخرجت صاحب البيت وامرأته، وقالت لداشا أن تأتيها بالأخرى التي شرعت فرفارا بتروفنا تستجوبها استجواباً كاملاً بحسب الأصول.

ـ حدثيني الآن عن كل شيء. اجلسي هنا، إلى جانبي، هيه؟

ـ لقيت ستيفان تروفيموفتش...

ـ قفي، اسكتي. اعلمي أنك إذا كذبت أو أخفيت شيئاً فلن تفلتي من قبضتي ولو ذهبت إلى آخر ركن في العالم. هيه؟

ـ ... لقيت ستيفان تروفيموفتش... منذ وصولي إلى خاتوفو.. كان صوت صوفيا ماتفئفنا يختنق.

ـ انتظري، اسكتي! يا لها من ثرثاة! أولاً، من أنت؟

روت المرأة سيرة حياتها منذ سيباستوبول بكلمات قليلة كيفما اتفق. وكانت فرفارا تجلس منتصبة القامة، وتصغي إليها صامتة، محدقةً بعينيها إلى عيني محدثتها.

ـ ما لي أراك وجلة هذا الوجل كله؟ ما بالك تطرقين إلى الأرض؟ أحب الذين ينظرون إليَّ مواجهةً ويناقشونني مناقشة. أكملي.

وصلت صوفيا ماتفئفنا من حديثها إلى لقائهما، وإلى "الكتب الصغيرة" وإلى الفودكا التي قدمها ستيفان تروفيموفتش إلى الفلاحة. فقالت لها فرفارا بتروفنا لتشجعها:

ـ أحسنت، أحسنت! لا تهملي أي تفصيل من التفاصيل.

وتابعت صوفيا كلامها:

ـ وكان ستيفان تروفيموفتش لا ينقطع عن الكلام، ولكنه كان مريضاً منذ ذلك الوقت. وهنا روى لي سيرة حياته كلها منذ البداية، خلاله عدة ساعات.

ـ ماذا قال لك عن حياته؟

ارتج على صوفيا ماتفئفنا. ثم دمدمت تقول أخيراً وهي تكاد تبكي:

ـ لا أدري. ثم إنني لم أكد أفهم من كلامه شيئاً.

ـ غير صحيح: يستحيل أن لا تكوني قد فهمت شيئاً.

قالت صوفيا وقد احمرّ وجهها احمراراً شديداً إذ لاحظت أن فرفارا بتروفنا شقراء، وأنها لا تشبه السيدة السمراء التي تحدث عنها ستيفان تروفيموفتش أي شبه:

ـ تكلم كثيراً عن سيدة سمراء عالية المقام.

ـ سيدة سمراء؟ من عساها تكون؟ أكملي.

ـ قال إن هذه السيدة السمراء كانت مولَّهةً بحبه طوال عشرين عاماً، ولكنها لم تجسر أن تصارحه بذلك يوماً، وأنها كانت تستحي من فرط بدانتها.

ـ يا للغبي!

كذلك قالت فرفارا بتروفنا بلهجة قاطعة، وشرد ذهنها مع ذلك. لم تستطع صوفيا ماتفئفنا أن تحبس دموعها أكثر مما حبستها إلى الآن؟

ـ لا أستطيع أن أروي لك مزيداً، لأنني كنت خائفة عليه خوفاً شديداً فلم أستطع أن أفهم عنه... إنه ذكي جداً...

ـ ليس لحمقاء مثلك أن تحكم على ذكائه. هل خطبك للزواج؟

ارتجفت صوفيا ماتفئفنا.

ـ هل أحبك؟ تكلمي! هل طلب أن يتزوجك؟

قالت صوفيا ماتفئفنا من خلال دموعها:

ـ تقريباً.

ثم أضافت تقول بصوت ثابت وهي ترفع رأسها:

ـ لكنني لم أنتبه إلى هذا كله، بسبب مرضه.

ـ ما اسمك؟

ـ صوفيا ماتفئفنا.

ـ طيب. اعلمي يا صوفيا ماتفئفنا أن هـذا الرجل تافه كل التفاهة... رباه! لا بد أنك تنظرين إليَّ نظرتك إلى امرأة شقية، هه؟

ـ حملقت الأخرى. وتابعت فرفارا:

ـ امرأة شقية. امرأة طاغية حطمت حياته، هه؟

ـ كيف يكون هذا ممكناً وأنت نفسك تبكين؟

كانت عينا فرفارا بتروفنا مغرورقتين بالدموع فعلاً.

ـ هيَّا، اجلسي، لا تخافي. انظري إليّ وجهاً لوجه مرةً أخرى. لماذا تحمرِّين؟ داشا، تعالي إلى هنا، انظري إليها! ما رأيك؟ هل قلبها طاهر نقي؟

وما كان أشد دهشة صوفيا ماتفئفنا وما كان أشد رعبها أيضاً حين ربتت فرفارا بتروفنا على خدِّها.

ـ المؤسف فقط أنك غبية جداً بالقياس إلى سنك. سوف أعتني بك. إنني أرى الآن أن الأمر لا يعدو أن يكون سفاسف. أقيمي هنا الآن. سأدفع عنك كراء الغرفة وثمن الطعام وما عدا ذلك. وسوف أستدعيك.

حاولت صوفيا ماتفئفنا أن تعترض في وجل بأنها يجب أن تسافر. فقالت لها فرفارا بتروفنا:

ـ فيم العجلة؟ سوف أشتري جميع كتبك. ابقي هنا. اسكتي. لا أريد أن أسمع شيئاً. لو لم أصلْ أنا لما تركته أنت، أليس كذلك؟

قالت صوفيا ماتفئفنا بلهجة قاطعة وهي تجفف دموعها:

ـ ما كان لي أن أتركه قط.

وصل الدكتور سالزفيش في ساعة متأخرة من الليل. إنه شيخ محترم جداً، وطبيب ممارس ذو خبرة قد ترك الخدمة منذ مدة قصيرة على أثر مشاجرة قامت بينه وبين الإدارة. فسرعان ما صار في حماية فرفارا بتروفنا. فحص المريض بانتباه وتدقيق، وألقى عليه عدداً من الأسئلة، ثم أعلن لفرفارا بتروفنا، مع كل المداراة الممكنة، أن حالة المريض مقلقة جداً، وأنه يجب "توقع تفاقمها". فاضطربت فرفارا بتروفنا اضطراباً شديداً بعد أن ألفت منذ عشرين سنة إلى الآن أن لا تأخذ مأخذ الجد أي أمر يتعلق بستيفان تروفيموفتش، وشحب لونها شحوباً شديداً.

ـ أليس هناك أي أمل حقاً؟

ـ لا يمكن القول إننا فقدنا كل أمل، ولكن...

لم ترقد فرفارا بتروفنا طوال الليل، منتظرةً طلوع النهار بفارغ صبر. وما إن فتح المريض عينيه وعاد إليه شعوره (كان لا يزال يملك وعيه كاملاً، ولكن قواه كانت تتناقص تناقصاً سريعاً) حتى اقتربت منه عازمةً أمرها، وقالت له:

ـ ستيفان تروفيموفتش، يجب توقع كل شيء. لقد أرسلت في طلب كاهن. عليك أن تقوم بواجبك.

لقد كانت تخشى، وهي تعرف اعتقاداته، أن يرفض حضور الكاهن. لذلك أسرعت تصرخ منذ نظر إليها مدهوشاً، إذ تخيلت أنه سيرفض. قالت:

ـ سخف! سخف! ليس الأمر أمر سفاسف وترهات الآن! لقد مزحت بما فيه الكفاية!

ـ ولكن... هل حالتي سيئة إلى هذا الحد؟

ووافق على حضور الكاهن شارد اللب. لقد علمت في ما بعد مدهوشاً أشد الدهشة، علمت من فم فرفارا بتروفنا نفسها، أنه لم يخف من الموت أي خوف. لعله لم يصدِّق أنه سيموت، لأنه ظل يعد مرضه أمراً تافهاً لا قيمة له.

واعترف للكاهن وتناول القربان المقدس راضياً كل الرضى. حتى إذا انتهى من تلقي الأسرار، أقبل عليه الجميع، ومنهم صوفيا ماتفئفنا والخدم، يهنئونه. وقد لقوا عناءً كبيراً في حبس دموعهم حين رأوا وجهه الناحل المهدود، وشفتيه البيضاوين اللتين كانتا تختلجان.

ـ "نعم يا أصدقائي" (بالفرنسية)... واني ليدهشني فقط أن أراكم منشغلين هذا الانشغال كله... غداً قد أنهض... فنسافر... "إن هذا الاحتفال كله" (بالفرنسية) الذي أشعر نحوه بأكبر الاحترام طبعاً، إنما كان...

أسرعت فرفارا بتروفنا تتدخل مخاطبةً الكاهن الذي كان قد نضا عنه ملابس الكهنوت فقالت:

ـ أرجوك يا أبي أن تبقى بقرب المريض. وأرجوك متى قدمت الشاي أن تتحدث في أمور إلهية تعزيزاً لإيمان المريض.

فبدأ الكاهن كلامه فقال بصوت متساوٍ رتيب، بينما كان يحمل فنجان الشاي بيده:

ـ في عصرنا هذا الذي بلغت فيه الخطيئة هذا المبلغ من القوة، فإن الملاذ الوحيد للجنس البشري في وسط آلام الوجود ومحن الحياة، إنما هو الإيمان بالله، والأمل في السعادة الأبدية التي وُعد بها الصالحون...

ظهر على ستيفان تروفيموفتش أنه انتعش، وانسابت على شفتيه ابتسامة ناعمة رقيقة...

ـ "شكراً يا أبت، وإنك لطيب جداً، ولكن..." (بالفرنسية).

ـ لا "لكن" أبداً... لا "لكن" البتة!

كذلـك صاحت تقـول فرفارا بتروفنـا واثبةً عن كرسـيِّها. وتابعت كلامها تقول للكاهن:

ـ أبت، هذا رجل، رجل... سيكون من الواجب حمله على الاعتراف مرةً أخرى بعد ساعة... ذلك هو نوع هذا الرجل!

ابتسم ستيفان تروفيموفتش ابتسامة محتشمة خفية. وقال:

ـ يـا أصدقائي، إن الله ضرورة لي، لأنـه الموجود الوحيد الذي يمكن أن يحبه المرء حباً أبدياً...

تُرى أكان يؤمن بهذا الكلام فعلاً، أم أن فخامة الاحتفال قد بثت في نفسه الاضطـراب إذ أيقظـت عاطفة الفنان التي تتصف بهـا طبيعته؟ مهما يكن من أمـر، فإنـه، كما يقال، قـد قال بلهجة جازمـة نافذة بضعة أقـوال تناقض آراءه القديمة مناقضة واضحة.

ـ إن خلـودي ضـرورة لازمـة، لمجـرد أن الله لـن يشـاء أن يرتكب ظلماً يطفـئ إلى الأبد العاطفة التي اشـتعلت في قلبي حباً له. وأي شـيء أثمن من الحب؟ إن الحب فوق الموجود قيمة، إنه تاج الموجود. فكيف يكون ممكناً أن لا يخضع له الموجود؟ إذا كنت قد أحببت الله وسعدت بهذا الحب، فهل يمكـن أن يطفئنا اللـه، أنا وحبي، وأن يغرقنا في العـدم؟ إذا كان الله موجوداً فأنا خالد! ذلكم هو "إعلاني لمبادئي" (بالفرنسية).

قالت فرفارا ملحةً بصوت ضارع:

ـ اللـه موجود، ياسـتيفان تروفيموفتش، أؤكد لك أن اللـه موجود. فأنكر تلك السخافات كلها، وانبذها، ولو مرةً واحدة في حياتك.

أغلب الظن أنها لم تفهم "إعلانه لمبادئه".

قال سـتيفان تروفيموفتش وهو يزداد حماسـة، لحظة بعـد لحظة، غير أن صوته لا يسعفه:

ـ صديقتـي... حين فهمت اليوم... مدَّ الخد الأيسـر... فإنني... فإنني... فهمت على الفور شيئاً آخر أيضاً... "لقد كذبت طوال حياتي" (بالفرنسية)... نعـم، طوال حياتي! وأريد... على كل حال... أريد... غداً... أن نسـافر كلنا معاً...

أخذت فرفارا بتروفنا تبكي. وكان ستيفان تروفيموفتش يبحث بعينيه عن شيء ما.

ـ هي ذي، إنها هنا!

كذلك قالت له فرفارا بتروفنا، وأمسكت صوفيا ماتفئفنا من يدها، وقادتها إلى قربه. فابتسم ابتسامة فيها رقة وحنان. وقال وهو ينتفض انتفاضة قوة:

ـ آه... لكم أود لو أعيش أيضاً! إن كل دقيقة، بل كل لحظة يجب أن تكون فرصةً للإنسان... نعم... ذلك ما يجب أن يكون. واجب الإنسان أن يفعل ما يجعل هذا واقعاً. ذلك قانون الإنسان... هو قانون خفي لكنه واقع، لكم أود أن أرى بتروشا... والجميع... وشاتوف!

يجب أن أذكر في هذه المناسبة أن أحداً لم يكن قد سمع شيئاً عن شاتوف بعد، لا داريا بافلوفنا، ولا فرفارا بتروفنا، حتى ولا الدكتور سالزفيش الذي وصل من المدينة.

وكان اضطراب ستيفان تروفيموفتش يزداد ساعةً بعد ساعة، وكان هذا الاضطراب ينهك قواه.

ـ يكفي أن أتصور أن هناك شيئاً أعدل مني بما لا نهاية له، وأسعد مني بما لا نهاية له، حتى يملأني ذلك حناناً واسعاً وأن يملأني شعوراً بالمجد، كائناً من كنت أنا، وفاعلاً ما فعلت. لا يحتاج الإنسان إلى سعادته الخاصة كاحتياجه إلى أن يعرف ويؤمن في كل لحظة أن هناك في مكان ما سعادة مطلقة وسلاماً لجميع الناس ولكل الأشياء... قوام قانون الحياة البشرية كله أن يكون في وسع الإنسان أن ينحني أمام شيء عظيم عظمة لا نهاية لها. فإذا حُرم البشر من هذا الشيء الذي لا نهاية لعظمته رفضوا أن يعيشوا وماتوا في اليأس. النهاية والمطلق لا غنى للإنسان عنهما، كما لا غنى له عن هذه الأرض التي يعيش عليها... يا أصدقائي، جميعاً، جميعاً! عاش "الفكر العظيم"! الفكر الأبدي، اللانهائي! لا غنى لكل إنسان، كائناً من كان، عن الانحناء أمام الفكر العظيم. إن أغبى إنسان في حاجة إلى شيء عظيم. بتروشا... آه... لكم أود أن أراهم مرة أخرى جميعاً! إنهم لا يعرفون، لا يعرفون أنهم هم أيضاً تنطوي نفوسهم على ذلك "الفكر العظيم" ذلك الفكر الأبدي!

لـم يكـن الدكتـور سـالزفتش قد حضـر الاحتفال. فلمـا عاد فجـأة ارتاع وأخرج جميع الناس ملحّاً على أن يتركوا المريض هادئاً.

مـات سـتيفان تروفيموفتـش بعـد ثلاثـة أيـام. ولكنـه فقـد الشـعور قبل ذلـك بكثير. ولقـد توفي بهدوء ورفق كما تذوب شـمعة. وقـد أمرت فرفارا بتروفنـا بإقامة قدّاس في غرفـة الموتى، وأرجعت جثمان صديقها العزيز إلى سكفورشـنيكي، وجعلت قبره في حرم الكنيسـة، وكسـت القبر بشـاهدة من مرمر، وأحاطته في الربيع بسياج من حديد مشبّك.

دامـت إقامـة فرفـارا بتروفنا في أوسـتيفو ثمانية أيام. وقـد اصطحبت في عودتهـا صوفيـا ماتفئفنا التـي أقامت عندها منـذ ذلك الحين إقامـة أظن أنها سـتكون دائمـة. يجـب أن نذكـر أن فرفـارا بتروفنا، منـذ اللحظـة التي غاب فيهـا عـن سـتيفان تروفيموفتش شـعوره، قـد أبعـدت البائعـة المتجولة، بل طردتهـا من العزبة، وظلت تعنى بالمريض إلـى آخر لحظة. ولكن ما إن لفظ المريض آخر أنفاسـه حتى استدعت صوفيا ماتفئفنا، وعرضت عليها أن تقيم في سكفورشـنيكي (بل قل أمرتهـا بذلك)، فلما حاولـت صوفيا أن تعترض خجلى وجلى، لـم تشأ فرفارا بتروفنا أن تسمع شيئاً، وقالت:

ـ هذه كلها سخافات! سأمضي معك أبيع أناجيل. لم يبق لي أحد في هذا العالم!

فقال سالزفيتش:

ـ ولكن لك ابناً!

فقالت بلهجة قاطعة:

ـ لا بل لم يبقَ لي ابن.

لكأنها كانت تقرأ المستقبل وتعلم الغيب.

الفصل الثامن
خاتمة

1

هذه الجرائم كلها،وهذه الفظائع كلها قد اكتشفت بسرعة كبيرة، بسرعة أكبر مما كان يقدّر بطرس ستيفانوفتش. ففي ليلة مقتل شاتوف استيقظت المسكينة ماريا أجناتيفنا قبل الفجر. فبحثت عن زوجها بعينيها فلم تجده بقربها فجُنّت قلقاً. وحاولت المرأة العجوز التي تركتها آرينا بروخورفنا إلى جانبها وباتت معها في الغرفة حاولت أن تهدئها ولكنها لم تظفر بطائل. ولذلك ما إن طلع النهار حتى ركضت إلى بيت آرينا بروخوروفنا التي لا بد، كما قالت للمريضة، أن تعرف أين يوجد شاتوف ومتى يعود. وفي أثناء ذلك كانت آرينا بروخوروفنا تشعر هي أيضاً بأشد القلق: فإن زوجها قد قص عليها ما جرى الليلة البارحة في حديقة سكفورشنيكي. إن فرجنسكي قد رجع إلى داره في نحو الساعة الحادية عشرة من المساء على حالة من الجزع يرثى لها. وقد تهالك على سريره وهو لا يني يردد عاقفاً يديه ذارفاً دموعه "ليس هذا، ليس هذا أبداً". وفي النهاية اعترف لآرينا بروخوروفنا بكل شيء طبعاً. ولكنه اعترف لها وحدها. فأمرته آرينا بروخوروفنا بأن يبقى راقداً وقالت له بلهجة قاسية إن عليه إذا أراد البكاء أن يدفن رأسه في الوسادة حتى لا يستطيع أحد أن يسمعه، وأنه سيكون غبياً كل الغباء إذا لم تتحسن سحنته في الغد. وقررت مع ذلك أن تتخذ بعض الاحتياطات استعداداً لأي طارئ، فحرقت أو أخفت الأوراق أو الكتب الخطيرة، والمنشورات التحريضية.

وفكرت في الأمر فقالت لنفسها إنه ما من خطر يتهدّدها هي أو يتهدد أختها أو الطالبة أو أخاها شيجالوف على كل حال. فلما جاءتها العجوز في الصباح مضت إلى ماريا أجناتيفنا بغير تردد. لقد كانت تريد أن تعرف أيضاً، بأقصى سرعة، ما الذي انتهت إليه الآمال التي كان يعقدها بطرس ستيفانوفتش على كيريلوف، والتي حدّثها عنها فرجنسكي زائغ الهيئة تماماً.

ولكن وصولها إلى عند ماريا أجناتيفنا كان متأخراً: فإن ماريا وقد وجدت نفسها وحيدة لم تطق صبراً على البقاء في البيت فنهضت وألقت على جسمها ما وقع تحت يدها من لباس ـ وهو ثوب رقيق جداً لا يناسب هذا الفصل من فصول السنة ـ وهرعت إلى عند كيريلوف، قائلة لنفسها إن كيريلوف لا بد أنه يستطيع أن ينبئها عن شاتوف أكثر مما يستطيع ذلك أي شخص آخر. وتستطيعون أن تتصوروا الشعور الذي أحدثه في نفس المسكينة، ذلك المشهدُ الذي كان ينتظرها في بيت كيريلوف. يجب أن نذكر أنها من شدة هلعها لم تنتبه إلى الرسالة التي كانت مع ذلك متروكة على المائدة في موضع بارز.

رجعت ماريا إلى غرفتها فتناولت طفلها وولت هاربة في الشارع الذي كان لا يزال خالياً مقفراً في تلك الساعة. كان الجو رطباً والضباب منتشراً. وكانت هي تركض لاهثة متعثرة بالوحل اللزج البارد. وقررت أخيراً أن تقرع أبواب المنازل، ولكن لم يفتح لها أحد. وظلت مع ذلك تقرع إلى أن فُتح لها أخيراً أحد الأبواب: إنه مسكن رجلٍ من تجار مدينتنا اسمه تيتوف. قلبت ماريا أجناتفنا البيت كله رأساً على عقب: كانت تعول إعوالاً شديداً وتكرر أن "زوجها قد قُتل". وكانت أسرة تيتوف تعرف شاتوف، وكانت على شيء من العلم بقصته. والشيء الذي روّعهم خاصة هو أن هذه المرأة التي ولدت منذ قليل كما تقول كانت تركض في الشوارع وهي لا يكاد يكسوها شيء، وذلك في هذا الجو البارد، مع طفل عارٍ تقريباً تحمله في يديها. ظنوا في أول الأمر أنها تهذي، لا سيما وأنهم لم يستطيعوا أن يفهموا من الذي قُتل: أهو كيريلوف أم هو زوجها؟ وإذا لاحظت أنهم لا يصدّقونها أرادت أن تهرب،

ولكنهم احتجزوها بالقوة، رغم أنها أخذت تصرخ وتتخبط كمجنونة كما قيل. وذهبوا إلى عمارة فيليبوف، فما مضت ساعتان إلّا وكانت المدينة كلها على علم بانتحار كيريلوف وبرسالته. واستجوبت الشرطة ماريا أجناتيفنا التي لم تكن قد فقدت وعيها بعد، وعندئذ اكتشفوا أنها لم تكن قد قرأت الرسالة، وأنها لا تستطيع أن تذكر كيف استنتجت موت زوجها من موت كيريلوف. كانت لا تزيد على أن تصرخ قائلة إن زوجها قد قُتل ما دام كيريلوف قد قُتل، "لأنهما كانا معاً". وفي نحو الظهر فقدت وعيها، وماتت غداة غدٍ دون أن تفيق من إغمائها. أما الطفل الذي كان قد أصابه برد فإنه سبقها إلى القبر.

حين لم تجد آرينا بروخوروفنا الأمّ ماريا أجناتفنا ولا طفلها، أحست بمجيء الكارثة وقررت أن ترجع إلى البيت. ومع ذلك توقفت تحت البوابة وأرسلت العجوز "تسأل السيد الذي يسكن الجناح المستقل في صحن الدار هل ماريا أجناتفنا عنده، أو هل يعرف على الأقل أين هي". فعادت العجوز وهي تطلق صيحات من شأنها أن تهيِّج الشارع كله. فأسرعت آرينا بروخوروفنا تسكتها بالحجة المعروفة جداً: "اسكتي وإلا كان لك مع القضاء متاعب"، ورجعت إلى دارها بأقصى سرعة.

وإذ علمت الشرطة أن آرينا بروخوروفنا قد أشرفت على ولادة امرأة شاتوف، فقد جاءت تستجوبها في ذلك الصباح نفسه، ولكنها لم تستطع أن تحصل منها على شيء ذي بال. لقد رددت بأكبر الهدوء كل ما رأته وما سمعته عند شاتوف، ولكنها صرّحت بأنها لا تعرف شيئاً عن موت شاتوف وعن الأحداث الأخيرة.

تستطيعون أن تتصوروا الانفعال الشديد الذي أحدثه هذا كله في المدينة. "هذه قصة جديدة! هذا اغتيال آخر". ولكن الوضع أخذ يظهر الآن في ضوء جديد: إن وجود جمعية سرية تضم قتلةً ومشعلي حرائق وثوريين أصبح الآن أمراً لا يشك فيه أحد. إن موت ليزا الفظيع، ومقتل زوجة ستافروجين، واختفاء ستافروجين، والحريق، وحفلة الرقص التي أقيمت لمساعدة المعلّمات، والاستهتار الذي يسود بيئة جوليا ميخائيلوفنا، وحتى

هرب بطرس ستيفانوفتش فجأة... ذلك كله أصبح له شكل مؤامرة واسعة. وأخذت أنواع من الشائعات تجري عن ستافروجين. ولكن الغريب أن الناس لم يتكلموا إلّا قليلاً عن بطرس ستيفانوفتش الذي علموا أنه سافر في ذلك المساء نفسه. ولكنهم تكلّموا كثيراً عن "عضو مجلس الشيوخ".

رابط جمهور كبير أمام عمارة فيليبوف طوال الصباح. وفي البداية صدّقت الشرطة الأكذوبة التي تضمنتها رسالة كيريلوف، فاعتقدت بأن كيريلوف هو الذي قتل شاتوف ثم انتحر "القاتل". ولكن السلطات إذا كانت قد انخدعت فإن انخداعها لم يكن كاملاً. من ذلك أن الحديقة التي تشير إليها رسالة كيريلوف تلك الإشارة الغامضة، لم تضلل أحداً، على خلاف ما تنبأ به بطرس ستيفانوفتش. لقد أسرعت الشرطة إلى سكفورشنيكي فوراً، لا لأنه ليس لدينا حديقة أخرى فحسب، بل أيضاً لأن نوعاً من الغريزة قاد خطى البحث: إن جميع الأحداث الرهيبة في تلك الأيام الأخيرة إنما تتصل كثيراً أو قليلاً بسكفورشنيكي وسكانها (يحسن أن أشير عابراً إلى أن فرفارا بتروفنا التي لم تكن تعرف شيئاً كانت قد غادرت المدينة في ذلك الصباح نفسه بحثاً عن ستيفان تروفيموفتش). واكتُشفت جثة شاتوف في نحو المساء. وعلى مقربة من مكان ارتكاب الجريمة عُثر أيضاً على قبعته التي قد نسيها القتلة خفةً وطيشاً. وظهر من فحص الجثة فحصاً طبياً ومن بعض العلاقات الأخرى أن كيريلوف كان له شركاء.

وأصبح من المسلّم به إذًا أن هناك جمعية سرية تضم شاتوف وكيريلوف ولها علاقة بالمنشورات. ولكن من هم شركاؤهما؟ لم يكن "أصحابنا" يخطرون ببال أحد حتى ذلك الحين. وقد عُلم أن كيريلوف كان يعيش حياة منزوية، وأن فدكا، كما تذكر الرسالة، قد استطاع أن يقيم عنده مدة طويلة بينما كان يُبحث عنه في كل مكان!... والشيء الذي أدخل الاضطراب في العقول أكثر من كل ما عداه هو أنه كان يستحيل على المرء أن يحل هذه الألغاز ويستخرج بعض النتائج. ولولا أن كل الأمور اتضحت فجأة في الغداة بفضل ليامشين، لكان يصعب علينا أن نتخيل الافتراضات العجيبة والآراء الغريبة

التي كان يمكن الوصول إليها آخر الأمر.

لم يستطع ليامشين أن يطيق صبراً. لقد حدث له ما أوجسه بطرس ستيفانوفتش نفسه في النهاية. قضى نهاره كله في السرير بحراسة تولكاتشنكو أولاً ثم بحراسة إركل. وكان هادئ المظهر، ملتفتاً نحو الحائط، يلتزم الصمت ولا يكاد يجيب حين يوجّه إليه الكلام. لم يعلم إذًا بشيء مما كان يجري في المدينة غير أن تولكاتشنكو الذي كان على علم بكل شيء قرر في نحو المساء أن يترك المهمة التي أناطها به بطرس ستيفانوفتش، وأن يرحل إلى المقاطعة، أي أن يهرب: لكأنهم قد فقدوا صوابهم جميعاً. واضح أن إركل لم يخطئ. لقد هرب ليبوتين هو أيضاً في ذلك اليوم نفسه منذ الصباح. غير أن السلطات لم تعلم برحيله إلّا في الغد، وحين جاءت الشرطة إلى مسكنه وجدت الأسرة كلها قلقة لاختفائه أشد القلق، غير أنها تكتم أمر هذا الاختفاء مع ذلك.

أعود إلى ليامشين. إنه منذ أصبح وحيداً (إذ كان إركل قد اتكل على تولكاتشنكو وعاد إلى بيته)،أسرع يخرج، فما هي إلّا برهة قصيرة حتى كان على علم بتفاصيل الموقف طبعاً. فقرر أن يهرب بغير إبطاء، أن يمضي قدماً لا يلوي على شيء. ولكن الظلام كان حالكاً، فبدت له مغامرته محفوفة بمخاطر شديدة، فبعد أن قطع شارعين أو ثلاثة، رجع إلى البيت، وأقفل على نفسه الباب بالمفتاح. يقال إنه حاول في الصباح أن ينتحر، ولكنه لم يفلح في ذلك. فمكث في غرفته حتى الظهر. وعندئذ اتخذ قراره فجأة، فأسرع يركض إلى قسم الشرطة. يظهر أنه هناك جثا على ركبتيه، وأخذ يزحف باكياً ناشجاً،وأنه قبّل الأرض وهو يصيح بأنه لا يستحق أن يقبّل حتى أحذية الشخصيات السامية التي أمامه. وكانوا لطافاً في معاملته إلى أبعد حد. ودام استجوابه قرابة أربع ساعات. حكى كل شيء، كل شيء تماماً، حتى أدق التفاصيل. بل لقد كان يستبق الأسئلة من شدة استعجاله الاعتراف الكامل، فيروي أشياء لا داعي إليها وليس يُسأل عنها. وقد اتضح أنه يعرف أموراً كثيرة. لذلك استطاع أن يكشف عن خفايا القضية: إن مأساة شاتوف وكيريلوف، والحريق،

ومـوت لبيادكين وأخته، كل ذلك كان في المرتبة الثانية من خطورة الشـأن في حديثه، أما المرتبة الأولى فقد كانت لبطرس سـتيفانوفتش، والجمعية السرية، والتنظيم، والشبكة. وحين أُلقي عليه هذا السؤال: لماذا جرائم القتل هذه كلها، لماذا تلـك الفضائح كلها، لماذا هذه الدناءات كلها؟ أجاب فوراً بقوله: "ذلك لزعزعـة قواعـد الدولـة، لتعجيل تفسـخ المجتمـع، لبثّ اليأس فـي النفوس، لإدخال البلبلة والفوضى إلى العقول. وبعد ذلك يتم الاسـتيلاء على المجتمع الذي عمتـه الفوضى، المجتمع المريـض، الحائر، المسـتهتر، الريّاب، ولكن علـى أسـاس التطلع إلى فكـرة موجهة، فبذلـك تُرفع راية الثـورة اعتماداً على شـبكة الحلقات الخماسـية التي تكون قد عملت من جهتها على بث الدعاية، ودراسـة النقـاط الضعيفة في الخصم، والوسـائل العمليـة لمحاربته". وصرّح ليامشـين فـي النهاية أن ما شـوهد في مدينتنـا ليس إلّا محاولـة أولى لتخريب منظّم، وهو بمثابة برنامج يجب أن تتبعه الحلقات الأخرى التي أنشأها بطرس سـتيفانوفتش. ذلك كان رأي ليامشـين على كل حال. وقـد ألحّ على "ضرورة النظـر بعين الاعتبـار إلى أقواله وإلـى الصراحة والوضوح فـي عرضه للقضية كلهـا، ممـا يدل دلالـة واضحة علـى أنه يسـتطيع أن يقدم للسـلطات خدمات كبيـرة". حتـى إذا أُلقـي عليه هذاالسـؤال المباشـر: "هل في روسـيا عدد كبير من هذه الحلقات الخماسـية؟" أجاب بأن هذه الحلقـات لا نهاية لعددها وإن شـبكتها تغطي روسـيا كلها. ولم يأت بـأي برهان يؤيد هذه الأقـوال، ولكنني أظن أنه كان صادقاً حين قال ذلك الكلام. وقد اكتفى بتقديم برنامج الجمعية، المطبـوع في الخارج، وبمشـروع يعرض توسـيع نطاق العمـل، مكتوب بخط بطـرس سـتيفانوفتش. فظهـر حينـذاك أن ليامشـين، حيـن تكلم عـن "زعزعة القواعد"، إنما كان يسـتعير نصاً من نصوص هذه الورقة، لا يُسـقط منه نقطة أو فاصلة. ولكن ذلك لـم يمنعه من أن ينسب تلك الفكرة إلى نفسه. وقد تكلم عن جوليا ميخائيلوفنا فأسـرع يعلن بطريقة هزلية جداً ومن غير أن يُسأل عن ذلك، أسـرع يعلـن أنهـا "بريئة وأنها قـد غُرّر بها". يجـب أن نذكر أنه أنكـر أن يكون لسـتافروجين أية مشـاركة في الجمعية السـرية، وأكّد أنه لم يكن ثمة أي تفاهم

بيـن نيقولاي فسـيفولودوفتش وبين بطرس سـتيفانوفتش (لم يكن ليامشـين، بطبيعة الحال، يعرف شـيئاً عن الآمال السـخيفة التي كان بطرس سـتيفانوفتش يعقدها على ستافروجين). وقال إن مقتل لبيادكين وأخته كان من عمل بطرس سـتيفانوفتش الذي تصرف منفرداً من دون أن يكون لستافروجين أي دخل في الأمـر، وذلك بغيـة أن يجعل سـتافروجين معرّضـاً للخطر خاضعاً لسـيطرته. ولكن بطرس سـتيفانوفتش لم يُثر في قلب سـتافروجين "النبيل" إلّا الاسـتياء الشـديد والألم الممض، بدلاً من أن يثير فيه شـعور الشـكر والامتنان كما كان يتوقـع. وأضـاف ليامشـين في ختـام إفادتـه عن سـتافروجين، أضاف مسـتبقاً الأسـئلة مرة أخرى، أن نيقولاي فسـيفولودوفتش شـخص رفيع الطراز حتماً، غير أن ههنا سراً مجهولاً، فهو قد عاش بيننا كالمتنكر تقريباً لأنه مكلف بمهمة كبيرة، ومن الجائز جداً أن يرجع من بطرسـبرج بعد قليل (كان ليامشـين مقتنعاً بأن سـتافروجين في بطرسـبرج)، ولكن رجعته ستتم في ظروف مختلفة تماماً هذه المرة، وسيكون محاطاً بأناس قد نسمع الناس يتكلمون عنهم في القريب. وقال ليامشين إنه عرف هذه الأمور من فم بطرس ستيفانوفتش، "العدو الخفي لنيقولاي ستافروجين".

ملاحظة: بعد شـهرين، اعترف ليامشين بأنه حاول تبرئة ستافروجين لأنه كان يأمـل أن يحميه. لقـد كان يأمل أن عقوبته سـتخفّف بفضل هذه الحماية تخفيفاً كبيراً، وكان يتخيل أيضاً أن سـتافروجين سيرسـل إليه مالاً وسـيبعث إليه رسـائل توصي به السـلطات السـيبيرية خيراً. إن هذا الاعتراف يدل على أن ليامشين كان يرى في نيقولاي فسيفولودوفيتش رأياً فيه كثير من المبالغة.

في ذلك اليوم نفسه قُبض على فرجنسكي طبعاً، بل قُبض على أسرته كلها من باب إظهار الحماسـة للقيام بالواجب (ولقد أفـرج عن آرينا بروخوروفنا وأختها وخالتها والطالبة، منذ مدة طويلة، ويقول بعضهم مؤكداً أن شيجالوف سـيفرج عنه في القريـب أيضاً، لأنه لا يدخل في أية فئة مـن فئات المتهمين. ومـا هـذا على كل حال إلّا أقاويـل تُقال). وقد اعترف فرجنسـكي اعترافات كاملـة علـى الفور. لقـد كان راقداً على سـريره يعاني من حمى شـديدة حين

جاؤوا يعتقلونه، ويقال إنه حين رأى الشرطة قد سُرّ تقريباً. ويروى أنه كان في إفادتـه صريحاً، مع احتفاظه ببعض الوقـار والرصانة، وإنه لم يتنازل عن أمل واحد من "الآمال المضيئة" مع تنديده بالأسـاليب السياسية (لا الاجتماعية) التـي انقـاد لها في خفة وطيـش، "مدفوعاً بإعصار الظـروف". وقد نُظر بعين الاعتبار إلى موقفه في الحديقة عند مقتل شـاتوف، ويبدو أنه يأمل أن يشـفع له هذا الموقف فيُخفّف الحكم عليه، أو ذلك ما يؤكده الناس في مدينتنا على الأقل.

ولا كذلـك إركل. فليـس مـن المتوقـع أن يُتسـامح معـه. لقد لـزم إركل الصمـت منـذ القبض عليه، أو كان يشـوّه الحقيقـة، ولم يمكـن أن يُنتزع منه قـول واحد يعبّر عن الندامة. ومع ذلك اسـتطاع أن يوقـظ في نفوس القضاة، حتى القسـاة منهم، شـيئاً من العطف عليه، وذلك لشبابه وسذاجته، ولأن من الواضـح أنه كان ضحية متآمر سياسـي أشـعل في نفسـه نـار التعصب، ولأنه خاصة كان فتى برّاً بأمه إذ كان يرسـل لهـا نصف إيراده الضئيل تقريباً. إن أمه هي الآن هنا: إنها امرأة ضعيفة مريضة هرمت قبل الأوان. وهي تبكي وتتمرغ بأقـدام القضاة متوسـلة إليهم أن يرأفـوا بابنها. ولا يدري أحد كيف سـينتهي الأمر. غير أن عدداً كبيراً من الناس في مدينتنا يرثون لحال إركل صادقين.

أمـا ليبوتيـن فقـد قبض عليه ببطرسـبرج بعد أن مكث فيها خمسـة عشـر يومـاً. إن ما وقـع له يكاد يبدو غير معقول. لقد كان يملك جواز سـفر باسـم مزوّر، وكان يملك مبلغاً ضخماً من المال، فكان في وسـعه إذًا أن يهرب إلى الخارج. ومع ذلك لم يتحرك من بطرسـبرج. حاول في البداية أن يهتدي إلى سـتافروجين وبطرس سـتيفانوفتش، ثم أقبل فجأة على الشـراب واسترسـل فـي دعـارة مسـعورة. حتى لكأنه فقد سـلامة عقلـه وأصبح لا يـدرك وضعه أي إدراك. لقـد قبـض عليـه فـي أحد المواخير سـكراناً كل السّـكر. ويشـيع بيـن النـاس الآن أنه اسـترد شـجاعته، وأنه ما بـرح يكذب، وأنـه يعقد بعض الآمـال علـى دعواه التي يتهيـأ لها بعناية شـديدة، لأنه ينتـوي أن يلقي خطاباً طويـلاً. وأما تولكاتشـنكو فقد قُبض عليـه بعد هربه إلى الريف بعشـرة أيام،

وهو يسلك سلوكاً أليق كثيراً، فلا يكذب ولا يراوغ، ويقول ما يعرفه، ولا يحاول أن يبرئ نفسه بل هو يعترف بأخطائه، ولكنه يبدو ميّالاً إلى الفصاحة والبلاغة، فهو يتكلم كثيراً، ويحلو له أن يتكلم كثيراً، حتى إذا دار الحديث على الشعب وعناصره الثورية اصطنع وضعاً وقوراً وحاول أن يكون له في نظر سامعيه مهابة. ويقال إنه هو أيضاً ينتوي أن يلقي خطاباً أمام المحكمة. يمكننا أن نقول، بوجه عام، إنه وليبوتين لا يبدوان خائفين مما ينتظرهما، سسسسسسسسئوذلك شيء يثير الاستغراب.

أكرر أن القضية لم يُفصل فيها بعد. والآن، بعد انقضاء ثلاثة أشهر على هذه الأحداث كلها، قد أفاق مجتمعنا من ذهوله واسترد اتزانه، فهو يحكم على الأمور حكماً أكثر استقلالاً، حتى إن هناك اليوم أناساً يرون أن بطرس ستيفانوفتش إن لم يكن عبقرياً فهو على الأقل رجل أوتي "قدرات عبقرية". "هذا تنظيم!"، كذلك كان يقول بعضهم في نادينا رافعاً إصبعه. ومهما يكن من أمر فقد كان هذا الكلام بريئاً. وكان بعض آخر يذهبون غير هذا المذهب. فهؤلاء على أنهم لا ينكرون ذكاء الرجل يلحون على جهله بالواقع، وميله المفرط إلى التجريد، ونمو بعض ملكاته على حساب بعضها الآخر نمواً شاذاً، وطيشه الخارق. أما صفاته الأخلاقية فكان عليها إجماع، فلا جحود ههنا قط.

لا أدري حقاً عمن يجب أن أتكلم أيضاً...

لقد رحل مافريكي نيقولايفتش لا يدري أحد إلى أين. وخرفت العجوز دروزدوف مرتدة إلى الطفولة. على أن هناك حكاية مظلمة يجب عليَّ أن أقصَّها. وسأكتفي برواية الوقائع.

حين عادت فرفارا بتروفنا من أوستيفو فإنها لم تنزل بسكفورشنيكي بل مضت إلى المدينة، وهناك علمت فوراً بكل ما جرى أثناء غيابها. فاضطربت اضطراباً شديداً عميقاً، وحبست نفسها في بيتها. كان ذلك في المساء، وكان الجميع متعبين مكدودين، فرقدوا مبكّرين.

وفي صباح الغد مدّت إحدى الخادمات إلى داريا بافلوفنا في السر

رسالة قالت إنها وصلت في مساء أمس، ولكنها وصلت متأخرة بينما كان الجميع نائمين. أما فكيف وصلت الرسالة فإن رجلاً مجهولاً أعطاها ألكسي إيجورتش بقرية سكفورشنيكي فسرعان ما حملها الخادم العجوز إلى الخادمة وقفل راجعاً إلى سكفورشنيكي.

تأملت داريا بافلوفنا ظرف الرسالة مدة طويلة، خافقة القلب، من دون أن تجرؤ على فضّها. لقد كانت تعلم أن الرسالة مرسلة من نيقولاي فسيفولودوفتش. وكان مكتوباً على ظرفها: "إلى ألكسي إيجورتش لنقلها إلى داريا بافلوفنا".

وإليكم نص الرسالة كلمة كلمة. إنني لم أصحّح أسلوب هذا السيد الروسي الذي لم يكن قوياً في النحو رغم ثقافته الأوروبية:

العزيزة داريا بافلوفنا،

"قلت لي مرةً إنك تريدين أن تكوني ممرّضتي، وجعلتني أعدك بأن أستدعيك متى احتجت إليك. إنني مسافر بعد يومين سفراً لا عودة بعده. فهل تريدين أن تسافري معي؟

في السنة الماضية أصبحت، مثل هرتسن، مواطناً في كانتون "أوري" بسويسرا. ولا أحد يعرف هذا. لقد اشتريت منزلاً صغيراً في ذلك الكانتون. وسنقيم هناك إلى الأبد. أصبحت لا أريد أبداً أن أذهب إلى أي مكان.

الموضع الذي يقع فيه المنزل حزين جداً. إنه مضيق في جبل. الجبال هناك تطغى على البصر والفكر. منظر يشيع في النفس غماً وحداداً. وإنما اخترت ذلك المكان إذ كان فيه منزل يباع. وإذا لم يعجبك البيت فسوف أبيعه وأشتري بيتاً آخر في مكان آخر.

ليست صحتي حسنة، لكنني آمل أن يخلصني هواء تلك البلاد من هواجسي. هذا شيء جسميّ. أما عن حالتي النفسية فإنك تعرفين كل شيء. ولكن هل هذا كل شيء حقاً؟

لقد رويت لك أشياء كثيرة عني. ولكنني لم أروِ كل شيء حتى لك أنت. بالمناسبة، أؤكد لك أنني أحس في قرارة ضميري بأنني مسؤول عن مقتل

زوجتي. إنني لم أرك بعد موتها، لذلك أؤكد لك هذا الآن. وأنا أيضاً آثم في حق ليزافتا نيقولايفنا. ولكنك عن هذا تعرفين كل شيء. إنك قد تنبأت بكل شيء تقريباً.

الأفضل أن لا تجيئي. إنها لدناءة مني أن أستدعيك. علام تقبرين نفسك معي؟ إنك تعجبينني، ولقد كنت أشعر بارتياح إلى جانبك حين ينتابني قلق وغم. أمامك وحدك إنما كنت أستطيع أن أتكلم عن نفسي بصوت عالٍ. ولكن هذا لا يعني شيئاً. لقد قلت أنك نفسك ستكونين لي "ممرضة". هذا تعبيرك ذاته. لماذا هذه التضحية الكبرى؟ لاحظي أيضاً أنني لا أشفق عليك ما دمت أستدعيك، وإنني لا أحترمك ما دمت أنتظرك. ومع ذلك أستدعيك وأنتظرك. على كل حال، أنا في حاجة إلى جوابك، لأن علي أن أسافر بأقصى سرعة. وسوف أسافر وحدي إذا اقتضى الأمر.

إنني لا آمل شيئاً من "أوري"، ولكنني أسافر، أسافر وكفى! ولم يقع اختياري على ذلك المكان الحزين عن عمد. ليس هناك ما يربطني بروسيا: كل شيء غريب عني هنا، كأي مكان آخر على كل حال. صحيح أنني أحب أن أعيش في روسيا، وكنت لا أحب كثيراً أن أعيش في غيرها أيضاً. ولكنني حتى في روسيا كنت عاجزاً عن كره أي شيء.

لقد جربت قوتي في كل مكان ونصحتني أنت بذلك حتى "أعرف نفسي معرفة أصدق". وأثناء تلك التجارب، بدت قوتي هذه غير ذات حدود، أمام نفسي وأمام الآخرين. على مرأى منك تحملت صفعة أخيك. وأعلنت زواجي على رؤوس الأشهاد. ولكن في أي شيء يجب أن أستعمل هذه القوة؟ ذلك ما لم أستطع أن أعرفه في يوم من الأيام، وما لا أعرفه حتى هذا اليوم. لا أعرفه رغم ما أزجيت إليّ من تشجيعات صدّقتها. أنا الآن، كما كنت دائماً، أستطيع أن أرغب في القيام بعمل حسن، وأجد في ذلك لذة. وإلى جانب هذا أشتهي أن أرتكب عملاً سيئاً وأذوق من ذلك هذه اللذة نفسها. ولكن الشعورين كليهما ضعيفان، ولم يكونا قويين في يوم من الأيام. إن رغباتي ضعيفة مسرفة في الضعف دائماً: إنها لا تستطيع أن توجهني. في

وسع المرء أن يعبر نهراً على لوح ولكنه لا يستطيع أن يعبره على قشرة. أقول لك هذا حتى لا تتخيلي أنني أعقد آمالاً على أوري.

لست أتهم أحداً، كما لم أتهم أحداً في الماضي. لقد جربت الدعارة، واستهلكت قواي. ولكنني لا أحب الدعارة ولم أكن أريدها. كنت تراقبينني في الآونة الأخيرة. هل تعلمين أنني كنت أنظر إلى أصحابنا الجاحدين نظرة كره وبغض، ولكنني كنت أحسدهم على ما كانوا يعقدونه من آمال؟ غير أنك قد أخطأت إذ ساورك قلق عليّ: إنني لا أستطيع أن أكون واحداً منهم، لأنني لا أشاطرهم آمالهم. وكان ذلك يستحيل عليّ من باب السخرية وحب الشر أيضاً، لا لأنني أخشى أن أكون محل هزء - فإنني لا أخشى أن أكون محل هزء - بل لأنني قد احتفظت رغم كل شيء بعادات إنسان لبق، ولأن ذلك كان يثير الاشمئزاز في نفسي. ولكن لو قد كان كرهي وحسدي أقوى مما كانا، إذًا لأمكن أن أنضم إليهم.

أيتها الصديقة العزيزة، الحنون، الكريمة، التي اكتشفتها! لعلك تأملين بما أعطيتنيه من حب كامل، وما غمرتني به من كنوز نفسك الجميلة، إنك ستستطيعين أن تخلقي لحياتي هدفاً في النهاية! ولكن لا، كوني عاقلة حكيمة: إن حبي سيكون مسكيناً مثلي، وستكونين أنت شقية تعيسة. قال لي أخوك يوماً: من يفقد كل رابطة بالأرض، يفقد على الفور آلهته، أي أهدافه. في وسع المرء أن يناقش كل شيء إلى غير نهاية، ولكنني عاجز إلّا عن الإنكار خالياً من أية عظمة نفسية، خالياً من أية قوة. الجحود نفسه مسكين ضعيف عندي. كل شيء كابٍ رخو. إن كيريلوف الكريم لم يستطع أن يتحمل فكرته فانتحر. ولكنني أدرك حق الإدراك أنه كان كريماً لأنه كان لا يملك عقلاً كاملاً. لن أستطيع أن أفقد عقلي يوماً، ولن أستطيع أن أؤمن بفكرة يوماً، مثله. حتى إنني لن أستطيع أن أهتم بفكرة. فلن أنتحر أبداً، أبداً!

أنا أعلم أنه يجب عليّ أن أنتحر، أن أغيب عن وجه الأرض كحشرة مقززة. ولكنني أخاف الانتحار، لأنني أخاف أن أظهر شيئاً من عظمة النفس. إنني أعلم أن هذا لن يكون إلّا كذبة جديدة، هي آخر كذبة في سلسلة طويلة

مـن الأكاذيـب. أي فائـدة أجنيها من الكـذب لا لشـيء إلّا أن أتظاهر بعظمة النفـس؟ لـن أعرف الاسـتياء والخجل في يوم من الأيام، ولـن أعرف اليأس إذًا.

اغفـري لـي هـذه الإطالة فـي الكتابة إليك. لقـد فعلت ذلك مـن دون أن أريـده. وها أنا ذا أمسـك. فلو واصلـت الكتابة على هذا النحو فلن أسـتطيع أن أقول كل شـيء في مائة صفحة، مع أنه تكفيني على وجه الإجمال عشـرة أسطر. إن أسطراً عشرة كافية لاستدعاء "ممرضة".

أقيـم منذ سـفري عند مديـر محطة تبعد عـن المدينة سـت محطات. لقد قصفنا معاً منذ خمس سنين ببطرسبرج. لا أحد يعلم أنني هنا. اكتبي إليّ على اسمه. أرفق إليك العنوان.

"نيقولاي ستافروجين"

مضـت داريـا إلى فرفارا بتروفنا تطلعها على الرسـالة. فلمـا قرأت فرفارا بتروفنا الرسـالة طلبت إلى داشـا أن تخرج لحظة: كانت تريد أن تعيد قراءتها وحيدة. ولكنها سرعان ما نادت الفتاة. وسألتها بما يشبه الخجل:

ـ أتسافرين؟

ـ نعم.

ـ استعدي. سنسافر معاً.

ثم قالت فرفارا بتروفنا مجيبة عن نظرة استفهام من داشا:

ـ ما عساي فاعلة هنا؟ استوت عندي الأمور. أنا أيضاً سأصبح مواطنة في أوري، وسأقيم في الجبال... لا تخشي شيئاً. لن أزعجكما.

كان ينبغي ركوب قطار الظهر، فإذا بألكسي إيجورتش يظهر فجأة، فيروي أن نيقولاي فسـيفولودوفتش قد وصل إلى سكفورشنيكي في قطار الصباح، وإن هيئتـه كانت غريبة، وأنه كان لا يجيب عن الأسـئلة التي تلقى عليه، وأنه حبس نفسه في شقته لا يبارحها.

وأضاف ألكسي إيجورتش يقول بلهجة ذات دلالة:

ـ لقد قررت أن أجيء إلى هنا بدون أوامر، وأن أطلعك على الواقع...

ألقـت عليـه فرفـارا بتروفنا نظرة نافـذة، ولكنها لـم تلق عليه أي سـؤال. وسـرعان ما أعـدّت العربة، وسـافرت فرفارا بتروفنا إلى سكفورشـنيكي مع داشا.

كانـت أبواب شـقة نيقـولاي فسـيفولودوفتش مفتوحة، ولكـن لم يمكن العثور عليه هو.

قال أحد الخدم في حذر:

ـ أتراه يكون في الطابق العلوي؟

فصعد الجميع إلى الطابق العلوي فوجدوا الغرف الثلاث خالية.

قال أحدهم وهو يشير إلى باب الطابق الذي يقع تحت السقف:

ـ أتراه صعد إلى أعلى؟

إن هـذا البـاب الذي يكون في العـادة مغلقاً كان الآن مفتوحاً على سـعته كلها فعلاً. ولم يكن يمكن الوصول إليه إلّا بصعود سـلم خشبي طويل ضيق قائم. وكان في الأعلى حجرة تشبه أن تكون زنزانة.

دمدمت فرفارا بتروفنا تقول وقد اصفرّ وجهها اصفراراً شديداً:

ـ لن أصعد إلى فوق. ما عساه يفعل هناك؟

ونظرت إلى الخدم الذين كانوا يتأملونها صامتين. وكانت داشا ترتعد.

وعزمت فرفارا بتروفنا أمرها أخيراً فصعدت السـلّم بسرعة. ولكنها ما إن دخلت الغرفة حتى أطلقت صرخة كبيرة وسقطت مغشياً عليها.

كان مواطـن "أوري" مشـنوقاً وراء الباب. وكان علـى المائدة ورقة كُتب عليها بالقلم الرصاص: "لا يُتّهمن أحد. أنا الفاعل!". وكان إلى جانب الورقة مطرقة وقطعة صابون ومسمار كبير لا شك أنه حُضّر استعداداً لكل طارئ. لا شـك في أن الحبل الحريري المتين الذي استعمله نيقولاي فسيفولودوفتش قد اختير سـلفاً، وأُحسـن طليه بالصابون. إن كل شيء يدل على العمد وسبق الإصـرار. ويدل على أن سـتافروجين قد ظل إلى آخـر دقيقة يعي أفعاله وعياً كاملاً.

وقد نفى الأطباء الذين شرّحوا الجثة، نفوا نفياً قاطعاً افتراض خلل عقلي.

اعتراف ستافروجين

الفصل التاسع
عند تيخون

1

لـم ينم نيقولاي فسـيفولودوفتش في تلك الليلة. ظل جالسـاً على ديوانه إلى أن طلع الصباح، محدقاً في بعض الأحيان إلى ركن وراء المنضدة. وظل مصباحه مضيئاً طوال الليل. وفي السـاعة السابعة من الصباح نام وهو لايزال جالسـاً، فلما دخل عليه ألكسـي إيجورتش في التاسعة والنصف تماماً، على عادتـه من زمـان طويل، حاملاً إليه قهـوة الصباح، وأيقظه مـن نومه، ظهرت عليه دهشـة يخالطها انزعاج من أنه أمكن أن ينام في تلك السـاعة المتأخرة. وشرب قهوته بسرعة، ولبس ثيابه، وخرج بخطى حثيثة. فلما سأل إيجورتش محـاذراً: "ما هي أوامرك؟"، لم يجب بكلمة واحدة. اجتاز الشـوارع خافضاً عينيه، مسـتغرقاً اسـتغراقاً عميقاً. وكان في بعض اللحظـات فقط يرفع بصره ويبدو عليه أنه فريسـة اضطـراب يصعب تحديده لكنه اضطراب شـاق أليم. وعند مفترق طرق، غير بعيد من المنزل، كانت جماعة مؤلفة من نحو خمسين شـخصاً تجتاز طريقها. إنهم يتقدمون، صامتين تقريباً، مصطفين اصطفافاً فيه شيء من نظام. وعلى مقربة من دكان انتظر عندها لحظة، قال له أحد الناس: "هؤلاء عمال مصنع شـبيجولين" فلم يكد ينتبـه إلى كلامه. وأخيراً، في نحو السـاعة العاشـرة والنصف، وصل إلى الباب الكبير من ديرنا، دير العذراء في

"سباسـو ـ أفيمي"، الذي يقع عند مخرج المدينة بقرب النهر. وعندئذ توقف فجأة كأنه تذكر شـيئاً ما، وتلمّس جيبه الجانبي بسرعة وقلق، ثم ابتسم. حتى إذا دخل فناء الدير سأل أول راهب لقيه من الرهبان المبتدئين أن يدخله على الأسـقف تيخون المعتكف في هذا الدير. فقاده الراهب المبتدئ وهو يزجي إليه التحية تلو التحية. حتى إذا وصلا إلى النهاية من مبنى طويل ذي طابقين، اسـتولى عليه راهب ضخم أشـيب الشـعر، وقاده خلال ممر طويل، من دون أن ينقطـع عـن تحيته (ولما كان ضخماً ضخامة شـديدة وكان لا يسـتطيع أن ينحنـي انحناء شـديداً فقد كان يهزّ رأسـه بحركة قصيرة منتظمـة). ورغم أن سـتافروجين كان يتقدم في سـيره لا ينتظر أن يرجوه أحـد أن يتقدم، فقد كان الراهب لا يني يدعوه أن يتبعه. وكان لا يني يلقي عليه أسـئلة شـتى، ويتكلم عـن الأب الأرشـمندريت. فلمـا لم يحصـل على أي جـواب، أصبح وضعه يـزداد احتراماً لحظة بعد لحظة. ولاحظ سـتافروجين أنـه معروف في الدير، رغـم أنه في ما يذكر لم يكن قد ذهب إليه منذ طفولته. وحين وصل الرجلان إلـى الباب في آخـر الممر، فتحه الراهب بيد قوية، وسـأله الخادم بغير كلفة، منـذ هرع هذا إليهما، هـل يمكن الدخول، ثم لم ينتظر جواب الخادم بل فتح الباب واسعاً، وأدخل "الضيف العزيز". فشكر له ستافروجين جميله، فأسرع يغيب فوراً كأنما هو يفر فراراً.

دخل نيقولاي فسيفولودوفتش غرفة ضيقة. فإذا برجل طويل القامة نحيل الجسـم يظهـر في إطار باب الغرفـة المجاورة على الفور تقريبـاً. إنه في نحو الخمسين من عمره، يرتدي جبة خشنة، ويبدو عليه شيء من مرض، له نظرة غريبة، خجلة وجلة، وابتسـامة على الشـفتين حيرى متـرددة. إنه تيخون ذاك الذي سـمع عنه نيقولاي فسـيفولودوفتش أول مرة من شـاتوف، وجمع عنه بعـد ذلك معلومات شـتى. لقد كانت تلـك المعلومات متناقضـة، ولكن لها جميعها سـمة مشـتركة: هي أن الذين يحبـون تيخون والذيـن لا يحبونه (إن هناك أناسـاً لايحبونه) كان يسـكتون دائماً عن شـيء ما، فأما الذين لا يحبونه فإنهم يسكتون من باب الاحتقار، وأما الذين يحبونه بل يحبونه بحرارة فإنهم يسـكتون من باب التكتم. لكأنهم يريـدون أن يخفوا ضعفاً ما، كأنهم يريدون

أن يخبئوا هوساً بريئاً. وقد علم نيقولاي فسيفولودوفتش أن الرجل يقيم في الدير منذ ست سنين، وأن الناس كثيراً مايفدون لزيارته (إنهم أناس من الشعب، ولكن بين زائريه كذلك أشخاصاً من أعلى طبقة)، وأن له معجبين متحمسين، حتى في بطرسبرج، وأن له معجبات خاصة.

ولكن نيقولاي فسيفولودوفتش سمع رجلاً مسناً خطير الشأن من أعضاء نادينا، وهو رجل شديد التدين، سمعه يقول: "إن تيخون هذا رجل يكاد يكون مجنوناً، وإنه على كل حال إنسان تافه، وأغلب الظن أنه سكير". يجب أن أقول أن هذا الاتهام الأخير كان باطلاً كل البطلان، وأن تيخون كان لا يشكو إلّا من روماتزم في ساقيه، ومن تشجنات عصبية في بعض الأحيان. وقد علم فسيفولودوفتش أيضاً أن الأسقف المعتكف لم يستطع، إما لضعف في شخصيته وإما لذهول لا يغتفر له ولا يتفق ومنزلته، لم يستطع أن يفرض على المدير ما توجبه له مرتبته من احترام. حتى لقد كان يقال إن الأب الأرشمندريت، وهو رجل متقشف وصارم في كل ما يتعلّق بموجبات الصلاة، وهو عدا ذلك رجل مشهود له بالعلم، كان يحمل للأسقف تيخون نوعاً من عاطفة العداوة ويأخذ عليه (بطريقة غير مباشرة في الواقع) أن حياته رخوة، كما يعيب عليه ما كان يصفه بأنه "هرطقات". وكان الرهبان أيضاً يعاملون الأسقف المريض معاملة خالية من الكلفة إن لم يكن فيها شيء من الازدراء أيضاً.

إن الغرفتين اللتين تتألف منهما شقة تيخون مؤثثتان تأثيثاً غريباً. فعلى مقربة من أثاث قديم ثقيل منجّد بجلد مهترئ، هناك عدد من الأشياء الجميلة: أريكة حافلة بالزخرف مريحة جداً، مكتب كبير محفور خشبه حفراً رائعاً، خزانة للكتب، موائد، أرفف. إنها هدايا. وهذه سجادة ثمينة من سجاد بخارى تجاور حُصُراً من قش. وهناك عدد من لوحات "عصرية"، أسطورية، وأيقونات مرصعة بذهب وفضة منها واحدة تضم بقايا قديسين. ويقال إن المكتبة كانت كبيرة التنوع: فإلى جانب مؤلفات آباء الكنيسة توجد مسرحيات، وربما وجد "ماهو أسوأ من المسرحيات أيضاً".

فبعد المجاملات الأولى التي تبادلها الرجلان بشيء من الانزعاج وفي

غير وضوح (لا ندري لماذا) أدخل تيخون ضيفه إلى حجرة عمله، وأجلسه على الديوان قبالة الطاولة. وجلس هو قريباً منه كل القرب، على مقعد من خشب الخيزران. إن نيقولاي فسيفودولوتش الذي يجيش في داخل نفسه انفعال قوي، كان ذاهل الهيئة، يبدو عليه أنه اتخذ قراراً خارقاً، لا رجوع عنه، ولكن لا يمكن تحقيقه في الوقت نفسه. وأجال بصره في الغرفة، ولكن من دون أن يتلبث على شيء مما يرى. كان يفكر، ولكن لا يدري حتماً في أي شيء كان يفكر. وأيقظه الصمت، وبدا له فجأة أن تيخون قد خفض عينيه مرتبكاً حتى إنه ابتسم ابتسامة غريبة. فسرعان ما أيقظ ذلك في نفس نيقولاي فسيفولودوفتش اشمئزازاً وتمرداً. وأراد أن ينهض وينصرف، لا سيما وأن تيخون كان في رأيه سكراناً كل السكر. غير أن تيخون لم يلبث أن رفع عينيه فجأة ورمقه بنظرة تبلغ من الثبات ومن الامتلاء بالفكر، ومن البعد عن التوقع، ومن الألغاز، في الوقت نفسه، أن نيقولاي فسيفولودوفتش ارتعش تقريباً. لقد بدا له أن تيخون يعرف سلفاً السبب الذي دفعه إلى المجيء، وأنه على علم بالأمر (مع أن أحداً لم يستطع أن يعرف سبب زيارته هذه)، وأنه إذا لم يسبقه إلى الكلام فذلك لأنه يداريه ويخشى إذلاله. قال نيقولاي يسأل الأسقف بصوت متقطع:

ـ هل تعرفني؟ أعرَّفت بنفسي حين دخلت أم لا؟ إنني شديد الذهول...

ـ لم تعرف بنفسك، ولكن سبق أن سعدت برؤيتك مرة، منذ أربع سنوات، في هذا الدير نفسه، مصادفةً...

كان تيخون يتكلّم ببطء شديد، وصوت متساو رقيق عذب، ناطقاً كل كلمة بوضوح وجلاء.

أجابه نيقولاي فسيفولودوفتش يسأله بما يشبه أن يكون فظاظة:

ـ أتقول إنني جئت إلى هنا منذ أربع سنين؟ أنا لم أجئ إلّا حين كنت طفلاً، ولم تكن أنت حينذاك في الدير...

قال تيخون بأناة وروية من غير إلحاح:

ـ لعلك نسيت...

ـ لا، لم أنسَ. من المضحك أن لا أتذكر...

كذلك أجابه ستافروجين بشيء من الغلو، وأضاف:

ـ لعلـك سـمعت عني، فتكوّن فـي ذهنك رأي معيّـن، فتخيلت الآن أنك رأيتني من قبل.

صمت تيخون. فلاحظ نيقولاي فسـيفولودوفتش عندئذ أن وجهه تلم به في بعض الأحيان رعشات، وهذه علامة مرض في الأعصاب متأصل. فقال:

ـ لكنني أرى أن صحتك اليوم ليست حسنة، فلعل الأفضل أن أنصرف.

ونهض.

قال تيخون:

ـ نعـم، أمـس واليـوم انتابتنـي آلام في السـاقين، ولـم أنم هـذه الليلة إلّا قليلاً...

وتوقـف تيخون عـن الكلام. وعـاد ضيفه يسـتغرق في تفكيـره الغامض فجأة. ودام الصمت مدة طويلة تقارب دقيقتين.

قال ستافروجين على حين بغتة بشيء من القلق والريب:

ـ إنك تلاحظني...

ـ إنني أنظر إليك فأتذكر ملامح وجه أمك. هناك تشابه نفسي روحي كبير، رغم اختلاف المظهر الخارجي.

ـ ليـس هناك أي تشـابه، ولا سـيما من الناحيـة الروحية... أبـداً... ما... من... تشابه... البتة!

كذلـك قـال نيقـولاي فسـيفولودوفتش بإلحاح فيـه مغالاة، مـن دون أن يعرف هو نفسه لماذا. وأضاف فجأة:

ـ إنـك تقـول هذا... من باب الشـفقة علـى حالتي. سـخافات!... ولكن ماذا؟ هل تأتي أمي إليك؟

ـ نعم.

ـ لـم أكـن أعرف ذلك. لـم تقل لي هي هـذا في يوم من الأيـام. هل تأتي كثيراً؟

ـ كل شهر تقريباً، وأكثر من ذلك أحياناً.

ـ لـم أعلـم بهذا أبداً، أبداً. ولكن لاشـك أنـك أنت قد علمـت منها أنني مجنون، أليس كذلك؟

هذا ما أضافه سائلاً على حين بغتة.

ـ لا. لم تحدثني عنك حديثها عن مجنون تماماً. ولكنني سمعت آخرين يقولون هذا.

ـ لا شك أن ذاكرتك قوية إذا كنت تستطيع أن تتذكر أمثال هذه الترهات. وعن الصفعة، هل سمعت شيئاً؟

ـ بضع كلمات.

ـ أي كل شيء. وقتك واسع جداً على كل حال. وعن المبارزة، هل حدثوك أيضاً؟

ـ عن المبارزة أيضاً.

ـ إنك تعرف أشياء كثيرة هنا. في مثل هذا المكان لا حاجة إلى جرائد. وهل كلّمك شاتوف عني؟ هيه؟

ـ لا. أنا أعرف شاتوف. لكنني ما رأيته منذ مدة طويلة.

ـ همْ!... ما هذه الخريطة التي عندك؟ آ... خريطة الحرب الأخيرة. ولكن ماحاجتك أنت، أنت، إليها؟

ـ كنت أدرسها قارئاً النص. إنه لوصف شائق جداً.

ـ أرني! نعم، كتابة جيدة. ولكن ما أغرب أن يقرأ رجل مثلك هذه الأمور!

وشدّ إليه الكتاب وألقى عليه نظرة. إنه تاريخ مفصل جداً يسرد وقائع الحرب الأخيرة وصفاً ممتازاً، ولكنه لا ينظر إلى الأمور من الناحية العسكرية خاصة، بل هو أقرب إلى أن يكون عاماً وأدبياً. قلب ستافروجين صفحات الكتاب وأعاد تقليبها، ثم رماه نافد الصبر.

وقال مشمئز الهيئة وهو يحدق إلى عيني تيخون وكأنه ينتظر منه جواباً:

ـ إنني لا أدري حقاً لماذا جئت إلى هنا.

فقال له تيخون:

ـ أنت أيضاً يبدو عليك أنك مريض.

ـ فعلاً.

قال ستافروجين ذلك وطفق يروي بغتة، بجمل قصيرة مقطعة، حتى ليصعب فهمها أحياناً، إنه توافيه هواجس غريبة، ولا سيما في الليل، وأنه

يرى في بعض الأحيان أو يحس أن بقربه كائناً شريراً ساخراً "معقولاً" يظهر له في صور شتى وطباع مختلفة، "ولكنه هو هو نفسه دائماً، وأنا يستعرّ حنقي في كل مرة...".

غريبةٌ ومشوشة كانت هذه الاعترافات التي تكاد تكون خليقة بمجنون حقاً. ولكن نيقولاي فسيفولودوفتش كان في الوقت نفسه يتكلم بصراحة خارقة وصدق غريب عن طبعه، حتى لكأن الإنسان القديم فيه قد اختفى اختفاء تاماً مباغتاً. لم يشعر بأي خجل من التعبير عن الخشية التي كان يوقظها في نفسه هذا الشبح. ولكن ذلك كله لم يدم إلّا لحظة واحدة، وما لبثت هذه الحالة النفسية أن زالت على غير توقع كما جاءت على غير توقع.

قال في غضب وقد ثاب إلى نفسه:

ـ هذا كله سخافات. سأمضي أستشير طبيباً.

فقال تيخون يؤيده:

ـ افعل.يجب أن تفعل حتماً.

ـ إنك تتكلم جازماً. فهل رأيت أناساً مثلي يعانون هذا النوع من الهواجس؟

ـ نعم رأيت ولكن قليلاً. إنني أتذكر واحداً. كان ضابطاً وقع له ذلك بعد فقده امرأته التي كانت له حليلة لا تضاهى. وسمعت عن واحد آخر. وقد شفي الاثنان كلاهما في الخارج. هل توافيك هذه الأشياء منذ مدة طويلة؟

ـ منذ سنة تقريباً. ولكن ما هذه إلى تفاهات. سأستشير طبيباً. تفاهات! تفاهات سخيفة مضحكة! هذا أنا نفسي في وجوه مختلفة. ذلك كل شئ. لاشك أنك تتصور، بعد أن أضفت أنا هذه العبارة، إنني ما زلت أشك، وإنني لست واثقاً بأن هذا أنا حقاً وليس الشيطان.

نظر إليه تيخون نظرة استفهام. وسأله:

ـ و... هل تراه فعلاً؟ أقصد من دون أن تحتفظ بفكرة أن هذا ليس إلّا هلوسة كاذبة مرضية؟ هل ترى صورة ما بالفعل؟

أجابه ستافروجين الذي كان حنقه يزداد من جديد لدى كل كلمة:

ـ غريب إلحاحك على هذا بعد أن شرحت لك إنني أرى... أرى قطعاً...

كما أراك!... أحياناً أرى ولا أثق بأنني أرى، رغم علمي بأن هذه هي الحقيقة: إما أنا وإما هو... سخافات! ولكن هل يستحيل عليك أن تسلم بأنه الشيطان؟ إن هذا التسليم أكثر اتفاقًا ومهنتك ، هه؟

أضاف هذا السؤال ضاحكاً، هاوياً إلى لهجة ساخرة على حين فجأة.

قال تيخون:

ـ الأرجح أن الأمر مرض، ومع ذلك...

ـ مع ذلك؟

ـ الشياطين موجودون حتماً. ولكن يمكن تصورهم على أنحاء مختلفة...

عاد ستافروجين يقول بلهجة غاضبة ساخرة:

ـ إنك قد عدت تخفض عينيك لأنك تخجل مني إذا أنا صدقت بوجود الشيطان. ولكن ها أنا ذا أتظاهر بعدم التصديق فألقي عليك ماكراً هذا السؤال: أهو موجود حقاً أم لا؟

فابتسم تيخون ابتسامة غامضة.

قال ستافروجين:

ـ لا يناسبك البتة أن تخفض عينيك: هذا غير طبيعي، هذا مضحك، هذا متصنّع. ومن أجل أن أكفّر عن هذه الغلطة مني سوف أقول لك جاداً، بصفاقة: نعم، إنني أؤمن إيماناً مطابقاً لإيمان الكنيسة، أؤمن بوجود شيطان شخصي، لا شيطان رمزي، ولست أحتاج البتة أن أسألك. هذا كل شيء. لا بدّ أن تكون سعيداً غاية السعادة.

وانفجر ستافروجين يضحك ضحكاً مكرهاً، عصبياً. فرمقه تيخون مستطلعاً بنظرة رقيقة جداً، نظرة كأنها تشتمل على شيء من خجل.

وهذا ستافروجين يرميه فجأة بهذا السؤال:

ـ أتؤمن بالله؟

ـ أؤمن بالله.

ـ ولكن قيل في الكتاب: إذا آمنت وأمرت الجبل أن يسير لأطاعك!... هذه سخافات على كل حال! ولكنني حريص على أن أعرف منك: هل يمكنك أن تنقل جبلاً؟

ـ نعم، إذا الله أمر...

كذلـك أجـاب تيخـون برقـة وحيـاء، خافضـاً عينيـه مـن جديـد. فأجابه ستافروجين:

ـ فـكأن الله نفسـه هو الـذي حرك الجبل؟ ولكنني أسـألك هل تسـتطيع أنت، أنت، أن تحركه مكافأة لك على إيمانك بالله؟

ـ ربما.

ـ ربما. جواب حسن. لماذا تشك؟

ـ إيماني ناقص غير كامل.

ـ كيـف؟ إيمانك أنت أيضاً؟ ناقص غيـر كامل؟ ماكان لي أن أفترض هذا حين أراك. كذلك سـتافروجين وهو يتأمل تيخون بدهشـة، بل بسذاجة، وهو أمر لا يتفق ولهجة السخرية التي ألقى بها أسئلته السابقة، قال تيخون:

ـ نعم، قد لايكون إيماني كاملاً.

ـ لكنـك تؤمـن مع ذلك بأنـك قادر بمعونة الله علـى أن تنقل الجبل. هذا وحده شيء. إنك تريد الإيمان على الأقل. وأنت تفهم كلمة "الجبل" بالمعنى الحقيقـي لا بالمعنـى المجازي. هذا وحـده كثير. مبدأ عظيـم. لقد لاحظت التقدميين بين كهنتنا يميلون ميلاً قوياً إلى اللوثرية، فلا مانع عندهم من تعليل المعجزات بأسـباب طبيعية. هذا أفضـل على كل حال من عبارة "قليلًا جداً" التي قالها أحد الكهنة، وهو تحت السكين. أأنت مسيحي قطعاً؟

كان سـتافروجين يتكلـم بسـرعة كبيـرة، وصـوت سـاخر تارة جـاد تارة أخـرى. ولعله كان لايعرف هو نفسـه لمـاذا يقول هذه الأشـياء كلها، ولماذا يسائل تيخون، ولماذا يضطرب ويتحرك!

دمـدم تيخـون يقـول بنوع مـن الاندفـاع وهـو يخفض رأسـه مزيـداً من الخفض:

ـ ربِّ إني لن أخجل من صليبك!

وأخذت أطراف شفتيه تختلج فجأة.

سأله ستافروجين:

ـ ولكن هل يمكن ألإيمان بالشيطان من غير إيمان بالله؟

ـ هذا يمكن جداً، ويحدث كثيراً. ورفع تيخون عينيه وابتسم قليلاً.

قال ستافروجين وهو ينفجر ضاحكاً:

ـ وإنـي لعلـى يقيـن من أنك تـرى الإيمان أجـدر بالاحترام مـن الجحود الكامل.

فابتسم تيخون من جديد، وقال بما يشبه المرح، مع استمراره تأمل ضيفه قلقاً بعض القلق:

ـ بل الإلحاد الكامل أجدر بالاحترام من عدم الاكتراث.

ـ هوه! ما أعجب هذا الكلام! إنك لتدهشني حقاً!

ـ الملحـد إلحـاداً كاملاً واقف علـى الدرجة الأخيرة التي تسـبق الإيمان الكامـل (أن يخطـو هـذه الخطـوة الأخيـرة أو أن لا يخطوهـا فتلك مسـألة أخـرى). أما الـذي لايكترث ولا يبالـي، فإنه لا يملك أي إيمـان، وليس في نفسه إلّا شيئ من الخوف أحياناً، هذا إذا كان امرءاً حساساً.

ـ هم... هل قرأت رؤيا القديس يوحنا؟

ـ نعم.

ـ هل تذكر قوله: "اكتب إلى ملاك كنيسة اللاوديكيين"؟...

ـ أذكر.

سأل ستافروجين وهو ينظر حوله مضطرباً:

ـ أين الكتاب؟ أريد أن أقرأ لك تلك الأسطر. هل عندك ترجمة روسية؟

قال تيخون:

ـ أعرف تلك الأسطر. أتذكرها تذكراً واضحاً.

قال ستافروجين:

ـ أتحفظه على ظهر قلب. اتله عليّ!...

وخفض عينيه، ووضع يديه مبسوطتين على ركبتيه، وتهيأ للإصغاء.

تـلا تيخون الأسـطر: "واكتب إلى ملاك كنيسـة اللاوديكييـن: هذا يقوله الشاهد الأمين الصادق بداءة خليقة الله: أنا عارف أعمالك. إنك لست بارداً ولاحـاراً. ليتك كنت بارداً أوحاراً. فلأنك لسـت بـارداً ولا حاراً أنا مزمع أن أتقيأك من فمي. لأنك تقول إني غني وقد اسـتغنيت ولا حاجة بي إلى شـئ، ولست تعلم أنك شقي وفقير وأعمى وعريان..."

قال ستافروجين مقاطعاً:

ـ كفى! هل تعلم؟ إنني أحبك كثيراً.

فأجابه تيخون يقول بصوت خافت:

ـ وأنا أيضاً.

وصمت ستافروجين وعاد يهوي فجأة في أحلامه. لقد تكرر هذا الأمر ثالث مرة، كأنه نوع من نوبة. وفي نوبة من هذه النوبات إنما قال لتيخون: "أحبك". وكان هو نفسه لا يتوقع ذلك.

وخيّم الصمت دقيقة.

دمدم تيخون يقول وهو يلامس بإصبعه كوع ستافروجين ملامسة خفيفة، وكأنه هو نفسه خائف:

ـ لا تزعل.

فانتفض ستافروجين وقطب حاجبيه غاضباً ساخطاً.

وسأل قائلًا بسرعة:

ـ كيف عرفت أنني زعلت؟

فأراد تيخون أن يتكلم، ولكن الآخر قاطعه وقد استبد به انفعال لا يمكن فهمه، قال:

ـ لماذا افترضت أنني لا بد أن أزعل؟ نعم، لقد غضبت. إنك على حق، وإنما غضبت لأنني قلت لك إنني أحبك. إنك على حق. ولكنك مستخف فظ. إن لك رأياً منحطاً جداً في الطبيعة الإنسانية. كان يمكن أن لا يثور هذا الغضب لو كنت تخاطب شخصًا آخر غيري. على كل حال، إن شأنك ليس مع أي شخص، بل معي أنا. مهما يكن من أمر، فأنت رجل طريف، بريء.

كان يسترسل مزيداً من الاسترسال لحظة بعد لحظة، والشيء الغريب أنه كان يفقد كل تروٍ في كلامه. قال:

ـ اسمع جيداً: إنني لا أحب علماء النفس والجواسيس أو على الأقل لا أحب منهم أولئك الذين يريدون أن يدخلوا إلى قرارة نفسي. إنني لا أدعو أحداً، ولست في حاجة إلى أحد. سوف أدبر أموري بنفسي. أتظن أنني خائف منك؟

رفع صوته وأنهض رأسه بحركة تحد. وأضاف يقول:

ـ أنت واثق أنني إنما جئت إليك لأعترف لك بسر رهيب، وأنت تنتظر هذا السر بكل ما يتصف به كاهن مثلك من فضول. ألا اعلم إنني لن أكشف لك عن شيء، لن أكشف لك عن أي سر، لأنني لست في أية حاجة إليك... لأنه ليس هناك أي سر... ما هذا منك إلّا تهاويل خيال...

ألقى عليه تيخون نظرة ثابتة.

ـ لقد فجأك أن ترى أن "الحمل" يؤثر البارد على الفاتر، كما يقول، فأردت أن لا تكون بارداً. إنني أحس أن قراراً خارقاً لعله رهيب، يستولي عليك. أرجوك، أضرع إليك، كفاك تعذيباً لنفسك وقل كل شيء.

ـ أأنت واثق إذًا أنني جئت وأنا أبيّت فكرة؟

دمدم تيخون يقول خافضاً عينيه:

ـ حزرت ذلك... من وجهك.

كان نيقولاي فسيفولودوفتش شاحباً بعض الشحوب، وكانت يداه ترتعشان قليلاً. ولبث بضع ثوان يحدق إلى تيخون صامتاً. وأخيراً، استل من الجيب الجانبي في ردنجوته ملازم مطبوعة، ووضعها على المائدة. وقال بصوت متقطع بعض التقطع:

ـ هذه الأوراق معدة للنشر. فإذا قرأها ولو شخص واحد، فاعلم أنني لن أخفيها، وأن الجميع سيقرأونها. هذا أمر مقرَّر. لست في حاجة إليك البتة، لأنني قررت كل شيء. ولكن اقرأ... وأثناء القراءة لا تقل شيئاً، حتى إذا فرغت من القراءة قل كل شيء...

سأله تيخون متردداً:

ـ هل يجب أن أقرأ؟

ـ اقرأ. إنني هادئ كل الهدوء.

ـ بدون نظارتين لا أستطيع أن أميز شيئاً. الأحرف صغيرة جداً. هذا مطبوع في الخارج.

ـ إليك النظارتين.

تناول ستافروجين النظارتين من على المائدة ومدهما إليه. ثم ارتد بجسمه إلى وراء مستنداً على ظهر الأريكة. واستغرق تيخون في القراءة.

2

هي خمس ملازم مضبورة، من القطع الصغير، قد طبعت في الخارج فعلاً على ورق من ورق الرسائل خفية، وربما في مطبعة روسية سرية. إنك إذا نظرت إلى هذه الملازم نظرة أولى رأيتها تشبه كثيراً المنشورات التحريضية. وقد استهلت بهذه العبارة: "من ستافروجين".

إنني أثبت هذه الوثيقة بنصها حرفاً حرفاً (ويجب أن نعتقد أن كثيرين يعرفونها الآن). ولكنني أبحث لنفسي أن أصحح فقط بعض أخطاء الإملاء وهي كثيرة حتى لقد أدهشتني، لأن كاتبها رجل مثقف على كل حال، ولا شك أنه قد قرأ كثيراً (نسبياً). أما الأسلوب فقد تركته على حاله، رغم أخطائه ورغم ما فيه من أنواع التفكك. إنه لمن الواضح على كل حال أن صاحب هذه الصفحات ليس كاتباً. وأبيح لنفسي كذلك ملاحظة أخرى، فأستبق الوقائع...

في رأيي أن هذه الوثيقة ثمرة من ثمرات المرض، وأنها من عمل الشيطان الذي استولى على هذا الرجل. هذا شأن المريض الذي يعاني آلاما شديدة: إنه لا ينفك يتقلب على سريره يائساً يبحث عن وضع يهدئ ألمه ولو لحظة. فإذا لم يهدئه هذا الوضع أحلّ محله وضعاً آخر مدة دقيقة. وهو عندئذ لا يتساءل طبعاً هل هذا التبديل حسن أو معقول.

إن ما يسيطر على هذه الوثيقة هو الحاجة الرهيبة الصادقة إلى العقاب، هو الحاجة إلى الصليب، إلى العذاب على مرأى من الناس. غير أن هذا الظمأ إلى الصلب يعذب امرءاً لا يؤمن بالصليب. "وهذا وحده يمثل فكرة "، كما عبّر عن ذلك ستيفان تروفيموفتش يوماً في مناسبة تختلف عن هذه كل الاختلاف.

ومن جهة أخرى تشتمل هذه الأوراق على شيء من عنف واستفزاز وتحد، رغم أنها كتبت لغرض آخر تماماً. إن كاتبها يصرح أنه "لم يستطع" أن لا يكتب، وأنه "أجبر" على الكتابة إجباراً وهذا جائز جداً. لقد كان يسعده

أن يستطيع إبعاد هذه الكأس المرة عنه، ولكن كان يستحيل عليه حقاً. لذلك انتهـز هذه الفرصة فأرخـى العنان لعنفه. نعم،إن المريض يتحرّك في سـريره ويحـاول أن يحلّ ألمـاً محلّ ألم. وها هو ذا يبدو له أن الصراع ضد المجتمع سـيخفف عنه بعـض التخفيف، فإذا هو يتحدى المجتمـع. إن مجرد تحريره هذه الوثيقة هو تحد غير متوقع، وقلة احترام للمجتمع، إن كاتب هذه الوثيقة يهمه أن يستفز خصماً ما بأقصى سرعة...

ومـن يدري؟ لعل هذا كله، أعني هذه الأوراق المهيأة للنشـر، إنما ينتمي إلـى ذلك النوع نفسـه من الوقائع، الذي تنتمي إليـه واقعة عض أذن الحاكم! لمـاذا توافينـي هذه الفكـرة اليوم بعـد أن اتضحت أشـياء كثيـرة؟ ذلك ما لا أستطيع أن أفهمه. إنني لا آتي بأي دليل على كل حال، لا أستطيع أن أؤكد أن هـذه الوثيـة كاذبة، أي لفقها الخيال تلفيقاً، قد تكون الحقيقة واقعة بين هذين الطرفين الأقصيين... ولكنني أستبق الحوادث. الأفضل أن نرجع إلى الوثيقة نفسها. فإليكم ما قرأه تيخون:

"من ستافروجين

"أنا سـتافروجين، الضابط المتقاعد، قد قضيت سـنوات ألف وثمانمائة وسـتين و... ببطرسبرج مسترسـلاً فـي الدعـارة استرسـالاً لم أجـد فيه أية متعـة. كان لـي خـلال فترة من تلك السـنين ثلاث شـقق: ففـي إحداها كنت أسـكن مع خادم يقوم بأعمال البيت، وكانت ماريا لبيادكين التي هي زوجتي شـرعاً أمـام القانون تسـكن فـي تلك الشـقة أيضاً. وقد اسـتأجرت الشـقتين الأخريين لأسـتقبل فيهما عشـيقاتي: ففي إحداهما كنت أستقبل سيدة كانت تحبني، وفي الشـقة الأخرى كنت أستقبل خادمتها. وكانت رغبتي آنذاك هي أن أجعلهما تلتقيان عندي، كلتاهما، السيدة والفتاة. وكنت لمعرفتي بطبعمها أتنبأ لهذه المزحة أن تحدث لي متعة كبيرة. ومن أجل أن أهيئ هذا اللقاء في يسـر كان علي أن أذهب أحياناً كثيرة إلى واحدة من هاتين الشـقتين، تقع في منـزل كبير بشـارع جوروخوفايا. فإلـى هناك إنما كانت تأتـي الخادمة. كنت أشـغل في ذلك المنزل عند بورجوازيين صغـار غرفة في الدور الرابع. وكان أصحـاب البيـت يشـغلون غرفة أخـرى أصغر، بـل غرفة تبلغ مـن الصغر أن

الباب الذي يفصل بيننا كان يجب أن يظل مفتوحاً على الدوام. وذلك بعينه ما كنت أريده. لقد كان الزوج، وهو يرتدي قفطاناً طويلاً، يعمل في مكتب من المكاتب، فكان يذهب في الصباح ولا يرجع إلّا ليلاً. وكانت المرأة وهي في نحو الأربعين من العمر تخيط وتصلح ملابس قديمة. وكانت تخرج في كثير من الأحيان لتحمل عملها إلى زبائنها. فكان يتاح إليَّ إذًا أن أنفرد بابنتهما الطفلة. كان اسمها ماتريوشا. وكانت الأم تحبها، ولكنها تضربها أحياناً كثيرة وتشتمها على عادة أمثال هؤلاء الناس وكانت هذه الصغيرة تخدمني وترتب غرفتي. إني أعلن الآن أنني قد نسيت رقم تلك العمارة. وقد علمت أن المنزل القديم قد هدم وأن عمارة جديدة كبيرة جداً قد شيدت في مكان مبنيين أو ثلاثة مبان قديمة هناك. وقد نسيت أيضاً اسم صاحبي الشقة. ومن الجائز أن لا أكون قد عرفت اسميهما في يوم من الأيام. أذكر أن المرأة كان يقال لها ستيفانيدا، أما اسمه هو فلا أتذكره. أين هما الآن؟ لا أدري البتة. أحسب أننا إذا تقصينا الأمر لدى قسم الشرطة ببطرسبرج، فقد نهتدي إلى أثرهما. كان المسكن يطل على الفناء ويحتل زاوية منه. جرى ذلك في شهر حزيران. كان المنزل مدهونًا بلون أزرق شاحب. في يوم من الأيام اختفت مطواتي من على المائدة. ولم أكن في حاجة إلى تلك المطواة على كل حال. كانت لا تعنيني في شيء. كلمت في الأمر صاحبة البيت، من دون أن يخطر ببالي أنها ستجلد ابنتها. ولكنها كانت قد أمسكتها منذ قليل بسبب اختفاء خرقة (ممسحة) ظنت الأم أن الطفلة قد استعملتها لتصنع منها لعبة (عروسة). حتى لقد شدت لها شعرها. فلما عثر على تلك الخرقة، في ما بعد، تحت الحصيرة، لم تشأ الطفلة أن تنطق بكلمة لوم واحدة، وظلت صامتة. وقد لاحظت أنها تعمدت أن لا تنطق، وأنا أتذكر هذا، لأنني في تلك اللحظة إنما انتبهت إلى وجه الطفلة الذي لم يلفت انتباهي حتى ذلك الحين. إنه أشقر شقرة شاحبة، إلى بقع حمراء. وجه عادي. غير أن فيه كثيراً من الطفولة والهدوء، بل كثيراً جداً من العذوبة والسكينة. لقد استاءت الأم من أن ابنتها لم تلمها وصمتت. وفي تلك اللحظة إنما جاءت حكاية المطواة. استعر حنق الأم من أنها ضربت ابنتها ظلماً. فها هي ذي تتناول

أسـواطاً وتمضي تجلد الطفلة إلى أن تفجـرت دماؤها على مرأى مني، رغم أن الطفلة كانت قد دخلت السنة الثانية عشرة من عمرها. لم تصرخ ماتريوشا وهي تجلد. ولا شك أن ذلك يرجع إلى وجودي. ولكنها كانت تشهق شهيقاً غريباً عند كل جلدة. ولقد ظلت تشـهق سـاعة كاملة بعـد انتهاء الجلد. حتى إذا انتهـى توقيع العقوبة عثـرت على مطواتي فجأة فوق سـريري في الغطاء. فوضعتهـا في جيـب صديرتي صامتـاً. فلما خرجت رميتها في الشـارع حتى لا يعلم أحد شـيئاً. وشـعرت على الفور بأنني قد ارتكبت عملاً حقيراً جباناً، لكنني أحسسـت أيضاً بلذة، لأن فكرة قد ومضت فـي ذهني فجأة وأحرقتني كجمرة، وتلبثت أنا عليها. وقد لاحظت في تلك المناسبة أنني سبق لي مراراً أن استولت عليّ إلى حد الجنون مشاعر شريرة شتى كنت أصر عليها إصراراً محموماً وأشغف بها شغفاً شديداً، ولكن من دون أن أفقد كل سيطرة على نفسي وكل تحكـم بإرادتي في يوم من الأيـام. فحتى حين تمحقني حراراتها وحين تبلـغ أقصـى درجات قوتها كنت أسـتطيع دائماً أن أنتصر عليهـا وأن أوقفها. ولكـن كان ينـدر أن أريد أن أفعـل ذلك. وإني أعلن في الوقت نفسـه أنني لا أحاول أن أدفع عن نفسي المسؤولية بحجة تأثير البيئة أو بحجة المرض.

انتظرت بعد ذلك يومين. أصبحت الطفلة بعد بكائها أشد صمتاً. إنني لعلى يقين من أنها لم تكن تحمل لي أنا أية عاطفة سيئة رغم أنها شعرت حتماً بشيء مـن الخجل لإنزال العقوبة فيها على مرأى مني. لكنها وهي الطفلة الخضوع كانت تؤاخذ نفسها على هذا الخجل. أذكر هذا لأن له شأناً هاماً في قصتي... قضيـت بعد ذلـك ثلاثة أيام في شـقتي الأولى. إنها منزل مفـروش تفوح منه دائماً رائحة كريهة من روائح الطعام، ويزدحم دائماً بالناس: موظفين صغار، مسـتخدمين بلا عمل، أطباء لا زبائن لهم، أنواع شـتى من البولنديين يسعون حولي بغير انقطاع. إنني أتذكر كل شـيء. كنت أعيش في ذلك المنزل الذي يشـبه أن يكون مدينة سدوم، أعيش متوحداً، متوحداً في داخل نفسي، لكنني محاط دائمـاً بعصبة صاخبة من "الرفاق" الذين يخلصون لي إلى أبعد حدود الإخلاص ويكادون يعبدونني عبادة بسبب محفظة نقودي. أظن أننا كنا نفعل دناءات كثيرة. حتى لقد كان المسـتأجرون يخشـوننا، أقصد أنهم ظلوا لطافاً

فـي معاملتنا رغم خلاعاتنـا وبذاءاتنا وحماقاتنا التي كانت في بعض الأحيان لا تغتفر. أعود فأكرر: لقد كنت أشـعر حتى بشيء من اللذة حين أتصور أنني سـأنفى إلى سـيبيريا. وكنت أبلغ من السـأم والضجر أنني كان في وسـعي أن أشـنق نفسي. وإذا لـم أشنق نفسـي، فلأنني كنت ما أزال يراودني أمل ما، كما كنـت طوال حياتي. وأذكر أنني عنيت حينذاك باللاهوت عناية تشـتمل حتى على كثير من الجد، وأنني اسـتطعت أن أسـلي نفسـي قليـلاً. ولكن ضجري ازداد بعـد ذلـك. أما عواطفـي الاجتماعية فهي لا تتجـاوز الرغبة في تحطيم كل شـيء، لـو كان هذا التحطيم يسـتحق العنـاء. ولكن يجـب أن أضيف أن تلك الرغبة لم يكن فيها خبث وشـر وإنما هي ترجع إلى ضجري الشديد، لا إلى شـيء آخر، لسـت اشـتراكياً البتة. إنني أفترض أن ذلك كان مرضاً. حين سـألت الدكتـور دوبروليوبـوف مازحـاً: "أليس هنـاك عقار يمكن أن ينشـط الطاقة الاجتماعية"، فإن هذا الطبيب الفاشل، الذي لا عمل له، والذي يعول أسـرة كبيرة، ويقيم فـي منزلنا، قد أجابني بقوله: "لتنشـيط الطاقة الاجتماعية لا يوجـد عقار في ما أظن، ولكن قد تجد عقاقير لتنشـيط الطاقة الإجرامية". إن هذه المزاحة قد سرته كثيراً رغم فقره الرهيب ورغم أنه مسؤول عن امرأة حبلـى وابنتين صغيرتين جائعتين. على كل حال، لولا أن البشـر راضون عن أنفسهم لما أراد أحد أن يعيش.

انقضـت ثلاثة أيـام أخرى، وعـدت إلـى جوروخوفايا. كانـت الأم تتهيأ للخـروج حاملة حزمة كبيرة. ولم يكـن الأب في البيت طبعاً. فبقيت وحدي مع ماتريوشـا. كانـت النوافذ (فـي الفناء) مفتوحـة. وكان فـي المنزل صناع كثيـرون وكانت جميع الطوابق تضج بأصوات المطـارق والأغاني. انقضت ساعة. كانت ماتريوشا جالسة في ركنها، على دكة صغيرة. كانت تخيط شيئاً مـا وقد أدارت لي ظهرها. وفجأة أخذت تغني بعذوبة كبيرة. كان يحدث لها هذا أحياناً. اسـتللت ساعتي ونظرت فيها. هي الساعة الثانية بعد الظهر. أخذ قلبـي يخفـق خفقاناً قوياً جـداً. نهضـت واقتربت من ماتريوشـا ببطء. كانت النوافـذ مزدانـة بأصص أزهـار. وكانت الشـمس حارة. جلسـت إلى جانب ماتريوشـا على الأرض صامتاً. ارتعشـت ماتريوشـا. خافت خوفـاً رهيباً في

اللحظة الأولى، وبادرت تنهض فجأة. تناولت يدها وقبلتها. ثم أجلستها على الدكة وجعلت أتفرس في عينيها. أما أنني قبلت يدها أضحكها ذلك كطفلة. ولكنها لم تضحك إلّا لحظة قصيرة. لأنها عادت تنهض من جديد وقد اعتراها رعب بلغ من القوة أن وجهها تشنج. وحدقت إلي بنظرات ثابتة وأخذت شفتاها تختلجان كأنها تهم أن تبكي. ولكنها لم تصرخ. قبلت يدها مرة ثانية، وأجلستها على ركبتي. فإذا هي تتقهقر فجأة وتبتسم، ولكن ابتسامتها ابتسامة خجل، ابتسامة مائلة. واحمر وجهها حياء. وأخيراً حدث أمر يبلغ من الغرابة أنني لن أنساه في يوم من الأيام. إنه حادث أثار في نفسي دهشة شديدة. لقد أحاطت البنت الصغيرة عنقي بذراعيها وأخذت تقبلني بحرارة وهوى. كان وجهها يعبر عن الافتتان. نهضت شبه غاضب: إن هذه الحركة التي تبدر من هذه الإنسانة الصغيرة قد أزعجتني كثيراً جداً بسبب الشفقة التي شعرت بها فجأة...".

انتهت الملزمة هنا وانقطعت الجملة. وحدث عندئذ أمر لا بد من ذكره.

كانت الملازم خمساً. الأولى في يدي تيخون الذي فرغ من قراءتها. والجملة لم تكمل. والأربع الأخرى كانت في يدي ستافروجين. فلما ألقى تيخون على ستافروجين نظرة سائلة ناوله ستافروجين التتمة فوراً. فقال تيخون وهو ينعم النظر في الملزمة:

ـ ولكن الجملة لم تكمل. وهذه هي الملزمة الثالثة بينما التالية هي الثانية لا الثالثة.

قال ستافروجين مجيباً بسرعة وهو يبتسم ابتسامة خرقاء:

ـ نعم هذه هي الثالثة. أما الثانية فقد حذفتها الرقابة الآن...

كان ستافروجين جالساً على ركن من الديوان، وكان يحدق إلى تيخون محموماً جامداً لا يستطيع أن يحول عنه بصره.

ـ سأعطيك إياها عما قريب، حين... حين تصبح جديراً بذلك.

كذلك أضاف يقول وهو يجري بيده حركة أراد أن لا يكون فيها كلفة. وكان يضحك، غير أن ضحكه كان يبعث على الشفقة.

قال تيخون:

ـ مع ذلك أظن أننا في النقطة التي وصلنا إليها يستوي أن تكون هذه الصحيفة هي الثانية أو الثالثة، أليس كذلك؟

صاح ستافروجين يسأله وهو ينهض على حين فجأة:

ـ كيف؟ لماذا؟ ليس يستوي الأمران قط. آه منكم معشر الرهبان. إنكم تفترضون على الفور أفظع الدناءات. ألا إن الرهبان ليصلحون أن يكونوا قضاة تحقيق من الطبقة الأولى.

نظر إليه تيخون صامتاً.

قال ستافروجين:

ـ اطمئن بالاً. ليس ذنبي أن البنية كانت حمقاء ولم تفهمني. لم يحدث شيء البتة.

ـ الحمد لله!

ورسم تيخون إشارة الصليب.

قال ستافروجين:

ـ يطول شرح الأمر... لقد وقع هنا... وقع هنا سوء تفاهم سيكولوجي.

واحمر فجأة. وظهر في وجه الاشمئزاز والقلق والغم واليأس!... وصمت. وأصبح الرجلان لا ينظر أحدهما إلى الآخر، وساد الصمت بينهما أكثر من دقيقة.

قال ستافروجين على نحو آلي وهو يجفف العرق البارد الذي بلل جبينه:

ـ اسمع. الأفضل أن تقرأ. و... والأفضل ألا تنظر إلي بتاتاً... يخيل إليّ أن هذا حلم...

ثم أضاف يقول بصوت خافت جداً:

ـ و... ولا تستنفذ صبري.

حوَّل تيخون عينيه عنه بسرعة، وتناول الصحيفة الثالثة وأخذ يقرأ بغير توقف حتى النهاية. كانت الصحائف الثلاث التي أسلمها إليه ستافروجين لاينقصها شيء. وقد بدأت الصحيفة الثالثة كما يلي:

"... كانت لحظة رعب حقاً، وإن لم تكن شديدة العنف. وغدوت مرحاً جداً في ذلك الصباح وأحسنت معاملة الجميع، وسرّت العصبة مني

كثيـراً. لكنـي تركتهم جميعـاً ومضيت إلـى جوروخوفايا. التقيـت بها تحت عند المدخل. كانت عائدة من دكان أرسـلت إليه لتشـتري شـيئاً من الهندباء. فلمـا رأتنـي اندفعت تجري في السـلم وقـد اعتراها خوف رهيـب. بل إن ما اعتراها ليس خوفاً وإنما كان رعباً أخرس يشلّ شللاً. وحين دخلت كانت أمها تضربها لأنها دخلت الغرفة "حثيثة الخطى خافضة الرأس". بذلك استطاعت أن تخفـي السـبب الحقيقي لرعبها. كان كل شـيء لا يـزال إذًا هادئاً. وقبعت فـي ركن ولم تظهر طول المدة التي قضيتها في البيت. وبعد سـاعة خرجت. ولكنني في المسـاء شـعرت بالخوف من جديد، وكان خوفي هذه المرة أشد كثيراً. وكان أشق شيء على نفسي في ذلك الخوف أنني كنت واعياً إياه وعياً كاملاً. إنني لا أعرف شيئاً أغبى من هذا ولا أعنف. لم أكن قد شعرت بالخوف حتى ذلك الحين قط، لا ولا شعرت به بعد ذلك أبداً. أما في تلك اللحظة فقد كنت خائفاً. حتى لقد كنت أرتعش، وكنت أعي هذا الخوف وعياً تاماً، وكنت أعي كذلك مذلتي، لو استطعت أن أنتحر لانتحرت. ولكنني أحسسـت أنني غير جدير بالموت. على أن هذا ليس السبب الذي منعني من الانتحار، وإنما منعنـي من الانتحـار ذلك الخوف نفسـه. إن المرء ينتحر فـي بعض الأحيان خوفـاً، ولكن يحدث أيضاً أن يسـتمر المرء في الحيـاة خوفاً كذلك. في أول الأمـر لايجرؤ الإنسـان أن ينتحر، ثـم يصبح الفعل بعد ذلك مسـتحيلاً. أكثر مـن هذا أنني في المسـاء، حيـن كنت في بيتي، قد شـعرت نحـو البنت بكره بلـغ مـن القوة أننـي قررت أن أقتلهـا. فما إن طلـع الفجر حتـى ركضت إلى جوروخوفايـا حاملاً هذه الفكرة. وكنت طوال الطريق أتصور كيف سـأقتلها وكيف سأحقّرها. وكان كرهي يهتاج خاصة حين أتذكر ابتسامتها: كان يشب فـي نفسـي احتقـار، وكانت تمتلئ نفسـي اشـمئزازاً من ارتمائهـا على عنقي متخيلـة مـا لا أدري! ولكننـي حين عبرت نهـر فونتانكا شـعرت بأن صحتي سـيئة. وفي الوقت نفسه انبجست في ذهني فكرة جديدة، رهيبة، رهيبة جداً، ولا سـيما لأنني كنت أعيها. فلما رجعت إلى بيتي رقدت في فراشـي مرتعشاً مـن الحمـى، واعتراني رعب بلـغ من القوة أننـي صرت لا أكـره البنت. لقد صرت لا أريد أن أقتلها، وتلك هي بعينها الفكرة التي انبجست في نفسي وأنا

أعبر نهر فونتانكا. وعندئذ إنما أدركت أول الأمر أن الخوف حين يكون قوياً يطرد الكره بل يطرد كل رغبة في الانتقام.

"استيقظت في نحو الظهر، مرتاحًا بعض الراحة، بل مدهوشاً من شدة العواطف التي شعرت بها في الليلة البارحة. خجلت من أنني أردت أن أقتل. ومع ذلك كنت معتكر المزاج. ورغم اشمئزازي كله ونفوري كله اضطررت أن أذهب إلى جوروخوفايا. أذكر أنني كنت أتمنى حينذاك لو أشاجر أحداً، لو أشاجر أحداً مشاجرة خطيرة حقاً. ولكنني حين دخلت غرفتي في جوروخوفايا وجدت فيها نينا سافليفنا، الخادمة التي كانت تنتظرني هناك منذ ساعة. كنت لا أحب تلك الفتاة بتاتاً، وكانت قد جاءت على شيء من الخشية، فهي تخاف أن تسوءني زيارتها. كانت تجيء دائماً على هذه الخشية. ولكن أسعدني كثيراً أن أراها، فسرّها ذلك سروراً عظيماً وافتتنت به افتتاناً كبيراً. لم تكن دميمة. ثم إنها كانت متواضعة وكانت تملك تلك الآداب التي يقدرها البرجوازيون الصغار قدراً عظيماً. ولذلك كانت صاحبة البيت تمدحها لي مدحاً كثيراً منذ مدة طويلة. وجدتهما تشربان القهوة، وكانت صاحبة البيت تبدو نشوى بالحديث الممتع. وفي ركن من الغرفة الثانية لمحت ماتريوشا: كانت واقفة تتفرس خفية في أمها والزائرة. فلما دخلت لم تختبئ كما فعلت في المرة السابقة، ولم تهرب. هذه نقطة أتذكرها واضحة، لأنها خطفت اهتمامي. وقد لاحظت من النظرة الأولى أنها نحلت نحولاً شديداً، وأنها تبدو مصابة بحمى. لاطفت نينا ملاطفة كبيرة، فلما تركتني كانت سعيدة كل السعادة. وقد خرجنا معاً. ولم أعد إلى جوروخوفايا بعد ذلك مدة يومين. لقد شبعت منها، ولكنني كنت ضجراً.

"وأخيراً قررت أن أنهي كل شيء دفعة واحدة، وحتى أن أغادر بطرسبرج إذا لزم الأمر. ولكن حين ذهبت إلى جرورخوفايا لأعلن عن سفري وجدت صاحبة البيت في ألم شديد وانفعال قوي: لقد كانت ماتريوشا مريضة منذ ثلاثة أيام، وكانت تهذي كل ليلة. وما لبثت طبعاً أن سألت عما تقوله أثناء الهذيان، (كنا نتحدث بصوت خافت جداً في غرفتي). فدمدمت الأم تقول لي إن ابنتها تنطق بأمور فظيعة، فهي تقول مثلاً: "سيعيننا الله. سيذهب عنها

المرض من تلقاء نفسه. ثم إنها لا تبقى راقدة طوال الوقت. لقد أرسلتها منذ قليل في شراء شيء من الأشياء". قررت أن أرى ماتريوشا على انفراد. وإذ كان قد أفلت من لسان صاحبة البيت أثناء حديثي معها أنها مضطرة أن تذهب في المساء إلى الضاحية، فقد قررت أن أرجع في المساء. وكنت على كل حال لا أدري على وجه الدقة لماذا أعود وماذا أريد أن أفعل إذ أعود.

"تغديت في المطعم، ثم عدت في الساعة الثامنة والربع. وأنا أدخل دائماً بعد أن أفتح الباب بمفتاحي. كانت ماتريوشا وحيدة. وكانت راقدة وراء حاجز على سرير أمها. وقد لاحظت أنها قدمت رأسها لترى من الداخل، ولكنها لم تتظاهر بشيء. كانت النوافذ مفتوحة. وكان الهواء حاراً بل حارقاً. تقدمت بضع خطوات ثم جلست على الديوان. إنني أتذكر كل شيء إلى آخر دقيقة. شعرت برضى كبير لأنني لم أكلم ماتريوشا، بل جعلتها تنتظر في غير طائل، لا أدري لماذا! لبثت على هذه الحال ساعة كاملة. وإني لكذلك إذ سمعتها تنهض فجأة وراء الحاجز. سمعت اصطدم قدميها بأرض الغرفة حين نهضت، ثم سمعت وقع بضع خطوات سريعة، ثم إذا هي تظهر في عتبة غرفتي. ما أحقرني! لقد بلغت من الحقارة أنني أسعدني أن أكون قد صمدت هذا الصمود. آه! ما كان أدنأ هذا، وما كان أذلني! كانت واقفة تنظر إلي في صمت. حقاً لقد نحلت نحولاً رهيباً بعد اليوم الذي رأيتها فيه آخر مرة من كثب. كان وجهها كاليابس، ولا شك أن جبينها كان يحترق. إن عينيها اللتين أصبحتا كبيرتين تتفرسان فيَّ باستطلاع مبهوت في ما بدا لي أول الأمر. لبثت جالساً لا أتحرك. ومن جديد شعرت بالكره. لكنني لم ألبث أن لاحظت أن ماتريوشا لم تكن خائفة مني البتة، وأنها لعلها كانت في حالة هذيان. وأخذت تهزّ رأسها على حين فجأة، كما يفعل الأناس السذج الذين لا يتصنعون ولا يتكلفون، إذا هم أرادوا أن يلوموا أو يعتبوا. ثم رفعت إصبعها الصغير بغتة وهددتني بها من بعيد. بدت لي هذه الحركة في أول الأمر مضحكة، ولكنني لم أطق صبراً عليها في النهاية، وأصبحت لا أستطيع احتمالها. نهضت بقوة واقتربت منها مرتاعاً. كان وجهها يعبر عن يأس يشق على المرء أن يراه في مخلوق صغير مثلها. استمرت تهدّدني بإصبعها وتهزّ

رأسـها عاتبة. كلّمتها برفق وحذر، بصوت خافت، برقة وعذوبة، لأنني كنت خائفـاً. لكننـي رأيت على الفور أنها كانت لا تسـتطيع أن تفهـم عني، فازداد رعبـي. ولكنها أسـرعت تغطي وجهها بيديهـا كما فعلت في المرة السـابقة، ومضـت نحو النافذة مديرة لي ظهرها. فتحولت حينذاك أنا أيضاً، وجلسـت بقرب النافذة. لا أسـتطيع بتاتـاً أن أفهم لماذا لم أخـرج وبقيت مرتقباً هناك. كنت إذًا أنتظر شـيئاً بالفعل. وربمـا كان يمكن أن أمكث زمناً طويلاً في ذلك المكان، لأقتلها بعدئذ كمداً ويأساً، بغية أن أفرغ من الأمر مرة واحدة بطريقة من الطرق.

"ولكنني لم ألبث أن سـمعت خطواتها السريعة من جديد. لقد خرجت من الباب الذي يفضي إلى رواق خشـبي يصل منه المرء إلى السلم. فاقتربت من الدرابزين بسرعة، واستطعت أن ألمحها تدخل حجرة صغيرة هي ضرب مـن قـن للدجـاج إلى جانب مـكان آخـر. فلما عـدت أجلس بقـرب النافذة تسللت إلى ذهني فكرة غريبة: إنني لا أستطيع إلى الآن أن أفهم لماذا وافتني هذه الفكرة بعينها ولم توافني فكرة أخرى غيرها قبل كل شيء. كان كل شيء إذًا ينصـب فـي ذلك الأمر. واضح أنني لم أكن أسـتطيع بعـد أن أصدق ذلك الأمـر، "ومع ذلك...". إنني أتذكر كل شـيء تذكراً كامـلاً. كان قلبي يخفق. وبعـد قليل نظرت في سـاعتي من جديد، فعرفـت الوقت على وجه الدقة. ما كانـت حاجتـي لمعرفـة الوقـت؟ ـ لا أدري. غير أنني كنت فـي تلك اللحظة أريد أن ألاحظ كل شـيء. إنني أتذكر إذًا كل شيء تذكراً واضحاً جداً، وأرى كل شيء كأنه ماثل أمامي. كان المساء يهبط. وكانت ذبابة تدندن حولي، ولا تنفك تجيء إلي فتحط على وجهي. قبضت عليها، وأمسكتها بأصابعي بضع لحظـات، ثم تركتهـا تطير من النافذة. ودخلت عربة شـحن إلـى فناء المنزل مقرقعـة. وكان أجير خياط يغني ملء حلقه (منذ مدة طويلة) بقرب نافذته في زاوية من الفناء. كان يعمل وكنت أسـتطيع أن أراه من مكاني. خطر ببالي أن أحداً لم يلقني حين اجتزت الفناء وصعدت السلم، فمن الأفضل حتماً إذًا أن لا يلقانـي أحـد كذلك حين أخرج. لذلك أبعدت كرسـيَّ عـن النافذة بحذر، وجلست بحيث لا يستطيع الجيران أن يروني. آه... ما كان أحقرني! تناولت

كتاباً، ثم رميته، وأخذت أرقب حركات عنكبوت صغير أحمر كان على ورقة نبتـة من النباتات التي تزين النافذة. ونسـيت نفسـي خلال لحظـة من الزمن. لكنني أتذكر اليوم كل شيء.

"استللت سـاعتي بسـرعة ونظرت فيهـا. كان قد مضى علـى خروجها ثلاثـون دقيقة. لكنني قررت أن أنتظر ربع سـاعة أخرى تماماً.أمهلت نفسـي هـذه المـرة. خطر ببالي أن مـن الممكن أن تكـون قد رجعت ولم أسـمعها. ولكن هذا كان مستحيلاً. الصمت الآن يشبه صمت الموت، فلو طارت ذبابة لكنت سمعتها. وفجأة جعل قلبي يخفق خفقاناً شديداً مرة أخرى. نظرت في سـاعتي: لا يزال هناك ثلاث دقائق. بقيت جالسـاً رغم أن قلبي خفق خفقاناً موجعاً. ونهضت أخيراً، فوضعت قبعتي على رأسي، وعقدت أزرار معطفي، وفحصت الغرفة: هل خلفت فيها أي أثر يدل على أنني مررت فيها؟ وقربت الكرسـي من النافذة ووضعتـه في المكان الذي كان فيه عنـد وصولي تماماً. وأخيـراً فتحت البـاب، ثم أقفلته بالمفتـاح في رفق، واتجهـت نحو الحجرة الصغيـرة. كان بابهـا مغلقاً، لكنه لـم يكن مقفلاً بالمفتـاح. كنت أعرف ذلك حق المعرفة، غير أنني لم أشأ أن أفتحه. نهضت على رؤوس أصابع القدمين ونظرت من شـق في أعلى الباب. وفي تلك اللحظة نفسـها التي انتصبت فيها على رؤوس أصابع القدمين تذكرت أنني حين كنت جالساً بقرب النافذة أنظر إلى العنكبوت كنت أتصور في الواقع كيف سـأنتصب على رؤوس الأصابع وكيف سـأنظر من شـق الباب كما أفعل الآن. أذكر هذا الأمر التفصيلي لأنني أحـرص علـى أن أبين أنني كنـت مالكاً قـواي العقلية بكاملها، وأنني لسـت مجنوناً البتة وأنني مسؤول عن أفعالي. نظرت من شق الباب مدة طويلة، لأن الحجـرة كانـت مظلمة. لكن الظلام فيهـا لم يكن ظلاماً تاماً، فاسـتطعت أن أرى ماكنت أريد أن أراه...

قلـت لنفسـي حينذاك إنني أسـتطيع أن أمضـي، وهبطت السـلم. لم ألتق بأحد. ولـم يستطع أحد إذًا أن يدلي بأقوال تشهد علي في ما بعد. وما انقضت ثلاث سـاعات حتى كنا في بيتي نلعب جميعاً بالورق ونحتسـي الشاي. كان لبيادكين يقرأ أشـعاراً ويروي أنواعاً من الأقاصيص، ويحكي نكات مضحكة

بمصادفة يشبه أن تكون عمداً، وذلك بدلاً من السخافات التي كان يغمرنا بها في العادة. وكان كيريلوف حاضراً كذلك. ولم يكن أحد يشرب خمرة، رغم أن زجاجة من الروم كانت على المائدة. لبيادكين وحده شرّف الزجاجة وقال بروخورمالوف: "حين يكون نيقولاي فسيفولودوفتش مسروراً رائق المزاج فإن عصبتنا كلها تكون مرحة، وتجيد الحديث." لاحظت أنا هذه الجملة. لقد كنت إذًا مرحاً مسروراً، رائق المزاج، وكنت أقول أشياء مسلية. لكنني أتذكر أنني كنت أعلم كل العلم أن فرحي بالخلاص يقوم على حقارة دنيئة، وأنني لن أستطيع بعد اليوم أن أشعر بأنني نبيل، لا على هذه الأرض، ولا في حياة أخرى، أبداً. شيء آخر أيضاً: لقد أدركت في تلك اللحظة معنى المثل اليهودي: "المرء لا يشم نتانة رائحته". كنت أشعر شعوراً كاملاً بأنني شقي، ولكنني لم أكن أحس من ذلك بخجل، وكنت على وجه الإجمال لا أتكلم كثيراً. وفي تلك اللحظة، بينما كنت أحتسي الشاي وأثرثر مع عصبتي إنما استطعت أن أدرك إدراكاً واضحاً جداً، أول مرة في حياتي، أنني لا أفهم "الخير" و"الشر" ولا أحسهما، وإنني لم أفقد الشعور بهما فحسب، بل إن الخير في ذاته والشر في ذاته لا وجود لهما (وقد أمتعني هذا كثيراً)، وإنهما ليسا إلّا وهمين من الأوهام الاجتماعية، وأنني أستطيع حتماً أن أتحرر من كل وهم اجتماعي، ولكنني إذا بلغت هذه الحرية فقد هلكت. أدركت ذلك كله أول مرة، في صيغة واضحة، أمام مائدة الشاي تلك، بينما كنت أمزح وأضحك مع رفاقي لا أدري بأية مناسبة. ولكنني أتذكر كل شيء. إنه يتفق كثيراً لأفكار قديمة يعرفها جميع الناس، أن تظهر جديدة طريفة على حين فجأة.

ومع ذلك لم أنقطع عن انتظار شيء ما. وفعلاً، في نحو الحادية عشرة من المساء، رأيت ابنة البواب التي أرسلتها صاحبة بيتي في جوروخوفايا، رأيتها راكضة نحوي لتقول لي إن ماتريوشا شنقت نفسها. فتبعت الفتاة، واستطعت أن أعرف أن صاحبة البيت كانت هي نفسها لا تدرك لماذا استدعتني. كانت تنتحب وتصرخ كما يفعل أمثال هؤلاء الناس في مثل هذه الظروف. وكان هناك ناس كثيرون، وكان هناك شرطة. قضيت لحظة ثم انصرفت.

لـم يزعجنـي أحد في هـذه القضية. ومـع ذلك ألقيت علي بضعة أسـئلة. ولكننـي لـم أزد علـى أن البنت كانت مريضـة، وأنها كانت فـي حالة هذيان، وأننـي اقترحت اسـتدعاء طبيب على نفقتـي. وحدثوني أيضاً عـن المطواة، فقلت إن صاحبة البيت قد جلدت ابنتها، ولكن ذلك ليس له شأن. ولم يعرف أحد أنني عدت في المساء. وهكذا انتهت المسألة.

خلال أسـبوع كامل، امتنعت عـن العودة إلى جوروخوفايـا ثم لـم أذهب إلـى هناك إلّا لأفسـخ إيجـاري. كانت صاحبـة البيت لا تزال تـذرف دموعاً غزيـرة (وإننـي لأتذكر أنني امتعضـت من ذلك)، ولكنها كانت قد اسـتأنفت عملهـا، الخياطة. وقالت لي بدون كبير لوم: "بسـبب مطواتـك إنما أهنتها". وقد دفعت لها حسـابي بحجة أنني لا أسـتطيع أن أسـتقبل لينا سـافليفنا بعد اليوم في مسـكنهم. وأثناء وداعنا أخذت تطري نينا سافليفنا كثيراً من الإطراء أيضـاً. وأهديـت إليها خمسـة روبـلات زيادة على مـا كنت أدين لهـا به كراء للغرفة.

كنـت فـي ذلـك الأوان أعاني ضجراً يـكاد يكون قاتـلاً. وكان يمكن بعد زوال الخطر أن أنسـى قضية جوروخوفايا نسـياناً كاملاً كسـائر أحداث تلك الفتـرة لـولا أننـي كنت من حين إلـى حين أتذكـر الرعب الذي أحسسـت به فأشـعر بحنق شـديد، وأصب غضبي على من يعرض لي مصادفة. وفي ذلك الأوان إنمـا خطـر ببالـي ـ ولكـن مـن دون أي باعث ـ أن أفسـد حياتي أغبى إفسـاد ممكـن. كنت قبل ذلك بسـنة أفكر في إطلاق الرصاص على رأسـي. ولكن وسـيلة أفضل من تلك الوسـيلة كثيراً تعرض لـي الآن. ففي ذات يوم، رأيت ماريا تيموفئفنا ليبادكين، العرجاء، منهمكة في خدمة البيت فسـاورتني هـذه الفكـرة، وهـي أن أتزوجها. لم تكن قـد أصبحت مجنونة بعـد، ولكنها كانت بلهاء نشوى دائماً، وقد اكتشف رفاقي أنها كانت تحبني في الخفاء حباً جنونياً. إن فكرة زواج يتم بين رجل من آل سـتافروجين وبين هذه المخلوقة الشوهاء قد أثارت أعصابي إثارة لذيذة. لا يمكن أن يتصور المرء شيئا أسخف من هذا ولا أغبى ولا أدعى إلى الضحك. لكنني لا أستطيع أن أعرف هل كان قـراري الـذي اتخذته يرجع ولو على غير شـعور مني (على غير شـعور، هذا

أكيد) إلى الحنق الذي ملأني به حقداً على نفسي ذلك الخوف الوضيع الذي شعرت به في قضية ماتريوشا. حقا إنني لا أتصور هذا. مهما يكن من أمر فإن هذا الزواج لم يكن فقط "ثمرة رهان تم بعد عشاء تخلله شراب كثير". وقد كان "شهودي" كيريلوف وبطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي الذي كان ماراً يومئذ ببطرسبرج، ثم لبيادكين نفسه، وبروخورومافلوف (الذي توفي بعد ذلك). وعدا هؤلاء لم يعلم أحد بشيء، وقد قطعوا لي على أنفسهم عهد الشرف ليكتمن الأمر. إن هذا الكتمان قد بدا لي دائماً دناءة. ولكن السر لم يكشف حتى الآن، ولم أكن عازماً على أن أعلن كل شيء. فأنا الآن أعلن إذاً هذا الزواج. وبعد الزواج ذهبت إلى أمي في الريف. إنني أذهب إلى هناك لأسري عن نفسي، لأن الحياة أصبحت في نظري لا تطاق. وقد أحس الناس في مدينتنا بأنني مجنون، ولا يزال هذا الإحساس قائماً في نفوسهم إلى الآن، وذلك أمر قد يؤذيني كثيراً، كما سأشرح ذلك. وسافرت بعدئذ إلى الخارج وغبت أربع سنين.

زرت الشرق، وشهدت على جبل آثوس قداديس دينية كانت تدوم ثماني ساعات. وذهبت إلى مصر، وإلى سويسرا، وحتى إلى آيسلاندا. وتابعت خلال سنة من السنين محاضرات جامعة غوتنغن. وفي أثناء السنة الأخيرة من إقامتي في الخارج أصبحت بباريس صديقاً لأسرة روسية رفيعة المنزلة، وأصبحت بسويسرا صديق فتاتين روسيتين. وحين مررت بمدينة فرنكفورت منذ سنتين أبصرت في واجهة إحدى المكتبات، بين صور فوتوغرافية كثيرة، صورة بنت أنيقة الملابس، لكنها تشبه ماتريوشا كثيراً. اشتريت الصورة فوراً، حتى إذا عدت إلى الفندق وضعتها على المدفأة. وظللت لا ألمسها أسبوعاً بكامله، بل إنني لم ألق عليها نظرة واحدة، وحين غادرت فرنكفورت نسيت أن آخذها.

إنني أذكر هذه الواقعة لأبين مدى ما كنت أتمتع به من قدرة على السيطرة على ذكرياتي، ومدى ما كنت أتصف به من عدم الاكتراث بها. كنت أنبذها كلها في آن معاً، دفعة واحدة، وكانت كتلتها كلها تغيب فوراً متى أردت ذلك. كان يضجرني دائماً أن أتذكر الماضي، ولم أستطع في يوم من الأيام

أن أتحدث عن الماضي طويلاً كما يفعل جميع الناس تقريباً. وفي ما يتعلق بماتريوشا، نسيت حتى صورتها على المدفأة.

منذ سنة، في الربيع، بينما كنت مسافراً إلى ألمانيا، تجاوزت من ذهولي المحطة التي كان يجب أن أنزل فيها لأركب قطاراً آخر. وتوقفت في المحطة التي بعدها. كانت الساعة هي الثالثة بعد الظهر. وكان النهار واضحاً نيراً. هي مدينة ألمانية صغيرة جداً. دلوني على فندق. كان ينبغي أن أنتظر: إن القطار التالي لا يصل إلّا في الساعة الحادية عشرة من المساء. سرتني هذه المغامرة، فلا شيء كان يحضني على السرعة. الفندق سيئ صغير، ولكنه محاط من جميع الجوانب بأشجار وأحواض أزهار. أُعطيت غرفة صغيرة ضيقة. وأصبت غداء طيباً. ولأنني كنت قد قضيت الليل كله في القطار فقد نمت نوماً عميقاً حتى الساعة الرابعة بعد الظهر.

رأيت حلماً لا أتوقع أن أرى مثله البتة. ذلك أنني لم يسبق لي أن رأيت أحلاماً كهذه الأحلام. إن أحلامي تكون سخيفة أو رهيبة على الدوام. كان متحف درسدن يضم لوحة للرسام كلود لورين عنوانها "آسيس وغالاتيه" في ما أظن. وكنت أنا أسميها "العصر الذهبي"، لا أدري لماذا! كنت قد لاحظت هذه اللوحة منذ مدة طويلة، وكنت قد رأيتها مرة أخرى منذ ثلاثة أيام. بل لعلني ما ذهبت إلى درسدن إلّا لهذا الغرض. فهذه اللوحة هي ما رأيته في الحلم، ولكنني لم أره في الحلم لوحة، وإنما رأيته واقعاً كان، كما هو في اللوحة، ركنّا من الأرخبيل اليوناني، وكنت أنا فيما يبدو قد تقهقرت في الزمان أكثر من ثلاثة آلاف عام. أمواج زرق لعوب، جزر وصخور، شطآن مزدهرة. وفي بعيد، منظر فاتن، منظر نداء الشمس الغاربة... إن الألفاظ عاجزة عن وصف ما رأيت. ههنا مهد الإنسانية. أفعمت هذه الفكرة نفسي بحب أخوي. هذه هي الجنة الأرضية. الآلهة تنزل من السماء وتتحد بالبشر. هنا جرت أول مشاهد الأساطير الإغريقية. هنا كانت تعيش إنسانية جميلة. البشر يستيقظون وينامون سعداء أبرياء. الغابات تدوي بأغانيهم الجذلى. فائض قواهم الغزيرة ينسكب حباً وفرحاً بريئاً. وكنت أنا أحس هذا، وأدرك في الوقت نفسه المستقبل العريض الذي ينتظرهم ولا يخطر لهم ببال، فقد

كان قلبي يرتعش لهذه الأفكار. آه... ما كان أعظم سعادتي بأن قلبي يرتعش، وبأنني أصبحت قادراً على أن أحب في آخر الأمر! كانت الشمس تسكب أشعتها على الجزر وعلى البحر وتبتهج بأبنائها الجميلة. رؤيا رائعة! رؤيا بديعة! حلم هو أبعد الأحلام استحالة، ولكن الإنسانية وهبت له جميع قواها، وضحّت من أجله بكل شيء. باسمه مات بعضهم على الصليب، وفي سبيله قتل الأنبياء، وبدونه لا تود الشعوب أن تحيا، ومن غيره لا تستطيع حتى أن تموت. وهذا كله قد عشته في حلمي. لا أدري على وجه الدقة ماذا رأيت. الأصح أن الأمر كان إحساساً لا رؤيا. غير أن الصخور والبحر والأشعة المائلة التي كانت ترسلها الشمس الغاربة ـ ذلك كله كان لا يزال يبدو لي أنني أراه حين استيقظت وفتحت عينيَّ اللتين كانتا مبتلتين بالدموع أول مرة في حياتي. إن الإحساس بسعادة مجهولة قد شق قلبي، حتى لقد كنت من ذلك في ألم. وكان الوقت مساء. ومن خلال خضرة الأزهار التي كانت تزيّن النافذة، كانت الشمس ترشق غرفتي بحزمة مائلة من أشعة حارة، وتغسلني بالضياء. أسرعت أغمض عيني كأنني أحاول أن أستعيد الحلم الغائب ولكنني ما لبثت أن ميزت فجأة في وسط الضوء الساطع القوي نقطة صغيرة حمراء. على هذا النحو إنما بدأ الأمر. وفجأة تذكرت العنكبوت الأحمر الصغير. رأيته كما سبق أن تأملته فوق ورقة الزهر بينما كانت الشمس تلقي أشعتها المائلة في تلك اللحظة. نفذ في نفسي شيء حاد. نهضت جالساً على السرير. هكذا تماماً جرت الأمور.

رأيت أمامي (أوه! لا في الواقع! وليت ذلك كان شبحاً يمكنني أن أخاطبه) رأيت ماتريوشا مهزولة محمومة العينين، تماماً كما كانت حين وقفت في عتبة غرفتي، وهزّت رأسها وهددتني بإصبعها الصغيرة. ما من شيء آلمني في حياتي يوماً كما آلمني هذا. يأس يثير الشفقة ويبعث على الأسى، لدى مخلوقة صغيرة عاجزة لا يزال عقلها لا شكل له، تهددني (بأي شيء؟ ماذا كانت تستطيع أن تصنع بي؟) ولكنها حتما لا تتهم إلّا نفسها. لم يسبق أن حدث لي شيء شبيه بهذا في يوم من الأيام. لبثت جالساً طوال الليل لا أتحرك، فاقداً إحساسي بالزمن. أود الآن لو أشرح لنفسي ما جرى، بأقصى

وضوح ممكن. أكان هذا ما يسمى عذاب الضمير، والندامة؟ ما زلت أجهل ذلك حتى اليوم. والشيء الذي لا أطيق احتماله الآن، إنما هو تلك الرؤية، رؤية البنت في عتبة الباب، رافعة قبضة يدها الصغيرة، مهددة متوعدة. تلك هي الدقيقة التي تعذبني، لا ما قبلها ولا ما بعدها. لا شيء إلّا مظهر البنت في تلك اللحظة، لا شيء إلّا تلك اللحظة، لا شيء إلّا هزّ البنت رأسها على تلك الصورة. إن تلك الحركة، حركة التهديد عينها، أصبحت لا تبدو لي الآن مضحكة بل فظيعة. إنني أحس نحو البنت بشفقة حادة، شفقة تذهب بعقلي وتجعلني كالمجنون. وإني لمستعد أن أسلم جسمي لجميع أنواع التعذيب في سبيل أن لا يكون قد حدث ذلك الأمر في ذلك اليوم. ليست جريمتي هي ما آسف له وأندم عليه، لا ولا موت الطفلة. ولكن تلك اللحظة، تلك اللحظة بعينها، هي ما يستحيل علي احتماله استحالة مطلقة، لأنني منذ ذلك الحين أصبحت تظهر لي كل يوم، وأنا أعلم الآن علم اليقين أنني هالك. هي لا تظهر لي من تلقاء ذاتها، وإنما أنا أستحضرها، ولكن يستحيل علي ألا أستحضرها، رغم أن هذا يجعل حياتي مستحيلة. آه... ليتني أستطيع أن أراها مرة أخرى في الواقع، ولو هلوسة! أود لو تنظر إلي ولو مرة واحدة، كما فعلت في ذلك اليوم، بعينيها الواسعتين المحمومتين، أود لو تحدّق إلى عينيّ... فترى فيهما... آه!... ما أغبى هذا الكلام! فلن يحدث هذا في يوم من الأيام!

لماذا لا توقظ في نفسي أية ذكرى من ذكرياتي شيئاً شبيهاً بهذا؟ ما أكثر ذكرياتي مع ذلك... بل إن بينها ذكريات أسوأ من تلك في نظر الإنسان. ومع ذلك لا توقظ في نفسي إلّا شيئاً من كره في أسوأ تقدير، وهو من جهة أخرى كره تولّده حالتي الراهنة. كنت في الماضي أنسى تلك الذكريات بهدوء كامل، وأبعدها جميعاً، وكنت أنعم باطمئنان أصطنعه اصطناعاً.

ظللت بعد ذلك أطوف سنة كاملة، محاولاً أن أشغل نفسي. أنا أعلم أنني ما زلت أستطيع أن أنحي صورة البنية حين أريد. إنني سيد إرادتي، لي عليها سلطة كاملة، كما كنت دائماً. ولكن المسألة كلها هي أنني لم أشأ أن أفعل ذلك في يوم من الأيام، وإنني في قرارة نفسي لا أريد ذلك ولن أريده.

وسيدوم هذا إلى أن أجن جنوناً تاماً.

في سويسرا، بعد شهرين (لعل ذلك كان رداً من الجسم الذي كان يكافح رغم كل شيء من أجل أن يحيا)، اعترتني من جديد نوبة من نوبات الهوى العارم، أو انتابتني سورة شبيهة بتلك السورات المجنونة التي عرفتها في شبابي. لقد شعرت بانجذاب إلى اقتراف جريمة جديدة هي أن أتزوج امرأة ثانية فوق زوجتي (ذلك أنني كنت متزوجاً)، لكنني لذت بالفرار عملاً بنصيحة فتاة أخرى أفضيت إليها بأمري، وإنني على وجه الإجمال لا أستطيع أن أحب أحداً قط، وأن نفسي لا يعتمل فيها شيء غير الشهوة. مهما يكن من أمر، فإنني لو اقترفت تلك الجريمة الجديدة لما كان يمكن أن تخلصني من ماتريوشا أبداً.

لذلك قررت أن أطبع هذه الصفحات، وأن أدخل منها إلى روسيا ثلاثمائة نسخة. فمتى حان الحين، أرسلتها إلى الشرطة، إلى السلطات المحلية. بل إنني سوف أرسلها في الوقت نفسه إلى إدارات تحرير جميع الصحف راجياً منها أن تنشرها، كما سوف أرسلها أيضاً إلى معارفي الكثيرين في بطرسبرج وفي روسيا كلها. وسوف تنشر هذه الصحائف مترجمة في الخارج.

أنا أعلم أنني قد لا يزعجني القضاء، أو أنني قد لا يزعجني كثيراً. فأنا أتهم نفسي، ولا أحد يتهمني. وعدا ذلك ليس هناك أدلة، أو ليس هناك إلّا أدلة قليلة جداً. ثم إن كثيراً من الناس يعتقدون أنني مختل العقل. ومن المؤكد أن أهلي سيبذلون جهودهم ليستفيدوا من هذا الرأي، وليلغوا بذلك كل ملاحظة قضائية خطرة. أقول ذلك لأبرهن برهاناً جديداً على أنني أملك عقلي كاملاً، وإنني أدرك الوضع الذي أنا فيه. ومع ذلك سيبقى هنالك الناس الذين سيعرفون كل شيء، وسينظرون إلي، وسأنظر إليهم أيضاً. أريد أن ينظر إليّ جميع الناس. ترى هل يخفف هذا عني؟ لا أدري! ولكن ذلك أملي الوحيد.

مرة أخرى: إذا أحسن البحث في محفوظات شرطة بطرسبرج، فقد يكتشف شيئ ما. لعل تلك الأسرة لا تزال في بطرسبرج. وسوف يُتذكر المنزل حتماً: لقد كان لونه أزرق شاحباً. أما أنا فلن أبتعد، وسأقيم في

سكفورشنيكي، الأطيان التي تملكها أمي، سنة أخرى أو سنتين أخريين. وإذا طلب مني أن أحضر إلى أي مكان، فسأحضر.

"نيقولاي ستافروجين"

دامت القراءة قرابة ساعة. كان تيخون يقرأ قراءة بطيئة، بل لعله كان يعيد قراءة بعض الفقرات. ومنذ الانقطاع الذي أحدثه ستافروجين إذ نحى الصحيفة الثانية جانباً، كان ستافروجين يجلس ساكناً صامتاً، مستنداً بظهره إلى مسند الديوان، وكان يبدو عليه الانتظار. نزع تيخون نظارتيه عن عينيه، وتلبث لحظة، ثم ألقى على ستافروجين نظرة مترددة. فارتعش ستافروجين، ومال بحركة سريعة إلى أمام.

قال بلهجة مباغتة جافة:

ـ نسيت أن أنبهك إلى أن جميع أقوالك ستكون عبثاً لا طائل منه. إنني لن أغير ما عقدت عليه نيتي. فلا تضيع وقتك محاولاً أن تثنيني عن عزمي. سوف أطبع هذه الصحائف.

واحمر وجهه وصمت.

ـ لم يفتك أن تنبهني إلى ذلك قبل القراءة.

كان في لهجة تيخون شيء من حنق. وواضح أن "الوثيقة" قد أحدثت في نفسه أثراً قوياً. لقد جُرح شعوره المسيحي، وهو لا يقدر دائماً أن يسيطر على نفسه. يجب أن ألاحظ في هذه المناسبة أن السمعة التي اكتسبها، وهي "أنه لا يحسن التصرف مع الناس"، كما كان يقول عنه الرهبان، لم تكن باطلة. فرغم كل ما يملكه من روح المحبة كان في صوته استياء واضح.

تابع ستافروجين كلامه بلهجة قاطعة، من دون أن يلاحظ ما طرأ على تيخون من تغير، فقال:

ـ طيب. إنني لن أعدل عما عقدت النية عليه مهما تكن حججك قوية. لاحظ أنني حين أقول هذه الجملة البارعة ـ أو الخرقاء إن شئت ـ لا يخطر ببالي أن أتخذها وسيلة لإثارة حججك واستدراج رجائك.

قال ستافروجين هذه الكلمات الأخيرة وضحك ضحكة ساخرة.

قال تيخون:

ـ لا أستطيع أن أناقشك ولا أن أطلب منك العدول عما عزمت عليه. إن ما تنتويه شيء نبيل جداً، ومن المستحيل أن يعبر المرء عن فكرة مسيحية حقاً، تعبيراً أفضل. إن الكفارة لا يمكن أن تمضي إلى أبعد من هذا: إنه لعمل رائع أن يعاقب المرء نفسه كما تنتوي أن تفعل، إذا...

ـ إذا؟

ـ إذا كان ذلك كفارة حقاً، إذا كان فكرة مسيحية فعلاً.

ـ دمدم ستافروجين يقول واجماً ذاهلاً:

ـ هذه حذلقات...

ونهض وأخذ يذرع الغرفة ذاهباً آيباً، حتى من دون أن يلاحظ ما يفعل. وتجرأ تيخون فقال:

ـ يبدو لي أنك تعمدت أن تصور نفسك أسوأ من حقيقتك، وأسوأ مما يريد قلبك أن تكون.

ـ أصور نفسي؟ أنا "لم أصور نفسي"، أنا لم أكن ألعب. "أسوأ"! ما معنى كلمة "أسوأ" هذه؟

واحمر وجهه من جديد. وأحنقه ذلك. فقال مشيراً إلى الصحائف:

ـ أنا أعلم أن هذا أمر صغير، تافه، حقير، ولكن يجب أن يدفع صغاره نفسه إلى تعمق...

وأمسك عن إتمام كلامه فجأة كأنه خجل أن يستمر، وكأنه رأى أن من المذلة أن يسترسل في شروح. ولكنه في الوقت نفسه كان ينصاع انصياعاً أليماً، ولو على غير شعور منه، لضرورة أن يشرح ما بنفسه. يجب أن نلاحظ أنه ما من كلمة قيلت عن احتجاز الصحيفة الثانية. فكأن هذه الصحيفة الثانية قد نسيها الرجلان كلاهما. وكان ستافروجين قد توقف بقرب مائدة الكتابة وها هو ذا يتناول عن المائدة صليباً من عاج، ويأخذ يقلبه بين أصابعه، ثم إذا هو يكسره نصفين على حين فجأة. واعترته عندئذ دهشة، وثاب إلى رشده، فألقى على تيخون نظرة مضطربة حائرة. ولكن شفته العليا أخذت تختلج بغتة، كأنه أهين، وكأنه يتهيأ لأن يرشق خصمه بتحد متكبر. قال بصوت خافت، كأنه يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يسيطر على نفسه:

ـ كنت أفترض أنك ستقول لي شيئاً فيه جد. ومن أجل هذا إنما جئت.

ورمى حطام الصليب على المائدة.

فأسرع تيخون يخفض عينيه. وقال يسأل ستافروجين بإلحاح ربما يشبه أن يكون حماسة حارة:

ـ إن هذه الوثيقة تعبر تعبيراً مباشراً عن حاجة قلب يشكو من جرح قاتل. أليس هذا ما يجب أن أفهمه؟ نعم، إنه الحاجة الطبيعية إلى التوبة والكفارة. لقد استولت عليك هذه الحاجة. فالألم الذي سببته للمخلوقة التي آذيتها وأهنتها قد بلغ من التأثير فيك أن المسألة عندك الآن أصبحت مسألة حياة أو موت: فلا يزال هناك إذاً أمل لك، وأنت تسير في الطريق القويم إذ تهيئ نفسك لقبول العقاب والعار أمام جميع الناس. وإنك تحتكم إلى الكنيسة، وإن كنت لا تؤمن بالكنيسة. هل صدق فهمي؟ ولكن يبدو أنك منذ الآن تكره وتحتقر جميع أولئك الذين سيقرأون هذا النص. يبدو أنك تتحداهم.

ـ أنا؟ أتحدى؟

ـ نعم، تخجل، وتخاف.

ـ أخاف؟

قال ستافروجين ذلك وضحك ضحكة متشنجة، وعادت شفته العليا تختلج. أجاب تيخون:

ـ أنت تقول: ألا فلينظروا إلي! ولكن كيف عساك تنظر أنت إليهم! إنك منذ الآن تنتظر كرههم لترد عليه بكره أكبر منه. إنك كمن يتباهى بسيكولوجيته، وإنك تستفيد من أتفه الأشياء لتدهش القارئ بانعدام إحساسك، وشدة استخفافك واستهتارك وما إلى ذلك مما قد لا يكون له وجود في نفسك. ومن جهة أخرى فإن الأهواء الفاسدة والفراغ والبطالة قد جعلتك فعلاً منعدم الإحساس وغبياً.

قال ستافروجين وهو يضحك ضحكاً ساخراً وقد اصفر وجهه:

ـ ما الغباء برذيلة.

فعقب تيخون قائلاً بحرارة وجزم:

ـ بل هو رذيلة أحياناً. إنك وقد جرحتك رؤية البنت في عتبة الباب جرحاً

قاتـلاً، تبـدو في هذا النص مع ذلـك كمن لا يدرك ماذا يجـب أن يخجله من النـاس الذيـن يحتكم إليهم: أهو انعدام إحساسـه في الجريمـة أم هو الرعب الـذي اعتـراه؟ حتـى إنك في لحظـة من اللحظات تسـرع مؤكـداً لقارئك أن حركـة التهديد التـي أجرتها البنت أصبحـت لا تبدو لك مضحكـة بل قاتلة. ولكـن هل صحيح أنها أمكن أن تبدو لـك مضحكة حقاً، ولو لحظة واحدة؟ نعم، لقد بدت لك كذلك، أشهد بهذا.

وصمت تيخون. كان يتكلم كامرئ عدل عن السيطرة على نفسه.

استحثه ستافروجين قائلاً:

ـ تكلّم، تكلّم. إنك حانق... وإنك تؤنبني. يعجبني هذا من راهب. ولكن إليك ما يدهشني: إننا نتناقش في أمر هذه الصحائف منذ عشر دقائق. ولست أرى فيك رغم تأنيبك أية علامة على الاشـمئزاز والشـعور بالعار. إنك لست مشمئزاً، وإنك تكلمني كلام الند للند.

كان سـتافروجين قد خفض صوتـه. وكأن هذه الكلمـات "تكلمني كلام النـد للند" قد انبجسـت من بين شـفتيه من دون أن يفكر فـي ذلك. فنظر إليه تيخون بانتباه. وقال بعد صمت:

ـ إنك تدهشني، لأن أقوالك صادقة. أنا أرى ذلك. وفي هذه الحالة أكون أنـا المذنـب في حقك. فاعلم إذًا أنني كنت فظاً قليل الأدب، وكنت مشـمئزاً متقززاً، ولكنك من شدة ظمئك إلى التوبة لم تلاحظ ذلك رغم أنك لاحظت نفـاد صبري وهو ما سـميته أنـت تأنيباً. غير أنك تعد نفسـك جديـراً باحتقار أعمـق مـن ذلك إلى غيـر نهاية، ولقد كانـت الكلمات التي نطقـت بها بدون إرادة منـك حيـن قلت "كلام الند للنـد" كلمات طيبة جميلـة. لا أكتمك أنها ترعبني، هذه القوة الكبيرة العقيمة التي لا تسعى إلى غير التحقق في دناءات. ليـس يتحول المرء إلى أجنبي بغير سـبب: إن ثمة عقابـاً يطارد جميع أولئك الذيـن ينفصلـون عن أرضهم، وإن الضجر والسـأم والبطالة تحاصرهم حتى ولـو أرادوا أن يعملـوا. ولكـن المسـيحية تقبل المسـؤولية مهما تكـن البيئة التـي يعيـش فيها المـرء. إن الله لـم يحرمنـا من الذكاء. فكر أنت نفسـك: إذا كنت تسـأل نفسك أأنا مسؤول أم غير مسؤول عن أعمالي، فمعنى ذلك أنك

مسؤول ضرورة. يستحيل أن لا تتسلل الغواية إلى هذا العالم، ولكن ويل للذي به تتسلل. على كل حال، في ما يتعلق بخطيئتك، فإن كثيرين يفعلون ما فعلت، ولكنهم يظلون يعيشون في سلام وهدوء، حتى لتراهم يعدون خطيئات سن الشباب هذه أموراً لا مفر منها. وهناك شيوخ تفوح منهم رائحة القبر منذ الآن، ومع ذلك تراهم يأثمون ويتأسون عن ذلك مرحين. إن العالم زاخر بهذه الفظاعات. أما أنت فقد شعرت بكل ما في ذلك من عمق، حتى لقد بلغت من هذا درجة نادرة كل الندرة.

قال ستافروجين وهو يضحك ساخراً:

أتراك أخذت تعتبرني بعد قراءة هذه الصحائف؟ إنك أيها الأب المحترم تيخون ـ وقد سمعت هذا عنك ـ لا تصلح أن تكون موجهاً للضمير ومرشداً للوجدان.

كذلك أضاف ستافروين وهو يجبر نفسه على الابتسام إجباراً. وتابع يقول:

ـ إنهم ينتقدونك كثيراً هنا. هم يقولون إنك متى اكتشفت في الخاطئ شيئاً من مذلة وشيئاً من صدق، أعجبت به فوراً، حتى لتكاد تبادر إلى الندم وإذلال نفسك أمام من جاءك... تائباً.

ـ لست مسؤولاً عن هذا مباشرة. ولكن من المؤكد أنني لا أحسن مخاطبة الناس. تلك كانت آفتي دائماً!...

كذلك قال تيخون متنهداً، وقد بلغ كلامه من البساطة أن ستافروجين نظر إليه مبتسماً. وتابع تيخون كلامه وهو ينظر إلى الصحائف:

ـ أما عن هذه فلا شك أن الجريمة التي ارتكبتها لا تفوقها جريمة في شدتها وفظاعتها.

قال ستافروجين بعد صمت لا يخلو من الغضب:

كفانا قياسًا بالأركين. لعل عذابي ألا يكون قوياً إلى الحد الذي وصفته هنا.

وختم كلامه فجأة:

ـ ولعلني كذلك قد أسرفت في اتهام نفسي.

لم يقل تيخون شيئاً. وكان ستافروجين يسير في الغرفة طولاً وعرضاً، خافضاً رأسه غارقاً في تأمله.

وفجأة سأله تيخون:

ـ وتلك الفتاة التي قطعت صلتك بها، أين هي الآن؟

ـ هنا.

وخيم صمت جديد.

وعاد ستافروجين يقول مكرراً ملحاً:

ولعلني كذبت عليك في شأنها. أنا نفسي لا أعرف معرفة واضحة حتى الآن... على كل حال، هبني أستفز الناس بوقاحة اعترافي ـ ما دمت قد لاحظت استفزازي ـ ففيم يهمني هذا؟ ذلك ما يجب. إنهم يستحقون هذا الاستفزاز.

ـ أي أن كرهك لهم أسهل عليك من قبول شفقتهم.

ـ أصبت. أنا لم أعتد أن أكون صريحاً، ولكن ما دمت قد بدأت... معك، فاعلم أنني أحتقرهم كما أحتقر نفسي سواء بسواء، هذا إن لم أحتقرهم أكثر من ذلك، أكثر من ذلك، أكثر بما لا نهاية له. ما من واحد منهم يستطيع أن يكون لي قاضياً... لقد كتبت هذه السخافات لأن ذلك خطر ببالي، كتبتها من باب الاستخفاف والاستهتار. ويجوز كذلك أن أكون قد كذبت لا أكثر، في لحظة اندفاع.

قطع ستافروجين كلامه حانقاً على حين فجأة، واحمر وجهه من جديد خجلاً من أنه تكلم بغير إرادته. واقترب من المائدة مديراً ظهره لتيخون، وأمسك قطعة من الصليب المحطوم.

وقال تيخون يسأله:

ـ أجب عن سؤالي، ولكن بصدق، أجبني أنا وحدي، أو أجب وكأنك تكلم نفسك في خلوة ليلاً: إذا غفر لك واحد من الناس هذا (وأشار إلى الصحائف)، لا واحد من الذين تقدرهم أو تخشاهم، بل شخص مجهول، إنسان لن تعرفه في يوم من الأيام، يغفر لك في صمت، بينه وبين نفسه، أثناء

قراءة اعترافك، فهل يهدئك أن تتصور هذا أم أنت لا تحفل به؟ إذا كان يشق عليك كثيراً أن تجيب عن هذا السؤال من باب الكبرياء، فلا تجب، ولكن فكر فيه بينك وبين نفسك.

قال ستافروجين بصوت خافت:

ذلك يهدئني.

وأضاف يقول بسرعة شديدة، وبصوت يشبه أن يكون دمدمة، ولكن من دون أن يتحول عن المائدة مع ذلك:

ـ إذا غفرت لي فإن غفرانك سيحسن إلي كثيراً.

ـ ولكن على شرط أن تغفر لي أنت أيضاً.

ـ ماذا؟ آ... نعم... هذا تعبيركم في الأديرة. تواضع سيئ! هل تعلم، إن جميع التعابير القديمة التي تستعملونها في الأديرة ليست جميلة البتة. ولكنكم أنتم تتصورونها جميلة جداً.

قال ستافروجين ذلك وانفجر يضحك ضحكاً حانقاً. ثم أضاف يقول فجأة وهو يلتفت:

ـ حقاً لا أدري لماذا أنا هنا. آ... نعم... لقد حطمت... قلي لي: أحسب أن هذا يكلف خمسة وعشرين روبلاً، أليس كذلك؟

قال تيخون:

ـ لا تقلق لهذا الأمر!

ـ أم هو يكلف خمسين؟ لماذا يجب ألا أقلق لهذا الأمر؟ ما الذي يسوغ لي أن أجيء إليك فأكسر لك أشياءك، وعلام تغفر لي هذا التخريب؟ خذ! إليك خمسين روبلاً.

قال ذلك وهو يستل المال من جيبه ويضعه على المائدة. ثم تابع كلامه يقول:

ـ إذا لم تشأ أن تأخذها لك فخذها للفقراء، أو خذها للكنيسة.

كان ستافروجين يهتاج مزيداً من الاهتياج شيئاً بعد شيء. وواصل كلامه:

ـ اسمع. سأقول لك الحقيقة كلها: أريد أن تغفر لي، وأن يغفر لي معك ثان وثالث، أما الجميع فليكرهوني، فليكرهوني.

ـ أأنت قادر على أن تتحمل شفقة جميع الناس بمذلة كاملة؟

ـ لا، لا أقدر على ذلك. لا أريد شفقة من الجميع. ثم إن هذا سؤال خال من المعنى: فهذه الشفقة لا يمكن أن توجد. اسمع. لا أريد الانتظار. سوف أطبع هذه الصحائف. لا تحاول أن تقنعني. لا أستطيع أن أنتظر. لا أستطيع.

كان خارجاً عن طوره.

قال تيخون شبه خجلان:

ـ إنني أخاف عليك.

ـ تخاف علي أن لا أصمد للأمر؟ أن لا أستطيع احتمال كرههم؟

ـ لا، لا كرههم فحسب.

ـ ماذا إذًا أيضاً؟

ـ ... ضحكهم.

قال تيخون ذلك بصوت خافت، وكأنه يقول رغم إرادته.

لم يستطع المسكين أن يكظم ما بنفسه، وأخذ يتكلم في ما كان يحسن السكوت عنه. وكان يعلم حق العلم على كل حال أن الصمت أفضل.

فاضطرب ستافروجين، وظهر القلق في وجهه. قال:

ـ أوجست هذا. إذًا كنت أظهر لك شخصاً مضحكاً أثناء قراءتك "النص"؟ لا تقلق، لا تضطرب، لقد كنت أتوقع ذلك.

كان تيخون قد اضطرب حقاً. وحاول أن يشرح معتذراً بأقصى سرعة، ولكنه لم يزد على أن أفسد الأمر إفساداً أكبر. قال:

ـ لكي يقوم المرء بمثل هذه الأعمال لا بد له من الهدوء النفسي. وحتى في الألم لا بد من الاحتفاظ بقدر كبير من السكينة ورباطة الجأش. وليس الحال كذلك في أيامنا هذه. فالسكينة ورباطة الجأش تعوزان الناس في هذا الزمان. فلا يرى الإنسان في كل مكان إلّا مناقشات ومشاجرات. إن البشر لا يتفاهمون الآن أكثر مما كانوا يتفاهمون في عصر برج بابل...

قال ستافروجين يقاطعه:

ـ هذا الكلام كله ممل مضجر! أنا أعرف هذا الكلام. لقد كرره الناس ألف مرة حتى الآن!...

قال تيخون منتقلاً إلى السؤال رأساً:

ـ على كل حال، لن تبلغ هدفك. إنك من الناحية القضائية لا يمكن أن ينالك أحد تقريباً. ذلك ما سينبهونك عليه قبل كل شيء ساخرين منك متهكمين عليك. وبعدئذ سيحتار كثيرون: من ذا الذي سيفهم الدوافع الحقيقية لاعترافك؟ لسوف يتعمدون ألا يفهمونها، لأنهم يخشون الأعمال التي من هذا النوع. إنهم يستقبلونها في رعب، ويكرهونها وينتقمون: الناس يحبون وحلهم ولا يريدون أن يحرَّك. لذلك سيقبلون الأمر مزاحاً بأقصى سرعة. إذ بالأمازيح إنما ينتصر الناس على مثل هذه الأشياء أسهل انتصار.

قال ستافروجين يستحثه:

ـ تكلم بوضوح. قل كل شيء.

ـ في البداية سيعبرون عن شعورهم بالهول حتماً، ولكن ذلك سيكون أقرب إلى التظاهر منه إلى الصدق، ولن يكون له هدف إلّا إرضاء المواضعات الاجتماعية. لا أقصد أصحاب النفوس الطاهرة النقية: فهؤلاء سوف يرتاعون، لكنهم سيتهمون أنفسهم ويصمتون، فلا يلاحظهم أحد. أما الآخرون، أقصد الناس الذين يختلفون إلى المجتمع، فإنهم لا يخشون إلّا ما يهدد مصالحهم رأساً. فمتى انقضت الدهشة الأولى، ومتى انقضى الارتياع المصطنع الأول، أخذوا يضحكون. فهؤلاء هم الذين سيضحكون. سيبدو لهم جنونك طريفاً شائقاً جداً. ذلك أنهم سيعدونك مجنوناً، مع استمرارهم في تحميلك قدراً من المسؤولية كافياً للضحك عليك. فهل تراك تتحمل هذا؟ ألا يحمل قلبك عندئذ من الكره ما سوف يحطمك تحطيماً؟ ذلك ما أخشاه.

أجابه ستافروجين منزعجاً:

ـ طيب... وأنت... أنت نفسك... إنني ليدهشني أن يكون رأيك في الناس سيئاً إلى هذا الحد من السوء! إنك تحكم عليهم باشمئزاز شديد.

صاح تيخون يقول:

ـ صدّق إنني إذ أقول عن الناس هذا الكلام إنما أحكم عليهم اعتماداً على معرفتي بنفسي خاصة.

ـ أيكون في نفسك إذًا شيء يمكن أن يتلذذ بعذابي؟
ـ من يدري؟ ربما نعم. آ... نعم... جائز جداً.
ـ كفى! قل لي إذًا: ما الذي يبدو لك من وضعي مضحكاً في هذه القصة؟ أنا أعرفه، ولكنني أحب أن تدلني عليه بإصبعك. اذكره لي بأكبر استخفاف ممكن، لأنك إنسان مستخف أعظم الاستخفاف حقاً. إنكم معشر الرهبان مستخفون استخفافاً رهيباً، لا تدرون أنتم أنفسكم مدى ما تحملونه للبشر من احتقار... كلمني بأكبر صدق تقدر عليه. أعود فأقول لك مرة أخرى: إنك إنسان غريب الأطوار جداً.
ـ ثمة شيء مضحك في نظر الناس، بل شيء زائف أيضاً، حتى في ما عقدت عليه نيتك من أمر عظيم، أعني قبولك هذه التوبة الرائعة، ناهيك عن شكل هذه النية، وهو شكل مضطرب متردد غير ثابت ثباتاً كافياً.
وصاح يقول فجأة، وهو في ما يشبه النشوة:
ـ أوه! لا يراودنك شك في انتصارك. لسوف ينتصر هذا الشكل...
قال ذلك وهو يشير إلى الصحائف بيده. وتابع كلامه:
ـ ... ولكن شرط أن ترتضي الصفعات والبصقات صادقاً كل الصدق... وأن تحتملها إلى النهاية. إن أحط صليب ينتهي دائماً بالوصول إلى أعلى مجد، ينتهي بالوصول إلى القوة، متى كانت المذلة صادقة. ولكن أأنت قادر على هذه المذلة؟ يجب أن لا تحتقر قضاتك، وإنما ينبغي أن تثق بهم، وأن تثق بالكنيسة. وعندئذ إنما تنتصر عليهم وتجتذبهم إليك بالقدوة، وتتحد بهم في الحب... آه... ليتك تقدر أن تحتمل كل شيء إلى النهاية.
ـ قل لي ما الذي تراه مضحكاً في هذه الصحائف؟
ـ لماذا، لماذا هذا الاهتمام بالمضحك؟ لماذا هذا المرض لديك؟ كذلك صاح تيخون فجأة وهو يهزّ رأسه.
قال ستافروجين:
ـ دعنا من هذا وقل لي ما هناك من شيء مضحك...
دمدم تيخون يقول خافضاً عينيه:
ـ إن الدمامة هي التي ستقتل.

ـ الدمامة؟ أية دمامة؟

ـ دمامـة الجريمـة. إنها دميمة حقًـا. يمكن القول إن الجريمـة، أيًا كانت، تبـدو أفظـع، ويكون تأثيرهـا أكبر، وتكـون إثارتها أعزم، على قـدر ما يكون قد سـفح فيها من دم. غيـر أن هناك جرائم مخزية، دنيئـة، ترجع فظاعتها إلى حطتها وخستها...

لم يكمل تيخون جملته. قال ستافروجين:

ـ أي أن مـا تـراه مضحـكاً فـي وضعـي هو أننـي قبلت يدي بنـت صغيرة قـذرة... ثم إنني ارتعشـت خوفاً... إلـى آخر ما هنالك. إننـي أفهم عنك كل الفهم. وأنت تخاف علي لأن هذا العمل دميم، رديء، لا، لا رديء، بل مخز، مضحك. وتظن أن هذا بعينه هو ما لن أستطيع احتماله، هه؟

لـم يجـب تيخـون ولبث صامتاً. وشـحب سـتافروجين وتقبـض وجهه. ودمدم يقول كمن يخاطب نفسه:

ـ الآن فهمت لماذا سألتني هل آنسة سويسرا هنا!

أجابه تيخون:

ـ لست مستعداً، لست قوياً قوة كافية.

قال ستافروجين فجأة بحماسة وحشية:

ـ اسـمع، أريـد أن أنـال مغفـرة نفسـي. تلك هي غايتـي الرئيسـية، غايتي الوحيـدة. ذلك هو اعترافي كله، تلك هـي الحقيقة كلها، وما عدا هذا كذب. فمتـى نلت مغفرة نفسـي، زالـت الرؤيا إلّا في ذلك الحين. ذلك هو السـبب فـي توقـي إلى عـذاب لا حدود له، ذلك هو السـبب في أنني أسـعى إلى هذا العذاب.

وصرخ ستافروجين يضيف قوله كأنما على غير إرادة منه:

فلا تثبط همتي، وإلا هلكت غضباً وسخطاً.

ولـم يكن تيخـون يتوقع هذه الاندفاعـة، فها هو ذا ينهـض. ويهتف قائلاً بفرح:

ـ إذا كنت تؤمن بأنك تستطيع أن تغفر لنفسك، وبأنك ستنال غفرانك في هـذا العالـم بالألم، وإذا كنت لا تسـعى إلّا إلى الحصول علـى هذا الغفران،

فأنت إذًا تؤمن إيماناً تاماً. فكيف أمكنك أن تقول إنك لا تؤمن بالله؟

لزم ستافروجين الصمت.

ـ سيغفر لك الله قلة إيمانك، لأنك تقدس الروح القدس من دون أن تعرف ذلك.

قال ستافروجين مكفهر الهيئة:

ـ لن أنال غفراناً. لقد جاء في كتابك إنه ما من جريمة أفدح من إيذاء "طفل من هؤلاء الأطفال الصغار". نعم، في هذا الكتاب.

وأشار إلى الإنجيل.

فأجاب تيخون بلهجة نافذة:

ـ جواباً عن هذا أقول لك: إذا استطعت أن تغفر لنفسك فإن المسيح سيغفر لك أيضاً.. آه.. لا.. لا.. لا تصدقني.. لقد جدّفت. هبْك لم تصالح نفسك ولم تغفر لنفسك فإنه سيعفو عنك لنيتك الحسنة وعذابك الكبير... ذلك إن اللسان البشري تعوزه الكلمات وتعوزه الأفكار للتعبير عن جميع طرق "الحمل" إلى اليوم الذي "يكشف لنا فيه عن تلك الطرق كشفاً كاملاً". من ذا الذي يقدر أن يقيس ما يتجاوز كل قياس؟ من الذي يستطيع أن يفهم عمقه كله؟ وارتعشت أطراف شفتيه كما حدث من قبل، وطافت بوجهه حركة خفيفة شنجته قليلاً. لقد كان جهده عنيفاً مسرفاً في العنف. وخفض عينيه.

تناول ستافروجين قبعته عن المائدة. وقال:

ـ سأرجع في يوم آخر.

كان يبدو مرهقاً. وأردف يقول:

سوف نتكلم مرة أخرى في هذا كله. لقد سعدت بحديثك أكبر السعادة... وإني لأقدر الشرف والاستقامة حق قدرهما... وأقدر عواطفك. صدّق إنني أدرك الآن لماذا يحبك بعض الأشخاص ذلك الحب كله...

سأله تيخون وهو ينهض أيضاً وقد دهش دهشة كبيرة:

ـ أتنصرف؟ وأنا...

وبدا عليه التردد... لكنه أكمل كلامه فقال:

ـ كنت أريد أن أتجه إليك برجاء... ولكني لا أدري الآن هل... إنني أخشى أن...

ـ أرجوك... تفضل...

كذلك قال ستافروجين وعاد يجلس وهو لا يزال ممسكاً بقبعته. فنظر تيخون إلى هذه القبعة وإلى وضع ستافروجين، وهو وضع رجل من رجال المجتمع الراقي، لكنه رجل نصف مجنون. فاضطرب تيخون مزيداً من الاضطراب.

ـ إنني أسألك فقط... أنت تدرك بنفسك يا نيقولاي فسيفولودوفتش (هذا هو اسمك إذا لم أخطئ) أنك إذا نشرت هذه الصحائف كنت تحطم حياتك... كنت تحطم عملك في هذه الحياة... وسائر الأمور الأخرى.

ـ عملي في الحياة؟ ألقى ستافروجين هذا السؤال وصعر وجهه.

قال تيخون بصوت يشبه أن يكون ضارعاً وهو يدرك خراقته تمام الإدراك.

ـ لماذا تحطم كل شيء هذا التحطيم؟

فألمّ بوجه ستافروجين تعبير عن ألم شديد. وقال:

ـ سبق أن قلت لك وها أنا ذا أكرر قولي: إن كلامك كله لا فائدة منه. ثم إن هذا الحديث كله قد أصبح لا يطاق.

وتحرك على مقعده.

ـ إنك لا تفهم عني. أصغ إليّ من دون أن تغضب. إنك تعرف رأيي: إذا كان فعلك هذا ثمرة المذلة فليكوننّ أجمل الأفعال المسيحية متى كنت قادراً على تحمله. وهبك لم تقدر فإن الرب سوف يدخل تضحيتك في الحساب. إن كل شيء سيدخل في الحساب: كل كلمة من كلماتك، كل حركة من حركات نفسك، أيسر فكرة تمر بخاطرك. لكنني أقترح عليك تضحية أخرى، أكبر من تضحيتك هذه أيضاً...

لزم ستافروجين الصمت.

ـ إنك في حاجة إلى عذاب وتضحية. فتغلّب إذًا على هذه الرغبة أيضاً. دع هذه الصحائف، واعدل عن خطتك، فتنتصر عندئذ على كل شيء: تحطم كبرياءك وزهوك، وتسحق شيطانك. سوف تظفر وتبلغ الحرية...

كانت عيناه تسطعان. وضم يديه إحداهما إلى الأخرى توسلاً وضراعة.

قال نيقولاي فسيفولودوفش بأدب ولكنه كان مشمئز الهيئة قليلاً:

ـ إنك تسرف في أخذ الأمر مأخذ الجد، إنك تضفي عليه كثيراً من خطورة الشأن... ثق على كل حال أنني أقدر... أنا ألاحظ أنك تريد أن تمد لي شباكاً، على كونك تضمر أحسن النيات طبعاً، وعلى كونك تريد لي الخير من باب الرأفة والإحسان. إنك تريد، على الجملة، أن أضع لنفسي غاية، بل ربما أن أتزوج أيضاً، وأن أختم حياتي الماضية عضواً في النادي، وأن أجيء إلى الدير في أيام الأعياد. أليس كذلك؟ على كل حال، إنك بصفتك رجلاً عارفًا بالقلب، وبصفتك إنساناً مستخفاً لا يبالي، ربما كنت تتنبأ منذ الآن بأن الأمور ستجري هذا المجرى نفسه، فليس عليك إلّا أن تلح وتتوسل إليَّ بإصرار، لأنني في قرارة نفسي لا أرغب إلّا في هذا. أليس كذلك؟ بل إني لأراهن على أنك فكرت أيضاً في أمي وفي طمأنينتها...

قال ستافروجين ذلك وابتسم ابتسامة ساخرة.

وتابع تيخون حديثه متكلماً بحرارة، من دون أن يولي ضحكة ستافروجين وملاحظاته أي انتباه، فقال:

ـ لا، ليست المسألة هذه التوبة. إنني أُهيئ لك توبة أخرى. إنني أعرف شيخاً ليس هنا ولكنه غير بعيد عنا. إنه ناسك، متقشف، يبلغ من الاتصاف بالحكمة المسيحية درجة لا نستطيع لا أنا ولا أنت أن نتصورها. سوف يستجيب لرجائي. سوف أقص عليه حكايتك كلها. هل تأذن لي بذلك؟ امض إليه، واخضع لسلطته خمس سنوات أو سبعاً، أو المدة التي سيراها ضرورية في ما بعد. افرض على نفسك هذه الكفارة. وبفضل هذه التضحية الكبيرة سوف تنال كل ما أنت ظامئ إليه، بل حتى ما لا تأمل فيه. ذلك أنك لا تستطيع الآن حتى أن تتصور ما سوف تناله.

أصغى إليه ستافروجين بجد كبير. وازدحم الدم في خديه الشاحبين.

أتقترح علي أن أترهب في ذلك الدير؟

لست في حاجة إلى دخول الدير. لا ينبغي أن تترهب. كن مبتدئاً فحسب، في السر لا في العلانية. حتى لتستطيع أن تتابع حياتك في المجتمع.

فقاطعه ستافروجين يقول بنفور:

دعك من هذا أيها الأب تيخون.

ونهض. ونهض تيخون.

صاح ستافروجين يقول فجأة وهو يحدق إلى تيخون بما يشبه أن يكون رعباً.

ـ ما بك؟ كان تيخون واقفاً قدامه، ماداً يديه إلى الأمام، وكان تشنج سريع قد قبض وجهه المروع.

ـ ماذا بك؟ ماذا بك؟ كذلك كرر ستافروجين مندفعاً نحوه ليسنده. لقد بدا له أن الكاهن سيسقط على الأرض.

هتف تيخون يقول بصوت نافد الصبر يعبر عن ألم شديد:

ـ إني أرى... إني أرى بوضوح أيها الشاب الشقي أنك لم تكن في يوم من الأيام أقرب منك الآن إلى ارتكاب جريمة أفظع من الجريمة الأولى!

فقال ستافروجين ملحاً وقد أقلقته حالة تيخون إقلاقاً شديداً:

ـ هدئ نفسك. قد أرجئ كل شيء أخيراً إلى وقت آخر. إنك على حق.

ـ لا، لا بعد النشر، بل قبل النشر، قبل النشر بيوم، قبل هذه التضحية الكبيرة بساعة واحدة، ستبحث عن مخرج في جريمة جديدة، ولن ترتكب هذه الجريمة إلّا لتتحاشى نشر هذه الصحائف.

ارتعش ستافروجين من الغضب، ومن الخوف أيضاً.

وهتف يقول ساخطاً:

ـ يا لعالم النفس اللعين!

وغادر الغرفة من دون أن يلتفت إلى وراء.

دوستويفسكي

الشياطين

ضللنا الطريق فما عسانا فاعلين؟

الشيطان يجرّنا هنا وهناك

ويديرنا إلى كل الجهات

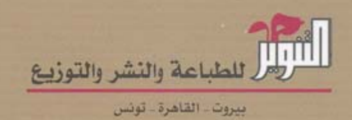
بهذه الأبيات من بوشكين، وبمقطع من انجيل لوقا عن الشياطين التي دخلت في الخنازير يفتتح دوستويفسكي روايته التي يعطيها عنوان "الشياطين".

أما الشياطين فهم أولئك الذين يتصارعون على روسيا وليس من أجلها.

في العام 1871 نشر دوستويفسكي الجزء الأول من روايته هذه، وتلك المرحلة كانت مرحلة الانقسامات والأفكار المتصارعة، حيث تنمو أفكار الاشتراكية، والأفكار التي تدعو إلى التحرّر من سلطة الكنيسة، وحيث سلطة الدولة تبدو أضعف، وروسيا ترى نفسها أقل من ألمانيا وبقية أوروبا.

عبر نماذج يختارها دوستويفسكي بعناية، من المجتمع الروسي، وهي نماذج لشخصيات حقيقية في جزء كبير منها، يقدّم لنا صورة عن المجتمع الروسي في تلك الأيام، وعن النقاشات الواسعة التي كانت تدور حول الأفكار الجديدة، وحول رغبة رؤية روسيا في مصاف الدول الأكثر تحضّراً، وحول حياة الشعب الروسي. وتشكّل المناقشات حول القضايا الأدبية وحول الدين والايمان، وحول الخير والشرّ، والارستقراطية، والديمقراطية، وحرية التفكير، والصراع بين العلم والدين... الخلفية التي يبني عليها دوستويفسكي نماذج شخصياته.





بيروت - القاهرة - تونس